مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ السَّادِسُ والسِّتّون

سورة النَّازِعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ السَّادِسُ والسّتّون

سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَمَاء مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيم بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2026

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والستون،
سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م

الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والستون، سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 66 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-45-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 66 : المجلد السادس والستون، سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-45-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6448894 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الثَّلَاثُونَ

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾
وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾
أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَـٰعًا لَّكُمْ
وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات: 27 - 33]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال من إثبات الألوهية لغير الله إلى ذكر أدلة الإله الحق

لما بيّنتِ الآيات السابقة قصَّة فرعون في إنكارِه الألوهيّة ونسبتها إليه، وكان صنيع المشركين الذين نسبوا الألوهيّة والعبادة والطّاعة للآلهةِ والأصنام شبيهًا بصنيعه من حيث صرف الألوهيّة عن الله تعالى إلى غيره؛ ناسب الانتقال إلى ذكر أدلّة استحقاق الألوهيّة، ممّا يُشاهده النّاس في الكون الفسيح؛ للاستدلال بها على المستحقّ للعبادةِ الحقّة، والاهتداء بها إلى الطريق القويم، والسبيل المستقيم.

ومن وجوه المناسبة أنّ هذه الآيات "انتقال من الاعتبار بأمثالهم من الأمم، الذي هو تخويف وتهديد على تكذيبهم الرسول ﷺ إلى إبطال شبهتهم على نفي البعث، وهي قوله: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾، وما أعقبوه به من التهكم المبني على توهم إحالة البعث، وإذ قد فرضوا استحالة عود الحياة إلى الأجسام البالية؛ إذ مثلوها بأجساد أنفسهم؛ إذ قالوا: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ﴾ جاء إبطال شبهتهم بقياس خلق أجسادهم على خلق السماوات والأرض، فقيل لهم: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَمْكَهَا﴾: (سمك) أصلٌ يدلّ على العلوّ، يقال: سمك؛ إذا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 83.

ارتفع[1]، والسمك: الرفع، وسمكت البيت: رفعته، وقيل للسماوات: مسموكات لارتفاعها[2]، وسمَكَ اللّه السماءَ سَمْكًا: رفعها، وسمكُ البيتِ: سقفُه[3]، والمراد به في الآية الكريمة: سقف السّماء[4].

2) ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾: (سوي) أصلٌ يَدُلُّ على استِقامَةٍ واعتِدالٍ بَينَ شَيئَينِ، واستوى الشيء؛ إذا اعتدل[5]، والسَّوِيُّ: الذي سوّى اللّه خَلقَه، لا دَمامةَ فيه ولا داء[6]، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾ [الانفطار: 7] تسوية الشيء: جعله سواءً، إما في الرفعة أو الصفة، فالمعنى: جعل خلقك على ما اقتضته الحكمة[7]، والمُساواةُ: المعادلة المعتبرة بالذّرع والوزن والكيل، يقال: هذا ثوب مُساوٍ لذاك الثّوب، وهذا الدّرهم مساوٍ لذلك الدّرهم، وقوله: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾، فتَسْوِيَتُها يتضمّن بناءَها، وتزيينها المذكور في قوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ [الصافات: 6][8]، وتعديلها، وجعلها مستوية[9].

3) ﴿وَأَغْطَشَ﴾: (غطش) أَصْلٌ يدلُّ على ظُلْمَةٍ[10]، وأغْطَشَ اللّه سبحانه الليلَ، أي: أظلمه[11]، والغُطاشُ: ظلمةُ اللَّيلِ واختلاطُه، وغَطَشَ الليلُ، فهوَ غاطِشٌ، أي: مُظْلِم، والغَطَشُ: الضَّعْفُ في البَصَرِ، كَما يَنْظُر ببَعْضِ بَصَرِه[12]، وقوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾، أي: أظلمه[13]، وجعله شديد الظّلمة[14].

4) ﴿دَحَىٰهَآ﴾: (دحو) أصل يدلُّ على بَسْطٍ وتَمْهيدٍ[15]، ومَطَرٌ داحٍ يَدْحَى الحَصَى عن

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمك).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (سمك).
(3) الصّاحب، المحيط في اللغة، والجوهري، الصحاح: (سمك).
(4) الواحدي، البسيط: 23/ 193.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي)، ومجمل اللغة: (سوى).
(6) الخليل، العين: (سوي).
(7) السمين، عمدة الحفاظ: (سوى).
(8) الراغب، المفردات: (سوا).
(9) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 284.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غطش).
(11) الجوهري، الصحاح: (غطش).
(12) ابن منظور، لسان العرب: (غطش).
(13) ابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 437.
(14) السمين، عمدة الحفاظ: (غطش).
(15) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دحو).

وجه الأرض، والدَّحْوُ: البَسْطُ[1]، قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾، أي: أزالها عن مقرها، وهو من قولهم: دحا المطر الحصى عن وجه الأرض، أي: جرفها[2]، ودَحا الأرضَ يَدْحوها دَحْوًا: بَسَطَها، والأُدْحيَّة والإِدْحيَّة: مَبيض النَّعام في الرَّمْلِ؛ لأن النَّعامَةَ تَدْحوه برِجْلها ثُمَّ تَبيض فيهِ ولَيْسَ لِلنَّعامِ عُشٌّ[3]، والمراد به في الآية الكريمة: بسطها، ومهّدها للسّكنى[4].

5) ﴿أَرۡسَىٰهَا﴾: (رسو) أصلٌ يدلُّ على ثباتٍ، تقول: رسا الشيء يرسو؛ إذا ثبت، والله جل ثناؤه أرسى الجبال، أي: أثبتها[5]، ورَسَتْ أقدامهم في الحرب، أي: ثبتت[6]، ورسا الجبلُ يرسو؛ إذا ثبت أصله في الأرض، ورست السفينة: انتهت إلى قرار الماء، فبقيت لا تسير[7]، فالرُّسوُّ: الثُّبوت، والإرساء: الإثبات، وأصل الرُّسوِّ يَدُلُّ على ثبات الشَّيءِ بلزوم أسفله أو باطنه ما يُمسِكُهُ بتَمَكُّنٍ[8]، والمراد به في الآية الكريمة: أثبتها[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

سَــوْق أدلة البعث من الكون المنشور في الكتاب المسطور

تُقيم الآيات الكريمة الأدلة والبراهين والحجج على منكري البعث باستحضار أعظم الأدلة على قدرته سبحانه، فيسألهم: أأنتم - أيها البشر الضعفاء المخلوقون من ماء مهين - أشد خلقًا أم السماء ذات الجرم العظيم، والخلق القوي، والارتفاع الباهر،

(1) الخليل، العين: (دحو).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (دحو).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (دحا).
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 284.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رسى).
(6) الجوهري، الصحاح: (رسا).
(7) الخليل، العين: (رسو).
(8) الرّاغب، المُفردات: (رسا)، والسّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 239، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رسو).
(9) السمعاني، تفسير السمعاني: 6/ 152.

البديعة البناء التي رفعها بلا عمد، وسوَّى نظامها، وأظلم ليلها، وأبرز نهارها، ثم بسط الأرض، وهيأها بما فيها من جبال ومياه ونباتٍ متنوعٍ لمنافع الناس وأنعامهم؟ فكما أبدع الخلق الأول بهذه القدرة القاهرة، فإنَّ إعادة الخلق يوم القيامة أهون عليه، وكلُّ ذلك يسيرٌ على اللّه الذي لا يُعجزه شيء[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصل جملة الاستفهام:

الشّروع بالرّدّ على شبه منكري البعث بأدلّة الكون

فصل النّظم الجليل الجملة: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾؛ لأنّها مستأنفة سيقتْ جوابًا عن شُبَهِ المشركين الواردة في قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾؛ لأنَّ حكايةَ شبهتهم بإنكارهم الرّدّ إلى الحافرة تقتضي ترقّب جوابٍ عن قولهم ذلك[2].

غرض الاستفهام ودلالته:

تقريع منكري البعث وتوبيخهم على عمى بصائرهم

جاء التّعبير بأسلوب الاستفهام في قوله جلّ شأنه: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾؛ لتوبيخ المشركين وتبكيتهم الذين أنكروا البعث، واستبعدوه؛ إذ يُساق السؤال لا لطلب الجواب بل لإلزامهم الحجة؛ لأنَّ الجواب معلوم بالضرورة، فخلق السماء أعظم وأشد من خلق الإنسان، ومع ذلك لم يعجز اللّه عن خلقها سبحانه، فالاستفهامُ يحمل معنى الإنكار على ظنهم بالعجز، والتنبيه على سفه تصوّرهم، ويجعل المقارنة حجَّةً عقلية تهدم استبعادهم للبعث، مؤكِّدًا أن من قدر على بناء السماء العظيمة لا يعجز عن إعادة خلق الإنسان بعد موته[3]، فـ"الاستفهام تقريريٌّ، والمقصود من التقرير إلجاؤهم إلى الإقرار بأن خلق السماء أعظم من

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 909، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 86.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 83.
(3) القنوجي، فتح البيان: 15/ 64، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 85.

خلقهم، أي: من خلق نوعهم، وهو نوع الإنسان، وهم يعلمون أن اللّٰه هو خالق السماء، فلا جرم أن الذي قدر على خلق السماء قادر على خلق الإنسان مرة ثانية"[1].

بلاغة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب:

مباغتةُ المشركين للانتقال من أقوالهم الفارغة إلى الأدلّة الكاشفة

التفت النّظم الجليل من ضمائر الغيبة العائدة على المشركين من قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾، إلى ضمير الخطاب في قوله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ﴾[2]، فالمخاطَبون هم المشركون، فجاء الالتفات انتقالًا من الغيبة إلى الخطاب؛ لتقرير عنصر المباغتة، لاسيّما بعد ذكر قصّة فرعون، وسَوْق المشركين إلى الاعترافِ بما أُلزِموه من معارفهم، بعد ذكر أقوالهم الفارغة من الاستدلال، وضعف النّظر لما يُشاهدونه من الأدلة الكونيّة، والبراهين الشهوديّة.

تعيين المخاطَب بالاستفهام:

الخطابُ للمشركين أصالةً ولكلّ منكري البعث تبعًا

الخطاب في قوله جلّ شأنه: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾ موجَّهٌ للمشركين من كفّار مكة الذين أنكروا البعث، واستبعدوا إمكان الإعادة بعد الفناء، ويصلح أن يكون الخطاب عامًّا لكلِّ منكرٍ للبعث، أي: يا أيّها الأحياء مع كونكم خلقًا ضعيفًا أتُنكرون البعث[3]؟.

نكتة مجيء المسند على صيغة التَّفضيل:

إبراز المفارقة بين مراتب الخلق لبلوغ الاستدلال على الخالق

عبّر النّظم الجليل بصيغة اسم التّفضيل ﴿أَشَدُّ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾؛ وذلك ليثير في ذهن المخاطب مقارنةً منطقيةً؛ فإذا كانت السماء بهذا الاتساع والإحكام، قد خُلقت بقدرة اللّٰه دون عناء؛ فكيف يُستبعد أن يعيد اللّٰه خلق الإنسان الضعيف؟ فالتفضيل هنا برهانيٌّ تعليميٌّ يراد به إبطال

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 83.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 83.
(3) الخطيب، السراج المنير: 4/ 480.

توهم العجز لا المفاضلة بين المخلوقات؛ لأنَّ المقارنة تجري على جهة إقامة الدليل، لا على جهة المماثلة، أي: أخلقكم، وإيجادكم أصعب وأثقل من إيجاد السّماء[1]؟.

بلاغة استعمال مفردة الأشدّ:

أطراف المخلوقات شديدة التماسك قويَّة التَّرابط

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة الشِّدَّة في قوله جلّ شأنه: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾؛ وذلك لبيان التماسك في بنيان السّماء، وعدم وجود خلل فيها، وكذلك خلق الإنسان، والشّدّة هي أخذ الخلق بعضه ببعض دون وجود فجوات أو خلال ينشأ عنها قصور أو ضعف، وعليه قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ﴾ [الإنسان: 28]، فالشدّة هنا بمعنى أنَّ الخلقَ مترابطةٌ أطرافه كلها، لا ينفكُّ بعضه عن بعض، ولا يسقط بعضه دون بعض، والإنسان يلحظ هذا الترابط الشديد بين أعضائه، والسماء مثله في شدّة التماسك والترابط، وهذه الشدّة كناية عن الصعوبة، أي: أيها أصعب في نظركم خلق السماء أم إعادة خلق الإنسان؟.

بلاغة التَّعبير بمفردة الخلق:

من خلق ابتداءً قادرٌ على الإنشاء انتهاءً

آثر النّظم الجليل التّعبير بلفظ الخلق في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾؛ لأنّ الخلق يتضمّن معنيين متلازمين: هما التقدير المحكم والإيجاد من العدم[2]، فيجمع بين العلم الدقيق والقدرة التامّة، فاختياره دون ألفاظٍ أخرى كـ(الصنع)، أو (الإنشاء) أدقّ في الدلالة على الإبداع الإلهي الذي لا يُشاركه فيه أحد، وأدلّ على المعنى الذي سيقت له الآية، وهو إثبات القدرة على البعث، فمن خلق ابتداءً قادرٌ على الإنشاء انتهاءً.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 238.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 238.

معنى ﴿أَمِ﴾ ودلالتها:

الانتقال بالمخاطَب من الإنكار إلى الإقرار

﴿أَمِ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ معادلة بين طرفين في سؤالٍ يُراد به التقرير والتوبيخ لا الاستفهام الحقيقي، والمقصود أن يُقرَّ المخاطَبون بأنّ السماء أشد خلقًا وأعظم تكوينًا، وهذا الاستعمال من أبلغ أساليب القرآن في إلزام الحجة؛ لأنّ ﴿أَمِ﴾ جعلت السامع بين خيارين لا ثالث لهما، أحدهما باطل، وهو أن يكون الإنسان أشد خلقًا، والآخر حقٌّ لا مفرّ منه، وهو أنّ خلق السماء أعظم وأدلّ على القدرة، فوظيفتها البلاغية هنا نقل المخاطب من الإنكار إلى الإقرار(1).

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾:

احتمال السماء الدنيا أو جنس السماوات واحدٌ في الاستدلال

تعريف لفظ السماء في قوله جلّ شأنه: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾، يجوز أن يُراد به الجنس وتعريفه تعريف الجنس، أي: السماوات، وهي محجوبة عن مشاهدة الناس، فيكون الاستفهام التقريري مبنيًّا على ما هو مشتهر بين الناس من عظمة السماوات؛ تنزيلًا للمعقول منزل المحسوس، ويجوز أن يُراد به سماء معينة، وهي المسماة بالسماء الدنيا التي تلوح فيها أضواءُ النجوم، فتعريفه تعريف العهد، وهي الكرة الفضائيّة المحيطة بالأرض، ويبدو فيها ضوءُ النّهار وظلمة الليل، فيكون الاستفهام التقريري مبنيًّا على ما هو مشاهد لهم، وهذا أنسب بقوله: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾؛ لعدم احتياجه إلى التأويل(2).

علّة فصل جملة ﴿بَنَىٰهَا﴾:

تفصيل عظمة خلق السّماء وبيان كيفيّته

فصل النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿بَنَىٰهَا﴾؛ لأنّها مستأنفة استئنافًا بيانيًّا، فبعد أن أشار إلى عظيم خلق السّماء؛

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 85 - 86.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 84.

شرع يبيّن كيفيّة ذلك وتفصيله، فقال: ﴿بَنَىٰهَا﴾، أي: بنى اللّه ﷻ السماء، وركّبها من أجزاء متفرقة، فالجملة للاستئناف والتّفصيل لكيفية خلقها(1)، ويجوز أن تكون بدل اشتمال في قوله: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ﴾؛ لأنه في تقدير: أم السماء أشد خلقًا(2).

بلاغة استعمال مفردة البناء:

السّماء بناء ونظام محكم لا مجرّد سقف مرفوع

عبّر النّظم الجليل بلفظ البناء في قوله جلّ شأنه: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾؛ لأنّ البناء يوحي بمعاني الإحكام والتّماسك، وهو ليس مجرّد رفع؛ إذ يدلّ على نظامٍ متينٍ متناسق الأجزاء لا يتطرّق إليه الخلل، فالسّماء بناء لا سقف مرفوع حسب، والبناء أصلب وأبعد عن التصدّع والانهيار(3).

نكتة التعبير بصيغة الماضي:

جاء التّعبير بصيغة الفعل الماضي ﴿بَنَىٰهَا﴾؛ لبيان تحقّق البناء وسبقه، وأنّه بناءٌ قائمٌ لا يتطرق إليه الشكّ، ولا يقربه الوهم.

بلاغة الاستعارة التصريحية:

تصوير بليغ لكيفيّة خلق السّماء بكيفية خلق البيوت

استعار النّظم الجليل لفظ البناء في قوله جلّ شأنه: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾ من بناء البيوت إلى خلق السماء؛ لما بينهما من مشابهة في الارتفاع والإحكام والتنسيق(4)، فكما يُبنى البيت متماسكًا فوق الأرض، خُلِقت السماء مرفوعةً بلا عمد، متقنةَ النظام، محكمةَ البنيان، فهو تشبيه خلق السّماء ببناء البيوت ممّا يعرفه النّاس، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعيَّة؛ لما تُضفيه الاستعارة من صورة محسوسة قريبة من فهم الإنسان؛ لبيان قدرة

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 101، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 86.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 84.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 86.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 84.

اللّه تعالى، وتنقل الخلق من مجرّد فعلٍ غيبي إلى مشهدٍ بصريٍّ مألوفٍ، فصار اللفظ أوقع في النفس وأبلغ في بيان إحكام صنع اللّه تعالى.

علّة فصل جملة: ﴿رَفَعَ سَمۡكَهَا﴾:

الانتقال من الإجمال إلى التّفصيل لبيان كيفيّة البناء

فصل النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ عن سابقه ﴿بَنَىٰهَا﴾؛ لأنّ الجملة الثانية جاءت مفسِّرةً ومبيِّنةً لكيفيّة البناء، فهي تفصيل بعد إجمال، وتوضيح بعد إجمال الدلالة[1]، فالجملة تفسير وتبيين لكيفيّة البناء.

سرُّ إيثار التّعبير بالرّفع مادّة وصيغة:

بنيت السّماء بعلوٍّ مقام وإحكام نظام

آثر النّظم الكريم التّعبير بالرّفع في قوله جلّ شأنه: ﴿رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾؛ لأنّ مادّته تدلّ على العلوّ والسّموّ، وهو أنسب الألفاظ لبيان عظمة الخلق وارتفاع شأنه، والرفع هنا ليس مجرد إعلاء مكاني، بل تصوير لإعلاءٍ كونيٍّ يجلّ عن الإدراك؛ إذ جعل اللّه السماء في أوجٍ لا تبلغه الأبصار، وسوّاها في تناسقٍ لا يدركه الخلل[2]، وجاء التّعبير بصيغة الماضي للدّلالة على تحقُّقه.

نكتة التّعبير بلفظ السَّمْك:

آثر النّظم الكريم التّعبير بالسَّمْك في قوله جلّ شأنه: ﴿رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾؛ لجمع اللفظ بين دلالة العلوّ، ودلالة السّقف، فهو سقف عالٍ مرفوع.

نوع الفاء ودلالتها:

تمام الخلق وتتابع الإحكام في بناء السّماء

عطف النّظم الجليل التسوية على الرّفع بحرف الفاء في قوله جلّ شأنه: ﴿رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾؛ للدّلالة على تعقيب التسوية على

(1) القنوجي، فتح البيان: 15/ 64.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 85.

رفع السقف، أي: إنَّ تسوية السّماء جاءت عقب رفعها، والفاء ليست لترتيب زمني بحت، بل لتصوير تلاحم الأفعال واتصال مراحل الخلق اتصالًا محكمًا، كما في قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، فكما اتصل النداء بالقول، اتصل الرّفع بالتّسوية، فحصلتِ الثّانية مع حصول الرّفع[1].

نكتة التّعبير بلفظ التّسوية:

السماء معدّلةٌ مستويةٌ لا خلل فيها

آثر النّظم الكريم التّعبير بمفردة التّسوية في قوله جلّ شأنه: ﴿رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾؛ لدلالة التّسوية على العدل، أي: فعدلها عقب ذلك بأن جعلها مستوية لا شيء فيها أعلى من شيء ولا أخفض، ولا فطور فيها، وأصلحها بما تم به كمالها من الكواكب وغيرها[2].

تعيين المعطوف عليه:

وصف السّماء من تمام عظمة خلقها

عطف النّظم الجليل إغطاش الليل في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ على الجملة في قوله تعالى: ﴿بَنَىٰهَا﴾، وليست معطوفة على جملة: ﴿رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾؛ وذلك لأنّ إغطاش اللّيل وإخراج الضّحى ليس مما يبين به البناء[3].

بلاغة استعمال مفردة الإغطاش:

ظلام السّماء وإنارة الأرض نظام أقرّه الخالق تعالى بإرادةٍ حكيمة

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة الإغطاش في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا﴾؛ للدّلالة على شدّة ظلام السّماء[4]، فالله تعالى أظلمها حتّى عمّت الظّلمة جميعَ أرجاء السَّماء، فبان ظلامُها في وجه الأرض[5]، والغطش الظلام الشديد، فهو بيانٌ لأشدّ درجات الظلمة، والليل اكتسب ظلمته من زوال

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 85.

(2) الواحدي، البسيط: 23/ 193، والبقاعي، نظم الدرر: 21/ 239، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 101.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 85.

(4) السمين، عمدة الحفاظ: (غطش).

(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 909.

الشمس، فظلمته حاصلة بسبب غياب سبب النور، وأمّا الغطش؛ فهو وصفٌ لليل باعتبار إرادة الإظلام الشديد، فهو ليس عرضًا ناشئًا عن ذهاب الشّمس.

نكتة التعبير بصيغة الفعل الماضي:

جاء التعبير بصيغة الفعل الماضي (أغطش) بمعنى أدخل؛ للدّلالة على تحقّقه وثبوته، فهو إدخال الظلمة في زمن الليل عن قصدٍ.

نكتة تقديم إغطاش اللّيل على إخراج الضُّحى:

الليل أسبق وجودًا في الخلق، والضّحى أبهى في عيون الخلق

قدّم النّظم الجليل ذكر إغطاش الليل على إخراج الضحى في قوله تعالى: ﴿وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا﴾؛ لأنّ الليل هو الأصل في تعاقب الزمان، فهو السابق في الوجود، والمبدأ الذي ينشأ عنه النهار، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: 37]، فكان التقديم موافقًا للسنن الكونية في الخلق، فأخّر ذكر الضّحى؛ ليختم الكلام بما هو أبهى وأكمل؛ لأنّ النّهار ذروة الامتنان بضيائه ونفعه، فجاء في موضع الختام بعد ذكر الليل[1].

نوع الإضافة ودلالتها:

إضافةٌ بيانيّة تُبرز الارتباط الكونيّ بين السّماء والنّور

أضاف النّظم الجليل اللّيل إلى السّماء في قوله تعالى: ﴿لَيۡلَهَا﴾ إضافةَ اختصاصٍ وملابسةٍ، أي: نسبةُ الليل إلى السماء من حيثُ ظهوره وانبثاق ظلامه منها، فليست الإضافة هنا تملّكًا ولا جزئيّة، بل بيانيّةٌ توضّح جهةَ الانتماء والظهور[2].

دلالة العطف بالواو:

التّكامل الزّماني في تصوير المشهد الكونيّ

جاءت الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ عاطفةً على ما قبلها: ﴿وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا﴾، وفائدة ذلك الدّلالة على المقارنة والتّكامل بين الظّاهرتين، فاللّيل والضّحى متعاقبان متلازمان في نظامٍ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 87.
(2) السمعاني، تفسير السمعاني: 6/ 151، والقنوجي، فتح البيان: 15/ 65.

واحدٍ لا يقوم أحدهما إلا بالآخر، وبيّن أنّ الذي أظلم ليلها هو الذي أبرز نهارها.

دلالة التَّعبير بلفظ الإخراج:

إبراز النّور وإظهاره إخراج له بأسباب موجدة

آثر النّظم الجليل استعمال مفردة الإخراج في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا﴾؛ للدّلالة على إبراز النّهار، أي: أبرز نهارها المضيء بالشمس[1]، وإنّما عبّر عن إظهار النور بالإخراج؛ لأنّ النّور طارئ بعد الظّلمة؛ وذلك لأنّ الظّلمة عدمٌ، والعدمُ أسبق، والنّور محتاج إلى السّبب الذي ينيره[2]، فضلًا عن أنَّ في لفظ الإخراج إيماءً تهديديًّا بعدم إخراج الضُّحى، فالذي أخرج الضحى، ورزق العباد، هو القادر على حبسه وعقاب المنكرين.

بلاغة الاستعارة ودلالتها:

الإشراق بعد الكُمون، يصوّر تحوّل الكون من الخفاء إلى الظهور

شبَّه النّظم الكريم لفظ الضّحى في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ بشيءٍ خبيءٍ في مكانٍ مغلق، على سبيل الاستعارة المكنية، ورمز لذلك بفعل الإخراج، فإنَّ الضحى يظهر تدريجيًّا، ويحين وقته بتراخٍ رتيبٍ بعد طلوع الشمس، وذلك لتشخيص الضحى، وبيان أهميته للنّاس، وأنّه أبهى أوقات النّهار، ففيه إيماءٌ إلى تشبيه الضحى بشيءٍ جميل يحرص النّاس على تحصيله، والعيش في أكنافه؛ إدماجًا لمنّة الرزق في هذا الوقت المبارك.

دلالة العطف ومناسبته:

الانتقال من العالم العلوي إلى السفلي

عطف النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ على الجملة في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾؛ للانتقال بالكلام من الاستدلال بخلق السّماء إلى الاستدلال بخلق الأرض؛ وذلك لأنّ الأرض أقرب إلى مشاهدتهم[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 233، والقنوجي، فتح البيان: 15/ 65.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 86.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 86.

معنى تعريف لفظ (الأرض):

عُرِّفت ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ في قوله تعالى ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ بالألف واللّام للعهد، فهي الأرض المعهودة، أو للجنس؛ للدلالة على شمولها واستغراقها لكل الأرضين، لا جزءًا منها.

نكتة التَّعبير بالظرفيَّة:

الظرفيّة لبيان التدرّج في الاستدلال

عبّر النّظم الجليل بالظرف ﴿بَعۡدَ﴾، في قوله تعالى ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾؛ ليُبيّن تدرّج الاستدلال، أي: بعد ذلك كلّه، فذكر الأرض جاء بعد ذكر السماء؛ إذ بدأ النّظم بالأشرف والأعظم في الدلالة، وهو العالم العلوي، ثم ثنّى بما هو أقرب إلى نظر الإنسان، وهو العالم السّفلي، فالظرفيّة تفيد الانتقال من الأعلى الأعظم إلى الأدنى الأقرب[1].

نكتة التَّعبير باسم الإشارة للبعيد:

خلق السّماء عظيم المكانة جليل الفخامة

عبّر النّظم الجليل باسم الإشارة الدّالّ على البعد في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾؛ للإشارة إلى عظم خلق السّماء، أي: بعد ذلك كلّه من خلق السّماء وبنائها وإغطاش ليلها[2].

بلاغة استعمال مفردة الدّحي:

بسط الأرض أعظم أسباب الحياة فيها وفيها إدماج للعناية والرعاية

عبّر النّظم الجليل بلفظ الدّحي في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾؛ للدّلالة على كمال خلقها المناسب لعيش النّاس، أي: بسطها، ومدّها ليسكنوا فيها، وينتفعوا منها، ويتقلبوا في أقطارها[3]، وهذا لفظٌ غريب استُعمِل دون مقارباته؛ لبيان ما أجراه اللّه تعالى على الأرض من إرادةِ البسط، والتّمهيد للحياة والعيش، فهو أراد لخلقه أن يعيشوا في أرضٍ ميسّرة سهلةٍ، وهو ما يدلُّ على

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 240، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 86.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 240.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 233.

أنَّ الأرض لم تكن كذلك قبل دحوها، ففيه إدماجٌ لمقتضيات الربوبيّة من العناية والرعاية في خلق الأرض ودحوها بعد ذلك، وجاء التّعبير بالماضي؛ للدلالة على تحقّق نعمة الدّحي والبسط.

علَّة الفصل:

بسط الأرض أوّل شروط الحياة ووفرة خيرها ثانيها

فصل النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾؛ لأنّها مستأنفة سيقت لبيان ما قبلها، وتفسيره، فالجملة تفسير للدّحي المذكور آنفًا، فإنّ السّكنى في الأرض لا تتأتى بمجرّد بسطها ومدّها، بل لا بد من تسوية أمر المعاش من المآكل والمشارب والملابس حتمًا[1].

نوع (مِنْ) ودلالتها:

التصريح بالبداية تلويحٌ بالنّهاية

دلَّ حرف (مِنْ) في قوله جلّ شأنه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ على أنّ مبدأ الماء كان من الأرض، فهو مكنون فيها[2]، مع الإشارة إلى منتهاه، وهو ما يصل النّاس والأنعام، ففيه تلويحٌ بالمنّة من إخراج الماء والمرعى.

نكتة تقديم شبه الجملة على المفعول:

العناية تتّجه إلى مقصود سياق الكلام

قدّم النّظم الجليل شبه الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾، فلم يقل: (ماءَها منها)؛ لأنّ المقصود ليس مجرد الإخبار عن الإخراج، بل التّنبيه على مبدأ الخروج ومكانه، فالتّقديم هنا يفيد العناية بالمصدر والمكان، وهو الأرض؛ لأنّها الأصل الذي منه ينبثق كل رزقٍ وحياة، وهي المقصودة في سياق الاستدلال بالامتنان، فمن هذه الأرض التي من مقتضيات بسطها أن يخرج منها الماء والمرعى.

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 89.
(2) الخطيب، السراج المنير: 4/ 481.

نوع الإضافة ودلالتها:

الماء أحد مكونات الأرض الخاصّة بها وهو ماكث فيها

أضاف النّظم الجليل الماء إلى الضمير العائد على الأرض، في قوله جلّ شأنه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾ والإضافة بمعنى (في)، أي: أخرج من الأرض الماء الماكث فيها، وهي بذلك أشدّ امتنانًا لصعوبة إخراج الخبيء في الأرض، مع التّعريض بالمنع، كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ۝٣٠﴾ [الملك: 30]، وتحتمل أن تكون بمعنى (من) باعتبار أنَّ الماء أحدُ مكوناتها، وتحتمل أن تكون بمعنى اللام، فالإضافة بيانيّة دالّة على الاختصاص، أي: الماءُ المختصُّ بالأرض، الخارج من باطنها، فالإضافة هنا لا تفيد الملك ولا الجزئيّة، بل المصدرية والانتماء المكاني؛ لأن الماء مستكنّ في جوفها ومنبثق منها[1].

نكتة عطف المرعى على الماء:

سعة الامتنان لسعة الإحسان

عطف النّظم الجليل المرعى على الماء في قوله جلّ شأنه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾؛ للدّلالة على أنّه مَنَّ على خلقه بجميع ما تخرجه الأرض قوتًا للنّاس وللحيوان[2].

سرُّ إيثار التَّعبير بالمرعى:

كثرة أسباب النّعم من مظاهر المنن

آثر النّظم الكريم التّعبير بالمرعى في قوله جلّ شأنه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾؛ لأنّ لفظ المرعى يقع على الرّعي، وهو الكلأ الذي ترعاه الأنعام، وعلى الرَّعي، وهو المصدر وموضع الرّعي وزمانه[3]، فدلّ بلفظ واحد على جميع ذلك؛ ليبيّن عظيم امتنانه بإيجاز؛ لأنّه يشمل المكان والنّبات.

معنى (الواو) ودلالتها:

منافع الأرض راسخةٌ كرسوخ جبالها

عطف النّظم الجليل الجبال على الأرض في قوله جلّ شأنه:

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 240.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 87.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 235.

﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا﴾، فإنّه لمّا ذكر الأرض ومنافعها؛ ذكر بعدها ما يحقّق الانتفاع بما فيها، وهي الجبال التي تم بها نفع الأرض وصلاحها[1].

بلاغة الاستعارة في لفظ (الجبال):

تصوير المنن وتقريب النّعم ببيان اكتمال المنافع

في استعمال لفظ (الجبال) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا﴾ تشبيه الجبال بالمرساة، التي تنزل في البحر لإثبات السفينة، على سبيل الاستعارة المكنيّة، ورمز لها بفعل ﴿أَرۡسَىٰهَا﴾؛ وذلك لتصوير نعمة اللّه تعالى ومنّته على خلقه، فدحو الأرض نعمة عظيمة، لا تكتمل إلّا إذا ثبتت الأرض برسوِّ جبالها فيها.

نكتة التَّعبير بلفظ الإرساء:

تثبيت الجبال من دلائل القدرة

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة الإرساء في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا﴾؛ للدّلالة على إثباتها وإقرارها، فأنعم اللّه تعالى على الخلق بأن جعل الجبال كالأوتاد للأرض؛ وذلك لتثبت، وتستقرّ، فلا تميد بأهلها[2]، ولا تكتمل النِّعم إلّا بعد ثباتها، وأفاد لفظ الإرساء التّعريض بزوال الجبال عن أماكنها إلّا بحفظ خالقها.

نكتة إيثار التَّعبير بلفظ المتاع:

الامتنان على العباد بالنعم المحسوسة والمعنويّة

آثر النّظم الجليل استعمال لفظ المتاع في قوله جلّ شأنه: ﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾؛ للدّلالة على دوام النّعم، فإنّ المخلوقات كلّما تناولت من المأكل والمشرب وغيرهما من المتاع؛ فإنّه ينقص، فبيّن تعالى دوام هذه النّعم، وأنّها لا تنقطع، بل هي باقية دائمة ممتدّة[3]، فالمتاع يبقى، ويدوم، ولا ينتهي، ففيه بعد الامتنان إيماءٌ إلى راحة البال وسكينة النفس، فجمع لهم بهذا اللفظ بين المنّة الحسية والمعنويّة.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 240.
(2) القنوجي، فتح البيان: 15/ 67.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 241، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 88.

معرفةُ العللِ يزيدُ من شكر الشّاكر وجحود الكافر

معنى (اللّام) ودلالتها:

عبّر النّظم الجليل بحرف اللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿مَتَـٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَـٰمِكُمۡ﴾؛ للدّلالة على العلّة، أي: فعل ذلك لأجل تمتيعكم أنتم وأنعامكم[1]، وهي لام التقوية؛ لأنَّ المصدر ﴿مَتَـٰعًا﴾ فرع في العمل عن الفعل (متّعناكم)، وهو راجع إلى خلق الأرض والجبال، وذلك في الأرض ظاهر، وأمّا الجبال؛ فلأنها معتصمهم من عدوهم، وفيها مراعي أنعامهم تكون في الجبال مأمونة من الغارة عليها على غرة.

الامتنان بما فيه كثرة الانتفاع والتّنبيه على الإيفاء بالشّكر

توجيه تخصيص الأنعام بالذِّكر:

خصّ النّظم الجليل ذكر الأنعام دون غيرها من الحيوان في قوله جلّ شأنه: ﴿مَتَـٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَـٰمِكُمۡ﴾، وهي دالّة على الإبل والبقر والغنم؛ وذلك لكثرة انتفاع النّاس بها[2]، ولأنّها مخلوقةٌ لهم بغرض الانتفاع وتحصيل المصالح، فالأنعام أصلٌ عظيمٌ من أصول تحصيل المتاع، فبقاء هذا الأصل بقاءٌ لمخدومه من البشر.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإغطاش أخصّ من الظّلام فهو شدّة الظّلمة

الإغطاش والإظلام:

الظّلام خِلافُ النّورِ[3]، وأمّا الإغطاش؛ فهو إظلام اللّيل[4]، وأغطش الله اللّيل، أي: جعله شديد الظّلمة[5]، وشدّة الظلام هو المراد في الآية.

---

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 599.

(2) الخطيب، السراج المنير: 4/ 481.

(3) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ظلم).

(4) الجوهري، الصحاح: (غطش).

(5) السمين، عمدة الحفاظ: (غطش).

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ٣٤ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ٣٥
وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ٣٦ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا
٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٣٩ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى
ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٤١﴾ [النازعات: 34 - 41]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال من دلائل القدرة إلى مشهد الجزاء

لما ذكرتِ الآيات السابقة أدلة البعث وبراهين الخلق؛ للاستدلال بها على يسير بعث الإنسان بعد موته وإحيائه؛ ناسب الانتقال إلى ذكر يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾؛ لأنّ ذكر القيامة نتيجة تلك الدلائل وغايتها، وهي مشهد البعث والجزاء، فالسياق السابق أقام البرهان على إمكان الإعادة، فجاء هذا المقطع؛ ليصوّر ما بعد الإعادة من أحداث القيامة، وكأنّ ما قبلها مقدّمة وما بعدها ثمرة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾: (طمم) أصلٌ يدلُّ على تغطية الشّيء للشّيء حتى يسوّيَهُ به، من ذلك قولهم: طمَّ البئرَ بالتّراب: ملأها، وسوّاها[2]، والطّامّة: التّي تَطِمُّ على ما سواها، أي: تَزيد، وتَغلب، وطمّ البَحْرُ: غَلَب سائِرَ البُحور[3]، ويُقال للشيء الّذي يَكثُر حتى يَعْلو: قَد طمَّ، وهو يطمُّ طَمًّا، وجاء السَّيل، فطمَّ على كلّ شيء، أي: عَلاه، ومن ثَم قيل: فوقَ كلِ طامَّة طامّةٌ[4]، والطّامّة هي القيامة، سمّيت بذلك؛ لأنّها تطمّ على كلّ شيء، أي: تغلب على كلّ شيء، وأصله من الطم،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 241، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 89.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طم).
(3) الخليل، العين: (طمم).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (طمم).

وهو الغلبة على الشيء[1]، والمراد به في الآية الكريمة: يوم القيامة، وهي الحادثة التي تطمّ ما سواها[2].

2) ﴿وَبُرِّزَتِ﴾: (برز): أَصْلٌ يدلُّ على ظُهورِ الشَّيْءِ وبُدوِّه، فالبَرازُ: المَكانُ البَعيدُ الواسِعُ الخالي مِن الشَّجَرِ ونحْوِه، يُقالُ: بَرَزَ الرَّجلُ، يَبْرُزُ، بُروزًا: إذا خَرَجَ إلى الفَضاءِ الواسِعِ لِحاجَةٍ، ويُطْلَقُ البَرازُ على الصَّحْراءِ البَعيدَةِ[3]، ومن الباب: المُبارزة للقتال، وهي الظُّهور مِن الصَّفِّ[4]، والمراد به في الآية الكريمة: أُظهرت[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تعيين أهوال يوم القيامة ومصير النّاس إلى الجنّة والنّار

تُبيِّن الآيات الكريمة واقع مجيء القيامة التي تطمّ كلّ هولٍ قبلها، وهي النّفخة الثّانية، عندئذٍ يُعْرَض على الإنسان كلّ أعماله التي كسبت يداه من خير وشرّ، فيتذكّر الإنسان أعماله، ويعترف بها، وأظهرت جهنّم، وقُرّبت لكلّ مُبْصِر حتّى يرونها عيانًا، عندئذٍ ينقسم النّاس قسمين، فأمّا مَن كفر، وتمرّد على أمر اللّه تعالى، وفضّل الحياة الدّنيا على الآخرة، فمصيره إلى النّار التي هي مأواه، وأمّا القسم الآخر، وهم الذين خافوا القيام بين يدي اللّه تعالى للحساب، ونهوا النّفس عن أهوائها الفاسدة؛ فإنّ مأواهم الجنّة خالدين فيها[6].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الفاء ودلالتها الارتباطية بالسابق:

البعث مرتبة مترتّبة على الاستدلال بأدلة الخلق

الفاء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ للتّفريع،

---

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (طمم).
(2) ابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 437.
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (برز).
(4) الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: (برز).
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 285.
(6) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 910، وجماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 584.

فإنّ ما بعد الفاء مترتّب ومتفرّع على ما قبلها[1]، فيجوز أن يكون التفريع على الاستدلال الذي تضمَّنه قوله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ﴾ وما بعده من الآيات، فإنَّ إثبات البعث يقتضي الجزاء؛ إذ هو حكمته. وإذا اقتضى الجزاء؛ كان على العاقل أن يعمل لجزاء الحسنى، ويجتنب ما يوقع في الشقاء، وأن يهتم بالحياة الدائمة، فيؤثرها ولا يكترث بنعيم زائل فيتورّط في اتباعه؛ فلذلك فرّع على دليل إثبات البعث تذكيرًا بالجزاءين، وإرشادًا إلى النجدين، ويجوز أن يجعل قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ مفرَّعًا على قوله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾؛ فإنّ الطامة هي الزجرة، ومناط التفريع هو ما عقبه من التفصيل بقوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ الآية؛ إذ لا يلتئم تفريع الشيء على نفسه[2].

دلالة الشّرط بـ (إذا):

المستقبل للقيامةِ وقوعًا وللمؤمنين نعيمًا وللكافرين جحيمًا

آثر النّظم الكريم التّعبير بأداة الشّرط (إذا)، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾؛ للدّلالة على تأكيد وقوع ما بعدها، وجاء فعل المجيء بصيغة الماضي وهو مستقبل؛ لاقترانه بأداة الشرط (إذا)، فقد أفادت الاستقبال، وإنما يؤتى بعد (إذا) بفعل الماضي؛ لزيادة تحقيق ما يفيده (إذا) من تحقّق الوقوع[3].

بلاغة التَّعبير بفعل المجيء:

آثر النّظم الكريم التّعبير بفعل المجيء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾؛ لدلالة المجيء على شدّة الحضور والحصول، فإنَّ المجيء يكون للجواهر المحسوسة على الغالب.

---

(1) القنوجي، فتح البيان: 15/ 68.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 89.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 89.

بلاغة المجاز بالحذف:

رُبَّ جوابٍ محذوف أوقع في النّفس ما لا يوقعه المذكور

حذف النّظم الجليل جواب (إذا) الشّرطيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾، وقد دلّ على المحذوف التّفصيل اللّاحق، والتقدير: إذا جاء وقت وقوع الداهية العظمى التي تطمّ، وتغلب على سائر الطامات والدواهي؛ فإنّه سيقع من عظائم الأمور ما لا يخطر في بال، ولم تره عين، ولم تسمع به أذن[1]، فحذف الجواب؛ لتذهب النّفس كلَّ مذهبٍ في تصوّر ما سيحدث، من أهوالٍ سيقت في هذه السورة على وجه الخصوص، وفي سائر القرآن على وجه العموم.

بلاغة التَّعبير بصفة الطّامّة:

الترهيب بما يؤذن بالشدّة والهول أنسب للردِّ على المنكرين

آثر النّظم الكريم التّعبير بمفردة الطّامّة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ دون بقيّة أسماء القيامة وأوصافها؛ لما فيها من الدّلالة على أنّها تطمّ كلَّ شيء، فيكون تحتها في الشدّة[2]، فهذا اللّفظ يؤذن بالشّدّة والهول، وهو الأنسب لوصف يوم القيامة للرّدّ على منكريه[3]، وناسب هذا اللفظ ما جاء في سياق السورة من ذكر الحافرة، والساهرة، وهي من أوصاف الأرض، فكان ذكر الطّامة مناسبًا لهذه الألفاظ، فالطّامة تطمُّ كلَّ شيءٍ من الأرض، فلا تترك له معلمًا أو أثرًا، وهو مناسب كذلك لفعل طغى، في حقِّ فرعون، وفي حق الكافر المبعوث يوم القيامة.

دلالة الوصف بـ﴿ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾:

لا أشدّ ولا أعظم من هول يوم القيامة

وصف النّظم الجليل الطّامّة بـ﴿ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾؛ للدّلالة على كمال شدّتها، فهي أكبر الطّامّات[4]، فالوصف هنا أفاد التّأكيد؛ لأنّ الطّامّة هي أكبر

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 285، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 90.
(2) السمعاني، تفسير السمعاني: 6/ 152.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 90.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 284.

الدّواهي، فوصفها بذلك تأكيد[1]، كما أنَّها أفادت أنّها الأكبر دون منازع؛ ولن يُشهدَ مثلها.

علّة فصل جملة ﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾:

تفصيل مشهد الطامّة الكبرى وبيانه

فصل النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾؛ لأنّها جاءت تفسيرًا وبيانًا لمضمون الطامّة الكبرى، فهي تفصيل لما تشتمل عليه من أهوال، فجُعِلَتْ جملةً مستقلّةً؛ لتمييز ذلك اليوم العظيم بذكر أبرز ما يقع فيه من أحداثٍ مؤثرة، لا بوصفٍ مجمل[2].

نكتة التَّعبير بالظّرف (اليوم):

جماع الحسرة والفرحة بمعرفة مآلات العاملين

عبّر النّظم الجليل بالظّرف (اليوم) في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾؛ للدّلالة على أنّ التّذكّر والانتباه لحقيقة الأمر ستكون في ذلك اليوم، فيتذكر ما عمله من خير أو شر؛ لأنه يشاهده مدوَّنًا في صحائف أعماله[3]، وفي ذكر الظرف إبرازٌ لذلك الزمان الذي غفل عنه الإنسان إنكارًا وجحودًا، فذكر الظرف فيه تحسيرٌ وتنديمٌ على تقصير الإنسان في حقِّ نفسِه وحق ربِّه، فضلًا عمّا فيه من تنبيه على تحصيل المؤمن لجزائه الأوفى.

سرُّ إيثار التَّعبير بالتّذكير مادّة وصيغة:

رؤيـة الأعـمـال والاعـتراف بها بـرهـان الـعـدل الإلهي

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ التّذكير في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾؛ للدّلالة على أنّه سيرى أعماله في كتابه؛ لأنّ التّذكر يقتضي سبق النّسيان، والمعنى: يعرض عليه عمله، فيعترف به[4]. أمّا إيثار الفعل المضارع؛ فهو لاستحضار الصورة، وكأن التذكّر يحدث الآن أمام السامع، فالمضارع يُنشّط الخيال، ويُجسّد

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 103، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 90.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 90.

(3) القنوجي، فتح البيان: 15/ 69.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 90.

الفعل في الحاضر، فيرى القارئ الإنسان، وهو يتذكّر أعماله واحدًا واحدًا حين تُعرض عليه صحيفته.

معنى تعريف الإنسان:

عرّف النّظم الجليل لفظ الإنسان في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾؛ للدّلالة على الجنس، أي: كلّ الخلق الذين غفلوا عمّا خلقوا له[1].

معنى ﴿مَا﴾ ودلالتها:

سيرى الإنسان كلّ أعماله، أحصاه الله ونسوه

عبّر النّظم الجليل بـ ﴿مَا﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾، وهي هنا صالحة؛ لأن تكون مصدريّة، أي: سعيه، وموصولة، أي: الذي سعى له من العمل[2]، ودلّ التّعبير بها على شمول كلّ ما سعى له وما عمله في الدّنيا من خير أو شرّ[3].

نكتة إيثار التَّعبير بلفظ السّعي:

السّعي عمل مستمرّ متّصل بالإرادة والجدّ

آثر النّظم الكريم التّعبير بالسّعي في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾؛ لدلالة السّعي على الجدّ في الأمر، خيرًا كان أو شرًّا[4]، وهذا اللفظ يوحي بالكدّ والمثابرة، فدلّ على أنّ أعمال الإنسان ليست لحظاتٍ عابرة، بل هي مساعٍ متواصلة تشكّل سيرته في الحياة.

توجيه العطف بـ (الواو):

أعظم مشاهد القيامة هولًا بعد الطّامة إبراز الجحيم

عطف النّظم الجليل إبراز الجحيم في قوله جلّ شأنه: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ على مجيء الطّامّة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾؛ للدّلالة على تتابع أهوال القيامة، فالواو تبيّن مجيء حدثٍ جديد يزيد المشهد هولًا، فبعد ذكر الطامة الكبرى

(1) الخطيب، السراج المنير: 4/ 481.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 599.
(3) الخطيب، السراج المنير: 4/ 481.
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (سعي).

يُكشف الغطاء عن الجحيم إظهارًا بيّنًا يراه كل أحد[1]، فجاء العطف؛ ليُبرز تصاعد الأهوال، ويُجسّد انتقال السامع من هولٍ إلى ما هو أشدّ منه.

دلالة التّعبير بالفعل (بُرّزت) مادّة وصيغة:

التّدرُّج في تبريز الجحيم تفزيع يُبرز القلوب من صدور أصحابها

آثر النّظم الجليل استعمال فعل البروز في قوله جلّ شأنه: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾؛ لبيان أنّها تكون خافية، ثم يكون إبرازها شيئًا فشيئًا، ترهيبًا وتفزيعًا؛ ليذوق النّاس ما غفلوا عنه في الدّنيا، والتدرج في كشف الجحيم يأتي تدريجيًّا، وهو ما دلّت عليه مادة المفردة وصيغتها، وجيء بالفعل مبنيًّا للمفعول؛ لأنّ بيان مبرّزها ليس مرادًا ههنا، بل المراد الموعظة بالإعلام بوقوع إبرازها يومئذٍ، والتّعبير بصيغة الماضي والحدث مستقبل لتحقيق وقوعه وتأكيده.

سرُّ إيثار التَّعبير بمفردة ﴿ٱلْجَحِيمُ﴾:

تجسيد النار في مـرأى العالمين إنهاكٌ لأجساد العالمين

آثر النّظم الكريم التّعبير بالجحيم في قوله جلّ شأنه: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾؛ لأنّها أبلغ ألفاظ النار في تصوير شدّتها وعمقها، فالجحيم هي النّار العظيمة المستعرة في حفرة عميقة[2]، لا مجرد نار تُرى، بل نارٌ لافحةٌ ذات قعرٍ مرعبٍ واضطرام دائم، ولمّا كان الجحيم أشدّ ما يكون بعد مجيء القيامة، خصَّها النّظم بالذّكر؛ لتقع موقع التّرهيب في قلوب المنكرين، وإبرازها إظهارها بعد خفاء، وهو ما يدلُّ على شدّة استعار نارها، وهول حريقها.

نوع (اللّام) ودلالتها:

علّة الإبراز إظهار الجحيم لكلّ أهل الموقف

اللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ للتّعليل، أي: لأجل أنْ يراها كلّ من له قدرة على الرؤية، أي: انكشافًا تامًّا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 104.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 91.

لا يخفى على أحد، مثل قول العرب: قد تبين الصبح لذي عينين، والمقصود عموم الظهور لا إلزام كل أحد بالنظر، فالناجي لا يلتفت إليها، لكنها مع ذلك مُبرزة في الموقف للجميع؛ تحقيقًا لكمال الهول والانكشاف يوم القيامة(1).

دلالة التَّعبير بالاسم الموصول:

كلّ راءٍ سيبصر الجحيم ظاهرة أمام عينيه

عبّر النّظم الجليل باسم الموصول في قوله جلّ شأنه: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾؛ للدّلالة على عموم من سيراها، أي: بُرّزت لكلّ راءٍ، بحيث إنّها لا تخفى على أحد منهم(2)، أي: كائنًا من كان؛ وذلك لأنّ (مَن) من ألفاظ العموم(3)، وفائدة تعميم الرّؤية أن يعرف المؤمن قدر نعمة اللّه عليه بالسلامة منها، ويزداد الكافر غمًّا إلى غمّه وحسرة إلى حسرته(4).

بلاغة التعريض باستعمال لفظ ﴿يَرَىٰ﴾:

من عمي عن الجحيم في الدنيا؛ رآها في الآخرة

آثر النّظم الكريم التعبير بلفظ الرّؤية في قوله جلّ شأنه: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾؛ للتّعريض بمن أغفل الرؤية في الدنيا عن الآخرة، فمن لم يرَ في الدنيا؛ فسوف يرى في الآخرة، ففيها تبكيت للكافرين الذين أعموا أبصارهم وبصائرهم عن رؤية الحقّ في الدّنيا، مع شمول الرؤية لكلّ من له قدرة(5)، وجيء بالفعل مضارعًا؛ للدّلالة على حدوث الرّؤية وتجدّدها لعموم النّاس، فأمّا الكافرون؛ فسوف يرون الجحيم بعد أن كانوا في غطاء عن ذكر اللّه في الدنيا، وأمّا المؤمنون؛ فهم رأوها في الدنيا علمًا يقينيًّا، ثم رأوها في الآخرة عين اليقين.

(1) الخطيب، السراج المنير: 4/ 481.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 285.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 91.
(4) القنوجي، فتح البيان: 15/ 69.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 91.

نوع (الفاء) ودلالتها:

الفاء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ استئنافيّة، والكلام المستأنف بعدها مسوق لبيان حال الناس في الدّنيا، وجزائهم في الآخرة[1].

بلاغة استعمال الأداة (أما):

الناس يوم القيامة فريقان لكلٍّ منهما حكم قاطع

استعمل النّظم الجليل حرف الشّرط (أمّا) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ المفيدة للتّفصيل والشّرط، فهي بمعنى: مهما يكن شيء[2]؛ ولذلك لزمتها الفاء في جوابها، فهي شرطية تربط الجزاء بالفعل ربطًا مباشرًا؛ إذ الأصل: مهما يكن من شيء، فمن طغى؛ فمأواه الجحيم، وهي تفيد التّفصيل؛ إذ قد جاءت بعد حديثٍ مجمل عن البعث وأهوال القيامة، ففصّلت حال النّاس في ذلك اليوم إلى قسمين: طاغٍ آثر الدنيا، وخائفٍ نَهَى النفس عن الهوى، وهكذا جمعت (أمّا) بين الشّرط الذي يربط، والتّفصيل الذي يوضّح، فجاءت في مقامها الأدقّ لتقسيم مصير الإنسان يوم القيامة بأشدّ صور البيان[3].

نكتة التَّعبير بالموصول:

عبّر النّظم الجليل بالاسم الموصول ﴿مَن﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾؛ للدّلالة على شمول الحكم وعمومه لكلّ من سلك سبيل الطّغيان.

نكتة إيثار التَّعبير بلفظ الطّغيان مادّة وصيغة:

لا نجاة لمجاوزة الحدّ بالعصيان

آثر النّظم الكريم التّعبير بالطّغيان في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾؛ للدّلالة على مجاوزة الحدّ في العصيان حتّى بلغ الكفر[4]،

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 91.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 91.
(3) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 437.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 599.

وجاء التّعبير بصيغة الماضي؛ للدّلالة على تحقّق الطّغيان، وإيثار ذكر لفظ الطغيان دون مقارباته؛ لمناسبة ذكره في شأن رمز الطغيان، وهو فرعون في بداية السورة، فهو تعريضٌ بمن سار على طريقه، وارتضى حاله.

نكتة عطف الإيثار على الطّغيان:

إيثار الدّنيا ثمرة الطّغيان ونتيجته المباشرة

عطف النّظم الجليل إيثار الحياة الدّنيا على الطّغيان في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ لأنّ إيثار الحياة الدّنيا نتيجة للطّغيان، فذكره بعده للتّنويه بأنّه مسبّب عن الطّغيان، وأنّه مترتّب عليه[1].

بلاغة استعمال مفردة الإيثار:

تفضيل القريب العاجل على الآجل إيثارٌ للنّار على الجنة

آثر النظم الكريم استعمال مفردة الإيثار في قوله جلّ شأنه: ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾، والمراد به تفضيل شيء على شيء في حال لا يتيسر فيها الجمع بين أحوال كل منهما، فدلَّ الإيثار على أنَّ الطغاة إذا عُرض عليهم نعيم العاجلة ونعيم الآجلة؛ آثروا القريب على البعيد، وكفروا بعد نيلهم حظوظ الفطرة، فالإيثار هو تقديم الدنيا على الآخرة بقصد تحصيل النّعيم، فعُلم من اللفظ وجود التفضيل الذي به استحقّوا العذاب، ونالوا العادل من الجزاء.

دلالة تعريف لفظ ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾:

نعيم الحياة الدّنيا عاجلٌ فانٍ، ونعيم الآخرة مؤجّل باقٍ

عبّر النّظم الجليل بلفظ ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ معرّفة بالألف واللّام؛ للدّلالة على أنّها الحياة المعهودة التي تُغري بحضورها، وتَخدَعُ بزخرفها، فهي الحياة المعهودة لذوي الأهواء، حياةُ اللذّات المحصورة في دار العاجلة، وليست حياةً مطلقةً تُنال في الدارين، فجاء التعريف والوصف معًا؛ ليرسما صورة الحياة التي آثرها الطاغي، فهي نعيمٌ زائلٌ يُختطف

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 91.

لحظةً، ويُضحّى لأجله بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر[1].

بلاغة المجاز بالحذف:

نعيم الدنيا المذموم هو ما أشغل عن نعيم الآخرة

حُذِف المضاف في قوله جلّ شأنه: ﴿وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾، والتقدير: نعيم الحياة الدنيا على نعيم الحياة الآخرة؛ لأنّه هو المخصوص بالذّم، وليس الذمُّ لعموم الحياة الدنيا ونعيمها ولذّاتها، بل هو لخصوص النعيم المُلهي عن الآخرة، وهذه فائدة استعمال مفردة الإيثار.

نوع (الفاء) ودلالتها:

الخلود في الجحيم موئل الطّغيان ومنتهاه

عبّر النّظم الجليل بالفاء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾، وهي واقعة في جواب (أمّا)[2]، تفيد الرّبط؛ تنبيهًا على أنّ الحكم بالجحيم هو جزاء للطّاغي الذي آثر الحياة الدّنيا.

نكتة توالي المؤكّدات:

مكان أهل الطّغيان الجحيم والنّيران

أكّد النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ بـ (إنّ) وضمير الفصل؛ للدّلالة على أنّه لا مأوى له سوى الجحيم، فهي منزله الذي ينزله، ومأواه الذي يأوي إليه لا غيرها[3]، وهي ردٌّ على من ظنَّ أنّه مستحقٌّ للخير في الآجلة؛ لنيل النعيم في العاجلة.

نكتة التَّعريف بالألف واللام في ﴿ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾:

الجحيم المُقيم هو المأوى الوحيد لمن عَميت بصائره في الدنيا

الألف واللّام في لفظ ﴿ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ عوضٌ عن المضاف إليه المحذوف، والتّقدير: فإن الجحيم مأواه؛ وذلك لأنّه قد عُلِم بأنّ صاحب المأوى هو الطّاغي،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 92.
(2) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 437.
(3) القنوجي، فتح البيان: 15/ 69.

كما في قولهم: غُضّ الطّرفَ، أي: غُضّ طرفَك[1]، ونكتة التعبير بهذا التعريف دون الإضافة، الإشعار بأنّ هذا المأوى الوحيد دون سواه، فتنقطع سبل النّظر في البحث عن سواه؛ إذ هو المأوى الذي يجب أن تنصرف إليه أبصار من عميت أبصاره في الدنيا، ورأى مأواه في نعيم زائل.

موازنةٌ تكشفُ تضادَّ المسلكين وتُبرزُ وجهَ الهدايةِ والضلال

نكتَّة عطفٍ ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ﴾:

عطف النّظم الجليل قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ على قوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ لذكر القسم الثّاني بعد القِسم الأوّل[2]، فهو تكميل وتتميم، وهو عطف للتّقابل والموازنة، لا لمجرّد الجمع بين حكمين؛ إذ أراد إظهار القسمين المتضادّين في موقف الحساب: من طغى، وآثر الدنيا، ومن خاف المقام، ونهى النفس، فجاء العطف بالواو؛ للدلالة على استقلال كلّ قسم بحكمه لا على ترتيب أو تعقيب، وأظهر العطف بأن مناط الذمّ ليس لمطلق نيل الدنيا، بل لإيثارها على الآخرة[3].

نكتة التَّعبير بالموصول:

كلّ متّقٍ للرحمن مأواه الجنان

عبّر النّظم الجليل بالاسم الموصول ﴿مَنۡ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾؛ للدّلالة على شمول الحكم وعمومه لكلّ من خشي مقام ربّه، ونهى نفسه عن اتّباع الهوى.

بلاغة الكناية في خوف المقام:

نسبة الخوفِ إلى المكانِ يدلُّ على خشيةِ صاحبِ المكان تعظيمًا لجلاله

عبّر النّظم الجليل بالخوف من المقام في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ كناية عن الجلال والمهابة، التي تدلّ على تعظيم اللّه تعالى، فأصل المقام مكان القيام، وهو من قبيل الكناية

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 104.

(2) القنوجي، فتح البيان: 15/ 70.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 92.

المطلوب بها نسبة إلى المكنى عنه، فإنّ خوف مقام اللّه يراد به خوف اللّه ذاته[1]، فليس المقصود خوف مكانٍ يُقام فيه، بل خوفُ اللّه نفسه، غير أنّ النّظم عبّر بالمقام تعظيمًا؛ لأنّ مقام الربّ هو موطن جلاله ومهابة سلطانه، فكان ذكر المكان كنايةً عن صاحبه.

علّة عطف نهيِ النَّفسِ على الخوف:

الخوفُ الباطنُ يثمرُ انكفافًا ظاهرًا عن الباطل

عطف النّظم الجليل قوله: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ على قوله تعالى: ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾؛ لأنّ نهي النفس هو الثمرة العملية للخوف، والبيان التطبيقي لما أحدثه تعظيمُ المقام في القلب، فالخوف شعورٌ داخليّ، ونهي النفس أثرُ ذلك الخوف، فهو دليل يشهد على صدقه، فجاء العطف لترتيب أثر على مؤثّر، فإنّ الرّجل يهمّ بالمعصية، فيذكر مقامه للحساب، فيتركها[2].

فائدة ذكر فعل (نهى):

مدحُ من نهى نفسَه عن غيِّها تعريضٌ بمن اتّبع شهواته

عبّر النّظم الجليل بالفعل ﴿وَنَهَى﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾؛ للدّلالة على زجر النّفس عن المعاصي، وكفّها عن المحارم التي تشتهيها بحكم الجبلّة البشرية[3]، وليعلم الطُّغاة أنَّ نفوس المؤمنين الخائفين من اللّه تعالى تشتهي كما يشتهون، لكنّهم نهوا نفوسهم عن متابعة الملذّات، وتتبع الشهوات، فنالوا الخيرات، وفازوا بالجنّات، فهو تعريضٌ بمن أتبع نفسه هواها.

توجيه تخصيص (﴿ٱلنَّفۡسَ﴾ و﴿ٱلۡهَوَىٰ﴾) بالذّكر:

مجاهدة المؤمن لنفسه برهان صدقه مع ربِّه

آثر النّظم الكريم التّعبير بالنّفس والهوى في قوله جلّ شأنه: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾؛ لأنّهما أبلغ ما يبيّن حقيقة الصراع الباطني، الذي يدور في قلب المؤمن، فيزجرها، ويعلّمها بالصبر

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 93.
(2) القنوجي، فتح البيان: 15/ 70.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 93.

والتوطين على إيثار الخير[1]، فالنّفس هي محلّ البواعث والدّوافع، والهوى هو ميلها إلى الشّهوات والمعاصي ممّا يخالف الشّرع، فجاء ذكر النّفس مُعرَّفةً؛ للدّلالة على جنس النّفس الإنسانية المعتادة التي تجتمع فيها نوازع الخير والشّر، لا نفسًا مخصوصة؛ ليُفهِم أنّ العبرة عامّة، وأنّ المجاهدة مطلوبة من كلّ إنسان، وعُرِّف الهوى تعريف الجنس؛ ليشمل كلَّ ما تشتهيه النّفس ممّا هو على خلاف هدى الله، فلا يُحصر في شهوة دون أخرى، وبذلك يعبّر النّظم عن صورة كاملة لطبيعة المجاهدة: نفسٌ تميل، وهوى لكلّ ميل محرَّم، وزاجرٌ يردّها[2].

معنى ﴿عَنِ﴾:

نبذ المعاصي والذنوب مزيّة العبد المرغوب

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ الدّالّ على المجاوزة ﴿عَنِ﴾، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾؛ للدّلالة على نبذ الذّنوب بزجر النّفس عن الميل إلى المعاصي والمحارم[3]، فالمؤمن مباعد مفارق لكلّ معصية لله تعالى.

معنى (الفاء) ودلالتها:

موئل مَن يخشى ربّه جنّات النّعيم خالدًا فيها

الفاء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ واقعة في جواب (أمّا)[4]؛ لربط الجواب بشرطه، وللتنبيه على أنّ الجزاء الأوفى بالجنّة هو جزاء لمن خاف مقام ربّه، وكفّ نفسه عن هواها.

نكتة توالي المؤكّدات:

طمأنة المؤمنين بدار القرار راحةٌ بعد رؤية أهل النّار

تتابعتِ المؤكّداتُ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، فأكّد النّظم الجليل الجملة بكونها اسميّة وبتصديرها بـ (إنّ) وضمير الفصل؛ للدّلالة على أنّه لا مأوى لمن خشي الله تعالى إلّا

(1) السمعاني، تفسير السمعاني: 6/ 153، والخطيب، السراج المنير: 4/ 482.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 93 - 94.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 93.
(4) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 437.

الجنّة، فهي منزله الذي ينزله، ومأواه الذي يأوي إليه لا غيرها[1]، ففيه قطعٌ لأصحاب الشكِّ والافتراء عمّا يذكرونه في حقِّ المؤمنين، وتسلية وراحة للمؤمنين بمعرفة أن لا سبيل إلّا ما ارتضاه الحقّ لهم في دار الخلود.

نكتة تكرار التَّعبير بالمأوى:

صورتان متقابلتان ترسّخان معنى الانتهاء إلى مستقرٍّ محتوم

كرّر النّظم الكريم لفظ ﴿ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾، وقوله تعالى سابقًا: ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾؛ لأنّه واردٌ في سياق ذكر مصير الفريقين، فالمقام مقامُ تقريرٍ للمآل وبيانٍ للمستقرّ الأخير، فعرّف اللفظة تعريفَ العهد؛ ليحيل السامع إلى المأوى المعهود لكل فريق: مأوى الطاغي في العذاب، ومأوى الخاشي في الجنة، وجاء التكرار؛ ليُبقي الصورة حيّة في الذهن: إنّ كلّ طريق ينتهي إلى مأوى لا محيد عنه، وأنّ المسألة ليست عملًا عابرًا بل استقرارًا أبديًّا[2]، ولبيان أنّ المأوى هو مكان الاستقرار الخالد للفريقين، بقطع النّظر عن مضمونه، فالمأوى وصفٌ للاستقرار، وأمّا نوعه؛ فمأخوذٌ من ذكر الجحيم والجنة، وفيه بيانٌ للكافرين بأنَّ ما حسبوه قرارًا في الدنيا ما هو إلّا وهم زائل، وكذب ذاهب.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإيثار والتَّفضيل:

التّفضيل زيادة في الخير لأحد، والإيثار إبقاء الخير له

الإيثار من الأثر، وهو الأثر الباقي[3]، وآثرتك: فضّلتك، واستبقيتك، أي: تمسّكتُ بك وحدك، قال تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ [يوسف: 91]، أي: فضَّلك، ﴿وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾

(1) القنوجي، فتح البيان: 15/ 70.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 93.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أثر).

فضّلها، أي: تمسّك بها واستبقاها، ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الحشر: 9]، أي: يفضّلون غيرهم مستبّقين له الخير[1]، أمّا التّفضيل؛ فمن الفضل، وهو الزّيادة في شيء، فالفَضْل: الزّيادة والخير[2]، فالأصل يدلّ على زيادة من مادة الشّيء متميزة عنه: كفضل الإزار وفضول المال والغنائم، وفَضَّله على غيره: جعله، أو عدّه أفضل منه، كقوله تعالى: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ﴾ [الرعد: 4][3]، فالتّفضيل هو تفضيل أحد على أحد في الزّيادة من شيء ما، أمّا الإيثار؛ فهو تفضيل أحد بإبقاء الخير له، فإيثار الحياة الدّنيا هو تفضيلها بإبقاء العمل لها والتّهالك على لذّاتها.

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أثر).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).

(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فضل).

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ
٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ٤٤ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ٤٥ كَأَنَّهُمۡ
يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ٤٦﴾ [النازعات: 42 - 46]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال من ذكر السّاعة إلى السؤال عن وقتها

لـمّا استوفتِ الآيات السّابقة أدلّة إمكان البعث، ثم عرضت ما فيها من أهوال، وأحوال الفريقين في مآلهم؛ ناسب ذكر تساؤل الناس عن موعد السّاعة وزمان مجيئها، فلمّا سمع المشركون ذكر السّاعة؛ توهّموا أنّ ما سمعوه من ذكر الطامّة الكبرى يقتضي معرفة وقتها، فسألوا استهزاءً وتعجيزًا: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾، فكان الانتقال هنا امتدادًا للحجّة، وفضحًا لاعتراضهم، وتعجيبًا من سؤالهم بعد أن اكتملت أمامهم البراهين على إمكان البعث ووجوب وقوعه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُرۡسَىٰهَا﴾: (رسو) أصلٌ يدلُّ على ثباتٍ، وأرسى اللّه جل ثناؤه الجبال، أي: أثبتها، وجبلٌ راسٍ: ثابت[2]، ورسا الجبلُ يرسو؛ إذا ثبت أصله في الأرض، ورست السفينة: انتهت إلى قرار الماء، فبقيت لا تسير[3]، فأصل الرُّسوِّ يَدُلُّ على ثبات الشَّيءِ بلزوم أسفله أو باطنه ما يُمسِكُهُ بتَمَكُّنٍ[4]، والمُرْسَى يقال للمصدر، والمكان، والزمان، والمفعول، وقوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾ [الأعراف: 187]، أي: زمان ثبوتها[5]، والمراد به في الآية الكريمة: متى زمانها؟[6].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 50، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 94.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رسى).
(3) الخليل، العين: (رسو)، والرّاغب، المُفردات: (رسا)، والسّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 239.
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رسو).
(5) الراغب، المفردات: (رسا).
(6) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 200.

2) ﴿عَشِيَّةً﴾: (عشو) أصْلٌ يدلُ على ظَلام وقِلَّةِ وُضوحٍ في الشَّيْءِ، ثُمَّ يُفَرَّعُ مِنْهُ ما يُقارِبُهُ، مِنْ ذَلِكَ العِشاءُ، وهوَ أوَّلُ ظَلامِ اللَّيْلِ، وعَشْواءُ اللَّيْلِ: ظُلْمَتُهُ[1]، والعَشيُّ من زوال الشمس إلى الصّباح، قال تعالى: ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾، والعِشاءُ: من صلاة المغرب إلى العتمة، والعِشاءانِ: المغرب والعتمة[2]، والعشيّ: آخر النّهار، فإذا قلت: عَشيّة؛ فهي ليوم واحد، تقول: لقيتُه عشيّةَ يوم كذا، وعشيّةً من العَشيّاتِ[3]، والمراد به في الآية الكريمة: ما بعد الزّوال[4].

المَعنى الإجْماليُّ:

هَـوْلُ الـسّـاعـةِ يُـصـغِّـرُ عُـمُـرَ الدُّنيا

تُبيِّن الآيات الكريمة استهزاءَ المشركين وسؤالهم النبيّ ﷺ عن وقت وقوع الساعة التي يتوعّدهم بها، متى يكون وقوعها؟ وليس للنبيّ علمٌ بزمانها؛ إذ علمها مستأثر به عند الله وحده، لا يُطلع عليه أحدًا من خلقه، ولا مصلحة للعباد في معرفته، بل الحكمة هي في إخفائه، ووظيفة الرّسول أن ينذر من يخشى وقوعها، ويتّعظ بها، وحين يشاهد المكذبون قيام الساعة كأنّهم لم يلبثوا إلّا زمانًا قصيرًا، فيُخيَّل إليهم لشدّة الفزع أنَّ عمرهم لم يزد على فترةٍ قصيرة من النهار، عشيّة أو ضحوة[5].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصل جملة السؤال:

سؤال المكذّبين بعد عرض البراهين تكذيب في الدّين

فصل النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾؛ لأنّها مستأنفة استئنافًا بيانيًّا، على فرضِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عشو).
(2) الراغب، المفردات: (عشا).
(3) الخليل، العين: (عشو).
(4) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 201.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 910، وجماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 584.

توجيه سؤال تقديره: فما موقف المشركين من السّاعة؟ وماذا قالوا بعد هذا البيان الكاشف؟ فجاء الإخبار عن سؤالهم للتّعريف بما قالوه، والإنكار عليهم ما قالوه.

دلالة التَّعبير بالمضارع:

التعبير بصيغة المضارع ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾؛ لتصوير مشهد المشركين في سؤالهم المتكرر المستهزئ عن وقت مجيء السّاعة.

معنى ﴿عَنِ﴾:

التعبير بحرف ﴿عَنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾؛ للدّلالة على المقصود بالسّؤال، فموضوع سؤالهم وقت قيام السّاعة.

بلاغة الإظهار في موضع الإضمار:

اسم السّاعة هو الأنسب في سياق السؤال عن وقت المجيء

آثر النّظم الكريم التّعبير بالاسم الظّاهر دون المضمر في قوله جلّ شأنه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ دون أن يقول: (يسألونك عنها)؛ إذ قد تقدّم ذكر الطّامّة؛ لمناسبة كلٍّ لفظ السياق الخاص الذي جاء فيه، فالطامة ناسبت الأهوال المذكورة سباقًا ولحاقًا، والساعة ناسبت السؤال عن وقت المجيء، فإنّ الساعة زمنٌ، وهو اللفظ الأنسب فيما سيق له اللفظ، وقيل: لقصد التّفنّن بذكر القيامة بأكثر من وصف، ولاستقلال الجملة بدلالة مستقلّة تؤكّد على قوّة استهزائهم بالمسؤول عنه[1].

غرض الاستفهام ودلالته:

سؤال المشركين تعبيرٌ عن اعتقادهم باستحالة البعث

عبّر النّظم الجليل بالاستفهام في قوله جلّ شأنه: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾، والمراد به السّؤال عن الزّمان، أي: متى يقيمها اللّه تعالى، ويكوّنها، ويثبتها[2]. فـ ﴿أَيَّانَ﴾ اسم يُستفهم به عن تعيين الوقت،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 95.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 238.

وأصله: أيّ آن[1]؟ ونكتة الاستفهام بهذا اللفظ الاستبعاد؛ تعبيرًا عن اعتقادهم باستحالة وقوعها[2].

بلاغة استعمال مفردة المرسى:

السّاعة آتيةٌ ولا بدَّ لها من رسوٍّ إذا وصلت

آثر النّظم الكريم التّعبير بالمرسى في قوله جلّ شأنه: ﴿أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾؛ للدّلالة على المستقرّ والمنتهى، أي: متى يقيمها، ويثبتها؟ وهو موعد منتهاها ومستقرّها، كمرسى السّفينة، وهو المكان الذي تنتهي إليه، وتستقرّ فيه[3]، ففي استعمال هذا اللفظ مناسبة لفظيّة لما تقدم من ذكر إرساء الجبال، وهو كذلك بيان لسؤالهم عمّا فهموه من كون الساعة آتيةً لا محالة، فسألوا عن وقت الرسوّ الكاشف عن الوصول.

علّة فصل جملة: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾:

إنكار السّؤال عن تعيين وقت السّاعة

فصل النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾؛ لأنّها مستأنفة، سيقت مساق الجواب عن سؤالهم عن وقت حلول الساعة[4]، فهو ردّ يتضمّن الإنكار على سؤالهم[5].

غرض الاستفهام ودلالته:

نفي معرفة موعد السّاعة يشملُ الخلائق كلّها

عبّر النّظم الجليل بأسلوب الاستفهام في قوله جلّ شأنه: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾، والمراد به النّفي والجحد[6]، أي: في أيّ شيء أنت من ذكر القيامة والسّؤال عنها، وهو استفهام إنكار، ورد لسؤال المشركين عنها، أي: في أيّ شيء أنت من ذلك حتّى يسألوك عنها، ولست تعلمها، مع كونك آخر الأنبياء، فأنت علامة من علاماتها[7].

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 94.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 95.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 50، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 285.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 95.
(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 94.
(6) الواحدي، البسيط: 23/ 203.
(7) القنوجي، فتح البيان: 15/ 70.

دلالة التعبير بلفظ ﴿فِيمَ﴾:

توهُّم الكافرين بإحاطة النّبوّة بمعرفة زمان السّاعة دليل الجهل

جمع النّظم الجليل بين (في) و(ما) الاستفهاميّة في قوله جلّ شأنه: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾، والمعنى: في أيّ شيء؟ وحرف الجرّ هنا دالٌّ على الظّرفيّة المجازيّة، وذلك بجعل المشركين في سؤالهم عن وقت الساعة كأنّهم جعلوا النّبيّ ﷺ محوطًا بذكر وقت الساعة، أي: إنّه متلبّس به تلبّس العالم بالمعلوم، وحذف الألف من (ما)؛ لوقوعها بعد حرف الجرّ[1].

نكتة تقديم ﴿فِيمَ﴾ على المبتدأ:

الإنكار متسلّط الظّنّ بإمكان أحد معرفة ميقات السّاعة

قدّم النّظم الجليل شبه الجملة على المسند إليه في قوله جلّ شأنه: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾؛ وذلك للاهتمام بالمبتدأ؛ ليفيد أنّ الخبر هو مناط الإنكار، ولو قيل: (أأنت في شيء من ذكراها)؛ لكان الإنكار منصبًّا على المخاطَب، وهو خلاف المراد[2].

معنى ﴿مِن﴾:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾ تبيّن الإبهام الذي في (ما) الاستفهامية، أي: في شيء هو أن تذكرها، فأنت لست متصدّيًا لشيء هو ذكرى السّاعة[3].

سرُّ إيثار التَّعبير بالذّكرى:

المقصود بالذكرى ذكر اللسان والمنطق

عبّر النّظم الجليل بلفظ الذّكرى في قوله جلّ شأنه: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾؛ للدّلالة على الذّكر، أي: "في أي شيء أنت من أن تذكر وقتها لهم، أي ما أنت من ذكرها لهم، وتبيين وقتها في شيء، فإن ذكرها لا يزيدهم إلّا غيًّا، ووقتها مما استأثره اللّه تعالى بعلمه"[4]، وهي هنا اسم مصدر من الذّكر، أي: الذّكر اللّساني[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 96.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 96.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 96.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 285.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 96.

علّة فصل جملة ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾:

بيان علّة انتفاء العلم بالسّاعة

فصل النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾؛ لأنّها مستأنفة استئنافًا تعليليًّا؛ إذ لمّا نفى علم النّبيّ ﷺ بها؛ أتبعه بتعليل ذلك، فإنّه لا يعلمها أحد غيره، فإذا كان ذلك كذلك؛ فكيف يسألونك عنها، ويطلبون منك بيان وقت قيامها[1]؟.

دلالة التّعبير بعنوان الرُّبوبيّة دون الألوهيّة:

تدبير شؤون العباد من مقتضيات الربوبية

آثر النّظم الكريم التّعبير بالرّبوبيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾؛ لأنَّ الرَّبَّ هو المالكُ المطاع المدبِّر، وملكه الشاملُ يستلزم علمَه التفصيليَّ بكلِّ شؤون خلقه، فهو العالم بما يصلح لعباده، فكان إخفاء وقت السّاعة من لطف ربّ العباد بهم، وللإشارة بأنّ من يملك الأمرَ كلَّه، فإنّه وحده الذي يعلم موعد السّاعة.

بلاغة القصر بتقديم شبه الجملة:

العلم بميعاد السّاعة من خصوصيّات الربوبيّة

عبّر النّظم الجليل بأسلوب القصر بتقديم شبه الجملة على المبتدأ، في قوله جلّ شأنه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾؛ للدّلالة على أنّ أحدًا سواه تعالى لا يعلم وقتها، فعلمها منفيٌّ عن غيره جلّ شأنه[2]، وهو قصر صفة على موصوف، فصفة العلم بميقات السّاعة مقصورة على اللّه تعالى[3].

دلالة إيثار التّعبير بلفظ المنتهى:

الإيماء إلى قرب قيام السّاعة دون تعيين الوقت

عبّر النّظم الجليل بلفظ المنتهى في قوله جلّ شأنه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾، وهو دالّ على الوصول والبلوغ؛ وذلك للدّلالة على أنّ علم موعد الساعة ينتهي إلى اللّه تعالى، أي: يتوقّف الخبر عن وقتها عنده تعالى، أي: هو وحده الذي يعلمه[4]، وللإيماء إلى أنَّ الساعة

---

(1) القنوجي، فتح البيان: 15/ 71.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 460.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 96.
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نهى).

لها منتهى قادم، وأنَّ الوقت كاد أن ينفد، فالمسارعة إلى الإيمان خير من المعاجلة بالسؤال عمّا لا نفع فيه، ففيه إيماءٌ إلى قرب السّاعة مع عدم تعيينه.

نكتة المجاز بالحذف:

أُضيف لفظ المنتهى لمحذوف تقديره: منتهى علمها، فالسّؤال والحديث لم يكن عن السّاعة بل عن وقتها وميعادها[1]، فحذف المضاف الذي أضيف إلى الضّمير للعلم به إيجازًا في التّعبير.

علّة فصل جملة ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾:

وظيفة المرسَلين الإنـذار لا تعيين الميعاد

فصل النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾؛ لأنّها مستأنفة استئنافًا بيانيًّا، فلمّا قصر النّظم الجليل علم السّاعة على اللّه تعالى، فكأنّ سائلًا سأل: فما وظيفة النّبيّ ﷺ؟ فأجيب بأنّ النّبيّ ﷺ حظّه التّحذير من بغتتها، وليس حظّه الإعلام بتعيين وقتها[2].

بلاغة القصر بـ ﴿إِنَّمَآ﴾:

الـنّـبـوّة تبليغ وإنــذار وهداية وإرشاد

عبّر النّظم الجليل بأسلوب القصر بـ ﴿إِنَّمَآ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾؛ ليقصر وظيفة النبوّة على الإنذار، ولا وظيفة للنّبيّ ﷺ غير ذلك من الأخبار، كالإخبار بوقت السّاعة ونحوه ممّا استأثر اللّه تعالى بعلمه[3]، وهو قصر موصوف على صفة، فخصّ المخاطَب بصفة الإنذار، وهو قصر إضافي، أي: مقتصر على التّبليغ بالنّسبة إلى ما اعتقدوه فيه من معرفة الغيب[4].

بلاغة التَّعبير عن الإنذار بصيغة اسم الفاعل:

الإنــذار تحذير من خطر قـادم بقصد الشفقة والرحمة

آثر النّظم الكريم التّعبير بالإنذار في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّمَآ

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 460.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 97.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 51، والقنوجي، فتح البيان: 15/ 71.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 97.

﴿أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾؛ للدّلالة على أنّ وظيفة النّبيّ ﷺ التّخويف بشأن السّاعة، فإنَّ مقتضى الإنذار التّخويف من خطرٍ قادم بقصد الشفقة والرحمة، وهو الأنسب بسياق الآيات، وجاء التّعبير بصيغة اسم الفاعل؛ للدّلالة على ثبوت الصّفة، وكون النبوّة راسخة في الإنذار والتّبليغ[1].

توجيهُ القراءاتِ في ﴿مُنذِرُ﴾:

بلاغة القراءات بين الحال والاستقبال

قَرَأَ أبو جَعْفَرٍ بتَنْوينِ ﴿مُنذِرٌ﴾، وقَرَأَ الباقونَ بغَيْرِ تَنْوينٍ: ﴿مُنذِرُ﴾[2]. والأصل هو التنوين، والإضافة تخفيف، وكلاهما يصلح للحال والاستقبال، فإذا أريد الماضي فليس إلا الإضافة، كقولك: (هو منذرُ زيدٍ أمسِ).

وفي إضافة ﴿مُنذِرُ﴾ إلى: ﴿مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ أو نصبه به، إيجاز حذفٍ تقديره: (منذرها فينتذر مَن يخشاها)، وقرينة ذلك حاليّة، للعلم المتواتر من القرآن بأن النبي ﷺ كان ينذر جميع الناس لا يخصّ قومًا دون آخرين. فإن آيات الدعوة من القرآن ومقامات دعوة النبي ﷺ لم تكن إلا عامة. ولا يعرف من يخشى الساعة إلا بعد أن يؤمن المؤمن، ولو عرف أحد بعينه أنه لا يؤمن أبدًا لما وجهت إليه الدعوة، فتعين أن المراد: أنه لا ينتفع بالإنذار إلا مَن يخشى الساعة ومن عداه تمرّ الدعوة بسمعه فلا يأبه بها، فكان ذكر ﴿مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ تنويهًا بشأن المؤمنين وإعلانًا لمزيّتهم وتحقيرًا للذين بَقوا على الكفر[3].

توجيه تخصيص الخشية بالذكر:

إنّما ينتفع بالإنذار مَنْ علِمَ فخشيَ

عبّر النّظم الجليل بالاسم الموصول ﴿مَن﴾ في قوله جلّ شأنه:

(1) القنوجي، فتح البيان: 15/ 71.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 398.
(3) الزمخشري، الكشّاف: 4/ 699، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 97.

﴿مَن يَخۡشَىٰهَا﴾؛ ليعمّ كلّ من يخشى السّاعة، وإنّما خصّهم دون غيرهم؛ لأنّهم المنتفعون بالإنذار دون سواهم، وإن كان هو منذرًا لكلّ مكلّف مسلمًا كان أو كافرًا[1].

سرّ التّعبير بالخشية مادّة وصيغة:

الخوف من السّاعة خوفٌ مشوبٌ بتعظيمها

عبّر النّظم الكريم بالخشية في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾؛ لأنّ الخشية مقترنة بالتّعظيم، فهي خوف يشوبه تعظيم[2]، ولا يخشى أحد السّاعة إلّا بعد الإيمان واليقين، وجاء التّعبير بالمضارع للدّلالة على دوام خشيتهم.

علّة فصل جملة التشبيه:

جواب المكذّبين بتأكيد حصول القيامة

فصل النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾؛ لأنّها مستأنفة سيقت للجواب على المفهوم من كلام السّائلين عن وقتها، فإنّ حالهم يدلّ على تكذيب وقوعها، فأجيبوا بأنّ تأخّر حصولها لا يمنع وقوعها، بل إنّهم يوم وقوعها كأنّهم ما لبثوا في انتظارها إلّا بعض يوم[3].

بلاغة التّشبيه:

لا يشعر الميّت بطول زمان البرزخ

عبّر النّظم الجليل بأسلوب التّشبيه في قوله جلّ شأنه: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾، فشبّه حالهم يوم القيامة بحالة من لم يلبث إلّا عشيّة، والعشية: معبّر بها عن مدّة يسيرة من زمان طويل[4]، والمراد من التّشبيه تقرير ما دلّ عليه الإنذار من سرعة مجيء المنذَر به، فإنّ الدّنيا قد تصاغرت عندهم، وقلّت في أعينهم[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 51.
(2) الراغب، المفردات: (خشى).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 98.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 98.
(5) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 201، والقنوجي، فتح البيان: 15/ 72.

نكتة التَّعبير بالظرف ﴿يَوۡمَ﴾:

الإدراك الوشيك لضآلة الدّنيا إزاء يوم واحد من أيّام الآخرة

عبّر النّظم الجليل بالظّرف ﴿يَوۡمَ﴾، في قوله جلّ شأنه: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا﴾؛ للدّلالة على قصر الدّنيا، وطول زمان القيامة، فإنّ إدراك ضآلة الدّنيا يتحقّق بطول ذلك اليوم، فخلال اليوم يدركون أنّهم ما لبثوا إلّا ساعة من نهار.

دلالة التَّعبير بفعل الرُّؤية مادّة وصيغة:

العلم يوم القيامة علم يقيني كالعلم بالرّؤية

آثر النّظم الكريم التّعبير بفعل الرّؤية في قوله جلّ شأنه: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا﴾؛ للدّلالة على العلم الحاصل بالرّؤية، أي: علموا علمًا هو كالرّؤية في يقينه وحقيقته، وإشارة إلى أنّهم يرون ما يحدث فيها بعد سماع الصّيحة وقيامهم من القبور، مع علمهم بما مرّ من زمانهم وما أتى فيه[1].

سرُّ إيثار التَّعبير بمفردة اللُّبث:

مهما طالت الإقامة؛ فهي قصيرة عند انتهائها

آثر النّظم الكريم التّعبير بفعل اللّبث في قوله جلّ شأنه: ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾؛ لأنّه دالّ على الإقامة الطّويلة[2]، فإقامتهم في الدّنيا وفي القبور على طولها يحسبونها عشيّة واحدة[3].

نكتة تقديم شبه الجملة على الخبر:

إبراز زمان الرؤية باعتباره المقصود من الكلام

قدّم النّظم الجليل الظّرف على الخبر في قوله جلّ شأنه: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً﴾، فلم يقل: (كأنّهم لم يلبثوا إلّا عشيّة يوم يرونها)؛ وذلك للاهتمام بلحظةِ الرؤية نفسها، فهي مركزُ الهول، ومنشأُ الانقلاب في شعورهم بالزمن، ولو جاء التّرتيب على الأصل بتأخير الظّرف؛ لما دلّ على الاهتمام بزمان الرّؤية، فتقديمه جعله أكثر اهتمامًا.

(1) الخطيب، السراج المنير: 4/ 483.
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (لبث).
(3) الخطيب، السراج المنير: 4/ 483.

فائدة القصر بالنَّفي والاستثناء:

عبّر النّظم الجليل بأسلوب القصر في قوله جلّ شأنه: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً﴾؛ لحصر مدّة لبثهم بزمان قصير، فالمراد تقليل مدّة الدّنيا[1]، وهو قصر موصوف على صفة، فقصر اللّبث على مدّة قصيرة.

لبث الخلق قبل الساعة زمان قصير

دلالة التَّعبير بالعشيّة:

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ العشيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾، وهي المدّة من صلاة المغرب إلى العَتَمة[2]، ونكتة استعمال اللفظ الدّلالة على قصر مدّة لبثهم، أي: كأنّهم لبثوا وقتًا قصيرًا مع مظنّة طول اللبث، فإنّهم يستقصرون مدة لبثهم، ويزعمون أنهم لم يلبثوا إلّا قدر آخر نهار، فتقليل مدّة الدّنيا هو المقصود[3].

اللبث وإن طال في الأذهان فهو قصير في حقيقة الزمان

توجيه العطف بـ ﴿أَوۡ﴾:

عطف النّظم الجليل الضّحى على العشيّة بحرف العطف ﴿أَوۡ﴾، في قوله جلّ شأنه: ﴿عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾، وهي دالّة على التّخيير، وذلك للتّخيير في التّشبيه؛ وذلك لتأكيد قلّة مدّة اللبث[4].

قلّة زمان اللّبث كعشيّة أو كضحوة

نكتة إضافة الضّحى للضّمير:

أضاف النّظم الجليل لفظ الضّحى إلى ضمير العشيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾، مع أنّ الضحى يُضاف إلى النّهار لا إلى العشيّة، ومسوّغ هذه الإضافة أنّ الضّحى يسبق العشيّة، فصار ضحى ذلك اليوم يعرف بالإضافة إلى عشيّة اليوم؛ لأنّ العشية آخره، فضلًا عن أنّ في الإضافة مراعاة للفاصلة التي تنتهي بحرف الهاء[5].

بأواخرها تعرف الأمور

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 460.
(2) الجوهري، الصحاح: (عشا).
(3) القنوجي، فتح البيان: 15/ 72.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 98.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 98 - 99.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المنتَهَى والمصير:

المصير هو المآل أمّا المنتهى؛ فهو نهاية ووصول وبلوغ

المصير: هو المآل والمرجِع[1]، وصارَ إلى كذا: انتهى إليه، قال تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾ [الشورى: 15][2]، أمّا المنتهى؛ فهو من (نهي)، وهو يدلّ على غاية وبلوغ، ومنه أنهيتُ إليه الخبر: بلّغته إياه[3]، ونهاية الشيء: آخره[4]، فالمصير هو المآل أمّا المنتهى؛ فهو نهاية ووصول وبلوغ، فعبّر في الآية بالمنتهى؛ للدّلالة على أن علم السّاعة منتهٍ عند اللّه تعالى لا يبلغ أحدًا سواه.

العشيَّة والمَساء:

المساء مقابل للصّباح، والعشيَّة بعض المساء

المساء خلاف الإصباح[5]، ويمتدّ من الزّوال إلى الصّبح[6]، أمّا العَشيَّةُ؛ فهي من صلاة المغرب إلى العَتَمة[7]، فالعشيّة أقصر زمانًا، وهي جزء من المساء، وعبّر بها النّظم هنا؛ للدّلالة على مدّة قصيرة من الزّمان.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صير).
(2) الراغب، المفردات: (صير).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نهي).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (نهي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسي).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (مسي).
(7) الجوهري، الصحاح: (عشا).

سُورَةُ عَبَسَ

سُورَةُ عَبَسَ

التّعريف العامّ بالسّورة:

المكّي والمدنيّ وعد الآي:

ذَكَرَ ابنُ عطيّة إجماع المفسّرين على مكّيّتها[1]، وبذلك قال القرطبيّ[2]، والسّيوطيّ[3].

وأمّا عدد آياتها فيقول فيها الدّانيّ: "وَهي أَرْبَعونَ آيَة في الشّاميّ، وإِحْدَى وأَرْبَعونَ في عدد أبي جَعْفَر والبصريّ، واثْنَتانِ وأَرْبَعونَ في عدد الباقينَ، اختلافها ثَلاث آيات ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ لم يعدّها البَصْريّ والشّاميّ، وعدّها الباقونَ، ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ لم يعدّها أبو جَعْفَر وحده وعدّها شيبَة والباقونَ، ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ لم يعدّها الشّاميّ وعدّها الباقونَ"[4].

ترتيب النّزول وترتيب المصحف:

جـاء ترتيبها المصحفيّ بين سورتيّ النّازعات والتّكوير

هذه السّورة هي الثّمانون في التّرتيب المصحفيّ الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت والمُعوّل عليه عند أهل النّظر والتّحقيق، وقد جاء ترتيبها بين سورتي (النّازعات) و(التّكوير)، وأمّا ترتيبها النّزوليّ، فعُدّتِ السّورَةَ الرّابعةَ والعِشْرينَ في ترتيب نزول السّور، نزلت بعد سورة (النّجم) وقبل سورة (القدر)[5].

فضائل السّورة:

هذه السّورة من سور المفصّل

هذه السّورة الكريمة من أواسط المفصّل الذي قال فيه الحبيب ﷺ فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 436.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 211.
(3) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 42.
(4) الداني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 264.
(5) دروزة، التّفسير الحديث: 2/ 121، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 101.

السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المِئينَ، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»[1].

اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

سورةُ عبس اشتهرت بهذا الاسم

وردت تسميتها بسورة ﴿عَبَسَ﴾ في صحيح البخاري[2]، وفي المصاحف المشرقيّة والمغربيّة وفي جميع التفاسير، وذكر ابن عاشور لها أسماء أخرى وردت في كتب السّابقين ولم يقم عليها دليلٌ يُعوّل عليه وهي: الصّاخّة، السّفَرة، الأعمى، لورود هذه الألفاظ فيها، وتُسمّى كذلك سورة ابن أمّ مكتوم[3].

والحقّ أنّ اسمها ارتبط بمحورها ارتباطًا مباشرًا، وقد قام البِقاعيّ بالرّبط بين اسمها ومقصودها خير ربطٍ فقال: "ومقصودها: شرح ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ٤٥﴾ [النازعات: 45] بأنّ المراد الأعظم: تزكية القابل للخشية للتّخويف بالقيامة، التي قام الدّليل على القدرة عليها بابتداء الخلق من الإنسان، وبكلٍّ من الابتداء والإعادة لطعامه، والتّعب ممّن أعرض مع قيام الدّليل، والإشارة إلى أنّ الاستغناء والتّرف أمارة الإعراض وعدم القابلية، والتّهيُّؤ للكفر والفجور، وإلى أنّ المصائب أمارة الطّهارة والإقبال، واستكانة القلوب وسموّ النّفس بشريف الأعمال؛ واسمها "عبس" هو الدّال على ذلك، لتأمّل آياته، وتدبّر فواصله وغاياته"[4].

المحور العامّ للسورة:

محور السّورة يقوم على بيان حقيقة الإنسان وإثبات وقوع القيامة وبيان أحوال النّاس فيها

هذه السّورة متّفقة مع سلسلة السّور التي سبقتها من: القيامة والإنسان والمرسلات والنّبأ والنّازعات في إثبات وقوع يوم القيامة،

(1) ابن حنبل، المسند، حديث رقم: (16982)، والطبراني، المعجم الكبير: (22/ 76)، حديث رقم: (187)، والبيهقي، شعب الإيمان، حديث رقم: (2415)352.
(2) البخاري، صحيح البخاري: باب: تفسير سورة عبس: 4/ 1882.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 101.
(4) البقاعي، مصاعد النّظر: 3/ 154.

على اختلاف تسميته في هذه السّور، وفي بيان بعض أحداثه وما يجري فيه، وكذلك في بيان جزاء المكذّبين والمؤمنين به، إلّا أنّ هذه السّورة بيّنت المعيار القويم في تحقيق التّفاضل والموازنة بين الأشخاص والهيئات وبيان حقيقة موقفهم من خشية الله والإيمان باليوم الآخر، وذلك من خلال ما عرضته من قصّة الأعمى وما تطرّقت إليه بعد ذلك من أحوال الإنسان الكافر ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾.

وقد اقتضاها هذا المحور الحديث عما يأتي:

أوّلاً: بينت السورة لهم - كالسّور التي سبقتها - بعضَ مظاهر قدرة الله تعالى وآلائه اللّاتي تملأ الآفاق: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: 24 - 32].

ثانيًا: وضحت السورة أحوال النّاس يوم القيامة وما يتمنّاه الكافر في موضوع الافتداء من النّار، وبيان جزائه عند ربّه وكذلك جزاء المؤمنين ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ [عبس: 33 - 42].

مَدارُ السّورة يدور حول اختلاف الحال بين المشركين المعرضين عن هدي الإسلام وبين المسلمين المقبلين على تتبّع مواقعه

موضوعات السّورة وخصائصها:

يتجلى موضوع السورة العام في الاستدلال على إثبات البعث، وذلك من أعظم ما عني به القرآن من حيث إنّ إنكار البعث هو

الأصل الأصيل في تصميم المشركين على وجوب الإعراض عن دعوة القرآن توهُّمًا منهم بأنّه يدعو إلى المُحال، وجاء ذلك فيما يأتي:

أوّلاً: استدلّ عليهم بالخلق الذي خلقه الإنسان، واستدلّ بعده بإخراج النّبات والأشجار من أرض ميتة.

ثانيًا: أعقب الاستدلالَ بالإنذار بحلول السّاعة والتّحذير من أهوالها وبما يعقبها من ثواب المتّقين وعقاب الجاحدين.

ثالثًا: التّذكير بنعمة الله على المنكرين عسى أن يشكروه، والتّنويه بضعفاء المؤمنين وعلوّ قدرهم ووقوع الخير من نفوسهم والخشية، وأنّهم أعظم عند الله من أصحاب الغنى الذين فقدوا طهارة النّفس، وأنّهم أحْرياءُ بالتّحقير والذّمّ، وأنّهم أصحاب الكفر والفجور[1].

الخصائص الموضوعيّة للسورة:

تميّزت سورة عبس بخصائصَ أفردَتْها عن غيرها من السّور

أوّلاً: تميّزت السّورة الكريمة ببراعة الاستهلال، حيث استهلّت بالأفعال الماضية ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في حديثها عن النّبيّ ﷺ، وعتابه على ما جرى بينه وبين الأعمى، وقد شاركتها بعض السّور التي استهلّت بالأفعال الماضية لكنّ هذه السّورة تعلّقت أفعالها بالرّسول ﷺ وبصيغة الغائب.

ثانيًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حشدت - ومن خلال آيات متتابعة وقصيرة - موازنة بين فريقيْن من النّاس: من يذكرون الله تعالى ويزّكون أنفسهم ويخشونه ويَسْعَون لمرضاته، والفريق الآخر وهم الذين رأوا في أنفسهم أنّهم يستغنون عن هذا كلّه، فلا يزكّون أنفسهم ولا يخشونه ولا يسعون لنيل رضاه.

ثالثًا: تميّزت السّورة الكريمة بما وصفت به الملائكة من أنّهم سفرة كرام بررة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 102.

رابعًا: تميّزت بما عَرَضَتْه من حديثٍ عن مظاهر قدرة اللّه تعالى في تهيئة المأكولات والثّمار التي تناسب الإنسان.

خامسًا: تميّزت السورة بحديثها عن رغبة الكافر بالفرار يوم القيامة من أقرب النّاس إليه.

سادسًا: تميّزت السورة بموازنتها بين أصحاب الوجوه المسفرة والوجوه التي تعلوها الغبرة في يوم الحساب.

الخصائص الأسلوبيّة للسورة:

تـميّزت سـورة عبس بخصائصَ أفـردَتْـهـا عن غيرها من السّور

أوّلاً: برز في السّورة قاموس لألفاظ المزروعات من الخضار والفواكه مثل: الطّعام، الحبّ، العنب، القضب، الزّيتون، النّخل، الحدائق، الفاكهة، والأبّ.

ثانيًا: برز في السّورة الكريمة مركّبات وصفيّة كثيرة نذكر منها: ﴿صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾، ﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٍ﴾، ﴿وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا﴾، ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ﴾، ﴿ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾.

ثالثًا: برز في السّورة الكريمة أسلوب الجناس الاشتقاقيّ مثل: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾، ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا﴾، ﴿ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا﴾، ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾. وكذلك جاء فيها أسلوب الطّباق والمقابلات بين ﴿تَصَدَّىٰ﴾، و﴿تَلَهَّىٰ﴾، وبين ﴿فَأَقۡبَرَهُۥ﴾ و﴿أَنشَرَهُۥ﴾، وبين الوالدين ﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾، والزّوجة والأولاد ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾، وبين وجوه ﴿مُّسۡفِرَةٞ﴾ ووجوه ﴿عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ﴾.

رابعًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حوت أبنية صرفيّة لم تأت في غيرها من السّور، مثل: ﴿تَصَدَّىٰ﴾، ﴿تَلَهَّىٰ﴾، ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾، ﴿سَفَرَةٍ﴾، ﴿بَرَرَةٍ﴾، ﴿أَكۡفَرَهُۥ﴾، ﴿فَأَقۡبَرَهُۥ﴾، ﴿أَنشَرَهُۥ﴾، ﴿صَبَبۡنَا﴾، ﴿شَقَقۡنَا﴾، وغيرها.

خامسًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حوت ألفاظًا فريدة في مادّتها وبنائها الصّرفيّ وهي: ﴿وَقَضْبًا﴾، ﴿وَأَبًّا﴾، ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾.

سادسًا: تميّزت السّورة الكريمة بوفرة الأنساق التّعبيريّة التي لم تتكرّر في غيرها حتّى تكاد تكون كلّ أنساقها كذلك، ومنها: ﴿عَبَسَ﴾، ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾، ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾، ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾، ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾، ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾، ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾، ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾، ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾، ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾، ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾، وغيرها.

مناسبة السورة لما قبلها:

سورة عبس متّصلة تمامًا بسورة النّازعات مضمونًا وأسلوبًا

يقول الغرناطيّ: "لمّا قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ٢٦﴾ [النازعات: 26]، وقال بعد ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ٤٥﴾ [النازعات: 45]؛ افتتحت هذه السّورة الأخرى بمثال يكشف عن المقصود من حال أهل التّذكّر والخشية وجميل الاعتناء الرّبّاني بهم، وأنّهم وإن كانوا في دنياهم ذوي خمول لا يؤبه لهم، فهم عنده سبحانه في عداد من اختاره لعبادته وأهّله لطاعته وإجابة رسوله صلّى اللّه عليهم وسلّم، وأعلى منزلته لديه.

ومنهم ابن أمّ مكتوم الأعمى ﵁ مؤذّن رسول اللّه ﷺ، وهو الذي بسببه نزلت السّورة ووردت بطريق العتاب، وتنبيهًا على أن يحمل نفسه الكريمة على مصابرة أمثال ابن أمّ مكتوم وألّا يحتقره وحاشاه ﵇ من ذلك، ولكنّ التّحذير من هذا وإن لم يكن وقع يشعر بعظيم الاعتناء بمن حذّر[1].

وقال الزّحيليّ: "لهذه السّورة تعلّق بما قبلها وهي النّازعات؛ لأنّه تعالى ذكر هناك أنّ النّبيّ ﷺ منذر من يخشى السّاعة، وهنا ذكر

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 356 - 357.

من ينفعه الإنذار، وهم الذين كان رسول الله ﷺ يناجيهم في أمر الإسلام ويدعوهم إليه، كما أنّ بينهما تشابهًا في موضوع الحديث عن يوم القيامة وأهوالها، وإثبات البعث بمخلوقات الله في الإنسان والكون، فهناك وصفت القيامة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ٣٤﴾ [النازعات: 34] وهنا وصفت بقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ وهما من أسماء يوم القيامة. وهناك أثبت الله البعث بخلق السّماء والأرض والجبال، وهنا أثبته بخلق الإنسان والنّبات والطعام"[1].

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 30/ 56.

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤﴾ [عبس: 1 - 4]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

تحديدُ المُنتفِع بالإنذار درسٌ لذَوي الأبصار

إنّ الله تعالى لمّا ذكرَ فيما قبلَها أنّه ﷺ مُنذِرُ مَن يَخشاها؛ ذكرَ في هذه حالَ مَن ينفعُهُ الإنذارُ من عبادِ الله المُخلصين، وذكرَ مَن لا ينفعُهُ الإنذار، وهم الَّذين كان رسولُ الله ﷺ يُناجيهم في أمرِ الإسلام[1].

وبُدِئتِ السورة بذكر تسجيل موقفٍ من مواقف الأسوة الحسنة للنبيّ الكريم ﷺ ذي الخلق العظيم في حلمه وأناته وصَفْحِه الجميل وإعراضه عن اللّوم والتّثريب، والنّهر والتّعييب، على من تجاوز حدّه عنده أثناء اعتنائه ببيان دينه ودعوته إليه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَبَسَ﴾: (عبس) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تكرُّهٍ في شيءٍ، وأصلُهُ: ما يَبُسَ على الذّنَبِ من بَعْرٍ وغيرِهِ، واشتُقَّ منه عَبَسَ الرّجلُ يَعبِسُ عُبوساً، وهو عابِسُ الوجهِ غَضبانٌ، وعبّاسٌ إذا كثُرَ ذلك منه[2]، وعَبَسَ من بابِ (ضرَب): قطّبَ وجهَهُ، وعبَسَ اليومُ: اشتدّ، فهو عَبوسٌ[3]، وعَبَسَ: كلَحَ، وعبّسَ وجهُهُ شُدِّدَ للمُبالغة، والتعبُّسُ التجهُّمُ[4]، فهو انقباضٌ مع حُزْنٍ، وهي هنا شعورٌ باطنٌ بالتكرُّه واعتمالٌ ظاهرٌ بالانفعال الباطن بتقطيب ما بين عينيه الشريفتين تأثُّرًا من فرْطِ ما عاناه، وما لاقاه، مما يُعْنِت ويَشُقّ ويُغْضِب.

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 114، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1781، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 241.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبس).

(3) الفيومي، المصباح المنير: (عبس).

(4) الجوهري، الصحاح: (عبس).

2) ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾: (ولي) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على قُرْبٍ[1]، وفي الفعلِ لُغتان؛ أكثرُهما: وليَهُ يَليهِ بكسرتينِ، والثانيةُ مِن بابِ (وعَد) وهي قليلةُ الاستعمالِ، وجلستُ ممّا يليهِ، أي يُقاربُهُ[2]، فهو وقوعُ شيءٍ وراءَ شيءٍ معَ رابطةٍ بينهُما. ومن مصاديقِ الأصلِ التوليةُ: وهو إيقاعُ شيءٍ في أمرٍ هو وراءَ شيءٍ سابقٍ، فيقالُ: ولّى وجهَهُ عنه، أي أوقعَ وجهَهُ في وراءِ ما كانَ فيه، وحوّلَهُ عَن مواجهتِهِ السّابقة إلى جهةِ ورائِها[3]. والمرادُ به في الآية: الإعراضُ والإدبارُ وتركُ الحديثِ معَهُ.

3) ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾: الزّكْوُ أصلٌ يدلُّ على نَماءٍ وزيادةٍ[4]، والزّكاءُ: النّماءُ والزّيادة، يقالُ: زكا الزّرعُ، والأرضُ تزكو زَكْواً من بابِ (قعَد). وسُمّيَ القَدْرُ المُخرَجُ من المال زكاةً؛ لأنّه سببٌ يُرجَى به الزَّكاء، وزكّى الرّجلُ مالَهُ تزكيةً، والزّكاةُ اسمٌ منه، وزكا الرّجلُ يَزكو: إذا صلَحَ[5]، فهو تنحيةُ ما ليس بحقٍّ وإخراجُهُ عن المتنِ السّالم، وذلك كإزالةِ رَذائلِ الصِّفات عنِ القلب، وتنحيةِ الأعمالِ السيّئةِ عَن برنامَجِ الحياةِ الإنسانيِّ[6]. والمرادُ به في الآية: التطهُّرُ والتخلّي عن الصِّفاتِ الذَّميمة.

4) ﴿ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾: (الذّكر) أصلان، عنهُما يتفرَّعُ كَلِمُ الباب؛ فالمُذْكِرُ: الّتي ولَدَتْ ذَكَراً، والأصلُ الآخر: ذكَرْتُ الشّيءَ: خلافُ نَسيتُهُ، ثمّ حُمِلَ عليهِ الذِّكْرُ باللِّسان[7]، وذَكَرْتُهُ بلساني وبقلبي ذِكرى بالتأنيث، والاسمُ ذِكْرٌ[8]، فهو التذكّر في قِبال الغَفلةِ والنِّسيان، وهذا المعنى أعمّ من التذكّر بالقلبِ أوْ باللِّسان. والذِّكرى: مصدرُ ذَكَرْتُهُ، وليسَ باسم مصدرٍ؛ قال تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠﴾ [الأنعام: 90][9]. والمرادُ بهِ في الآية: الإرشادُ والنُّصْحُ والتّوجيهُ والوَعظُ باللِّسان.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (ولي).
(3) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 13/ 200.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زكو).
(5) الفيومي، المصباح المنير: (زكو).
(6) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 4/ 322.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(8) الفيومي، المصباح المنير: (ذكر).
(9) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 3/ 306.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

العتابُ بالرِّفق دليلُ الحُبِّ والعِشْق

كره النبيّ ﷺ ما لقي من قومه، وغضب وقطّب وجهه، فكان باديَ التأثّر، كاظمًا غيظَه، حليمًا، صبورًا، عافيًا عن النّاس، وأعرض عن (ابنِ أُم مكتوم) بجسمِهِ أوْ بتركِ الإصغاءِ إليه حينما جاءَه يطلُبُ منه أنْ يُقرئَهُ، ويُعلِّمَهُ ممّا علّمَه الله ليزدادَ هِدايةً، فقطعَ بطلبِهِ كلامَهَ ﷺ أثناءَ تشاغُلِه مع أشرافِ قُريش، وفي ذلك توجيهٌ بديعٌ له ﷺ، مجملُه: (ولو كنتَ درايًا بحالِهِ لأصغيتَ له وآتيتَه سؤلَه، لعلَّه يَتطهّرُ من أوضارِ الإثمِ بما يسمَعُ منكَ مِن نُصحٍ وإرشادٍ وعلْمٍ ومَعرفة، أوْ يتّعظُ بتذكيرك إيّاه فتنفعُهُ ذكراك ومَوعظتُك)(1).

زَمَنُ القِصَّةِ وأماراتُ تَعْيينِه:

وقعت هذه الحادثة فيما ذكر كُتّاب السّيرة النّبويّة مطوّلا مُفَصّلاً، ورواةُ السُّنَن والأخبار والآثار مُجْملًا، في وقت عُني فيه المشركون بمفاوضة النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وبارك، ومحاولة استمالته بالمجيء إليه والقدوم عليه والاستماع لما عنده، ووجدها النّبيّ ﷺ الكريم الرؤوف الرّحيم فرصة سانحة ليبلّغ رسالة ربّه، فيقيم الحجّة، ويقطع المعذرة، وقد جلَّت مواقفه فيما بعد حبّه أن يستأني بهم ويرفق، وعليهم من أن يعاجلوا بالعذاب يشفق، ولم يكن أولئك بالّذين يخفى عليهم مقامه أو يلتبس عليهم مرامه، دون أن يركن إليهم في باطل أو يحيد عن حقّ.

وقد عبس ﷺ تَأثرًا من مَوْقِفٍ فجَأه فساءَه وآذاهُ، وكاد أنْ يُغْريَ مستمعيه المصغين إليه، وكلهم دونَ مُقامِهِ وتَحْتَ أقْدامِه، مِمّا كدّر خاطِرَهُ، وأدخل عليه الإشفاق في نفسه حرصًا ألا يتسبب ذلك في صدّ هؤلاء الملأ عنه وعن دينه، فتأثّر باطنه لما يُخشى من فوات مصلحة دينه، وعرف ذلك في وجهه، وظهر عليه.

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1784.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «أنزلت في ابن أمّ مكتوم الأعمى، أتى إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فجعل يقول: يا رسول الله؟ أرشدني، وعند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وبارك رجال من عظماء المشركين، فجعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبارك يُعرض عنه، ويُقبل على الآخرين، ففي هذا أنزلت»[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفعلِ ﴿عَبَسَ﴾:

تـركُ العُبـوس لإيصالِ الدَّعوةِ إلى النُّفوس

عبَّرَ النظمُ القرآنيُّ بالفعلِ الماضي ﴿عَبَسَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾؛ ليدُلَّ بمادّته على: "تَقْطيبِ الوَجْهِ وإظْهارِ الغَضَبِ، يُقالُ: رَجُلٌ عَبوسٌ بفَتْحِ العَيْنِ، أيْ مُتَقَطِّبٌ"[2]. وليدُلَّ بصيغتِهِ على وقوعِ ذلك الفعلِ على سبيلِ الحصولِ والقطعِ، لا على سبيلِ الفرضِ والاحتمالِ. والغرضُ من إثباتِ العُبوس ووُقوعِهِ رفعُ مقامِ النبيِّ ﷺ بعتابِه: "فإنَّ عتابَ السيِّدِ لعبدِهِ تشريفٌ؛ فكيفَ من ربِّ الأربابِ؟ ولله أنْ يُعاتبَ أنبياءَهُ بما شاءَ، ونحنُ نقولُهُ تلاوةً لا إخبارًا"[3].

والعبوس إما بمعنى التكرّه، وذلك أمر باطن، وإما تقطيب الوجه؛ وذلك أمر ظاهر، وإما الغضب وهو باطن كامن تظهره البوادر! فإن يكن التكرّه تبعَه تقطيب الوجه، فلرهافة حسّه ﷺ، ولطافة نفسه، وأنّ له نفسَ حرٍّ سيِّد، في ذروة العز والشرف والمجد والسؤدد، فلا يظهر خلاف ما يبطن ﷺ، فلم يكن يتكلّم بالشيء الذي يكره لحيائه، بل يتغيّر وجهه، فتفهم كراهيته، وفيه فضيلة الحياء، وأنّه محثوث عليه مالم ينته إلى الضّعف والخَوَر[4].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 30/ 32، والواحديّ، أسباب النزول، ص: 479، 480.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 104، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 118.
(3) السمين، عمدة الحفاظ: 3/ 24.
(4) النووي، شرح صحيح مسلم: 15/ 78.

نكتةُ إضمار الفاعل في ﴿عَبَسَ﴾:

عتابُ الحبيب بأرقِّ الأساليب

أضمَرَ النظمُ الكريمُ فاعلَ الفعلِ ﴿عَبَسَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾؛ بأنْ جعلَهُ ضميراً غائباً، ولم يَجعلْه ضميراً مُخاطَباً بأنْ يقولَ: (عبسْتَ) أوْ بأنْ يُصرِّحَ بالاسمِ العلَمِ الشَّريف (عبسَ محمدٌ)؛ لأنَّ في ذلك إسناداً للفعلِ بطريقةٍ فيها شيءٌ من الخُشونة، والموقفُ عتابٌ بلُطْفٍ ومُحاسبةٌ برقّةٍ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ اجتهدَ، فرجّحَ كفّةَ موعظةِ غيرِ المُسلمينَ على المُسلم طمَعاً في إسلامِهم وإسلام مَن وراءَهم، ومن ثمَّ كان العتابُ بلُطْفٍ، وكانَ الإسنادُ إلى ضميرِ الغائب دونَ لفظِ الخطابِ أوِ لفظ الاسمِ العلَمِ الصَّريح.

قال الهرريُّ: "وجاءَ في هذه المواضعِ بضمائرِ الغائب ﴿عَبَسَ﴾، ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾، ﴿جَآءَهُ﴾ إجلالًا له ﷺ، ولُطْفًا به؛ لما في المُشافهة بـ(تاء الخطابِ) ممّا لا يخفى"(1). والعجبُ من ابنِ عطيّةَ في قولِه: "تقطُّبُ الوجهِ واربدادُهُ عندَ كراهيَةِ أمرٍ، وفي مُخاطبتِه بلفظِ ذكرِ (الغائبِ) مبالغةٌ في العَتب؛ لأنَّ في ذلك بعضَ الإعراض"(2).

وقد أحسن ابنُ عاشورٍ في توجيه أسلوب الغَيْبة فقال: "وَلَمّا كانَ صُدورُ ذَلِكَ مِنَ اللهِ لِنَبِيِّهِ ﷺ لَمْ يَشَأِ اللهُ أنْ يُفاتِحَهُ بما يَتَبادَرُ مِنْهُ أنَّهُ المَقْصودُ بالكَلامِ، فَوَجَّهَهُ إلَيْهِ عَلَى أُسْلوبِ الغَيْبَةِ؛ لِيَكونَ أوَّلُ ما يَقْرَعُ سَمْعَهُ باعِثًا عَلَى أنْ يَتَرَقَّبَ المَعْنِيَّ مِنْ ضَميرِ الغائِبِ، فلا يُفاجِئُهُ العِتابُ، وهَذا تَلَطُّفٌ مِنَ اللهِ بِرَسولِهِ ﷺ لِيَقَعَ العِتابُ في نَفْسِهِ مُدَرَّجًا، وذَلِكَ أهْوَنُ وقْعًا، ونَظيرُ هَذا قَوْلُهُ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التَّوْبَة: 43]، أخْبَرَهُ اللهُ بالعَفْوِ قَبْلَ أنْ يُخْبِرَهُ بالذَّنْبِ حَتَّى سَكَنَ قَلْبُهُ، فكَذَلِكَ تَوْجيهُ العِتابِ إلَيْهِ مُسْنَدًا إلَى ضَميرِ الغائِبِ، ثُمَّ جيءَ بِضَمائِرِ الغَيْبَةِ فذِكْرُ ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ تُظْهِرُ المُرادَ مِنَ القِصَّةِ، واتَّضَحَ المُرادُ مِنْ ضَميرِ الغَيْبَةِ"(3).

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 118.

(2) ابن عطية المحرر الوجيز: 5/ 436.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 104.

دلالةُ الفعلِ (تولَّى) مادّةً وصيغةً:

التغايُرُ الصّيغيّ وأثرُهُ في الوُقوع الدّفعيّ والتّدريجيّ

عبّرَ النظمُ الكريم بالفعلِ الماضي (تولَّى) في قولِهِ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾؛ للدِّلالة بمادَّتِه على الإعراضِ بالوَجْهِ وإدارةِ الظَّهر معَ التحرُّكِ إلى جهةٍ مُغايرةٍ لجهةِ الإقبال إلى المُتحدِّث أوِ الجائي، وبصيغتِهِ على وقوعِ ذلك على سبيلِ القطع والحصولِ دونَ الفرضِ والاحتمال. كما تفيدُ الصيغةُ المزيدةُ حدوثَ التولّي تَدريجياً شيئاً فشيئاً؛ لأنَّ التولّي والإعراضَ يكونانِ بالانتقالِ التدريجيِّ، والفرقُ بينَ (العُبوس والتولّي) أنَّ العبوسَ تقطيبُ للوجهِ يحصُلُ بطريقةٍ دفعيَّة، وأمّا الإعراضُ فإنّه يقَعُ بالتدريجِ الحركيِّ، ومِن ثمَّ تغايرتِ الصّيغتان بين الثلاثيِّ المجرَّدِ والمَزيد فيه بالتاءِ والتضعيف، ونبّه البقاعي إلى أنَّ التولّيَ صيغةٌ تدلُّ على التكلُّف للفعلِ مع عدمِ رغبةٍ في وقوعِهِ؛ ليكونَ ذلك عذراً للنبيِّ ﷺ في انصرافِهِ عنه، فقال: "وآذنَ بمدحِهِ ﷺ بأنَّ ذلك خلافُ ما طبعَهُ عليه سُبحانه من رحمةِ المَساكينِ ومَحبّتِهم والسُّرورِ بقُربِهم وصُحبتِهم بقولِه: ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أي كلّف نفسَهُ الإعراضَ عنه رجاءَ أنْ يُسلِمَ أولئك الأشرافُ"[1].

وللفعل المعطوف هنا ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ دلالةٌ أخرى، وهي أن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلّم لم يتلبث عند صنيع ابن أم مكتوم بل صفح الصفح الجميل ثمّ أعرض، حيث إنّ الصحابي الجليل قد ظهر له في موقف لا ينبغي، وإعراضه عنه انصراف عن داعي الغضب أن يَقْوى في نفسه فيُحْمَل على المجازاة بالعدل، ورسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلّم أحلَمُ وأرحمُ من أن يجزيه بالمثل، وهو كذلك انصراف عن أن يقابله بما يستحق من الإسكات والكَفّ، فإنه تولى عن توجيه أي عتاب له أمام الملأ لئلا يكسر خاطره.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 251.

دلالةُ الإجمالِ والتفصيل في الفِعلينِ وفاعلَيهما:

الإجمالُ والتفصيل تشويقٌ للتفاعُل معَ التنزيل

أجملَ النّظمُ الكريم في فعلَي (العُبوس والتولّي) وفي ضَميريهِما في قولِهِ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾؛ للتشويقِ إلى التفصيلِ والبيان، قالَ ابنُ عاشور: "افْتِتاحُ هَذِهِ السّورَةِ بِفِعْلَيْنِ مُتَحَمِّلَيْنِ لِضَميرٍ لا مَعادَ لَهُ في الكَلامِ تَشْويقٌ لِما سَيورَدُ بَعْدَهُما، والفِعْلانِ يُشْعِرانِ بِأنَّ المَحْكيَّ حادِثٌ عَظيمٌ، فأمّا الضَّمائِرُ فيُبَيِّنُ إبْهامَها قَوْلُهُ: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ وأمّا الحادِثُ فيَتَبَيَّنُ مِنْ ذِكْرِ الأعْمَى ومَنِ اسْتَغْنَى"[1].

دلالةُ الاستعارةِ التصريحيّة في (تولَّى):

عدمُ الاكتراثِ بالمُحاوَرة ابتعادٌ عنِ المُجالَسة

استعارَ النظمُ الكريم فعلَ (التولّي) في قولِهِ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾؛ لعدمِ الاهتمامِ والاكتراثِ والاشتغالِ بتحقيقِ مَطلوبِ السّائل؛ إذ شبّه النظمُ عدمَ الاشتغالِ بسُؤالِ السّائل وعدمَ الإقبالِ على ذلك الزّائر بالتحرُّك من المكانِ والانتقالِ إلى مكانٍ بعيدٍ عنه. ومن المعلوم أنَّ النبيَّ ﷺ لم يخرجْ من ذلك المكان، وإنَّما انصرفَ عن السائل بالكلامِ والحَديث مع مُشركي قريش، والجامعُ بين طرفَي التشبيه الابتعادُ والانفصالُ، والغرضُ من الاستعارة إظهارُ البُعدِ المعنويِّ وعدم الانشغالِ بجوابِ السائل بمنزلةِ المتحرِّك عن مُجالستِهِ والمُنصرِفِ عنه فلا يسمَعُهُ. قال ابنُ عاشور: "والتَّوَلّي: أصْلُهُ تحوّل الذّات عَن مَكانِها، ويُسْتَعارُ لِعَدَمِ اشْتِغالِ المَرْءِ بِكَلامٍ يُلْقَى إلَيْه أوْ جَليسٍ يَحِلُّ عِنْدَهُ، وهوَ هُنا مُسْتَعارٌ لِعَدَمِ الاشْتِغالِ بسُؤالِ سائِلٍ ولِعَدَمِ الإقْبالِ عَلَى الزّائِرِ"[2].

حذفُ مُتعلّقِ العُبوسِ والتولّي:

التشويقُ لسببِ العُبوسِ والتولّي تحفيزٌ لارتباطِ السّامعِ بالتّالي

أضمرَ النظمُ فاعِلَي العُبوسِ والتولّي وحذفَ مَعْمولَهُما والمتعلِّق بهما في قولِهِ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾؛ فلم يذكرِ النظمُ المعبوسَ عليه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 103.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 104.

والمُتولّى عنه؛ لظهورِ أنَّه عبوسٌ عن الَّذي مَجيئُهُ كانَ سبباً لهُ، وأنَّه تولٍّ عن الَّذي مجيئُه كان سبباً للتولّي، كما يحدثُ التشويق لمعرفةِ ذلك السَّبب في وقوع فعلَي العُبوس والتولّي[1].

دلالةُ ﴿أَن﴾ والغرضُ منها:

تحقيقُ العلّيَّة بالتّعبيرِ بالفعليَّة

عبّرَ النظمُ الكريمُ بـ﴿أَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾؛ للدِّلالة على المصدريَّة، فيُسبَكُ منها معَ ما بعدَها مصدرٌ مؤوّلٌ دالٌّ على التعليل؛ ويكونُ مجيءُ الأعمى علّةً باعثةً لكلٍّ من العُبوس منهُ والتولّي عنه، ولذا يتعلَّقُ كلٌّ من الفعلين على سبيلِ التنازُع بحرفِ جرٍّ محذوفٍ معَ (أنْ وأنّ) على سبيلِ الاطِّراد، والتقديرُ: (لِأَنْ جاءَهُ الأعمى)، قال ابنُ عاشور: "﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ مَجْرورٌ بلام الجَرِّ، مَحْذوفٌ مَعَ (أنْ)، وهوَ حَذْفٌ مُطَّرِدٌ، وهوَ مُتَعَلِّقٌ بفِعْلَيْ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ عَلَى طَريقَةِ التَّنازُعِ"[2].

المَوقِعُ الإعرابيُّ للمصدَرِ المُؤَوَّل ﴿أَن جَآءَهُ﴾:

أثرُ دلالةِ (الواو) على الترتيب في الترجيحِ والتّحقيق

لمّا كان المصدرُ المُؤوّل دالًّا على التعليلِ بـ(لام) مُطّردٍ حذفُها في قولِه تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾، وقد تعلَّق (اللّامُ) بكلٍّ من الفعلينِ على سبيلِ التنازع، فإنَّ المصدرَ المُؤوَّل يعدُّ مفعولاً لأجلِهِ لكلٍّ من الفعلينِ السّابقين. وجوّزَ البصريّونَ والكوفيّونَ إعمالَ كلٍّ في المَعمول، ورجّحَ البصريّونَ إعمالَ الثاني لقُربِه، والكوفيّونَ إعمالَ الأوَّلِ لسَبقِه، فيكونُ المفعولُ لأجله إمّا منصوباً بالفعلِ ﴿عَبَسَ﴾ أوْ منصوباً بالفعلِ ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾، ويُضمَرُ معَ الآخر مفعولاً لأجله، والتقديرُ: (عبسَ لأَنْ جاءَهُ الأعمى وتولَّى لذلك) أوْ (تولَّى لأَنْ جاءَهُ الأعمَى وعبَسَ لذلك). وذهبَ الزمخشريُّ: "إلى إعمالِ الأوّلِ؛ بناءً على مذهبِ الكوفيّين، حيثُ قال: (عبسَ لِأَنْ جاءَهُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 104.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 104.

الأعمى وأعرضَ لذلك)؛ لأنَّ لُطفَ المعنى معَه، فإنَّ (الواو) وإنْ لم تدلَّ على (الترتيب)، لكنَّ النظم يقتضيه، فلا يُناسبُ أنْ يقال: (تولَّى لأنْ جاءَهُ الأعمى وعبسَ لذلك)؛ لأنَّ التولّيَ بعدَ العُبوس كما يَشهَدُ له الحالُ"[1].

سرُّ التعبيرِ بالمصدرِ المؤوَّل ﴿أَن جَآءَهُ﴾:

كمالُ الخِطاب بتحقيقِ مَناطِ العِتاب

عبّرَ النظم الكريمُ بالمصدرِ المُؤَوَّل دون الصَّريح في قولِه تعالى: ﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾؛ للدِّلالة على ربطِ حَدَثَي العُبوس والتولّي بمجيءِ الأعمى في الزَّمن الماضي، في حين لو عبَّر بالمصدرِ الصَّريح (لمجيءِ) لما أفادَ ارتباطَ ذينِك الحدثينِ الماضيين بالمَجيء الماضي، وفي المضيِّ دلالةٌ على تحقُّق وقوعِ المجيء، وأنَّ العلَّة الماضية قد تحقَّقت ونجمَ عن ذلك تحقُّقُ العُبوس والتولّي. كما أفادَ التعبير بالمصدر المؤوَّل أنَّ العبوس والتولّيَ كانا لذاتِ المجيءِ دونَ حالٍ من أحوالِهِ أوْ شأنٍ من شؤونِه؛ وفيه يظهرُ تحقيقُ مناطِ العتاب؛ وهو تعلُّقُ العُبوس والتولّي بالمجيءِ نفسِهِ دونَ الإلحاحِ بالسُّؤالِ أوْ قطعِ كلامِهِ ﷺ عن جُلسائِهِ من الكُفّار.

دلالةُ الفعلِ (جاءَ) مادّةً وصيغةً:

تكلُّفُ الحُضور يوجبُ الإقبالَ عليهِ بالسُّرور

عبّرَ النظمُ الكريم بفعلِ (المَجيءِ) في قولِهِ تعالى: ﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾؛ للدِّلالة على تكلُّفِ القدوم والإتيان، إذِ المَجيءُ الانتقالُ في المكانِ بصعوبةٍ وتكلُّفٍ، وقد اقترنَ بعاهةٍ مَرَضيَّةٍ تُؤذِنُ بصُعوبةِ الإتيان، فيكونُ الانصرافُ عنه بعد تكلُّفِه مُستَحِقًّا للعتاب. كما يدلُّ الفعلُ بصيغتِهِ الماضية على حصولِ ذلك المجيءِ بشكلٍ مقطوعٍ به لا على سبيلِ الفرضِ والاحتمال، ومن ثمَّ كان العتابُ ووُجدتِ المساءَلَةُ.

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 291.

الـتّـولّي بقصْدِ الهُدى والمَجيءُ بقَصْدِ الذِّكرى

دلالةُ الطِّباق في ﴿جَآءَهُ﴾:

عبّرَ النظمُ الكريم بأسلوبِ (الطّباق) البديعيِّ في قولِه تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ﴾؛ إذِ التولّي هو الإدبارُ إلى جهةِ الخَلف، والمَجيءُ هو الإتيانُ والحضورُ، فيكونُ بينَ التولّي والمجيءِ تضادٌّ؛ إذ ابنُ أمِّ مكتوم ﷺ يُقبِلُ ويجيءُ، والنبيُّ ﷺ يتولَّى ويُعرِضُ وينصرفُ عنه، فتكونُ الحركةُ مُتعاكسةً، وهي تدلُّ على رغبةٍ نبويّةٍ بهِداية المشركينَ ورغبةٍ عميقةٍ من ابنِ مكتوم بالتزكّي والانتفاعِ بالذكرى، وكِلتاهما مَحمودتا المَقصَد.

العِبرةُ بعُموم اللّفظ لا بخُصوصِ السَّبب

دلالةُ التعريفِ بـ(ألْ) في ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾:

عبّرَ النظمُ الكريم بلفظِ ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ مُعرَّفاً بـ(ألْ) في قولِه تعالى: ﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾؛ إمّا للدّلالة على العَهْد في أعمىً معيَّن، وهو ابنُ أمِّ مَكتوم[1]، وإمّا للجنس دفعاً لتوهُّم الاختصاصِ بالأعمَى المعيَّن، وإيماءً إلى أنَّ كلَّ ضعيفٍ من مثلِه يَستحِقُّ الإقبالَ عليه والرَّأفةَ به"[2].

صاحِبُ الضَّرَر أوْلى بالاهتمامِ مـنَ الـكافريـنَ وأجْدَر

العُدولُ عن الاسمِ العلَم إلى الوصفِ ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾:

عدَلَ النظمُ الكريمُ عنِ التعبيرِ بالاسمِ العلَم (ابن أمّ مكتوم) إلى الوصفِ بـ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾؛ لمناسبات ذكرها البيضاويُّ بقوله: "وذكرُ ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾؛ للإشعارِ بعُذْرِه في الإقدام على قَطْعِ كلام رسولِ اللّه ﷺ بالقوم، والدّلالةِ على أنّه أحقُّ بالرّأفة والرِّفق، أوْ لزيادةِ الإنكارِ؛ كأنّه قال: (تولّى لكونِه أعمى)"[3].

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 118، وهو عبد الله بن قيس - ويقال: عمرو - بن زائدة بن الأصمّ بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤيّ ابن غالب، وأمّ مكتوم: أمُّه فلذا تُثبت ألف: (ابن) قبلها فيقال عبد الله بن قيس ابن أمّ مكتوم على حذف العاطف، يُنظر: ابن حجر: الإصابة: 4/ 494.

(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1784.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 286.

قال الطّيبيّ في توضيحِ المُناسبةِ الأوْلى: "أوْ في تلك الصّفة من تمهيدِ العُذرِ، وأنّه أعمى، لم يهتدِ إلى عدمِ الإقدامِ بين يدَيك، وقطعِ كلامِك عن كلامِ القوم، اعتذارٌ عندَ الكرام، خصوصاً عندَ مثلك"[1]، فيكونُ ذلك الوصفُ إبانةً عن عُذرِ ابنِ أمِّ مكتوم في قَطْعِهِ لكلامِ رسولِ اللّه ﷺ معَ القوم.

وأما مناسبة (الدّلالةِ على أنّه أحقُّ بالرّأفة والرِّفق) فقال ابن عاشور أنها جاءت "تَرْقيقًا لِلنَّبيءِ ﷺ؛ ليَكونَ العِتابُ مَلْحوظًا فيهِ أَنَّهُ لَمّا كانَ صاحِبَ ضَرارَةٍ فهوَ أَجْدَرُ بالعِنايَةِ بهِ؛ لِأَنَّ مِثْلَهُ يَكونُ سَريعًا إِلَى انْكِسارِ خاطِرِه"[2].

وأوضحَ القونويّ المناسبةَ الثالثة (أو لزيادة الإنكار) بقوله: "فإنَّ أصلَ الإنكار حصلَ مِن دلالةِ المَقام كأنَّه تولَّى لكونِه أعمى، وهو لا يليقُ بخُلُقِه العظيم، كما أنَّ (الالتفاتَ) في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ لذلك، ... فتمَّ الكلامُ عندَه فيوقَفُ عليه، وليس ما بعدَهُ مفعولَه، بل هو ابتداءُ كلام"[3].

وأشارَ القونويُّ إلى فائدةٍ أُخرى وراءَ العُدول، عبّر عنها بقوله: "فلعلَّ التَّعْبيرَ بـ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾؛ للتعريضِ بصناديدِ قريش بأنَّهم – مع كونِهم بَصيرينَ – مَحرومونَ عن النّظر في المُعجزات، بسَبَبِ التقليد والإعراضِ عنِ التَّحقيق، وهو – رَضي اللّه تَعالَى عنه – مع كونِه أعمَى غيرَ راءٍ أكثرَ الآياتِ الدّالَّة عَلَى صِدق الرَّسول ﷺ، أمعنَ الفكرَ في أحوالِهِ ﷺ، وصدَّقَ به؛ فهُم عُميٌ في نفسِ الأمر، وهو رضيَ اللّه تَعالَى بصيرٌ في الحَقيقَة، وللإشارَة إلَى هذه النُّكْتَة الرَّشيقة عبّرَ بـ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾؛ ففيه تعظيمٌ له ومُلائمٌ لكونِهِ من كِبارِ الصَّحابة"[4].

دلالةُ (الواو) والغرضُ منها في ﴿وَمَا﴾:

عبّرَ النظمُ الكريم بـ(الواو) في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾؛ للدِّلالة على الحال[5]، فتكونُ الجملةُ حاليّةً مُقيِّدةً فِعلَي العُبوس والتولّي بالاستفهامِ عن الدّراية

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 292.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 104.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 120.
(4) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 86.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 105.

عـدمُ الـدِّرايـة داعيـةٌ لتنفيذِ الوَصايا

المُنكَرة، وبياناً لهيئةِ الفاعلِ الغائبِ بأنّه لا يحيطُ علمُهُ ولا يُدرك الفائدةَ أينَ تكمُنُ؟ وبناءً عليه يتوجّبُ تنفيذُ مُقتضى العتاب بالكفِّ عن ذلك الفعلِ المُعاتَبِ عليه.

دلالةُ (ما) والغرضُ منها:

الاستفهامُ عندَ العِتاب يستلزمُ اللُّطفَ في الخِطاب

عبّرَ النظمُ الكريم بـ(ما) في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾؛ للدِّلالة على الاستفهامِ المطلوبِ به تفسيرُ حقيقةِ الشّيء، للوقوفِ على طبيعتِه بالشّرح والبيان، فالمَعنى: ما يَجعلكُ دارياً وعالماً بترجّي التزكّي له؟ قال ابن عاشور: "والِاسْتِفْهامُ في هَذِهِ التَّراكيبِ مُرادٌ مِنهُ التَّنْبِيهُ عَلَى مَغْفُولٍ عَنْهُ، ثُمَّ تَقَعُ بَعْدَهُ جُمْلَةٌ؛ نَحْوَ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ٣﴾ [القارعة: 3]، ونَحْوَ قَوْلِهِ هُنا: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾"[1]، والغرضُ من الاستفهام معناهُ المجازيّ وهو الإنكارُ لدرايتِه ﷺ بحصولِ التزكّي للسّائل، وإيرادُ الإنكار بالاستفهام عن العِلْم دالٌّ على التلطُّفِ في المُعاتبة والرقّةِ في العبارة.

دلالةُ الالتفاتِ في ﴿يُدْرِيكَ﴾:

الإينـاسُ بعدَ الإيحـاش والإقبـالُ بعدَ الإعراض

التفتَ النظمُ الكريمُ من ضميرِ الغائبِ إلى ضميرِ المُخاطَب في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾؛ فـ: "جيءَ بضَمائِرِ الخِطابِ عَلَى طَرِيقَةِ الِالتِفاتِ"[2]؛ وذلك للدّلالة بحسبِ سياقِ الخطابِ إلى جَعْلِ النبيِّ ﷺ مُخاطباً ومقبَلاً عليه؛ ليلتذَّ بخطابِ اللّه تعالى له، قال القونوي: "ولا يخفى أنَّ السّعيَ في إزاحةِ الشِّرك أهمُّ؛ لا سيَّما أنَّ فيه إعلاءَ الدين وتكميلَ النفوس النّاقصة، الّذي هوَ المقصودُ من بعثة الرَّسول عليه السلام، فهم بهذا الاعتبار أحقُّ بالاهتمام بهم، وقد عرفتَ أنَّ تعبُّسَه عليه السلام وتولّيَه لتأليفِ قلوبِ الصَّناديد؛ فالإنكارُ وزيادتُهُ بناءً عَلَى ظاهرِ الحال، وكذا الكَلام في (الالتفات)؛ عَلَى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 105.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 105.

أنَّ الالتفات في مثلِه يَنْبَغي أنْ يُحمَلَ عَلَى اللُّطف بلذَّةِ الخطاب بعدَ قولِه: ﴿عَبَسَ﴾"[1]، "وأنَّ الالتفاتَ إلى الخطابِ في قوله سبحانه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾؛ إيناسٌ بعدَ إيحاش، وإقبالٌ بعدَ إعراض"[2]. في حينِ رأى الزمخشريُّ والرازيّ والبيضاويّ أنَّ الالتفاتَ دالٌّ على مزيدِ الإنكار، قالَ الرازي: "واعْلَمْ أنَّ في الإخْبارِ عَمّا فرَطَ مِنْ رَسولِ اللّه، ثُمَّ الإقْبالِ عَلَيْهِ بالخِطاب؛ دَليلٌ عَلَى زيادَةِ الإنْكارِ، كَمَنْ يَشْكو إلَى النّاسِ جانيًا جَنَى عَلَيْه، ثُمَّ يُقْبِلُ عَلَى الجاني إذا حَميَ في الشِّكايَةِ مواجِهًا بالتَّوْبيخِ وإلْزامِ الحُجَّةِ"[3]، وذلك أنَّهم علَّلوا ذكرَ الوصفِ (أعمَى) بزيادةِ الإنكارِ، فيكونُ الالتفاتُ إنكارًا أيضًا.

دلالةُ (لعلَّ) والغرضُ منها:

ترجّي التزكّي يستلزمُ الاهتمامَ والتبنّي

عبّرَ النظمُ الكريمُ بالحرفِ (لعلّ) في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾؛ للدّلالة على الترجّي؛ فإنَّ ابنَ أمِّ مكتوم ﷺ كان يرجى له التزكّي من سُؤال النبيِّ ﷺ، قال القونويّ: "والترجّي في الآية للدّلالة على أنَّ رجاءَ تزكّيه أوْ كونَه ممَّن يُرجَى منه ذلك؛ كافٍ في الامتناعِ عن العُبوس له، والإعراضِ عنه، فكيفَ وقد كانَ تطهُّرُه مُحقّقًا؛ لأنَّه من السّابقين إلى الإسلام؟"[4]، وفي الآيةِ: "تعريضٌ وإشعارٌ بأنّ مَن تعرَّضَ ﷺ لتزكيتِهم وتذكيرِهم من أشرافِ قريشٍ لا يُرجَى منهم التزكّي والتذكُّرُ أصلاً"[5].

تحديدُ مرجعِ الضّمير في ﴿لَعَلَّهُۥ﴾:

تحديدُ مَرجعِ الضَّميرِ وأثرُ ذلك في التأويلِ والتّصوير

اختلفَ المفسِّرون في مَرجعِ الضَّميرِ الغائبِ المتّصِل بـ(لعلَّ)

---

(1) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 86.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 251، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1847.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 53.
(4) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 87، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 122.
(5) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1784.

وتحديدِ المُترجّي تبعاً له، وذلك في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾، على أقوالٍ يمكنُ إجمالُها في احتمالَين:

أحدهما: أنّ الضّمير في ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ عائدٌ إلى (ابنِ أمِّ مكتوم)، والمُترجّي حينئذٍ إمّا اللّه تعالى، ولمّا كان الترجّي منه ممتنعاً لا يُتصوّرُ وقوعُهُ لما فيه من عدم العلم والشكِّ في الحصول، فلا بدَّ من إما الاستعارة التصريحيَّة للدلالةِ على القطْعِ؛ لأَنَّ (لَعَلَّ) من مثلِ كلام الجبابرةِ قطعٌ في حصولِ المَطموع فيه، أوِ الاستعارةُ التمثيليّة، بأنّه تعالى يُعامِلُه مُعاملةَ مَن يَطمَعُ ويَرجو[1]. وإمّا المترجّي هو الرسولُ ﷺ؛ وهو قريبٌ من القطع؛ لأنّه كان من كبارِ الصَّحابة والسّابقين إلى الإسلام، وإنَّ ذلك الترجّي كافٍ في الاهتمام به وعدم الانصرافِ عنه. وإما المترجّي هو ابنُ أمِ مكتوم؛ لأنّه المتعلِّم الباحثُ عن التزكّي؛ فإنَّ ذلك أيضاً كافٍ في عدمِ الانصرافِ عنهُ؛ لترجّيهِ التزكية.

والثاني: أنّ الضمير في ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ عائدٌ إلى (الكافر)، ويتعيّنُ أنَّ المترجّي هو الرسولُ ﷺ، وقد طَمِعَ في إيمانِه، أي: "أنّك طَمِعْتَ في تزكّيه بالإسلام وتذكُّرِه بالموعظة، ولذلك أعرضتَ عن غيره؛ فالضَّمير للكافرِ، والترجّي حينَئِذٍ للرّسول عليه السلام، أي إنّك طَمِعْتَ في تزكيتِهِ بالإسْلام لما مَرَّ من أنَّ السّعيَ في إزاحة الشِّرك هوَ الأهمّ، وأنَّ إيمانَهُم لكونِهم رؤساءَهم يكون سببًا لإيمانِ غيرهم، وهذا خيرٌ في نفسِه، لكنَّه عوتِبَ به عليه السلام"[2]. وقال الطّيبيُّ: "ثمَّ في معنى الترجّي الَّذي يُعطيه ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ تمهيدُ عُذرٍ له صلواتُ اللّه عليه، جبْرًا لذلك الخطابِ المُشتمل على التَّوبيخ، يعني: أعذرناك لأنّك حريصٌ على إسلامِ القوم، فأدَّى اجتهادُكَ إلى أنْ تُقبِلَ عليهم وتُعرِضَ عن الأعمى، ولو دريتَ ذلك ما فَرَطتَ ذلك، أي: وإنْ كان خَفيًّا عليك يا رسول اللّه، كأنَّ اللّه تعالى يعتذرُ عن رسولِهِ؟"[3]، ولكنَّه: "ضُعِّفَ بعدمِ تقدُّمِ ذكرِ (الكافر)، وبإفرادِ الضَّمير، والظّاهرُ جمعُهُ؛ أي بناءً على المشهورِ في أنَّ مَن تشاغَلَ عليه السلام به كان جَمْعاً، وجاءَ في بعضِ الرِّوايات أنَّه كان واحداً"[4].

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 293.
(2) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 88.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 292.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 243.

دلالةُ صيغة التفعُّل والمضارعة في ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾:

التــزكـيــةُ والإحسان شِعارُ أهلِ الإيمان

عبّر النظمُ الكريم بالفعلِ المُضارع ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾؛ للدّلالة على حصولِ التزكيةِ على سبيلِ التجدُّد الاستمراريّ، كما تفيدُ الصّيغة حصولَ التزكيةِ على سبيلِ التدرُّج شيئًا فشيئًا؛ لأنَّ التزكيةَ تطهُّرٌ من الآثام وتخليةٌ من الأوهام، وهذه لا تحصلُ دفعةً واحدةً. والفعلُ ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ أصلُه: "يَتَزَكَّى، قُلِبَتِ التّاءُ زايًا لِتَقارُبِ مَخْرَجَيْهِما؛ قَصْدًا لِيَتَأتّى الإدْغامُ، والتَّزَكّي: مُطاوِعُ زَكّاهُ، أيْ يَحْصُلُ أثَرُ التَّزْكِيَةِ في نَفْسِه[1]. وأشارَ ابنُ عاشور إلى فائدةٍ أُخرى للصّيغة، وهي الدِّلالةُ على المُبالغة والزّيادة في التزكيةِ العمليَّة عن التزكيةِ الأصليَّةِ الواقعة بالإيمان، فقال: "المَعْنَى: انْظُرْ فقَدْ يَكونُ تَزَكّيه مَرْجوًّا، أيْ إذا أقْبَلْتَ عَلَيْه بالإرْشادِ زادَ الإيمانُ رُسوخًا في نَفْسِه، وفَعَلَ خَيْراتٍ كَثيرَةً ممّا تُرْشِدُهُ إلَيْه، فزادَ تَزَكّيه، فالمُرادُ بـ(يَتَزَكَّى) تَزْكيَةٌ زائِدَةٌ عَلَى تَزْكيَة الإيمان بالتحلّي بفَضائِلِ شَرائِعِه ومَكارِمِ أخْلاقِهِ ممّا يُفيضُهُ هَدْيُكَ عَلَيْه"[2]. وأوضحَ الماتريديُّ تلك المبالغةَ والزيادةَ في الصيغة بقولِه: "أي: يتزكَّى بعملِه ونيّتِه وقولِه"[3].

دلالةُ المَوْقعِ الإعرابيِّ لجملةِ ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾:

الاســتـئـنــافُ والتبعيّة توجبانِ الانقيادَ لأمر الله بالكلّيَّة

اختلفَ المفسِّرون في تحديدِ موقعِ جُملة ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ على قولين، أحدهما: أنَّها جملةٌ استئنافيّةٌ بيانيّةٌ غيرُ مُرتبطةٍ بالعاملِ الَّذي قبلَها؛ إذ نشأ سؤالٌ منَ العتابِ السّابق وإنكارِ الدّراية عن شأنِ ذلك الأعمى المُتسائل وحالِه، فجاءَ الجوابُ ببيانِ أنَّ له شأناً وحالاً يَتنافى معَ الإعراض عنهُ والعُبوس بوَجهه، فيكونُ الكلامُ قد تمَّ عندَ قوله: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾، ثمَّ استأنفَ البيانَ[4].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 106.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 106.

(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 420.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 87، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 122.

والثاني: أنَّها جملةٌ واقعةٌ في محلِّ المفعولِ بهِ للفعلِ ﴿يُدۡرِيكَ﴾، فتكونُ مرتبطةً بما قبلَها، وتكونُ الدرايةُ مُتعلِّقةً بالترجّي، والكلامُ متصلٌ، قالَ ابنُ عاشور: "وَفِعۡلُ ﴿يُدۡرِيكَ﴾ مُعَلَّقٌ عَنِ العَمَلِ في مَفْعولَيْهِ؛ لِوُرودِ حَرْفِ (لَعَلَّ) بَعْدَهُ؛ فإنَّ (لَعَلَّ) مِنْ موجباتِ تَعْليق (أفْعالِ القُلوبِ) عَلَى ما أثْبَتَهُ أبو عَليٍّ الفارِسيُّ في (التَّذْكِرَةِ)؛ إلْحاقًا لِلتَّرَجّي بالاِسْتِفْهام في أنَّهُ طَلَبٌ، فلَمّا عُلِّقَ فِعْلُ ﴿يُدۡرِيكَ﴾ عَنِ العَمَلِ صارَ غَيْرَ مُتَعَدٍّ إلَى ثَلاثَةِ مَفاعيلَ، وبَقيَ مُتَعَدّيًا إلَى مَفْعولٍ واحِدٍ بهَمْزَةِ التَّعْديَةِ الَّتي فيهِ، فصارَ ما بَعْدَهُ جُمْلَةً مُسْتَأْنَفَةً"(1).

والَّذي يبدو أنّها لا تكونُ مستأنفةً على هذا التوجيهِ؛ لأنَّ الفعلَ مُعلَّقٌ عن العمَلِ في اللّفظ دونَ المعنى، وجملةُ ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ في محلِّ النصبِ مَفعولاً به ثانياً، ويكونُ من التعليق للمفعول الثاني دونَ الأوّلِ. ورجَّحَ القونويّ القولَ الأوّلَ في قولِه: "وقيل ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ سادٌّ مسدَّ مَفْعوله؛ إذ الفعْل متعلِّقٌ به؛ إذِ الترجّي جارٍ مُجرى الاسْتِفْهام في كونِه للطّلب؛ فلا يُقدَّرُ حينَئِذٍ (بحالِه)، وما اختارَهُ المُصَنّفُ أقلُّ تكلُّفًا(2).

وقد عرضَ السّمينُ كلا القولينِ مُرجِّحاً الثاني بقوله: "الظّاهرُ إجراءُ الترجّي مُجرى الاستفهام؛ لِما بينَهُما من معنى الطَّلبِ في التعليق؛ لأنَّ المعنى منصَبٌّ على تَسَلُّطِ الدِّراية على الترجّي؛ إذِ التقدير: (لا يَدْري ما هو مُترجَّى منه التزكيةُ أوِ التذكُّر، وقيل: الوقفُ على ﴿يُدۡرِيكَ﴾، والابتداءُ بما بعدَهُ على معنى: (وما يُطْلِعُكَ على أمرِهِ وعاقبةِ حالِه)، ثمَّ ابتدأ فقالَ: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾"(3). والظّاهرُ أنّها جملةٌ مُتعلِّقةٌ بما قبلَها(4)؛ لأنَّ فعلَ الدِّرايةِ المُستفهمَ عنه مُتوقَّفٌ في حصولِ التزكيةِ أوِ التذكُّر لهُ، وكِلاهما أمرانِ مُهمّانِ للسّائل، فكيفَ يتمُّ العُبوس والصُّدودُ عنه؟.

نكتةُ العطفِ بـ﴿أَوۡ﴾:

عطفَ النظمُ الكريمُ بـ﴿أَوۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ﴾؛ للدِّلالة على الترديدِ بينَ الأمرينِ المُترجَّيينِ، والمعنى: أيُّ شيءٍ جَعلَكَ دارياً بوقوع تزكّيه أوْ تذكُّره،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 106.
(2) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 87.
(3) السمين، الدر المصون: 10/ 686.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 242.

والغرضُ من العطفِ بها الإشارةُ إلى أنَّه لا يخلو حالُ مَن يسألُكَ في أمورِ دينِهِ أنْ يكونَ مُتزكّياً أو متذكّراً، وفي ذلك رفعٌ لمقامِ النبيِّ ﷺ، وأنَّ الّذي يأتيهِ سائلاً العلمَ فلا يخلو حالُهُ بعدَ الوعظ من كونِه متزكّياً أوْ مُتذكِّراً. قال ابن عاشور: "وَجُمْلَةُ ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾، أَيْ ما يُدْرِيكَ أَنْ يَحْصُلَ أَحَدُ الأَمْرَيْنِ، وكِلاهُما مُهِمٌّ، أَيْ تَحْصُلُ الذِّكْرَى في نَفْسِهِ بالإِرْشادِ لِما لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُ أَوْ تَذَكُّرٌ لِما كانَ في غَفْلَةٍ عَنْهُ"(1)، فقوله: ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ﴾، عطفٌ على ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ داخلٌ معَهُ في حُكمِ الترجّي"(2).

التـرديـدُ بـيـنَ الأمرينِ لتجويزِ الـجَـمْـعِ بـيـنَ الخَصلتينِ

دلالةُ الفعلِ المضارع ﴿يَذَّكَّرُ﴾ مادّةً وصيغةً:

عبَّر النظمُ الكريم بالفعلِ المضارع ﴿يَذَّكَّرُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ﴾؛ للدّلالة بمادّته على حُصولِ التذكُّر لأمرٍ مَعلوم بعدَ النِّسيان، قال ابن عاشور: "والتَّذَكُّرُ: حُصولُ أَثَرِ التَّذْكِير، فهوَ خُطورُ أَمْرٍ مَعْلوم في الذِّهْنِ بَعْدَ نِسْيانِهِ؛ إذْ هوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الذُّكْرِ بضَمِّ الذّال"(3)، وهو أمرٌ مهمٌّ في أخذِ العلْم؛ إذ كثيراً ما يَعرِضُ النّسيان، فيكونُ الجوابُ مُذكِّراً للسّائل. وللدِّلالة بصيغتِه المضارعة على حصولِ التذكُّر على سبيل الاستمرارِ التجدُّديِّ، إذ لا يخلو حالُ مَن سألَ النبيَّ ﷺ عن العلْم أنَّه يحصل له التذكُّرُ بقيدِ الاستمرار. كما تفيدُ صيغة الافتعال على حصولِ التذكُّرِ بطريق التدريج شيئاً فشيئاً، معَ المبالغة والزّيادة في التذكّرِ لعُمق العلم النبوي، وفي ذلك مدحٌ لكمالِ علْم النبيِّ ﷺ وكمالِ تعليمِه؛ إذ يزدادُ التذكُّر معهُ للعلْم والمَعرفة.

مَـن تـعـلّـم مِـنَ الـرّسـول تـذكَّـرَ كلَّ خيرٍ مَأمولٍ

سرُّ تقديمِ التزكّي على التذكُّر:

قدّمَ النظمُ الكريم فعلَ (التزكّي) على فعلِ (التذكُّر) عندَ

الـتـزكّي تـخـلٍّ وتَطَهُّرٌ، والتذكُّرُ تحلٍّ وتدبُّرٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 107.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 122.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 106.

العطفِ بينَهُما في قولِهِ تعالى: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ﴾؛ لتَقدُّم التخلية على التحلية[1]؛ لأنّ قولَه: ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ من بابِ التخليةِ منَ الآثام، وقوله: ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ﴾ من بابِ التّحليةِ ببعضِ الطّاعات"[2]، والتزكّيَ أهمُّ من التذكُّر؛ لما فيه من تطهُّرٍ ونموٍّ بالإرشادِ والعلْم، بخلافِ التذكُّر فإنَّه دفعٌ للغفلةِ والذهولِ والنِّسيان.

دلالةُ (الفاءِ) والغَرَضُ مِنها:

غـايـةُ الـتـزكّي والتذكُّر الانتفاعُ والتبَصُّر

عبَّرَ النظمُ الكريمُ بـ(الفاء) العاطفةِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ﴾؛ للدّلالة على السّببيَّة؛ "لأنَّ قبولَ الموعظةِ سببٌ لانتفاعِهِ بها"[3]، والغرضُ من بيانِ نتيجةِ التزكّي والتذكُّر إظهارُ أهميّةِ الانتفاع؛ لأنَّ التعلُّمَ والتذكُّرَ لما عُلِمَ لا يكمُلانِ إلّا بحصولِ النّفعِ واستقرارِ الانتفاعِ.

دلالةُ الفعل (تنفعهُ) مادّةً وصيغةً:

المَـشـقّـةُ في التكليف والرِّفْقُ بالنّاتِجِ اللَّطيف

عبّرَ النظمُ الكريم بفعلِ (النّفْع) مُضارِعاً في قولِهِ تعالى: ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾؛ للدّلالة بمادّتِهِ على حُصولِ فائدةٍ مترتّبةٍ على سُؤالٍ أوْ فعلٍ، وبصيغتِهِ المضارعة على حُصولِ ذلك النّفع على سبيلِ التجدُّدِ الاستمراريِّ، بحيث يتحقّقُ أثر الذّكرى والموعظةِ وفائدتُهما في نفسِهِ وسُلوكِه وعملِهِ بشكلٍ مُستمرٍّ ودائم. ونلمحُ تغايراً بينَ فعلَي (التزكّي والتذكُّر) وفعلِ (النفع)؛ إذ عُبِّرَ عن مَرجوِّهِ بصيغتينِ صرفيّتينِ مَزيدتين؛ للدّلالة على الزّيادة والمبالغة في (التزكّي والتذكُّر)، في حينِ ترتّبَ النفعُ بصيغةِ المجرَّد، وفي ذلك إشارةٌ إلى الفرقِ بين فعلَي الاكتسابِ الذي يحتاجُ إلى تكلُّفٍ ومشقّةٍ، والنتيجةِ الّتي تترتّبُ عليهما بكلِّ سَلاسةٍ ويُسْرٍ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 242.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 122.

(3) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 88.

تعدُّدُ القراءاتِ في ﴿فَتَنفَعَهُ﴾:

الرَّفْعُ والنّصب دالّانِ على التفرُّعِ والتسبُّب

قرأ الجُمهورُ الفعلَ المضارعَ ﴿فَتَنفَعُهُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾ بالرّفع: ﴿فَتَنفَعُهُ﴾، على أنّه معطوفٌ على فعلِ (التذكّر) للتعقيبِ والتسبّب؛ إذ يتسبّبُ عن التذكُّر نفعُ الذِّكرى والمَوعظة.

وقرأهُ عاصِمٌ بالنَّصب[1] ﴿فَتَنفَعَهُ﴾ على أنَّه منصوبٌ بـ(أنْ) مُضمَرةً بعدَ فاءِ السببيَّة، والتقديرُ: (إنْ يكُنْ هنالك تزكٍّ أوَ تذكُّرٌ يكُنْ هنالك نفعٌ)، فيكونُ المصدرُ المؤوّل معطوفاً على مصدرينِ مُتصيَّدين من فِعلَي الرَّجاء، لوقوعِها في جوابِ الطّلب بـ(لعلَّ) على رأيِ الكوفيّينَ الَّذينَ يرَونَ أنَّها طلبيّة بمنزلةِ التمنّي، فيبعُدُ أنْ يكونَ الترجّي صادراً من ابنِ أمِّ مكتوم؛ لأنّه يَرجو الممكنَ ولا يَتمنَّى المُستحيل. ومن ثمَّ ذهبَ الطّيبيّ إلى أنَّ ذلك إنَّما يتّسقُ معَ مذهبِ مَن قالَ: "إنَّ الضّميرَ في ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ للكافر؛ لأنّ المعنى: (ما يُدريك أنَّ ما طمِعتَ فيه وتمنَّيتَ من إسلامِ القوم كائنٌ؟)؛ لأنَّه ممّا لا يُمكنُ حُصولُهُ، وليس ذلك إلّا طمعٌ فارغٌ، وينصُرُه التفصيلُ بعدَه، وهو ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾، ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ﴾؛ لأنّه يقتضي أنْ يكونَ للكافرِ أيضاً ذكرٌ في المُجمَل"[2].

وأفادَ الهرريُّ منه إشاراتٍ صرَّح بها في قولِه: "وفيه إشارةٌ إلى أنَّ مَن تصدَّى لتزكيتهم وتذكيرِهم من المشركينَ، لا يُرجَى منهم التزكّي ولا التذكُّر أصلًا، وإشعارٌ بأنَّ اللّائق بالعالم أنْ يَقصِدَ بتعليمِهِ تزكيةَ مُتعلِّمِه، ولا ينظُرَ إلى شَبَحِهِ وصورتِهِ، كما ينظُرَ العوامُّ، وبالمُتعلِّم أنْ يريدَ بتعلُّمِه تزكيةَ نفسِهِ عن أرجاسِ الضَّلالة، وتطهيرَ قلبِهِ"[3].

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 398.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 293.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 122.

تقديمُ الأهمّ على المُهم من بلاغةِ الكَلِم

سرُّ تقديمِ المفعولِ في ﴿فَتَنفَعَهُ﴾:

قدّمَ النظمُ الكريم ضميرَ الغائب الواقعَ مَفعولاً به في قولِه تعالى: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ على فاعلِه؛ للدِّلالة على الاهتمام بالمُنتفع بالذِّكرى، فالذِّكرى والموعظةُ وإنْ كانتْ مُهمّةً للغاية في النَّفع؛ لكنَّ انتفاعَ السّامعِ بالإرشاد أهمُّ وأجدَرُ بالتقديم؛ إذِ الموعظةُ وذِكرها من أجلِه وبسببِه.

القـرآنُ ذكـرٌ للعـالَمين ومَوعظـةٌ للسّالكين

دلالةُ التعريفِ بـ(أل) في ﴿ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾:

عرّفَ النظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾؛ إمّا للدِّلالة على العَهْدِ الصّادقِ بالقرآنِ الكريم الَّذي هو أصلٌ لكلّ ذِكرى ومَوعظة وتذكير، كما رأى ابنُ عاشور بقولِه: "والذِّكْرَى: هوَ القُرْآنُ؛ لِأَنَّهُ يُذَكِّرُ النّاسَ بما يَغْفُلونَ عَنْهُ، قالَ تَعالَى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾ [القَلَم: 52]؛ فقَدْ كانَ فيما سَألَ عَنْهُ ابْنُ أُمِّ مَكْتوم آياتٌ مِنَ القُرْآنِ"[1]. وإمّا أنّ (اللّامَ) عوضٌ عن المضافِ إليه، والتقديرُ: (فتنفعَهُ مَوعظتُكَ)، أوْ للجنسِ الصّادق بكلِّ موعظةٍ وإرشادٍ وتعليم، ومن أهمِّهِ القرآنُ الكريم كما صرّح بِهِ القونويّ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البَـشـرُ أشـدُّ غـضـبـاً مـنَ العَبْسِ

العَبْسُ والبَسْرُ:

(العَبْسُ) انقباضٌ مع حُزْنٍ وتقطيب للوجه في أوائل الغضب، و(البَسْرُ) حصولُ أمرٍ أوْ عمَلٍ قبلَ أوانِه بعَجَلة، وهو حالةٌ حاصلةٌ بعدَ العُبوس، فيكون فيه الوجه أشد عبوساً وتقطيباً، ويُذكَرُ بعدَه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢﴾ [المدثر: 22][3]، قال الآلوسي: "﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ [المدثر: 22] قطّبَ وجهَه لمّا لم يَجِدْ في القرآنِ مَطعَناً وضاقتْ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 107.
(2) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 88.
(3) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 8/ 20.

عليه الحيَلُ ولم يدرِ ماذا يقولُ؟ وقيل: قطّبَ في وجههِ ﷺ ﴿وَبَسَرَ ۝٢٢﴾ [المدثر: 22] أي أظهرَ العُبوسَ قبلَ أوانِه وفي غير وقتِه؛ فـ(البَسَرُ) الاستعجالُ بالشيءِ نحوُ: بسرَ الرجلُ لحاجةٍ طلبَها في غيرِ أوانها، وبسرَ الفحلُ الناقةَ ضرَبَها قبلَ أنْ تطلُبَ، وماءٌ بسرٌ مُتناوَلٌ من غَديرِهِ قبلَ سُكونِهِ، ومنه قيلَ لما لم يُدرِكْ منَ الثّمَر بُسْرٌ، وبهذا فسَّره الراغبُ هنا، وفسّرَهُ بعضُهُم بأشدِّ العُبوس مِن: بَسَرَ إذا قبضَ ما بينَ عَينيهِ كراهةً للشيءِ واسودَّ وجهُهُ منهُ"[1]. ولذا آثرَ النظمُ الكريم ذكرَ العَبْس دونَ البَسْر في قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾؛ لأنَّ النبيَّ الكريم قطّبَ وجهَهُ بشكلٍ يسير، ولم يصِلْ لمرحلةٍ أشدَّ مِن ذلك.

التطهيرُ والتّزكيةُ والتّهذيب:

الاتّفاقُ في مُطلَقِ الخُلوص والاختلافُ في جهةِ الخُصوص

تَتفقُ الألفاظُ جميعُها في معنىً مُشتركٍ كليٍّ هو الخُلوص، لكنَّها تختلفُ في النّظر إلى جهةِ الخُصوص، فالنظرُ في (التطهير) إلى جهةِ حصولِ الطَّهارة في قُبالةِ الرِّجْسِ، وفي (التزكية) إلى جهةِ تنحيةِ ما يلزَمُ تنحيتُهُ وإخراجُهُ، وفي (التهذيب) إلى جهةِ حُصولِ الصَّلاحِ والخلوصِ"[2].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 138.
(2) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 4/ 323.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ [عبس: 5 - 7]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بعدَ العِتاب المُجمَل يأتي البيانُ المُفصَّل

لمّا عاتبَ المَولى الكريمُ النبيَّ ﷺ، وأنَّ المُعاتبَ فيه هو تركُ المؤمنِ الضَّعيف لأجلِ الحِرص على إيمانِ الكافرِ القويِّ بشكلٍ مُجمَلٍ؛ ناسَبَ أنْ يُفصِّلَ في شأنِهما وحالِهما، إذ التفصيلُ بعدَ الإجمال ألذُّ وأليقُ في الكلام وُصولاً إلى الكمال، قال البِقاعيُّ: "ولمّا ذكرَ العُبوسَ والتولّيَ عنهُ، فأفْهَما ضدَّهُما لمَن كانَ مُقبِلاً عليهم، بيَّنَ ذلك فقالَ: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسْتَغْنَىٰ﴾: (غني) أصلانِ صَحيحان؛ أحدُهُما يدلُّ على الكِفاية، والآخرُ صوتٌ[2]، يقالُ: غَنِيْتُ بكذا عن غيرِهِ من بابِ (تعِبَ)، إذا استغنيتَ به، والاسمُ الغُنية، فأنا غَنيٌّ. وغَنيَ من المالِ يَغنَى غِنَىً مثلُ رِضَىً، فهو غَنيٌّ، والجمعُ أغنياءُ[3]، فهو ما يُقابلُ الفقرَ، أي عدمُ الاحتياج، ومن مصاديقِهِ: الكفايةُ والإجزاءُ والتموُّلُ[4]. والمرادُ به في الآية: عدُّ الشخص نفسه غنيًّا في أمر يدلُّ عليه السياق؛ قول، أو فعل أو علم، فالسين والتاء للحسبان، أي حسب نفسه غنيًّا، وأكثر ما يستعمل الاستغناء في التكبُّر والاعتزاز بالقوَّة[5].

2) ﴿تَصَدَّىٰ﴾: (صدي) صَدَىً من بابِ (تعِبَ): عَطِشَ، فهو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 252.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(3) الفيومي، المصباح المنير: (غني).
(4) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 7/ 290.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 107.

صدٍ وصادٍ وصَديان[1]، وتصدّى فلانٌ للشيءِ يَستشرفُهُ ناظِراً إليه[2]، فهو التظاهُرُ بأيِّ وسيلةٍ كانتْ؛ بقولٍ أوْ صوتٍ أوْ عمَلٍ أوْ تصفيقٍ أوْ تطوُّلٍ أوِ استشرافٍ أوْ تعرُّضٍ أوْ صيحة، و﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾: تختارُ التظاهُرَ بالقولِ والعملِ لجانبِ المُستغني مُشتغِلاً بهِ عمّنْ يَخشى[3]. فالمرادُ به في الآية: تَتعرَّضُ وتُقبلُ مُهتمًّا بالمُستغني، وكأنَّك مُتعطِّشٌ للقائِه.

۞ المَعنى الإجماليُّ:

التبليغُ وظيفةُ الرّسول والله هو الهادي للوُصول

المَعنى: أمّا مَنِ استغنَى بقوَّته وتكبُّره وماله عن الإيمان، وعمّا عندَك من المعارفِ الَّتي يَشتمِلُ عليها القرآن، فأنتَ تُقبلُ عليه حرصًا على إسلامِه، وليسَ عليك بأسٌ ووزرٌ ووَبالٌ في أنْ لا يتزكَّى ذلك المُستغني عن الإسلامِ حتى تهتمَّ بأمرِه، إنْ عليك إلّا البلاغ[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ ﴿أَمَّا﴾ والغرضُ منها:

من استغنى عن الله لم تنفعه موعظة

عبّرَ النظمُ الكريمُ بالحرفِ ﴿أَمَّا﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾؛ للدِّلالة على الشَّرطِ والتفصيل[5]؛ والغرضُ من الشَّرطِ بـ﴿أَمَّا﴾ المُتضمِّنةِ مَعنى (مهما) الدالّةِ على العُمومِ في الأشخاصِ والظّروفِ والأحوالِ؛ تعليقُ وقوعِ الجوابِ على وجودِ الشَّرطِ، وجعلُهُ مُلازِماً له ملازمةً تامّة؛ للدِّلالة على المُبالغة والحرصِ على تحقيقِ الجَوابِ بأيّةِ حالةٍ ومع أيِّ شخصٍ وفي أيِّ ظرفٍ كان، وبه يتحقّقُ العتابُ جرّاءَ ذلك الحرصِ القويِّ في التصدّي والإقبالِ على المُستغني، والتقديرُ: "(مَهما يَكُنِ الّذي اسْتَغْنَى فأنْتَ

(1) الفيومي، المصباح المنير: (صدي).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدي).

(3) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 6/ 226.

(4) الواحدي، التفسير البسيط: 23/ 215، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 123.

(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 123.

لَهُ تَصدَّى)، أيْ (مَهما يَكُنْ شَيْءٌ فالَّذي اسْتَغْنَى تَتَصدَّى لَهُ)، والمَقْصودُ: أَنْتَ تَحْرِصُ عَلَى التَّصدّي لَهُ، فجُعِلَ مَضْمونُ الجَوابِ وهوَ التَّصدّي لَهُ مُعلَّقًا عَلَى وُجودِ مَنِ اسْتَغْنَى، ومُلازِمًا لَهُ مُلازَمَةَ التَّعْليقِ الشَّرْطيِّ عَلَى طَريقَةِ المُبالَغَةِ"[1]. والغرضُ من التفصيلِ الإبانةُ عمّا ينبغي أن يكون الحال مع المستغني عن الإيمان المُنصرِفِ عنه، فلا فائدةَ منَ التعرُّضِ له والإقبالِ عليه.

دلالةُ ﴿مَنِ﴾ ومَوقِعُها:

المُستغنونَ عن الإيمانِ يُصَدُّ عنهُم عندَ البَيان

عبّرَ النظمُ الكريم بلفظِ ﴿مَنِ﴾ الموصولةِ في قولِه تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾؛ للدّلالةِ على العُموم الصّادق على كلِّ مُستغنٍ عن اللّه تعالى وآياته، ويدخل فيه دخولًا أوَّليًّا القوم الَّذين كانوا مُجتمعينَ عندَه ﷺ، و﴿مَنِ﴾ موقعُها مُبتدأ مثلُ (زيد) في قولنا: (أمّا زيدٌ فمنطلِقٌ)، وأصلُه: (مهما يكُن شيءٌ فزيدٌ منطلقٌ)، فهو مُكوّنٌ من مُكوّنات الجملة الاسميَّة الواقعةِ جوابَ الشّرط، قُدِّمَ وجُعلَ مبتدأً معلَّقاً الجوابُ على وجودِه؛ للدّلالة على المبالغةِ والحرصِ على تحقيقِ الجوابِ[2].

دلالةُ الفعلِ ﴿ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ مادّةً وصيغةً:

مِنْ أوهامِ الكافرينَ حُسبانُهم الاستغناءَ عن اللهِ والدّين

عبَّر النظم الكريم بفعلِ (الاستغناء) في قولِه تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾؛ للدِّلالة بمادّتِه على عدم الاحتياج وحصولِ الكفايةِ له عن اللّه ودينِه سواء بالمالِ أَوْ بالعزِّ أَوْ بالعقلِ أَوْ بالعلْم، وبصيغتِهِ الماضية على وقوع ذلك الاستغناءِ منه على سبيلِ القَطْعِ بالحصول لا على سبيلِ الفَرضِ والاحتمال، وأفادَتِ الصّيغة المزيدةُ بالسّين والتاء دلالةَ الحُسبان المتفرّعة عن الطَّلب، قال ابنُ عاشور: "والاسْتِغْناءُ: عَدُّ الشَّخْصِ نَفْسَهُ غَنيًّا في أمْرٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 107.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 107.

يَدُلُّ عَلَيْهِ السّياقُ؛ قَوْلٌ أَوْ فِعْلٌ أَوْ عِلْمٌ، فالسّينُ والتّاءُ لِلْحُسْبانِ، أيْ حَسِبَ نَفْسَهُ غَنيًّا، وأكْثَرُ ما يُسْتَعْمَلُ الاسْتِغْناءُ في التَّكَبُّرِ والاعْتِزازِ بالقوَّةِ"[1]؛ لأنَّ مَن طلب الغِنى وسعَى إليه حَسِبَ نفسَهُ مُستغنياً عمّا يُكمِلُه ويُتمِّمُه. بقي أنَّ بعضهم فسّر ﴿ٱسْتَغْنَىٰ﴾ بـ(أثرى)، فيكونُ المعنى: (أمّا مَن أثرى فأنت له تصدّى)، ممّا يفيد أنَّ سرَّ إقبالِ النبيِّ ﷺ على المُشركين بالنُّصح لأجلِ ثرائِهم، وأنَّ إعراضَهُ عن ابنِ أمِّ مكتوم لفقره، وذلك لا يليقُ بالكمالِ النبويِّ أولاً، ولا يدلُّ عليه النظمُ ثانياً؛ إذ سرُّ الإقبال المفهوم من النظم الأهميّةُ للدَّعوة، التي اعتقدَها النبيُّ ﷺ في جانبِ المشركين، وقلّتُها في جانبِ ابن أمِّ مَكتوم. فالمُرادُ بـ﴿مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ هُنا: "مَنْ عَدَّ نَفْسَهُ غَنيًّا عَنْ هَدْيِكَ بأَنْ أَعْرَضَ عَنْ قَبولِهِ؛ لِأَنَّهُ أجابَ قَوْلَ النَّبيءِ ﷺ لَهُ: (هَلْ تَرَى بما أقولُ بَأْسًا؟) بقَوْلِهِ: (لا والدماءِ...) كِنايَةً عَنْ أَنَّهُ لا بَأْسَ بهِ يُريدُ، ولَكِنّي غَيْرُ مُحْتاجٍ إِلَيْهِ، ولَيْسَ المُرادُ بـ﴿مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ مَنِ اسْتَغْنَى بالمالِ؛ إذْ لَيْسَ المَقامُ في إيثارِ صاحِبِ مالٍ عَلَى فقيرٍ"[2].

دلالةُ جملةِ الصِّلةِ ﴿ٱسْتَغْنَىٰ﴾:

تعليقُ التصدّي بالاستغناءِ الوهميّ

عبَّر النظم الكريم بالجملةِ الفعليّة ﴿ٱسْتَغْنَىٰ﴾ صلةً للموصولِ في قولِه تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾؛ للدِّلالة على تحديدِ سرِّ العتاب في التصدّي للمذكورين؛ إذ اللّائقُ بحالِ المُستغنينَ الصدُّ عنهم لا التصدّي لهم والإقبال عليهم، وتركُ المحتاج للتعلُّم والتزكّي والتذكّر. والظاهر أنَّ النبيَّ ﷺ قد لمسَ منهم استغناءً عمّا يقول، ومع ذلك حرصَ على الإقبالِ والتعرُّض لدعوتهم مُنصرفاً عن تعليم ابنِ أمِّ مكتوم، لعلَّهم يؤمنونَ ويُذعنون وتظهرُ لهم حاجتُهم لهذا الدّين القويم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 107.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 107.

دلالةُ (الفاء) والغرضُ منها:

التصدّي بالنُّصحِ للمُستغنين لإقامةِ الحُجَّة عليهِم بيَقين

عبّر النظمُ الكريم بـ(الفاء) في قولِه تعالى: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾؛ للدّلالة على جوابِ الشّرط؛ والتقديرُ: (مهما يكنْ شيءٌ فالمُستغني أنتَ له تتصدَّى)؛ وبسببِ إرادة المبالغةِ والحصرِ الادّعائي عندَ التعليق قدّمَ مدخولَها وجعلَهُ شَرْطاً يتحقّقُ الجوابُ بوجودِه، ولمّا كان وجودُهُ أمراً محقّقاً فيتحقّقُ الجواب والتصدّي المذكور، وهو مناطُ العِتاب؛ لأنَّ اللّائق بالمستغني الصّدودُ عنه لا التصدّي له، لكنَّ النبيَّ الكريم ﷺ لمّا لمسَ منهُم الاستغناء وأنّه محضُ توهُّمٍ أرادَ إزالتَهُ وحرصَ عليه فانصرفَ عن ابنِ أمِّ مكتوم، وعوتِبَ مع ذلك على هذا الانصرافِ والإعراضِ والعُبوسِ.

نكتةُ إظهارِ ضميرِ الخِطابِ (أنت):

التقوّي والاختصاصُ في الخطاب دالّانِ على مَناطِ العِتاب

أظهرَ النظمُ الكريم ضميرَ المُخاطَبِ في قولِه تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾، ولم يقُل: (فالمُستغني تَصدَّى له) إمّا للتقوّي أوْ للاختصاص، وفي كلٍّ منهُما ملمَحٌ بلاغيٌّ عجيب، عبَّرَ عنه ابنُ عاشور بقولِه: "والإِتْيانُ بضَميرِ المُخاطَبِ مُظْهَرًا قَبْلَ المُسْنَدِ الفِعْليِّ دونَ اسْتِتارِهِ في الفِعْلِ يَجوزُ أنْ يَكونَ لِلتَّقَوّي؛ كَأنَّهُ قيلَ: (تَتَصَدَّى لَهُ تَصَدّيًا)، فمَناطُ العِتابِ هوَ التَّصَدّي القَويُّ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ مُفيدًا لِلاخْتِصاصِ، أيْ فأنْتَ لا غَيْرُكَ تَتَصَدَّى لَهُ، أيْ ذَلِكَ التَّصَدّي لا يَليقُ بكَ، وهَذا قَريبٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: (مِثْلُكَ لا يَبْخَلُ)، أيْ لَوْ تَصدَّى لَهُ غَيْرُكَ لَكانَ هَوْنًا، فأمّا أنْتَ فلا يَتَصَدَّى مِثْلُكَ لِمِثْلِه، فمَناطُ العِتابِ هوَ أنَّهُ وقَعَ مِنَ النَّبيءِ ﷺ في جَليلِ قَدْرِه"[1].

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمَجرورِ ﴿لَهُۥ﴾:

الحَصرُ الادّعائيّ يدلُّ عليه الظّرفُ الحاليّ

قدّمَ النظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرورَ ﴿لَهُۥ﴾ في قولِه تعالى:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 108.

﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾؛ للدِّلالة على الاختصاصِ والانحصارِ الادّعائيِّ للمُبالغة، أي حصرُ صفةِ التصدّي في الموصوفِ ﴿لَهُۥ﴾ مع أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يتصدَّى في دعوتِهِ المُباركة للمذكورينَ وغيرِهم، لكنَّ انصرافَهُ في ذلك الظّرف عن ابنِ أمِّ مكتوم وإقبالَهُ عليهم؛ صارَ كأنّه مُتصدٍّ لهم دونَ غيرِهم، وذلك المعنى يُقوّي إرادةَ الاختصاص في تقديمِ الضَّمير المَخاطب (أنت) على خبرِهِ الفعليِّ ﴿تَصَدَّىٰ﴾ على إرادةِ التقوّي في الحُكْم والتأكيدِ لهُ.

دلالةُ الفعلِ ﴿تَصَدَّىٰ﴾ مادّةً:

صَـدى الصّـوت وشـدّةُ العَطَش يَـسـتـلـزمـان المـواجـهـةَ والإقبالَ بشَغَف

عبّرَ النظمُ الكريم بالفعلِ المُضارع ﴿تَصَدَّىٰ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾؛ للدِّلالة بمادّتِهِ على التعرُّضِ والإقبالِ عليه بالوجهِ: "ونحوُ هذا قال الزجّاج: أنتَ تُقبلُ عليه، وقال أبو عبيدة: ﴿تَصَدَّىٰ﴾ تتعرّضُ، وقال أبو الهيثم: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ معناه: تتعرّضُ له، وتميلُ إليه، وتُقبلُ عليه، يقالُ: تصدَّى فلانٌ لفلان يَتصدّى، إذا تعرَّضَ له، وهو ما استقبلَكَ فصارَ قُبالَتَك"[1]، وذلك لأنّ أصلَ التصدّي إمّا من مُقابلةِ الشّيءِ مُقابلةَ الصَّدى، أي: الصَّوت الراجع منَ الجبَل"[2] أوْ منَ التعرُّضِ للشّيءِ على حرصٍ كتعرُّضِ الصَّديانِ للماء؛ أي: العَطْشان. وعن بعضِهِم: أصلُ تصدَّى تصدَّدَ منَ الصّدَد، وهو ما استقبلَكَ وجاءَ قُبالتك، فأُبدلَ أحدُ الأمثال حرفَ علّة"[3]، أي: "فأنتَ له تتصدَّى وتتهيَّأ له وتتعرّضُ بالإقبالِ عليه والاهتمام بإرشادِهِ واستصلاحِهِ دونَ الأعمى، وفيهِ مَزيدُ تنفيرٍ له ﷺ عن مُصاحبتِهم"[4]. وذهبَ الشّوكاني إلى تفسيرِ (التصدّي) بلازمِ التعرُّضِ والإقبالِ بالوجهِ وهو الإصغاء، فقالَ:

---

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 23/ 214.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 294.

(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 123.

(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 123.

"أيْ: تُصْغي لِكَلامِهِ، والتَّصَدّي: الإِصْغاءُ، وفي هَذا مَزيدُ تَنْفيرٍ لَهُ ﷺ عَنِ الإقْبالِ عَلَيْهِمْ والإِصْغاءِ إلَى كَلامِهِمْ"[1].

تزاحُمُ المَعاني ناشئٌ عن إعجازِ المَباني

دلالة الفعل ﴿تَصَدَّىٰ﴾ صيغةً:

عبّرَ النظمُ الكريم بالفعلِ المُضارع ﴿تَصَدَّىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾؛ للدّلالة بصيغتِه المضارعيّة على الاستمرارِ في عمليّةِ التهيُّؤ والإقبالِ عليهم بوجهِه الشَّريف، ويفيدُ بدلالةِ الفَحوى الاستمرارَ في التشاغُلِ والإعراضِ عن ابنِ أمِّ مَكتوم، وهو من مَناطات العِتاب أيضاً. كما تدلُّ صيغةُ (التفعُّل) على الزّيادة والمُبالغة في ذلك الإقبالِ والاستعداد، مع تحصيلِه بعنايةٍ على سبيلِ التدرُّج والارتقاء، وعلى المُطاوعة أيضاً؛ إذ لمّا أقبلوا إليه وتعرَّضوا له استجابَ فتعرَّض لهم واستعدَّ لنُصحِهم وتوجيهِهم، وذلك من عاداتِ وشيَم الكِرام.

الإقبالُ والتصدّي دليلُ الحِرص على الدَّعوةِ مِنَ النبيّ

تعدُّدُ القراءاتِ في ﴿تَصَدَّىٰ﴾:

قرأ الجمهورُ ﴿تَصَدَّىٰ﴾ بفتح التاءِ وتخفيفِ الصّاد على أنَّ (تاءَ) المضارعةِ أو تاءَ المُطاوعةِ محذوفةٌ، والحذفُ للتخفيف، قال الزّجّاج: والأصلُ: (تتصدّى)، ولكنْ حُذفتِ التاءُ الثانيةُ لاجتماعِ تاءَين.

وَقَرَأ نافِعٌ وابْنُ كَثيرٍ وأبو جَعْفَرٍ ﴿تَصَّدَّىٰ﴾ بفَتْحِ التّاءِ وتَشْديدِ الصّادِ عَلَى إدْغامِ إحْدَى التّاءَيْنِ في الصّادِ[2]. والمَعنى أيضاً: تتصدَّى، إلّا أنَّ (التاءَ) أُدغِمتْ في (الصّاد)؛ لقربِ مخرجِ التاءِ مِنَ الصّاد. وعلى كلا القراءتين يتحقّق التخفيفُ المناسِبُ للتصدّي بالطريقةِ المَعقولة[3].

شدّةُ الإقبال دالٌّ على الحرص في الانتِشال

دلالةُ المَجازِ المُرسَلِ في ﴿تَصَدَّىٰ﴾:

عبّر النظمُ الكريم بفعلِ (التصدي) في قولِه تعالى: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ

---

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 463.
(2) الحنبلي، فتح الرحمن: 7/ 284.
(3) الحنبلي، فتح الرحمن: 7/ 284.

﴿تَصَدَّىٰ﴾؛ للدّلالةِ على الإقبالِ الشَّديد؛ إذ يلزمُ منَ التعرُّض للشيءِ الإقبالُ عليه والتسبُّبُ عنه، فيكونُ من تسميةِ المسبَّبِ باسمِ سببِهِ ومَلزومِهِ، والغرضُ من التجوُّزِ بيانُ شدّةِ الإقبالِ النبويّ وقوّتِهِ وحرصِهِ ﷺ على انتشالِ الكُفّار من أوهامِهِم الاستغنائيَّةِ عن اللّه تعالى. قالَ ابن عاشور: "والتَّصَدّي: التَّعَرُّضُ، أُطْلِقَ هُنا عَلَى الإقْبالِ الشَّديد مجازًا"[1].

دلالةُ الطِّباق في ﴿تَصَدَّىٰ﴾:

شــدّةُ الإدبــار تـقـابِلُـها شـدّةُ الإقبال

عبّرَ النظمُ الكريم بأسلوبِ (الطّباق) الخفيِّ في قولِهِ تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾؛ إذ بينَ الاستغناءِ والتصدّي تضادٌّ خفيٌّ؛ إذ يلزمُ منَ الاستغناءِ عنِ الشَّيءِ عدمُ الإقبالِ عليه، فيكونُ بينهُما تضادٌّ، والغرضُ منه بيانُ شدّةِ الكُفرِ في الإعراضِ عن دينِ اللّه، وشدّةِ إقبالِ النبيِّ في إنقاذِهم من أدرانِ الكُفرِ والشِّركِ باللّه إلى دَوحةِ النَّجاة والفَلاح.

دلالةُ (الواوِ) في ﴿وَمَا عَلَيۡكَ﴾ والغرَضُ منها:

الـرِّفـقُ بالنبيِّ الـكـريـم دلـيـلُ الـحُـبِّ الإلـهـيِّ العَظيم

اختلفَ المُفسِّرون في دلالةِ (الواو) في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾؛ فمِنهم مَن جعلَها دالّةً على الاعتراضِ، وتكونُ جملتُها: "مُعْتَرِضَةً بَيْنَ جُمْلَةِ ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ وجُمْلَةِ: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ﴾"[2]، والغرضُ من الاعتراضِ رفعُ المَسؤوليّةِ والإصرِ عنِ النبيِّ ﷺ في تحقُّقِ إيمانِهم، وأنَّ وظيفتَهُ مجرّدُ التبليغِ دونَ الهدايةِ الفعليَّة، إذ تلك الهداية بمشيئةِ اللّه تعالى وقدرتِهِ، فهي دالّةٌ على شفقةٍ ومحبّةٍ قلبيّةٍ يحسُنُ إيرادُها بعد الخطابِ العِتابيِّ له ﷺ. ومنهم مَن جعلَها دالّةً على الحال، والجملةُ حاليّةٌ من فاعلِ ﴿تَصَدَّىٰ﴾، والتقدير: (تتصدّى حالَ كونك مَرفوعاً عنك البأسُ

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 398.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 108.

في عدم تزكيةِ المُستغني عن اللّه بالإسلام)، أي: تتصدّى وأنتَ غيرُ مُؤاخَذٍ على عدمِ اهتدائِه، قال الطّيبيُّ: "والجملةُ حالٌ مُقرِّرةٌ لجهةِ الإشكال"(1)، والإنكارِ وهو الاهتمامُ بأمرِ المُستغني والإعراضُ عن المُتزكّي، قال أبو السّعود: "وليسَ عليكَ بأسٌ في أنْ لا يتزكَّى بالإسلام، حتَّى تهتمَّ بأمره وتُعرِضَ عمَّن أسلمَ، والجملةُ حالٌ من ضميرِ ﴿تَصَدَّىٰ﴾"(2). "وفيه إشارَةٌ إلَى أنَّ الجُمْلَةَ الحاليّة للتنبيهِ عَلَى أنَّ ذلك الحرصَ ليس بواجبٍ عليه؛ فما الدّاعي إلَى الإعراضِ عمَّن أسلمَ، وأنَّ التزكيةَ حَقيقَةً فعلُ اللّه تَعالَى"(3). والذي يترجّحُ لدينا أنَّها اعتراضيّةٌ، أُريد بها رفعُ المؤاخذةِ عنِ النبيّ ﷺ، وبيانُ وظيفتِه الحقيقيَّة وهي التبليغُ. كما أنّ جعلَها اعتراضيّةً يتناسبُ معَ كونِ (ما) نافيةً أو استفهاميّةً، بخلافِ تأويلِ الحاليَّة؛ فإنّهُ مُنحصِرٌ بكونِها استفهاميَّةً إلا بتكلُّفِ تقديرِ القولِ المحذوفِ.

دلالةُ (ما) والغرَضُ مِنها:

النّفيُ والاستفهامُ يرفَعانِ الإصرَ عن كاهِلِ سيِّد الأنام

عبّر النظمُ الكريمُ بـ(ما) في قولِه تعالى: ﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾؛ للدلالة بها إمّا على **النّفي**، فهي حرفُ نافٍ لا محلَّ لها من الإعراب، والجملةُ خبريّةٌ: "و﴿عَلَيۡكَ﴾ خَبَرٌ مقدّمٌ، والمبتدأُ ﴿أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾، والمَعْنَى: عَدَمُ تَزَكّيه لَيْسَ مَحْمولًا عَلَيْكَ، أيْ لَسْتَ مُؤاخَذًا بعَدَمِ اهْتِدائِه حَتَّى تَزيدَ مِنَ الحِرْصِ عَلَى تَرْغيبِهِ في الإيمانِ ما لَمْ يُكَلِّفْكَ اللّه بِهِ، وهَذا رِفْقٌ مِنَ اللّه بِرَسولِهِ ﷺ"(4)، وذهبَ البيضاويُّ إلى أنَّ اسمَها محذوفٌ؛ لدلالةِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡكَ﴾ عليه، وجعلَ ﴿أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ مُتعلِّقًا بعدَ تقديرِ (في) بالاسمِ المحذوفِ، والتقديرُ: "وليس عليكَ بأسٌ في أنْ لا يتزكَّى بالإسلام؛ حتَّى يَبعثَكَ الحرصُ على

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 294.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 108.
(3) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 90.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 108.

إسلامِهِ إلى الإعراضِ عمَّن أسلمَ"[1]. قال القونويّ: "وقد مَرَّ مرارًا أنَّ السَّعي في إزاحةِ الشِّرك إعلاءُ الدين، والإعراضُ عمَّن أسلمَ في ذلك المجلِسِ لا يوهِمُ الإعراضَ بالكليَّة، وهو الممنوعُ عنه، لكنْ لعُلوِّ منصبِهِ عن ذلك الإعراضِ ممّا لا يناسبُهُ ﷺ؛ لما عرفتَهُ مِن أنَّ حسَناتِ الأبرار سيّئاتُ المُقرَّبين"[2].

أو على **الاستفهام**، فهي حينئذٍ اسمٌ مبتدأٌ، خبرُها متعلَّقُ الجارِّ والمجرور: "فقد جعلَها الزجّاجُ استفهاميّةً، أي: أيُّ شيءٍ عليك في أنْ لا يُسلِمَ مَن تدعوهُ إلى الإسلام؟"[3]، فإنَّهُ: "لَيۡسَ عَلَيۡكَ إلّا البَلاغُ، فلا تَهْتَمَّ بأمْرِ مِنْ كانَ هَكَذا مِنَ الكُفّارِ"[4]، وهو اختيارُ أبي حيان، فتكونُ: "(ما) استفهاميّةً للإنكار مبتدأً، و﴿عَلَيۡكَ﴾ خبرَها، و﴿أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ منصوباً بنزعِ الخافِض، والجارُّ والمجرور متعلّقٌ بما تعلَّق به ﴿عَلَيۡكَ﴾؛ أعني: الاستقرار، والجملة حينئذٍ جملةٌ إنشائيّةٌ لا محلَّ لها من الإعراب"[5]. وأوردَهُ أبو السُّعود بصيغةِ التمريض: "وقيل (ما) استفهاميّةٌ للإنكار، أيْ: أيُّ شيءٍ عليكَ في أنْ لا يتزكَّى، ومآلُهُ النّفيُ أيضاً"[6]. قال البِقاعيُّ: "ويجوزُ أنْ يكون استفهاماً، أي: وأيُّ شيءٍ يكونُ عليك في عدمِ تزكّيه، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّه يجبُ الاجتهادُ في تزكيةِ التابعِ الَّذي عُرِفَ منهُ القَبول"[7].

دلالة الاستعارةِ في قوله ﴿عَلَيۡكَ﴾:

نفيُ الحَرَج والمُؤاخذة لتحديدِ واجباتِ الدّاعية

عبّر النظمُ الكريم بحرفِ الجرِّ (على) في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾؛ للدِّلالة على الاستعلاءِ المجازيِّ؛ إذ عدمُ التزكّي

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 286.
(2) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 89.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 294.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 463.
(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 142.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 108.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 255.

أوِ الحرجُ لا يكونانِ مُستعليين حقيقةً؛ فيكونُ قرينةً على الاستعارةِ المكنيّة وذلك بتشبيهِ الحرَجِ والبأسِ والضّرَرِ بأمرٍ حسيٍّ، ثمَّ حُذِفَ وأُبقي من خواصِّهِ حرفُ الاستعلاءِ؛ للدّلالةِ على شدّةِ التمكُّن.

نكتةُ تقديمِ الخبرِ ﴿عَلَيۡكَ﴾ على المُبْتدأ:

الـحـصـرُ والاهتمام لرفع اللّوْمِ عن النبيّ الهُمام

قدّمَ النظم الكريمُ الجارَّ والمجرور ﴿عَلَيۡكَ﴾ على المبتدأ ﴿أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾؛ للدِّلالة على الحصرِ؛ أي إنَّ عدمَ تزكيتِهم ليس عليك بل عليهم، فهم المُؤاخَذونَ المُتضرِّرون منهُ وحدَهم. ولو قُدِّرَ اسمُ (ما) محذوفاً كما قدّرهُ البيضاويّ بقولِه: (ولا عليكَ بأسٌ في أنْ لا يَزكّى) يكونُ التقديمُ للاهتمام دونَ الحصر؛ إذ التقديمُ لئلّا يُفصَلَ بينَ الاسمِ ومَعمولِه بالخبر[1].

دلالةُ ﴿أَلَّا﴾ والغرضُ منها:

عـدمُ مُـؤاخـذةِ الـنـبـيِّ الـكـريـم بـشـكـلٍ مُـحـقّـقٍ ومتين

عبّرَ النظمُ الكريم بـ﴿أَلَّا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ المركَّبة مِن (أن) المصدريَّة و(لا) النّافية؛ للدّلالة على عدم مؤاخذةِ النبيِّ الأكرم ﷺ على عدم تزكيةِ الكافرينَ في الحالِ والاستقبال، لأنَّ (أن) المصدريَّة تؤوّل هي وما بعدَها بمصدر، و(لا) النافية الداخلةُ على المضارعِ تَنفي الحدثَ في الحال والاستقبال، وإنَّما عبَّر النظم بالمصدرِ المؤوَّل دونَ الصَّريح؛ لما فيه من تحقيقِ ثبوتِ الفعل لارتباطِهِ بالزَّمن، فتكونُ دلالة الحدثِ في الفعل أقوى منها في المصدرِ، ممّا يفيدُ عدمَ ثبوتِ التزكية على سبيلِ التحقُّق.

دلالةُ الفعل ﴿يَزَّكَّىٰ﴾ مادّةً وصيغةً:

الـنّـبـيُّ الـمُـزكّي لـلـقُـلـوب فـيـهِ السُّموُّ والارتقاءُ المَرْغوب

عبّر النظمُ الكريمُ عن فعلِ (التّزكية) مُضارِعاً في قولِه تعالى: ﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾؛ للدِّلالة بصيغتِهِ المضارعة على انتفاءِ التّزكية على سبيلِ التجدُّدِ الاستمراريِّ، وللدِّلالة بمادّته على التطهُّرِ من

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 89.

الشَّرك والآثامِ والتّنقية من المعاصي بالإيمانِ والاقتداءِ بالنبيّ الَّذي يُزكّي النفوسَ ويطهِّرها، ففيهِ إشارةٌ إلى أنَّ هذه الدّعوةَ الَّتي عليها النبيُّ ﷺ تُزكّي القلوبَ وتسمو بالأرواح والأبدان، واختيار الصّيغة الدالّة على (التفعُّل)؛ للدِّلالة على حصولِ التزكّي على سبيلِ التدرُّجِ والارتقاء، معَ المطاوعةِ لفعلِ المزكّي ﷺ.

الغرضُ من الخبرِ في ﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾:

تحقيرُ شأنِ الكافرين والاستهانةُ بأحوالِ المُكذِّبين

أخبرَ النظمُ الكريم عن عدمِ الحَرَج على النبيِّ ﷺ في عدم إيمانِ الكافرينَ، وذلك في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾؛ للدِّلالة على التحقيرِ من شأن الكفّار، والحضِّ على الإعراضِ عنهم وتركِ الاكتراث بأحوالِهم والاستهانةِ بمَن أعرضَ منهم، قال مجير الدين الحنبليُّ: "ثم قالَ تعالى مُحقِّراً لشأنِ الكفّار: ﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أي: وما يضرُّك أنْ لا يفلِحَ؟ إنْ عليك إلّا البلاغ، وهذا حضٌّ على الإعراضِ عن أمرِهم، وتركِ الاكتراثِ بهم"[1]، وقالَ الهرريُّ: "وفيهِ استهانةٌ لمَنْ أعرضَ عنه، وتحقيرٌ لأمرِهِ، وحضٌّ على الإعراضِ عنهُ، وتركُ الاهتمامِ به"[2].

۞ الفروقُ اللُّغويّة:

(استغنَى) و(أثرى):

الاستغناءُ أعمُّ مِنَ الإثْـراءِ من وجهٍ

الثّروةُ: كثرةُ المال، وأثرى إثراءً استغنَى، والاسمُ منهُ الثراءُ[3]، قالَ الأصمعيُّ: ثرا المالُ يثرو: كَثُر، وثرا القومُ يَثرون: كَثُروا ونَمَوا، وأثرى القومُ: كثُرتْ أموالُهُم[4]، فيختصُّ الإثراءُ بالكثرةِ والوفرةِ الماليَّة، وقد يكونُ معَها استغناءٌ وعدمُ احتياجٍ وقد لا يتحقق معَها ذلك، وأمّا الاستغناءُ فإنَّه يشملُ الغِنى بالمالِ والعقلِ والزَّوجِ والحسَبِ

(1) مجير الدين الحنبلي، فتح الرحمن: 7/ 284.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 123.

(3) الفيومي، المصباح المنير: (ثرى).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثرى).

والدّين والمُروءة ... الخ، فيَلتقي الاستغناءُ بالإثراءِ في المالِ الوَفيرِ الَّذي يُحقّقُ الاستغناءَ لصاحبِهِ، وقد تتحقَّقُ الوَفرةُ الماليّةُ ويكونُ هنالك احتياجٌ، وقد يتحقّقُ الاستغناءُ من دونِ وفرةٍ ماليَّة، فالعلاقةُ بينَهُما العمومُ والخصوصُ الوجهيُّ، ولذا عبَّر النظمُ بالاستغناءِ دونَ الإثراءِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾؛ لأنَّه مُستغنٍ عن الإيمانِ والدينِ الحقِّ بما يتوهّمُهُ مُغنياً من مالٍ وبنين وعقلٍ ودينٍ باطِل.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾

[عبس: 8 - 10]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

ذكرُ المُتقابِلاتِ لِمَعرفةِ المواقفِ والمُتَضادّات

لمّا ذكر القسم الأوَّل من الناس في الدعوة وهو المستغني والمعرض عن الآيات؛ ذكر مقابله وقسيمه وهو المقبل على الحقِّ،، والرّاغب في الانتفاع، لِتَتمَّ القسمة، ويكتمل التفصيل، فقال: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡعَىٰ﴾: سَعَى الرّجلُ على الصَّدقة يَسعَى سَعْيًا: عَمِلَ في أخذِها مِن أربابِها، وسعَى في مَشيِهِ: هَروَلَ. وسعَى إلى الصَّلاة: ذهبَ إليها على أيّ وجهٍ كان، وأصلُ السَّعي: التصرُّفُ في كلِّ عمَلٍ[2]، والسَّعيُ: المَشْيُ السَّريع وهو دونَ العَدْوِ، ويُستعمَلُ للجدّ في الأمرِ خيراً كانَ أوْ شرًّا[3]، قالَ الجوهريّ: "سعَى الرجلُ يَسعَى سَعْياً أي عَدا، وكذلك إذا عَمِلَ وكسَبَ"[4]. والمرادُ بهِ في الآيةِ: الحرص على اللقاء، والرغبة فيما عند النبيِّ صلَّى اللّه وسلَّم من الخير المذكِّر باللّه[5].

2) ﴿يَخۡشَىٰ﴾: (خشي) يدلُّ على خَوفٍ وذُعرٍ؛ فالخشيةُ: الخوفُ[6]، فهو خَشيانُ، والمَرأةُ خَشيَى، مثلُ غضبانَ وغَضْبى، ورُبّما قيلَ: خَشيتُ بمعنى عَلِمْتُ[7]، والخشيةُ: خوفٌ يَشوبُهُ تعظيمٌ، وأكثرُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 255، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 108.
(2) الفيومي، المصباح المنير: (سعى).
(3) الراغب، المفردات: (سعى).
(4) الجوهري، الصحاح: (سعى).
(5) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 255، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 109.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خشي).
(7) الفيومي، المصباح المنير: (خشي).

ما يكونُ ذلك عن علْم بما يُخشَى منه[1]، فهو المُراقبةُ والوقايةُ مع الخَوف، بأنْ يُراقِبَ أعمالَهُ ويتّقيَ نفسَهُ مع الخَوفِ والمُلاحظة[2]. والمرادُ به في الآية: بيانُ هيئةِ السّاعي المُقترنِ بالخوفِ مع التعظيم للّه تعالى وآياتِه.

3) ﴿تَلَهَّىٰ﴾: للهوِ أصلانِ صحيحانِ؛ أحدُهُما: يدلّ على شُغلٍ عن شيءٍ بشيءٍ، والآخرُ على نبذِ شيءٍ باليدِ، واللّهو: كلُّ شيءٍ شغَلَك عن شيءٍ فقد ألهاك[3]، واللّهو: ما يشغلُ الإنسانَ عمّا يَعنيه ويَهمُّه، يقالُ: لهَوتُ بكذا، ولهيتُ عن كذا: اشتغلتَ عنهُ بلَهْوٍ، ويُعبّر عن كلِّ ما بهِ استمتاعٌ باللّهْو[4]، فهو ما يكونُ فيه تمايلٌ إليه وتلذّذٌ به مِن دون نظَرٍ إلى حصولِ نتيجةٍ[5]. والمرادُ به في الآية: التشاغُلُ والانصرافُ عن السّائلِ وعدمُ الاكتراثِ بهِ على سبيلِ المُبالغةِ والزِّيادة.

المَعنى الإجْماليُّ:

تفصيلُ سببِ العتاب للوُقوف علـى حقيقةِ الخِطاب

المعنى: وأمّا الّذي جاءَك مُسرعًا يَبتغي عندك ما تتوقُ إليه نفسُهُ، وهوَ يخافُ الغَواية، وما دفعَهُ إليك إلّا حبُّهُ لأنْ يتطهَّرَ من الجهل، وخوفُ الوقوعِ في ظُلُماتِ الضَّلال، فأنْتَ عَنْهُ تتشاغلُ عن إجابتِهِ إلى طلبِهِ بدعاء صناديدِ قُريش إلى الإسلام[6].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الوصلِ في ﴿وَأَمَّا﴾:

إتمامُ التقسيمِ والتأكيد لبيانِ الأحقِّ بالترغيبِ والتَّهديد

عبَّر النظمُ الكريم بـ(الواو) في قولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ﴾؛ للدِّلالة على عطفِ ما بعدَها على جملةِ: "﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾،

(1) الراغب، المفردات: (خشي).
(2) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 3/ 60.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لهو).
(4) الراغب، المفردات: (لهو).
(5) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 10/ 230.
(6) الهرري، حدائق الروح والريحان: 10/ 1785.

اقْتَضَى ذِكْرُهُ قَصْدَ المُقابَلَةِ مَعَ المَعْطوفِ عَلَيْها مُقابَلَةَ الضِّدَّيْنِ إتْمامًا للتقسيم، فحَصَلَ بمَضْمونِ هَذِهِ الجُمْلَةِ تَأْكيدٌ لِمَضْمونِ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾[1]؛ فالغايةُ من العطفِ توزّعَتْ بينَ غرضَين: إتمامُ التقسيمِ الَّذي تَستدعيهِ (أمّا) الَّتي قبلَها، وتأكيدُ العتابِ الَّذي تضمَّنَهُ مطلَعُ الآيةِ، فهو زيادةُ عتابٍ آخرَ بتفصيلِ حالِ الأعمى، وبيانِ أنَّه الأحقُّ بالإرشادِ والدَّعوة النبويَّةِ المُباركة.

دلالةُ (أمّا) والغرضُ منها:

تعليقُ التلهّي والتشاغُل بوجودِ الأعمَى المتُسائِل

عبَّر النظمُ الكريم بـ(أمّا) في قولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾؛ للدِّلالة على الشَّرط والتفصيل، قال القونوي: "كلمةُ (أمّا) لتفصيلِ المُجمَل الَّذي فُهِمَ من قولِه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾.... الآية؛ فإنَّ التولّيَ عنه لأجلِ الإقبالِ عَلَى غيرِهِ؛ ففُهِمَ منهُ فريقانِ"[2]. كما تتضمَّن (أمّا) معنى (مهما) الدالّة على العُموم في الأشخاصِ والظُّروف والأحوال، والتقديرُ: (مهما يكُنْ شيءٌ فمَن جاءك يَسعى وهو يَخشى فتتلهَّى عنه)؛ فيكونُ تعليقاً للتلهّي على وجودِ ذلك الَّذي يَسعى على سبيلِ المُبالغة في إثباتِ التلهّي عنه، وإنْ كان التلهّي مُتعلِّقاً بدعوةِ القوم، اجتهاداً منهُ ﷺ بالعملِ بالأولويّات على وفق قواعدِ الاجتهاد.

دلالةُ ﴿مَن﴾ والغرضُ مِنها:

العِبرةُ بعُمومِ اللَّفظ لا بخُصوصِ السَّبب

عبَّرَ النظمُ الكريم بـ﴿مَن﴾ المَوصولةِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾؛ للدِّلالة بها على المُعيَّن العاقل وهو ابنُ أمِّ مكتوم رضي الله عنه؛ لكنَّ النظمَ آثرَ التعبيرَ عنه بالموصولِ؛ للدّلالة على أنَّ ذلك الحكمَ ينبغي الأخذُ به مع كلِّ مُتسائلٍ ومسترشد. وفائدةُ التعبير بالموصولِ أيضاً أنَّه مُبهمٌ فيحتاجُ إلى توضيحٍ يُبيِّنُ حالَهُ ويوضِّحُ شأنَه، ففيه إجمالٌ يعقبُهُ تفصيل، وفي ذلك لذَّةٌ للمتلقّي وتشويق له.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 108.

(2) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي. 20/ 90.

دلالةُ الفعلِ ﴿جَآءَكَ﴾ مادّةً وصيغةً:

مُقابلةُ المَجيءِ للاستغناء دالّةٌ على رغبةٍ شديدةٍ في الاستهداء

عبَّر النظمُ الكريمُ بالفعلِ الماضي (جاء) في قولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ﴾؛ للدِّلالة على وقوعِ المجيءِ على سبيل القطعِ بالحُصول لا على سبيل الفرضِ والاحتمال، كما يدلُّ بمادّتِه على رغبةٍ في الإقبالِ والحضور؛ فهو أعمى وكلَّفَ نفسَهُ المَجيءَ للسُّؤال، فهذا المجيءِ دالٌّ على صُعوبةٍ في الوصولِ، معَ تعمُّدٍ في الحضورِ، ورغبةٍ قويّةٍ في طلب الاستهداءِ.

سرُّ تعديةِ فعلِ (المَجيءِ) إلى ضميرِ المُخاطَبِ ﴿جَآءَكَ﴾:

حذفُ الجارِّ الدالّ، على تحديدِ مقصَدِ الإقبالِ

عدَّى النظم الكريمُ فعلَ (المَجيءِ) في قولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ﴾ إلى ضميرِ المُخاطَب؛ للدِّلالة على أنَّ المجيءَ كان مُنحصِراً في غايتِهِ وجميعِ أجزاءِ حدثِهِ بالوصولِ إليك يا رسول اللّه، فأنتَ مَقصَدُ مجيئِهِ والهدفُ الَّذي يرومُ الدخولَ عليه، بخلافِ ذلك المُستغني عنك وعمّا تدعو إليه، ومن المعلوم أنَّ الفعلَ (جاء) لازمٌ يتعدَّى بالحرف، والتقديرُ (جاء إليك)، لكنَّه حذفَ الجارَّ وأوصلَ الفعلَ بالمفعولِ بِهِ المخاطبِ؛ للدّلالة على تأكيدِ هدفِ المَجيء وغايتِهِ الأساسيَّة المنحصرةِ بذاتك، فهو لا يَستغني عنك وعنْ توجيهك.

دلالة الفعل ﴿يَسۡعَىٰ﴾ بين الحقيقةِ والمجاز:

مِن شدَّةِ الإقبالِ كانَ السَّعيُ والاستعجال

عبّرَ النظمُ الكريم بالفعلِ المُضارع ﴿يَسۡعَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ﴾؛ للدِّلالة على حصولِ ذلك الفعلِ على سبيلِ التجدُّدِ الاستمراريّ، فهو لا يتوقّفُ في سعيِه وعَدْوِه إليك ومشيهِ السَّريع للدُّخول في حَضرتِك طالباً للاستهداءِ والاسترشادِ. كما يدلُّ بمادّتِه على ضَرْبٍ من المَشي السَّريع يُشبِهُ العدوَ والهَرولة مع الرّغبةِ في الإنجازِ له، قال الرّازي: أي "يُسْرِعُ في طَلَبِ الخَيْرِ، كَقَوْلِهِ:

﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الجُمُعَة: 9][1] أي بالرَّغبةِ والإقبال. و(سعَى) فيه قولانِ؛ أحدُهما: يَمشي. والثاني: يعملُ في الخيرِ[2]، أي: يَسْعى في شؤونِه وأمرِ دينِه وتقرُّبِه منكَ[3]، وعلى الأوّلِ فالسّعيُ مُستعمَلٌ في حقيقتِه اللُّغويَّة، والثاني مجازٌ على سبيلِ الاستعارةِ التصريحيَّة. وعلى المعنى الأوّل فالمشيُ السَّريع معَ أنَّه كفيفٌ لا يُبصرُ دالٌّ على الحبِّ والتعلُّقِ بالهدي النبويِّ والنّورِ الإلهيِّ المُبين، بخلافِ ذلك المُستغني عن تلك الأنوارِ المُكذِّبِ بتلك الأسرارِ والأخبار، وعلى الثاني فهو مناقِضٌ للمُستغني عن اللهِ وأسرارِ دينِهِ؛ إذ هو مُسرعٌ في طلبِ شُؤونِ دينِه المُقرِّبةِ له من ربِّه.

دلالةُ الموقعِ الإعرابيِّ لجملةِ ﴿يَسۡعَىٰ﴾:

تقييدُ المَجيءِ بالسَّعي استنكارٌ لفعلِ ذلك المُستغني

عبَّر النظمُ الكريم بالجملةِ الفعليَّة ﴿يَسۡعَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ﴾؛ للدّلالة على الحالِ من فاعلِ المجيءِ، قال الهرريّ: "أي حالَ كونِه ﴿يَسۡعَىٰ﴾، ويَمشي بسرعةٍ في أمرِ دينِه؛ أي: حال كونِه مُسرعًا طالبًا لما عندَك من أحكام الرُّشْدِ، وخِصال الخَير"[4]. فالغرضُ من الحال تقييدُ حالةِ المَجيءِ بحالةِ السَّعي، فكانَ المجيءُ ممزوجاً بالسّعْي والمَشْي السَّريع للوصول إلى الهدفِ المَقصود، وبيانُ هيئةِ الجائي الدالّةِ على الرغبةِ القصوى وعدم الاستغناءِ عمّا عندَ النبيِّ الكريم من تشريعٍ وقرآنٍ وأحكام. وتقييدُ المجيءِ بالسَّعي وبيانُ هيئةِ الجائي ترسمُ صورةً مناقضةً لحالِ المُستغني بما عندَهُ مِن أوهام عنِ الدّين والقرآنِ والنبيِّ الكريم، وبذلك يزدادُ العتابُ وتعظمُ صورتُهُ بهذا التفصيلِ لحالِ المُتسائلِ المُتشوِّفِ لمعرفةِ النورِ والحقِّ المُبين.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 54.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 400.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 437.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 124.

الجمعُ بينَ الحالينِ البدنيَّة والقلبيَّة تصويرٌ لكمالِ الرَّغبة

دلالةُ (الواوِ) في ﴿وَهُوَ﴾:

(الواو) في قولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾؛ دالَّة على الحالِ، فالجملةُ الاسميّةُ حالٌ جيءَ بها بياناً لهيئةِ الجائي ساعياً مع الخشيةِ للّه تعالى، فيكونُ السّعي بياناً لحركةِ مجيئِه، وهو دالٌّ على الرغبةِ والحرصِ في الإقبال، والخاشي للّه تعالى بيانٌ لحالتِه القلبيَّة وهيئتِه النفسيَّة، فيكون هنالك قيدانِ لحالةِ الجائي: أنَّه ساعٍ وأنَّه خاشٍ للّه تعالى، فالأوّلُ حالٌ حسيّةٌ بدنيّةٌ، والثاني حالٌ معنويّة قلبيّةٌ، وكلاهما مُتنافيانِ معَ حالةِ المُستغني.

التقوّي والانحصار دالّانِ على الرَّغبة في التحلّي بالأنوار

سرُّ تقديمِ الضَّمير (هو) على الخبرِ الفعليّ:

قدّمَ النظمُ الكريم ضميرَ الغائب الواقعَ مُبتدأً في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾؛ للدِّلالة على الحصْرِ مع تقويةِ الحُكم وتوكيدِه، فتكون الخشيةُ مُنحصرةً فيه حَصْراً ادّعائياً، وهو من حصرِ الصِّفة في الموصوف، مع إفادةِ تأكيدِ وقوعِ الخَشية له، وفي ذلك الانحصارِ والتقوّي دلالةٌ على ما ينبغي أنْ يقابَلَ به من الإقبالِ عليه والارتياحِ لَمطلبِه.

ثراءُ المَعنى بتعدُّدِ مُتعلّقات المَبنى

دلالةُ الفعل ﴿يَخْشَىٰ﴾ مادّةً وصيغةً:

عبّرَ النظمُ الكريم بالفعلِ المضارع ﴿يَخْشَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾؛ للدِّلالة بمادّتِه على الخوفِ التعظيميّ؛ لكنَّ هذا الخوفَ يتعدّدُ بتعدُّدِ احتمالاتِ تقديرِ مُتعلّقه، ومن ثمَّ قيلَ في دلالتِه هنا: "ثَلاثَةُ أَوْجُهٍ، يَخْشَى اللّه ويَخافُهُ في أنْ لا يَهْتَمَّ بأداءِ تَكاليفِه، أَوْ يَخْشَى الكُفّارَ وأذاهُمْ في إتْيانِكَ، أوْ يَخْشَى الكَبْوَةَ؛ فإنَّهُ كانَ أعْمَى، وما كانَ لَهُ قائِدٌ"[1]. والرّاجح بقرينةِ السّياق المعنى الأوّل؛ إذ خشيتُهُ الحقيقيّة كانتْ للّه تعالى، وأمّا خشيتُهُ من الكفّار وأذاهُم أو

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 54.

من السُّقوط في الطَّريق، وإنْ كانا مقوّيينِ لحرصه على الاستهداءِ وما يَنبغي تقديمُهُ له؛ لكنّ المقابلةَ بالمُستغني العازف عن اللّه تعالى ودينِه لا يظهَرُ إلّا بكونِهِ يَخشى اللّه ويرغبُ في نيلِ الخيرِ والمعارف النبويَّة التي عزفَ عنها المُستغني، بقي أنَّ الفعلَ المضارعَ يدلُّ بصيغتِهِ المضارعيَّةِ على إفادةِ التجدُّد"(1).

حذفُ مفعولِ فعلِ (الخَشية):

حذفَ النظمُ الكريمُ مفعولَ (الخشية) في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ يَخۡشَىٰ﴾؛ "لِظُهورِهِ؛ لِأَنَّ الخَشْيَةَ في لِسانِ الشَّرْعِ تَنْصَرِفُ إِلَى خَشْيَةِ اللّه تَعالَى"(2)، وهذا الدليلُ حاسمٌ في كونِ فعلِ (الخشية) هو الخوفُ المقرونُ بالتعظيم للّه تعالى دونَ خشيةِ الكفّار أوْ خشيةِ السُّقوط في الطريق؛ إذ لا تعظيمَ لهما في نفسِ الخائف، ولو كانا مُرادين لكان ذكرُهما مُتعيِّناً لعدمِ القرينة الواضحةِ الدالّة عليهما، في حين أنَّ المُتبادر من إطلاقِ (الخشية) في لسان الشرع انصرافُها للخشية من اللّه تعالى، ودلالةُ التبادر مقدّمةٌ على ما سِواها إلّا عندَ توافُرِ القرينةِ على إرادةِ غيرِها.

التبادُرُ الدّلاليّ مُقدَّمٌ على التجويزِ الاحتماليّ

اختلافُ الحالَينِ في الفعليّةِ والاسميّة:

عبّرَ النظمُ الكريم بجملتينِ حاليّتين؛ أولاهُما فعليّةٌ وثانيتُهُما اسميّةٌ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ﴾؛ لأنَّ ﴿يَسۡعَىٰ﴾ حالٌ فعليّةٌ، و﴿وَهُوَ يَخۡشَىٰ﴾ حالٌ اسميّةٌ، وكلٌّ منهما متناسبةٌ مع مدلولِها؛ فإنَّ الجملةَ الفعليّة دالّةٌ على التجدُّدِ والحدوث، والسّعيُ والمشيُ السّريعانِ اللّذانِ تحثُّ فيه الخُطى يتناسبُ مع التجدُّد والحدوث، وأمّا (الخشية) التي هي خوفٌ مقترنٌ بتعظيم المَخوف منه؛ فإنَّه لا يكونُ إلّا ثابتاً ودائماً ومُستمراً، وفي ذينِك الحالَينِ دلالةٌ

السّعيُ يُناسبُهُ التجدُّدُ الفعليّ، والخشيةُ يتّسقُ معَها الثباتُ الاسميّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 109.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 109.

على الحركةِ البدنيَّة المتجدِّدة، وعلى الدّوام والثبات القلبيِّ؛ قال القونويّ: "وفي اختيار الجُمَلَة الفعلية في الأولى، والجُمَلَة الاسمية في الثانية تنبيهٌ عَلَى أنَّ السّعيَ أمرٌ متجدِّدٌ، والخشية أمرٌ مستمرٌّ عَلَى الدوام"[1].

دلالةُ (الفاء) والغرضُ منها في ﴿فَأَنتَ﴾:

(الفاء) في قولِه تعالى: ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾؛ رابطة لجوابِ الشَّرط (أمّا)؛ إذ تعلّق التلهّي والتشاغُل على وجودِ الجائي ساعياً يَخشى اللّه.

نكتةُ تقديمِ (أنت) على خبَرِه الفعليّ:

مثلُكَ لا يَليقُ بِهِ التصدّي ولا يُناسِبُهُ التلهّي

قدّمَ النظمُ الكريم ضميرَ المُخاطَب الواقعَ مُسنداً إليه على خبرِه الفعليِّ في قولِه تعالى: ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾؛ للدِّلالة على الانحصارِ والاختصاصِ للتشاغُلِ عنه دونَ مَن سواهُ مِن صناديدِ قُريش، كما انحصرَ التصدّي بأولئك الصَّناديدِ دونَ ابنِ أمِّ مَكتوم ﷺ في قوله ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾، فهو حصرٌ إضافيٌّ، من حَصْرِ الصِّفة في الموصوف. كما دلَّ التقديمُ على تحقيقِ معنى التشاغُلِ وتوكيدِهِ بحيث يزولُ أيُّ شكٍّ في حصولِهِ وقوّته، ونبَّه الزّمخشري إلى نكتةٍ بليغةٍ للانحصارِ - وهي الإنكارُ - أفادَها التقديمُ عبَّر عنها بقوله: "فإنْ قلتَ: قولُهُ ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾، ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ كأنَّ فيه اختصاصاً، قلتُ: نعم، ومعناه: إنكارُ التّصدّي والتلهّي عليه، أي مثلُكَ خصوصاً لا يَنبغي له أنْ يتصدَّى للغنيّ ويتلهَّى عنِ الفقيرِ"[2].

سرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَنْهُ﴾:

العزيز مَن أعزّهُ اللهُ بالإيمانِ والطّاعة

قدّمَ النظمُ الكريم الجارَّ والمجرورَ ﴿عَنْهُ﴾ على متعلَّقه الفعليِّ في قولِه تعالى: ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾؛ للدِّلالة على القصرِ الإضافيِّ

(1) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 90.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 702.

بالنِّسبة لصناديدِ قريشٍ الحاضرين، قال القونويّ: "وتقديمُ ﴿عَنۡهُ﴾ لرعايةِ الفاصلةِ أوِ القصرِ الإضافيِّ"[1]. كما أفادَ التقديمُ دلالة التعريضِ باهتمامِهِ ﷺ بمضمونِهِ، قال الهرريُّ: "وفي تقديم ﴿عَنۡهُ﴾ للتعريضِ باهتمامِهِ ﷺ بمضمونه تنبيهٌ؛ حيث أفادت القصةُ أنَّ العبرة بالأرواحِ والأحوال، لا بالأشباحِ والأموال، والعزيزُ مَن أعزّهُ اللّه بالإيمان والطّاعة، وإنْ كان بينَ الناس ذليلًا، والذّليلُ مَن أذلّهُ اللّه بالكُفر والمَعصية، وإنْ كان بينَ النّاس عزيزًا"[2].

دلالةُ الطّباق بينَ ﴿لَهُۥ﴾ و﴿عَنۡهُ﴾:

لفتُ الأفكار لمَنْ يستحِقُّ الإقبالَ والإدبار

عبّر النظمُ الكريمُ بأسلوبِ الطِّباق البديعيِّ الحرفيِّ بينَ ﴿لَهُۥ﴾ و﴿عَنۡهُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ وقوله: ﴿فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾؛ للدّلالة باللّام في ﴿لَهُۥ﴾ على الاختصاصِ والإقبالِ والمِلك، وللدِّلالة بـ(عَن) في ﴿عَنۡهُ﴾ على التجاوُزِ والمُباعدة والانصراف، والغرضُ من الطباقِ بيانُ مَن يستحِقُّ لفظَ ﴿لَهُۥ﴾ ومَن يستحقُّ لفظَ ﴿عَنۡهُ﴾ من فريقَي المُستغني عن اللّه ورسولِهِ وفريقِ المُقبِلِ عليهما.

دلالةُ الفعلِ ﴿تَلَهَّىٰ﴾ مادّةً وصيغةً:

حكايةُ الحالِ الماضيةِ دعوةٌ لـرُؤيـتِـهـا الحاضِرة

عبَّرَ النظمُ الكريم بالفعلِ المضارعِ ﴿تَلَهَّىٰ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾؛ للدِّلالة بصيغتِهِ المضارعة على وقوعِ التلهّي على سبيلِ الاستمرارِ التَّجَدُّديّ أوْ لحكايةِ الحالِ الماضيةِ[3] تصويراً لها كأنَّها تقعُ الآنَ، كما أنّ الانشغالَ متجدِّدٌ بتجدُّدِ التصدّي والإقبال على الصَّناديد. كما تفيدُ صيغةُ (التفعُّل) دلالةَ المُبالغةِ والزّيادة[4]، إذ حصلَ ذلك التلهّي على سبيلِ الكَثرة مع التدرُّجِ في الالتهاءِ نتيجةَ التدرُّجِ في التصدّي والإقبال، وللدِّلالة بمادّتِه على الاشتغال

(1) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 90.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 125.

(3) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي. 20/ 90.

(4) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 90.

عن الشّيء، لأنَّها مَأخوذة من: "لَهيَ عن الشَّيءِ بالكسرِ يلهَى لَهَيًا: أعرضَ عنهُ، لا مِن (لَهَوْتُ بالشيءِ) بالفتحِ ألهو لَهْوًا إذا لَعِبْتَ به"[1]؛ لأنَّ الفعلَ مسندٌ إلى ضميرِ النبيِّ ﷺ، ولا يليقُ بشأنِهِ الرّفيع أنْ يُنسَبَ إليه التفعُّل من اللّهْو، بخلافِ الاشتغالِ عن الشَّيءِ لمصلحةٍ. وعن أبي حيان: ولو أُخِذَ من اللّهْو، وجُعِلَ التشاغلُ بأهلِ التغافُل من جنس اللّهْو واللّعب - لكونِهِ عبثًا لا يترتّبُ عليه نفعٌ - ؛ لم يخلُ عن وجهٍ؛ لأنَّ ما يبنى على فعِل من ذواتِ (الواو) تنقلبُ واوُهُ لانكسارِ ما قبلَها؛ نحوُ (شَقيَ يشقَى)[2]. وفيهِ أنَّه يلزمُ منهُ أنْ يكون الاشتغالُ بالدّعوة عبثًا، ولا يقولُ به المؤمن، وذلك لأنَّه لا يجوزُ للنبيِّ ﷺ التشاغُلُ بأهلِ التغافل إلّا بطريق التبليغِ والإرشاد، فكيفَ لا يترتّبُ عليه نفعٌ؟"[3].

دلالةُ الطِّباق في ﴿تَصَدَّىٰ﴾ و﴿تَلَهَّىٰ﴾:

نـصـحُ الـنـبـيّ بوضعِ الشّيءِ في موضعِهِ الجليّ

عبّر النظمُ الكريم بأسلوبِ الطباقِ بين الفعلينِ المُضارعين ﴿تَصَدَّىٰ﴾ و﴿تَلَهَّىٰ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ وقولِه تعالى هنا: ﴿فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾؛ للدّلالة على الإقبالِ على المُعرِض المُستغني طمَعاً في إسلامِهِ وتزكيتِهِ، والتشاغُلِ والإعراضِ عن المُقبِل المنتفِعِ لتزكّيهِ وتذكُّرِه. والغرضُ من الطّباق بيانُ الحركتينِ المُتعاكستين إقبالاً على المُعرِض وإدباراً عنِ المُقبل، فيُضفي على النصِّ حركةً مُتعاكسةً، تفيدُ بيانَ الحُكم الشرعيِّ الصَّحيح فيما وقع فيهِ الاجتهادُ النبويّ. وقال البيضاوي: "ولعلَّ ذكرَ التصدّي والتلهّي؛ للإشعارِ بأنَّ العتابَ على اهتمامِ قلبِهِ بالغنيِّ، وتلهّيهِ عن الفقيرِ، ومثلُهُ لا ينبغي لهُ ذلك"[4].

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 437.
(2) ابن عادل، اللباب: 20/ 157.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 124.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 286.

سرُّ تقديم التصدّي على التلهّي:

ارتباطُ النّظم داعٍ إلى تأخيرِ الكلِم

قدّمَ النظمُ الكريم فعلَ التصدّي على فعلِ التلهّي، وتفصيلَ حالةِ المُستغني على تفصيلِ حالةِ المُحتاج في قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ إلى قوله ﴿فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾؛ لأنَّه لمّا تقدّمَ الحديثُ في القصَّة عن العُبوس والتولّي عن الأعمَى فُهِم أنَّ هنالك فريقاً آخرَ لأجلِهِ وقعَ الانصرافُ، فقُدِّمَ تفصيلُ المُستغني والتصدّي لتبليغه طمَعاً في إسلامِه، وأُخِّرَ بيانُ المُنصرِف عنه والتلهّي عنه؛ لئلاّ يُفصَلَ بينَ التلهّي عن تعليمِهِ والنَّهي منه بفاصلٍ لا يُناسبُ مقام العتاب؛ لأنَّ التصدّيَ في تبليغِ الدّعوة من حيث هو واجبٌ، لكنَّ اقترانَه بالانصرافِ عن المُحتاج إلى المُستغني هو محلُّ العتاب، ولذا قال القونوي: "وتأخيرُ الثاني لئلّا يكونَ فصلًا بينَهُ وبينَ قولِهِ ﴿كَلَّآ﴾؛ لأنّه ناظرٌ إلَى الثاني"[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

اللّهْو واللَّعِبُ والعَبَثُ واللّغوُ والباطلُ والمِزاحُ:

الاتّــفــاقُ في الــعُــمــوم والاخــتــلافُ في قيودِ المفهوم

يقالُ: عبثَ به الدّهرُ إذا عَمِلَ بِهِ ما لا يُنتِجُ له فائدةً، والفرق بينَ (العبَثِ) وبينَ (الباطلِ واللّغْوِ واللّهْو واللّعِب والمِزاح) أنَّ (اللّعبَ) اشتغالٌ بعملٍ يُلتذُّ به، من دونِ أنْ يتوجَّهَ إلى نتيجةٍ وفائدة، و(الباطلَ) يقابلُ الحقَّ، فهو ما ليسَ له ثبوتٌ وتحقّقٌ، و(اللّغوُ) ما لا يُعتدُّ به ويقعُ من غيرِ تفكُّرٍ ورويَّة. و(اللّهْو) ما يكونُ لك تمايُلٌ إليه وتلذّذٌ بِهِ من دونِ نظرٍ إلى نتيجة، و(المزاحُ) استئناسٌ ومُداعبةٌ وهَزْلٌ[2].

---

(1) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي. 20/ 90.

(2) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 8/ 9.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦﴾ [عبس: 11 - 16]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الإرشـــادات القرآنيَّة الفريدةُ تـذكـرةٌ ربانـيَّـةٌ عَظيمة

لمّا ذكرَ اللّه ﷻ حادثَ ابنِ أمِّ مَكتوم رضي الله عنه، وعِتابَهُ على رسولِه فيما كانَ منهُ معهُ؛ أردفَ ذلك ببيانِ أنَّ الهدايةَ الَّتي يسوقُها اللّه سبحانه إلى البشرِ على ألسنةِ رسولِه ليستْ من الأمورِ التي يحتالُ لتقريرها في النفوس، وتثبيتِها في القلوب، وإنَّما هي تذكرةٌ يُقصَدُ بها تنبيهُ الغافل إلى ما جُبِلَ عليه الخلقُ من معرفةِ توحيدِه، فمَن أعرضَ عن ذلك فإنَّه معاندٌ يقاومُ ما يدعوهُ إليه حسُّه، وتنازعُه إليه نفسُهُ، فما عليكَ إلّا أن تبلِّغَ ما عرفتَ عن ربِّك لتذكِّرَ به الناس، وتنبه الغافل[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَفَرَةٖ﴾: السّفرُ: (سفر) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الانكشافِ والجَلاء، من ذلك السَّفَر، سُمّي بذلك؛ لأنَّ الناسَ يَنكشِفونَ عن أماكنِهم. والسَّفْرُ المُسافرونَ[2]، وسفَرَ الرجلُ سفْرًا من بابِ (ضربَ)، فهو سافِرٌ، والجمع سَفْرٌ، مثلُ صاحِب وصَحْب. وأسفرَ الصُّبح إسفاراً: أضاءَ، وأسفرَ الوجهُ من ذلك إذا علاهُ جمالٌ[3]، والسِّفرُ: الكتابُ الّذي يُسفِرُ عن الحَقائق. والسَّفيرُ: الرسولُ بينَ القومِ يَكشِفُ ويُزيلُ ما بينَهُم من الوَحشة؛ فالرّسولُ والملائكةُ والكتبُ مُشترِكةٌ في كونِها سافرةً عن القومِ ما استبهَمَ عليهم[4]. والسَّفَرة

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 115.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سفر).
(3) الفيومي، المصباح المنير: (سفر).
(4) الراغب، المفردات: (سفر).

هم المَبعوثونَ من جانبِ اللّه تعالى وبأيديهم كتبٌ وصحفٌ سَماويّة، يبلّغونها إلى النّاس، والتعبيرُ بالسَّفرة دونَ (النبيّ والرّسول) إشارةٌ إلى أنّهم قد بُعثوا خارجينَ من مَقام فوقَ عالم المادَّة، وليسوا من أهلِ الدُّنيا المَحجوبين[1]، وهو المرادُ بِهِ في الآية.

2) ﴿بَرَرَةٍ﴾ للبرِّ أربعةُ أصول: الصِّدقُ وحكايةُ صوتٍ، وخلافُ البحرِ ونبتٌ؛ فأمّا الصِّدق فقولُهم: صدقَ فلانٌ وبَرَّ، وبَرَّتْ يمينُهُ: صدقَتْ[2]، والبِرُّ الخيرُ والفَضلُ، وبرَّ الرجلُ يَبُرُّ بَرًّا وزانُ عَلِمَ، فهو بَرٌّ وبارٌّ أيضاً أي صادقٌ أَوْ تقيٌّ، وهو خلافُ الفاجِر، وجمعُ الأوّلِ: أبرارٌ، وجمعُ الثاني بَرَرَةٌ مثلُ كافرٍ وكفَرةٌ[3]، فهو حُسْنُ العَمَلِ في مُقابلِ الغَير. والمرادُ به في الآيةِ: صادقونَ وأتقياء ومُطيعونَ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تعظيمُ شأنِ القُرآن يُفضي إلى الالتزامِ بالأحكام

المَعنى: أنّ هَذِهِ السّورَةُ، أوِ الوَصيَّةُ بالمُساواةِ بَيْنَ النّاسِ في إبْلاغِ العِلْم مِنْ شَريفِهِمْ ووَضيعِهِمْ تَذْكِرَةٌ؛ فمَنْ شاءَ ذَكَرَ اللّه في جَميعِ أُمورِهِ، وهَذِهِ السّورَةُ أوِ العِظَةُ بَلْ جَميعُ القُرْآنِ في صُحُفٍ مُعَظَّمَةٍ موَقَّرَةٍ عاليَةِ القَدْرِ مُطَهَّرَةٍ مِنَ الدَّنَسِ والزّيادَةِ والنَّقْصِ، بأيْدي المَلائِكَةِ، أَوْ أَصْحابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، أوِ القُرّاءِ، خُلقُهم كَريمٌ حَسَنٌ شَريفٌ، وأخْلاقُهُمْ وأفْعالُهُمْ بارَّةٌ طاهِرَةٌ كامِلَةٌ[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ الفصلِ في جُملةِ ﴿كَلَّآ إِنَّهَا﴾:

اللّومُ والعِتاب يُنشِئُ سُؤالاً في الخِطاب

فصلَ النظمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ عمّا قبلها؛ إمّا لكونِها واقعةً ممّا قبلَها موقعَ الجوابِ عن السُّؤال؛ فتكونُ مُستأنَفَةً

(1) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 5/ 143.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برّ).
(3) الفيومي، المصباح المنير: (برّ).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 321.

استئنافاً بيانيًّا؛ إذِ العتابُ المتقدِّمُ عن التصرُّفِ معَ المستغني وغيرِ المستغني دلّ على إنكارٍ ضمنيٍّ، فأنشأ سُؤالاً مفادُهُ: هل هذا العملُ المُعاتَبُ عليه والمُنكَر فعلُهُ باطلٌ؟ فأجابَ بالإنكارِ والإبطالِ لما صدرَ منه ﷺ من استئثارِ الدَّعوة بالصَّناديد والزَّجر لهُ عن المعاودةِ عليه، قال ابنُ عطيّة: "كَلّا يا محمد، أي ليسَ الأمرُ في حقِّه كما فعلتَ؛ إنَّ هذه السّورة والقراءةَ الّتي كنت فيها مع ذلك الكافر تَذْكِرَةٌ لجميع العالَم لا يُؤَثَّرُ فيها أحدٌ دونَ أحدٍ"[1]. والغرضُ من الاستئناف البيانيِّ التعليمُ والإرشادُ لما يَنبغي أنْ يفعلَه النبيُّ ﷺ والأَوْلى لَهُ، وإمّا أنْ تكونَ تَأْكيدًا لمِضمونِ قَوْلِه: ﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾، أيْ لا تظنُّ أنَّك مسؤولٌ عَنْ مُكابَرَتِه وعِنادِه، فقَدْ بَلَّغْتَ ما أُمِرْتَ بتَبْليغِه"[2]. والغرضُ حينئذٍ من التأكيد نفيُ اللّوم وتحميلِ المسؤوليّةِ للنبي ﷺ بسببِ عدم الاهتداءِ. وأجازَ ابنُ عاشور أنْ تكونَ مستأنفةً استئنافاً ابتدائيًّا؛ بناءً على أنَّ الإبطال والإنكارَ والرّدع ليس مُتوجِّهاً إلى ما عوتِبَ به النبيُّ ﷺ، فقال: "وَيَجوزُ عِنْدي أنْ يَكونَ ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٌ﴾ اسْتِئْنافًا ابْتِدائيًّا موَجَّهًا إلَى مَنْ كانَ النَّبيءُ ﷺ يَدْعوهُ قُبَيْلَ نُزولِ السّورَة، فتَكونُ ﴿كَلَّآ﴾ إبْطالًا لما نَعَتوا بِهِ القُرْآنَ مِنْ أنَّهُ أساطيرُ الأوَّلينَ أوْ نَحْوُ ذَلِكَ"[3].

مَعنى ﴿كَلَّآ﴾ والغرضُ منها:

الـــرّدعُ بعدَ العتاب عليهِ زجـــرٌ عـــن استدامتِه

عبَّر النظمُ الكريم بالحرفِ ﴿كَلَّآ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٌ﴾، وهو: "حَرْفُ رَدْعٍ وإبْطالٍ لِشَيْءٍ يَسْبِقُهُ غالِبًا في الكَلامِ يَقْتَضي رَدْعَ المَنْسوبِ إلَيْهِ وزجره وإبْطالَ ما نُسِبَ إلَيْهِ وإنكاره"[4]، وهو هنا توجيهٌ للنبيِّ ﷺ ألّا ينصرف عن ابنِ أمِّ مَكتوم رضي الله عنه، والإبطالُ لما صدرَ منه معَ المؤمنِ وغيرِ المُؤمن.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 437.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 114.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 115.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 11.

كما يَحتَمِلُ أنّه: "إبْطالٌ لِما جَرَى في الكَلامِ السّابِقِ ولَوْ بالمَفْهوم كَما في قَوْلِه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾، ولَوْ بالتَّعْريضِ أيْضًا كَما في قَوْلِه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾"[1]، أي إبطالُ درايتِهِ ﷺ أوْ صحّةِ عبوسِهِ وتولّيه، فيدلُّ الردعُ والإبطال على أنَّ الأوْلى خلافُ ذلك المَردوعِ عنه والمنكَر بدلالةِ المَنطوق. وعلَّق القونويُّ على كلامِ البيضاوي: "ردعٌ عنِ المُعاتَبِ عليهِ أوْ عنْ مُعاودةِ مثلِهِ"[2] بالقول: "هذا إذا كانَ نزولُ الآيةِ في المنعِ، أوْ عن مُعاودةِ مثلِهِ إذا كانَ بعدَ انقضائِه؛ فعلَى الأوَّل: ردعٌ عنِ الدَّوامِ عَلَى المُعاتَبِ عليه؛ فلا إشكالَ بأنَّ الرّدعَ - أي المنعَ - كَيْفَ يكونُ عَلَى ما وُجِدَ"[3]؛ إذ الموجودُ من الفعل لا يُمنَعُ منه؛ لأنَّه وقعَ وتحقَّق، ولذا يُحمَلُ على الدَّوامِ عليه والاستمرارِ على فعله، فيتوجَّه إليه الرّدعُ حينئذٍ، والغرضُ منَ الزّجرِ والرّدعِ الإرشادُ والنّصحُ والتعليمُ لما يَنبغي أنْ يكونَ عليه الدّاعيةُ إلى اللّه تعالى.

قال بعضُهُم: "أُتي بها؛ للمبالغةِ في إرشادِهِ ﷺ إلى عدم العَودة إلى ما عوتِبَ عليه من الاهتمامِ بمَنِ استغنى عمّا دعوتَهُ إليه من الإيمانِ والطّاعة، وما يوجبُها من القرآن الكريم، والإعراضِ عمَّن جاءَك مُستهديًا ومُسترشِدًا، أي: لا تعُدْ إلى مثلِ ما وقعَ منك"[4].

دلالةُ (إنَّ) والغرضُ منها:

في كتاب الله الكفاية لمن أراد الهداية

أكَّد النظمُ الكريم الجملةَ الواردةَ في قولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ بحرفِ التوكيد (إنَّ)؛ للدّلالة على إثباتِ حُكم التذكير لتلك الآيات، من دونِ تكلُّفِ التصدّي والإقبالِ على المُستغني، إذ هي التذكيرُ بعينه، فلا ينفَعُ تصدٍّ وتكلّفٌ، ولا يضرُّ تولٍّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 114.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 287.
(3) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 91.
(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1786، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31، 125.

وانصرافٌ؛ فالتوكيدُ لها إثباتٌ لدلالةِ الإبطالِ المتقدِّم مع الشّفقة بحالِ النبيِّ ﷺ الَّذي كان يحرصُ بالإقبالِ والتصدّي على هدايةِ مَنِ استغنى.

التعليلُ والبيان كـاشِـفـانِ عن وجـوبِ مُتابعةِ القُرآن

نكتةُ الفصلِ في ﴿إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾:

فصلَ النظمُ الكريم الجملةَ الواقعةَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ عمّا قبلَها من الرّدع: إمّا للدّلالة على الاستئنافِ البيانيِّ، كما رأى ابنُ عاشور بقولِهِ: "لِأَنَّ ما تَقَدَّمَ مِنَ العِتابِ ثُمَّ ما عَقِبَهُ مِنَ الإبْطالِ يُثِيرُ في خاطِرِ الرَّسولِ ﷺ الحَيْرَةَ في: كَيْفَ يَكونُ العَمَلُ في دَعْوَةِ صَناديدِ قُرَيْشٍ إذا لَمْ يَتَفَرَّغْ لَهُمْ؛ لِئَلّا يَنْفِروا عَنِ التَّدَبُّرِ في القُرْآنِ؟ أوْ يُثِيرُ في نَفْسِهِ مَخافَةَ أنْ يَكونَ قَصَّرَ في شَيْءٍ مِنْ واجِبِ التَّبْلِيغِ"[1]، "والغالِبُ في اسْتِعْمالِ ﴿كَلَّآ﴾ أنْ تُعَقَّبَ بِكَلامٍ يُبَيِّنُ ما أجْمَلَتْهُ مِنَ الرَّدْعِ والإبْطالِ"[2]، وإمّا للدّلالة على التعليل للرّدع بـ﴿كَلَّآ﴾ كما رأى الهرريُّ بقوله: "وهذه الجملةُ المُؤَكَّدة تعليلٌ للرّدع بـ﴿كَلَّآ﴾ عمّا ذكر، ببيانِ علوِّ رتبةِ القرآن العظيم الَّذي استغنى عنه مَن تصدَّى ﷺ له، فالجملةُ جيءَ بها للترغيبِ في القرآن، والحثِّ على حفظِهِ والاتّعاظ به"[3].

كـلُّ آيِ القُرآن عِظَة وكـلُّ جزءٍ منهُ تذكرة

مَرجعُ ضَميرِ الغَيبةِ المؤنّث ﴿إِنَّهَا﴾:

اختلفَ المفسِّرون في تحديدِ مرجعِ ضميرِ الغَيبةِ المؤنَّث في قولِهِ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾؛ لأنَّه لم يتقدّمْ له مَرجعٌ صريحٌ أوّلاً، وللتدافُعِ الظّاهريِّ مع الضّمير الغائبِ المذكّر في قولِهِ: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾، وذلك على أقوالٍ متعدِّدة، وهي:

الأول: الضّميرُ في ﴿إِنَّهَا﴾ عائِدٌ إِلَى (الدَّعْوَةِ) الَّتِي تَضَمَّنَها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 115.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 11.
(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1786.

قَوْلُهُ: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾"[1]؛ إذ التصدّي يكونُ بالدَّعوة والمَوعظة، فيتطابقُ الضّميرُ المؤنَّثُ مع مَرجِعِهِ المُنتزَعِ من الكلامِ في التأنيثِ – وهو الدعوة – .

الثاني: الضَّمير في ﴿إِنَّهَا﴾ عائدٌ إلى: "هَذِهِ المَوْعِظَةَ؛ بأنّها تَذْكِرَةٌ لَكَ وتَنْبيهٌ لِما غَفَلْتَ عَنْهُ ولَيْسَتْ مَلامًا، وإنَّما يُعاتِبُ الحَبيبُ حَبيبَهُ"[2]، ويلزمُ منهُ أيضاً تخصيصُ هذه الآياتِ المعدوداتِ التي جرى فيها العتابُ بأنَّها في الصُّحُفِ المكرَّمة، وفيه بعدٌ واضحٌ كما تقدّم، ولذا أوردَها بصيغةِ القيلِ ابنُ عطيّة، واستخرجَ منها معنىً لطيفاً، عبَّر عنهُ بقوله: "وقيلَ المعنى إنَّ هذه المَعتبةَ تذكرةٌ لك يا محمد؛ ففي هذا التأويلِ إجلالٌ لمحمَّدٍ ﷺ وتأنيسٌ لهُ"[3].

الثالث: الضَّمير في ﴿إِنَّهَا﴾ عائدٌ إلى السّورة، والمعنى: "هذه السّورة والقراءةِ الّتي كنتَ فيها مع ذلك الكافرِ ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ لجميعِ العالَمِ لا يُؤثِّرُ فيها أحدٌ دونَ أحدٍ"[4]، "وَقالَ الكَلْبِيُّ: يَعْني هَذِهِ السّورَةَ وهوَ قَوْلُ الأخْفَشِ"[5]، وفي ذلك أيضاً شيءٌ من البُعد؛ إذ فيه تخصيصٌ لسورةٍ معيّنة بالذِّكر، وعدم تناسُبٍ مع التذكيرِ في ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ إلا بارتكابِ الاستخدامِ فيه، أوْ عودِهِ إلى ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ بمعنى: الذّكر والوَعْظ، والقرآنُ مذكّر وواعظٌ، فعادَ الضّميرُ إلى مدلولِ (التّذكرة).

الرابع: الضّمير في ﴿إِنَّهَا﴾ عائدٌ إلى: "الآياتِ الَّتي قَرَأها النَّبيءُ ﷺ عَلَيْهِمْ في ذَلِكَ المَجْلِسِ، ثُمَّ أُعيدَ عَلَيْها الضَّميرُ بالتَّذْكيرِ؛ لِلتَّنْبيهِ عَلَى أنَّ المُرادَ آياتُ القُرْآنِ، ويُؤَيِّدُ هَذا الوَجْهَ قَوْلُهُ تَعالَى عَقِبَهُ: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ بالآياتِ، حَيْثُ ساقَ لَهُمْ أدِلَّةَ إثْباتِ البَعْثِ، فكانَ تَأْنيثُ الضَّميرِ نُكْتَةً خُصوصيَّةً لِتَحْميلِ الكَلامِ هَذِهِ المَعاني"[6]، وهذا مبنيٌّ على أنَّ قولَه ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ على الاستئنافِ الابتدائيّ، وأنَّ الرّدعَ والإبطالَ متوجّهانِ للكُفّار وتكذيبِهم بآياتِ البعثِ خاصةً، وفيه بعدٌ؛ لما فيه من التخصيصِ بآياتِ البعثِ بلا مُخصِّص.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 115.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 115.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 437.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 437.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 55.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 115.

الخامس: الضّميرُ في ﴿إِنَّهَا﴾ عائدٌ إلى: "الهداية المودعة في سائرِ الكتبِ السّماوية، وأجلُّها القرآنُ، جعلَها اللّه تذكرةً وإرشادًا إلى الطَّريق المُستقيم"[1]، وفيه أنَّ القرآنَ لمّا كان أجلَّها فلا حاجةَ للعودةِ لها إلّا موافقةَ التأنيث للتأنيث.

السادس: الضَّميرُ في ﴿إِنَّهَا﴾ عائدٌ إلى (القرآن) بمعنى (آياتِ القرآن) بدليلِ التأنيثِ، وعادَ الضّميرُ على (الآياتِ) الجزئيَّة المَقروءةِ في المَجلِس المخصوصِ الّذي وقعَتِ المعاتبةُ فيه بعنوانٍ كليٍّ وهو مُطلَقُ الآياتِ المسمَّى (قرآناً)، ويُرشِّحُهُ التذكيرُ للضَّمير في ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ العائدُ إلى (القرآنِ) بأكملِه، المتّسق حينئذٍ بأنَّه في الصُّحُف المُكرَّمة، قال الرازي: "والدَّليلُ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ: إنَّها تَذْكِرَةٌ المُرادُ بِه القُرْآنُ قَوْلُهُ: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾"[2]، وهذا يتّسقُ على تأويلنا معَ ما قالَه: "مُقاتِلٌ: يَعْني آياتِ القُرْآنِ"، ولا حاجةَ حينئذٍ لما تأوّلَ به البيضاويّ التأنيثَ بقولِه: "وتأنيثُ الأوّل لتأنيث خبره"[3] على أنَّ (تاءَ) المصدر (تذكرة) ليستْ للتأنيث حقيقةً، بل للتعويضِ عن حذفِ (ياء التفعيل)، وتدلُّ على تأنيثِ اللّفظ دونَ المَعنى، بدليلِ قولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٞ ۝٥٤﴾ [المدثر: 54]، ولعلَّ إيرادَ ضميرِ الغَيبة مُؤنّثاً دونَ التذكير كما هو الأصلُ في العودِ إلى القُرآن الإشارةُ إلى أنَّ كلَّ آيةٍ من آياتِهِ تذكرةٌ في حدِّ ذاتِها، فلم ينسِبِ التذكرةَ للمجموعِ بل لجميعِ الأفراد، بخلافِ الحفظِ والوَعْي والفقهِ في ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ فإنَّه منسوبٌ للمَجموع؛ فالتذكرةُ ذاتيّة للقرآنِ والذّكرُ فقهٌ وإدراكٌ له.

سرُّ الإخبارِ بالمصدَرِ ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾:

المُبالغةُ في التذكير دعوةٌ للاعتبارِ بالنَّذير

أخبرَ النظمُ الكريم عن القرآنِ العظيمِ بأنَّه: ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾ في قولِه

---

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1786.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 55.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 287، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 126.

تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾؛ وهو مصدرٌ للفعلِ (ذكَّر) الدالِّ على المُبالغةِ والكثرة، وفي الإخبارِ بالمصدرِ دلالةٌ على أنَّه عينُ التذكيرِ وحقيقتُهُ، فكأنَّ حقيقةَ التذكير تحقّقت فيه، فيكونُ أبلغَ من القولِ: (إنّه مذكِّرٌ).

دلالةُ المجازِ المرسل في ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾:

القرآنُ الكريم تذكيرٌ وبيانُهُ تحذيرٌ

أطلقَ النظمُ الكريم على (القرآن) بأنَّه ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾، للدِّلالة على شدّةِ التذكير وسُرعتِهِ وقوّتِه، وإنّما سُمّيَ القرآنُ تذكرةً؛ لأنَّ قراءةَ آياتِه سببٌ للتذكير، فيكونُ مجازًا مرسلًا من تسميةِ الشَّيء باسمِ المُسبَّب. وسرُّ العدولِ في التّسمية أنَّ تصدّيَ النبيِّ ﷺ للمُستغني واهتمامَه به كان رجاء أن يكون له أثر في فهمِهم وتذكُّرِهم بالقرآن، فبيَّنَ له المَولى تعالى أنَّه غيرُ مُحتاجٍ لذلك؛ فسمّاه باسمِ مُسبَّبِه.

دلالةُ (الفاءِ) والغرضُ مِنها:

الآياتُ تذكرةٌ بطبيعتِها، والمستعدُّ للتذُّكُّر مُنتفِعٌ بها

عبَّر النظمُ الكريم بـ(الفاء) في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾؛ للدِّلالة بها على التفريعِ للجملةِ الاعتراضيّة عن مَضمونِ الجُملة السّابقةِ لها، إذِ الآياتُ بطبيعتها تذكرةٌ، فيتذكّرُ بها مَن أرادَ التذكُّر، قال ابنُ عاشور: "وَ(الفاءُ) لِتَفْرِيعِ مَضْمونِ الجُمْلَةِ عَلَى جُمْلَةِ: ﴿إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾؛ فإنَّ الجُمْلَةَ المُعْتَرِضَةَ تَقْتَرِنُ بـ(الفاءِ) إذا كانَ مَعْنَى (الفاءِ) قائِمًا، فالفاءُ مِنْ جُمْلَةِ الاعْتِراضِ، أيْ هيَ تَذْكِرَةٌ لَكَ بالأصالَةِ، ويَنْتَفِعُ بها مَنْ شاءَ أنْ يَتَذَكَّرَ عَلَى حَسَبِ اسْتِعْدادِهِ"[1]، بل هي تذكرةٌ في حقيقتِها. وتفرَّعَ عن ذلك كونُ المتذكّرِ بها الّذي يريدُ ويستعدُّ للتذكُّرِ والانتفاع؛ لأنَّ تفسيرَه يتّفقُ معَ ما يُروى عنِ الزمخشريِّ من إنكارِ كونِها اعتراضيّةً فيما نقلَه الطّيبيُّ عنهُ بقوله: "قيل للمصنِّف:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 116.

قولُه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ اعتراضٌ؟ قال: لا؛ لأنَّ مِن شرط الاعتراضِ أنْ يكونَ بواوٍ وبدونِ واوٍ، فأمّا بـ(الفاء) فلا، ولكنَّه حثٌّ على الذِّكر والتذكرة، أي: فتذكّرها، وعلى كلِّ مُسلم أيضاً يجبُ ذلك، وقلتُ: أرادَ أنَّه استطرادٌ، وبيانُه: أنَّه لمّا خاطبَ النبيَّ بذلك الخطابِ الهائلِ، قيلَ: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾، أي: إنَّ تلك المُعاتبةَ مَوعظةٌ للسّامعين؛ فإنَّ النبيَّ بجلالتِهِ إذا عوتب بذلك الخطابِ الفظيعِ لذلك التصدّي والتلهّي، فما بالُ غيره؟ وإذا كان كذلك، فتذكَّرْها أيُّها السّامعُ"[1]. وردّ ذلك القونويُّ بأنَّها: "جملةٌ معترضةٌ بينَ المَوْصوفِ والصّفَة، والاعتراضُ كما يكون بـ(الواو) - وهو المَشْهورُ الأكثرُ في الاسْتِعْمال - يكونُ بـ(الفاءِ) أيْضًا، كما في قولِه: (واعلَمْ فعِلْمُ المرءِ ينفعُهُ)؛ فإنّ الجُمْلَة اعتراضيّةٌ، كَما صَرَّحَ به أئمّةُ المَعاني، وما نُقِلَ عنِ الزَّمَخْشَريّ من أنَّه استطرادٌ وليس باعتراض؛ فلعلّه لا أصلَ له؛ لأنّه صرَّح في (سورةِ النَّحل): إنَّ قولَه: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ [النحل: 43] اعتراضٌ"[2]. والحاصلُ: أنّها إنْ كانت للاعتراضِ فالغرضُ بيانُ أنَّها في حقيقتِها تذكرةٌ، فيتذكَّر بها من شاءَ ذلك، أي لا بدّ مِن وجودِ القابلِ للانتفاع، وإنْ كانت للاستطرادِ فهي داعيةٌ لوجوبِ التذكُّر بعدَ العِلْم بأنَّ النبيَّ ﷺ مطلوبٌ منه وجوبُ التذكُّرِ والانتفاع.

نكتةُ التعبير بـ(مَن) والغرضُ منهُ:

كلُّ مَن أرادَ الانتفاع تحقّقَ لهُ الحفظُ والاقتناع

عبّرَ النظمُ الكريمُ بـ(مَن) الشرطية في قولِه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾؛ للدِّلالة بها على العُموم والإبهام؛ والغرضُ منها بيانُ أنَّ كلَّ مَن أرادَ التذكُّرَ والانتفاعَ والفهمَ والوَعيَ بها فإنَّه قادرٌ عليه، فلا يتوقّفُ على شيءٍ ولا يحتاجُ لأمرٍ، سواءٌ كانَ شريفاً صِنديداً أو ضَعيفاً فقيراً.

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 296.
(2) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 91، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 244.

دلالة التعبير بالماضي في الفعل ﴿شَآءَ﴾:

عند وجود المشيئة والإرادة فإنّ الذّكرى واقعةٌ نافِعة

صدّرَ النظمُ الكريم جملةَ الشَّرط بفعلِ (المَشيئة) في قولِه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾؛ للدِّلالة على أهميَّة المَشيئة والإرادة والرَّغبة في حصولِ جوابِ الشَّرط، والتعبيرُ عنها بالماضي يدلُّ على تحقُّقِ وحصولِ الفَهم والذِّكر بحصولِ المشيئةِ ووقوعِها الفعليِّ بشكلٍ قاطِع. وفي ذلك: "تَعْرِيضٌ بأنَّ مَوْعِظَةَ القُرْآنِ نافِعَةٌ لِكُلِّ أحَدٍ تَجَرَّدَ عَنِ العِنادِ والمُكابَرَة، فمَنْ لَمْ يَتَّعِظْ بها فلِأنَّهُ لَمْ يَشَأْ أنْ يَتَّعِظَ، وهَذا كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ٤٥﴾ [النّازعات: 45]"[1]. وكأنَّ فعلَ (المشيئة) مقابلٌ لفعلِ (الاستغناءِ) في قولِه: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾؛ فيكونُ بمثابةِ التعليلِ لعدمِ انتفاعِ المُستغني مع حرصِ النبيِّ ﷺ على نفعِهِ بالتصدّي له؛ لأنَّه مُستغنٍ لا يشاءُ ولا يرغَبُ في التذكُّرِ والانتفاع، بخلافِ الكفيفِ الَّذي جاءَ يَسعى وهو يَخشى؛ فإنّه مُنتفِعٌ لوجودِ عُنصرِ المشيئةِ والرَّغبة[2].

دلالةُ الفعلِ (ذكرَ) مادّةً وصيغةً:

حصولُ الفَهم والإمداد على قابليَّة المَرءِ والاستعداد

عبّر النظمُ الكريم بالفعلِ الماضي المُجرَّدِ جَواباً للشَّرط (ذكرَ) في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾؛ للدِّلالة على تعليقِ حُصولِ الذِّكر على وقوعِ المشيئةِ للمُنتفعِ، وأنَّ تلك الذكرى أمرٌ مقطوعٌ بحصولِها لا سبيلَ للشكِّ فيها أوْ للارتيابِ بوُقوعِها عندَ وقوعِ شَرطِها، وإنَّما عبّرَ بالمجرَّدِ دونَ المزيد (تذكّرَ) مع أنَّه الأنسبُ بقولِه: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾؛ للدِّلالة على الفرقِ بينَهُما؛ إذ الآياتُ والقرآنُ تذكرةٌ بطبيعته فاختارَ المصدرَ الدالَّ على المبالغةِ والكثرةِ، والقابلُ لها عندَ وجودِ المشيئةِ يحفظُ ويفهمُ ويذكُرُ ويعي مجموعَها.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 116.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 126.

القرآنُ تذكِرة، ونــورٌ وضيـاءٌ وتَبصِرة

تحديدُ مَرجعِ الضَّميرِ في ﴿ذَكَرَهُۥ﴾:

اختلفَ المفسّرونَ في مَرجِعِ الضَّمير الغائبِ المذكَّر في قولِه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾؛ لعدم الاتّساقِ في الظّاهرِ بينَ الضّميرِ المذكَّر والمَرجِعِ المؤنَّث على عدّة أقوال، هي:

الأول: الضَّمير عائدٌ للّه تعالى؛ لأنّه مُنزِّلُ التذكرة؛ فكأنَّ الضّميرَ عائدٌ إلى (التذكرةِ) باعتبارِ مُنزلها، فيكونُ من قبيلِ (الاستخدام)، أوْ: "إنَّ إعادَةَ ضَميرِ الغَيْبَةِ عَلَى اللّه تَعالَى دونَ ذِكْرِ مَعادِهِ في الكَلام كَثيرٌ في القُرْآنِ؛ لِأنَّ شُؤونَهُ تَعالَى وأحْكامَهُ نَزَلَ القُرْآنُ لِأجْلِها؛ فَهوَ مَلْحوظٌ لِكُلِّ سامِعٍ لِلْقُرْآنِ، أيْ فمَنْ شاءَ ذَكَرَ اللّه وتَوَخّى مَرْضاتَهُ"[1].

الثاني: الضَّمير عائدٌ للتذكرة، وذَكَّر ضميرَها؛ لأنَّها بمعنى: الذِّكر والوَعظ[2]، أوْ لأنَّها مصدرٌ، والتاءُ فيه للمصدريّة التعويضيَّة لا للتأنيث، أوْ يَعودُ إلَى ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾؛ لأن ما صدقَها القُرْآنُ الَّذي كانَ النَّبيءُ ﷺ يَعْرِضُهُ عَلَى صَناديدِ قُرَيْشٍ قُبَيْلَ نُزولِ هَذِهِ السّورَةِ، أيْ فمَنْ شاءَ ذَكَرَ القُرْآنَ وعَمِلَ بهِ[3]، فيكونُ من قبيل الاستخدام الرّاجعِ إلى (التذكرة) باعتبارِ ماصدقِها الواقعيّ، وهي الآياتُ المخصوصةُ الّتي قالَها في مَجلسِه، فالجملةُ جيءَ بها للترغيبِ في القُرآن، والحثِّ على حفظِه والاتّعاظ به[4].

الثالث: الضَّميرُ عائد "للقرآنِ أوِ العتاب المَذْكور"[5]، واستظهرَ القونويُّ الأوّل؛ "لأنّه يفيد أنَّ القُرْآنَ كلَّه تذكرةٌ، وأمّا إذا كانَ للعتابِ فيكون المُراد القُرْآنَ الدالَّ عَلَى العتاب؛ إذ القُرْآن كما يُطلَقُ على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 115.

(2) ابن عادل، اللباب: 20/ 159.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 115.

(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1786.

(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 287.

الكلِّ يُطلَقُ عَلَى الجزءِ أيْضًا، فيكون هذا داخلًا في الأوّلِ دُخولًا أوليًّا، وكونُ العتابِ تذكرةً؛ لأنَّه مع عُلوِّ منصبِهِ ﷺ إذا عوتِبَ عَلَى ذلك؛ فما ظنُّكَ بغيرِهِ؟"[1]. والَّذي يترجّح أنّه عائدٌ إلى (القرآنِ) الّذي هو الماصدقُ لـ(تذكرة)، فيكونُ عائداً إلى القرآن بوصفِهِ تذكرةً، والمعنى: فمَن شاءَ ذكرَ القرآنَ وفهمَه وحفِظه واتّعظَ به بوصفِهِ المُلازمِ له من دونِ التصدّي ومزيدِ التهيُّؤِ لتعليمِهِ وتَفهيمِهِ.

نكتةُ تقديمِ جملةِ الاعتراضِ ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾:

الاعـتـراضُ قبلَ الـوَصـفِ بـيـانٌ لـلأهــمّ عـنـدَ المُنصِف

قدّمَ النظمُ الكريم الجملةَ الاعتراضيَّة في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ على صفةِ (التذكرة): وكانَ الظّاهرُ أنْ يُؤخِّرَ قولَه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ عن وصفِ (التذكرة) - وهو قوله ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ -، فقُدِّمَ لشدَّةِ العنايةِ بها"[2]، ولبيانِ أنَّ التذكرةَ بيّنةٌ ظاهرةٌ لِمَن أرادَ فهمَها والاتّعاظَ بها قبلَ الإقدامِ على وصفِها؛ لأنَّ وصفَ التذكرة لا يُجدي نفعاً قبلَ بيانِ موقفِ المتذكّرِ منها فهْماً واستيعاباً ودراسةً وفِقْهَا.

دلالةُ الحرفِ ﴿فِي﴾ والغرض منه:

التذكرةُ المَلفوظة نفيسةٌ مَحفوظة

عبَّر النظمُ الكريم بالحرفِ ﴿فِي﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾؛ للدِّلالة إمّا على الظرفيَّةِ الحقيقيَّة إنْ كانتِ (الصّحف) بمعنى: الكُتُب السّماوية أوْ الصُّحُفِ المُنْتَسَخَةُ مِنَ اللَّوْحِ، أوِ الأشْياءِ الَّتي كُتِبَ فيها القُرْآنُ مِنْ رُقوقٍ وقَراطيسَ، وأكْتافٍ، ولِخافٍ، وجَريدٍ، ويَكونُ حَرْفُ ﴿فِي﴾ لِلظَّرْفيَّةِ الحَقيقيَّةِ؛ إذ التذكرةُ مكتوبةٌ في الصُّحف، والصُّحفُ ظرفٌ لها محيطٌ إحاطةَ المَكانِ بالمَكين، قال ابنُ عاشور: "وَمَعْنَى كَوْنِ هَذِهِ التَّذْكِرَةِ في كُتُبِ الرُّسُلِ السّابِقينَ: أنَّ

(1) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 92.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 296.

أمْثالَ مَعانيها وأُصولِها في كُتُبِهِمْ"[1]. أوْ على الظَّرفية المجازيَّة إنْ كانتِ الصُّحفُ بمعنى الذواتِ القدسيَّة؛ إذ التذكرةُ لا تكونُ فيها بل معَها، والغرضُ من الظرفيّتين الحقيقيَّةِ والمجازيَّة بيانُ أنَّ التذكرة نفيسةٌ؛ لأنَّها موضوعةٌ في كتابٍ أوْ معَ ذاتٍ قدسيَّة، وما ذلك إلّا لنفاستِها وصدقِها.

نكتةُ التعبيرِ بالنّعتِ ﴿فِي صُحُفٍ﴾:

تعظيمُ القرآن والآيـــات لثبوتِهما في الكتُبِ البيِّنات

أوقعَ النظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرورَ ﴿فِي صُحُفٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ موقعَ النّعتِ للتّذكرة[2]، "والمُرادُ مِنْ ذَلِكَ تَعْظيمُ حالِ القُرْآنِ والتَّنْويهُ بِذِكْرِهِ، والمَعْنَى أنَّ هَذِهِ التَّذْكِرَةَ مُثْبَتَةٌ في صُحُفٍ"[3] لكرامتِها وجلالتِها. وأجازَ الهرريُّ كونَه صفةً أوْ خبراً ثانياً بقولِه: "أخبرَ سُبحانه عن عِظَمِ هذه التذكرة وجلالتِها، فقالَ: ﴿فِي صُحُفٍ﴾؛ فالجارُّ والمجرورُ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ، وهو صفةٌ لـ ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾، أي: إنّها تذكرةٌ كائنةٌ في صُحُف مُنتسخةٍ من اللَّوح، أوْ خبرٌ ثانٍ لـ (إنَّ)"[4]. وعلى كلا المَعنيين فإنَّ التذكرةَ جليلةُ المقدار عظيمةُ الجانب؛ لأنَّها ثابتةٌ في صُحُفٍ عظيمةٍ. بقي أنَّ تنكيرَ ﴿صُحُفٍ﴾ دالٌّ على أنَّها صُحُفٌ عظيمةٌ فخمةٌ يحارُ العقلُ في كُنهِ جَلالِها.

دلالةُ الموقِعِ الإعرابيِّ لـ ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾:

القلوبُ المتُذكِّرة صُحُفٌ مكرَّمة

نعتَ النظمُ الكريم (الصُّحُف) بأربعةِ نعوتٍ مدحيّة، بدأها بـ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾، الدالِّ على وقوعِ الإكرامِ عليها؛ لأنَّ ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ اسمُ مفعولٍ دالٌّ على ثبوتِ الإكرامِ لتلك الصُّحُف، والمُكرِّم لها هو اللّه تعالى لما فيها من العِلْم والحِكمة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 116.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 296.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 55.
(4) ابن عادل، اللباب: 20/ 159، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 127.

الإلهيَّة، والغرضُ من وصفِها بالكرامة وعدُ مَن انتفَعَ بتلك التذكرةِ الثابتةِ في الصُّحُف المكرَّمة بأنَّه ينالُهُ الكرمُ الإلهيُّ؛ إذ صدرُ الحافظِ لها والعاملِ بها يكونُ كالصُّحُف المكرَّمة المُشرّفة[1].

دلالةُ المجازِ المُرسَل في النُّعوت:

مِن عظَمةِ الحالِّ يعظُمُ المَحلّ

وصفَ النظمُ الكريم (الصُّحُف) في قوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ﴾ وأرادَ مدحَ المكتوبِ في تلك الصُّحف؛ فيكونُ مجازاً مرسلاً من مدحِ المَحَلِّ وإرادةِ الحالِّ فيه؛ فالعلاقةُ المُجاورة، والغرضُ من التجوُّزِ المُبالغةُ في المديح؛ إذ يتحقَّق مدحُ المجاورِ والمحلّ بثبوتِ ذلك المدحِ للحالِّ، قال القونوي: "والمُرادُ مدحُ ما كُتِبَ فيها؛ إذ الصّحيفةُ ما يكتبُ فيه الشّيءُ، ولكونِهِ حالًّا مُدِحَ محلُّهُ للمُبالَغَةِ فيه"[2].

دلالةُ النّعتِ الثاني ﴿مَّرۡفُوعَةٖ﴾:

الرفعُ الحقيقيّ والمَعنويّ دالّانِ على الكَمالِ القُرآنيّ

نعتَ النظمُ الكريم الصُّحُفَ بنعتٍ ثانٍ وهو ﴿مَّرۡفُوعَةٖ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ﴾؛ إمّا للدّلالة على الرّفع الحقيقيِّ الحسيِّ؛ لأنَّها نازلةٌ من السَّماء السّابعة، أوْ لأنَّها مرفوعةُ القدرِ والشَّرف، قالَ الرازيُّ: "مَرْفوعَةٌ في السَّماءِ السّابِعَةِ أوْ مَرْفوعةُ المِقْدارِ"[3]. وعلَّل القونويّ عدمَ ذكر البيضاويِّ للقول بالمعنى الحقيقيِّ وهو رفعة المكان "لأنّه مدحٌ للمكانِ لا للمكينِ، إلّا بمُلاحظة كونِها مرفوعةَ القدرِ"[4].

دلالةُ النّعتِ الثالث ﴿مُّطَهَّرَةِۭ﴾:

شرَفُ المَعاني يُحقّقُ الطُّهرَ الذاتيَّ والغَيريَّ

نعتَ النظمُ الكريمُ (الصُّحُف) بنعت ثالث وهو ﴿مُّطَهَّرَةِۭ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ﴾، والمرادُ بطُهرها شَرَفُها وشرفُ ما

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 127.
(2) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 92.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 55.
(4) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 92.

تَدعو إليه من طَهارةٍ قلبيّة وسَلامةٍ عقليّة، فالمَعاني طاهرةٌ في ذاتها مع طُهْرِ ما تدعو إليه من سُموٍّ وخلقٍ كريم وصفاتٍ رفيعة. قال ابنُ عاشور: "والمُرادُ هُنا: الطَّهارَةُ المَجازيَّة، وهيَ الشَّرَفُ"(1)، ورأى الرازيُّ أنَّ وصفَها بالطَّهارة لكونِها: "مُطهّرةً عَنْ أيْدي الشَّياطينِ، أوِ المُرادُ مُطَهَّرَةٌ بسَبَبِ أنَّها لا يَمَسُّها إلّا المُطَهَّرونَ وهُمُ المَلائِكَةُ"(2)، فيكونُ مَجازاً مُرسَلاً من تسميةِ الشَّيءِ باسمِ مُخالِطِه.

دلالةُ صوغِ النُّعوتِ الثّلاثةِ اسمَ مَفعول:

الاعتناءُ والتشريف تقديسٌ مُنيف

مدحَ النظمُ الكريم (الصُّحف) بثلاثةِ نعوتٍ مُتوالية على صيغةِ اسم المفعول، فقال تعالى: ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ﴾؛ للدِّلالة على أنَّ الَّذي تولَّى كرامتَها ورفعتَها وطهارتَها هو اللّه تعالى، فتكونُ كريمةً ورفيعةً وطاهرةً بأتمِّ ما يكون وأعلى ما يُتصوّرُ، والغرضُ من المدح لها بذلك بيانُ أثرِها في المُقبل عليها من كرامةٍ ورفعةِ شأنٍ وطَهارة. وإنَّما أظهرَها النظم بهذا الترتيب؛ لأنَّ مَن كان كريماً فهو مرفوعُ الشَّأن، ومن كان مرفوعاً عالياً فإنّه نقيٌّ مقدَّس. ورأى ابنُ عاشور أنَّ هذه الأوصافَ محمولةٌ على معانٍ مجازيّة: "وَهيَ مَعاني الاِعْتِناءِ بها كَما قالَ تَعالَى: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ٢٩﴾ [النَّمْل: 29]، وتَشْريفِها كَما قالَ تَعالَى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨﴾ [المطففين: 18]، وقُدْسيَّةَ مَعانيها كَما قالَ تَعالَى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ﴾ [البَقَرَة: 129]"(3).

دلالةُ مَوقِعِ الجارِّ والمَجرورِ ﴿بِأَيۡدِي﴾:

الصُّحفُ في أيدي السَّفرة أرجَحُ من المطهَّرة بمَسِّ السّفَرة

عبّر النظمُ الكريمُ بالجارِّ والمَجرور ﴿بِأَيۡدِي﴾ في قولِه تعالى: ﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ﴾؛ للدِّلالة إمّا على النّعت للصُّحُف، والباءُ حينئذٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 117.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 55.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 117.

للظرفيَّة، والتقديرُ: (صحفٍ كائنةٍ بأيدي سَفَرة)، أي كتبةٍ يَنتسخونها منَ اللَّوح المحفوظ، قال الهرريّ: "والظّاهرُ أنَّ الجارَّ والمجرورَ صفةٌ لـ ﴿صُحُفٍ﴾؛ أي في صُحفٍ كائنةٍ بأيدي سَفرة، أَوْ مكتوبةٍ بأيدي كتبةٍ منَ الملائكةِ، ومِن هذا وقفَ بعضُهُم على ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ وقفًا لازمًا؛ هربًا من توهُّم تعلُّق (الباءِ) به"[1]، فهي: "صفةٌ مُقرِّرةٌ لما قبلَه، والظرفُ مُستَقرّ"[2]، أَوْ على أنَّهما مُتعلِّقانِ بـ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾، والباءُ حينئذٍ للسّببيّة، والظّرفُ لغوٌ، والتقدير: (مُطهّرة بسببِ أيدي السَّفرةِ من الملائكة) أي الكتبةِ، أَوْ مِنَ السُّفراءِ؛ لأنَّهم سفراءُ للخلقِ بالرسالات، "قال القفّال في توجيهه: لمّا لم يمسَّها إلّا الملائكةُ المطَهَّرونَ أُضيفَ التطهيرُ إليها؛ لطَهارةِ مَن يمَسُّها"[3]، وضعّفَهُ القونويّ: "لإيهامِهِ أنَّ كونَها مُطهَّرةً بسَبَبِ مسِّ أيدي سَفَرة"[4].

دلالة التعبير بلفظ (الأيدي) مجموعاً:

كتابةُ أيدي السّفَرة دليلُ كونِها مُكرّمة

عبّر النظمُ الكريم بلفظِ (الأيدي) مَجموعاً في قولِه تعالى: ﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ﴾؛ للدِّلالة على مدحِ الصُّحفِ وتكريمِها بأنَّها في أيدي السَّفرة يَكتبونَها ويَحملونَها، وتخصيصُ (الأيدي) بالذّكر حَمْلاً وكتابةً تنويهاً بشأنِ الصُّحف وإعلاءً لقدرِ المكتوبِ فيها، وجاءَتْ مجموعةً للدِّلالة على التوزيع؛ إذ كلُّ واحدٍ منَ السَّفرة يكتبُ تلك الصّحفَ أَوْ يَحملُها تعظيماً لشأنِها.

سرُّ الإضافةِ في ﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ﴾:

أيدي السَّفَرة إعلاءٌ للصُّحُف المُطَهَّرة

أضافَ النظمُ الكريم لفظَ (الأيدي) إلى (السَّفَرة) في قولِهِ تعالى: ﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ﴾؛ للدِّلالةِ على تخصيصِ تلك الأيدي؛ إذِ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 127.
(2) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 93.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 127.
(4) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 93.

النّكرةُ إنْ أُضيفَتْ إلى نكرةٍ مثلِها تخصَّصتْ بها، والغايةُ من التخصيصِ مدحُ تلك الأيدي بما يُفيدُهُ لفظُ (السّفرة) من دلالةٍ على الإشراقِ والإضاءةِ والانجلاءِ.

دلالةُ الاستعارةِ التصريحيّة في لفظِ ﴿سَفَرَةٍ﴾:

بتحديدِ المتعلّق بدقّة ينكشفُ لفظُ السَّفرة

عبَّر النظمُ الكريم بلفظِ ﴿سَفَرَةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾؛ إمّا للدِّلالة على (الكَتَبة)؛ بناءً على أنَّ ﴿بِأَيْدِى﴾ نعتٌ للصُّحف، فيَكونُ "المُرادُ بالسَّفَرَةِ جَمْعَ سافِرٍ، أيْ كاتِبٍ، قالَ الزَّجّاجُ: وإنَّما قيلَ لِلْكِتابِ سِفْرٌ (بِكَسْرِ السّينِ) ولِلْكاتِبِ سافِرٌ؛ لِأنَّ مَعْناهُ أنَّهُ يُبَيِّنُ الشَّيْءَ ويوَضِّحُهُ، يُقالُ: أسْفَرَ الصُّبْحُ، إذا أضاءَ"[1]، فيكونُ لفظُ (السفرة) مُستعاراً استعارةً تصريحيَّة؛ إذ شبّهنا الكتبةَ بالسَّفرة. وأمّا إنْ كانت ﴿بِأَيْدِى﴾ مُتعلِّقةً بـ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾؛ فالمرادُ بالسَّفرة الملائكةُ أوِ الأنبياءُ، قالَ الفرّاءُ: السّفرةُ هنا الملائكةُ الَّذين يسفِرون بالوَحْي بينَ اللّه تعالى ورُسُلِه من السَّفارة، وهو السّعيُ بينَ القومِ"[2]، ويكونُ إطلاقُ لفظِ (السّفرة) على المَلائكةِ والأنبياء على سبيلِ الاستعارةِ التصريحيَّة أيضاً، قال القونوي: "فإطلاقُ السُّفراء عَلَى المَلائكَةِ والأَنْبياء اسْتعارَةٌ؛ لأنّهم كالسُّفراء الَّذينَ يُصلحونَ بينَ النّاس"[3]. بقي أنَّه يجوزُ أنْ يرادَ بـ(السَّفرة) كُتّابُ القرآنِ من صَحابة رسول اللّه ﷺ؛ فهم يكتبونَ الوحيَ، فيكونُ فيه كمالُ المدحِ لهُم، فـ: "السَّفَرَةُ الكِرامُ البَرَرَةُ هُمْ أصْحابُ رَسولُ اللّه ﷺ، وقيلَ هُمُ القُرّاءُ"[4]. قال ابنُ عاشور: "وَفي وصْفِهِمْ بـ(السَّفَرَةِ) ثَناءٌ عَلَيْهِمْ؛ لِأنَّهُمْ يُبَلِّغونَ القُرْآنَ لِلنّاسِ وهُمْ حُفّاظُهُ ووُعاتُهُ، قالَ تَعالَى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 117.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 128.
(3) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 93.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 56.

49] فهَذا مَعْنَى السَّفَرَةِ، وفيهِ بشارَةٌ بأنَّهُمْ سَيَنْشُرونَ الإسْلامَ في الأُمَمِ، وقَدْ ظَهَرَ مِمّا ذَكَرْنا ما لِكَلِمَةِ ﴿سَفَرَةٍ﴾ مِنَ الوَقْعِ العَظيمِ المُعْجِزِ في هَذا المَقامِ"(1).

دلالةُ النّعت بـ﴿كِرَامٍ﴾ مجموعاً:

العظمةُ والعطفُ على المُؤمنين خُلُقُ السَّفرةِ بالكتابِ المُبين

نعتَ النظمُ الكريمُ (السَّفرة) بلفظِ ﴿كِرَامٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾؛ للدِّلالة على أنَّ أولئك السَّفرة سواءٌ كانوا كتّابَ الوَحْي لرسولِ اللّه ﷺ أوِ الأنبياءَ والرُّسُل أوِ الملائكةَ، مُتّصِفُ كلُّ واحدٍ منهم بأنّه كريمٌ، وإنّما وُصِفوا بذلك؛ لأنَّ تلك الصُّحُف وما فيها مُكرّمة؛ فمَن يَكتبُها أوْ يكونُ سَفيراً بها فإنَّه كريمٌ كرماً مَعنويّاً يدلُّ على العظمَة والتّعَطُّف. قالَ البيضاويُّ في ﴿كِرَامٍ﴾: "أي أعزّاءٍ عَلَى اللّه، أوْ مُتعطِّفين عَلَى المُؤْمنينَ يُكلّمونَهم ويَستغفرونَ لهم"(2)؛ فعلى المعنى الأوّل قالَ القونوي: أي مُعظَّمونَ عندَه، و(على) في (عَلَى اللّه) بمعنى (عندَ)؛ فأشارَ بهذا التَّفْسير إلَى أنَّه من الكَرامة، بمعنى: التّعظيم والتوقير، لا بمَعنى الإحسانِ، وإنْ كان التوقيرُ نوعًا من الإحسان، وعلى الثاني قالَ: فيكونُ من الكرم ضدَّ اللُّؤم، ويُكلِّمونهم إمّا بالذات إنْ كان المُرادُ الأنْبياءَ أوْ بالواسطةِ إنْ كانَ المُرادُ المَلائكَةَ؛ لكونِهم وسائطَ في الوَحي؛ فإسنادُ التكليمِ إليهم مجازٌ"(3).

دلالةُ النَّعتِ بلفظِ المَصدر ﴿بَرَرَةٍ﴾:

النَّعتُ بالمصدريَّة مُحقِّقٌ للأبلغيَّة

نعَتَ النظمُ الكريمُ بلفظِ المَصدَرِ ﴿بَرَرَةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾؛ للدلالة على المدحِ والتعظيم من شأنِ (السَّفرة) بأنَّهم عينُ الحقيقةِ المصدريَّة، فيكونُ على حدِّ قولنا: (مررتُ برجلٍ عدلٍ)،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 117.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 287.
(3) حاشية القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 94، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 128.

والتوصيفُ بالمصدَرِ أبلغُ من التوصيفِ بالمشتقِّ؛ لما فيه منَ المُبالغة. قالَ ابنُ عاشور: "والبَرَرَةُ: جَمْعُ بَرٍّ، وهوَ المَوْصوفُ بكَثْرَةِ البُرورِ، و(بَرَرَةً) أَبْلَغُ مِنْ (أَبْرارٍ)؛ إذْ هوَ جَمْعُ (بَرٍّ)، و(أَبْرارٌ) جَمْعُ (بارٍّ)، وبَرٌّ أَبْلَغُ مِنْ بارٍّ؛ كَما أَنَّ (عَدْلًا) أَبْلَغُ مِنْ (عادِلٍ)؛ فهَذا مِنْ بابِ الوَصْفِ بالمَصْدَرِ مِثْلَ (عَدْلٍ)، والغالِبُ في اصْطِلاحِ القُرْآنِ أنَّ البَرَرَةَ المَلائِكَةُ والأَبْرارَ الآدَميّونَ"[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 119.

﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢﴾ [عبس: 17 - 22]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

أكبَرُ داعيةٍ للتّذكيب هي محلُّ التفنيد

مناسبةُ الآيِ لما قبلَها إمّا أنّه لّما ذكرَ المولى تعالى أنَّ القرآنَ العظيمَ تذكرةٌ لِمَن أرادَ أنْ يتذكَّر، وكانَ أكبرُ أسبابِ تكذيبِهم بالقرآن إخبارَهُ بالبعثِ والنّشور؛ كان من المُناسِبِ الاستدلالُ على وقوعِهِ بالتفكُّر في أصلِ خَلقِهم ووجودِهم، فمَن قَدَرَ على الإيجادِ من نُطفةٍ قَدَرَ على البَعث والنُّشور[1]. أوْ أنَّه لّما كشفَ عن ترفُّعِ الصَّناديد على دعوةِ القرآن لهُم وترفُّعِهم على الإيمانِ باللّه ورسولِهِ وعلى فقراءِ المُسلمين؛ نبّهَهم إلى أصلِ وُجودِهم؛ إزالةً لعُجبهم وغُرورهم وتكبُّرهم، وإلى ما يَصلُحُ أنْ يَكونَ عِلاجًا لِكُفْرِهِمْ، فإنَّ خِلْقَةَ الإنْسانِ تَصلُحُ لِأنْ يُسْتَدَلَّ بها عَلَى وُجودِ الصّانِعِ، ولِأنْ يُسْتَدَلَّ بها عَلَى القَوْلِ بالبَعْثِ والحَشْرِ والنَّشْرِ"[2].

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قُتِلَ﴾: (قتل) أصلٌ صحيحٌ يدلّ على إذلالٍ وإماتةٍ[3]، قَتلَتُهُ قَتلاً أزهقتُ روحَهُ[4]، ويقالُ: قاتلَ اللّه فلاناً، معناهُ: لعنَ اللّه فلاناً، قال اللّه ﷻ: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾، قالَ الفرّاء: معناهُ لُعِنَ الإنسانُ[5]، فهو ما يُقابلُ الحياةَ، أي زوالُ الحياةِ[6]. وفُسّرَ قولُهُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 120.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 57، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 116.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قتل).
(4) الفيومي، المصباح المنير: (قتل).
(5) الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس: 1/ 293.
(6) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 9/ 180.

تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾، و﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٣٠﴾ [التوبة: 30] وأمثالُها باللَّعْنِ، وهو إبعادٌ من الرَّحمة حَمْلًا على القتلِ إزهاقِ الرّوح. وقد تفسَّر في ضوءِ الأصلِ بإذهابِ بأسِ هؤلاءِ المقتولينَ والمقاتلينَ بإحباطِ سعيِهم وإبطالِ كيدِهم[1]. والمرادُ به في الآية: الطّردُ من رحمةِ اللّه؛ كأنَّه إزهاقُ روحِه.

2) ﴿نُّطۡفَةٍ﴾: (نطف) أصلانِ؛ أحدُهما جنسٌ من الحُليّ، والآخَرُ نُدوّةٌ وبَلَلٌ[2]، ونطفَ الماءُ ينطُفُ من بابِ (قتل): سالَ، وقالَ أبو زيد: نطفتِ القِربةُ تنطُفُ نُطفانًا، إذا قطَرَتْ مِنْ وهْيٍ أوْ سَربٍ أوْ سُخفٍ، والنُّطفةُ: ماءُ الرّجُلِ والمرأةِ، وجمعُها نُطَف ونِطاف[3]. والنُّطْفَةُ: الماءُ الصّافي، قلَّ أوْ كثُرَ[4]، والمرادُ بها في الآية: الماءُ المَهينُ الَّذي يتخلَّقُ منهُ الإنسانُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

دمجُ تَعدادِ النِّعمِ بالاستدلالِ على الإحياءِ بعدَ العَدَم

المعنى: اُدعوا على الإنسانِ الكافرِ بالقتلِ والإهلاك، وتعجَّبوا من كُفرانِهِ الشّديد، فالنِّعَم مُحيطةٌ به منَ المَبدأ حتَّى المَعاد، وهو يُنكرُ صحَّة المعادِ، يتكبّرُ ويَستغني عن اللّه تعالى، فهل فكَّر هذا الكافر مِن أيِّ شيءٍ خُلِق، وجاءَ إلى هذه الحياةِ الدُّنيا؟ لقد خُلِقَ من نُطفةٍ عظيمةِ الصُّنع، ثمَّ سوّيتْ خلقتُهُ ومُنِحَتْ أطواراً من التقديراتِ والتّسويات حتى صارَ رَجُلاً سَويّاً، ثمَّ سُهِّلَت له طرقُ الخيرِ والشرِّ حتَّى يختارَ ما ينفعُه، ويتركَ ما يضُرُّه، ثمّ قُبِضَتْ روحُهُ حتى لا يكونَ عالةً على غيره، ثمَّ سُتِرَ في قبرٍ تكرمةً له، ثمَّ عندَما يرادُ إحياؤُهُ وبعثُهُ فإنَّه يُجازَى على أعمالِهِ، فهي نِعَمٌ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: 4/ 1737.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نطف).
(3) الفيومي، المصباح المنير: (نطف).
(4) الجوهري، الصحاح: (نطف).

كثيرةٌ دُمِجَتْ بالاستدلالِ على عظمةِ اللّه وقُدرته معَ إثباتٍ لصحَّة الحَشْرِ والنَّشْر.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ الفصلِ في ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

بعدَ بيانِ الاستغناءِ يأتي الطّرد والإبعادُ والإفناء

فصلَ النظمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ عمّا قبلَه؛ لكونِهِ مُستأنَفاً استئنافاً ابتدائيًّا؛ ناشِئاً عمّا أفهمَهُ النظمُ سابقاً من المُستغنين بما عندَهُم منَ الأوهام على ما أتاهُم بِهِ الرسول ﷺ من حقائقِ الأفهام، إذ يترتّبُ على الاستغناءِ والعِناد الطردُ والإخراجُ من رحمةِ اللّه تعالى[1].

دلالةُ المضيِّ والبناء للمجهول في ﴿قُتِلَ﴾:

الدُّعاءُ بالقتلِ يَدعو إلى الحذر من السَّبب

عبّرَ النظمُ الكريم بالفعلِ الماضي المبنيِّ للمفعولِ في قولِه تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾؛ للدِّلالة على تحقُّقِ وقوعِ القتلِ والطَّردِ واللَّعنِ للكُفّار، ولمّا كان الفعلُ مُستعمَلاً في الدُّعاءِ بُني للمجهول؛ لأنَّ الغرضَ إيقاعُ القتلِ والطّرد واللَّعن: "ولا غَرَضَ في قاتِلٍ يَقْتُلُه، وكَثُرَ في القُرآنِ مَبْنِيًّا لِلْمَجهولِ؛ نَحْوَ: ﴿فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ١٩﴾ [المدثر: 19]"[2].

الإخبارُ المُرادُ به الإنشاءُ ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

الطّردُ المُستحَقّ للمُستغني عنِ الحقّ

عبَّرَ النظمُ الكريمُ بالجملةِ الخبريَّة في قولِه تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ والمرادُ به إنشاءُ الطّرد واللَّعن؛ فهي جملةٌ خبريّةٌ لفظاً إنشائيّةٌ معنىً، والغرضُ من إيرادِ الإنشاءِ بلفظِ الإخبارِ بيانُ أنَّ ذلك واقعٌ لا محالةَ، وأنَّه من فرط وقوعِه يُخبَرُ عنه كما يُخبَرُ عنِ الأمورِ الواقعة، قال السَّمين: "لفظُهُ خبرٌ ومعناهُ الدُّعاء، ومعناه: إيجادُ ذلك من اللّه بهم، وقيل: هذا يُستعمَلُ في تعظيم الشَّيء؛ نحوُ: قاتلَهُ اللّه! وقتلَهُ اللّه ما أشجَعَهُ! ومنه: "ويْلُمِّه! مِسعَرُ حربٍ"[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 119.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 120.

(3) السمين، عمدة الحفاظ: 3/ 271.

دلالة الاستعارة التصريحيّة في ﴿قُتِلَ﴾

الإبعاد الرّوحانيّ كالقتلِ الجِسمانيّ

استعارَ النظمُ الكريم لفظَ ﴿قُتِلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ للدّلالة على الطَّردِ واللّعنِ والتعذيب؛ إذ بينَ هذه المذكورات والقتلِ مشابهةٌ؛ إذ كلٌّ منها إزهاقٌ روحانيّ، والقتلُ إزهاقٌ جِسمانيّ؛ فاستُعيرَ له تشخيصاً وتعميقاً لصورةِ الطّرْدِ واللّعن بصورةِ القَتل، قال الهرريُّ: "دعاءٌ عليهِ بأشنعِ الدَّعوات، فإنَّ القتل غايةُ شدائدِ الدُّنيا وأفظعُها، ومَن فسَّر القتلَ باللَّعن أرادَ به الإهلاكَ الرّوحانيَّ، فإنَّه أشدُّ العقوبات؛ أي: لعنُ الإنسانِ الكافر"[(1)]. وأنكرَ القائلونَ بأنَّها جملةٌ دعائيّة دلالةَ اللّعنِ والطّرد، وأبقَوا (القتلَ) على حقيقتِه؛ للدّلالة على المعنى الكنائيِّ، وهو استحقاقُ أشدِّ العقابِ، قال ابنُ عطيَّة: "ومعنى ﴿قُتِلَ﴾ أي هو أهلٌ أنْ يُدعَى عليه بهذا، وقال مجاهدٌ: ﴿قُتِلَ﴾ بمعنى: لُعِنَ، وهذا تحكُّمٌ"[(2)]، وتابعَهُ على ذلك ابنُ عاشور فقال: "والدُّعاءُ بالسّوءِ مِنَ اللّه تَعالَى مُسْتَعْمَلٌ في التَّحْقيرِ والتَّهْديدِ؛ لِظُهورِ أنَّ حَقيقَةَ الدُّعاءِ لا تُناسِبُ الإلَهيَّةَ؛ لِأنَّ اللّه هوَ الَّذي يَتَوَجَّهُ إلَيْهِ النّاسُ بالدُّعاءِ"[(3)].

دلالةُ التعريفِ بـ(أل) في ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾:

الاستغراقُ العُرفيّ يُرجِّحُهُ الدليلُ اللغويُّ والعقليّ

عرّفَ النظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ بـ(أل) في قولِه تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ للدّلالة بها إمّا على العَهد في شخصٍ معيّن؛ فقيل: هو عتبةُ بنُ أبي لهب، وقيلُ: الوليدُ بنُ المُغيرة، قال ابنُ عاشور: "وَيَجوزُ أنْ يَكونَ تَعْريفُ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ تَعْريفَ العَهْدِ لِشَخْصٍ مُعَيَّنٍ مِنَ الإنْسانِ، يُعَيِّنُهُ خَبَرُ سَبَبِ النُّزولِ، فقيلَ: أُريدَ بِهِ: أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ، وكانَ مِمَّنْ حَواهُ المَجْلِسُ الَّذي غَشيَهُ ابْنُ أُمِّ مَكْتومٍ، وعِنْدي أنَّ

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 128.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 438.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 121.

الأوْلَى أنْ يَكونَ أرادَ بِهِ الوَليدَ بْنَ المُغيرَةِ. وعَنِ ابْنِ عَبّاسٍ أنَّ المُرادَ عُتْبَةُ بْنُ أبي لَهَبٍ، وذُكِرَ في ذَلِكَ قِصَّةٌ لا عَلاقَةَ لَها بخَبَرِ المَجْلِسِ الَّذي غَشيَهُ ابْنُ أُمِّ مَكْتومٍ"[1]، أوْ في أشخاصٍ مُعيّنين وهُم المتقدِّمُ ذِكرُهم في قولِهِ: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾[2].

وإمّا للدلالةِ به على الجنسِ، وهذا هو الأوْلى، فيدخلُ تحتَهُ كلُّ كافرٍ شديدِ الكُفرِ، ويدخلُ تحتَهُ مَن كان سببًا لنزول الآيةِ دُخولًا أوليًا[3]، "ويَرجّحُ ذَلِكَ وُجوهٌ: **أحَدُها:** أنَّهُ تَعالَى ذَمَّهُمْ لِتَرَفُّعِهِمْ، فوَجَبَ أنْ يَعُمَّ الحُكْمُ بسَبَبِ عُمومِ العِلَّةِ. **وثانيها**: أنَّهُ تَعالَى زَيَّفَ طَريقَتَهُمْ بسَبَبِ حَقارَةِ حالِ الإنْسانِ في الِابْتِداءِ والِانْتِهاءِ عَلَى ما قالَ: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾، وعُمومُ هَذا الزَّجْرِ يَقْتَضي عُمومَ الحُكْمِ. **وثالِثُها**: وهوَ أنَّ حَمْلَ اللَّفْظِ عَلَى هَذا الوَجْهِ أكْثَرُ فائِدَةً، واللَّفْظُ مُحْتَمِلٌ لَهُ فوَجَبَ حَمْلُهُ عَلَيْهِ"[4].

وتَعْريفُ الجِنْسِ يُفيدُ اسْتِغْراقَ جَميعِ أفْرادِ الجِنْسِ، وهوَ اسْتِغْراقٌ حَقيقيٌّ، وقَدْ يُرادُ بِهِ اسْتِغْراقُ مُعْظَمِ الأفْرادِ بحَسَبِ القَرائِنِ، والقَرينَةُ هُنا ما بُيِّنَ بِهِ كُفْرُ الإنْسانِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ إلَى قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾.

نكتة التعيين والاستعمال في لفظ الإنسان:

توبيخ على طريق التذكير بمقتضى الإنسانية

بناء على معنى (ال) في قَوْلِهِ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، وبناء على سياق الآيات يمكن القول بأنّ المراد بالإنسان هنا المُشْرِكونَ المُنْكِرونَ البَعْثَ، وعَلَى ذَلِكَ جُمْلَةُ المُفَسِّرينَ، فإنَّ مُعْظَمَ العَرَبِ يَوْمَئِذٍ كافِرونَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 120.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 128.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 128.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 57.

بالبَعْث[1]، فهو اسم جنس، وهو عمومٌ يرادُ به الخصوصُ، والمعنى: قُتِلَ الإنسانُ الكافرُ[2].

وتظهر دقّة استعمالِ لفظِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ في المقام؛ قال القونوي: "وذكر ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ توبيخًا له؛ بأنَّه لم يعمَلْ بما هوَ مقتضى الإنْسانيَّة"[3].

دلالةُ الكنايةِ في الجملةِ الدُّعائيّة ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

الـدُّعـاء مِـن ذاتِـهِ الجليلةِ بالعَذاب مُبالغةٌ في شدَّةِ العِقاب

كنَّى النظمُ الكريم بالجُملةِ الفعليَّة الدُّعائيَّة في قولِه تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ عنِ التّحقير والتَّهديد وقُبح الحالِ واستحقاقِ العِقاب؛ فهي: "دُعاءٌ عليهِ بأشنَعِ دَعواتِهم على ما هو المعروفُ في لسانِهم، وهو كنايةٌ عن قُبحِ حالِه، وأنَّه قد بلغَ منه مَبلغًا لا يستحِقُّ معَهُ أنْ يَبقى حياً"[4]، فإنَّ القتلَ أهولُ الحالاتِ والعقوبات، وهو دعاءٌ بالإهلاك؛ فإنَّ مَن قاتلَهُ اللّه هلكَ لا محالةَ. وفيهِ كما قالَ الرازيّ: "تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّهُمُ اسْتَحَقّوا أَعْظَمَ أَنْواعِ العِقابِ"[5]، كما أنّ اللّازمَ منَ الدُّعاء بالسّوء من اللّه تعالى التحقيرُ والتهديدُ[6]، فهو طلَبٌ من ذاتِه أنْ يَلعنَهُم ويَقتلَهم، وفيه مُبالَغَةٌ جدًا[7].

دلالةُ الفصلِ في ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾:

الكُفرانُ الشّديد سببُ الـدُّعـاءِ بـالإهـلاكِ والتّهديد

فصلَ النظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ لأنَّها تعليل لإنشاء الدعاء عليه دعاءَ التحقير والتهديد[8] في قوله ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾؛ فالكُفرانُ الشّديد من الإنسان سببٌ للدُّعاءِ عليه دعاءَ الإهلاكِ والعقابِ والتهديد، والجملةُ الاسميّةُ جملةٌ إنشائيّةٌ لا محلَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 121.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 438.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 94.
(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1787.
(5) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 297.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 120.
(7) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 94.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 121.

لها من الإعراب؛ لِدلالتها على إنشاءِ التعجيب؛ نظير قولهم: (قاتلَه اللّه ما أخبثَهُ، وأخزاهُ اللّه ما أظلمَهُ)، والمعنى: اعجَبوا مِن كُفر الإنسان بجميعِ ما ذكرنا"[1].

دلالةُ ﴿مَآ﴾ في ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾:

التـعـجـيـبُ والتـوبـيـخُ من شِــدَّةِ الـكُـفـر النِّضّيخ

عبَّر النظمُ الكريم بـ﴿مَآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾؛ للدّلالة بها إمّا على التعجيبِ من شدّةِ كفرِ الإنسانِ الكافر، ويكونُ التركيبُ للتعجُّب، وإمّا على الاستفهام التوبيخيِّ؛ وقد شرحَ الزجّاج القولين، فقالَ: يكونُ على جهةِ لفظِ (التَّعَجُّبِ)، ومعنى التعجّبِ ممّا يُؤمَرُ به الآدميّون؛ كقولِه: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥﴾ [البقرة: 175] أي اعْجَبوا أنتُم مِن كُفر الإنسانِ. ويجوزُ أنْ يكون على مَعنى التوبيخ، ولفظُهُ لفظُ الاستفهام، أي: أيُّ شيءٍ أكفرَهُ؟[2]، فسواءٌ قلنا إنَّها للتعجُّب أوْ للاستفهام؛ فليس المراد منه حقيقتَهما؛ إذ المولى تعالى لا يتعجَّبُ ولا يَستفهمُ حقيقة، فلا بدَّ من ارتكابِ المجاز، فتكون إمّا لتعجيبِ الخلقِ من اختيارِ الكافر الكُفرانَ، وإمّا للتوبيخ على صدورِ الكُفران منه، والراجحُ أنَّها جملةٌ تعجُّبيةٌ من: "شِدَّةِ كُفْرِ هَذا الإنْسانِ، ومَعْنَى شِدَّةِ الكُفْرِ أنَّ كُفْرَهُ شَديدٌ كَمًّا وكَيْفًا ومَتًى؛ لِأنَّهُ كُفْرٌ بوَحْدانيَّةِ اللّه، وبِقُدْرَتِه عَلَى إعادَةِ خَلْقِ الأَجْسامِ بَعْدَ الفَناءِ، وبِإرْسالِه الرَّسولَ، وبِالوَحْيِ إلَيْهِ ﷺ، وأنَّه كُفْرٌ قَويٌّ؛ لِأنَّهُ اعْتِقادٌ قَويٌّ لا يَقْبَلُ التَّزَحْزُحَ، وأنَّهُ مُسْتَمِرٌّ لا يُقْلِعُ عَنْهُ مَعَ تَكَرُّرِ التَّذْكيرِ والإنْذارِ والتَّهْديدِ[3].

دلالةُ الفعلِ (أكفَرَ) مادَّةً وصيغةً:

التـعـجُّـبُ من الكُفران لعَظَمة الـجُـحـود والبُهتان

عبّرَ النظمُ الكريم بالفعلِ الماضي المزيدِ بالهَمزة الدالّة على التّعديةِ (أكفرَ) في قولِه تعالى: ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾؛ للدِّلالةِ على تحقُّقِ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 144.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 23/ 222.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 121.

الكفرانِ منهُ وتعلّقه بالصّادر منهُ الكُفران على سبيلِ الأشدّيّة والأكثريّة تحقُّقاً مَقطوعاً بحصولِه حتَّى إنَّه ليُتعجّبُ منه وقوعاً وكثرةً وشدّةً، وليدلَّ بمادّته على جحدِ المُنعم الحقيقيِّ وتغطيةِ نِعَمِه الظّاهرة والباطنة وإنكارِها إنكاراً مُتحقّقاً. وفي صيغةِ الفعلِ: "تنبيهٌ على أنَّهم اتّصفوا بأعظَمِ أنواعِ القبائح والمُنكَراتِ شرْعاً"[1].

مَرجِعُ ضميرِ الغَيبة في ﴿أَكۡفَرَهُۥ﴾:

تعليقُ الحُكم بالضَّمير مُفسِّرٌ للمُراد بالتَّعريف

عبَّر النظمُ الكريم بضميرِ الغَيبة (الهاء) في قولِه تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾؛ ليعودَ على ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ المَدعوِّ عليه بالهلاكِ والقتل والعقابِ، والغرضُ من الربطِ به تحديدُ المرادِ بلفظِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ المعرَّف بـ(أل) الاستغراقية؛ وهو الإنسانُ الكافر فحسبُ؛ فكانَ تعليقُ الكفر بضميرِه مُفسِّراً لدلالةِ المعرَّفِ بـ(ألِ) الاستغراقيَّة.

نكتةُ حذفِ مُتعلَّقِ الفعل ﴿أَكۡفَرَهُۥ﴾:

مِن مَزايا التفظيع حذفُ المُتعلَّق بغية التشنيع

حذفَ النظمُ الكريمُ مُتعلّق فعلِ التعجيب ﴿أَكۡفَرَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾: "لِظُهورِه مِنْ لفظ ﴿أَكۡفَرَهُۥ﴾ وتَقْديرُهُ: ما أكْفَرَهُ باللّه"[2]، وللدِّلالة على عُموم كُفرانه وشدّتِه؛ إذ تقييدُ الكُفران بمُتعلَّقٍ يفيدُ اختصاصاً، وأمّا حذفُهُ فإنَّه يُصوِّرُ تلك الأشديَّة وذلك العِظَم في الكُفران بكلِّ صورِه وعناصِره.

دلالةُ الإيجازِ في ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾

الذمُّ الشَّديد باللّفظ الموجَزِ الفَريد

عبَّرَ النظمُ الكريم بألفاظٍ قليلةٍ مَحدودة عن معانٍ كثيرةٍ في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾؛ ففيه دعاءٌ على الكُفّار وتعجيبٌ من شدّةِ كُفرهم، وتعليلٌ للدُّعاء عليهم، ممّا جعلَ المفسِّرين يُجمعونَ على أنَّ هذا من أوجَزِ الكلام وأبلغِه، قال الزمخشريُّ: "ولا ترى

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 297.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 122.

أُسلوبًا أغلظَ منه، ولا أدلَّ على سُخطِه، ولا أبعدَ شَوْطًا في المَذلَّة مع تقارُب طَرَفيه، ولا أجمعَ للّائمةِ على قِصَرِ مَتنِه"[1]، وقال البيضاويُّ: "﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ دعاءٌ عليه بأشنَعِ الدَّعوات وتعجّبٌ من إفراطِه في الكُفران، وهو معَ قِصَرِه يدلُّ على سُخطٍ عظيمٍ وذمٍّ بليغٍ"[2]؛ قال القونوي: وقوله: (معَ قِصَرِه يدلُّ عَلَى سُخطٍ عظيمٍ وذمٍّ بليغ) أشارَ به إلَى أنَّه كلامٌ في غايةِ الإيجازِ، وكمالِ البَراعة؛ لقلَّةِ نظمِه وكثرةِ مَعناه؛ فإنَّ ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ يدلُّ عَلَى استحقاقِ أعظم أنواعِ العِقاب عُرفًا، وقوله: ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ تنبيهٌ عَلَى أنَّهم اتَّصفوا بأعظمِ أنواعِ القبائح والمُنكَرات شَرعًا كما قالَ الإمام، فيدلُّ عَلَى إظهارِ كمالِ السُّخط باعْتبارِ جُزئِه الأوّل، وعلى شدَّةِ الذمِّ باعْتبارِ جُزئِه الثاني"[3]، حتى عدَّها ابنُ عاشور من (جوامعِ الكَلِم القرآنية) في قوله: "وَهَذِهِ الجُمْلَةُ بَلَغَتْ نِهايَةَ الإيجازِ وأرْفَعَ الجَزالَةِ بأُسْلوبٍ غَليظٍ دالٍّ عَلَى السُّخطِ بالِغٍ حَدَّ المَذَمَّة، جامعٍ لِلْمَلامَة، ولَمْ يُسْمَعْ مِثْلُها قَبْلَها، فهيَ مِنْ جَوامِعِ الكَلِمِ القُرْآنيَّة"[4].

دلالةُ الفَصلِ في جملةِ ﴿مِنۡ أَيِّ﴾

النِّعَمُ المُحيطة بالإنسان داعية لـه إلى الشكر والعرفان

فصلَ النظمُ الكريم قولَهُ تعالى: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّها مَسوقة: "لبيانِ ما أنعمَ عليهِ بعدَ المبالغةِ في وصفِهِ بكُفرانِ نِعَمِ خالقِهِ"[5]، ولبيانِ: "إفراطِه في الكُفران؛ ببيانِ ما أفاض اللّه عليهِ وتفضيلِهِ من مَبدأ فِطرته إلى مُنتهى عمُره من فنونِ النّعَم الموجِبة لأنْ تُقابَلَ بالشُّكر والطّاعة، بدلَ ما تمسَّك به هذا الإنسانُ من الإمعانِ في الكُفر والتكذيب"[6]. وجعلَ ابنُ عاشور: "جُمْلَةُ ﴿مِنۡ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 703.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 287.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 94.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 121.
(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 144.
(6) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1788.

﴿أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ بياناً لِجُمْلَةِ ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾؛ لِأَنَّ مَفادَ هَذِهِ الجُمْلَةِ الاسْتِدْلالُ عَلَى إِبْطالِ إحالَتِهِمُ البَعْثَ، وذَلِكَ الإِنْكارُ مِنْ أَكْبَرِ أُصولِ كُفْرِهِمْ"[1]. ويمكنُ أنْ يكونَ الغرضُ من الاستئناف الدَّعوةَ إلى البحثِ عن سببِ كُفرانه المتعجَّبِ منه، معَ أنَّه لا يملكُ لنفسِه ضرّاً ولا نفعاً منذُ أوَّلِ الوُجود وحتَّى النّشور؛ إذ القدرةُ الإلهيّةُ تُحيطُهُ من كلِّ جانبٍ؛ فما الدّاعي إلى الكُفران؟ ولمّا لم يكُن هنالك سببٌ وجيهٌ للكُفران يكونُ التعجُّبُ من شدَّة الكفران دالّاً على التهكُّم والتحقيرِ والتَّعجيب.

دلالةُ ﴿مِنۡ﴾ والغرضُ منها:

التـفـكـيرُ في التَّخليق موجبٌ للإيمانِ بالنُّشور بلا تفريق

عبَّرَ النظمُ الكريم بلفظِ ﴿مِنۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾؛ للدِّلالة على الابتداءِ والأصلِ والمَنشأ؛ والغرضُ من التعبيرِ بها الدّعوةُ إلى التأمُّلِ في أوَّلِ الخِلقة، وكيفَ يولَدُ الإنسانُ، وأصلُ التخلُّق؛ فإنَّه إنْ عرفَ ذلك أذعنَ للخالقِ القادرِ العظيم، واعترفَ بصحَّة النُّشورِ والبَعث.

مَعنى ﴿أَيِّ﴾ الاستفهاميّة والغرضُ مِنها:

الدّعـوةُ للتفكُّر في أصلِ الإنسان إثـبـاتٌ لـصحَّة الحَشرِ والقيام

عبّرَ النظمُ الكريم بـ﴿أَيِّ﴾ الاستفهاميَّة في قولِه تعالى: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾؛ للدِّلالة بها على تعيينِ أصلِ خلقةِ هذا الإنسانِ الكافرِ باليوم الآخر، والاستفهامُ مجازيٌّ للتقريرِ والإلجاءِ للاعترافِ، فلفظُهُ: "استفهامٌ، ومعناه التقريرُ"[2]؛ لأنَّ اللّه تعالى يعلَمُ ذلك، ولمّا كان المسؤولُ يعلمُ ذلك أيضاً، وأنه مخلوقٌ من نُطفةٍ؛ كان الغرضُ من السّؤال التفكيرَ أولاً بأنَّ مَن أوجدَ الإنسان من نطفةٍ قادرٌ على بعثِه ونشرِه أيضاً، والتحقيرَ والتهكُّمَ ثانياً بذلك الإنسانِ الكافر[3]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 122.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 23/ 222.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 57، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1788.

لكنَّ ابنَ عطيَّة رأى أنَّ العبارةَ تصلُحُ للتحقيرِ والتعظيم، والقرينةُ تبيّنُ الغرضَ[1].

إثباتُ النّشر بطريقِ السُّؤالِ والجَواب:

الاســتــدلالُ بــالــسُّـؤالِ والــجــواب تشويقٌ لسامعِ الخِطاب

عبّر النظمُ الكريم عن الاستدلالِ على صحَّةِ الحَشْرِ والنَّشْرِ بالاستفهامِ والجوابِ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾؛ "لِلتَّشْوِيقِ إِلَى مَضْمونِهِ، ولِذَلِكَ قُرِنَ الِاسْتِفْهامُ بالجَوابِ عَنْهُ عَلَى الطَّرِيقَةِ المُتَقَدِّمَةِ في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢﴾ [النَّبَأ: 1 - 2]"[2].

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمَجرور ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ﴾:

تـقـديـمُ مـا لـهُ الــصَّــدارة في الكلامِ لأنَّه مَركزُ الاهتمام

قدَّمَ النظمُ الكريم المتعلِّقَ الفعليَّ من الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ﴾ على متعلَّقِهِ ﴿خَلَقَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾؛ للدّلالة على تقديمِ مركزِ الاهتمام في الكلام، وهو الاستفهامُ عن تحديد مبدأ الخِلقة؛ وهذا هو السرُّ في كونِ ما له الصَّدارةُ في الكلام يجبُ تقديمُهُ؛ وليفيدَ بتقديمِ السُّؤال التفكيرَ بأصلِ الخِلقة عليها وعلاقتَها بموطنِ الاستدلال؛ إذ الخلقةُ معلومةٌ والمُتخلّقُ منه كذلك، لكنَّ التفكيرَ في علاقةِ أصلِ الخِلقة بالغَرضِ الَّذي سيقَ له مجهولٌ.

دلالةُ الفعلِ الماضي (خَلَقَ):

الــقُــدرةُ على الخَلقِ والإيجاد دلـيـلُ الـقُـدرة على البَعثِ مِنَ الرُّقاد

عبَّرَ النظمُ الكريم بالفعلِ الماضي (خلَقَ) في قولِهِ تعالى: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾؛ للدِّلالةِ بصيغتِهِ على وقوعِ ذلك الخلْقِ على سبيلِ الحُصول لا على سبيل الفرضِ والتقدير، وبمادّتِه على الاحتياجِ في الوجودِ إلى الخالق، وذلك التحكُّمُ في عمليَّة الإيجاد يفيدُ القدرةَ على التحكُّمِ في عمليّةِ الإعادة، كما يفيدُ صحَّةَ الخَلْقِ مُجدَّداً بعدَ العَدَم.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 438.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 122.

الفصلُ بينَ السُّؤال والجَواب دفعٌ لتوهُّمِ الجَمعِ والارتباط

دلالةُ الفصل في ﴿مِن نُّطۡفَةٍ﴾:

فصلَ النّظمُ الكريم قولَهُ تعالى: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ عمّا قبلَه؛ لكونِهِ جَواباً عن السُّؤالِ الصَّريح وتفسيراً له، وهو من مواطنِ الفَصل اللّازمةِ بينَ الجُمَلِ المُستأنَفةِ استئنافاً بيانيًّا عن سؤالٍ ضمنيٍّ، فالفصلُ من سُؤالٍ صريح أوْلى بالقطع عمّا قبلَه؛ وليندفعَ بالفصلِ توهُّمُ أنَّه من تتمَّة السُّؤال؛ إذ الأصلُ في (الواو) أنها للرّبط والجَمع والاقتران.

التعظيمُ للقدرة على الخلق أنسبُ بمَقام الاستدلال على عَظيم الصُّنْع

دلالةُ التنكيرِ في ﴿نُّطۡفَةٍ﴾:

عبَّر النظمُ الكريمُ بلفظِ ﴿نُّطۡفَةٍ﴾ مُنكَّرةً في قوله تعالى: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾؛ للدِّلالةِ إمّا على التعظيم والتفخيم لقدرة الله تعالى في خلقِ الإنسانِ، وهذا المعنى أنسبُ بمقام الاستدلالِ على صحَّةِ النّشرِ والحَشر والبعث؛ إذ القدرةُ على خَلق الإنسانِ من هذا الشّيءِ العَجيب دليلُ القدرة على إعادتِه، قال ابنُ عاشور: "فَذُكِرَت (النُّطْفَةُ) لِتَعَيُّنِ ذِكْرِها؛ لِأَنَّها مادَّةُ خَلْقِ الحَيَوانِ؛ لِلدِّلالَةِ عَلَى أنَّ صُنْعَ اللهِ بَديعٌ فإمْكانُ البَعْثِ حاصِلٌ، ولَيْسَ في ذِكْرِ (النُّطْفَةِ) هُنا إيماءٌ إلَى تَحْقيرِ أصْلِ نَشْأةِ الإنْسانِ؛ لِأنَّ قَصْدَ ذَلِكَ مَحَلُّ نَظَرٍ، عَلَى أنَّ المَقامَ هُنا لِلدِّلالَةِ عَلَى خَلْقٍ عَظيمٍ، ولَيْسَ مَقامَ زَجْرِ المُتَكَبِّرِ"(1).

وإمّا للتحقير، وهذا المعنى أنسبُ بالتّعجيب من كُفرانه الشّديد وتكبُّرِه على الله تعالى واستغنائِه عنه وعدم تصديقِه بالنَّشر والبعث؛ إذ كيف يتكبّرُ مَن هو مخلوقٌ من شيءٍ حقيرٍ ومَهين؟ قال الرازي: "ثُمَّ أجابَ عَنْ ذَلِكَ الِاسْتِفْهامِ بِقَوْلِهِ: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾، ولا شَكَّ أنَّ النُّطْفَةَ شَيْءٌ حَقيرٌ مَهينٌ، والغَرَضُ مِنْهُ أنَّ مَنْ كانَ أصْلُهُ [مِنْ] مِثْلِ هَذا الشَّيْءِ الحَقيرِ، فالتَّكَبُّرُ والتَّجَبُّرُ لا يَكونُ لائِقًا بِهِ"(2).

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 123.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 57.

دلالةُ تقديمِ المتعلّق ﴿مِن نُّطۡفَةٍ﴾:

إيجادُ النُّطفة دليلُ القُدرة والعَظَمة

قدّمَ النظمُ الكريم الجارَّ والمجرور ﴿مِن نُّطۡفَةٍ﴾ على مُتعلَّقها الفعليِّ في قولِه تعالى: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾؛ "مُحاكاةً لِتَقْديمِ المُبَيَّنِ في السُّؤالِ الَّذي اقْتَضَى تَقْديمَهُ كَوْنُهُ اسْتِفْهامًا يَسْتَحِقُّ صَدْرَ الكَلامِ، مَعَ الِاهْتِمامِ بِتَقْديمِ ما مِنْهُ الخَلْقُ؛ لِما في تَقْديمِهِ مِنَ التَّنْبيهِ لِلِاسْتِدْلالِ عَلَى عَظيمِ حِكْمَةِ اللهِ تَعالَى؛ إذْ كَوَّنَ أبْدَعَ مَخْلوقٍ مَعْروفٍ مِنْ أهْوَنِ شَيْءٍ وهوَ النُّطْفَةُ"[1].

سرُّ تكرارِ الجملةِ الفعليَّة ﴿خَلَقَهُۥ﴾:

الإنسان فقير إلى خالقه في كلِّ أحواله

كرر النظم الكريم الجملة الفعلية ﴿خَلَقَهُۥ﴾ بذكرها مرَّة ثانية في جملة الجواب في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾؛ "لِزِيادَةِ التَّنْبيهِ عَلَى دِقَّةِ ذَلِكَ الخَلْقِ البَديعِ، فذِكْرُ فِعْلِ ﴿خَلَقَهُۥ﴾ الثّاني من أُسْلوبِ المُساواةِ لَيْسَ بإيجازٍ ولَيْسَ بإطْنابٍ"[2]، وللدِّلالة بتكرارِ جملةِ الإيجادِ على احتياجِ المَخلوق للخالق في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ؛ فكيف يصدُرُ منهُ التكبُّرُ والكُفران؟.

دلالةُ (الفاءِ) في قوله ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾:

إدمــاجُ الاســتدلال بالامتنان تذكيرٌ بالنِّعَم لبَني الإنسان

عطفَ النظمُ الكريمُ بـ(الفاء) في قولِه تعالى: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾؛ للدِّلالة على التفريعِ للتقديرِ على الإيجاد، والتعقيبِ بلا فاصلٍ بينَهما، وذلك: "لِأنَّ التَّقْديرَ هُنا: إيجادُ الشَّيْءِ عَلَى مِقْدارٍ مَضْبوطٍ مُنَظَّمٍ؛ كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ٢﴾ [الفرقان: 2] أيْ جَعَلَ التَّقْديرَ مِنْ آثارِ الخَلْقِ؛ لِأنَّهُ خَلَقَهُ مُتَهَيِّئًا لِلنَّماءِ، وما يُلابِسُهُ مِنَ العَقْلِ والتَّصَرُّفِ، وتَمْكينِهِ مِنَ النَّظَرِ بعَقْلِهِ، والأعْمالِ الَّتي يُريدُ إتْيانَها، وذَلِكَ حاصِلٌ مَعَ خَلْقِهِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 122.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 122.

مُدَرَّجًا مُفَرَّعًا، وهَذا التَّفْريعُ وما عُطِفَ عَلَيْهِ إدماجٌ للامتنانِ في خِلالِ الاِسْتِدْلالِ"[1].

دلالةُ الفعلِ (قدّرَ) مادّة وصيغةً:

الخَلْقُ دفعيٌّ والتقديرُ تدريجيٌّ

عبَّرَ النظمُ الكريمُ بالفعلِ الماضي (قدَّرَ) في قوله تعالى: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾؛ للدِّلالةِ بصيغتِهِ الماضية على حصولِ التقدير على سبيلِ التحقُّقِ والحصول، كحصولِ خلقِهِ بشكلٍ لا يُمكن إنكارُ وقوعِهِ، وليدلَّ بتضعيفِهِ على عمليَّةِ التدرُّجِ في التقديرِ والتّسوية والتنظيم لتلك الخِلقة؛ ولذا عبّر عن فعلِ (الخَلْق) بالثلاثيِّ المجرَّد؛ لأنَّ الخلقَ يحصلُ دفعةً واحدةً، وأمّا عمليّاتُ التّسوية والترتيب والتنظيم لتلك الخلقةِ حتى تكونَ سويَّةً فيها تدرُّجٌ وتطوُّرٌ وارتقاء، فعبّر عنها بالفعلِ المزيدِ بالتضعيفِ الدالِّ على كثرةِ عمليّات التقدير والتّنظيم لتلك الخِلقة؛ سواءٌ كان معنى التقديرِ أطوارَ تحوُّلِ النُّطفة وكونِه ذكراً أَوْ أُنثى أَوْ سَعيداً أَوْ شقيًّا كما قالَ الفرّاء، أَوْ قدَّره على الاستواءِ رجلاً كما قالَ الزجّاج، أَوْ قدَّرَ كلَّ عضوٍ بكميّةٍ وكيفيّةٍ، كما نُقِلَ عن الكلبيِّ[2].

قال البيضاويّ: "﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ فهيَّأه لما يصلُحُ لهُ من الأعضاءِ والأشكال، أَوْ فقدَّرَهُ أطواراً إلى أَنْ أتمَّ خِلقتهُ"[3]، أي: "أحدثَهُ بمقدارٍ معلوم من الأعضاءِ والأشكالِ والكميَّة والكيفيَّة، فجعلَهُ مُستعِدًّا لأَنْ يَنتهي فيه إلى القَدْرِ اللّائق بمصلحتِهِ، فلا يلزمُ عطفُ الشّيء على نفسِهِ، وذلك أنَّ خَلْقَ الشّيءِ أيضًا تقديرُهُ وإحداثُهُ بمقدارٍ معلوم من الكميَّةِ والكيفيَّة، وقيل: أطوارًا من حالٍ إلى حال، نطفةً ثمَّ علقةً إلى أنْ تمَّ خلقُهُ. فالتقديرُ المفرّع على الخلْق مأخوذٌ من القَدْر بمعنى الطّوْرِ؛ أي: أوجدَهُ على

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 123.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 57، والواحدي، التفسير البسيط: 23/ 223.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 287.

التقديرِ الأوَّل، ثمَّ جعلَهُ ذا طورٍ من علقةٍ إلى مضغةٍ إلى آخرِ أطوارِهِ ذكرًا أوْ أنثى، شقيًّا أو سعيدًا"[1].

دلالةُ ﴿ثُمَّ﴾:

العقلُ كمالُ النِّعمة وتمامُ المنَّة

عطفَ النظمُ الكريم بـ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾؛ للدِّلالة على التراخي في الرُّتبة لا في الدِّلالة على بديعِ الصّنعة؛ "لِأَنَّ تَيْسِيرَ سَبِيلِ العَمَلِ الإنْسانيِّ أعْجَبُ في الدِّلالَةِ عَلَى بَديعِ صُنْعِ اللّه؛ لِأنَّهُ أثَرُ العَقْلِ وهوَ أعْظَمُ ما في خَلْقِ الإنْسانِ، وهوَ أقْوَى في المِنَّة"[2]. فالتّراخي في الوقوع؛ إذ التكليفُ بالأعمالِ وحريّةُ الاختيارِ لها المُعبَّر عنه بتيسيرِ السَّبيل يأتي بعدَ الخلقِ والتقدير، وإنْ كانَ أدلَّ على عظيمِ النِّعمة.

دلالةُ التعريفِ بـ(أل) في ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾:

تيسيرُ السَّبيل مِنّةٌ للجَليل

عرّفَ النظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾؛ إمّا للدِّلالةِ على العهد، وهو السّبيلُ والطّريقُ الَّذي يَخرُجُ منه الإنسانُ إلى الدُّنيا عندَ الولادة، وتلك نعمةٌ كبيرة، وإمّا للدِّلالة على الجنسِ أي الطّرق الَّتي يسلكُها في حياتِهِ والأعمالِ الّتي يُنجزها من خيرٍ أوْ شرٍّ. وقولُ الهَرَريِّ: "وتعريفُ ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ باللّام دونَ الإضافة بأنْ يقالَ (سبيله)؛ للإشعارِ بعمومِه"[3] وهذا يَتّسقُ مع كونِها جنسيّةً، قال القونوي: "أي عامٌّ لكلِّ إنسان؛ فلو قيلَ (سبيله) لأوهَمَ أنَّه عَلَى التوزيع، وأنَّ لكلِّ إنسان سبيلًا يخصُّهُ، أوْ أوْهم أنَّه مَخْصوص بنوعِ الإنْسان مع أنه متحقّقٌ في سائر الحَيوان أيْضًا؛ إذا أُريد به المَعْنَى الأوّل، وفي الجنّ موجودٌ إنْ أريدَ به المَعْنَى الثاني، وهذا الوجه أوْلى من الأوّلِ"[4].

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 298، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 129.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 123.

(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 129.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 97.

الدُّنيا دارُ انتقال والماشي في طريقِها إلى زَوال

دلالةُ الاستعارةِ التصريحيَّة في ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾:

استعارَ النظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ الموضوعَ للطّريق في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾؛ للدّلالة به إمّا على: "ما يَفْعَلُهُ الإنْسانُ مِنْ أعْمالِهِ وتَصرُّفاتِهِ؛ تَشْبِيهًا لِلْأعْمالِ بطَرِيقٍ يَمْشِي فيهِ الماشي تَشْبيهَ المَحْسوسِ بالمَعْقولِ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ مُسْتَعارًا لِمَسْقَطِ المَوْلودِ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ، فقَدْ أُطْلِقَ عَلَى ذَلِكَ المَمَرِّ اسْمُ السَّبيلِ في قَوْلِهِمُ (السَّبيلانِ)؛ فيَكونُ هَذا مِنَ اسْتِعْمالِ اللَّفْظِ في مَجازَيْهِ"[1]. والغرضُ من الاستعارةِ على المعنى الثاني التهذيبُ في التعبيرِ عن مَخرَجِ الوِلادة، وعلى المعنى الأوّل تصويرُ الحياة الدُّنيا وما فيها من أعمالٍ على أنَّها دارُ ممَرّ وعُبور كالطَّريق، سُرعانَ ما ينتهي ويَزول. قال القونوي: "وجهُ الإيماء هو أنَّ ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ يقتضي المقصَدَ والمطلَب؛ فالدُّنْيا سبيلُ ممرٍّ والآخرَةُ مقصَدٌ ومقَرّ، وأيْضًا فيه رمزٌ إلَى أنَّه تَعالَى كما هوَ قادرٌ عَلَى إخراج الإنْسان من بطنِ أمِّه قادرٌ عَلَى إخراجِه من بطنِ الأرْض، وإحيائِه بجميعِ الأجزاءِ الأصليَّة"[2].

توكيدُ التّيسير نِعمةٌ وتَبصير

دلالةُ المَوْقِعِ التركيبيِّ للسَّبيل:

نصبَ النظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ في قولِه تعالى ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ على الاشتغال؛ ليكونَ معمولاً لفعلٍ محذوفٍ يُفسِّرُهُ المَذكور، والغرضُ منه توكيدُ تيسيرِ السَّبيل؛ إذ ذُكِرَ مرّةً مقدّراً ومرّة مذكوراً، مع ما فيه من التشويقِ للعاملِ المتوقِّفِ معرفتُه على معرفة المُفسِّر. وتكريرُ الفعلِ دالٌّ على عظيمِ المنَّة وجليلِ النِّعمة؛ إذ تسهيلُ: "مَخرجِهِ من البطنِ بأنْ فتحَ فمَ الرّحِم، وكانَ غيرَ مفتوحٍ قبلَ الولادة، وألهمَهُ أنْ يَنتكسَ بأنْ ينقلبَ ويصيرَ رجلُه من فوق، ورأسُه من تحت، ولولا ذلك لا يُمكنها أنْ تلدَ، أَوْ يسَّر له سبيلَ الخير والشرِّ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 123.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 97.

في الدين، ومكَّنه من السُّلوك فيهما، وذلك بالإقدارِ والتعريفِ لهُ بما هو نافعٌ وضارٌّ، وبالعقلِ وبعثةِ الأنبياء، وإنزالِ الكُتُب"[1]. وقال ابن عاشور: "وتَقْديمُ السَّبيلَ عَلَى فِعْلِه؛ لِلاهْتِمام بالعِبْرَة بتَيْسير السَّبيلِ بمَعْنَيَيْهِ المَجازيَّيْن، وفيه رِعايَةٌ لِلْفَواصِل"[2]، وهذا كلُّه مبنيٌّ على عودِ الضَّمير في ﴿يَسَّرَهُۥ﴾ للسّبيل، وأمّا لو عاد إلى ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ فيكون (السّبيل) مَنصوباً على الظرفيَّة، والتقديرُ: (يسّرَ للإنسان السَّبيلَ)، والطريقَ أي طريقَ الخيرِ والشرِّ"[3].

دلالةُ الفعلِ ﴿يَسَّرَهُۥ﴾ مادّةً وصيغةً:

الاستدلالُ على حِساب البَعثِ والنَّشر ببيانِ نِعمةِ اليُسْرِ

عبّرَ النظمُ الكريم بالفعلِ ﴿يَسَّرَهُۥ﴾ ماضياً في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾؛ للدِّلالة على أنَّ ذلك الأمرَ واقعٌ على سبيلِ القَطْع بالحصولِ، واختارَ صيغة (التضعيف)؛ للدِّلالة على المبالغةِ في التيسير والتسهيلِ، حتى يستطيعَ مُزاولةَ أعمالِه. ودلَّ الفعل بمادّته على التذليلِ والانقياد للأعمالِ وسُبُلِ الحياة، فيكون مجازاً مُرسَلاً لعلاقةِ اللّزوم؛ إذ يلزمُ من التذليلِ التسهيلُ والتيسيرُ. قال القونوي: "معنى ﴿يَسَّرَهُۥ﴾ ذَللّه مَجازًا؛ إذ التذليلُ من (الذِّل) بمعنى الانقياد، ويلزمُهُ التسهيلُ والسُّهولة، وحاصلُهُ: أنَّه مكَّنه وأقدرَهُ عَلَى السُّلوك فيهما؛ ليفعلَ الخيرَ ويجتنبَ عن الشرِّ؛ فإنَّ الاحترازَ عنهُ إنَّما هوَ بمعرفتِهِ والثوابِ على تركِهِ إذا كان قادرًا عَلَى فعلِهِ وتركِهِ؛ خوفًا منه تَعالَى؛ فلا إشكالَ بأنه كَيْفَ يُعَدُّ تسهيلُ طريقِ الشرِّ من النِّعَم"[4].

دلالةُ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾:

التّراخي بينَ الخَلْقِ والإماتة دليلٌ على صحَّة الإحياءِ والإعادة

عطفَ النظمُ الكريم بـ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾؛ للدِّلالة على أنَّ الإماتةَ مُتراخيةٌ زمناً عادةً عن الخلقِ والتقدير

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 129.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 124.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 144.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 96.

وتيسيرِ السَّبيل؛ لإقامةِ الحُجّة وأخذِ العِبرة، قال القونوي: "وعطفَ ﴿أَمَاتَهُۥ﴾ بـ ثُمَّ؛ لتراخيهِ في أكثرِ الأفرادِ"[1]، في حين ذهبَ ابنُ عاشور إلى أنَّها: "لِتَراخي الرُّتْبَةِ؛ فإنَّ انْقِراضَ تِلْكَ القوَى العَقْليَّةِ والحِسّيَّةِ بالمَوْتِ، بَعْدَ أنْ كانَتْ راسِخَةً زَمَنًا ما، انْقِراضٌ عَجيبٌ دونَ تَدْريجٍ ولا انْتِظارِ زَمانٍ يُساوي مُدَّةَ بَقائِها، وهَذا إدْماجٌ لِلدِّلالَةِ عَلَى عَظيمِ القُدْرَةِ"[2].

دلالةُ الفعلِ ﴿أَمَاتَهُۥ﴾ مادّةً وصيغةً:

القــادِرُ على التخليقِ والإماتةِ قادِرٌ على الإحياءِ والإعادَة

عبرَ النظمُ الكريمُ بالفعل الماضي (أماتَ) في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾؛ للدِّلالة على وقوعِ تلك الإماتةِ بالإنسان؛ كافراً أوْ مؤمِناً على سبيلِ القطعِ بالحُصول، ودلَّتِ الزيادةُ بالهمزةِ المُفيدة للتّعدية على أنَّ ذلك الحدثَ المهروبَ عنه يتجاوزُ إلى المفعولِ به فلا يستطيعُ منهُ مَهرباً، وللدّلالةِ بمادَّته على: "قَبْضِ روحِه عندَ تَمامِ أجَلِه المقدَّرِ المسمَّى"[3]، والمعنى: أنّ مَن قَدِرَ على الإحياءِ والإماتة فهو قادرٌ على الإحياءِ والإعادَة.

استعمالُ فعلِ (الإماتةِ) في حقيقتِهِ ومَجازِه:

كـلُّ حـيٍّ يَموت فـلـيُـبـادر إلى الـتّـوبـةِ قـبـلَ الفَوْت

استعملَ النظمُ الكريمُ لفظَ (أماتَ) من قولِه تعالى: ﴿أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ في حقيقتِهِ ومَجازِهِ عندَ مُجوِّزيهِ؛ إذ: "منَ المَعْلوم بالضَّرورَةِ أنَّ الكَثيرَ الَّذي لا يُحْصَى مِنْ أفْرادِ النَّوْعِ الإنْسانيِّ قَدْ صارَ أمْرُهُ إلَى المَوْتِ، وأنَّ مَنْ هوَ حيٌّ آيلٌ إلَى المَوْتِ لا مَحالَةَ، فالمَعْنَى: (ثُمَّ أماتَهُ ويُميتُهُ)؛ فصيغَةُ المُضيِّ في قَوْلِه: ﴿أَمَاتَهُۥ﴾ مُسْتَعْمَلَةٌ في حَقيقَتِه وهوَ مَوْتُ مَنْ ماتَ، ومَجازِه وهوَ مَوْتُ مَنْ سَيَموتونَ؛ لِأنَّ مَوْتَهُمْ في المُسْتَقْبَلِ مُحَقَّقٌ"[4]. وعندَ مانعيهِ يكونُ من عُمومِ المجازِ؛

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 97.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 124.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 130.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 124.

إذ مَعنى ﴿أَمَاتَهُۥ﴾ قَدَرَ على إماتتِهِ، فيصدُق على مَن ماتَ ومَن لم يَمُت بعدُ، والغرضُ من التعبيرِ عمَّن لم يمُتْ بأنَّه ميّتٌ العِظَةُ للأحياءِ بوقوعِ الموتِ عليهم مُحقَّقاً، فليُبادروا قبلَ انتهاءِ الأجل إلى الإيمانِ والعمَلِ الصّالح.

التوطئةُ والإدماجُ في ﴿أَمَاتَهُۥ﴾:

الإقبارُ نِعمة، فالموتُ تمهيدٌ وتَوطِئَة

ذكرَ النظمُ الكريم فعلَ (الإماتة) في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾؛ لكونِهِ بمثابةِ التوطئةِ لفعلِ الإقبار، لأنَّ تعدادَ النِّعَم يتّسقُ مع الإقبارِ دونَ الإماتة، كما أفادَ ذكرُ الإماتةِ وإنْ لم تكن من النّعَم أنَّ الإماتةَ بعدَ الإحياء دليلٌ على صحّةِ الإحياءِ بعدَ الإماتة، "وَهَذا إدْماجٌ لِلامْتِنانِ في خِلالِ الِاسْتِدْلالِ كَما أُدْمِجَ ﴿فَقَدَّرَهُۥ ١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ فيما سَبَقَ"(1).

دلالةُ (الفاء) والغرضُ منها:

التفرقةُ بينَ (ثُمّ) و(الفاء) في الاستعمالِ، بالتعقيبِ والتَّراخي في الأفعالِ

عطفَ النظمُ الكريمُ الجملةَ الفعليَّة (أقبره) على ما قبلَها بـ(الفاء) في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾؛ للدِّلالة على التعقيب بلا مُهلةٍ؛ إذ الإقبارُ يكونُ بعدَ الإماتةِ على وجهِ السُّرعةِ؛ تكرمةً للميِّت ونعمةً تفضَّل اللهُ تعالى بها على عبادِهِ، فـ: "الإتيانُ بالفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَأَقۡبَرَهُۥ﴾؛ للإشارةِ بتعجيلِ دفنِ الميِّت عقبَ مَوتِه؛ فهي في مَوضعِها"(2).

دلالةُ الفعلِ (أقبرَ) مادّةً وصيغةً:

مِنَ النِّعَم الكِثار نِعمةُ الإقبار

عبّرَ النظمُ الكريم بالفعلِ الثلاثيِّ المَزيدِ بالهَمزة (أقبرَ) ماضياً في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾؛ للدِّلالة على تحقُّق وقوعِ الإقبارِ على سبيلِ القَطْع بالحصولِ وبدلالةِ المُشاهَدة، وجعلَهُ مُتعدّياً بالهمزة لإفادةِ معنى (التّصيير والجَعْل)، ولذا قالَ الفرّاءُ:

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 124.

(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1789.

"أيْ جَعَلَهُ مَقْبورًا، ولَمْ يَجْعَلْهُ مِمَّنْ يُلْقَى لِلطَّيْرِ والسِّباعِ، ولا مِمَّنْ يُلْقَى في النَّواويسِ"[1]، أي جعلَ الإنسانَ ذا قبرٍ، "والمرادُ منه أنَّه ﷻ أمرَ بدَفنِه ومكَّنَ منهُ، كما يَنطِقُ به مَعنى ﴿فَأَقۡبَرَهُۥ﴾"[2]. وهَذِهِ كُلُّها: "دَلائِلُ عَلَى عَظيمِ قُدْرَةِ اللّه تَعالَى، وهيَ تَتَضَمَّنُ مِنَنًا عَلَى النّاسِ في خَلْقِهِمْ وتَسْوِيَتِهِمْ، وإكْمالِ قواهُمْ أحْياءً، وإكْرامِهِمْ أمْواتًا بالدَّفْنِ؛ لِئَلّا يَكونَ الإنْسانُ كالشَّيْءِ اللَّقيِّ يَجْتَنِبُ بَنو جِنْسِهِ القُرْبَ مِنْهُ، ويُهينُهُ التِقامُ السِّباعِ وتَمْزيقُ مَخالِبِ الطَّيْرِ والكِلابِ، فمَحَلُّ المِنَّةِ في قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾ هوَ فيما فُرِّعَ عَلَيْهِ بالفاءِ بقَوْلِهِ: ﴿فَأَقۡبَرَهُۥ﴾، ولَيْسَتِ الإماتَةُ وحْدَها مِنَّةً"[3].

دلالةُ المجازِ المُرسَلِ في (أقبرَهُ):

مَهما طالَ العُمْرُ فلا بدَّ منَ القَبْرِ

عبّرَ النظمُ الكريمُ بالفعلِ الماضي (أقبرَ) في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾؛ مع أنَّ الإقبارَ والجعلَ لهم مَقبورينَ منهُ ماضٍ قد تحقّقَ ووقعَ، وبعضُهُ مستقبلٌ لم يتحقَّق بعد، فيكونُ التعبيرُ عمّا قد تحقّق فِعْلاً حقيقياً، ويكونُ التعبيرُ عمّا لم يقَعْ منه مَجازيًّا، والغرضُ من التعبيرِ عنِ الَّذي لم يقَعْ بصيغةِ الواقعِ الماضي الدلالةُ على أنَّ ذلك كائنٌ لا مَحالة؛ إذ كلُّ مخلوقٍ حادثٍ يموتُ على سبيل الكليَّة، ويُقبَرُ ويدفَنُ على سبيلِ الأغلبيَّة إنْ كان بالمعنى الحقيقيِّ للقبر، أوْ على سبيلِ الكليَّة أيضاً إنْ كان بالمعنى المجازيِّ لهُ. قال ابن عاشور: "والقَوْلُ في أنَّ صيغَةَ المُضيِّ مُسْتَعْمَلَةٌ في حَقيقَتِها ومَجازِها نَظيرُ القَوْلِ في صيغَةِ ﴿أَمَاتَهُۥ﴾"[4]، والَّذي يبدو أنَّ ذلك لا يتأتّى في ﴿فَأَقۡبَرَهُۥ﴾؛ لأنَّه بمعنى الأمرِ بالإقبارِ والتشريعِ له بالنصِّ

(1) الفراء، معاني القرآن: 3/ 237، والنّواويسُ: جَمْعِ ناووسٍ صُنْدوقٌ مِنْ حَجَرٍ أَوْ خَشَبٍ يوضَعُ فيهِ المَيِّتُ ويُجْعَلُ في بَيْتٍ أَوْ نَحْوِهِ.

(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1789.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 124.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 124.

أَوْ بالإلهام، وممّا لا شكّ فيه أنَّ ذلك التشريعَ أمرٌ قد قد تقرّرَ أزلاً، وأوضحَهُ المولى إلهاماً ووَحْياً.

الإسنادُ في (أقبَرَهُ) بينَ الحقيقةِ والمَجاز:

الـوقـوفُ على حقيقةِ الإقبـارِ يُـرجِّـحُ المقصودَ والاعتبار

ذهبَ العلّامة ابنُ عاشور إلى أنَّ إسنادَ الفعلِ (أقبر) في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ مجازيٌّ؛ فقال: "وَإِسْنادُ الإِقْبارِ إِلَى اللّٰه تَعالَى مَجازٌ عَقْلِيٌّ؛ لِأَنَّ اللّٰه أَلْهَمَ النّاسَ الدَّفْنَ؛ كَما في قِصَّةِ دَفْنِ أَحَدِ ابْنَيْ آدَمَ أَخاهُ بِإِلْهام تَقْلِيدِهِ لِفِعْلِ غُرابٍ حَفَرَ لِغُرابٍ آخَرَ مَيِّتٍ حُفْرَةً فواراهُ فيها، فَأُسْنِدَ الإِقْبارُ إِلَى اللّٰه؛ لِأَنَّهُ أَلْهَمَ النّاسَ إِيّاهُ، وأُكِّدَ ذَلِكَ بِما أَمَرَ في شَرائِعِهِ مِنْ وُجوبِ دَفْنِ المَيِّتِ"[1]. والَّذي يبدو أنَّ الإسنادَ حقيقيٌّ؛ لأنَّ المرادَ بـ(أقبره) جعلُهُ ذا قبر، أي أمرُهُ بأن يُقبَرَ في قَبرٍ، سواءٌ كان الأمرُ بالوحي أَوْ بالإلهام؛ وممّا لا شكَّ فيه أنَّ الأمرَ مسندٌ إلى اللّٰه تعالى حقيقةً، ولا يكونُ من قبيل الإسنادِ المجازيِّ؛ إلّا إنْ جعلنا (أقبرَ) بمعنى (دَفَنَ وقَبَرَ)، وذلك مُستبعَدٌ.

دلالةُ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِهِ: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾:

بـعـدَ تَـعـدادِ النِّعَمِ العَديدةِ يـتــمُّ إيــرادُ النّتيجة

عبَّرَ النظمُ الكريم بـ﴿ثُمَّ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾؛ للدِّلالةِ على تَراخي النَّشرِ عنِ الإماتةِ تراخياً فيه مهلةٌ طَويلة، وهذه المهلةُ ردٌّ على المشركينَ الّذين يَرَونَ في عدمِ التعجيلِ بالبعثِ والنَّشرِ بعدَ الإماتةِ دليلاً على انتفاءِ وُقوعِهِ مُستقبلاً، معَ أنَّ هذا الإمهالَ الزمنيَّ راجِعٌ إلى حِكَم عظيمة ومصالحَ عديدةٍ يحارُ العقلُ فيها، ورأى ابنُ عاشور أنَّ هذا الجملةَ المعطوفةَ: "رُجوعٌ إِلَى إِثْباتِ البَعْثِ، وهِيَ كالنَّتيجَةِ عَقِبَ الِاسْتِدْلالِ"[2].

دلالةُ التعليق بـ﴿إِذَا﴾ والغرضُ منها:

عبّر النظمُ الكريم بالظرفِ ﴿إِذَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 124.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 125.

المَشيئةُ والنّشر مُتحقِّقانِ على سبيلِ التعليقِ بالحَصْر

﴿أَنشَرَهُۥ﴾؛ للدِّلالة على الظرفيَّةِ الزمنيَّة الاستقباليَّة المتحقِّقةِ الوقوع؛ لأنَّ (إذا) ظرفٌ لما يُستقبَلُ منَ الزّمان مُتضمِّنٌ لمعنى الشَّرط، فيفيدُ تعليقَ وقوعِ النّشر المُستقبل على تحقُّقِ وقوعِ المشيئةِ في المستقبلِ أيضاً بطريقِ التحقيقِ، بخلافِ (إنْ) الشَّرطيّةِ الدالّةِ على التعليقِ بالحُصولِ على سبيلِ الفرضِ والشكِّ. قال ابنُ عاشور: "وَ(إذا) ظَرْفٌ لِلْمُسْتَقْبَلِ؛ فَفِعْلُ المُضيِّ بَعْدَها مُؤَوَّلٌ بالمُسْتَقْبَلِ، والمَعْنَى: ثُمَّ حينَ يَشاءُ يُنْشِرُهُ، أيْ يُنْشِرُهُ حينَ تَتَعَلَّقُ مَشيئَتُهُ بإنْشارِهِ"[1]، والغرضُ من التعليقِ الاستقباليِّ لكلٍّ منَ النّشر والمَشيئة الإعلامُ بتحقُّقِ الوقوعِ المستقبليّ على سبيلِ القطعِ بالحُصول.

دلالةُ التعليقِ للإنشارِ على فعلِ المَشيئةِ:

تعليقُ النّشر بالمَشيئة للردِّ على دَعوى المُشركينَ العَريضة

قيّدَ النظمُ الكريمُ الإنشارَ بفعلِ المَشيئة في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾؛ للدِّلالة على تحديدِ وقتِ النَّشر بالمشيئةِ له عندَ وقوعِها. بقي أنّ جميعَ الأفعالِ السّابقة منَ (الخلْقِ والتقديرِ والتّيسير والإماتةِ والإقبارِ) متوقفةٌ على المشيئةِ أيضاً، فتخصيصُ النّشر بذلك للردِّ على التعجيلِ له من المشركينَ نَفْياً له، ولذا قالَ ابنُ عاشور: "إذْ كانوا يَطْلُبونَ تَعْجيلَ البَعْثِ تَحَدّيًا وتَهَكُّمًا؛ لِيَجْعَلوا عَدَمَ الِاسْتِجابَةِ بتَعْجيلِهِ دَليلًا عَلَى أنَّهُ لا يَكونُ، فأعْلَمَهُمُ اللّه أنه يَقع عِنْدَما يَشاءُ اللّه وُقوعَهُ، لا في الوَقْتِ الَّذي يَسْألونَهُ؛ لِأنَّهُ مَوْكولٌ إلَى حِكْمَةِ اللّه، واسْتِفادَةِ إبْطالِ قَوْلِهِمْ مِنْ طَريق الكِنايَةِ"[2]، في حينِ أنَّهم لم يَسألوا عن وقتِ وقوعِ تلك الأفعال، ولم يشكّوا في وقوعِها، فلم تقيَّدْ بالمشيئةِ، وإنْ كانَ كلُّ فعلٍ راجعاً إلى مشيئتِهِ وإرادتِهِ سُبحانَه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 125.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 126.

دلالةُ الفعلِ (أنشَرَ) مادّةً وصيغةً:

فتحُ المُخبَّأ المَطويّ هو الإنشارُ الحقيقيّ

عبَّر النظمُ الكريم بفعلِ (الإنشار) ماضياً مَزيداً بالهمزةِ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾؛ للدّلالة على أنَّ ذلك الإنشارَ والإحياءَ والبعثَ المُستقبليَّ مُتحقّقُ الحصول لا يتوقّفُ إلّا على مشيئتِهِ وإرادتِهِ تعالى، فلا يجبُ عليه وقوعُهُ كما لا يمتنعُ صدورُه منه، وإنَّما زيدتِ (الهمزة) للدّلالة على أنَّه نشرٌ مخصوصٌ، وهو إخراجُ الأمواتِ المُخبّأة المطويَّة من قُبورها، إذ: "أَنْشَرَهُ بَعَثَهُ مِنَ الأَرْضِ، وأَصْلُ النَّشْرِ إِخْراجُ الشَّيْءِ المُخَبَّأ، يُقالُ: نَشَرَ الثَّوْبَ، إِذْ أزالَ طَيَّهُ، ونَشَرَ الصَّحِيفَةَ، إذا فتَحَها ليَقْرَأها، وأما (الإنشار) بالهَمْز فهوَ خاصٌّ بإِخْراجِ المَيِّتِ مِنَ الأَرْضِ حَيًّا وهوَ البَعْثُ، فيَجوزُ أَنْ يُقالَ: نُشِرَ المَيِّتُ"[1]. فالنّشرُ خلافُ الطيِّ؛ فيكونُ (الإنشارُ) مُتضادّاً مع (الإقبارِ) الّذي يدلُّ على أنَّ الميّت صارَ مَطْويًّا داخلَ القبر كالصَّحيفة المُخبَّأة المَطويَّة، فتُنشرُ من طيِّها وتُستخرَجُ من خَبيئَتِها. بقي أنَّ الغرضَ من الإنشارِ هو الحسابُ، فيكون كنايةً عنهُ من قبيلِ ذكرِ المَلزومِ وإرادةِ لازمِه.

دلالةُ التقابلِ بينَ الأفعالِ (خلقَ وقدَّرَ ويسَّر، وأماتَ وأقبَرَ وأنشَرَ):

التقابلُ بينَ المَبدأ والمَعادِ يَستلزمُ التعبيرَ بالمُتضادّات

عبَّرَ النظمُ الكريم بستّةِ أفعالٍ في قولِهِ تعالى: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ للدّلالة على المَبدأ والمَعاد وما بينَهُما: فوقعَ تقابلٌ بين (خلق وأمات)؛ إذ الخلقُ دالٌّ على الإيجادِ، والإماتةُ دالّةٌ على الإعدامِ والإفناء، والغرضُ من التقابلِ بينهما إثباتُ قدرةِ اللّه تعالى على الإيجادِ والإعدام، وهو أوضحُ دليلٍ على صحَّة الحشرِ والبعثِ بعدَ الموت. ثمَّ قابلَ بين (قدَّر وأقبرَ) إذ التقديرُ وضعُ الأشياءِ في مَوضِعِها بتنظيمٍ وتقديرٍ وترتيب، والإقبارُ طورٌ من أطوار التقدير.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 126.

وقابلَ ابنُ عاشور بينَ (السَّبيل والإقبار) بقوله: "وَفيهِ مُناسَبَةٌ لِقَوْلِه بَعْدَهُ ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾، فـ﴿أَمَاتَهُۥ﴾ مُقابلٌ ﴿خَلَقَهُۥ﴾، و(أَقْبَرَهُ) مُقابلُ ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾؛ لِأَنَّ الإِقْبارَ إِدْخالٌ في الأَرْضِ وهوَ ضِدُّ خُروجِ المَوْلودُ إِلَى الأَرْضِ"[1]. ثمَّ قابلَ بينَ (يسَّر وأنشَرَ)؛ إذ التيسيرُ للعمل والطريقِ يترتّبُ عليهِ الجزاءُ والنشرُ يترتّبُ عليه الحساب أيضاً، فيجازيهِ على عملِهِ الَّذي يسَّرَهُ له.

الإطنابُ في الجَوابِ:

الـغـرَضُ مـن الـسُّـؤال عن أصـلِ الخِـلقة إثـبـاتُ وقـوعِ القيامة

أطنبَ النظمُ الكريمُ في جوابِ الاستفهام التقريريِّ الواردِ في قولِهِ تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾؛ إذ كانَ الجوابُ بقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ مُساوياً للسُّؤال، لكنَّ النظمَ أطنبَ فتكلَّم عن التقديرِ والتيسيرِ والإماتةِ والإقْبارِ والإنشار؛ لأنَّ الغرضَ من السُّؤالِ عن أصلِ خلقتِهِ الاستدلالُ على صحّةِ الإحياءِ بعدَ المَوت، فأوردَ في الجوابِ أحوالاً لو تفكَّر فيها علم أنَّ للّه تعالى قدرةً على الحشر والبعثِ بعدَ الموتِ لا مَحالة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(أقبرَ) و(قبرَ):

أقــــبرَ أخــصُّ مُطلقاً مِن قَبَرَ

قبرَهُ دفنه بالفعل؛ لأنَّ القابرَ هو الدافنُ بيدِه، والمُقبرُ هو اللّه؛ لأنَّه صيَّره ذا قبر، وليس فعلُه كفعلِ الآدميِّ، والعربُ تقول: (بترتُ ذنَبَ البعير)، و(اللّه أبترَهُ)، و(عَضبْتُ قرنَ الثور)، و(اللّه أعضَبَه)، و(طردتُ فلانًا عنّي)، و(اللّه أطرَدَه) أي: صيَّره طريدًا[2]. فأَقْبَرَهُ أَخَصُّ مِنْ مَعْنَى قَبَرَهُ، أيْ أنَّ اللّه سَبَّبَ لَهُ أنْ يُقْبَرَ، والإِقْبارُ: تَهْيِئَةُ القَبْرِ، ويُقالُ: أقْبَرَهُ أيْضًا، إذا أمَرَ بأنْ يُقْبَرَ، ويُقالُ: قَبَرَ المَيِّتَ، إذا دَفَنَهُ، فالمَعْنَى: أنَّ اللّه جَعَلَ النّاسَ ذَوي قُبور، ولذا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 123.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 23/ 225، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 130.

عبّر النظمُ الكريمُ بالفعل (أقبرَ) المَزيدِ بالهمزةِ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ دونَ الفعلِ المجرَّد (قبرَ)؛ لدلالة الأخيرِ على مُباشرةِ الدّفن، بخلاف الإقبارِ فإنَّه الأمرُ به والدَّعوة له والإلهامُ به.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ٢٣﴾ [عبس: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

رَدْعُ المُستكبرين وإنكارُ دَعاوى المُكَذّبين

لمّا ذكر النظم حال المنكرين لدلائل النشر والبعث، والاستمرار على الكفر والعصيان، مع الادعاء بأنَّه ينفذ ما أمر اللّه به ويتحدَّى وقوع النشر بعدم عودة أحد من الموت؛ ناسب أن يزجر النظم أولئك المكذبين ويعمد إلى إبطال دعواتهم وأباطيلهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَقۡضِ﴾: قَضَى: القافُ والضّادُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ أَصْلٌ صحيحٌ يدلُّ على إحكام أمرٍ وإتقانِه وإنفاذِه لجِهَتِه[1]، وقَضَيتُ بينَ الخصمين وعليهما: حَكَمْتُ، وقضيتُ وطَري: بَلَغْتُه ونِلْتُهُ[2]، فهو الإنهاءُ في قولٍ أَوْ عملٍ، بمعنى الإتمام والبلوغِ إلى النّهايةِ فيهما[3]. والمرادُ به في الآيةِ: لم يتمَّ ويُكمِلِ الإنسانُ ما يَجِبُ عليهِ فعلُه بشكل تامّ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

عدمُ التأمُّلِ في الدّلائل جرّ إلى الرّدعِ والإنكارِ للبَواطِلِ

المعنى: "أنَّ الإنسانَ لم يقضِ ما أمرَهُ بهِ ربُّه منَ التأمُّل في دلائلِ قُدرته، والتدبّرِ في مَعالم هذا الكونِ المُنبئةِ بوحدانيّةِ خالِقِهِ، النّاطقةِ بأنَّ لها موجدًا يَستحقُّ أنْ يَقصِدَهُ وحدَهُ دونَ سِواه، ويتوجه إليه بالعبادة والامتثال إلى ما يأمره به"[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفصلِ في ﴿كَلَّا﴾

فصلَ النظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ﴾ عمّا قبلَه،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قضى).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (قضى).
(3) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 9/ 269.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 132.

تَميُّزُ الجوابِ عن السُّؤالِ دالٌّ على شدَّةِ الإبطال

ويختلفُ الغرضُ من الفصلِ باختلافِ التأويلِ في دلالةِ ﴿كَلَّا﴾ وتحديدِ المُنكَر بها: فمَن ذهبَ إلى أنَّها للرّدعِ والزّجرِ والإنكار؛ يَجْعَلِ: "الرَّدْعَ مُتَوَجِّهًا إلَى ما قَبْلَ ﴿كَلَّا﴾ ممّا يومئُ إلَيْهِ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾، أيْ إذا شاءَ اللّٰه؛ إذْ يومئُ إلَى أنَّ الكافِرَ يُنْكِرُ أنْ يَنْشُرَهُ اللّٰه، ويَعْتَلُّ بأنَّهُ لم ينشر أحداً مُنْذُ القِدَمِ إلَى الآنَ، ومَوْقِعُ كَلّا عَلَى هَذا التَّأْويلِ مَوْقِعُ الجَوابِ بالإبْطالِ، ويكونُ عَلَى هَذا تَأْكيدًا لِلْإبْطالِ الَّذي في قَوْلِهِ: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ باعْتِبارِ مَعْناهُ الكِنائيِّ إنْ كانَ صَريحُ مَعْناهُ غَيْرَ باطِلٍ"[1]، وإلى هذا المَعنى ذهبَ ابنُ كثير[2]. ومِنْهُم من يَجْعَلِ الرَّدْعَ مُتَوَجِّهًا إلَى ما بَعْدَ ﴿كَلَّا﴾ ممّا يومئُ إلَيْهِ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ أيْ لَيْسَ الأمْرُ كَما يَقولُ هَذا الإنْسانُ الكافِرُ مِنْ أنَّهُ قَدْ أدَّى حَقَّ اللّٰه الَّذي نَبَّهَهُ إلَيْهِ بدَعْوَةِ الرُّسُلِ، وإليه ذهبَ ابنُ جرير[3]، وهوَ أقْرَبُ؛ لِأنَّ ما بَعْدَ ﴿كَلَّا﴾ لَمّا كانَ نَفْيًا ناسَبَ أنْ يُجْعَلَ ﴿كَلَّا﴾ تَمْهيدًا لِلنَّفْيِ، ومَوْقِعُ ﴿كَلَّا﴾ عَلَى هَذا الوَجْهِ أنَّها جُزْءٌ مِنَ اسْتِئْنافٍ، وقُدِّمَتْ ﴿كَلَّا﴾ في صَدْرِ الكَلامِ الوارِدَةُ لِإبْطالِهِ؛ لِلِاهْتِمامِ بمُبادَرَةِ الزَّجْرِ"[4]. ومَن رأى أنَّ ﴿كَلَّا﴾ بمعنى (حقّاً) فتكونُ الجملةُ استئنافاً ابتدائيًّا، وذهبَ الهرريّ إلى أنَّ الجملةَ تأكيدٌ لكُفرانِ الإنسانِ بالنِّعَم[5].

مَعنى ﴿كَلَّا﴾ والغرضُ منها:

الإثباتُ والإبطال مُقرَّرانِ للتمرُّدِ على ذي الجَلال

عبَّر النظمُ الكريم بالحرفِ ﴿كَلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾، وهو: "حَرْفُ رَدْعٍ وإبْطالٍ لِشَيْءٍ يَسْبِقُهُ غالِبًا في الكَلامِ، يَقْتَضي رَدْعَ المَنْسوبِ إلَيْهِ وزجرَهُ، وإبْطالَ ما نُسِبَ إلَيْهِ وإنكارَهُ"[6]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 127.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 323.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 225.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 127.
(5) الهرري، حدئق الروح والريحان: 31/ 131.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 11.

ولمّا كانتْ ﴿كَلَّا﴾ في النّظم هنا غيرَ مُتعيِّنِ المَردوعُ فيها ولا الكلامُ المُبطَلُ فيها صَريحاً أوْ مَضموناً، اختلفَ المفسِّرون في تحديدِ معناها على قولينِ أوّلاً، وتحديدِ المُنكَر والمَزجورِ فيها ثانياً على الآتي:

أوّلاً: التزمَ جمهورُ البصريّينَ مَعنى (الرَّدعِ والإبطال)، لكّنهم اختلَفوا في تحديدِ الكلامِ المُنكَر في النّظم على ما يَأتي:

"جعْلُ الرَّدْعِ مُتَوَجِّهًا إِلَى ما قَبْلَ ﴿كَلَّا﴾ ممّا يومئُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾، أَيْ إذا شاءَ اللَّه، إذْ يومىء إِلَى أَنَّ الكافِرَ يُنْكِرُ أَنْ يَنْشُرَهُ اللَّه، ويَعْتَلُّ بأنَّهُ لم ينشرْ أحداً مُنْذُ القِدَمِ إِلَى الآنَ"[1]، فيكون ﴿كَلَّا﴾ زجراً وردعاً لمُنكِرِ البعث، وإبطالاً وإنكاراً لما نُسِبَ إليهِ من إبطالِ النّشر ممّا يَتصوّرُهُ وهماً منهُ استدلالاً.

جعلُ الزّمخشريِّ[2] ومَن تَبِعَهُ[3] الرَّدْعَ لِلْإِنْسانِ عَمّا هوَ عَلَيْهِ، "أَيْ مِمّا ذُكِرَ قَبْلَهُ مِنْ شِدَّةِ كُفْرِهِ واسْتِرْسالِهِ عَلَيْهِ دونَ إقْلاعٍ، ويُريدُ أَنَّه زجرٌ عَن مَضْمونِ: ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾.

توجيهُ ابنِ عاشورٍ وهو يَتّسقُ معَ توجيهِ ابنِ عطيّة[4] أَنَّهُ يَجوزُ أَنْ تَكونَ زَجْرًا عَمّا يُفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ المُكَنَّى بِهِ عَنْ فسادِ اسْتِدْلالِهِمْ بتَأْخيرِه، عَلَى أَنَّهُ لا يَقَعُ، فيَكونُ الكَلامُ عَلَى هَذا تَأْكيدًا لِلْإِبْطالِ الَّذي في قَوْلِهِ: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ باعْتِبارِ مَعْناهُ الكِنائيِّ إذْ كانَ صَريحُ مَعْناهُ غَيْرَ باطِلٍ، فقَوْلُهُ: ﴿إِذَا شَآءَ﴾ مُؤْذِنٌ بأَنَّهُ الآنَ لَمْ يَشَأْ، وذَلِكَ مُؤْذِنٌ بإبْطالِ أَنْ يَقع البَعْث عِنْدَ ما يَسْألونَ وُقوعَهُ، أَيْ إِنّا لا نَشاءُ إِنْشارَهُمُ الآنَ، وإِنَّما نَنْشُرُهُمْ عِنْدما نَشاءُ مِمّا قَدَّرْنا أَجَلَهُ عِنْدَ خَلْقِ العالَمِ الأَرْضيِّ. ويَجوزُ أَنْ يَكونَ زَجْرًا عَمّا أفادَهُ قَوْلُهُ: ﴿لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾، وقُدِّمَتْ ﴿كَلَّا﴾ في صَدْرِ الكَلامِ الوارِدَةُ لِإِبْطالِهِ؛ لِلاهْتِمامِ بمُبادَرَةِ الزَّجْرِ"[5].

توجيهُ الرّدعِ إِلَى ما بَعْدَ ﴿كَلَّا﴾ فقط، مِمّا يومئُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ أَيْ لَيْسَ الأَمْرُ كَما يَقولُ هَذا الإِنْسانُ الكافِرُ مِنْ أَنَّهُ قَدْ أَدَّى حَقَّ اللَّه الَّذي نَبَّهَهُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 127.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 703.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 58، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 287، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 131.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 439.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 128.

إلَيْهِ بدَعْوَةِ الرُّسُلِ وبإيداعِ قوَّةِ التفكيرِ فيهِ، وهوَ أقْرَبُ؛ لأنَّ ما بَعْدَ ﴿كَلَّا﴾ لَمّا كانَ نَفْيًا ناسَبَ أنْ يُجْعَلَ ﴿كَلَّا﴾ تَمْهيدًا لِلنَّفْيِ"[1]. وعلى كلِّ هذه التوجيهاتِ فإنَّ (كَلّا) للزّجرِ والإبطالِ لمَنْ تمرَّدَ على ذي الإكرامِ والجَلالِ.

ثانيًا: مذهبُ الكِسائيِّ أنَّ (كَلّا) بمَعْنَى: حَقًّا[2]، ووافَقَهُ ثَعْلَبٌ وأبو حاتم السِّجِسْتانيُّ القائِلُ: تَكونُ (كَلّا) بمَعْنَى (ألا) الاسْتِفْتاحيَّةِ، والنَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ والفَرّاءُ القائِلانِ: تَكونُ (كَلّا) حَرْفَ جَوابٍ بمَعْنَى (نَعَمْ)، فتكونُ ﴿كَلَّا﴾ هنا للإثباتِ والتأكيدِ على أنَّ الإنسانَ لم يقضِ جميعَ ما أمرَهُ اللّه تعالَى به، وهذا الإثباتُ يصبُّ في تقصيرِ الإنسانِ الغَويِّ، وأنَّه مُتمرِّدٌ على مَولاهُ الغنيِّ.

الوقفُ على ﴿كَلَّا﴾ ودِلالتُهُ:

أثَرُ مَعنى المَقالِ في تحديدِ الوَقْفِ والاسْتِرسالِ

عبَّرَ النظمُ الكريمُ بلفظِ ﴿كَلَّا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾، ويَنبني الوقفُ على ﴿كَلَّا﴾ باعتبارِ تحديدِ مَعناها؛ فمَن ذهبَ إلى أنَّها للرَّدعِ والإبطالِ فإنّه يُجيزُ الوقفَ عليها والاسترسالَ. وأمّا مَن رأى أنَّها تكونُ بمَعنى (حقّاً) أوِ استفتاحاً فإنَّه يوجِبُ الاسترسالَ، ويَرى قُبحاً في الوقفِ عليها؛ لما فيهِ من إيهامِ الاستئنافِ لما بعدَها معَ أنَّها جزءٌ منهُ، قالَ الهرريّ: "وقالَ الحسنُ: حقًّا لم يَفعَلْ ما أمَرَه به، فـ﴿كَلَّا﴾ بمَعنى: حقًّا، قال ابنُ الأنباري: فالوقفُ على ﴿كَلَّا﴾ حينئذٍ قبيح، فيكونُ ﴿كَلَّا﴾ تابعًا لما بعدَهُ، فالوقفُ على ﴿مَآ أَمَرَهُۥ﴾ حينئذٍ"[3].

دلالةُ الفصلِ في ﴿لَمَّا﴾:

الـرّدعُ والإبطالُ يحتاجُ لتعليلٍ عندَ الاستدلالِ

فصلَ النظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ عمّا قبلَهُ؛ للدِّلالة إمّا على الاستئنافِ البيانيِّ التعليليِّ للرَّدعِ عن استحالةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 127.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 23/ 226.

(3) ابن عادل، اللباب: 20/ 163، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 132.

النَّشر؛ بناءً على أنَّ (كلّا) إبطالٌ لما يراهُ مُنكرُ النَّشر، وقد نشأ: "عَنْ مَضْمونِ جُمْلَةِ: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ إلَى قَوْله: ﴿أَنشَرَهُۥ﴾، أيْ إنَّما لَمْ يَهْتَدِ الكافِرُ إلَى دِلالَةِ الخَلْقِ الأوَّلِ عَلَى إمْكانِ الخَلْقِ الثّاني، لِأنَّهُ لَمْ يَقْضِ حَقَّ النَّظَرِ الَّذي أمَرَهُ اللّه"[1]. أوْ للدِّلالة على الاستئنافِ البيانيِّ التعليليِّ أيضاً؛ للردِّ عن قضاءِ ما أمرَ اللّه به من الطّاعات، قال أبو السُّعود: "بيانٌ لسببِ الرّدعِ والزَّجر، أي: لأنَّه لم يفعلِ الإنسانُ المذكورُ من أوّلِ مدَّةِ تكليفِهِ إلى حينِ إقبارِهِ ما أمرَه اللّه به ممّا فرضَهُ اللّه عليه من الإيمانِ والطّاعة، ولم يُؤدِّ ولم يَعرِفْ ولم يَعمَلْ به"[2].

دلالةُ ﴿لَمَّا﴾ والغرضُ مِنها:

توقُّعُ ثبوتِ المَنفيِّ دالٌّ على رحمةِ الغنيِّ

عبَّرَ النظمُ الكريمُ بـ﴿لَمَّا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾؛ للدِّلالة على: "نَفْيِ الفِعْلِ في الماضي مِثْلَ (لَمْ)، ويَزيدُ بالدِّلالَةِ عَلَى اسْتِمْرارِ النَّفْيِ إلَى وقْتِ التَّكَلُّمِ، كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: 14]. والمَقْصودُ أنَّهُ مُسْتَمِرٌّ عَلَى عَدَمِ قضاءِ ما أمَرَهُ اللّه ممّا دَعاهُ إلَيْهِ"[3]، قالَ القونويّ: "(لمّا) نافيةٌ جازمةٌ، وأنَّ نفيَها مُستمِرٌّ غيرُ مُنقطِعٍ، ولذا اخْتيرَ (لمّا) عَلَى (لم)"[4]، لكنَّ النفيَ بـ﴿لَمَّا﴾ يُشعِرُ بتوقُّعِ ثبوتِ ما بعدَها، الدالِّ على أنّ الإنسانَ سوف يَقضي ما أمرهُ اللّه به مستقبلاً، ولذا توجَّه بعضُهم إلى منعِ دلالةِ التوقُّع، أو إنكارِ أنَّها (لمّا) النافية، بل هي (لم) النافية ودخلَتْ عليها (ما) المُؤكّدة، فصارت (لمّا) فهي بمعنى (لم) وليسَ فيه مَعنى التوقُّع"[5]، ويمكنُ أنْ يقالَ: إنَّ التوقُّعَ أغلبيٌّ، والظاهرُ أنَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 127.
(2) حدائق الروح والريحان: 31/ 131.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 128.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 99.
(5) ابن عادل، اللباب: 20/ 163، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 132.

معنى التوقُّعِ مرادٌ للآية، لما للقرآن من حثٍّ على الطّاعة؛ وعدم التيئيسِ من رحمةِ اللّه بقضاءِ ما أمرَهُ اللّه به. وأمّا لو جعلنا ﴿كَلَّا﴾ للردِّ والإنكارِ لما يقولُهُ منكرُ النّشر؛ فإنَّ دلالة التوقُّع ظاهرة؛ لأنّه لم يقض إلى الآنَ وقتَ النّشر، أي لم يأتِ وقتُهُ إلى الآن، وسوفَ يَقضيهِ مُستقبلاً، أي سوف يقعُ ذلك الأمرُ الموعودُ.

دلالةُ الفعلِ ﴿يَقۡضِ﴾ مادّةً وصيغةً:

استمرارُ القُصور إلى يومِ النُّشور

عبَّر النظمُ الكريم بفعلِ (القَضاء) مُضارِعاً في قولِهِ تعالى: ﴿لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾؛ للدِّلالةِ بصيغتِهِ على نفي القضاءِ على سبيلِ التجدُّدِ والاستمرار؛ فإنْ كانَ القضاءُ لما أمرَ بمعنى الإتيانِ بالنّشر؛ فإنَّ عدمَ ذلك الإتيانِ متجدّدٌ مستمرٌّ إلى زمنِ الأمرِ به، وإنْ كان القضاءُ بمعنى عدم تأديةِ الإيمانِ والطّاعات المأمور بها الإنسانُ، فإنَّ ذلك مُستمرٌّ متجدِّدٌ من لدنِ آدمَ عليه السلام إلى زمن الكلامِ والقيامِ لربِّ العالمين، فالنفيُّ على سبيلِ التجدّدِ الاستمراريِّ، وللدِّلالة بمادّتِه الموضوعة على: "فِعْلِ ما يَجِبُ عَلَى الإِنْسانِ كامِلًا؛ لِأَنَّ أَصْلَ القَضاءِ مُشْتَقٌّ مِنَ الإِتْمامِ، أَيْ لَمْ يَزَلِ الإِنْسانُ الكافِرُ مُعْرِضًا عَنِ الإيمانِ الَّذي أَمَرَهُ اللّه بِهِ، وعَنِ النَّظَرِ في خَلْقِهِ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ تَطَوُّرِهِ أَطْوارًا إِلَى المَوْتِ، وما أَمَرَهُ مِنَ التَّدَبُّرِ في القُرْآنِ ودَلائِلِه، ومِنَ الدَّلائِلِ نَظَرُهُ في كَيْفِيَّةِ خَلْقِهِ فإِنَّها دَلائِلُ قائِمَةٌ بذاتِه، فاسْتَحَقَّ الرَّدْعَ والزَّجْرَ"[1].

تحديدُ مرجعِ الضَّميرِ في ﴿يَقۡضِ﴾:

لا يَخلو أحدٌ من تَقصير، وهو بتفضُّلِهِ على مَن يشاءُ قَدير

أضمَرَ النظمُ الكريمُ الفاعلَ في ﴿يَقۡضِ﴾ من قولِهِ تعالى: ﴿لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾، واختُلِفَ في تحديدِ مرجعِهِ أولاً، وعُموماً وخُصوصاً ثانياً على أقوالٍ، هي:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 128.

أوّلاً: إنَّهُ راجعٌ إلى مُطلقِ (الإنسان) بمعونةِ السّياق، وعلى أنَّ ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ وإنكارٌ لما بعدَها، فالمرادُ به مُطلَقُ (الإنسان) المُؤمِن والكافِر، والمعنى: أنَّه لم يقضِ كلُّ إنسانٍ على سبيلِ الاستغراقِ الكليِّ لجميعِ ما أمرَهُ اللّه تعالى به من الإيمانِ والطّاعاتِ معاً بالنِّسبة للكافر، أوْ منَ الطّاعات فقط بالنِّسبةِ للمُؤمن، إذ لا يَخلو أحدٌ من تقصيرٍ أوْ زلّة. قالَ الطّيبيُّ: "لم يَقضِ أحدٌ جميعَ ما كانَ مَفروضاً؛ لأنَّ الإنسانَ لا ينفكُّ عن التقصير"[1]، وقالَ الكلبيُّ: "ليسَ أحدٌ قضَى ما أمرَهُ اللّه به، وعلى هذا هو على العُموم؛ لأنَّه لم يقضِ أحدٌ من الخلقِ كلَّ ما أُمِرَ به"[2]، ونسبَهُ الرازيُّ إلى مُجاهد أيضاً، وضعّفَه بقوله: "وَهَذا التَّفْسيرُ عِنْدي فيهِ نَظَرٌ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَمَّا يَقۡضِ﴾ الضَّميرُ فيهِ عائِدٌ إِلَى المَذْكورِ السّابِقِ، وهوَ الإِنْسانُ في قَوْلِهِ: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾، ولَيْسَ المُرادُ مِنَ الإِنْسانِ هاهُنا جَميعَ النّاسِ، بَلِ الإِنْسانُ الكافِرُ فقَوْلُهُ: ﴿لَمَّا يَقۡضِ﴾ كَيْفَ يُمْكِنُ حَمْلُهُ عَلَى جَميعِ النّاسِ؟ ويَكونَ المَعْنَى أَنَّ الإِنْسانَ المُتَرَفِّعَ المُتَكَبِّرَ لَمْ يَقْضِ ما أُمِرَ بِهِ مِنْ تَرْكِ التَّكَبُّرِ، إذ المعنى أنَّ ذلك الإنسانَ الكافر لمّا يَقْضِ ما أُمِرَ بِهِ مِنَ التَّأَمُّلِ في دَلائِلِ اللّه، والتَّدَبُّرِ في عَجائِبِ خَلْقِهِ وبَيِّناتِ حِكْمَتِهِ"[3].

ثانيًا: إنَّهُ راجعٌ إلى ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ الكافِرِ في قولِهِ تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾، وضعّفه القونويُّ بقولِهِ: "الظاهرُ أنّه سلبٌ كليٌّ بالنِّسبة إلَى الإنْسان، وسلبٌ جزئيٌّ بالنِّسبة إلَى ﴿مَآ أَمَرَهُۥ﴾، ولذا قال البيضاوي: "إذ لا يخلو أحدٌ عن تقصيرٍ مّا"[4]، أي لم يقضِ أحدٌ جميعَ ما كان مفروضًا عليه عَلَى وجهِ ما أمرَهُ اللّه تَعالَى، وأنَّ الإنْسانَ لا يخلو عن تقصيرٍ مّا؛ فإنَّ الأنْبياء عليهم السلام قد كانتْ منهُم زلّات، وقد صرَّح أربابُ علْم الكَلام أنّه يجوزُ عنهم صدورُ الصَّغائرِ الغيرِ المُنفِّرة سَهْوًا بالاتفاق، وعَمْدًا عندَ بعضِهم، وأمّا غيرُهُم فالأمرُ فيهم ظاهرٌ، فلا وجهَ لما قالَهُ الإمام الفخرُ من أنَّ: هذا المَعْنَى عندي فيهِ نظرٌ"[5].

ثالثًا: نَّه راجعٌ إلى اللّه تعالى، قالَ الأُسْتاذُ أبو بَكْرِ بْنُ فورَكٍ: "كَلّا لَمْ يَقْضِ اللّه لِهَذا

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 298 - 299.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 23/ 226.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 59، وابن عادل، اللباب: 20/ 163.

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 287.

(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 99.

الكافِرِ ما أَمَرَهُ به من الإيمانِ وتركِ التكبُّرِ، لأَمَرِهِ بما لَمْ يَقْضِ لَهُ بهِ"[1]، أي لم يقضِ اللّه لهُ ما أمرَهُ به، ولو قَضَى عليه ولهُ ما أمرَهُ به لما عصاهُ"[2]. وكذا على أنَّ ﴿كَلَّا﴾ للرّدعِ والإنكارِ لعدمِ النَّشر؛ فإنَّ الضّميرَ يعودُ إلى اللّه تعالى، أي لم يقضِ بالنّشرِ لما أمرَ به من النّشرِ إلى الآنَ.

دلالةُ ﴿مَآ﴾ والغرضُ مِنها:

دلالـةُ العُموم أرجَـحُ مـن تـخـصـيـصِ المَفهوم

عبَّرَ النظمُ الكريم بـ﴿مَآ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾؛ للدِّلالة على العُموم والإبهامِ النّاشِئِ من الاسمِ المَوصول، فقيلَ المرادُ بها: "ما عُهد إليه من الميثاق الأوّل في التوحيدِ، وهو قولُ عطاءٍ عن ابنِ عبّاس ومُقاتلٍ"[3]، وذهب مجاهدٌ إلى أنَّ المرادَ جميعُ ما أمرَ اللّه به ونَهَى عنه[4]؛ فإنْ كان المرادُ الأوّلَ فإنَّه يُرشِّحُ إرادةَ الكافرَ في ﴿يَقۡضِ﴾؛ لصُدور الإيمانِ من العديدِ منَ الأفراد، وإنْ أُريدَ الثاني فيترشّحُ إرادةُ الاستغراقِ الكليّ، والراجحُ إرادةُ العُموم المناسبُ لـ﴿مَآ﴾، ولذا قالَ مجاهدٌ والكلبيُّ: لا يخلو أحدٌ من تقصيرٍ[5].

دلالةُ جملةِ الصّلةِ ﴿أَمَرَهُۥ﴾ مادّةً وصيغةً:

مُخالفةُ الأوامِرِ مُـسـتـلـزِمـةٌ لـلـــرَّوادعِ والزَّواجر

عبَّر النظمُ الكريمُ بالجملةِ الفعليَّة ﴿أَمَرَهُۥ﴾ صلةً للموصولِ في قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾؛ للدِّلالة على علّةِ صدورِ الّردعِ والزَّجرِ والإبطال؛ إذ لم يلتزم كلُّ إنسانٍ بكلِّ ما صدرَ من أوامرِ الإيمان والطّاعات، وإنِ التزمَ البعضُ بالبعضِ منها، فلا يَخلو أحدٌ من تقصيرٍ، والأمرُ هنا بمعنى التكليفات؛ سواءٌ كانتْ أمراً أَوْ نَهْياً ولو خلافَ الأوْلى أَوْ سَهْواً، والتعبيرُ في الجملةِ بالماضي؛

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 59.

(2) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 690.

(3) تفسير السمعاني: 6/ 160.

(4) الواحدي، التفسير البسيط: 23/ 226.

(5) الواحدي، التفسير البسيط: 23/ 226.

للدّلالةِ على القطعِ بالصُّدورِ للأمرِ والتحقُّقِ له. وأمّا إنْ أريدُ الرّدعُ والإبطالُ لوَهْمِ مُنكِرِ النَّشرِ؛ فالمرادُ: "بِالأمْرِ في قَوْلِهِ: ﴿مَآ أَمَرَهُۥ﴾ أمْرُ التَّكْوينِ، أيْ لَمْ يَسْتَتِمَّ ما صَدَّرَ بِهِ أمْرَ تَكْوينِهِ حينَ قيلَ لِآدَمَ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝٣٦﴾ [البَقَرَة: 36]"(1).

مَرجِعُ الضَّميرِ المَنصوبِ في ﴿أَمَرَهُۥ﴾:

الإشكالُ التركيبيّ مُرجِّحٌ معنويّ

عبّر النظمُ الكريمُ بالضَّميرِ الغائبِ المنصوبِ في قولِهِ تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾؛ للدّلالة به إمّا على المأمورِ وهو (الإنسان) كما رجّحَه ابنُ عاشورٍ بقولِهِ: "والضَّميرُ المُسْتَتِرُ في ﴿أَمَرَهُۥ﴾ عائِدٌ إلَى ما عادَتْ إلَيْهِ الضَّمائِرُ المُسْتَتِرَةُ في: (﴿خَلَقَهُۥ﴾، و﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾، و﴿يَسَّرَهُۥ﴾، و﴿أَمَاتَهُۥ﴾، و﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾، و﴿أَنشَرَهُۥ﴾)"(2)، فيلزم الاحتياجُ إلى ضميرٍ يعودُ إلى الموصولِ، فقالَ ابن عادل: قالَ أبو البقاء: "بمعنى (الذي) والعائدُ محذوفٌ، أي: ما أمرَهُ به، قال شهابُ الدين: وفيه نظرٌ، من حيثُ إنَّه قدَّرَ العائدَ مَجروراً بحرفٍ لم يجرَّ الموصولَ، ولا ﴿أَمَرَهُۥ﴾ بهِ، فإنْ قلتَ: (أمر) يَتعدّى إليه بحذفِ الحرفِ، فاقدُرْه غيرَ مَجرور، قلتُ: إذا قدّرتَهُ غيرَ مجرور؛ فإمّا أنْ تُقدِّرَهُ مُتّصلاً أوْ منفصلاً، وكلاهما مُشكِلٌ"(3). ولذا ذهبَ الطيبيّ إلى أنَّ: "الأصلَ: ما أمرَهُ اللّه به؛ فحُذِفَ (الباءُ) ثمَّ حُذِفَ (الهاء) الأولى، فصارَ (ما أمرَهُ)، فالهاءُ الباقيةُ للموصولةِ، والمحذوفةُ للإنسانِ"(4)، مع أنَّ الظّاهرَ من النّظم عودُها إلى الإنسانِ حتّى جزمَ بِهِ ابنُ عاشور، وهذا الإشكالُ مبنيٌّ على أنَّ الّردعَ متوجِّهٌ لدَعوى أنّ الإنسانَ قضَى ما أمرَهُ اللّه به، وأمّا لو كانَ الرّدعُ متوجِّهاً لمُنكِرِ النّشر، فإنَّ اللّه لم يقضِ النّشرَ الّذي أمرَ بِهِ، وهذا مُرجِّحٌ تركيبيٌّ قويٌّ لهذا المعنى.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 128.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 128.

(3) ابن عادل، اللباب: 20/ 163.

(4) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 299، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 132.

﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ
شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨
وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ
وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢﴾ [عبس: 24 - 32]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لما قبلَها:

الاستدلالاتُ العقليّة بذكرِ النِّعَم الذّاتيّة والخارجيّة

لمّا ذكرَ المَولى تعالى النِّعَمَ الذاتيّة الّتي أحاطَها بالإنسان منذ خَلقِهِ وحتّى نشورِهِ وأدمَجَها بالاستدلالِ على صحَّة الحَشر والنَّشر، وما يَنبغي عليهِ من نظرٍ في وجوهِ الأدلّة العقليّة حتّى يُؤمن باللّٰه تعالى وحدَهُ؛ ناسبَ أنْ يذكُرَ النِّعَمَ الخارجيَّة الّتي تُحيطُهُ من كلِّ جانب، وأهمُّها نعمةُ البقاء بالغِذاء معَ ما فيه من إدماجٍ استدلاليٍّ عقليٍّ آخرَ بإخراجِهِ المُثبِتِ لصحَّة النّشرِ والبَعث مُجدَّداً. قال البيضاوي: "إتباعٌ للنِّعم الذاتيَّة بالنِّعَم الخارجيّة"[1]. قال القونوي: "والمُراد بالذاتي ما يتعلّقُ بالذّات بنفسِها إتمامًا، وهو الخلقُ من نطفةٍ وتناسبِ الأعضاء وتسهيلِ المخرَجِ، والإماتةُ والإقبارُ متعلِّقٌ بالذات أيضًا، وإنْ لم يكن له مَدخلٌ في تمام ذاتِهِ، وأمّا (الطّعامُ) فخارجٌ عنهُ غيرُ مُتعلّقٍ بذاته، وإنْ كانَ لهُ مدخَلٌ في بقائِهِ"[2].

❁ شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿طَعَامِهِۦٓ﴾: (طعم) أصلٌ مُنقاسٌ في تذوّقِ الشَّيءِ، يقالُ: طَعِمْتُ الشّيءَ طَعْمًا، والطّعام هو المَأكولُ[3]، وطَعِمْتُه أطعَمُهُ طَعْماً من بابِ (تَعِبَ)، ويقعُ على كلِّ ما يُساغ حتّى الماءِ، وفي العُرف:

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 287، والزمخشري، الكشاف: 16/ 299، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 116، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1791.
(2) حاشية القونوي، على تفسير البيضاوي: 20/ 99.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طعم).

الطّعامُ اسمٌ لما يُؤكَلُ مثلُ الشَّراب اسمٌ لما يُشرَبُ، وجمعُهُ أطعِمة[1]، فهو أكلُ شيءٍ أوْ شربُهُ معَ اشتهاءٍ وذوقٍ، قليلاً كانَ أوْ كثيرًا[2]، والمرادُ به في الآية: المَطعومُ المُشتهَى وفي خلقتِهِ درسٌ واعتبارٌ.

2) ﴿صَبَبْنَا﴾: (صبّ) أصلٌ واحدٌ، وهو إراقةُ الشَّيءِ، وإليه ترجعُ فروعُ البابِ كلِّه، مِن ذلك: صَبَبْتُ الماءَ أصُبُّهُ صَبًّا، ويحملُ على ذلك فيقال لما انحدرَ من الأرضِ: صَبَبٌ، وجمعُهُ أصباب، كأنّه شيءٌ مُنصَبٌّ في انحدارِهِ[3]، وصبّ الماءَ يصِبّ من بابِ ضربَ صَبيباً: انسكَبَ. ويتعدّى بالحركة، فيقالُ: صَبَبْتُهُ صَبًّا من بابِ (قَتَلَ)[4]، فهو انحدارٌ من فوقٍ بلا قيدٍ؛ مادّيًّا كانَ أوْ مَعنويًّا[5]. والمرادُ به في الآية: إنزالُ ماءِ المَطَرِ بقوّةٍ، وانحدارُها من أعلى.

3) ﴿شَقَقْنَا﴾: (شقّ) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلُّ على انصداعٍ في الشّيءِ، تقولُ: شَقَقْتُ الشَّيءَ أشقُّهُ شَقًّا، إذا صدعْتَهُ[6]، وشققتُهُ شقًّا من باب (قتلٍ)، والشَّقّ بالفتح: انفراجٌ في الشَّيءِ، وهو مصدرٌ في الأصلِ، والجَمْعُ شُقوق، وانشقَّ الشّيءُ: إذا انفرجَ فيه فُرجةٌ[7]، فهو الانفراجُ المُطلقُ سواءٌ كانَ معَ حُصول تفرُّقٍ أم لا[8]. والمرادُ به في الآيةِ: الصَّدع والفرجة بقوّة.

4) ﴿وَقَضْبًا﴾: (قضب) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على قطعِ الشّيءِ، يقالُ: قَضَبْتُ الشّيءَ قَضْباً، والقَضيبُ: الغُصْنُ، والقَضْبُ: الرّطبةُ، سُمّيتْ لأنّها تُقضَبُ[9]، وقضبَهُ أي قطعَهُ، واقتَضَبتُهُ: اقتطعتهُ منَ الشَّيءِ[10]، فهو الأخذُ من شيءٍ وقطعُهُ والانتزاعُ منه[11]. والمرادُ بهِ في الآيةِ: "الفِصْفِصَةُ الرطبة، سُمّيت قَضْبًا لأنها تُعلف للدواب رطبةً فتُقضب، أي

(1) الفيومي، المصباح المنير: (طعم).
(2) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 7/ 80.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صب).
(4) الفيومي، المصباح المنير: (صبّ).
(5) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 6/ 182.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شق).
(7) الفيومي، المصباح المنير: (شقّ).
(8) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: (شق).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قضب).
(10) الجوهري، الصحاح: (قضب).
(11) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 9/ 267.

تُقطع مرةً بعد أخرى ولا تزال تَخلف ما دام الماء ينزل عليها، وتُسمَّى القَتَّ"[1].

5) ﴿غُلْبًا﴾: (غلب) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على قوّةٍ وقَهرٍ وشِدّة، من ذلك غلبَ الرجلُ غَلْبًا وغلَبًا[2]، والغلّابُ: الكثيرُ الغَلَبة، وحديقةٌ غَلباءُ: مُلتفّةٌ، وحدائقُ غُلبٌ[3]، وغَلَبَهُ غَلْبًا من بابِ (ضَرَبَ)، والاسمُ الغَلَبُ والغَلَبةُ أيضًا[4]، فهو التفوُّقُ معَ القدرة، أوْ تفوّقٌ في قُدرة[5]. والمرادُ بها في الآيةِ: حدائقُ غليظةُ الشَّجرِ مُلتفَّةٌ[6].

6) ﴿وَأَبًّا﴾: للهمزة والباء أصلانِ، أحدُهُما المَرْعى والآخَرُ القصدُ والتّهيّؤُ: أمّا الأوّلُ فقالَ الزّجّاج: الأبّ جميعُ الكلأ الَّذي تَعتلِفُهُ الماشيةُ[7]، والأبُّ: المَرعى المُتهيِّئُ للرَّعْي والجَزّ[8]، والأبُّ: المَرعى الّذي لم يَزرَعْهُ النّاسُ، ممّا تأكُلُهُ الدَّوابّ والأنعام، ويقالُ: الفاكهةُ للنّاس والأبُّ للدوابّ[9]، وأمّا الثّاني فقالَ الخَليلُ وابْنُ دُرَيْد: الأبُّ مَصْدَرُ: أبَّ فُلانٌ إلَى سَيْفِهِ: إذا رَدَّ يَدَهُ إلَيْهِ ليَسْتَلَّهُ، والتَّهَيُّؤُ لِلْمَسيرِ، والأبُّ: القَصْدُ، يُقالُ أبَبْتُ أبَّهُ، وأمَمْتُ أمَّهُ، وحَمَمْتُ حَمَّهُ، وحَرَدْتُ حَرْدَهُ، وصَمَدْتُ صَمْدَهُ[10]. والمرادُ به في الآية: الكَلأُ والعشبُ المُتهيّئُ لتنعُّمِ الأنعام.

۞ المَعْنى الإجماليُّ:

نِـعَـمُ الـلـه عظيمةٌ ووجوهُ دِلالاتِها مُتعدِّدة

المَعنى: فليتدبّرِ الإنسانُ في شأنِ نفسِهِ، وليفكِّرْ في أمرِ طعامِهِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 132.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غلب).
(3) الجوهري، الصحاح: (غلب).
(4) الفيومي، المصباح المنير: (غلب).
(5) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 7/ 262.
(6) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 20/ 167.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أبّ).
(8) الراغب، المفردات: (أبّ).
(9) الفيومي، المصباح المنير: (أبّ).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أبّ).

وتدبيرِهِ وتهيئتِهِ حتَّى يكون غذاءً صالحًا تقومُ به بنيتُهُ، ويجدُ في تناوُلِه لذّةً تدفعُهُ إليه؛ ليحفظَ بذلك قوّتَهُ مَدى الحياةِ التي قُدِّرَتْ لهُ، وأنزلنا منَ السَّماءِ ماءً إنزالاً عجيبًا، يُنبئُ بقدرةِ القادرِ العظيم، ثمّ شَقَقنا الأرضَ بالنّباتِ الخارجِ منها، فأنبَتْنا فيها الحبَّ بمختلفِ أنواعِهِ وأشكالِهِ، وعِنَباً للإنسانِ وعَلَفاً للحيوانِ، وزَيتوناً ونَخْلاً، وبساتينَ ذاتَ أشجارٍ ضَخمةٍ مُثمرةٍ وذاتَ حَوائطَ تحيطُ بها، معَ أنواعٍ من الفواكهِ والمَراعي الخَصبةِ للأنعام، كلُّ ذلك مَتاعٌ للإنسان يتغذَّى عليه، ومتاعٌ للأنعامِ التي تركبونَها وتأكلونَها.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (الفاءِ) في قوله ﴿فَلۡيَنظُرِ﴾:

تفريعُ النّظَرِ والتدبُّرِ مُبطِلٌ للكُفرِ والتكبُّرِ

عبَّر النظمُ الكريم بـ(الفاء) في قولِه تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾: إمّا للدِّلالة على التفريع؛ فهو: "إمّا مُفَرَّعٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾؛ فيَكونُ مِمّا أَمَرَهُ اللّه بِهِ مِنَ النَّظَرِ. وإمّا عَلَى قَوْلِهِ: ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾، فيَكونُ هَذا النَّظَرُ مِمّا يُبْطِلُ ويُزيلُ شِدَّةَ كُفْرِ الإنْسانِ". وإمّا معَ دلالتِها على التفريع تكونُ مُفصِحةً عن شرطٍ مُقدَّر، والتقديرُ: (إنْ أرادَ أنْ يَقْضيَ ما أمَرَهُ فلْيَنْظُرْ إلَى طَعامِهِ، أوْ إنْ أرادَ نَقْضَ كُفْرِهِ فلْيَنْظُرْ إلَى طَعامِهِ"[1]. وإمّا للدلالةِ على الاستئناف، "والجملةُ مستأنفةٌ مسوقةٌ لتعدادِ النِّعَمِ المُترادفة على الإنسان"[2]، ولا يخفى أنَّ التفريعَ أوضحُ من الاستئناف. ويَحْتَمِلُ أن يكونَ رَدًّا آخرَ على مُنكِرِ النّشرِ والحَشرِ من خلالِ الأمرِ بالتدبُّرِ في خلقِ النباتِ وخروجِهِ من الأرضِ المَيتة، فيكونُ مُرتبطاً بالرّدعِ والإبطالِ لإنكارِ النّشرِ المستندِ إلى عدمِ وقوعِهِ، ببيانِ أنَّهُ واقعٌ كخروجِ النَّباتِ حتَّى صارَ مألوفاً. قال ابن عاشور: "وَهَذا اسْتِدْلالٌ آخَرُ عَلَى تَقْرِيبِ كَيْفِيَّةِ البَعْثِ انْتَقَلَ إلَيْهِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 129.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 145.

في مَعْرِضِ الإِرْشادِ إِلَى تَدارُكِ الإِنْسانِ ما أَهْمَلَهُ، وكانَ الانْتِقالُ مِنَ الاسْتِدْلالِ بما في خَلْقِ الإِنْسانِ مِنْ بَديعِ الصُّنْعِ مِنْ دَلائِلَ قائِمَةٍ بِنَفْسِهِ في آيَةِ: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ إِلَى الاسْتِدْلالِ بأَحْوالٍ مَوْجودَةٍ في بَعْضِ الكائِناتِ شَديدَةِ المُلازَمَةِ لِحَياةِ الإِنْسانِ تَرْسيخًا لِلاسْتِدْلالِ، وتَفَنُّنًا فيه، وتَعْريضًا بالمِنَّةِ عَلَى الإِنْسانِ في هَذِهِ الدَّلائِلِ، مِن نِعْمَةِ النَّباتِ الَّذي بِهِ بَقاءُ حَياةِ الإِنْسانِ وحَياةِ ما يَنْفَعُهُ مِنَ الأَنْعامِ"[1].

دلالةُ (اللّام) في قوله ﴿فَلۡيَنظُرِ﴾:

الأمـرُ بالنّظَر لأخذِ الدُّروسِ والعِبَر

عبَّر النظمُ الكريمُ بـ(اللّام) الدّاخلة على الفعلِ المُضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾؛ للدِّلالة بها على الأمرِ ووجوبِ النّظر لأخذِ الدُّروس والعِبَر، وهو أمرٌ حقيقيٌّ يرادُ منه تصويرُ شيءٍ من أوامرِهِ تعالى الَّتي أجملَها قولُهُ: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾، فيكونُ التعبيرُ بـ(لام الأمر) بمثابةِ الجزئيِّ من جملةِ الأوامرِ الإلهيَّة، التي لم يَقضِ الإنسانُ النّظرَ والتدبُّرَ فيها؛ للاستدلالِ بها على اللّه تعالى ووحدانيَّته.

دلالةُ فعلِ (النّظر) مادّةً وصيغةً:

تـجـدُّدُ الـنّـظَـرِ بالباصِرة يُفضي للفَوزِ بالآخِرة

عبَّر النظمُ الكريم بفعلِ (النّظر) مُضارعاً في قولِهِ تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾؛ للدِّلالةِ بصيغتِهِ المضارعة على التجدُّدِ الاستمراريِّ للنّظر والتبصُّرِ في أقربِ ما يكونُ إليه ممّا يَحتاجُهُ للبقاءِ والتعيُّش، وللدِّلالةِ بمادّتِهِ على النّظر بالباصرة إِلَى طَعامِه: "وَكَيْفيّاتِ الأَحْوالِ الَّتي اعْتَوَرَتْ عَلَى طَعامِهِ حَتَّى صارَ بِصَدَدِ أَنْ يُطْعَمَ"[2]، "والمَقْصودُ التَّدَبُّرُ فيما يُشاهِدُهُ الإِنْسانُ مِنْ أَحْوالِ طَعامِهِ بالِاسْتِدْلالِ بها عَلَى إيجادِ المَوْجوداتِ مِنَ الأَرْضِ"[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 129، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 323.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 409.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 129.

اللّائقُ بالإنسان الاستدلالُ على خالِقِ الأكوان

دلالةُ التّعريفِ بـ(أل) في ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾:

عرف النظم الكريم ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾؛ للدلالة به على العهد الذِّكْري، وهو: "الإنْسانُ المَذْكورُ في قَوْلِهِ: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ وإنَّما جيءَ باسْمِهِ الظّاهِرِ دونَ الضَّميرِ كَما في قَوْلِهِ: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾، لِأنَّ ذَلِكَ قَريبٌ مِنْ مَعادِهِ وما هُنا ابْتِداءُ كَلامٍ؛ فعُبِّرَ فيهِ بالِاسْمِ الظّاهِرِ لِلْإيضاحِ"[1]. ويمكنُ أنْ يكونَ إظهارُهُ تذكيراً بوصفِهِ الإنسانيِّ الدالِّ على العقلِ والتفكيرِ والنَّظرِ الَّذي هو من أظهَرِ خُصوصيّاتِهِ، فيكونُ من تعليقِ الحُكمِ وهو الأمرُ بالنظرِ بمَنْ يتأتّى منه النَّظَرُ والتفكير، واللّائقُ بمَن هذه حالُهُ الاعتبارُ والتدبُّرُ والاستدلالُ بعجائبِ الصُّنعِ على الإيمان.

الدّليلُ الحِسّيُّ أقرَبُ مَنالاً مِنَ الدَّليلِ العَقليِّ

نكتةُ تعديةِ فعل النظر بـ﴿إِلَىٰ﴾:

عدَّى النظمُ الكريمُ فعلَ (النَّظَرِ) بحرفِ الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾؛ للدِّلالة به على أنَّ المرادَ بالنّظرِ الرُّؤيةُ بالعَين، قال ابنُ عاشور: "وَتَعْدِيَةُ فِعْلِ (النَّظَرِ) هُنا بحَرْفِ ﴿إِلَىٰ﴾ تَدُلُّ عَلَى أنَّهُ مِنْ نَظَرِ العَيْنِ؛ إشارَةً إلَى أنَّ العِبْرَةَ تَحْصُلُ بمُجَرَّدِ النَّظَرِ في أطْوارِهِ"[2]، أي إنَّما عدلَ النظمُ عن فعلِ (التدبُّر) مثلاً؛ للدِّلالة على وضوحِ الدّليل، حتى إنّه لا يحتاجُ إلى عظيمِ استدلالٍ أوْ عميقِ فكرٍ، بل مُجرّدُ الرّؤيةِ البصريّة لتكوُّنِ طعامِهِ وصوَرِ أطوارِهِ المختلفة، وكيفيّةِ خروجِهِ؛ لهو أوضَحُ دليلٍ على عظيمِ الخَلْقِ وصحَّةِ النّشر.

الأمـرُ بالنّظَر دعـوةٌ لإعمالِ العَقلِ والفِكرِ

نكتةُ حذفِ المُضافِ في ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾:

حذفَ النظمُ الكريمُ المضافَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 130.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 129.

﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ والتقديرُ: (إلى تكوُّنِ طعامِه) كما يوضِّحُه التفصيلُ الآتي مِن إنزالِ المَطَرِ وشقِّ الأرضِ وخُروجِ الزُّروعِ والحُبوبِ والأثمارِ والفواكِه، وإنَّما تَعَلَّقَ النَّظَرُ بالطَّعامِ مَعَ أنَّ الاسْتِدْلالَ هوَ بأحْوالِ تَكْوينِ الطَّعام، إجْراءً لِلْكَلام عَلَى الإيجازِ، ويُبَيِّنُهُ ما في الجُمَلِ بَعْدَهُ مِنْ قَوْلِه: ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا﴾ إلَى آخِرِها، فالتَّقْديرُ: فلْيَنْظُرِ الإنْسانُ إلَى خَلْقِ طَعامِهِ وتَهْيِئَةِ الماءِ لإنْمائِه، وشَقِّ الأرْضِ وإنْباتِه وإلَى انْتِفاعِهِ بِهِ وانْتِفاعِ مَواشيهِ في بَقاءِ حَياتِهِمْ"[1]، وقرينةُ حذفِ المضاف هو أنَّ الغرضَ من النّظر والرّؤية البصريّة التدبرُ في ذلك وأخذُ العِبرة، ولا يُتدبّر إلّا في البحثِ عن الأسبابِ وصوَرِ التطوُّرِ التكوينيِّ للطَّعام.

سرُّ التعبيرِ بالمَصدَرِ أوِ اسمِهِ (طَعام):

دليلُ الاعتبار عامٌّ في جميعِ الأذواقِ والأمصار

عبَّرَ النظمُ الكريم بالمصدرِ أوِ اسمِه في قولِه تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾؛ للدِّلالة على اسم المفعولِ وهو (المَطعوم)، قال أبو حيّان: "والظّاهِرُ أنَّ الطَّعامَ هوَ المَطْعومُ، وكَيْفَ يُيَسِّرُهُ اللّٰه تَعالَى بِهَذِهِ الوَسائِطِ المَذْكورَةِ من صبّ الماء وشقِّ الأرض والإنبات"[2]؛ إذِ النّظرُ في أحوالِ المَطعوم وصوَرِ تخلُّقِهِ وتكوُّنِه، وأمّا (الطعام) مصدراً أوِ اسمَ مصدرٍ فلا يُنظَرُ في أحوالِه؛ إذ هو أمرٌ اعتباريٌّ يُعبّر عنهُ بتناولِ المطعوم على سبيلِ التشهّي، والنّظرُ لا يكونُ في أحوالِ ذلك الأمر الاعتباريّ، وإنَّما في أحوالِ المأكول وكيفيّة تكوُّنِه، والغرضُ من العدولِ عن المأكول إلى الأكلِ والمَطعوم إلى الطَّعام؛ الدلالةُ على أنّ الآيةَ تقعُ في كلِّ مأكولٍ يُسمّى أكلاً، بخلافِ ما لو قالَ (مطعومِه)؛ إذ يصدُقُ بما يَعتادُهُ مِن مأكولٍ دونَ غيرِه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 130.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 409.

دلالةُ (طَعام) بينَ الحقيقةِ والمَجازِ المُرسَل:

عبّرَ النظمُ الكريم بلفظِ (طَعام) في قولِه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾؛ للدّلالة به إمّا على الحقيقةِ وهو ما يَطعَمُهُ الإنسان ويأكلُهُ بفيه، قال الزمخشريُّ: "فَلْيَنْظُرِ الإنْسانُ إلى مَطعَمِهِ الَّذي يعيشُ بِهِ كيفَ دبَّرنا أمرَهُ؟"[1]، وهو الظّاهرُ المُتوافِقُ معَ ما بعدَه من الحديثِ عن كيفيّةِ تكوُّنِه أطواراً حتى يَصلحَ غِذاء، أوْ للدلالة على المجازِ وهي الفضَلات وما يخرُجُ بعدَ الطعام، أي فلينظر الإنسان إلى فضَلاته وكيف تحوّلتْ من طعام شهيٍّ إلى قاذوراتٍ ومن طيِّبٍ إلى خبيث، "فعَن ابْن عَبّاس مَعْناهُ: فلْينْظرِ الإنْسان إلَى طَعامِهِ أي: إلَى ما يخرُجُ مِنْهُ كَيفَ انْقَلب من الطّيب إلَى الخَبيث"[2]، وسُمّي طعاماً باعتبارِ ما كان، وفيه دلالةٌ على عظيم ما في داخلِ الإنسانِ من خَلْقٍ عجيبٍ يُحوّلُ الطعام إلى فضَلات وقاذورات يَنبغي تدبُّرُها والتيقّن بعظيم صانِعِها.

الأطعمةُ الشّهيّةُ تتحوّلُ إلى قاذوراتٍ جليّة وفيها مَوعِظةٌ عليّة

دلالةُ الإضافةِ في ﴿طَعَامِهِۦٓ﴾:

أضافَ النظمُ الكريمُ (الطّعام) إلى ضميرِ (الإنسان) في قولِه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾؛ للدِّلالة على الاستغراق، إذ كلُّ مطعوم يتناولُهُ هذا الإنسانُ على سبيلِ التشهّي والتذوُّق يصدُقُ عليه أنَّه آيةٌ عجيبةٌ ونعمةٌ بليغة، كما يُرشِدُ إليه ما بعدَهُ من طريقةِ إخراجِهِ ونموِّهِ وبُلوغِهِ.

كلُّ المَطعومات آياتٌ بيّنات

سرُّ الاكتفاءِ بذكر الطَّعام:

اكتفَى النظمُ الكريمُ بذكرِ (الطّعام) عن (الشّراب) في قولِه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾؛ لما في إخراجِ الطَّعام مِن دلالةٍ واضحةٍ على عجيبِ الصُّنْع وصحَّةِ البعثِ والنّشر من القبور؛

في الاكتفاءِ استدلالٌ على الإحياء

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 704.
(2) تفسير السمعاني: 6/ 160.

إذ نزولُ الماءِ وانشقاقُ الأرض وإنباتُ الحبِّ، وتعاظُمُ خِلقتِهِ: لهي صورةٌ من صوَرِ الحَشْرِ والنّشرِ للأرضِ الميّتة، بخلافِ ما يشربُ منَ الماءِ. ولذا قالَ ابن عاشور: "وَفي جَميعِ تِلْكَ الأَطْوارِ تَمْثيلٌ لِإِحْياءِ الأَجْسادِ المُسْتَقِرَّةِ في الأَرْضِ، فقَدْ يَكونُ هَذا التَّمْثيلُ في مُجَرَّدِ الهَيْئَةِ الحاصِلَةِ بإحْياءِ الأَجْسادِ، وقَدْ يَكونُ تَمْثيلًا في جَميعِ تِلْكَ الأَطْوارِ بأَنْ تُخْرَجَ الأَجْسادُ مِنَ الأَرْضِ كَخُروجِ النَّباتِ بأَنْ يَكونَ بَذْرُها في الأَرْضِ، ويُرْسِلُ اللهُ لَها قوًى لا نَعْلَمُها تُشابِهُ قوَّةَ الماءِ الَّذي بِهِ تَحْيا بُذورُ النَّباتِ"[1]، والمجمَعُ إلى أنَّه: "اقتصرَ عليهِ ولم يَذكُرِ المشروبَ؛ لأنَّ آثارَ القُدرةِ فيه أكثرُ من آثارِها في المَشروب"[2].

دلالةُ الفصلِ في ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا﴾:

الاستئنافُ البيانيُّ والإبدال يُفصِّلانِ الإجمال

فصلَ النظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ﴾ عمّا قبلَه؛ إمّا للدلالةِ على الاستئنافِ البيانيِّ؛ إذ نشأ سؤالٌ من الأمرِ بالنّظرِ إلى حدوثِ الطّعامِ وتكوُّنِه مفادُهُ: كيفَ تكوَّنَ وحدثَ؟ فأجابَ بذلك[3]، وهذا مبنيٌّ على قراءةِ الكسرِ للهمزةِ وأنّها جملةٌ حقيقيةٌ مُستأنفةٌ، وإمّا لأنَّه مُبدلٌ منَ (الطّعام)، بناءً على قراءةِ الفتحِ، ويكونُ من إبدالِ محلِّ الجملةِ المفردِ من ﴿طَعَامِهِۦٓ﴾، قالَ ابنُ عطيّة: "وردَّ على هذا الإعرابِ قومٌ بأنَّ الثانيَ ليس الأوّلَ، وليسَ كما ردّوا؛ لأنَّ المعنى: فلْيَنْظُرِ الإنْسانُ إلى إنعامِنا في طعامِه، فترتَّب البدل وصحَّ"[4].

وقالَ السّمينُ على توجيهِ بدلِ الكلِّ من الكلِّ السّابق: "وهذا ليسَ بواضح"[5]، وذكر وجها ثانيًا وأنَّه منْ بدلِ الاشتمالِ، بمعنى: أنَّ صَبَّ الماءِ سببٌ في إخراجِ الطعام؛ فهو مُشتمِلٌ عليه بهذا التقدير، ولذا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 130.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1791.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 100.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 439.
(5) السمين، الدر المصون: 10/ 692.

يكونُ من بدلِ الاشتمالِ من حدوثِ الطّعامِ وتكوّنه[1]. وعلى الوجهين فالجملة لتفصيلِ ما أُجملَ قبلَها[2]؛ فالأمرُ واحدٌ وهو النّظَرُ إلى تكوُّنِ الطَّعامِ وحُدوثِهِ، ثمَّ جاءَ الاسئتنافُ أوِ البدلُ الاشتماليُّ المفصِّلُ لذلك الإجمالِ في حُدوث الطَّعام.

ثـــراءُ المعـاني بتعدُّدِ قـراءاتِ المَباني

اختلافُ القراءاتِ في ﴿أَنَّا﴾:

قُرِئَ ﴿أَنَّا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ بقراءتين، هي؛ قراءةُ: عاصِم وحَمْزَةَ والكِسائيِّ وخَلَفٍ ورُوَيْسٍ وصلًا بفتح همزةِ ﴿أَنَّا﴾، عَلَى أَنَّهُ بَدَلُ اشْتِمالٍ مِنْ ﴿طَعَامِهِۦٓ﴾ بَدَلَ مُفَصَّلٌ مِنْ مُجْمَلٍ"[3]، "وقال الفرّاء: ومَن فتح ﴿أَنَّا﴾ فهو في موضِعِ خفضٍ، أي: فلينظُرْ إلى أنّا صببنا الماءَ، وفَعَلنا، وفَعَلْنا، وقال الزجّاج: "ومَن فتحَ فعلَى معنى البدَلِ من (الطّعام)، وقالَ الفراءُ: قد يكونُ موقعُ ﴿أَنَّا﴾ إذا فُتِحَت في هذه السّورة، رفعًا كأنَّه استئنافٌ، ولذا قالَ السَّمينُ: "إنّها في محلِّ رفعٍ خبراً لمبتدأ محذوفٍ، أي: (هو أنّا صَبَبْنا)"[4]، أوْ: إلى صبِّنا الماءَ. وقال أبو عليّ: ومَن فتحَ فعلى معنى البدلِ بدلَ الاشتمالِ؛ لأنَّ هذه الأشياءَ تشتملُ على كونِ الطَّعامِ وحُدوثِهِ"[5]، قال الهرريّ: "إذ لا يلزمُ فيه أنْ يكونَ المبدلُ منهُ مُشتمِلًا على البدلِ، فحينئذٍ العائدُ محذوفٌ، والتقديرُ: (أنّا صببنا له الماءَ)"[6].

وقراءة الجُمْهورِ ورويس: ابتداء" بِكَسْرِ هَمْزَةِ ﴿إِنَّا﴾ عَلَى أَنَّ الجُمْلَةَ بَيانٌ لِجُمْلَةِ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ لِتَفْصيلِ ما أُجمِلَ

(1) السمين، الدر المصون: 10/ 692.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 131.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 131، والحنبلي، فتح الرحمن: 7/ 289.
(4) السمين، الدر المصون: 10/ 692.
(5) الواحدي، التفسير البسيط: 23/ 227، والطبري، ومجمع البيان: 24/ 226.
(6) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 133.

هُنالِكَ عَلَى وجْهِ الإيجازِ، قال أبو علي: مَن قال: ﴿إِنَّا صَبَبۡنَا﴾ بكسر ﴿إِنَّا﴾ كانَ ذلك تفسيرًا للنّظَر إلى: ﴿طَعَامِهِۦٓ﴾"[1].

دلالةُ (أنَّ) في قوله ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا﴾:

تنزيلُ غيرِ المُنكِرِ مَنزلةَ المُنكِرِ

عبَّرَ النظمُ الكريمُ بـ(أنّ) في قولِه تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ﴾؛ للدِّلالة على التأكيدِ للحُكم والتقويةِ لهُ؛ تنزيلاً لذلك الإنسانِ الكافر مَنزلةَ المُنكِرِ للحُكْم؛ لأنَّ مَن لم يُؤمِنْ بالآياتِ الظّاهرة؛ فهو في حُكْمِ الشاكِّ في كونِ تلك الظّواهر صادرةً من اللّه تعالى وأنَّه تعالى قادرٌ على فعلِها.

دلالةُ فعل (الصبّ) مادّةً وصيغةً:

الصّبُّ والانهمار دليلٌ لذَوي الأبصار

عبَّر النظمُ الكريم بفعلِ (الصبّ) ماضياً في قولِه تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا﴾؛ ليدلَّ بصيغتِه على وقوعِ ذلك الصَّبِّ وتحقُّقِه، وهو وإنْ كان ماضياً إلّا أنّه يفيدُ أنَّ ذلك الأمرَ جارٍ بطريقِ الإلْفةِ والعادةِ، والمعنى أنَّ صبَّ الماءِ شأنُنا الّذي نفعلُه، وليدلَّ بمادّته على إنزالِ الماءِ في مكانٍ إنزالاً مقصوداً معَ قوَّةِ الانهمارِ وشدّتِهِ[2].

و"ظاهرَ الصبِّ يَقتضي تخصيصَ الماءِ بالغيث، وهو المَرويُّ عن ابنِ عباس، وجوّزَ بعضُهُم الأعمَّ كماءِ العُيون ونحوهِ"[3]. وإنّما عبَّر النظمُ بهذا الفعلِ دونَ (الإنزالِ والإغاثة والسَّقي) مثلاً؛ لأنَّ الكلامَ مع الكافرِ المُنكِرِ للنّشر وإخراجِ الأموات من الأجداث، فناسبَهُ استعمالُ فعلٍ يفيدُ قوّةً وشدّةً في الانهمار.

دلالةُ تقديمِ المسندِ إليه على المسنَدِ الفعليِّ:

قَصْرُ الصّبَبِ من دونِ تعبٍ أوْ نَصَب

قدّمَ النظمُ الكريمُ المُسندَ إليه في ﴿أَنَّا﴾ على المُسندِ الفعليِّ في قولِه تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا﴾؛ للدّلالةِ على الاختصاصِ والانحصار

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 23/ 227، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 59.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 131.
(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1791.

للصّفة في الموصوف معَ التقويةِ لحُكم الكَلام، فيكونُ الصبُّ منحصراً بالذات الجليلة، بقي أنَّ التعبيرَ بـ(نا) العَظمة مفخِّمٌ للفعلِ الصّادر منه تعالى؛ إذ العظيمُ لا يصدُرُ منهُ إلّا عظيمٌ وجَليل.

سرُّ التعبيرِ بالمفعولِ المُطْلقِ ﴿صَبًّا﴾:

تقويةُ حُكمِ الكلام دليلٌ على شدّةِ الاهتمام

عبّرَ النظمُ الكريمُ بالمفعولِ المُطلقِ ﴿صَبًّا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾؛ للدِّلالة على تأكيدِ الفعل وتحقيقِ وقوعِه، والغرضُ من التوكيدِ الاهتمامُ بالمضمونِ وتقويةُ الحُكم وبيانُ أنَّ الصبَّ قد بلَغَ أوْجَهُ، و: "لِيَتَأَتَّى تَنْوِينُهُ؛ لِما في التَّنْكِيرِ مِنَ الدِّلالَةِ عَلَى التَّعْظيم، وتَعْظيمُ كُلِّ شَيْءٍ بما يُناسِبُهُ، وهوَ تَعْظيمُ تَعْجيبٍ"[1].

دلالة ﴿ثُمَّ﴾ في قوله ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا﴾:

التراخي الرُّتْبيّ والزّماني مَبنيٌّ على الشقِّ بالمطر أوْ بالكِراب أوْ بالنَّباتِ

عبَّر النظمُ الكريم بـ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾؛ إمّا للدلالةِ على التّراخي الزّمنيّ بمُهلةٍ إنْ كانَ الشقُّ للأرضِ بالنباتِ بعدَ نزولِ المطَر أوِ الشقُّ بالماءِ نفسِه بعدَ الانصباب. وأمّا إنْ كانَ الشقُّ للأرضِ بالكرابِ والمحاريث؛ فيَحتملُ أنْ يكونَ الشقُّ قبل نزولِ المطر أوْ بعدَه: فإنْ كان قبلَ نزولِ المطر فالتراخي رُتْبيٌّ، وإن كانَ بعد نزولِ المطر فالتراخي زمنيٌّ أيضاً. قال القونويُّ معلِّقاً على قول البيضاوي: "شَقَقْنا بالنّبات": "قدّمَهُ؛ لأنَّ ﴿ثُمَّ﴾ حينَئِذٍ عَلَى ظاهره، وقوله: (أو بالكراب) و﴿ثُمَّ﴾ حينَئِذٍ للتراخي الرتبيِّ، ويحتملُ أنْ يكون للتراخي الزَّماني؛ إذ لا يبعدُ أنْ يكونَ الشقُّ بعد نزولِ الماء منَ السَّماء بل هوَ كَذَلكَ؛ إذ ما من شقٍّ إلّا يكونَ بعدَ نزولِ الماء، وهو المُراد هنا، ولا يرادُ به الشقُّ الّذي قبلَ نزولِ الماء، ولو أُريدَ به ذلك لحُمِل التَّراخي عَلَى الرّتبيّ، وإنْ أبيتَ فليُحمَلْ عَلَى التَّغْليب"[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 131.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 100.

دلالةُ فعلِ (الشقِّ) مادّةً وصيغةً:

اختارَ النظمُ الكريم فعلَ (الشقِّ) ماضياً في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾؛ للدِّلالة بمادّته على الفصلِ والتفريج بينَ أجزاء الأرضِ المُتماسِكة بقوّةٍ وشدَّة، حتى يدخلَ الماءُ في منافذِها ويدخلَ ضوءُ الشّمس في فتحاتِها وشُقوقها، من دونِ تدخُّلٍ للإنسان في الشقِّ والفتح، وهو المناسبُ لسَوقِ الكلام في تَعدادِ النِّعَم وإثباتِ صحَّةِ النّشر، والقدرةِ على الإحياءِ بعدَ الإماتة، وللدلالةِ بصيغتِه الماضية على وقوع ذلك على سبيلِ القطع بالحصولِ دونَ حصولِه بالفرض والاحتمال.

مـــادّةُ الـشـقِّ تـوحـي بـقـوّة الخَرْق وعظمةِ أفعالِ الحقّ

دلالةُ الإسنادِ بينَ الحقيقةِ والمَجازِ العقليِّ:

أسندَ النظمُ الكريم فعلَ (الشقِّ) إلى ضميرِ المتكلِّم العائدِ إلى اللّه تعالى في قوله: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾، وقد اختُلِفَ في كونِ الإسناد فيه حقيقيًّا أو مَجازيًّا، فقد ذهبَ الزمخشريُّ والبيضاويُّ إلى أنَّه إسنادٌ مجازيٌّ علاقتُهُ السببيَّة؛ لأنَّ الشقَّ يكونُ بالمحراث، فإسنادُهُ إلى اللّه تعالى مجازٌ عقليٌّ، وأمّا إنْ كان الشقُّ بالإنباتِ أو بالإمطارِ فإنَّ الإسناد حقيقيٌّ، بخلافِ فعلِ الصَّبِّ السّابق؛ إذ الشقُّ للأرض هنا قد يتحقّقُ بالمحراثِ، فيكونُ الإسناد مجازيًّا، لكن في سببيَّة المطر للشقِّ أو الإنباتِ مجازٌ استعاريٌّ آخر بتشبيهِ المطرِ أوِ النّبات الشاقّانِ بما من شأنِه أنْ يشقَّ. وقد نبَّه القونوي لذلك بقوله: "إسناد الفعْل إلَى السَّبب أي مَجازًا، وإنْ كان فعلَه تَعالَى خلقًا؛ لأنَّ الإسناد إلَى الكاسِبِ حَقيقَةٌ وإلى الخالقِ مجازٌ فيما اجتمعَ (الخلقُ والكسبُ)، وسرّهُ أنَّ الفعْل إنَّما يُسنَدُ حَقيقَةً لِمَن قامَ به لا لِمَنْ أوجدَهُ، كَما صَرَّحَ به صاحبُ الكَشّاف، وأشارَ إليه أربابُ المَعاني، ألا [تَرَى] أنَّ مثلَ الأكلِ والشُّرب والضَّرب ونحوِها يُسنَدُ إلَى الآكلِ ونحوِه حَقيقَةً

الإســنــادُ إلى الكاسبِ حقيقيٌّ وإلــى الـموجِـدِ مَجازيٌّ

وإنْ لم يوجِدْها؛ وإنْ أريدَ الشقُّ بالنّبات فإسنادُهُ إليه تَعالَى حقيقيٌّ ووصفٌ له بدونِ مدخليَّةِ العَبد"[1].

لكنْ في نسبةِ الشقِّ للنباتِ إشكال، ولو قال بـ(الإنبات) لكان أوْلى؛ إذ النباتُ يشقُّ أيضاً الأرضَ كالمطر، فيكون الإسنادُ مجازيًّا بخلافِ (الإنبات والإمطار) بالمعنى المصدريِّ، فيكون الإسنادُ حقيقيًّا حينئذ. في حين رجح أبو السعود أن الإسناد حقيقيٌّ بقوله: "وحملُ شقِّها على ما بـ(الكِرابِ) بجعلِ إسنادِه إلى نونِ العظمة من قَبيلِ إسنادِ الفعلِ إلى سَببِه يأباهُ كلمةُ (ثمَّ والفاءُ) في قولِه تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا﴾؛ فإنَّ الشقَّ بالمَعْنى المذكور لا ترتبَ بينَهُ وبين الإمطارِ أصلاً ولا بينَهُ وبينَ إنبات الحب بلا مهلة؛ فإنَّ المرادَ بالنّبات ما نبتَ من الأرضِ إلى أنْ يتكاملَ النموُّ وينعقدَ الحبُّ؛ فإنَّ انشقاقَ الأرضِ بالنباتِ لا يزالُ يتزايدُ ويتسعُ إلى تلكَ المرتبةِ؛ على أنَّ مَساقَ النظمِ الكريمِ لبيانِ النِّعَم الفائضةِ من جنابهِ تعالى على وجهٍ بديعٍ خارجٍ عن العادات المعهودة، كما ينبئُ عنه تأكيدُ الفعلين بالمصدرين؛ فتوسيطُ فعلِ المُنعَم عليهِ في حُصولِ تلك النِّعَم مُخِلٌّ بالمرام[2]، ولذا: "قال ابنُ عباس: شقًّا عن النّباتً[3]؛ فليسَ النباتُ أوِ الإنباتُ فاعلينِ للشقِّ بل اللّه تعالى حقيقةً.

دلالةُ التّعريفِ بـ(أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾:

مِـن الـنِّـعَـم الـعـلـيَّـة خـلـقُ الأرضِ الزراعيَّة

عرّفَ النّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا﴾؛ للدِّلالة على الجنسِ الصّادقِ بكُلِّ أرضٍ مُنبتة، وفي ذلك التعريفِ المُستلزمِ للصِّدق الكليِّ امتنانٌ عظيمٌ واستدلالٌ بخلقِ الأرضِ قابلةً للإنباتِ صالحةً للاستزراعِ عندَ صبِّ الماءِ علَيها.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 100.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 111.
(3) القنوجي، فتح البيان: 15/ 84.

دلالةُ التقابُلِ بينَ ﴿صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ﴾، و﴿شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾:

الأرضُ جسدٌ مَيّت والماءُ روحٌ مُنبِت

قابلَ النظمُ الكريم في قولِه تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا﴾؛ بينَ الصَّبِّ والشقِّ من جهةٍ، والماءِ والأرضِ من جهةٍ أخرى؛ إذ الصبُّ يكون بإسقاطِ الماء من أعلى إلى أسفل مُنحدِراً، والشقُّ يكونُ بانفتاحِ فُرَجٍ مُمتدّةٍ من أسفلَ إلى أعلى لينفُذَ منها النّبات. كما قابلَ الماءُ الَّذي هو كالرّوح الأرضَ الَّتي هي كالجسد، وما أنْ يُلامِسَ الماءُ الأرضَ حتَّى تُنبت، وكذلك الأرواحُ ما أنْ تُلامِسَ الأجسادَ حتى تخرُجَ من الأجداثِ للبَعثِ والحِساب. والغرضُ من هذا التقابُلِ الدِّلالةُ على انتظامِ الخلق والاستدلالِ على صحَّة النّشر، وإحاطةِ النِّعَم بالإنسان؛ ليستدِلَّ بها على عظمةِ الصُّنع وجَلالةِ الخالقِ سُبحانه.

دلالةُ التعبيرِ بالمفعولِ المُطلَق ﴿شَقّٗا﴾:

التّوازُنُ والانسجام دالٌّ على الإتقانِ والإحكام

عبّرَ النظمُ الكريم بالمفعولِ المطلَقِ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا﴾؛ للدِّلالة على تأكيدِ عاملِه تأكيداً دالًّا على أنّه صنعُ اللّه الّذي أتقنَ كلَّ شيءٍ، ممّا يقوّي أنَّ إسنادَ الشقِّ إلى اللّه تعالى إسنادٌ حقيقيٌّ، والتعبير بالمصدر يفيدُ المبالغةَ في الفعل مع تقويةِ وقوعه وتحقُّقه ثابتاً للّه تعالى وحدَهُ. وجيءَ بالمفعول المطلق كذلك ليتأتّى التنكيرُ المفيدُ للفَخامةِ والإبداعِ العَجيب، ولذا قال الهرريّ: "﴿شَقّٗا﴾ بَديعاً لائقاً بما يخرجُ منهُ من النّبات في الصِّغَر والكِبَر والشَّكل والهَيئة، مُشاهَدًا مَرْئيًّا لمَن نظرَ إليها بعدَ أنْ كانت مُتماسِكةَ الأجزاء، وقد اقتضَتْ حكمتُهُ ذلك ليدخُلَ الهواءُ والضّياءُ في جوفِها، ويُهيِّئُها لتغذيةِ النَّبات"[1].

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 134.

دلالةُ (الفاء) في قوله ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾:

سُرعةُ الإنباتِ بعدَ شقِّ الأرضِ عنِ الأمواتِ

عبّرَ النظمُ الكريم بحرفِ (الفاء) في قولِه تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا﴾؛ للدّلالة على التعقيبِ بلا مُهلةٍ[1]؛ لأنَّ شقَّ الأرض بالإمطارِ أوْ بالإنباتِ يَعقبُهُ مُتّصلاً خروجُ النبات، والغرضُ بيانُ اتّصال الإنباتِ بالشقِّ في الأرضِ حتَّى يبرُزَ مَرئيًّا بعد أنْ كان النّبتُ مُتغلغلاً في شُقوق الأرض، وذلك مُؤذِنٌ بسُرعةِ النَّشر والبعثِ منَ الأجداث.

دلالةُ الفعلِ (أنبتَ) مادّةً وصيغةً:

الجَعْلُ والتّصيير بإذنِ الله الخَبير

عبّرَ النظمُ الكريم بفعلِ (الإنبات) ماضياً مَزيداً بالهَمزة في قولِه تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا﴾؛ للدِّلالةِ على تحقُّقِ وقوعِ الإنبات، وأنَّه مَقطوعٌ بحصولِه، كما تفيدُ الهمزةُ دلالةَ التعديةِ بمعنى: جعله نابتاً؛ إذ الفعلُ الثلاثيُّ يدلُّ على النّبت اللّازم الذاتيّ، والمزيدُ بالهمزة يفيدُ الإنباتَ الغيريَّ، وذلك يشيرُ إلى أنَّ النبات إنَّما يظهَرُ ويترعرَعُ بفعلِ اللّه تعالى وحدَهُ، وتلك منّةٌ عظيمةٌ لمَن تفكَّر فيها، ويفيدُ بمادّته على إخراجِ النّبت وإبرازِهِ من الشُّقوق وارتفاعِه بحيثُ تراهُ العيونُ.

دلالةُ الجارِّ المجرورِ ﴿فِيهَا﴾:

الظّرفيّةُ والاستعلاء مُتحقِّقانِ عندَ الإنباتِ والإنماء

عبَّر النظمُ الكريم بالجارِّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ المُتعلِّق بفعلِ (الإنبات) في قولِه تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا﴾؛ للدِّلالة على حُصول الإنباتِ داخلَ الأرض وبروزِهِ ونموِّه فوقَها؛ إذ الإنباتُ وانقسامُ البذرِ يكون فيها ثمَّ يخرجُ النبتُ ويَترعرَعُ عليها، ولا يبعُدُ أنْ يكونَ الجارُّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ مُستعمَلاً بمعناهُ الحقيقيِّ وهي الظرفيّة، وبمعناهُ المجازيِّ وهو الاستعلاءُ عندَ مَن يُجوِّزُ الجمعَ بينَ الحقيقة والمجازِ، أوْ يكون من قبيلِ عمومِ المَجاز، ولذا لم يقُلِ النظم (عليها)؛ لأنَّ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 134.

الإنبات وانقسامَ البذر عندما يكونُ مُتغلغلاً فيها، ثمَّ بعد ذلك يبرزُ مُرتفِعاً عليها.

سرُّ تقديم (الحَبِّ) في الأصناف الثمانية:

الأصـــلُ في الخِلقة والغِذاء يتقدّمُ في النّظمِ والابتداء

ذكرَ النظمُ الكريم أصنافاً ثمانيةً بعدَ فعلِ الإنبات، وبدأها بالحبِّ فقال: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا﴾؛ إمّا للدّلالة على أنّه الأصلُ في الاقتياتِ والغذاء والادِّخار، قال الهرري: "قدّمَهُ على ما بعدَهُ؛ لأنّه الأصلُ في الغِذاء"[1]، وإمّا لأنَّ كلَّ الأشجار والزُّروعِ والفَواكه والثِّمار من أصلِ البُذورِ والحُبوب، فيكونُ الحبُّ أصلاً في الغِذاء وأصلاً في الخِلقة والإنشاءِ.

دلالةُ (الواوِ) في قوله ﴿وَعِنَبٗا﴾:

أثرُ المَعنى في تفسيرِ عَطْفِ المَبنى

عبّرَ النظمُ الكريم بـ(الواو) في قولِهِ تعالى: ﴿وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا﴾؛ للدِّلالة على عطفِ (العِنَبِ) على (الحبِّ)؛ جَمْعاً بينهُما في الإنبات، ومَن فسَّر الحبَّ بالغذاء فإنَّ العطفَ من عطفِ العامّ على الخاصّ؛ لأنَّ العنبَ له وجهانِ اقتياتٌ وتفكُّهٌ، قال الرازيّ: "وَإِنَّما ذَكَرَهُ بَعْدَ الحَبِّ؛ لِأَنَّهُ غِذاءٌ مِنْ وجْهٍ وفاكِهَةٌ مِنْ وجْهٍ"[2]، ومَن جعلَهُ بَذْراً لكلِّ مَزروعٍ وغيرِهِ؛ فيكونُ من عطفِ الخاصِّ على العامِّ.

نكتةُ التعبيرِ بـ(العِنَب) مُنكّراً جَمْعاً:

الـعُـدولُ عـنِ الـشَّـجـرةِ إلى الـثّـمـرةِ دلالـةٌ عـلى تـعـدُّدِ الاسـتـعـمـالِ والجهة

عبّر النظمُ الكريمُ بلفظ (العِنَب) نَكِرةً مَجموعاً في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا﴾؛ للدِّلالة به على الجنس، فيصدُقُ بالأعنابِ كلِّها مع دلالةٍ على التكثيرِ فيه، ولذا عبَّر عنهُ مَجموعاً، وإنَّما عبَّر عنه باسمِ ثمرتِهِ دونَ شجرتِهِ بأنْ يقولَ: (وكَرْما)؛ للدِّلالة على جِهَتي استعمالِ ثمرتِهِ بالاقتيات بأنْ يكونَ زَبيباً والتفكُّه بأنْ يكونَ عِنَباً، وكانَ ذكرُهُ بعدَ الحبِّ الّذي هو الاقتياتُ الصِّرف انتقالاً مُناسِباً لما فيه الجهتانِ معاً.

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 134.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 60.

مَأكولُ الإنسانِ والحَيوانِ يَجمَعُ بينهُما البَيان

دلالةُ (الواوِ) والتنكيرِ في ﴿وَقَضۡبٗا﴾:

عبّرَ النظمُ الكريم بـ(الواو) في قولِه تعالى: ﴿وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا﴾؛ للدّلالة على العطفِ والجمعِ بينَ العنبِ والقضْب، من حيثُ إنَّ كِليهما طَريّان عندَ خروجِهما، ومتاعانِ للإنسانِ والأنعام، إذِ القَضْبُ الرَّطبة والعَلَف بعينِه، أي: "علَفاً رَطْباً للدّواب، وقيّدَه بذلك الخليلُ، وقال: إذا جفَّ فهو التّبنُ، وسُمّيَ قَضْبا، لأنَّه يُقضَبُ ويُقطَعُ مرّةً بعدَ أُخْرى كالبرسيم ونحوِه، وقيل: هو ما يُقضَبُ ليأْكلَهُ ابنُ آدم غضّاً كالبُقولِ وبعضِ الخَضروات"[1]، وسُمّي قضباً؛ لأنَّه يُقطَعُ ويُقضَبُ أكْلاً للبهائم، ونكَّره النظمُ للدِّلالة به على الجنسِ الصّادق بكلِّ صوَرِ الرّطْبِ وأشكالِه السّابقة، مع دلالةٍ على الكَثرة.

تسميةُ الشّيءِ بالمصدَرِ؛ دلالةٌ على أنَّ الحدثَ مقصودٌ بالنّظَر

دلالةُ التعبيرِ بالمَصدرِ (قَضْبا):

عدلَ النّظمُ الكريم عن تسميةِ مَأكولِ البهائم باسمِهِ وهو الرَّطبةُ أوِ البرسيمُ أو العلَفُ إلى لفظِ المصدرِ (قَضْبا) في قولِه تعالى: ﴿وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا﴾؛ للدلالة على أنَّه يُقطَعُ ويُقضَبُ مرّةً بعدَ أخرى[2]؛ فيكونُ العدولُ عن اسم الجنسِ إلى اسم الحدثِ؛ لإبراز معنى الحدث فيه، وأنَّه يتعرّضُ للقَضْبِ والقطعِ المُتكرِّر؛ لأنّه يخرُجُ كلّما سُقيَ بالماء. قالَ بعضُهم: هو القتُّ الرّطِبُ، أفردَهُ بالذِّكر؛ تنبيهًا على اختلافِ النّباتات، وأنَّ منها ما إذا قُطِعَ عاد، ومنها ما لا يعودُ"[3].

سَــرْدُ الـنِّـعَـم الـعَـظـيـمـة باستعمالاتِها الوَسيعة

دلالةُ (الواوِ) في قوله ﴿وَزَيۡتُونٗا﴾:

عبَّر النظمُ الكريم بـ(الواو) في قولِه تعالى: ﴿وَزَيۡتُونٗا﴾؛ للدِّلالة على العطفِ للزّيتونِ على ما قبلَهُ مِن مأكولِ الآدميِّ (العنب)؛

---

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1792، والشوكاني، فتح القدير: 9/ 410.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 704، والواحدي، التفسير البسيط: 23/ 229.

(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 135.

والغرضُ من العطفِ تعدادُ النِّعَم العظيمةِ التي أنبتَها اللّه تعالى وجعلَها غِذاءً للإنسان ودواءً له، إذ إنّنا نلحظ في عطفِ (الزيتون) على (العنب) أنَّه يُستعمَلُ غذاءً ودواءً وتنظيفاً باستخراج الزّيتِ منه ووسائلِ التّنظيف، قال الهرري: "خصَّهُ بالذّكر؛ لكثرة فوائدِه خصوصًا لأهالي بلادِ العَرَب، فإنَّهم يَنتفِعونَ به أكلًا وادِّهانًا، واستضاءةً وتطهُّرًا، فإنّه يُجعَلُ في الصّابونِ"[1].

سرُّ العُدولِ عن الشَّجرةِ إلى الثّمَرة:

تعدُّدُ الفائدة دافعةٌ للعُدول إلى الثّمرة

عدلَ النظم الكريمُ عن تسميةِ المُنبَت في قولِه تعالى: ﴿وَزَيْتُونًا﴾ باسم شَجَرتِه إلى ذكرِ خصوصِ ثمرتِه كما عدلَ عن الكُروم إلى العِنَب فيما تقدَّم، ولعلَّ السرَّ في ذلك أنَّه أرادَ أنْ يُشيرَ إلى استعمالِه في الطَّعام والدّواء وصناعةِ الزُّيوت ووسائلِ التنظيف. بقي أنَّ النظمَ نكَّر (الزيتونَ)؛ للدِّلالة على الجنسِ الصّادق بكلِّ صوَره وأشكالِه المختلفة مع دلالةٍ على الكَثرة.

دلالةُ الجَمْع بينَ (الزَّيتونِ والنَّخْل):

عطفُ الشّجَرةِ على الثّمَرة لاستعمالاتِها المتُنوّعة

جمعَ النظم الكريمُ في العطفِ بـ(الواو) بينَ الزَّيتون والنَّخل في قولِه تعالى: ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾؛ لكونِهما مأكولينَ غالباً للإنسان، وإنَّما لم يقُل: (وتَمْرا) كما قال (زَيتونا)؛ لأنَّ لشجرتِه فوائدَ واستعمالاتٍ عديدةً؛ فإنَّ العدولَ من اسم الشّجرةِ إلى الثّمرة كما في (العِنَب والزَّيتون)؛ للدلالةِ على التنوُّعِ الاستعماليِّ في الثمرة، والعدولُ عن الثّمرة إلى الشَّجرة أو الزّرع كما في (القَضْب والنّخْل)؛ للدّلالة على تجدُّدِ الأخذِ في القَضْب وتنوُّعِ الاستعمالِ في النَّخل. قال ابن عاشور: "وإنَّما ذُكِرَ النَّخْلُ دونَ ثَمَرَتِه، وهوَ التَّمْرُ، خلافًا لما قُرِنَ به مِنَ الثِّمارِ والفَواكِهِ والكَلَأ، لِأنَّ مَنافِعَ شَجَرِ النَّخيلِ كَثيرَةٌ لا تَقْتَصِرُ عَلَى ثَمَرِهِ، فهُمْ يَقْتاتونَ ثَمَرَتَهُ مِنْ تَمْرٍ ورُطَبٍ وبُسْرٍ، ويَأْكُلونَ جُمّارَهُ،

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 135.

ويَشْرَبونَ ماءَ عودِ النَّخْلَةِ إذا شُقَّ عَنْهُ، ويَتَّخِذونَ مِنْ نَوَى التَّمْرِ عَلَفًا لِإبلِهِمْ، وكُلُّ ذَلِكَ مِنَ الطَّعامِ، فضْلًا عَنِ اتِّخاذِهِمُ البُيُوتَ والأوانيَ مِنْ خَشَبِهِ، والحُصُرَ مِنْ سَعَفِهِ، والحِبالَ مِنْ لِيفِهِ. فذِكْرُ اسْمِ الشَّجَرَةِ الجامِعَةِ لِهَذِهِ المَنافِعِ أجْمَعُ في الاِسْتِدْلالِ بِمُخْتَلِفِ الأحْوالِ وإدْماجِ الاِمْتِنانِ بِوَفْرَةِ النِّعَمِ"[1].

دلالةُ عطفِ (الحدائق) وسرُّ ذكرِها:

الـــرّاحـــةُ والاستـجـمـام بـعـدَ الـتـغـذّي بأنواعِ الطَّعام

عبَّر النظمُ الكريم بـ(الواو) في قولِه تعالى: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا﴾؛ للدِّلالة على عطفِ (الحدائق) على ما قبلَها، والتقديرُ: (فأنبتنا حدائقَ)، والحديقةُ: البُستان من الأشجارِ المختلفةِ مُحاطةً بسورٍ أحدقَ وأحاطَ بها، فإنْ لم يكُنْ لها سورٌ كانت بُستاناً، ومنه قيل: أحدَقوا به، أي: أحاطوا[2]. والغرضُ من ذكر الحديقةِ دونَ البستانِ الدلالةُ على أنَّها من كثافةِ أشجارِها وضَخامةِ نباتِها صارتْ كأنَّها مُحاطةٌ بسورٍ نباتيٍّ كثيفٍ ومُتداخل، ومن المعلوم أنَّ داخل الحديقة قد يتكوّنُ من أشجارِ الكروم والنّخل والزّيتونِ وغيرِها، فيكون العطفُ من عطف العامِّ على الخاصّ[3]. وإنْ كان المرادُ بالأشجار مجرّدَ غطاءٍ نباتيٍّ للتنزُّهِ والارتياح والاستظلالِ بها، فيكونُ العطفُ من عطفِ المُباين، قال ابنُ عاشور: "وَخُصَّتِ الحَدائِقُ بالذِّكْرِ؛ لِأنَّها مَواضِعُ التَّنَزُّهِ والاِخْتِرافِ، ولِأنَّها تَجْمَعُ أصْنافًا مِنَ الأشْجارِ"[4].

نكتةُ تحديدِ المَنعوتِ بـ﴿غُلۡبٗا﴾:

ملاحظةُ الدّقائق فـي تـوصـيـف الحَدائق

نعتَ النظمُ الكريم لفظَ الحدائق بـ﴿غُلۡبٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا﴾، ويحتملُ أنْ يكونَ النعتُ وصفاً للحدائق كما هو الظّاهر، والتقديرُ: (حدائقَ كثيفةً) أي كلُّ حديقةٍ منها كثيفةٌ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 132.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1792.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 135.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 132.

فيكونُ نعتاً للحدائقِ بما فيها، فهو نعتٌ حقيقيٌّ بجرَيان الصِّفة على موصوفِها الظّاهر، ومجازيّ بوصفِ كلِّ حديقةٍ بما فيها من أشجارٍ. قال القونوي: "فوصفُ الحدائقِ بالغُلب مجازٌ؛ لكونِها ظرفًا للأشجارِ المَوْصوفةِ بها حَقيقَةً، لكنَّ المُراد المجموعُ من حيث المجموعُ معَ قطعِ النّظَر عن كونِ كلِّ واحدةٍ من الأشجارِ عِظامًا"[1]. ويحتملُ النعتُ أنْ يكون وصفاً للأشجارِ سَببيًّا، والتقديرُ: (حدائقَ غُلباً أشجارُها)، قالَ الزّمخشري: "﴿وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا﴾ يحتمِلُ أنْ يُجعَلَ كلُّ حديقةٍ غَلباءَ، فيريدُ تكاثُفَها وكثرةَ أشجارِها وعِظَمَها، كما تقولُ: حديقةٌ ضخمةٌ، وأنْ يُجعَلَ شجرُها غُلباً، أي: عظاماً غِلاظا"[2]. والحاصلُ أنَّ بينَ المعنيينِ عموماً وخصوصاً وجهيًّا؛ فيَجتمعانِ في حديقةٍ ضخمةٍ وأشجارٍ ضخام، وتنفردُ الحديقةُ بالضَّخامة والكثافة نتيجةَ تجمُّعِ الأشجار وإنْ لم تكنْ كثيفةً في ذاتها، وتنفردُ الأشجارُ بالضَّخامة دونَ اتّصافِ الحديقةِ التي تشتملُ عليها بالكثافةِ والكثرة[3].

دلالةُ الاستعارةِ المكنيَّة في ﴿غُلۡبٗا﴾:

ضَخامةُ الأشجار وكَثافةُ سَقْيِ الأمطار

استعارَ النظمُ الكريم في قولِه تعالى: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا﴾ استعارةً مكنيّةً؛ إذ شبَّه (الحدائقَ) بشخصٍ غليظِ الرّقبة؛ بناءً على أنَّ النعتَ حقيقيٌّ، أوْ شبَّه (أشجارَها) بامرأةٍ غليظةِ الرّقبةِ؛ بناءً على أنّ النعتَ سببيٌّ، والغرضُ من الاستعارةِ بيانُ ضخامةِ الحديقة وأشجارِها وتصويرُ مدى كثافتِها وتداخُلِ أشجارِها وأغصانِها، بحيث تكونُ جنّةً أرضيَّة عظيمةَ السُّقيا يُنتفَعُ بها ترفُّها واستظلالاً وخشَباً[4]. قال ابنُ عاشور: "والغُلْبُ: جَمْعُ غَلْباءَ، وهيَ مُؤَنَّثُ الأَغْلَبِ، وهوَ غَليظُ الرَّقَبَةِ، يُقالُ: غَلِبَ كَفَرِحَ، يوصَفُ بِهِ الإنْسانُ والبَعيرُ،

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 102.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 704، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 288.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 102.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 60، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1792.

وهوَ هُنا مُسْتَعارٌ لِغِلَظِ أُصولِ الشَّجَرِ؛ فوَصْفُ الحَدائِقِ بِهِ إمّا عَلَى تَشْبيهِ الحَديقَةِ في تَكاثُفِ أوْراقِ شَجَرِها والتِفافِها بشَخْصٍ غَليظِ الأوْداجِ والأعْصابِ فتَكونُ اسْتِعارَةً، وإمّا عَلَى تَقْديرِ مَحْذوفٍ، أيْ غُلْبٌ شَجَرُها، فيَكونُ نَعْتًا سَبَبيًّا، وتَكونُ الاسْتِعارَةُ في تَشْبيهِ كُلِّ شَجَرَةٍ بامْرَأةٍ غَليظَةِ الرَّقَبَةِ، وذَلِكَ مِنْ مَحاسِنِ الحَدائِقِ؛ لِأنَّها تَكونُ قَدِ اسْتَكْمَلَتْ قوَّةَ الأشْجارِ"[1].

دلالةُ (الواو) في قوله ﴿وَفَٰكِهَةً﴾:

إبـــرازُ الـنّـعَـم الكثيرة وأفانين الأطـــعـــمــةِ اللّذيذة

عبّرَ النظمُ الكريم بلفظِ (الواوِ) في قولِه تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾؛ للعطفِ بها إمّا على ما ذُكر في قوله تعالى ﴿حَبًّا ٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾، دلالةً على المغايرةِ بينَ المتعاطفين؛ من جهةِ أنَّ المعطوفَ عليه له خاصيِّتا الغذاء والتفكه، في حين أنَّ المعطوفَ ذو خاصيّةٍ واحدةٍ وهو التفكُّه فحسبُ. قال ابنُ عاشور: "والفاكِهَةُ: الثِّمارُ الَّتي تُؤكَلُ لِلتَّفَكُّهِ لا لِلاقْتياتِ، مِثْلَ الرُّطَبِ والعِنَبِ الرَّطْبِ والرُّمّانِ واللَّوْزِ"[2]، ومنَ المناسبِ أنْ يتأخّرَ التفكُّه على ما له تفكُّهٌ واقتيات أيضاً، فالعطفُ من قبيلِ عطفِ العامِّ على الخاصِّ. قال القونوي: "وكونُ العِنَبِ والزّيتونِ والنَّخل مقابلًا للفواكه؛ لأنَّ فيه الغذاءَ أيْضًا لا لعدم كونِها من أفراد الفاكهة؛ كَيْفَ لا! وهي أعزُّ ما يُتفكَّهُ، أي يُتنعَّمُ، فهي عامٌّ خُصَّ منه البعضُ لزيادةٍ فيه، وهو كونُهُ غذاءً كما يكون التفكُّه بها"[3]، وإمّا للعطفِ بها على (حدائقَ)، فذُكرت الفاكهة: "مع أنَّها تدخُلُ في الامتنان بـ(الحدائق)؛ للاعتناءِ بشأنِ ما يُتفكَّهُ به من ثمارِها المُتنوّعة، من كلِّ ما حسُن مذاقُهُ، وطابَ ريحُهُ، وكبُرَ حجمُهُ، ولا شكَّ أنَّ ذلك أدْخَلُ في الامتنانِ"[4]، فيكونُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 132، وحاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 20/ 102.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 132.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 102.
(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1792.

من عطفِ الخاصّ على العامِّ حينئذٍ، قال الهرريّ: "فهو معطوفٌ على (عِنَبًا) عطفَ عامٍّ على خاصّ، ويصحُّ عطفُهُ على (حَدائِقَ) كما هو المتبادرُ، فيكون عطفَ خاصّ على عامٍّ"[1]، وأيًّا مّا كان نوعُ العطف فهو إبرازٌ للنّعَم الكثيرة والعطايا الجزيلة من خلقِ أنواعِ الأطعمةِ اللّذيذة للإنسانِ وأنعامِهِ التي يَركبُها أوْ يأكلُها.

دلالةُ (الواوِ):

التلذُّذُ بالمأكول مِن مُناسبات الرَّبطِ المَقبول

عطفَ النظمُ الكريمُ (الأبّ) بالواوِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ على ما قبلَها؛ للدّلالة على الجمعِ والرَّبط بين (الفاكهةِ والأبِّ) من حيث إنَّ كليهما طعامٌ يُلتذُّ به؛ وإنْ كانتِ الفاكهةُ للإنسانِ المُتفكّه والمتنعِّم بها، والأبُّ للحيوانِ المتنعِّم بالمَراعي الخضراءِ التي يَقصِدُها ويَسعى إليها، فالجامعُ بينهما سعيُ كلٍّ من الإنسانِ والحيوان إلى التلذُّذِ والتنعُّم؛ والأبُّ هو المَرعى الَّذي يُقصَدُ، "نُقِلَ عن ابنِ عبّاس وجماعةٍ أنَّه: الكَلأُ والمَرعى، وسُمّيَ بذلك؛ لأنّه يُؤَمُّ ويُقصَدُ، والأبّ: القصدُ، وقيلَ: هو ما أنبَتَتْهُ الأرض ممّا تأكلُهُ الدوابُّ ولا يأكلُهُ الإنسان"[2]، وقيل: "الأبُّ: الفاكهة اليابسة تؤبُّ للشتاء؛ أي: تُعَدّ وتُهيّأ، وهو الملائمُ لما قبلَهُ"[3].

دلالةُ ذكرِ (القَضب والأبّ) باسمٍ غيرِ لقبيٍّ:

طعامُ الإنسانِ هو المقصودُ بالبيان

عبّرَ النظمُ الكريم عن أكلِ الأنعامِ بـ(القَضْب) في قولِهِ تعالى: ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾، وبالأبِّ في قولِه تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾، والَّذي يظهرُ أنَّ الغرضَ من ذكرِ (القضب) الإشارةُ إلى اقتياتِ الأنعام به، فهو القوتُ الأساسيُّ له، في حين يُشكِّلُ (الأبُّ) رَعياً له مع استجمام في المَرعى، ففيه التذاذٌ وتنعُّمٌ، ومن الملاحظِ أنَّ ذكر كلٍّ من الشيئَين

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 136.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1792.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 136.

قد جَرَى بلفظِ المصدرِ في (القَضْب)، وبلفظ (المكان) في (الأبِّ) لأنّه المرعى المقصود دونَ لقبِهِ المُعيَّن واسم علمِهِ المَخصوص؛ للدِّلالة على أنَّ أكلَ الأنعام ليسَ مقصوداً لذاته، بخلافِ أكلِ الإنسانِ الَّذي ذُكِر باسمِهِ في: (العنب والزيتون والنخل) أو باسم جنسِهِ في (الحبِّ والفاكهة)؛ للدّلالة على أنَّه المقصودُ بالإنعام والإطعام، وأمّا مأكولاتُ الدوابِّ والأنعام فالمقصودُ من أكلِهِ خدمةُ الإنسانِ وركوبُه وأكلُه فلم يُعتَنَ بذكرِ لقبِهِ وعلَمِهِ، ويكونُ مُشيراً إلى نعمة الأنعام للإنسانِ أيضاً أكلاً؛ إذ هي من مَطعوماتِه في قولِه: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾.

دلالةُ ترتيبِ المذكوراتِ من ألوان الأطعمة:

المقصودُ بالذّات والواسطة سرُّ ترتيب النِّعَم الظّاهرة

عبّرَ النظمُ الكريم في سياقِ الأمرِ للإنسانِ الكافِرِ بالنّظَر إلى طعامِهِ في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ إلى قوله ﴿وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا﴾؛ ليُدرِكَ حجمَ النِّعمة المُحيطةِ به مع إدماج الاستدلالِ على صحَّة النَّشر بإخراجِ النباتِ من الأرض، فيكونُ ذكرُ الأنواعِ منَ: (الحبِّ والعنبِ والقَضْبِ والزَّيتونِ والنَّخلِ والحَدائق والفاكهةِ والأبِّ) على أنها أطعمةٌ منظورٌ إلى خلقتها وكيفيّةِ تكوُّنها وأسبابِ حدوثِها بغيةَ الاعتبار والإيقانِ بالخالقِ الواحدِ العظيم لها. والَّذي يبدو من سَرْدِ هذه الأصناف أنَّ المراد بـ(الطّعام) المنظور إلى حدوثِهِ وتكوُّنه ما كان طعاماً أصليًّا أوْ وسيلةً له، وما كان طعاماً للإنسانِ مُباشرةً أوْ طعاماً لأنعامِهِ الَّتي يطعَمُها أوْ يركَبُها؛ فأمّا الطَّعام أصالةً فمنهُ (الاقتيات) والغذاءُ الرئيسُ وهو (الحبُّ)، ومنهُ ما يكون غذاءً وتفكُّهًا معاً وهو: (العِنَب والزّيتونُ والنّخل)، ومنهُ ما يكون تفكُّهاً مَحضاً وهي: (الفاكهة)، وأمّا وسيلةُ الطّعام لإعدادِهِ وتهيئتِه، فهي (الحدائقُ الغلبُ) الَّتي فيها الأشجارُ الضِّخام التي يُنتفَعُ بها في إعدادِ الطّعام وتهيئتِهِ بالإيقادِ علي أخشابِها، وإلا

فالحدائقُ ليست طعاماً باعتبارِ الظّاهر. وأمّا الطّعام غيرُ المباشِرِ للإنسان فهو طعامُ الأنعامِ التي يركَبُها، فالكلُّ راجعٌ إلى الطّعام إمّا بالمباشرةِ أوْ بالواسطةِ، وكذلك الكلُّ راجعٌ إلى الإنباتِ والشقِّ إمّا بالذاتِ أوْ بالواسطةِ، قال المصطفوي: "يرادُ تحصُّلُ هذه الموضوعاتِ وبروزها من الأرض بواسطةٍ أوْ بلا واسطة؛ فـ(العنبُ والقضبُ والزيتونُ والنخل) بلحاظِ كونِها (نباتاً وشجراً) تنبتُ من الأرض تحصُلُ بلا واسطةٍ، وبلحاظِ كونها (أثماراً) كـ(الحبّ): تتحصَّلُ بواسطةٍ، وسبقَ في (الزّيتون والعِنَب) أنّها تدلُّ على مجموعِ الشَّجر والثّمر، وتطلقُ على المجموعِ وعلى كلٍّ من الشَّجر والثّمر"[1].

دلالةُ الموقِعِ التركيبيّ لـ﴿مَّتَٰعًا﴾:

مَنافِعُ هذه الدّار زائلةٌ وليسَتْ للقَرار

عبّر النظمُ الكريم بلفظِ المصدرِ ﴿مَّتَٰعًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾؛ للدّلالة به إمّا على (الحاليّة) بتأويلِ المصدرِ بالمشتقِّ (ماتِعين)، والغرضُ منه بيانُ هيئةِ المُنتفَعِ به منَ المَذكورات الواقعةِ مَفعولاً به، معَ تقييدِ فعلِ الإنباتِ بذلك المتعِ والانتفاع، وهذا ما ذهبَ إليه ابنُ عاشور بقوله: "حالٌ مِنَ المَذْكوراتِ يَعودُ إلَى جَميعِها عَلَى قاعِدَةِ وُرودِ الحالِ بَعْدَ مُفْرَداتٍ مُتَعاطِفَةٍ، وهَذا نَوْعٌ مِنَ التَّنازُعِ"[2]. والأقوى منه أنْ يكونَ مفعولاً مطلقاً لفعلٍ محذوفٍ تقديرُهُ: (مَتَعناكُم مَتاعاً)، والغرضُ منه توكيدُ حدثِ المَتّعِ وتَقْويَتُهُ، وهو ما ذهبَ إليه الزجّاج بقوله: "هوَ مَنْصوبٌ؛ لِأنَّهُ مَصْدَرٌ مُؤَكِّدٌ لِقَوْلِهِ: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾؛ لِأنَّ إنْباتَهُ هَذِهِ الأشْياءَ إمْتاعٌ لِجَميعِ الحَيَوانِ"[3]، وأوضحَهُ أبو السُّعودِ بقوله: "وإمّا مصدرٌ مؤكِّدٌ لفعلِه المُضمَر بحذفِ الزوائدِ؛ أي مَتَعَكُم بذلك مَتاعاً، أوْ لفعلٍ مُترتّبٍ عليهِ، أي مَتَعَكُم بذلك فتمتَّعتُم مَتاعاً، أي تمتُّعًا، أوْ مصدرٌ من غيرِ لفظهِ؛ فإنَّ

(1) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 9/ 267.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 134.
(3) الرازي/ مفاتيح الغيب: 31/ 61.

ما ذُكِر من الأفعالِ الثلاثةِ في مَعْنى التَّمتيع[1]. والأقوى مِن ذَينِك جعلُهُ مفعولاً لأجله، وهو رأيُ الفرّاء؛ أي خَلَقْناهُ مَنْفَعَةً ومُتْعَةً لَكُمْ ولِأنْعامِكُمْ؛ والغرضُ منه بيانُ حكمةِ الإنباتِ للمَذكورات، والمصلحة المترتّبة على تلك الأفعالِ العظيمةِ الرّاجعة إلى منفعةِ العِباد، ففيه امتنانٌ وتذكيرٌ للإنسانِ بالمُنعِم الحقيقيِّ. بقي أنَّ لفظَ ا(لمتاع) دالٌّ على الانتفاعِ بالشّيءِ زَمَناً ثمَّ ينقطعُ؛ لإفادةِ أنَّ هذه الدارَ ليسَتْ منافعُها للقرار.

دلالةُ (اللّام):

نِعَمُ الجَليل تستلزمُ الشُّكرَ والعِرفانَ بالجَميل

عبّرَ النظمُ الكريم بـ(اللّام) الداخلة على المعطوفِ عليهِ والمَعطوف من قولِه تعالى: ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾؛ للدّلالة بها على الاختصاصِ الموحي بدلالةِ الغرضيَّةِ والعلّة؛ فيكونُ متاعاً تعليلاً للإنباتِ، وتكونُ (اللّامُ) اختصاصاً وتعليلاً للتّمتيع.

دلالةُ الالتفاتِ في ﴿لَّكُمۡ﴾:

الالتفاتُ في الكلام داعٍ للالتفاتِ إلى المُنعِمِ العلّام

عبَّر النظمُ الكريم بضميرِ المُخاطَب في ﴿لَّكُمۡ﴾ من قولِه تعالى: ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾؛ لتحقيقِ دلالةِ الالتفاتِ من أسلوبِ الغَيبة إلى أسلوبِ المُخاطَب، تشريفاً للإنسانِ المُنعَم عليه، ليُباشِرَ ويَلتفتَ إلى ما يجبُ عليه من الشُّكر للمُنعِم الحقيقيِّ؛ فالالتفاتُ في النّظم دعوةٌ للإنسانِ إلى الالتفاتِ إلى حقوقِ النّعمة بالشكر والعرفان، قال القونوي: "والالتفاتُ من الغائبِ إِلَى الخطابِ لتشريفِ الإنْسانِ بعزِّ الخِطاب"[2]، وفيه أيضًا "تكميلٌ للامتنان؛ أي: لتتمتَّعوا به وتَنتفعوا به أنتُم وأنعامُكم"[3].

دلالةُ اللّفِّ والنَّشر المُشوَّش:

عبَّر النظمُ الكريم بأسلوبِ اللّفِّ والنّشر غيرِ المُرتّب في قولِه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 112.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 103.

(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 137.

تعالى: ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾؛ إذ المذكوراتُ من النّعَم بعضُها للإنسان وبعضُها الآخرُ للدوابّ، وقد ذُكِرَتِ النِّعَمُ المختصّة بالإنسان والمختصّةُ بالدوابِّ مُختلطةً متداخلةً لغايةٍ سبقَ الحديثُ عنها في سرِّ الترتيب لها، ومن ثمَّ يُعيد القارئُ كلَّ نعمةٍ إلى حالِها أوْ مَصدرِها أوْ علّتها مع ما عُطِفَ عليه؛ فـ(الحبُّ والعِنَبُ والزّيتونُ والنّخل والحدائقُ) للإنسان ومنافعِه، و(القَضْب والأبُّ) للأنعام ومصالحِه، قال ابن عاشور: "وفيهِ لَفٌّ ونَشْرٌ مُشَوَّشٌ، والسّامِعُ يُرْجِعُ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ المَذْكوراتِ إلَى ما يَصْلُحُ لَهُ لِظُهورِهِ"[1]، وقدَّم ذكرَ متاع الإنسان لأنّه الأصلُ، وإنَّما ذُكِرَ متاعُ الأنعامِ لأجلِهِ ومَنفعتِهِ أيضاً.

كلُّ النّعَمِ المُقَرَّرة راجِعةٌ لمصالحِ الإنسانِ المُعتَبَرة

دلالةُ الإدماجِ في ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ﴾:

أدمجَ النّظمُ الكريم المَنَّ والاستدلالَ والمَوعظة في قولِه تعالى: ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾؛ إذ تخصيصُها لكم ولأنعامِكم منّةٌ، وكونُها دليلاً على عظمةِ المُنعِم استدلالٌ، وكونُها متاعاً مُؤقّتاً زائلاً موعظةٌ للانتفاعِ بها من أجلِ تحصيلِ الدّارِ الحقيقيَّةِ الباقيةِ الَّتي لا يزولُ نعيمُها، قال ابنُ عاشور: "وَهَذِهِ الحالُ واقِعَةٌ مَوْقِعَ الإدْماجِ، أُدْمِجَتِ المَوْعِظَةُ والمِنَّةُ في خلال الِاسْتِدْلال"[2].

المِنّةُ والاستدلال في الخطاب مَوعِظةٌ لمَن يَهتدي للصَّواب

نكتةُ الإضافةِ:

أضافَ النظمُ الكريم لفظَ (الأنعام) إلى ضميرِ المُخاطَب في قولِهِ تعالى: ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾؛ للدّلالة بها على التعريفِ لتلك الأنعامِ، والغرضُ من الإضافةِ بيانُ الملكيّة، فيكونُ كلُّ متاعٍ لتلك الأنعامِ المَملوكةِ مَتاعاً للإنسانِ المالكِ لها؛ لأنه المُنتفِعُ بها أكلاً ورُكوباً.

ملكيّةُ الأنعامِ تَقتضي أصالةَ الإنسانِ في الإنعامِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 134.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 134.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الطّعامُ والأكلُ والذّوق والشّرب:

الطَّعامُ أخصُّ مُطلقاً مِنَ الأكلِ والذّوق، ومُباينٌ للشُّرب

(الطَّعامُ) هو تناوُلُ ما يُؤكَلُ على سبيل التشهّي والذَّوْقِ، وهذا هو الفارقُ بينَه وبين (الأكلِ والذّوق والشّرب)؛ فإنّ الأكل هو تناوُلُ شيءٍ بإزالةِ الصّورةِ منهُ بالمَضْغ؛ سواءٌ كانَ بذَوْقٍ أم لا، والشّربُ يختصُّ بالمائعاتِ، والذّوقُ إحساسُ شيءٍ من خُصوصيّات شيءٍ بالذّائقة أوْ بالحاسّةِ الباطنة؛ فالأكلُ أعمّ من أنْ يكون في مطعوم وبالمضغِ الحيوانيِّ، أوْ في غير مطعوم وبغيرِ المضغِ المُتداوَلِ، فيقال: ﴿أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ﴾ [الحجرات: 12]، وأَكلَتِ النارُ الحطَبَ. ويُعتبَرُ في الطّعم القيدانِ: الأكلُ في الجملة والتذوّقُ، فالتذوّقُ إذا لم ينضمَّ الى الأكل لا يقالُ: إنّه طَعْمٌ[1].

الصّبُّ والسّفحُ والسّفك والسّقط:

الصّبُّ أعمُّ مُطلقاً منها

(الصّبّ) هو انحدارٌ من فوقٍ بلا قيدٍ مادّيًّا كانَ أوْ مَعنويًّا، والسّفحُ: انحدارٌ فيما مِن شأنِه أنْ يكونَ مَحفوظًا، والسّفكُ: جهةُ العُدوان، والسّقط: الانحدارُ الدّفعيّ، فالصبّ هو مطلق الانحدار بلا تقيّد بالقيود المذكورة.

(1) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 7/ 80.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ
وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ
يُغْنِيهِ ۝٣٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ
يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ
ٱلْفَجَرَةُ ۝٤٢﴾ [عبس: 33 - 42]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

التذكيرُ بالنّعَمِ الوَفيرة يستلزمُ التخويفَ من العاقبةِ الوَخيمة

لمّا عدَّدَ المولى تعالى آلاءَه على عباده، وذكَّرهم بإحسانِه إليهم؛ ناسبَ أن يعقّبَ هذا بتفصيلِ بعضِ أحوالِ يوم القيامة، وأهوالِها التي توجِبُ الفزعَ والخوفَ منه؛ ليدعوَهم ذلك إلى التأمُّلِ فيما مضى من الدَّلائل الَّتي تُرشِدُ إلى وحدانيّتِه وقُدرته، وصحّةِ البعث، وأخبارِ يوم القيامة الَّتي جاءت على ألسنةِ رُسُلِه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾: (صخّ) أصلٌ يدلُّ على صوتٍ منَ الأصوات، من ذلك (الصاخّة)، يقال: إنّها الصَّيحةُ تصمُّ الآذان، ويقالُ: ضربتُ الصَّخرةَ بحجرٍ فسمعتُ لها صَخًّا[2]، قالَ اللَّيث: الصاخَّةُ صيحةٌ تَصُخُّ الآذانَ فتُصِمُّها، وأصلُ الصخِّ في اللُّغة: الطّعنُ والصكُّ، قال المبرِّد: صخَّ رأسَهُ بحجَرٍ، أي: شدخَهُ، فمعنى الصّاخّة: الصّاكّةُ لشدّةِ صوتِها، وأصلُهُ مِن صخَّ يصُخُّ فهو صاخٌّ، أي صاحَ صياحاً مُقطَّعًا يقطَعُ قلبَ سامعِه[3]؛ فهو الصّوتُ الشّديد الّذي يُؤثِّرُ في الأذن والقلب[4]. والمراد به في الآية: صيحةُ القيامة، وهي النّفخةُ الأخيرة.

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 117.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صخ).
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 23/ 237.
(4) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 6/ 206.

2) ﴿يَفِرُّ﴾: (فرّ) أصولٌ ثلاثة: الأوّلُ الانكشافُ وما يُقاربُهُ منَ الكشفِ عنِ الشّيء، والثاني جنسٌ من الحيوان، والثالث دالٌّ على خفّةٍ وطَيْشٍ[1]. وفرَّ من عدوِّهِ يَفِرُّ من بابِ (ضرَبَ) فِراراً: هرَبَ، وفرَّ إلى الشّيء: ذهبَ إليه[2]، فهو الحركةُ السّريعةُ مُدبِراً للتخلُّصِ عنِ ابتلاءٍ أوْ لانكشافِ ابتلاء[3]. والمرادُ به في الآية: عدمُ الالتفاتِ إلى واحدٍ مِن أقاربِهِ؛ لِعظَمِ ما هو فيه[4].

3) ﴿شَأْنٌ﴾: (شأن) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على ابتغاءٍ وطَلَب، من ذلك قولُ العرب: شأَنْتُ شأنَهُ أي قصدْتُ قصدَهُ[5]، والشَّأْنُ: الخَطْبُ، والجمعُ: الشُّؤونُ[6]، والشأْنُ: الأمرُ والحالُ، يقالُ: لأشأَنَنّ شأنَهُم أي لأفسِدَنَّ أمرَهُم[7]. والمرادُ به في الآية: الحالُ والأمرُ المُهِمُّ.

4) ﴿يُغْنِيهِ﴾: (غني) أصلانِ صَحيحان؛ أحدُهُما يدلُّ على الكفاية، والآخرُ صوتٌ؛ فالأوّلُ الغِنَى في المال، يقالُ غَنيَ يَغنَى غِنىً، والغَناءُ الكِفاية، يقال: لا يُغني فلانٌ غَناءَ فُلانٍ، أي لا يَكفي كِفايتَهُ[8]، ويُغنيهِ يُشغِلُه، قالَ ابنُ قتيبة: يُغنيهِ: يَصرِفُه ويَصدُّهُ، ويقال: اغنِ عنّي وجهَكَ، أي اصرِفْهُ، وقال أهلُ المَعاني: يُغنيهِ يَكفيكَ عن زيادةٍ عليه من الاهتمام لغيره، أي ليسَ فيه فضلٌ لغيرِ ما هو فيهِ من الأمرِ الَّذي قد اكتنفَهُ، فصارَ حالُهُ كحالِ الغنيِّ عن الشّيءِ في أنَّ نفسَهُ لا تنازعُ إليه[9]. والمرادُ بِهِ في الآية: يكفيهِ أوْ يُشغِلُهُ أوْ يَصرِفُهُ.

5) ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾: السّفْرُ: (سفر) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الانكشافِ والجَلاء، من ذلك السَّفَرُ، سُمّي بذلك لأنّ الناسَ يَنكشِفونَ عن أماكنِهِم[10]، وسفَرَ الرجلُ سَفَراً من بابِ (ضَرَبَ)، فهو سافِرٌ، والجمعُ سَفْرٌ، وسَفَرتِ الشّمسُ سَفْراً: طَلَعَتْ، وسَفَرتِ المرأةُ سُفورا: كشفَتْ وجهَها، وأسفَرَ الصُّبحُ إسفاراً: أضاءَ، وأسفرَ الوجهُ من ذلك إذا عَلاهُ جمالٌ[11]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرّ).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (فرّ).
(3) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 9/ 47.
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 23/ 238.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شأن).
(6) الخليل، العين: (شأن).
(7) الجوهري، الصحاح: (شأن).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(9) الواحدي، التفسير البسيط: 23/ 239.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سفر).
(11) الفيومي، المصباح المنير: (سفر).

والسّفرُ: كشفُ الغِطاء، ويختصّ ذلك بالأعيانِ؛ نحوُ: سفرَ العمامةَ عنِ الرّأس، والإسفارُ يختصُّ باللَّون، نحوُ: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ٣٤﴾ [المدثر: 34] أي أشرَقَ لونُه، والسِّفر: الكتابُ الّذي يُسفِرُ عن الحقائق. والرّسول والملائكةُ والكُتُب مُشتركةٌ في كونِها سافرةً عن القومِ ما استبهَمَ عليهم[1]. والمُرادُ بِهِ في الآية: مُشرِقةٌ مُضيئةٌ مُنكشِفةُ الألوانِ ناضِرة[2].

6) ﴿غَبَرَةٌ﴾: (غبر) أصلانِ صحيحانِ؛ أحدُهما: يدلُّ على البقاء، والآخرُ على لونٍ منَ الألوان؛ فالأوّلُ غبَرَ إذا بَقي، والآخَرُ الغُبارُ، سُمّي لغَبرتِه، وهي لونُهُ[3]، وغَبَرَ غُبورًا من بابِ (قَعَدَ)، وقد يُستعمَلُ فيما مَضَى أيضاً، فيكونُ منَ الأضداد[4]، والغُبار: ما يَبقى منَ التُّرابِ المُثار، وإنّما قيلَ للماضي غابرٌ تصوُّراً بمُضيِّ الغُبار عنِ الأرض، وقيلَ للباقي غابرٌ تصوُّرًا بتخلُّف الغُبار عن الّذي يعدو فيَخلُفُه، ومن الغُبار اشتُقَّ الغَبْرة، وهو ما يَعلَقُ بالشيءِ من الغُبار، وما كانَ على لونِه[5]، قالَ المُبرِّد: الغبَرة ما يُصيبُ الإنسان من الغُبارِ المُعفِّر[6]، وهو المرادُ به في الآيةِ أوِ الكنايةُ عن الهمِّ والغمِّ.

7) ﴿قَتَرَةٌ﴾: (قتر) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تجميعٍ وتضييقٍ، يقالُ: قَتَرَ الرّجلُ على أهلِهِ يَقْتِرُ، وأقترَ وقتّرَ، ومن البابِ القَتَر: ما يغشَى الوجهَ من كَرْبٍ، والقتَرُ: الغُبار[7]، والقُتار: الدُّخانُ معنىً ووزناً، وقتَرَ على عيالِهِ قَتْراً وقُتورًا من بابَي (ضرَبَ وقعَدَ): ضيّقَ في النّفَقة، وأقترَ وقتّرَ: مثلُهُ[8]، فالقترُ: تقليلُ النّفقة، وهو بإزاءِ الإسراف، وكلاهُما مَذمومان، ورجلٌ قتورٌ ومُقترٌ، وأصلُ ذلك من القُتار وهو الدُّخان السّاطعُ من الشّواء والعودِ ونَحوِهما، فكأنّ المُقترَ والمُقتّر يتناولُ منَ الشّيءِ قُتارَهُ[9]. والمرادُ به في الآية: سوادٌ وكسوفٌ عندَ مُعاينةِ النّار[10].

(1) الراغب، المفردات: (سفر).
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 23/ 240.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غبر).
(4) الفيومي، المصباح المنير: (غبر).
(5) الراغب، المفردات: (غبر).
(6) الواحدي، التفسير البسيط: 23/ 240.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قتر).
(8) الفيومي، المصباح المنير: (قتر).
(9) الراغب، المفردات: (قتر).
(10) الواحدي، التفسير البسيط: 23/ 242.

المَعنى الإجْماليُّ:

بالقيامةِ ينقسِمُ الناس إلى أهلِ كـرامـةٍ وأهـلِ خَسارَة

فإذا وقعتِ القيامةُ بصوتِها الهائلِ الّذي يصخُّ الأسماع ويصكُّها بشدّته؛ فما أعظمَ أسفَ الكافر، وما أشدَّ ندمَه؛ ومِن هولِ ذلك اليوم يفرُّ كلُّ واحدٍ من الكفار عن أقربائِهِ المُقرَّبين؛ لانشغالِ بعضِهم عن بعضٍ بعواقبِ أعمالِه وتكذيبِه، فينقسِمُ الناس يومئذٍ إلى فريقين: فريقٌ ذو وجوهٍ مُتهلِّلة ضاحكةٍ فرحةٍ بما تجدُ من بردِ اليقين، ووجوهٌ أُخرى يَعلوها غبارُ الذُّلِّ، وسوادُ الغمِّ والحُزن والضّيق، وهي وجوهُ الكفّار الذين لم يُؤمنوا باللّه، وبما جاءَ به أنبياؤُهُ، وخرَجوا عن حدودِ شرائعِه، واجترحوا السيِّئات، واقترفوا المَعاصيَ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (الفاءِ) في ﴿فَإِذَا﴾

الـصّـاخّـة جـزاءُ مَن تركَ التذكِرة

عبَّر النظمُ الكريم بـ(الفاءِ) في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾؛ للدِّلالة بها على التفريع والترتيب، فهي إمّا مُتفرِّعةٌ على "اللَّوْمِ والتَّوْبِيخِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ وما تَبِعَهُ مِنَ الِاسْتِدْلالِ عَلَى المُشْرِكِينَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ إلَى قَوْلِهِ: ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا﴾، ففُرِّعَ عَلَى ذَلِكَ إنْذارٌ بِيَوْمِ الجَزاءِ، مَعَ مُناسَبَةِ وُقوعِ هَذا الإنْذارِ عَقِبَ التَّعْرِيضِ والتَّصْرِيحِ بِالِامْتِنانِ في قَوْلِهِ: ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ وقَوْلِهِ: ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾"[1].

أوْ عنْ إخبارِ ما قبلَها منَ النِّعَم المَذْكورة؛ فأخبر أوّلًا عمّا هوَ سريعُ الزوال وقريبُ الاضمِحلال وقليل الانتفاع - كما يُشعِرُ به التَّعْبيرُ بـ(المتاع) - ؛ ثم أخْبَرَ عمّا هوَ باقٍ[2].

أوْ عن قولِه تعالى: ﴿إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ أوْ قولِه: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 134.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 103، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 112.

﴿أَكۡفَرَهُۥ﴾: فعلى الأوّل تقديرُهُ: (إنَّها تذكرةٌ) وعِظتُهُ: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ يختلفُ حالُ المُتّعظينَ بها وغيرِ المُتّعظين، وبيانُهُ: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ﴾ الآية، ويَحتمِلُ حينئذٍ أنْ يكونَ جزاؤُهُ ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ﴾ الآية، وعلى الثاني تقديرُهُ: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ فإذا جاءَتِ الصّاخّة يَرى جَزاءَ كُفرانِه[1].

والَّذي يترجّحُ أنَّ التفريعَ بمَجيءِ الصّاخة ووُقوعِها يَتناسَبُ مع كونِ القرآن تذكرةً؛ لأنَّ مَن لم يَنتفع بالتذكرةِ معَ لطافتِها فإنَّه سوفَ تصكُّ أذنَيهِ الصّاخّةُ وتُفزِعُهُ بقوَّتِها وشِدَّتِها. وكما أنَّ التذكرةَ يختلفُ حالُ السّامعينَ لها؛ فمِنهمُ المُنتفِعُ ومِنهم غيرُ المُنتفع، كذلك الصّاخّةُ فمنهم عند وقوعِها المَسرورُ المُستبشِرُ، ومِنهم المهمومُ الفزِعُ، وأنَّ تفرُّعَ الإنذارِ عن الإنذارِ أوّلى من تفرُّعِ الإنذارِ على اللّومِ والتّوبيخ، ويترتّبُ على هذا التفريعِ أنْ يكونَ جوابُ شرطِ (إذا) مذكوراً لا محذوفاً، وهو قولُهُ: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ﴾... الآية، بخلافِ تفرُّعِها عنِ ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ فإنه يكون محذوفاً يدلُّ عليه الكلام، وتقديرُهُ: (يَرى جزاءَ كُفرانه). بقي أنَّ الهرريّ ذهبَ إلى تجويز كونِها استئنافيةً أوْ فصيحةً بقوله: "ويصِحُّ أنْ تكونَ فصيحةً، تقديرُهُ: (إذا عرفتَ أحوالَهُم في الدُّنيا، وأردتَ بيانَ أحوالِهم في المَعاد فأقولُ لك: إذا جاءَتِ الصّاخّةُ"[2].

دلالةُ (إذا) والغرضُ منها:

الإنذارُ الرَّدْع لِمَن أعرضَ عنِ الإصغاءِ والسّمْع

عبَّرَ النظمُ الكريم بلفظِ (إذا) في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾؛ للدِّلالة بها على الظّرفِ المُستقبل منَ الزّمان المُتضمِّن لمعنى الشَّرط المُفيدِ لتحقُّقِ الوُقوع، والغرضُ من الدلالةِ الاستقباليَّةِ مع تحقيقِ الوقوعِ لمَجيءِ الصّاخة الإنذارُ والرّدعُ لمَن جاءَتْهُ التذكرةُ ولم يَنتفِعْ بها.

(1) التفسير المظهري: 10/ 202، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 137.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 145.

تحديدُ الجواب تركيزٌ على محلِّ الخِطاب

جوابُ الشّرط بينَ الذّكرِ والحَذف:

لمّا كانتْ (إذا) ظرْفاً مُتضمّناً لمَعنى الشّرط في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ وهو محتاجٌ لجوابِه، اختلفَ المفسِّرون في تحديدِهِ نتيجةَ اختلافِهم في تفرّعِ (الفاءِ) عمّا قبلَها، وتحديدِ مَوطنِ الاهتمامِ والتركيزِ في الكلام: فذهبَ الأكثرونَ إلى أنَّ جوابَها محذوفٌ يدلُّ عليه سياقُ النّظم، والتقديرُ: "فإذا صخّتِ الصّاخّةُ شُغِلَ كلُّ إنسانٍ بنفسِهِ"[1]، وانتقدَ القونويّ مَن جعلَ قولَه تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ جواباً له؛ بقوله: "قيل إنَّه جوابُ (إذا) تُركَتِ (الفاءُ) لتقديره مُضارعًا أَوْ ماضيًا بدون (قد)، وهو تعسُّفٌ، والظّاهر أنَّ جوابَهُ مَحْذوفٌ يدلُّ عليه هذا القَوْلُ الكريم: أي لشُغِلَ كلُّ نفس بخَلاصِها"[2]. في حينِ ذهبَ ابنُ عاشور إلى أنَّ قوله: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ﴾ وما بعدها جوابٌ له، ويقصدُ أنّه لازمُ الجواب، والتقديرُ: فإذا جاءَتِ الصاخّة اختلفَ حالُ الناس إلى فريقين، قالَ ابنُ عاشور: "وَ(إذا) ظَرْفٌ، وهوَ مُتَعَلِّقٌ بـ ﴿جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ وجَوابُهُ قَوْلُهُ: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ﴾... الآياتِ"[3]، والّذي يترجّحُ لدينا أنَّ الغايةَ من الإنذار بالصّاخّةِ وأهوالِها ليس مجرّدَ الانشغالِ عن الأقارب، وإلّا كان التهويلُ والتخويفُ هو محطَّ الاهتمام، لكنَّ الغايةَ من الإنذار والتخويفِ من يومِ النشر والحساب إعلامُ الأنام، بانقسامِهم إلى مُستبشرينَ برضوانِ المَلِكِ العلّام، أو كالحينَ ينهالُ عليهم العذابُ الزّؤام.

---

(1) السمين، الدر المصون: 10/ 696، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 137، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1794.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 105.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 135.

دلالةُ فعلِ (المَجيءِ) مادّةً وصيغةً واستعارةً:

تشخيص المعنويّات لإثبات أنَّ الغيبيّات كالحِسّيّات

عبّرَ النظمُ الكريم بفعلِ (المَجيء) ماضياً في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾؛ للدِّلالة على تحقُّقِ الوقوعِ في المستقبل، وأنَّه مقطوعٌ بحصولِهِ، ولذا دخلتْ (إذا) على الفعلِ الماضي الدالِّ على الوقوع والتحقُّق، وليدلَّ بمادّتهِ على الإقبالِ الشَّديد الصّعب، وقد استُعيرَ (المجيء) استعارةً مكنيّةً للدِّلالة على الوقوعِ والحُصول؛ إذ شبَّه يومَ الجزاء المعبَّر عنه بـ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ بشخص جاءَ مِن مكان، ثمَّ حذفَه وأبقى من خواصِّه ولوازمِهِ المجيءَ، وأُسنِدَ إلى ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ تخييلاً، أوِ استعارةً تصريحيّةً بتشبيهِ الوقوعِ بالمجيءِ بجامعِ التحقُّق في كلٍّ، ثمَّ حذفَ المشبّه وأبقَى المشبّه به على سبيلِ التبعيَّة. قال ابنُ عاشور: "والمَجيءُ مُسْتَعْمَلٌ في الحُصولِ مَجازًا، شُبِّهَ حُصولُ يَوْمِ الجَزاءِ بِشَخْصٍ جاءَ مِنْ مَكانٍ آخَرَ"[1]، والغرضُ من الاستعارةِ تأكيدُ تحقُّقِ الوقوع من خلال تجسيمِ حالةِ الوقوعِ للغيبيّات بحالةِ المُقبلِ من مَكانٍ كالحسيّات.

نكتةُ التعريفِ بـ(أل) في ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾:

التحويلُ إلى العلَم دالٌّ على الوجهِ الأتَمِّ

عبّر النظمُ الكريم بلفظِ ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ مُعرّفاً بـ(ألْ) في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾؛ للدِّلالة بها على التعريفِ؛ لأنَّ أصلَ الصّاخَّة اسمُ فاعلٍ مشتقٌّ للدِّلالة على أمرٍ يُصخُّ الأسماعَ ويُفزعُها لشدَّة وقعِه وصوتِه، "قالَ الزَّجّاجُ: أصْلُ الصَّخِّ في اللُّغَةِ: الطَّعْنُ والصَّكُّ، يُقالُ صَخَّ رَأْسَهُ بِحَجَرٍ أيْ شَدَخَهُ، والغُرابُ يَصُخُّ بِمِنْقارِهِ في دُبُرِ البَعِيرِ أيْ يَطْعَنُ، فَمَعْنَى الصّاخَّةِ الصّاكَّة بِشِدَّةِ صَوْتِها لِلْآذانِ"[2] تَبعجُها وتَثقبُها، فيكونُ التعريفُ للعهدِ المُعيَّن، ثمَّ نُقِلَ وصارَ علَماً واسماً من أسماءِ القيامةِ، للدّلالة بهذا النقلِ على الكمالِ والمُبالغة في ذلك

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 135.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 61.

المَعنى الدالِّ على الشدَّةِ الصوتيَّة والصَّيحةِ الشّديدة، قالَ ابنُ عاشور: "فالصّاخَّةُ صارَتْ في القُرْآنِ عَلَمًا بالغَلَبَةِ عَلَى حادِثَةِ يَوْمِ القيامَةِ وانْتِهاءِ هَذا العالَم، وتَحْصُلُ صَيْحاتٌ، مِنْها أصْواتٌ تُزَلْزِلُ الأرْضَ واصْطِدامُ بَعْضِ الكَواكِبِ بالأرْضِ مَثَلًا، ونَفْخَةُ الصّورِ الَّتي تُبْعَثُ عِنْدَها النّاسُ"[1]، أي أُطلِقَت بالتخصيص على النّفخة الثانيةِ للقيامةِ، الَّتي يُنشَرُ فيها العبادُ ويُبعَثونَ، قالَ القونوي: "ولظُهورها ممّا بعدَهُ لم يُقيِّدْها"[2]، إذِ الفرارُ من الأقاربِ وانقسامُ الناسِ إلى نوعين قرينةٌ على أنَّها النفخةُ الثانية التي يُنشَرُ فيها الخلائقُ.

مِـــن شـــدّةِ الصاخَّة وقوّتِها أنَّـهـا تستمعُ لنفسِها

التعبير بـ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ بين الحقيقةِ والمَجاز:

عبّر النظمُ الكريمُ بلفظِ ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ اسمَ فاعلٍ في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ مُحتملاً الدلالةَ على الحقيقةِ الإسناديّة أوِ المجازِ العقليّ، وذلك أنّ الإسناد الحقيقيّ يكون بناءً على أنَّ ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ سُمّيت بذلك؛ "لأنَّها تصخُّ الأسماعَ، أي: تُبالِغُ في إسماعِها حتى تكادَ تصمُّها، قالَ الخليل: هي صيحةٌ تصُخُّ الآذانَ صَخًّا لشدّةِ وقعِها"[3]، فهي الصّيحةُ التي تصمُّ الآذانَ لشدّةِ وقعِها، "وقيل: هي مأخوذةٌ من صخَّهُ بالحجَر؛ أي: صكَّهُ، فتكونُ ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ حقيقةً في النّفخة"[4]، ويكونُ من إسنادِ الشيءِ إلى مَن هو لهُ.

وأما الإسنادُ المجازيُّ؛ فبناءً على أنَّ ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ مشتقّةٌ من: "صخَّ لحديثِه؛ إذا أصاخَ له واستمعَ، وُصِفَتْ بها النّفخةُ الثانيةُ؛ لأنَّ النّاسَ يَصيخونَ لها"[5]، يُقالُ: "صَخَّ لِحَديثِهِ مِثْلُ أصاخَ لَهُ، فوُصِفتِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 135.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 103.

(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1794.

(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 137.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 112.

النَّفْخَةُ بالصّاخَّةِ مَجازًا؛ لِأَنَّ النّاسَ يَصِخّونَ لَها أيْ يَسْتَمِعونَ"[1]، فجُعلتِ النفخةُ مُستمِعة مَجازًا في الإسنادِ؛ لكونِها سببًا له"[2].

دلالةُ الفصلِ في ﴿يَوۡمَ﴾:

فصلَ النظمُ الكريم قولَه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ﴾ عمّا قبلَه؛ لكونه استئنافاً بيانيًّا لهُ؛ إذ نشأ سؤالٌ مفادُه: ما حالُ زمنِ الصاخّة؟ فاستأنفَ مُبيّناً لها بقولِه: ﴿يَوۡمَ﴾، والتقديرُ: (أعني بالصّاخة يومَ يفرُّ)؛ وحينئذٍ يكونُ الظرفُ ﴿يَوۡمَ﴾ مَعمولاً لفعلٍ محذوفٍ تقديرُهُ (أعني)، قال الهرريّ: "أوْ منصوبٌ بمقدّرٍ؛ أي: أعني، ويكونُ تفسيرًا لـ ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾"[3]، والغرضُ من الفصل البيانُ التهويليُّ؛ إذ الصاخّةُ تهويلٌ ليوم القيامة، وتفسيرُها وبيانُها يكون زيادةً في ذلك التَّهويل؛ إذ يفرُّ المرءُ من أقاربِه الأدنين.

الإغــمــاضُ في أحـوالِ الصّاخَّة اقتضى التفسيرَ بلا خَصاصة

دلالةُ الظّرفِ ﴿يَوۡمَ﴾ وموقِعُه الإعرابيّ:

وقــتُ وقــوعِ الـصّـاخَّـةِ يـومُ فِرارٍ من الخاصَّة

عبّرَ النظمُ الكريم بلفظِ الظّرفِ ﴿يَوۡمَ﴾ مُضافاً لجملةٍ فعليّةٍ في قولِهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ﴾ بعدَ التعبيرِ بالظّرف (إذا) المُضافةِ لشَرطِها في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾، فيكونُ من اجتماعِ ظرفينِ مُضافينِ لجُملتينِ فعليّتينِ، الغرضُ منهما الإنذارُ والتخويفُ للمُخاطبين بأحداثِ زمنٍ استقباليٍّ تحصلُ فيه الصّاخّة ويفِرُّ المرءُ من أقاربِهِ الأدنين، ونظراً لكونِ الزّمنِ الثاني مُرتبِطاً بالزَّمنِ الأوّلِ وكاشفاً عنه؛ ذهبَ أغلبُ المُعربينَ والمُفسِّرين إلى أنَّ ﴿يَوۡمَ﴾ بدلٌ من (إذا) بدلَ كلٍّ من كلٍّ[4]، قُصِدَ منه التفسيرُ والتوضيحُ، قال الطّيبيُّ: "ثمَّ فسَّر في أيِّ وقتٍ تجيءُ فقال: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ﴾ بدلٌ من

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 61.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 104.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 137.
(4) السمين، الدر المصون: 10/ 696، والطيبي، فتوح الغيب: 16/ 302، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 137.

(إذا جاءت)، يعني: إذا رأى أعمالَهُ مُدوّنةً في كتابِهِ تذكَّرها وكانَ قد نَسيَها، فالمعنى: فإذا جاءَتِ الصّاخّةُ يومَ يفرُّ المرءُ من أخيه"[1]، وبناءً عليهِ يكونُ التركيبُ الظّرفيُّ الثاني مُبدَلاً ممّا قبلَهُ؛ لمزيدٍ من التأكيدِ والتقريرِ لوقوعِ ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ مع بيانِ شأنٍ من شُؤونِ وقتِها المُخيفة، وهو الفرارُ من الأقاربِ؛ لانشغالِ كلٍّ بحالِهِ ووضعِهِ. ورجّحَ القونويُّ الإبدالَ من الظّرف على الإبدالِ منَ الصّاخَّة والتفسيرِ لها بمُرجِّحٍ صناعيٍّ عبَّر عنهُ بقوله: "بدلٌ من ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ أوْ من (إذا جاءت الصاخة) وهو الظّاهر؛ لأنّه بدلُ الكلِّ، وعلى الأوّلِ بدلُ الاشتمال يَحتاجُ إلَى تقديرِ (الضَّمير)، أي يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ عنده"[2]، وإنْ كانَ المعنى على تقديرِ كونِهِ تفسيراً للصاخَّة قويّاً: "أي: في هذا اليوم الّذي ذهبَت فيهِ هذه الحياةُ الدّنيا، وجاءَتِ الصاخّة يكونُ شأْنُ ذلك الإنسان معَ المذكورين كذا"[3].

دلالةُ فعلِ (الفِرار) مادّةً وصيغةً:

الفِرارُ مِن رَوابطِ القُربى والجَسَد كالفِرار خَوْفاً مِنَ الأسَد

عبَّر النظمُ الكريمُ بفعلِ (الفِرار) مُضارعاً في قولِهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ﴾؛ للدِّلالة على الاستمرارِ التجدُّدي للفرارِ في ذلك اليوم؛ لكثرةِ انشغالِ كلٍّ واحدٍ منهُم بأمرِهِ وكيفيّةِ نَجاتِه، فهُم في حالةِ فرارٍ دائمةٍ مُتجدِّدة، وللدِّلالة بمادّته على الهُروبِ بقوّةٍ وعجَلة، إذ الفرارُ إنَّما يكونُ من الأشياءِ المُخيفة؛ كالفرارِ من الأسَدِ قَصْداً للنَّجاة، ففيه تصويرٌ لسُرعةٍ في الحركةِ معَ الابتعادِ عنِ المواجَهة لشدَّةِ الانشغال.

وفي التعبير بمادّة الفرار كذلك دلالة على شدّةِ الهَوْلِ وعِظَم الحِساب ومَرارةِ المَوْقِف، حتّى إنَّ الفعلَ المُخجِلَ عندَ العرب

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 302.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 104.
(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1794.

المَشهورينَ بالنّجدة وإجارةِ الخائفِ ومُساعدةِ المُحتاج يقومونَ به بلا تردُّدٍ، يقولُ ابن عاشور: "وَقَدِ اجْتَمَعَ في قَوْلِهِ: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ﴾ إلَى آخِرِهِ أبْلَغُ ما يُفيدُ هَوْلَ ذَلِكَ اليَوْم، بِحَيْثُ لا يَتْرُكُ هَوْلُهُ لِلْمَرْءِ بَقِيَّةً مِنْ رُشْدِهِ؛ فإنَّ نَفْسَ الفِرارِ لِلْخائِفِ مَسَبَّةٌ فيما تَعارَفوهُ؛ لِدِلالَتِهِ عَلَى جُبْنِ صاحِبِهِ، وهُمْ يَتَعَيَّرونَ بالجُبْنِ، وكَوْنَهُ يَتْرُكُ أعَزَّ الأعِزَّةِ عَلَيْهِ مَسَبَّةٌ عُظْمَى"(1).

دلالةُ (الفِرار) بينَ الحقيقةِ والمجاز:

كلٌّ منَ الإعراضِ والهُروبِ دالٌّ على الانشغالِ العَظيمِ بالمكتوب

عبّر النظمُ الكريم بفعلِ (الفرار) في قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ﴾؛ إمّا للدِّلالة به على مَعناهُ الحقيقيِّ، وهي الحركةُ المُتباعِدة معَ السُّرعة، قال الرازيّ: "يحْتَمِلُ أنْ يَكونَ المُرادُ مِنَ الفِرارِ ما يُشْعِرُ بِهِ ظاهَرُهُ وهوَ التَّباعُدُ والاِحْتِرازُ"(2)، وإمّا لكونِه مُستعاراً لعدمِ الالتفاتِ والإقبالِ أو للإعراضِ، قال النّيسابوريّ: "أي لا يلتفتُ إلى واحدٍ من أدانيه؛ لعِظَم ما هو فيه، وقال أبو علي: ليسَ يرادُ بـ(الفرار) هاهنا الشِّرادُ ولا النِّفار، ولكنَّ المعنى: يومَ يفِرُّ المرءُ من موالاةِ أخيه، أَوْ من مُساءلةِ أخيه؛ لاهتمامِه بشأنِه، وأنتَ تقولُ لمَنْ تُكلِّمُ: فرَرْتُ ممّا ألزمَكَ، لا تريدُ بذلك نِفارًا في المَحلِّ"(3)؛ فشبّهَ عدمَ الالتفاتِ أو الإعراضَ عنِ المذكورينَ بالفرار عنهُم مُبالغةً؛ بجامعِ عدمِ الاهتمامِ والاكتراثِ بأحوالِهم، ثمَّ حذفَ المشبّهَ وأبقى المشبَّه به على سبيلِ الاستعارةِ التصريحيَّة التبعيَّة، قالَ أبو السّعود: "أي يُعرِضُ عنهُم ولا يُصاحِبُهم ولا يَسألُ عن حالِهم كما في الدُّنيا؛ لاشتغالِه بحالِ نفسِه"(4).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 136.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 61.

(3) الواحدي، التفسير البسيط: 23/ 238.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 113.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ﴾:

تخصيص الفِرار في الكلام لخُصوصيَّة المَقام

أضافَ النظمُ الكريمُ لفظَ ﴿يَوۡمَ﴾ إلى ﴿يَفِرُّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ﴾، والتقديرُ: (يومَ فرارِه)، والغرضُ من الإضافةِ التخصيصُ والتقييدُ لذلك اليوم، الطّويلِ المُمتدِّ الّذي تقعُ فيه شؤونٌ كثيرة؛ منها الفرارُ عندَ تسلُّم الصُّحُف والانشغالِ بمُتابعتها، فيحدُثُ الفرارُ والإعراض، لكنْ بعدَ أنْ ينتهيَ ذلك تبدأُ الشّفاعة بينَ المؤمنين وغيرُها من أحوالِ ذلك اليوم؛ وإنَّما اقتصرَ النظمُ على صورةِ الفرار؛ لأنَّ السّياق في الإنذارِ من هَوْلِ ذلك اليوم، فناسبَ تقييدُ المضافِ بحالةِ المُضافِ إليه، ولذا قال القونوي: "والمُراد باليوم أمرٌ مُمتدٌّ يصحُّ وقوعُ أمورٍ كثيرةٍ فيه، ولعلَّ هذا في موطنٍ، والشّفاعةُ بينَهُم في مَوطنٍ آخرَ؛ فلا إشكالَ"[1].

دلالةُ التعريفِ بـ(أل) في ﴿ٱلۡمَرۡءُ﴾:

المَرْءُ الكافِر معَ الأقاربِ في تنافُر

عرّفَ النظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱلۡمَرۡءُ﴾ بـ(أل) في قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ﴾؛ إمّا للدلالةِ به على الاستغراقِ الكليِّ، فيكونُ شامِلاً لكل امرئٍ من أهلِ النّشر وهو يَنتظِرُ الصُّحُف بالأيمانِ أوْ بالشّمائل أوْ عندَ متابعةِ المُدوَّن فيها، أوْ للدّلالة بها على العَهْد في الإنسان الكافر المتقدِّم في قولِه: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾؛ إذ لمّا عايَنَ النّشرَ وأدركَ الخُسران المبين دخلَ في انشغالٍ بجنايتِه على نفسِه أذهلَتْهُ عن أقربِ المُقرَّبين إليه، وأمّا المؤمنونَ الّذين بُشِّروا بالفوزِ المُبين فإنّهم غيرُ مُنشغلينَ عن أقاربِهم؛ لاطمئنانِهم برضوانِ ربِّهم عليهم، في حينِ قال ابن عاشور: "والأَقْرَبُ أَنَّ هَذا فِرارُ المُؤْمِنِ مِنْ قَرابَتِهِ المُشْرِكِينَ خَشْيَةَ أَنْ يُؤاخَذَ بِتَبِعَتِهِمْ إذْ بَقوا عَلَى الكُفْرِ"[2].

بقي أنَّ التعبيرَ بـ﴿ٱلۡمَرۡءُ﴾ شاملٌ للرّجلِ والمرأة على سبيلِ التّغليب.

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 104.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 136.

دلالةُ ﴿مِنۡ﴾ في قوله ﴿مِنۡ أَخِيهِ﴾:

ذكرُ الابتداء أبلغُ عندَ عدمِ التعرُّضِ للانتهاء

عبّرَ النظمُ الكريم بلفظِ ﴿مِنۡ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ﴾؛ للدّلالة بها على البيانِ للمهروبِ عنهُ معَ الابتداءِ بالفرارِ منَ الأقارب دونَ تحديدٍ لِمَن يَنتهي إليهم الفرار، لكنَّه معلومٌ بطريق الأولويَّة؛ فإنْ بَدَأ الفرارُ من الأقاربِ فإنّه لا يَنتهي أمدُهُ، وذلك أبلغُ من التحديدِ للانتهاء؛ إذ يفيدُ العمومَ والكَثرة، ورأى ابنُ عاشور أنَّ حرفَ: "﴿مِنۡ﴾ هُنا يَجوزُ أَنْ يَكونَ بمَعْنَى (التَّعْليل) الَّذي يُعَدَّى بِهِ فِعْلُ الفِرارِ إلَى سَبَبِ الفِرارِ حينَ يُقالُ: فرَّ مِنَ الأَسَدِ، وفَرَّ مِنَ العَدوِّ، وفرَّ مِنَ المَوْتِ، ويَجوزُ أَنْ يَكونَ بمَعْنَى المُجاوَزَةِ مِثْلَ (عَنْ)"[1].

دلالةُ تقديم (الأخ)، وإضافته:

الأخُ في المُلمّات مُعينٌ لمواجهةِ الصُّعوبات

قدّمَ النظمُ الكريمُ (الأخَ) على المَهروبِ منهُم منَ الأقاربِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ﴾؛ للدّلالةِ على ظُهورِ المُعاونةِ والمُساعدة في (الأخ)؛ لقوّته على بقيَّةِ الأقاربِ المذكورينَ؛ وإنْ كانت قرابتُهُ أضعفَ في المودَّة ممّا بعدَهُ؛ لكنَّه الّذي يُتّكأ عليه في الصُّعوبات والمُلمّات، فإنْ كان مناطُ المُساعدةِ مَهروباً منهُ وعنه فمِن بابِ أولى بقيّةُ المذكورينَ ممّا بعده، بقي أنَّ الإضافةَ تدلُّ على مزيدِ الاتّصال بما يقوّي عُرى الارتباط.

دلالةُ الجمعِ بينَ (الأمِّ والأبِ):

الأبوانِ المُحسِنان يُعرِضُ عنهُما ذو الحِرمان

جمعَ النّظمُ الكريمُ بينَ (الأمِّ والأب) في قولِه تعالى: ﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾؛ للدِّلالة على قرابتِهما الشّديدة على السّواء، وقدّمَ الأمّ؛ لأنّها موطنُ المُعاونةِ والرّحمةِ والحنان، ومع ذلك يفرُّ المرءُ منها ولا يُعينُها، وفي هذا الجمع دلالة على شدَّة الهول في ذلك اليوم؛ إذ يفرُّ العبد من أحبِّ الناس إليه وهما أمُّه وأبوه.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 135.

دلالةُ ترتيبِ المَهروبِ منهم المَذكورين:

الترتيبُ التّنازليّ في القوّة أرجَحُ مِنَ الترتيبِ التّصاعُديّ في القُربى

توقّفَ المفسِّرون عندَ سرِّ ترتيبِ المهروبِ منهم المذكورينَ في قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾، واتّفقتْ كلمتُهم على أنَّ الترتيبَ ملحوظٌ فيه التّصاعُدُ بدرجةِ القُربى والمودّةِ والعلاقة؛ لأنّ السّياق في الفرارِ[1]، قالَ ابن عاشور: "وَرُتِّبَتْ أَصْنافُ القَرابَةِ في الآيَةِ حَسَبَ الصُّعودِ مِنَ الصِّنْفِ إلَى مَنْ هو أقْوَى مِنْهُ؛ تَدَرُّجًا في تَهْويلِ ذَلكَ اليَوْم؛ فابْتُدِئَ بالأخِ لِشِدَّةِ اتِّصالِهِ بأخيهِ مِنْ زَمَنِ الصِّبا، فيَنْشَأُ بذَلِكَ إلْفٌ بَيْنَهُما يَسْتَمِرُّ طولَ الحَياة، ثُمَّ ارْتُقيَ مِنَ الأخِ إلَى الأبَوَيْنِ وهُما أشَدُّ قُرْبًا لِابْنَيْهِما، وقُدِّمَتِ الأُمُّ في الذِّكْرِ؛ لِأنَّ إلْفَ ابْنِها بها أقْوَى مِنْهُ بأبيهِ ولِلرَّعْيِ عَلَى الفاصِلَة، وانْتُقِلَ إلَى الزَّوْجَةِ والبَنِينَ وهُما مُجْتَمَعُ عائِلَةِ الإنْسانِ، وأشَدُّ النّاسِ قُرْبًا به ومُلازَمَةً"[2]. وعلّقَ القونويّ على كلام البيضاوي: "وتأخيرُ الأحبِّ فالأحبِّ للمُبالغة؛ كأنَّه قيلَ: يفِرُّ من أخيهِ بلْ من أبوَيهِ بلْ من صاحبتِهِ وبَنيه"[3] بما نصُّه: "أي الكَلام للترقّي لا للتنزيل، هذا بناءً عَلَى الأغلبِ الأكثر؛ لكونِ الطِّباع مختلفةً؛ فمنهم مَن أحبَّ أخاه فرطَ محبّةٍ، ومنهم مَنِ اشتدّتْ محبّتُهُ لصاحبتِهِ وغير ذلك، لكنْ ما ذكره المُصَنّف هوَ الغالبُ الكثير"[4]. والَّذي يَرتضيهِ السّياق ويدلُّ عليه أنَّ الترتيب تنازليٌّ لهم: "بلحاظِ المُعاونةِ والقوّة، حيث إنّ الأخ أقدمُ، ثمّ الأمّ من جهةِ شدّة التعلّق، ثمّ الأبُ، ثمّ الصّاحبةُ والبنون"[5]؛ إذ الموقفُ للفرارِ يُناسِبُ الابتداءَ بالأقوى من جهةِ المُعاونة، فهي أرجحُ من لحاظِ درجةِ القَرابةِ قوّةً وضَعْفاً.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 270.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 135.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 288، والزمخشري، الكشاف: 4/ 705، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 137.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 104.

(5) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 9/ 48.

دلالةُ الإطناب بدلَ الإيجاز:

الإطنابُ في الإنذارِ الجليل يُحقّقُ المَزيدَ من التّهويل

عبّرَ النظم الكريم بأسلوبِ الإطناب في سَردِ الأقارب قوةً وضعفاً، في قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ دونَ الإيجاز؛ بأن يقولَ مثلاً: (يفرُّ من أقربِ المُقرّبين إليه)، وذلك: "لإحْضارِ صورةِ الهَوْلِ في نَفْسِ السّامِعِ"[1] من خلالِ التفصيلِ في مقامِ الإنذارِ والتّخويف والتذكير.

دلالةُ التلازُمِ والاكتفاءِ في الهاربِ والمَهروبِ منه:

الجمعُ بينَ الإيجازِ والإطنابِ مِن جَماليّاتِ الخِطاب

أوجزَ النظمُ الكريمُ من خلالِ الاتكاءِ على دلالتي (التّلازم والاكتفاء) في الإطنابِ الواردِ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾؛ لتحقيقِ دمجٍ أسلوبيٍّ بينَ الإطنابِ من جهةٍ معَ الإيجازِ فيه من جهةٍ أُخرى بالاعتمادِ على المُلازمةِ والاكتفاء، يقولُ ابنُ عاشور: "وَكُلٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ القَرابَةِ إذا قَدَّرْتَهُ هوَ الفارَّ كانَ مَنْ ذُكِرَ مَعَهُ مَفْرورًا مِنْهُ، إلّا قَوْلَهُ: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾؛ لِظُهورِ أنَّ مَعْناهُ: (والمَرْأةِ مِنْ صاحِبِها)، ففيهِ اكْتِفاءٌ"[2].

دلالةُ العُدولِ عنِ (الزّوجةِ) إلى (الصّاحبة):

الزّوجةُ الوَدودةُ الطّيّبةُ أهلٌ وبيتٌ وصاحِبة

عدلَ النظمُ الكريم في سَردِ الأقاربِ عن ذكرِ لفظِ (الزّوجة) إلى ذكرِ لفظِ (الصّاحبة) في قوله تعالى: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ مع أنَّ بقيّةَ الأقارب ذُكِروا بأسماءِ قَرابتِهم الأصليَّة، وفي ذلك يقولُ ابن عاشور: "وَإنَّما ذُكِرَتْ بِوَصْفِ (الصّاحِبَةِ) الدّالِّ عَلَى القُرْبِ والمُلازَمَةِ دونَ وصفِ (الزَّوْجِ)؛ لِأنَّ المَرْأةَ قَدْ تَكونُ غَيْرَ حَسَنَةِ العِشْرَةِ لِزَوْجِها؛ فلا يَكونُ فِرارُهُ مِنْها كِنايَةً عَنْ شِدَّةِ الهَوْلِ"[3].

سرُّ الفصل في جُملة ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ﴾:

بينَ الجوابِ والتّعليل يَعظُمُ التّهويل

فصلَ النظمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 136.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 136.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 136.

عمّا قبلَه؛ إمّا لكونِه دليلاً لجوابِ شرطِ (إذا) على رأيِ جُمهورِ المُفسِّرين، والتقديرُ: (فإذا جاءَتِ الصّاخةُ شُغِلَ كلُّ امرئٍ منهُم بمصالحِهِ عن الآخر)، والدليلُ على ذلك الجوابِ المَحذوف قولُهُ: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ﴾؛ وأمّا على رأيِ مَن جعلَ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ الآيات، دليلاً على جوابِ الشَّرطِ المَحذوف فإنَّ سرّ فصلِ هذه الجملةِ عمّا قبلَها فلأنّها استئنافٌ بيانيٌّ دالٌّ على التعليلِ للفرار؛ إذ سببُ الفرار حلولُ شأنٍ لكلِّ واحدٍ منهم يُشغلُهُ بنفسِهِ(1)، أو أنَّها "مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئْنافًا ابْتدائِيًّا؛ لِزيادَةِ تَهْويلِ اليَوْمِ"(2).

نكتةُ تقديمِ الخبر ﴿لِكُلِّ﴾:

التّشويقُ والاهتمامُ يَستدعيانِ التقديمَ في الكَلام

قدّمَ النظمُ الكريمُ مُتعلّقَ الخبرِ على المبتدأِ ﴿شَأْنٌ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ﴾؛ للدلالةِ على الاهتمامِ بمتعلّقِ الخبر؛ إذ المقصودُ بيانُ شأنِهم، كما أنَّ في التقديمِ تشويقاً لمعرفةِ ما لكلِّ واحدٍ منهم، تحقيقاً للمَزيدِ من الإصغاء، "وليَتَأتَّى تَنْكيرُ ﴿شَأْنٌ﴾ الدّالِّ عَلَى التَّعْظيمِ؛ لِأَنَّ العَرَبَ لا يَبْتَدِئونَ بالنَّكِرَةِ في جُمْلَتِها إلّا بمُسَوِّغٍ، ومِنْها تَقْديمُ الخَبَرِ عَلَى المُبْتَدَأِ"(3).

دلالةُ الإضافةِ في ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ﴾:

التنصيصُ على العُمومِ تحقيقٌ لدلالةِ المَفهوم

أضافَ النظمُ الكريمُ لفظَ (كلّ) إلى ﴿ٱمْرِيٍٕ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ﴾؛ للدّلالة على الاستغراقِ الكليِّ المُستفادِ التزاماً مِن قولِه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ ليكونَ تنصيصاً على إرادتِه، قال القونوي: "والمَعْنَى لكلِّ واحدٍ واحدٍ من هَؤُلاء المَذْكورين شأنٌ أي حالٌ حائلةٌ"(4)؛ إذ فُهِمَ من فرارِ المَرْءِ منهم عن الآخر أنَّ الجميعَ في حالةِ فرار، فأتى باللَّفظ الكليِّ المُستغرقِ للتنصيصِ

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1795.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 136.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 136.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 105.

على دلالةِ العمومِ وأنَّ سببَ فرارِ الكلِّ الإفراديّ الشأنُ الذي يشغلُهم جميعاً.

في التّكرار توكيدٌ للحُكم في الذّهن وإقرار

دلالةُ التّكرار والاكتفاءِ في ﴿ٱمۡرِيٍٕ﴾:

كرّرَ النظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱمۡرِيٍٕ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُمۡ﴾ بعدَ قولِه: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ﴾؛ للدِّلالة على أنَّ فرارَ المرءِ من المذكورين مُعلَّلٌ بأنَّ كلَّ امرئ منهم مُنشغِلٌ بشأنِه، فالتكرارُ للمَرءِ في الحُكمِ والتعليلِ مقرِّرٌ لحالةِ الفرارِ الكليِّ من خلال التنصيصِ على العلّةِ المتحقّقة في كلِّ امرئٍ منهم، وإنَّما عدلَ النظمُ عن الإضمار إلى الإظهارِ؛ لكمالِ التقرُّرِ في الذهن، واكتفى بذكرِ الرِّجال عن النِّساء تغليباً ومُقايسةً، قال القونوي: "وذكرُ (المرء) في الموضعين؛ لأنَّ عادة القُرآن العظيم الاكتفاءُ بذكر الرِّجال؛ لعلّم حالِ النِّساء بالمقايسةِ فيما لم يكُنْ خصّيصًا لهم، وإظهارُ ﴿ٱمۡرِيٍٕ﴾ في الثاني؛ لكمالِ التقرُّرِ في الذهن"[1].

التنصيصُ على المُقتضى توضيحٌ مُرتضَى

دلالةُ النّعت بالجارِّ والمجرورِ ﴿مِّنۡهُمۡ﴾:

نعتَ النظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱمۡرِيٍٕ﴾ النكرة بالجارِّ والمجرورِ ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُمۡ﴾؛ للدّلالة على التخصيص والتقييدِ؛ والغرضُ منه التنصيصُ على كلِّ واحدٍ واحدٍ من الأقارب في أنَّه مشغولٌ عن غيره لاهتمامِه بحالِه، فلو لم تتخصَّص النكرةُ بهذا المُخصِّص النعتيِّ لتوُهِّم أنّ ذلك الانشغالَ منحصرٌ في بعض دون بعض، فالنعتُ بالجار والمجرور تنصيص دالٌّ على عموم الانشغالِ بجميعِ المَذكورينَ، الَّذين لا يَخلو أهلُ المَحشَر من واحدةٍ من تلك العلاقات.

دلالةُ تكرارِ الظَّرف ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ وإضافتِه:

كرّرَ النظمُ الكريم ذكرَ (اليوم) في قولِه تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٍٕ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 105.

استحضارُ اليومِ بحدَثِه ربطٌ للتعليل بمُسبَّبه

﴿مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ﴾ بعدَ أنْ ذكرَ (اليوم) في قولِه: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ﴾؛ لزيادةِ التهويلِ لذلك اليوم، ولربطِ الانشغالِ بالشّؤونِ الخاصَّة بذلك اليوم الّذي يُعرِضُ فيه المرءُ عن أقاربِهِ المُقرّبين، فكما كرّرَ النظمُ (المرءَ) ونصّصَ على الجميعِ بالنّعت ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ كرّرَ (اليوم) لاستحضارِ فظاعتِهِ عندَ تعليلِه. بقي أنَّ (اليوم) وقعَ مضافاً لـ(إذ) الظرفيَّةِ الدالّةِ على الزّمن الَّذي وقع فيه الفرار، والتنوينُ فيها عوضٌ عن جملةِ ﴿يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ﴾، والغرضُ من الإضافةِ التخصيصُ بذلك اليوم؛ لأنَّ الاستدعاءَ الزّمنيَّ إنَّما سيقَ لربطِهِ بالزّمن الّذي وقعَ فيه الفرارُ الدّاعي إلى التّعليل.

دلالة التنكير في ﴿شَأۡنٞ﴾:

الكَفرةُ الضّالّون عَـنْ أقاربِهِم ذاهِلون

نكّرَ النظمُ الجليلُ لفظَ ﴿شَأۡنٞ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾؛ للدِّلالة بتنوينِه على التعظيمِ والتّفخيم؛ إذ كلمةُ (شأن) وحدَها تأتي في سياقِ الإبهامِ التعظيميِّ، المُحتاج إلى التفسيرِ والبيان؛ ولذا يقالُ: (لهُ شأنٌ عظيمٌ)، قال الهرري: "و(الشّأنُ) لا يقالُ إلّا فيما يَعظُمُ من الأحوالِ والأُمورِ"[1]. والغرضُ من الإبهامِ التعظيميِّ الإشارةُ إلى عِظَم ذلك الأمرِ الَّذي جعلَ كلَّ واحدٍ واحدٍ من أهلِ الكُفر في حالةِ انشغالٍ، لأنّ الظّاهر المناسبَ للسّياق أنَّ الكليّة الإفراديّة مختصّةٌ بالكفار، إذ جاءَهم من الشّأنِ والخطبِ العظيم ما أذهلَ كلَّ واحدٍ منهم عَن أقربائِهِ؛ فكيفَ بأنصارِهم وجماعاتِهم؟.

دلالةُ الفعل ﴿يُغۡنِيهِ﴾ مادّةً وصيغةً:

الشّأنُ المُغني هو الحالُ المُزري

عبّرَ النظمُ الكريم بفعلِ (الإغناء) مُضارِعاً في قولِه تعالى: ﴿شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾؛ للدِّلالة به على التجدُّدِ الاستمراريِّ لعمليّةِ الإغناءِ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 138.

مما يفيدُ وجودَ شأنٍ يَشغلُهُ أَوْ يَصرِفُهُ عن قرابتِهِ بشكلٍ متجدِّدٍ ومستمرٍّ في ذلك اليوم؛ لما فيه من صعوبةٍ وشدّةٍ وهولٍ وخوفٍ، وللدِّلالة بمادّتِهِ على حصولِ كفايةٍ تشغلُهُ أَوْ تَصرفُهُ عن الاهتمام بقرابتِهِ، كما تحصلُ للغنيِّ ثروةٌ تَشغلُهُ وتَصرفُهُ عنِ الاكتراثِ والاحتياجِ لغيرِهِ.

دلالةُ الاستعارةِ في ﴿يُغۡنِيهِ﴾:

التـهـكُّـم بـالمُـشـركـين بـحُـصـول ما يُـغـنـيـهـم عن قَـرابـتـهـم يـومَ الدّين

عبّرَ النظمُ الكريم بفعلِ (الإغناء) في قولِهِ تعالى: ﴿شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾، وأصلُهُ - كما قال ابن عاشور - : "جَعْلُ الغَيْرِ غَنيًّا، أيْ غَيْرَ مُحْتاجٍ لِشَيْءٍ في غَرَضِه، وقَدِ اسْتُعْمِلَ هُنا في مَعْنَى (الإشْغالِ)، والإشْغالُ أعَمُّ؛ فاسْتُعْمِلَ الإغْناءُ الَّذي هوَ نَفْعٌ في مَعْنَى الإشْغالِ الأعَمِّ عَلَى وجْهِ المَجازِ المُرْسَلِ أوِ الاسْتِعارَةِ؛ إيماءً إلَى أنَّ المُؤْمِنينَ يَشْغَلُهُمْ عَنْ قَرابَتِهِمُ المُشْرِكينَ فَرْطُ النَّعيم ورَفْعُ الدَّرَجاتِ، كَما دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ عَقِبَهُ: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ﴾ إلَى آخِرِ السّورَةِ"[(1)]. والّذي يترجّحُ لدينا أنَّ المجازَ هنا استعارةٌ تهكميّةٌ، وذلك بتشبيهِ الانشغال بأمرٍ مُزرٍ ومَعيبٍ وفيه الهمُّ والغمُّ بالإغناءِ وعدم الاحتياج إلى الغيرِ لثروتِهِ ومالِهِ العظيم، ثمَّ حذفَ المشبّهَ المضادَّ بقيودِهِ للمشبّه به كما هو قانونُ الاستعارةِ التهكُّميَّة، وأبقى المشبَّهَ به على سبيلِ الاستعارة التصريحيَّة، وكذا تتحقّقُ الاستعارةُ فيما لو كانَ معنى ﴿يُغۡنِيهِ﴾ يَصرفُه، "قالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: يُغْنيهِ أيْ يَصْرِفُهُ ويَصُدُّهُ عَنْ قَرابَتِهِ"[(2)]؛ إذ كلٌّ من الانشغالِ والانصرافِ لازمانِ للغنيِّ، وهذا وجهُ حكم ابن عاشورٍ بالمجاز المُرسَل، لكنَّ إرادة التشبيهِ التهكميّ للمُنشغل عن قرابتِهِ بالهمِّ العظيم بالغنيِّ المُنشغلِ بمالِهِ الوفير أرجحُ، "قالَ أهْلُ المَعاني: يُغْنيهِ أيْ ذَلِكَ الهَمُّ الَّذي بِسَبَبِ خاصَّةِ نَفْسِهِ قَدْ مَلَأَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 137.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 62.

صَدْرَهُ، فلَمْ يَبْقَ فيه متسعٌ لهمٍّ آخرَ، فصارت شَبيهًا بالغَنيِّ في أنَّهُ حَصَلَ عِنْدَهُ مِنْ ذَلِكَ المَمْلوكِ شَيْءٌ كَثيرٌ"(1). بقي أنَّ تفسيرَهُ المُنشغلَ بـ(المؤمنين) عن قَرابتِهم المُشركينَ مجرّدُ احتمالٍ، والأرجحُ منه انشغالُ المشركينَ بعضِهم عن بعضٍ، وأمّا المُؤمنونَ فلا يَفِرّون من قريبٍ كافرٍ ولا مُشركٍ ولا عاصٍ.

يعظُمُ الإنذارُ بتقسيمِ النّاسِ يومئذٍ إلى أخيارٍ وأشرارٍ

دلالةُ الفصلِ في جملة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾:

فصلَ النظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ عمّا قبله: إمّا لكونِهِ جوابَ الشَّرط على الرّاجحِ المختار؛ لأنَّ جواب (إذا) هو بيانُ انقسامِ الناس إلى فريقينِ دونَ انشغالِهم بعضِهم عن بعض؛ إذ الإنذارُ والتخويف يتلاءمُ مع مَن يكون المنذرُ ويَختار؟ قال ابنُ عاشور: "وَجُمْلَةُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ جوابُ (إذا)، أيْ إذا جاءَتِ الصّاخَّةُ كانَ النّاسُ صِنْفَيْنِ؛ صِنْفٌ وُجوهُهُمْ مُسْفِرَةٌ، وصِنْفٌ وُجوهُهُمْ مُغْبَرَّةٌ"(2). وإمّا لكونها استئنافاً بيانيًّا بعدَ تقدُّمِ الجوابِ المقدَّر بـ(شُغِلَ الناسُ بعضُهم عن بعض)؛ إذ بعدَ ذكرِ الأهوالِ وعدمِ إسعافِ أحدٍ لأحد في ذلك الموقفِ الرَّهيب، نشأ سؤالٌ عن حالِ الناس في ذلك اليوم؛ فبيّنَهُ بذلك التقسيمِ والتّصنيف للنّاس على نوعين، قال الرازي: "لَمّا ذَكَرَ حالَ يَوْمِ القيامَةِ في الهَوْلِ بَيَّنَ أنَّ المُكَلَّفينَ فيهِ عَلَى قِسْمَيْنِ؛ مِنْهُمُ السُّعَداءُ ومِنْهُمُ الأشْقياءُ"(3).

نكتةُ الابتداءِ بالنّكرةِ ﴿وُجُوهٌ﴾:

تنويعُ النّاسِ إلى فريقَينِ تهييجٌ لاختيارِ أحَدِ السَّبيلين

نكّرَ النظمُ الكريمُ لفظَ ﴿وُجُوهٌ﴾ الواقعَ مُبتدأً في قولِهِ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾؛ للدّلالة به على التنويع والتفصيل؛ قال ابن عاشور: "وَتَنْكيرُ ﴿وُجُوهٌ﴾ الأوَّلِ والثّاني لِلتَّنْويعِ، وذَلِكَ مُسَوِّغُ وُقوعِهِما

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 62.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 137.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 62، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 139.

مُبْتَدَأً"[1]؛ إذ انقسمَتِ الناسُ إلى نوعين؛ وجوهٌ مُستبشِرةٌ ووجوهٌ مُغبَرّة كالِحة، وذلك هو مُسوِّغُ الابتداء بالنّكرة، ويؤولُ هذا المسوِّغ إلى تقسيمِ العامِّ بقصدِ الحَصْر، فيكونُ من قبيلِ العُمومِ المخصَّص بالنّوعينِ الحاصِرين، والتقديرُ: (إذا جاءتِ الصاخّة فالناسُ على نوعين؛ نوعٌ كذا ونوعٌ كذا). قال القونوي: "﴿وُجُوهٌ﴾ مبتدأٌ، خبرُهُ ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾، ويَسوغ كونُ المبتدأ نكرةً إذا كان مفيدًا؛ مثلُ (كوكبٌ انقضَّ السّاعةَ)، بخلافِ (رجلٌ قائمٌ)، وهنا يفيدُ فائدَةً تامّةً لا سيَّما أنَّه يُنبئُ عن التّنويع، أي أحوالُ المكلّفينَ منقسمةٌ؛ فريقٌ منهم تبيَضُّ وجوهُهُم وهم السُّعَداء، وفريقٌ منهم تسوَدُّ وجوهُهُم وهم الأشقياء"[2]. ونكتةُ تنكيرِ المبتدأ إبهامُ المراد بها حتَّى يأتيَ التفسيرُ لها، وبذلك يتحقّقُ التشويقُ لمعرفةِ أصحابِ تلك الوجوهِ وصِفاتهم، فيزدادُ المُنذَرُ حِرصاً على أنْ يكون منهم إنْ أرادَ السَّلامة.

دلالةُ المَجازِ المُرسَلِ في ﴿وُجُوهٌ﴾:

الوُجوهُ الكاشِفة عـنِ الـسَّـعـادةِ الغامِرة

عبّرَ النظمُ الكريم عن سَعادةِ المُؤمنينَ وبَهجتِهم يومَ القيامة بقولِه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾؛ لأنَّ إسفارَ الوُجوهِ وإضاءَتَها يدلُّ على فرحةِ النفسِ وسَعادتِها، فيكونُ ذكرُ (الوجوه) مَجازاً مُرسَلاً من ذكرِ الجُزءِ وإرادةِ الكلِّ، وسرُّ الاقتصارِ عليها؛ لأنَّها الكاشفةُ عن فرحةِ القلوبِ والنّفوس؛ إذ الإسفارُ والإضاءةُ اللذانِ يكونانِ على الوجهِ مُظهرانِ لسعادةٍ غامرةٍ تملأُ النفسَ والرّوحَ.

دلالةُ تكرارِ الظّرفِ (يوم):

التكرارُ للزّمان تأليفٌ لقلبِ المُنذَرِ بالبَيان

كرّرَ النظمُ الكريم لفظَ (يوم) مُضافاً في قولِه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾؛ للدّلالة على التنويهِ بشَأنِ ذلك اليومِ المَهول، فيكونُ في تكرارِه تنبيهٌ للمُنذَرِ بصحَّةِ وقوعِه، وتحقيقٌ لكونِه يوماً كسائرِ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 137.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 105.

الأيام التي تأتي ويتحقّقُ جَرَيانُها حتى أُلِفَت، فلا مجالَ للإنكارِ بصحّةِ وقوعِهِ وحُصولِهِ؛ إذ هو يومٌ من الأيّام، لكنّه يومُ الجزاء والحساب بخلافِ هذه الأيّام التي للأعمالِ والأفعال. ونبّهَ ابنُ عاشورٍ إلى فائدةٍ تركيبيّةٍ لتكرارِ الظّرف بقوله: "وَإِعادَةُ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ لِتَأْكِيدِ الرَّبْطِ بَيْنَ الشَّرْطِ وجَوابِهِ، ولِطولِ الفَصْلِ بَيْنَهُما، والتَّقْديرُ: (وُجوهٌ مُسْفِرَةٌ يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أخيه)... إلَى آخِرِه، وقَدْ أَغْنَتْ إعادَةُ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ عَنْ رَبْطِ الجَوابِ بـ(الفاءِ)"[1].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾:

تخصيصُ (اليوم) لبيانِ كَرامةِ القَوْمِ

أضافَ النظمُ الكريمُ لفظَ (يوم) إلى الظَّرف (إذ) في قولِهِ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾؛ للدّلالة على التخصيصِ لليوم بظَرفٍ حدثَ فيه أمرٌ، ولذا كانَ التنوينُ في (إذ) تنوينَ عوضٍ عن جملةٍ[2]، والتقدير: (يومَ يفرّ المرء...)، والغرضُ من تقييدِ الظّرف بذلك الظّرف المُرتبطِ بحدثٍ مَهولٍ الدلالةُ على أنَّ كلَّ ذلك الحدث وما يقَعُ فيه من فرارِ المُشركينَ بعضِهم من بعض فإنَّ المؤمنينَ في حالةِ استبشارٍ وسُرور وجمالٍ وراحةٍ.

دلالةُ تقديمِ الظّرفِ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ على عاملِه:

انحصارُ الكرامة بأهلِ الاستجابَة

قدّمَ النظمُ الكريم الظّرفَ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ على عاملِهِ ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾؛ للدّلالةِ على الحَصْرِ والاختصاص؛ إذ ينحصِرُ الإسفارُ والاستبشارُ والسّرور في تلك الوجوهِ انحصارَ الصِّفة في الموصوف، فلا يتعدّاه إلى غيرهم، كما أنَّ التقديمَ لهُ حقّقَ رعايةً للفاصلة، قال القونوي: "و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مُتعلِّقٌ بالخبر؛ قُدِّمَ عليه لرِعايةِ الفاصلةِ، ولا يَبعُدُ الحَصْرُ"[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 137.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 139.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 105.

دلالةُ التّعبير بلفظِ ﴿مُّسۡفِرَةٞ﴾ مادّةً وصيغةً:

الاتّصافُ الاستمراريّ بحالةِ النّورِ والإسفارِ

عبّرَ النظمُ الكريم بلفظِ اسمِ الفاعل ﴿مُّسۡفِرَةٞ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ﴾؛ للدّلالة به على ثبوتِ وصفِ الإضاءةِ في ذلك اليومِ واستمرارِه في تلك الوجوهِ النّضِرة، كما يفيدُ الاتصافُ بالإسفار في الحالِ والاستقبال؛ مع أنَّ تلك الحالَ مُقترنةٌ بالخوفِ والفرار، إلّا أنَّهم في حالةِ استبشارٍ وإسفار، وليدلَّ بمادّته على الإشراقِ والجمالِ والنّورِ والضّياء؛ لأنه: "يُقالُ: أَسْفَرَ الصُّبْحُ، إذا ظَهَرَ ضَوْءُ الشَّمْسِ في أُفُقِ الفَجْرِ، أيْ وُجوهٌ مُتَهَلِّلَةٌ فرَحًا وعَلَيْها أثَرُ النَّعيم"[1].

سرُّ اختيارِ التعبيرِ بلفظِ ﴿مُّسۡفِرَةٞ﴾:

الوُجوهُ الإيمانيّة منيرةٌ مَلائكيَّة

اختارَ النظم القرآنيُّ لفظَ ﴿مُّسۡفِرَةٞ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ﴾؛ للدّلالة على أنَّ وجوهَ المؤمنينَ يومَ النّشرِ والحِساب قد صارَتْ من إضاءَتِها وجوهاً مَلائكيّة؛ إذ نُظِرَ إلى قولِه تعالى: ﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ﴾، وإنْ كان بمَعنى الكتبةِ أوِ السّفَراء، لكنَّهم وُصِفوا بـ(السّفَرة)، وحرصَ النظمُ على ربطِ إسفارِ الوُجوه بأولئك السّفرةِ الكرامِ البَرَرة.

دلالةُ بابِ (الإفعال) في ﴿مُّسۡفِرَةٞ﴾:

نسبةُ الوُجوه للإسفار مُبالغةٌ في كمالِ الأنوار

عبّرَ النظمُ الكريم باسم الفاعل ﴿مُّسۡفِرَةٞ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ﴾ المشتقِّ من الفعلِ الثلاثيِّ المزيدِ بالهمزة؛ للدّلالة بها على الدُّخول في الشّيء، والصّيرورةِ والانتسابِ لهُ على سبيلِ المُبالغة، فيقالُ: (أسفرَ الصُّبحُ) أي صارَ ذا إسفارٍ ودخلَ في وقتِه، ونسبَ إليه، فتكونُ الهمزةُ فيه للنِّسبة للشيءِ إلى ما هو أصلٌ له، والمعنى: صارتِ الوجوهُ ذاتَ إسفار، وليستِ الهمزةُ فيه للتّعدية،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 137.

ولذا قالَ القونوي: "وإليه أشارَ بقوله: (من إسفارِ الصبح وإضاءتِهِ من قيامِ الليلِ أَوْ من آثارِ الوضوءِ أَوْ من طولِ ما اغبَّرت في سبيل اللّه)[1]، والأَوْلى: مِن نورِ الإيمان والعملِ الصّالح؛ فإنّه عامٌّ لِمَن يقابلُ الفريقَ الثاني، بخلافِ ما ذكَرَ فإنَّه مختصٌّ ببعضِ المُؤْمنينَ ومحمولٌ عَلَى بَعْضِ أفرادِهِ الكاملةِ"[2].

سرُّ حذفِ مُتعلّق ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾:

إسفارُ الوُجوهِ المُؤمنةِ لأنَّها بالأعمالِ الصّالحةِ مُقترنة

حذفَ النظمُ الكريمُ المتعلِّق بـ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾؛ للدِّلالة على العموم، الَّذي يُعبّر عنه بالإيمانِ والعمَلِ الصّالح؛ فالوجوهُ ثبتَ لها الإسفارُ، لكنْ نشأ ذلك الإسفارُ من أمرٍ اختلفَ المفسِّرون في تحديده، فقيل: مِن آثارِ الوضوء[3]، وقيلَ: من قيامِ اللَّيل، وقيل: مِن طولِ ما اغبرّتْ به في سبيلِ اللّه ... إلخ، وعِنْدي أَنَّهُ بسَبَبِ الخَلاصِ مِنْ عَلائِقِ الدُّنْيا والاتِّصالِ بعالَمِ القُدْسِ ومَنازِلِ الرِّضْوانِ والرَّحْمَةِ[4]، والرّاجحُ أنَّ الَّذي يجمَعُ ذلك هو الإيمانُ والعملُ الصّالح؛ والقرينةُ الدالّة على تقديرِهِ ما وردَ في مُقابلِ هذه الوُجوه النيّرة مِن اتِّصاف الكافرينَ بالكُفر والفُجور، وكلاهُما مُقابلٌ للإيمانِ والعملِ الصّالح، كما أشارَ إليه القونوي[5].

دلالةُ الوَصفِ بـ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ مادّةً وصيغةً:

الوُجوهُ الضّاحكةُ منَ الأشرارِ ذَوي الوُجوهِ الكالِحة

عبَّرَ النظمُ الكريم باسمِ الفاعل ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾؛ للدِّلالة بصيغتِهِ على اتِّصاف الوجوهِ بالضّاحكة حالاً واستقبالاً، ممّا يُفيدَ دوامَ الاتصافِ وثبوتَهُ واستمرارَهُ. وللدِّلالة بمادَّته على انبساطِ الوجه وظهورِ شيءٍ من

(1) البيضاوي، انوار التنزيل: 5/ 288.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 105.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 139.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 62.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 105.

الأسنانِ فرَحاً وابتهاجاً بما نالَهُ من كرَمٍ وأمانٍ وفوز، فهي: "مَسرورةٌ فرحةٌ لما عَلِموا من الفوزِ والسّعادة، أوْ لفراغِهم من الحسابِ بالوجهِ اليَسير، والضّحك: هو انبساطُ الوجهِ وتكشُّرُ الأسنانِ من سُرور النفس، ولظهورِ الأسنانَ عندَهُ سُمّيت مقدّمةُ الأسنان (ضواحِكَ)، ويُستعملُ في السُّرور المجرَّد كما في الآية"[1].

دلالةُ الكنايةِ في ﴿ضَاحِكَةٌ﴾:

الضّحِكُ من الفارّ جزاءٌ مُخزٍ للكُفّار

كنّى النظمُ الكريمُ بلفظ اسم الفاعل ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ مُّسۡفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ﴾؛ للدِّلالة على السُّرورِ[2] والبَهجة والفرحَ بالفوزِ المُبين معَ جَوازِ إرادةِ المَعنى الحقيقي، إذ من لوازِمِ الضّحك في يوم يفِرُّ المرءُ من أخيه الفوزُ والسّرورُ والكرامةُ والحُبور، وإنَّما ذكرَ الضّحك في مقابلةِ أولئك الأشرارِ الذينَ كانوا من المؤمنينَ يَضحكون؛ ليصوّرَ بهجتَهُم وضحكَهم يومَ يفرُّ الأشرار من أقارِبهم وأهليهم.

دلالةُ الوَصفِ باسمِ الفاعِل ﴿مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾:

المُبالغةُ بالاستبشار مُناسِبةٌ للفَوزِ بدارِ القَرار

عبّرَ النظمُ الكريمُ باسم الفاعل ﴿مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾؛ للدِّلالة بصيغتِهِ على الاتّصاف بالبِشْر والسّرور اتّصافاً ثابتاً ومُستمِرًّا ودائماً؛ وليدلَّ بمادّته على حُصولِ السُّرور لتلك الوُجوه حُصولاً مُبالغاً فيه. قالَ ابنُ عاشور: "وَ﴿مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾ مَعْناهُ فرِحَةٌ، والسّينُ والتّاءُ فيهِ لِلْمُبالَغَةِ مِثْلَ: اسْتَجاب، ويُقالُ: بَشَرَ، أيْ فرِحَ وسُرَّ، قالَ تَعالَى: ﴿قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞ﴾ [يوسُف: 19] أيْ يا فرْحَتي. وذهبَ البِقاعيُّ إلى أنَّها للطّلَب، أي طالبةٌ للبشر، وهو تغيُّرُ البشَرة إلى السُّرور بعدَ أنْ كانتِ الوجوهُ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 139.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 137.

المؤمنةُ في تغيُّرٍ وشُحوبٍ مِن خشيةِ اللّه تعالى[1]، وبناءً على هذا يكونُ الطّلبُ مَجازيًّا؛ لأنّ البِشْر لا يُطلَبُ منه إلاّ بعدَ ارتكابِ الاستعارةِ المكنيّة، وهووجهٌ بعيد، والصّوابُ أنّها صيغةٌ لازِمةٌ دالّةٌ على السُّرورِ والتوقُّعِ لنَيْلِ الخيرِ بعدَ البَعث؛ لتحقُّق ما صدَّقت به ووقوعِه.

دلالةُ الإسنادِ المَجازيِّ في ﴿مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾:

إسنادُ الفعل للمحلِّ مبالغةً بالبِشْرِ الأجَلِّ

أسندَ النظمُ الكريم لفظَ ﴿مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾ لضميرِ (الوجوه) في قوله تعالى: ﴿ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾ إسناداً مَجازيًّا؛ "لِأَنَّ الْوُجوهَ مَحَلُّ ظُهورِ الضَّحِكِ والِاسْتِبْشارِ، فهوَ مِنْ إسْنادِ الفِعْلِ إلَى مَكانِهِ"[2]، قال المُظهري: "﴿ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾ وُصِفَت الوجوهُ بصفةِ أصحابِها مَجازًا"[3].

دلالةُ الكنايةِ في ﴿وُجُوهٞ﴾:

حُصولُ السُّرورِ والجَمالِ بطريقِ البُرهانِ والاستِدلال

كنَّى النظمُ القرآنيُّ بلفظ (الوُجوه) في قولِه تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾ عن (الذّوات)، قالَ ابن عاشور: "وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَ (الوُجوهَ) كِنايَةً عَنِ (الذَّواتِ)؛ كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ﴾ [الرَّحۡمَٰن: 27]؛ إذ يلزمُ من الوجوهِ أصحابُها، وحينئذٍ يكونُ إثباتُ الجمال والسُّرورِ بطريق البرهان والاستدلال؛ إذ يُصبحُ إثباتُ الإسفار والضَّحك والاستبشار للوجهِ بمَثابةِ الدَّليل على ثبوتِه لأصحابها، ويلزمُ منه إسنادُ الأخبارِ الثلاثة إلى ضميرِ الذّوات إسناداً حقيقيًّا، والذي يبدو أنَّه توجيهٌ بعيدٌ؛ لأنَّ الغرضَ بيانُ عظيمِ جمالِهم وفرحِهم حتى إنَّ وجوهَهم صارَتْ ذاتَ إسفارٍ وضحكٍ وبِشْرٍ.

نكتةُ الجمعِ بينَ (الضّحك والاستبشار):

جمعَ النظمُ الكريم بينَ (الضّحك والاستبشار) في قولِه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 272.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 138.
(3) التفسير المظهري: 10/ 203.

البِشْرُ والسُّرور يَليقُ بالمُؤمنين يومَ النُّشور

تعالى: ﴿ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾؛ إمّا للدِّلالة على أنَّ الضّحكَ للوُجوه وأصحابِها يتعلّقُ بالجانبِ الحسيِّ الظّاهر للنّاظِرين، وأنَّ الاستبشارَ لها ولأصحابِها يتعلَّقُ بالجانبِ المعنويِّ، الّذي يُضفي على الوجوهِ ارتياحاً وسُروراً؛ فالضّحك يُنبئ عن سُرورٍ قلبيٍّ ظاهريّ، والاستبشارُ يُنبئ عن بهجةٍ قلبيّةٍ معنويَّة، وقيل: ضاحكةٌ من مسرَّة العين، مُستبشِرة من مسرَّة القلب[1]. ولا يبعُدُ أنْ يكونَ الضَّحك من هؤلاءِ الَّذين هم في شَقاء، والاستبشارُ إحساسٌ بنزولِ الخيرِ بها والعَفْو عنها والإكرام لها، كما يمكنُ أنْ يكونَ الاستبشار تقييداً للضَّحك وبياناً له[2]، فالخبرانِ حينئذٍ بمعنى خبرٍ واحدٍ؛ بأنّه ضحكٌ يفيضُ بالسُّرور والبهجة، وليس مجرّدَ ضحكٍ لا يُضفي جَمالاً على الوجهِ وارتياحًا.

نكتةُ تعدُّدِ الأخبارِ:

الأنـوارُ البهيَّة والسَّعادةُ القلبيّة لأصحابِ الأعمالِ السّنيَّة

أخبرَ النظمُ الكريم عن (الوجوه) بثلاثةِ أخبارٍ في قولِهِ تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾؛ لإضفاءِ الجمالِ والسّرور والشُّعور بالكرمِ الإلهيِّ العظيم عليها، إذِ الخبرُ الأوّل أنبأ عن جمالِهم وضيائِهم وأنوارِهم البهيَّة، والثاني أخبرَ عن سُرورهم الظّاهر للعيان، والثالث أفادَ استشعارَهم بالفوزِ بدارِ الكرامةِ والبَقاء.

دلالةُ تقديمِ أوصافِ المؤمنينَ على أوصاف الكافِرين:

مِـن الـلّـطائـف بـأهـلِ الـشّـرَف تقديمُهُم على أهـلِ الـهَـوان والأسَف

قدّمَ النظمُ الكريم أوصافَ المُؤمنين في قولِهِ تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ﴾ على أوصافِ الكافرينَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ﴾، في حين عكسَ ذلك في (سورةِ النّازعات)، وعلّلَ ذلك ابنُ عاشور بقولِهِ: "وَقُدِّمَ هُنا ذِكْرُ وُجوهِ أَهْلِ النَّعيمِ عَلَى وُجوهِ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 139.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 139.

أَهْلِ الجَحيم خِلافَ قَوْلِه في سورَةِ النّازِعاتِ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧﴾ [النازعات: 37]، ثُمَّ قَوْلِه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [النازعات: 40] إِلَى آخِرِهِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ السّورَةَ أُقيمَتْ عَلَى عِمادِ التَّنْويه بشَأْنِ رَجُلٍ مِنْ أفاضِلِ المُؤْمنينَ، والتَّحْقيرِ لِشَأْنِ عَظيمٍ مِنْ صَناديدِ المُشْرِكينَ، فكانَ حَظُّ الفَريقَيْنِ مَقْصودًا مَسوقًا إِلَيْهِ الكَلامُ، وكانَ حَظُّ المُؤْمنينَ هوَ المُلْتَفَتَ إِلَيْهِ ابْتِداءً، وذَلِكَ من قَوْلِه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ إِلَى آخِرِهِ، ثُمَّ قَوْلِه: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾. وأمّا سورَةُ النّازعاتِ فقَدْ بُنِيَتْ عَلَى تَهْديدِ المُنْكِرينَ لِلْبَعْثِ ابْتِداءً مِنْ قَوْلِه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ٨﴾ [النازعات: 6 - 8]؛ فكانَ السّياقُ لِلتَّهْديدِ والوَعيدِ وتَهْويلِ ما يَلْقَوْنَهُ يَوْمَ الحَشْرِ، وأمّا ذِكْرُ حَظِّ المُؤْمنينَ يَوْمَئِذٍ فقَدْ دَعا إِلَى ذِكْرِهِ الاسْتِطْرادُ عَلَى عادَةِ القُرْآنِ مِنْ تَعْقيبِ التَّرْهيبِ بالتَّرْغيبِ"[1].

دلالةُ (الواو) في ﴿وُجُوهٌ﴾ والغرض منها:

العطفُ على الجواب لبيانِ حالِ أهلِ العَذاب

عطفَ النظمُ الكريمُ بـ(الواو) قولَه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ على ما قبلَها؛ استكمالاً لجوابِ الشَّرط ببيانِ حالِ أهلِ الصِّنف الثاني مِن الكُفّار والفُجّار بعدَ بيانِ حالِ أهلِ الإيمان والأعمالِ الصّالحة يومَ يفِرُّ المرءُ من أخيه، والجامعُ بين المتعاطفينِ التّضادُّ[2]؛ فالاقترانُ بينهُما خياليٌّ، وظيفتُهُ مزيدُ الإنذارِ والتهديد للمُخاطَبين بما يؤولُ إليه أمرُهُم في ذلك اليوم المَهول.

نكتةُ الابتداءِ بالنّكرة ﴿وُجُوهٌ﴾:

الإبهامُ والتنكير دالٌّ على التّشويقِ المُثير

نكّرَ النظمُ الكريم لفظَ (الوُجوه) في قولِه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا﴾؛ للدِّلالة على النوعيَّة؛ فهي وجوهٌ لنوعٍ آخَرَ يختلفُ عن النوع المتقدِّم في حالِهِ ومآلِه؛ لاختلافِهما في الدُّنيا صورةً ومعنىً؛ كما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 137.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 105.

أفادَ التنكيرُ إبهاماً وإجمالاً، يشوِّقُ السّامع لمعرفةِ أصحابِ تلك الوجوهِ الَّتي كانت أحوالُها قاتمةً، ممّا يؤدّي لمزيدِ الإصغاءِ والانتباه.

دلالةُ (وُجوه) على المَجازِ المُرسَلِ أوِ الكِنايةِ:

الحُـزْنُ والمَـرارة حـالُ أهـلِ الخَسارة

عبّرَ النظمُ الكريم بلفظِ (وُجوه) في قولِهِ تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ﴾؛ إمّا للدِّلالة بطريقِ المَجاز المرسَل على أصحابِها؛ من ذكرِ الجُزء وإرادةِ الكُل؛ إذ الحزنُ والهمُّ والغَبَرة والكُدورة تظهرُ على الوجوهِ البائنة من أصحابِها، أوْ للدّلالة بطريق الكنايةِ على الذَّوات مع احتمالِ إرادةِ المعنى الأصليِّ، وعلى كلا الاحتمالينِ فإنَّ المغبرَّ أصحابُ تلك الوجوه، لكن ذُكِرَ (الوجهُ) لمزيدِ الاهتمامِ بقُبحِهم وكُدورتهم وحُزنِهم الظّاهر على مُحيّاهم.

نكتةُ تكرارِ الظرف (يوم) مضافاً:

في يـومِ الـفِرار يتميَّزُ منَ الحُزنِ أهلُ النّار

كرّرَ النظمُ الكريمُ لفظَ (يوم) في قولِهِ تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا﴾؛ للدِّلالة على الاهتمام بذكرِ حالِ الفريقَينِ في ذلك اليوم، وأنَّ ذلك اليومَ يشتملُ على أمورٍ مُتضادّة في الأحوالِ للمُنشَرينَ؛ إذ فريقٌ منهم في سُرورٍ وحُبور، وفريقٌ آخرُ في غمٍّ ودُحور؛ ممّا يدلُّ على أنَّ يومَ الفرار مختصٌّ بالكفّار والفُجّار؛ الذينَ انشغَلوا خوفاً وهولاً بشؤونِهم عن أقاربِهم المقرَّبين، كما أفادَ تكرارُ الظّرفِ ربطَ الجوابِ بالشَّرط، حتى استغنى بإعادتِهِ عن (الفاء) الرّابطة.

سرُّ التعبيرِ بـ(على) والغرضُ منها:

استعلاءُ القُبحِ والإظلامِ على أعداءِ دينِ الإسلام

عبّرَ النظمُ الكريمُ بحرفِ الجرِّ (على) في قولِهِ تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ﴾؛ إمّا للدّلالة على الاستعلاءِ الحقيقيِّ إنْ كانتِ الغَبَرة بالمعنى الحقيقيِّ، ممّا يفيد استقرارَ الغبارِ على تلك الوجوهِ استقرارَ المُستعلي على المُستعلى عليه، وكأنَّ الوجوه صارتْ مكاناً للغُبار من شدّةِ ذلك الفرارِ والهُروب من أقربِ المُقرَّبين. أوْ للدِّلالة على الاستعلاءِ المجازيِّ إن كانت الغَبَرة بمعنى القُبْح والإظلام

والخوفِ والحُزن، قال القونوي: "وهذا أبلغُ مِن (مُغبرّة)؛ لأنَّه يفيدُ استعلاءَ الغُبارِ عليها بحَيْثُ لا يحيطُ الكَلامُ ببيانِهِ"(1).

سرُّ التعبير بالجملةِ الاسميَّة ﴿عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ﴾:

المقصودُ من ذكر الفريقين الإنذارُ لأهلِ الكُفر من المُخاطبين

عبّرَ النظم الكريمُ بالجملةِ الاسميّةِ ﴿عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ﴾ الواقعةِ خبراً عن المُبتدأ (الوجوه) في قولِهِ تعالى: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ﴾؛ للدّلالة بها على ثبوتِ ذلك الحُكم ثُبوتاً دائماً ومُلازماً، وهذا أبلغُ من الإخبارِ بالمُفرد (مُغبِرَة) في مُقابلةِ ﴿مُّسۡفِرَةٞ﴾ من قوله: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ﴾؛ إذ الجملةُ تشتملُ على الحكم بخلافِ المفردِ الدالِّ على مجرّدِ الوَصف، فيكونُ المقصودُ من ذكر حالِ الفريقينِ التهديدُ والإنذارُ للكفّار من المُخاطبين، وجاءَ ذكرُ حالِ المؤمنين تقويةً لذلك الانذار، حتّى يَشعُروا بعظيمِ الخيبة والحِرمان أنْ لم يكونوا في صفِّ أهلِ الإيمان.

دلالةُ لفظِ ﴿غَبَرَةٞ﴾ بين الحقيقةِ والكناية:

العُــــدولُ عن المَلزوم للمُبالغةِ بـشـدَّةِ الأحـزانِ والهُموم

عبّرَ النظمُ الكريم بلفظِ ﴿غَبَرَةٞ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ﴾: للدِّلالة بها إمّا على المعنى الحقيقيِّ، وهو الغبارُ الّذي امتلأتْ به وجوهُهُم حتّى صارَ لونُها غباراً داكناً، وذلك يتناسَبُ مع الفرارِ من الأقاربِ بالمعنى الحقيقيِّ؛ إذ الهروبُ المتزايدُ بين أهل الكُفران يؤدّي إلى إثارةِ الأتربةِ والغبار حتَّى يغدو لونُ وجوههم غُباراً قاتماً ودكنةً مُظلمة. وإما للدِّلالة على المعنى الكنائيّ وهو الهمُّ والحُزن والقُبح والإظلام، أو: "المذلّةُ والهوان"(2)؛ إذ يلزمُ من الغبَرة دلالاتُ الهمِّ والحزنِ الداخليِّ والقبحِ والإظلامِ الحسيّ، فيكون مُقابلاً للفظِ ﴿مُّسۡفِرَةٞ﴾ من قولِهِ تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ﴾؛ لأنَّ الإسفارَ هو الجمالُ والاستنارةُ والضّياء، فيكون مدلولُ ﴿عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ﴾ القبحَ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 105.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1796.

والإظلامَ والدّكنة نتيجةَ الهمِّ والحُزن؛ فيكونُ كنايةً عن ذلك من قبيل ذكرِ اللّازم وإرادةِ الملزوم؛ مُبالغة في شدّةِ حُزنهم الذي جعلَ وجوهَهُم مُظلمةً كئيبةً داكِنةً، قال القونوي: "والظّاهرُ أنَّ الغبرةَ كنايةٌ عن ظهورِ كمالِ الحُزن فيها، وإليه أشارَ بقوله: (وكدور)، ولا يبعدُ أنْ يرادَ بها المَعْنَى الحقيقيّ"(1).

دلالةُ التنكيرِ في ﴿غَبَرَةٌ﴾:

الغُبارُ والذُّلُّ الأشدّان لكلِّ كافرٍ ذي بُهتان

نكَّر النظمُ الكريم لفظَ ﴿غَبَرَةٌ﴾ مع تحريكِ (الباءِ) فيها بالفتح في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهَا غَبَرَةٌ﴾؛ للدِّلالة على شدّة الغُبار وكثرتِهِ وعظمتِهِ وفَخامتِهِ، قال ابن عاشور: "والغَبَرَةُ بفَتْحَتَيْنِ الغُبارُ كُلُّهُ، والمُرادُ هُنا أنَّها مُعَفَّرَةٌ بالغُبارِ إهانَةً ومِنْ أثَرِ الكَبَواتِ"(2)؛ وذلك لشدّة بَلواهم وعظيمِ أحزانِهم، ولذا قدّمَ الخبرَ ﴿عَلَيۡهَا﴾؛ ليتأتّى التنكيرُ الدالُّ على دكنةٍ قاتمةٍ وهمٍّ كبيرٍ ومذلّةٍ عظيمةٍ في ذلك اليوم.

دلالةُ الطِّباق في ﴿مُّسۡفِرَةٞ﴾، و﴿عَلَيۡهَا غَبَرَةٌ﴾:

الوُجوهُ المُؤمنة ذاتُ إسفار، والوجوهُ الكافرةُ ذاتُ غُبار

عبّرَ النظمُ الكريمُ بأسلوبِ الطِّباق في قولِهِ تعالى: ﴿عَلَيۡهَا غَبَرَةٌ﴾ لوصفِ وُجوهِ الكُفّار بالدُّكنةِ القاتمة، والإظلامِ الظّاهر الّذي منعَ مِن ظهورِ النّور في وجوهِهم، وحجبَ ضياءَها وإشراقَها، بخلافِ أنوارِ المُؤمنينَ المُتلألئةِ التي تشعُّ في وجوهِهم المُسفرة في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ﴾، والغرضُ من الطِّباق بيانُ التفاوت العظيم لتلك الوجوه استنارةً وإظلاماً، وجمالاً وقُبحاً، وأمناً وخَوْفاً، وعِزّةً ومذلّةً، ممّا يُضفي درساً بليغاً للمُخاطبين المُنْذَرين بالعودةِ سريعاً إلى صنفِ الفائزين، والدخولِ في زُمرة عبادِ اللّه الصّالحين.

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 105، والبقاعي، نظم الدرر: 21/ 272.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 138.

الهُمومُ المُرهِقة أحزانٌ مُستمرّة دائبة

دلالةُ التعبيرِ بالفعل ﴿تَرۡهَقُهَا﴾ مادّةً وصيغةً:

عبّر النظمُ الكريمُ بالفعلِ المُضارع (تَرهَقُ) في قولِه تعالى: ﴿تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾؛ للدِّلالة بصيغتِه على الاستمرارِ التجدُّدي لذلك الّذي يَغشاها وينزلُ بها ويَعلوها حتى أصابَها بالرّهق، فلولا تجدُّدُ الأحزانِ واستمرارُ الهموم لما وصلَتْ إلى ذلك الرّهَق المُستمرِّ المُتجدِّد. وللدِّلالة بمادّتِه على نزولِ أمرٍ وغَشَيان همٍّ، فقوله ﴿تَرۡهَقُهَا﴾: "أي: تدركها عَنْ قُرْبٍ، كَقَوْلِكَ رَهِقْتُ الجَبَلَ إذا لَحِقْتَهُ بسُرْعَةٍ، والرَّهَقُ عَجَلَةُ الهَلاكِ"[1]، لكنّه غَشَيانٌ ونزولٌ يؤدّي إلى الإرهاقِ والتعَبِ مع المذلّةِ والهوان والقهر، ولذا قال البِقاعيُّ: "﴿تَرۡهَقُهَا﴾ أي تَغشاها وتقهَرُها وتَعلوها"[2]، حتى إنَّه يقال: (أرهقَني هذا الأمرُ) أي لمّا غَشيني وعلاني الكربُ أتعبَني وأهمّني وأوصلَني إلى حالةِ التعبِ المُرهِقِ الّذي لا يخلو من ضعفٍ ومَهانة، ولذا عدلَ النظمُ عن (تَغشاهُم أوْ تعلوهُم قترة).

ثبوتُ الكُفران وتجدُّدُ الفُجور شأنُ أهلِ الخُسرانِ والثُّبور

دلالةُ الإخبارِ بالجملةِ الفعليّة ﴿تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾:

أخبرَ النظمُ الكريم عن (الوجوه) بخبرَين، أوّلُهما جملةٌ اسميّةٌ ﴿عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ﴾ وثانيهما جملة فعليَّة: ﴿تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾؛ للدِّلالة على أنَّ الإظلامَ والقبحَ وعدمَ الإشراق بالأنوار ثابتٌ على سبيلِ الاستمرارِ والدّوام لا ينفكُّ عنها، وأمّا الشّعورُ بالرهَق وغشيانُ القَتَر فإنَّه يتجدّدُ وينقطِعُ على سبيل الاستمرار؛ فيكونُ اختيارُ الجملةِ الاسميّة مُناسباً لكُفرِهم المستمرِّ باللّه تعالى استمراراً دائِميًّا ثابتاً، واختيارُ الجملةِ الفعليَّة مُناسِباً لفُجورهم المتجدِّدِ على سبيلِ الاستمرارِ لكنّه يظهَرُ مُتقطِّعاً؛ إذ الكفرُ اعتقادٌ غيرُ مُفارقٍ، بخلافِ الفُجور وأعمالِه المُتقطِّعة، فيكون

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 62.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 272.

التوصيفُ بـ﴿عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ﴾ مُرتبِطاً بلقبِ ﴿ٱلۡكَفَرَةُ﴾، و﴿تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ مُرتبِطاً بلقبِ ﴿ٱلۡفَجَرَةُ﴾.

سرُّ اختيارِ التعبيرِ بلفظ ﴿قَتَرَةٌ﴾:

بـينَ الـدُّخـانِ الأسودِ والضّيقِ النّفسيّ يُعاني أهـلُ الـفُـجـورِ والمَعاصي

عبّرَ النظمُ الكريم بلفظِ ﴿قَتَرَةٌ﴾ في قولِه تعالى: ﴿تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾؛ للدِّلالة بها - كما يرى جمهورُ المفسِّرينَ - على لونٍ يُشبِهُ الدُّخانَ الأسودَ نتيجةَ الحزنِ والكربِ والغمِّ[1]، قال ابن عاشور: "والقَتَرَةُ: بفَتْحَتَيْنِ شِبْهُ دُخانٍ يَغْشَى الوَجْهَ مِنَ الكَرْبِ والغَمِّ، كَذا قالَ الرّاغِبُ، وهوَ غَيْرُ الغَبَرَةِ كَما تَقْتَضيهِ الآيَةُ؛ لِئَلّا يَكونَ مِنَ الإعادَةِ، وهيَ خِلافُ الأصْلِ ولا داعيَ إلَيْها، وسَوَّى بَيْنَهُما الجَوْهَرِيُّ وتَبِعَهُ ابْنُ مَنْظورٍ وصاحِبُ القاموسِ"[2]. وبذلك تكونُ (القتَرة) لوناً يجتمِعُ مع لونِ الغَبَرة، مع أنَّ المناسبَ في مقابلةِ قوله: ﴿ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾، وقوله ﴿ٱلۡفَجَرَةُ﴾ أنْ تكونَ (القترة) بمعنى الضّيق النفسيّ وعدم انبساطِ أساريرِ الوَجه؛ إذ (القترُ والتقتير والقُتور) يدلُّ على الضّيق وعدم البَسْط، فتكون وجوهُهُم كالحة ونفوسُهم ضيِّقة غيرَ مُنبسِطة، بخلافِ وجوه المؤمنينَ الضّاحكة المُستبشِرة المُنبسِطة والمُنشرِحة. كما أنَّ المناسبَ للفُجور أنْ تكونَ ضيّقة ومُتعَبةً، فكما كانتِ (الغَبَرة) مناسبةً للكُفر بتغطيةِ الأنوارِ الإيمانيّة فغُطّيَتْ وجوهُهم بحِجابٍ داكنٍ؛ فإنَّ القتَرة والضّيق النفسيَّ الّذي ارتسمَ على وجوههِم فبدا عليهم الرّهَق مناسبٌ للفجورِ المُصيبِ لهم بالرّهَق والتّعب. قال المصطفوي: "كما أنّ (القتور) وهو التضيّقُ يُناسِبُ الفجور، وهو التّمايُلُ عنِ الحقّ، فإنّ الإنسانَ كلّما مالَ عنِ الحقّ والنّور فقد وقعَ في مضيقِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 706، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 140.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 138.

الظُّلمة والقُتور، ويدلّ على هذا المَعنى مقابلتُها بآية: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ﴾ أي مُضيئة"[1].

دلالةُ الطِّباق:

الطِّباقُ في الكلام دالٌّ على التجوُّزِ في المَرَام

أتى النظمُ الكريمُ بأسلوبِ (الطّباق) في قوله تعالى: ﴿تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ المُقابلِ تقابلَ التضادِّ مع قوله: ﴿ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾؛ إذ وصفُ الوجوهِ بالضّيق وعدمِ الانبساط الدالّ على الغمِّ والكرْبِ الشّديد يقابلُ وصفَ الوجوهِ بالضّحك والاستبشارِ والانبساطِ بفضل اللّه ورحمتِهِ، وفي ذلك الجمعِ بينَ الحالتينِ المُتضادّتين قرينةٌ على أنّ المجازَ في (الغَبَرة) أرجحُ من الحقيقة، وأنَّ ضَحِكَ الوجوهِ كنايةً عن السّرور أرجحُ من الضَّحك الحقيقي، لكنْ لمّا كان السُّرور والحُزن والهمُّ والنّكَدُ والكربُ النفسيّ يظهرُ على الوجهِ ولونِهِ عبَّر النظم عن ذلك بأوصافٍ حسيّةٍ، والمرادُ بها دلالاتُها المجازيّة.

نكتةُ الفصلِ في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾:

التوكيدُ لدلالةِ التبادُر، والاستئنافُ لدفعِ توهُّمِ المُكابِر

فصلَ النظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾ عمّا قبلهُ؛ إمّا لتنزُّلِ الجملةِ فيهِ ممّا قبلَها منزلةَ التوكيدِ؛ إذ عُلِمَ من السّياق أنَّ هذه أوصافُ الكافرينَ، قال ابن عاشور: "وَهَذِهِ وُجوهُ أَهْلِ الكُفْرِ، يُعْلَمُ ذَلِكَ مِنْ سياقِ هَذا التَّنْويع، وقَدْ صُرِّحَ بذَلك بقَوْلِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾ زيادَةً في تَشْهيرِ حالِهِمُ الفَظيعِ لِلسّامِعينَ"[2]، وهذا هو المُتبادَرُ من ظاهرِ السّياق في أذهانِ المُؤمنين. أوْ للدلالةِ على الاستئنافِ البيانيِّ، المُفيدِ لدفعِ توهُّمِ أنَّ تلك الوجوهَ النيّرة هي وجوهُ المُكذِّبين بدعوةِ الإسلام، وأنَّ الوجوهَ الأخرى هي وجوهُ المُصدِّقين بدعوةِ الإسلام، إذ كانَ هؤلاءِ المُكذِّبون يزعمونَ أنَّهم إنْ بُعثوا ليكونَنَّ لهم الجزاءُ الأوفرُ عند اللّه، كما لهم

(1) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 7/ 201.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 138.

منَ النَّعيم في الدُّنيا، فنفى هذا التوهُّمَ؛ بأنَّ هذه الوجوهَ المظلمةَ الكالحة والنفوسَ الضيِّقةَ الحزينة هي وجوهُ الكفَرة والفَجَرة.

نكتةُ التعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبَعيد:

التـهـكُّـم بـالـكـافـريـن لاستخفافِهم بالدّينِ المُبين

عبّرَ النظمُ الكريم باسم الإشارةِ الموضوع للمحسوسِ الحاضرِ المُشاهَد في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾؛ للدِّلالة على تمييزِ حالِهم وتشخيصِ ذواتِهم بأوضَحِ مُميِّزٍ ومُعرِّف وهو اسمُ الإشارة بحيثُ لا يُتوهّمُ أنَّهم غيرُهم ولا يتأتّى ذلك أصلاً؛ فكأنَّهم قد نُشِروا وبُعِثوا وأشارَ إليهم إشارةَ الحاضِرِ المُخاطَبِ أمامَ الجميع.

وعبَّر باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموضوعِ للمُشارِ إليه البعيد؛ للدِّلالة على التهكُّم بهم؛ إذ يَعتقدونَ العظمةَ في نُفوسِهم ومَآلِهم؛ فخابَ ظنُّهم وسقطَ تصوُّرُهم، فأشارَ إليهم باسمِ الإشارةِ الموضوعِ للبعيد الدّالِّ على عظمةِ مَنزلتهم؛ للتهكُّم بهم والاستخفافِ بحالِهم الَّتي وصلوا إليها.

دلالةُ العُدولِ عن (تلك) إلى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

العَوْدُ بالتذكير دالٌّ عـلى إرادةِ المَجازِ الأصيل

عدلَ النظمُ الكريم عن اسمِ الإشارة (تلك) إلى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾ مع أنَّ الأنسبَ في العَوْدِ على ما تقدَّمَ من ذكرِ (الوجوه) كونُ اسمِ الإشارة هو (تلك)؛ وذلك العدولُ للدِّلالة على مُراعاةِ الخبرِ المُذكَّر، وليكونَ قرينةً على أنَّ التعبيرَ بـ(الوجوه) فيما تقدّمَ أريدَ به أصحابُها، كما يدلُّ عليه صريحُ لفظَي: ﴿ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾.

سرُّ التعبيرِ بالضَّميرِ ﴿هُمُ﴾:

انحِصارُ المَذكور في الجامِعينَ بينَ الكُفرِ والفُجور

عبّرَ النظمُ الكريمُ بضميرِ الفصلِ ﴿هُمُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾؛ للدِّلالة على الحَصْرِ أوَّلاً، والتقوّي للحُكم ثانيًا؛ إذ انحصرَ وصْفا الكفرةِ الفجرةِ في أصحابِ وجوهِ أولئك المَنشورينَ دونَ غيرهم معَ تقويةِ الحُكم وتأكيدِه؛ نفياً لأيِّ

شكٍّ أوْ إنكار. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الفجرةَ بلا كُفْرٍ لا يجتمعُ فيه ذلك التوصيف، بل يكونونَ في ضيقٍ نفسيٍّ دونَ كُدرةٍ لونيَّة وحزنٍ عميق؛ لوجودِ شَرارةِ الإيمانِ في صُدُروهم، ولذا قال الهرري: "وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الفجور الغيرَ المُقارنِ بالكفر ليسَ في درجةِ المُقارنِ في المذموميَّة والسببيَّةِ للحَقارةِ والمَهانة والخِذلان، إذ أصلُ الفجور: الكذبُ والمَيلُ عن الحقِّ، ويُستعمَلُ في الذّنب الكبيرِ، وكثيرًا ما يقعُ ذلك من المؤمِنِ العاصي"[1].

دلالةُ التعريفِ بـ(أل) في لفظَي ﴿ٱلۡكَفَرَةُ﴾ و﴿ٱلۡفَجَرَةُ﴾:

المُبـالـغـونَ في الكُفْر والفُجور مَفضوحونَ يومَ النُّشور

عرّفَ النظمُ الكريم لفظَي ﴿ٱلۡكَفَرَةُ﴾ و﴿ٱلۡفَجَرَةُ﴾ بـ(أل) في قولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾؛ للدِّلالة على الجنسِ المرادِ به تحقُّقُ الوَصفينِ في أولئك المذكورينَ بأحوالهم وأشكالِهم وألوانِهم على سبيلِ الكمالِ في الاتّصاف والمبالغةِ، بحيث صارَ الكفر والفجورُ منهم طبعَينِ يتّسمونَ ويُعرفونَ بهما.

دلالةُ تعريفِ طَرَفَي الكلام:

انحصارُ الكُفر والفُجور فيمَن اعترَتْهُم الغَبَرَةُ وغشيَهم القُتور

أوردَ النظمُ الكريمُ كلاًّ من المبتدأ والخبرِ مُعرّفاً في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾؛ فالمبتدأ معرّفٌ بالإشارةِ إلى مُعيَّن، والخبرانِ معرّفان بـ(أل) الدالّةِ على الحقيقتينِ المعلومتينِ في الذِّهن؛ وذلك للدِّلالة على الحَصْرِ والقصرِ لوصفَي (الكُفر والفُجور) في أصحابِ تلك الوجوهِ المُغبرَّة المُرهَقةِ بالقَتَرة.

دلالةُ العُدول إلى جمعِ التكسيرِ المذكور ﴿ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾:

لِتَوالي الحَركات في الصّيغة دلالةٌ على المُمارسَة الكثيفة

عدلَ النظمُ الكريمُ إلى جمعِ التّكسير ﴿ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾ بدلَ التعبيرِ بالجَمعِ السّالم (الكافرينَ والفاجِرينَ) أوْ بالجمعِ المُكسَّر (الكُفّار الفُجّار)؛

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 140.

لتحقيقِ رعايةِ الفاصلةِ، وللدِّلالة على المُبالغةِ في الكُفر والفُجور مبالغةً شديدةً، دلَّ عليها توالي الحركاتِ في الصّيغةِ توالياً مُفيداً لكثرةِ المُمارسةِ والاتّصاف بكلٍّ من الكُفرِ والفُجور حتَّى صاروا كَفَرةً فجَرةً.

دلالةُ تركِ العاطِفِ في ﴿ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾:

أعـلَى دَرَجـاتِ الشُّرور اجتِماعُ الكُفرِ بالفُجور

جمعَ النظمُ الكريمُ بينَ الخبرينِ بلا عطفٍ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾؛ للدِّلالة على "اجتماعِ الوَصفينِ في مَوْصوفٍ واحدٍ، أوِ التَّنْبيهِ على أنَّ كلَّ واحدةٍ منهما صفةٌ ذميمةٌ عَلَى حيالِها، يفيدُ كمالَ قُبحِ مَوْصوفها؛ فما ظنُّك في اجتماعِهما؟ وهذا هوَ الأَوْلى؛ إذ الوجهُ الأوّلُ ثابتٌ في صورةِ العَطْف بـ(الواو)"[1]. والحاصل أنَّ تركَ العطفِ دلَّ على اجتماعِ الخبرينِ في مُخبَرٍ عنه واحدٍ، وأمّا إنِ انفردَ وصفُ (الفجور) كما في صورةِ المُؤمنِ العاصي فإنَّ ذلك مُؤذِنٌ بالضّيق وعدمِ السُّرور لخوفِهِ مِن انحرافِهِ عن الشَّرعِ الحَكيم.

دلالةُ تقديمِ ﴿ٱلۡكَفَرَةُ﴾ على ﴿ٱلۡفَجَرَةُ﴾:

أعـظَـمُ أنــواعِ الـفُـجـور الـكُـفر بـمَن بيدِهِ كافّةُ الأُمور

قدّم النظمُ الكريم الإخبارَ بـ﴿ٱلۡكَفَرَةُ﴾ على الإخبارِ بـ﴿ٱلۡفَجَرَةُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾؛ لشناعتِهِ[2]، وعظيمِ قُبحِهِ مقارنةً بالفُجور؛ إذ الكفرُ أعظمُ أنواعِ الجُرأةِ على اللّٰه تعالى، بخلافِ الفجورِ الَّذي هو ضعفٌ إنسانيٌّ إزاءَ تنفيذِ الأوامرِ وتركِ النَّواهي، من دونِ اعتداءٍ على الذاتِ الجليلةِ بالتكذيبِ والتّشكيك؛ إذ فجورُ المكذِّب يقومُ على جَحْدٍ باللّٰه تعالى أصلاً وبشريعتِهِ، وفجورُ المؤمنِ يقومُ على تصديقٍ باللّٰه تعالى وشريعتِهِ عندَ الإقدامِ على فُجوره، ولذا يشعرُ بالنّدمِ والخوفِ من اللّٰه تعالى.

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 106.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 106.

سرُّ عدمِ الاكتفاءِ بـ﴿ٱلۡكَفَرَةُ﴾ عن ﴿ٱلۡفَجَرَةُ﴾:

التصدّي للجامعِ بينَ الكُفرِ والفُجور، والتلهّي عن الجامعِ بينَ التصديقِ والعمَلِ المَبرور

لم يكتفِ النظمُ القرآنيُّ الحكيمُ بوصفِ ﴿ٱلۡكَفَرَةُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾ معَ أنَّ الكفرَ أعظمُ من الفجورِ وأشنعُ، ومَن كان كافراً باللّه تعالى لا يُقبَلُ منه تنفيذٌ لشريعتِه، ولا يُقدِمُ على العمَلِ إيماناً؛ "لِما في مَعْنَى الفُجورِ مِنْ خَساسَةِ العَمَلِ، فذُكِرَ وصْفاهُمُ الدّالّانِ على مَجْموعِ فسادِ الِاعْتِقادِ وفَسادِ العَمَلِ"[1]، وفي ذلك تعريضٌ بمَن تصدَّى له الرّسولُ الأكرمُ ﷺ من صناديد قريش طمَعاً في إيمانِهم؛ فقد جمَعوا بين الكُفرِ والفُجور، ومَن تلهَّى عنه ممَّن كان جامعاً بينَ الإيمانِ والعمَلِ الصّالح، قال البقاعيّ: "فقد عادَ آخِرُها على أوّلِها فيمَن يستحقُّ الإعراضَ عنهُ ومَن يستحقُّ الإقبالَ عليه"[2].

سرّ الاكتفاءِ بتوصيفِ الوُجوهِ المُغبِرة:

محطُّ التهديدِ والإنذار الوعيدُ للكُفّار والفُجّار

اكتفى النظمُ القرآنيُّ ببيانِ أصحابِ الوجوهِ المُغبِرة في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾ دونَ بيانِ أصحابِ الوُجوه المُسفرة، وإنْ كان ذكرُ أوصافِ أصحابِ الوجوهِ المُغبرة بالكفرةِ والفجرة يستلزمُ أنْ يكونَ أصحابُ الوجوهِ المُسفرة مُتّصفةً بالإيمانِ والعمَلِ الصّالح، ولعلَّ ذكرَ أصحابِ النّوعِ الثاني؛ لأنَّهم محطُّ الإنذارِ والتهديد، فكان ذكرُهُم وتعيينُهُم أوفقَ بالنّظم ومَقصَدِه.

دلالةُ التعبيرِ بالوصفِ ﴿ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾:

تعليلُ اربدادِ الوُجوه بالكُفر والفُجور المَكروه

أخبرَ النظمُ الكريم عن أصحابِ الوُجوهِ المُغبرة بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾؛ ليكونَ تعليلاً لاربدادِ وجوهِهم وتغيُّرِ أشكالِهم وضيقِ حالِهم مع شدّةِ خوفِهم وذُعرِهم، بكُفرِهم باللّه تعالى وفُجورِهم في حقوقِ العباد، فيكونُ من تعليقِ الحُكم بالمشتقِّ للدّلالة على علَّة مبدأِ الاشتقاقِ له.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 138.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 273.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفِرارُ والهُروب:

الـفِـرارُ أخـصُّ مُـطـلـقـاً مِـن الهُروب

الفرارُ الحركةُ السّريعةُ مُدبِراً للتخلُّصِ عنِ ابتلاءٍ أوْ لانكشافِ ابتلاءٍ، في حين أنَّ الهروبَ مُطلَقُ الحركةِ السَّريعة، مِن مقصَدٍ أوْ إلى مَقصَدٍ[1]، ومِن ثمَّ عبّر النظمُ القرآنيُّ بـ(الفِرار) في قولِهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ﴾؛ لأنَّ ذلك الفرارَ ناشئٌ عن انشغالٍ بأمرٍ عظيم، فهو يُدبِرُ عن أقاربِهِ للتخلُّصِ من ذلك الابتلاءِ والكَرب، بخلافِ (الهروبِ) الَّذي قد لا يكونُ دافعُهُ التخلّصَ من كربٍ وابتلاءٍ.

الرّهَقُ والغَشيان:

الـرَّهَـقُ أخـصُّ مُـطـلـقـاً من الغَشَيان

رَهَقَهُ الدَّينُ غَشيَه، وأرهقْتُ الرّجلَ أمراً - يتعدّى إلى مفعولين - أعجَلْتُه وكلّفتُهُ حَمْلَهُ، وأرهقتُهُ بمعنى أعسَرتُهُ[2]، والرّهَقُ: جهلٌ في الإنسانِ وخِفّةٌ في عَقلِه، تقولُ: به رهَقٌ، قالَ: ورجلٌ مُرهَّقٌ موصوفٌ بالرّهَق[3]، والرهقُ في الاستعمالِ القرآنيِّ غَشيانٌ بما يُكرَهُ، لا مطلقُ الغَشَيان[4]، والحاصلُ أنَّ الرّهقَ والإرهاقَ يدلُّ على حصولِ أمرٍ مَكروهٍ مَقرونٍ بالكُلفةِ والتّعب، بخلافِ (الغشيان) الّذي في أصلِه يدلُّ على التّغطية، فهو سترٌ حتّى يَستوليَ به ويحلَّ فيه[5]، وقد يكونُ مَصحوباً بالكراهةِ وعدَمِها، ومن ثمَّ عبّر النظمُ القرآنيُّ بالرهَقِ في موضِعِ الكراهةِ للأمرِ النّازلِ في قولِه تعالى: ﴿تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾، وعبّر بالأعمِّ في قولِه تعالى: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ﴾ [الأنفال: 11].

(1) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 9/ 47.
(2) الفيومي، المصباح المنير: (رهق).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (رهق).
(4) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 4/ 236.
(5) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 7/ 238.

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

التَّعريف العامُّ بالسّورة:

المكّي والمدنيُّ وعدّ الآي:

ذكر ابن عطيَّة إجماع المفسِّرين على مكّيَّتها[1]، وبذلك قال القرطبيُّ[2] والسُّيوطيُّ[3].

وأمّا عدد آياتها؛ فيقول الدّانيُّ: "وَهي عشرون وتسع آيات في جَميع العدَد إلّا في عدِّ أبي جَعْفَر؛ فإنَّها وثمانٍ، اختلافها آيَة: ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ٢٦﴾ لم يعدَّها أبو جَعْفَر وحده، وعدَّها الباقونَ وشَيْبَة، ولَيْسَ فيها مِمّا يشبه الفواصل شَيء"[4].

ترتيب النّزول وترتيب المصحف:

جاء ترتيبها المصحفيّ بين سورتي عبس والانفطار

هذه السّورة هي الحادية والثّمانون في التّرتيب المصحفيّ الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت والمُعوّل عليه عند أهل النّظر والتّحقيق، وقد جاء ترتيبها بين سورتي عبس والانفطار، وأمّا ترتيبها النّزوليّ؛ فعُدّت السّورة السّابعة في ترتيب نزول السّور، نزلت بعد سورة المسد وقبل سورة الأعلى، وقيل: بل هي بعد الفاتحة وقبل الأعلى[5].

فضائل السّورة:

ورد في فضلها مجموعة من الأحاديث

هذه السّورة الكريمة من أواسط المفصّل الذي قال فيه النَّبي ﷺ فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»[6].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 441.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 226.
(3) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 42.
(4) الداني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 265.
(5) دروزة، التّفسير الحديث: 1/ 499، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 139.
(6) ابن حنبل، المسند، حديث رقم: (16982)، والطبراني، المعجم الكبير: (22/ 76) حديث رقم: (187)، والبيهقي، شعب الإيمان، حديث رقم: (2415)352.

وَرويَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ كان يقرأ بها في صلاة الفجر، فقد ذكروا أنّه «قَرَأ في الصُّبْحِ بالواقِعَةِ، ورويَ عَنْهُ أنَّهُ كانَ يَقْرَأُ في الفَجرِ مِن سِتّينَ آيَةً إلَى مئة، ورويَ عَنهُ أنَّهُ " قَرَأ: إذا الشَّمْسُ كوِّرَتْ»[1].

وهذه السّورة من السّور، التي لها وقعها في النّفس مِن شدّة أهوالها، فعنِ ابنِ عَبّاسٍ رضي الله عنهما، قالَ: قالَ أبو بَكر رضي الله عنه: يا رَسولَ اللّه قَدْ شِبْتَ، قالَ: «شَيَّبَتْني هودٌ، والواقِعَةُ، والمُرْسَلاتُ، وعَمَّ يَتَساءَلونَ، وإذا الشَّمْسُ كوِّرَتْ»[2].

وهي مِن السّور التي ذَكرتْ صورًا حيّة وفاعلة لمشاهد القيامة، فعن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما: قالَ رَسولُ اللّه ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أنْ يَنْظُرَ إلَى يَوْمِ القيامَةِ كَأنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ؛ فليَقرَأ: إذا الشَّمْسُ كوِّرَتْ، وإذا السَّماءُ انفَطَرَتْ، وإذا السَّماءُ انشَقَّتْ»[3].

اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

اشتهرت السورة سورةُ التّكوير

عُنونت في صحيح البخاريّ وفي سنن التّرمذيّ (سورة إذا الشّمس كوّرت)[4]، وتسمّى في المصاحف المشرقيّة والمغربيّة، وفي أغلب التفاسير سورة (التّكوير)، وقال ابن عاشور: "لم يثبت عن النّبيّ ﷺ أنّه سمّاها تسمية صريحة، وأكثر التّفاسير يسمّونها (سورة التّكوير)، وكذلك تسميتها في المصاحف، وهو اختصار لمدلول (كوّرت)".

وتسمّى (سورة كوّرت) تسمية بحكاية لفظ وقع فيها[5]، وقد قام البقاعيّ بالرّبط بين اسمها ومقصودها خير ربطٍ، فقال:

(1) الترمذي، سنن الترمذي، حديث رقم: (306).
(2) الترمذي، سنن الترمذي، حديث رقم: (3297).
(3) الترمذي، سنن الترمذي، حديث رقم: (3333).
(4) البخاري، صحيح البخاري: باب: تفسير سورة (إذا الشمس كوّرت): 4/ 1881، والترمذي، سنن الترمذي، باب: ومِنْ سورَةِ إذا الشَّمْسُ كوِّرَتْ: 5/ 433.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 139.

"ومقصودها: التّهديد الشّديد، بيوم الوعيد، الذي هو محطّ الرّحال؛ لكونه أعظم مقام لظهور الجلال، لمن كذّب بأنّ هذا القرآن تذكرة في صحف مكرّمة، بأيدي سفرة، والدّلالة على حقيقة كونه كذلك، بأنّ السّفير به أمين في الملأ الأعلى، مكين لمكانته فيما هنالك، والموصل له إلينا منزّه عن التّهمة، بريء من النّقص؛ لما يعلمونه مِن حاله قبل النّبوّة، وما كانوا يشهدون له به من الكمال في صحبته لهم المتطاولة، التي نبّههم بالتّعليق بها على ما لا يشكّون فيه من أمره، ولم يأتهم بعدها إلا بما هو شرف له، وتذكير بما في أنفسهم، وفي الآفاق من الآيات، وذلك كافٍ لهم في الحُكْم بأنّه صِدْق، والعِلْم اليقين بأنّه حقٌّ، واسمها التّكوير أدلّ ما فيها على ذلك، بتأمّل الظّرف وجوابه، وما فيه من بديع القول وصوابه، وما تسبّب عنه من عظيم الشّأن لهذا القرآن"(1).

المحور العام للسورة:

محور السّورة يقوم على إثبات وقوع القيامة وبيان أهوالها

هذه السّورة متمّمة ومقرّرة لسلسلة السّور التي سبقتها من: القيامة والإنسان والمرسلات والنّبأ والنّازعات وعبس في إثبات وقوع يوم القيامة، وفي بيان بعض أحداثه، وما يجري فيه، إلّا أنّ هذه السّورة اختُصّت ببيان بعض التّغيّرات، التي ستجري على بعض الظّواهر الكونيّة، التي ترافق القيامة، وذلك في الأنفُس والآفاق، وفي بيان بعض ما سيجري بَعْد البعث، فلم تحظَ سورة أخرى بهذا الزّخم من الصّور والمشاهد الحيّة لأحداث السّاعة، فجاء فيها الآتي:

أوّلاً: اختصّت السورة بقَسَم الله تعالى ببعض المظاهر والدّلائل الكونيّة الأخرى على صدق الوحي المُنَزَّل على النّبيّ ﷺ، الذي كان قد حذّرهم وقوع السّاعة.

ثانيًا: ابتدأت السورة بالجمل الشّرطيّة، التي ربطت أحداثًا

(1) البقاعي، مصاعد النّظر: 3/ 161.

ستجري قبل بَعْث النّاس وأحداثًا ستجري بعد بعثهم وحشرهم، والتي تنازعت كلّها جواب شرطٍ واحدٍ هو: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: 14].

ثالثًا: اقتضاها هذا المحور كذلك أن تذكر قَسَم اللّه تعالى ببعض الظّواهر الكونيّة الأخرى، على صدق الوحي المُنزل على نبيّهم، الذي حذّرهم مِن هَوْل هذه الأحداث، وأن تنفي عنه ادّعاء معرفة الغيب، وأن تحذّرهم مِن مغبّة تكذيبه.

موضوعات السّورة وخصائصها:

مَدارُ السّورة يدور حول بيان أحوال السّاعة وصدق المُخْبِر عن أهوالها

تتعلّق السّورة كغيرها من السّور المكّيَّة بالإشارة إلى الأمور المختصة بالعقيدة، فهي تقرّر الأمور الآتية:

أوّلاً: توضح السورة ما يوجد في يوم القيامة من أحوال، فابتدأت ببيان أهوال القيامة، وما يصحبها من تغيرات كونيّة غريبة، تشمل كلّ ما يشاهده الإنسان في الدنيا من السّماء وكواكبها، والأرض وجبالها وبحارها ووحوشها، والنّفوس البشريّة ومظالمها، وتبرز بعدئذٍ الجحيم ونيرانها، والجنّة ونعيمها: [الآيات: 1 - 14].

ثانيًا: تثبّت السورة أنّ القرآن الكريم مُنزَّل من عند اللّه تعالى، وتتحدّث عن القرآن وتنزيله من اللّه بواسطة جبريل الأمين على قلب النّبيّ المصطفى ﷺ، وإثبات نبوّته ورسالته وأمانته في تبليغ الوحي وأهليّته العالية لتلقّي الوحي، ورؤيته جبريل عليه السلام على صورته الحقيقيّة: [الآيات: 15 - 25].

ثالثًا: خُتِمت السّورة ببيان ضلال المشركين، وأنّ القرآن عظة وذكرى لجميع العالمين من الإنس والجنّ؛ ممّن أراد الهداية، وأقبل على الخير، وأنّ مشيئة العبد تابعة لمشيئة اللّه تعالى، فلا يستطيع الاستقلال بعملٍ ما دون إرادة اللّه[1].

(1) الزحيليّ، التّفسير المنير: 30/ 79 - 80.

الخصائص الموضوعيّة للسورة:

تميّزت سورة التّكوير بخصائص أفردتها عن غيرها من السّور

أوّلاً: تميّزت السّورة الكريمة ببراعة الاستهلال؛ إذ استُهلّت بأسلوب الشّرط بـ(إذا) الظّرفيّة الشّرطيّة، والذي شاركتها فيها ستُّ سورٍ أخرى هي: الواقعة، المنافقون، الانفطار، الانشقاق، الزّلزلة، النّصر، والملاحظ أنّ هذه السّور السّبع قد اشتركت في تناول أحداث السّاعة، وما يكون بين يديها من أحداثٍ جسامٍ.

ثانيًا: تميّزت السّورة الكريمة بكثرة تعاطف الجمل الشّرطيّة في مطلعها؛ إذ بلغت اثنتي عشرة جملة حوت ستّة مشاهد دنيويّة تسبق البعث، وستّة مشاهد أخرويّة تلحقهم بعد البعث، وقد تنازعت جميعها جوابًا واحدًا للشّرط، وهو قوله تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٌ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾.

ثالثًا: اختُصّت السورة بتصوير يوم القيامة كأنّه رأي عيْن - كما تقدّم في فضائلها - فعن ابن عُمَرَ: قالَ رَسولُ اللّه ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ القيامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ؛ فليَقرَأ: إذا الشَّمسُ كوِّرَتْ، وإذا السَّماءُ انْفَطَرَتْ، وإذا السَّماءُ انشَقَّتْ»[1].

الخصائص الأسلوبيّة للسورة:

تميّزت سورة التّكوير بخصائص أسلوبية أفردتها عن غيرها من السّور

أوّلاً: حَوَت السّورة قواميس معجميّة من الأسماء المعروفة في هذا الكون، مثل: الشّمس والنّجوم والسّماء والجبال والبحار والعشار والوحوش والنّفوس والموؤدة، وحوت قاموسًا معجميًّا آخر من ألفاظ عالم الغيب التي سيراها النّاس بعد البعث، مثل: الصّحف والجحيم والجنّة والعرش والأفق المبين، وحَوَتْ ألفاظًا لظواهر كونيّة محسوسة أخرى في معرض القسم على صدق الوحي، وهي: الخنّس الجواري الكنّس، واللّيل في بعض أحواله، والصّبح في أوّله.

(1) الترمذي، سنن الترمذي، باب ومِنْ سورَةِ إذا الشَّمسُ كوِّرَتْ، حديث رقم: (3333)، وقال الألباني: حديث صحيح.

ثانيًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها قدّمت المسند إليه على المسند الفعليّ المبني للمفعول في الجمل الشّرطيّة المصدّرة بـ(إذا) في اثنتي عشرة آية(1)، وهو أسلوبٌ مفيدٌ للتّخصيص أو تقوية الحكم، وذلك بحسب القرائن.

ثالثًا: برزت في السّورة الكريمة ظاهرة أسلوبيّة في تكرار ثلاث جمل منفيّة بـ(ما)، مع دخول الباء على خبرها؛ لتأكيد النّفي، وهي متعلّقة بنفي الاتّهامات، التي وُجّهت للنّبيّ ﷺ وهي: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾، ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾، ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾.

رابعًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حَوَتْ أبنية صرفيّة لم تأتِ في غيرها من السّور، مثل: ﴿كُوِّرَتْ﴾، ﴿ٱلْعِشَارُ﴾، ﴿عُطِّلَتْ﴾، ﴿حُشِرَتْ﴾، ﴿ٱلنُّفُوسُ﴾، ﴿زُوِّجَتْ﴾، ﴿ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾، ﴿نُشِرَتْ﴾، ﴿أَحْضَرَتْ﴾، ﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾، وغيرها.

خامسًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حَوَت ألفاظًا فريدة في مادّتها وبنائها الصّرفيّ، وهي: ﴿ٱنكَدَرَتْ﴾،﴿ٱلْوُحُوشُ﴾، ﴿كُشِطَتْ﴾، ﴿ٱلْكُنَّسِ﴾، ﴿عَسْعَسَ﴾، ﴿بِضَنِينٍ﴾.

سادسًا: تميّزت السّورة الكريمة بوفرة الأنساق التّعبيريّة التي لم تتكرّر في غيرها حتّى تكاد تكون كلّ أنساقها كذلك، ولكنّنا نذكر بعضها على سبيل التّمثيل، ومنه مطلعها كاملًا: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ① وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ② وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ③ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ④ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾... ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ⑪ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ⑫ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ⑬ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾، وقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ⑮ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ⑯ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ⑰ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، وغيرها.

مناسبة السورة لما قبلها:

يقول الغرناطيّ: "لمّا قال سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ㉝ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ㉞ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ㉟﴾ [عبس: 33 - 35] الآيات إلى آخر السّورة كان مظنّة لاستفهام السّائل عن الوقوع، ومتى يكون؛ فقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، ووقوع تكوير الشّمس، وانكدار النّجوم، وتسيير الجبال، وتعطيل العشار كان ذلك متقدّمًا على فرار المرء من أخيه وأمّه

(1) الآيات: 1، 2، 3، 4، 5، 6، 7، 8، 10، 11، 12، 13.

سـورة التّكوير متّصلة تمامًا بـسـورة عبس مـضـمـونًـا وأسلوبًا

وأبيه إلى ما ذكر إلى آخر السّورة؛ لاتّصال ما ذكر في مطلع سورة التّكوير بقيام السّاعة، فيصحّ أن يكون أمارة للأوّل وعلمًا عليه"[1].

والحقّ أنّ ارتباط السّورة بسلسلة السّور التي سبقتها ظاهرٌ للعيان، ولا يحتاج إلى تكلّفٍ في الرّبط؛ لأنّ محاور هذه السّور قام على إثبات السّاعة وبيان أحوالها وأهوالها وجزاء النّاس فيها، وهذه السّورة هنا أخذت على عاتقها تفصيل أحداث السّاعة قبل نفخ البوق وبَعْدَه، وبيان التّغيّيرات الكونيّة التي ترافقها، فضلًا عن إثبات صِدْق النّبيّ ﷺ فيما يخبرهم عنها، ورَدّ الشّبهات والاتّهامات التي وجّهها المشركون إليه.

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 358.

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢﴾ [التكوير: 1 - 2]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

أهـــوال يـوم القيامة شديدة عـلى الـكَـفَـرَة الفَجَرَة

لمّا خُتِمت سورة (عبس) بوعيد الكَفَرَة الفَجَرَة بيَوْم الصّاخَّة - لجُحودهم بما لهذا القرآن من التذكرة - ابتُدِئَتْ هذه السورة الكريمة بإتمام ذلك، فصوَّر ذلك اليومُ بما يكون فيه مِن الأمور الهائلة مِن عالَم المُلك والملكوت حتَّى كأنَّه رأي عينٍ، فعن ابن عمر ﵄ أنَّ النبي ﷺ قال: «من أحبَّ أنْ يَنظر إلى يوم القيامة رأْيَ العينِ؛ فلْيَقرأ ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾»(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كُوِّرَتۡ﴾: كارَ العِمامَةَ على رأسه يَكورُها كَوْرًا، أي: لاثَها، وكلُّ دَوْرٍ كَوْرٌ، وقولهم: نعوذ بالله من الحَوْرِ بعد الكَوْرِ، أي: من النقصان بعد الزيادة، والكَوْرُ أيضًا: الجماعة الكثيرة من الإبل، يقال: على فلانٍ كَوْرٌ من الإبل، والكورُ بالضم: الرَّحْلُ بأداته، والجمع أكْوارٌ وكيرانٌ، والكورُ أيضًا: كورُ الحداد المبنيُّ من الطين والكورُ أيضًا: موضعُ الزنابير.

وتَكْويرُ المتاع: جمْعُه وشدُّه، ويقال: طعنه، فكَوَّرَهُ، أي: ألقاه مجتمعًا، وكَوَّرْتُهُ، فتَكَوَّرَ، أي: سقط، وتكوير الليلِ على النهار: تَغْشيَته إيّاه، ويقال: زيادةُ هذا من ذاك، وقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾، قال ابن عبّاس ﵄: غوِّرَتْ، وقال قتادة: ذهب ضوؤها، وقال أبو عبيدة: كوِّرَتْ مثل تَكْويرِ العمامةِ تُلَفُّ، فتمحى، والتَّكَوُّرُ: التقطُّر والتشمُّر، واكْتارَ الفرسُ: رفع ذَنَبَه في حُضْرِهِ، وربَّما قالوا:

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 21/ 275، والحديث روته كتب التفسير دون كتب السُّنَّة.

كارَ الرجلُ؛ إذا أسرع في مشيته[1]، والمقصود بـ﴿كُوِّرَتۡ﴾ هنا: لُفَّت، وذهب نورها[2].

2) ﴿ٱنكَدَرَتۡ﴾: الكَدَرُ: ضدُّ الصّفاء، يقال: عيش كَدِرٌ، والكُدْرَةُ في اللّون خاصّة، والكُدورَةُ في الماء، وفي العيش، والانكِدارُ: تغيّر مِن انتثار الشيء، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾، وانكَدَرَ القوم على كذا؛ إذا قصدوا متناثرين عليه[3]، والكَدَرَة - محركةً - : المَدَرَة التي يُثيرها السِنُّ، أي: المحراث، والكَدَر - محركة - : القَبَضات المحصودة المتفرقة من الزرع، وكَدَرَةُ الحوض - محركةً - : طينُه، وما علاه من طُحْلُب وعَرْمَض، كَدَرَ الشيءَ: صَبَّه.

والانكدار: انقلاعُ الغليظِ الرّاسخِ (أو الثابت)، أو انقطاعُه مُفارِقًا مَقَرَّه - كانقلاع المَدَرة من الأرض، وحَصْدِ الجُمَع المتفرقة، وثَوَران الطُّحْلب والطين من أسفل الماء -، وانكَدَر: أسرع، وانقضّ، وانكدرت النجومُ: تناثرت من ظاهر وجه السماء كأنما قُلِعت، وقُذِفت[4]، وهو المقصود هنا.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

انـقـلاب أحـوال الدنيا من بَواكير أحداث الآخرة

هذه الآية والآيات التالية لها تصوير لأهوال القيامة ومباديها، وما يعتري الكون والوجود من مظاهر التبديل، التي صوِّرت تصويرًا رائعًا، وبُيِّنَتْ بيانًا واضحًا[5].

ومعناها: تكويرُ الشمس وطيُّها - كطيِّ الثياب - وطمْسُها، وإذهاب ضوئها واضمحلالُها بَعد انبساطِها وانتشارِ ضوئها، ولَفُّها

(1) الجوهري، الصحاح تاج اللغة، وصحاح العربية: (كور).
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 21/ 275.
(3) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (كدر).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (كدر).
(5) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1799.

ورفعُها من الوجود، واختفاؤها بعد ظهورها وقوتها وعنفوانها؛ أمرٌ واقعٌ، محقَّقٌ، مقطوع به، وانطفاءُ النجوم بعد لَمَعانِها وتَلَألُئِها، وتساقُطُها وانتثارُها وتهافُتُها وتَهاويها بعد ثَباتها وانتظامها في فضاء الملكوت؛ حَتْمٌ جازمٌ لا شكَّ فيه.

وحين يقع هذا وذاك تَعْلم كلُّ نفس ما قَدَّمت، ويَحضرها ما أسلفتْ من عملٍ كان منها في الدنيا، فما أشدَّه على الكافرين!.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة التعبير بـ﴿إِذَا﴾ في قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾:

الافتتاح بالشرط وتكراره قبل ذِكر جوابه استهلالٌ بارعٌ مشوِّق

افتتاح السورة الكريمة بـ ﴿إِذَا﴾ افتتاح مشوِّقٌ؛ لأنَّها ظرفٌ يَستدعي متعلِّقًا، ولأنَّها شرطٌ يُؤذِن بذكر جوابٍ بعدَه، فإذا سمعه السامع؛ تَرقَّبَ ما سيأتي بعده، فعندما يسمعه يتمكَّن من نفسه كمالَ تَمَكُّن، وخاصَّة بالإطناب بتكرير كلمة ﴿إِذَا﴾، وتعدُّد الجمل التي أضيفَ إليها اثنتَيْ عشرة مرَّة، فإعادة كلمة ﴿إِذَا﴾ بعد واو العطف في هذه الجُمَل المتعاطفة إطنابٌ، وهذا الإطناب اقتضاه قصْدُ التهويل[1]، وفي التعبير بأداة القطع ﴿إِذَا﴾ كذلك تأكيد لحصول هذا الحدث العظيم وما بعده من الأحداث، وتقرير لوقوعه يومًا ما، وفي ذلك من التخويف والتهديد بحلول تلك الأحداث الخطيرة ما فيه.

وجه ترتيب تلك الأحداث الجسام في مطلع السورة الكريمة:

في هذا الترتيب مزيد تخويف وتهويل

في ترتيب أحداث تلك الأهوال مراعاةٌ لتقديم أهمِّها وأخطرها هَوْلًا في قلوب المخاطَبين، و"في هذه الآيات اثنا عشر حدثًا، فستة منها تحصل في آخر الحياة الدنيوية، وستة منها تحصل في الآخرة"[2]، وفي ترتيبها مراعاةٌ لتقديم الأهوال الفَلَكيّة العليا: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ - والشمس "أعظم آيات السماء الظاهرة،

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 140.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 141.

وأوضحُها للحِسّ"[1] - على الأهوال الأرضية: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾، وتقديم هذه السُّفليّة الخارجة عن نفْس الإنسان على المباشِرة المُداخِلة لِذاته: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾، وهكذا.

وعن أبيّ بنِ كعبٍ، قال: "ستُّ آياتٍ قبلَ يوم القيامةِ، بينما الناسُ في أسواقِهم؛ إذ ذهَب ضَوْءُ الشمسِ، فبينَما هم كذلك؛ إذ تناثَرت النجومُ، فبينَما هم كذلك؛ إذ وقَعتِ الجبالُ على وجْهِ الأرضِ، فتحرَّكت، واضطرَبت، واحترَقت، وفزِعتِ الجنُّ إلى الإنسِ، والإنسُ إلى الجنِّ، واختلَطت الدوابُّ والطيرُ والوحشُ، وماجوا بعضُهم في بعضٍ"[2].

معنى (ال) في ﴿ٱلشَّمْسُ﴾، و﴿ٱلنُّجُومُ﴾:

تتهاوى في ذلك اليوم أعظم المخلوقات لشدَّة الهول

(الـ) في كلمتَي: ﴿ٱلشَّمْسُ﴾، و﴿ٱلنُّجُومُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، و﴿ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ للعهد الذهني، أي: ﴿ٱلشَّمْسُ﴾، و﴿ٱلنُّجُومُ﴾ المعروفة لكم المعهودة لديكم أيها الناس، التي بها استمرار حياتكم، وانتظام حركاتكم في قيام مصالحكم، ويروى أنَّ الشمس والنجوم: "تطرح في جهنم؛ ليراها مَن عَبَدَها، كما قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾"[3].

سِرُّ تقديم المسند إليه في جملتي: ﴿ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾:

التقديم والاهتمام إشعار بأهمّية المقام

تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، و﴿ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ وما بعدهما يُنبِّه إلى "الاهتمام بذكر ما أُسْنِدَتْ إليه تلك الأفعال، التي يغلُب أن تكون شروطًا لـ ﴿إِذَا﴾؛ لأنَّ الابتداء بها أدخلُ في التهويل والتشويق، وليُفيد ذلك التقديمُ على المسندِ الفِعليِّ تَقَوّي الحُكم وتأكيدَه في جميع تلك الجُمَل؛ ردًّا

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 21/ 275.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 128.
(3) الزمخشري، تفسير الكشاف: 4/ 707.

على إنكار مُنْكِريه؛ فلذلك قيل: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، ولم يُقَل: إذا كوِّرت الشمس، وهكذا نظائره"[1]، وفيه إفادة "الاهتمام بتلك الأخبار المجعولة علامات ليوم البعث؛ توسُّلًا بالاهتمام بأشراطه إلى الاهتمام به وتحقيق وقوعه"[2].

دلالة التعبير بالتكوير في جملة: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾:

خالق الكون بأجرامه لا يعجزه شيء في نظامه

التكويرُ في كلامِ العربِ جَمْعُ بعضِ الشيءِ إلى بعضٍ، وذلك كتكويرِ العمامةِ - وهو لفُّها على الرأسِ -، وكتكويرِ الكارةِ، وهي جمعُ الثيابِ بعضها إلى بعضٍ ولفُّها، فقولُه: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ معناه: جُمِع بعضُها إلى بعضٍ، ثم لُفَّت فرُميَ بها، وإذا فُعِل ذلك بها؛ ذهَب ضوؤها[3].

والمراد بذلك إما رفْعُها وإزالتها من مقرِّها؛ فإنَّ الثوب إذا أُريد رفْعُه يُلَفُّ لفًّا، ويُطوَى، ونحوُه قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ [الأنبياء: 104]، وإمّا لَفُّ ضوئها المنبسط في الآفاق، المنتشر في الأقطار، على أنَّه عبارة عن إزالتها والذهاب بها بحُكم استلزام زوالِ اللازم لِزوال الملزوم، أو ألقيت عن فلَكها[4].

فتكويرها "مجازٌ عن رفْعها - أي: إزالتها من مكانها، والمانع من حمله على الحقيقة كونها من الأجرام التي لا تُلَفُّ كالثياب"[5].

نكتة بناء الفعل لغير فاعله في جملة ﴿كُوِّرَتْ﴾:

لا يقدر على هذه الأحداث العظيمة إلّا الله العظيم سبحانه

في بناء فعل التكوير لغير فاعله في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ توفير لعناية السامع على هول الفعل؛ "لأنَّ المَهولَ مطلَقُ تكويرها الدالِّ على عظمة مُكوِّرها ﷻ وذلك على طريقة كلام

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 141.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 150.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 128.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 114.
(5) الشهاب، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 325.

القـادرين، فلُفَّـتْ بأيسرِ أمـرٍ مِن غير كُلْفـة مـا أصـلًا، فأُدْخِلَتْ في العرش - كما قـاله ابن عباس رضي الله عنهما - فذهب ما كان يَنبسط مِن نورها[1].

نكتة تقديم تكوُّر الشمس على انكدار النجوم:

تقديم الأهمِّ في مصالح الناس ومعيشتهم

في تقديم تكوير الشمس على انكدار النجوم بخاصّة تقريرٌ لتقدُّم منزلة الشمس في قيام الحياة، وتنبيه إلى أنها التي لا يُستَغنَى عنها، بخلاف النجوم فقد يُمكن الاستغناء عنها، وقد تغيب أحيانًا الليل كله، فيُستعاض عنها في حركة الحياة بالعمل في فترة النهار تحت ضوء الشمس، وإن كانت حركة الحياة بوجود النجوم ليلًا أكثرَ استقرارًا وأكمل أركانًا.

لطيفة تكرار ﴿إِذَا﴾ في السياق المحكم:

كـلُّ حـدث من أحـــداث يـوم القيامة حقيقٌ بـالاسـتـقـلال بـذكـره؛ لهوله وشدَّته

في إعادة ﴿إِذَا﴾ إشارةٌ إلى أنّ مضمون كلِّ جملةٍ من هذه الجُمَل الاثنتي عشرةَ، مستقِلٌّ بحصول مضمون جملة الجواب عند حصوله بقطع النظر عن تفاوت زمان حصول الشروط، فإنَّ زمن سؤال الموؤدة ونَشْر الصُّحف أقربُ لِعلم النفوس بما أحضرَتْ من زمان تكوير الشمس وما عُطِف عليه مما يحصُل قبل البعث[2]، والسامع عندما يجد هذا الظرف - وقد تكرَّر - يكون في ترقُّبٍ وشوقٍ لمعرفة الجواب، وعندما يَسمعه يتمكَّن مِن نفسه كل التمكن[3].

دلالة التَّعبير بالمطاوع المبني للمعلوم في جملة ﴿ٱنكَدَرَتۡ﴾:

في المغايرة بين التعبير بالفعل المتعدي واللازم المطاوع مراعاة لـخـطـورة كل منهما

في انتقال النظم الكريم من التعبير بالفعل المتعدي المبني للمجهول في جملة: ﴿كُوِّرَتۡ﴾، إلى الفعل اللازم في المطاوع في جملة: ﴿ٱنكَدَرَتۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾، و﴿ٱلنُّجُومُ

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 21/ 275.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 140.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 296.

﴿ٱنكَدَرَتۡ﴾ ملاءمةٌ للفرق بين قوة الفعلين، فتكوير الشمس حدثٌ كبير خطير، وانكدار النجوم مع عِظَمِه وخطورته أهون منه[1].

دلالة التَّعبير بالماضي في هذا السياق:

ما كان في قدر الله تعالى واقعًا فكأنه قد وقع، ومضى، وانتهى

التكوير والانكدار في جملتَي: ﴿كُوِّرَتۡ﴾، و﴿ٱنكَدَرَتۡ﴾ لمّا يقع بَعدُ؛ لأنَّه من أحداث يوم القيامة، فالتعبير بصيغة الماضي فيهما خارج عن المُضيِّ إلى الاستقبال، ولطيفة التعبير بالماضي فيهما مكان الاستقبالِ التنبيهُ إلى القطْع بحصول التكوير والانكدار يومًا ما، والتأكيد على أنّ ما كان في قدر اللّه تعالى واقعًا في المستقبل، كأنَّه قد وقع، ومضى، وانتهى، وفي ذلك مزيد ترهيب وتهويل.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 141.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ [التكوير: 3 - 6]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

وشائجُ القربى ولُحْماتُ النَّسَب بين آي الذكر الحكيم وثيقة

لمّا بدأ النظم الكريم بذكر أعلام السماء؛ لأنَّها أشهرُ، وأعمُّ تخويفًا وترهيبًا، فذَكر منها الشمس والنجوم - وهما أشهر ما فيها وأعمُّها نفعًا - أتبعها ذِكرَ أعلام الأرض(1)، فذَكر تسيير الجبال على ضخامتها وثباتها، وتعطيل العشار على أهميتها في قيام الحياة، وتسجير البحار على توقّف مصالح العباد عليها، فقرَّر بذِكر الجميع عمومَ المخاطِر التي تَحدُث يومئذٍ من فوق وتحت، فجاء التناسُب جليًّا، والرِّباط قويًّا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُيِّرَتْ﴾: السَّيْرُ: المُضيُّ في الأرض، ورجل سائِرٌ، وسَيّارٌ، والسَّيّارَةُ: الجماعة، قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ [يوسف: 19]، يقال: سِرْتُ، وسِرْتُ بفلان، وسِرْتُه أيضًا، وسَيَّرْتُه على التَّكثير، فمن الأوّل قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ [الحج: 46]، ومن الثاني قوله: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ [القصص: 29]، ولم يجئ في القرآن القسم الثالث، وهو سِرْتُه، والرابع قوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ [النبأ: 20].

والتَّسْيِيرُ ضربان: أحدهما: بالأمر والاختيار والإرادة من السائر، نحو قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾ [يونس: 22]. والثاني: بالقهر والتَّسخير كتسخير الجبال كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾، وقوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ [النبأ: 20]، والسّيرَةُ: الحالة التي يكون عليها الإنسان وغيره(2).

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 21/ 276.
(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (سير).

2) ﴿ٱلۡعِشَارُ﴾: يقال: عَشَرَ يَعشِر، عَشْرًا، فهو عاشِر، والمفعول مَعْشور، عَشَر الشَّيءَ: أخذ عُشْره، أي: جُزْءًا من عَشرة أجزاء متساوية، وعشَر القومَ: صار عاشرهم، كمَّلَهم بنفسه عَشَرة، وتعاشرَ يتعاشر تعاشُرًا، فهو مُتعاشِر، تعاشر الأحبَّةُ: تخالطوا، وتصاحبوا، وتعاملوا مع بعضهم البعض.

وعشَّرَ يعشِّر تعشيرًا، فهو مُعَشِّر، والمفعول مُعَشَّر (للمتعدّي)، عشَّرتِ النّاقةُ: صارت عُشَراء، أي: يمرّ على حملها عشرة أشْهر، وعُشَراءُ مفرد: جَمْعُه عُشَراوات وعِشار، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ﴾، وتعطيلها: إهمالُها لانشغال أهلِها بأنفُسهم[1].

3) ﴿عُطِّلَتۡ﴾: (عطل) أصلٌ صحيح واحد، يدلّ على خُلوٍّ وفراغ، نقول: عُطِّلَت الدار، ودارٌ معطَّلة، ومتى تُرِكَت الإبل بلا راعٍ؛ فقد عُطِّلَت، وكذلك البِئر؛ إذا لم تورَد، ولم يُستَقَ منها، قال اللّه ﷻ: ﴿وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ﴾ [الحج: 45]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ﴾، وكل شيء خلا من حافظٍ فقد عُطِّل، من ذلك تعطيل الثغور وما أشبهها[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

أهوال القيامة محقّقةٌ - حين يحين أجلها - ومن أحداثها عُلويَّةٌ وأرضيَّة

مِن مقدّمات البعث، وحلول أهوال يومِ القيامة المحقَّقةِ الوقوعِ - حين يَحين أجلُها - اقتلاعُ الجبال مِن مغارِسها، وتفتُّتها وتَهَيُّلُها، وتَسْييرُها مِن مواضعها، وكذلك عدم اكتراث الناس بأغلى ما كانوا يحرصون على تملُّكه، والتماس المنفعة منه، فيَعتنون به - وهي العشار - فينشغلون عنها، ويتراجَعُ عندهم شأوُها بما حَلّ بهم مِن الأهوال، وتُعَطَّل، ويُهْمَل شأنها.

(1) عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (عشر).
(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (عطل).

ومن المقدّمات المقطوع بوقوعها كذلك حَشْرُ الوحوش، و"جَمْعُ بعضها إلى بعض، وسَوْقها إلى أكنانها؛ إذ يدفعها البلاء إلى الفرار وطلب النجاة مما تراه من أحداث القيامة، فترتدّ عن مسارحها مسرِعةً إلى حيث ما تَظن عنده الاختفاءَ من الخطر المحدق بها، فتجيء من كل وجه، ويلوذ بعضها ببعض، حيث يَذهب الهول بكل ما فيها من نوازع الشر والعدوان"(1).

ومن تلك الأهوال المؤكَّدِ وقوعها كذلك تسجيرُ البحار وإيقادُ النيران فيها، فيجفّ ماؤها، وترتفع حرارة الأرض، ويشتدّ بالخَلْق الكربُ... وعند حلول كل ذلك تقوم القيامة، وتَعلم كلُّ نفْس ما أحضرت وما قدّمت لنفسها من الأعمال الصالحة وغير الصالحة.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾:

لِقيام الساعة وبَعْث الناس مقدماتٌ عديدة ومَهولة

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾ عاطفةٌ هذا الشرط على الشرط السابق عليه، جامعةٌ هذه الشروط الاثني عشر شرطًا؛ لتُكوِّن بمجموعها قيودًا مؤْذِنة بانقلاب نواميس الكون المنظور للبشر انقلابًا تامًّا، قاطعةً باختلال نظامه اختلالًا لا عودة له إلى حاله الأولى بَعده؛ تمهيدًا للبعث وقيام الناس لرب العالمين، فيَقضي بينهم، ويوفّيهم أعمالهم، ويَحكُم لكلٍّ منهم بالمصير المؤبَّد؛ إمّا إلى الجنان وإمّا إلى النيران.

معنى (ال) في ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾، ولطيفة جمعها:

زوال الجبال إبّانَ قيام الساعة أدلُّ على زوال ما دونها من المخلوقات الأرضيّة

(الـ) في ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾ للعهد الذهني، وفيها معنى الجنسيّة والاستغراق، أي: هي تلك ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾ العظيمة الثابتة الشامخة، التي عهِدتُم عظمتها وثباتها وشموخها، وهي كلُّ الجبال؛ حتى لا يبقى على الأرض مرتفعات، وحتى ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ١٠٧﴾ [طه: 107].

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 16/ 1468.

و﴿ٱلۡجِبَالُ﴾ "أَصْلَبُ ما في الأرض"[1]، فإذا زالت عن مواضعها، وأُهيلَتْ، وسُيِّرت - كان زوال ما دونها أيسرَ وأولى - ولطيفة جمع ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾ تأكيد عموم الحُكْم بتسيير عمومها، بدلالة الاستغراق والجنس، واللّه تعالى أعلم.

دلالة التعبير بالتسيير في جملة ﴿سُيِّرَتۡ﴾:

تُسيَّر الجبال، ثم تُصيَّر كثيبًا مهيلًا، ثمَّ كالعِهن المنفوش، ثمَّ هباءً منثورًا

في التعبير بالتسيير في جملة: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾ دلالة على أنَّها "ذَهَبَتْ عن أماكنها، قال مقاتل: فسوّيتْ بالأرض كما خُلِقَتْ أوَّلَ مرّة، وليس عليها جَبَل، ولا فيها وادٍ"[2]، وذلك "من أثر الرجفة والزلزال الذي قطّع أوصالها"[3]، قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ [النمل: 88].

وهي "إذا قُلِعَتْ؛ تَكَثَّرَتْ، حتى لا يتبيَّنَ للناظر سَيرُها لِكثرتها، فيَحسبها جامدةً، وهي تَسير، فهذا أول تَغيُّر يَظهر منها، ثم تصير كثيبًا مهيلًا، ثم كالعِهن المنفوش، ثم هباءً منثورًا إلى أنْ تتلاشى، وتَتْلَف"[4]، فتكون الأرض "قاعًا صفصفًا لا عوج فيها؛ لأن ذلك اليوم لا يُقبَل العوج في شيء من الأشياء بوجه"[5].

لطيفة بناء الفعل ﴿سُيِّرَتۡ﴾ للمفعول:

من لطائف حذف الفاعل العلمُ به، والتَّنبيهُ إلى خطورة الفعل في ذاته

بناء الفعل ﴿سُيِّرَتۡ﴾ للمفعول في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾ لطائف دقيقة، منها العلِم بالفاعل، وأنَّه اللّه تعالى بفعله (كُنْ)، أو أمر المَلَك بذلك، ومنها "الدلالة على عظمة القدرة"[6] المسيّرة، ومنها توفير عناية المخاطَبين على التأثُّر بمخاطر الفِعل في ذاته بغضّ النظر عن التعلّق بفاعلٍ معيَّن.

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 21/ 276.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 212.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 412.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 430.
(5) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 21/ 277.
(6) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 21/ 277.

قدرة الله تعالى مطلقة، وكلُّ فعل عظيم إزاءها يسير؛ لأنَّه بالأمر (كن)

نوع الصورة البيانية في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾:

في وصف تحريك ﴿ٱلْجِبَالُ﴾ من مواضعها بالتسيير، في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ استعارةٌ مكنية، وذلك بتشبيه ﴿ٱلْجِبَالُ﴾ على ضخامتها ورزانتها بالمخلوقات الصغيرة التي تُسيَّر باقتدار ويُسْر.

وبلاغة تلك الصورة بيانُ ضآلة ﴿ٱلْجِبَالُ﴾ أمام القدرة الإلهية المطلقة، وأنَّ اقتلاع ﴿ٱلْجِبَالُ﴾ وتَهْييلها وتحريكها في الفضاء بالنسبة لقدرة اللّه تعالى أمرٌ يسير لا كُلفة فيه؛ لأنه تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٧﴾ [آل عمران: 47]، و﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: 82].

ويجوز أن تكون استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً؛ "لأنَّ السير حقيقة في الذهاب في الأرض والمضيِّ فيها، فاستُعير لإعدام الجبال وإزالتها عن مكانتها"(1).

فظاعة أحداث النهاية المحدقة بالناس تشغلهم عن أثْمَنِ ما يتطلعون إليه

دلالة التعبير بـ ﴿ٱلْعِشَارُ﴾، ونكتة تخصيصها بالذِّكْر:

العشارُ جمعُ عُشَراءَ، وهي التي قد أتَى عليها عشرة أشهرٍ من حملِها، وهي الحواملُ التي يَتنافسُ أهلُها فيها، وخُصِّصت ﴿ٱلْعِشَارُ﴾ بالذِّكْر؛ لنفاستها عند العرب في ذلك الزمان، و"هي أحبُّ أموال العرب إليهم وأنفسُها عندهم؛ لأنَّها تجمع اللحم والظهر واللبن والوبر"(2)، فـ "أكثر عيشهم من الإبل"(3).

أو المقصود بـ ﴿ٱلْعِشَارُ﴾ السحابُ تُعطَّل، فلا تُمْطِر(4)، والعرب تشبِّهها بالحامل، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱلْحَـٰمِلَـٰتِ وِقْرًا ۝٢﴾ [الذاريات: 2](5)، وعلى ذلك يشير وصف ﴿ٱلْعِشَارُ﴾ إلى متطَلَّعِ أنظار العرب

(1) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 31/ 186.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 21/ 277.
(3) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 428.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 212.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 115.

أرضيًّا: وهي النياق الحوامل، وعُلويًّا: وهي السُّحُب الحاملة الماء وأسباب الخير والنماء، وتعطيل ذاك وذلك دليل شدة الهول، وفظاعة الأحداث المحدقة بالناس يومئذٍ.

دلالة التعبير بالتعطيل في جملة: ﴿عُطِّلَتۡ﴾:

حلول المهالك يشغل الناس عن مظاهر الزينة إلى معالجتها

المقصود بالتعطيل في جملة: ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ﴾، أي: أهمَلَها أهلُها، فلم تُحلَب، ولم تُصرَّ، وسُيِّبَت، وتُرِكت، فلا راعيَ لها[1]، وأنَّ أربابها يُعطِّلونها في ذلك اليوم، ولا يلتفتون إليها؛ لشغلهم بأنفسهم في ذلك، وهو كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ [الحج: 2]، إلى قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ [الحج: 2] الآية[2]، أو تعطيلها "إلقاءُ ما في بطونها من أجنَّة، ثم عدم تعرُّضها للحمل؛ إذ يصرفها الهول عن الاستجابة لداعي الغريزة الطبيعية فيها"[3]، وعلى كلا المعنيين فالإخبار عن العشار بالتعطيل إلماح إلى عدم الاكتراث بجمالها وزينتها، وصرف الاهتمام إلى المخاطر الأهم في ذلك اليوم.

بلاغة الكناية في ذِكر ﴿ٱلۡعِشَارُ﴾، وتخصيصها بهذا الوصف:

مسيرة الحياة الأولى كانت متوقفة على العناية بالعشار، فتعطيلها تعطيل للحياة

في الإخبار بتعطيل ﴿ٱلۡعِشَارُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ﴾ وإهمال شأنها كناية عن هول ما يعتري الناس من أحداث النهاية؛ لأنها أهم مراكبهم وأقواها، وأقدرها على السفر؛ حتى وصفوها بسفينة الصحراء، فلا يكاد يُتصوَّر في ﴿ٱلۡعِشَارُ﴾ التعطيلُ والإهمال؛ لتوقُّف مسيرة الحياة على استخدامها والعناية بشأنها، قال الحسن: "ولم يكنْ في الدنيا مال أعجب إليهم منها"[4]، فتعطيلها تعطيل للحياة، و"كانوا يحبسونها؛ إذا بلغت هذه الحالة، ويعطلون

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 134.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 431.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 16/ 1468.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 135.

ما دونها"[1]؛ اهتمامًا بشأنها، وحرصًا على سلامة نتاجها، فتعطيلها "كناية عن ترك الناس أعمالهم لشدة الهول"[2]، واشتغالهم بكربهم وهولهم في ذلك اليوم.

غرض بناء الفعل ﴿عُطِّلَتۡ﴾ للمفعول:

الحذفُ للعلم بالمحذوف، والتنبيه إلى دقيقة معنوية

في بناء الفعل ﴿عُطِّلَتۡ﴾ للمفعول في جملة: ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ﴾ تفريغٌ للعبارة ممّا يُشغِل عن خطورة الكناية في الفعل نفسه، وذلك بارعٌ بَعْد العلم بالفاعل، وأنَّ معنى ﴿عُطِّلَتۡ﴾، أي: "عطَّل الناسُ حينئذٍ نفائس أموالهم، التي كانوا يهتمّون لها، ويُراعونها في جميع الأوقات، فجاءهم ما يُذهِلُهم عنها، فنبَّه بـ ﴿ٱلۡعِشَارُ﴾ - وهي النوق التي تَتْبعها أولادُها، وهي أنفس أموال العرب إذ ذاك عندهم - على ما هو في معناها من كل نفيس[3].

معنى (ال) في ﴿ٱلۡوُحُوشُ﴾، وبلاغة الكناية فيها:

أهوال أحداث النهاية تُخيف ما كان قبلَها يُهاب، ولا يَهاب

(الـ) في ﴿ٱلۡوُحُوشُ﴾ للعهد الذهني، أي: ﴿ٱلۡوُحُوشُ﴾ التي يعرفها الناس في بواديهم، و﴿ٱلۡوُحُوشُ﴾ "ما تَوَحَّشَ من دوابِّ البَرِّ"[4]، و"ليس في طبعه التأنُّس ببني آدم، والمراد به ما يَعُمُّ البهائم مطلقًا"[5].

ولطيفة اصطفاء وصف ﴿ٱلۡوُحُوشُ﴾ دون غيره من أوصافها دَعْمٌ للغرض الكنائي فيها، وهو شدة هول أحداث النهاية، بحيث لا تطيقها ﴿ٱلۡوُحُوشُ﴾، بل يَتملَّكُها الخوف، وهي المفترسة، التي تُهاب، ولا تَهاب.

دلالة التعبير بالحَشْر في جملة: ﴿حُشِرَتۡ﴾:

هول أحداث النهاية يذهب بما في (الوحوش) من نوازع الشر والعدوان

المقصود بالحَشْر في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ﴾، أي: ماتت، أو اختلَطتْ[6]، أو المقصود جَمْعُ بعضها إلى بعض،

(1) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 605.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 142.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 912.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 470.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 255.
(6) أي: فصارت بين الناس، ينظر: الماوردي، النكت والعيون: 6/ 212.

وسوقها إلى أكنانها؛ إذ يدفعها البلاء إلى الفرار، وطَلَبِ النجاة مما تراه من أحداث القيامة، فترتدّ عن مسارحها مسرِعةً إلى حيث ما تَظن عنده الاختفاء من الخطر المحدق بها، فتجيء من كل وجه، ويلوذ بعضها ببعض؛ إذ يذهب الهول بكل ما فيها من نوازع الشر والعدوان[1].

أو أنَّ المقصود بالحشر في جملة ﴿حُشِرَتۡ﴾: حشرت إلى القيامة للقضاء فيُقْتَصّ للجمّاء من القرناء[2]؛ إذ يُحييها اللّه تعالى بعد موتها فيَضَع اللّه تعالى فيها ما شاء؛ فيكون في هذا إخبار عن عِظَم هول ذلك اليوم حتى يؤثّر الهولُ في الوحوشِ، والشمسِ، والقمر، والسماوات[3].

بلاغة الكناية في حشر الوحوش:

لـشـدة هـول أحـداثِ النهاية لا يعدو وحْشٌ عـلى آخـر، بل يـذهـل عـمّـا في طـبـعـه مِـن الافتراس

في التعبير بحَشْر الوحوش كنايةٌ مُبينة عن أهوال مقدمات يوم القيامة؛ إذ الوحوش - وهي ما هي قوّةً وشراسة على مواجهة الأخطار - تَفقِد شجاعتها حينئذٍ، ويتملكها الخوف والذعر، وهي التي "مِن طبْعها نُفْرَة بعضها عن بعض، فتتجمّع في مكان واحد لا يعدو شيء منها على الآخر من شدة الرعب، فهي ذاهلة عما في طبعها مِن الاعتداء والافتراس، وليس هذا الحشر الذي يحشر الناس به للحساب، بل هذا حشر في الدنيا، وهو المناسب لِما عُدّ معه من الأشراط، وروي معناه عن أبي بن كعب"[4].

و"هذه الحيوانات بعضها غذاء للبعض، ثم إنها في ذلك اليوم تجتمع، ولا يتعرض بعضها لبعض وما ذاك إلا لشدة هول ذلك

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 16/ 1468.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 213.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 431.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 143.

اليوم"[1]، و"لا يَستوحِش الوَحشُ من الناس، ولا الناسُ من الوحوش من شدّة الأهوال، وذلك أهولُ وأفزع وأخوف وأفظع"[2].

معنى (ال) في ﴿ٱلۡبِحَارُ﴾، ولطيفة صيغة الجمع:

(الـ) في ﴿ٱلۡبِحَارُ﴾ لاستغراق جنس ما يعرفه الناس منها، وكذلك تفيد تعريف العهد الذهني؛ إذ يقع تَصوُّرُها في الأذهان حينما تُطلَق.

النظمُ الكريم يوزِّع الصّيَغَ على المقامات الأنسب بكلٍّ منها

وقد آثر النظم الكريم التعبير بجمع ﴿ٱلۡبِحَارُ﴾ دون جمع (الأبحُر) لما يدلّ عليه الاستعمال القرآني هنا من الكثرة، التي تتّسق مع دلالة الجنسية في (الـ)، أمّا (أبحُر)؛ فجمعُ قِلّة، فلا يناسب مقتضى الحال ولا المقام الداعيين إلى المبالغة في بيان عموم تسجيرها.

دلالة التعبير بالتسجير في جملة: ﴿سُجِرَتۡ﴾:

الفعل ﴿سُجِّرَتۡ﴾ من قولهم: سَجَّر التنورَ؛ إذا ملأه بالحطب، أي: مُلِئَتْ، وفُجِّر بعضها إلى بعض حتى تعود مجرًى واحدًا، وقيل: ملئت نيرانًا تضطرم لتعذيب أهل النار[3]، وحينئذٍ تَصير البحارُ والأرض شيئًا واحدًا في غاية الحرارة والإحراق[4]، وأُرسل عذْبُها على مالحها، ومالحُها على عَذْبها حتى امتلأت، أو فُجِّرَتْ، فصارت بحرًا واحدًا[5].

وعلى كلا القولين فإنَّ هذا الحدث من الأهوال العظيمة يوم القيامة؛ إذ تمتلئ البحار على كثرتها ووفرة مائها، فتفيض، أو تمتلئ نارًا محرقةً، وكفى بهذين المشهدين زاجرًا وواعظًا.

القراءات الواردة في : ﴿سُجِّرَتۡ﴾ وبلاغتها:

بلاغة التخفيف والتشديد في ألفاظ القراءات

قرأ ابن كثير والبصريّان بخلف عن رويس بتخفيف الجيمِ:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 64.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 21/ 278.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 707.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 65.
(5) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 213.

﴿سُجِرَتْ﴾، وقرأ الباقون بِتَشْدِيدِهَا: ﴿سُجِّرَتْ﴾[1]. فحجّة من قرأ بالتخفيف أنه على معنى إرادة وقوعه للقليل والكثير، ويدلُّ على قوة التخفيف: إجماعهم على قوله: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور: 6]، ولم يقل: (المسجَّر)، ومعنى ﴿ٱلْمَسْجُورِ﴾: الممتلئ، وقيل: الفارغ. وقرأ الباقون بالتشديد على معنى التكثير، لأنّها بحار كثيرة[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التّسجير والتّسعير:

السجر الإحماء، والسعر التهييج

السجر من سَجَرْتُ التَّنّورَ أَسْجُرُهُ سَجْرًا؛ إذا أحمَيْتَه، والسَّجور: ما يُسْجَر به التَّنّورُ، والساجِرُ: الموضع الذي يأتي عليه السيل، فيملؤه[3]، والسَّجْرُ: تهييج النار، يقال: سَجَرْتُ التَّنّورَ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ [الطور: 6]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي: أضرم[4].

أمّا السعر؛ فمن قولنا: سَعَرْتُ النارَ والحربَ: هيَّجْتهما، وألهبْتهما، وقرئ: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾، وبالتخفيف (سُعِرَت) وبالتشديد ﴿سُعِّرَتْ﴾ أيضًا؛ للمبالغة، وسَعَرْناهُمْ بالنَبْلِ، أي: أحرقناهم، وأمضَضْناهم، والمِسْعَرُ والمِسْعارُ: الخشب الذي تُسْعَرُ به النار، ومنه قيل للرجل: إنَّه لمِسْعَرُ حربٍ، أي: تُحْمَى به الحربُ[5].

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 398.
(2) مكّي، الكشف: 2/ 363.
(3) الجوهري، الصحاح: (سجر).
(4) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (سجر).
(5) الجوهري، الصحاح: (سعر).

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ٧ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ١٠﴾ [التكوير: 7 - 10]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الله تعالى ينوِّعُ للعباد من الآيات ما يرهِّبهم من عَمَل الشَّرِّ، ويرغبهم في عمل الخير

لمّا ذَكَر الله تعالى مِن الآيات العُلويّة مِن عالم المُلْك اثنين ومن السُّفْليّة أربعةً، فأفهَمَ جميع الخلق أنّ الأمر في غاية الخطرِ، فتشوَّقَت النفوس إلى ما يفْعل؛ قال ذاكرًا لِما أراد مِن عالم الغيب والملكوت - وهو أمورٌ ستَّةٌ على عدد ما مضَى من عالم الملك والشهادة - ترغيبًا في الأعمال الصالحة والقُرَناء الصالحين؛ لئلّا يُزوَّج بما يَسوؤه، وابتَدَأ بما يناسب تكويرَ الشمس: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلنُّفُوسُ﴾: نَفُسَ الشيءُ - بالضمِّ - نَفاسَةً: كرُم، فهو نفيسٌ، وأنفَس إنفاسًا مثلُه، فهو مُنْفِسٌ، ونَفِسْتُ به مثل ضَنَنْتُ به لِنَفاسته وزنًا ومعنًى، ونفِسَت المرأة - بالبناء للمفعول - فهي نُفَساء، والجمع نِفاس بالكسر، ومثله عُشراء وعِشار، ولا يقال في الحيض نُفِسَتْ - بالبناء للمفعول - وهو من النَّفْس، وهو الدّمُ، ومِنه قولهم: لا نَفْسَ له سائلةً، أي: لا دم له يجري، وسمّي الدم نفْسًا؛ لأنَّ النَّفْس التي هي اسم لجملة الحيوان قِوامها بالدم والنُّفَساء من هذا.

وخرجت نفْسُه، وجاد بنفْسه؛ إذا كان في السياق، والنَّفْسُ مؤنث إن أريد بها الرّوح، قال تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النساء: 1]، وإن أُريد الشَّخص؛ فمُذكَّر، وجمع النَّفْس أنفُس ونُفوس، مثل: فلْس وأفلُس وفلوس، والنَّفَسُ - بفتحتين - نسيمُ الهواء، والجمعُ: أنفاس،

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 21/ 279.

وتَنفَّس أدخل النَّفَس إلى باطنه وأخرجه، ونفَّس اللّه كربتَه تنفيسًا: كشفها[1]، و﴿ٱلنُّفُوسُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ هي الأرواح.

2) ﴿زُوِّجَتۡ﴾: الزَّوْج - بالفتح - : الفَرْدُ الذي له قَرين، ومنه: زَوْجا حَمام، أي: ذكرٌ وأُنثى، وزوجان مِن الخِفاف، أي: اليمين والشمال، وزَوْج المرأة: بَعْلها، وزَوْج الرجل: امرأته، وزاجَ بينهم: حَرَّشَ، وأغرى، وزاوجه: خالَطَه، وتزوَّجَه النومُ: خالطه، والتزاوج: تداخُلٌ بين شيء وآخر حتى يشتبِكا، ويختلِطا، ويرتبطا معًا، كالذكر بالأنثى، والنوم بالنائم، وكالذين حُرِّشَ بينهم، فاشتبكوا.

ولا يقال للشيء: زَوْجٌ إلا وهو مرتبط بآخر ارتباطًا مادّيًّا أو معنويًّا، ومن هنا أُطْلِق الزوجُ على امرأة الرجل، والتزويج عقد اقتران الرجل بالمرأة: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: 37] ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٥٤﴾ [الدخان: 54]، واستعمل في قَرْن الأشباه؛ لأنّ المشابهة تربط المتشابهين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾، وقال ﷺ: «يُقْرَن كلّ رجل مع كل قوم كانوا يعملون كعمله»[2]، فـ ﴿زُوِّجَتۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾، أي: أُلحِق كلُّ إنسانٍ بشكلهِ، وقُرِن بينَ الضُّرَباءِ والأمثالِ، أو أنّ الأرواحَ رُدَّت إلى الأجسادِ، فزوِّجت بها[3].

3) ﴿ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ﴾: وأَدَ يئِد، اوْئِدْ إدْ، وأْدًا، فهو وائِد، والمفعول موؤود ووَئيد، وأَدَ البنتَ خشيةَ الفقر والعار: دَفَنها في التّراب حيَّةً، عادة جاهليّة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾، والوأْدُ: الضغط إلى أسفل بثقَلٍ عظيم، كضَغط الإبل على الأرض في وطنها مع ثِقَل جِسْمها وثقل أحْمالها، وكالحائط يسقط بثقَله الذاتي وثقل الهوي، ومنه: وأدَ ابنتَه: دَفَنَها في القبر وهي حَيّة، أي: أثقلها بتُرابٍ ورمْلٍ كثيرٍ ضاغطٍ[4].

4) ﴿ذَنۢبٖ﴾: ذَنَبُ الدّابة وغيرِها معروفٌ، ويُعبَّر به عن المتأخّر والرّذل، يقال: هم أذناب القوم، وعنه استُعير: مَذانِبُ التّلاع، لمسائل مياهها، والذَّنوبُ: الفرس

(1) الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (نفس).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (زوج).
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 141 وما بعدها.
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وأد).

الطويل الذنَب، والدّلو التي لها ذنَب، واستعير للنّصيب، كما استعير له السَّجْل، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ﴾ [الذاريات: 59].

والذَّنْبُ في الأصل: الأخذ بذَنَب الشيء، يقال: ذَنَبْتُهُ: أصبت ذنَبه، ويُستعمل في كلّ فعل يُستَوْخَم عقباه اعتبارًا بذَنَب الشيء؛ ولهذا يسمّى الذَّنْبُ تبِعَة؛ اعتبارًا لِما يَحصل مِن عاقبته، وجمع الذّنْب ذُنوب، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: 11][1]، فمعنى ﴿ذَنۢبٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ تبِعة، أي: فبأي تبِعة وجريرة وُئِدَتْ؟.

5) ﴿نُشِرَتْ﴾: النَّشْر - بالفتح -: جميعُ ما خرج من نبات الأرض، نشَرت الأرض: أصابها الربيع، فأنبتتْ، والعُشْبُ: اخْضرَّ بعد يُبْس في دُبر الصيف بمطَرٍ يصيبه، والنَّشْر: سطوعُ الريح طيبةً أو غيرها، نَشَرْت الثوبَ والمتاعَ: بَسَطْته، ونَشَر الخشبَ بالمنشار: قطعه، نَحَته، والمنشار: الخشبة التي يُذَرَّى بها البُرُّ، وهي ذات الأصابع، النُّشْرة - بالضم - : رُقية يعالج بها المريض والمجنون تُنَشَّر عليه تنشيرًا، والمنشور من كتب السلطان ما كان غير مختوم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ بُسِطت، وقرأ كل إنسان ما في صحيفته[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ومن الأحداث الخطيرة المحقَّقةِ الحصول - حين يحين أوانها، ويأذن اللّه تعالى بوقوعها، ويتوقَّف على حصولها عِلْمُ كل نَفْس ما أحضرَتْ - أنْ تُزَوَّج النفوس بأشباهها، فتُقرَن النفوس المؤمنة بالمؤمنة، وتُهيَّأ لِجنانِها، والشريرةُ بالشريرةِ، وتوجَّه إلى جحيمها، وتُلحَق الأعمال الصالحة بأهلها، والطالحة بأصحابها.

كل امرئ يُحشر مع من أحبّ، ويَتناول كتابَه علـى حسـبِ عمَله

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (ذنب).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نشر).

وكذلك مِن المؤكَّد وقوعُه أنْ تُسأل البناتُ اللاتي وأدَهُنّ أهلُهنّ عن سببَ قتْلِهنّ، وتسأل كل واحدة منهنّ عن الجريمة التي اقترفتْها، فحَمَلَت وائِدَها على وأْدِها حيّةً بتلك القَسْوة والبشاعة؟.

ومن المُحَقَّق وقوعه أيضًا حينئذٍ تَطايُر صحائف أعمال الناس - مؤمنين وغير مؤمنين - ونَشْرُها على رؤوس الأشهاد، فيتناول كل إنسان كتابه، فإن كان مؤمنًا من أهل الصالحات؛ تناوله بيمينه من أمامه، وإن كان كافرًا أو فاجرًا؛ تناوله بشماله أو من وراء ظهره، كما ورد صريحًا في آيات أُخْرى من الذِّكْر الحكيم.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾:

حقيقٌ بمن علم هذه الأحوال أن يستعدَّ ليوم المآل

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ عاطفةٌ هذا الشرطَ على الشروط السابقة، فهي للجمع بينها جميعًا في التهيئة للحساب المفهوم من جملة الجواب بعدُ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾.

وبداية من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ "شروعٌ في ذكر الأحوال الحاصلة في الآخرة يومَ القيامة، وقد انتقل إلى ذكرها؛ لأنها تَحصل عقب السِّتَة التي قبلها، وابتدئ بأوَّلها، وهو تزويجُ النفوس"[1].

معنى (ال) في ﴿ٱلنُّفُوسُ﴾، ودلالة جمعها على (الفعول):

لا يغيب أحدٌ عن يوم الجزاء والحساب

(الـ) في ﴿ٱلنُّفُوسُ﴾ لِتعريف الجِنْس، أي: جميع النفوس "مِن الناس وغيرِهم"[2]؛ إذ تُقرَن بعضُها ببعض، فتُقْرَنُ كلُّ نفسٍ بالنَّفْس أو بالنُّفوس التي تلائمها - خيرًا وشرًّا، أو تُقرَن النفوس بالأعمال التي عملِتْ، أو تُجازَى النفوس بالمكافآت التي تَستَحِقُّ على أعمالِها مِن جنَّةٍ ونار.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 143.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 21/ 279.

ولفظ (النَّفْس) يطلق على الرّوح، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: 27 - 28]، وتُطلَق النفس على ذات الإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ [الأنعام: 151]، فيجوز أن يكون معنى النفوس هنا الأرواح، ويجوز أن يكون المعنى: وإذا الأشخاص نوِّعَتْ، وصُنِّفَت، فجُعِلت أصنافًا؛ قال تعالى: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ٧ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ [الواقعة: 7 - 10][1].

وجاء لفظ ﴿ٱلنُّفُوسُ﴾ جمعَ كثرة على (فُعول)؛ لِمُناسبة تلك الأعداد الغفيرة من ﴿ٱلنُّفُوسُ﴾ واستيعابها، فإنها مِن الكثرة بحيث لا يُحصيها عدًّا إلا اللّه تعالى.

دلالة التزويج في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾:

مصاحبة المتقين فــوزٌ فــي دار النعيم

أوّل منازل البعث اقترانُ الأرواح بأجسادها، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨﴾ [الزمر: 68]، ثم يُقسِّم الناس حسب أعمالهم، كما قال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾ [الزمر: 71] ثم قال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾ [الزمر: 73] الآية[2]، فيزوّج اللّه تعالى بعض هؤلاء بعضًا، زوّج أصحابَ اليمين أصحابَ اليمين، وأصحابَ المشأمة أصحابَ المشأمة، والسابقين السابقين؛ قال: فهذا قولُه: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [الصافات: 22][3]، ولذلك عبَّر بالتزويج هنا؛ للدلالة على هذه المرحلة من البعث والحشر.

لطيفة بناء الفعل ﴿زُوِّجَتۡ﴾ للمفعول:

من المقامات ما يقتضي توفير عناية المخاطب على الفعل، لا الفاعل

وفي بناء الفعل ﴿زُوِّجَتۡ﴾ للمفعول توفير لِعناية المخاطَبين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 143.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 144.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 19/ 521.

على النظر إلى الفعل والانشغال به وتدبُّره، لا النظر إلى الفاعل والانشغال به، فالأهم هنا هو رَبْط كل نفس بعَمَلِها، وقَرْنِها بأشباهها، وتوجيهها إلى المصير المناسب لها - مِن جنةٍ أو نار؛ لتحرص النفس أن تكون في زمرة المتقين، وجماعة الصالحين.

نكتة تخصيص سؤال الموؤودة بالذِّكر دون غيره مِن جرائم الظالمين:

خصَّ النظم الكريم سؤال الموؤودة هنا بالذِّكر دون غيره من جرائم الظالمين؛ لمناسبة ذِكر تزويج النفوس بالأجساد؛ وذلك لأن إعادة الأرواح إلى الأجساد كان بعد مفارقتها بالموت، والموتُ إمّا بعارضٍ جسديّ مِن انحلال أو مرض، وإما باعتداءٍ عُدوانيّ من قتلٍ أو قتال.

وأْدُ الآباء أبناءَهم مِن أفظعِ الجرائم؛ لأن حِرْص الآباء على حياتهم فطرة أصيلة

وكان من أفظع الاعتداء على إزهاق الأرواح مِن أجسادها اعتداءُ الآباء على نفوس بناتهم بالوأد؛ فإنّ اللّه جَعل في الفطرة حرصَ الآباء على استحياء أبنائهم، وجعل الأبوين سببَ إيجاد الأبناء، فالوأد أفظعُ أعمالِ أهل الشِّرْك، "وظاهرُ الآية أنّ سؤال الموؤودة وعقوبة مَن وأدَها أوّل ما يُقضى فيه يومُ القيامة، كما يقتضي ذلك جعْلَ هذا السؤال وقتًا تُعْلَم عنده كل نفس ما أحضرَتْ، فهو مِن أوّل ما يُعلم به حين الجزاء"[1].

معنى (ال) في ﴿ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ﴾، وغرض إفرادها:

الرضا بالجريمة رضًا بكل مثيلاتها في العالم

﴿ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ﴾ هي المدفونةُ حيةً، وكذلك كانت العربُ تفعَلُ ببناتِها، ومنه قولُ الفرزدقِ بن غالبٍ:

ومِنّا الذي أحْيا الوَئِيدَ وغالبٌ *** وعمرٌو ومنا حامِلونَ ودافِعُ[2]

و(الـ) في ﴿ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ﴾ لتعريف الجنس؛ إذ لا يتعلَّق ذلك الترهيب بوَأْدِ موؤودة معينة، بل هو حُكم عام لكل حالة وأْدٍ وقعت في دنيا البَشَر.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 144.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 147.

وفي إفراد ﴿ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ﴾ مزيدُ ترهيبٍ مِن الإقدام على مقارفة تلك الجريمة الظالمة؛ فوَأْدُ موؤودة واحدة جريمةٌ مستقِلَّة توجب العقوبة، ومن رضي وأْد واحدة؛ فقد رضي وأد بنات العالم كلّه، فقد قال الله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ [المائدة: 32]، وقال ﷺ: «إذا عُمِلَتِ الخَطيئَةُ في الأرْضِ؛ فمَن شَهِدَها، وأنْكَرَها؛ فهو كَمَنْ غابَ عَنْها، ومَنْ غابَ عَنْها، ورَضيَها كَمَنْ شَهِدَها»(1).

غرض توجيه السؤال إلى ﴿ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ﴾ في جملة ﴿سُئِلَتۡ﴾:

في صرف الخطاب عن المجرم إلى خَصمه المظلوم مزيدُ تبكيت وتهديد

سؤال الموؤودة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ﴾ إنكار وتوبيخ لوائدها؛ لِتقول: بلا ذنب قُتِلْتُ، أو لِتَدُلَّ على قاتلها، فهو توبيخٌ لِقاتلها بصَرْفِ الخطاب عنه، كقوله تعالى لنبيه عيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [المائدة: 116] الآية(2).

فالمجني عليه إذا سئل بمحضر الجاني، ونُسِبت له الجِناية دون الجاني؛ بَعث ذلك الجانيَ على التفكُّر في حاله وحال المجنيِّ عليه، فيرى براءة ساحته، وأنه هو المستحِقّ للعقاب والعذاب، وهذا استدراجٌ على طريق التعريض، وهو أبلغ من التصريح(3).

وأيضًا في توجيه السؤال إلى الموؤودة في مواجهة وائدها الظالم تربيةٌ للخوف في نفسه وتعظيمٌ لِجريمته؛ إذ إنَّ الموؤودةَ وهي المظلومةُ تُسأل، وكأن مَن تعلقتْ به تلك الجريمة - وإن كان المفعول به - يُسأل، فكيف بعِظَم ذنب مَن تعلقت به الجريمة، وهو الفاعل المتلبِّس بها المتحمّل تبعاتها؟.

(1) أبو داود، سنن أبي داود، رقم الحديث: 4345، والطبرانيُّ، المعجم الكبير، رقم الحديث، ص: 345.
(2) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 606.
(3) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 20/ 113.

لطيفة بناء الفعل: ﴿سُئِلَتۡ﴾ للمفعول:

في بناء الفعل ﴿سُئِلَتۡ﴾ للمفعول مزيدُ تشنيعٍ على وائد ﴿ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ﴾؛ وذلك لِإطلاق جهات المساءلة، وأنه يَصير عُرضةً لمساءلة كل مَن تتأتَّى منه المساءلة، ويكون محل تعنيف وتبكيت من كل من يتأتى منه يومئذٍ التبكيت؛ بسبب جريمة الوأد، وهل يكون له قِبَلٌ بمواجهة تلك الجهات جميعًا؟ فذلك مرعب ومخيف لكل من تسوِّل له نفسُه وأدَ ابنته.

تعرُّض الموؤودة ووائدها لمساءلة مَن تتأتَّى منه المساءلة يوازي فظاعة جريمته

معنى الباء في ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾ وموقع جملتها:

الباء في جملة ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾ باءُ السببيَّة، والجملة بيان لِجُمْلة ﴿سُئِلَتۡ﴾[1]، وتعبير صريح وواضح عن مضمون السؤال الذي وُجِّه إليها، وأنَّه هو هذا: بأي ذنب قُتِلَت أيتها المظلومة؟ كما يمكن اعتبار جملة: ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾ مقولًا لقولٍ محذوف، والتقدير: وإذا الموؤودة سئلت فقيل لها - على سبيل الحكاية - بأيِّ ذنب قتلت؟.

على كل ظالم أنّ يُعِدّ لكل مَظلمة احتمَلَها سببًا مقبولًا

دلالة التعبير بـ (أيّ) في قوله: ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾:

(أيُّ) "اسمُ استفهام، يُطلب به تمييز شيء مِن بين أشياءَ تَشترك معه في حالٍ"[2]، وهو هنا في قوله تعالى: ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾ يُطلب به تمييز السَّبب الذي حمل الوائدَ على قتل الموؤودة؛ بغرض تحقيق الجُرم وإلزام الحجة وتثبيت العقوبة؛ إذ لا سبب مقبول لوأد الوليدة، وبخاصّة من والديها المفترض فيهما الحرص على صيانتها من كل سوء وضُرّ.

لا حجَّة مقبولة في قتل النفس بغير حقٍّ

دلالة التعبير بـ ﴿ذَنۢبٖ﴾:

الذّنْبُ هو المعصية، يقال: أذنَبَ المكلَّفُ، أي: ارتكب معصيةً وإثمًا،

في تبكيت المجرم بجريمته تحذيرٌ لِغيره من ارتكاب مثلها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 146.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 146.

وأذنب المتَّهمُ، أي: ثبتتِ التهمةُ عليه، وأقرَّ بأنّه مُذنِب[1]، والذّنبُ مطلقَ الجُرم - عمدًا كان أو سهوًا - والإثم مختصٌّ بالعمد[2]، وفي سؤال الموؤودة: ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتۡ﴾ تقرير لوائدها بانتفاء الذنب عنها، وإمعان في تبكيته، وترهيب لغيره ممّن لا يزالون في الدنيا - وقت نزول الآية الكريمة وبعده - مِن ارتكاب مثل فعلته الشنيعة، وفيه أيضًا إبطال لكلِّ سبب قد يحمل الإنسان على وأد البنات.

نُكْتة حَذْف جواب الموؤودة:

لا تُقبل ذريعةٌ لِقتلِ النفس التي حَرَّم الله تعالى إلا بالحقّ

وراء حَذْف جواب سؤال الموؤودة إيذانٌ بانعدام الجواب أصلًا، وأن الموؤودة لا ذَنْب لها ولا جريرة، ولا إثم يوجِب قتلها أصلًا، فضلًا عن أن يكون مِن والدَيها، وأيضًا فإنَّ في حذف الجواب إشارةً إلى أنّ ما يتذرَّع به الوائدون - مِن خشية الإملاق، أو خشية العار المتوقّع بسبب أسرها من قِبَل العدوّ - لا يُعتدُّ به، ولا يُقبَل عند اللّه تعالى، ولا يُعفي من العقوبة، فلا تُقبل ذريعةٌ لِقتلِ النفس التي حَرَّم اللّه تعالى إلا بالحقّ، ولا حقّ لهم في قتل الموؤودة الضعيفة البريئة.

القراءات القرآنية في ﴿قُتِلَتۡ﴾ وبلاغتها:

في تشديد الفعل تبشيعه لينفر منه السامع

قرأ أبو جعفر بتشديد التّاءِ: ﴿قُتِّلَتۡ﴾، وقرأ الباقون بِتَخْفِيفِهَا: ﴿قُتِلَتۡ﴾[3]. وحجّة مَنْ شَدّد هي تبشيعُ الفعل في أُذُنِ السّامع، وهي تفيد معنى أنّه قَتّلٌ شديد فظيع، وأمّا مَن خفّف فَلِأَنّ الفعل صَدَر منه مرة واحدة[4]. وفي القراءتين أيضًا مشاكلة رؤوس الآي المثقَّلة والمخففة قبل وبعد.

---

(1) عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (ذنب).

(2) مجموعة من المختصين بإشراف الشيخ صالح بن حميد، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: 9/ 4201.

(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 398.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 149.

معنى (ال) في ﴿ٱلصُّحُفُ﴾:

(الـ) في ﴿ٱلصُّحُفُ﴾ للعهد الذِّهنيّ، الذي أخبرت نصوص الوحييْنِ الشريفين الناسَ عنها، يعني صحف الأعمال؛ إذ كَتَبَ الملائكةُ فيها ما فعل أهلُها من خير وشرّ، فهي تُطوَى بالموت، وتُنْشَر يوم القيامة، فيقِف كل إنسان على صحيفته، فيعلم ما فيها فيقول: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: 49][1].

الصحف يوم القيامة صحُفٌ فيها أعمال العباد

دلالة التعبير بالنَّشْر في جملة ﴿نُشِرَتۡ﴾:

في التعبير بالنَّشْر دلالة على أن الصُّحف فُتِحَتْ، وبُسِطَتْ للحساب، ويجوز أن يُراد نشرت بين أصحابها، أي: فُرِّقَت بينهم[2]، ونَشْر الصحف حقيقة، وهو فتح طيّات الصحيفة، أو إطلاق التفافها؛ لتُقرَأ كتابتُها[3]، وفي هذا تحذيرٌ لكلِّ عبد، وتحريض له على أن يحرص على ملءِ هذه الصحيفة بالأعمال التي تنفعه، قال قتادة: صحيفتك يا بن آدم تُطْوَى على عملك، ثم تنشر يوم القيامة، فلينظر رجلٌ ما يُملي في صحيفته[4].

حقيقٌ بكلِّ عبد أن يملأ صحيفته بالخير؛ استعدادًا ليوم النشر

دلالة بناء الفعل ﴿نُشِرَتۡ﴾ للمفعول:

في بناء الفعل ﴿نُشِرَتۡ﴾ للمفعول؛ دلالة على العلم بالفاعل، وهو اللّه تعالى بالأمر (كُن)، أو الملائكة الكرام بتنفيذ أمره تعالى، أو أنه "إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش، فتَقَع صحيفة المؤمن في يده في جنّة عالية، وتقع صحيفة الكافر في يده في سموم وحميم[5].

الأخطر عند الناس في أحداث النهاية فظاعتُها لا تعلّقها بفاعل معيّن

---

(1) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 215.
(2) خان محمد صديق، فتح البيان في مقاصد القرآن: 15/ 101.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 149.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 709.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 709.

وعلى كلّ الاعتبارات ففي حذف فاعل ﴿نُشِرَتْ﴾ وبنائه للمفعول إيحاء بأنه لا يَتعلّق بذِكْر الفاعل وتحديدِه غرضٌ في مقام نشر الصحف، وتناول أصحابها إياها، كلٌّ بحسب إيمانه وعمله.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ١١ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ١٢ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ١٣ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ١٤﴾ [التكوير: 11 - 14]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

علاقات آي الذِّكر الحكيم وثيقة

لمّا ذَكَرَ اللّه تعالى ما يُطْلَقُ، ويُنْشَر - وهو الصُّحُف في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ﴾ - أتبَعَه ما يُطوَى، ويُحْصَر؛ ليَبدوَ ما فوقه مِن العجائب، ويُنظَر، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كُشِطَتۡ﴾: الكِشاط - ككِتاب - : الجِلْدُ بعد ما يُكشط (يُسلَخ)، وكَشَطَ الغِطاءَ عن الشيء، والجِلْدَ عن الجَزور، والجُلَّ عن ظَهْر الفَرَس - من باب ضَرَبَ - أي: قَلَعَه، ونَزَعه، وكَشَفه عنه، ومنه تَكَشَّطَ السحابُ، أي: تقطَّع، وتفرَّق، ومن ذلك كشط السماء في هذه الآية: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ﴾، كما عُبِّر بـ ﴿ٱنشَقَّتۡ ١﴾ [الانشقاق: 1] ﴿ٱنفَطَرَتۡ ١﴾ [الانفطار: 1] ﴿فُرِجَتۡ ٩﴾ [المرسلات: 9] ﴿وَفُتِحَتِ﴾ [النبأ: 19] لكن لكلٍّ معنى خاصّ[2].

2) ﴿سُعِّرَتۡ﴾: سَعَرْتُ النارَ والحربَ، أي: هيَّجْتهما، وألهبْتهما، وسَعَرْناهُمْ بالنَّبْلِ، أي: أحرقناهم، وأمضَضْناهم، والمِسْعَرُ والمِسْعارُ: الخشب الذي تُسْعَرُ به النار، ومنه قيل للرَّجُل: إنَّه لمِسْعَرُ حربٍ، أي: تُحْمَى به الحربُ[3]، فالتسعير في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ﴾ يعني: تهييجها وإلهابها، والعياذ باللّه تعالى.

3) ﴿أَحۡضَرَتۡ﴾: الحَضَر: خلاف البَدْو، والحَضارة والحِضارَة:

---

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 21/ 281.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (كشط).
(3) الجوهري، الصحاح: (سعر).

السكون بالحَضَر، كالبَداوة والبِداوة، ثمّ جُعل ذلك اسمًا لِشَهادة مكانٍ أو إنسان أو غيره، فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [البقرة: 180]، وقوله تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾، وقال: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ٩٨﴾ [المؤمنون: 98]، وذلك من باب الكناية، أي: أن يَحْضُرَني الجِنُّ، وكُنِيَ عن المجنون بالمحتَضَر، وعمّن حضره الموت بذلك[1].

والحضور في القرآن على ثمانية أوجه: الكتابة، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا﴾ [آل عمران: 30]، والعذاب، ومنه في الصافات: ﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٥٧﴾ [الصافات: 57]، والاستيطان، ومنه: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ [البقرة: 196]، والحلول، ومنه: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ﴾ [البقرة: 282]، والمجاورة، ومنه: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾ [الأعراف: 163]، والسماع، ومنه: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾ [الأحقاف: 29]، والحضور الذي يضاد الغيبة، ومنه: ﴿كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ٢٨﴾ [القمر: 28]، والإصابة بالسوء، ومنه: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ٩٨﴾ [المؤمنون: 98]، أي: أن يصيبوني بسوء[2]، والمقصود بـ﴿أَحۡضَرَتۡ﴾ هنا: عملت، وأوجدت[3].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

يوم القيامة تتكشَّف لكل نفْسٍ معاييرُ الحق لقبول أعمالها أو رفْضها

ومن المقطوع بوقوعه من أحداث النهاية إزالةُ السماء، وتشقُّقُها، وتَفَطُّرُها، وانقشاعها عما فوقها فتنكشف للإنسان أغطية بعض ما كان غائبًا عنه، وتتهيّأ الأوضاع لِمصير الكافر إلى جَحيمِه، والمؤمنِ إلى جنانه.

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (حضر).
(2) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، ص: 264.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 283.

ومن المقرر حصوله حينئذٍ أن توقَد الجحيم، فتسعَّر، وتُحمَى لاستقبال أهلها من الكافرين الطالحين، وأن تُزْلَف الجنةُ، وتُدنَى، فتُقرَّب إلى أهلها من المؤمنين الصالحين.

فإذا تمَّ كلُّ ما سبَق وتحقَّق - بدءًا من تكوير السماء، وحتى إزلاف الجنة - علِمت كل نفْسٍ مكلّفةٍ عِلم رؤية وبصَرٍ ويقين جَدْوى ما قدّمته لنفسها من صالح الأعمال وطالحها، وأبصرتْ معايير الحق والصواب لقبول أعمالها أو رفْضها، التي عُمِلتْ، ودوِّنتْ عليها هنالك في الدنيا، فاستصحبته، وأحضرته معها إلى هذا المقام - مقام الحَشْر والنَّشْر والحساب - ويقال لكل إنسان: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [الإسراء: 14].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (اللّام) في ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾:

ما عهده الناس عظيمًا في الدنيا يكون يوم القيامة هيِّنًا ضعيفًا لهول الأحداث

(اللّام) في ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ لتعريف العهد الذهنيّ، أي: السماء التي عهِدها الناس المخاطَبون في حياتهم الدنيا، والعربُ تُسمّي السحابَ سماءً، والمطرَ سماء، والسماءُ: سقفُ البيت، وكلُّ عالٍ مُطِلٍّ سماءٌ، حتى يقال لِظَهْر الفرس: سماء[1]، وقال ابن قتيبة في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ﴾ [الحج: 15]، أي: بحبل ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: 15]، يعني: سقف البيت، وكلُّ شيءٍ علاك، وأظلّك فهو سماءٌ، والسحابُ: سماء، يقول اللّه تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا﴾ [ق: 9][2].

وعلى ذلك فقد تكون ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ المذكورة هنا هي أغلِفةُ الغازات التي تَعلو الأرض، أو غيرَها مما وراءها مما لا نعلم، فإنها إذا كُشِطت، وأُزيلتْ؛ تضاعفتْ على الأرض حرارةُ الشمس، وغرق الناس في العرق إلّا مَن حفظ اللّه من المؤمنين، ويكون العرق على

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمو): 3/ 98.

(2) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 211.

قدر إيمان كلٍّ منهم وصلاح عمله، كما أخبر الرسول ﷺ[1]، والله تعالى أعلم بمراده.

الكبير والصغير سواءٌ أمام قدرة الله تعالى

دلالة التعبير بالكَشْط في جملة: ﴿كُشِطَتۡ﴾، مادةً وصيغةً:

الكشطُ دَفْعُك شيئًا عن شيء قد غطاه، كما يكشط الجلد عن السنام[2]، ومعنى ﴿كُشِطَتۡ﴾ عند المفسرين: قُلِعَتْ كما يُقلَع السَّقْف[3]، فذهبتْ، أو طويتْ كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ﴾ [الأنبياء: 104] الآية[4]، فكُشِفت، وأُزيلَتْ عما فوقها، كما يُكشَطُ الإهاب عن الذبيحة، والغِطاء عن الشيء[5]، والتعبير بالكشط في هذه الآية يدلُّ على هول المشهد؛ إذ السماء - وهي الجرم العظيم - تنزع، وتقلع، كما يقتلع الجلد، ويسلخ، وفي هذا عظيم التخويف والتحذير من شدَّة ذلك اليوم العظيم.

وصيغة الماضي في ﴿كُشِطَتۡ﴾ توحي بأنها "قُلعت بقوّة عظيمة وسرعة زائدة، وأزيلت عن مكانها"[6] إذا آن أوان ذلك كما هو في علم الله تعالى.

بلاغة الاستعارة في جملة ﴿كُشِطَتۡ﴾:

قدرة الله تعالى المطلقة تتصرّف في العالَم كما يشاء وقتما يشاء

إذا كان أصلُ الكشطِ هو السلخَ؛ فقد استُعير الكشطُ هنا للإزالة[7]، ونوع الاستعارة مكنية؛ وذلك بتشبيه السماء بحيوان

---

(1) عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ القِيامَةِ مِنَ الخَلْقِ حَتَّى تَكونَ مِنْهُمْ كَمِقْدارِ ميلٍ»، قال سليم بن عامر: فوالله ما أدري ما يعني بالميل، أمسافة الأرض أم الميل الذي تكتحل به العين، قال: «فَيَكونُ النّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمالِهِمْ في العَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكونُ إلَى كَعْبَيْهِ، ومِنْهُمْ مَنْ يَكونُ إلَى رُكْبَتَيْهِ، ومِنْهُمْ مَنْ يَكونُ إلَى حَقْوَيْهِ، ومِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ العَرَقُ إلجامًا»، قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه، مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة يوم القيامة، أعاننا الله على أهوالها: 8/ 158 برقم 2864.

(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 430.

(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 432.

(4) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 215.

(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير: 31/ 67.

(6) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 21/ 281.

(7) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 260.

يُسلَخ، ويُزال عنه جلدُه، فحُذِف الحيوان، ووصفت السماء بلازمه - وهو الكشط - والمعنى: "وإذا السماء كُشطت، وقطعت، وأزيلت، كما يُكشط الإهاب عن الذبيحة، والغِطاء عن الشيء المستور به"[1].

وتكمن بلاغة هذه الاستعارة في بيان عظمة اللّه تعالى، وقدرته على إزالة السماء واقتلاعها ونزعها؛ لينكشف ما فوقها.

دلالة بناء الفعل في جملة ﴿كُشِطَتۡ﴾ للمفعول:

في بناء فعل الكشط لِما لم يسمَّ فاعلُه - في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ﴾ - إلماحٌ إلى تعيُّن الفاعل، وأنَّه لا يقدر على ذلك الفعل الكبير إلا الكبير ﷻ، سواء بالأمر المباشر (كنْ)، أو بتكليف الملائكة بفعله.

سبحان الذي لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض

التَّعبير بالجحيم في الآية الكريمة:

الجحيم أصلُه: النارُ ذاتُ الطبقات مِن الوقود مِن حطبٍ ونحوه بعضها فوق بعض، وصار عَلَمًا بالغَلَبة على دار العذاب في الآخرة[2]، فـ (الـ) في ﴿ٱلۡجَحِيمُ﴾ لتعريف العهد الذهني؛ إذ تختصّ في الأذهان بجحيم الآخرة حين يُعرَّف بها، وتستحضر خطورته، ويتملَّكها الرعب والفزع؛ إذ ربّاهم الوحي الشريف على رهبته، والعمل للنجاة منه.

كلّ جحيم لا يُعَدُّ جحيمًا إذا قيس بـ (الجحيم) الأخرويّ

وتعريف ﴿ٱلۡجَحِيمُ﴾ بـ (الـ) يوحي بفظاعته، وأنّ كلّ جحيم سواه دونه بكثير، ولا يُعَدُّ جحيمًا؛ إذا قيس به، فهو ﴿ٱلۡجَحِيمُ﴾ الأبديُّ الخالد؛ لذلك تنصرف أذهان العباد إليه حين يُعرَّف بـ (الـ).

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿سُعِّرَتۡ﴾ مادَّةً وصيغةً:

تَسْعير الجحيم في قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ١٢﴾ يعني أنها أوقِدَ عليها، فأُحْميت - سَعَّرَها غَضَبُ اللّه تعالى، وخطايا بني آدمَ

الجحيم توقَّد إيقادًا شديدًا، وتقرَّب من الكافرين بغاية السُّرعة

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 116.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 150.

- وأوقِد عليها مرَّةً بَعدَ مرَّةٍ[1]، وأنها هُيِّئَتْ لِعذابِ مَن حقّ عليهم العذاب[2]، فاستعرت، والتهبت التهابًا لم يكن لها قبل ذلك[3].

وصيغة المُضيِّ في الفعل ﴿سُعِّرَتْ﴾ توحي بأنها أوقدت إيقادًا شديدًا بأيسرِ أمر، وقُرِّبَتْ من الكافرين بغاية السُّرعة[4]، كما تفيد صيغة الماضي تحقُّق الوقوع[5]، وقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾﴾ يحتمل أنْ يُحْدَثُ تسعيرها، فيكون فيه علم الحدَثيَّة، وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ يحتمل أن يبتدئ تسجيرها، ولمّا تسجّر من قبل، وجائز أن يراد من التسجير والتسعير على ما كان من قبل؛ لِقوله: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: 24]، وقد كان وقودها بغير هذين، ثم يُزاد في وقودها بالناس والحجارة"[6].

نكتة بناء الفعل للمفعول في جملة ﴿سُعِّرَتْ﴾:

كفى بلهيب النار واعظًا وزاجرًا

بناء فعل التسعير للمفعول في جملة: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ ناظرٌ إلى علم المخاطَبين بفاعله ضرورة أنّ الوعد والوعيد نازل من قِبَل الله تعالى، وإلى ذلك فإبهام الفاعل يضفي على الفعل خطورة، إضافة إلى أنه يوفِّر عناية المتلقي على التفكر في فظاعة الفعل ذاته، دون أن ينشغل بالفاعل مَن يكون؟.

معنى (ال) في ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾، ولطيفة إفرادها:

لا نعيم إلّا في جنة الله الرحيم

(الـ) في ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾ لتعريف العهد الذهنيّ، التي صارت عَلَمًا بالغَلَبة على دار النعيم[7]، والجنة في الأصلِ البستانُ ذو الأشجار الملتفّةِ

(1) جامع البيان، الطبري: 24/ 150.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 150.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 912.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 21/ 282.
(5) قد احتجّ بهذه الآية مَن قال: النار غيرُ مخلوقةٍ الآن، قالوا: لأنها تدل على أن تسعيرها معلَّقٌ بيوم القيامة، الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير: 31/ 67.
(6) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 433.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 150.

والرياضِ المعجبة[1]، وتعريف ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾؛ لتمييزها بجنَّةِ الخُلدِ يوحي بأنها بالنسبة إلى جَنّات الدنيا هي ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾، وأن ما سواها كأنه ليس بجَنّة، وعلى ذلك فتعريفها مع إفرادها دليلًا تفخيم وتعظيم.

وقال الرازي: الجنَّة تارةً تأتي في القرآن الكريم مفردة، وأخرى جمعًا، وتارة مثناة، أمّا الجنة عند التوحيد؛ فلأنها لاتصال المنازل والأشجار والأنهار كجنَّةٍ واحدة، وأما حِكمة الجمع؛ فلأنها بالنسبة إلى الدنيا وبالإضافة إلى جَنّانها جناتٌ لا يَحصرها عدد.

وعند الوَعْد وحَّد الجنة، وكذلك عند الشراء؛ إذ قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: 111]، وعند الإعطاء جمَعَها؛ إشارة إلى أنّ الزيادة في الوعد موجودة[2]، و"لاشتمالها على ما تلتذُّ به الروح والجسم كأنها جنتان، فالكل عائد إلى صفة مدح[3].

دلالة التعبير بالإزلاف في جملة ﴿أُزْلِفَتْ﴾:

﴿أُزْلِفَتْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾، أي: قُرِّبت، وأُدْنيَت[4]، قُرِّبَتْ من أهلها، وجعلت بقُرْبٍ مِن مَحْشرهم؛ بحيث لا تَعَبَ عليهم في الوصول إليها، وذلك كرامة لهم[5].

بلاغة الاحتباك:

الاحتباك القرآني يوثق عُرى الكلام

في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ احتباك بديع؛ من شأنه توثيق عُرى الكلام، مع تحقيق الإيجاز البليغ؛ إذ إنَّ ذِكْر التسعير أولًا دالٌّ على ضِدّه في الجنّة ثانيًا، وذِكر التقريبِ ثانيًا دالٌّ على مثلِه أولًا[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 21/ 282.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 28/ 166 بتصرف.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 29/ 371.
(4) جامع البيان، الطبري: 24/ 150.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 150.
(6) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 21/ 282.

لطيفة بناء الفعل ﴿أُزۡلِفَتۡ﴾ للمفعول:

في بناء الفعل ﴿أُزۡلِفَتۡ﴾ للمفعول تنبيه على أنه ينبغي العلم به، فالخير إليه ﷻ، والشر ليس إليه، وكذلك في حذف الفاعل وبناء الفعل للمفعول مسارعة إلى زَفِّ البُشرى للمخاطبين، وإيقافهم عليها ذاتها، تعجيلًا لمسرَّتهم.

غرض إطالة الأوصاف والأحداث من أول السورة حتى هنا:

استعراضُ أحداث النهاية يَحُثُّ أولي الألباب على الاستعداد ليوم المعاد

كثرة الأوصاف في مطلع هذه السورة؛ للدلالة على عظيم الهول في ذلك اليوم، وأنَّه ينبغي أن يتزوَّد له، ويُحذَّر من خطره؛ قال السعديّ: هذه الأوصاف التي وصَف اللّه بها يوم القيامة مِن الأوصاف التي تنزعج لها القلوب، وتشتدّ مِن أجلها الكروب، وتَرتعِد الفرائصُ، وتعم المخاوف، وتحث أولي الألباب للاستعداد لذلك اليوم، وتزجرهم عن كل ما يوجب اللوم، ولهذا قال بعض السلف: مَن أراد أن ينظر ليوم القيامة كأنه رأي عين، فليتدبر سورة ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾[1].

الموقع الإعرابي لجملة: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾:

في معرفة أحداثِ النهاية تأثيرٌ في النفوس لتحرص على أعمالها

قولُه تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ جوابٌ لقولِه: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ وما بعدَها[2]، وهذه الجملة يتنازع التعلق بها كلمات ﴿إِذَا﴾ المتكررة[3]، قال النسفيّ: هذه اثنتا عشرة خِصلة، سِتٌّ منها في الدنيا والباقية في الآخرة، ولا وقْف مطلقًا مِن أوّل السورة إلى ﴿مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾؛ لأنّ عامل النصب في ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ﴾ وما عُطِف عليه جوابُها، وهو ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾، ولِضرورة انقطاع النَّفَس على كل آيةٍ جوِّز الوقف[4].

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 912.

(2) جامع البيان، الطبري: 24/ 152.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 150.

(4) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 607.

والمعنى: "إذا كانت هذه الأشياء - التي تكون في القيامة - علِمتْ في ذلك الوقت كلُّ نفسٍ ما أحضَرته مِن خير، أو شر تُجْزَى به"(1)، وعن عمر بن الخطاب: أنه قرأ أول هذه السورة، فلمّا بَلَغ ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾؛ قال: لِهذا أجريت القصة، أي: هو جواب القسم، ومعنى ﴿عَلِمَتۡ﴾ أنها تُعَلَّمُ بما أحْضَرَتْ، فتَعْلَمه(2).

دلالة التعبير بالعِلم في جملة: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ﴾:

في الآخرة يرى المؤمن أعماله أحسنَ مما عملها، والكافر يرى أعماله أسوأ مما عملها

العِلْم في قوله: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ عِلم بصر وبصيرة؛ إذ تكشّفت للنفوس الحقائق، ومعنى عِلْم النفوس بأعمالها اطِّلاعُها عليها مفصّلةً في الصحف، بحيث لا يَشذّ عنها منها شيء - كما ينبئُ عنه قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: 49]، أو أنها تشاهدها على ما هي عليه في الحقيقة، فإن كانت صالحةً تشاهدها على صورٍ أحسنَ مما كانت تُدركها في الدنيا؛ لأن الطاعات لا تَخلو فيها عن نوع مشقّة، وإن كانت سيئة تُشاهدها على خلافِ ما كانت عندها في الدنيا؛ لأنَّها كانت مزيَّنة لها موافقة لهواها"(3).

دلالة إفراد ﴿نَفۡسٞ﴾ في قوله: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ﴾:

على كل نفس إصلاح عملِها، وأن تتجنب أمرًا يُخشَى منه النَّدم والمؤاخذة

أفرَد النظمُ الكريم كلمة ﴿نَفۡسٞ﴾، في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾؛ "للإشعار بأنه إذا علمت ﴿نَفۡسٞ﴾ من النفوس ما أحضَرَت عند قيام الساعة، وجب على كل ﴿نَفۡسٞ﴾ إصلاح عملِها؛ مخافة أن تكون هي التي عمِلَت، أي: إن العاقل يجب عليه أن يتجنب أمرًا يَخشَى منه النَّدم والمؤاخذة"(4).

وذِكر ﴿نَفۡسٞ﴾ نكرةً في سياق الشرط يُراد بها العموم، أي: علمت

---

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 430.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 150.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 348.
(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1804.

كل نفس ما أحضرت، واستِفادةُ العموم مِن النكرة في سياق الإثبات تَحصُل من القرينة الدالة على عدم القصد إلى واحدٍ من الجنس، والقرينة هنا وقوعُ لفظ ﴿نَفۡسٌ﴾ في جواب هذه الشروط، ولا يَخطر بالبال أن تكون شروطًا لِشخص واحدٍ، وقد قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٍ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٍ مُّحۡضَرًا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٍ﴾ [آل عمران: 30][1].

معنى ﴿مَّآ﴾ في قوله: ﴿مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾:

الأعمال الظاهرة تَبْرُز في النشأة الآخرة مجسَّمة بصورٍ جوهرية مناسبة لها حُسْنًا وقُبحًا

﴿مَّآ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٌ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ موصولة، ونكتة إيثارها على صريح اسم العمل أنها تتسع لِشمول أعمال النفس مِن خير وشرّ جميعًا، و"المراد بحضورها إما حضور صحائفها - كما يعرِب عنه نشْرُها - وإما حضورُ أنفُسِها - على ما قالوا من أنّ الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصورةٍ عرضية تَبْرُز في النشأة الآخرة بصورٍ جوهرية مناسبة له في الحُسْن والقُبح، على كيفيّات مخصومة وهيئات معينة، حتى إن الذنوب والمعاصي تَتجسَّم هناك، وتَتَصوَّر بصورة النار.

وعلى ذلك حُمل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٩﴾ [التوبة: 49]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ﴾ [النساء: 10]"[2].

لطيفة إسناد الإحضار إلى النُّفوسِ:

عمل النَّفْس في الدنيا سببٌ في سعادتها أو شقاوتها في الآخرة

أُسنِد إحضار الأعمال إلى النفس في جملة: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٌ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾، مع أنَّها تُحضَر بأمر اللّٰه تعالى - كما يؤذن به قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٍ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٍ مُّحۡضَرًا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٍ﴾ [آل عمران: 30] - لأنَّها لّمّا عملتْها في الدنيا، فكأنها أحضَرَتها في الموقف[3]، فدلّ على أنَّ عَمَلَ النَّفْس في الدنيا سببٌ في سعادتها أو شقاوتها بها في الآخرة.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 150.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 116.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 260.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الإزلاف والتقريب:

الإزلافُ التقريبُ لِغَرَضٍ، والتقريبُ مطلَقٌ مكانًا وزمانًا ومعنًى

الزُّلْفة: المنزلة، وجمعها الزُّلَف، والزُّلفى: القُرْبة، وأُزلفَت الجنة: قُرِّبت، وازدلف القوم: اقتربوا، وأزلف الشَّيءَ: قرَّبه، وقدَّمه، قال تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٩٠﴾ [الشعراء: 90]، ﴿وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٤﴾ [الشعراء: 64]: قرَّبناهم من البحر لأجل الإغراق، وازدلف الشَّخصَ: قرّبه إليه، وازدلف إليه: تقرّب منه مادحًا إيّاه نفاقًا؛ لِقضاء مصلحة أو حاجة، وتزلَّفَ إليه: تقرَّب منه مادحًا إيّاه نفاقًا؛ لقضاء مصلحة أو حاجة"[1].

والقُرب وجودُ الشيء في الحيز متاحًا مُهَيَّأً؛ للتناول أو الوصول إليه، ومنه القُرْب المكاني قال تعالى: ﴿مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ٥١﴾ [سبأ: 51]، وكذلك الزماني ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ﴾ [النساء: 77]، ثم القرب المعنوي قُرْب المنزلة: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾ [التوبة: 99]، ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢﴾ [مريم: 52][2].

---

(1) عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (زلف).

(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قرب).

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١﴾ [التكوير: 15 - 21]

إثباتُ أنّ القرآن الكريم مِن عند ربّ العالمين، وصدقُ جميع أخباره

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

لمّا ساق ﷻ ما ساق مِن أحوالٍ تدُلُّ على شدائدِ يوم القيامة؛ أتْبَع ذلك ببيان أنّ هذا القرآن مِن عنده تعالى، وأنَّ الرسول ﷺ صادقٌ فيما يُبَلِّغُه عن ربه تعالى، فقال سبحانه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾... ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾؛ وجاء ذلك تقريرًا لِصدق ما ذَكَر قبل ذلك مِن أحداث، وتأكيدًا على وقوعها، وانتزاعًا لكلِّ شكٍّ في صِدْقه مِن نفوسهم[1].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡخُنَّسِ﴾: (خنس) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على استخفاءٍ وتَسَتُّرٍ، قالوا: الخَنْس الذَّهاب في خفية، يقال: خنِسَت عنه، وأخنست عنه حقَّه، والخُنَّس: النجوم تَخنِس في المغيب، وقال قوم: سُمّيت بذلك؛ لأنها تَخْفَى نهارًا، وتَطلُع ليلًا، ويقال: هي الكواكب السّيارةُ منها دون الثابتة، والخنّاس مِن صفة الشيطان؛ لأنَّه يَخنِس إذا ذُكر الله تعالى[2]، وقال الفرّاء في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾: إنها النجوم الخمسة: زُحَل، والمشترى، والمريخ، والزهرة، وعطارد؛ لأنَّها تخنِس في مجراها وتكنِس، أي تستتر كما تكنس الظباء في المغار، وهي الكِناس، ويقال: سُمّيت خُنَّسًا لتأخُّرها؛ لأنَّها الكواكبُ المتحيِّرة التي ترجع، وتستقيم[3].

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 300.
(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (خنس).
(3) الجوهري، الصحاح: (خنس).

2) ﴿ٱلۡجَوَارِ﴾: (جري) أصلٌ يدلُّ على انتقالٍ بحركةٍ خفيفةٍ سريعةٍ مسترسِلةٍ متَّصلةٍ كَسَيلان الماء والدم وكجريان الفرس، وجَرَت الشمسُ وسائر النجوم: سارت من المشرق إلى المغرب، وكذا السفينة والرياح - وكلُّها فيه خِفّة الحركة - قال تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [البقرة: 25]، ﴿وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ [البقرة: 164]، ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ [يس: 38]، ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي﴾ [ص: 36]. ومعنى قوله تعالى: ﴿ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾: الكواكب الخمسة الدراري، والآية تصلُح لكلِّ الكواكب[1].

3) ﴿ٱلۡكُنَّسِ﴾: (كنس) أصلان صحيحان، أحدُهما يَدلُّ على سَفْرِ شيءٍ عن وجه شيء، وهو كَشْفُه، والأصل الآخر يدلُّ على استخفاء. فالأول: كَنْس البيت، وهو سَفْر التراب عن وجْه أرضه، والمِكنَسة: آلة الكنس، والكُناسة: ما يُكْنَس، فالكَنْس: تنحية ما انتشر على وجه المكان، وإبعادُه وتغييبه[2]، والأصل الآخر: الكِناسُ: بيتُ الظَّبْي، والكانِس: الظبيُ يَدخل كِناسَه، و﴿ٱلۡكُنَّسِ﴾: الكواكب تكنِس في بروجها، كما تَدخل الظباء في كِناسها، قال أبو عبيدة: تكنس في المغيب[3].

4) ﴿عَسۡعَسَ﴾: (عسس) أصلٌ يدُلُّ على نفاذٍ في الكثيف، أو منه مع صعوبة، تقول: عسَّ يعُسُّ عسًّا وعَسَسًا؛ فهو عاسٌّ إذا طاف بالليل، يحرس النّاسَ، ويكشف أهل الريبة، وعسعس الذئب، أي: طاف بالليل، وعسعست السّحابة؛ إذا دنت من الأرض ليلًا، ويقال أيضًا: عَسْعَسَ الليلُ؛ إذا أقبل ظلامه، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾: إذا أقبل، أو إذا أدبر، أي: بدأ ظلامه مختلطًا ببقية الضوء، أو بدأ رحيلة، فاخترق ظلامَه أوائلُ الضوء[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُقسِم سبحانه ببعض عظائم خلقه، وهو هنا حركة الكواكب الدُّرّية؛ إذ تتردّد في حركتها بين التَّواري والاختفاء، والظهور والتجلّي، خلال جريانها في رحلتها ضمن

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جري).
(2) طبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (كنس).
(3) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (كنس).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عسس).

منظومة كونه العظيم ﷻ، كأنها الظباء تهرب إلى كنسه، وغيرها من المخلوقات البرية تتوارى في مخابئها هربًا من الناس، ثم تخرج.

ويُقْسِم بالليل حين يُقبل، ويدبر، فيخفت الضوء: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾، وكذلك بالنهار حين ينتشر ضوؤه، وتتحرك المخلوقات، وتنتشر في رحلة تحصيل معايشها ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.

الـلـه تـعـالى يمنح أولـيـاءه القوة على حمل أعـبـاء الأمـانـة وتوصيلـهـا إلى أهلها

يقسم اللّه تعالى بكل ذلك على صِدق القرآن الكريم، وأنّ القرآن الكريم قول جبريل ﵇ الذي حمله من عند اللّه تعالى إلى الرسول ﷺ، فهو أمين وحي السماء إلى الأرض، واللّه تعالى قد منحه قوة شديدة يقوم بمقتضاها بأداء الوحي على الوجه الأكمل، وأنه كريم على ربه تعالى، مطاعٌ بين الملائكة الكرام في السماء، وأنه أمينٌ في نقل الوحي وإيصال رسالة القرآن، كما حُمِّلَها بلا تزيُّد ولا انتقاص.

أو يقسم تعالى على صدق هذا القرآن الكريم، وأنه قول الرسول ﷺ بوصفه حاملًا له إلى الناس، وأنه ﷺ كريم على ربه، وقد منحه ﷻ القوة على حمل أعباء الرسالة وتوصيلها إلى الناس، وأنه عند ربه ذو مكانة، وأنه مطاع في الملأ الأعلى، موصوف بالأمانة فلا يَزيد في الرسالة شيئًا، ولا يُنقِص منها شيئًا.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الفاء)، ودلالة (لا) في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾:

الفاء الفصيحة عُـنـصـر إيـجـاز مـهـمّ في توثيق عُرى التراكيب

(الفاء) في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ فصيحةٌ، مؤذنة بمحذوف، والتقدير: إذا كان الأمر كما ذكرتُ لكم مِن أن البعث حقٌّ، فأُقسِم بالنجوم التي تَخنس بالنهار... إن هذا القرآن لقولُ رسول كريم[1].

ويصحُّ كذلك أن تكون (الفاء) لتفريع القَسَم وجوابِه على الكلام

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 301.

السابق؛ للإشارة إلى ما تقدّم من الكلام، وهو بمنزلة التمهيد لِما بعد (الفاء)؛ فإن الكلام السابق أفاد تحقيقَ وقوع البعث والجزاء، وهم قد أنكروه، وكَذَّبوا القرآن الذي أنذرهم به، فلما قضى حقَّ الإنذار به، وذَكَر أشراطه؛ فرّع عنه تصديق القرآن الذي أنذرهم به، وأنه موحًى به مِن عند الله تعالى؛ فالتفريع هنا تفريعُ معنًى وتفريع ذِكرٍ معًا، وقد جاء تفريعُ القَسَم لمجرد تفريع ذِكر كلامٍ على كلام آخر كقول زهير:

فأقسمتُ بالبيت الذي طاف حوله *** رجالٌ بَنَوْه مِن قريشٍ وجُرْهُمِ

عقَّبَ نَسيبَ مُعَلَّقتِه - الذي لا يتفرَّعُ عن معانيه ما بعد القسم - وإنما قَصَد به أنّ ما تقدَّم من الكلام إنما هو للإقبالِ على ما بعد الفاء، وبذلك يظهر تفوُّق التفريعِ الذي في هذه الآية على تفريع بيت زهير[1].

معنى (لا) في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾:

عظمة المُقسم بـه يـدلُّ على عظمة المُقْسَمِ عليه

تعدَّدت آراء العلماء في (لا) الداخلة على فعل القسم ﴿أُقۡسِمُ﴾، فمِن قائل بزيادتها، ويكون المعنى: فأقسم بالخُنّس...[2]، ومِن قائل بأنها نافية؛ فيكون المعنى على ظاهره من نفي القسم بالخُنّس الجوار الكنس؛ تنزيهًا لله ﷻ أن يُقْسَم على أمرٍ لا يحتاج إلى قسَم لظهوره ظهورًا يكاد يكون بديهيًا، وهو أن هذا القرآن مِن عند الله ﷻ، نزل به أمين وحي السماء على أمين وحي الأرض، وذكر غير هذا من الأقوال، وعلى كلِّ حال، فالمراد بها جميعًا الدلالة على عظمة هذه المخلوقات الدالِّ على عظمة خالقها ﷻ، وكذلك الدَّلالة بها على عظمة المقسم عليه، وهو القرآن الكريم، وكونه من عند الله تعالى.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 152.

(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 353.

قسمُه تعالى بما ظهر من المخلوقات قسَمٌ في الحقيقة بالله تعالى

غرض القَسَم في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ وما بَعْده:

القَسَم ﴿بِٱلۡخُنَّسِ﴾ وما بَعْده "مُرادٌ به تأكيد الخبَر وتحقيقه"[1]، والتنبيه إلى عظمة المُقسَم به والمُقْسَم عليه - وهو "علوُّ سَنَدِ القرآن وجلالته، وحفظُه من كل شيطان رجيم"[2]، والأشياء التي وقع بها القَسَم تقتضي أنه "ما مِن شيء خلقه اللّٰه تعالى إلا وفيه دليل وحدانيته، وآية ربوبيته، إذا أنعم النظر فيه، ويثبت علمه وحكمته، ويدل على قدرته وسلطانه، وفي تثبيت القدرة والسلطان إيجاب القول بالبعث، وإيجاب القول بالرسل، ونهي عن عبادة غير اللّٰه، فلو أنعموا النظر فيها، وتفكروا في أمرها؛ لأداهم ذلك إلى القول بالبعث، ودعاهم إلى وحدانية الرب والإقرار بالرسل؛ فلا يدعون أن معه آلهة أخرى، ولا كانوا ينكرون البعث، ولا يكذبون الرسول، فأقسم بهذه الأشياء على التأكيد لحججه؛ ليعلموا أنه رسول من عنده، أو أن القرآن من عنده، أو أن الأوامر من عنده، أو الرسول من عنده"[3].

التناسُب بين المعاني القرآنية دقيق وثيق

نكتة عَطْف القَسَم بـ (اللَّيل) على القَسَم بـ (الخنس الجَوارِ الكُنَّسِ):

عطْف القسم بـ (الليل) على القسم بـ (الكواكب)؛ لِمُناسبة جريان الكواكب في الليل، ولأنّ تعاقُب الليل والنهار مِن أجلّ مظاهر الحكمة الإلهية في هذا العالم[4].

وإلى ذلك فإنه لمّا ذكر غيابَها؛ ففُهِم منه محلُّه، وهو النهار - ذَكر محل ظهورها، فأفهم الظهور، فقال: ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾، أي: الذي هو محل ظهور النجوم، وزوال خنوسها وذهاب كنوسها ﴿إِذَا عَسۡعَسَ﴾، أي: أقبل ظلامُه، واعتكر سوادُه وقَتامُه، فظهرت الكواكب زهرًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 152.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 913.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 433.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 154.

منثورًا في بيداء تلك الغياهب، فإن فيه نقصانًا بالظلام وغير ذلك من الأحكام(1).

نكتة التقييد بـ ﴿إِذَا﴾ في قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾:

الظواهر الكونية المتكررة دليل على الوحدانية وعظيم القدرة الإلهية

جاء تقييد عسعسة الليل بـ ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ مطابَقَةً للواقع، فإن (الليل) يُعسعِس كل يوم ضِمن منظومة النظام الكونيّ المطَّرِد، بموجب قول اللّه تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾ [الرحمن: 5].

و﴿إِذَا﴾ تتآزر مع عناصر النظم الكريم على تنبيه المخاطَبين إلى تلك الظاهرة الكونيَّة المتكررة، الدالة على عظيم القدرة الإلهية، ووجوب الإيمان باللّه تعالى، والاستجابة للرسالة المحمدية.

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿عَسۡعَسَ﴾:

من بديع النظم الكريم استعمال الأضداد المناسب معناها للمقام والسياق

معنى ﴿عَسۡعَسَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾، أي: أدْبَر، أو: أقبَل بظلامه، قال أهل اللغة: هو من الأضداد، يقال: عسعس الليل؛ إذا أقبل، وعسعس؛ إذا أدبر(2)، وصوَّب الطبريُّ أنَّ معناه هنا (أدبر)، فقال: "والأولى بالصواب عندي قولُ مَن قال معنى ذلك: إذا أدْبَر؛ وذلك لقولِه تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾؛ فدلَّ بذلك على أن القَسَمَ بالليل مُدبِرًا، وبالنهارِ مُقْبِلًا، والعربُ تقولُ: عسْعَس الليلُ، وسَعْسَع الليلُ؛ إذا أدْبَرَ، ولم يَبْقَ منه إلّا اليسيرُ"(3).

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾:

مخلوقات الله تعالى كلُّها متعاضدة في الدلالة على عظمته سبحانه

(الواو) في قوله: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ عاطفة على جملة: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾، "عطَفَ عليه القَسَم بـ (الصبح) حين تنفُّسِه - أي:

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 21/ 286.
(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 431.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 159.

انشقاق ضوئه - لِمُناسبة ذِكر الليل، ولأن تنفُّس الصبح مِن مظاهر بديع النظام، الذي جعله اللّه تعالى في هذا العالم[1].

نكتة التقييد بـ ﴿إِذَا﴾:

على العباد أن يتنبَّهوا إلى نعم الله المتجدِّدة، وأنْ يَشكروه تعالى عليها

الصُّبح هو طلوع الفجر، أو طلوع الشمس[2]، وتَنفُّسه انتشار الحركة وتقلُّب الأحياء فيه، وتقييده بـ ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ مطابق للواقع؛ إذ لا يتخلّف ذلك النظام الكوني الدقيق، كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥﴾ [الرحمن: 5]، وفي ﴿إِذَا﴾ تنبيه على تحقق تلك النعمة الجليلة، المؤذِنة بعودة النشاط والحركة إلى أهل الكوكب مع بزوغ النهار الجديد، فينبغي للعباد أن يتنبَّهوا إلى تلك النعمة المتجددة عليهم، وأنْ يَشكروا ربهم تعالى عليها.

بلاغة المقابلة:

مقابلة النهار وتَنفُّسه لليل وعسعسته تَبعث في النفس تجدُّدًا وارتياحًا

بين قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ مقابلةٌ بديعة؛ إذ يَزيد كلُّ معنًى منهما المعنى المقابِل له جَلاءً وبَهاء؛ إذ إنَّ طبيعةَ الإنسانِ تميل إلى التجديد، وتَملُّ تطاوُل الليل عليها أبدًا وبقاء النهار عليها أبدًا، وفي بقاء أحدهما أبدًا تفويتٌ لكثير من مصالح العباد، وفي الذِّكر الحكيم: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٧٢﴾ [القصص: 71 - 72].

فذِكر النهار وتَنفُّسه بإزاء ذِكْر الليل وعسعسته يبعث في النفس تجدُّدًا وارتياحًا، وينبّه أيضًا إلى قدرة الخالق العظيم ﷻ، وعظيم نعمه على خلقه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 154.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 217.

موقع جملة: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾:

جملة: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ جواب القَسَم المنفيِّ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾، أي: "فلا أقسم لكم بالخنس، الجوار الكنس، ولا بالليل؛ إذا عسعس، ولا بالصبح؛ إذا تنفس، بأنّ أخبار يوم القيامة وأحداثَها واقعةٌ لا شكّ فيها، وأن هذه الأخبار التي تُحَدِّثُكم عن هذا اليوم، هي قولُ رسول كريم، هو رسولُ الوحي جبريل عليه السلام، بَلّغ به كلماتِ ربِّه إليه، لا أقسم لكم بهذه العوالم على وقوع هذا الخبر، فإنّه بيّن ظاهر"[1].

من تأمَّل عظمة المخلوقات؛ علم عظمة خالقها، وصدق ما أخبر به

غرض التوكيد في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ﴾:

الذي اقتضى التوكيدَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ أنَّهم كانوا يُكَذِّبون بالدّين، ويُنكرون أنَّ هذا القرآن الكريم كلامُ اللّه تعالى، ويشكِّكون في أنه نَزَل به الروحُ الأمين؛ فأُكِّد لهم الخبر بـ (إنّ)، و(اللام)، واسمية الجملة؛ معالجةً لِتلك النفوس المتمرِّدة، وانتزاعًا للإنكار منها، وذلك التوكيد من مناهج القرآن في معالجة النفوس الذاهبة عن الحق، المنكرة له.

التوكيد منهجٌ قرآنيٌّ في انتزاع الشك وتثبيت الحقّ مكانه في النفوس

مرجع الضمير المتصل بـ (إنّ):

الضمير المتصل بـ (إنّ) في قول تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ يعود إلى القرآن الكريم، ولم يَسبق له ذِكر، ولكنه معلومٌ مِن المقام في سياق الإخبار بوقوع البعث؛ فإنه مما أخبرهم به القرآن الكريم، وكذبوا بالقرآن الكريم لأجل ذلك[2]، أي: هذا الذي أتاكم به مُحَمَّد ﷺ تلقّاه عن رسولٍ كريم على ربِّه سبحانه، وهو جبريل عليه السلام[3].

ويحتمل أن يعود الضمير في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ﴾ للبعث والجزاء، المفهوم من قوله تعالى ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾[4].

إبهامُ مرجع الضمير وعدم سَبْق ذِكره يُؤْذِن بعظمته، ويُنْبئ عن خطورته

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 16/ 1473.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 154.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 435.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 419.

وإبهامُ مرجع هذا الضمير وعدم سَبْق ذِكره يُؤْذِن بخطورته، ويُنْبِئُ عن جلاله، فإن كان مرجعُه هنا القرآنَ الكريم؛ فإنه من العظمة والجلال بمكان، وإن كان مرجعه البعثَ والجزاء؛ فما أشد خطورتهما لما يتوقَّف عليهما من تحديد مصير كلّ واحد من العباد!.

دلالة التعبير بـ (قول)، ولطيفة إضافته:

الرسول يُبَلِّغ رسالة الله تعالى كما هي بلا إضافة ولا إنقاص

التعبير عن مرجع الضمير بالـ (قول) في جملة جواب القَسم: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ - سواءٌ كان القرآنَ الكريم أو البعثَ والجزاء - يتَّسق مع التعبير بـ ﴿رَسُولٍ﴾؛ ويتآزر معه في التأكيد على أن معاني ذلك القول من اللّه تعالى، وأن الرسول حامل (قول) لا يزيد فيه، ولا ينقص منه.

ونُسِب الـ (قول) إلى الـ ﴿رَسُولٍ﴾ مع أنَّه قد تلقّاه من جبريل؛ لِما سُمِع منه، ولم يكن مِن قِبَله، وقد قال في آية أخرى: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 6]، فسمّاه: ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 6] على الموافَقة للواقع، أو لِما أنّ ابتداءَه يَرجع إليه ﷻ، لا أنْ يكون المسموع كلامه ﷻ، فإذا قيل: هذا قول أبي حنيفة رحمه اللّه، وهذا قول فلان الشاعر، فليس الذي سمعتَه قولَ مَن نُسب إليه، ولكن نُسِب إليه؛ لأنّ ابتداءه يَرجع إليه، فكذلك سمي: ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 6]؛ لأنه يَدل على كلامِه تعالى، ولِما يَرجع إليه ابتداؤُه، لا أنْ يَكون هو نَفْسَ كلامه ﷻ[1].

بيان المراد بقوله: ﴿رَسُولٍ﴾:

الرسول مبلّغ عن الله تعالى مراده إلى خلقه

المراد بـ﴿رَسُولٍ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ جبريلُ، نزَّله على محمدِ بن عبدِ اللّه[2] - عليهما الصلاة والسلام - أو المقصود به النبي ﷺ؛ لأن "الصفات التي أجريت على رسول في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ إلى قوله: ﴿أَمِينٍ﴾ غير

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 435.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 163.

متعين انصرافها إلى جبريل، فإنها محتملة الانصراف إلى محمد ﷺ"[1].

نكتة التقييد بوصف ﴿كَرِيمٍ﴾:

وصف صاحب القول يرجع إلى شرف ما جاء به

القيد بوصف ﴿كَرِيمٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يقتضي رَفْع المذامّ[2] التي وصَم الكفار بها جبريل عليه السلام، فيُقرِّر هذا القيد "كرم أخلاقه، وكثرة خصاله الحميدة، فإنه أفضل الملائكة، وأعظمهم رتبة عند ربه[3]، وكذا يرفع القيد تلك التُّهَم التي وصفوا بها النبي ﷺ.

وأيضًا فإنّ في تعديد أوصاف ﴿رَسُولٍ﴾ تنويهًا بالقرآن، فإجراءُ أوصاف الثناء على ﴿رَسُولٍ﴾ للتنويه به أيضًا، وللكناية على أنّ ما نَزَل به صدقٌ؛ لأنّ كمال القائل يَدلُّ على صِدق القول، ومعنى ﴿كَرِيمٍ﴾ النفيس في نوعه[4]، ومن كرم الكريم هنا أنَّه يُعطي أفضلَ العطايا، وهو المعرفة والهداية والإرشاد[5].

نكتة التقييد بالوصف ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾:

أمين الوحي غير عاجز عن تنفيذ ما يُكلَّف به من ربِّه تعالى

في القيد بوصف ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ دلالةٌ على أنّ ما كُلِّف مِن أمرٍ؛ فإنّه غيرُ عاجزٍ عنه[6]، وفيه بيان الأمنِ عن تغييرٍ يَقع فيه مِن الأعداء مِن الجنّ والشياطين والإنس، يَحتجزُ عنهم بقوَّته؛ فلا يتمكَّنون منه حتى يُغَيِّروه، ويُبَدِّلوه.

أو وصفه بالقوة على التخويف والتحذير؛ للذين عادَوا محمدًا ﷺ، فيخبرهم أنّ معه مَن يدفع عنه شرَّهم وكَيدهم؛ إن همّوا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 158.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 444.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 913.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 155.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 69.
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 163.

بذلك، وقيل: المراد القوة في أداء طاعة الله تعالى، وترك الإخلال بها مِن أوَّل الخلق إلى آخر زمان التكليف، وقيل: لا يبعد أن يكون المراد قوة الحِفْظ والبُعْد عن النسيان والخلط[1].

دلالة ﴿عِندَ﴾ في قوله تعالى: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾:

جبريل عليه السلام عظيم المكانة عند الله تعالى

العِنْديَّة في قول الله تعالى في وصف الرّسول: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ ليست عنديَّةَ مكانٍ ومنزل، وإنَّما عنديةُ مكانة ومنزل، و"عندية إكرام وتشريف"[2]، وعندية تعظيم وعناية، فـ ﴿عِندَ﴾ هنا للمكان المجازي، الذي هو بمعنى الاختصاص والزُّلْفَى[3]، فلما كانت حال المكانة على حسب حال المَكين؛ قال: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾؛ ليدل على عِظم منزلته ومكانته[4].

نُكتة توسيط ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾:

جبريل عليه السلام مسدَّدٌ مِن ذي العرش سبحانه وتعالى

﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾، أي: ربّ العرشِ العظيم[5]، وفي توسيط قوله تعالى: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ بين صفتَي: ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾، و﴿مَكِينٍ﴾ إتاحة لأن يَتنازَعَه كلا الوصفَيْن على وجه الإيجاز، أي: هو ذو قوة عند الله تعالى، أي: جَعَل الله تعالى مقدرةَ جبريل تُخَوِّلُه أنْ يقوم بعظيم ما يوكِّله الله تعالى به مما يحتاج إلى قوة القدرة وقوة التدبير، وهو ذو مكانة عند الله وزُلْفَى[6]، وأنه مسدَّدٌ مِن ذي العرش سبحانه.

وخُصَّ من أوصاف الله تعالى ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾؛ ليدل على عِظم منزلة جبريل عند الله ومكانته؛ لأنَّ حال الشخص يتفاوت بتفاوت

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 264.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 118.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 156.
(4) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 607.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 163.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 156.

حال مَن له عنده المنزلة، فمرتَبة مَن يُلازم السلطان عند سرير الملك مُباينٌ لِمرتبة مَن يلازمه عند الوضوء[1].

نكتة العدول عن الاسم الجليل إلى وصف ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾:

في العدول عن الاسم الجليل إلى ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ تمثيلُ حال جبريل ومكانته عند الله، بحالة الأمير الماضي في تنفيذ أمر الملك، وهو بمحل الكرامة لديه، وهذا على القول بأنّ المقصود بـ﴿رَسُولٍ﴾ هو جبريل، وأمّا على القول بأنَّه النبيُّ ﷺ؛ فإشارة إلى عظيم شأنه؛ إذ كان ذا قوّة عند أعظم موجود شأنًا[2].

دلالة التعبير بوصف ﴿مَكِينٍ﴾:

في التعبير بوصف ﴿مَكِينٍ﴾ دلالة على أنه ذو مكانة رفيعة، وشرَفٍ عند الله العظيم ﷻ، وهو فعيل مِن المكانة[3]، وجبريل عليه السلام عند الله تعالى مطاعٌ في ملائكته المقرّبين، يَصدرون عن أمره، ويَرجعون إلى رأيه[4].

دلالة التعبير بـ ﴿مُّطَاعٍ﴾:

جبريل عليه السلام مطاع في الملأ الأعلى

في التعبير بـ ﴿مُّطَاعٍ﴾ إشارة إلى أنه مطاعٌ فيمن نزل عليه مِن الأنبياء[5]، وإلى طاعةِ الملائكة له، فقد أمر خازن الجنة ليلة المعراج بمحمدٍ ﷺ؛ حتى فتح لمحمَّدٍ ﷺ أبوابَها، فدَخَلَها، ورأى ما فيها، وأمَرَ خازنَ جهنم، ففتَح له عنها حتى نظر إليها[6]، قال الحسن: فرَض الله تعالى على أهل السماوات طاعة جبريل، كما فرض على أهل الأرض طاعة محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم[7].

(1) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 16/ 316.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 156.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 264.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 712.
(5) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 218.
(6) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 431.
(7) خان محمد صديق، فتح البيان في مقاصد القرآن: 15/ 106.

الكفار أهل ضلال وتناقُض

دلالة التعبير بالأمانة في قوله: ﴿ثَمَّ أَمِينٍ﴾:

الأمينُ هو الذي قد عصَمه اللّه تعالى من الخيانة والزَّلَل[1]، فيَحفَظ ما عُهِد له به حتى يُؤدّيَه دون نَقْص ولا تغيير، وهو فعيل إما بمعنى مفعول، أي: مأمونٌ مِن أمَّنَه على كذا، وإما صفة مشبهة مِن أمُنَ - بضم الميم - إذا صارت الأمانة سجيته[2].

ففي وصف جبريل بـ ﴿أَمِينٍ﴾ دلالة على أنه أمين عندَ اللّه على وحيه ورسالتِه، وغيرِ ذلك ممّا ائتمَنه عليه[3]، وأنّه يأمن الخلقُ ناحيتَه[4]، وفيه تعريض بالكافرين؛ إذ إن الملائكة يأتمنونه، ولا يتهمونه في شيء مما يجيء به إليهم، فكيف يَتهمه هَؤُلاءِ فيما يأتي إلى الرسول مِن الوحي[5]؟.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 70.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 157.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 164.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 435.
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 436.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ٢٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ٢٥ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ٢٦﴾ [التكوير: 22 - 26]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتكاس عن وصف الصاحب الصادق الأمين بضدِّهما بلادة وضلال

لما وُصِفَ السفير الملكيُّ - وهو جبريل عليه السلام - بهذه الصفات الخمس التي أزالتْ عن القرآن كلَّ لبْس، وكان وصفُه بها إنما هو لأجْل إثبات شرَف الرسول البَشَريِّ الذي هو بَيْنَ الحَقِّ وعامَّةِ الخلْق، وهو النبي ﷺ بأنّ ما يقوله كلامُ اللّه تعالى حقًّا، وكانوا يَصفونه بما هو في غاية النزاهة عنه، وهم يعلمون ذلك؛ أبطَلَه مبكِّتًا لهم بالكَذِب، وموبِّخًا بالبلادَة بقوله زيادةً في شرفِه؛ إذ كان هو المدافِعَ عنه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾[1].

ولمّا ذَكَر فضلَ الرسول المَلَكيِّ الذي جاء بالقرآن؛ ذَكَر فضل الرسول البشري الذي نَزَل عليه القرآن، ودعا إليه الناسَ، فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾، وهو محمد ﷺ، ﴿بِمَجۡنُونٖ﴾، كما يقوله أعداؤه المكذبون برسالته[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَاحِبُكُم﴾: الأصل في الصُّحْبة هو الملازمة - حسب ما يؤخذ من الاستعمالات المادّية - ثم قد تُستعمل في مجرَّد الاقتران، ومادّة (صحب) في اللغة أصلٌ يدل على مقارَنة شيءٍ ومقارَبته، من ذلك (الصاحب)، والجمع: الصَّحْب[3] والأصحاب، كما يدل على

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 21/ 290.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 913.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صحب).

الاتِّباع والملازمة، والمعاشرة[1]، والمقصود بـ ﴿صَاحِبُكُم﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾: الرسول ﷺ؛ لطول صحبتهم إياه، ومعرفتهم خُلق الصدق والأمانة فيه.

2) ﴿بِمَجْنُونٍ﴾: جَنَّ الشيءَ يَجُنُّه جَنًّا: ستَرَه، وكل شيء سُتر عنك فقد جُنَّ عنك، وجَنَّه الليلُ يَجُنُّه وأجنه: ستره، والجَنان، بالفتح: القلب لاستتاره في الصدر، وقيل: لِوَعْيِه الأشياءَ، وجمْعِه لها، وقيل: الجَنان روع القلب، وذلك أذهبُ في الخفاء، والجِنّيُّ: منسوب إلى الجِنِّ أو الجِنَّة، والجِنَّة: الجِنُّ، ومنه قوله تعالى: من الجنة والناس اجمعين [هود: 119][2].

والجُنون: حائلٌ بين النَّفْس والعقل، وجُنَّ فلان؛ قيل: أصابَه الجِنُّ، وبني فِعلُه كَبِناء الأدواء، نحو: زكم، ولقي، وحمّ، وقيل: أصيب جَنانه، وقيل: حيل بين نفْسه وعقله، فجُنّ عقلُه بذلك[3]، فالمقصود بنفي الجنون عنه ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ نفيُ تخليط عقله ونفي عدم اتزانه.

3) ﴿بِٱلْأُفُقِ﴾: الأُفق تَجَوُّفٌ داخليٌّ عُلْوي محاطٌ كأُفُق البيت والسماء، والجِلدُ الخالي من البَدَن كالكيس أو الغلاف الفارغ، ومن ذلك: آفاقُ الأرض، أي: نواحيها؛ إذ يبدو ذلك فراغًا أو تَجوُّفًا عظيمًا حُدودُه السماء والأرض، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: 53] في الآفاق: وعيد للكفار بما يَفتحه الله تعالى على رسوله ﷺ، من الأقطار في آفاق الدنيا مَشْرِقِها ومَغربِها، أو آفاق السماء: الآيات في الشمس والقمر والرياح وغير ذلك، قال تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ [النجم: 7]، أفق الشمس: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: رأى النبيُّ ﷺ جبريل بين السماء والأرض في صورته له ستمئة جناح، ووُصف الأفق بالمُبِين؛ لأنه روي أنه كان في المشرق من حيث تطلع الشمس[4].

4) ﴿بِضَنِينٍ﴾: الضَّنّ: لزوم الشيء حيِّزَه، أي: بقاؤه داخلَه لا يَبرحه، كالقوم حيزَهم وكلزوم المنزل، ومنه: ضَنِنْتُ بالشي، قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾، أي: ببَخيل، والمقصود بالغيب كلُّ ما يُطْلعه الله تعالى عليه من مغَيَّبات السماء والدنيا والآخرة، فهو

(1) الصاعدي، سعود بن عيد، الأحاديث الواردة في فضائل الصحابة: 1/ 56.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (جنن).
(3) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (جنن).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أفق).

ﷺ يُبَلِّغ أُمَّته بما شاء اللّه تعالى مِن ذلك، ولا يحجبه عنهم، وقد ذكر في تفسير ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ هنا: الوحي والقرآن، وهذا يناسب قراءة الكلمة بالظاء، أي: بمُتَّهَمٍ(1).

5) ﴿رَّجِيمٍ﴾: (رجم) أصلٌ واحد يَرجع إلى وجْهٍ واحد، وهي الرَّمْيُ بالحجارة، ثم يُستَعار ذلك، من ذلك الرِّجام وهي الحجارة، يقال: رُجِم فلانٌ؛ إذا ضُرِب بالحجارة، وقال أبو عبيدة وغيره: الرِّجام: حجَرٌ يُشَدُّ في طرف الحبل، ثم يُدَلَّى في البئر، فتُخَضْخَضُ به الحمأة حتى تثور، ثم يُستقى ذلك الماء، فتستنقى البئر، والرُّجْمَةُ: القبر، ويقال: هي الحجارة التي تجمع على القبر؛ ليسنّم، وفي الحديث: «لا ترجموا قبري»، أي: لا تجعلوا عليه الحجارة، دعوه مستويًا.

والذي يستعار من هذا قولهم: رجمت فلانًا بالكلام؛ إذا شتمته، وذكر في تفسير ما حكاه ﷻ في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ﴾ [مريم: 46]، أي: لأشتمنك، وكأنه إذا شتمه؛ فقد رجمه بالكلام، أي: ضربه به، كما يُرْجَم الإنسان بالحجارة، وقال قوم: لأرجمنك: لأقتلنك، والمعنى قريب من الأول(2).

المَعْنى الإجْماليُّ:

النــبــيُّ ﷺ صــادقٌ أمـينٌ، حــريــصٌ على العالمين

وأقسم اللّه تعالى على أنّ محمَّدًا رسولَ اللّه ﷺ - الذي صحِبتموه يا أهل مكة طوال حياته - كاملُ العقل، سديدُ الفِكر، ليس به شيء من الجنون، وأقسم على أنه ﷺ قد رأى أمين الوحي جبريل عليه السلام بين السماء والأرض من جهة المشرق في الأُفق الكاشف رؤيةً لا يُداخِلها غَبَشٌ، فأخذ عنه القرآن الكريم أخذًا مبنيًّا على السلامة والوضوح.

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ضنن).
(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (رجم).

وأن محمَّدًا ﷺ ما هو بكاتمٍ عنكم يا أهل مكة شيئًا مما كُلِّف بتبليغكم إياه من القرآن الكريم والدين الحنيف، ولا هو ببخيل بشيء ممّا غاب عنكم يعلم فيه خيرًا لكم، و"أنه ﷺ ليس بمتَّهَم على الغيب، بل هو صادق في كل ما أخبر به عن اللّه تعالى"(1).

وأقسم أنّ ما بلَّغكم إياه محمدٌ ﷺ من القرآن الكريم ومن تفاصيل الدين الحنيف إنَّما هو مِن عند اللّه تعالى، ليس قولًا مِن إيحاء شيطان مطرود رجيم استرق السمع، فالشياطين بمعزل عنه ﷺ وعن كلام رب العالمين، فلا يقربونه.

فإذا كان الأمر كذلك، وكنتُم تُعادونه ﷺ، وتُناوِئون الدين الحنيف، وتحاربون القرآن الكريم؛ فإنكم آخذون في طريق الضلال، مندفعون في مجاهل الضياع، فإلى أين تتوجّهون مدابرين السبيل القويم؟ و"أي مسلك تسلكون، وقد قامت عليكم الحجة بوضوح آياته، وسطوع براهينه، وأحاط بكم الحق من كل جوانبكم"(2).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو):

ما رَمَـــوْه ﷺ بسببه بالجنون هـو آيـة صدقه وكمال عقله

(الواو) في جملة: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ عاطفة على جواب القسم، أي: إنَّ تنزيهه ﷺ من الجنون مما أقسم اللّه تعالى على صِدّقه(3)، فليس النبيُّ ﷺ ﴿بِمَجْنُونٍ﴾، "كما تتهمونه به من غير استحياء من الكذب الظاهر مع ظهور التناقض فعل ألأم اللئام، بل جاء بالحق وصدق المرسلين، فما القرآن الذي يتلوه عليكم قول مجنون ولا قول متوسط في العقل بل قول أعقل العقلاء وأكمل الكملاء"(4).

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1809.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1809.
(3) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 608.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 291.

معنى (ما):

(ما) في جملة: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ نافية، تعمل عمل ليس و﴿صَاحِبُكُم﴾ اسمها، و﴿بِمَجْنُونٍ﴾ مجرور لفظًا منصوب محلًّا خبر (ما)(1)، "فبعد أن أثنى الله على القرآن بأنه قول رسول مرسل من الله، وكان قد تضمَّن ذلك ثناء على النبي ﷺ بأنَّه صادق فيما بلغه عن الله تعالى؛ أعقبه بإبطال بهتان المشركين فيما اختلقوه عن النبي ﷺ من قولهم: معلم مجنون [الدخان: 14]، وقولهم: أفترى على الله كذبًا أم به جنة [سبأ: 8]"(2).

مَن يرمي أتمَّ الخَلق عقلًا، وأكملَهم وأصفاهم ذهنًا؛ أحقُّ بالحُمق والجنون

لطيفة العدول عن ذكر الاسم العَلَم إلى ﴿صَاحِبُكُم﴾:

عدَل النظمُ الكريم عن ذكر الاسم العَلَم (محمد) إلى وصف الصاحب في قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾؛ لتحقيق المذمّة في حقهم؛ إذ حقيقة الصحبة تقتضي الملازمةَ في أحوال التجمُّع والانفراد للمؤانسة والموافقة، فالعدول عن اسم النبي العَلَم إلى ﴿صَاحِبُكُم﴾ يُؤذن بكونهم على عِلم بأحواله(3)، والإشعار بأنهم عالمون بأمره، وأنه ليس مما يرمونه به من الجنون وغيره في شيء، وأنهم افتروا عليه ذلك عن عِلْم منهم بأنه أعقلُ الناس وأكملهم(4).

محاسنه ﷺ ومناقبه لا يَضبطها القلم، ولا يحيط بها الكلام

وأيضًا فإنَّ في التعبير بـ ﴿صَاحِبُكُم﴾ إشارةً إلى أنهم يعرفون كذبهم؛ إذ أُشير إلى أنه ﷺ نشأ بين أظهرهم، ومكث فيما بينهم أربعين سنة، وكان معروفًا بالصدق والأمانة بينهم وكمال الرشد والعقل عندهم، وبَعد النُّبوّة - لِفرط حَسَدهم - تقوَّلوا ذلك مع العلم بأنهم كاذبون في ذلك، وفي التعبير بالصاحب إفادة أنكم عارفون محاسنه ومناقبه بحيث لا يَضبطه القلم، ولا يحيط به الكلام، لكن

(1) الدعاس، إعراب القرآن: 3/ 423.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 157.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 157.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 474.

فرط الحسد ألجأكم إلى هذا البهتان باللسان، مع تحقق خلافه في الأذهان[1]، فتهمتهم إياه بالجنون حِقْد وحسَدٌ، وسفَهٌ وضلال.

مرجع ضمير الخطاب في قوله: ﴿صَاحِبُكُم﴾:

أهل مكة أدرى بالرسول ﷺ، ومن صاحب سيرته وقف على سموّه

ضمير الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ يرجع إلى أهل مكة، وهذا أيضًا مِن جواب القسم، أقسم اللّه تعالى أن القرآن الكريم نزل به جبريلُ عليه السلام، وأن محمَّدًا ﷺ ليس كما يقول أهل مكة، وذلك أنهم قالوا: إنَّ محمَّدًا مجنون، وهذا الذي أتى به يَتَقَوَّله مِن نفسه[2].

معنى (الباء)، ودلالة صوغ الجملة اسميّةً:

لا شكَّ في صدق النبيِّ ﷺ، ورجاحة عقله

(الباء) في جملة: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ زائدة لتأكيد النفي، وقوله: ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ "مجرور لفظًا منصوب محلًّا؛ لأنه خبرُ (ما)"[3]، والمعنى على أنه ليس خطابُه ولا بيانُه ولا فِعله فعلَ مجنون[4]، فزيادة الباء هنا في الخبر تأكيدٌ لإبطال قولهم إبطالًا مؤكَّدًا.

وصوغ الجملة اسميّة دلالة على أن المعنى أعرَق في النفي[5]، من حيث إن الاسم أدلُّ على الثبوت والدوام من الفِعل.

سِرّ التعبير بالجنون في قوله: ﴿بِمَجْنُونٍ﴾:

تزكية الله تعالى لنبيّه ﷺ غاية الشرف والكرامة

الجُنونُ اختلالُ العقل؛ بحيث يَمنع جريان الأفعال والأقوال على نهجه القويم إلّا نادرًا[6]، والمعنى: أنَّه ﷺ "ليس بمُتَّهم فيما يأتي به من القرآن الكريم"[7]، وليس ممَّن يتكلم عن جنة: ﴿بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ

(1) حاشية القونوي: 20/ 122.
(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 431.
(3) الدعاس، إعراب القرآن: 3/ 423.
(4) درويش، إعراب القرآن للنحاس: 5/ 102.
(5) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 21/ 291.
(6) حقي، روح البيان: 9/ 199.
(7) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 431.

﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ٣٧﴾ [الصافات: 37]، وهذا نَفْيٌ لِما كان يَبْهَتُه به أعداؤه ﷺ حسدًا ولؤمًا[1].

والتعبير بالجنون في قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ على المشاكلة، وإطباقِ الجواب على ما سُمع منهم، ويؤيده قول الزجاج: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ جوابُ القَسَم، أي: أُقْسِم بهذه الأشياء أنّ القرآن الكريم نَزل به جبريل عليه السلام، وأن صاحبكم ليس بمجنون؛ لأنهم قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ٦﴾ [الحجر: 6][2].

لطيفة النفي بعد الإثبات:

في الجمع بين الأسلوبين تمام الثناء، وغاية الإكرام

في نفي الجنون عنه ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾، بعد إثبات الرسالة والكَرَم والكرامة له عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾؛ تقريرٌ لنزاهته من تُهمَتِهم، وكونه بالمنزلة السامية والمكانة السامقة عند ربِّه ﷻ؛ فكرَّر المعنى بطريق النفي بعد القسم عليه بأسلوب الإثبات، فكان في جمع الأسلوبين تعزيز للمعنى وتقرير للغرض.

معنى (الواو) ﴿وَلَقَدْ﴾:

كلُّ ما أخبر به النبيُّ ﷺ صدقٌ وحقٌّ

(الواو) في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ عاطفة على جملة: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾، "والمناسبة بين الجملتين أنّ المشركين كانوا إذا بلغهم أنَّ الرسول ﷺ يخبر أنه نزل عليه جبريل بالوحي من وقت غار حراء فما بعده؛ استهزؤوا، وقالوا: إنَّ ذلك الذي يتراءى له هو جني، فكذَّبَهم الله تعالى بنَفْيِ الجنون عنه، ثم بتحقيق أنَّه إنما رأى جبريل القوي الأمين"[3].

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 419.
(2) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 16/ 318.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 159.

معنى (اللام):

(اللام) في قوله: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾ توكيدية، "واقعةٌ جوابَ قسَم محذوف، أي: وتالله لقد رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام بالأفق المبين"[1]، ففي (اللام) مزيد عناية وتكريم للرسول ﷺ بتأكيد صدق ما رآه وأخبِرَ به.

مرجع ضميري الفاعل والمفعول في قوله: ﴿رَءَاهُ﴾:

رؤية النبيّ ﷺ جـبريـل عليه السلام؛ رؤيـة شـريـفٍ لشريفٍ

في قوله: ﴿رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾ ضميران: ضميرُ الفاعل، ويعود إلى الرسول ﷺ، وضمير المفعول (الهاء)، ويعود إلى جبريل عليه السلام، والمعنى: "ولقد رأى محمدٌ جبريل صلَّى الله عليهما وسلَّم في صورته"[2].

وعن أبي الحوص أنَّه ﷺ رأى جبريلَ عليه السلام له ستُّمئة جَناحٍ في صورتِه، وعن عامرٍ، قال: ما رأى جبريلَ النبيُّ ﷺ في صورتِه إلا مرَّةً، واحدة، وكان يأتيه في صورةِ رجلٍ يقالُ له: دِحْيَةُ، فأتاه يومَ رآه في صورتِه قد سدَّ الأُفق كلَّه، عليه سندسٌ أخضرُ معلَّقُ الدرِّ[3].

"وقيل: هذه الرؤيا التي رآه عند سدرة المنتهى في الإسراء، وسَمَّى ذلك الموضعَ أُفُقًا مجازًا"[4].

دلالة التعبير بـ (الأُفُقِ):

أمرُ الوحي حقٌّ وعـيان، لا ظنٌّ وحسبان

الأُفُقُ: الناحيةُ التي تَفوق، وتَعلو[5]، فتبين الأشياء، فتُرى مِن قِبَلِها[6]، والأفقُ الفضاءُ الذي يبدو للعين مِن الكُرَةِ الهوائيّةِ بين طرَفَي مطلع الشمس ومغربها، من حيث يلوح ضوء الفجر، ويبدو شفق الغروب، وهو يَلوح كأنه قُبّة زرقاء، والمعنى: رآه ما بين السماء

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 474.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 166.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 167.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 444.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 293.
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 166.

والأرض[1]، وذلك من نحوِ أجياد، وعن قتادةَ قال: كنا نَتَحدَّثُ أن الأُفُق حيثُ تطلُعُ الشمس، وأنه الأفقُ الذي يجيءُ منه النهارُ[2].

وتقييد الرؤية بكونها من (الأُفُق)؛ لأنّه مِن الأُفُق تنزل البركات، وتنزُّل الملائكة وأنواع الخير كلُّها، وفيه تنبيه إلى أن أمور الوحي الكريم مبنية على البيان والوضوح، وأن تلقّي رسول اللّه محمدٍ ﷺ عن أمين الوحي جبريل عليه السلام مؤسَّسةٌ على الحق المبين، واللّه تعالى أعلم، وفيه التحقيق الموحي به، وأن أمرَه مبني على مشاهدة وعيان، لا على ظن وحسبان، وما سبيله كذلك؛ فلا مدخل للريب فيه[3].

معنى (الواو)، و(ما):

النبيُّ ﷺ صادقٌ في ما يخبر، أمينٌ في ما ينقل

(الواو) في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ عاطفةٌ، تَجمع نفْيَ ضنّه ﷺ بالوحيَ الشريف - الذي أُمِر بتبليغه - إلى تأكيد رؤيته جبريل عليه السلام ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾، و(ما) فيه "نافية عاملة عمل ليس[4]؛ ليجتمع بذلك للنبيِّ ﷺ كمال التزكية بنفي الجنون في عقله، ونفي التقصير في تبليغه.

مرجع الضمير ﴿هُوَ﴾:

الأظهر من السياق عود الضمير إلى النبيِّ ﷺ

الضمير ﴿هُوَ﴾ في قوله: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ يعود إلى الرسول محمد ﷺ، كما يقتضيه السياق، فإن المشركين لم يدعوا أن جبريل ضنين على الغيب، وإنَّما ادعوا ذلك للنبي ﷺ ظلمًا وزورًا، ولقرب المعاد[5].

معنى ﴿ٱلْغَيْبِ﴾:

المقصود بـ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ في قوله: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 159.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 166.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 419.
(4) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 15/ 257.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 160.

بلَّغَ الرسول ﷺ أمَّتَه من أمور الغيب ما كلَّفَه الله تعالى بإبلاغه

القرآن الكريم، وآياتُه التي حَملَتْ إلى النبي صلوات اللّه وسلامه عليه كثيرًا مِن أنباء الغيب من قَصص وغيره، كما يقول سبحانه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ﴾ [هود: 49][1].

أو المقصود به "خبَر السماء، وما أطَّلَعَ عليه ﷺ ممّا كان غائبًا عِلمه عن أهل مكة مِن الأنباء والقصص ممّا لم يعرفوه"[2]، أو ما استأثر اللّه تعالى بعلمه، إلا أن يُطْلِع عليه بعضَ أنبيائه، ومنه وحْيُ الشرائع، والعِلمُ بصفات اللّه تعالى وشؤونه، ومشاهدة مَلَك الوحي[3].

دلالة التعبير بـ (ضَنين):

كان النبيُّ ﷺ حريصًا أشدَّ الحرص على تبليغ ما أُمِرَ به

الـ (ضَنين) البخيلُ المُمْسِكُ ما يَجب عليه بذلُه إلى مُستحقّيه، والمعنى: "ما يَضِنُّ عليكم محمد ﷺ بما يَعلمُ، وعن قتادةَ قال: إنَّ هذا القرآنَ غيبٌ، فأعطاه اللّه محمدًا ﷺ، فبذَله، وعلَّمه، ودعا إليه، واللّه ما ضنَّ به رسولُ اللّه ﷺ[4]، فبعث اللّه تعالى به الروحَ الأمين جبريلَ إلى رسول اللّه ﷺ، فأدَّى جبريلُ ما استَودَعَه اللّه تعالى إلى محمد ﷺ، وأدَّى محمد ﷺ ما استَودَعه اللّه تعالى وجبريلُ عليه السلام إلى العبادِ، ليس أحدٌ منهم ضَنَّ، ولا تَخرَّصَ[5]، ولا كَتَمه كما يكتم الكاهن حتى يأخذ عليه حلوانًا[6].

ولا مانع من حمل الـ (ضنين) على البخيل بُخلًا معنويًّا؛ إذ كان يأتيه غيبُ السماء - وهو شيءٌ نفيس - فلا يبخل به عليكم[7].

---

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 16/ 1475.
(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 431.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 160.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 168.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 169.
(6) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 432.
(7) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 420.

القراءات القرآنية تُثري الدلالات التركيبية بالإشارات البلاغية

توجيه القراءات القرآنية في قوله: ﴿بِضَنِينٍ﴾:

تعدَّدتِ القراءات القرآنية لكلمة ﴿بِضَنِينٍ﴾، في قوله جلَّ وعزَّ: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾، فقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس ﴿بِظَنِينٍ﴾ بالظاء، وقُرِئَ ﴿بِضَنِينٍ﴾ بالضاد[1].

ومن قرأ ﴿بِظَنِينٍ﴾ ؛ فمعناه: ما هو متهم، هو الثقة فيما أداه عن الله - والظِّنَّةُ: التُّهَمَةُ -، ومن قرأ ﴿بِضَنِينٍ﴾؛ فمعناه: ما هو ببخيل على الغيب الذي يؤديه عن الله، وعلى تعليمه كتاب الله، مأخوذ من: الضن، وهو: البخلُ، وقال الفراء: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِظَنِينٍ﴾، أي: بضعيف، وقال الفراء أي: بضعيف، يقول: هو محتَمِل له، قال: والعرب تقول للرجل الضعيف: هو ظَنون، قال: وسمعت بعض قُضاعة يقول: ربما دَلكَ على الرأي الظَّنونُ، يريد: الضعيف من الرجال، وهو كما يقال: ماء شَروب، وشَريب، وقُرون الرجُل، وقَرينه نفسه، وكذلك قرينته، وقَرونَتُه[2].

و"جائز أن يكون الضّنّ منصرِفًا إلى الشفاعة التي أكرم الله تعالى نبيَّه ﷺ بها، فهو لا يَخصُّ بعضَ أُمَّته دون بعضٍ بالشفاعة، بل يَعمُّهم جميعًا، فيكون في هذا تحريضٌ على الاتِّباع له، والانقيادِ لطاعته.

ويحتمِل وجهًا آخر: هو أنه ليس بضنين في أداء شُكر ما أنعم الله تعالى عليه؛ إذ غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، بل اجتهد في أداء شُكره؛ حتى ذُكِر أنه تورَّمتْ قدماه من طول القيام، فقيل له: ألم يغفر الله تعالى لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»[3]، ومن معاني (ظنين): ضعيف عن تأديته[4].

(1) ابن الجزري، النشر: 2/398.
(2) الأزهري، معاني القراءات: 3/ 124.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 438.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 219.

معنى (الواو):

(الواو) في جملة: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ "عاطفة، أو حالية"[1]، وهذا رجوع إلى ما أقسم الله تعالى عليه مِن أنّ القرآن قولُ رسول كريم، بعد أن استطرد بينهما بتلك المستطردات الدالة على زيادة كمال هذا القول بقُدسية مصدره، ومكانة حامله عند الله تعالى، وصِدق متلقّيه منه عن رؤيةٍ محقّقةٍ لا تَخيُّل فيها.

فكان التخلص إلى العَوْد؛ لتنزيه القرآن بمناسبة ذكر الغيب في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾، فإن القرآن الكريم مِن أمرِ الغيب الذي أوحي به إلى محمد ﷺ، وفيه كثير من الأخبار عن أمور الغيب: الجنة والنار ونحو ذلك"[2].

لا يـزال النظم الكـريـم يـؤكِّـد عـلـى نـزاهـة القرآن الكريم، والرسول ﷺ

غرض الخبر في جملة: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾:

ساق النظم الكريم خبرَ تنزيهِ القرآن الكريم مِن تعلّقِه بالشياطين في جملة: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾؛ ردًّا آخر على المشركين الذين زعموا أنّ القرآن الكريم إنما هو مِن باب الكهانة، وأنَّ الرسول ﷺ إنما هو كاهن، تُلَقِّنُه الشياطين هذا القرآن[3]، وكفى برده تعالى تكذيبًا لهم، وفضحًا لتخرُّصِهم.

كفى بردِّه تعالى تكذيبًا للكاذبين - عـلـى قـرآنـه ورسوله - فضحًا لِـتَـخَـرُّصِـهـم وحِقدهم

معنى (ما) ومرجع الضمير المنفصل:

(ما) في جملة: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ "حجازية"[4]، تعمل عمل ليس، والمعنى: أنَّه ليس من تعليم الشيطان، وليس بشعر، ولا كهانة، كما قالت قريش[5].

شـرف الـقـرآن الـكـريـم أنّـه مـن عـنـد الـلـه العظيم

والضمير المنفصل ﴿هُوَ﴾ في جملة: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 15/ 257.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 163.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 305.
(4) الدعاس، إعراب القرآن: 3/ 424.
(5) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 432.

يعود إلى القرآن الكريم، السابق ذِكره في قوله تعالى: ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾، أي: وما هذا القرآنُ بقولِ شيطانٍ ملعونٍ مطرودٍ، ولكنه كلامُ اللّه تعالى ووحْيُه[1]، وقد عُلِم أنّ الضمير عائد إلى القرآن الكريم؛ لأنه أخبر عن الضمير بالقول الذي هو مِن جنس الكلام؛ إذ قال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ﴾، فكان المخبَر عنه من قبيل الأقوال لا محالة، فلا يُتَوَهَّم أنَّ الضمير عائد إلى ما عاد إليه ضمير: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ٢٤﴾[2].

معنى (الباء):

كـثرة المـؤكّـدات دالّـة على عظم الخبر المؤكّد

(الباء) في قوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ﴾ صلة لتأكيد النفي، ولتعظيم القرآن الكريم بأنَّه "من قول اللّه ﷻ، الذي نقله رسول الوحي جبريل، وليس من وساوس الشيطان ولا من مقولاته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ٢١١ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ٢١٢﴾ [الشعراء: 210 - 212][3].

نكتة تنكير ﴿شَيۡطَٰنٖ﴾، ووصفه بـ ﴿رَّجِيمٖ﴾:

تنكير ﴿شَيۡطَٰنٖ﴾ في هذا السياق يوحي بحقارة جنسه كلِّه بالنسبة لجلال القرآن الكريم وإزاء عظمته، وتقييده بوصف ﴿رَّجِيمٖ﴾ - أي: فعيلٌ بمعنى مفعول - يؤكّد أنه طريدٌ[4]، مُبْعَد يَتباعد الناس مِن شره، فإذا أقبل عليهم؛ رجَموه، فهو وصفٌ كاشفٌ لخطورة الشيطان؛ لأنَّه لا يكون إلا متبرَّأً منه[5].

معنى (الفاء) في جملة: ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ﴾:

عجبًا من إعراض المـعـرضـين عـن كـلام ربِّ العالمين!

(الفاء) في جملة: ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ﴾؛ لِترتيب ما بعدها على ما

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 171.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 163.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 16/ 1476.
(4) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 608.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 164.

قبلها مِن ظهور أن القرآن الكريم وحيٌ مُبين، وأنه ليس مما يقولون في شيء أي: أين تعدلون عن هذا القرآن وعن طاعته، ففي (الفاء) تفريعُ التوبيخ والتعجيز على الحُجَج المتقدّمة المُثْبِتَة أنَّ القرآن الكريم لا يجوز أن يكون كلامَ كاهنٍ، وأنه وحيٌ مِن اللّٰه تعالى بواسطة المَلَك، وهذا مِن اقتران الجملة المعترِضة بالفاء، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾ [عبس: 12][1].

معنى (أين) في قوله: ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ﴾:

(أين) في قوله: ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ﴾ اسم استفهام عن المكان، والمعنى: أنه قد سدت عليكم طرق بهتانكم؛ إذ اتضح بالحُجَّة الدامغة بُطلان ادِّعائكم أنّ القرآن الكريم كلامُ مجنون أو كلام كاهن، فماذا تدَّعون بعد ذلك؟ وكيف يَخطر هذا ببالكم؟ وأين عزبت عنكم أذهانكم؟ حتى جعلتم الحق الذي هو في أعلى درجات الصدق بمنزلة الكذب، الذي هو أنزل ما يكون، وأرذلُ الباطل وأسفلُه؟ هل هذا إلا مِن انقلاب الحقائق[2].

الكفار جعلوا الحق الذي هو أعلى الصدق بمنزلة الكذب الذي هو أسفلُ الباطل

غرض الاستفهام في قوله: ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ﴾:

الاستفهام في قوله: ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ﴾؛ لتبكيت كفار قريش، والتنبيه على الضلال الذي هم آخذون فيه، مُقبِلون بكُلّيتهم عليه[3]، والإنكار عليهم؛ تشبيهًا لحالهم في سلوك طُرُق الباطل بحال مَن ضَلّ الطريقَ الجادَّةَ، فيسألُه السائل منكِرًا عليه سلوكه، أي: اعْدِل عن هذا الطريق فإنه مَضِلَّةٌ[4].

من سلك طُرُق الباطل ضَلّ الطريقَ الجادَّةَ وتنكّبها إلى المعوجَّة المهلِكة

وفيه استضلالٌ لهم، كما يُقال لِتارك الجادّة اعتسافًا أو ذهابًا في بنيات الطريق: أين تذهب؟ مُثِّلت حالهم بحالِه في تركهم الحق، وعُدولهم عنه إلى الباطل[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 164.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 913.
(3) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 432.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 164.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 713.

ويجوز أن يكون الاستفهام مستعمَلًا في التعجيز عن طلب طريقٍ يَسلكونه إلى مقصِدهم من الطعن في القرآن، والمعنى: أنه قد سُدَّت عليكم طُرُق بُهتانكم؛ إذ اتَّضح بالحُجّة الدامغة بُطلانُ ادِّعائكم أنّ القرآن الكريم كلامُ مجنونٍ أو كلام كاهن، فماذا تدَّعون بعد ذلك[1].

دلالة التعبير بالذهاب وحذف متعلّقه في جملة: ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ﴾:

للروح والعقل ذهاب معنويٌّ يخصّهما، فيحاسبان به، كما للجسد ذهاب حِسّيٌّ يخصُّه

بالذهاب في جملة: ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ﴾ بمعنى العدول، والمعنى: "فأينَ تعدِلون عن كتابي وطاعتي؟"[2]؛ وذلك لأنه ذهاب فكر ويقين لا ذهاب جسد وحسّ، والمعنى "أين تذهبون بقُلوبكم عن هذا الحق المبين"[3].

وحُذِفَ متعلِّق الذهاب في قوله تعالى: ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ﴾، والتقدير: فأينَ تذهَبون عن هذا القرآنِ، وتعدِلون عنه[4]؟ وأيُّ طريق أهدى لكم وأرشدُ مِن كتاب اللّه تعالى؟ وأين تذهبون عن عذابه وعقابه[5]؟ وأين تذهبون عن طاعته واتباعه والانقياد له، وقد أتاكم ما يلزمكم طاعته واتِّباعه[6]؟.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الضَّنّ والبُخل:

الضَّنُّ الإمساك، والبُخل منع الفضلِ والواجبِ، والشُّحُّ أشد البُخل

الضَّنُّ والضِّنَّةُ والمَضَنَّةُ، كلُّ ذلك من الإمساكِ والبُخْل، تقول: رجلٌ ضَنينٌ، وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ﴾، أي: بكتوم لِما أوحيَ إليه من القرآن[7]، والبخل في الشرع منع الواجب، وعند العرب منع السائل مما يفضل عنده[8].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 164.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 171.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 21/ 294.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 171.
(5) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 219.
(6) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 439.
(7) الخليل، العين: (ضنن).
(8) الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (بخل).

والشُّح الحرص على منع الخير، ويقال: زند شحاح؛ إذا لم يورِ نارًا، وإن أُشحّ عليه بالقَدَح، كأنه حريص على منع ذلك، والبخل منع الحق، فلا يقال لمن يؤدّي حقوق الله تعالى بخيل، فالشُّح: البُخْل مع حِرْص، فهو أشد من البخل، وقيل: الشح: اللؤم، وأن تكون النفس حريصة على المنع[1].

(1) مؤسسة النشر الإسلامي، معجم الفروق اللغوية الحاوي لكتابَي العسكري والجزائري، ص: 295.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾
وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: 27 - 29]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

لا صلاح للأمم إلّا باتباع القرآن الكريم

بعد أنْ أبطل الله مزاعهم، وأفاقهم مِن ضلالتهم؛ أرشدَهم إلى حقيقة القرآن الكريم، وأنَّه هو صلاحهم في اعتقادهم، وطاعاتهم، وأخلاقهم وكلِّ حياتهم، فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذِكْرٌ﴾: الذِّكْر - بالكَسْرِ - لَهُ مَعْنيانِ: التَّلَفُّظُ بالشَّيء، وإحضاره في الذِّهْن بحَيْثُ لا يغيب عَنهُ، وهوَ ضد النسْيان، والذُّكر - بالضَّمِّ - : للمعنى الثّاني لا غير، وإذا أُريد بالذِّكْر الحاصِل بالمَصْدَرِ يُجْمَع على (أذكار)، وهوَ الإتيان بألفاظ ورد التَّرْغيب فيها[2].

والذِّكْر هنا: الشَّرَفُ والصّيت، قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: 44]، والذِّكْرُ: الكتابُ الذي فيه تفصيلُ الدين، وكلُّ كتابٍ للأنبياء: ذِكرٌ، والذِّكْر: الصلاة، والدعاء، والثناء، والأنبياء؛ إذا حَزَبَهُم أمْرٌ، فزعوا إلى ذِكر الله تعالى، أي: الصلاة[3].

2) ﴿يَسْتَقِيمَ﴾: أقامَ، وأقامَ بـ، وأقامَ في، وأقامَ لـ، يُقيم، أقِمْ، إقامةً، فهو مُقيم، والمفعول مُقام، أقام الصَّلاةَ: أدامها، ووفّاها بصورة كاملة، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: 43]، وأقام البناءَ: شيَّده، قال تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ [الكهف: 77].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 165.
(2) أبو البقاء، الكليات، ص: 456.
(3) الخليل، العين: 5/ 346.

واستقامَ يستقيم استَقِم استقامةً، فهو مُستَقيم، استقام العودُ: استوى، واستقام الطريقُ، قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6]، واستقام الإنسانُ: اعتدل في سلوكه، وكانت أخلاقُه فاضلة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ [فصلت: 30]، ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ [يونس: 89]: امضيا واستمِرّا، واستقام على الطَّريق: اهتدى[1]، والاستقامة هنا في الآية: مستعارةٌ لصلاح العمل الباطني، وهو الاعتقاد، والظاهري وهو الأفعال والأقوال؛ تشبيهًا للعمل بخط مستقيم تشبيه معقول بمحسوس[2].

المَعنى الإجْماليُّ:

تـحـقُّـق كـلِّ مشيئةٍ مرهونٌ بـإذْن الـله ﷻ ومشيئة

ما هذا القرآن الكريم إلّا ذِكْرٌ لِجميع الناس، يتذكَّرون به ما وقَرَ في قلوبهم مِن الميل إلى الخير، وإنما أنساهم ذِكْرَهُ ما طَرَأ على طباعهم من أنواع السّوء، التي تُحْدِثُها أمراضُ التقلُّب في الحياة، إنه ذِكر يتذكر به مَن وجَّه إرادتَه، إلى الاستقامة على الجادّة الواضحة بمُلازمة الحقِّ والعدل، وتَحَرّي الصواب، وأمّا مَن صرف نفسه عن ذلك، ولم يُرِد إلّا الاعوجاج والانحراف؛ فذلك الذِّكرُ لا يُؤَثِّر فيه، ولا يُخْرِجُه عن غفلته هذا، وقد فرض اللّه على المكلف أن يوَجِّه فِكْره نَحوَ الحق؛ ليطلُبه، وأن يَحْفِز عزْمه إلى الخير؛ ليَكْسبه[3].

على أنّ تحقيقَ مشيئةِ مَن شاء الهداية، وسعى إليها، وتحقيقَ مشيئةِ مَن شاء غيرَها وسعى إليه؛ مرهونٌ بإذْن اللّه تعالى بها ومشيئته إياها، فما شاءه سبحانه، وأذِنَ به من تلك المشيئات؛ تحقَّق لصاحبه، وما لم يشأْه من تلك المشيئات؛ لم يتحقق لصاحبه، فلا مشيئة مستقلة لأحد غيره ﷻ، بل كل مشيئة مرهونة بمشيئته ﷻ.

---

(1) أحمد مختار وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة: (قوم).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 166.

(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1810.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علة فصل جملة: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾:

الروابط المعنوية بين التراكيب القرآنية متينة وثيقة

فُصِلَتْ جملة: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ عن جملة: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ﴾ - إذ جملة ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ﴾ معترضة بينهما؛ لأنّ الثانية مؤكِّدةٌ لمعنى الأولى، فكون القرآن الكريم ذِكرًا للعالمين دليلُ كونه كلامَ الله تعالى، وليس بقول شيطان رجيم، فهي منها بمنزلة نفسِها؛ فلَم تَحتَجْ إلى عاطف.

معنى ﴿إِنۡ﴾ في جملة: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾:

﴿إِنۡ﴾ في جملة: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ نافية بمعنى (ما)[1]، وهي تُهَيِّئُ لتركيب أسلوب القصر، والمعنى: ما هو - أي: القرآن الكريم أو الرسول ﷺ - إلّا تذكِرة لِمَن اختار طريق الهداية مِن العالمين جميعًا.

مرجع الضَّمير المنفصل في قوله: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾:

ضمير الفصل يُضفي على مرجِعِه مزيدًا من التكريم، وكأنه ينصرف إليه لِتَعَيُّنِه

الضمير المنفصل ﴿هُوَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، يعود إلى القرآن الكريم السابق ذِكره في السياق: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾، و﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ﴾، وجوِّز كونُه للرسول ﷺ، أي: ما هو ﷺ إلا مذكِّر للعالمين[2].

والتعبير بضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ يُضفي على مرجِعِه مزيدًا من التكريم والتعظيم، وكأنه مُتَعَيِّنٌ معروف به، ينصرف إليه عند إطلاقه لكمال شهرته وخصوصيته.

دلالة التعبير بـ ﴿ذِكۡرٞ﴾ في جملة: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾:

القرآن الكريم - وكذا الرسول الكريم - شرفٌ لمن انتسب إليه، وانتفع به

في التعبير عن القرآن الكريم - أو الرسول ﷺ - بوصف الـ﴿ذِكۡرٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ دلالة على

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 21/ 295.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 265.

قوة أثره في الخَلق جميعًا، من حيث إنّه "تَذكِرةٌ وعظةٌ للعالمين من الجنِّ والإنسِ، وجَعَل ذلك تعالى ذكرُه ذكرًا لِمن شاء من العالمين أنْ يستقيمَ، ولم يجعَلْه ذكرًا لِجميعهم"[1].

والذِّكر اسمٌ يَجمع معاني الدعاء والوعظ بحُسْنِ الأعمال، والزجر عن الباطل وعن الضلال، أي: ما القرآن الكريم إلّا تذكيرٌ لِجميع الناس، ينتفعون به في صلاح اعتقادهم، وطاعة اللّه ربهم، وتهذيب أخلاقهم، وآداب بعضهم مع بعض، والمحافظة على حقوقهم، ودوام انتظام جماعتهم، وكيف يعامِلون غيرَهم من الأُمَم الذين لم يتَّبعوه[2].

وإلى ذلك ففي وصْف الـ ﴿ذِكْرٌ﴾ دلالة على أنه "شرفٌ للخلق كلِّهم من الجن والإنس والملائكة"[3]، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٤٣ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٞ لَّكَ وَلِقَوْمِكَۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝٤٤﴾ [الزخرف: 43 - 44].

معنى اللام في قوله: ﴿ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾:

القرآن الكريم والرسول ﷺ عالميّا النّفع، ونَفْعُهما وقْفٌ على مَن شاء الهداية

اللام في قول اللّه تعالى: ﴿ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ لامُ الاختصاصِ الجارَّةُ، الدالة على أن القرآن الكريم، وكذا الرسول ﷺ - عالميّا البركة والنَّفْع، وإنما يتوقف نَفْعُهما على من شاء الهداية، وسعى إليها وقبِلها، وإلا فقد قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحْمَةٞ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ۝٨٢﴾ [الإسراء: 82]، ويقول سبحانه في الرسول ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: 28]، وذلك دليل على أن القرآن الكريم، وكذا الرسول ﷺ عالميّا النَّفْع، غير أن الإفادة من نَفْعِهما تتوَقَّف على مَن شاء الهداية.

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 171.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 165.

(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 21/ 295.

معنى (ال) في (العالمين) في قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾:

(الـ) في (العالمين) في قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لتعريف الجنس، أي "الخلق أجمعين"[1]، وفي ذلك دلالة على أن القرآن الكريم، وكذا الرسول ﷺ بركةٌ على الخلق جميعًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: 107]، وإن كان المقصود بالعالمين الإنس والجنّ بوصفهما أهل التكليف؛ فـ (الـ) لتعريف العهد الذهني، ويكون في تعميم (العالمين) ترغيب في الإيمان بالله تعالى، والتزام الوحيَيْنِ الشريفَيْنِ، والانتفاع بهما.

الإسلام دعوة عالَميّة، ووحياه الشريفان خير وبركة ونجاة لِمَن التزمهما

وعلى كلٍّ ففي التعبير بعموم (العالمين) دعوة للمكلفين جميعًا، وترغيب لغير المؤمنين، وكأنه يقول لهم: إنه "ذِكْر لِمن شاء منكم أيها المشركون، أن يتلقى منه الموعظة والهدى، ويستقيم على طريق الحق، ويسلك مسلك النجاة"[2].

بلاغة القصر في جملة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾:

صاغ النظم الكريم المعنى في قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ قَصْرًا، وفي أقوى طُرُقه: النفي والاستثناء ﴿إِنْ﴾، ﴿إِلَّا﴾، وذلك لِعظم الحُكْم وخطورة القضية، فإنَّها تتعلق بعالَمية الذِّكْر الحكيم، وعُمومية الرسالة المحمدية، فالمعنى من هذه الجهة كبيرٌ، وهو من الأخبار التي تُؤكَّد لِذاتها، كما يقول ابن حجر في الفتح: "وقَد يَكونُ التَّأْكيدُ مِنْ جِهَةِ أنَّ القَضيَّةَ في نَفسِها مِمّا يُهْتَمُّ به، وإن لَمْ يَكُنْ هُناكَ مُنْكِرٌ"[3].

لا ينكر بركة القرآن ونفعه إلّا جاحد

وإذا كانت القضيّة هنا محلَّ إنكار؛ فقد تحتّم تأكيدها بصَوْغِها قَصْرًا، وبأقوى طُرُقه، وهو قَصْر موصوف - القرآن الكريم أو

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 432.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 16/ 1476.
(3) العسقلاني، فتح الباري: 1/ 74.

الرسول ﷺ - على صفة الـ ﴿ذِكۡرٞ﴾، فـ "هو قصرٌ إضافيٌّ قُصِد منه إبطال أن يكون قولَ شاعر، أو قولَ كاهن، أو قول مجنون، فمِن جملة ما أفاده القصر نفيُ أنْ يكون قولَ شيطان رجيم، وبذلك كان فيه تأكيدٌ لِجُملة: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ﴾"[1].

نكتة تكرار (اللام) في قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾:

من سلك طريق الله هداه الله ووفَّقه

(اللامُ) في قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ﴾ بَدَلٌ من اللام في القيد بالجار والمجرور ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، فكأن معنى الكلام: إنْ هو إلا ذكرٌ لِمن شاء منكم أنْ يستقيمَ على سبيل الحقِّ، فيتَّبِعَه، ويؤمنَ به[2]، وإنما أُبْدِلوا مِنهم؛ لأنّ الذين شاؤوا الاستقامة بالدخول في الإسلام هم المنتفِعون بالذِّكر، فكأنه لم يوعظ به غيرُهم، وإن كانوا موعَظين جميعًا[3].

وفي تلك البدليّة تأكيدُ العامل، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ﴾ [الأنعام: 99]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ﴾ [الأعراف: 75][4]، فخَصَّص تعالى مَن شاء الاستقامة بالذِّكر تشريفًا وتنبيهًا، وذِكرًا - أيْ: مَدْحًا وإشادةً - لِتَكسُّبهم أفعالَ الاستقامة[5]، فالمقصود بهذه الجملةِ الثناءُ عليهم والتنويه بشأنهم[6].

علّة التعبير بالموصول في قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ﴾:

الموصولُ يُهَيِّئ التركيبَ لِذِكْر عناصرَ مؤثِّرة، ولا تُتاح إلا به

التعبير بالموصول في قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ أتاح للتركيب الإتيانَ بجملة الصلة: ﴿شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾، وهي عامرة بالدلالات والإشارات، مثل النَّص على المشيئة مسنَدَةً

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 165.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 172.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 713.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 166.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 445.
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 306.

للمستقيم من المكلَّفين، والدلالة بذلك على أنّ له اختيارًا لا إجبارًا، ومثل التقييد بـ ﴿مِنكُمۡ﴾، والدلالة به على أنَّ كلًّا على انفراده مكلَّفٌ، وكلًّا على انفراده تحت المسؤولية - كما تدلُّ (مِن) التبعيضية - وأنه موضع مُساءلة.

ومثل التعبير بالمصدر المؤوَّل ﴿أَن يَسۡتَقِيمَ﴾، والدلالة به على الاستقامة والمضارَعة معًا، وأنّ تجديده استقامتَه كلَّما جذبته معصيةٌ؛ أمرٌ مطلوب، ولا مناص للمؤمن منه... إلى آخر الدلالات والإشارات، التي ما كانت لِتتحقق بالتعبير بالاسم الصريح، كما لو قيل في غير القرآن الكريم: إنْ هو إلّا ذِكر للعالمين لِشائي الاستقامة منكم.

دلالة التعبير في ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ﴾:

دوام الكفار على الـضـلال ليس لِقصور القرآن عـن هَديـهـم، بـل لمُكابَرتـهـم وإعراضهم

التعبير بالمشيئة مسندةً للعبد المستقيم يحتمل وجهين: أحدهما: أنْ يُحمل على تحقيق المشيئة، ويكون تأويله: أنّ مَن أراد الاستقامة على أمرِ اللّه تعالى أو على الحق؛ فهذا الذِّكر يُقيمُه على الحق وعلى الأمر، ويَهديه إلى ذلك، أو أن يكون هذا على تحقيق الفعل، فيكون معناه: مَن استقام منكم على الحق والأمرِ؛ فهو ذِكر له.

والأصل أنّ المشيئة وصفُ فِعلِ كلِّ مختار، وإذا كان هكذا؛ صارت المشيئة مقترِنة بالفعل، فإذا فعل؛ فقد شاء؛ فكان في إثبات الفعل إثباتُ المشيئة؛ لذلك استقام حَمْلُه على ما ذَكرْنا، وهو أنْ يُجعل أحدُهما كنايةً عن الآخر(1).

وفي الصلة تعريض بأن الذين لم يتذكروا بالقرآن ما حال بينهم وبين التذكر به إلا أنهم لم يشاؤوا أن يستقيموا، بل رضوا لأنفسهم بالاعوجاج، أي: سوء العمل والاعتقاد؛ ليَعلَم السامعون أنّ دوام

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 440.

أولئك على الضلال ليس لِقصور القرآن عن هَديهم، بل لأنَّهم أبَوا أنْ يَهتدوا به؛ إما للمُكابرة؛ فقد كانوا يقولون: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: 5]، وإما للإعراض عن تلقيه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ۝٢٦﴾ [فصلت: 26][1].

مرجع ضمير المخاطَبين في قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ﴾:

مرجع ضمير المخاطَبين في قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ﴾ إلى كل مكلَّفٍ، ناظِر إلى (العالمين) في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ وهم "الخلق أجمعين"[2]، أو راجع إلى الذين خوطبوا بقوله ﷻ: ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ﴾[3]، وهم كفار قريش، الذين سبق القول بأنهم أوغلوا في الضلال والتكذيب بالقرآن، وبالَغوا في اتِّهام الرسول ﷺ بتُهم الجنون والسِّحر والكهانة وغيرها.

مَن أراد الهداية؛ فعليه بالقرآن؛ فإنه منجاةٌ له وهداية، ولا هداية فيما سواه

دلالة التعبير بالاستقامة في قوله: ﴿أَن يَسۡتَقِيمَ﴾:

استقام الإنسانُ؛ إذا اعتدل في سلوكه، وكانت أخلاقُه فاضلة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: 30]، ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا﴾ [يونس: 89]، أي: امضيا، واستمِرّا، واستقام على الطَّريق: اهتدى[4]، وعلى ذلك فالاستقامة في قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ مستعارَةٌ لِصلاح العمل الباطِنيّ: وهو الاعتقادُ، والظاهريِّ: وهو الأفعالُ والأقوال؛ تشبيهًا للعمل بخطٍّ مستقيم تشبيهَ معقولٍ بمحسوس[5].

حقيقة الاستقامة صلاح الباطن والظاهر

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 166.
(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 432.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 166.
(4) معجم اللغة العربية المعاصرة: (قوم).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 166.

معنى (ما) في قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ﴾:

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ نافية[1]، والمعنى: ليست المشيئة موكولة إليكم، فمن شاء؛ اهتدى، ومن شاء؛ ضلّ، بل ذلك كلُّه تابع لِمشيئة اللّه ﷻ ربّ العالمين[2].

المشيئة ليست موكولة إلى أحد، بل تابعة لِمشيئة الله ﷻ رب العالمين

غرض الخبر: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

الخبر: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لِرَدِّ المشيئة إلى نفسه ﷻ، فأعلَمَهم أنّ المشيئة في التوفيق إليه، وأنهم لا يقدرون على ذلك إلّا بمشيئة اللّه وتوفيقه، وهذا إعلام بأنّ الإنسان لا يعمل خيرًا إلا بتوفيق اللّه، ولا شرًّا إلّا بخِذلانه[3].

الإنسان لا يعمل خيرًا إلّا بتوفيق الله، ولا شرًّا إلّا بخِذلانه

على أنّ هذا ليس بالذي يدعو الإنسان إلى أنْ يُعَطّل مشيئته، منتظِرًا مشيئة اللّه تعالى فيه؛ لأنَّه لا يَعلم ما مشيئةُ اللّه تعالى فيه، بل إنّ عليه أنْ يُعمِل مشيئته، كما يُعمل جوارحه جميعها، فإذا وافقتْ مشيئتُه مشيئةَ اللّه تعالى؛ مضتْ، ونَفَذَتْ، وإن خالفت مشيئةَ اللّه تعالى؛ لم تَمْضِ، ولم تنفذ، ومضت مشيئة اللّه تعالى.

هذا هو المطلوب من العبد، فإنْ أعطى مشيئتَه ما ينبغي أنْ يُقدّمه بين يديها مِن بحثٍ ونظرٍ وعقل؛ جاءت مشيئتُه قائمةً على طريق الحق، مثمرةً له أطيب الثمر، تمامًا كما إذا أيقظ حواسَّه، وعمل بها في المحسوسات - كان له من معطياتها ما يصله بالحياة وصلًا وثيقًا، ويقيمه على طريقها دون أن يتعثر، أو يضلّ[4].

نكتة التقييد بوصف ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

وُصِفَ الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ بالربوبية في قوله تعالى: ﴿وَمَا

شـرف أهـل الاستقامة بكونهم بمحلّ العناية مِن ربهم؛ إذ شاء لهم الاستقامة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 168.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 340.
(3) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 432.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 16/ 1477.

تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ ليُذكِّر الناس بأفضال ربِّهم ﷻ عليهم بل على الخلائق جميعًا، وأنه سبحانه "الموجِد لهم والمالك، والمُحْسِن إليهم والمُرَبّي لهم، وهو أعلم بهم منهم؛ فلِأجل ذلك لا يَقدِرون إلا على ما قدَّرَهم عليه، ويجب على كل منهم طاعتُه والإقبالُ بالكُلّيَّة عليه ﷻ، وشكرُه؛ استمطارًا للزيادة، فلِهذه الربوبية صحّ تَصرُّفه في الشمس وما تبعها ممّا ذُكِر في أول السورة الكريمة[1].

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 21/ 296.

سُورَةُ الانفِطَارِ

سُورَةُ الانفِطَارِ

التّعريف العامّ بالسّورة:

المكّي والمدنيّ وعد الآي:

أجمَع المفسِّرون على مَكِّيَّتِها[1]، وأمّا عدَدُ آياتها؛ فهي تِسْعَ عَشْرَة آيَةً في جَميع المَصاحِف بلا اختِلاف[2].

ترتيب النّزول وترتيب المصحف:

ترتيب السورة في المصحف وترتيبها في النزول واحد

هذه السّورة هي السّورة الثانية والثّمانون في التّرتيب المصحفيّ الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت، والمُعوَّل عليه عند أهل النّظر والتّحقيق، وقد جاء ترتيبها بين سورتي التّكوير والمطفِّفين، وأمّا في التّرتيبِ النُّزوليّ؛ فهي أيضًا الثانيةُ والثّمانون، نزلت بعد سورة النّازعات، وقبل سورة الانشقاق[3].

فضائل السّورة:

سورة الانفطارِ من سوَرِ المُفَصَّل، صَوَّرَت أحداثَ القيامة

هذه السّورة الكريمة مِنَ المُفَصَّل الذي قال فيه النَّبيُّ ﷺ فيما رواه عنه واثِلةُ بن الأسقَعِ رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثاني، وفُضِّلتُ بالمُفَصَّلِ»[4].

وهي من السّور الثلاثةِ التي صوَّرَت يومَ القيامة كأنّه رأيُ عين، فعنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أنّه قالَ: قالَ رَسولُ اللّه ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أنْ يَنْظُرَ إلَى يَوْمِ القيامَةِ، كَأنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ؛ فليَقْرَأْ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 446، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 244، والسّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 43.

(2) الداني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 266.

(3) دروزة، التّفسير الحديث: 5/ 419، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 169.

(4) أخرجه أحمد في المسند: (16982)، والطبراني في المعجم: (22/ 76) (187)، والبيهقي في شعب الإيمان: (2415)352.

كُوِّرَتۡ ١﴾ [التكوير: 1] و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١﴾ [الانشقاق: 1]))[1].

اسمُ السّورة ومناسبة تسميتها:

سورةُ الانفطارِ تَصويرٌ للمَشهَدِ المَهول

سُمّيَت هذه السّورةُ في الحديثِ بأوّل آيةٍ فيها: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾[2]، كما عَنون البخاريُّ في صحيحه: "سورة ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾"[3]، وسُمّيَت (سورةَ الانفطار) في المصاحِفِ ومُعظَم التّفاسير، وفي قليلٍ من التّفاسير (سورةَ انفطرت)، وقيل: تُسمّى (سورةَ المُنفَطِرَة)، أي: السّماءِ المُنفَطِرة[4].

ويدلُّ اسمُ السّورَةِ على مَقصودِها، الذي هو "التّحذيرُ من الانهماك في الأعمال السّيّئة؛ اغترارًا بإحسان الرّبِّ وكَرَمِه، ونسيانًا ليَوم الدّين، الذي يحاسِب فيه على النَّقير والقِطمير، ولا تُغني فيه نفسٌ عن نفسٍ شيئًا"[5].

المِحور العام للسورة:

تحذيرُ الإنسان الغافِل مِن يَومِ القيامة مع بيانِ أهْوالِها

يَدورُ مِحوَرُ السّورة على تحذير الإنسان الغافل من يوم القيامة؛ لذا تَوَسَّطَها قولُ الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: 6 - 8]، مُذَكِّرَةً هذا الغافلَ ببديع خلق الله تعالى له، ومَهَّدَت السّورة لهذا بالأمور الآتية:

أوّلًا: التَّحذير بإثبات وُقوع يوم القيامة، وبيانِ بعض أماراته ومقدِّماته، مع اختصاصها ببَيانِ تَغَيُّرِ بَعضِ الظّواهِرِ الكَونيّة، التي تُرافِق أهوالَ يوم القيامة، وبيانِ بعضِ ما يكون بعد البعث.

(1) الترمذي، سنن الترمذي، باب ومِنْ سورَةِ إذا الشَّمسُ كوِّرَت، حديث رقم: (3333)، وقال الألباني: حديث صحيح.

(2) الترمذي، سنن الترمذي، باب ومِنْ سورَةِ إذا الشَّمسُ كوِّرَت، حديث رقم: (3333)، وقال الألباني: حديث صحيح.

(3) البخاري، صحيح البخاري، باب تفسير سورة (إذا السماء انفطرت): 4/ 1883.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 169.

(5) البقاعي، مصاعد النّظَر: 3/ 161.

ثانيًا: أتبَعت السّورةُ هذا التّحذيرَ من الغفلة المشغِلةِ عن التّفكُّر في يوم الدّين ما يقوّيه، وهو تذكيرُهم بالملائكة التي تُحصي عليهم أعمالَهم.

ثالثًا: اقتضى هذا المِحورُ بيانَ جزاءِ كُلِّ فريقٍ يوم القيامة من الأبرار الذين آمنوا بهذا اليوم، وأعَدّوا له عُدَّتَه، ومِنَ الفُجّار الذين استَمَرّوا في غَفلتِهم وتشاغُلِهم عنه.

موضوعات السّورة وخصائصها:

التّحذير من التّغافل عن يوم القيامة

تَلْتَفُّ مَوضوعاتُ السّورَةِ جميعها حَولَ مِحوَرِها العامّ، وهو التَّحذيرُ من غَفلَةِ الإنسان عن يوم القيامة، وفيها إبرازٌ لجَلال الأُلوهيّة، بوَصفِ تغييرِ نظام الكَونِ المُتماسِك المُحكَم، الذي انفرَطَ عِقْدُ نِظامه بأمرٍ من المَلِك، الذي له وحدَه الخَلْقُ والأمر، وفيه أيضًا إبرازٌ لجمال الرُّبوبيّة، من خِلالِ عِتابِ الإنسان على جُحوده وتقصيره، وتَذكيرِه بكَرَم رَبِّه وإنعامه، وهي بذلك تُقَرِّرُ رُكنًا من أركان الإيمان، وجاء ذلك على الشكل الآتي:

أوّلاً: ابتدأت بوصفِ بَعضِ الأحداث الكَونيَّة التي تكون يومَ القيامة، وهي انشقاقُ السّماء، وانتِثارُ الكواكِب، وتفجيرُ البِحار، وبَعثَرَةُ القبور، ثمّ الإخبارُ عن عِلمِ كُلِّ نَفسٍ بما قدّمت، وأخّرت.

ثانيًا: ثمّ نَدَّدَت بجحود الإنسان نِعَمَ رَبِّه، وبتقصيره في مقابلة الإحسان بالشُّكرِ والعِرفان.

ثالثًا: ذكَّرَت السورة بسبب هذا الجحود، وهو إنكار البَعث، وبيَّنَت أنّ أعمالَ الإنسان كُلَّها مَحفوظَةٌ مُسَجَّلَةٌ عليه، يَقوم برَصْدِها ملائكةٌ كِرامٌ كاتبون.

رابعًا: أرْدَفَت ذلك ببيان مَصيرِ النّاس وانقِسامِهم إلى فريقَين: أبرارٍ وفُجّار، وأيلولَتِهم إلى نَعيمٍ أو جَحيم.

خامسًا: خَتَمَتِ السّورة بالتّحذير والتّهويلِ من يوم الدّين، أي: الجزاءِ والقيامة، وبذِكرِ استقلالِ كلِّ إنسانٍ بالمسؤوليّة عن نَفْسه، وإثباتِ تَفَرُّدِ اللّه بالحُكم والأمر[1].

خصائِصُ المَوضوعيَّة للسّورة:

انفردت السورة بموضوعات تميزت بها عن غيرها

أوّلاً: تميّزَت هذه السورةُ بخصائصَ مَوضوعيَّةٍ، لم تَجتَمِعْ في غَيرِها من السّوَر، التي اشترَكَت معها في الحديث عن أهوالِ يوم القيامة: بذِكر بعضِ التَّغَيُّراتِ الكَونيَّةِ التي تَحْدُث ضِمنَ أهوالِ يوم القيامة، وبذِكرِ الملائكة الحَفَظَة، التي تُسَجِّلُ على الإنسان أعمالَه، وبعتاب الإنسان، عِتابًا يحمِل في طَيّاتِه التحذيرَ من الغفلة عن يوم القيامة.

ثانيًا: تقسيمُ الناس إلى أبرارٍ وفُجّار، وبيانُ الجزاء الأخرَويِّ المُعَدِّ لكُلِّ صِنف، ومنها أيضًا الحديثُ عن مراحلِ خَلقِ الإنسان بذِكرِ مَرحَلةِ التعديل بعد التسوية.

الخصائصُ الأُسلوبيَّة للسورة:

تميَّزَتِ السّورةُ الكريمةُ بخصائصَ أسلوبيَّةٍ أفردتها عن غيرها

أوّلاً: منها براعة الاستهلال بالظَّرف (إذا)، الذي لم يُشارِكْها فيه سِوى ستِّ سوَرٍ: هُنَّ الواقعة والمنافقون والتّكوير والانشقاق والزّلزلة والنّصر، والملاحظ أنّ أغلبَ هذه السّوَرِ السَّبعِ اشتركَ في تناوُلِ أهوالِ السّاعة، وما يكون بين يَدَيْها من أحداثٍ جَسيمةٍ.

ثانيًا: تميّزت السّورة أيضًا بتعاطُف الجمل الشَّرطيَّة في مَطلَعِها؛ إذ بَلَغَت أربعة جُمَلٍ حَوَت أربعة مشاهِدَ دُنيَويَّةً تَسبِقُ البعث، وقد تَنازَعَت جميعُها جوابًا واحدًا للشّرط، وهو قول اللّه تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾.

تكرَّرت أداةُ الشرط (إذا) في السّورَةِ أربع مرّات، وكَلِمَةُ اليوم

(1) الزحيليّ، التّفسير المنير: 30/ 95 - 96.

خمس مرّات[1]، والدّين أربع مرّات[2]، والنَّفْس ثلاث مرّات[3]، والفِعل ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾ مرَّتَين[4].

ثالثًا: تميَّزَتِ السّورةُ الكريمة بأنّها قدَّمَت المُسنَدَ إليه على المسندِ الفِعليِّ المبنيِّ للمفعول في آيتَين، وللمعلوم في آيتَين أُخرَيَين، وذلك في الجُمَل الشّرطيّةِ المُصَدَّرَة بـ(إذا) في الآيات الأربعِ الأولى، وهو أسلوبٌ يُفيدُ التّخصيصَ أو تَقويةَ الحُكم بحَسَب القرائن.

رابعًا: برَزَت في السّورة ظاهرةُ الطِّباقِ بين ﴿قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾، و﴿يَعۡلَمُونَ﴾ و﴿تَفۡعَلُونَ﴾، و﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ و﴿ٱلۡفُجَّارَ﴾، و﴿نَعِيمٖ﴾ و﴿جَحِيمٖ﴾.

خامسًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حَوَت كلماتٍ لم تأتِ في غيرها من السّور بهذه الأبنيَةِ الصّرفيّة، مثل: ﴿ٱنفَطَرَتۡ﴾، ﴿ٱنتَثَرَتۡ﴾، ﴿بُعۡثِرَتۡ﴾، ﴿فَعَدَلَكَ﴾، ﴿صُورَةٖ﴾، ﴿رَكَّبَكَ﴾، ﴿كَٰتِبِينَ﴾، وغيرها.

سادسًا: تميّزت السّورة أيضًا بوَفْرَة الأنساقِ التَّعبيريَّةِ التي لم تَتَكَرَّرْ في غيرها، حتّى تكاد تكونُ كلُّ أنساقِها كذلك، وعلى سبيل التّمثيل مَطلَعُها كاملًا: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾، وقوله أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾، وغير ذلك.

مناسبةُ السّورةِ لِما قبلَها:

تتناسب سورة الانفطار مع سورة التكوير في تصوير الكون عند قيام الساعة

افتُتِحت سورةُ التكوير بمشاهدَ كونيّةٍ عظيمةٍ تقعُ عندَ انطواءِ الدّنيا، وهي تُصَوِّر نهايةَ نظامِ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ والحياتيِّ، وما

(1) الآيات: 15، 17، 18، 19(2).
(2) الآيات: 9، 15، 17، 18.
(3) الآيتان: 5، 19(2).
(4) الآيتان: 17، 18.

يَرتبطُ بالناسِ في معاشِهم؛ أمّا سورةُ الانفطار؛ فقد جاءت بمَشهَدٍ يُكملُ انقلابَ العالمِ العُلويِّ - السماء والكواكب - ويَختمُ بمشهدِ البعثِ من القبور؛ ليكونَ ذلك بدايةَ الجزاءِ، فكأنَّ سورةَ التكوير صَوَّرَت مقدِّماتِ الساعة، وجاءت سورةُ الانفطار؛ لتصوِّرَ ما يلي ذلك من أهوالِ البعثِ والجزاءِ، ثم إنّ السّورتين تشتركان في وحدَةِ الغرَض والموضوع، وهو تحقيقُ الإيمانِ بيوم القيامةِ والبعثِ والجزاءِ، وزعزعةُ الغفلةِ التي عَلِقَت بالقلوبِ، لكن سورة الانفطارِ أخَذَت على عاتِقِها تفصيلَ أحداثِ السّاعة قبلَ نَفخِ البوقِ، وبيانَ التّغييرات الكَونيّة التي تُرافقها، وبيانَ أحوال النّاس من مؤمنين وكافرين عند ربّهم[1].

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 358.

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ٥﴾ [الانفطار: 1 - 5]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الترابطُ الموضوعيُّ والإيقاعيُّ بينَ سورَتَي التَّكويرِ والانفطارِ

تَظهَر مُناسَبَةُ أوائلِ سورةِ الانفطار مع خاتمةِ سورةِ التَّكوير، في أنَّها جاءت تَتِمَّةً لمَشهَدِ الانقلابِ الكَونيِّ وبَعثِ الخلائقِ بأسلوبٍ موازٍ، ولكن بتصويرٍ جديدٍ لمظاهرِ الهَولِ، يُستَكمَلُ به ما ابتدأته سورةُ التكوير من مَشاهدِ القيامةِ.

ولمّا ذُكِرَ في ختامِ سورةِ التكوير قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨﴾ [التكوير: 27 - 28]، أي: إنَّ هذا القرآنَ تذكرةٌ تدعو إلى الاستقامةِ؛ جاءَ صَدر سورةُ الانفطار؛ ليصُبَّ في الغَرَضِ نفسه، بذِكرِ مشاهِدِ هذا يومِ الجزاءِ العظيم، الذي يحمل التهديدَ والإنذارَ الشديدَ للإنسان الغافلِ عن مَصيره في يوم القيامة، المُعرِضِ عن الاستِقامَةِ في الحياةِ الدُّنيا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱنفَطَرَتۡ﴾: (فطر) أصلٌ يَدُلُّ على فتحِ شيءٍ وإبرازه[1]، ومنه الفَطْرُ، وهو الشَّقُّ، ويُطلَق على الانفلاقِ والانصداعِ، وقَيَّده بعضُهم بأنّه الشَّقُّ الأوّل، والجَمعُ (فُطور)، وهي الشُّقوق والصدوع، وفي التنزيل العزيز: ﴿هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣﴾ [الملك: 3][2]، وفطَر اللّه الخَلْق، أي: خَلَقَهم على غيرِ مثالٍ سابقٍ، وابتدأ صَنْعةَ الأشياء،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: فطر.

(2) الزبيدي، تاج العروس: (فطر).

كأنّه شقَّ ظُلمةَ العَدمِ بإيجادِهما[1]، ويُقالُ: (فَطَرْتُ الشيءَ): شقَقْتُه[2]، وانفطرَ الثَّوْبُ، وتفطَّر، أي: انشقّ، وتَفَطَّرتِ الجبالُ والأرض: انصَدَعَت[3].

2) ﴿ٱنتَثَرَتۡ﴾: (نثر) أصلٌ يَدُلُّ على إلقاءِ شيءٍ مُتَفَرِّق[4]، فالنَّثْرُ هو تفريقُ الشَّيءِ المتماسِكِ أو المنظوم على وجهِ التبعثُرِ والتساقُطِ غيرِ المنتظم، والنَّثْر: رَميُكَ الشيءَ بيَدِكَ متفرِّقًا[5]، فيُقالُ: (نَثَرتُ الدُّرَّ)؛ إذا فرَّقتَه بعد أن كان منظومًا في سِلكٍ[6]، ويُقالُ: (نَثَرَ الريحُ الغُبارَ)؛ إذا ذرَته، وبدَّدَته، وانتشرَ، فمعنى انتثارِ الكَواكِب في الآية: تساقطَت، وتفرَّقَت، وتناثَرَت من مواضِعِها في السماءِ على غيرِ نظامٍ، بعد أن كانت مُنضَبِطَةً بمَسارٍ محدَّدٍ، ومَربوطةً بقوانينَ مُحكَمة.

3) ﴿فُجِّرَتۡ﴾: (فجر) أصلٌ يَدُلُّ على الشَّقِّ الواسع والسَّيَلانِ والانفجارِ بقوّة، يُقالُ: (فَجَّرْتُ الماءَ)، أي: شقَقْتُ الأرضَ حتى سالَ منها الماءُ بوفْرَة، و(التفجيرُ) إطلاقُ الشيءِ المحبوسِ؛ ليتدفَّقَ بغزارة، فقولُه تعالى: ﴿فُجِّرَتۡ﴾ يُفيدُ أنَّ البِحارَ قد شُقَّت أرجاؤُها، وتدفَّقَ ماؤُها.

4) ﴿بُعۡثِرَتۡ﴾: (بعثر) أصلٌ يدلُّ على تفريق الشيءِ المُستَقِرِّ أو تَقليبُه بلا نِظام[7]، يُقالُ: (بعثر الشَّيء)، أي: فرَّقَه، وبدَّده، و(بَعْثَرْتُ المتاعَ)؛ إذا قلَّبتَ بعضَه على بعض، وأخرَجْتَ ما فيه[8]، و(بَعثَرَ الأرضَ): شقَّها، وأثارَ ما تحتها، فالمرادُ ببَعثَرَةِ القُبورِ في الآية: قَلبُها وإثارتُها وإخراجُ ما فيها.

5) ﴿قَدَّمَتۡ﴾: (قدم) أصلٌ يَدُلُّ على السَّبقِ والإرسالِ أمامَ الشَّيءِ، فالقُدُمُ ضِدُّ الأُخر، بمنزلة قُبُل ودُبُر، ورَجُلٌ قُدُمٌ: مُقتَحِمٌ للأشياء يتقدَّمُ الناس، ويمضي في الحرب قُدُمًا؛ ومُقدَّمٌ نقيضُ مُؤَخَّر، ويُقالُ: (قَدَّمَ الشَّيءَ)، أي: أرسلَهُ أمامَهُ، أو فعَلَهُ مُبَكِّرًا[9]،

---

(1) الخليل، العين: (فطر).
(2) ابن سيده، المُحكم: (فطر).
(3) الخليل، العين: (فطر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: نثر.
(5) الخليل، العين: (نثر).
(6) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (نثر).
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بعثر).
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (بعثر).
(9) الخليل، العين: (قدم).

فمعنى ﴿قَدَّمَتۡ﴾: ما أسلفَتهُ النَّفْسُ من أعمالٍ في حياتِها، فأودعَتهُ في سِجِلِّها؛ ليكونَ بينَ يدَيها يومَ الحساب.

6) ﴿وَأَخَّرَتۡ﴾: (أخر) أصلٌ يَدلُّ على التَّراخي والوقوع بعد الشيء في الزمان أو في المرتبة، خلافَ التَّقدُّم، يُقال: (أخّرَ الأمرَ)؛ إذا جَعلَه في مَوضعٍ مُتَأخِّرٍ، أو أجَّلَه، ويُقال: (أخّرَ العملَ)؛ إذا لم يُبادِرْ إليه، وتَرَكَه[1].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَشاهِدُ الانفطار انـهيـارُ الـكـون، وانـكـشـافُ الضَّمير

تَذكُرُ هذه الآياتُ مجيءَ يوم القيامة الذي ينفرط قبله عِقدُ نِظام الكَون، وتَختَلُّ موازينُه، بتغيُّرِ مَعالم الكَوْنِ كُلِّها، فتَنْفَطِرُ السَّماءُ، وتَتَبَدَّدُ نُجومُها كَأنَّها حَبّاتُ عِقدٍ، قُطِعَ سِلْكُه، وتُفَجَّرُ البِحارُ، فتَزولُ حُدودُها، وتَفيض[2]، وتَصيرُ ماءً غامرًا، وتُقَلَّبُ القُبورُ، فيَخْرُجُ مَنْ فيها لِلحِساب، عِنْدَئِذٍ يَجِدُ كُلُّ إنْسانٍ نَفْسَهُ مواجهًا بأعْماله، فيُدْرِكُ ما قَدَّمَ مِنْ عَمَلٍ، وما تَرَكَ بَعْدَهُ مِنْ أثَرٍ، فالآياتُ تُصَوِّرُ بإيجازٍ مُبهِرٍ ما يَحدُثُ لِلكَون من انهيارٍ وانْكِشافِ مَخبأِ الأعْمالِ، وتُثْبِتُ أنَّ المَوْقِفَ لا مَفَرَّ مِنْهُ، فإنَّ النَّفْسَ سَتَعْلَمُ حينَئِذٍ - عِلْمًا لا يُمكِنُ لَها إنْكارُهُ - جَميعَ ما اقْتَرَفَتْهُ، وما أهْمَلَتْه، أو أخَّرَتْه.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بَراعَةُ المَطْلَعِ بأسلوب الشَّرْط:

تـهويلُ المَقام، وتَـشـويـقُ الـسّـامِـعِ لِما سيُذكَر

مِن بَديعِ صَنيعِ التَّعبيرِ القُرآنيِّ أن جاءَ مَطلَعُ هذِهِ السّورَةِ على أُسلوبِ الشَّرطِ المبدوءِ بـ(إذا) في تَوالٍ مُتَعاقِبٍ لِمَشاهِدَ مُروِّعَةٍ ممّا يَقَعُ يَومَ القيامَةِ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾، فكانَ ذلِكَ مُؤْذِنًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخر).
(2) مجاهد، تفسير مجاهد، ص: 710.

بتَهويلِ المَقام، وتَشويق السّامِعِ لِما سَيأتي بَعدَهُ، فإنَّ اجتماعَ أربَعَةِ جُمَلٍ شَرطيَّةٍ مُتَواليَةٍ، كُلُّها تَفتَتِحُ بـ(إذا) يَربِطُ أجزاءَ الكلام رَبْطًا يَظهَرُ فيه شِدَّةُ التَّلازُم بَينَ فِعلِ الشَّرطِ وجوابه، ويَمنَحُ السّياقَ تَوتُّرًا تَصاعُديًّا، ويُهَيِّئُ النَّفسَ لِلتَّأمُّلِ في عَظَمَةِ الحَدَث، فالافتتاح به مُشَوِّقٌ لِما يَرِدُ بَعدَها مِن مُتَعَلِّقِها، الذي هو جوابُ ما في (إذا) مِن معنى الشرط[1]، وهو افتتاحٌ مشابِهٌ لِما تَقدَّم في أوَّلِ سورة التّكوير.

يُؤكِّد ذلك أنّ جَوابَ الشَّرطِ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ جاءَ موجَزًا فاصِلًا؛ لِيُفيدَ أنَّ تِلكَ التَّحوُّلاتِ الكونيَّةَ الراهبةَ كُلَّها؛ لِتَهيئَةِ مَشهَدٍ يَجِدُ فيهِ الإنسانُ نَفسَهُ في مَوضِعِ المُحاسَبَةِ، فأُسلوبُ الشَّرطِ هُنا جاءَ لِلتَّرتيبِ الزَّمَنيِّ والتَّمهيدِ النَّفسيِّ، فإنَّ (إذا) تُفيدُ وُقوعَ الشَّرْطِ، أَوْ تُؤْذِنُ بِوُقوعِه، وتُرَتِّبُ الجَوابَ عَلَيْهِ[2]، فكانَ مِن بابِ تَشويقِ المُنتَظِرِ، وتَهويلِ المَصيرِ، مِمّا يَتَفَقَّهُ فيهِ التّالي، ويَرتَعِدُ لَهُ السّامِعُ.

نُكتَةُ اختيارِ (إذا) للشَّرْط:

تأكيدُ وُقوعِ الأحداثِ العَظيمَةِ، وتقريرُ الإيمانِ بيَومِ القيامَة

جاءَ الشَّرطُ بالأداةِ (إذا) في قول اللّه تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾؛ لأنّها تُستعمَلُ لِلدَّلالَةِ على وُقوعِ شَيءٍ في المُستَقبَلِ، ويَكونُ ذلِكَ الشَّيءُ في العادَةِ عَظيمًا أو هائِلًا، كَما قَرَّرَهُ المُفَسِّرونَ؛ فإذا جاءَ الخِطابُ بـ(إذا) في أوَّلِ السّورَةِ، كانَ فيهِ تَشويقٌ لِلسّامعِ، وتَفتيحٌ لِقَلبِهِ لاستِقبالِ ما سَيَرِدُ بَعدَهُ، ولم تُستَعمَلْ (إن) الشَّرْطيَّة؛ لأَنَّها تُفيدُ الشَّكَّ في وُقوعِ الشَّرْطِ، وترتُّبِ الجواب عَلَيه؛ بخِلافِ (إذا) فإنَّها تُفيدُ وُقوعَ الشَّرْطِ، أَوْ تُؤْذِنُ بِوُقوعِهِ، وتُرَتِّبُ الجَوابَ عَلَيْهِ[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 170.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/ 1331.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/ 1331.

وَتَكَرُّرُ (إذا) في أربَعِ جُمَلٍ على نَسَقٍ واحِدٍ يُفيدُ التَّراكُمَ في الهَوائِلِ، ويُصَوِّرُ الكَونَ، وقَد انقَلَبَ على وجهِه، فانفَطَرَتِ السَّماءُ، وانتَثَرَتِ الكَواكِبُ، وفُجِّرَتِ البِحارُ، وبُعثِرَتِ القُبورُ، فكَأَنَّ الوُجودَ قَد انهَدَمَ.

نُكْتَةُ دُخولِ (إذا) على الأسْماء:

تَحقيقُ المَشاهِدِ المُصَوَّرَة؛ لِتَأْثيرِ المَعاني المُرَتَّبَة

دَخلَت (إذا) في الآياتِ الأربَعِ الأولى من السّورة على أسماء: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾، والأصلُ أنْ تَدخُلَ على الفِعْلِ، مَعَ جَوازِ دُخولِها على الاسمِ بلا تَقديرٍ عِنْدَ الكوفيّين؛ وإنّما سَوَّغَ هَذا التَّرْكيبَ أنَّ المُرادَ لَيسَ مُجَرَّدَ الشَّرْطِ الفِعْليِّ، بَلِ الإشارَةُ إلَى كَوْنِ (السَّماءِ) في تِلْكَ الحالَةِ مَظِنَّةَ انْفِطارٍ عَظيم، فكَأنَّهُ قيلَ: في زَمَنِ انْفِطارِ السَّماءِ، يَكونُ كَذا وكَذا... وهذا ممّا يُفيدُ التَّشْويقَ والتَّرْهيبَ، ويُثيرُ في النَّفْسِ وقْعَ المَشْهَدِ المُرْتَقَب، حَتَّى إذا انْتَهَى السّامِعُ إلَى قَوْلِه: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ كانَ ذلِكَ كالصَّدْمَةِ التَّيْقيظيَّةِ لما تَقَدَّمَ مِنْ وصْفِ تَقَلُّباتِ العالَمِ ومَظاهِرِ القيامَة.

وَهَذا شَأنُ الجُمَلِ الَّتي أُضيفَ إلَيها (إذا)، وكانَت جُمَلًا مُفْتَتَحَةً بمُسْنَدٍ إلَيْه مُخْبَرٍ عَنْهُ بمُسْنَدٍ فِعْليٍّ، دونَ أنْ يُؤْتَى بالجُملَةِ الفِعْليَّة، ودونَ تَقْديرِ أفْعالٍ مَحْذوفَةٍ قَبْلَ الأسْماءِ: أنْ تكونَ لِقَصْدِ الاهْتِمامِ بالمُسْنَدِ إلَيْه، وتَقْوِيَةِ الخَبَرِ[1].

دَلالَةُ تَقديمِ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾:

إفادَةُ الاهتِمامِ بتِلْكَ الأخْبارِ المَجْعولَةِ عَلاماتٍ ليَومِ القيامَة

تَقْديمُ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ على فِعْلِها ﴿ٱنفَطَرَتۡ﴾، وكُلِّ مُسنَدٍ إلَيه على مُسْنَدِها في جُمَلِ الشَّرْطِ، مِنْ قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾، جاءَ لِما في ذلك مِنْ تَوْجيهِ العِنايَةِ إلَى المُسْنَدِ إلَيْهِ؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 170.

تَعْظيمًا لِلشَّأْنِ، وتَهْويلًا لِلحَدَثِ الَّذي سَيَجْري عَلَيْها، فإنَّ انفِطارَ السَّماءِ أمرٌ جَلَلٌ، ومَظْهَرٌ مِنْ مَظاهِرِ انْقِلابِ نِظامِ الكَوْنِ، وقَدْ جَرَتِ العادَةُ في أُسْلوبِ العَرَبِ على تَقْديمِ المُسْنَدِ إلَيْهِ؛ إذا أُريدَ التِفاتُ النَّظَرِ إلَيْهِ، خُصوصًا في مَقامِ التَّرْهيبِ أوِ التَّفْجيعِ، وفي ذلك ما يُفيدُ أيْضًا مِنَ الإيماءِ إلَى أنَّ السَّماءَ، وإنْ كانَت في نُفوسِ النّاسِ رَمزًا لِلرِّفْعَةِ والثَّباتِ، فإنَّها لا تَثْبُتُ أمامَ أمرِ اللهِ يَوْمَ تَتَقَلَّبُ المَوازينُ، ويَنْقَلِبُ نِظامُ العالَمِ، وكَذَلِكَ القَولُ في الجُمَلِ الثَّلاثَةِ المَعْطوفَةِ على هَذِه.

دَلالَةُ التّعريف:

تَعظيمُ المَشْهَدِ وتَهْويلُه

في تَعريفِ لَفظِ السَّماءِ بـ(الـ) في قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ دَلالَةٌ على العَهدِ الذِهنيِّ؛ فالسَّماءُ المَعروفَةُ في أذْهانِ النّاسِ - الَّتي تُظِلُّهُم، ويَرفَعونَ إليها أبصارَهُم - لا تَحتاجُ إلَى تَعريفٍ آخَرَ؛ لأنَّها مَعلومَةٌ ببَداهَةِ الإدراكِ، ويُمكِنُ أنْ تكونَ مِنَ العَهْدِ الحُضوريِّ؛ لأنَّ السَّماءَ الدُّنيا حاضِرَةٌ مُشاهَدَةٌ مَحسوسَةٌ[1].

وَتَعريفُ لَفْظِ السَّماءِ في هذا المَوضِعِ يُفيدُ التَّعظيمَ والتَّهويلَ؛ إذِ انفطارُها لَيسَ بأمرٍ هَيِّنٍ، بَل هوَ نَقضٌ لِبِناءِ الكَونِ، وانهيارٌ لِما يَظُنُّهُ النّاسُ ثابِتًا لا يَتَغَيَّرُ، فالتَّعريفُ زادَ في رَهبَةِ المَنظَرِ، وأكَّدَ حَقيقَةَ الحدَثِ؛ لأنَّهُ لَم يَقُلْ: (سَماءٌ)، بَل قالَ: ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾، فأشارَ إلَى المُشاهَدِ المَعلومِ، السَّقْفِ العَظيمِ، وجَعَلَ انفِطارَهُ هوَ البِدايَةَ لِما سَيَتلوهُ مِن تَغَيُّراتٍ كَونيَّةٍ، وهذا التَّعريفُ يُفيدُ أيضًا الإشارَةَ إلَى استِحضارِ صورَةِ السَّماءِ، كَما هيَ في أيّامِ الدُّنيا؛ لِيَكونَ انفِطارُها في الخَيالِ أشَدَّ وقْعًا، فيَزدادَ الخَوفُ والتَّرَقُّبُ في نَفسِ السّامِعِ.

(1) ابن هشام، المغني: 1/ 49 - 50، والرضي، شرح الرّضي على الكافية: 2/ 147.

دَلالَةُ الإفْراد:

التَّوَسُّلُ بالإدراكِ البصريِّ إلَى التَّهْويلِ الوِجْدانيِّ

في إفرادِ السَّماءِ دونَ جَمعِها: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ غَرَضٌ بَلاغيٌّ يَتَّصِلُ بطَبيعَةِ التَّنزيلِ وسياقِ التَّهويلِ، فإنَّ السَّماءَ في العُرْفِ العَرَبيِّ لا يُرادُ بها عِدَّةُ سَماواتٍ مَحسوسَةٍ، بَل يُرادُ بها الجِهَةُ العُليا الَّتي تَظهَرُ فوقَ البَصَرِ، وهيَ الَّتي تَظهَرُ فيها السُّحُبُ والنُّجومُ والشَّمسُ والقَمَرُ، فهيَ في المَعهودِ واحِدَةٌ في النَّظَرِ، ومُفرَدَةٌ في الإدراك.

وَإنَّ القُرآنَ لَمّا أرادَ التَّخويفَ وتَصويرَ انقِلابِ الكَونِ، جاءَ بذِكرِ السَّماءِ بالمُفرَدِ؛ ليُشيرَ إلَى الجِهَةِ المَألوفَةِ للنّاسِ، الَّتي يُرفَعُ إلَيها النَّظَرُ، ويَستَقِرُّ فيها التَّخَيُّلُ، فلَو قيلَ: (السَّماواتُ)؛ لَذَهَبَ الذِّهنُ إلَى المُتَعَدِّدِ الغامِضِ الَّذي لا يُحيطُ بِه الوَصفُ، ولَكِنَّ المَقصودَ هُنا تَصويرُ انفِطارِ السَّماءِ المَرئيَّةِ؛ لأنَّهُ أبلَغُ في التَّهويلِ، وأقرَبُ إلَى الوُقوعِ في النَّفسِ.

بَلاغَةُ استِعمالِ مادَّةِ الانفِطار:

دقّةُ التعبيرِ عنِ أوَّلِ انهيارِ النِّظامِ الكَونيِّ قَبلَ يَومِ القيامَة

إنَّ اختيارَ فِعلِ الانفِطارِ في قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ اختيارٌ دَقيقُ الدِّلالَةِ، عَظيمُ البَلاغَة، فالانفِطارُ يَدُلُّ على بدايَةِ الانشِقاقِ بالتَّمَزُّقِ والانفِراجِ، والسَّماءُ في المَعهودِ هيَ القِبلَةُ العُليا للنَّظَرِ، ثابِتَةٌ، ساكِنَةٌ، ولَم يَألَفِ النّاسُ فيها تَغَيُّرًا؛ فإذا أُسنِدَ إلَيها فِعلٌ يَدلُّ على الانقِلابِ كالانفِطار، وهوَ مِمّا يوصَفُ بِه الجِسمُ الضَّعيفُ إذا تَشَقَّقَ؛ كانَ ذلِكَ تَصويرًا لانهِدامِ النِّظامِ الكَونيِّ المَألوفِ في أقوَى مَعالِمِه.

دَلالَةُ صيغَةِ المُطاوَعَة:

تَرويعُ النّاظِرِ إلى انفِطارِ السَّماء

جاءَ الفِعلُ (انفَطَرَ) في قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ على صيغَةِ (انْفَعَلَ)، وهيَ صيغَةٌ تَدُلُّ على الوُقوعِ والانفِعالِ الذّاتيِّ، فمَعْنَى الفِعلِ ﴿ٱنفَطَرَتۡ﴾ أنّ السَّماءَ انْشَقّت، وتَصَدَّعت ذاتيًّا، من

غَير نِسبَةِ الفِعلِ إلى فاعِلٍ مُباشِرٍ في الظاهِر، وفي هَذِه الصّيغَةِ تَمحيضٌ لِنَظَرِ المُخاطَبِ إلَى الفِعلِ نَفْسِه؛ إيذانًا بعِظَمِ الهَولِ، وتهويلًا لِمَشهدِ الانفطارِ.

وَفي استِعْمالِ صيغَةِ المُطاوَعَةِ بَلاغَةٌ تَتَجَلَّى أيْضًا في تَصوير ما لا يُعهَدُ فيه الحَدَثُ - كالسَّماءِ - بما يُشبِهُ الكائنَ الحَيَّ، فيَزدادُ المَنظَرُ هَوْلًا، ويَتَعاظَمُ في النَّفْسِ شُعورُ الخَطْبِ، فالتَّشخيصُ البَيانيُّ يُصَوِّرُ الجَمادَ بصِفَةِ الفِعلِ والانفِعالِ؛ لِتَتَجَسَّدَ المَعاني، وتَحضُرَ في ذِهنِ السّامِعِ كَأنَّها مَرئيَّةٌ، وهَذا لَهُ وقعٌ بَيانيٌّ شَديدُ التَّأثيرِ، يُهَيِّئُ النَّفسَ لِتَلَقّي التَّغَيُّراتِ الكُبرَى يَومَ الدّينِ.

وَفي استِعمالِ المُطاوَعَةِ تَصويرٌ بَيانيٌّ لانفِعالِ السَّماءِ، كَأنَّها تَتَفَطَّرُ، وتَتَشَقَّقُ عَن قَهرٍ، فهيَ حالَةٌ تُخالِفُ ما طَبَعَ اللّه عَلَيها السَّماءَ في نِظامِ الدُّنيا مِنَ التَّماسُكِ والإمساكِ، وذلِكَ أبلَغُ في تَهويلِ المَشْهَدِ، وتَحويلِ النَّظَرِ مِنَ مَشهَدِ الجَمالِ الحاضِرِ إلَى مَشْهَدِ الرُّعبِ والتَّخْويفِ القادِمِ.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بصيغَةِ الماضي:

انفِطارُ السماءِ حقيقةٌ واقِعَةٌ لا تَقبَلُ الشَّكّ

إنَّ التَّعبيرَ عَنِ الأحداثِ المُستَقبَليَّةِ بصيغَةِ الماضي - كانفِطارِ السَّماءِ في قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ - هوَ مِن أساليبِ العَرَبِ البَيانيَّةِ الَّتي يُرادُ بها تَصويرُ الحادِثَةِ الآتيَةِ في صورَةِ الواقِعِ المُنجَزِ، تَحقيقًا لِوُقوعِها[1]، وتَأكيدًا لِثُبوتِها، وزيادَةً في تَهويلِها؛ لذلك جاء التعبير به تعالى هنا - وإن كانَ مُتَعَلِّقًا بـ (إذا)، وهيَ أداةُ شَرطٍ في المُستقبَلِ - لِيَتَلَقَّى السّامِعُ خَبَرًا واقِعًا لا يَحتَمِلُ التَّرَدُّدَ، وإن كانَ وُقوعُهُ في المُستَقبَلِ، فهوَ مِمّا لا مَحيصَ عَنهُ؛ لأنّه أمرٌ قَدَّرَه اللّه أزَلًا.

(1) الرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/ 250.

واستِعمالُ صيغَةِ الماضي في الآية مِن بابِ تَجسيدِ المَعنَى وتَصويرِهِ في مَقامِ التَّخويفِ والإنذارِ، كَأنَّ النّاسَ يَنظُرونَ إلَى السَّماءِ، وقَد انفَطَرَت، فتَتَخَيَّلُ الأذهانُ المَوقِفَ، وتَشهَدُهُ.

مُناسَبَةُ الانفِطارِ لِمَقامِ التَّرْويع

تَوجيهُ المُتشابِهِ اللَّفْظيّ:

إنَّ التَّفاوُتَ في التَّعبيرِ بَينَ قَولِ اللّه تَعالَى في سورَةِ الانفطار: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾، وبَينَ قَولِهِ في سورَةِ الانشقاق: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١﴾ [الانشقاق: 1] مَبنيٌّ على التَّنويعِ في الأُسلوبِ بما يُناسِبُ سياقَ كُلِّ سورَةٍ، ويُحَقِّقُ مَقصِدَها التَّربَويَّ والتَّخويفيّ، ففِعلُ الانفطارِ يَدُلُّ على شَقٍّ مَعَ تَمزُّقٍ وتَفطُّرٍ، كَما يُستَخدَمُ في شَقِّ القشرةِ أوِ الغلافِ، وفيهِ دَلالَةٌ على خَلَلٍ يَبدَأُ في البِنيَةِ مِمّا يُنذِرُ بانهيارٍ شامِلٍ، أمّا فِعلُ الانشِقاقِ؛ فهوَ أقرَبُ إلَى مَعنَى الانفِصالِ والانقِسامِ، بلا ضَرورَةِ التَّمَزُّقِ؛ فهوَ أخَفُّ في الوَقعِ، وأقَلُّ في التَّهييج.

فلعلَّ مجيءَ الفِعلِ ﴿ٱنشَقَّتۡ ١﴾ [الانشقاق: 1] في بدايَةِ سورَةِ الانشقاقِ، التي تَتَضَمَّنُ تَفاصيلَ حِسابِ العِبادِ وعَرْضِ أعمالِهِم يَتَناسَبُ مَعَ سياقٍ أقَلَّ في التَّوبيخِ والتَّبكيت؛ بَينَما جاءَ الفِعلُ ﴿ٱنفَطَرَتۡ﴾ في أوَّلِ سورةِ الانفِطارِ، التي في مَطلَعِها أهوالٌ مُتَتابِعَةٌ، تَتَضَمَّنُ انفِطارَ السَّماءِ، وانتِثارَ الكَواكِبِ، وتَفجيرَ البِحارِ، وبَعْثَرَةَ القُبورِ، وهوَ تَرتيبٌ يُراعي شِدَّةَ المَنظَرِ وتَراكُمَ الفَزَعِ، فكانَ استِعمالُ الانفِطارِ أوفَقَ بمُقتَضَى التَّصويرِ؛ لِأنَّ الفَطْرَ إظهارُ الحادِثِ بإخراجِهِ مِنَ العَدَمِ إلى الوُجود، فقَولُ اللّه تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ دَلَّ على إظهارِ ما لَم يَرَهُ النّاسُ من قَبلُ مِنَ التَّبَدُّلِ في السَّماءِ، كَما قالَ تعالَى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ٤٨﴾ [إبراهيم: 48].

التَّدَرُّجُ في عَرْضِ الأهْوال، وتَكْثيفُ مَراحِلِ انقِلابِ الكَوْن

نُكْتَةُ العَطْف:

في عَطفِ قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ على قَولِهِ

تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ نُكتَةٌ بَيانيَّةٌ دَقيقَة، هيَ إفادَةُ تَراكُم الأهوالِ، مَعَ تَرَتُّبِ المَشاهِدِ في تَصاعُدٍ يُراعي الانفعالَ النَّفسيَّ في سياقِ التَّهويلِ والإنذارِ، فالسَّماءُ هيَ الغلافُ العَظيمُ الَّذي تَستَقِرُّ فيهِ الكَواكِبُ، وإذا انفطَرَ الغِلافُ؛ كانَ انتِثارُ ما فيهِ مُتَوَقَّعًا، فجاءَ ذِكرُ انتثارِ الكَواكِبِ بَعدَ انفطارِ السَّماءِ على وجهِ التَّرَتُّبِ الطَّبيعيّ، كَأَنَّ الحَدَثَ الثّانيَ تَفصيلٌ لِما يَتَضَمَّنُهُ الأوَّلُ.

نُكتَةُ تَكرارِ (إذا):

استِقلالُ كُلِّ مَشهَدٍ بذاتِه، لِهَوْلِهِ وخُطورَتِه

إنَّ في تَكرارِ أداةِ الشَّرطِ (إذا) في كُلِّ جُملَةٍ مِن قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾ نُكتَةً بَيانيَّةً رَفيعَةً، هيَ إفادَةُ تَفصيلِ المَهاوِلِ، وتَهويلِ المَناظِرِ، وتَصعيدِ الوَقعِ في نُفوسِ السّامِعينَ؛ فلَو اقتُصِرَ على ذِكرِها في المَوضِعِ الأوَّلِ، وعُطِفَتِ الجُمَلُ بَعدَها بواوِ العَطفِ فقَط؛ لَذَهَبَ كَثيرٌ مِنَ الرَّهْبَةِ، ولاندَمَجَتِ المَعاني في بَعضِها، ولَما ظَهَرَت كُلُّ حادِثَةٍ في استِقلالِها وخُطورَتِها، فتَكرارُ (إذا) في كُلِّ جُملَةٍ يُفيدُ التَّجديدَ في المَعنَى، ويُثيرُ التَّرَقُّبَ لِما بَعدَهُ، فتَكونُ كُلُّ واحِدَةٍ مِن هَذِهِ الأحداثِ كَأنَّها طامَّةٌ وحدَها، مُستَقِلَّةٌ عَنِ الأُخرَى في الفَزَعِ والخَطَرِ.

وفي تَكرارِ (إذا) تَصديرٌ لِكُلِّ آيَةٍ بألِفِ المَدّ، مِمَّا يُناسِبُ فاصِلَةَ كُلٍّ بالرّاءِ المَفتوحَةِ ثُمَّ التّاءِ السّاكِنَةِ الشَّديدَةِ، فيَقَعُ كلُّ حَدَثٍ في نُفوسِ السّامِعينَ بصَدمَتِهِ المُستَقِلَّة، فتَتَراكَمُ الصُّوَرُ في الذِّهنِ، وتَتَزاحَمُ، حَتَّى يَبلُغَ الوَعيدُ غايَتَهُ.

دَلالَةُ تَعْريفِ ﴿ٱلۡكَوَاكِبُ﴾:

استحضارُ المَرْئيِّ المألوفِ لِتَعظيمِ اختِلالِ نِظامِه

جاءَ لَفظُ ﴿ٱلۡكَوَاكِبُ﴾ مُعَرَّفًا في قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾؛ لِيُفيدَ العَهدَ الذِّهنيَّ، أيِ: الكَواكِبُ الَّتي يَعرِفُها النّاسُ،

ويَرَونَها في السَّماءِ لَيلًا، ويَتَّخِذونَها دَلائِلَ ومَواقيتَ ومَظاهِرَ جَمالٍ ونِظام، فـ(الـ) في الكَواكِبِ لِتَعريفِ العَهْد، وتُشيرُ إلَى أنَّ المُرادَ هوَ ما كانَ مُتَعارَفًا في الأذهانِ، لا كَواكِبَ غامِضَةٌ أو بعيدةٌ غيرُ مَرئيَّةٍ، وهذا التَّعريفُ يُفيدُ تَفخيمَ المَذكورِ؛ لأنَّ الكَواكِبَ مِمّا يَتَمادَى فيهِ النَّظَرُ، ويَتَعَلَّقُ بهِ الوِجدانُ؛ فهيَ زينَةُ السَّماءِ، ومَوضِعُ التَّفَكُّرِ في عَظَمَةِ الخالِقِ.

وَرُبَّما أفادَ تَعريفُ الكَواكِبِ العُمومَ في الجِنسِ، باعتِبارِ أنَّ جَميعَ المَخلوقاتِ مِن جِنسِ الكَواكِبِ قَدِ انتَثَرَت يَومَئِذٍ، المَرئيَّةَ المَشهورةَ منها، وكَثيرَةً غيرَها مِنَ الكَواكِبِ البَعيدَةِ الَّتي لا تُدرِكُها العَينُ المُجَرَّدَة، ولا آلاتُ النَّظَرِ في السَّماءِ؛ تَنبيهًا على أنَّ جَميعَ ما كانَ يَسيرُ في الفَلَكِ، ويُهتَدَى به في اللَّيلِ قَد انقَلَبَ نِظامُهُ، فانتَثَرَ بَعضُهُ عَن بَعضٍ كَأنَّهُ حَبُّ عِقدٍ انقَطَعَ، فيَكونُ تَعريفُ الجِنسِ هُنا تَعريفًا لَفظيًّا، وهوَ في مَعنَى النَّكِرَة، وفائدَةُ اختيارِ التَّعريفِ - مِمّا لا يُفيدُهُ التَّنكيرُ - استِحضارُ الجِنسِ المَعروفِ لَدَى النّاس، وإبرازُ هَيئَتِهِ المَعلومَةِ في الذِّهن؛ تَمهيدًا لِلتَّهويلِ بِذِكرِ انتِثارِها[1].

بَلاغةُ جَمعِ ﴿ٱلۡكَوَاكِبُ﴾:

التَّـهْـويـلُ والتَّـعْـمـيـمُ والتَّـنـاسُـقُ البَيانيّ

آثَرَ القُرآنُ الكَريمُ التَّعبيرَ بِجَمعِ ﴿ٱلۡكَوَاكِبُ﴾ في قَولِ اللّه: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ - دونَ إفرادِها على الجِنس، كَأن يُقالَ: (وَإذا الكَوكَبُ انتَثَرَ) - لِنُكتَةٍ بَيانيَّةٍ فذَّة، هيَ إفادَةُ التَّعميم؛ لأنَّهُ لا يُرادُ بِهِ واحِدٌ مِن جِنسِها، بَل كُلُّ ما يَدخُلُ تَحتَ اسمِ الكَواكِبِ، كالكُوَيكِباتِ والأجرامِ التي هيَ على شاكِلَةِ الكَواكِبِ، كالأقمارِ وغيرِها، ففي ذلِكَ تَصويرٌ لانقِلابِ النِّظامِ السَّماويِّ في أشمَلِ صوَرِهِ، وأشَدِّها وقعًا على النُّفوسِ؛ إذ تَفقِدُ السَّماءُ حينَئِذٍ زينَتَها، ويَضطَرِبُ النِّظامُ الَّذي كانَت تَسيرُ عَلَيهِ الأجرامُ، ولَو أُفرِدَ المَذكورُ؛ لانصَرَفَ الذِّهنُ

(1) السّامرّائيّ، معاني النحو: 1/ 117

إلَى نَوْعٍ خاصٍّ، أو مَثَلٍ مَفروضٍ، أمّا الجَمعُ؛ فقَدْ جاءَ في مَقامِ التَّهويلِ والعُمومِ، يوافِقُ نَظيرَهُ في السَّماءِ والبِحارِ والقُبورِ؛ ليَكونَ السّياقُ كُلُّه في صورَةٍ كَونيَّةٍ شامِلَةٍ.

وَجمعُ ﴿ٱلْكَوَاكِبُ﴾ يُفيدُ التَّكاثُرَ والتَّفرُّقَ؛ ليُصَوِّرَ اللَّفْظُ مَشهَدًا كَونيًّا تَتَناثَرُ فيهِ كَواكِبُ السَّماءِ كلُّها، كَأنَّها عِقدٌ انفَصَمَ، فتَبَدَّدَت حَبّاتُهُ في الفَضاءِ، فالجَمعُ يَتَناسَبُ مَعَ فعلِ الانتِثار، الَّذي لا يُطلَقُ إلّا على مُتَعَدِّدٍ؛ فكانَ المُرَكَّبُ الكَلاميُّ في غايَةِ التَّناسُقِ، بَينَ المُسنَدِ والمُسنَدِ إلَيه، وهوَ مِمّا يَدُلُّ على البَلاغَةِ المُعجِزَةِ لِلقُرآنِ الكَريم.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالكَواكِب:

انتِثارُ الكَواكِبِ نَتيجَةٌ لانكِدارِ النُّجوم

آثَرَ القرآنُ التَّعبيرَ بلَفظِ ﴿ٱلْكَوَاكِبُ﴾ في قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾؛ لِما يَحمِلُه هَذا التَّعبيرُ المُعجِزُ مِن لَفْتَةٍ بَيانيَّةٍ عِلميَّةٍ بالِغَة، فالكَواكِبُ تَدورُ في أفْلاكِ النُّجومِ أوِ الشُّموسِ، الَّتي هيَ مَرْكَزُ الجاذِبيَّةِ بالنِّسبَةِ لِلْكَواكِبِ، فإذا ماتَتِ النُّجومُ بانْكِدارِها، فقَدَت قُدْرَتَها على الجَذْبِ ومَسْكِ كَواكِبِها، فتَناثَرَت الكَواكِبُ، كَما يَنْفَرِطُ العِقدُ، ويَتَبَعْثَرُ الخَرَزُ.

وَجاءَ اختِيارُ الكَواكِبِ دونَ النُّجومِ في هذا المَقامِ؛ لِأنَّ الكَواكِبَ هيَ الَّتي يَتَخَيَّلُها النّاسُ في نِظامٍ، كَأنَّها مَثاقيبُ في السَّماءِ، تَسيرُ على هُدًى واتِّساقٍ؛ فإذا انتَثَرَت؛ كانَ في ذلِكَ تَصْويرٌ لانفِصامِ عِقْدِ الكَوْنِ، وزَوالِ الميزانِ، وانهيارِ التَّنسيقِ العَجيبِ، فالفِعلُ ﴿ٱنتَثَرَتْ﴾ يُناسِبُ مَعنَى التَّبَعثُرِ والتَّناثُرِ، كَما تَتَناثَرُ الدُّرَرُ مِن سِلْكِها، وهذا إلَى ما يُتَصَوَّرُ في الكَواكِبِ أقرَبُ مِنْهُ في النُّجومِ؛ إذْ لَم يَجْرِ العُرفُ في تَصْويرِ النُّجومِ بمِثْلِ ذلِكَ التَّمَثيلِ، زِيادَةً إلَى انْسِجامِه مَعَ الحَقيقَةِ العِلميّةِ[1]، فكانَ التَّعبيرُ بالكَواكِبِ أبْلَغَ في التَّهويلِ، وأكْثَرَ انسِجامًا

(1) المُصلح، الإعجاز العلمي، مبحث: في التفرقة بين النجم والكوكب: 171 - 177.

مَعَ الصّورَةِ البَيانيَّةِ لِلانتِثارِ، فاتَّسَقَ المُسمَّى مَعَ المُسنَدِ، واجتَمَعَ في التَّركيبِ قوَّةُ الدِّلالَةِ وبَلاغَةُ التَّصْويرِ.

دَلالَةُ مادَّةِ الانتِثار:

الانـحِـلالُ بعدَ الانتِظام

آثر القرآنُ الكريمُ استِعمالَ فِعلِ الانتِثارِ في قَولِ اللّٰه تَعالَى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ - دونَ غَيرِها - لِما يَتَفرَّد به هذا اللَّفظُ من بلاغةٍ قُرآنيَّة، فهو تَصويرٌ مُحكَمٌ لِمَشهَدٍ كَونيٍّ هائِلٍ، إحالةِ نِظام السَّماءِ إلَى خَرابٍ واضطِرابٍ، فالفِعلُ ﴿ٱنتَثَرَتْ﴾ بمعنى: تَساقَطَت مُتَفَرِّقَة[1]، فالانتثار هوَ تَبَدُّدُ الأشياءِ، وتَفرُّقُ بَعضِها عَن بَعضٍ بغَيرِ نِظامٍ، كَما تُقالُ العِبارَةُ في انتِثارِ الدُّرِّ عِندَ انقِطاعِ سِلكِه، فاستُعمِلَت هذِه المادَّةُ في الكَواكِبِ؛ لِتُصَوِّرَ انحِلالَ التَّنظيمِ السَّماويِّ المُحكَم بالجاذِبيَّةِ، وذَهابَ البَهاءِ والجَمالِ، وفيهِ رَمزٌ إلَى افتِقادِ الهُدَى والقَصدِ، وجاء هذا الوصفُ القرآنيُّ؛ لِيَزيدَ المَشهَدَ تَصويرًا وجِدَّةً، فيتخيَّلَ السّامِعُ الكَواكِبَ، وهيَ تَتَطايَرُ في الفَضاءِ، كَأنَّها جَواهِرُ أُطلِقَت من عِقدِها، وذلِك أبلَغُ في تَهويلِ المُنقَلَبِ.

وممّا يُذكَرُ في سِرِّ اختيارِ التَّعبيرِ بالفِعلِ ﴿ٱنتَثَرَتْ﴾ دون (تَفَرَّقَت) أو (تَبَعثَرَت) أو (زالَت) - وإن كانَ كُلُّ ذلِكَ صادِقًا في المَعنَى - لأنَّ الانتِثارَ لا يَدُلُّ فقَط على وُقوعِ الكَواكِبِ مُتَفَرِّقَة[2]، بَلْ كَذلِكَ على أنّها قبل انتِثارِها كانَت مُرتَبِطَةً بِنظامٍ دَقيقٍ عَظيمِ الشَّأنِ، مُنضَبِطَةً بمَسارٍ مُحَدَّدٍ، مَربوطَةً بقوانينَ مُحكَمَةٍ، وقد اختيرَ هذا اللفظُ القرآنيُّ البليغُ؛ ليدلَّ على أنَّ ما كان يُرى في النظامِ الكونيِّ من تماسُكٍ ودقّةٍ وجَمالٍ في حركةِ الكواكبِ، سَيَؤولُ إلى فوضَى وانحلالٍ وتبعثُرٍ تامّ؛ إيذانًا بانهيارِ السَّقفِ المحفوظِ، وتبدُّلِ وجهِ السماءِ.

---

(1) أبو البقاء، الكُلّيّات، ص: 202.

(2) الحميري اليمني، شمس العلوم: 10/ 6486.

بَراعَةُ الاستِعارَةِ في ذِكْرِ الانْتِثار:

اختِلالُ الجاذِبيَّة في الفَضاء، وتَفَرُّقُ الكَواكِبِ في السَّماء

إسْنادُ فِعْلِ الانتِثارِ إلى الكَواكِبِ مِن قَولِ اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ "مُستَعارٌ لِتَفرُّقِ هَيئاتِ اجتِماعِها المَعروفَةِ في مَواقِعِها، أَوْ مُستَعارٌ لِخُروجِها مِن دَوائِرِ أَفْلاكِها وسُموتِها، فتَبدو مُضطَرِبَةً في الفضاء، بَعدَ أنْ كانَت تلوحُ كَأنَّها قارَّة، فانتِثارُها تَبَدُّدُها وتفرُّقُ مُجتَمَعِها، وذلك مِن آثارِ اختِلالِ قوَّةِ الجاذِبيَّةِ الَّتي أُقيمَ عليها نِظامُ العالَمِ الشَّمسيّ"[1].

بَلاغَةُ صيغَةِ المُطاوَعَة:

تَجْسيدُ مَشهَدِ تَناثُرِ الكَواكِبِ

جاء فِعلُ النَّثْرِ المُسنَدُ إلى الكَواكِبِ في قَولِ اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ بصيغَةِ المُطاوَعَة؛ للدَّلالَةِ على الانْفِعالِ الذّاتيّ، فهوَ مِنَ الأساليبِ القُرآنيَّةِ البَليغَة؛ لِأَنَّهُ يُنَزِّلُ الكَواكِبَ مَنزِلَةَ مَن يُنشِئُ الفِعلَ، فكَأنَّها هيَ الَّتي انتَثَرَت بنَفْسِها، مَعَ أنَّها مُنتَثِرَةٌ بقُدرَةِ اللّه تَعالَى، وفي التَّعبيرِ إبرازٌ لِـهَولِ المَشهَدِ، فتَتَخَيَّلُ الكَواكِبُ كَأنَّها أجرامٌ تَتَفَصَّد، وتَتَبَعثَر، وتَتَناثَرُ بفِعلِها، وهوَ تَصويرٌ يُضاعِفُ مِن إثارَةِ الرَّهبَةِ والدَّهشَة، فلَم يقلِ السّياقُ: (وَإذا الكَواكِبُ نُثِرَت) على صيغَةِ المَبنيِّ لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُه، بَلْ جاءَ الإسنادُ إليها ذاتًا بصيغَةِ المُطاوَعَة؛ ليَتَّسِقَ ذلكَ مَعَ سياقِ الكَوائنِ المُنهارَةِ والقوَى الكَبيرَةِ الَّتي تَتَفَكَّكُ أمامَ القُدرَةِ الإلَهيَّة.

وَهذا الضَّربُ مِنَ التَّعبيرِ سَبَقَ في صَدْرِ السّورَة: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، وجاءَ في غَيرِها مِنَ الآياتِ الَّتي تَصِفُ التَّقَلُّباتِ الكَونيَّةَ المَهولَة، الَّتي تَصحَبُ مَجيءَ يَومِ القيامة، كَقَولِ اللّه تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ [الانشقاق: 1]، ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ [التكوير: 2]، فهيَ تُصَوِّرُ الأجرامَ كَأنَّها ذَواتٌ تَتَحَرَّك، وتَتَصَرَّف، فتُصبِحُ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 171.

أطرافُ الكَونِ كُلُّها في انفِعالٍ وتَغَيُّرٍ؛ ليَتَهَيَّأَ الذِّهنُ لاستِقبالِ مَشهَدِ يَومِ الدِّينِ بكُلِّ ما فيهِ مِن جَلالٍ وهَولٍ.

دَلالَةُ صيغَةِ الماضي:

تَصْويرُ المُستَقْبَلِ في صـورَةِ الماضي دَليلٌ على تَحَقُّقِ وُقوعِه

جاءَ التَّعبيرُ القُرآنيُّ عَنِ انتِثارِ الكَواكِبِ بصيغَةِ الماضي في قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾؛ جَرْيًا على المعهودِ مِنَ البَلاغَةِ القُرآنيَّةِ، وهوَ الإخبارُ عَنِ المُستَقبَلِ بما يَدُلُّ على أنَّهُ كائِنٌ لا مَحالَةَ، حَتَّى كَأنَّهُ وقَعَ، وفُرِغَ منهُ[1]، فهوَ ماضٍ في لَفظِه، مُستَقبَلٌ في مَعناهُ، وهذا ما يُسَمّيهِ البَيانيّونَ: تَصويرُ المُستَقبَلِ في صورَةِ الماضي تَحقيقًا وتَهويلًا، فإذا سَمِعَ السّامِعُ: ﴿ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ تَصَوَّرَها مَشهَدًا مُنجَزًا، كَأنَّهُ قَد شاهَدَهُ عَينًا، وهوَ أبلَغُ في الإنذارِ وأقوَى في تَحريكِ الوِجدانِ.

دَلالَةُ العَطْفِ بالواو:

إبـرازُ الـتَّرابُـطِ بَـيـنَ المَـشـاهِـدِ الكَونيَّةِ لِلتَّهويلِ والتَّخويف

عَطفَ النَّظْمُ القُرآنيُّ تَفجيرَ البِحارِ على ما سَبَقَ مِن انفِطارِ السَّماءِ وانتِثارِ الكَواكِبِ، في سِياقِ تَصويرِ انهيارِ النِّظامِ الكَونيِّ، فقال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾، وأوثرَ العَطفُ بالواوِ دون غيرِها لِمُطلَقِ الجَمعِ[2]، فلَيْسَ في تَقديمِ المَعْطوفاتِ أوْ تَأْخيرِها دَليلٌ على أنَّهُ بَدَأ بشَيْءٍ قَبْلَ شَيْءٍ؛ لأنّ الواوَ تأتي للتَّرتيبِ ولِغَيرِهِ[3].

فَذُكِرَ هنا أوَّلًا ما يَتَّصِلُ بالجِهَةِ العُليا، وهوَ السَّماءُ وكَواكِبُها، ثُمَّ أُتبِعَ ذلكَ بذِكرِ البِحارِ في الأرضِ؛ ليَكونَ المَشهَدُ شامِلًا لما فوقَ الإنسانِ وما يُحيطُ بهِ في أرضِه، فالعَطفُ هُنا يُفيدُ تَكامُلَ صوَرِ الخَرابِ، بذِكرِ العُلويِّ ثُمَّ الأرْضيِّ؛ لِتَتَحَقَّقَ الإحاطَةُ بجَميعِ الجِهاتِ، وهوَ مِمّا يُقَوّي الرَّهبَةَ، ويُثَبِّتُ في الذِّهنِ أنَّ الخَرابَ يَعُمُّ كُلَّ شَيءٍ، فلا مَلجَأ ولا مَفَرَّ.

---

(1) الرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/ 250.

(2) الرّضيّ، شرح الرّضي على الكافية: 2/ 403.

(3) سيبويه، الكتاب: 1/ 218، والسّامرّائيّ، معاني النحو: 3/ 188.

دَلالةُ جَمعِ ﴿ٱلْبِحَارُ﴾:

من أهوالِ اليَومِ الآخِرِ تَفجيرُ جَميعِ البِحار

آثرَ نَظمُ القرآنِ التَّعبيرَ بجَمعِ البِحارِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ دونَ إفرادِها على الجِنسِ: للتَّفخيمِ والتَّهويل؛ إذ يَدُلُّ هذا الجَمعُ على أنَّ كُلَّ بَحرٍ مَعروفٍ لِلنّاسِ في مَشارِقِ الأرضِ ومَغارِبِها سَيَكونُ مَحَلًّا لِهذا التَّفَجُّرِ المَهولِ، فلا يَبقَى بَحرٌ على هَيئَتِه، بَل تَتَفَجَّرُ مِياهُهُ، وتَزولُ الحُدودُ بَينَها، فتَصيرُ الأرضُ كَأنَّها ماءٌ غامِرٌ.

وفي الجَمعِ إشعارٌ بالاستِغراقِ؛ لأنَّهُ يُفيدُ انفِجارَ جَميعِ البِحارِ، كَبيرِها وصَغيرِها، ويُظهِرُ المَشهَدَ في صورَةٍ كَونيَّةٍ عامَّةٍ لا يَسلَمُ مِنها مَكانٌ، وهذا أبلَغُ في تَصويرِ الرَّهبَةِ وانهِيارِ النِّظامِ الكَونيِّ يَومَئِذٍ، فالمَقصودُ مِن الجَمعِ هوَ التَّنبيهُ على انتِشارِ مَشاهِدِ الخَرابِ في جَميعِ الأرضِ، حَتَّى لا يَتَوَهَّمَ مُتَوَهِّمٌ أنَّ بَحرًا دونَ آخَرَ يَسلَمُ مِن هذا التَّفجيرِ العَظيمِ.

دَلالَةُ تَعريفِ ﴿ٱلْبِحَارُ﴾:

استِغْراقُ جَميعِ مَجاري المِياهِ مِنَ المُحيطاتِ والبِحار

جاءَ تَعريفُ لَفظِ البِحارِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾؛ للدَّلالَةِ على الاستِغراقِ الجِنسيّ؛ فيَدخُلُ فيهِ كُلُّ ما يُطلَقُ عَلَيهِ اسمُ بَحرٍ، مِن المُحيطاتِ والبِحارِ المَعروفَةِ، والبُحَيراتِ العِظامِ الَّتي تُشبِهُ البِحارَ في سَعَتِها، فهذا الاستِغراقُ يُفيدُ الشُّمولَ لِكُلِّ مَجمَعٍ مائيّ، ويُصَوِّرُ الخَطبَ في صورَةِ الشُّمولِ الكَونيِّ لِلأرضِ[1].

ولأنَّ المَقصودَ لَيسَ بَحرًا واحِدًا أو نَوعًا بَعضيًّا، بَل الجِنسُ كُلُّهُ: إذا فُجِّرَتِ البِحارُ كُلُّها؛ انقَلَبَتِ الأرضُ، وسَقَطَ رُكنٌ عَظيمٌ مِن أركانِ الحَياةِ، وهوَ مِمّا يُزيدُ في التَّهويلِ، ويُعطي صورَةً كَونيَّةً عامَّةً

(1) السّامرّائيّ، معاني النحو: 1/ 107.

للاضطِرابِ يَومَ القيامَةِ، وفي ذلِكَ إشعارٌ بأنَّ الحَدَثَ يَطالُ جَميعَ أقطارِ الأرضِ، فيَكونُ التَّصويرُ أبلَغَ في الرَّهبَةِ والإنذارِ.

بَلاغَةُ استِعمالِ مادَّةِ التَّفْجير:

مَشهَدُ التَّفَجُّرِ الكَونيّ، وخُروجِ البِحارِ عَن نِظامِها

جاءَ التَّعبيرُ القُرآنيُّ بمادَّةِ التَّفجيرِ في قَولِ اللّٰه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾؛ للإشارَةِ إلَى شِدَّةِ الاضطِرابِ في مياهِ البِحارِ، حَتَّى تَتَفَجَّرَ بَعضُها في بَعضٍ، وتَزولَ الحَواجِزُ الَّتي كانَت مانِعَةً بَينَها، فتَصيرَ الأرضُ كَأنَّها مُغرَقَةٌ في فوضَى مائيَّةٍ عامَّةٍ، وهذا أبلَغُ في تَهويلِ المَشهَدِ؛ إذِ البِحارُ أعظَمُ ما يَراهُ الإنسانُ في الأرضِ، فإذا انقلَبَت، وتَفَجَّرَت؛ زالَ كُلُّ أمنٍ وثَباتٍ.

وأوثِرت هذِهِ المادَّةُ دون غيرِها - كالفَيَضانِ أوِ الامتِلاءِ - لأنَّها من أبلَغِ المُفرَداتِ في تَصويرِ هذا المَشهَدِ، فالتَّفجيرُ في الأصلِ هوَ شَقُّ الأرْضِ؛ لتَسييلِ الماءِ في المَسالِكِ، حَتَّى يَنْبَعِثَ كَثيرًا غامِرًا، وهَذا ما يُؤَكِّدُهُ واقِعُ استعمالِ المُفرَدَةِ في القُرآنِ الكَريمِ، فأكثَرُ ما ورَدَ هَذا اللَّفظُ في القُرآنِ الكَريمِ في تَفجيرِ الماءِ، قالَ تَعالَى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: 12]، ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ٣٣﴾ [الكهف: 33]، ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ [الإسراء: 91]، ﴿تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ٩٠﴾ [الإسراء: 90]، ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: 60][1].

فَجُعِلَ حالُ البِحارِ يَومَ القيامَةِ كَأنَّها عُيونٌ فُجِّرَت، تَتَدافَعُ مياهُها، وتَتَفَجَّرُ بَعضُها في بَعض، فيَزولُ حَدُّها، ويَطغى ماؤُها على البَراري، ويَغمُرُ المَعمورَ، والمَعنَى: أنَّهُ لا يَبقَى بَحرٌ على ما هوَ عَلَيهِ، بَل يَصيرُ البَحرُ بَحرًا آخَرَ في شِدَّةِ الاضطِرابِ، وفي الفَوَرانِ، فالتَّعبيرُ بالتَّفجيرِ أبلَغُ مِن (فاضَت) أوِ (امتَلَأت)؛ لأنَّهُ يَدُلُّ على تَدافُعٍ وتَفَجُّرٍ، وانفِجارٍ مَهولٍ يُخرِجُ البِحارَ عَن سَجيَّتِها.

(1) الأصفِهانيّ، المفردات، ص: 625.

دلالة التعبير بصيغة المُبَالَغَة:

تَصويرُ خُروجِ ماءِ البِحارِ عن طَبيعَتِها بشِدَّةٍ مُذهِلَة

آثر القرآن الكريم التعبير بصيغة التَّفعيلِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾؛ لِما تَحمِلُه صيغةُ المُبالَغَةِ مِنَ الدَّلالَةِ على شِدَّةِ الفِعل، فأصل التفجير إطلاقه على الشَّيءِ المحبوس؛ ليتدفَّقَ بغزارةٍ، وعلى ذلك فقولُه تعالى: ﴿فُجِّرَتْ﴾ يُفيدُ أنَّ البحارَ قد شُقَّت أرجاؤُها، وتدفَّقَ ماؤُها، فتفجيرُ البِحارِ هوَ انطِلاقُ مائِها مِن مُستَواه، وفَيَضانُه على ما حولَها مِن الأرَضين، وبذلِك التَّفجير يَعُمُّ الماءُ على الأرض، فيُهلِكُ ما عليها، ويختَلُّ سَطحُها[1]، فتَفجيرُ البحارِ يُعبِّرُ عن تحوُّلِها إلى قوًى طاغيَة، إمّا بتَفجُّرِ مياهها واندفاعِها على اليابسةِ، فتَغمُرُ ما حولَها، أو بتَحوُّلِ ما فيها مِن عَناصِرَ إلى أُخرَى مدمّرةٍ، ويَحتملُ أن يكونَ المعنى الجامعُ: إخراجُها عن طبيعتِها الرّاسخةِ؛ لتُصبِحَ عُنصُرَ فوضى وهَدْم، بعد أن كانت عُنصُرَ حياةٍ.

دَلالَةُ البِناءِ لِلمَفْعول:

تَصويرُ هَولِ القِيامَةِ لِلسّامِعين

جاءَ فِعلُ التَّفجيرِ في قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ مَبنيًّا لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُه، والبِناءُ لِلمَفعول هُنا لَيْسَ لِلإبهام، بَل لِلتَّعظيم والإشارَةِ إلَى أنَّ الأمرَ فوقَ مُتَناوَلِ المَخلوقاتِ، وعَدَلَ النَّظْمُ القُرآنيُّ عَن إسنادِ فِعلِ التَّفجيرِ إلَى البِحارِ، كما سَبَقَ في انفِطارِ السَّماءِ وانتِثارِ الكَواكِب - فلم يقلْ: (وإذا البِحارُ انفَجَرت) - لِبَيانِ الفَرْقِ في الصّورَةِ المُشاهَدَة؛ فإنَّه - وإنْ كان جميعُها بتَقديرِ المَلِك القَهّار - يُنسَبُ إلَى السَّماءِ والكَواكِبِ الانفِطارُ والانتِثارُ؛ لأنَّهُما يُشاهَدانِ بمَظاهِرِهِما كأنَّهُما يَتَفاعَلانِ في ذاتِهِما بالانشِقاقِ والتَّناثُرِ؛ فلِذلِكَ أُسنِدَ إلَيهِما الفِعلُ مُطاوَعَةً؛ أمّا البِحارُ؛ فلا يُلاحَظُ فيها الانفِعال، بَلْ يُحَسُّ فيهِ تَأثُّرُ القُدرَةِ الغالِبَةِ، فبُنِيَ فِعلُهُ لِمَفعولِه، وفي هذا التَّنويع

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 172.

في الأساليبِ إمعانٌ في تَعديدِ صوَرِ الهَولِ، وذلِكَ أدَقُّ في التَّصويرِ، وأبلَغُ في التَّهويلِ.

تَوجيهُ المتُشابِهِ اللَّفْظيّ:

مُناسبَةُ التَّفْجيرِ للانفِطارِ والانتِثارِ، ومُناسبَةُ التَّسْجيرِ للتَّكويرِ والتَّزويجِ

تَشابَهَت هَذِه الآيةُ: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾، مع قَولِ اللّه تعالى في سورَةِ التَّكويرِ: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ٦﴾ [التكوير: 6]، وكُلُّ لَفظ منهما مُلائِمٌ في مَوضِعِه، فسورَةُ الانفِطارِ اختَصَّت بالانفِجارِ لِمُناسَبَتِه مَطلَعَ السّورة؛ لأنّ تفجيرَ البِحارِ يُفيدُ فتحَ بعضِها إلى بعضٍ، بانفِجارِ العَذْبِ إلى المالِحِ، والمالِحِ إلى العذْبِ، وهذا مُناسِبٌ لانفطارِ السَّماءِ، وانتِثارِ الكَواكِب.

وأمّا مَوضِعُ سورَةِ التَّكويرِ؛ فجاء مُناسِبًا لِسياقِه، مِن حَشْرِ الوحوشِ، وتَزويجِ النفوسِ، فتَسجيرُ البِحار مناسِبٌ لهذا المَشهَدِ؛ لأنَّ التَّسجيرَ معناهُ المِلْءِ، من قَولِك: (سَجَّرتُ التَّنّور)؛ إذا مَلأتَه بالحَطَب، والمرادُ اجتماع مياهها[1].

سِرُّ عَطفِ بَعثَرَةِ القُبور:

ذِكرُ ما يَتَعلَّقُ بِمَصيرِ الفَرْدِ بَعدَ انفِراطِ عِقدِ الكَونِ فيهِ تَهويلٌ وتَخويف

رُتِّبَ صَدرُ سورَةِ الانفِطارِ تَرتيبًا بَديعًا لِأحداثِ يَومِ القيامة؛ إذ يقولُ اللّه تَعالَى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾، فجاءَ خِتامُ مَطلَعِ السّورَةِ ببَعثَرَةِ القُبورِ في نَسَقٍ بَديع، تَدَرَّجَ بالسّامِعِ مِنَ العَوالِمِ العُليا إلَى العَوالِمِ السُّفلَى، ومِن ظَواهِرِ الكَونِ العامَّةِ إلَى مَصيرِ الإنسانِ نَفسِه، وهذا الفنّ يسمّى بالتّدلّي، وهوَ أنْ يُذْكَرَ الأعلى ثُمَّ الأدْنَى لِنُكْتَةٍ[2]، فابْتَدَأ بالسَّماءِ، ثُمَّ الكَواكِبِ، وهيَ جُزْءٌ مِنَ السَّماءِ، ثُمَّ البِحارِ وهيَ جُزْءٌ مِنْ كَوكَبِ الأرْضِ تَحتَ السَّماءِ، ثُمَّ القُبورِ الَّتي هيَ الجُزْءُ التَّحتيُّ مِنْ كَوكَبِ الأرْضِ.

---

(1) الغرناطي، وملاك التأويل، ص: 503.

(2) عكّاويّ، المعجم المُفصّل في علوم البلاغة: 2/ 299.

فَبِدايَتُهُ بانفِطارِ السَّماءِ إشارَةٌ إلَى أنَّ الانقِلابَ يَبدَأُ بمَظاهِرِ الكَونِ الأجَلِّ، ثُمَّ يَتبَعُهُ انتِثارُ الكَواكِبِ لِتَفَكُّكِ النِّظامِ الفَلَكيِّ، ثُمَّ تَفجيرُ البِحارِ وهوَ مَظهَرٌ أرضيٌّ عامٌّ يَعُمُّ البَشَرَ كافَّةً، ثُمَّ خَتَمَ ببَعثَرَةِ القُبورِ، وهوَ الحَدَثُ الَّذي يَتَعَلَّقُ بمَصيرِ كُلِّ فرد، وبِهذا التَّدَرُّجِ يَكونُ التَّخويفُ أشَدَّ؛ إذ يَسوقُ السّامِعَ مِن عَجائِبِ الكَونِ المُهَوِّلَةِ إلَى المَصيرِ الشَّخصيِّ الَّذي لا مَفَرَّ لَهُ مِنهُ، وهوَ ممّا يُعَدُّ مِن بَلاغَةِ التَّرتيبِ في القُرآنِ؛ إذ يَجمَعُ بَينَ التَّهويلِ الكَونيِّ والإنذارِ الشَّخصيِّ.

دَلالَةُ لَفظِ ﴿ٱلْقُبُورُ﴾:

أثَرُ اللَّفْظِ المَألوفِ في تَصويرِ الهَولِ الأعظَمِ

في اختيارِ لفظِ ﴿ٱلْقُبُورُ﴾ في قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ دِقَّةٌ بَيانيَّةٌ تَكشِفُ عَنْ نَفاذِ النَّظَرِ في مَقاصِدِ التَّعبيرِ القُرآنيِّ، ورِقَّةُ لَمسِ أعماقِ ما يَستَقِرُّ في نُفوسِ النّاسِ، فالقَبرُ لَفظٌ جارٍ على ألسِنَةِ العامَّةِ، مَألوفٌ في حَياةِ النّاسِ، مَشهودٌ في مَواقِفِ الوَداعِ، مَعروفُ المَعالِمِ والهَيئَةِ، فالتَّعبيرُ بهِ يُقَدِّمُ صورَةً كَونيَّةً ذاتَ رَهبَةٍ، تَتَزَلزَلُ لَها الأركانُ؛ فالسَّماءُ تَنفَطِرُ، والكَواكِبُ تَنتَثِرُ، والبِحارُ تَنفَجِرُ، ثُمَّ تَنقَلِبُ عُيونُ الخَلقِ إلَى الأرضِ، الَّتي استَقَرَّتْ فيها الأجسادُ المَقبورَة، فإذا هيَ تُبَعثَرُ في كُلِّ ناحيَةٍ مِنَ النَّواحي، مَعَ اختِلاطِ الأجسادِ بَعضِها ببَعض.

وَفي ذِكرِ القُبورِ إشعارٌ بأنَّ التَّبَدُّلَ الَّذي يَجتاحُ الكَونَ لا يَقِفُ عِندَ مَظاهِرِ السَّماءِ وعَوالِمِ الفَلَكِ، بَلْ يَبلُغُ حَتَّى أخفَى ما في الأرضِ مِنْ أسرارٍ وأجسادٍ، فتُبَعثَرُ القُبورُ، كما يُكشَفُ عَنْ كُلِّ دَفينٍ ومَكنونٍ، ولَم يَأتِ الفِعلُ ﴿بُعْثِرَتْ﴾ إلّا ليَزيدَ مِنْ فظاعَةِ المَشهَدِ، فهوَ يُفيدُ القَلبَ والهَدمَ والخَلطَ، ولَيسَ مُجَرَّدَ نَبشٍ أو كَشفٍ، بَلْ كأنَّهُ انهِدامٌ لكُلِّ نِظامٍ وهَيئَةٍ، فيَستَوي في ذلِكَ مَنْ طالَ نَسيُهُ ومَنْ قَرُبَ عَهدُهُ، ويَقِفُ كُلٌّ أحَدٍ أمامَ حَقيقَةِ نَفسِهِ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾.

دَلالَةُ التَّعريف:

الإشـــارةُ إلى القُبورِ المَعهودَةِ واقِعًا وفِكْرًا

في تَعْريفِ لَفْظِ القُبورِ دونَ تَنْكيرِهِ في قَوْلِ اللّه تعالَى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ دلالَةٌ بَيانيَّةٌ رَفيعَةٌ، تُنْسَجُ خيوطُها في سياقٍ يَنْقَلِبُ فيهِ كَوْنُ المَأْلوفِ إلَى كَوْنٍ آخَرَ مُفْزِعٍ، وتَبْرُزُ فيهِ مَظاهِرُ القوَّةِ الإلَهيَّةِ المُطْلَقَة، وتَتَزاحَمُ فيهِ مَشاهِدُ الهَوْلِ والبَعْثِ والجَزاءِ، فتَعْريفُ القُبورِ يُفيدُ الاستِغْراقَ[1]، كَأَنَّهُ قيلَ: (جَميعُ القُبورِ بُعْثِرَت)؛ ليَدُلَّ على أنَّ البَعْثَرَةَ لا تُصيبُ قَبْرًا دونَ آخَرَ، ولا أَهْلَ زَمَنٍ دونَ آخَرينَ، بَلْ هيَ شامِلَةٌ لِكُلِّ مَنْ في القُبورِ على اخْتِلافِ أَحْوالِهِم وأزمانِهم.

وَهَذا التَّعْريفُ يُضيفُ لسياقِ الآياتِ مَعْنًى آخَرُ: فالقُبورُ المَعْروفَةُ لَدَى النّاسِ هيَ ما يَعْرِفونَهُ، ويزورونه، ويُشاهِدونَهُ، ويَحْفُرونَهُ بأيْديهِم، فالتَّعْريفُ يُشيرُ إلَى المَعْهودِ المُتَعَلِّقِ بالواقِعِ والذِّهْنِ؛ ليَقْتَرِبَ المَعْنَى مِنَ النَّفْسِ أكْثَرَ، وليُصْبِحَ الهَوْلُ أكْثَرَ تَجَسُّدًا وإحاطَةً.

بَلاغَةُ استِعمالِ فِعْلِ البَعْثَرَة:

تَصويرُ الهَولِ، وتَجسيدُ الفَزَعِ

جاءُ التَّعبيرُ القرآنيُّ عَنْ نَبشِ القُبورِ وإخراجِ مَنْ فيها بفِعلِ البَعْثَرَةِ، في قَولِ اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾، والمَعْنَى أنَّه انْقَلَبَ باطِنُها ظاهِرَها، فالبَعْثَرَةُ: الانقلابُ، يُقالُ: بَعْثَرَ المَتاعَ؛ إذا قَلَبَ بَعْضَهُ على بَعْضٍ، وأصلُ المادَّةِ مُرَكَّبٌ مِنَ (البَعْثِ) مَعَ راءٍ ضُمَّت إلَيْهِ، قيلَ: هيَ راءُ الإثارَةِ؛ فيَكونُ الفِعْلُ (بَعْثَرَ) مَنْحوتًا مِنْ (بَعَثَ) و(أثارَ)، مِثْلَ: (بَسْمَلَ)، و(حَوْقَلَ)، ففي (بَعْثَرَ) مَعْنَى فِعْلَيْنِ: (بَعَثَ) و(أثارَ)، أيْ: أَخْرَجَ، وقَلَبَ؛ فكَأنَّهُ قَلَبَ لِأَجْلِ إخْراجِ ما في المَقْلوبِ[2]، فالبَعْثَرَةُ أبلَغُ في إثارةِ مَشْهَدِ الفَزَعِ التامِّ مِن أنْ يُقالَ: (نُبِشَت) أو (فُتِحَت)، فإنَّ ﴿بُعْثِرَتْ﴾ تدلُّ على قَلَقٍ واضطِرابٍ شَديدٍ، يُخرِجُ ما في القبورِ إخراجًا عنيفًا غيرَ منظَّمٍ، لا كما يُنقَلُ

(1) السّامرّائيّ، معاني النحو: 1/ 100.

(2) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 172.

الميّتُ يومَ الدَّفنِ في هدوءٍ وسكونٍ، فالأرضُ كَأنّها انقلبت، وأخرجَت ما فيها دَفعةً واحدةً، مضطربةً هائجةً؛ إيذانًا ببدايةِ الحسابِ.

وَخُصَّت بَعْثَرَةُ القُبورِ "بالذِّكرِ مِنْ بَيْنِ حالاتِ الأرْضِ: لِما فيها مِنَ الهَوْلِ باستِحْضارِ حالَةِ الأرْضِ، وقَدْ ألْقَت على ظاهِرِها ما كانَ في باطِنِ المَقابِرِ مِنْ جُثَثٍ كامِلَةٍ ورُفاتٍ"[1].

سِرُّ البِناءِ لِلمَفْعول:

كَفى بتَصويرِ بَعثَرَةِ القُبورِ تخويفًا

في بناءِ فِعْلِ البَعْثَرَةِ لِلمَفْعولِ من قَولِ اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ نُكْتَةٌ بَيانيَّةٌ رَفيعَةٌ، تَتَجَلَّى في سياقٍ يَتَناسَبُ فيه كُلُّ تَعْبيرٍ مَعَ هَيْبَةِ المَقام، فهوَ مَقامٌ تَنْهَدِمُ فيهِ القوَى، وتَتَفَكَّكُ فيهِ نُظُمُ الكَوْنِ، ويَخْرُجُ فيهِ كُلُّ مَكْنونٍ إلَى العَلَنِ، فجاءَ الفِعْلُ مَبْنيًّا لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُهُ؛ لِيَدُلَّ على أنَّ الحَدَثَ عَظيمٌ في نَفْسِه، مُهيبٌ في آثارِه، لا يُشْغَلُ فيهِ السّياقُ بذِكْرِ فاعِلٍ؛ لأنَّ المَقصودَ هوَ تَصويرُ وقْعَةِ البَعْثَرَةِ نَفْسِها وما تُحْدِثُهُ مِنْ هَوْلٍ، لا مَنْ قامَ بها، فالقُبورُ هيَ المُبَعْثَرَةُ، وهَذا أدْخَلُ في إثارَةِ الفَزَعِ، وأبْلَغُ في إرْهافِ الشُّعورِ، من أنْ يُقالَ: بَعْثَرَ اللّه القُبورَ، أو بَعْثَرَتِ الأرْضُ القُبورَ.

دَلالَةُ التَّعبيرِ بالماضي:

تَحَقُّقُ الوُقوعِ الَّذي يَحمِلُ شِدَّةَ التَّخْويفِ والتَّهْويل

في الإتيانِ بفِعْلِ البَعْثَرَة على صيغَةِ الماضي، في قَولِ اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ نُكْتَةٌ بَلاغيَّةٌ دَقيقَةٌ، تَكْشِفُ عَنْ أُفُقٍ عالٍ في التَّصْويرِ، وحِكْمَةٍ رَبّانيَّةٍ في الإنْذارِ والإيقاظِ؛ إذِ المَعْروفُ أنَّ صيغَةَ الماضي تَدُلُّ على التَّحَقُّقِ والوُقوعِ، فإذا جاءَت في سياقٍ يَتَعَلَّقُ بالمُسْتَقْبَلِ؛ كانَ ذَلِكَ إظْهارًا لِكَمالِ التَّحَقُّقِ، فلا مَجالَ فيهِ لِلشَّكِّ، ولا لِلتَّرَدُّدِ، ولا لِلتَّأْخيرِ، فكَأنّه وقَعَ الأمرُ، وانقَضَى.

فَكَأَنَّ السّورَةَ تُصَوِّرُ المُسْتَقْبَلَ المُفْزِعَ بصيغَةِ الماضي؛ لِتَجْعَلَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 172.

السّامِعَ في مَوْقِفِ المُشاهِدِ الآنَ، ولَيْسَ في مَوْقِفِ مَنْ يَنْتَظِرُ حُدوثًا غامِضًا في زَمَنٍ قادِمٍ؛ فالصّيغَةُ الماضيَةُ تُقَرِّبُ الغائِبَ، وتُجَسِّدُ الهَوْلَ، وتَدْفَعُ النَّفْسَ إلَى الخَوْفِ الحاضِرِ، لا الأمنِ مِنْ غَيْبٍ بَعيدٍ.

بلاغَةُ الإطْنابِ بتَعاطُفِ جُمَلِ الشَّرْطِ:

الـتَّرْتـيـبُ والتَّكْثيفُ في تَصويرِ مَشاهِدِ يَومِ القيامَة

تَعاقُبُ الجُمَلِ المُصَدَّرَةِ بـ(إذا)، في قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾، مَبْنِيٌّ على طَريقِ الإطناب، الّذي يُقْصَدُ مِنْهُ تَكْثيفُ التَّصْويرِ، وتَشْديدُ وقْعِ المُخْبَرِ بهِ في نُفوسِ السّامِعينَ، ويُلاحَظُ أنَّ الجُمَلَ المُتَعاطِفَةَ المُضافَ إلَيْها هيَ هُنا أقَلُّ مِنَ اللّاتي في سورَةِ التَّكْويرِ؛ لأنَّ المَقامَ لَم يَقْتَضِ تَطْويلَ الإطْنابِ، كَما اقْتَضاهُ المَقامُ في سورَةِ التَّكْويرِ، فهوَ وإنْ كانَ في كِلْتَيْهِما مُقْتَضٍ لِلإطْنابِ، إلّا أنَّهُ مُتَفاوِتٌ؛ لأنَّ سورَةَ التَّكْويرِ مِنْ أوَّلِ السّوَرِ نُزولًا، وسورَةُ الانفِطارِ نَزَلَت بَعْدَها بأرْبَعٍ وسَبْعينَ سورَةً، تَكَرَّرَ في بَعْضِها إثْباتُ البَعْثِ والجَزاءِ والإنْذارِ، وتَقَرَّرَ عِنْدَ المُخاطَبينَ، فأغْنَى عَن تَطْويلِ الإطْنابِ والتَّهْويلِ(1).

وَهذا الإطنابُ بتَعاقُبِ الجُمَلِ المُصَدَّرَةِ بـ(إذا) فيه إشارَةٌ إلى تَرسيخِ مَشاهِدِ يَومِ القيامَةِ في نُفوسِ السّامِعينَ؛ تَمهيدًا لِقَولِ اللّه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾، وفيهِ تَنْبيهٌ وتَذْكيرٌ، وتَهْيِئَةٌ لِسَوْقِ الحُجَّةِ على المُكَذِّبينَ.

دَلالَةُ الأفْعالِ الصوتيّة:

شِـدَّةُ وقْـعِ الـصَّـوتِ على نَفسِ السّامِعِ

خَتْمُ الآياتِ الأرْبَعِ الأوَلِ بالأفْعالِ ﴿ٱنفَطَرَتْ﴾ و﴿ٱنتَثَرَتْ﴾ و﴿فُجِّرَتْ﴾ و﴿بُعْثِرَتْ﴾ مَخْتومَةً كُلُّها براءٍ مَفْتوحَةٍ وتاءٍ ساكِنَةٍ: يُنْشِئُ نَغْمَةً بَلاغيَّةً موحَّدَةً، تُؤَكِّدُ بشِدَّةِ وقْعِها وتَكْرارِهِ أنَّ ما بَيْنَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 170.

السَّماءِ والأرْضِ قَدْ تغيَّرَ، وأنَّ الكَوْنَ بكُلِّ أرْكانِه قَدْ دَخلَ في طَوْرٍ آخَرَ، فانْهَدَمَ النِّظامُ المَعْهودُ، وبَدَأ نِظامُ الحِسابِ والجَزاءِ.

عِلَّةُ فصْلِ جُملَةِ الجَوابِ:

بَلاغَةُ الفَصْلِ بَيْنَ الشَّرْطِ وجَوابِهِ في الإيقاعِ والمَقامِ

فُصِلَت جُملَةُ الجَوابِ في قَوْلِ اللهِ تعالَى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ عَنْ جُمَلِ الشَّرْطِ السّابِقَةِ عَلَيْها: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾، وهوَ جارٍ على أُسْلوبٍ بَلاغيٍّ مَقْصودٍ مِنْهُ تَفْسيحُ المَجالِ لِتَصْويرِ تِلْكَ المَشاهِدِ الكَوْنيَّةِ على وجْهٍ يُثيرُ في النُّفوسِ رَهْبَةَ الهَوْلِ وتَوَقُّعَ العاقِبَةِ، فتَعاقُبُ الجُمَلِ الشَّرْطيَّةِ بـ(إذا) مَعَ تَعْليقِ الجَوابِ حَتَّى الخِتامِ، يُؤَدّي مَعْنَى التَّشْويقِ، ويُهَيِّئُ السّامِعَ لِتَلَقّي الجَوابِ بوَقْعٍ أقْوَى؛ فكَأنَّ المُتَلَقّي يَبْقَى مُتَرَقِّبًا لِما يَتَرَتَّبُ على تِلْكَ الحَوادِثِ العِظامِ، حَتَّى إذا ورَدَ الجَوابُ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾؛ وقَعَ في نَفْسِهِ وقْعًا شَديدًا عَنيفًا، يُشْبِهُ شِدَّةَ انفِراطِ المَشاهِدِ الكَوْنيَّةِ المُنْقَلِبَةِ. فجاءَ الفَصْلُ بَيْنَ الجَوابِ والشَّرْطِ؛ لِتَكْثيفِ التَّصْويرِ وتَشْديدِ الوَقْعِ، وهوَ مَعْهودٌ في الفَصاحَةِ القُرْآنيَّةِ، خاصَّةً في سياقِ التَّرْهيبِ والتَّنْبيهِ على عَظيمِ المُنْقَلَبِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالعِلْمِ:

العِلْمُ في مَشْهَدِ الحِسابِ دَليلٌ على إقامَةِ الحُجَّةِ

آثر القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالعِلْمِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ - دونَ الرُّؤْيَةِ مَثَلًا أوِ الشَّهادَةِ - لأنَّ العِلْمَ أدَقُّ إدْراكًا، وأشْمَلُ وُصولًا، وأعْظَمُ نُفوذًا إلَى الباطِنِ؛ والعِلْمُ يَتَحَقَّقُ بإدْراكِ ما لَم يَكُنْ مَعلومًا مِنْ قبلُ، وبتَذَكُّرِ ما نُسيَ لِطولِ المدَّةِ عليه، وهذا وعيدٌ بالحِسابِ على جَميعِ أعمالِ المُشرِكين، وهُمُ المَقصودُ بالسّورَةِ، ووَعْدٌ لِلْمُتَّقين، ومُخْتَلَطٌ لِمَنْ عَمِلوا عَمَلًا صالِحًا وآخَرَ سَيِّئًا[1]، وفي ذِكرِ تَعْريضٌ بمَنْ كانَ غافِلًا في الدُّنْيا عَن كُنْهِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 173.

عَمَلِه، فإثْباتُ "العِلْمِ لِلنّاسِ بما قَدَّموا، وأخَّروا عِنْدَ حُصولِ تِلْكَ الشُّروطِ: لِعَدَمِ الاعْتِدادِ بِعِلْمِهِم بذلِكَ الَّذي كانَ في الحَياةِ الدُّنْيا، فنُزِّلَ مَنْزِلَةَ عَدَمِ العِلْمِ"[1].

فَلَو قيلَ: (رَأت نَفسٌ ما قَدَّمَت وأخَّرَت)؛ لاقتَرَبَ المَعنَى مِنَ الإدراكِ البَصَريِّ الظّاهِريِّ، أي: كَأنَّها أبصَرَتِ الأعمالَ، وشاهَدَتِ الأحوالَ، وهَذا مَعنًى صَحيحٌ في نَفسِهِ، لَكِنَّهُ لا يَستَوفي شُمولَ الحِسابِ النَّفسيِّ، ووَقعَ الصَّدمَةِ العِلميَّةِ في دَواخِلِ الإنسانِ، أمّا التَّعبيرُ بـ﴿عَلِمَتْ﴾؛ فيُفيدُ أنَّها أدرَكَت إدراكًا تامًّا بلا حاجَةٍ إلَى رُؤيَةٍ ولا شاهِدٍ، بَل صارَ ما عَمِلَتهُ مُنكَشِفًا لَها في نَفسِها، كَأنَّها قامَت تَجري حِسابَها مِن داخِلِها، لا يَحجُبُهُ حِجابٌ، ولا يُخفيهِ خَفاءٌ؛ وذَلِكَ أبلَغُ في التَّوبيخِ والإلزامِ.

وَمِمّا يُذكَرُ في سِرِّ التَّعبيرِ بالعِلمِ أنَّه يَشمَلُ ما هوَ ظاهِرٌ، وما هوَ مَكنونٌ؛ فما قَدَّمَت مِنَ الأعمالِ، وما أخَّرَت مِنْ آثارٍ، وتَركٍ، وتَقصيرٍ، كُلُّ ذَلِكَ يُقَيَّدُ في ميزانِ العِلمِ، لا ميزانِ العَينِ.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بالماضي:

التَّحَقُّقُ والتَّقْريرُ فــي أُســلــوبِ الماضي القُرْآنيّ

التَّعبيرُ عَن وُقوعِ العِلمِ في قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾، بِصيغَةِ الماضي مَسلَكٌ بَلاغيٌّ دَقيقٌ يُرادُ بِه إفادَةُ تَحقُّقِ الوُقوعِ، فإنَّ صيغَةَ الماضي في مِثْلِ هَذا السّياقِ الَّذي اسْتُفْتِحَ بأداةِ الشَّرْطِ (إذا) تُساقُ على سَبيلِ الاستِعراضِ لِمَشاهِدِ القيامَةِ على وجهِ التَّحقيقِ والتَّقريبِ، كَأنَّها وقَعَت، وشوهِدَت، فـ﴿عَلِمَتۡ﴾ تُفيدُ أنَّها أدْرَكَت ما فعَلَتهُ مِنْ خَيْرٍ أو شَرٍّ، وما تَرَكَتهُ، أو سَبَّبَتهُ، على وجْهٍ لا مَجالَ فيهِ لِلنِّسْيانِ أوِ الجَهْلِ، كَأنَّ ذَلِكَ العِلْمَ قَدْ ثَبَتَ في قَلبِها، ووَعَتهُ بوُضوحٍ، فلا تَعْذيرَ ولا إنْكارَ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 173.

فالتَّعبيرُ جارٍ على أُسْلوبِ تَصْويرِ المُسْتَقْبَلِ في صورَةِ الماضي؛ إذا كانَ قَطْعيَّ الوُقوعِ، وذَلِكَ أبلغُ في إثارَةِ الرَّهْبَةِ واستِنفارِ الوَعيِ، وجاءَ خَتمُ المَطْلَعِ الأَوَّلِ لِهَذِهِ السّورَةِ بالفِعْلِ ﴿عَلِمَتْ﴾ على نَفْسِ الوَزْنِ الزَّمَنيِّ المَذْكورِ في الأَفْعالِ السّابِقَةِ؛ لِيَكونَ كُلُّ ما في السّياقِ مُنْسَجِمًا في التَّوْقيتِ والإيقاعِ اللَّفْظيِّ، ويدلّ على أنَّ تِلْكَ الأَحْداثَ وما يَتبَعُها مِنَ العِلْمِ هيَ جَميعًا في حُكْمِ الحَوادِثِ المُتَحَقِّقَةِ قَطْعًا.

بَلاغَةُ التَّعبيرِ بالنَّفْس:

إفـادَةُ العُمومِ والشُّمولِ في الحُكْمِ، مَعَ التَّوجيهِ والإفرادِ في التَّوْبيخ

التَّعْبيرُ بالنَّفْسِ فاعِلًا في قَولِ اللّه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾، فيهِ إشارَةٌ بَيانيَّةٌ دَقيقَةٌ، تَقْتَضي إفادَةَ التَّعْميمِ في الحُكْمِ على كُلِّ ذاتٍ عاقِلَةٍ، فجاءَ لَفْظُ ﴿نَفْسٌ﴾ مُنَكَّرًا؛ لِيَسْتَغْرِقَ كُلَّ نَفْسٍ على انْفرادِها، بلا تَخْصيصٍ وبِلا استِثْناءٍ، فلَوْ قيلَ: (عَلِمَ الإنْسانُ ما قَدَّمَ، وأخَّرَ)؛ لَتُوُهِّمَ أنَّ المُرادَ جِنْسُ الإنْسانِ على سَبيلِ المُجْمَلِ، أو كانَ الخِطابُ موَجَّهًا إلَيْهِ في جُملَتِه، أمّا ذِكْرُ ﴿نَفْسٌ﴾؛ فهوَ تَفْريدٌ لِكُلِّ نَفْسٍ على حِدَةٍ، وبذلك تكون المواجَهَةُ أشَدَّ وأعْظَمَ؛ إذْ لا مَلْجَأَ لِلنَّفْسِ في الجَماعَةِ، ولا سَترَ لَها بالانْدِساسِ تَحْتَ جِنْسٍ أو تَحْتَ مَعْنًى كُلّيٍّ.

وَمِنْ بَلاغَةِ هذا التَّعبيرِ أنَّ لَفظَ النَفْس يوَجِّهُ المَعْنَى إلَى الذّاتِ الباطِنَة، أيْ: إلَى حَقيقَةِ الإنْسانِ في جَوْهَرِها، وما تَحمِلُهُ مِنْ نيّاتٍ وأسْرارٍ، لا إلَى جِسْمِهِ أو مَظاهِرِهِ الخارِجيَّة، وبِذَلِك يَكونُ التَّوْبيخُ أبْلَغَ، والمواجَهَةُ أشَدَّ؛ إذِ النَّفْسُ تَرَى نَفْسَها كأنَّها المَرْصودَةُ الوَحيدَةُ، فاستُعْمِلَت ﴿نَفْسٌ﴾؛ لِتَدُلَّ على التَّفْريدِ والاستِغْراقِ مَعًا.

غَرَضُ التَّنْكير:

إفـادَةُ التَّعْميمِ والتَّهْويل

تَنْكيرُ لَفظِ ﴿نَفْسٌ﴾ في قَوْلِ اللّه تعالَى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾، جاءَ على وجْهٍ بَلاغيٍّ يَقْتَضيهِ السّياقُ؛ لأنَّهُ يُفيدُ التَّعْميمَ والتهويل، فـ﴿نَفْسٌ﴾ مُرادٌ بِهِ العُمومُ على نَحْوِ ما ورَدَ في قَوْلِهِ تعالَى:

﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ١٤﴾ [التكوير: 14]، فكُلُّ الأنْفُسِ سَتَعْلَمُ يَوْمَ القيامَةِ ذلكَ، فالتَّنْكيرُ هُنا لِلتَّكْثيرِ والتَّهْويل، لَيْسَ لِلتَّقْليل، وهوَ مِنْ أساليبِ الفَصاحَةِ في الإنْذارِ والتَّوْبيخ، فقَدْ جاءَ التَّنْكيرُ في مَقام مَطْلَبُهُ التَّعْميمُ، فلا تُسْتَثْنَى نَفْسٌ، ولا تُخَصُّ نَفْسٌ، فكُلُّ مَنْ يَقَعُ عَلَيْهِ نداءُ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾: هوَ مِمَّنْ تَعْلَمُ نَفْسُهُ ما قَدَّمَت، وأخَّرَت عِلْمًا لا يَخْتَلِفُ فيهِ، ولا يَغيبُ عَنْهُ.

دَلالَةُ التَّعبيرِ بالمَوصولِ ﴿مَّا﴾:

دَلالَةُ الاستِغْراقِ وشُمولِ الحِساب

اختيارُ المَوْصولِ ﴿مَّا﴾ في قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ يُفيدُ العُمومَ، ومَعناهُ: (عَلِمَت نَفسٌ جَميعَ الَّذي قَدَّمَتهُ مِنْ أعمالٍ، وجَميعَ الَّذي أخَّرَتهُ مِنْ آثارٍ وتَبِعاتٍ)، فهيَ تَقَعُ على ذَواتِ ما لا يَعقِل، وعلى صِفاتِ مَنْ يَعْقِل.

وفي التَّعْبيرِ بها رَوْعَةٌ بَلاغيَّة؛ لأنّها تَحمِلُ مَعنَى الإيجازِ وسَعة المعنى؛ إذ أفادَ لَفْظٌ واحِدٌ مَعَ الفِعْلَيْنِ جَميعَ ما يُحْتَمَلُ مِنْ مَعانٍ مُتَنَوِّعَةٍ، ثُمَّ إنَّ بناءَ ﴿مَّا﴾ يوافِقُ اسْتِعْمالَها المُتَّسِعَ، فإنَّ مَدَّةَ الألِفِ والاتِّساعَ في هَواءِ الفَمِ مُشاكَلَةٌ لاتِّساعِ مَعْناها في الأجْناسِ[1]، فدَلَّت ﴿مَّا﴾ على كُلِّ ما يَصْدُقُ عَلَيْهِ الاسْمُ مِن خَيْرٍ أو شَرٍّ، وعلى كُلِّ ما يَنْتَسِبُ إلَى العَبْدِ مِنْ فِعْلٍ أو تَرْكٍ أو أثَرٍ يَجْري على يَدَيْه، وبِهَذا الاستِغْراقِ تَكونُ المواجَهَةُ أشَدَّ وأبْلَغَ، لأنَّها تُلْزِمُ النَّفْسَ وهَذهِ بكُلِّ جُزْئيَّةٍ مِمّا صَدَرَ عَنْها، دونَ أنْ يَفوتَها شَيْءٌ.

بَلاغَةُ اختيارِ فِعْلِ التَّقديم:

أعْمالُ الإنسانِ حاضِرَةٌ أمامَه، لا تَنْفَكُّ عَنْه

آثَرَ القُرآنُ الكَريمُ التَّعبيرَ بفِعلِ التَّقديم في قَولِ اللّه تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ - دونَ (فَعَلَت) أوْ (عَمِلَت) مَثَلًا - لأنَّه اخْتيارٌ يُشْعِرُ بأنَّ العَمَلَ لا يَزولُ بانقِضاءِ وقْتِه، بَلْ هوَ

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/ 131.

مُتَقَدِّمٌ بَيْنَ يَدَي العامِلِ يَنْتَظِرُهُ ليواجِهَهُ بِه، وفي ذلك تَهْويلٌ وتَهْييجٌ لِلمُحاسَبَةِ الذّاتيَّة، فالمَعْنَى العامُّ لِلآيَةِ في ضَوْءِ دِقَّةِ التَّعْبير: (عَلِمَت كُلُّ نَفْسٍ في ذلك اليَوْمِ الرَّهيبِ ما أَسْلَفَتْهُ مِنْ أعْمالٍ، وما تَرَكَتْهُ، أَوْ خَلَّفَتْهُ وراءَها، عَلِمَتْهُ عِلْمَ مُشاهَدَةٍ لا شُبْهَةَ فيهِ ولا نِسْيان، فكَأنَّه حاضِرٌ أمامَها، لا فِكاكَ مِنْهُ)، وهذِهِ المَعاني لا تَتَأتَّى مِنَ التَّعْبيرِ بـ(فَعَلَت) أَوْ (عَمِلَت)، وإنّما يُفيدُهُ فِعْلُ التَّقْديم، أنَّ العملَ وإنْ فاتَ زمانُه في الدُّنْيا فهوَ مُتقدِّمٌ لصاحبِه، ينتظرُه في الآخرةِ قد سبقَهُ إلى مَصيرِه.

بَلاغَةُ الطِّباقِ بَينَ التَّقديمِ والتَّأخير:

إفادَةُ الاستِغْراقِ والشُّمول

التَّعْبيرُ بالطِّباقِ بَيْنَ التَّقديمِ والتَّأخيرِ في قَوْلِ اللّه: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ هوَ مِنْ بَلاغَةِ القُرْآنِ في إحاطَةِ المَعاني بأقَلِّ لَفْظٍ، فإنَّ المُقابَلَةَ بَيْنَ الفِعْلَيْنِ تُفيدُ الاستِغْراقَ والشُّمولَ، كَأنَّهُ قيلَ: (عَلِمَت نَفْسٌ كُلَّ أعْمالِها مِنْ خَيْرٍ وشَرٍّ، مِمّا بادَرَت بِه، ففَعَلَتْهُ، أو مِمّا تَرَكَتْهُ، فتَرَتَّبَ أثَرُهُ عَلَيْها)، وهَذا الضَّرْبُ مِنَ الطِّباقِ يُسَمَّى طِباقَ الإيجابِ[1]، وإنَّ ما قَدَّمَتْهُ النَّفْسُ هوَ ما فعَلَتْهُ في حَياتِها مُباشَرَةً، وما أخَّرَتْهُ هوَ ما تَرَكَتْهُ، أو خَلَّفَتْهُ مِنْ أعْمالٍ جارِيَةٍ، أو سيِّئاتٍ سَبَّبَتها، أو خَيْرٍ اسْتَمَرَّ أثَرُهُ بَعْدَ مَوْتِها، فكانَ ذِكْرُ الفِعْلَيْنِ على وجْهِ المُقابَلَةِ بَلاغَةً تُحَقِّقُ الاستِقْراءَ التّامَّ، ممّا يُشْعِرُ بأنَّ الحِسابَ يَوْمَئِذٍ مُحيطٌ بكُلِّ جُزْئيَّةٍ، لا يَفوتُهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ فِعْلٍ، ولا ما تَأخَّرَ مِنْ أثَرٍ، فالمَقصودُ من ذَلِكَ تَعْميمُ التَّوقيفِ على جَميعِ ما عَمِلَتْهُ النَّفْسُ، ومِثْلُهُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ١٣﴾ [القيامة: 13][2].

---

(1) طِباقُ الإيجابِ: هوَ جَمعُ اللَّفْظَيْنِ المُتَضادَّيْنِ في سياقٍ واحِدٍ، ليَتَّسِعَ المَعْنَى ويَبْلُغَ غايَةَ الإحاطَةِ.

(2) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 173.

تَوجيهُ عَدَمِ تَكرارِ (ما):

إيجازُ القَول وتَشريك الحُكم

جاءَ التَّعْبيرُ القُرْآنيُّ بعَدَم تَكْرارِ (ما) قَبْلَ فِعْلِ التَّأخيرِ، مِن قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ - مَعَ أنَّ المَقامَ يَقْتَضي تَعْليقَ العِلْم بمَوْصولَيْن - لأنَّ المَقْصودَ هوَ جَمعُ المَعْنَيَيْن في إطارٍ واحِدٍ، فجُعِلَت ﴿مَّا﴾ الأولَى شامِلَةً لِما قَدَّمَتهُ النَّفْسُ من أعْمالٍ، ولِما أخَّرَتْهُ مِنْ آثارٍ وتَرك، ثُمَّ أُضيفَ إليْها فِعْلُ التَّأخيرِ بالعَطْفِ، دونَ تَكْرارِ المَوْصولِ؛ للدَّلالَةِ على الاشْتِراكِ في الحُكْمِ، وكِفايَةِ ذِكْرِه مَرَّةً واحِدَةً، وهَذا مِنْ بَلاغةِ الإيجازِ؛ إذ لَيْسَ المَقْصودُ تَعْدادَ الأقْسامِ تَعْدادًا مُسْتَقِلًّا، بَلْ جَمعُها في مَعْنًى مُحيطٍ واحِدٍ، ولَوْ أُعيدَت (ما) قَبْلَ فِعْلِ التَّأخيرِ؛ لَظَهَرَ فيهِ تَفْصيلٌ وتَكْرارٌ، وقَدْ جاءَ المَقامُ يَقْتَضي الإيجازَ مَعَ التَّهْويلِ، فكانَ تَرْكُ الإعادَةِ أبْلَغَ، وفي ذَلكَ أيْضًا إشْعارٌ بأنَّ ما قَدَّمَتهُ النَّفْسُ وما أخَّرَتهُ كُلَّه كُلُّهُ في حُكْمِ شَيْءٍ واحِدٍ، يُجْمَعُ عَلَيْها، ويُكْتَبُ في صَفْحَتِها، لا فَرْقَ في المَسْؤوليَّةِ بَيْنَ ما عَجَّلَتْهُ، وما تَرَكَتْهُ يَجْري بَعْدَها.

بَلاغَةُ الكِنايَةِ:

تَوْسيعُ دائِرَةِ المَسْؤوليَّة

التَّعْبيرُ بقَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ هوَ مِنْ أساليبِ الكِنايَةِ البَليغَة، فهيَ كِنايَةٌ عَن صِفَةِ الإحاطَةِ التّامَّة بالعَمَلِ، وشُمول الحِسابِ للقَديم والحَديث، أي: كِنايَةٌ عَن شُمولِ العِلم ودَوام الأثَرِ، فالجُمْلَةُ كِنايَةٌ عَنْ جَميعِ أعْمالِ الإنْسانِ وتَبِعاتِها، ممّا فعَلَهُ مُباشَرَةً في حَياتِه، وممّا تَرَكَهُ، فجَرَى أثَرُهُ بَعْدَهُ، فقَولُه: ﴿مَّا قَدَّمَتۡ﴾ كِنايَةٌ عنِ الأعمالِ المُباشَرَة، ﴿وَأَخَّرَتۡ﴾ كِنايَةٌ عنِ الأثَرِ المُسْتَدام من خَيْرٍ أو شَرٍّ، كالعِلْمِ الَّذي يَنْتَفِعُ بِه النّاسُ، أوِ البِدْعَةِ الَّتي يُقْتَدَى بها، أوِ الظُّلْمِ الَّذي يَسْتَمِرُّ أثَرُهُ، فهيَ كِنايَةٌ تَجْمَعُ الإيجازَ مَعَ الإحاطَةِ بكُلِّ ما يَلْحَقُ الإنْسانَ مِنْ عَمَلٍ أو أثَرٍ، وهيَ أبْلَغُ في التَّهْويلِ؛ لأنَّها تُثيرُ في النَّفْسِ مَعانيَ مُتَعَدِّدَةً، فيَشْتَدُّ الخَوْفُ مِنِ اتِّساعِ الحِسابِ، وتَشَعُّبِ التَّبِعاتِ.

سِرُّ اختِلافِ التَّعْبيرِ:

إفْصاحٌ بالاستِغراق، بَعدَ استِعارَةِ الإحْضار

اختَلَفَ التَّعبيرُ بَينَ قولِ اللهِ تعالى هُنا: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾، وقولِه تعالى في سورَةِ التَّكْوير: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ١٤﴾ [التكوير: 14]، مَعَ أنَّ المَقصودَ واحِد، وذَلِكَ أنَّ مِنْ بَلاغَةِ القرآنِ تَخصيصُ كُلِّ سياقٍ بما يُناسِبه، ففي سورَةِ التَّكويرِ كان الحديثُ عن الأهوالِ المُشاهَدة مِن لَدُنِ ابتِداءِ نَفخَةِ الصَّعْقِ، إلى انتهاءِ تلك المَقاماتِ بتَسْعيرِ الجَحيمِ وإزْلافِ الجَنّة، أي: إدناؤُها لِداخِلِها، وجيء بتِلكَ الأخبارِ مَعطوفَةً بالواو المُقتَضيةِ لِلجَمع، حَتَّى كَأنَّ تِلكَ المَقاماتِ قَدْ عُبِّرَ عنها بلَفظٍ واحد، وتَحَصَّلَت حاضِرَةً لِلتَّصَوُّرِ الذِّهْنيّ؛ ناسب ذلكَ تقديرُ الأعمالِ المُتَرَتِّب عليها الجزاءُ حاضِرَةً، والعبارَةُ عنها بما يَحصُل ذلك، فقيل: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ١٤﴾ [التكوير: 14]، وكَأنَّهُ قَد قيلَ: (إذا حَضَرت هَذِهِ الأهوالُ مُدرَكَةً لِلعيان حَضَرَت أعمالُكم بالتَّذكيرِ لها، ومُطالَعَتها مَكتوبَةً مَحصورةً في الصُّحُف الَّتي لا تُغادِرُ صغيرةً ولا كَبيرة.

أمّا سورَةُ الانفطار؛ فجاءَ التَّعبيرُ فيها بقَولِه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾، بَعدَ سورَةِ التَّكويرِ لِدَفْعِ تَوَهُّم أنَّ مَوضِعَ التَّكْويرِ لَم يُفصِحْ بذِكْرِ أعمالِ الخَلائِق؛ فجاء مَوضِعُ الانفطارِ بما يُشبِهُ الحَصْرَ لِلأعمال مِنَ المُقَدَّم والمُؤَخَّر، وبذلك يكونُ التَّرتيبُ القُرآنيُّ لِسوَرِ القرآن مُؤَدّيًا لِلْمَعنَى المُراد؛ إذ جاءت سورَةُ الانفِطارِ بَعدَ سورَةِ التَّكوير[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

انفِطارُ السماءِ إعلانٌ عن بدايةِ أحداثِ السّاعةِ الكَونيَّةِ

الانفطار والانشقاق:

فَطَرَ الشَّيءَ، أي: شَقَّهُ شقًّا، فيه تَفَتُّحٌ وتفَلُّقٌ، يُقالُ: فطَرَ البَيضَةَ؛

(1) الغرناطي، وملاك التأويل، ص: 504.

إذا فلَقَها من أعلاها، فانفتَحت، ومنه: فِطْرَةُ الإنسانِ، أي: بداية خَلقِه وتكوينه على أصلِه الأوّل؛ لأنّهُ ابتُدِئ بشَقٍّ من عَدَم إلى وجودٍ[1]، فانفِطارُ السّماء يعني أنّها تشقّقَت، وتفلّقت انفلاقًا فيه تفرُّقٌ وانصداعٌ، غيرُ مصحوبٍ بضجيجٍ أوِ انهيارٍ عَنيف، بل تَصَدُّعٌ مَهيبٌ يجري بانفتاحٍ مُنَظَّم، يَظهَرُ فيه أثرُ التّدبيرِ الإلهيّ، ولهذا جاءَت في سورةٍ تُظهِرُ أهوالَ الآخرةِ بصورةٍ تأمُّليَّة، يَعقبُها توبيخٌ للإنسانِ على غُروره بربِّه.

أمّا شَقَّ الشَّيءَ؛ فمعناه: فصَلَهُ تمزيقًا وانهدامًا، وغالبًا ما يَدُلُّ الشقُّ على قوّةٍ وصوتٍ وامتدادٍ في الانفصالِ، يُقالُ: شقَّ الطريقَ، وشقَّ الثوبَ، وكلُّ ذلكَ يوحي بتقطيعٍ مصحوبٍ بعنفٍ وظُهورٍ جَليّ[2]، فانشِقاقُ السّماءُ يعني أنّها تشقَّقت تشقُّقًا ظاهرًا واسعًا يتَضَمَّنُ تهدُّمًا كبيرًا وتصدُّعًا قَويًّا؛ ولهذا جاءَت في سياقٍ يُظهر تجاوُبَ السّماءِ والأرضِ لأمرِ اللّه، كما في قولِه تعالى: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢﴾ [الانشقاق: 2]، أي: استجابَت، وطاعَت.

فالانفطارُ أدلُّ على تصدُّعٍ يصحَبُه تفرُّقٌ وانفراجٌ في البناءِ الكلّيِّ، بخلافِ الانشقاقِ الذي قد يدلُّ على فتقٍ متَّصِلٍ، فكأنّ قولَهُ تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ يُصَوِّرُ مَشْهَدًا مَهيبًا لانهدامِ نظامِ السماءِ، بانشقاقِها شقًّا مُريعًا، يُبدِّدُ انتظامَها، ويُخلّ بتماسُكِها؛ إيذانًا ببدايةِ الانقلابِ الكونيِّ الذي يُمهّدُ للبعثِ والجزاءِ؛ وأنَّ الانفطارَ هنا ليسَ مجرَّدَ شَقٍّ، بل هو تفكّكٌ في بنيَةِ السماءِ يدلُّ على زوالِ قِوامِها، وأنَّه من مَظاهِرِ التبدُّلِ الكونيِّ الذي يُنبِئُ عن دُنوِّ السّاعةِ.

فقولُه: ﴿ٱنفَطَرَتۡ﴾ إذًا: (انشقّت، وتصدّعت على وجهٍ يُذهِلُ الأبصارَ، ويَنسِفُ ما كانَ مُستقرًّا في وهْمِ الإنسانِ من ثباتِ السماءِ ودوامِها)، وهذا المعنى ظاهرٌ في الدلالة السياقيّة للسّورَتَين، فالانفطارُ في سورةِ الانفطار جاءَ بصفةٍ تَمهيديَّةٍ لِبَقيَّةِ الآياتِ، كأنّه تصويرٌ لِمُقَدِّماتِ الهَولِ الكَونيّ، الذي تَتبَعُه مشاهدُ البعثِ والحساب، فجاء قولُه: ﴿ٱنفَطَرَتۡ﴾ ملائمًا لهذا التّدرُّجِ الرّهيبِ الصّامت، ولذا تتابعَ بعده: انتِثارُ الكواكب، وتفجيرُ البِحار، وبَعْثَرَةُ القُبور.

وأمّا (الانشقاقُ) في سورةِ الانشقاق؛ جاءَ بلَهجَةٍ خاشعةٍ عابدةٍ، فقد وصَفَتِ السّماءَ

---

(1) الخليل، العين، وابن سيده، المُحكم، والزَّبيديّ، تاجُ العروس: (فطر).

(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن سيده، المُحكم، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (شقّ).

بأنّها (أذِنَت لربِّها)، أي: خضعت، وانقادت، فالانشقاقُ هُنا ليس مُجرَّدَ حَدَثٍ كونيٍّ، بل طاعةٌ كونيّةٌ، وكأنّ السّماءَ تُعلِنُ خضوعَها للّه بانْشِقاقِها طَواعيَة.

الانتِثارُ والانكِدار:

بَلاغَةُ الانتِثارِ في تَصْويرِ مَشْهَدِ الكَواكِبِ يَومَ القيامَة

الانتِثارُ يأتي من أصلِ الفعلِ: نَثَرَ، يُقالُ: نَثَرْتُ الشّيءَ؛ إذا فرَّقْتَهُ، وفرّقتَ أجزاءَهُ، ومنه: نَثَرَ الدّرَّ، ونَثَرَ الرَّمادَ، أي: بَعْثَرَهُ من تَجَمُّعٍ إلى تَفَرُّقٍ، والنَّثْرُ: رَميُكَ الشيءَ بيَدِك متفرِّقًا[1]، فانتَثَرَتِ الكواكِبُ، أي: تَساقَطَت مُتفَرِّقَةً مُنْحَلَّةَ النّظام، بَعدَما كانَت مُنتَظِمَةً في مَدارٍ واحدٍ، ففَقَدَت نِظامَها الّذي كانَ يُظهِر، في بهائها السّماويّ، ولذا فالانتثارُ يدلُّ على تَفَرُّقٍ واضطرابٍ في جِهَةٍ واحدةٍ أو جهاتٍ كثيرةٍ، مع اختلالِ النَّسَقِ وانتقاضِ الرَّبطِ، وهو ملائمٌ تمامًا لسياقِ سورةِ الانفطار، الّتي تصفُ المشهدَ الكَونيَّ بتصويرٍ تَدريجيٍّ من الفوضى والانحلالِ، ليُستكمَلَ بذكرِ البعثِ والحِساب.

أمّا الانكِدارُ؛ فهو من أصلِ الفعلِ: كَدِرَ الماءُ أو اللّونُ؛ إذا تغيّرَ صفاؤُهُ، فصارَ مُعْتِمًا[2]، وانكَدَرَ الشّيءُ: أظلَمَ، وتَعَكّرَ، وتَغيَّرَ وجهُهُ، والكُدْرَةُ مِنَ الألوان: ما نَحا نَحْوَ السَّوادِ والغُبْرَة[3]، فانكَدَرَتِ النُّجومُ، أي: زالَ ضياؤُها، واستَحالَ سُقوطُها في ظُلمَةٍ وبَهَتانٍ، وذكر ابن فارس أنّ معنى (كَدَرَ) الكافُ والدّال والرّاء أصلان، يدلُّ أحَدُهما على خِلافِ الصَّفو، والآخر على حَرَكَة[4]، وفي ذلك دلالةٌ أخرى على حَرَكَتِها من أفلاكها، وتَزَحْزُحِها عنها، فهي قد خَفَتَ ضَوْؤُها، وانطَمَسَ جَمالُها، وهي تَبَدَّدَت عن أفلاكها، وهَذا مُناسِبٌ لِسياقِ سورةِ التكوير؛ إذ تُصَوِّرُ الكائناتُ

(1) الخليل، العين، وابن سيده، المُحكم، والزَّبيديّ، تاجُ العروس: (فطر).
(2) الخليل، العين: (كدر).
(3) ابن سيده، المُحكم: (كدر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كدر).

الكونيّةُ في خَوْفٍ وذُعْرٍ وقَهْرٍ كونيٍّ عارمٍ؛ يناسبهُ أن تنكدرَ النجومُ إيذانًا بزوالِ عالَمٍ كانَ فيها الضّياءُ والهداية.

وبذَلِكَ يكون كُلُّ لَفْظٍ قَدْ وُضِعَ في سياقِهِ المُناسِب، فـ﴿ٱنتَثَرَتْ﴾ في سورَةِ الانفطارِ تُؤَدّي مَعْنَى انحِلالِ نِظامِ الكَواكِبِ وانفراطِ عِقْدِها، فجاءَت موافِقَةً لِسياقٍ يُريدُ إرخاءَ الهَولِ في نَفْسِ السّامِعِ، وتَفْكيرِه في نِهايَةِ الأمرِ، وتَرْكِ الإنسانِ بَيْنَ مواجَهَةٍ لِنَفْسِهِ ورَبِّه، و﴿ٱنكَدَرَتْ﴾ في سورَةِ التَّكْويرِ فيها إشْعارٌ بانْطِماسِ نورِ النُّجوم، وذَهابِ ضيائِها، فالنُّجومُ أو الشُّموس هي مَصادِرُ الطّاقَةِ الكونيَّةِ، وكَأنَّ هَذا التَّعبيرَ دَلَّ على انطِفاءِ العالَمِ في انهيارٍ تامٍّ، مِمّا يَشْتَدُّ تَأْثيرُهُ على السّامِعِ، الّذي يُصْغي لِتَصَوُّرِ خاتِمَةِ الدُّنْيا بوَجْهٍ مُظْلِمٍ لا مَهْرَبَ فيهِ.

القُبورُ والأجْداث:

لَيسَتِ القُبورُ كالأجداثِ، وإنِ اشْتَرَكَتا في دلالةِ المَدْفَنِ، فالقرآنُ لا يُكرِّرُ لفظًا لمعنًى يُمكِن أن يُكتَفَى له بمُرادِفٍ، بَلْ يُفَرِّقُ بَينَ اللَّفْظَينِ حينَ تَختَلِفُ زَوايا النَّظَرِ، والهَدَفُ التصويريُّ أوِ الإيقاعيُّ أوِ النَّفْسيُّ، فالقافُ والباءُ والرّاءُ أصلٌ يَدُلُّ على غُموضٍ في شَيءٍ وتَطامُنٍ، مِن ذَلِكَ: قَبْرُ المَيّت، يُقال: قَبَرْتُه أقْبُرُه[1]، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ۝٢١﴾ [عبس: 21]، فالقَبرُ: هو اسمٌ للمَوْضِعِ المَعروفِ مِنَ الأرضِ، الذي يُقْبَرُ فيه الإنسانُ، أي: يوارَى في الأرض[2]، وغالِبًا ما يَرِدُ لَفظُ القَبْرِ لاعتبارِهِ مَوضِعًا خارِجيًّا مَحسوسًا؛ ولهذا جاءَ في سورةِ الانفطارِ قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾؛ لِيُصَوِّرَ انْكِشافَ ما فيها، وانقِلابَ حالِها ظاهِرًا بَعدَ بَطْنٍ، كما تُبَعْثَرُ التُّرْبَةُ لِيُكشفَ ما تحتَها، و﴿بُعۡثِرَتۡ﴾ فيها مَعنَى القلْبِ والتّفتيتِ والفَضْحِ، فالمَشهَدُ هنا يُظهِرُ أهوالَ البعثِ من جِهَةِ انكشافِ المَستورِ، لا الخروجِ منه فحَسْب.

أمّا الأجْداثُ؛ فمُفْرَدُها الجَدَثُ، والمُرادُ به القَبْرُ، وجَمعُهُ أجْداثٌ[3]، ويُطلَقُ في الاستِعمالِ على أشَدِّها عُمقًا أو خَفاءً، أو يُقالُ: هو أكثر؛ ما يُطلَقُ على ذاتِ القَبرِ في باطنِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قبر).
(2) الخليل، العين: (قبر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جدث).

الأرضِ، وفيه دلالةٌ على مَوْضعِ الدَّفْنِ في باطِنِ الأرضِ، لا على سَطْحِها، ولهذا جاءَ في سورةِ يس: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١﴾ [يس: 51]، فالسّياقُ هنا يُصوِّرُ لحظةَ الانبِثاقِ المفاجِئَةِ لِلْبَعثِ، خُروجًا سَريعًا من أعماقِ الأرضِ، كأنّهم يَنسَلّون انْسِلالًا خَفيًّا سريعًا، وورَدَ في سورةِ القمر كذلك: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾ [القمر: 7]، وهنا التشبيهُ يُقَوّي المعنى الصّوريَّ للكثرةِ والذُّعْرِ والانْبِعاثِ من طيِّ الخفاءِ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: 6 - 8]

الرَّبْطُ بَينَ مَشْهَدِ البَـ، ثِ ومَناطِ المُحاسَبَة

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بعدَ أن صوَّرَتِ الآياتُ السابقةُ انقلابَ نِظامِ الكونِ في ذلكَ اليومِ المُهيبِ، حينَ تَتشقَّقُ السَّماءُ، وتَتَساقَطُ الكواكبُ، وتتفجَّرُ البِحارُ، وتُبعثَرُ القبورُ: جاءَ الخطابُ الإلَهيُّ؛ ليَلتفِتَ إلى الإنسانِ التِفاتَةَ المُرَبّي للمُقصِّر، فيقولُ له مُعاتِبًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾؟ وهذا الانتقالُ مِنَ الوصفِ الكَونيِّ العامِّ إلى الخِطابِ النَّفسيِّ الخاصِّ، هو بحَدِّ ذاتِهِ إنذارٌ بليغٌ؛ إذْ يُشيرُ إلى أنَّ الإنسانَ ليسَ بمَنْأًى عن هذا الانقلابِ العظيمِ، بل هو في صَميمِ الحدَثِ، وعليهِ يقعُ الحِسابُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿غَرَّكَ﴾: (غرر) أَصْلٌ يَدُلّ على الخِداعِ والتَّزيينِ الباطلِ الذي يوقِعُ في الغَفْلَةِ والاغترارِ، ومنه قولُهم: (غَرَّهُ الشَّيءُ)، أي: خدَعَهُ، وأطمعَهُ بما لا حقيقةَ له، و(الغرورُ) ما يُظهِرُ خلافَ واقعِه، كأنْ يُزيِّنَ لِلمَرءِ الباطِلُ، فيَظنَّهُ خيرًا، أو يُؤمَنَ العِقابُ، فيُهمَلَ الحساب، ويُقال (أغَرُّ من ظَبْيٍ مُقمِر)؛ لأنَّهُ يَخْرُجُ في اللَّيْلَةِ المُقْمِرَةِ يَرَى أنَّهُ النَّهارُ، فتأكُلُه السِّباعُ[1]. وقَدْ جاءَ الفِعْلُ هُنا ﴿غَرَّكَ﴾ على وجْهِ اللَّوْمِ والت؛َّوْبيخِ والتَّبْكيتِ لِلعَبْدِ الَّذي يَأْمَنُ مَكْرَ الله، ولا يَخافُهُ[2]، لا على وجهِ الاستفهامِ الحقيقيّ، فالمعنى: (أيُّ شيءٍ أغراكَ حتى ر: كَنَتَ إلى الأمنِ، وغَفَلَتَ عنِ الحسابِ، وأمِنْتَ من لقاءِ ربِّكَ الكريم؟).

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (غرر).

(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (غرر).

2) ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾: (سوي) أصلٌ يَدُلُّ على الاعتدالِ والتَّقويم والتَّسويةِ بين الأجزاءِ على نحوٍ مستقيم[1]؛ يُقالُ: (سوّى الشَّيءَ)، أي: جعلَه متناسقًا متناسبًا معتدلًا بلا خللٍ ولا فُجاءةٍ[2]، و(سوّى البناءَ)، أي: أحكمَ تركيبَه، فجعلَه مُتَّسِقَ الشَّكْلِ مُتَوازِنَ الأركانِ، و(سوّى الخَلْقَ)، أي: هذّبَ صورتَه وأكملَ خَلْقَهُ في أحسنِ تقويم[3]. فمَعنى (سَوّاكَ) في الآية: (أحسنَ خلقَكَ بعد أنِ ابتَدأَكَ مِنَ العَدَم، فسوَّى أعضاءَكَ، وناسَبَ بينَ قواكَ، وأكمَلَ صورَتَكَ البشريّةَ على الهيئةِ التي تليقُ بكَ، من غيرِ زيادةٍ تُشَوِّهُ، ولا نُقصانٍ يُخِلُّ).

3) ﴿فَعَدَلَكَ﴾: (عدل) أصْلٌ يَدورُ على مَعْنَى الاستِواءِ والتَّوازُنِ والتَّناسُبِ والتَّقويم والمَيْلِ إلَى جِهَةِ الاعتِدالِ والتَّسْوِيَةِ بَيْنَ الأشْياءِ، فالعَدْلُ: المَرْضيُّ مِنَ النّاسِ قَوْلُهُ وحُكْمُهُ[4]، ويُقالُ: (عَدَلَ الشَّيءَ) إذا قَوَّمَهُ، وجَعَلَهُ مُسْتَوِيًا مُعْتَدِلًا، و(عَدَلَ الخَلْقَ)؛ إذا صَوَّرَهُ تَصْويرًا مُسْتَقيمًا، لا مَيْلَ فيهِ ولا اضْطِرابَ، فمَعنَى (عَدلَكَ) في الآية: (أعْطاكَ أيُّها الإنسانُ التَّوازُنَ الكامِلَ في خَلْقِكَ، فرَكَّبَ أعْضاءَكَ على هَيْئَةٍ مُتَناسِبَةٍ، لا اخْتِلالَ فيها، ولا زِيادَةَ تُشَوِّهُ، ولا نُقْصانَ يُخِلُّ، وجَعَلَكَ مُعْتَدِلَ القامَةِ، مُسْتَقيمَ البِنْيَةِ في ظاهِرِكَ وباطِنِكَ).

4) ﴿صُورَةٍ﴾: (صور) أصْلٌ يَدلُّ على الهيئةِ الظاهرةِ للشيءِ، والشكلِ الذي يكونُ عليه الشيءُ حِسًّا أو تقديرًا، فالصّورَةُ: ما يُنْتَقَشُ به الأعيان، ويَتَمَيّز بها غيرُها، وذلك ضَرْبان: أحَدُهما محسوسٌ يُدرِكه الخاصّة والعامّة، بَلْ يُدرِكه الإنسانُ وكَثيرٌ من الحيوان، كَصورَةِ الإنسانِ والفرَس، والحِمار بالمُعايَنَة، وهذا المعنى الحِسّيُّ هو الأصلُ عندَ الإطلاق، والثاني: مَعقولٌ يُدرِكُه الخاصّةُ دون العامّة، كالصّورَةِ التي اختَصَّ الإنسانُ بها من العقل، والرَّويَّة، والمعاني التي خُصَّ بها شيءٌ بشيء، وإلى الصّورَتَيْن أشارَ بقوله تعالى: ﴿يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ [آل عمران: 6]، ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: 11]، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: 64]، وقال هنا: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(2) أحمد مختار وآخرون، معجم اللغة العربية المُعاصرة: (سوي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(4) الخليل، العين: (عدل).
(5) الأصفهانيّ، المفردات: (صور).

5) ﴿رَكَّبَكَ﴾: (ركب) أصلٌ يَدُلُّ على عُلوِّ شَيءٍ شَيئًا[1]، وعلى ضمِّ بعضِ الأشياءِ إلى بعضِها بحيثُ تصيرُ شَيئًا واحدًا متماسكًا، فالمُرَكَّبُ هو المُثبَتُ في الشَّيء، كتركيب الفصوص[2]، ويُقالُ: (رَكَّبَ الشيءَ)، أي: ألْحَقَ بعضَ أجزائِه ببعضٍ حتّى صارَت هيئةً واحدةً، و(رَكِبَ الشيءَ)، أي: عَلاهُ، واستولى عليه[3]، لكنَّ (التركيبَ) أخصُّ من (الرُّكوبِ)؛ لأنَّه يدلُّ على إحداثِ البِنيَةِ بتأليفِ أجزائِها ورَبطِها على نظامٍ مخصوصٍ، فمعنى ﴿رَكَّبَكَ﴾: (ألَّفَ أعضاءَك وأجزاءَك الظاهرةَ والباطنةَ تركيبًا مُحكَمًا دَقيقًا، وجَمَعَ ما فيك من قوًى ومَلَكاتٍ على وجْهٍ يُحَقِّقُ لكَ صِفةَ الإنسانِ، ويُهيِّئُك لِما خُلقتَ له من التمييزِ والتكليفِ)، وهذا التركيبُ يَشمَلُ الجانِبَ المادّيَّ من أعضاءٍ وجوارحَ وأجهزةٍ جَسَديّةٍ، كما يَشمَلُ الجانبَ المعنويَّ من العقلِ، والنَّفسِ، والضميرِ، والإرادةِ، والاستعدادِ لمعرفةِ الخيرِ والشرِّ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

عِتابٌ بَليغٌ للإنسانِ الغافِلِ بَينَ يَدَيْ مَشاهِدِ القيامَة

في هَذِهِ الآياتِ يوَجِّهُ الخطابُ الإلهيُّ سؤالًا استِنكاريًّا فيه عَتَبٌ رفيقٌ ولَومٌ عَميقٌ للإنسان الغافل المُفَرِّط في حَقِّ رَبِّه، قائِلًا لَه: (ما الذي خدَعَكَ حتّى اجتَرَأْتَ على معصيته، وأعرضتَ عن طاعة ربِّكَ الذي عَمَّ إحسانُه، واتَّسعَ فضلُه، وأمهَلَكَ رَغْمَ تقصيرِك، ولم يُعاجِلْكَ بعقوبةٍ؟) ثمّ يُذكِّرُه هذا الربُّ الكريمُ ببعضِ نِعَمِه العُظمَى عليه، قائلًا لَه: (الَّذي خلقَكَ من نُطفةٍ مَهينةٍ، فسوَّى خَلْقَكَ، وعدَّلَ أعضاءَكَ، فصَيَّرَكَ كاملَ البُنيةِ، مُعتَدِلَ الصّورَةِ، ركَّبَكَ على الهيئَةِ التي شاءَها بحِكمَتِه، فجعَلَ لك السمعَ والبصرَ والفؤادَ، وهيَّأ لك أسبابَ الكرامةِ والتَّمييزِ).

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ركب).
(2) الخليل، العين: (ركب).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (ركب).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالَةُ النِّداء:

العِتابُ الفَرْديُّ، بَعْدَ الانهيارِ الكَوْنيِّ

إقامَةُ أُسْلوبِ النِّداءِ بَعْدَ ذِكْرِ أَهْوالِ القيامَةِ في قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ هوَ تَحْويلٌ بَيانيٌّ مُفاجِئٌ، يَنْتَقِلُ بالسّامِعِ مِنْ مَشاهِدِ الكَوْنِ المُنْقَلِبِ والقُبورِ المُبَعْثَرَةِ، إلَى مواجَهَةٍ خاصَّةٍ وعتابٍ مُباشِرٍ، فكَأَنَّ القُرْآنَ بَعْدَ أَنْ هَزَّ الوُجودَ كُلَّهُ، وقَلَبَ السَّماءَ والأَرْضَ، أَقْبَلَ على الإنسانِ وحْدَهُ يُسائِلُهُ عَنْ غَفْلَتِه، وبَعْدَ هَذا النِّداءِ المُفاجِئِ جاءَتِ المواجَهَةُ بالسُّؤالِ التَّوْبيخيِّ: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾، فاقْتَرَنَ التَّوْبيخُ بالتَّذْكيرِ بِصِفَةِ الكَرَم، على وجْهٍ يُلْقي في النَّفْسِ مَعْنَى الحَياءِ والخَجَلِ، كَأَنَّ المُخاطَبَ أمامَ رَبٍّ مُتَفَضِّلٍ لا يَليقُ أَنْ يُقابَلَ إِحْسانُهُ بجُحودٍ وغُرورٍ.

فأُسلوبُ النِّداءِ في الآيَةِ لِلتَّنبيهِ بما سَيُلْقَى بَعدَهُ مِنَ الكَلام؛ تَنبيهًا يُشعِرُ بالاهتِمامِ والاستِدعاءِ لِسَماعِه؛ فلَيسَ النِّداءُ مُستَعْمَلًا في حَقيقَتِه؛ إذْ ليسَ مُرادًا به طَلَبُ إقبالٍ، ولا هوَ موَجَّهٌ لِشَخْصٍ معيَّنٍ، أو جَماعَةٍ مُعَيَّنَة، بَلْ مِثْلُه يوَجِّهُهُ المُتَكَلِّمُ لِكُلِّ مَنْ يَسْمَعُه، بِقَصْدٍ أَوْ بغَيرِ قَصْدٍ(1).

دَلالَةُ التَّنبيه:

تَنبيهُ الغافِلِ، وتَهْيِئَةُ النَّفْسِ لِلْعِتابِ

جيءَ بـ(ها) في قَولِ اللّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ﴾ فاصِلَةً بَيْنَ المُنادَى وصِفَتِه؛ لِتُشْعِرَ السّامِعَ بجَلَلِ المُخاطَبَةِ ووُجوبِ الانْتِباهِ إلَيْها، وهَذا التَّنْبيهُ مَقْصودٌ لِذاتِه؛ لأَنَّ الإنْسانَ من طَبْعِه الغَفْلَةُ والاغترار، فكانَ المَقامُ يَقْتَضي أَنْ يُساقَ إِلَيْهِ العِتابُ على نَحْوٍ يوقِظُهُ مِنْ هَذِهِ الغَفْلَة، فأتَى اللَّفْظُ في صورَةِ تَنْبيهٍ مُمَهِّدٍ لِلتَّوْبيخِ الَّذي بَعْدَهُ: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾، وبهَذا يكونُ التَّنْبيهُ في ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ قَدْ

(1) طنطاوي، الوسيط: 1/ 4457.

أفادَ تَشْديدَ الاسْتِماعِ، وتَهْيِئَةَ النَّفْسِ لِلتَّلَقّي، كَما يُفْعَلُ في المُخاطَباتِ العَظيمَةِ الَّتي لا يُرادُ فيها أنْ يَسْهوَ السّامِعُ عَنْ كَلِمَةٍ واحِدَةٍ.

سِرُّ العُدولِ في صِفَةِ المُنادَى:

بَلاغَةُ التَّحَوُّلِ مِنَ الإجمالِ إلَى المواجَهَة

عُدِلَ عَنِ التَّعْبيرِ بالنَّفْس - كما في الآيَةِ السّابِقَة: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ - إلَى التَّصْريحِ بالإنْسانِ في قَولِ اللّٰه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾؛ لأنَّ المُرادَ هُنا التَّوْجيهُ إلَى جِنسِ الإنسانِ في طَبعِهِ المُتَساهِلِ المُغتَرِّ، فكَأنَّهُ قيلَ: (يا مَنْ طَبعُكَ الغُرورُ، ومَيلُكَ إلَى الغفلَةِ، ما الَّذي غرَّكَ؟)، وبِهَذا يَكونُ الانتِقالُ مِن (نَفْسٍ) إلَى ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ قَدْ جاءَ للانتِقالِ مِن مَقامِ العُمومِ في الحِسابِ، إلى مَقامِ التَّوْجيهِ الخاصِّ باللَّوْمِ والتَّوْبيخِ.

فالتَّعْبيرُ أوَّلًا بالنَّفْس في قَوْلِهِ تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ جاءَ لإفادَةِ الاستِغْراقِ والتَّعْميمِ؛ إذ يَنْصَرِفُ إلَى كُلِّ نَفْسٍ على انفِرادِها عِنْدَ تَحَمُّلِها وِزْرَ أعْمالِها، ثُمَّ انتَقَلَ من العامّ - وهو كلُّ نَفسٍ - إلى الإنسان، وهوَ كلُّ مُخاطَبٍ مِن بَني آدَم، بقَطْعِ النَّظَرِ عَنْ ديانَتِه[1]. فالمَقامُ في الأوَّلِ مَقامُ مَشْهَدٍ جامِعٍ يَتَناوَلُ الخَلْقَ كافَّةً في حالِ الحِسابِ، ثُمَّ انْتَقَلَ الكَلامُ إلَى المواجَهَةِ والعِتابِ.

وفي التَّعْبيرِ بالإنسانِ هُنا إشارَةٌ إلى تَكْريمِه بالإنسانيَّةِ، فهيَ أفْضَلُ ما يَتَمَيَّزُ بها عَن سائِرِ الأحياء؛ فاللَّفْظُ يُؤَكِّدُ مَعنَى اللَّوْمِ والتَّوْبيخِ في الآيَةِ، ويُقَوّي دَعْوَةَ الإنسانِ إلَى عَدَمِ الاغْتِرارِ بحِلْمِ اللّٰه وعَفْوِه.

دَلالَةُ تَعْريفِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

عُمومُ الخِطابِ وشُمولُ المُؤاخَذَة

(الـ) في قَولِ اللّٰه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ﴾؛ لتَعريفِ الجِنسِ[2]، فهو لأجلِ الاستِغراقِ الجِنسيِّ؛ إذْ يَنصَرِفُ الخِطابُ إلَى

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن: 20/ 2.
(2) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 173.

جِنسِ الإنسانِ كافَّةً، دونَ أن يَختَصَّ بفَرْدٍ أو جيلٍ، فكُلُّ مَن يَندَرِجُ تَحتَ هَذا الجِنسِ هوَ مَعنيٌّ بالتَّوبيخِ والتَّسْفيهِ على غَفلَتِهِ واغترارِهِ، فإنَّ في طَبعِ الإنسانِ قابليَّةً لِهَذا الغُرورِ، كَأنَّ القُرآنَ يواجِهُ الخَلقَ في جِنسِهِم المُشتَرَكِ؛ ليَقولَ: (هَذِهِ عِلَّتُكُمُ الأصيلَةُ يا بَني آدَمَ)، والتَّعريفُ هُنا يَحمِلُ في طَيّاتِهِ التَّهويلَ والتَّفظيعَ؛ إذْ لا مَفرَّ لِأحَدٍ مِنَ الدُّخولِ في سُلطانِ هَذا العِتابِ، وبهَذا يَتَبَيَّنُ أنَّ فائدَةَ التَّعريفِ هيَ: إحاطَةُ الخِطابِ بجَميعِ النّاسِ، وإظهارُ كَونِ المُعاتَبَةِ لَيسَت أمرًا يَختَصُّ بفَرْدٍ مُعَيَّنٍ، بَل هيَ شَأنُ الإنسانِ في جِنسِهِ، فليَحذَرْ كُلُّ واحِدٍ على نَفْسِه.

وَيَجوزُ أنْ يَكونَ التَّعْريفُ لِلعَهْدِ، على أنَّ المُرادَ بالمخاطَبِ هُنا أهلُ الكُفرِ والغَفْلَةِ خاصَّة، فلَيْسَ التَّعْريفُ للاستِغراقِ، وإنّما لتَعريفِ الحَقيقَةِ الَّتي هُم فيها مِنَ الكُفرِ والعِنادِ، فالفَرقُ بَينَ المَعنَى الأوَّلِ والمَعنَى الثّاني أنَّ (الـ) الجِنْسيَّةَ الاستِغراقيَّةَ تَدُلُّ على الإطلاقِ، وأمّا (الـ) العَهْديَّةُ؛ فهيَ تَدُلُّ على نَوعٍ مُعَيَّنٍ مِنَ النّاس، والمُرادُ بهِمُ الكَفَرَة، ففيها عُمومُ النَّوْعِ.

بَلاغَةُ الاستِفْهامِ بـ﴿مَا﴾:

التَّـوْبـيـخُ والتَّـفْـظـيـعُ في مواجَهَةِ الغُرورِ الإنسانيّ

الاستِفْهامُ في قَولِ اللّه تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ استِفهامٌ مَجازيٌّ خَرَجَ مِن إرادَةِ حَقيقَتِهِ إلى مَعنَى الإنكارِ والتَّوبيخِ والتَّعجيبِ من الإشراكِ باللّه، أي: (لا موجِبَ لِلشِّرْكِ وإنكارِ البَعْثِ، إلّا أن يَكونَ ذَلِكَ غُرورًا غَرَّهُ الشَّيْطانُ؛ ولَيسَ المُرادُ من الاستِفْهامِ طَلَبَ الجَوابِ؛ إذ لا جَوابَ يُتَصَوَّرُ أن يَكونَ مَقبولًا أو مُستَساغًا، فالمُقتَضَى المَقاميُّ أنَّهُ استِفهامٌ توبيخيٌّ يُظهِرُ أنَّهُ لا شَيءَ يُمكِنُ أن يَكونَ سَبَبًا مَعقولًا لِغُرورِ الإنسانِ وانخِداعِهِ، خُصوصًا، وأنَّهُ اغْتَرَّ برَبٍّ مَوصوفٍ بالكَرَم.

وأوثِرَ الاستِفْهامُ بالأداةِ ﴿مَا﴾ في هَذا المَوْطِنِ دونَ غَيرِها من

أدَواتِ الاستِفهام؛ لإفادَةِ التَّعْميم والتَّحْقير، فهي تُطْلَقُ في الغالِبِ على ذَواتِ ما لا يَعقِلُ وأجناسِه وصِفاته[1]، فيُفيدُ السُّؤالُ بها أنَّ ما غَرَّ الإنْسانَ هوَ أمرٌ دَنيٌّ لا يَسْتَحِقُّ أنْ يُلْتَفَتَ إلَيْه، فإنَّهُ لَوْ تَفَكَّرَ العاقِلُ؛ لَما وجَدَ سبَبًا للغرور يُقابِلُ كَرَمَ رَبِّه، فصارَ مَعْنَى الاستِفهام: (أيُّ شَيْءٍ - مَهْما كانَ - يَصْلُحُ أنْ يَكونَ داعيًا لِغُرورِكَ وإغْفالِكَ؟ والحالُ أنَّ رَبَّكَ الَّذي اغْتَرَرْتَ بِهِ هوَ الكَريمُ الَّذي مَنَحَكَ أصْلَ الوُجودِ وجَمالَ التَّسْوِيَةِ والاعتِدالِ).

سِرُّ العُدولِ عَنِ التَّعْبيرِ بالمَوصول:

إيجازُ التَّوبيخ، وتَكثيفُ المَعنَى

عُدِلَ عنِ لتَّعْبيرِ بالاسم المَوْصولِ، كَأنْ يُقالَ: (ما الَّذي غَرَّكَ؟)، إلَى التَّعْبيرِ المُجَرَّدِ: ﴿مَا غَرَّكَ﴾؛ لِما في حَذْفِ المَوْصولِ من الإيجازِ الَّذي يُناسِبُ مَقامَ التَّوْبيخِ، فإنَّ الاستِفْهامَ هُنا لَيْسَ مُرادًا مِنْهُ طَلَبُ المَعْلوم، بَلْ إظْهارُ أنَّهُ لا سَبَبَ يُعْتَدُّ بِهِ في غُرورِ الإنْسانِ، ولَوْ قيلَ: (ما الَّذي غَرَّكَ؟)؛ لَأشْعَرَ التَّعْبيرُ بأنَّ هُناكَ سَبَبًا حَقيقيًّا يُمكِنُ أنْ يُذْكَرَ، ويُعَيَّنَ، بَيْنَما التَّرْكيبُ الوارِدُ أبْلَغُ في التَّسْفيهِ والتَّبْكيتِ؛ إذْ يَجْعَلُ الغُرورَ بذاتِهِ مَحَلَّ الاسْتِفْهامِ، كَأنَّهُ أمرٌ مُسْتَغْرَبٌ لا يَقومُ عَلَيْهِ بُرْهانٌ.

بلاغة استعمال مفردة الاغترار:

اسـتِـسـلامُ المَغْرورِ للخُدعَةِ الواهيَة

جاءَ التَّعْبيرُ بالغُرورِ دونَ غَيْرِهِ من ألفاظِ الخَديعَةِ في قَولِ اللّٰه تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾؛ لأنَّ الغُرورَ يوحي بأنَّ المَغْرورَ لَهُ حَظٌّ مِن إيهامِ نَفْسِه، ومِنْ إضْفاءٍ على الباطِلِ مَظاهِرَ الحَقِّ، قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ [المُلك: 20]، يعني: (ما الكافِرونَ إلّا في باطِلٍ)[2]، مِنْ ذلِكَ قَولُ حَسّانَ بْنِ ثابِتٍ، وهوَ يَهْجو أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ، ويَقولُ:

---

(1) المُبَرّد، المُقتضب: 2/ 52، والزّركشيّ، البرهان: 4/ 402.

(2) ابن عباس، مسائل ابن الأزرق: 1/ 142.

تَمَنّيك الأمانيَّ مِنْ بَعيدٍ *** وقَوْلُ الكُفْرِ يَرْجِعُ في غُرورِ[1]

فَكانَ في اخْتيارِ هَذا اللَّفْظِ إشارَةٌ إلَى أنَّ الإنْسانَ هوَ السَّبَبُ الأَوَّلُ في غُرورِهِ؛ إذْ لا يُتَصَوَّرُ أنْ يَكونَ رَبُّهُ الكَريمُ مَظِنَّةً لِغُرورٍ أبَدًا، فمُفْرَدَةُ الغُرورِ تُصَوِّرُ حالَ الإنْسانِ الَّذي أمِنَ مَكْرَ اللهِ، وغَفَلَ عَنْ يَوْمِ الحِسابِ، وكَأنَّهُ مُسْتَسْلِمٌ لِخُدْعَةٍ واهيَةٍ لا مَقومَ لَها.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بالماضي:

تَصويرٌ لِلغَفْلَةِ بأنَّها أمرٌ واقِعٌ لا يُنْكَر

جاءَ التَّعْبيرُ عَنْ فِعْلِ الغُرورِ بصيغَةِ الماضي في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾؛ لِيُصَوِّرَهُ في أمرٍ قَدْ تَحقَّقَ، واسْتَقَرَّ؛ لأنَّ المُرادَ لَيْسَ مُجَرَّدَ الاستِفْهامِ عَنِ السَّبَبِ، بلِ التَّوْبيخُ على حالٍ صارَت كَأنَّها ماضيَةٌ لا مَحالَةَ، فالإنْسانُ مُنْذُ أنْ ألْهَتهُ لَذّاتُهُ، وغَرَّتهُ أمانيهِ، فقَدْ وُصِفَ بالغُرورِ، كَأنَّهُ أمرٌ فائِتٌ مُنْقَضٍ، وإنْ كانَ مُسْتَمِرًّا في الواقِعِ، وهَذا مِنْ بَلاغَةِ القُرْآنِ؛ إذْ يَسْتَعْمِلُ الماضيَ؛ لِلدَّلالَةِ على الثُّبوتِ والتَّحقُّقِ، وإن كانَ الأمرُ جاريًا ومُستَمِرًّا، فقيلَ: ﴿غَرَّكَ﴾ إظْهارًا؛ لأنَّ الغُرورَ قَدْ وقَعَ، وتَحَقَّقَ فيكَ أيُّها الإنْسانُ، فلا عُذْرَ بَعْدَهُ ولا مَفرَّ.

دَلالَةُ الجارِّ والمَجْرور:

الغُرورُ بشأنِ اللهِ سَبَبُ الإشْراكِ به

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالباءِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ لِلمُلابَسَةِ، كَما في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ٣٣﴾ [لُقْمان: 33]، أيْ: لا يَغُرَّنَّكُم غُرورًا مُتَلَبِّسًا بشَأْنِ اللهِ، أيْ: مُصاحِبًا لِشُؤونِ اللهِ مُصاحَبَةً مَجازيَّةً، وإذْ كانَتِ المُلابَسَةُ لا تَتَصَوَّرُ ماهيَّتُها مَعَ الذَّواتِ، فقَدْ تَعَيَّنَ في باءِ المُلابَسَةِ؛ إذا دَخَلَت على اسْمِ ذاتٍ أنْ يَكونَ مَعَها تَقْديرُ شَأْنٍ مِنْ شُؤونِ الذّاتِ يُفْهَمُ مِنَ المَقامِ، فالمَعْنَى هُنا: (ما غَرَّكَ بالإشْراكِ برَبِّكَ)، كَما يَدُلُّ عَلَيْهِ

(1) السيوطيّ، الإتقان: 1/ 128، ولم يرد البيت في: (الديوان)، واستشهد به ابن هشام في: (سيرة ابن هشام): 3/ 90.

قَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ الآيَةُ، فإنَّ مُنْكِرَ البَعْثِ يَوْمَئِذٍ لا يَكونُ إلّا مُشْرِكًا[1]، فجاءَ الحَذفُ والتَّعْديَةُ المَجازيَّةُ بالباءِ لِلدَّلالَةِ على أنَّ الغُرورَ كَأنَّهُ تَعَلَّقَ بالرَّبِّ نَفْسِه، فصارَ أَبْلَغَ في التَّوْبيخ؛ إذْ كَيْفَ يَغْتَرُّ الإنْسانُ بِرَبِّهِ الكَريمِ، وهوَ الَّذي خَلَقَهُ، فسَوّاهُ فعَدَلَهُ؟.

نُكتَةُ التَّعبيرِ بعُنوانِ الرُّبوبيَّة:

إيقاظُ الغافِلِ المَغرورِ وتوبيخُهُ على اغتِرارِه بِمَنْ لا يَنبغي أنْ يُغتَرَّ به

آثَرَ القُرآنُ الكَريمُ التَّعْبيرَ بعُنْوانِ الرُّبوبيَّةِ في قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ﴾ دونَ ذِكْرِ اسْمِ الجَلالَةِ؛ لِما في مَعْنَى الرَّبِّ مِنَ المُلْكِ والإنْشاءِ والرِّفْقِ، ولِما فيهِ من تَذْكيرِ الإنْسانِ بموجباتِ استِحْقاقِ الرَّبِّ طاعَةَ مَرْبوبِه؛ لأنَّ الرَّبَّ هوَ المُتَكَفِّلُ بالتَّدْبيرِ والتَّرْبيَةِ والإنْعامِ مُنْذُ أوَّلِ النَّشْأةِ، فالتَّذْكيرُ بهَذا الوَصْفِ فيهِ إيقاظٌ لِلْغافِلِ المَغْرورِ، وتَوْبيخٌ لَهُ على أنَّهُ اغْتَرَّ بمَنْ لا يَنْبَغي أنْ يُغْتَرَّ بهِ، بَلْ يَجِبُ أنْ يُطاعَ، ويُعَظَّمَ.

دَلالَةُ الإضافَة:

الإشْعارُ بُصوصِ النِّعَمِ وشِدَّةِ القُرْب

جاءَ ذِكْرُ الرَّبِّ مَضافًا إلَى ضَميرِ المُخاطَبِ، في قَولِ اللّه تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾؛ لِلإشْعارِ بخُصوصِ النِّعْمَةِ وشِدَّةِ الاتِّصالِ، فكَأنَّهُ يَقولُ: (هوَ رَبُّكَ أنْتَ، الَّذي تكَفَّلَ بإنْشائِكَ وتَسْويَتِكَ وتَعْديلِكَ، فكَيْفَ يَسوغُ لَكَ أنْ تَكونَ غَريرًا بهِ؟).

فَفي الإضافَةِ تَشْريفٌ لِلْمُخاطَبِ، وإقامَةٌ لِلْحُجَّةِ عَلَيْهِ، فإضافَةُ الشَّيْءِ إلَى المُخاطَبِ تُشْعِرُ بخُصوصِ صِلَةٍ بَيْنَ المُضافِ والمُضافِ إلَيْهِ، وقُربِهِ منه، فهوَ سبحانه الَّذي تَوَلَّى خَلْقَكَ، وسَوّاكَ، وعَدَلَكَ، فلا مَجالَ لأنْ تَغْتَرَّ بهِ، أو تُعْرِضَ عَنْهُ.

بَلاغَةُ انتِقاءِ صِفَةِ ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾:

في انتِقاءِ: صِفَةِ الكَريمِ دونَ غَيْرِها مِنْ صِفاتِ الرُّبوبيَّةِ، في قَولِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 174.

تَـقـويـةُ صِـفَـةِ الـكَـرَمِ لِمَعنَـى التَّوْبيخِ لِلإنسانِ المُغْتَرِّ

اللّه تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ نُكْتَةٌ بَليغَة، فإنَّ المُقامَ لَيْسَ مَقامَ إظْهارِ القُدْرَةِ أوِ العَدْلِ، وإنَّما هوَ مَقامُ تَعْجيبٍ مِنْ جُرْأةِ الإنْسانِ على عِصْيانِ رَبِّه، مَعَ أنَّهُ رَبٌّ مُتَّصِفٌ بأجَلِّ صِفاتِ الإنْعامِ والفَضْلِ، فاخْتيارُ صِفَةِ الكَريمِ يُظْهِرُ أنَّ غُرورَ الإنْسانِ إنَّما حَدَثَ مِنْ جِهَةِ إمعانِهِ في سوءِ الاستِغْلالِ لِرِفْقِ رَبِّهِ وحِلْمِه، وفي ذَلِكَ تَهوينٌ لِعُذْرِه وتأْكيدٌ لِإثْمِه؛ إذْ كَيْفَ يَسْتَجيزُ المَخْلوقُ أنْ يَغْتَرَّ بكَرَمِ مَنْ أغْدَقَ نِعَمَهُ وأفضالَه عَلَيه، مِنَ الخَلْقِ والتَّسْوِيَةِ والتَّعْديل؟ فالكريمُ حَقيقٌ بالشُّكْرِ والطّاعَةِ[1].

دَلالَةُ الجَمعِ بَينَ الوَصْفَين:

جاءَ التَّعبيرُ بوَصفَي الرُّبوبيَّةِ والكَرَم في قَولِ اللّه تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾؛ لِلْجَمعِ بَيْنَ عُنْوانِ التَّرْبيَةِ والإنْعامِ ومَعْنَى الفَضْلِ الجَزيلِ، فيَظْهَرُ أنَّ المُخاطَبَ ما كانَ يَنْبَغي لَهُ إلّا أنْ يَكونَ مُعَظِّمًا شَكورًا، وفي الجَمعِ بَينَهُما ذِكرٌ لِموجِبِ الشُّكْر، وإسْقاطٌ لِكُلِّ شُبهَةٍ في الاغترار.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمَوصوليَّة:

المَـوصـولُ مَـعَ صِلَتِه أقـوَى في العِتابِ والتَّوبيخ

جاءَ التَّعْبيرُ بالاسم المَوصولِ ﴿بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ دونَ أنْ يُقالَ (بِرَبِّكَ الخالِقِ)؛ لِما فيه مِنْ دَلالَةِ التَّعظيم[2]، وفيه مِنْ خِلالِ صِلَتِه دَعْوَةٌ لِلنَّظَرِ إلَى الفِعْلِ المُعَيَّنِ الَّذي لا يَسْتَطيعُ الإنْسانُ إنْكارَهُ، وهوَ أنْ خَلَقَهُ رَبُّهُ، وأنْشَأَهُ مِنْ عَدَم، فالمَوْصولُ مَعَ صِلَتِهِ يُعَدُّ أقْوَى في التَّوْبيخ؛ لأنَّهُ يُلْزِمُ المُخاطَبَ بالاعْتِرافِ بالمُنْعِمِ عَلَيْهِ في أعْظَمِ ما يَملِكُ، وهوَ وُجودُهُ نَفْسُهُ، ولَوْ قيلَ: (الخالِقُ)؛ لَكانَ ذِكْرُ الصِّفَةِ على سَبيلِ الإطْلاقِ، دونَ أنْ تَتَّجِهَ بِهِ الأنْظارُ إلَى حَقيقَةٍ مُحَسَّةٍ قَدْ وقَعَت على المُخاطَبِ بنَفْسِه، فالاسْمُ المَوْصولُ هُنا أبْلَغُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 175.

(2) السّامرّائي، معاني النّحو: 1/ 111.

في إيقاعِ الحُجَّةِ وتَثْبيتِ المُنازَعَةِ في مَوْضِعِ التَّوْبيخِ، وهوَ أيْضًا أشَدُّ موافَقَةً لِسياقِ التَّفْصيلِ بَعْدَهُ: ﴿فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾.

بَلاغَةُ العُدولِ إلَى الفِعْليَّة:

الجَمعُ بَينَ تَعظيمِ الله وتذكيرِ الإنسانِ بآلائِه

في اختِلافِ التَّعْبيرِ بَيْنَ الاسمِ في قَوْلِ اللهِ تعالَى: ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ وبَيْنَ الفِعْلِ في قَوْلِه تَعالَى: ﴿خَلَقَكَ﴾ نُكْتَةٌ بَلاغيَّةٌ جَليَّة؛ إذْ إنَّ الاسْمَ ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ دالٌّ على صِفَةٍ ذاتيَّةٍ ثابِتَةٍ لِلرَّبِّ، تَقْتَضي أنَّ كَرَمَهُ دائِمٌ غَيْرُ مُنْقَطِعٍ، وأنَّ إحْسانَهُ سابِغٌ على العِبادِ في جَميعِ أحْوالِهِم، فهوَ تَعْبيرٌ بالاسْمِ لِلدَّلالَةِ على الثُّبوتِ والاسْتِمرارِ.

أمّا الفِعْلُ ﴿خَلَقَكَ﴾؛ فقَدْ جيءَ بِهِ لِلتَّنْبيهِ على فِعْلٍ مُحَدَّدٍ مُحَقَّقٍ، هوَ إيجادُ الإنْسانِ بَعْدَ أنْ لَم يَكُنْ شَيْئًا، وما تَرَتَّبَ على ذَلِكَ مِنْ تَسْويَتِه وتَعْديلِ خِلْقَتِه، فالاسْمُ لِلصِّفَةِ الأزَليَّةِ الدّائِمَةِ، والفِعْلُ لِلتَّصْويرِ المُشاهَدِ والمَظْهَرِ المُحَسَّسِ، وبِهَذا التَّنْويعِ جَمَعَ القُرْآنُ بَيْنَ تَثْبيتِ صِفَةٍ عامَّةٍ مُطْلَقَةٍ هيَ الكَرَمُ، وبَيْنَ إرْجاعِ النَّظَرِ إلَى نِعْمَةٍ مَعْلومَةٍ مُحَسَّةٍ هيَ الخَلْقُ والتَّسْويَةُ والتَّعْديلُ، وذَلِكَ أبْلَغُ في التَّوْبيخِ على الغُرورِ؛ إذْ يَجْمَعُ بَيْنَ تَعظيمِ المُنْعِمِ الدّائِمِ وبَيْنَ تَذْكيرِ المَخاطَبِ بِحالِ نَفْسِه المَخْلوقَة.

تَوجيهُ التَّعبيرِ بالماضي:

دَلالَةُ الماضي على التَّوبيخِ والإلزام

جاءَ التَّعْبيرُ بِصيغَةِ الماضي في قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾؛ لِلدَّلالَةِ على التَّحَقُّقِ والإنْجازِ، فإنَّ الماضيَ يَسْتَدْعي إلَى الذِّهْنِ أمرًا قَدْ وقَعَ، واسْتَقَرَّ، فكَأنَّ المُخاطَبَ مَطْلوبٌ مِنْهُ أنْ يَسْتَحْضِرَ نَفْسَهُ مَخْلوقًا بَعْدَ أنْ لَم يَكُنْ شَيْئًا[1]، فيَكونَ في ذَلِكَ أبْلَغُ تَذْكيرٍ بِنِعْمَةِ الإيجادِ، ولَم يُؤْتَ بالمُضارِعِ (يَخْلُقُكَ)؛ لأنَّهُ يوحي بالاستِمرارِ في الوَقْتِ الحاضِرِ، والمَقامُ هوَ الإلزامُ بِنِعْمَةٍ مُحَقَّقَةٍ، قَدْ وجَدَ الإنسانُ

(1) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 8/ 110.

آثارَها في نَفْسِهِ وجِسْمِهِ، فاستِعْمالُ الماضي يُثْبِتُ التَّبْكيتَ، ويُرَكِّزُ العِبْرَةَ؛ إذْ يَجْعَلُ المَعْنَى كَأنَّهُ أمامَ العَيْنِ، ويَكْشِفُ سوءَ الغُرورِ مِنَ المَغْرورِ بَعْدَ هَذِهِ الحَقيقَةِ المُحَقَّقَةِ.

دَلالَةُ الفاءِ:

الــتَّرتــيــبُ والــتَّــصْــويــرُ المُتَدَرِّجُ لِلنِّعْمَةِ

جاءَ التعبيرُ بالفاءِ في قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ دونَ غيرِها مِنْ حُروفِ العَطْفِ؛ لإفادةِ التَّرْتيبِ والتَّعْقيبِ[1]، باعتِبارِ أنَّ الخَلْقَ هوَ أوَّلُ الإيجاد؛ فالتَّسْوِيَةُ جاءَت تاليَةً لِفعْلِ الخَلْقِ مُباشَرَةً، دونَ فاصِلٍ، فكأنَّهُ قيلَ: (خَلَقَكَ، فإذا أنْتَ مُسَوًّى مُعَدٌّ في أحْسَنِ قِوامٍ)، وهَذا التَّرْتيبُ يُشْعِرُ بالعِنايَةِ والقَصْدِ المُحْكَمِ في تَدْبيرِ أمرِ الإنْسانِ، ودَلالَتُها في المَقامِ لَيْسَت مُجَرَّدَ التَّعاقُبِ الزَّمَنيّ، بَلْ هيَ إشارَةٌ إلَى الارتِباطِ المُحْكَمِ بَيْنَ المُقَدِّمَةِ والنَّتيجَةِ؛ فإنَّ الخَلْقَ هوَ أصْلٌ، والتَّسْويَةَ مُرَتَّبَةٌ عَلَيْهِ كَثَمَرَةٍ لا تَتَخَلَّفُ، فكانَ في إيرادِ الفاءِ تَفْصيلٌ بَيانيٌّ يَكْشِفُ تَدَرُّجَ الن، مَةِ، ويُقَرِّرُ كَمالَ التَّصْري؛فِ الرَّبّاني.

وَيَجوزُ أنْ تَكونَ الفاءُ لِلتَّفْريعِ؛ باعتِبارِ التَّسْوِيَةِ جُزءًا مِنْ عَمَليَّةِ الخَلْقِ الشّامِلَة؛ إذْ فرَّعَ فِعْلَ (سَوّاكَ) على ﴿خَلَقَكَ﴾، وفِعْلَ (عَدَّلَكَ) على (سَوّاكَ)؛ تَفْريعًا في الذِّكْرِ، نَظَرًا إلَى كَوْنِ مَعانيها مُتَرَتِّبَةً في اعْتِبارِ المُعْتَبِرِ، وإنْ كانَ جَميعُها حاصِلًا في وقْتٍ واحِدٍ، فلا تَكونُ الفاءُ لِلتَّعْقيبِ؛ إذْ هيَ أطْوارُ التَّكْوينِ مِنْ حينِ كَوْنِه مُضْغَةً إلَى تَمامِ خَلْقِهِ، فكانَ لِلْفاءِ في عَطْفِها أحْسَنُ وقْعٍ، كَما في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: 2 - 3][2].

دَلالَةُ تَرْتيبِ التَّسْوِيَةِ على الخَلْقِ:

تَرتيبُ النِّعَمِ الإلَهيَّةِ على وجْهِ الكَمالِ

جاءَ النَّظْمُ القُرآنيُّ بتَرْتيبٍ دَقيقٍ في تَقديمِ فِعلِ الخَلْقِ على التَّسويَةِ مِنْ قَولِ اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾؛ مُراعاةً لِتَرتيبِ

(1) سيبويه، الكتاب: 1/ 218.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 176.

الإيجاد؛ فإنَّ الخَلْقَ إخْراجٌ لِلمَوْجودِ مِنْ عَدَم، وذَلِكَ هوَ البدايَةُ الأولَى الَّتي لا مَجالَ لِلتَّسْويَةِ قَبْلَها، ثُمَّ جاءَتِ التَّسْويَةُ بَعْدَهُ دَلالَةً على أنَّ الإيجادَ لَم يَكُنْ هَمَلًا، بَلْ تَبِعَهُ تَهْيِئَةٌ وتَنْسيقٌ وتَأْليفٌ لِلصّورَةِ البَشَرِيَّةِ على نِظامِ الاعتِدالِ والكَمالِ، وفي هَذا التَّرْتيبِ مَعْنًى بَليغٌ يُصَوِّرُ مَراحِلَ الإنْعامِ على الإنْسانِ؛ فإنَّهُ لَوْ لَم يُخْلَقْ أصْلًا لَما احْتيجَ إلَى تَسْوِيَةٍ، ولَوْ خُلِقَ بلا تَسْوِيَةٍ؛ لَكانَ مَسْلوبًا مَقامَ الإنسانيَّةِ الَّتي هيَ مَظْهَرُ الكَرامَةِ والاصْطِفاءِ، وأيضًا فإنَّ تَرتيبَ التَّسْوِيَةِ على الخَلْقِ يَحمِلُ صِفَةَ التَّدَرُّجِ والتَّرَقّي في كَمالِ الخَلقِ وتَمامِه.

بَلاغَةُ استِعْمالِ مُفْرَدَةِ التَّسويَة:

تَصويرٌ دَقيقٌ لِجَمالِ الخِلْقَةِ وكَمالِ التَّسْوِيَة

إنَّ اخْتيارَ فِعلِ التَّسويةِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾ يَحْمِلُ في طَيّاتِهِ إشارَةً بَليغَةً إلَى أنَّ عَمَلَ الخَلْقِ لَم يَكُنْ مَحْضَ إيجادٍ بَعْدَ العَدَم، بَلْ هوَ إحْكامٌ وتَنْسيقٌ، وعِنايَةٌ مُفَصَّلَةٌ بتَرْتيبِ القوَى والأعْضاءِ على ما يُلائِمُ المَقاصِدَ العُلْيا الَّتي خُلِقَ الإنْسانُ لَها، فالتَّسْوِيَةُ تُفيدُ مَعْنًى زائِدًا على مَعْنَى الخَلْقِ، وهوَ إقامَةُ الخِلْقَةِ على نِظامِ الاعْتِدالِ وجَمالِ التَّرْكيبِ، والإحكامُ والتقويمُ والتناسبُ في التكوينِ، ففي قولِه تعالى: ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ دلالةٌ على أنَّ الإنسانَ مَخلوقٌ في أحسَنِ تقويم؛ تسويةً في خَلقِهِ الظّاهِرِ، مِن تَناسُقِ الجوارحِ، وتناسُبِ الأطرافِ، واعتدالِ الهيئةِ، وتسويةً في خلقِه الباطنِ، من عقلٍ راجحٍ، وفِطرةٍ مستقيمةٍ، واستعدادٍ للتمييزِ بينَ الخيرِ والشرِّ، فلَيسَت تَسويَةُ الإنسانِ تَسويَةَ مادَّةٍ فقَط، بَلْ تَسويَةُ صورَةٍ ومَعْنًى، جَسَدٍ وروحٍ، ظاهِرٍ وباطِنٍ، وفي التَّعْبيرِ بهَذا اللَّفْظِ مَسْحٌ لِقَلْبِ الإنْسانِ يُذَكِّرُهُ بنِعْمَةٍ ماثِلَةٍ في كُلِّ لَحْظَةٍ؛ إذْ لَوْ تَأمَّلَ هَيْئَةَ وجْهِهِ أو تَناسُقَ جَوارِحِه؛ لَرَأى أنَّ المُسَوِّيَ لَهُ قَدْ أسْبَغَ عَلَيْهِ مِنَ الإتقانِ ما يَجْعَلُهُ يَصْطَفي، ويَتَمَيَّزُ على سائِرِ المَخْلوقاتِ.

دَلالَةُ الفاء:

تَـدَرُّجُ النِّعمَةِ مِنَ الخَلْقِ إلى كَمالِ الاعتِدال

الفاءُ في قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ تُفيدُ التَّرْتيبَ والتَّعْقيب، جاءَت بَعْدَ ذِكْرِ التَّسْوِيَةِ؛ لِتَدُلَّ على أنَّ العَدْلَ والاعْتِدالَ كانا ثَمَرَةً مُتَرَتِّبَةً على التَّسوِيَةِ، كَما كانَتِ التَّسْوِيَةُ نَفْسُها مُتَرَتِّبَةً على الخَلْقِ، فالنَّصُّ يَرْسُمُ تَدَرُّجًا بَديعًا لِنِعَمِ اللّهِ على الإنسانِ: خَلْقٌ، ثُمَّ تَسْوِيَةٌ، ثُمَّ تَعديل، وفي هَذا التَّعاقُبِ تَصْويرٌ لِمَراحِلِ خَلْقِ الإنسانِ المُتَتالِيَة؛ لأنَّ التَّسْوِيَةَ الَّتي هيَ تَهْيِئَةُ الأعْضاءِ وتَنْسيقُ البُنْيَةِ، لا تُؤْتي غايَتَها إلّا إذا انْضَمَّ إلَيْها التَّعْديلُ في النِّسَبِ والقوَى، فالفاءُ لَها دَورٌ أصيلٌ في هَذا المَعْنَى الدَّقيقِ؛ لأنَّ الخَلْقَ أصْلٌ، والتَّسْوِيَةَ تَكْميلٌ لِلْخَلْقِ، والعَدْلَ تَكْميلٌ لِلتَّسْوِيَةِ، وهَذا مِمّا يُشْعِرُ بأنَّ الإنْعامَ الإلَهيَّ جاءَ على مَراتِبَ مُتَراقِيَةٍ، كُلُّ دَرَجَةٍ مِنْها تُفْضي إلَى الأُخْرَى، حَتَّى يَتِمَّ المَنْحُ، ويَكْمُلَ التَّكْريمُ.

دَلالَةُ تَرتيبِ التَّعديلِ على التَّسْوِيَة:

بَـيـانُ مَـراحِـلِ الإنعامِ الإلَهيّ

إنَّ تَرْتيبَ الفِعْلِ ﴿فَعَدَلَكَ﴾ بَعْدَ ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ جاءَ على نَسَقٍ بَلاغيٍّ يُفيدُ تَدَرُّجَ العِنايَةِ الإلَهيَّةِ بالإنْسانِ، فالتَّسْوِيَةُ أوَّلًا هيَ جَعْلُ الجَسَدِ في قامَةٍ مُسْتَوِيَةٍ وأعْضاءٍ مُناسِبَةٍ، وذَلِكَ ما يُشيرُ إلَى إخْراجِ الخَلْقِ في صورَةٍ تامَّةٍ، ثُمَّ يأتي بَعْدَهُ التَّعْديلُ، وهوَ أرْقَى مَرْتَبَةً؛ إذْ يَتَضَمَّنُ جَعْلَ القوَى مُعْتَدِلًا بَيْنَ الغَريزَةِ والعَقْلِ، وبَيْنَ الجِسْمِ والرّوحِ، فيَصيرُ الإنسانُ مُهَيَّأً لِلتَّكْليفِ والاخْتيارِ، فإذا كانَت ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ دالَّةً على جَمالِ البُنْيَةِ وإتقانِ الخَلْقِ، فإنَّ ﴿فَعَدَلَكَ﴾ تَدُلُّ على حِكْمَةِ التَّقْديرِ ووَضْعِ كُلِّ جارِحَةٍ وقوَّةٍ في مَوْضِعِها، وبِذَلِكَ يَكونُ التَّرْتيبُ مُشيرًا إلَى تَرَقّي الإنْعامِ: مِن خَلْقٍ، إلَى تَسْوِيَةٍ، إلَى تَعْديلٍ.

بَلاغَةُ استِعمالِ مادَّةِ العَدْل:

عَـقْـدٌ بَـلاغـيٌّ يَـجـمَـعُ بَـيـنَ الخِلقَةِ والقِيَم

إنَّ استِعْمالَ فِعْلِ العَدْلِ في قَولِ اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ يَحْمِلُ بَلاغَةً رَفيعَةً؛ إذْ هوَ لا يَقْتَصِرُ على مَعْنَى التَّقْويمِ في

الخَلْقِ، بَلْ يَتَضَمَّنُ مَعَ ذَلِكَ إشارَةً إلَى جَعْلِ الإنْسانِ في نِسْبَةٍ مُعْتَدِلَةٍ بَيْنَ القوَى والغَرائِزِ، وبَيْنَ الجِسْمِ والرّوحِ، فاللَّفْظُ يُفيدُ التَّعْديلَ بَيْنَ الأطْرافِ والمَلَكاتِ، كَما يُفيدُ التَّسْوِيَةَ في الخِلْقَةِ والقامَةِ، فمَعْنَى (عَدَلَك) في الآيَةِ: أنَّ اللّه خَلَقَكَ أيُّها الإنسانُ على أحْسَنِ وجْهٍ مِنَ الاعتِدالِ والتَّناسُبِ، ورَكَّبَ أجْزاءَكَ بحَيْثُ لا يُمكِنُ أنْ يُضافَ إلَيْكَ شَيْءٌ إلّا أفْسَدَكَ، ولا يُنْقَصَ مِنْكَ شَيْءٌ إلّا أضَرَّ بكَ، فجاءَ خَلْقُكَ بَيْنَ الإفْراطِ والتَّفْريطِ، كَما جاءَ عَقْلُكَ بَيْنَ الغَريزَةِ الخالِصَةِ والعَجْزِ التّامِّ.

وَمِنْ هُنا كانَ ذِكْرُ العَدْلِ مُناسِبًا لِسياقِ التَّوْبيخِ؛ لِأنَّهُ يُذَكِّرُ الإنْسانَ بأنَّ اللّه تَعالَى لَم يُعْطِهِ صورَةً فقَطْ، بَلْ جَعَلَهُ كائِنًا مُتَّزِنًا مُهَيَّأً لِلْفِكْرِ والإرادَةِ والاخْتيارِ؛ فكانَ مِنَ المُسْتَغْرَبِ أنْ يَنْحَرِفَ عَمّا هوَ مَعْدولٌ فِطْرَةً إلَيْهِ، وبِهَذا يَتَجَلَّى أنَّ لَفْظَ (عَدَلَكَ) يَجْمَعُ بَيْنَ مَعْنَى الاعْتِدالِ الحِسّيِّ والاعْتِدالِ المَعْنَوِيِّ، وهوَ مِمّا يُشيرُ إلَى كَرامَةِ الإنْسانِ وإلَى مَسْؤوليَّتِهِ في الوُجودِ؛ إذْ نَلمَحُ في كَلِمَةٍ واحِدَةٍ مِثْلَ: (عَدَلَكَ) عَقْدًا يَجْمَعُ حَلَقاتِ البِنْيَةِ البَدَنيَّةِ مَعَ القيمَةِ الأخْلاقيَّةِ؛ حَتَّى يَصيرَ الإنْسانُ شاهِدًا على نَفْسِهِ أنَّهُ أُعْطيَ مِفْتاحَ الاسْتِقامَةِ، ثُمَّ أغْفَلَهُ.

بَلاغَةُ تَرتيبِ الأفْعالِ:

التَّدَرُّجُ في النِّعَمِ إيـقـاظٌ لِـغَـفْـلَـةِ الإنسانِ

إنَ ترتيبَ الأفْعالِ: ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ هو مِنْ قَبيلِ فنِّ التَّرَقّي، فكَأنَّهُ يَنْقُلُ السّامِعَ من نِعْمَةِ الإيجادِ إلَى نِعْمَةِ التَّسْوِيَةِ، ثُمَّ إلَى نِعْمَةِ الاعتِدالِ في البُنْيَةِ والطَّبْعِ، وهيَ أخصُّ وجوهِ الجمالِ والاعتدالِ في الخلقةِ، وكُلُّ ذَلِكَ يُملي على العَقْلِ أنْ يَسْتَحْيِيَ مِنَ الاغترارِ الَّذي نَهَى عَنْهُ الخِطابُ العَزيزُ بقَولِه: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾، وفي هَذا التَّرتيبِ إبرازُ كَمالِ التَّدبيرِ ومَظْهَرِ القُدرَةِ الإلَهيَّةِ في خَلقِ الإنسانِ وكَمالِ الامتِنانِ عَلَيه.

وجاءَ تَرتيبُ هَذِهِ الأفعالِ على نَسَقٍ يُصَوِّرُ تَدَرُّجَ مَراتِبِ التَّكوينِ الإنسانيِّ على أكمَلِ وجهٍ، فالبِدايَةُ بالخَلْقِ دَليلٌ على إيجادِ الجَوهَرِ بَعدَ العَدَمِ، ثُمَّ أُتبِعَ بالتَّسْوِيَةِ، وهُيَ إعطاءُ القامَةِ والاستِواءِ والمَظهَرِ الحَسَنِ، ثُمَّ جاءَ العَدْلُ والتَّعْديلُ؛ ليُفيدَ موازَنَةَ الأعضاءِ وتَقسيمَها على نَحوٍ مُتَناسِبٍ؛ تَمهيدًا لقوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾.

القراءات الواردة في ﴿فَعَدَلَكَ﴾ وتوجيهها وبلاغتها:

بديع خلق الله للإنسان

قرأ الكوفيّون بتخفيف الدَّالِ: ﴿فَعَدَلَكَ﴾، وقرأ الباقون بتَشْدِيدِهَا: ﴿فَعَدَّلَكَ﴾ [1]. فمن قرأ بالتخفيف فعلى معنى: (عَدَلَ بَعْضُك ببعض، فصِرْتَ معتدلَ الخَلْق متناسِبَه، فلا تفاوت في خلقك)، وقيل: معناه: (عَدَلك أي: شَبَهَ أبيك أو خالك أو عمك)، أي: (صَرَفك إلى شَبَهِ مَن شاء مِن قرابتك). ومن قرأ بالتشديد فعلى معنى: (سوَّى خلقك في أحسن صورة وأكمل تقويم، فجعلك قائمًا، ولم يجعلك كالبهائم متطأطئًا)[2]. وقراءة التشديد فيها مشاكلة ﴿رَكَّبَكَ﴾ بعدها.

دَلالَةُ ﴿فِيٓ﴾:

دَلالَةُ الاندِراجِ والاحتِواءِ في سياقِ التَّذكيرِ بالقُدرَةِ الإلَهيَّة

آثر القرآنُ الكَريمُ التَّعبيرَ بحَرْفِ الظَّرفيَّةِ في قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾؛ لِما يَحمِلُهُ مِن دَلالَةٍ مُناسِبٍ لِهذا السّياقِ، يُمَيِّزُهُ عَن غَيرِهِ مِنَ الحُروفِ، فهوَ لَيْسَ مُجَرَّدَ حَرْفِ جَرٍّ يَدُلُّ على الظَّرْفيَّةِ المَكانيَّةِ، بَلْ هوَ مَسوقٌ لإفادَةِ الاحتواءِ والاندراجِ، كَأَنَّ الإنْسانَ مُحاطٌ بالصّورَةِ، الَّتي أرادَها اللهُ لَهُ، لا مَفَرَّ لَهُ عَنْها؛ لذلك كانَ التَّعْبيرُ بالحَرْفِ ﴿فِيٓ﴾ يُفيدُ أنَّ الصّورَةَ حاصِرَةٌ لِجَميعِ ذاتِ المَخْلوقِ، وأنَّهُ مُنْدَرِجٌ فيها، كانْدِراجِ الجِسْمِ في المَكانِ، وهَذا

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 399.
(2) مكّي، الكشف: 2/ 364.

أبْلَغُ مِنْ أنْ يُقالَ: (على أيِّ صورَةٍ) أو (بِأيِّ صورَةٍ)؛ إذْ لا يُفيدُ ذَلِكَ مَعْنَى الاحتواءِ التّامِّ، الَّذي يوحي بأنَّ الإنْسانَ مُرَكَّبٌ في تِلْكَ الصّورَةِ الَّتي اصْطَفاها لَهُ، ومِنْ فوائِدِ التَّعبيرِ بها تجسيدُ مَعْنَى الاحتواءِ الَّذي يَكْشِفُ لِلإنْسانِ ضَعْفَهُ وانطِواءَهُ تَحْتَ سُلْطانِ القُدْرَةِ الإلَهيَّة، لِيَسْتَحْيِيَ مِنَ الاغْترارِ والانخِداعِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ﴿أَيِّ﴾:

كَمالُ المَشيئَةِ الإلَهيَّةِ، والعِتابُ الضِّمنيُّ لِلإنسان

آثَرَ القرآنُ الكَريمُ التَّعبيرَ بـ﴿أَيِّ﴾، في قَوْلِ اللَّه تَعالَى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾؛ لِما تَحملُهُ مِن مَعنَى الإبْهام، فأصلُ معناها يَظْهَرُ بالمُضافِ إليه، فتُستَعْمَلُ لِلعاقِلِ ولِغَيرِه[1]، وتَقَعُ على المُفْرَدِ والجَمعِ، وجاء هَذا الإبْهامُ؛ ليَدُلَّ على أنَّ المَجالَ مُتَعَدِّدُ الجِهاتِ، وأنَّ المُرادَ إفادَةُ التَّنَوُّعِ والاختِلافِ، لا التَّعْيينُ والتَّحْديدُ.

وَمِنْ فوائِدِ استعمالِ ﴿أَيِّ﴾ في الآيَةِ تَعَدُّدُ المُرادِ المُحتَمَلِ بها، فيَجوزُ أنْ يكون مَعناها الاستفهامَ، والمراد بها الكِنايَةُ عنِ التَّعَجُّبِ من حالِ ما أُضيفَت إليه، لِما فيهِ منَ الكَمالِ والعَظَمَة، فكانَ ذلكَ مَنْشَأَ دَلالَتِها على الكَمالِ، ويَجوزُ أن تكون مَوصولَةً[2]، على معنى (رَكَّبَكَ في الصّورَةِ الَّتي شاء)، وهذا يَدُلُّ على أنَّ مَشيئَةَ اللَّه تَعالَى مُطْلَقَةٌ في أنْ يُرَكِّبَ الإنْسانَ على أيِّ صورَةٍ أرادَها، مِنْ طولٍ أو قِصَرٍ، ومِنْ حُسْنٍ أو قُبْحٍ، ومِنْ قوَّةٍ أو ضَعْفٍ، إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِن اختِلافِ الأحْوالِ والخِلقات، وفي هَذا التَّنَوُّعِ تَحفيزٌ لِلعَقْلِ إلَى التَّفَكُّرِ في عَظيمِ قُدرَتِهِ سُبحانَهُ الَّتي لا حَدَّ لَها.

دَلالَةُ تَنكيرِ ﴿صُورَةٖ﴾:

تَفخيمُ القُدرَة، وتَعظيمُ الصّورَة

إنَّ تَنْكيرَ كَلِمَةِ ﴿صُورَةٖ﴾ في قَوْلِ اللَّه تَعالَى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ فيهِ دَلالَةٌ على التَّنَوُّعِ والكَثْرَة؛ لِيُشْعِرَ بأنَّ تَصاريفَ الصّوَرِ

(1) السّامرّائي، معاني النّحو: 1/ 129.
(2) السّامرّائي، معاني النّحو: 1/ 129.

الَّتي يُمكِنُ أنْ يُخْلَقَ عَلَيْها الإنْسانُ غَيْرُ مَحْدودَةٍ، وأنَّ المَجالَ فيها مَفْتوحٌ على وُجوهٍ شَتَّى لا يُحْصيها عَدٌّ.

ومِن فوائدِ التَّنْكيرِ أنَّهُ مَسوقٌ مَساقَ التَّهْويلِ، كَأنَّ المَقْصودَ تَذْكيرُ الإنْسانِ بأنَّهُ مُعَرَّضٌ أنْ يَكونَ على أيِّ صورَةٍ، فما وُجودُهُ في صورَةٍ مُعَيَّنَةٍ إلّا مَحْضُ فضْلٍ واخْتيارٍ إلَهيٍّ، ومِنَ الثّابتِ في عِلْمِ الوراثَةِ اليَوْمَ أنَّ الإنسانَ يَتَكَوَّنُ من سِتَّةِ مِلْياراتٍ مِنَ الجيناتِ، يَحْصُلُ عَلَيْها بالتَّساوي من كِلا الوالِدَيْنِ، وكُلُّ جينٍ من هذِهِ المِلياراتِ لَهُ وظيفَةٌ مُحَدَّدَةٌ، ويَتَحَمَّلُ مَسْؤوليَّةَ نَقْلِ صِفاتٍ قَدْ تَكونُ مَوْروثَةً من جِهَةِ الأُمِّ، والأخْوالِ والخالاتِ وأجْدادِهِم وجَدّاتِهِم، أوْ مِن جِهَةِ الأبِ، والأعْمامِ والعَمّاتِ وأُصولِهِم(1).

بَلْ لَوْ شاءَ رَكَّبَكَ في غيرِ صورَةِ الإنسانِ، فجاءَ تَصويرُكَ على صورَةِ الحَيَواناتِ المُتَعَدِّدَةِ في أشكالِها، فمِنَ الحَقائقِ العِلميَّةِ في خَلْقِ الكائناتِ الحَيوانيّةِ، وقُربِها من خَلْقِ الإنسانِ أنَّ كثيرًا من الحيواناتِ تشتركُ مع الإنسانِ في أكثرَ من 80٪ من الجيناتِ، التي لو رُكِّبَت بطريقةٍ معيَّنةٍ؛ لتغيَّرت صورةُ الإنسانِ إلى مَخلوقٍ حَيوانيٍّ آخر(2)، فيَستَحضِر السّامِعفي أنَّ المَشيئَةَ الإلَهيَّةَ كانَت قادِرَةً على أن تَجعَلَهُ في أيِّ صورَةٍ مِمّا يَخطُرُ، أو لا يَخطُرُ في البالِ، من طولٍ أو قِصرٍ، أو حُسنٍ أو قُبحٍ، أو قُدرَةٍ أو ضَعفٍ، أو حَتّى في صورَةٍ أُخرَى غَيرِ مَألوفَةٍ لِلنَّوعِ البَشَريِّ، وبِهَذا كانَ في التَّنْكيرِ إشْعارٌ بالقُدْرَةِ المُطْلَقَةِ الَّتي لا يَحُدُّها قَيْدٌ، فكُلُّ صورَةٍ مُمكِنَةٍ مُدْرَجَةٌ تَحْتَ مَشيئَةِ الخالِقِ.

دَلالَةُ ﴿مَّا﴾:

التَّعبيرُ بـ﴿مَّا﴾ مِنْ قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾

تَنَوُّعُ الدَّلالَةِ البَلاغيَّةِ في الخِطابِ القُرآنيّ

(1) الدليمي، رحلة في ذاكرة الجينوم: 17 و99.
(2) الدليمي، رحلة في ذاكرة الجينوم، ص: 110.

مُتَعَدِدُ المُرادِ المُحتَمَلِ بها، فيجوز أنْ تكونَ ﴿مَّا﴾ موصولَةً - وهيَ الَّتي تَقَعُ على صِفاتِ ما يَعقِلُ[1] - و﴿شَآءَ﴾ صِلَتُها، والعائِدُ مَحذوفٌ تقديرُه: (شاءَه)، والمعنى: (رَكَّبَكَ التَّركيبَ الَّذي شاءَه)، وناسَبَ إبهامَ ﴿أَيِّ﴾ وُرودُ ﴿مَّا﴾؛ لأنَّ "(ما) مُبهَمَةٌ، تَقَعُ على كُلِّ شيءٍ"[2]، وعُدِلَ عنِ التَّصريحِ بمصدرِ ﴿رَكَّبَكَ﴾ إلى إبْهامِهِ بـ﴿مَّا﴾ الموصولةِ؛ للدَّلالةِ؛ على تَفْخيمِ الموصولِ، بما في صِلَتِهِ منَ المَشيئَةِ المُسْنَدَةِ إلى ضميرِ الرَّبِّ الخالِقِ المُبْدِعِ الحَكيمِ، وناهيكَ بها[3].

وَيَجوزُ أن تَكونَ صِلَةً بَينَ ﴿أَيِّ﴾ وفِعلِ المَشيئَةِ، والغَرَضُ منها التَّوكيدُ والتَّهويل، كَأنَّ التَّقديرَ: (في أيِّ صورَةٍ شاءَ رَكَّبَكَ)، وصِلَتُها تُكسِبُ التَّركيبَ قوَّةً في الدَّلالَةِ، وتَفخيمًا لِشَأنِ تَصريفِ المَشيئَةِ الإلَهيَّةِ في خَلقِ البَشَرِ وتَركيبِ أعضائِهِم وصوَرِهِم، ويَجوزُ أنْ "يُقال: في ﴿مَّا﴾ مَعْنَى الشَّرْطِ والجَزاءِ، والمَعْنَى: (أيِّ صورَةٍ ما شاءَ أنْ يُرَكِّبَكَ فيها رَكَّبَكَ)، ويَكنُ ﴿شَآءَ﴾ بمَعْنَى (يَشاءُ)"[4].

بَلاغَةُ استِعْمالِ ﴿شَآءَ﴾:

تَصريفُ أشْكالِ البَشَرِ خاضِعٌ لِلمَشيئَةِ الإلَهيَّة

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بفِعلِ المَشيئَةِ في قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾؛ لأنّهُ دالٌّ على إسنادِ تَركيبِ الإنسانِ في صورَتِهِ إلَى مَشيئَةِ اللهِ المُطلَقَةِ، دونَ تَقييدٍ بعِلَّةٍ أو داعٍ، فكانَ في ذِكرِ ﴿شَآءَ﴾ تعظيمٌ لِقَدرَةِ اللهِ التّامَّةِ على تَصريفِ أشكالِ البَشَرِ وهَيكَلَتِهِم، وتَذكيرٌ لِلبَشَرِ بأنَّ صورَتَهُم الَّتي هُمْ عَلَيها لَيسَت حَتمًا طَبيعيًّا، بَل هيَ مُرتَبِطَةٌ بمَشيئَةٍ حُرَّةٍ مُطلَقَةٍ لا يُدرَكُ كُنهُها.

والتَّعبيرُ بالمَشيئَةِ في سياقِ التَّوبيخِ للإنسان الغافل يُؤَكِّدُ أنَّ

---

(1) السّامرائي، معاني النحو: 1/ 120.

(2) سيبويه، الكتاب: 2/ 309.

(3) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 177.

(4) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 555.

الغُرورَ بِكَرَمِ الرَّبِّ غَفلَةٌ عَن أنَّ الكَرَمَ مَقرونٌ بِالقُدرَةِ، الَّتي لا تُعجِزُها صوَرُ البَشَرِ، فهوَ يُصَوِّرُهُم كَيفَ شاءَ، ويُرَكِّبُهُم على أيِّ وجهٍ أرادَ، فكانَ ذِكرُ ﴿شَآءَ﴾ مَظهَرًا لِتَهويلِ سُلطانِ المَشيئَةِ الإلَهيَّةِ وتَفخيمِها، حَتّى يَتَنَبَّهَ السّامِعُ إلَى أنَّهُ لا مَفَرَّ لَهُ مِن أمرِ اللّه وحُكمِه.

بَلاغَةُ استِعْمالِ فِعْلِ التَّركيب:

إبْـرازُ الإعْـجازِ الإلَهيّ في خَلْقِ الإنسان

إنَّ اختيارَ فِعْلِ التَّرْكيبِ في قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ مَبنيٌّ على تَص، وير بَديعٍ لِكَم، الِ القُدرَةِ الإلَهيَّةِ؛ فإنَّ التَّركيبَ يُفيدُ ضِمنًا جَمعَ أجزاءٍ مُتَفَرِّقَةٍ على نَحوٍ مُتَّسِقٍ مُنسَجِمٍ، وهَذا أدلُّ على بالِغِ الإتقانِ، فالمُرادُ بَيانُ أنَّ جِسمَ الإنسانِ لَم يوجَد مَحضَ كَونٍ، بَل هوَ مُرَكَّبٌ مِن أعضاءٍ وأجهِزَةٍ وقوًى مُتَناسِبَةٍ، لَيسَ فيها تَفاوُتٌ ولا تَناقُضٌ.

ويَصدُقُ هَذا التَّعبيرُ في إطلاقِه على الجيناتِ، الَّتي تَكونُ مَسؤولَةً عَنِ الصِّفاتِ الوِراثيَّةِ المُنتَقِلَةِ مِن آدَمَ عَبرَ سِلسِلَةِ الآباءِ والأجدادِ إلَى أنْ يَصِلَ إلَيه، فقالَ تعالى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾، أي: (سَلَكَكَ)[1]، وهَذا المَعْنَى أدَقُّ ما يُمكِنُ أنْ توصَفَ بِه الوِراثَةُ، فيَكونُ قَدْ سَلَكَهُ في جيناتٍ مُختَلِفَةٍ مِن آدَمَ إلَى أبيه وأُمِّه.

وَفي استِعمالِ هَذا الفِعلِ إيماءٌ إلَى أنَّ مَظهَرَ الإعجازِ في الإنسانِ لَيسَ في جَميلِ صورَتِه ومُجمَلِها فحَسْب، بَل في تَركيبِ دَقائِقِ حواسِّه ووَضعِ كُلِّ جُزءٍ في المَوضِعِ الَّذي يُلائِمُهُ، مِمّا يَنعَكِسُ على الصّورَةِ، الَّتي يُطبَعُ عَلَيها مِنَ الأخلاقِ والطِّباعِ، فهوَ تَركيبٌ يَتَجَلَّى فيه اختيارُ الحِكمَةِ وتَصريفُ المَشيئَةِ.

دَلالَةُ صيغَةِ التَّكْثير:

فـتَـبـارَكَ اللـه أحسَنُ الخالِقين

جاء فِعلُ التَّركيبِ في قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 270.

﴿رَكَّبَكَ﴾، على صيغةِ التكثيرِ؛ للإشارةِ إلى كَثرةِ الأجزاءِ الدّاخِلَةِ في الخَلْقِ الإنسانيِّ، وكثرةِ الرَّوابِطِ الدقيقةِ بينها، وأنَّ هذا التركيبَ مُتَعَدِّدُ الأبعادِ، مادّيٌّ ونفسيٌّ وعَقليٌّ وروحيٌّ؛ فكلُّه يدلُّ على أنَّ اللّٰه هو الذي خَلَقَ، فسَوَّى، وعَدَّلَ فركَّب، وصوَّرَ فأتقنَ، وليس للإنسانِ من ذلكَ شيءٌ سِوَى أن يَخضَعَ، ويَشكُرَ.

بَلاغَةُ تأخيرِ ﴿رَكَّبَكَ﴾:

بَيانُ مَراحِلِ خَلقِ الإنسانِ ودَلالَتُها على الخالِقِ المُبدِعِ العَظيم

أُخِّرَ الفعلُ ﴿رَكَّبَكَ﴾ عن مُتعَلِّقاته: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ﴾؛ ليُشيرَ إلى أنَّ التركيبَ لم يَكُنْ عَبَثًا، بل هو بمشيئةٍ إلهيّةٍ مُطلَقَةٍ، وتقديرٍ محكم، واختيارٍ لحكمةٍ، أي: (لم تُركَّبْ صورتُك على حالِها جُزافًا، بل شاءَ اللّٰه أن تكونَ كما أراد سبحانه، لا كما يريدُ غيرُه)، وجاء التركيبُ في هذا الموضعِ مُتأخِّرًا عن أفعالِ الخَلقِ والتَّسْوِيَةِ والتَّعْديل؛ ليَدُلَّ على أنّهُ مرحلةٌ تاليةٌ، فهو أخصُّ منها؛ إذْ إنَّه يعني جمعَ الأعضاءِ والأجزاءِ المُختَلِفةِ وتَرتيبِها؛ لِتُؤَدّيَ وظيفَتَها بتكامُلٍ، ولهذا قُدِّمَ ذكرُ التسويةِ والتعديلِ قبلَه، فالفعلُ ﴿رَكَّبَكَ﴾ يُفصِّلُ في نعمَةِ الخلقِ، ويُبرِزُ دقّةَ الصنعةِ، ويُنبِّهُ الإنسانَ إلى أنَّه مبنيٌّ بناءً محكمًا، وكلُّ ما فيه من حواسٍّ ومَلَكاتٍ وأعضاءٍ ليس إلّا أجزاءً رُكِّبَت بحكمةٍ توجِبُ الاعترافَ بالمنعِمِ وشكرَه، لا الغرورَ بهِ ونسيانَه.

لَفٌّ ونَشرٌ لِنِعَمِ اللّٰه على الإنسانِ المغرور

وباعتبارٍ آخر، فإنّ في قول اللّٰه تعالى: ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ لفًّا؛ إذ جَمَعَ أُصولَ النِّعْمَةِ الَّتي أَوْلَى اللّٰه بها الإنسانَ، ففي الخَلْقِ إيجادٌ على مِقْدارٍ مَقْصودٍ، وفي التَّسْوِيَةِ إحْكامٌ واسْتِواءٌ وسَلامَةُ قوًى ومَنافِعَ، وفي التَّعْديلِ تَناسُبٌ بَديعٌ بَيْنَ الأعْضاءِ الظّاهِرَةِ والباطِنَةِ، يَقي مِنَ الاختِلالِ والفَسادِ، ثُمَّ جاءَ قولُه تعالى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ بمَنْزِلَةِ النَّشْرِ الجامعِ لِهَذِهِ النِّعَمِ الثَّلاثِ؛ إذْ هوَ تَفْصيلٌ لِما أُجْمِلَ مِنَ الخَلْقِ والتَّسْوِيَةِ والتَّعْديلِ، وإظْهارٌ لِنَتيجَتِها

في الصّورَةِ التّامَّةِ الَّتي شاءَها اللّه لِلإنسانِ، فكانَ في نَظْم الآيَتَينِ لَفٌّ أُدْرِجَت فيهِ النِّعَمُ على سَبيلِ التَّعْدادِ، ونَشْرٌ أَبْرَزَ فيهِ تَمامُها في الهَيْئَةِ البَشَريَّةِ، وفي ذلِكَ كُلِّهِ تَذْكيرٌ بعَظيمِ المِنَّةِ، وتَعْريضٌ بالتَّوْبيخ على كُفْرانِها[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الغُرورُ والخِداع:

الغُرورُ هوَ النَّظَرُ إلَى الباطِلِ في مَظانِّ الحَقِّ، وهو الانخداعُ بما يوهِمُ النَّفعَ، وسِمَتُهُ المُمَيِّزَةُ أنَّهُ شرٌّ فيهِ رُكونٌ إلى الزُّخرُفِ الظّاهريّ، فهوَ رُكونُ النَّفْسِ إلَى ما تَتَوَهّهُ خَيْرًا، وتَرْكُ الحَذَرِ، دونَ أنْ يكونَ بالضَّرورَةِ ثَمَّةَ فاعِلٌ مُخادِع، ويُستعملُ الغُرورُ في مَواطِنِ الدُّنْيا، والشَّهَواتِ، والمَظاهِرِ الزّائِفَة، "والغُرورُ: الإطْماعُ بما يَتَوَهَّمُهُ المَغْرورُ نَفْعًا، وهوَ ضَرٌّ، وفِعْلُهُ قَدْ يُسْنَدُ إلَى اسْمِ ذاتِ المُطْمِعِ حَقيقَةً، مِثْلَ: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ٣٣﴾ [لُقمان: 33]، أوْ مَجازًا نَحْوَ: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الجاثية: 35]، فإنَّ الحَياةَ زَمانُ الغُرورِ، وقَدْ يُسْنَدُ إلَى اسْمِ مَعْنًى مِنَ المَعاني حَقيقَةً، نَحْوَ: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ١٩٦﴾ [آلُ عِمران: 196]، وقَوْلِ امرِئِ القَيْسِ:

أَغَرَّك مِنّي أنَّ حُبَّك قاتِلي

أَوْ مَجازًا نَحْوَ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: 112]"[2].

أمّا الخِداعُ؛ فهوَ إظْهارُ خِلافِ الباطِنِ، ويَكونُ الوُقوعُ في الباطِلِ بسببِ خِداعِ غَيْرِهِ، فسِمَتُهُ الَّتي تُمَيِّزُهُ أنَّ فيهِ تأثيرًا خارجيًّا مقصودًا، فالانخِداعُ هو وُقوعُ النّفسِ في الخَديعةِ بفعلِ غيرِها، فهوَ مَبْنِيٌّ على قصدِ الخِداعِ من طَرَفٍ خارجيٍّ، وفيهِ سلبيّةٌ وضعفٌ، كأنَّ الإنسانَ ضَحيَّةُ مكرٍ مَحْضٍ، فاستِعْمالُ القرآنِ لِفِعْلِ (غَرَّ) دونَ (خَدَعَ) في قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ يَتَنَزَّلُ على مَساقٍ يَسْتَدْرِجُ القارِئَ إلَى لَوْمِ النَّفْسِ وتَعْييرِها، لا إلَى اتّهامِ غيرِها؛ لأنَّ الغرورَ يكونُ مِن جِهَةِ النَّفْسِ ورُكونِها إلَى ما يوهِمُ البَقاءَ والسَّعَةَ، دونَ تَدَبُّرٍ لِصِفاتِ اللّه وحَقِّهِ في الطّاعَةِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 175.
(2) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 174.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار: 9 - 12]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

مِنَ العِتابِ الرَّقيقِ إلَى التَّقريعِ الصَّريح

لَمّا تَحَدَّثَتِ الآياتُ السّابِقَةُ عَن عِتابِ اللّه تعالى للإنسان الغافِلِ المَغرورِ، وبَيَّنَت أنَّهُ ما كان للإنسان أنْ يَغْتَرَّ برَبِّه الَّذي خَلَقَه، وسَوَّاهُ، وعَدَّلَه، ورَكَّبَه في أحسَنِ صورَة؛ جاءَت هَذِهِ الآياتُ؛ لِتَكْشِفَ عِلَّةَ الغُرورِ المذكورِ، ثُمَّ تُفنِّدَ دَعوَى الأمنِ الكاذِبِ، وتَضربَ سياجًا من الرّقابةِ الربّانيّةِ على كُلِّ نَفْسٍ، ولتُبيِّنَ أنَّ مَن يُكذِّبُ بالدّين إنّما يُكذِّبُ عن علمٍ، لا عن غفلَةٍ، وأنَّ أعمالَه مَحفوظَةٌ عليه، تنتظرُهُ في يومِ الجزاءِ.

وفيها أيضًا مُناسَبَةٌ لِما ذُكِرَ في الآياتِ السّابِقَةِ مِنْ مَطلَعِ السّورَة، مِنْ مَظاهِرِ وُقوعِ الحَشْرِ والنَّشر، فجاءَت هَذِهِ الآياتُ بشرحِ تَفاصيلِ الأَحْوالِ المُتَعَلِّقَةِ بذَلِك.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلدِّينِ﴾: (دين) أَصْلٌ يَدُلُّ على الجزاءِ والمجازاةِ، والملكيّةِ والانقيادِ، والسُّلطَةِ التي تُلزِمُ بالطاعةِ، يُقالُ: (دانَ له)، أي: خضعَ، وانقادَ، و(دِنْتُهُ)، أي: جَزَيْتُهُ بعملِه، و(الدّينُ) ما يُدانُ به، أي: يُلزَمُ به العبدُ أمامَ سُلطانٍ أعلى، سواءٌ في المُعامَلَةِ أوِ الجَزاءِ[1]، وقَدْ ورَدَت كَلِمَةُ (الدّين) في القرآنِ على مَعانٍ مُتَعَدِّدَةٍ، لَكِنَّها تلتقي في مِحوَرَينِ اثنَين: الدّين بمعنى الجزاءِ، كما في قولِه تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: 4]، أي: يوم الجزاءِ والمحاسبةِ، والدّين بمعنى المِلَّةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دين).

والشريعةِ والطاعةِ، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾، أمّا في سياقِ هذه الآيةِ: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾، فالمرادُ بالدّين هنا هو الجزاءُ، بأنَّكُم مَبعوثونَ يومَ القيامَة[1]، أي: تُكذّبونَ بيومِ الدّينِ، الذي هو يومُ الجزاءِ والحسابِ.

2) ﴿لَحَٰفِظِينَ﴾: (حفظ) أَصْلٌ يدلُّ على مُراعاةِ الشَّيء[2]، وعلى الصَّونِ والمَنعِ مِنَ الضَّياعِ أوِ الفَسادِ أوِ التَّبديلِ، والبقاءِ على الحالةِ المطلوبةِ، يُقالُ: (حَفِظَ الشيءَ)؛ إذا راعاهُ، وصانَهُ، وحرصَ عليهِ، و(الحافِظُ) هو الذي يُداومُ على الرِّعايةِ والمتابعةِ والتتبُّعِ لمنعِ الخللِ أو النِّسيانِ أو التَّفريطِ[3].

3) ﴿كَٰتِبِينَ﴾: (كتب) أَصْلٌ يدلُّ على الجَمعِ والضّمِّ والتدوينِ، والكتاب والكتابة: مصدرُ (كتبت)، والمُكْتِبُ: المُعَلِّم، والكُتَّاب: مَجمَعُ صِبيانِه[4]، ثم خُصَّ في الاستعمالِ بالغالبِ بمعنى الخطِّ والتسجيلِ بالقَلَمِ، حتّى صارَ يُطلَقُ على مَن يقومُ بهذه الوظيفةِ اسمُ: (كاتبٌ)، وجمعُه (كاتِبون) أو (كاتِبينَ)، ودلّت المفردةُ ﴿كَٰتِبِينَ﴾ في هذا السياقِ القرآنيِّ على الملائكةِ الموكَّلينَ بكتابةِ أعمالِ العبادِ، فهُم لا يَكتَفونَ بالحِفظِ، كما أشارت إليه الآيةُ السابقةُ، بل يُدوِّنونَ كلَّ ما يقعُ من الإنسانِ من قولٍ أو فعلٍ أو نيّةٍ، على وجهِ الضَّبطِ والإحصاءِ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الرقابةُ الإلَهيّةُ والمَوْقفُ من يومِ الدين

في هَذِهِ الآياتِ، يقولُ اللّه للإنسانِ، بعدَ أن نهاه عن الاغترارِ بمَولاهُ الكَريم، الَّذي خَلَقَهُ في أحسَنِ صورَة: لَكِنَّكُم يا مَعشَرَ العُصاةِ والكُفّارِ لا ترتَدِعون عنِ التَّكذيب بيَومِ الجزاء، وتُكَذِّبون

(1) السّمرقندي، بحر العلوم: 3/ 533.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حفظ).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (حفظ).
(4) الخليل، العين: (كتب).

بدين الإسلام، والحالُ أنَّ اللّه جَعلَ عَليكُم مَلائِكَةً تَكتُبُ أعمالَكُم، وتَحفَظُها ليَومِ الدّين، وهُم كِرامٌ بَرَرَةٌ، كاتِبونَ لِلأعمالِ خَيرِها وشَرِّها، يَعلَمونَ كُلَّ ما تفعَلون[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَراعَةُ استِعْمالِ ﴿كَلَّا﴾:

كشفُ تَوَهُّمِ الغافلين، وتَعليلُ التَّكذيبِ بيومِ الدّين

تَظهَرُ بَلاغَةُ استِعمال حَرفِ الجَواب ﴿كَلَّا﴾، في قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ في حُسنِ مَوقِعِها؛ لأنّها جاءَت فاصِلةً بَينَ ما سَبَقَ مِن تَوبيخِ الإنسانِ على غُرورِهِ بِرَبِّهِ الكَريم، وبَينَ التَّعليلِ الحَقيقيِّ لِذَلِكَ الغُرورِ؛ ولأنّها تَحمِل مَعنَى الرَّدعِ والزَّجرِ عن الاغترارِ بكَرَمِ اللّه، فهيَ كالجَوابِ الدّامِغِ لِما سبق مِن ذِكرِ غُرورِ الإنسانِ[2]، فهيَ كَلِمَةٌ جامِعَةٌ تَفيدُ قَطعَ الأوهامِ وإبطالَ ما يوهِمُهُ كَرَمُ اللّه مِن أنَّهُ يُسَوِّغُ لِلإنسانِ أن يَتمادَى في الغُرورِ والعِصيانِ، فكَأنَّهُ قيلَ: (لَيسَ الأمرُ كَما يَتَوَهَّمُ الغافِلُ مِن أنَّ كَرَمَ الرَّبِّ يَكفي عَنِ الجَزاءِ والحِسابِ).

ويُؤَكِّد ذلك القَطْعَ أنّها أُتبِعَت بقوله: ﴿بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾؛ ليَكونَ الإضرابُ إضرابَ انتِقالٍ؛ فنُقِلَ الكَلامُ مِن رَفعِ الباطِلِ إلَى إثباتِ الحَقِّ، أي: (إنَّ دافِعَ غُرورِكُم وجُرأتِكُم على مَعصيَةِ اللّه لَيسَ الكَرَمَ، بَل إنَّما هوَ تَكذيبُكُم بيومِ الدّينِ)، وفي ذَلِكَ تَعرِيَةٌ لِحَقيقَةِ الدّاءِ الَّذي أورَثَهُم الغَفلَةَ والجُحودَ.

دلالَةُ ﴿بَلۡ﴾:

انتِقالٌ مِنَ التَّوبيخِ على الغُرورِ، إلى كَشفِ جُرمِ التَّكذيب

أوثِرَ التَّعبيرُ بـ﴿بَلۡ﴾ في قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾؛ لأنَّهُ سُبْحانَهُ لَمّا زَجَرَهُم عَنْ ذلِكَ الاغترارِ بقَوْلِهِ: ﴿كَلَّا﴾؛ أرْدَفَهُ بحَرفِ الإضرابِ ﴿بَلۡ﴾ الَّذي وُضِعَ في اللُّغَةِ لِنَفْيِ شَيْءٍ قَدْ

(1) حجازي، التفسير الواضح: 30/ 39.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 292.

تَقَدَّمَ وتَحْقيقِ غَيْرِه[1]، وهذا إِضْرابٌ انتِقاليٌّ مِنْ غَرَضِ التَّوْبيخِ والزَّجْرِ على الكُفْرِ، إِلَى ذِكْرِ جُرْمٍ فظيعٍ آخَرَ، وهوَ التَّكْذيبُ بالبَعْثِ والجَزاءِ، ويَشْمَلُهُ التَّوْبيخُ بالزَّجْرِ؛ بسَبَبِ أنَّهُ مَعْطوفٌ على تَوْبيخٍ وزَجْرٍ؛ لأنَّ (بَلْ) لا تَخْرُجُ عَنْ مَعْنَى العَطْفِ، أيْ: العَطْفِ في الغَرَضِ لا في نِسْبَةِ الحُكْمِ؛ ولِذلكَ يَتبَعُ المَعْطوفُ بها المُفْرَدُ في إِعْرابِ المَعْطوفِ عَلَيْه، فيَقولُ النُّحاةُ: إنَّها تُتبَعُ في اللَّفْظِ لا في الحُكْمِ، أيْ: هوَ اتِّباعٌ مُناسَبَةٍ في الغَرَضِ، لا اتِّباعٌ في النِّسْبَةِ[2].

ويَجوزُ أن يكونَ ﴿كَلَّا﴾ إبْطالًا لِوُجودِ ما يَغُرُّ الإنسانَ أنْ يُشْرِكَ باللّه، أيْ: لا عُذْرَ لِلإنسانِ في الإِشْراكِ باللّه؛ إذْ لا يوجَدُ ما يَغُرُّهُ به، ويَكونَ ﴿بَلْ﴾ للإضْرابِ الإبْطاليّ، وما بَعْدَ ﴿بَلْ﴾؛ بَيانًا لِما جَرَّأَهُم على الإشْراكِ، وأنَّهُ لَيْسَ غُرورًا؛ إذْ لا شُبْهَةَ لَهُم في الإِشْراكِ حَتَّى تَكونَ الشُّبْهَةُ كالغُرورِ[3]، فكانَ في استِعمالِ ﴿بَلْ﴾ تَخطيرٌ لِهَذِهِ الحَقيقَةِ، ونَقلٌ لِلمُخاطَبِ مِن دَفعِ وهْمٍ إلَى إلقاءِ جُرْمٍ صَريحٍ، فتكونُ ﴿بَلْ﴾ قد أخرَجَتِ الكَلامَ مِن دائِرَةِ الرَّدعِ والتَّخطِئَةِ إلَى دائِرَةِ التَّقريرِ والكَشْفِ، فكانَت كالمِفتاحِ الَّذي يَفتَحُ بابَ البَيانِ عَنِ العِلَّةِ الحَقيقيَّةِ لِغُرورِ الإنسانِ وإعراضِه.

سِرُّ اختيارِ فِعلِ التَّكذيب:

بَيانُ شِدَّةِ الإعراضِ وعُمقِ الجُرْمِ

إنَّ اختيارَ القُرآنِ لِفعلِ التَّكْذيبِ في قَولِ اللّه تعالَى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ دونَ أن يُقالَ: (تُنكِرونَ)، أو (تَكفُرونَ)؛ لأنّ الإنكارَ يُفيدُ مُجرَّدَ الجُحودِ في القَلبِ، والكُفرَ يَدلُّ على سَترِ الحَقِّ وجَحْدِه، بَينَما التَّكذيبُ يَتَضَمَّنُ مَع هَذا ادِّعاءَ أنَّ المَكذوبَ بِهِ باطِلٌ، وإظهارَ هَذا الزَّعمِ في مواجَهَةِ الحَقِّ، فالتَّكذيبُ إذًا أشَدُّ مَراتِبِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 77.
(2) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 178.
(3) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 178.

الإعراضِ؛ لأنَّهُ يَجمَعُ بَينَ رَفضِ القَلْبِ ومُجاهَرَةِ اللِّسانِ، وفيهِ مُكابَرَةٌ ومُعانَدَةٌ، وهَذا أوفَقُ بمَقامِ التَّقريرِ هُنا.

نُكتَةُ التَّعبيرِ بصيغَةِ المُضارِعِ:

استحضارُ الجُرمِ، وتأكيدُ استِمراريَّةِ التَّكذيبِ

إنَّ استِعمالَ صيغَةِ المُضارِعِ في قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ دونَ أن يُقالَ: (بَل كَذَّبتُم) بصيغةِ الماضي، هوَ لِدِقَّةٍ بَلاغيَّةٍ تُظهِرُ مَعنًى مُتَجدِّدًا ومُتَكرِّرًا، فالمُضارِعُ في الأصلِ دالٌّ على الحالِ والاستِقبالِ(1)، وهُنا يُفيدُ أنَّ التَّكذيبَ لَيسَ حادِثًا واحِدًا في زَمَنٍ ماضٍ، بَل هوَ سُلوكٌ دائِمٌ يَتَجدَّدُ مَعَ كُلِّ حُجَّةٍ تُلقَى، ومَعَ كُلِّ آيَةٍ تُتلَى، وبذَلِكَ صارَ فِعلُهُم بمَنزِلَةِ الدَّيدَنِ والعادَةِ، لا يُفارِقُهُم في أيِّ زَمَنٍ، وفي هَذا تَهويلٌ لِلجُرْمِ؛ إذ هوَ لَيسَ زَلَّةً عارِضَةً ولا شُبهَةً مُؤَقَّتَةً، بَل هوَ إصرارٌ مُتَكرِّرٌ وإعادَةُ تَكذيبٍ بَعدَ تكذيبٍ، "وَفي المُضارِعِ أيضًا استِحْضارُ حالَةِ هذا التَّكْذيبِ استِحْضارًا يَقتَضي التَّعْجيبَ من تَكْذيبِهِم؛ لأنَّ مَعَهُم مِنَ الدَّلائِلِ ما لَحِقَهُ أنْ يُقْلِعَ تَكْذيبُهُم بالجَزاءِ"(2).

تَوجيهُ القِراءَتَينِ في ﴿تُكَذِّبُونَ﴾:

مِنَ المواجَهَةِ إلى الوَصْفِ في رَسْمِ حالِ المُكَذِّبين

قُرِئَ فِعلُ التَّكذيبِ مِن قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ بالخِطابِ والغَيبَةِ، فقرأ جُمهورُ القرّاءِ: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ بالتّاءِ؛ خِطابًا لِلمُشرِكينَ والعُصاةِ على وجهِ المواجَهَةِ، فهوَ أبلَغُ في التَّوبيخِ؛ لأنَّهُ يُصَوِّرُهُم، وهُم في مَقامِ الحِوارِ مَعَ الكَلامِ الإلَهيِّ، وقرأَ أبو جَعفَرٍ وحدَهُ ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ بالياءِ على الغَيبَةِ، أي: (هُم يُكَذِّبونَ بالدّين)(3)، وفي هَذِهِ القِراءَةِ تَلوينٌ في الالتِفاتِ(4)، فإنَّهُ لَمّا كانَ الحَديثُ أوَّلًا على سَبيلِ التَّوجيهِ لِلإنسانِ في قَولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، ثُمَّ رُدِعَ بـ﴿كَلَّا﴾؛

(1) المُبرّد، المقتضب: 2/ 2، والزّمخشريّ، المُفصّل: 2/ 137.
(2) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 179.
(3) النيسابوري، المبسوط في القراءات العشر، ص: 465، وابن الجزري، النشر: 2/ 399.
(4) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 179.

جاءَ التَّحويلُ إلَى الغَيبَةِ في قَولِه: ﴿يُكَذِّبُونَ﴾؛ ليَكونَ الكَلامُ في مَعرِضِ الحِكايَةِ عَن شَأنِهم وصِفَتِهم، وفي ذَلكَ تفنينٌ بَلاغيٌّ، فالقِراءَتانِ بَليغَتان، فمَن قَرَأ بالتّاءِ؛ فهوَ على سَبيلِ المُخاطَبَةِ الشَّديدَةِ الَّتي تَستَحضِرُ المُكَذِّبينَ أنفُسَهُم، ومَن قَرَأ بالياءِ؛ فقَد جاءَ على سَبيلِ الحِكايَةِ عَن صِفَتِهم لتَقريرِ فِعلِهم في حَقِّهم.

دَلالَةُ الباء:

تثبيتُ حَقيقَةِ الـــجُـــرْمِ في التَّكذيبِ

الباءُ في قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ هيَ باءُ التَّعديَة، جُعِلَت لتَعديَةِ فِعلِ التَّكذيبِ إلَى مَفعولِه، كَما يُقالُ: ذَهَبتُ به، وخَرَجتُ به، وهيَ لِتأكيدِ اللُّصوقِ؛ للمبالَغَةِ في التَّكذيب[1]، فتُفيدُ أنَّ تكذيبَهُم لَيسَ مُجرَّدَ إعراضٍ أو جُحودٍ في الباطِنِ، بَل هوَ إسنادٌ صَريحٌ لِلبُطلانِ إلَى المَكذوبِ به، فهُم لا يَكتَفونَ بالجُحودِ، بَل يَزعُمونَ أنَّ الدّينَ - أي: الجَزاءَ والحِسابَ - باطِلٌ، فبَلاغَةُ ذِكرِ الباءِ أنَّها أبرَزَت شِدَّةَ التِصاقِ فِعلِ التَّكذيبِ بمَتعلِّقِه، فكَأنَّهُ موجَّهٌ إلَيهِ بالحَصرِ والتَّعيينِ، وذَلكَ أبلَغُ في التَّوبيخِ وإظهارِ فظاعَةِ جُرمِهم.

بَلاغَةُ اختيارِ لَفظِ (الدّين):

دَلالَـتُـهُ أجمَعُ وأوسَعُ مِنْ غَيرِه

إنَّ التَّعبيرَ بالدّينِ في قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ دونَ غَيرِهِ مِنَ الألفاظِ المُقارِبَة، سَبَبُهُ أنَّ لَفظَ الدّينِ أجمَعُ وأوسَعُ دَلالَةً مِن غَيرِه، فهوَ يَشمَلُ مَعنى البَعث، ومَعنى الحِساب، ومَعنى الجَزاءِ، ومَعنى الحُكومَةِ الإلَهيَّةِ الَّتي يَخضَعُ لَها الخَلقُ يَومَ القيامَة، فلَيسَ هوَ مَحضَ الإحياءِ بَعدَ المَوتِ - كَما في لَفظِ البَعث -، ولا مُجرَّدَ عَمليَّةِ العَرضِ والحِسابِ - كَما في لَفظِ الحِسابِ - بَل هوَ نِظامٌ كامِلٌ يَتَضَمَّنُ كُلَّ ذَلكَ مَعَ ما يَتبَعُهُ مِن جَزاءٍ ومُعامَلَةٍ على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 446.

القَولِ والعَمَلِ، وبهَذا كانَ ذِكرُ (الدّينِ) أبلَغَ في سياقِ التَّوبيخ؛ لأنَّهُ يَصُبُّ التَّكذيبَ على جامِعِ الحَقيقَةِ وأصلِها، فيَتَّسِعُ مَجمَعُ جُرْمِ المُكَذِّبينَ، ويَشتَدُّ وقتُ المَلامِ عَلَيهِم، ففي التَّعبيرِ بِهِ إيجازٌ بَليغ؛ إذْ جيءَ بكَلِمَةٍ واحِدَةٍ جَمَعَت كُلَّ ما يُرادُ مِن تَهويلِ الحَقِّ الَّذي يَكفُرونَ بِهِ، فهَذا اللَّفظُ دونَ ما يُقارِبُهُ أجمَعُ دَلالَةً، وأشَدُّ تَهويلًا، وأوفَى بمُقتَضَى السّياقِ الَّذي جَعَلَ التَّكذيبَ بِهِ أصلَ الغُرورِ، ومَنبَعَ التَّمادي في العِصيانِ.

دَلالَةُ التَّعريف:

التَّكذيبُ بالمَعلومِ فيهِ فضْحٌ لِلمُكَذِّبين

إنَّ التَّعريفَ بـ(الـ) في قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ هوَ للعَهدِ الحاضِرِ في الأذهانِ[1]، أي: الدّينِ المَعروفِ الَّذي لا يَلتَبِسُ على العُقولِ، وهوَ جَزاءُ يَومِ القيامَةِ وحِسابُهُ، فتَعريفُهُ بـ(الـ) جَعَلَ المَعنَى كَأنَّهُ شَيءٌ مَحسومٌ مَعروفُ الحَقيقَةِ، لا يَحتاجُ إلَى بَيانٍ ولا تَحديدٍ، وفي هَذا التَّعريفِ إيماءٌ إلَى أنَّ المُنكِرينَ إنَّما يُكابِرونَ في أمرٍ واضِحٍ جَليٍّ، فإنَّهُم يَعلَمونَ أنَّهُ هوَ الجَزاءُ المُرتَقَبُ، ومَعَ ذَلكَ يُعرِضونَ عَنهُ، وهَذا أشَدُّ في التَّوبيخِ؛ لأنَّهُ يُبرِزُ أنَّ تَكذيبَهُم لَيسَ عَن جَهلٍ، بَل عَن عِنادٍ ومُكابَرَةٍ.

وأيضًا فإنَّ تَعريفَ (الدّينِ) بـ(الـ) أفادَ الاستِغراقَ في مَعانيهِ، فهوَ يَشمَلُ مَظهَرَ الحِسابِ والجَزاءِ والمُحاكَمَةِ الإلَهيَّةِ، ولَو جاءَ مُنكَّرًا - (تُكَذِّبونَ بدينٍ) - لأوحَى إلَى جُزءٍ مِن هَذِهِ الحَقيقَةِ؛ بَينَما المُعَرَّفُ يُؤذِنُ بجَمعِها كافَّةً.

دَلالَةُ الواو:

بيانُ رَقابَةِ الملائكةِ، وتَقريرُ وُقوعِ البَعْث

الواوُ في قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ﴾ هيَ واوُ الاستِئنافِ[2]، جاءَت للانتِقالِ مِن تَوبيخِ المُكَذِّبينَ ﴿بِٱلدِّينِ﴾ إلَى

(1) العهد الذّهنيّ: هو أن يتقدّم لمصحوبها علم المُخاطب به، السامرائي، معاني النحو: 1/ 106.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 30/ 263.

بَيانِ دَليلٍ آخَرَ يُكَشِّفُ عَن غفلَتِهِم، ويُقَرِّرُ حُجَّةَ البَعثِ والجَزاءِ، فالواوُ لَيسَت عاطِفَةً على ما قَبلَها، بَل هيَ مُفتَتَحٌ لِجُملَةٍ جَديدَةٍ تَحمِلُ تَقريرًا جَديدًا، ودَلالَتُها البَلاغيَّةُ أنَّها رَبَطَت ما بَعدَها بما قَبلَها في سياقٍ مُحكَم، كَأنَّهُ يُقالُ: (لَيسَ الأمرُ كَما تَزعُمونَ مِن تَكذيبِ الدّينِ، بَل عَلَيكُم حَفَظَةٌ كِرامٌ يُحصونَ أعمالَكُم)، فجَعَلَت ما بَعدَها دَليلًا آخَرَ مُستَأنَفًا يَعضُدُ ما قَبلَهُ، وأخرَجَت الكَلامَ مِن دائرَةِ السَّردِ المُتَّصِلِ إلَى دائرَةِ الاحتِجاجِ المَبنيِّ على التَّفنُّنِ والتَّقويَةِ في الحُجَّة.

بَلاغَةُ استِعمالِ حَرفِ الاستِعلاء:

تَصويرُ عَظَمَةِ الرَّقابَةِ الإلَهيَّةِ وشِدَّةِ الإحاطَة

أوثِرَ التَّعبيرُ بالحَرْف (على) في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ﴾؛ لِدَلالَتِها على الاستِعْلاءِ، حَقيقيًّا كانَ أم مَجازيًّا، والمُراد أنَّ الحَفَظَةَ الكِرامَ (مُشرِفونَ عَلَيكُم، كَأنَّهُم فوقَكُم رُتبَةً ومَكانًا، يَطَّلِعونَ عَلَيكُمُ اطِّلاعَ الرَّقيبِ مِن مَوضِعٍ أعلى)، وفي ذَلكَ تَهويلٌ لِسُلطانِ الرَّقابَةِ الإلَهيَّة، وإشعارٌ بأنَّهُم مُحيطونَ بكُم إحاطَةَ مَن لا يُغادِرُ شَيئًا، ولَو قيلَ: (وَإنَّ لَدَيكُم حافِظينَ)؛ لأفادَ مُجرَّدَ القُرب، ولَو قيلَ: (مَعَكُم)؛ لأفادَ مُجرَّدَ الصُّحبَة، ولَكِنَّ استِعمالَ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ أوحَى بمَعنى التَّسَلُّطِ والاستِعلاءِ، فصارَ أبلَغَ في الإنذارِ وأشدَّ وقعًا في النُّفوسِ، فتَكمُنُ بَلاغَةُ هذا الاستِعمالِ في تَصويرِهِ لِلسّامِعِ أنَّهُ تَحتَ مُراقَبَةٍ دائِمَةٍ مِن جِهَةٍ أعلى، لا يَملِكُ مَعَها مَفَرًّا ولا مَخلَصًا؛ ليَزولَ وهْمُ الغَفلَةِ الَّذي هوَ أصلُ التَّكذيبِ بالدّينِ.

نُكتَةُ تَقديمِ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾:

التَّهويلُ عِلاجُ الغُرور

إنَّ تَقديمَ الجارِّ والمَجرورِ في قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ﴾ جاءَ لِأجْلِ إفادَةِ التَّخصيصِ والتَّوكيدِ[1]، فالمُقَدَّمُ مَحَلُّ العِنايَةِ، كَأنَّ المَعنَى: (إنَّ عَلَيكُم أنتُم بخُصوصِكُم - أيُّها المُكَذِّبونَ -

---

(1) طَبَل، علم المعاني: 124 - 128.

رُقَباءَ موكَّلينَ، لا يُغادِرونَكُم، ولا يَترُكونَكُم)، وهَذا التَّرتيبُ يُكسِبُ المَعنى تَهويلًا، فإنَّهُ يُصَوِّرُ السّامِعَ أوَّلًا في مَوضِعِ التَّرَقُّبِ والنَّظَرِ إلى أعلى - أخْذًا من قَولِه: ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ - ثُمَّ يَأتي الخَبَرُ عَن أولَئِكَ الَّذينَ يَشغَلونَ هَذا المَوضِعَ، وهُمُ الملائكَةُ الحافِظون، فصارَ التَّقديمُ مُفيدًا لإلقاءِ الفَزَعِ في القُلوبِ؛ إذْ يُؤذِنُ بأنَّ مَلائِكَةَ المُراقَبَةِ والحِفْظِ مُحيطَةٌ بهِم قَبلَ أن يَعلَموا مَن هُم أصحابُها، فالتَّرتيبُ المُختارُ هوَ الأوفَى بمَقامِ التَّهويلِ والتَّخويفِ، وهوَ أقرَبُ لِسياقِ التَّوبيخِ بَعدَ قَولِه: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾.

دَلالَةُ تَوكيدِ الجُملَة:

تَقريرُ الخَبَرِ وتَثبيتُه في نُفوسِ المُخاطَبين

إنَّ تَركيبَ الجُملَةِ في قَولِ اللَّه تَعالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ﴾ قَد تَضَمَّنَ أدَواتٍ لِلتَّوكيد، فدُخولُ (إنَّ) في أولِ الجُملَةِ؛ لِتَقريرِ الخَبَرِ وتَثبيتِهِ في نُفوسِ المُخاطَبينَ، ثُمَّ دُخولُ لامِ الابتِداءِ في قَولِه: ﴿لَحَٰفِظِينَ﴾؛ لِتَوكيدِ المَخبَرِ به، فأُكِّدَ الكلامُ بحَرفِ (إنَّ) وبلامِ الابتِداء، فصارَ الخَبَرُ مُؤَكَّدًا تَوكيدَينِ؛ لأنَّهُم يُنكِرون ذَلِك إنكارًا قَويًّا(1).

فدَلالَةُ هَذا التَّوكيدِ أنَّهُ يَقطَعُ مَجالَ الرَّيبِ والاستِبعادِ؛ فإنَّ المُكَذِّبينَ بالدّينِ قَد أعرَضوا عَن آيَةِ البَعثِ والجَزاءِ، فجيءَ بالتَّوكيدِ المُضاعَفِ؛ لِيُلقَى في أذهانِهِم أنَّ هُناكَ حَفَظَةً عَلَيهِم، كَتَبَةً لِأعمالِهِم، وأنَّ ذَلِكَ أمرٌ لا مَحيدَ عَنهُ، وفي استِعمالِ التَّوكيدِ هُنا تَفنينٌ بَلاغيٌّ، فإنَّهُ يُناسِبُ سياقَ الرَّدْعِ الَّذي افتُتِحَ بقَولِه: ﴿كَلَّا﴾، فكانَ مَوضِعًا لِلتَّثبيتِ وتَقطيعِ العُذرِ؛ إذ لا يَسوغُ بَعدَ ذَلِكَ أن يَتَصَوَّروا أنَّ أعمالَهُم مَخفيَّةٌ أو مُهمَلَةٌ.

نُكتَةُ حَذْفِ المَوصوف:

التَّهويلُ والتَّعميم

حُذِفَ المَوصوفُ، وأُقيمَت صِفَتُهُ مَقامَه في قَولِ اللَّه تَعالَى: ﴿وَإِنَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 179.

عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾، وتَقديرُ الكَلام: (وإنَّ عَلَيكُم لَملائِكَةً حافِظين، يَحفَظونَ عَلَيكُم أعمالَكُم)[1]، والحَذفُ في مِثلِ هَذا المَوضعِ لَهُ بَلاغَةٌ جَليَّةٌ؛ إذ يوحي بالتَّهويلِ والتَّعميم؛ فالسّامِعُ يَتَوَجَّهُ ذِهنُهُ إلَى أنَّ عَلَيهِ مَوجوداتٍ مَوكَّلَةً بِه، مَعروفَةَ الشَّأنِ عِندَ السّامِعِ أنَّهُم المَلائِكَةُ، فيَستَغني عَن ذِكرِهِم تَصريحًا، والحذفُ هُنا أبلَغُ مِنَ الذِّكرِ؛ لِأنَّهُ يُلقي في القَلبِ هَيبَةَ المَجهولِ المَعلومِ في آنٍ واحِدٍ، فهوَ مَجهولٌ مِن حَيثُ التَّركيبُ اللَّفظيُّ؛ لأنَّ المَوصوفَ لَم يُذكَر، ومَعلومٌ مِن حَيثُ المَعنَى؛ لأنَّ المُخاطَبَ يَعرِفُ أنَّ الحَفَظَةَ هُمُ المَلائِكَةُ، فاجتَمَعَ في الحَذفِ إيجازٌ وتَهويلٌ، ومِنْ بَلاغَةِ حَذفِ المَوصوفِ أنَّهُ يَجْعَلُ الصِّفَةَ مُعَلَّقَةً بالمُخاطَبِ مُباشَرَةً، كَأنَّ وُجودَهُم وصِفَتَهُم بالحِفاظِ هوَ الأمرُ المُحيطُ بِهِم، دونَ الحاجَةِ إلَى تَفصيلٍ.

نُكتَةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعِلِ:

ديمومَةُ الرَّقابَةِ وثُبوتُ الحِفظِ فـي سـياقِ التَّهويلِ

إنَّ الاختيارَ صيغَةِ اسمِ الفاعِلِ في قَولِ اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ يُفيدُ دَوامَ الحِفظِ وتَجدُّدَهُ؛ فاسمُ الفاعِلِ في مَقامِهِ هَذا لَيسَ مُرادًا لِمُجرَّدِ الحُدوثِ كالفِعلِ المُضارِعِ، ولا لِمُجرَّدِ إسنادِ الفِعلِ كالفِعلِ الماضي، بَل هوَ لِدَلالَةِ الثُّبوتِ والاستِمرارِ، فيَدلُّ على أنَّ صِفَةَ الحِفظِ قارَّةٌ فيهِم، ومُلتَصِقَةٌ بِشَخصيَّتِهِم المَلَكيَّةِ، وبِذَلِكَ يُفهَمُ أنَّهُم لَيسوا يَحفَظونَ أحيانًا، ويُهمِلونَ أُخرَى، بَل هُم على دَوامٍ في حالَةِ الحِفظِ، وهَذا أبلَغُ في إلقاءِ الرُّعبِ في نُفوسِ المُكَذِّبينَ؛ إذ يَعلَمونَ أنَّهُم في كُلِّ أحوالِهِم مَحفوظونَ مُراقَبونَ.

وَمِنْ دَلالَةِ صيغَةِ اسمِ الفاعِلِ أنّه يَأتي في اللِّسانِ العَرَبيِّ لِمَعنى الحالِ والاستِقبالِ جَميعًا؛ ففيهِ دَلالَةٌ على أنَّ حِفظَهُم حالٌّ قائِمٌ، وأنَّهُ سَيَستَمِرُّ في المَسيرَةِ إلَى يَومِ الدّينِ، حَتَّى يَحضُروا على الإنسانِ كُلَّ

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 411.

جُرْم وكُلَّ طاعَةٍ، فنُكتَةُ التَّعبيرِ بصيغَةِ اسم الفاعِلِ أنَّها تُثبِتُ صِفَةَ الحِفظِ على وجهِ الدَّيمومَةِ والاستِمرار، وتُفيدُ أنَّهُم مُتَّصِفونَ بها في ذَواتِهِم، لَيسَ مَحضَ فِعلٍ يَفعَلونَهُ، ثُمَّ يَزولُ، وهَذا أوفَقُ لِسياقِ التَّهويلِ والتَّرهيبِ بَعدَ قَولِهِ تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾.

دَلالَةُ التَّعبيرِ بالجَمعِ:

تعدُّدُ الرُّقَباءِ وتكثيفُ المراقبةِ أدعَى لِلتَّخويفِ والتَّهويل

آثَرَ القُرآنُ الكَريمُ التَّعبيرَ بالجَمعِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ دونَ الإفراد باعْتِبارِ التَّوْزيعِ على النّاسِ، فلِكُلِّ أحَدٍ مَلَكانِ: قالَ تعالَى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: 17 - 18]، وهذا بصَريح مَعْناهُ يُفيدُ أيْضًا كِنايَةً عَنْ وُقوعِ الجَزاءِ؛ إذْ لَوْلا الجَزاءُ على الأعمالِ؛ لَكانَ الاعتِناءُ بإحْصائِها عَبَثًا[1].

وفي استعمالِ صيغَةِ الجمعِ إلقاءٌ للهيبَةِ على النُّفوس لِكَثرَةِ عَدَدِهم، فكَأنَّهُم جُنْدٌ مُحتَشِدونَ عَلَيه، لا يَتَفَلَّتُ عَنهُم شَيءٌ، فبَلاغَةُ الجَمعِ أنَّهُ يَدلُّ على تَفخيمِ أمرِ الرَّقابَةِ، ويُفيدُ استيعابًا وشُمولًا في الحِفظِ، وهوَ أوفَقُ لِسياقِ التَّهويلِ والرَّدْعِ بَعدَ قَولِهِ: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾.

سِرُّ اختيارِ صيغَةِ الجَمعِ:

تَمحيضُ النَّظَرِ إلى وظيفَةِ الحِفْظ

مِنْ بلاغَةِ اختيارِ صيغَةِ (حافظين) دونَ (حَفَظَة)، في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ ما بَينَهُما مِنَ الفَرقِ في الدَّلالَة؛ فالتّاءُ في صيغَةِ (حَفَظة) نَقَلَتِ الوَصفَ إلى الاسميَّة، كَأنَّهُم نَوعٌ مُعَيَّنٌ مِنَ المَلائِكة، ولَيسَ هَذا مُرادًا في سياقِ الآيَة، بَلِ المُرادُ التَّعبيرُ عَنِ الوَظيفَة، وهيَ الحِفظ، بدَليلِ تَعَدُّدِ الأَوْصافِ بَعدَها في الآيَة: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 179.

دَلالَةُ التَّنكير:

التَّفخيم والتَّهْويل

إنَّ التَّنكيرَ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ﴾ مُستعمَلٌ في التَّفخيمِ والتَّهويلِ؛ فالتَّنكيرُ يُفيدُ أنَّهُم حَفَظَةٌ عَظيمو الشَّأنِ، مَجهولو الحَقيقَةِ عِندَ المُخاطَبينَ، ومَعروفو المَقامِ في ما أوكِلَ إلَيهم مِن رِعايَةِ أعمالِ العِبادِ، فكأنَّ السّامِعَ يَتَوَقَّعُ ما وراءَ هَذا الاسْمِ المُبهَمِ مِن سُلْطَةٍ وقُدرَةٍ وحِدَّةِ مُراقَبَةٍ، وقَد جاءَ التَّنكيرُ هُنا بَعدَ تَوكيدِ الجُملَةِ بـ(إنَّ) واللّامِ، فاجتَمَعَ التَّوكيدُ مَعَ التَّنكيرِ، فكانَ ذَلِكَ أجمَعَ لِلتَّهويلِ وأقوَى في تَقريرِ أمرِ المُراقَبَةِ والمُحاسَبَةِ؛ وذَلِكَ أوفَقُ لِسياقِ التَّهديدِ بَعدَ تَخطِئَةِ المُكَذِّبينَ بالدّينِ.

فائدَةُ تَعَدُّدِ صِفاتِ المَلائِكَة:

تَعظيمُ المَلائكَة، وإنذارُ الغافِلين

تَعَدَّدَت صِفاتُ المَلائِكَةِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾؛ لتعظيمِ شأنِهم والثَّناءِ عَلَيهِم، "وَفي ذلك تَعظيمٌ لأمرِ الجَزاءِ، وأنَّهُ عِنْدَ اللّه مِنْ جَلائِلِ الأُمورِ، ولَوْلا ذلِكَ؛ لَما وُكِّلَ بضَبْطِ ما يُحاسَبُ عَلَيْهِ، ويُجازَى بهِ المَلائكَةُ الكِرامُ الحَفَظَةُ الكَتَبَةُ، وفيهِ إنْذارٌ وتَهْويلٌ لِلْعُصاةِ، ولُطْفٌ لِلمُؤْمنينَ، وعَنِ الفُضَيْلِ أنَّهُ كانَ إذا قَرَأها؛ قالَ: ما أشَدَّها مِنْ آيَةٍ على الغافِلينَ!"(1).

بَلاغَةُ تَرتيبِ أوْصافِ المَلائِكَة:

التَدَرُّجُ في رَسْمِ مَشهَدِ الرَّقابَةِ الإلَهيَّةِ وتَعظيمِ المَلائكَةِ

جاءَت أوْصافُ المَلائِكَةِ مُرَتَّبَةً في قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾، فوُصِفَت بالحِفظِ ثُمَّ الكَرَمِ ثُمَّ الكِتابَةِ ثُمَّ بِعِلمِ ما يَفعَلُهُ الإنسانُ(2)، وإنَّ تَرتيبَ أوصافِ المَلائِكَةِ جاءَ على أسلوبٍ بَليغٍ مُحكَمٍ، يَظهَرُ فيهِ التَّدرُّجُ والتَّفنيدُ، فأوَّلُ ما بُدِئَ بِهِ وصفُهُم بـ(حافِظِينَ)؛ لأنَّ الغَرَضَ الأصْليَّ مِن

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 717.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 78.

ذِكرِهِم هوَ التَّخويفُ والتَّهويلُ بأنَّ أعمالَ الإنْسانِ لا تَخفَى؛ فذُكِرَ الحِفظُ أوَّلًا؛ لأنَّهُ أجمَعُ وأوقَعُ في النَّفسِ، ثُمَّ أُتبِعَ ذَلِكَ بوَصفِهِم ﴿كِرَامٗا﴾، فهوَ تَنزيهٌ لِشَخصيَّتِهِم، وإشارَةٌ إلَى عُلوِّ مَكانَتِهِم عِندَ اللّه تَعالَى؛ ليُعلَمَ أنَّهُم لا يَكتُبونَ ما يَكتُبونَ على سَبيلِ التَّشَفّي أو التَّجَنّي، بَل هُم مَوصوفونَ بالكَرامَةِ والنَّزاهَةِ، وذِكرُ هَذِهِ الصِّفَةِ بَعدَ الحِفظِ؛ لِتَطمَئِنَّ النُّفوسُ إلَى أنَّ الرَّقابَةَ عادِلَةٌ مَحضَةٌ، ثُمَّ جيءَ بنَعْتِهِم ﴿كَٰتِبِينَ﴾، وهوَ تَفصيلٌ؛ لِما أُجمِلَ في وصفِ الحِفظِ، فإنَّ الحِفظَ قَد يَكونُ بمُجرَّدِ العِلمِ والمُشاهَدَةِ، فزيدَ بَيانُهُ بالكِتابَةِ؛ ليُعلَمَ أنَّ أعمالَ الإنْسانِ تُسَجَّلُ، وتُحصَرُ، وتُحفَظُ في صُحُفٍ، فلا يَفوتُ شَيءٌ مِن دَقيقٍ أو جَليلٍ، ثُمَّ خُتِمَتِ الصِّفاتُ بالمُضارِعِ ﴿يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾؛ لِلتَّوكيدِ والاحتِراسِ مِن تَوَهُّمِ وُقوعِ النَّقْصِ أوِ الخَلَلِ في الحِفظِ والكِتابَةِ، بَلْ هوَ تَسجيلٌ مَبْنِيٌّ على عِلمٍ مُستَمِرٍّ في الحالِ والمَآلِ، شامِلٍ لِجَميعِ ما يَفعَلُهُ العَبدُ مِنْ خَيرٍ أوْ شَرٍّ.

بَلاغَةُ الجَمعِ في الأوْصاف:

تَعظيمُ الرَّقابَة، وشُمولُ الكَرامَة، واستيعابُ الكِتابَة

إنَّ التَّعبيرَ عَن أوصافِ المَلائِكَةِ في قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ بصيغَةِ الجَمعِ دونَ الإفرادِ هوَ مِن مَظاهِرِ بَلاغَةِ النَّظمِ القُرآنيِّ، وفيهِ نُكتَةٌ بَيِّنَةٌ على أُسلوبِ التَّهويلِ والتَّعظيمِ، فالإتيانُ بالجَمعِ ﴿لَحَٰفِظِينَ﴾ يُفيدُ تَعدُّدَ الرُّقَباءِ على الإنْسانِ، حَتَّى يُدرِكَ أنَّهُ لَيسَ مَحفوظًا بمَلَكٍ واحِدٍ، بَل هوَ في مَعرِضِ رَقابَةٍ جَماعيَّةٍ تُحيطُ بهِ[1]؛ وذَلِكَ أوقَعُ في النَّفْسِ، وأشَدُّ إلقاءً لِرَهْبَةِ الرَّقابَةِ، وأكْثَرُ مَنعًا لِلوَهْمِ مِن أن يَفوتَ العَمَلُ بغَفْلَةٍ أو سَهْوٍ، وأمّا ﴿كِرَامٗا﴾؛ فالتَّعبيرُ عَنهُم بالجَمعِ يُفيدُ عُمومَ صِفَةِ الكَرامَةِ في جَميعِهِم، لا يَختَصُّ بمَلَكٍ دونَ آخَرَ، فكُلُّهُم كِرامٌ عِندَ اللّه، وهَذا مِمّا يُقوّي وطْأةَ الحُجَّةِ على المُكَذِّبِ، وفي ﴿كَٰتِبِينَ﴾ دَلالَةٌ على

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 78.

أنَّ الكِتابَةَ شامِلَةٌ مُستوعِبَةٌ، فكُلُّ مَلَكٍ مِن هَؤُلاءِ يَكتُبُ على مَحلِّهِ المَعهودِ، ومِثلُ هَذا اللَّفظِ في الجَمعِ يُشْعِرُ بالإحاطَةِ والاستِقصاءِ، فإنَّهُ لَو قيلَ (كاتِبًا)؛ لَأَوْهَمَ أنَّ الرَّقابَةَ تُجْمَعُ في صُحُفٍ بقَلمٍ واحِدٍ، أمّا وقد قيلَ: ﴿كَٰتِبِينَ﴾؛ فقَد انحَلَّ الوَهْمُ، وبانَ أنَّ الأعمالَ تُدوَّنُ بطَريقٍ جَمعيٍّ لا مَفرَّ لِلإنْسانِ مِنهُ، ففيهِ تَنبيهٌ إلى أنَّ أفعالَ النّاسِ مُسَجَّلةٌ مَحفوظَةٌ، لا تُترَكُ لِلنِّسيانِ أوِ الإهْمالِ، بَلْ يُسَطَّرُ كلُّ شيءٍ في صُحُفٍ خاصَّة، تُعرَضُ يومَ القيامةِ، كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: 49].

الكِنايةُ في صِفَةِ الكِتابَة:

تَـخْـويـفُ العاصينَ بكِتابَةِ الحافِظين

في صِفَةِ الكِتابَةِ مِنَ الآيَةِ - ﴿كَٰتِبِينَ﴾ - كِنايَةٌ عَنِ الضَّبْطِ التّامِّ والتَّوْثيقِ الدَّقيقِ[1]؛ إذ يُقْصَدُ مِنْ خِلالِ الوَصْفِ بها أنَّ المَلائكَةَ المُوَكَّلينَ بأعْمالِ العِبادِ يُؤَدّونَ وظيفَتَهُم في الحِفْظِ والرَّصْدِ أداءً لا يَدْخُلُهُ نِسْيانٌ، ولا يَعْرِضُ لَهُ خَطأٌ أوْ زيادَةٌ أوْ نُقْصانٌ، كَما يُنْكَرُ الحُكْمُ الجائِرُ والإجْحافُ في الإثْباتِ، وهذا المَعْنَى نَتيجَةٌ لِلكِتابَةِ، حينَ يَتَتَبَّعُ الكاتِبُ الوَقائِعَ، ويُدَوِّنُها على وجْهِ الدِّقَّةِ والإتقانِ.

نُكتَةُ ذِكرِ العِلْم:

تَوكيدُ الإحاطَةِ وقَطْعُ التَّوَهُّمِ في سياقِ التَّهديد

إنَّ ذِكرَ فِعلِ العِلْمِ بَعدَ ذِكرِ الأوصافِ الثَّلاثَة: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ - مَعَ أنَّ في كُلِّ واحِدٍ مِنها ما يَدلُّ على العِلمِ - هوَ مِن بابِ التَّوكيدِ، والإيضاحِ بَعدَ الإجمالِ، ومِن بابِ التَّنصيصِ على المَقصودِ الأعلى مِن تِلكَ الصِّفاتِ، وصِفَةُ عِلْمِ المَلائكَةِ بما يَفعَلُهُ النّاسُ هُنا بمَعْنَى الإحاطَةِ بما يَصْدُرُ عَنِ النّاسِ مِنْ أعْمالٍ، وما يَخْطُرُ ببالِهِم مِنْ تَفْكيرٍ مِمّا يُرادُ بِهِ عَمَلُ خَيْرٍ أوْ شَرٍّ، وهوَ الهَمُّ[2]، فالحِفظُ يَستلزِمُ العِلمَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 180.
(2) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 180.

بالمَحفوظِ، والكِتابَةُ لا تَتأتَّى إلّا بَعدَ الإحاطَةِ بالمَكتوبِ، والكَرامَةُ تَدلُّ على شَرَفِ مَعرفَتِهم وصِدقِها؛ ومَعَ ذَلِكَ جاءَ الوَصْفُ ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾؛ لِيُصَرِّحَ بالحَقيقَةِ المَقصودَةِ، وهيَ شُمولُ عِلمِهم بأعمالِ البَشَرِ جَميعِها، صَغيرِها وكَبيرِها، جَهرِها وسِرِّها، وهَذا التَّنصيصُ يَزيدُ في إلقاءِ الرَّهبةِ في نُفوسِ المُخاطَبينَ؛ لأنَّهُ إذا قيلَ فقَطْ: (إنَّ عَلَيكُم حافِظينَ)؛ لَرُبَّما أوحَى ذَلِكَ أنَّهُم يَحفَظونَ النّاسَ مِمّا يُصيبُهُم، أو يَحفَظونَ أقدارَهُم وآجالَهُم؛ فجاءَ قَولُهُ: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾؛ لِيَقطَعَ التَّوهُّمَ، ويُعَيِّنَ نَوعَ الحِفظِ، أنَّهُ حِفظُ الأعمالِ بالعِلمِ والكِتابَةِ.

وَمِنْ فوائِدِ التَّعبيرِ بالفِعلِ: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾: أنَّهُ يَكْشِفُ عَنِ المَدارِ الّذي يَدورُ عَلَيْهِ تَسْجيلُ الأعمالِ، فهوَ عِلْمٌ يُفْضي إلى كِتابَةٍ، لا نَقْلًا صَمًّا، ولا حِفْظًا غَيْرَ مُدْرَكٍ، وإنَّما هيَ كِتابَةٌ ناتِجَةٌ عَنْ عِلْمٍ مُباشِرٍ، يَدُلُّ على الإحاطَةِ والدِّقَّةِ في الرَّصْدِ.

دَلالَةُ المُضارَعَة:

دَلالَةُ الاستِمرارِ والدِّقَّةِ في الرَّصْدِ الإلَهِيِّ

جاءَ الفِعلُ مِنَ العِلمِ بصيغَةِ المُضارَعَةِ في قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾؛ للدَّلالَةِ على أنَّ عِلْمَ هؤُلاءِ الحَفَظَةِ الكِرامِ بأعمالِ البَشَرِ لَيْسَ أمرًا طارِئًا ولا مُنْقَطِعًا، بَلْ هوَ مُستَمِرٌّ ومُتَجَدِّدٌ، فهُم يَطَّلِعونَ على كُلِّ ما يَصْدُرُ عَنِ الإنْسانِ مِنْ أعْمالٍ في كُلِّ أوقاتِهِ وأحْوالِهِ، سِرًّا وعَلانيَةً، وفي التَّعْبيرِ بالمُضارِعِ تَنْبيهٌ على أنَّ تَسْجيلَ الأعْمالِ جارٍ على وجْهِ الدِّقَّةِ والاستِقصاءِ، فلا يَفوتُهُم شَيْءٌ مِمّا يَجْري مِنَ العَبدِ، كائِنًا ما كانَ؛ ففيهِ مِنَ الإنْذارِ والوَعيدِ ما فيهِ؛ إذْ لَم يَبْقَ لِلإنسانِ عُذْرٌ بَعْدَ أنْ عَلِمَ أنَّ كُلَّ ما يَفْعَلُهُ مَكتوبٌ مَعْلومٌ.

إفادَةُ العُمومِ في الإحاطَةِ بالظّاهِرِ والباطِنِ

دَلالَةُ ﴿مَا﴾:

أوثِرَ التعبيرُ بـ﴿مَا﴾ في قَولِ اللّه تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾

دونَ غَيرِها مِنَ المَوصولات؛ لأنَّها مُبهَمَة، وتُفيدُ عُمومَ المَعنَى، فهيَ شامِلَةٌ لكلِّ ما يَصْدُرُ عَنِ المُكَلَّفينَ مِنْ أعمالٍ، صَغُرَت أو كَبُرَت، جَهْرًا كانَت أو سِرًّا، وفي استِعمالِ ﴿مَا﴾ المَوْصولَةِ دونَ أنْ يُقالَ: (يَعْلَمون أعْمالَكُم) أو نَحوُهُ: تَوْسيعٌ لِدَلالَةِ العِلْمِ؛ لِيَشْمَلَ حَتّى ما لا يُعَدُّ عَمَلًا صَريحًا، كالهُموسِ والنِّيّاتِ وخَواطِرِ القُلوبِ مِمّا يَتَعَلَّقُ بالقَصْدِ والإرادَةِ، فكَأنَّما قيلَ: (يَعْلَمونَ جَميعَ ما يَصْدُرُ عَنْكُم) كَذلِكَ، فإنَّ في وُقوعِ ﴿مَا﴾ المَوْصولَةِ إيماءً إلى أنَّ المَعْلومَ لَدَى الحَفَظَةِ هوَ ما لَهُ مَناطٌ بالفِعْلِ الإراديّ، مِنْ خِلالِ صِلَتِها الفِعْليَّة؛ وهَذا يُؤَكِّدُ على مَعْنَى الجَزاءِ والحِسابِ؛ إذْ إنَّ المُؤاخَذَةَ تَكونُ على ما صَدَرَ مَعَ القَصْدِ والاختيارِ، ففي ذلِكَ إشْعارٌ بالعَدْلِ الإلهيِّ في الحِسابِ.

بَلاغَةُ استِعمالِ مادَّةِ الفِعْل:

الفِعْلُ أعَمُّ مِنَ العَمَل

آثَرَ القرآنُ الكَريمُ التَّعبيرَ بالفِعلِ في قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾، دونَ أنْ يَقولَ: (ما تَعْمَلونَ)؛ لأنَّ الفِعْلَ أعَمُّ مِنَ العَمَلِ؛ إذِ العَمَلُ مُقَيَّدٌ في الاصطِلاحِ العُرْفيِّ والعَقائديِّ بما يَكونُ لَهُ قَصْدٌ أو تَكْليفٌ، وغالِبًا ما يُسْتَعْمَلُ في الطّاعَةِ والمَأْمورِ بِه، والعَمَلُ رُبَّما اختَصَّ بإيجادِ الأثَرِ في الشَّيء، كَما يُقالُ: فلانٌ يَعْمَلُ الطّينَ خَزَفًا، ويَعْمَلُ الخوصَ زَنبيلًا، ولا يُقال: يَفعَلُ ذَلِك[1]، بَيْنَما الفِعْلُ في اللُّغَةِ يَشْمَلُ كُلَّ صادِرٍ عَنِ الإنسانِ مِنْ حَرَكاتٍ وسُكونٍ، مِمّا يَتَعَلَّقُ بجَوارِحِهِ أو بقَلْبِهِ، سَواء أُريدَ بِهِ التَّقَرُّبُ أم لَم يُرَدْ.

فاخْتيارُ الفِعْلِ ﴿تَفۡعَلُونَ﴾ يُفيدُ الاسْتيعابَ والإحاطَةَ؛ لِيَدُلَّ على أنَّ أولئِكَ الحَفَظَةَ يَضْبِطونَ كُلَّ ما يَصْدُرُ عَنْكُم، لا ما تَعْتَقِدونَ أنَّهُ مُهِمٌّ فقط، أو مِمّا تَرَوْنَهُ مِمّا يُكْتَبُ عَلَيْكُم، بَلْ كُلُّ حَرَكَةٍ وكُلُّ سُكونٍ، مِمّا هوَ فِعْلٌ في نَظَرِ الشَّرْعِ أوِ اللُّغَة.

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية: 135 - 136.

دَلالَةُ المُضارَعَة:

استِمرارُ الفِعْل، واستِمرارُ الرَّصْد

في استِعْمالِ صيغَةِ المُضارِعِ في قَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿مَا تَفۡعَلُونَ﴾ دونَ الماضي (ما فعَلْتُم) دَلالَةٌ بَلاغيَّةٌ عَظيمَةُ الأثَرِ في مَقامِ التَّقْريعِ والإنْذارِ، إذِ المُضارِعُ في نَظائِرِ هَذا السّياقِ يُفيدُ الاسْتِمرارَ والتَّجَدُّدَ، وهوَ دَلالَةٌ لُغَوِيَّةٌ تَقْتَضيها صيغَةُ المُضارِعِ، ممّا يُفيدُ أنَّ أفْعالَهُم مَوضِعَ الرَّصْدِ والكِتابَةِ لَيْسَت أعْمالًا قَدْ خَلَت، وانْقَضَت، بَلْ هيَ جارِيَةٌ ومُتَكَرِّرَةٌ في حالِهِمُ الرّاهِنِ ومُسْتَمِرَّةٌ عَلَيْهِم، وهَذا يُناسِبُ سِياقَ التَّوْبيخِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾، فإنَّ التَّكْذيبَ بالدّينِ لَيْسَ فِعْلًا ماضيًا وقَعَ، ثُمَّ انْقَضى، بَلْ هوَ سُلوكٌ مُتَجَدِّدٌ، وتَصَرُّفٌ دائِمٌ في حَياةِ أولَئِكَ المُكَذِّبينَ، فجاءَ الفِعْلُ المُضارِعُ ﴿تَفۡعَلُونَ﴾؛ ليوافِقَ هَذِهِ الصّورَةَ مِنَ الإصرارِ والاستِمرارِ على الجُحودِ والإعراضِ.

كَذلِكَ، فإنَّ المُضارَعَ يوحي بحُضورِ الفِعْلِ واقْتِرابِهِ، وفي ذلِكَ تَقْوِيَةٌ لِمَعْنَى الرَّقابَةِ والمُراقَبَةِ، وإشْعارٌ للمُخاطَبِ بأنَّهُ في مَوْضِعِ رَصْدٍ دائِمٍ، لا يَفوتُ مِنهُ شَيْءٌ، وأنَّ أفعالَهُ تُكْتَبُ حينَ تَقَعُ، لا يُنْتَظَرُ بها أنْ تَتِمَّ، ففي ذلِكَ إنْذارٌ مُسْتَتِرٌ بأنَّ المُحاسَبَةَ آتيَةٌ لا مَحالَةَ، وأنَّ العَمَلَ المُسْتَمِرَّ هوَ مَوضِعُ الجَزاءِ.

غَرَضُ حَذفِ المَفعولِ:

إفادَةُ العُمومِ والشُّمولِ الَّذي يَحمِلُ مَعنَى الزَّجْرِ والتَّخويف

في حَذْفِ المَفْعولِ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ بَلاغَةٌ تُفيدُ التَّفْسيحَ في مَعْنَى الفِعْلِ وتَوسيعَ دَلالَتِهِ، فإنَّ الحَذْفَ هُنا للتَّعْميمِ؛ ليَشْمَلَ كُلَّ مَفْعولٍ يُتَصَوَّرُ فِعْلُهُ، فتَكونُ ﴿مَا﴾ مَوْصولَةً مَفْعولًا بِهِ لـ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، وهيَ بمَعْنَى: (الَّذي)، أيْ: (يَعْلَمونَ الَّذي تَفْعَلونَهُ، مِنْ خَيْرٍ أو شَرٍّ، كَبيرٍ أو صَغيرٍ، سِرٍّ أو جَهْرٍ).

فَجاءَ الحَذْفُ؛ ليُنَزِّلَ المَعْنَى مَنزِلَةَ الإطْلاقِ المُخيفِ الّذي لا

يُترَكُ مَعَهُ شَيْءٌ إلّا دَخَلَ فيهِ، وهَذا أَشَدُّ وقْعًا في النُّفوسِ، وأبلَغُ في الزَّجْرِ والتَّخْويفِ، مِنْ أنْ يُذْكَرَ مَفْعولٌ مُعَيَّنٌ، فإنَّ تَعْيينَهُ يَقْتَصِرُ بالفِكْرِ عَلَيْهِ، بَيْنَما الحَذْفُ يُطْلِقُ لِلوَهْمِ العِنانَ؛ ليَتَصَوَّرَ كُلَّ شَيْءٍ، فتَتَّسِعَ الدّائِرَةُ، وتَعْظُمَ الرَّهْبَةُ.

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ١٦﴾ [الانفطار: 13 - 16]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الإفصاحُ عَنْ مَصيرِ كُلِّ فريقٍ مِنَ النّاسِ بحَسَبِ أعمالِهم

لمّا أثبَتَتِ الآياتُ السابقةُ وقوعَ يومِ الحساب، وأبانَت عن عِلمِ كُلِّ نَفْسٍ بما قدَّمَت، وأخَّرَت، وذكَرَت مَسؤوليَّةَ الإنسانِ عَنْ أعمالِه تَحتَ رَصَدِ الحافظينَ؛ جاءَت هَذِهِ الآياتُ لِتُفصِحَ عن مَصيرِ كُلِّ فريقٍ مِنَ الناسِ بحَسَبِ أعمالِهم، فذُكِرَ القِسمُ الأوّلُ مِنَ النّاس، وهُمُ الأبرارُ، ثمّ جاءَ ذِكرُ الفَريقِ الثّاني، وهُمُ الفُجّارُ، وذُكِرَ الجزاءُ المُعَدُّ لِكُلِّ فريقٍ منهُما.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾: (برر) أَصْلٌ يَدُلُّ على الصِّدْق[1]، يُقال: بَرَّت يَمينُه بَرًّا؛ إذا لَم يَحْنَث، ومنه قيلَ: (بَرَّ الرَّجُلُ)؛ إذا صَدَقَ في أقوالِه وأفعالِه[2]، ومِنَ المَجاز: فُلانٌ يَبَرُّ رَبَّهُ، أي: يُطيعُه[3]، وكانَ بارًّا مُطيعًا لله، مُحسِنًا إلى عِبادِه، مُمتَثِلًا لأوامرِ ربِّه، مُجتنِبًا لنواهيه، فهي كَلِمَةٌ تدلُّ على الصِّدقِ والطَّهارَةِ والنَّقاءِ والاستقامة[4]، والأبرارُ جَمعُ بارٍّ، والبِرُّ ضِدُّ العُقوق، ورُبَّما كانَ أصلُ البِرّ مِنَ البَرِّ خِلافَ البحر، تُصوِّرَ مِنهُ التَّوسُّع، فاشتُقَّ منه البِرّ، أي: التَّوَسُّعُ في فِعلِ الخَير، ولَفظُ (البَرُّ) يُستعملُ في وصفِ الإنسانِ الكاملِ في خُلُقِه ودينِه، المُحسِنِ في علاقتِه بربِّه وبخَلْقِه، فالأبرارُ في الآيَةِ هُمُ الذينَ بَرّوا اللّه بطاعتِهم، وبَرّوا عِبادَه بإحسانِهم، فنالوا البِرَّ جزاءً على برِّهم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بر).
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغويّة: (برر).
(3) الزمخشري، أساس البلاغة: (برر).
(4) ابن سيده، المُحكم: (برر).

2) ﴿ٱلْفُجَّارَ﴾: (فجر) أَصْلٌ يَدُلُّ على التَّفَتُّحِ في الشَّيْءِ، مِنْ ذلِكَ الفَجْرُ: انْفِجارُ الظُّلْمَةِ عَنِ الصُّبْحِ، ومِنْهُ: انْفَجَرَ الماءُ انْفِجارًا، أيْ: تَفَتَّحَ، ثُمَّ كَثُرَ هذا حَتَّى صارَ الانْبِعاثُ والتَّفَتُّحُ في المَعاصي فُجورًا، ولِذلِكَ سُمّيَ الكَذِبُ فُجورًا، ثُمَّ كَثُرَ هذا حَتَّى سُمّيَ كُلُّ مائِلٍ عَنِ الحَقِّ فاجِرًا[1].

فَهَذِهِ المادَّةُ إذا استُعْمِلَت في أوصافِ الناسِ؛ دَلَّت على الخروجِ عَنِ الطّاعةِ، والتَّلَبُّسِ بالمَعصيَةِ، والانفِلاتِ مِنْ حُدودِ الشَّرعِ، وشقِّ عصا الطّاعةِ، فالفُجّارُ همُ الذين تمادَوا في مخالفةِ أمرِ الله، وارتَكَبوا المَعاصي، وجاهَروا بها، بلا وجَلٍ ولا خَشيةٍ، فهُم في مقابلةِ الأبرارِ الذين بَرّوا ربَّهم بطاعتِهم.

4) ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾: (صلي) أصلٌ يدلُّ على اللُّصوقِ بشيءٍ مع الحرارةِ، تقولُ: صَليَ النارَ يَصلاها صِلًى وصُلًى وصَلوًا؛ إذا دخَلَ فيها، واحترقَ بها، أو لَزِمَها مُتحمِّلًا لَظاها، والصَّلا اسمٌ للوَقود؛ إذا اصطَلَى به القوم[2]، وصَلَى اللَّحْمَ صِلاءً: شَواهُ، والصِّلاءُ: الشِّواءُ، وصَلَى اللَّحْمَ في النّارِ، وأَصْلاهُ: أَلْقاهُ للاحتِراقِ[3]، فالمعنى في الآيةِ: دُخولُ الفُجّارِ الجحيمَ يومَ الحسابِ، والتِصاقُهُم بها التصاقَ المُحتَرِقِ بالنّارِ، لا يكونُ لهم عنها انفكاكٌ، ولا يُخفَّفُ عنهم من بأسِها.

المَعنى الإجْماليُّ:

تَصويرُ المَصيرِ في ضَوءِ أعمالِ الإنسان

في هذه الآياتِ يُقسِّمُ اللّه تعالى الناسَ إلى صِنفَينِ لا ثالثَ لهما، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾، أي: إنَّ الذين بَرّوا بأداءِ فرائضِ اللّه، وزَكّوا نُفوسَهُم، وراعَوا حدودَ اللّه، واتَّقَوهُ في سرِّهم وعَلَنِهم،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فجر).
(2) الخليل، العين: (صلي).
(3) ابن سيده، المُحكم: (صلي).

واجتَنَبوا مَعاصيَهُ: لَفي نَعيمِ الجِنانِ يَنعمونَ فيها[1]، ثمّ قالَ: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾، أي: إنّ الذين فجَروا في أعمالِهم، وتمرَّدوا على أمرِ اللّه، ورَكِبوا مَعاصيَه؛ لَفي جَحيمٍ عَظيمٍ، وعذابٍ شديدٍ، يُحَرِّقُهم، ويُحاصِرُهم، ولا يَبرَحونَه، بل هُم مُلازِمون له، مُقاسونَ وهجَه، يومَ الدّين والجزاءِ على الأعمال، وهو يومُ القيامة[2]، ثمّ قالَ تعالى: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾، أي: لا يُفارِقونَ تلكَ الجحيمَ، ولا يُمهَّلونَ عنها، ولا يُخفَّفُ عنهم، ولا يُؤذَنُ لهم بالانصرافِ، بَلْ هم فيها خالِدونَ مُخَلَّدون.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فصلِ الجُملَة:

بَـلاغَـةُ الفَـصْلِ في تَقريرِ المَصيرِ الأُخْرَويّ

فُصِلَ قَولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ عمّا قبله لِلاستِئنافِ البَيانيّ، فالجُملَةُ مستأنفة لِتَقريرِ المصيرِ الأُخرَويِّ للإنسان، كأنّها وقَعَت جَوابًا عَن سُؤالٍ وقَعَ في نَفْسِ السّامِعِ، يُثيرُه قولُه تعالى: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ الآيات، فالسّامِعُ يَتَشَوَّفُ إلى مَعرِفَةِ هذا الدّينِ والجزاءِ ما هو، وإلى مَعرِفَةِ غايَةِ إقامَةِ المَلائِكَة لإحصاءِ الأعْمالِ ما هي، فبُيِّنَ ذَلِكَ كُلُّه في هَذِهِ الآيات: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[3].

والفَصْلُ بَيْنَ الجُمَلِ يَكونُ لِلدِّلالَةِ على استِئْنافٍ مَعنَويٍّ، يُرادُ بهِ تَفْتيقُ الذِّهْنِ لِتَلَقّي حُكْمٍ جَليلٍ، كَأنَّهُ مَبْدَأُ خِطابٍ جَديدٍ، وهوَ سياقٌ يَقْتَضي إبْرازَ المَعْنَى على وجْهٍ مِنَ التَّقْريرِ والإثْباتِ؛ لأنَّه تَقَدَّمَ قَبْلَ هَذِهِ الجُمَلِ ذِكْرُ رَصْدِ الأعْمالِ، فكانَ مِنَ البَلاغَةِ أنْ يُفْصَلَ عَنْ ذَلِكَ جَوابُ ما سيؤول إلَيْهِ أولَئِكَ المَرْصودونَ، مِنَ الأبْرارِ والفُجّارِ.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 271.
(2) الواحديّ، التفسير الوسيط: 4/ 439.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 181.

بَلاغَةُ تَوكيدِ الجُملَة:

تَـوكـيـدُ ثُـبـوتِ النَّعيمِ يُناسِبُ مَقامَ الـرَّدِّ على المُكَذِّبينَ بالجَزاء

توالَتِ المُؤَكِّداتُ في قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾؛ إذ صُدِّرَتِ الجُملَةُ الاسميَّةُ بـ﴿إِنَّ﴾، وأُدخِلَت لامُ الابتِداء؛ ليُساويَ البيانُ مُبَيَّنَهُ - ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ﴾ - في التَّحقيقِ ودَفْعِ الإنكار[1].

وبَلاغَةُ هَذِهِ الجُملَةِ المُؤَكَّدَةِ في إفادَتِها التَّقْريرَ والتَّثْبيتَ في الرَّدِّ على المُكَذِّبينَ بالدّين، الَّذينَ ذُكِروا في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾؛ فكانَ تَوكيدُ هَذِهِ الجُملَةِ إفْحامًا لِلمُكَذِّبينَ، وإزالَةً لِما تَسَلَّلَ إلَى أوهامِهِم مِنَ الشَّكِّ أوِ الاستِبْعادِ لِهَذا الجَزاءِ؛ لِيَكونَ بِمنزلة الحُكمِ القَطْعيِّ الَّذي لا يُخالِطُهُ شَكٌّ أَوْ تَرَدُّد.

ويُفيدُ التَّوكيدُ التَّقْريرَ والتَّفْصيلَ بَعْدَ الإجْمالِ، فقَدْ سَبَقَ ذِكْرُ الرَّقابَةِ والكِتابَةِ في قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، وهَذا يَقْتَضي جَزاءً، فجاءَ التَّوكيدُ في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ إفادَةً؛ لأنَّ هَذا الجَزاءَ حَقٌّ وواقِعٌ، وذَلِكَ مِنْ بابِ تَقْوِيَةِ المُتَوَقَّعِ في ذِهْنِ السّامِعِ وتَثْبيتِهِ في قَلْبِ المُخاطَبِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالأَبْرار:

جَـمَـعـوا بَـيـنَ صِـحَّـةِ الإيـمـانِ وكَمالِ الإحْسان

آثَرَ القُرآنُ الكَريمُ وصْفَ الأبرارِ في قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ دونَ أنْ يَقولَ: (إنَّ المُؤْمنينَ)؛ وذَلِكَ لأنَّ الوَصْفَ بالأَبْرارِ أرْقَى مَقامًا وأبْلَغُ تَنْويهًا مِنَ الوَصْفِ الإيمانيِّ المَحْضِ؛ لأنَّ (البِرَّ) في نَظَرِ الشَّرْعِ يَجْمَعُ صِدْقَ العَقيدَةِ وحُسْنَ السُّلوك، ويَتَضَمَّنُ تَجَسُّدَ المَعْرِفَةِ الإيمانيَّةِ في العَمَلِ والخُلُق، فالأَبْرارُ هُمُ الَّذينَ جَمَعوا بَيْنَ صِحَّةِ الإيمانِ وكَمالِ الإحْسانِ، وقَدْ جَرَى العُرْفُ القُرْآنيُّ على استِعْمالِ هَذا اللَّفْظِ في مَقامِ الثَّناءِ والتَّكْريم، كَما في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾ [الإنسان: 5]، وهوَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 181.

وصْفٌ يُشْعِرُ بالمَجْدِ الرّوحيِّ والنَّقاءِ القَلْبيِّ، ولِذَلِك جاءَ اختيارُهُ في هَذا السّياق؛ ليَدُلَّ على أنَّ مَحَلَّ الجَزاءِ في ذَلِكَ اليَوْمِ لَيْسَ مُجَرَّدَ الإيمانِ اسْمًا وادِّعاءً، بلِ المَقامُ مَقامُ البِرِّ المُتَمَثِّلِ في صالِحِ الأعْمالِ وتَقْوَى القُلوبِ.

وأوثِرَت صيغَةُ الجَمعِ ﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ دونَ (بَرَرَة)؛ جَرْيًا على الاستِعمالِ القُرآنيِّ؛ فلَفْظُ الأبرارِ ورَدَ عِدَّةَ مَرّاتٍ في القرآنِ الكريمِ، كُلُّها في حَقِّ البَشَرِ، بَينَما ورَدَ الجَمْعُ (بَرَرَة) مَرَّةً واحِدَةً في سياقِ وصْفِ المَلائكَةِ: ﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦﴾ [عبس: 15 - 16]، وسِرُّ التَّفريقِ بَينَهُما أنَّ (الأبرار) جَمعُ قِلَّة، وهُم في النّاسِ قِلَّةٌ قياسًا إلى الفُجّار، أمّا الجَمْعُ (بَرَرَة)؛ فهوَ جَمعُ كَثْرَة، ولِذَلِكَ استُعمِلَ وصْفًا لِلمَلائِكَة؛ لأنّهم جميعًا بَرَرَة، وهُم كَثيرٌ في العَدَدِ[1].

دَلالَةُ (في):

حَرفُ الظَّرفيَّةِ (في) مِنْ قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ﴾، لَهُ دَلالَةٌ بَليغَةٌ تُصَوِّرُ إحاطَةَ النَّعيمِ بالأبْرارِ، وحُلولَهُم فيهِ حُلولَ المُسْتَقِرِّ في مَكانٍ، والظَّرفيَّةُ هُنا مَجازيَّة؛ لأنَّ النَّعيمَ أمرٌ اعتِباريٌّ، ولا يَكونُ ظَرْفًا حَقيقَةً؛ شُبِّهَ دَوامُ التَّنَعُّمِ لَهُم بإحاطَةِ الظَّرْفِ بالمَظْروفِ، بحَيْثُ لا يُفارِقُهُ[2].

وَمِنْ بَلاغَةِ التَّعبيرِ بالظَّرفيَّةِ دَلالَتُه على أنَّ نَعيمَ الأبْرارِ لَيْسَ مُجَرَّدَ لِقاءٍ أو زيارَةٍ، بَلْ هوَ مَقامٌ يَسْكُنونَهُ، ويُساكِنُهُم؛ فكَأنَّهُم في بُحْبوحَةِ النَّعيمِ، لا يُفارِقُهُم، ولا يُفارِقونَهُ، مِمّا يوحي بالثَّباتِ والطُّمَأْنينَةِ.

نُكتَةُ التَّعبيرِ بالنَّعيم:

عُبِّرَ عَنِ الجَنَّةِ بالنَّعيمِ في قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ﴾،

(1) محمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 469.

(2) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 182.

وذَلِكَ لِما يَحمِلُه هذا اللَّفْظُ مِنَ التَّعظيمِ والتَّفخيم؛ لأنَّ النَّعيمَ اسْمٌ يُطلَقُ على كُلِّ ما يَنعَمُ بِهِ الإنسان.

وَمِمّا يُذكَرُ في سِرِّ التَّعبيرِ بالنَّعيم عَنِ الجَنَّة أنَّ نَعيمَ أهلِ الجَنَّةِ لا يُحَدُّ، ولا يُحْصَرُ في صوَرٍ مَعْلومَةٍ، بَلْ هوَ نَعيمٌ يَتَنَوَّعُ، ويَتَجَدَّدُ، ويَفوقُ في حَقيقَتِهِ ما عَهِدَتْهُ النُّفوسُ في الدُّنْيا، وقَدْ جاءَ ذِكْرُهُ مُناسِبًا لِسياقِ التَّقْريرِ الَّذي تَقَدَّمَ فيهِ ذِكْرُ الكِتابَةِ والرَّصْد، فكانَ الجَزاءُ هوَ (النَّعيم)، وأُطْلِقَ عَلَيْهِ؛ لِكَوْنِهِ أجْمَعَ لِما يُرادُ مِنْ نِعَمِ الآخِرَةِ، وفيهِ تَلطيفٌ لِمَعْنَى الجَزاءِ، فلَم يَقُلْ: (إنَّ الأبْرارَ لَفي الجَنَّةِ)؛ لأنَّ ذَلِكَ يُحيلُ إلَى مَعْنًى مَعْروفٍ، بَيْنَما ﴿نَعِيمٍ﴾ يُفيدُ الطَّرْحَ في سَعَةٍ وفُسْحَةٍ مِنَ الرَّغْبِ والتَّأمُّلِ.

غَرَضُ التَّنكير:

ألوانُ النَّعيمِ لا تُقَيَّدُ بوَصْف، ولا تُحصَرُ في نَوْع

جاءَ لَفظُ النَّعيم مُنَكَّرًا في قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾؛ لِيُفيدَ تَعْظيمَ الجَزاءِ وتَفْخيمَ قَدْرِهِ، كَأنَّهُ نَعيمٌ لا يُعْرَفُ مِثْلُهُ، ولا يُبْلَغُ كُنْهُهُ، ففيهِ إجْمالٌ يَدُلُّ على الاسْتِغْراقِ في النَّعيم، وإشْعارٌ بأنَّهُ نَعيمٌ فائِقٌ لِكُلِّ ما يُتَصَوَّرُ، وهَذا أبْلَغُ في تَشْويقِ السّامِعِ مِنْ أنْ يُعَبَّرَ عَنْهُ بما يَدُلُّ على مَعْروفٍ مُعَيَّنٍ، فالتَّنْكيرُ هُنا إثارَةٌ لِلتَّرَقُّبِ، وتَفْتيحٌ لِخَيالِ المُسْتَمِعِ، يَتَصَوَّرُ فيهِ أنْواعًا وأشْكالًا مِنَ النَّعيمِ، لا تُقَيَّدُ بوَصْفٍ، ولا تُحْصَرُ في نَوْعٍ.

بَلاغَةُ الوَصْل:

اقترانُ المَصيرَين، وتَزامُنُ الحُكمَين

في الوَصْلِ بَيْنَ الجُملَتَيْنِ المُتَقابِلَتَيْنِ مِنْ قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ - مَعَ أنَّ الأصْلَ في المُتَقابِلَيْنِ أنْ يُفْصَلَ بَعْضُهُما عَن بَعْضٍ - نُكْتَةٌ بَلاغيَّةٌ دَقيقة، وهيَ أنَّ الوَصْلَ في هَذا المَوْضِعِ يُفيدُ اقْتِرانَ المَصيرَيْنِ، وتَزامُنَ الحُكْمَيْنِ، وتَرْتيبَ الجَزاءِ على ما تَقَدَّمَ مِن ذِكْرِ المُراقَبَةِ والتَّسْجيلِ في قَوْلِهِ:

﴿يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾، فالجُملَتانِ - وإنْ كانَتا مُتَقابِلَتَيْنِ في اللَّفظِ والمَعْنَى - مُتَلازِمَتانِ في القَضاءِ والحُكْم، فجاءَ الوَصْلُ بَيْنَهُما؛ لِيَدُلَّ على أنَّ هَذَيْنِ الجَزاءَيْنِ يَجْرِيانِ في مَجْرًى واحِدٍ، ويَقَعانِ في زَمَنٍ واحِدٍ، وهوَ يَوْمُ الدّينِ، كَما يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾، ولَعَلَّ مِن مُقتَضَياتِ الوَصْلِ: اتِّفاقُ الجُملَتَينِ في الخَبَريَّةِ والإنشائيَّةِ مَعَ الاتّصال، أي: إنَّ الجامِعَ بَينَهُما هنا هوَ التَّضادّ[1].

وَمِنْ فوائِدِ الوَصلِ أيضًا دَفعُ ما يُتَوَهَّمُ مِنَ الفَصْلِ بَيْنَ الجُملَتَيْنِ، أنّهُ يوحي بتَباعُدِ المَعْنَيَيْنِ، فجاءَ الوَصْلُ؛ لِيَدُلَّ على أنَّ الحُكْمَ على الأبْرارِ والفُجّارِ قَضاءٌ واحِدٌ في مَجَالِ العَدْلِ الإلهيِّ.

بَلاغَةُ تكرارِ المُؤكِّدات:

حُكمُ الله على الفُجّارِ قَضاءٌ مُستَقِلٌّ

في تَكْرارِ أدَواتِ التَّوكيدِ في الجُملَةِ الثّانيَةِ مِن قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾، نُكْتَةٌ بَلاغيَّةٌ دَقيقَةٌ، تُفيدُ تَقْويَةَ الحُكْمِ على كِلا الطَّرَفَيْنِ بصورَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ؛ لِتَكونَ كُلُّ جُملَةٍ كالأصْلِ في الخَبَرِ والإثْباتِ، لا تَبَعيَّةَ فيها لِلأُخْرَى، فكرَّرَ التَّأكيدَ مَعَ الجُملَةِ المَعطوفَةِ؛ للاهتِمامِ بتَحقيقِ كَونِهم في جَحيمٍ لا يَطمَعون في مُفارَقَتِه[2].

وَمِمّا يُذكَر في بَلاغَةِ تَكرارِ التَّوكيدِ إفادَتُهُ أنَّ حُكْمَ الفُجّارِ بالمُقابِلِ مِمّا لِلأبْرارِ لَيْسَ تَبَعًا ولا مُجَرَّدَ تَفْصيلٍ، بَلْ هوَ قَضاءٌ مُسْتَقِلٌّ، يُرادُ لِنَفْسِه، ويَسْتَقْطِبُ الانْتِباهَ إلَيْه، ويَزيدُ الأمرَ تَفْظيعًا وتَهْويلًا، ولَوْ لَم يُكَرَّرِ التَّوكيدُ؛ لَتَوَهَّمَ السّامِعُ أنَّ الجُملَةَ الثّانيَةَ مَبْنيَّةٌ على سِياقِ الأولَى، وأنَّها مُجَرَّدُ تَفْريعٍ عَلَيْها، وذَلِكَ يُضْعِفُ مَكانَ الحُكْمِ على الفُجّارِ، ويوحي بتَراخيه، فجاءَ التَّكرارُ لِدَفْعِ التَّوَهُّم وتَقْويَةِ الجَزاءِ في حَقِّ أهْلِ الجَحيم.

---

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 30/ 265.

(2) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 182.

دَلالَةُ مُفرَدَةِ ﴿ٱلْفُجَّارَ﴾:

مَفهومُ الفُجّارِ أعَمُّ مِنَ مَفهومِ الكُفّار

في اختيارِ لَفْظِ ﴿ٱلْفُجَّارَ﴾ في قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ - دونَ أنْ يُقالَ: (الكُفّار) - نُكْتَةٌ بَلاغيَّةٌ جَليلَةٌ، فإنَّ الفُجورَ في اللُّغَةِ هوَ شُيوعُ الخُروجِ عَن طَريقِ الحَقِّ، والانفِلاتُ مِن ضَوابِطِ الدّينِ والأخْلاقِ، وهوَ أعَمُّ مِنَ الكُفْرِ، فقَدْ يَكونُ الفاجِرُ كافِرًا، وقَدْ يَكونُ فاسِقًا مِن أهْلِ الإيمانِ، يَجْمَعُ بَيْنَ التَّكْذيبِ وسوءِ العَمَلِ، وقَدْ سَبَقَ في سياقِ السّورَةِ ذِكْرُ أعْمالِ المُكَذِّبينَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾، ثُمَّ ذُكِرَ أنَّهُم مَرْصودونَ بالرَّقيبِ المَلَكيِّ، الَّذي يَعْلَمُ ما يَفْعَلونَ؛ فجاءَ ذِكْرُ الفُجّارِ؛ تَتويجًا لِصِفَةِ أعْمالِهِم، لا لِمُجَرَّدِ مَوْقِفِهِم العَقَديِّ.

دَلالَةُ صيغَةِ ﴿ٱلْفُجَّارَ﴾:

رُسوخُهم في الفُجور، وتَكرارُه منهم حتَّى صارَ لهُم كالحِرفَة

في اخْتيارِ صيغَةِ الفُعّالِ - دونَ صيغَةِ اسمِ الفاعِلينَ (الفاجِرينَ) أوْ جَمعِ الكَثرَةِ (الفَجَرَة) - مِن قَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ نُكْتَةٌ بَلاغيَّةٌ تُفيدُ المُبالَغَةَ في وَصْفِ الذّاتِ بالصِّفَةِ؛ لأنَّ صيغَةَ (فُعّال) في نَحْوِ هَذا السّياقِ تَدُلُّ على الرُّسوخِ والاشْتِهارِ وتَكَرُّرِ الصِّفَةِ، فهيَ لَيْسَت مُجَرَّدَ دَلالَةٍ على وُقوعِ الفِعْلِ، كَما هوَ شَأنُ (فاعِلين)، بَلْ هيَ دَلالَةٌ على تَغَلْغُلِ الفُجورِ في الذّاتِ، وصيرورَتِهِ وَصْفًا مُطَّرِدًا لَها، فاستِعْمالُ ﴿ٱلْفُجَّارَ﴾ يوحي بأنَّهُم مُسْتَقِرّونَ على الفُجورِ، مُقيمونَ عَلَيْهِ، قَدِ انْطَبَعَت أحْوالُهُم وسُلوكُهُم على طابَعِ الفُجورِ، فهُم أهْلُ فُجورٍ في أقْوالِهِم وأفْعالِهِم، فصارَتِ الصِّفَةُ كالهويَّةِ المُلازِمَةِ لَهُم، وهَذا أبْلَغُ في التَّقْبيحِ والزَّجْرِ والإنْذارِ؛ وأيضًا فإنَّ فيهِ تَحْقيقًا لمُجانَسَةِ الجَزاءِ لأصحابِهِ، بمَجيءِ الصّيغَةِ مُماثِلَةً لِدَرَجَةِ الجُرْمِ وثِقَلِ الوِزْرِ.

والصّيغَةُ مِنْ بابِ التَّناسُبِ اللَّفْظيّ، فلَفظُ ﴿ٱلْفُجَّارَ﴾ يُقابِلُ لَفظَ ﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾؛ وذَلِكَ مِنْ بَلاغَةِ التَّوازُنِ في ألفاظِ القُرآنِ؛ إذْ يُقابَلُ

الوَصْفُ بنَظيرِهِ في دَلالَةِ الصّيغَةِ والوِزانِ الصَّوْتيّ، لَكِنْ بخِلافِ المَعْنَى، فالأبْرارُ هُمُ الَّذينَ رَسَخَ البِرُّ في نُفوسِهِم، والفُجّارُ هُمُ الَّذينَ رَسَخَ الفُجورُ في ذَواتِهِم.

دَلالَةُ حَرفِ الظَّرفيَّة:

تَصويرُ استِغْراقِ الفُجّارِ في العَذاب

جاءَ استِعْمالُ حَرْفِ الظَّرْفيَّةِ في قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ يَحملُ دَلالَةً تَصْويريَّةً عَميقَةً، أضفَت على الجَحيم صِفَةَ الظَّرْفِ المُحيطِ؛ لِلدَّلالَةِ على إحاطَةِ العَذابِ بالفُجّارِ إحاطَةً تامَّةً، لا يَجِدونَ مِنْها مَخْرَجًا، ولا يَنْفَصِلونَ عَنْها، وهَذِهِ الظَّرْفيَّةُ حَقيقيَّةٌ[1]، بخِلافِ ظَرْفيَّةِ الأبرارِ في النَّعيم، وفي هذا التَّعبير - إضافَةً إلى إفادَةِ حَقيقَةِ وُجودِهِم في الجَحيم - تَصْويرٌ لِتَمَكُّنِ العَذابِ مِنهم، واستِغْراقِهِم فيه، وإشارَةٌ إلَى اللُّزوم، والدَّيمومَة، والاستِقْرارِ المُؤلِم، فلَيْسَ المَقْصودُ مُجَرَّدَ المُلاقاةِ أوِ المُرور، بَلْ هوَ الاستِقْرارُ التّامُّ في مَقامِ العَذابِ، لا يُفارِقُهُم، ولا يُفارِقونَهُ، مِمّا يَزيدُ مِنْ شِدَّةِ التَّصْويرِ وهَوْلِ المَآلِ.

نُكتَةُ استِعمالِ لَفظِ الجَحيم:

تَصويرُ العَذابِ بِصورَةٍ مُرعِبَةٍ مَحسوسَة

عُدِلَ عن مُقابَلَةِ النَّعيمِ بالشَّقاءِ في قَولِ اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾؛ تَوْجيهًا لِفَهْمِ المَصيرِ على وجْهِ العِيانِ والإحْساس، لا على وجْهِ التَّجْريدِ العَقْليِّ، فإنَّ (الشَّقاءَ) مَعْنًى ذِهْنيٌّ مُجْمَلٌ، يَشْتَمِلُ على أنْواعٍ مِنَ المَكْروه، مِن غَيْرِ تَعْيين، بَيْنَما (الجَحيمُ) يوحي بمَشْهَدٍ هائِلٍ، وعَذابٍ مَلْموس، ووَقودٍ مُتَّقِد، يُطَوِّقُ أصْحابَهُ، ويُحيطُ بِهِم، وقَد غَلَبَ استِعمالُ لَفظِهِ في القُرآنِ على ما يُقابِلُ نَعيمَ الجَنَّةِ مِنَ العَذابِ النّاريِّ الدّائِم، حَتَّى صارَ عَلَمًا بالغَلَبَةِ على جَهَنَّم[2]، كَذَلِكَ، فإنَّ في ذِكْرِ (الجَحيم) دونَ (الشَّقاءِ) تَناسُبًا صَوْتيًّا ودَلاليًّا

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 182.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 182.

مَعَ قَوْلِهِ تعالى في المُقابَلَةِ: ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾، فكَما أنَّ النَّعيمَ هوَ قِمَّةُ الرّاحَةِ الحِسّيَّةِ والنَّفْسيَّة، فكَذَلِكَ (الجَحيمُ) قِمَّةُ العَذابِ الحِسّيِّ والمَعْنَويِّ، فجاءَتِ المُقابَلَةُ مُتَماثِلَةً في الصّياغَةِ والمَوْزونَةِ في الأثَرِ.

بَلاغَةُ المُقابَلَةِ بَينَ الآيَتَيْن:

إبْـرازُ التَّقْسيمِ العـادِلِ بَـيـنَ طَـرَفَـيـنِ مُـتَـنـاظِـرَيـنِ فـي الـبِـنْـيَـةِ، مُـتَـضـادَّيـنِ في المَعنَى

في المُقابَلَةِ بَيْنَ قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾، وقَوْلِه: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ بَلاغَةٌ جَليلَةٌ تَقومُ على التَّقْسيمِ العادِلِ والتَّقابُلِ البَيانيِّ، فهيَ مُقابَلَةٌ تامَّةُ الأرْكانِ، تَقَعُ بَيْنَ طَرَفَيْنِ مُتَناظِرَيْنِ في البِنْيَةِ ومُتَضادَّيْنِ في المَعْنَى، فاقْتَرَنَ في الآيَتَيْنِ الاسمانِ: ﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾ و﴿ٱلْفُجَّارَ﴾، والخَبَرانِ: (في نَعيم) و(في جَحيم)، وتوُكِّدَتِ الجُملَتانِ بـ(إنَّ) واللامِ، وجُمِعَ الطَّرَفانِ في نَظْمٍ مُتَساوٍ في العَدَدِ والإيقاعِ، وهَذِهِ المُقابَلَةُ تُفيدُ إظْهارَ التَّفاوُتِ البائِنِ بَيْنَ الفَريقَيْنِ، وتُشْعِرُ أنَّهُ لا وسَطَ بَيْنَ المَقامَيْنِ؛ فالنّاسُ مُنْقَسِمونَ يَوْمَئِذٍ إلَى أبْرارٍ في نَعيمٍ، وفُجّارٍ في جَحيمٍ، فلا مَخْرَجَ ولا مَفَرَّ.

وَممّا يُذكَرُ في بَلاغَةِ هَذِهِ المقابلةِ أنَّها جاءَت بَعْدَ سياقٍ يَذْكُرُ تَكْذيبَ النّاسِ بالدّينِ، ورَصْدَ أعْمالِهِم بالتَّفْصيلِ، فجاءَتِ المُقابَلَةُ كالجَوابِ القاطِعِ لِتِلْكَ الأعْمالِ، فهيَ قِسْمَةٌ مُحْكَمَةٌ، وعاقِبَةٌ مُطْلَقَةٌ لِكُلِّ ما سَبَقَ مِنْ فِعْلٍ أو تَكْذيبٍ أو إعْراضٍ.

وَمِنْ بَلاغَةِ المُقابَلَةِ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ (﴿نَعِيمٍ﴾، ﴿جَحِيمٍ﴾): إبْرازُ التَّناغُمِ الصَّوْتيّ، فهُما على وزْنٍ واحِدٍ، وحُروفٍ مُتَقارِبَةٍ، ممّا يوَلِّدُ أثَرًا إيقاعيًّا في السَّمعِ، وبَيانيًّا في الفَهْمِ، يُرَسِّخُ المَعْنَى في النَّفْسِ، ويُثَبِّتُ صورَتَي الجَزاءَيْنِ في الذِّهْنِ.

بَلاغَةُ تَقسيمِ الجَزاء:

إبْـــرازُ مَـــآلِ الـفَـريـقَـيـنِ على وجْـهِ الـقَـطْـعِ واليَقين

يُعَدُّ قَوْلُ اللّه تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ تَقْسيمًا بَلاغيًّا بَديعًا، مُناظِرًا لقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ

﴿وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧﴾ [الشورى: 7][1]؛ إذْ يُبْرِزُ بأُسْلوبِ المُقابَلَةِ الثُّنائيَّةِ مَآلَ الفَريقَيْنِ على وجْهِ القَطْعِ واليَقينِ، وقَدْ جاءَ هَذا التَّقْسيمُ مَشْحونًا بالتَّوكيدِ، مُحْكَمَ اللَّفْظِ؛ ليَجْعَلَ السّامِعَ كَأنَّهُ يَرى المَصيرَ رَأْيَ العَيْنِ، فيوقِظَ الوِجْدانَ، ويَسْتَنْهِضَ الإرادَةَ، كَما في أساليبِ الإنْذارِ القُرْآنيِّ الَّتي تَجْمَعُ بَيْنَ الإيجازِ والإعْجازِ.

بَلاغَةُ الاحتِباكِ بَينَ الآيَتَين:

تَوْفيرٌ في اللَّفظ، وتَفْنينٌ في المَعْنَى

في هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ بَلاغَةُ الاحتِباكِ، وهوَ أنْ يُطْوَى في كُلِّ جانِبٍ ما ذُكِرَ نَظيرُهُ في الجانِبِ الآخَرِ؛ تَوْفيرًا في اللَّفْظِ، وتَفْنينًا في التَّعْبيرِ، وإيجازًا يَدُلُّ على الاستيعابِ؛ إذْ ذُكِرَ ﴿نَعِيمٖ﴾ في جانِبِ الأبْرارِ، وذُكِرَ ﴿جَحِيمٖ﴾ في جانِبِ الفُجّارِ، وقَدْ قامَ كُلٌّ مِنْهُما مَقامَ مَعْنَيَيْنِ: في الأوَّلِ نَعيمٌ في الجَنَّةِ، وفي الثّاني شَقاءٌ في الجحيمِ، فحُذِفَ ذِكْرُ المَكانِ في جانِبِ الأبْرارِ - الجَنَّة - لأنَّ النَّعيمَ يَدُلُّ عَلَيْهِ، وحُذِفَ ذِكْرُ الحالِ في جانِبِ الفُجّارِ - الشَّقاءِ - لأنَّ الجَحيمَ يَدُلُّ عَلَيْهِ، وبذَلكَ تَكونُ الآيَتانِ قَدْ جَمَعَتا بَيْنَ الوُضوحِ والإيجازِ، والمُقابَلَةِ والمُفاجَأةِ، فلا يُستَبْهَمُ المَقْصودُ، ولا يُمَلُّ التَّرْكيبُ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالصَّلْي:

الـدَّلالَـةُ على شِـدَّةِ الـعَذابِ ودَوامِه

آثَرَ القرآنُ الكَريمُ التَّعبيرَ بالصَّلْي في قَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ دون (يَدْخُلونَها) أو (يُعَذَّبونَ فيها)؛ لأنَّ (الصَّلْيَ) في أصْلِهِ يَدُلُّ على اللُّصوقِ بشَيءٍ مع الحرارةِ، تقولُ: صَلَى اللَّحْمَ: شَواه، والصِّلاءُ: الشِّواء، فصَلِيَ النارَ يَصْلاها؛ إذا دخَلَ فيها، واحترقَ بها، أو لَزِمَها مُتحمِّلًا لَظاها[2]، فاخْتيارُ هَذِهِ اللَّفْظَةِ يُصَوِّرُ شِدَّةَ التَّلَظّي والتِصاقَ الجِسْمِ باللهيبِ، وذَلِكَ أبْلَغُ في التَّخْويفِ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 249.

(2) ابن سيده، المُحكم: (صلي).

والإيلام النَّفسيِّ؛ لأنَّهُ يوحي بأنَّ العَذابَ لَيْسَ عارِضًا، ولا في طَرَفِ المَكانِ، بَلْ مُحيطٌ بهِم، ومُلازِمٌ لِذَواتِهِم.

دَلالَةُ المُضارَعَة:

التَّجَدُّدُ والاستِمرارُ في سياقِ الوَعيد

في استِعْمالِ صيغَةِ المُضارِعِ في قَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ دَلالَةٌ بَلاغيَّةٌ تُفيدُ التَّجَدُّدَ والاسْتِمرارَ، فإنَّ فِعْلَ المُضارِعِ في نَظائِرِ هَذا السّياقِ يُساقُ؛ لإفادَةِ الدَّوامِ وتَكَرُّرِ الحالِ، لا سيَّما إذا قُرِنَ بظَرْفٍ مُسْتَقْبَليٍّ، كَقَوْلِه: ﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾، فقَوْلُهُ تعالى: ﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾ يُفيدُ أنَّ عَذابَهُم يَبْدَأُ مِن ذَلِكَ اليَوْمِ، ويَسْتَمِرُّ، لَيْسَ طارِئًا ولا واقِعًا دُفْعَةً واحِدَةً، بَلْ هوَ حالٌ دائِمَةٌ لَهُم، كَأنَّهُم يُلازِمونَ النّارَ مُلازَمَةً مُتَجَدِّدَةً في كُلِّ لَحْظَةٍ، لا يَفْتُرُ لَهُم عَنْها حالٌ، ولا يَتَنَفَّسونَ مِنْها فصْلًا.

وفي استِعْمالِ المُضارَعِ دونَ أداةِ الاستِقْبالِ - كأنْ يُقالَ: (سَيَصْلَوْنَها) - مَزيدُ تَقْريبٍ لِلزَّمَنِ، وتَصْويرٌ لِهَذِهِ الحالَةِ كَأنَّها واقِعَةٌ الآنَ، تَخْتَرِقُ سِترَ الغَيْبِ إلَى سَمعِ المُتَلَقّي.

سِرُّ الإضْمار:

الإضمارُ يُكسِبُ اللَّفظَ جَمالًا في المعنى، ويُثيرُ انتِباهَ السّامِعِ لِما يَرجِعُ إلَيهِ الضَّمير

أوثِرَ التَّعبيرُ بالإضمار في قَولِ اللّه تعالى: ﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾ دون تَكرارِ الاسمِ الظّاهِر: (يَصْلَونَ الجَحيم)؛ وذَلِكَ لِفائدَةِ الإيجاز، مَعَ التَّنصيصِ على المَصيرِ، فالإضْمارُ؛ إذا كانَ المَرْجِعُ مُعَيَّنًا ومُحَدَّدًا في الذِّهْنِ، يُكْسِبُ اللَّفظَ تَكْثيفًا في الدَّلالَة، ويُثيرُ انتِباهَ السّامِعِ لِما يَرْجِعُ إلَيْه، وكَأنَّهُ تَكْريرٌ لِذِكْرِ الجَحيمِ، لَكِنْ في صورَةٍ أكْثَرَ لُزومًا وتَلابُسًا.

دَلالَةُ الإضافَة:

التَّعظيمُ والإنذار

الإضافَةُ في قَولِ اللّه تعالى: ﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ تُشْعِرُ بِخُصوصيَّةِ ذَلِكَ الزَّمانِ؛ لأنَّ لَفظَ الدّينِ يُطْلَقُ على المُجازاةِ والمُحاسَبَةِ، كَما يُطْلَقُ على الطّاعَةِ والمِلَّةِ، فيَوْمُ الدّينِ هوَ يَوْمُ

الجَزاءِ، وهوَ مِنْ أسْماءِ يَوْمِ القيامَةِ، و﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ في الآية ظَرْفٌ لِـ ﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾، ذُكِرَ لِبَيانِ أنَّهُم يَصْلَوْنَها جَزاءً عَنْ فُجورِهِم[1]، فالإضافةُ تُفيدُ التَّعْظيمَ والتَّهْويلَ، بأنْ تَجعَلَ مِنْ ذَلِكَ اليَوْمِ مَظْهَرًا لِحُقوقٍ تُسْتَوْفَى، وحِسابٍ يُقامُ، وفَصْلٍ بَيْنَ الأعْمالِ يُجْرَى، فهوَ يَومُ دينٍ وجَزاءٍ وموافاةٍ، يَوْمٌ يُدانُ فيهِ الخَلْقُ بما قَدَّموا، وما أخَّروا، وتُؤْخَذُ فيهِ الأنْفُسُ بمَآلِها العادِلِ.

نُكتَةُ اختيارِ لَفْظِ ﴿ٱلدِّينِ﴾:

دَلالَـةُ الشُّمولِ والتَّهْويلِ

مِنْ أسْبابِ اختيارِ لَفْظِ ﴿ٱلدِّينِ﴾ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ دونَ غَيْرِهِ مِن ألفاظِ المُقارَبَةِ - مِثْلِ (الحِسابِ) و(الجَزاءِ) - أنَّ (الدِّينَ) في اللِّسانِ العَرَبيِّ أشْمَلُ في المَعنَى، وأبْلَغُ في التَّهْويلِ، فهوَ يَتَضَمَّنُ الجَزاءَ، والمُكافَأةَ، والمُعاقَبَةَ، والمُلازَمَةَ لِلْحَقِّ، وهوَ أيْضًا ممّا يَسْتَعْمِلُهُ العَرَبُ في مَقامِ العُقودِ والموافاةِ والالزامِ، كَقَوْلِهِم: (كَما تَدينُ تُدانُ)، ففي اختيارِ هَذا اللَّفظِ دونَ (الحِسابِ) إشارَةٌ إلَى أنَّ ما سَيَقَعُ في ذَلِكَ اليَوْمِ هوَ دَيْنٌ يُؤَدَّى، وحَقٌّ يُسْتَوْفَى.

وَمِنْ لَطيفِ الاتِّساقِ في السِّياقِ أنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ في الآيَةِ التّاسِعَةِ قَوْلُهُ: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾، ثُمَّ جاءَ ذِكْرُ (يَوْمِ الدِّينِ) في الآيَةِ الخامِسَةَ عَشْرَةَ كالرَّدِّ على التَّكْذيبِ؛ فصارَ فيهِ تَقْريرٌ لِما أُنْكِرَ، وتَثْبيتٌ لِما نُفيَ، وفي ذَلِكَ تَهْديدٌ ووَعيدٌ.

دَلالَةُ الواوِ:

بَيـانُ دَوامِ عَذابِ الفُجّارِ في الجَحيمِ

الواوُ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ﴾ هيَ واوُ الحالِ، دَلَّت على أنَّ حالَ الفُجّارِ عِنْدَ صِلاهُمُ الجَحيمَ مُلازَمَتُهُم لَها، لا يُفارِقونَها، ولا يُمهَلونَ عَنْها، فالجُمْلَةُ في مَوْضِعِ حالٍ مِنْ ضَميرِ ﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾، أيْ: (يَصْلَوْنَها غَيْرَ مُنْصَرِفينَ عَنْها ولا مُنْقَطِعينَ)،

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 182.

فهوَ تَصْويرٌ لِدَوامِ العَذابِ، ونَفْيِ الرّاحَةِ، وإقامَةِ العُقوبَةِ عَلَيْهِم بلا انْقِطاعٍ.

دَلالَةُ (ما):

شِدَّةُ العُقوبَة، وتَأبيدُ الإقامَة

(ما) في قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ﴾ نافيَةٌ عامِلَةٌ عَمَلَ (لَيس)[1]، دَخَلَت على جُملَةٍ اسميَّةٍ مُؤَلَّفَةٍ مِنَ المُبْتَدَأ ﴿هُمۡ﴾ والخَبَرِ ﴿بِغَآئِبِينَ﴾، وقَدْ تَوَسَّطَ فيها الجارُّ والمَجْرورُ ﴿عَنۡهَا﴾ لِما فيه مِنَ التَّوْسيعِ والعِنايَةِ بالمَنْفيِّ، فـ(ما) هُنا أداةُ نَفْيٍ، وفيما تَقَدَّمَ دَلالَةٌ على تَأْبيدِ المُكوثِ في الجَحيمِ، وأنَّهُم لا يُفارِقونَها، فالأداةُ تَدُلُّ بقَرينَةِ السّياقِ على نَفْيِ الوُقوعِ في الزَّمَنِ المُسْتَقْبَلِ على وجْهٍ دائِمٍ، فالنَّفْيُ في الآيَةِ نَفْيٌ لِلغيابِ عنِ الجَحيمِ أبَدًا؛ وذَلِكَ يَدُلُّ على شِدَّةِ العُقوبَةِ، وانتِفاءِ أدْنَى راحَةٍ.

دَلالَةُ تَقديمِ الضَّميرِ ﴿هُمۡ﴾:

تَقويَةُ الحُكمِ وإفادَةُ التَّخْصيص

التَّعبيرُ بالجُملَةِ الاسميَّةِ المُبتَدَأةِ بالضَّميرِ في قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ﴾ دالٌّ على تقويَةِ الحُكْمِ وإفادَةِ التَّخْصيص، أيْ: لَيْسَ غَيْبُهُم عَنْها مُمكِنًا في حالٍ مِنَ الأحْوالِ، بَلْ هوَ مَنْفيٌّ عَنْ ذَواتِهِم نَفْسِها؛ فالتَّرْتيبُ جَعَلَ نَفْيَ الغيابِ مَحْمولًا عَلَيْهِم على وجْهٍ أقْوَى، والغَرَضُ تَفْخيمُ شِدَّةِ المُلازَمَةِ لِجَهَنَّمَ، وإبْرازُ أنَّهُم أنْفُسَهُم مَقْصودونَ بالحُكْمِ، لا يُتَصَوَّرُ أنْ يَتَخَلَّصوا مِنها، وفي التَّعبيرِ دَليلٌ على نَفْيِ كُلِّ وهْمٍ في وُقوعِ غِيابٍ، ولَوْ يَسيرًا.

بَلاغَةُ التَّعليقِ بحَرْفِ المُجاوَزَة:

تَصويرُ شِدَّةِ لُزومِهِم لِلْجَحيم، وأنَّهُ لا مَخرَجَ لَهُم مِنْها

تَعْليقُ الغِيابِ بالحَرْفِ (عَنْ) في قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ﴾ يُفيدُ مَعْنَى المُجاوزة والمُباعَدَة، كَما يُقالُ: جَلَسَ عَنْ يَمينِه، أيْ: جَعَلَهُ مُتَراخيًا ومُبْتَعِدًا عَنْ بَدَنِه مِنْ جِهَةِ اليَمينِ[2]، فمَعْنَى الآيَةِ:

---

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 30/ 265.

(2) سيبويه، معاني النّحو: 30/ 265.

أنَّهم لا يُفارِقونَ الجَحيمَ، ولا يَتَجانَبونَ مَواقِعَ العَذابِ، فـ(عَنْ) هُنا لَيْسَت لِمُجَرَّدِ التَّعَلُّقِ المَكانيِّ، بَلْ هيَ لإفادَةِ المُجاوَزَةِ أو المُفارَقَةِ المَطْلوبَةِ الَّتي نُفيَت نَفْيًا مُؤَكَّدًا، فالآيَةُ دالَّةٌ على أنَّهُم لا يُمكِنُهُم أنْ يَبْعُدوا عَنِ الجَحيمِ، ولا أنْ يَتَجانَبوها، ولَوْ طَرْفَةَ عَيْنٍ، فكأنَّها تَتَجَدَّدُ مُلابَسَتُهُم بها دائِمًا، ومُرادُهُ تَصْويرُ شِدَّةِ اللُّزومِ، وأنَّهُ لا مَخْرَجَ لَهُم مِنْها.

دَلالَةُ الإضْمارِ:

استِحْضارُ صورَةِ الجَحيمِ، ورَبْطُ المَعنَى بالدَّوامِ

الضَّميرُ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ عائِدٌ إلَى الجَحيمِ المَذكورَةِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾، وتَعْيينُ هَذا المَرْجِعِ يُفيدُ إحْكامَ الرَّبْطِ بَيْنَ الجُمَلِ، وتَقْويَةَ تَعَلُّقِ مَعْنَى الغِيابِ بمَوْصوفِ العَذابِ نَفْسِهِ، فكَأنَّ الآيَةَ تُصَوِّرُهُم، وهُم مَلْزوزونَ في الجَحيمِ، لا يُفارِقونَهُ.

فَلَوْ أُتيَ بالمُضْمَرِ غَيْرَ مُعَيَّنٍ، أو أُتيَ باسْمٍ مُبْدَلٍ مَكانَهُ، لَم يَكُنْ في ذَلِكَ ذاتُ التَّصْويرِ لِمُحاصَرَتِهِم بها وتَشْديدِ القَطْعِ بأنَّهُم لا مَفَرَّ لَهُم مِنْها، فالتَّعْبيرُ بالضَّميرِ يَسْتَحْضِرُ الجَحيمَ في الذِّهْنِ مُجَدَّدًا بَعْدَ ذِكْرِها، على وجْهٍ يُفيدُ الدَّوامَ والاتِّصالَ.

دَلالَةُ الباءِ:

تَوْكيدُ النَّفْيِ، وتَثْبيتُ الخُلودِ في العَذابِ

الباءُ في قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ هيَ باءُ الصِّلَةِ لِتَأكيدِ النَّفْيِ[1]، جيءَ بها في خَبَرِ النَّفْيِ؛ لِتُفيدَ تَقْويَةَ النَّفْيِ وتَثْبيتَهُ، كَما هوَ الشَّأْنُ في مَوارِدِ دُخولِها على خَبَرِ (لَيْسَ) ونَحْوِها، فإنَّ المَعْنَى: (وَما هُم غائِبونَ عَنْها)، غَيْرَ أنَّ دُخولَ الباءِ أكْسَبَ النَّفْيَ مُبالَغَةً وتَوْكيدًا، ودَلالَةُ هَذه الصِّلَةِ أنَّها تجعَلُ صورَةَ الخَبَرِ كَأنَّهُ مُحاصَرٌ بأدَواتِ التَّقْويَةِ، حَتَّى لا يَبْقَى لِمُتَوَهِّمٍ مَجالٌ في إمكانِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 183.

الغيابِ، ولا في احتمالِ التَّخفيفِ مِنْها، فيُصْبِحُ المَعْنَى أنَّهُم مُقيمونَ في الجَحيمِ مُقامًا أبديًّا، لا يُباعِدُهُم عَنْها بُعْدٌ، ولا يُغَيِّبُهُم زَمانٌ.

بَلاغَةُ استِعمالِ مادَّةِ الغياب:

تَصويرُ العَذابِ في أشَدِّ وُجوهِه

جاءَ اخْتيارُ مادَّةِ الغيابِ مَنفيًّا في قَولِ اللّٰه تعالى: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ - دونَ ما يُفيدُ مُجَرَّدَ المُكوثِ أوِ الإقامَةِ - لأنَّ المُرادَ تَصويرُ العَذابِ في أشَدِّ وُجوهِهِ، بأنْ يَكونَ المُعَذَّبُ في مَوْقِعٍ لا يُفارِقُهُ، ولا يُرَى فيهِ أثَرُ الغيابِ ولا الخَفاءِ، وفي ذَلكَ تَغْليظٌ في الوَعيدِ؛ إذْ إنَّ الغيابَ عَنِ المَكانِ يُقابِلُهُ الحُضورُ، فنَفْيُهُ يَعْني أنَّهُم حاضِرونَ في الجَحيمِ حُضورًا دائمًا لا يَنْقَطِعُ، فكَأنَّهُ تَصويرٌ لِلزَّمَنِ المُطْبِقِ عَلَيْهِم بأنَّهُ حالَةٌ مُؤَبَّدَةٌ، وبذَلكَ جاءَتِ المَفْرَدَةُ مُشْعِرَةً بمَعْنَيَيْنِ: نَفْيِ الفِرارِ وإثْباتِ المُلابَسَةِ المُسْتَمِرَّةِ، وهوَ أبْلَغُ في الزَّجْرِ والإنْذارِ.

دَلالَةُ صيغَةِ اسمِ الفاعِل:

بِئْسَ القَرارُ جَهَنَّم

جاءَ التَّعبيرُ بصيغَةِ اسْمِ الفاعِلِ في قَوْلِ اللّٰه تعالى: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ - دونَ أنْ يُقالَ: (وَما يَغيبونَ عَنْها) - لأنَّ اسْمَ الفاعِلِ يَدُلُّ على الثُّبوتِ والاستِقْرارِ أكْثَرَ مِمّا يَدُلُّ عَلَيْهِ الفِعْلُ المُضارِعُ الَّذي يَفيدُ التَّجَدُّدَ والحُدوثَ، فاخْتيارُ هَذِهِ الصّيغَةِ جاءَ لِلدَّلالَةِ على أنَّ نَفْيَ الغَيابِ عَنْهُم لَيْسَ أمرًا عارِضًا يَقَعُ في حالٍ، ويَرْتَفِعُ في أُخْرَى، بَلْ هوَ وَصْفٌ مُسْتَقِرٌّ لَهُم، مُقارِنٌ لِحَقيقَتِهِم، فكَأنَّهُم مُنادَونَ بأنَّهُم أهْلٌ لِلحُضورِ الدّائِمِ في الجَحيمِ.

دَلالَةُ تقديمِ ﴿عَنْهَا﴾:

مَصَبُّ الاهتِمامِ هوَ الضَّميرُ العائِدُ إلى جَهَنَّم

قُدِّمَ الجارُّ والمَجْرورُ على خَبَرِ المُبْتَدَأ في قَولِ اللّٰه تعالى: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾؛ إذِ الأصْلُ في التَّرْتيبِ أنْ يُقالَ: (وَما هُم بغائِبينَ عَنْها)؛ فإذا عُكِسَ التَّرْتيبُ؛ دَلَّ على الاهتِمامِ بالمجرورِ والاخْتِصاصِ، مَعَ إفادَةِ التَّشْويقِ أيضًا، ورِعايَةِ الفاصِلَةِ[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 183.

فالمُرادُ تَثْبيتُ المَعْنَى في ذِهْنِ السّامِعِ وإقامَةُ الدَّليلِ على أنَّهُم لا يَجِدونَ مَفَرًّا ولا مَهْرَبًا، وفي ذَلِكَ إشْعارٌ بأنَّ مُلابَسَتَهُم لِلْجَحيمِ هيَ المُعْتَبَرَةُ، فالتَّقْديمُ جاءَ لِلتَّنْبيهِ على أنَّ المَحَلَّ المُهِمَّ هوَ هَذا العَذابُ المُحيطُ بهِم، لا شَيْءَ غَيْرُهُ، فكَأنَّ الكَلامَ يَقولُ: (أمّا الجَحيمُ؛ فلَيْسَ ثَمَّةَ غَيْبوبَةٌ عَنْها أصْلًا).

بَلاغَةُ اسميَّةِ الجُملَة:

تَـصويـرُ دَوامِ العَذابِ وثَباتِه

جاءَ التَّعبيرُ بالجُملَةِ الاسميَّةِ: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: (وَما يَغيبونَ عَنْها)، أوْ (وَما يُفارِقونَها)؛ لإفادَةِ الاسميَّةِ الثَّباتَ، سَواءٌ في الإثْباتِ أوِ النفيِ، فالثَّباتُ حالَةٌ لِلنِّسْبَةِ الخَبَريَّةِ، سَواءٌ كانَت نِسْبَةَ إثْباتٍ أوْ نِسْبَةَ نَفْيٍ[1]، فما يُصاغُ في قالِبِ الاسمِ يَدُلُّ على الدَّوامِ والتَّحَقُّقِ أكْثَرَ مِمّا يُؤَدّيهِ الفِعْلُ؛ إذِ الفِعْلُ مَظِنَّةُ التَّجَدُّدِ والحُدوثِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 183.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾ [الانفطار: 17 - 19]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ مِن بَيانِ أهوالِ يومِ الدّينِ ومَصيرِ الخَلائِقِ فيهِ إلَى تمجيدِه وتَعظيمِه

لمّا ذَكرَتِ الآياتُ السّابقَةُ تَقسيمَ الخَلقِ إلَى أبْرارٍ وفُجّارٍ، وتَحدَّثَت عن جَزاءِ كلٍّ مِنهُم في يَومِ الدّينِ؛ جَرَتِ الحِكمةُ أن يُعادَ التَّنبيهُ إلى هَولِ ذاكَ اليومِ وعِظَمِ شأنِه؛ فجاءَ الاستفهامُ المُعظِّمُ المُكرَّرُ؛ ليُلفِتَ السّامِعَ إلى أنَّ ما سَبَقَ من وصفٍ لِلثَّوابِ والعِقابِ ليسَ كافيًا للإحاطةِ بحَقيقَةِ ذاكَ اليَومِ، بَلْ ما خَفيَ أدهى وأعظمُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾: (دري) أصلٌ يَدُلُّ على قَصْدِ الشَّيءِ واعتِمادِهِ طَلَبًا[1]، ومِنْهُ الدِّرايَةُ، وهيَ المَعرِفَةُ المُدرَكَةُ بضَربٍ مِنَ الخَتَلِ، يُقالُ: دَرَيتُه، ودَرَيتُ به دِرْيَةً، والمبنيُّ على صيغةِ (أَفْعَلَ) لِلتَّعديَةِ، يُقالُ: أدْرَى يُدْري إدْراءً؛ إذا أعلَمَ، أو جعلَ غيرَهُ يَعلمُ، فالفعلُ أدْرَى معناه في أصلِ اللغةِ: جعلَكَ تَدري، أي: جعلَكَ تَعلمُ الشيءَ بعدَ أنْ لم تكنْ تعلمُه، وأدْراهُ به: أعْلَمَه، وفي التنزيل: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾ [يونس: 16][2]، وقد ورَدَ هذا الأسلوبُ في القرآنِ كثيرًا، ويُستعملُ في مقامِ التعظيمِ والتهويلِ؛ تنبيهًا على عِظمِ ما يُخبَرُ به، وكونِه من الأمورِ التي لا تُدرَكُ بالعقلِ أو التجربةِ، بل تحتاجُ إلى وحيٍ خاصٍّ، كقولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧﴾ [المدثر: 27]، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ٥﴾ [الهمزة: 5]، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾، وكُلُّ مَوضِعٍ ذُكِرَ في القرآنِ بصيغَةِ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (درى).
(2) ابن سيده، المُحكم: (دري).

الماضي (وما أدراك)؛ فقدْ عُقّب ببيانِه، وكُلُّ موضعٍ ذُكِرَ فيه بصيغَةِ المُضارِع - (وما يُدريك) - لَم يَعْقُبْه بيانُه[1]، والمقصودُ به هنا: أنّ يومَ الدّينِ لا يُدرِكُ حقيقتَه أحدٌ إلّا إذا شاءَ اللّه؛ لما فيه من عظائمِ الأمورِ، وشدائدِ الأهوالِ، التي تُخرِسُ الألسُنَ، وتُذهِلُ العقولَ.

2) ﴿وَٱلۡأَمۡرُ﴾: (أمر) أصلٌ يَدُلُّ على السّيادَةِ والتَّسَلُّطِ، يُقالُ: أمَرَ يأمُرُ أمرًا؛ إذا أصدَرَ حُكْمًا أو طَلَبًا يَجِبُ تنفيذُه، ومنه: أمرُ الوالي، وأمرُ السُّلطان، أي: ما يُصدِرُه من قرارات يُلزِمُ بها رَعيَّتَه[2]، والأمرُ يُطلَقُ في اللُّغَةِ على الحُكْم والتّدبير والتَّسَلُّط، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: 54]، أي: لهُ الإيجادُ ولهُ التَّصرُّفُ، وفي الآيةِ الكريمةِ من سورةِ الانفطار، فالمقصودُ من (الأمر): الحُكْمُ المُطلَقُ والتّدبيرُ التّامُّ، الذي لا يُشارِكُ فيه أحدٌ ربَّ العالمينَ، وهو قصرٌ للأمرِ قصرَ استئثارٍ في ذلك الموقفِ الرّهيب.

المَعْنى الإجْماليُّ:

تَعظيمُ يَومِ الدّين

في هَذِهِ الآياتِ تعظيمٌ لشأنِ يومِ الدينِ، وتفخيمٌ له بما يُثيرُ في النَّفسِ الشُّعورَ بالرَّهبةِ والوجلِ[3]، وذلك من خِلالِ أُسلوبِ الاستِفهامِ الوارد في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ في مقامِ التهويلِ والتعجيبِ من هَولِ ذلكَ اليوم؛ إذْ لا يبلُغُ العقلُ - مَهما أُوتيَ من فِطنَةٍ - أن يُحيطَ بحقيقتِه، أو يتصوّرَ مآلَه، ولذلكَ كرَّرَ التنبيهَ مرّةً ثانيةً تفخيمًا لشأنه، فقال: ﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾، وهو تكرارٌ يُفيدُ تعاظُمَ الأمرِ، وتراكُمَ الهيبةِ[4]، ثمّ كَشَفَ عن بعضِ سِماتِ هذا اليوم، فقالَ: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ﴾، أي: لا يملِكُ أحدٌ لأحدٍ نفعًا ولا ضرًّا، ولا يَنفَعُ مالٌ ولا جاهٌ؛ لأنّ الأمرَ في هذا اليوم

(1) الراغب، المفردات: (درى).
(2) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (أمر).
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 555.
(4) الواحديّ، التفسير الوسيط: 4/ 439، والسّمعاني، تفسير القرآن: 6/ 176.

للّه ﷻ، فهوَ صاحِبُ السُّلطانِ المطلقِ الذي لا يُنازِعُه فيه أحدٌ، ولا يُعارِضُه مُعترِضٌ، ولا يَردُّ حُكمَه رادٌّ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ:

مِنْ تَقريرِ المَصيرِ إلَى تَعظيمِ يَومِ الدّين

الواوُ في قَوْلِ اللّه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ هيَ واوُ الاستِئنافِ، جيءَ بها لِتَفْصيلِ ما أُجمِلَ في قَوْلِه: ﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ﴾[1]، فكانَت مُمَهِّدَةً لاستِفْهامٍ تَفْخيميٍّ يُظْهِرُ هَوْلَ ذَلِك اليَوْمِ، ومَعْنَى هَذا الاستِئْنافِ أنَّهُ جُعِلَ انتِقالًا بَعْدَ إثْباتِ المَصيرِ إلَى تَصْويرِ مَشْهَدِ الجَزاءِ، فدَلَّتِ الواوُ على أنَّ الجُملَةَ الَّتي بَعْدَها مُسْتَأْنَفَةٌ، لَيْسَت عَطْفًا على ما قَبْلَها في نَسَقِ الجُمَلِ المَسوقَةِ لِوَصْفِ الأبْرارِ والفُجّارِ، بَلْ هيَ إبْرازٌ لِمَقامٍ آخَرَ، هو مَقامُ التَّهْويلِ.

بَلاغَةُ الاستِفْهام:

التَّـهْـويـلُ والتَّفْخيمُ

الاستِفْهامُ في قَوْلِ اللّه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ مَسوقٌ مَساقَ التَّهْويلِ والتَّفْخيمِ؛ إذْ لَيْسَ المُرادُ طَلَبَ المَعْرِفَةِ، بَلِ المُرادُ بَثُّ الرَّهْبَةِ في النَّفْسِ مِنْ هَوْلِ ذَلِك اليَوْمِ، وإظْهارُ أنَّ العَقْلَ البَشَريَّ لا يَسْتَوْعِبُ حَقيقَةَ شِدَّتِه وعَظَمَتِه، فجاءَ هَذا التَّرْكيبُ على سَبيلِ التَّفْخيمِ لِلمَسْؤولِ عَنْهُ، ومِنْ هُنا كانَ في التَّعْبيرِ تَفْتيتٌ لِأمْنِ المُكَذِّبينَ، وإدْخالٌ لِلرَّهْبَةِ على أفْئِدَتِهم.

دَلالَةُ تَوجيهِ الخِطاب:

تَشريفُ النَّبيِّ ﷺ وإنذارُ أُمَّتِه

تَوْجيهُ الخِطابِ إلَى النَّبيِّ ﷺ في قَوْلِ اللّه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾، جاءَ على طَريقِ التَّشْريفِ لَهُ والتَّنْبيهِ لِأُمَّتِه، فإنَّ الخِطابَ لَهُ ﷺ في مِثْلِ هَذا المَقامِ إنَّما المُرادُ بِهِ جَميعُ المُخاطَبينَ؛ لأنَّ المُخاطَبَ الأوَّلَ هوَ القائِمُ بالتَّبْليغِ، وإذا بُلِّغَ؛ صارَ الكَلامُ كَأنَّهُ مُوَجَّهٌ

---

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 30/ 265.

إلَى الجَميعِ[1]، ومِنْ لَطائفِ هذا الخِطابِ في مَقامِ التَّخْويف أنّ فيهِ إشْعارًا بأنَّ أهْوالَ ذَلكَ اليَوْمِ مِمّا تَقْصُرُ العُقولُ عَنْ إدْراكِهِ، حَتَّى إنَّهُ لا يَعْلَمُهُ بكُنْهِهِ أفْضَلُ الخَلْقِ، فكَيْفَ بسائِرِ النّاسِ؟ ففي ذَلكَ تَغْليبٌ لِلإنْذارِ، وتَشْديدٌ في التَّهْويلِ.

دَلالَةُ فِعْلِ الدِّرايَة:

الغَيْبيّاتُ طَريقُها الوَحْيُ لا العَقْل

إنَّ استِعْمالَ فِعْلِ الدِّرايَةِ في مَقامِ قَوْلِ اللّٰه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ دونَ الإعْلامِ مَثَلًا يَدُلُّ على أنَّ حَقيقَةَ يَوْمِ الدّينِ لا تَنالُها العُقولُ بتَأمُّلٍ، ولا تَصِلُ إلَيْها الأفْهامُ بمُجَرَّدِ التَّصَوُّرِ؛ لأنَّهُ فوْقَ ما يَسْتَطيعُ الإنسانُ أنْ يُحيطَ بِهِ بالفِكْرِ أوِ الخُبْرِ، فإنَّ أهْوالَهُ ومَظاهِرَ قُدْرَةِ اللّٰه فيهِ مِمّا يَتَعاجَزُ عَنْهُ العَقْلُ، وفي هَذا تَفْخيمٌ لِشَأْنِ يَوْمِ الدّينِ، وتَشْديدٌ في التَّهْويلِ؛ إذْ لَوْ جاءَ التَّعْبيرُ (وَما أعْلَمَكَ)؛ لَكانَ المَعْنَى مُنْصَرِفًا إلَى مُجَرَّدِ الإعْلامِ؛ أمّا إذا جاءَ بالدِّرايَةِ؛ ففيهِ إشْعارٌ بأنَّ الأمرَ أعْظَمُ مِمّا يَتَصَوَّرُهُ الذِّهْنُ، وأنَّ العِلْمَ بهِ لا يَكونُ إلّا بإخْبارِ اللّٰه تَعالَى.

دَلالَةُ العَطْفِ بحَرْفِ التَّراخي:

دَلالَةُ التَّراخي الرُّتَبيِّ في زِيادَةِ التَّهْويل

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بحرْفِ العَطْفِ ﴿ثُمَّ﴾، في قول اللّٰه تعالى: ﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ دونَ الواو؛ لِدَلالَتِهِ على التَّراخي الرُّتبيِّ[2]، فإعادَةُ جُملَة: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ في المَرَّةِ الثّانيَةِ هيَ أبْلَغُ وأشَدُّ في التَّهْويلِ والتَّفْخيم مِمّا كانَ في المَرَّةِ الأولَى، فالتَّراخي هُنا تَراخٍ في دَرَجَةِ التَّخْويفِ والتَّعْظيم، لا في تَرْتيبِ الزَّمانِ، فكَأنَّ المَعْنَى: (ما أدْراكَ أوَّلًا بهَوْلِ يَوْمِ الدّينِ؟ ثُمَّ اعْلَم أنَّ ما فوْقَ ذَلِكَ أعْظَمُ وأشَدُّ مِمّا تَصَوَّرْتَهُ أوَّلًا)، وهَذا أشْبَهُ بتَرَقّي المُخاطَبِ في مَراتِبَ مِنَ التَّهْويلِ لا يَنْقَطِعُ زِيادُها، وبِذَلِكَ يَتَبَيَّنُ أنَّ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 271.

(2) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 184.

﴿ثُمَّ﴾ في هَذا السّياقِ لِلتَّدرُّجِ في إفادَةِ التَّهْويلِ والتَّفْخيم، وهوَ أبْلَغُ مِمّا لَوْ أُعيدَتِ الجُملَةُ بالواوِ.

نُكتَةُ تَكرارِ ﴿مَآ﴾:

تأكيدُ الإبْهامِ وتَعظيمُ الهَوْلِ

إنَّ تِكْرارَ أداةِ الاستِفهامِ ﴿مَآ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ جاءَ لِلتَّنْويهِ بشِدَّةِ الإبْهامِ والعَظَمَةِ في حَقيقَةِ يَوْمِ الدّين، فكَأنَّ الآيَةَ الأولَى ألْقَت في نَفْسِ السّامِعِ أنَّ ذَلكَ اليَوْمَ مِمّا لا يَبْلُغُهُ وصْفٌ ولا إدْراكٌ، ثُمَّ جاءَ التَّكْرارُ في الآيَةِ الثّانيَةِ لِلتَّقْويَةِ والتَّأْكيدِ على هَذا الإبْهامِ، ولِيُشْعِرَ أنَّ العَقْلَ إنْ أعادَ النَّظَرَ، وكَرَّرَ التَّفكُّرَ؛ فإنَّهُ يَعودُ إلَى الحَيْرَةِ نَفْسِها، وفي هَذا التَّكْرارِ زيادَةُ تَهْويلٍ وإثارَةُ رَهْبَةٍ في النُّفوسِ؛ إذِ المُتَلَقّي إذا سَمِعَ السُّؤالَ، وأُعيدَ عَلَيْهِ؛ انْفَتَحَ قَلْبُهُ على استِشْعارِ أنَّ الأمرَ عَظيمٌ جِدًّا، لا تَسْتَوْعِبُهُ المَعارِفُ البَشَريَّةُ.

بَلاغَةُ الإظهارِ:

التَّأكيدُ على هَولِ يَومِ الدّينِ وعَظَمَتِه

جاءَ التَّعبيرُ بإظهارِ ﴿يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ دونَ إضْمارِهِ تَأكيدًا لِهَولِ يَومِ الدّينِ وفَخامَتِه[1]، فتكونُ إعادَةُ ذِكْرِ ﴿يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ بصَريحِ لَفْظِهِ دونَ الاكْتِفاءِ بالضَّميرِ لِلتَّهْويلِ والتَّفْخيمِ؛ إذْ إنَّ المَقامَ مَقامُ تَخْويفٍ وإنْذارٍ؛ فذِكْرُ المَوْصوفِ بعَيْنِهِ أبْلَغُ في إثارَةِ الرَّهْبَةِ مِنْ إضْمارِهِ.

فَذِكْرُ المُظْهَرِ مَكانَ المُضْمَرِ جاءَ؛ لِيَكونَ وصْفُ يَوْمِ الدّينِ مَحَلًّا لِلاستِفْهامِ والتَّعَجُّبِ والتَّهْويلِ في كُلِّ مَرَّةٍ؛ إذْ لَوْ قيلَ: (وَما أدْراكَ ما هوَ)؛ لَضاعَ ما في التَّصْريحِ مِنْ تَجْسيمٍ وإثارَةٍ لِلرَّهْبَةِ، فإظْهارُ لَفْظِ ﴿يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ إذًا لَهُ وظيفَتانِ: إعْطاءُ الكلمةِ جرسًا أقوى في السَّمعِ، وتَثْبيتُ مَعْناها في القَلْبِ على وجْهِ الإرْعابِ والإنْذارِ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 271.

بَلاغَةُ تَكرارِ جُملَةِ الاستِفهامِ:

إثـارَةُ التَّشويقِ والـزِّيـادَةِ في الـتَّـفْـخـيـمِ والتَّهْويلِ

إنَّ تَكرارَ جُملَةِ: ﴿مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ بَعْدَ أنْ سُبِقَت بذِكْرِها أوَّلَ مَرَّةٍ هوَ مِنْ بابِ التَّهْويلِ[1] والتَّفخيمِ لِشَأنِ يَومِ الدِّينِ الَّذي يُكذِّبونَ به، تَفخيمٌ إِثْرَ تَفخيمٍ، وتَعجيبٌ مِنْهُ بَعْدَ تَعْجيبٍ[2]؛ إذْ جيءَ بالأولَى لإثارَةِ التَّشَوُّقِ وتَوْجيهِ الذِّهْنِ إلَى هَوْلِ المَعْنَى، ثُمَّ أُعيدَت الجُملَةُ مَرَّةً ثانيَةً زيادةً في التَّفْخيمِ وتَضْخيمِ الهَوْلِ، على نَحْوٍ يَدُلُّ على أنَّ ذَلِكَ اليَوْمَ مِمّا لا تَبْلُغُهُ العُقولُ بتَصَوُّرٍ ولا تَحيطُ بِهِ الأوهامُ، فالتَّكْرارُ هُنا لِلتَّرَقّي في دَرَجاتِ التَّهْويلِ، وكُلُّ هَذا يُرادُ بِهِ التَّأكيدُ لِلمَعنَى الَّذي كُرِّرَ بِهِ اللَّفْظُ[3]، وتَجاوُزُه حَدَّ الوَصْفِ والتَّعبيرِ[4].

عِلَّةُ الفَصْلِ:

إبْـرازُ عَـظَـمَـةِ يَـومِ الـدِّينِ بَيْنَ التَّهْويلِ وتَجْديدِ العِنايَةِ بالخَبَرِ

فُصِلَت جُملَةُ: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ﴾ عَنْ جُملَةِ: ﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾، مَعَ أنَّها في مَعْنَى التَّفْسيرِ لَها؛ لأنَّ المَقامَ مَقامُ تَفْخيمٍ وتَهْويلٍ، فجُعِلَ التَّفْسيرُ مُسْتَأْنَفًا كأنَّهُ خَبَرٌ جَديدٌ يُرادُ إلقاؤُهُ بَعْدَ تَرْكِ المُخاطَبِ في هَيْبَةِ المُبْهَمِ، فلَوْ وُصِلَت الجُملَةُ بالسّابِقِ؛ لَكانَ المَعْنَى إفادَةَ شَرْحٍ عاديٍّ لِلمُسْتَفْهَمِ عَنْهُ؛ أمَّا وقَدْ فُصِلَت؛ فقَدْ أُفيدَ مَعَ التَّفْسيرِ أنَّ ذَلِكَ اليَوْمَ لَهُ شَأْنٌ عَظيمٌ، يَسْتَحِقُّ أنْ يُبْدَأ بالخَبَرِ عَنْهُ في جُملَةٍ جَديدَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ.

تَوجيهُ قِراءَتَي ﴿يَوۡمَ﴾:

تَكامُلُ القِراءاتِ فيهِ تَعظيمٌ لِهَذا اليَوم

قَرَأ ابْنُ كَثيرٍ وأبو عَمرٍو ويَعقوبُ ﴿يَوۡمُ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ﴾ بالرَّفْعِ، جَعَلوهُ صِفَةً لِقَوْلِه: ﴿يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾، ويجوز أن يكونَ خَبَرَ مبتدأٍ مَحْذوفٍ، تَقْديرُهُ: (هوَ يَوْمُ لا تَملِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا)[5]، فكانَت

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 717.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 271.
(3) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 150.
(4) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 184.
(5) أبو زرعة، حجة القراءات، ص: 753، وابن الجزري، النشر: 2/ 399.

هَذِهِ القِراءَةُ مُفيدَةٌ تَفْخيمًا لِشأْنِ ذَلِكَ اليَوْمِ، بإفادَةِ الاستِئْنافِ والتَّجْريدِ لَهُ مِنْ جُملَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ، وقَرَأَ الباقونَ بالنّصب ﴿يَوْمَ﴾، أي: (هَذِهِ الأَحْداثُ المَذكورَةُ تَكونُ ﴿يَوْمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ﴾)، ويَجوزُ أَنْ يَكونَ النَّصبُ على الإغْراء، بمَعْنى: (الزَموا، واحْذَروا ﴿يَوْمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ﴾)، وكِلْتا القراءَتَيْنِ مَسوقَتانِ لِلتَّهْويلِ ولِتَعْظيمِ أمرِ الحِسابِ وجَلالِ المَوْقِفِ، وهَذا التَّنَوُّعُ في القِراءَةِ يَزيدُ السّامِعَ إحاطَةً بعَظَمَةِ اليَوْمِ، فيَراهُ تارَةً مُبْتَدَأً جَليلًا يُبْدَأُ بالخَبَرِ عَنْهُ، وتارَةً يَراهُ مُفَسَّرًا لِما سَبَقَ مِنَ الإبْهامِ، وفي الحالَيْنِ تَتَرَسَّخُ هَيْبَةُ ذَلِكَ المَشْهَدِ في النُّفوسِ.

دَلالَةُ ﴿لَا﴾:

الاستِغْراقُ في نَفْيِ النَّفْعِ والدَّفْعِ في ذَلِكَ اليَوْمِ

إنَّ دَخولَ أداةِ النَّفْيِ ﴿لَا﴾ على الفِعْلِ في قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ﴾ يَدُلُّ على الاستِغْراقِ في نَفْيِ مَلَكَةِ النَّفْعِ والدَّفْعِ في ذَلِكَ اليَوْمِ؛ فإنَّها نافيَةٌ لِكُلِّ مِلْكٍ ولِكُلِّ مَملوكٍ؛ لِتَظْهَرَ القَطيعَةُ التّامَّةُ بَيْنَ الأَرْواحِ في مَقامِ الجَزاءِ، ومَعْنَى ذَلِكَ أنَّ كُلَّ ما كانَ في الدُّنْيا مِنْ تَمَلُّكٍ أو تَسَلُّطٍ يَنْقَطِعُ هُناكَ، فيَنْحَصِرُ الأمرُ في مُلْكِ اللّه تَعالَى وحْدَهُ.

فاستِعمالُ ﴿لَا﴾ دونَ غَيْرِها - كَـ (ما) أو (لَنْ) - هوَ لِدَلالَتِها على تَجَدُّدِ الحالِ واستِمرارِهِ، فكَأَنَّ القُرْآنَ صَوَّرَ المَشْهَدَ تَصويرًا مُتَكَرِّرًا أمامَ السّامِعِ، فتَجَسَّدَ مَعْنَى العَجْزِ الكُلّيّ، واسْتُحْضِرَت هَيْبَةُ المَوْقِفِ.

بلاغة الكناية في فعل ﴿تَمۡلِكُ﴾:

سُقوطُ كُلِّ مَظاهِرِ المِلْكِ والمُلْكِ للخَلْق، وإثباتُها لِلْواحِدِ القَهّار

إنَّ التَّعْبيرَ بالمِلْكِ في قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ﴾ كِنايَةٌ عَنْ عَدَمِ الاقْتِدارِ وسُقوطِ سُلْطانِ المُعاوَنَةِ والاحْتِماءِ، فلَيْسَ المُرادُ نَفْيَ المِلْكِ الحِسّيِّ فقَطْ، بلِ الكِنايَةُ عَنْ بُطْلانِ كُلِّ سَبَبٍ كانَ يَتَوَهَّمُهُ الإنْسانُ سَبيلًا لِلنَّجاةِ، فذِكْرُ المِلْكِ أُريدَ بِهِ

القُدْرَةُ على النَّفْعِ والدَّفْعِ، وهوَ مِنْ مَجازِ الكِنايَةِ الَّذي يُذْكَرُ فيهِ اللّازِمُ، ويُرادُ مَلْزومُهُ.

فَمِنْ بَلاغَةِ هَذِهِ الكِنايَةِ تَهْويلُها لِلْمَشْهَدِ؛ إذْ تُصَوِّرُ الإنْسانَ عارِيًا مِنْ كُلِّ ما كانَ يَعْتَصِمُ بِهِ في الدُّنْيا مِنْ مالٍ أو جاهٍ أو قُرْبَى، فإذا أبْطَلَ القُرْآنُ المِلْكَ - وهوَ أصْلُ التَّصَرُّفِ - فقَدْ بَطَلَ بالتَّبَعِ كُلُّ ما سِواهُ مِنْ أسْبابِ العَطاءِ والنَّصيرِ.

دَلالَةُ التَّعبيرِ بالمُضارِعِ:

استِحْضارُ المَشْهَدِ وإفادَةُ الدَّوام

إنَّ الاستِعْمالَ لِلْمُضارِعِ في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ﴾ مَسوقٌ لاستِحْضارِ الحالِ، كَأنَّهُ مَرْئِيٌّ مُشاهَدٌ، فيُصَوِّرُ للسّامِعِ كَأنَّهُ يَنْظُرُ في تِلْكَ السّاعَةِ، الَّتي تُسْلَبُ فيها كُلُّ نَفْسٍ سُلْطانَ التَّصَرُّفِ والاقتِدارِ، والتَّعبيرُ بالمُضارِعِ أبْلَغُ في التَّهْويلِ؛ لأنَّهُ يَنْقُلُ الغَيْبَ إلَى صورَةِ الحاضِرِ، فيَكونُ في ذَلِكَ تَقْريبٌ لِلْمُتَوَعَّدِ وإنْذارٌ لِلْمُخاطَبِ، وهوَ مَعَ ذَلِكَ يُشْعِرُ باستِمرارِ الحالِ، أيْ: إنَّ نَفْيَ المِلْكِ لَيْسَ طارِئًا في بَعْضِ أطْوارِ ذَلِكَ اليَوْمِ، بَلْ هوَ ثابِتٌ فيهِ دائِمٌ مُتَّصِلٌ، لا تَتَخَلله فُسْحَةُ استِثْناءٍ، ولا فُرْصَةُ تَخَلُّصٍ.

بَلاغَةُ التَّعبيرِ بالنَّفْس:

إبْرازُ الفَرْدِيَّةِ وكَمالِ العَجْزِ في يَومِ الدّين

إنَّ اخْتيارَ لَفْظِ النَّفْسِ في قَوْلِ اللّهِ تَعالَى: ﴿لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ﴾ - دونَ (أحَد) - يَحْمِلُ مَعْنًى بَلاغِيًّا دَقيقًا، فإنَّ النَّفْسَ أقْوَى في الدَّلالَةِ على الذّاتِ بحَقيقَتِها المُجَرَّدَةِ مِنْ مَقاماتِ الجاهِ أوِ السُّلْطانِ أوِ القوَّةِ الَّتي قَدْ تَتَعَلَّقُ باسْمِ أحَدٍ في المُخاطَباتِ الدُّنْيَوِيَّةِ، فجاءَ التَّعْبيرُ بالنَّفْسِ؛ لِيُشْعِرَ أنَّ كُلَّ ما فيها مِنْ قوًى أو مَقاديرَ قدِ انْدَثَرَ، ولَم يَبْقَ إلّا الذّاتُ الإنْسانيَّةُ، مُعَرّاةً مِنْ كُلِّ دَعائِمِها، وفي ذَلِكَ تَجْريدٌ لِلإنْسانِ وتَعْرِيَةٌ لَهُ مِنْ كُلِّ ما كانَ يَعْتَصِمُ بِهِ في الدُّنْيا، فلا تَبْقَى إلّا نَفْسٌ مُفْرَدَةٌ تواجِهُ مَصيرَها دونَ عَوْنٍ ولا نَصيرٍ، وهَذا أبْلَغُ في التَّفْظيعِ مِنْ قَوْلِ: (لا يَملِكُ أحَدٌ)؛ لأنَّ في الأخيرِ إشْعارًا

بعُموم مُجَرَّدٍ، بَيْنَما في التَّعْبيرِ بالنَّفْس تَفْريدٌ لِكُلِّ ذاتٍ، وتَخْصيصٌ لِحالِها الشَّخْصيِّ، فكانَ التَّعْبيرُ مَحمولًا على إظْهارِ كَمالِ العَجْز، وإقامَةِ صورَةِ اليَوْمِ على أشَدِّ ما يَكونُ مِن إبْرازِ الفَرْديَّةِ والانْقِطاعِ عَنِ المُعين.

نُكْتَةُ التَّنْكير:

إفـادَةُ عُـمـومِ العَـجْـزِ لِـكُـلِّ نَـفْـسٍ فِي يَـومِ الدّين

إنَّ تَنْكيرَ لَفْظِ النَّفْسِ في قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ﴾ جاءَ لِلتَّفْظيعِ والتَّهْويل؛ إذِ المُقْتَضَى أنْ يُقالَ: (لا تَملكُ النَّفْسُ)؛ ولَكِنَّ الإتيانَ بالتَّنْكيرِ أفادَ عُمومًا مُطْلَقًا يَتَناوَلُ كُلَّ نَفْسٍ على الإبْهام، صَغيرَةً كانَت أو كَبيرَةً، شَريفَةً أو وضيعَةً، ففي هَذا التَّنْكيرِ إفادَةُ العُمومِ والتَّهْويلِ، بِخِلافِ التَّعْريف.

دَلالَةُ اللّام:

قَـطْـعُ أسْـبـابِ المُعاوَنَة، وتَقْرِيرُ الانـفـرادِ يَـومَ الدّين

اللّامُ الجارَّةُ في قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ﴾ هيَ لامُ الاخْتِصاصِ والاستِحقاقِ، أُدْخِلَت لِتُبَيِّنَ أنَّ المَنْفَعَةَ أوِ المِلْكَ المَنْفيَّ لَيْسَ مَطْلَقَ التَّمَلُّك، بَلْ هوَ التَّمَلُّكُ الَّذي يُرادُ بِه جَلْبُ النَّفْعِ أو دَفْعُ الضُّرِّ عَنْ غَيْرِ المالِك، فالمَعْنَى: (لا تَقْدِرُ نَفْسٌ في ذَلِكَ اليَوْمِ أنْ تَملِكَ شَيْئًا تَخُصُّهُ لِنَفْسٍ أُخْرَى على وجْهِ الاستِفادَة)، وبِذَلِكَ صارَ في التَّعْبيرِ إفادَةُ قَطْعِ كُلِّ سَبيلٍ لِلشَّفاعَةِ أوِ المُساعَدَةِ مِنْ بَعْضِ المَخْلوقينَ لِبَعْضٍ، فكُلُّ نَفْسٍ قَدِ انْقَطَعَت عَنْها الأسْبابُ، وتَجَرَّدَت إلَى عَدْلِ اللّه وحُكْمِه، فكانَ في اللّامِ دَلالَةٌ على أنَّ ذَلِكَ اليَوْمَ هوَ يَوْمُ الانفرادِ التّامِّ، لا يَجِدُ فيه المَرْءُ مَنْ يَخْدِمُهُ، أو يُغْني عَنْهُ، كَما قالَ تَعالَى: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا﴾ [الدخان: 41].

نُكْتَةُ التَّكْرار:

تَـفْـظِـيـعُ الْمَـقـامِ وتَهْويلُهُ بِقَطْعِ أسْبابِ المَعونَةِ يَومَ القِيامَةِ

إنَّ تِكْرارَ لَفْظِ النَّفْس في المَوْضِعَيْنِ مِنْ قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ﴾ دونَ الاكْتِفاءِ بالتَّعْبيرِ عَنِ المَجْرورِ بِقَوْلِه: (لِأُخْرَى)؛ جاءَ لِمُقْتَضَى البَلاغَةِ في تَفْظيعِ المَقامِ وتَهْويلِه، فذِكْرُ

النَّكِرَةِ في سياقِ النَّفْيِ يَعُمُّ كُلَّ ذاتٍ، وإعادَتُهُ مَعَ المَجْرورِ باللّامِ تَقْطَعُ كُلَّ تَوَهُّمٍ بأنَّ المَقْصودَ نَفْسٌ دونَ أُخْرَى، فيَصيرُ المَعْنَى: (لا توجَدُ ذاتٌ على الإطْلاقِ تَملِكُ لِذاتٍ أُخْرَى - أيًّا كانَت - أدْنَى مَنفَعَة).

وَمِنْ بَلاغَةِ هَذا التَّكْرارِ أنَّهُ يُحدِثُ فاصِلًا بَيانيًّا يُفيدُ المُقابَلَةَ بَيْنَ النَّفْسِ الفاعِلَةِ والنَّفْسِ المَفْعولِ بها، فيَتَجَلَّى الانقِطاعُ التّامُّ في العَلاقاتِ الَّتي تَرْبِطُ بَعْضَ النُّفوسِ بِبَعْضٍ في الدُّنْيا، وأيْضًا فإنَّ التَّصْريحَ بالمُطابِقِ في المَوْضِعَيْنِ أبْلَغُ في إفادَةِ عُمومِ الحُكْمِ مِنَ الإضْمارِ أوِ الإشارَةِ؛ لأنَّهُ يُشْعِرُ بأنَّ كُلَّ نَفْسٍ صارَت مَفْصولَةً مُسْتَقِلَّةً عَنِ الأُخْرَى، لا تُغْني، ولا تُغاثُ.

بَلاغَةُ التَّعبيرِ بالمَفْعولِ ﴿شَيْـًٔاۖ﴾:

إفادَةُ العُمومِ في انقِطاعِ العَلائِقِ يوم الدّين

جاءَ التَّعبيرُ في قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ﴾ بذِكْرِ لَفْظِ الشَّيْءِ نَكِرَةً في سياقِ النَّفْيِ، وفيهِ تَعْميمٌ وتَفْخيمٌ لِلمَعْنَى؛ إذْ هوَ يَدُلُّ على أنَّهُ لا تَملِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ أيَّ شَيْءٍ كائِنًا ما كانَ، قَليلًا أو كَثيرًا، جَليلًا أو حَقيرًا، وذَلِكَ يُفيدُ أنَّ الانقِطاعَ في ذَلِكَ اليَوْمِ لَيْسَ في الأُمورِ العِظامِ فحَسْب، بَلْ يَتَناوَلُ أيْضًا أدْنَى ما كانَ يُتَصَوَّرُ أنْ يَجْرِيَ بَيْنَ النّاسِ في الدُّنْيا مِن عَطاءٍ أو نَفْعٍ.

فَلَفْظُ الشَّيْءِ اسْمٌ يَدُلُّ على جِنْسِ المَوْجودِ، وهوَ مُتَوَغِّلٌ في الإبْهامِ، يُفَسِّرُهُ ما يَقْتَرِنُ بِهِ في الكَلامِ مِنْ تَمييزٍ أوْ صِفَةٍ أوْ نَحْوِهِما، أوْ مِنَ السّياقِ، ويُبَيِّنُهُ هُنا ما دَلَّ عَلَيْهِ فِعْلُ: ﴿لَا تَمۡلِكُ﴾ واللّامُ، أيْ: (شَيْئًا يُغْني عَنْها، ويَنْفَعُها)، فانْتَصَبَ ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ على المَفْعولِ بِهِ لِفِعْل: ﴿لَا تَمۡلِكُ﴾، أيْ: (لا سَبيلَ إلَى أنْ يَنْتَفِعَ أحَدٌ بأحَدٍ في أدْنَى مَظاهِرِ النَّفْعِ)، وهذا يُفيدُ تَأْييسَ المُشْرِكينَ مِنْ أنْ تَنْفَعَهُم أصْنامُهُم يَوْمَئِذٍ[1]. فالتَّعْبيرُ ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ في غايَةِ الإيجازِ والاستِغْراقِ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 185.

يُفيدُ نَفْيَ كُلِّ وُجوهِ المِلْكِ والتَّمَلُّكِ والاسْتِطاعَةِ في ذَلِكَ اليَوْمِ؛ ليَزْدادَ المَعْنَى تَهْويلًا وتَفْظيعًا.

دَلالَةُ الواوِ:

استِقْلالُ المَعنَى، وإحْكامُ التَّقابُلِ

الواوُ في قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ هيَ واوُ الاستِئْنافِ، جيءَ بها؛ لِتَكونَ هَذِهِ الجُملَةُ جُملَةً مُسْتَقِلَّةً في سياقِ التَّهْويلِ والتَّفْخيمِ، لا مُجَرَّدَ تَفْريعٍ على ما قَبْلَهُ، ففَصْلُها بالواوِ يَجْعَلُها كَأَنَّها جُملَةٌ جَديدَةٌ مُنْبَثِقَةٌ لإبرازِ الأمرِ المُعْلَنِ الأعْظَمِ في ذَلِكَ اليَوْمِ، وهوَ أنَّ المُلْكَ كُلَّهُ قَدْ تَجَرَّدَ للّه وحْدَهُ، فصارَتِ الجُملَةُ كاشِفَةً عَنْ خلاصةِ المَقامِ، بَعْدَ ذِكْرِ عَدَمِ تَمَكُّنِ النُّفوسِ، ومِنْ بَلاغةِ التَّعبيرِ بالواوِ أنّها أفادَت مَعَ ذَلِكَ رابِطًا بَيْنَ نَفْيِ مِلْكِ الأنْفُسِ وثُبوتِ مِلْكِ اللّه، فكانَ التَّقابُلُ أوضَحَ، والتَّقْريرُ أشَدَّ.

دَلالَةُ تعريفِ (الأمر):

إثباتُ الأمرِ المُطْلَقِ لله وحْدَه

تَعْريفُ لَفْظِ الأمرِ في قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ بالألِفِ واللّامِ هوَ تَعْريفُ الجِنْسِ، والمُرادُ بِه جِنْسُ الشَّأْنِ والسُّلْطانِ والتَّصَرُّفِ في الكَوْنِ، فكَأَنَّهُ قيلَ: (وَجَميعُ الشُّؤونِ يَوْمَئِذٍ للّه)، وفي ذَلِكَ إشْعارٌ بالاستِغْراقِ الكُلِّيِّ، أيْ: إنَّه لا يَبْقَى يَوْمَئِذٍ أمرٌ ولا تَصَرُّفٌ إلّا وهوَ خالِصٌ لِذاتِ اللّه تَعالَى؛ وهَذا يُفيدُ القَصْرَ، فكَأَنَّهُ قيلَ: (الأمرُ للّه لا لِغَيْرِه)، وفي ذَلِكَ تَرْبيَةٌ لِمَقامِ التَّهْويلِ؛ إذْ بَعْدَ أنْ أُبْطِلَت أملاكُ الأنْفُسِ جميعًا؛ أُثْبِتَ المُلْكُ المُطْلَقُ للّه وحْدَهُ، فكانَ التَّعْريفُ بمَنْزِلَةِ التَّعْيينِ لِلْمُرادِ، والتَّفْخيمِ لِشَأْنِه.

دَلالَةُ الإضافَةِ في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾:

تَفخيمُ زَمَنِ يَومِ القيامَةِ وتَهْويلُه

إضافَةُ الظَّرْفِ (يومَ) إلَى الظَّرْفِ (إذْ)، في قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾، هيَ مِنْ بابِ إضافَةِ الشَّيْءِ إلَى نَفْسِه بواسِطَةٍ، وهوَ ممّا يُسَمّيه البَلاغيّونَ بإضافَةِ المُبْهَمِ إلَى ما يُعَيِّنُهُ، فإنَّ (إذْ) ظَرْفٌ مَجْهولُ المَعْلَمِ، فإذا أُضيفَ إلَيْه (يَوْمَ) صارَ مُحَدَّدًا مُعَيَّنًا،

ومِثْلُ هَذِهِ الإضافَةِ تُفيدُ تَفْخيمًا لِلزَّمَنِ المُعَيَّنِ؛ لأنَّهُ صارَ كَأنَّهُ هوَ اليَوْمُ الَّذي لا يَتَعَلَّقُ الذِّهْنُ بغَيْرِهِ، ففي ذَلِكَ تَهْويلٌ لأمرِ القيامَةِ، وتَأْكيدٌ لأنَّ الأمرَ كلَّه كُلَّهُ يَنْقَلِبُ فيهِ إلَى مُلْكِ اللهِ وحْدَهُ، فكَأنَّ المُعْتَبَرَ في ذَلِكَ اليَوْمِ هوَ ذَلِكَ الزَّمَنُ نَفْسُهُ، حَتَّى جُعِلَ مَعْلَمًا مَعْروفًا، تُرْتَقَبُ فيهِ نُشورُ الخَلائِقِ وانْقِطاعُ سُلْطانِ المَخْلوقينَ.

بَلاغَةُ الإيْجازِ بالحَذْفِ:

شِـدَّةُ التَّهْويلِ والتَّـخْـويـفِ في يَومِ القيامَةِ

يَظْهَرُ إيْجازُ الحَذْفِ في قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ مِنْ خِلالِ التَّنْوينِ فيها، فهوَ تَنوينُ عِوَضٍ عَنْ جُملَةٍ مَحْذوفَةٍ، أيْ: عَنْ جُملَةٍ تُفَسِّرُ ما يَكونُ في ذَلِكَ اليَوْمِ مِنَ الأحْوالِ والأطْوارِ الَّتي سَبَقَ ذِكْرُ بَعْضِها، وهَذا الإيجازُ بالحَذْفِ يُفيدُ تَهْويلًا وإرْهابًا؛ لأنَّ السّامِعَ يَتَخَيَّلُ مَحْذوفًا عَظيمًا لا تَسَعُهُ العِبارَةُ، فكَأنَّ المَعْنَى: (والأمرُ في ذَلِكَ اليَوْمِ الهائِلِ والشَّأْنِ الجَليلِ للّه وحْدَهُ)، ومِنْ ثَمَّ كانَ ذِكْرُ التَّنْوينِ كالتَّلْميحِ إلَى أنَّ يَوْمَ الدّينِ يَحْوي مِنَ الأحْوالِ ما لا يُحْصَى، وأنَّ تَصَرُّفَ الأمرِ كُلِّهِ يَرْجِعُ فيهِ إلَى اللّه دونَ غَيْرِهِ.

دَلالَةُ لامِ الجَرّ:

يَظْهَرُ يَومَ الدّينِ أنَّ الأمرَ المُطْلَقَ لله وحدَه، لَيسَ لِغَيرِه مِنهُ شَيْءٌ

اللّامُ المُقْتَرِنَةُ بالاسمِ الأعْظَمِ في قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ هيَ لامُ الاسْتِحْقاقِ والاخْتِصاصِ، أفادَت مَعَ عُمومِ الأمرِ أنَّهُ لا أمرَ يَوْمَئِذٍ إلّا للّه وحْدَهُ، فلا يَصْدُرُ من غَيْرِهِ فِعْلٌ إلّا بإذْنِه[1]، فهوَ المُخْتَصُّ به، لا يُشارِكُهُ فيهِ مُشارِكٌ ظاهِرًا أو باطِنًا[2]، وفي اللّامِ دَلالَةٌ على أنَّ الأمرَ الحَقيقيَّ في ذَلِكَ اليَوْمِ لا يَكونُ إلّا للّه تَعالَى، دونَ ما يَتَوَهَّمُهُ الخَلْقُ في الدُّنْيا مِنْ مَظاهِرِ المُلْكِ والتَّصَرُّفِ، فهوَ إظْهارٌ لِحَقيقَةٍ كانَت ثابِتَةً في جَميعِ الأزْمِنَةِ، ولَكِنَّها في ذَلِكَ اليَوْمِ تَبْدو مُعايَنَةً؛ إذ لا يَبْقَى لِغَيْرِ اللّه سُلْطانٌ، ولا شُبْهَةُ تَصَرُّفٍ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 185.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/ 352.

دَلالَةُ التَّعبيرِ باسْمِ الأُلوهيَّة:

تَـفَـرُّدُ الله سُبحانَهُ بالسُّلطانِ المُطْلَق

جاءَ التَّعبيرُ باسْمِ الأُلوهيَّةِ في قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: (لِلرَّبِّ)؛ لِما في الاسْمِ (الله) مِنْ دَلالَةِ الاستِغْراقِ والانفرادِ بالمَعْبوديَّةِ، فهوَ أنْسَبُ بمَقامِ التَّهْويلِ؛ لإثباتِهِ أنَّهُ لا يَتَجلَّى في ذَلِكَ اليَوْمِ سُلْطانٌ ولا مَرْجِعٌ إلّا لِلْمَعْبودِ الحَقِّ، أمّا لَفْظُ (الرَّبِّ)؛ فإنَّهُ يَغْلِبُ فيهِ مَعْنَى التَّدْبيرِ والرِّعايَةِ، وهوَ أوفَقُ بمَقامِ الإنعامِ والتَّرْبيَةِ، كَما في قَوْلِهِ أوَّلَ السّورَةِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾، فاخْتيارُ اسْمِ الجَلالَةِ هُنا يُشْعِرُ بانقِطاعِ العَلائِقِ وتَعْطيلِ كُلِّ سُلْطانٍ ومَرْجِعٍ، حَتَّى لا يَبْقَى إلّا مَقامُ المَعْبودِ المُطْلَقِ، الَّذي يَخْضَعُ لَهُ الخَلْقُ جَميعًا في ذَلِكَ اليَوْمِ المَهولِ؛ لِيَتَضَمَّنَ تَهديدًا عَظيمًا لِلْعُصاةِ[1].

بَلاغَةُ التَّذْييل:

تَقْريرُ المُلْكِ المُطلَقِ لله، بَعْدَ نَفْيِ شَيْءٍ مِنْه عَنِ المَخلوقِين

جاءَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ فاصِلًا لِهَذِهِ السّورَةِ وخِتامًا لَها، توجِزُ مَعْناها، وتَضُمُّهُ تَحْتَ قاعِدَةٍ كُلّيَّةٍ، فقَدْ ذُكِرَ أوَّلًا أنَّهُ لا تَملِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا، وهوَ مَثَلٌ يُبَيِّنُ انقِطاعَ أواصِرِ المُلْكِ والمَنْفَعَةِ بَيْنَ الخَلائِقِ، ثُمَّ أُتبِعَ ذَلِكَ بالقاعِدَةِ المُجْمَلَةِ: أنَّ الأمرَ كُلَّهُ للهِ في ذَلِكَ اليَوْمِ، فالتَّذْييلُ هُنا يُفيدُ تَأكيدَ المَعْنَى وتَعْميمَهُ، ويَرْقَى بالتَّصْويرِ مِنْ مَجَرَّدِ نَفْيِ المُلْكِ عَنِ النُّفوسِ، إلَى إثْباتِ المُلْكِ المُطْلَقِ للهِ وحْدَهُ، وهوَ مِنْ بَلاغَةِ الإيجازِ الَّذي يُغْني عَنِ الإطْنابِ، فكانَتْ جُمْلَةُ الفاصِلَةِ هُنا خاتِمَةً تُلَخِّصُ مَقْصودَ المَقامِ، وتَتَضَمَّنُ تَهْويلًا وتَحْذيرًا.

بَلاغَةُ التَّصْدير:

تَصْريحُ العَجُزِ بما جاء تَصْويرُهُ في الصَّدْر

جاءَت جُملَةُ: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ في خِتامِ السّورَةِ، وفيها رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ؛ لأنَّ أوَّلَ السّورةِ ابْتُدِئَ بالخَبَرِ عَنْ بَعْضِ أحْوالِ

(1) ابن عادل، اللُّباب: 20/ 206.

يَوْم الجَزاءِ، وخُتِمَتِ السّورَةُ ببَعْضِ أحْوالِه[1]، وهو على وجْهٍ مِنَ التَّصْدير؛ إذْ رُدَّ آخِرُها إلَى أوَّلِها؛ فإنَّ السّورَةَ فُتِحَت بذِكْرِ انْفِطارِ السَّماءِ وانْتِثارِ الكَواكِبِ وتَفْجيرِ البِحارِ، وهوَ مَشْهَدٌ يُصَوِّرُ تلاشي النِّظام الكَوْنيِّ الَّذي كانَ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ الإنْسانُ، ثُمَّ خُتِمَت بذِكْرِ أنَّ الأمرَ يَصيرُ لله وحْدَهُ، فكانَ في ذَلِكَ رَدٌّ لِلْخاتِمَةِ على المُفْتَتَحِ؛ إذْ ما بَيْنَ انْفِطارِ السَّماءِ وزَوالِ الكَواكِبِ وتَبَدُّدِ البِحارِ إلّا إعْلانٌ بأنَّ الأمرَ المُطْلَقَ يَرْجِعُ إلَى صاحِبِهِ الحَقِّ، وهَذا الضَّرْبُ مِنَ التَّرْكيبِ يُفيدُ إحْكامَ البِناءِ البَلاغيِّ، ويُرَسِّخُ المَعْنَى في النُّفوسِ بحُسْنِ الخِتام على نَفْسِ القاعِدَةِ الَّتي بُدِئَ بها، فيَكونُ السّياقُ كالدّائرَةِ الَّتي يُطَوِّقُ أوَّلُها بآخِرِها، وذَلِكَ مِنْ بُلوغِ البَلاغَةِ غايَتَها.

دَلالَةُ التَّقْييدِ بالظَّرْف:

ظُهورُ حَقيقَةِ الأمر

قُيِّدَ الأمرُ لله بيومِ القيامَةِ في قَولِ الله تعالى: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ - معَ أنَّ الأمرَ له في كُلِّ الأزْمانِ والأحْوال، يَتَصَرَّفُ في خَلْقِه بما شاءَ كَيفَ شاء، ولا يُشارِكُهُ أحَدٌ في ذَلِك - لأنَّ النّاسَ كانوا في الدُّنْيا يَظُنّونَ أنَّهُم يَملِكونَ شَيئًا، ويَملِكونَ فيما بَينَهُمُ الضُّرَّ والنَّفْع؛ لَكِنَّ هَذا الظّاهِرَ مِنْ أمرِهِمُ الدُّنْيَويِّ لَنْ يَكونَ لَهُم مِنْهُ شَيْءٌ في الآخِرَة، كَما قالَ تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: 16][2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 185.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 10/ 1485.

سُورَةُ المُطَفِّفِين

سُورَةُ المُطَفِّفِين

❁ التّعريف العامّ بالسّورة:

المكّي والمدنيّ وعدّ الآي:

سورةُ المطفّفين من السّور المُختلفِ في كونها مكية أو مدنية

اخْتُلِفَ في كون سورة المطففين مكّيَّة أو مدنيَّةً أو بعضها مكّيٌّ وبعضها مدنيٌّ:

أوّلاً: نُقل عن ابن مسعود والضَّحّاك ومقاتل في روايةٍ عَنه: أنَّها مكّيَّة، وذُكرَ عن جماعة من المفسّرين أيضًا، واحتجّوا لهذا بأنّ تطفيفَ الكَيْلِ والوزن كان بمكّة حسبما هو في كلّ أمّةٍ، ولا سيّما مع كُفْرِهِم(1).

ثانيًا: ونُقلَ عن ابن عبّاسٍ - في الأَصَحِّ عَنْهُ - وعكرمة والحسن والسُّدّيِّ ومقاتل - في روايةٍ أُخرى عنه -: أنَّها مَدَنيَّةٌ، قالَ: وهيَ أوَّلُ سورَةٍ نَزَلَتْ بالمَدينَةِ(2).

ثالثًا: وقال ابن عبّاس أيضًا فيما رويَ عنه: نزل بعضُها بمكّة، ونزل أَمْرُ التّطفيف بالمدينةِ؛ لأنّهم كانوا أشدَّ النّاسِ فسادًا في هذا المعنى، فأصْلَحَهُم اللّه تعالى بهذه السّورة. فهي حسب هذا الرأي مدنيّة إلّا ثَمان آياتٍ من آخرها مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ [المطففين: 29] إِلَى آخِرِها(3).

رابعًا: قال الكلبيّ وجابر بن زيد: نزلت بين مكَّة والمدينة فهي لذلك مكّيَّةٌ، لأنَّ العبرة في المدنيِّ بما نزل بعد الهجرة على المختار من الأقوال لأهل علم القرآن(4).

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 449، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 187.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 449، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 187.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 449، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 187.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 449، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 187.

وقد ذكر القرطبيُّ هذه الأقوالَ، ولَم يُرَجِّح[1]، وكذلك فعلَ السّيوطيُّ، وإن وضَعَها مع السّوَر المكّيَّة[2]، وجزم ابنُ كثيرٍ بمدَنيَّتِها[3]؛ لسبَبِ النُّزول الذي سيأتي بيانُهُ.

وقال ابن عاشور: "من اللّطائف أن تكون نزلت بين مكّة والمدينة لأنَّ التّطفيف كان فاشيًا في البلدين، وقد حصل من اختلافهم أنّها: إمّا آخر ما أُنزِل بمكّة، وإمّا أوَّل ما أنزل بالمدينة، والقول بأنّها نزَلت بين مكّة والمدينة قولٌ حسنٌ"[4].

وسبب اختلافِهِم في مكّيّة السّورة أو مدنيّتها عائدٌ إلى ما روي عن ابن عبّاسٍ - رضي الله عنهما - أنَّهُ قال: "لمّا قدمَ النَّبيُّ صلَّى اللّه عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ المدينةَ كانوا من أخبَثِ النّاسِ كيلًا، فأنزلَ اللّه سبحانه وتعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾، فأحسنوا الكَيْلَ بعدَ ذلكَ"[5]، فإذا صحّ هذا الحديثُ؛ فهو صريحٌ في أنّها كُلَّها أو صَدْرَها قد نزلَ في المدينة؛ إذ لا عبرة بالاستدلالِ العقليّ على مَدَنيَّتِها بأنَّ التَّطفيفَ كان مِن شيَم أهل المدينةِ وحْدَهُم؛ لأنّهم كانوا أهلَ تجارة، فإنّ أهلَ مكّة أيضًا كانوا أكثرَ النّاسِ معرفَةً وممارَسَةً للتّجارة.

وقال دَرْوَزَةُ: "آياتُ السّورة متوازنَةٌ منسجمَةٌ ممّا يُسَوِّغُ القولَ: إنّها نزلَت دفعَةً واحدة، والمصحفُ الذي اعتمدناه يَذْكُرُ أنّ هذه السّورةَ آخِرُ السّوَرِ المكّيّة نزولًا.

ومعظمُ رواياتِ ترتيبِ النّزول تَذْكُرُ أنّها من السّوَرِ المتأخّرة في النّزول كذلك، ومنها ما يتَّفِقُ مَعَ المُصحَفِ بأنّها الآخِرُ نزولًا، غيرَ أنّ مضمونَها وأُسلوبَها يُثيران في النّفسِ شَكًّا في ذلك، ويُسَوِّغانِ الظنَّ بأنّها من السّور المبكِّرة في النّزولِ، مثل السّوَرِ القَصيرَةِ المُسَجَّعَة"[6].

وأمّا عددُ آياتها؛ فيقول فيها الدّانيّ: "هي ثَلاثونَ وسِتُّ آياتٍ في جَميع العدَد لَيْسَ فيها اخْتِلاف"[7].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 250.

(2) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 43.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 346.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 187.

(5) رواه النسائي في السنن الكبرى، الحديث رقم: (11590)، وابن ماجه في سننه، برقم: (2223) واللفظ له، وقال الوادعي في إسناده: "رجاله ثقات إلّا علي بن الحسين بن واقد ففيه كلام، وأما محمد بن عقيل، فهو مقرون فلا يضرّ السّند ما فيه من الكلام المتابعات تدلّ على ثبوت الحديث"، يُنظر: الوادعي، الصحيح المسند من أسباب النّزول، ص: 232.

(6) دروزة، التّفسير الحديث: 5/ 507.

(7) الداني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 267.

ترتيب النّزول وترتيب المصحف:

جاء ترتيبُها المصحفيُّ بين سورتَي الانفطارِ والانْشِقاقِ

هذه السّورةُ هي الثالثة والثّمانون في التّرتيب المصحفيِّ الشّريف، وهو التّرتيبُ الثّابت، والمُعوّل عليه عند أهل النّظَرِ والتّحقيق، وقد جاء ترتيبُها بين سورَتَي الانْفِطارِ والانشقاق، وأمّا ترتيبُها النّزوليُّ؛ فهي السّادِسَةُ والثّمانون عند أكثَرِ مَن كتَبَ في التّرتيب النّزوليّ، وأنَّها نزلَت بعدَ سورَةِ العَنْكبوتِ، وقبلَ سورةِ البَقَرَة[1]، وقيل: بل قبل سورة الرَّعد[2].

فضائِلُ السّورة:

سورة المطفّفين من سوَرِ المفصّل

هذه السّورةُ الكريمةُ مِن المُفَصَّل الذي قال فيه النَّبيُّ ﷺ فيما رواه عنه واثلَةُ بْنُ الأسْقَعِ رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفَصَّلِ»[3].

اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

اشتهرت السّورةُ باسم المُطَفّفين

عُنْوِنَت السّورة في صحيحِ البخاري وفي جامِعِ التّرمذيِّ بسورةِ: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾[4]، وقال ابن عاشور: "سُمّيت هذه السّورة (سورة المطفّفين) في المَصاحِفِ ومُعْظَم التّفاسيرِ اختصارًا"[5]، وسمّاها البقاعيُّ سورةَ "التّطفيفِ"، وقام بالرّبط بين اسْمِها ومقصودها خير ربطٍ، فقال: "ومقصودُها: شَرْحُ آخِرِ الانْفِطارِ؛ بأنّه لا بُدّ من دينونة العباد يوم التّناد، بإسكانِ الأولياءِ أهلِ الرَّشاد دارَ النّعيم، والأشقياءِ أهلِ الضّلال والعنادِ دارَ الجحيم، ودلَّ على ذلك بأنّه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 188.
(2) دروزة، التّفسير الحديث: 5/ 507.
(3) أخرجه أحمد في المسند، برقم: (16982)، والطبراني في المعجم الكبير: (22/ 76، برقم: 187)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم: (2192)، وهو مخرَّج في سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، برقم: (1059).
(4) البخاري، صحيح البخاري: كتاب التفسير، سورة (ويل للمطففين): 6/ 167، والتّرمذي، جامع التّرمذي، أبواب تفسير القرآن، باب ومِنْ سورَةِ (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفين): 5/ 434.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 187.

مُرَبّيهم، والمُحْسِن إليهم بعُموم النّعمة، ولا يتخيّل عاقِلٌ أنّ أحدًا يُرَبّي أحدًا مِن غير سؤالٍ عمّا حَمَّلَهُ إيّاه، وكَفله به، واسمُها "التّطفيف" أدلُّ ما فيها عَلى ذلكَ"[1].

ويُضاف إلى ما تقدّم بأنّ تسميتها بهذا الاسم مرتبطٌ بمِحْوَرِها الذي يتعلّق بتبدُّلِ القيَم والموازين المادّيّة والمعنويّة، وأثره في تحقيقِ الجزاءِ، فالسّورةُ الكريمَةُ فصَّلَت في أسبابِ استِحقاقِ المكذّبين عذابَهم بأنّهم قالوا عن القرآنِ: إنّه أساطيرُ الأوّلين، وأنّهم كانوا يتّهمونَ المؤمنين بالضّلال فيَهْزَؤون بهِم، ويَتغامَزون، ولا بُدّ أن تُصَحَّحَ لهُم هذه الموازين المقلوبة يوم الحساب؛ لذا قال اللّه تعالى في آخر السّورة: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾.

المِحور العامِّ للسورة:

تبديلُ القيَمِ وتغييرُ المَوازينِ مُؤْذِنٌ باستِحقاقِ الجَزاءِ الإلَهيِّ

هذه السّورة متمِّمةٌ ومقرِّرة للسّوَرِ التي سبَقَتْها، ولا سيّما سورة التَّكوير والانفطار، وذلك في إثباتِ وُقوعِ يوم القيامة، إلّا أنّ هذه السّورةَ اختَصَّت ببيان سبب من أسباب استحقاقِ الكافرين العذابَ في ذلك اليوم، وهو تبديلهُم القيَمَ والموازينَ الحقّةَ وتلاعبُهُم بها، فالمِحْوَرُ الذي قامت عليه هذه السّورةُ هو تحذير الكافرين الذين يتلاعَبونَ بالموازين والقيَم الإلهيَّة؛ تَحْريفًا وتبديلًا لأجْلِ خِدْمَةِ أهوائهم ومصالِحهم الشّخصيّة وإنكارًا منهم ليَوْمِ البَعْثِ والجزاء، بأنّ اللّه تعالى قد وكّل لهُم مَن يُدَوّن كلّ أعمالهم في كتابٍ لا يُغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها، وسَيُجازيهم على أعمالهم يومَ الدّين، وسَيُثيبُ المؤمنين الذين يَقيسون الأمورَ بميزان اللّه تَعالى؛ وذلك في يومٍ تتحقّق فيه العدالَةُ.

(1) البقاعي، مصاعد النّظر: 3/ 168 - 169.

ولذا فقدِ اقتضى هذا المحور بيان الأمور الآتية:

أوّلاً: عقدت السورة موازنة بين أحوال النّاس يومَ القيامةِ وفْقَ موازين اللّه سُبْحانه، وليس وفْقَ مَوازينِهم المغلوطة في الدّنيا.

ثانيًا: اقتضى هذا المحورُ أيضًا أن تُسَجِّل - على وجهِ التّهكُّم بالكافرينَ ومَوازينِهم المقلوبةِ - حقيقةَ ما كانوا عليه في الدّنيا وما آلَتْ إليه أحوالُهُم في الآخرةِ.

موضوعاتُ السّورةِ وخصائصها:

قامت السّورة على بيانِ تصرُّفاتٍ فاسدَةٍ بسبَبِ فسادِ المُعْتَقَدِ، ومآلَ النّاس يومَ الدّين

عُنيت هذه السّورةُ بأمورِ العقيدَةِ، وبأحوال يوم القيامة وأهوالها على وجهِ الخصوصِ، كما وعُنيَت أيضًا بأمور الأخلاقِ الاجتماعيّة، والتّصرُّفاتِ الاقتصاديَّة والتِّجاريَّة، وهي هنا تَطْفيفُ الكَيْلِ والميزان.

ولذلك توضحت في السورة الموضوعات الآتية:

أوّلاً: بدأت السّورة بمَطْلَعٍ مخيفٍ، وهو وعيدُ المطفّفين بالعذاب الشّديد، وأبانَت أنّ كتابَ الفجّار الأشقياءِ في ديوانِ الشَّرِّ، وفي كتابٍ مَرْقوم بعلامَةٍ، وأنّ مصيرَهم أسفل السّافلين في نار جهنّم.

ثانيًا: أردفت ذلك على سبيل المقارنةِ والعِبْرَةِ والجَمْعِ بين التّرغيب والتّرهيب؛ ببيان أنّ صحائفَ الأبرارِ في أعلى عليّين، وأنّها في كتابٍ مَرْقوم بعلامَةٍ متميّزة عن صحائفِ الفُجّار.

ثالثًا: خُتِمَت السّورة بوَصْفِ مَوْقِفِ المُجْرمين مِنَ المُؤْمنين؛ إذ كانوا يَسْتَهْزئون، ويَضْحَكونَ مِنْهُم في الدُّنْيا لإيمانِهم وتَقْواهُم ربَّهُم، ثمّ انعكاس هذا الموقفِ في الآخرة؛ إذ صارَ المؤمنون يتضاحكونَ مِنَ الأشقياءِ المُجْرمين، ويَسْخَرونَ مِنْهُم، ويَنْظُرون إليهم، وهم يُعَذَّبونَ في النّار، وما يَلقَوْنَهُ من النَّكالِ[1].

(1) الزحيليّ، التّفسير المنير: 30/ 110 - 111.

الخصائصُ الموضوعيّة للسّورة:

تمَيّزت سورةُ المُطَفِّفين بموضوعات أفْرَدَتْها عَن غيرِها مِنَ السّوَرِ

أوّلاً: تميّزت السّورة الكريمَةُ ببراعَةِ الاستِهْلالِ؛ إذ استُهِلَّت بأسلوبِ الوَعيد والتّهديد للمطفّفين بقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ﴾، ولم يشاركها في هذا الاستهلالِ سِوى سورةِ الهُمَزةِ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ①﴾ [الهمزة: 1].

الخصائصُ الأسلوبيّة للسّورة:

تمَيّزت سورةُ المُطَفِّفين بأساليب أفْرَدَتْها عَن غيرِها مِنَ السّوَرِ

أوّلاً: بَرَزَت في السّورة الكريمةِ ظاهرَةٌ أسلوبيّة بلاغيّة مِن علم البديع، وهي الطّباق بين مجموعةٍ مِنَ الألفاظ المتقابلة، وهي: ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ و﴿يُخْسِرُونَ﴾، و﴿سِجِّينٍ﴾ و﴿عِلِّيِّينَ﴾، و﴿ٱلْأَبْرَارِ﴾ و﴿ٱلْفُجَّارِ﴾، و﴿نَعِيمٍ﴾ و﴿ٱلْجَحِيمِ﴾، و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ و﴿ٱلْكُفَّارِ﴾.

ثانيًا: برز في السّورة الكريمَةِ معجمٌ لألفاظِ التّرفيهِ والتَّنْعيم، مثل: ﴿عِلِّيِّينَ﴾، و﴿نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾، و﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾، و﴿يُسْقَوْنَ﴾، و﴿رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾، و﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾، و﴿تَسْنِيمٍ﴾، و﴿عَيْنًا﴾، و﴿يَشْرَبُ﴾، و﴿فَٰكِهِينَ﴾.

ثالثًا: بَرَزَ في السّورةِ أسلوبُ الاستفهام الإنكاريّ، في قوله: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾، وقوله: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾.

رابعًا: حوَت السّورة موادَّ بصيَغٍ صرفيّةٍ انفَرَدَت بها عن غيرها من السّور، مثل: ﴿ٱكْتَالُواْ﴾، و﴿يَسْتَوْفُونَ﴾، و﴿كَالُوهُمْ﴾، و﴿وَّزَنُوهُمْ﴾، و﴿يُخْسِرُونَ﴾، و﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾، و﴿مَّرْقُومٌ﴾، و﴿عِلِّيِّينَ﴾ - مرّتَيْن - .

خامسًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حوت ألفاظًا فريدَةً في جِذْرِها وبنائِها، مثل: ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، و﴿رَانَ﴾، و﴿سِجِّينٍ﴾، و﴿رَّحِيقٍ﴾، و﴿تَسْنِيمٍ﴾، و﴿يَتَغَامَزُونَ﴾.

سورةُ المُطَفّفين متّصلَةٌ تَمامًا بسورَةِ الانفِطارِ مَضمونًا وأُسْلوبًا

مناسبة السورَةِ لما قبلها:

اتَّصلت السّورةُ اتّصالًا موضوعيًّا وأسلوبيًا بسورة الانفطارِ، قال الغرناطيُّ: "لمّا قال سُبْحانَهُ في سورةِ الانْفِطار: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾ [الانفطار: 10 - 11]، وكان مُقْتَضى ذلك الإشعار بوُقوعِ الجَزاء على جُزْئيّات الأعمال، وأنّه لا يَفوت عمَل، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ﴾ [الأنبياء: 47]؛ أتْبَعَ الآية المتقدّمَة بجزاءِ عملٍ يُتَوَهَّمُ فيه قُرْب المُرْتَكب، وهو من أكبَر الجَرائم، وذلك التّطفيف في المِكْيالِ والانحرافِ عَن إقامَة القِسْط في ذلك، فقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: 1]، ثُمَّ أردَفَ تهديدَهُم وتشديدَ وعيدِهم، فقال: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: 4 - 5]، ثُمَّ التَحَمَت الآي مناسبة لِما افتُتِحَ به السّورة إلى خاتِمَتِها"[(1)].

وتتعلَّقُ هذهِ السّورَةُ بما قَبْلَها مِن أَرْبَعَة أوْجُهٍ:

أوّلاً: أنَّ اللّه تعالى قال في آخر السّورة المتقدّمة واصفًا يوم القيامة: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔاۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ [الانفطار: 19]، وذلك يَقْتَضي تهديدًا عظيمًا للعصاة؛ فلهذا أتبعَهُ هُنا بقوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: 1]، والمراد: الزَّجْرُ عن التّطفيفِ، والبخْسِ في المِكْيالِ والميزان بالشَّيء القليلِ على سبيلِ الخفيَةِ، أمّا الكثير؛ فيَظْهَرُ، فيمنعُ منهُ.

ثانيًا: في كلٍّ من السّورتين توضيحٌ لأحوال يوم القيامَة.

ثالثًا: ذَكَرَ اللّه تَعالى في السّورة السّابقة: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾ [الانفطار: 10 - 11]، وذَكَر هنا ما يكتبُهُ الحافِظون: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين: 20]، وأنَّ ذلك يُجعَل في عليّين أو في سجّين.

---

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 358 - 359.

رابعًا: ذَكَر اللّه تعالى تصنيفَ النّاس إلى فريقَيْنِ: أبرارٍ وفجّارٍ في كلٍّ من السّورتين، وذَكَرَ مآلَ كلِّ فريقٍ، إمّا إلى الجنّة، وإمّا إلى النّارِ[1].

فاجتَمَعَ في السّورتَيْنِ مجموعةٌ مِنَ المَوْضوعاتِ المُشْتَرَكَة، مِمّا يدُلُّ على الانسِجامِ الدّلاليِّ في مُعالَجَةِ السُّلوك الجاهِليِّ والمُعْتَقَد الباطِلِ.

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 30/ 109 - 110.

﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣﴾ [المطففين: 1 - 3]

مُناسَبَةُ مطلع السّورةِ لِخاتمة ما قَبْلَها:

خَتامُ الانفطارِ بإثباتِ البَعْثِ مناسِبٌ للبدءِ بصنيعِ مَن لا يُؤْمِنُ بِهِ

خَتَمَ اللّه تَعالى سورة الانفطارِ بذِكْر أهوال يومِ القيامةِ، يوم لا تَمْلِكُ فيه نفسٌ لنفسٍ نفعًا ولا دفعًا، ويكون السُّلطانُ فيه خالصًا للّه تَعالى وحده، وهو تصويرٌ يحمِلُ في طيّاته وعيدًا شديدًا للعُصاة، ومِن تمام هذا الوعيدِ أن افْتَتَحَ سُبْحانَهُ هَذِهِ السّورة بقوله: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾؛ تحذيرًا من جريمة التَّطفيف وزجرًا عن اقترافها[1]؛ لارتباطِ التَّطفيف بعدَمِ الإيمان بيومِ الدّين، وإيثار الدُّنيا على الآخرة، فصُدِّرت السّورة بالنَّعي على قومٍ آثَروا الحياةَ الزّائلة على الحياةِ الباقيَة، وتَهالَكوا في الحِرْصِ على استيفاءِ أسْبابِها حتَّى اتَّسَموا بأخَسِّ السِّمات، وهي التَّطفيفُ الذي لا يكادُ يُجْدي شيئًا في تَثْميرِ المالِ وتَنْميَتِه[2].

وقد جاءَ هذا الافتتاحُ مُتناسِقًا مع ختام سورةِ الانفطار؛ إذ خُتِمَت هُناك بذِكْرِ يوم الدّين، ووقعَ الرَّبطُ البيانيُّ بين السّورتين؛ إذ قيل هناك: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾ [الانفطار: 17 - 19]، ثُمَّ جاء مَطْلَعُ هذه السّورةِ مكمِّلًا لذلك السّياقِ، ومؤكِّدًا على حقيقة البعثِ والجزاء: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 82.
(2) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 462، وأبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 10/ 426.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 189.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾: التَّطفيفُ: النُّقصانُ، وأصلُ (طفف): يدُلُّ على قِلَّةِ الشَّيءِ[1]، وإناء طفافٌ؛ إذا لم يكُن ملآن، والشَّيء الطَّفيف: هو النَّزْرُ القليلُ، والتَّطفيف: أن يُؤْخَذ أعلاهُ، ولا يُتمّ كَيْله، فهو طَفّاف[2]، والمطَفِّفُ إنَّما يأخُذُ بالميزانِ شيئًا طفيفًا، يُقال: طَفَّفَ عَلَى الرَّجُلِ؛ إذا أعْطاه أقَلَّ ممّا أخَذَ منه، وطَفَّفَ الكيلَ: قلّل نصيبَ المكيل له في إيفائِهِ واستيفائِه[3]، والمعنى هُنا: الذين يَنْقُصون النّاس، ويَبْخَسون حُقوقَهُم في الكَيْلِ والوَزْنِ[4].

2) ﴿ٱكْتَالُواْ﴾: أصْلُ الكَيْلِ: ضَبْطُ الشَّيْءِ وإمْساكُهُ[5]، يُقال: كالَ البُرَّ يَكيلُ كَيْلًا، والبُرُّ مَكيلٌ[6]، والكَيْلُ: مصدرُ كِلْتُ الطَّعامَ كَيْلًا ومَكالًا ومَكيلًا أيضًا[7]، وسُمّيَ المِكْيالُ بذلِكَ؛ لأنَّهُ يَضْبِطُ الحَبَّ ونَحْوَهُ، والكيلُ: معلومٌ، وهو ما يُكال به، والكيلُ والوزنُ سواءٌ في معرفةِ المقادير[8]، ومنَ المَجاز: كالَ الشّيءَ بالشّيءِ كَيْلًا؛ إذا قاسَه بهِ[9]، ويأْتي الكَيْلُ بمَعْنى: الإعْطاءِ، وكِلْتُ فُلانًا: أعْطَيْتُهُ، واكتَلْتُ عَلَيْهِ: أخَذْتُ منْهُ، والاسْمُ: الكيلَةُ، والكَيّالُ: صاحِبُ حِرْفَةِ الكَيْلِ[10]، والمعنى هُنا: اشتَرَوا مِنَ النّاسِ ما يُباعُ بالكَيلِ[11].

3) ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾: (وفي) تَدُلُّ تصريفاتُه عَلى إكْمالٍ وإتْمام[12]، يُقال: أوْفَى الرَّجُلَ حَقَّهُ ووَفّاهُ إيّاهُ، أيْ: أكْمَلَه، وأتمَّه لَهُ، وأعْطاهُ وافيًا[13]، ومِنْهُ الوَفاءُ، وهوَ إتْمامُ العَهْدِ وإكْمالُ الشَّرْطِ، والوافي: الذي بَلَغَ التَّمامَ، يُقالُ: دِرْهَمٌ وافٍ، وكَيْلٌ وافٍ، وأوْفَيْتُ الكَيْلَ والوَزْنَ[14]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طفف).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (طفف).
(3) الراغب، المفردات، وابن سيده، المحكم: (طفف).
(4) الثّعلبي، الكشف والبيان: 10/ 149، وابن عطيّة الأندلسي، المحرّر الوجيز: 5/ 449.
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كيل).
(6) الخليل، العين: (كيل).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (كيل).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (كيل).
(9) الزّبيديّ، تاج العروس: (كيل).
(10) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (كيل).
(11) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 346، والسَّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 915.
(12) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وفى).
(13) ابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وفى).
(14) الجوْهريّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات: (وفى).

والتَّوْفية: نُموٌّ أوْ زيادَةٌ يَبْلُغُ بها الشَّيْءُ تَمام قِوامِه، ومعنى ﴿يَسۡتَوۡفُونَ﴾: يأخُذونَ حُقوقَهم وافيةً تامَّةً[1].

4) ﴿يُخۡسِرُونَ﴾: (خسر) أصلٌ واحدٌ، يدلُّ على النَّقْص، فمِن ذلكَ: الخُسْرُ والخُسْران، كالكُفرِ والكُفران، والفُرقِ والفُرقان، يقال: خَسَرْتُ الميزان، وأخْسَرْتُه، وكِلْتُه، ووَزَنْتُه، فأخسَرْتُهُ؛ إذا نقَصتَهُ[2]، والخُسْرُ والخُسْران: انتقاصُ رأسِ المال، ويُنْسَبُ ذلك إلى الإنسان، فيقال: خَسِرَ فلان، وإلى الفعل، فيقال: خَسِرَتْ تِجارَتُه[3]، والمعنى: يَنْقُصونَ في الكَيْل والوَزن[4].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

الوعيدُ لِمَن ظَلَمَ النّاس، فأكَلَ حُقوقَهم احتِقارًا وازدِراءً

افتُتِحتِ السّورة الكريمة بالوَعيدِ الشَّديدِ للمُطَفّفين، الذين بَيَّنَتْهُم الآياتُ بأنّهم الَّذين يَنقُصونَ في الكَيلِ أو الوَزنِ، فتوعَّدَتْهُم بالعَذاب والهَلاك؛ لما يأكلونَهُ من أموالِ النّاس بالباطل، فإذا اشتَرَوا مِنَ النّاسِ؛ أخَذوا حَقَّهم كامِلًا، وإذا كالوا، أو وزَنوا لغَيرِهم من النّاسِ؛ يَنقُصونَهم حَقَّهم، فمعيارهُم قائِمٌ على الظُّلم، واحتقارِ الآخرين، وعدم السَّويّة في المُعاملَةِ[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

براعَةُ الاستِهلالِ في اختيارِ لَفْظِ ﴿وَيۡلٞ﴾:

إحكامُ النَّسَقِ القُرآنيِّ وإبرازُ وحدةِ مَوْضوعِ البَعْثِ والجزاء في سياقٍ مُترابطٍ

جاء افتتاحُ سورةِ المطفِّفين بلفظٍ جليلٍ جازم: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾؛ إيذانًا بما تَحمِلُه السّورةُ من وعيدٍ وتهديدٍ، وإنذارٍ شديدٍ لمن ميزانُ العدلِ في معاملاته، فكلمةُ ﴿وَيۡلٞ﴾ من بديعِ ما يُستفتَح به المقامُ

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 346.
(2) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خسر).
(3) الرّاغب، المُفردات: (خسر).
(4) المحلّي، تفسير الجلالين، ص: 796، والمظهري، التَّفسير المظهري: 10/ 217.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 250، وابن عطيَّة الاندلسي، المحرَّر الوجيز: 5/ 449، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 346، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 915.

الذي يرادُ به الزَّجرُ والتَّحذيرُ، فهي تُنْبِئُ عَن حلولِ الهلاكِ والشَّرِّ، وعن الفضيحةِ والبلاءِ لِمَن استحقَّه[1]، وفي التَّقديم بهذه الكلمةِ ما يُشعرُ بعِظَم الجُرم الذي تُنَدِّدُ به السّورةُ، فإنَّ التَّطفيفَ ليس خطيئةً فرديّةً فحسب، بل هو خللٌ يفسدُ نظامَ المعاملات، ويهدمُ ميزانَ الاقتصاد، ويزعزعُ الثِّقةَ بين النّاس، ولذلك عَظُم خَطرُه عند اللّه تَعالى[2].

توجيهُ الافتِتاح بلَفْظِ ﴿وَيۡلٞ﴾ بينَ المُطَفِّفين والهُمَزَة:

ذمَّت السّورتان مُـنْـتَـقِـصي أقـدارِ النّـاس، فـالمُـطَـفِّـفـيـنَ اخـتـصّـت بالمادّيَّة، والهُمَزَةُ بالمعنويّة

كلمة ﴿وَيۡلٞ﴾ لم تُسْتَفْتَح بها أيُّ سورةٍ في القرآن الكريم سِوى سورَتَي المطفِّفين والهُمَزَة، وهذا يُشير إلى تقارُبٍ في الغاية الدّلاليَّة بَيْنَ السّورتين، وإن اختَلَفَ المَقْصودُ بالوَعيد فيهما؛ فسورَةُ المُطفِّفين تُعالج جانبًا من طُغْيانِ الثَّراء المادّي؛ إذْ تُصوِّر فئةً من النّاس غَلَبَ عليهِم الجَشَعُ وحبُّ المال، فاسْتَغَلّوا الفُقَراء، وبَخَسوا النّاس حُقوقَهُم، وغشّوا في الكَيْلِ والميزان، فكانَت حَرْبًا على الظُّلم المادّيِّ الذي يَهْدِمُ أركانَ العَدْلِ، ويُشيع الفسادَ في التَّعامل بَيْنَ النّاس، وأمّا سورة الهمزةُ؛ فإنَّها تُجسِّد وجهًا آخر من وجوه الطُّغيان، وهو الطُّغيان الأخلاقيّ والمعنويُّ؛ إذْ تصوِّر إنسانًا أَعْمى حبُّ المالِ بصيرتَه، حتَّى هان عليه شرفُ النّاس وكرامتُهم، فأخذ يَهْمِزُ هذا، ويَلْمِزُ ذاك، ويَزْدَري الخَلْقَ بلسانه، كما ازْدَرى غيرَه بثَرْوَتِه[3]، ومن هُنا تتجلَّى العلاقةُ البديعة بَيْنَ السّورتين: فسورةُ المُطفِّفين نزلَت فيمن نَقَصوا النّاسَ أقدارهم المادّيَّة المحسوسَةَ، والهُمزة نزلت فيمَن نَقَصوا أقدارَهُم المعنويَّة.

بلاغَةُ الخبَرِ وغَرَضُهُ الإنشائيُّ:

البَـدْءُ بالوعيدِ فـزَعٌ لِمَنْ كان في قَلْبِه بَصَرٌ لِمَرامي التّهديدِ

جاء قولُه تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ في أعلى درجات البلاغةِ؛

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 189.

(2) عطيّة سالم، تتمَّة أضواء البيان: 8/ 454.

(3) الجبلي، البستان في إعراب مشكلات القرآن: 4/ 331.

إذ صيغ في صورة خبرٍ لفظًا، إنشاءٍ معنًى، فهو وإن كان إخبارًا عن واقعٍ، إلّا أنَّ المُراد به التَّهديد والوعيد، فهو دعاءٌ بالهلاك والعذاب على المطفِّفين، لا مجرّدُ بيانٍ لحالهم[1]، والبدءُ بالوعيد في مَطْلَعِ السّورة يوجِدُ أثرَ الفزعِ في نفس السّامع مُنذ اللَّحظة الأولى، ويُشعره بأنّ العقوبةَ قريبةٌ منهم، مُحيطةٌ بهم لا تنفكُّ عنهم، فيَغْدو الوعيدُ حاضرًا مُلازمًا لذِكْرِهم، فاختيارُ الأسلوبِ الخبريِّ في هذا الموضِع يَكْسو الوعيدَ لِباسَ التَّقرير والثُّبوت، فيكون المعنى أشدَّ وقعًا وأرسخَ في النَّفس[2].

غرَضُ تنكيرِ لَفْظِ ﴿وَيۡلٌ﴾:

التّعظيمُ والتَّهويل مُكتَسَبٌ مِن اجتماع دلالَةِ الإبهامِ مَع السّياق

نُكِّر لفظُ ﴿وَيۡلٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيۡلٌ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ على أبلغ وجهٍ في البيان؛ إذ هو تنوينُ تهويلٍ وتفخيم، يُراد به تعظيمُ الوعيدِ وتضخيم شأن العذابِ الذي ينتَظِرُ المطفِّفين، فالنَّكرة هُنا تُصوِّر هولَ العذاب وعِظَمَ الخطَر الذي أحاط بهم، حتَّى كأنَّه عذابٌ لا يُحدُّ ولا يوصَف[3]، ذلك أنَّ التّنكير فيه مَعْنى الإبهام، ومِن الإبهام والسّياق اكتُسِب تعظيمُ الوعيدِ المَقْصود، وتفخيم التَّهديد المطلوبِ.

نوعُ اللّامِ ودلالَتُها:

المُطَفِّفون مُسْتَحِقّون لأشدِّ الوعيد؛ فلا يُبخسون منه، ولا يُنقصونَ

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿وَيۡلٌ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ هي لامُ الاستحقاق، أو لامُ المنفعَةِ على سبيل التَّهكّم[4]، ودلالتُها من أدقّ ما في التَّركيب وأبلغِه، فهي تفيدُ أنَّ الويل مُستحقٌّ للمطفِّفين استحقاقًا تامًّا، لا يُتصوّر أن يَنْصَرِفَ عنهم، فكأنّ العذابَ قد صارَ ملكًا لهم، ومآلًا لا ينفكُّ عَنْهُم، جزاءً لِما اقْتَرَفوهُ من بَخْسٍ لحقوقِ النّاس، ومن عدلِ الله تَعالى أنَّ مَن جار في الميزان، وطغى في المكيال، وبخس النّاسَ

(1) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 20/ 139، والفرماوي، السَّهل المُفيد: 3/ 559.
(2) امحمَّد صافي المستغانمي، في رحاب سورة: (المطففين).
(3) الزحيلي، التفسير المنير: 30/ 111، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 31/ 249.
(4) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 20/ 139.

أقدارهم؛ فلا بُدَّ أن ينالَ نصيبَه من الويل؛ إذْ هو أحقُّ به وأولى، فدلالةُ اللّام إذًا تجمَعُ بين التَّقرير بعدل الجزاء والإِزْراءِ بالفاعلِ المُسْتَخِفّ بذَنْبِه.

بلاغَةُ استِعْمالِ مُفردةِ ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ودلالَتُها:

العَدْلُ الإلهيُّ يُحاسِب على صغائِر الحُقوق، ويتوعَّدُ عليها، كما هو في كبائِرِها

آثر النَّظم الكريمُ استعمالَ مفردَةِ التَّطفيف، وهو البَخْسُ في الكيل والوزن؛ لأنَّ ما يُبخَسُ شيءٌ طفيفٌ حقيرٌ[1]، وجرْسُ الكلمة في السَّمع يوحي بالفِعْلِ الصَّغير الخفيّ الذي يتسلّل في المكيالِ دونَ أن يُدْرَك، وهو ما يناسِبُ طبيعةَ جَريمَتِهم التي تَبْدو يسيرةً في أَعْيُنِهم، وهي عندَ اللّه تَعالى عظيمَةٌ، ولهذه المفردةِ إيماءٌ عجيب في بيان حقوق العباد، وأنّها مَهْما قلّت في أعيُن أهل الخِسَّة، فإنَّ لها وزنًا عند اللّه تعالى، وهو ما يدلُّ على أصلِ العدْلِ الذي قامت عليه الآياتُ، الذي أومئَ لَهُ بالويل.

وإذا كان الوعيدُ بالويلِ قَد نَزَلَ في شأن من بَخَسَ النّاس شيئًا طفيفًا، فكيف بمَن تجاوز ذلك إلى أخْذِ أموالهم قَهْرًا أو سرقةً؟ فالأولى أن ينالَهُم مِنَ الوعيد أعظمُه، ومن التَّهديد أشدُّه؛ إذْ إنّ اللّه تَعالى عدلٌ لا يَظْلِمُ النّاسَ شيئًا، ولكنّ النّاس أنفُسَهُم يَظْلِمونَ[2].

بلاغَةُ اختيار مُفْرَدَة التَّطفيف دونَ مُقارِباتِها:

المُطَفِّفُ خسيسُ النّفسِ حين يَسْتَوْفي حقوقَه، وينْتَقِص حقوقَ الآخرينَ

اختار النَّظم الكريم لفظَ التَّطفيف دون غيره من ألفاظ النَّقص كالبَخْسِ والإخْسار؛ لما في هذه اللَّفظة من دقَّةٍ في الدّلالة وعُمْقٍ في الإيحاء، فالتَّطفيفُ لا يَقْتَصِر على مُجرَّد النُّقصان، بل يتضمَّن الإشارةَ إلى خسّة المطفِّف وحقارَةِ نَفْسِه التي تتّجه إلى أكْلِ حقوقِ العِباد اليَسيرة بتَجاوُزٍ بَغيضٍ؛ بأخْذِ حُقوقِهم مُسْتَوْفاةً وإعطاء حقوق

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 718، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 462، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 124.

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 915، وعطية سالم، تتمة أضواء البيان: 8/ 455.

الآخرين ناقصة، أمّا لَفْظَتا البَخْسِ والإخسارِ؛ فتَدُلّان على مُطلق النَّقص دون أن تَتَضمّنا هذا التَّفاوُتَ المتعمّد بَيْنَ الأخذ والعطاء، ولذلك كان اختيارُ التَّطفيف أبلغَ وأدقَّ في تصوير حالِ هؤلاء الذين لا يَعْدِلونَ في الميزان، بل يُغلِّبون شهواتِ أنْفُسِهِم على غَيْرِهِم[1].

دلالَةُ صيغَةِ اسْمِ الفاعِلِ بِزِنَةِ التَّفعيل:

المُطفِّف يَتكلّف الحيَلَ، ويتأمَّلُ أساليبَ الكَسْبِ الباطِلِ

اختيرت صيغةُ اسْمِ الفاعل (المُطفِّفين) من الفعل الرُّباعي المضعّف (طفَّف)؛ لِما فيها من الإيحاء بالفعل المتكرّر المُتعمَّد؛ إذ إنّ تضعيف الحَرْفِ يدُلُّ على شدَّة الفِعْلِ ومبالغته[2]، وأيضًا فإنَّ صيغَةَ التَّفعيل في التَّطفيف تُشير إلى التَّكلُّف والمُحاولة المقصودة، فتُشْعِرُ الصّيغَةُ بالكَثْرَةِ والمُبالغة، وهذا يدلُّ على تَكرارهم القيامَ بهذا الفعل الشَّنيع، فهم لا يَنْقُصون الكَيْلَ سَهْوًا أو غفلة، بل يتعمَّدون الحيلَةَ، ويَجْتَهِدون في الإخفاء، فجاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بمُفْرَدَةِ المُطفِّفين مادَّة وصيغَةً؛ لتَفْضَحَ حالَهُم، وتكشِفَ عن خُبث نيَّتِهم وسوءِ طَويَّتهم، ولذلك استحقّوا ما توعَّدهم اللّٰه تَعالى بِهِ من الوَيْلِ والثُّبور والهلاك؛ جزاءً على غشِّهم المُتَعَمَّدِ ومَكْرِهِم المُسْتَتِرِ[3].

غَرَض جَمْعِ لفظ (المطففين):

المـطـفِّـفـون جـمـاعـةٌ لـها مفهومٌ احتياليٌّ يَتَشَكَّل في كلِّ عـصرٍ بحسَبِ أدواتِهِ

جاء لفظُ المُطَفّفين جَمْعًا في قوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾؛ وذلك ليَشْمَلَ الجماعةَ بأسْرِها، فكلُّ من يُمارس تطفيفَ الكَيْلِ والميزان فهوَ داخِلٌ في الوعيد، وهذا ما يَقْتَضيهِ السّياق، فهو استغراقٌ لجميع أفرادِ جماعَةِ التّطفيف، وقد عمَّم بعضُهم الدّلالة، فجعلها شاملةً لكلِّ مجالٍ من مجالاتِ الحياة[4]، وهذا وإن أُخذ من

(1) الصّاوي، حاشية الصّاوي على الجلالين: 4/ 339، والدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 488.

(2) الصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 30/ 268.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 189.

(4) الإمام مالك، الموطأ، (جامِعُ الوُقوتِ): 2/ 17، وابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 449، وابن العربي، أحكام القرآن: 4/ 366، والعثيمين، تفسير ابن عثيمين - جزء عم، ص: 93.

فحوى الكلام إلّا أنَّه لا يستقيم مع دلالةِ السّياق، فاللَّحاق واضحٌ في بيانِ المقصودِ مِن هَذا اللَّفظ.

علّة فصْلِ جُمْلَة ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ﴾ عمّا قبلَها:

كَشْفُ حقيقةِ المُطفِّفين وشَرْحُ صِفاتِهم تعيينٌ للمَقْصودِ بالوَعيدِ

فُصِلَت جملةُ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾ عمّا قَبْلَها مِن قولِه: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾؛ وذلك لأنَّ الجُملة الثّانية جاءت بيانًا وتفسيرًا للأولى، فهي بمنزلة كشفٍ لحقيقة المُطَفّفين وشرحٍ لصِفاتهم التي استحقّوا بها ذلك الوعيدَ الشَّديد[1]، فيكونُ بين الجملتَينِ كمالُ الاتِّصال، ويَحْتَمِلُ أن تكونَ مِن شِبْهِ كمالِ الاتِّصال على الاستئنافِ البيانيِّ، وكأنَّ السّامع حين سَمِعَ قولَه تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ قد تَشوَّف إلى معرفة مَن هؤلاء المُطَفِّفون؟ وما صورَتُهُم التي توجِبُ الوَيْلَ والعذاب، فجاءت الجملةُ المفصولةُ بعدَها جوابًا عن هذا السّؤالِ الكامن في النَّفس، وذلك على جَعْلِ الاسم الموصول خبرًا لمبتدأٍ محذوف، أمّا إن جعلنا الاسمَ الموصول صفةً للمطفّفين؛ فلم تأتِ الواوُ؛ لأنَّ مِنْ شأنِ الصِّفةِ ألّا يُفصل بينَها وبينَ موصوفِها بواوٍ.

دلالةُ التَّعبير بالاسْمِ الموصولِ:

التَّنبيهُ على عِلّة الحُكمِ وتحديد مناطِه وذَمُّهُم بما في حيِّز الصِّلة

جاء بيان المُطفِّفين بالاسْمِ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ لاشْتِمالِ صِلَةِ الموصول على بيانِ سُلوكِهم، وهو أنّهم يقومون بالاستيفاءِ عند الاكتيال لأنفُسِهم، وبيان أنَّ هذا السّلوك هو عِلّة الحُكم وتحديد مناطه، فالآية تُشير إلى أنَّ استحقاقَهم للويل لأجْلِ ما وُصفوا به من أفعالِهم الشَّنيعة المتمثّلة في التَّطفيفِ عندَ الكَيْلِ والوَزْنِ[2]، فالمقصودُ ذمُّهم بما في حيِّز الصِّلة من مَعْنًى، والإشعار بعلَّة ما اعتراهُم من الحالِ الفَظيعَةِ والأمر الهائل بسبَب تَطْفيفِهِم،

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 218.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 274.

فالتَّعبير بالموصولِ إنباءٌ عن حالهم القبيحة وأخلاقهم المذمومة، فكأنَّهم عُرِفوا بجُرْمِهم، وصار فِعْلُهُم المعيبُ عنوانًا عليهم.

غرَضُ استِعْمالِ أداةِ ﴿إِذَا﴾:

التَّطفيفُ مَنْهَجُ حياةٍ لا أمرٌ عارضٌ أو حدَثٌ طارئ

جاء التَّعبير القرآنيُّ بأداة الشَّرط ﴿إِذَا﴾ دون (إن)؛ لِما فيها من الدّلالة على تحقُّق الوقوع، ولمّا كان سلوكُ المطفّفين في بَخْسِ الكَيْل والميزان سلوكًا ثابتًا مُتكرِّرًا، لا يقَعُ مِنْهُم عرَضًا أو اتِّفاقًا، بل هو عادة مُلازمة وخُلُق مُتأصِّل؛ كان من تمام البلاغةِ أن يُعبَّر عن أفعالهم بأداة الشَّرْطِ ﴿إِذَا﴾؛ لتصوير ثبوت هذا الفعل فيهم وتحقُّقه منهم، وأنَّ ذمَّهم لم يكن لأمرٍ عارض، بل لمنهجٍ سلكوهُ في التَّعامل التِّجاريِّ، أصبح لهم دَيْدَنًا ودينًا.

بلاغةُ استِعْمالِ مفردة ﴿ٱكۡتَالُواْ﴾ مادّة وصيغَةً:

اكتيالُ المُطَفِّفين يَنْطَوي على تَكَلُّف الحيلَةِ للوُصول إلى المالِ الباطِل

الاكتيالُ: افتِعالٌ مِن الكَيْلِ فيه إعلالٌ بالقَلْب، قُلِبَت عينُ الفعل ألفًا؛ لتحرُّكِها بعدَ فتحٍ، ووَزْنُه: افْتَعَلوا[1]، والنَّظم الكريمُ اختارَ لفظَ ﴿ٱكۡتَالُواْ﴾ دون (كالوا)؛ لِما في صيغة (افتعلَ) من دلالَةٍ على التَّكلُّف والمبالغَةِ والاجتِهاد في الفِعْلِ، فهيَ تُفيدُ أنَّ الفاعل يَبْذُلُ جُهْدًا في تحصيلِ غَرَضِه، ويتصَرّف برأيه وحيلَتِه؛ ليَبْلُغَهُ، فهم يَكيلون لأنفُسِهِم مِن مال غَيْرِهِم[2].

فالمطفِّفون حين يكتالونَ على النّاس، يُشاركون البائعَ في عَمَليّة الكَيْلِ، غيرَ أنَّهم يستعملون فيها دَهاءَهُم ومَهارتَهُم حتّى يُرغموا البائعَ - طوعًا أو حياءً أو خِداعًا - على أن يُجري لهُم الكيلَ كما يُريدون، ففي ﴿ٱكۡتَالُواْ﴾ إشعارٌ بأنَّ فِعْلَهُم يَنْطَوي على اجتهادٍ في الظُّلم وتفنُّنٍ في الأَخْذِ بغَيْرِ حقٍّ.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 190، والصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 30/ 267.

(2) أطفيش، هيميان الزّاد: 15/ 209.

بلاغةُ التَّضمينِ ودلالتُه:

المطفِّفُ يحتالُ في الاكتيالِ طلبًا للرِّبْحِ الحرامِ

حقُّ فعلِ (الاكتيال) أن يتعدَّى بحرف الجَرِّ (من)، ولكن عُدّيَ بحرف الجَرِّ ﴿عَلَى﴾؛ لتَضْمينِ ﴿ٱكۡتَالُواْ﴾ مَعْنى التَّحامُلِ والتَّسلُّط والاستعلاء والاحتيال، أي: إلْقاء المَشقَّةِ على غيرِه وظُلمِه؛ ذلك أنَّ شأنَ التّاجرِ وخُلُقَه يَتَطلَّبُ تَوفيرَ الرِّبح، وأنَّه مَظِنَّةُ السَّعةِ، ووُجودِ المالِ بيَدِه، فهو يَستَعمِلُ حاجةَ مَن يأْتيه بالسِّلعةِ، وقال بعضُ أهل العِلْم: إنَّ الحَرفَين (مِن) و(عَلى) يَتعاقَبانِ في هذا المَوضِع؛ لأنَّه حَقٌّ عليه، فإذا قالَ: اكتَلْتُ عليك، فكأنَّه قال: أَخَذْتُ ما عليك، وإذا قالَ: اكتَلْتُ منك، فكقَولِه: استَوفَيْتُ منك[1]، والقولُ بالتَّضمين مقدَّمٌ على القول بالتَّعاقب؛ ذلك أنّ التَّضمين يُبْقي الحرفَ على أصلِ دلالَتِهِ مع ما فيه مِنْ بلاغةِ إيجازٍ، والقولَ بالتَّعاقب بين الحروفِ يَضْمُرُ معَهُ صوتُ البلاغةِ.

بلاغَةُ الإيجاز بحَذْفِ المفعول:

الحذفُ والذِّكر مرتَهنٌ بمقاصدِ النَّصِّ لا بإطناب البيانِ

حُذِف مفعولُ فعل ﴿ٱكۡتَالُواْ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، والتَّقدير: اكتالوا مكيلًا أو سلعةً؛ وذلك لأنَّ مقصودَ السّياق بيانُ حالِهم في المُعاملَة وسوء صَنيعِهم في الأَخْذِ والعطاء، لا تعيين ما اكْتالوهُ[2]، فجاء الحذفُ من بابِ الإيجازِ؛ إذْ كان المفعولُ معلومًا مِن طَبيعَةِ الفِعْلِ نفسِهِ، ولا حاجة إلى ذِكْرِه؛ إذْ يُفهَمُ ضِمْنًا أنَّ المُراد به ما يُكال، أو يُباع بالكَيْلِ[3].

غرَضُ فنِّ الإدماجِ:

الـكَـشْـفُ عن الخَصْلة السّيِّئة والتّوطئةُ لبيانِ قُبْحِ ما بعدَها

جاءت جملة: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾ على سبيل الإدماجِ البَديعيِّ؛ إذ أُدرِجَت لتكشِفَ عادةً ذميمةً مستقرّةً في نفوس

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 719، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 294، وأبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 10/ 426.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 125.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 191.

المُطفّفين، وهي شِدَّة حِرْصِهم على استيفاءِ حُقوقِهم من النّاس بغَيْرِ وجهِ حقٍّ، وطلَبُهُم الزّيادةَ فيما ليسَ لَهُم، فالإدماج هنا لم يُقصد به بيانُ فِعْلِهم وحدَهُ، وإنَّما التَّمهيد للذَّمِّ الأشدّ في الجملة التّالية: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[1]، فهم لا يُفرّطون في حقٍّ لأنفسهم، ولا يجهلون سبيل ذلك، وفي الوقت نفسِه لا يوفون حقَّ غيرِهم، وقد جاء هذا الإدماجُ في موقعه أحسنَ ما يكون؛ إذْ جَمَعَ بَيْنَ التَّمهيد للذَّمّ والبيان لعِلّة الوعيدِ، فحَسُن موقِعُهُ وجَمُلَت بلا غَتُهُ، فصار ذِكْرُ اكتيالِهم على النّاس تمهيدًا للخَصْلَةِ السَّيّئة وتوطئةً لإبراز قُبْحِها في مقابلِ ما بعدَها من إخْسارٍ وظُلْم.

دلالَةُ استِعْمالِ مُفردة ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ مادَّة وصيغةً:

الاستيفاءُ هو أخذ الشَّيء تامًّا غير منقوصٍ، وقد جاءت صيغة ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ على وزْنِ (يستفعلون)، والسّين والتّاء فيه للمبالغة في الفعْلِ، لا لِطَلَبِه؛ إذ المعنى أنهم يأخذون حقوقهم وافيةً كاملةً بل يتجاوزون الحَدَّ في ذلك، فيَحْرِصونَ على أن يَغْنَموا كُلَّ جزء، ولو يسيرًا، ففي بناء الفعل بصيغةِ الاستفعال إيماءٌ إلى شدَّة حِرْصِهم وتكلُّفهم في تحصيل التَّمام، فهم لا يكتفون بالحقِّ المشروع، بل يَجْتَهِدون في تحصيل ما فوقه بالحيلَةِ والمُخادعَة، أمّا أصلُ الفعل؛ فمشروع في ذاته؛ إذْ أخذُ الحقّ وافيًا ليسَ بمَذْموم، بَل هو عدلٌ أوجبَهُ الشَّرع، ولا سيّما في الرّبويّات كالحبوب والثِّمار ونحوها، لكنَّ موطن الذَّمِّ هُنا أنَّهم جاوزوا حدودَ العدل، فاسْتَوْفَوا لأنفُسِهم بأكثرَ ممّا لهم، ثُمَّ بَخَسوا غيرَهم عند الكَيْلِ والوزن[2]، فدلالَةُ الذّمّ لَحِقَتْهُم؛ باعْتِبار التَّقابل السّياقيّ، لا باعتبار ما أفادَتْهُ المُفْرَدَة وحدَها، ففُهِمَ المقصود بالاستيفاء بأنَّه أخْذُ الحقّ وزيادة، باعتبار

مَن أنقَصَ غيرَه عندَ العطاءِ؛ زاد نفسَه عندَ الأخذِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 190.

(2) القونوي حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 20/ 140، والميداني، معارج التَّفكُّر ودقائق التدبر: 15/ 317.

أنَّهم عندَ البيع يَنْقُصون، ويُخْسِرون، فمَن أنقص عند العطاءِ؛ زاد عند الأَخْذِ، وهو المعنى المُتَلائِمُ مع لفظِ الاكتيالِ.

نُكتة التَّعبير بصيغة المُضارع:

تصويرُ خفايا النُّفوس الخَسيسَةِ المائِلَة بطَبْعِها إلى الاحتيال في الاكتيالِ

جاء الفعلُ في قوله تعالى: ﴿يَسۡتَوۡفُونَ﴾ بصيغةِ المُضارع؛ لتصويرِ مَشْهَدِ الاسْتيفاءِ البَغيضِ الذي يَكْشِفُ عَن خفايا صنيعِهم، وبيان أنَّ استيفاءَهُم ليسَ عابرًا، بَل هو متجدِّد بتجدُّد شراهتهم، وخسَّة طَبْعِهِم، فهي متأصِّلة في النُّفوس، فالمُضارعُ يُصوِّر حالَهم في هيئةٍ دائمة مُتكرِّرةٍ، فهُم يُمارسون هذا الخُلُق الذَّميم كُلَّما سَنَحَت لَهُم فُرصةُ الكَيْلِ والوزنِ.

بلاغَةُ الإيجاز بحَذْفِ المَفْعول:

دلالـةُ السّياق كـاشـفـةٌ عن المحذوفِ مُناديَةٌ على المَطْلوب

حُذِفَ مفعولُ فعلِ ﴿يَسۡتَوۡفُونَ﴾؛ إيجازًا لمعرفَةِ المَحْذوفِ مِن دلالةِ السّياق؛ إذ سَبَق في الآية ذِكْرُ قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، فدلَّ ذلك على أنَّ استيفاءَهم إنَّما هو مِن النّاس أنفسِهم، فاستُغني عنهُ بما يُفهَم من المقام، وأيضًا فإنَّ هذا الحذفَ أدقُّ في التَّصوير وأبلغُ في التَّوبيخ؛ إذ يجعل السّامعَ يتوجّه بذِهْنِه إلى فِعْلِهِمُ الشَّنيع ذاتِه دون ذكر مُتعلِّقه[1]، فالآية تُلقي الضَّوءَ على نَهَمِهم في الأَخْذِ، فيَستَوفونَ كلَّ ما يُمْكِن أن يُستوفى، لا يَقْتَصِرون على نوعٍ دون آخر.

فائدَةُ العَطْفِ التَّقابُليّ:

إظـهـارُ قُـبْـحِ سُلوكِ المطفِّفين فـي اخـتـلافِ المَعايير بحَسَب المَصْلَحَةِ

عُطِفت جملةُ: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ على ما قَبْلَها: ﴿إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾؛ لما بين الجُملتين من التَّوسُّط بين الكمالين، فإنَّهما متَّحدتانِ خبرًا، وبينهما تناسُبٌ في اللَّفْظِ والمعنى، فأمّا في اللَّفْظِ؛ فاشتراكُهُما في الفعليَّةِ؛ إذ التَّحقيق في جملةِ الشَّرْطِ أنَّه يُنظر إلى اسميَّتِها أو فعليَّتها بحسب جوابِها، وأمّا

(1) المظهري، التفسير المظهري: 10/ 217.

في المعنى؛ فبينَ الجملَتَيْنِ تقابلٌ معنويٌّ وتضادٌّ في الدّلالة؛ إذ عَبَّرت الأولى عن حالِهِم في الاستيفاءِ لأنفُسِهم، وجاءت الثّانية؛ لتُظهر جَوْرَهُم على غَيْرِهم حالَ الإعطاء؛ لأنَّ مساقَ الكلام لبَيانِ سوءِ مُعامَلَتِهم في الأَخْذِ والإعطاء، فالعَطْفُ هُنا تقابليٌّ يُبرز سُلوكهم المُشين، فإذا أخذوا لأنفُسِهم؛ استوفَوا، وزادوا، وإذا أعطَوا غيرَهم؛ بخَسوا، ونقصوا[1].

نكتَةُ استِعْمالِ أداةِ (إذا):

افتُتِحت الآيةُ الكريمَةُ بأداةِ الشَّرط (إذا)؛ لِمَا فيها مِن دلالةٍ على الاستقبال والثُّبوت، فهي تُفيد وقوع الفعل على وجه التَّحقيق والتَّكرار والاعتياد، لا على وجهِ الاحتِمالِ أو النُّدرة.

بلاغةُ التَّعدية بالفِعْلِ نفسِه لا بالحَرْفِ:

إظهارُ نَظْرَةِ المُطَفِّفين للنّاس على أنّهم أمتعَةٌ وأقواتٌ

عُدّي فِعْلا ﴿كَالُوهُمۡ﴾ و﴿وَّزَنُوهُمۡ﴾ إلى الضَّمير بأنفُسِهما دون حرفِ الجَرِّ، فلم يأتِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (كالوا لَهُم، أو وزَنوا لهم)، وهذا الحذف من قبيلِ الإيجازِ اللُّغويِّ المألوف في كلام العربِ حينَ يَكْثُرُ دورانُ الفِعْلِ على الألسن، فيُحذف الجارُّ، ويوصل الفعلُ بنَفْسِه تخفيفًا[2]، وأيضًا فإنّ تعديةَ الفِعلَيْنِ دون اللّام تحمِل نكتة بلاغيَّة دقيقة؛ إذ تُشْعِرُ بأنّ المطفّفين يتولَّون الكيلَ والوزن وحْدَهُم، دونَ أن يُشْرِكوا غيرَهُم في ذلك؛ ليُتيح لهُم هذا الانفرادُ التَّحكُّمَ في المكيال والميزان وإيقاع البَخْس في حَقِّ المُشْتَري[3]، وأيضًا فإنَّه يُشير إلى أنَّهم تَعامَلوا مع النّاس على أنَّهم مكيلاتٌ تُكال، فكأنَّهم يكيلونَ النّاس أنفسَهم، وهذا معنى يَكْشِفُ عن شخصيَّة المطَفِّف؛ إذْ يتَعاملُ معَ النّاس على أنّهم أمتعَةٌ وأقواتٌ تُكال، وتوزَنُ، وهو ما

(1) الحصني، المقتطف من عيون التفاسير: 5/ 451.

(2) أبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 10/ 426، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 191.

(3) الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 16/ 1488.

يُظهر نَظَرَتَهُم للآخرين، على أنّهم أموالٌ يُنْتَفَعُ بها، لا أنَّها مصالِحُ تُقْضى للجَميعِ.

بلاغَةُ المُناسبة في اختيار الأسلوب:

نَـقْـصُ الألـفـاظِ يتَّسِقُ معَ نَقْصِ الأفعالِ

جاء التَّعبير القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ في غاية الإيجاز البلاغيِّ، فصوّر حذفُ الحَرْفِ النَّقصَ في اللَّفظ؛ ليُجسِّد النَّقْصَ في الفعل، فكان الأسلوبُ مرآةً لمعناه، فالتَّطفيف في ذاتِهِ بَخْسٌ ونقْصٌ، فوافَقَهُ نقْصٌ في البِنْيَة اللَّفظيَّة؛ ليُصْبِحَ الإيجازُ صورةً فنّيَّة لمَعْنى البُخْلِ والغَبْن[1]، ثُمَّ إنَّ حذفَ الجارِّ هُنا جاء كذلك إيجازًا وتخفيفًا لِما كَثُر استِعْمالُهُ في كلام العَرَبِ، مِن نحوِ قولِهم: كالَ لَهُ طَعامًا، فخَفَّفوه إلى: كالَهُ طَعامًا[2].

توجيهُ علَّة ذِكْرِ الوزن في الجملةِ الثّانية دون الأولى:

مطابقَةُ الكلامِ لمُقْتَضى الـواقِـعِ عينُ البلاغَةِ

اقتصرَ البيانُ في الجملة الأولى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾ على ذِكر الكيلِ دون الوزن، بينَما في الجملة الثّانية ذَكَر الكيلَ والوزن: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ الاقتصار جاء موافقًا للغالِب في عادات المُطَفّفين؛ إذ كانوا في معاملاتهم يأخذونَ السِّلع بالكيل أكثرَ مِنَ الوزن؛ لأنَّ أكثرَ ما يُجلَبُ إليهم من الأطعمة كالتَّمر والحبوبِ مِمّا يُكال، فيَستَوْفونَها بالكيل، ويَدفعون أثمانَها وزنًا من ذهَبٍ أو فِضَّة، فناسب أن يُعبَّر عن معاملاتهم من جهَةِ الأخْذِ بالفعل ﴿ٱكۡتَالُواْ﴾ دون ذِكْرِ اتّزنوا؛ إذ الكَيْلُ هو الغالب في باب الأخْذِ عندَهُم[3].

وأيضًا فإنّه قد يكون هذا مِن موافقَةِ الواقِعِ، فكان تَطْفيفُهُم واقعًا في الكَيْلِ دونَ الوَزْنِ، فاكْتَفى به عن ذِكْرِ غيره، أمّا الوزنُ؛

(1) امحمد صافي المستغانمي، في رحاب سور: (المطففين).

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 191.

(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 720، والبقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 313، وزكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 602، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 125.

فذُكِر في الشِّق الثّاني؛ زيادةً في التَّوبيخ وتعميمًا في الذَّمِّ؛ إذْ كلُّ من الكيل والوزن ميزانُ عدلٍ شرعَهُ اللّٰه تَعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: 25](1).

نكتَةُ التَّعبير بمُفْرَدَةِ ﴿يُخْسِرُونَ﴾ دون (يُنقصون):

إخسارُ النّاسِ مَطْمَعُ المُطَفّفين ومَسْلَكُ المُجْرمينَ

اختارَ القرآنُ الكريمُ لفظَ ﴿يُخْسِرُونَ﴾ دون (يُنقِصون)؛ لأنَّ مادة الخُسْر أبلغُ في الدّلالة على الظُّلم والاعتداء، فهي لا تُفيد النّقص فحسبُ، بل توحي أيضًا بالظُّلمِ والإجحافِ والاعتداءِ على حقِّ الآخرين، فالنَّقص يدلُّ على تقليلِ المقدار، أمّا الخُسرانُ؛ فيَجْمَعُ بين الضَّرر المادّيِّ والمعنويِّ؛ إذْ يُقال: خَسِرَ الرَّجلُ؛ إذا لَحِقَهُ الضَّرر، وأخْسَرَه غيرُه؛ إذا جعلَهُ يَخْسَرُ، ومِن ثَمَّ كان استعمالُ ﴿يُخْسِرُونَ﴾ أنسبَ في مقامِ التَّوبيخ والتَّقريع؛ لِما فيه مِن معنى التَّعدّي والجَوْر، ولأنَّ التَّطفيفَ في ذاته خسارةٌ في الميزان، وخسارٌ في الأخلاق، فهو أبلغ في تصوير فداحة فِعْلِهم، وأقوى في إظهار شناعتِه(2).

نكتةُ التَّعبير بصيغةِ المضارع:

جاء التَّعبير بالفعلِ المضارع ﴿يُخْسِرُونَ﴾؛ للدّلالة على الاستمرار والتَّجدّد، أي: إنَّهم لا يَكْتَفون بفِعْلِ التَّطفيف والإخسارِ مرَّة أو مرَّتين، بل هو دَيدَنُهم وعادَتُهم المُستمرّة.

بلاغةُ المُقابلة بَيْنَ الآيَةِ وسابِقَتِها:

الإبانَـةُ عَـن تَناقُضِ المُطَفّفين في حالَي الأَخْذِ والإعطاءِ تَبْشيعًا لِفِعْلِهم

جاءَت المُقابَلَةُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾، في أبهى صوَرِها وأدَقِّ نظامِها؛ إذ أبانَت عن تناقُضِ حال المُطفِّفين أبلغَ بيانٍ؛ فهُم إذا أخذوا حقوقَهم من النّاس؛ استوفَوها كاملَةً بغَيْرِ نقص، وإذا كان

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 16/ 339، 340.

(2) ابن جُزي، التَّسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 460، والطَّبراني، التفسير الكبير: 6/ 458.

العطاءُ مِن جِهَتِهِم بَخَسوا، وأنْقَصوا، وقد أضْفَت هذه المُقابلةُ جمالًا بيانيًّا بديعًا على الآية، فجمعَت بين الإيجاز والدِّقَّة والتَّقابل البديع الذي يُظْهِرُ شدَّة ظُلْمِهِم وجَوْرِهم في المُعاملة، كما زادَت المَعْنى رسوخًا في الذِّهن وتأثيرًا في النَّفس بتصوير حالِهِم تصويرًا حيًّا يَلْمَسُهُ السّامع، فهي مقابلَةٌ تَزيدُ المعنى جلاءً في النَّفس، وتُلبِس اللَّفظَ رونقًا من الجمال، وتؤكّد التَّوبيخ في السَّمع والقلب تأكيدًا يُرَسِّخ أثرَه في النَّفس(1).

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الكَيْلُ والوَزْنُ:

الكَيْلُ يَخْتَصُّ بما يُقدَّر بالحَجْمِ، والوَزْنُ بما يُقاس بالثِّقل

الكَيْلُ هو تقديرُ مقدارِ الشَّيء من حيثُ الحَجْمُ، فيُقال: كِلْتُ الطَّعام كيلًا ومكيالًا، أي: قدّرتُه بما يُكال به، والمكيال هو الآلَةُ التي تُسْتَعْمَلُ في ذلك، كالوعاءِ أو القدَح، ومنه سُمّي الشَّيء المُقدَّر به مكيلًا أو مكيولًا، أمّا الوَزْنُ؛ فهو تقديرُ مِقْدارِ الشَّيء من حيثُ الثِّقل، والميزانُ هو الأداة التي يوزن بها، وأصلهُ "مِوْزان"، ويُقال: زِنْتُ الشَّيء وزنًا ووزنةً، أي: قدّرتُ ثِقَلَهُ، كما يُعدّ الميزانُ أعمَّ مِن المكيال؛ لأنَّه يُستعمَل في المادّي والمعنويِّ، فيُقال: وزَنَ كلامَه، أي: قدّره بميزانِ العَقْلِ والاعْتدال(2)، فالكيلُ إذًا يختصّ بما يُقدَّر بالحَجْم، والوزن بما يُقاس بالثِّقل، وبينَهُما تكامُلٌ في ضَبْطِ المَعايير وإقامة العَدْلِ في المُعاملاتِ.

الوَيْلُ والوَيْحُ:

الويحُ كلمَةُ تَحْذيرٍ والوَيْلُ كلمَةُ وعيدٍ وتَهْديدٍ

تُقالُ كلمةُ (ويح) زجرًا لِمَنْ أشرفَ على الهَلَكة، ولَم يقَعْ فيها بعدُ، فهي نداءُ رأفةٍ وتحذيرٍ قبل حلولِ العقوبة، أمّا (ويل)؛ فهيَ

---

(1) أبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 10/ 426، والدَّرويش، إعراب القرآن: 10/ 411، والصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 30/ 268.

(2) المصطفوي، التَّحقيق في كلمات القرآن الكريم: 13/ 87 - 98، وقاسم القونوي، أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء، ص: 80.

زجرٌ ووعيدٌ لَمَن وقع في البلاء والهلكة فعلًا، واستحقَّ العذابَ والفضيحةَ لا محالة[1]، فكانت أنسبَ بالمقامِ الذي يتحدّث عن المطفِّفين، الذين خاضوا في الإثم فعلًا، ولم يبقَ في شأنهِم موضعُ تحذيرٍ بل موضعُ إنذارٍ وتهديد، ثُمَّ إنَّ لفظةَ (ويح) قد تُستعملُ أحيانًا في مقام الإعجاب أو الترحّم، كما يُقال: ويح ابن عبّاس! أي: كأنَّه تعجُّب من بديع قوله؛ ولذلك لَم تُلائم هذا الموضعَ الذي يغشاه جلالُ الغَضَبِ الإلهيّ وشدّةُ الوعيد[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 82، والخازن، لباب التأويل: 4/ 403، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 31/ 216.
(2) الجبلي، البستان في إعراب مشكلات القرآن: 4/ 331.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾ [المطففين: 4 - 6]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتـقـالُ من الوعيد الشَّديد إلـى التَّوبيخ والتَّقريع

لَمّا جاء خطاب تهديد المُطفّفين وبيان حالِهم في الآيات السّابقة، وأنّهم قد تمكَّنت فيهم الرَّذيلةُ حتَّى صارت طبعًا لهم وسجيَّةً لا يُفارقونها، وألِفوا الظُّلْمَ وأنِسوا به؛ دلَّ ذلك على أنَّهم قد غاب عن قلوبهم خوفُ الآخرة، وأمِنوا العقابَ، وجحدوا الحِسابَ، فناسب بعد ذلك ذِكْرُ البعث[1]، فكان مِن تمام البيانِ أن يُعقِّب سُبحانه ذلك بإنكارٍ شديدٍ عليهم في أبلغ أسلوبٍ وأشدِّهِ، يُثير العَجَبَ من حالهم، ويوقظ الغافلين عن مصيرهم، فجاء الاستفهامُ: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾ على وجه التَّوبيخ والتَّقريع[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَظُنُّ﴾: أصلُ الظَّنِّ: اسمٌ لما يَحصل عن أمارة، ومتى قَويت؛ أدَّت إلى العِلْم واليَقين[3]، يُقال: ظَنَنْتُ ظَنًّا، أيْ: عَلِمْتُ، وأيقَنْتُ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ٢٨﴾ [القيامة: 28]، أي: عَلِم، وأيقَن[4]، ومتى ضَعُفَت جدًّا لم يتجاوز حدَّ التَّوهُّم، فيكون معناها الشَّكَّ والتَّرَدُّد، تقول: ظَنَنْتُ الشَّيْءَ؛ إذا شَكَكْتَ فيه، ولم تَتَيَقَّنْهُ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ [ص: 24]، أي: عَلِم[5]، ويأتي الظَّن بمعنى الاتِّهام، والظِّنَّةُ: التُّهَمَةُ، وجَمْعُه: ظُنونٌ، والمعنى: ألا

(1) الطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 319.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 315.
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ظن)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 3/ 545، والمناوي، التَّوقيف على مهمّات التَّعاريف، ص: 231.
(4) الواحدي، التَّفسير البسيط: 22/ 170، والقنوجي، فتح البيان: 14/ 295.
(5) ابن السكيت، إصلاح المنطق، ص: 62، وابن سيده، المخصص: 3/ 223.

يوقِن أولئك بالبعْثِ والحساب؟ فلو كان في قلوبِهم يقينٌ بذلك، ما جاروا في الكَيْلِ والميزان، ولا بَخَسوا النّاس أشياءَهُم، وقال بعضُ أهل العلْم: بل الظَّنُّ هنا على حقيقتهِ مِنَ التَّردُّد، والمعنى: إن لم يَبْلُغوا مرتبَةَ اليقين بالبَعْثِ؛ أفلا يظنّونَهُ ظنًّا يَحْمِلُهم على النَّظر والتَّفكُّر، ويَبْعَثُهُم على الاحتياط لأنفُسِهم، فيكفّوا عن الظُّلم، ويستعدّوا ليوم الحساب[1]؟.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يومُ البَعْثِ حسابٌ وجزاءٌ على ظُلْمِ العبيدِ واقترافِ الفسادِ الشَّديد

خاطَبت الآياتُ الكريماتُ المُطَفّفين بتَوْبيخِهم على ما يَقْتَرِفونَهُ مِن شنيع الأفعال: ألا يوقن هؤلاء بأنَّهم سيُبعثون من قُبورِهم بعدَ موتِهم، فيُحشرون ليوم عظيم الخَطْبِ، شديد الأهوال، يقِفُ فيه النّاس خاشعينَ خاضِعينَ بَيْنَ يَدَي اللهِ ربِّ العالمين؛ ليَقْضيَ بينَهُم بالعدل، فيُجازي كُلًّا بما كسبَت يداه[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّة فصل الجُملة عن الكلام السّابق:

الاستئنافُ لتَكْميلِ التَّهديدِ وبيانِ فظاعةِ جُرْمِ المُطَفِّفين

فُصِلت جملةُ: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾، عمّا قبلها لاختلافِ الأُسْلوبَيْن، فالسّياقُ السّابق خبريٌّ في قوله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾، أمّا هذه الجُملة؛ فهي إنشائيَّة خرجت مخرجَ الاستفهامِ التَّوبيخيِّ والإنكارِ الشَّديد، وقد جاء هذا الاستئنافُ؛ لتكميلِ التَّهديدِ وبيانِ فظاعةِ جرمِ المطفّفين؛ إذِ انتَقَلَ الخطابُ من وصفِ فِعْلِهم المُشين إلى تَقْريعهم وتهويلِ ما أقدموا عليه، وكأنَّ الآية تُعرب عن العجَبِ من جُرأتهم على الظُّلم، غافلين عن يوم يُبعث فيه النّاسُ لربِّ العالمين للحساب والجزاء[3].

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 254.

(2) ابن عطيّة الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 5/ 450، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 254، والبقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 315 - 316، والعثيمين، تفسير ابن عثيمين - جزء عم، ص: 93.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 125، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 192.

بلاغَةُ الاستِفْهامِ وغَرَضُهُ:

إيقاظُ القُلوب الغافِلَةِ بأُسْلوبٍ يَحْمِلُ التَّوبيخ والتَّحريض معًا

جاء قولُه تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾ في أبلغ أسلوبٍ يوقِظُ القلوب الغافلة، ويَقْرَعُ الأسماعَ بالتَّوبيخ والإنذار معًا، فدُخولُ الهَمْزَةِ على النَّفي يدلُّ على أنَّ التَّركيب استفهامٌ إنكاريّ تَعَجُّبيٌّ، فليست ﴿أَلَا﴾ هذه الاستفتاحيَّة[1]، فهو استفهامٌ خرجَ عن معناهُ الحقيقيِّ إلى الإنكارِ والتَّعجُّب من حالهم؛ إذ كيف يَجْرُؤون على هذا الظُّلم والتَّطفيف، وكأنّهم لا يَخْطُرُ ببالِهم أنّهم سَيُبْعَثون، ويُحاسَبون[2]؟ فالاستفهام إنكاريٌّ تعجيبيٌّ، بحَيثُ يَسألُ السّائلُ عن عِلمِهم بالبَعثِ، كأنَّهم لا يَخطُرُ ببالِهم، ولا يُخمِّنون تَخْميناً أنَّهم مَبْعوثونَ، ومُحاسَبون على مِقدارِ الذَّرَّةِ والخَرْدَلةِ[3].

نكتة استعمالِ مُفْرَدَةِ الظَّنِّ دون اليقين:

أقلُّ ظنٍّ بالبعث كفيلٌ بردْعِ العاقِلِ عن التَّطفيفِ

إن أُخذ الظَّنُّ في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾ على معنى العِلْم؛ كان الخطابُ موجَّهًا إلى المؤمنين، وجاء الاستفهامُ حينئذٍ للتَّعجُّب من حالهم؛ إذ كيف يَجْتَرِئ مَن أيقَنَ بالبَعْثِ والجزاء على ارتكاب هذا الذَّنب العظيم، وهو التَّطفيف في الكيل والميزان؟ "ويَرْجِعُ الإنكار والتَّعجيب من ذلك إلى إنكارِ ما سيقَ هَذا لأجله، وهو فِعْلُ التَّطفيف"[4].

وإن أُريد بِهِ الشَّكُّ؛ فالمَعْنى أنّ هؤلاء المطفِّفين لم يتيقّنوا بالبعث، فجاءَ الاستفهام إنكاريًّا يوبّخ غَفْلَتَهم، ويُنكر عليهم إعراضَهم عن يوم لا رَيْبَ فيه، وعلى كلا الوَجْهَيْن، فالمقصودُ تنبيهُ النُّفوس الغافلة ورَدْعُها، سواءٌ أكانت مؤمنةً ضعُف يقينُها، أمْ كافرةً أنكرَت المعادَ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 277.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 254.
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 720، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 294، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 192، والدَّرويش، إعراب القرآن: 10/ 410.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 192.

وقد رجّح الفخر الرّازيُّ أنّ الخطاب في الآية موجَّهٌ إلى المُؤْمنين؛ لأنّ الوعيدَ لا يكون إلّا لِمَن يعترِفُ بالبَعْثِ، ثُمّ يُخالِفُ مُقْتَضاه، فالمقامُ مقامُ تعجّبٍ وتوبيخٍ لا مجرّد إنكار، فالمعنى: أَيَعْقَل أن يؤمنوا بالبعث، ثُمَّ يَجْرُؤوا على هذا الظُّلم؟.

واستعمالُ لفظ (الظَّنّ) دون (اليقين) في هذا السّياق يحمِلُ لطيفةً بلاغيةً بديعة؛ إذ يُشير إلى أنَّ أدنى تذكُّرٍ أو ظنٍّ بالبعث كفيلٌ بأن يردع العاقل عن التَّطفيف، فكيف لو استيقن به حقَّ اليقين؟ فالواجب على العاقل أن يُرسِّخ في قلبه اليقين بالبعث والجزاء؛ إذ قَد تظاهرت الأدلَّة النَّقليَّةُ والعقليَّة على ثُبوته، فلا يبقى لمتردّدٍ فيه عذرٌ، ويَنْبَغي له أن يَحْذَر الجرأةَ على الذُّنوب التي تورِث الخِزْيَ والعار يوم يقومُ النّاس لربِّ العالمين، فإنْ عَجَزَ عن بلوغ مرتبة اليقين الكاملِ؛ فلا أقلَّ من أن يَظُنَّ البَعْثَ ظنًّا راجحًا يَرْدَعُهُ عن المعاصي، ويزجره عن التَّطفيف وسائر الظُّلم[1].

دلالَةُ التَّعبير بصيغَةِ المُضارعِ:

الحثُّ على الظَّنِّ الحقِّ الموصِلِ إلى الحقِّ الواضحِ

جاء فعل ﴿يَظُنُّ﴾ بصيغة المُضارع بعدَ الاستفهام الإنكاريِّ؛ للحثّ على استمرارِ الظّنِّ الحقِّ بيوم البعث، فإنَّ الإنكارَ أو التَّعجُّب واقعٌ على عدم الظّنِّ أو ضعفه، فدلَّ على إرادة أن يتحلّى المخاطَبون بالظَّنِّ الجازم، الموصل إلى الحقِّ الواضح في شأن البَعْثِ، الذي من مُقْتَضاه تركُ التّطفيف جملةً وتفصيلًا، والعمل بما تَقْتَضيه الشَّريعة وأحكامُها.

نكتَةُ إيثارِ اسمِ الإشارة على الإضْمارِ:

تمييزُ المُطَفّفين والتّشهير بذِكْرِهم في مَقام الذَّمِّ ردعٌ وتوبيخٌ

آثَرَ النَّظْمُ الكَريم استِعْمالَ اسم الإشارةِ دونَ الضَّمير في قولِه تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾، فلم يَقُل: (ألا يظنّون)؛ للإشعار

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 84، ومحيي الدّين زاده، حاشية محيي الدّين شيخ زاده على تفسير البيضاوي: 8/ 537، والضمدي، الفرات النَّمير: 3/ 409.

بمناط الحُكم الذي هو وصْفُهم، فإنَّ الإشارةَ إلى الشَّيء مُتَعَرِّضة لهُ من حيث اتِّصافه بوصفه، وللإيذان بأنَّهم مُمْتازون بذلك الوصف القبيح عن سائر النّاس أكملَ امْتيازٍ، نازلون منزلةَ الأمورِ المُشار إليها إشارةً حسّيَّة، وما فيه من معنى البُعْدِ للإشعار ببُعْدِ دَرَجَتِهم الشَّنيع في الشَّرارةِ والفَسادِ[1]، فالإشارة إليهم لقَصد تمييزهم وتشهير ذِكْرِهم في مقام الذَّمِّ، ولأنَّ الإشارةَ إليهم بعدَ وصْفِهم بالمُطَفِّفين تُؤْذِنُ بأنَّ الوصفَ ملحوظٌ في الإشارة فيُشْعِرُ بتعليل الإنكارِ.

بلاغَةُ التَّوكيد في الجُملة:

تأكيدُ تحقُّق البعثِ تَهْديدٌ لسُلوكِ المُطَفِّفين

جاء التَّعبير بقوله تعالى: ﴿أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾ مؤكَّدًا بحرفِ (أنّ) الذي يُفيد التَّوكيد، ودَخَلَ على جملةٍ اسميَّة؛ لِتَدُلَّ على الثُّبوت والاستقرار، فيَغْدو معنى البَعْث والحساب أمرًا مُحَقَّقًا لا ريبَ فيه، كيف لا وقَد قامَت على البعثِ البراهينُ القَطْعيّة[2]، وهذا الأسلوب البلاغيُّ يَحْمِلُ في طيّاته تهديدًا قوّيًّا وتنبيهًا بالغًا لهؤلاء المُطَفِّفين، حتَّى يُدركوا أنَّ الحسابَ واقِعٌ لا محالة، فيَنْزَجِروا عن فِعْلِهم القبيح، فالجُملة جاءت في هذا السّياق؛ لتقرِّر يقينَ البعثِ وثباتَه، وتؤكِّد أنَّ الجزاء بَيْنَ يَدَيِ اللّه تَعالى حقيقة ثابتة تستوجِب الخوفَ والاتِّعاظ.

دلالة ذِكْرِ البَعْثِ في مقام الوعيد:

الإيمانُ بالبعث معيارٌ رَقابيٌّ ضابِطٌ لسُلوك الإنسان

دلَّ ذِكْرُ البعث في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾ على أنَّ إنكارَ البعثِ أو الارتياب فيه أو عدمَ استحضارِ الإيمان به أصلُ الفسادِ ومصدرُ الانحراف، فمَنْ لم يوقن بالحِساب بحيثُ يكون رقيبًا عليه في سُلوكِه؛ تجرّأ على المعاصي، واستخفّ بحقوق

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 125، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 192، 193.

(2) الميداني، معارج التَّفكُّر ودقائق التدبر: 15/ 318، والمكي، المعين على تدبر الكتاب المبين، ص: 587.

الخلقِ، فالإيمان باليوم الآخر هو الضَّمان الحقيقيُّ لصلاح العمَلِ واستقامة السُّلوك؛ لأنَّه يربِطُ الإنسانَ برقابة اللّه تَعالى وجَزائه، فالتَّصديق بالبعث هو الباعث لِكُلِّ خير، والحاجز المنيع أمام كُلِّ شرٍّ، ومنه تكون الأعمال الصّالحة التي تزكّي النَّفس، وتُهذِّب المُجْتَمعَ(1).

نوعُ اللّام وفائِدَتُها:

إدماجُ الرَّدِّ على شُبْهَةِ المُنكِرين

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ هي لام التَّوقيتِ، مثل قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ [الإسراء: 78]، وفائدة لام التَّوقيت إدماجُ الرَّدِّ على شُبْهَتِهم الحاملة لهم على إنكار البعث باعتقادهم أنَّه لو كان بعثٌ؛ لبُعِثَت أمواتُ القرون الغابرة، فأوْمَأ قولُه: ﴿لِيَوۡمٍ﴾ أنَّ للبعث وقتًا مُعَيّنًا يقع عندَه لا قَبْلَه(2).

غرَضُ تنكير لفظ (يوم):

في قولِهِ تَعالى: ﴿لِيَوۡمٍ﴾، أي: عظيم شأنُه، شديدةٍ أهوالُه(3)، فجاء تنكيرُ لَفْظِ (يوم)؛ للدّلالة على عِظَم شأنه وكثرة أهواله وفزعِهِ الشَّديد وجلال أمْرِه(4).

بلاغَةُ المَجاز العقليِّ:

وَصْفُ الزَّمن باعتبار ما فيهِ مِن أحداثٍ ووقائِعَ

في قولِهِ تعالى: ﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ إذ نُسبت العظمَةُ إلى اليوم، فاليوم نفسُه لا يَعْظُم، والعظمة لِما فيه مِن الأهوال والشَّدائد، فأُسْنِدَت العظمةُ إلى الزَّمن، وهي مسندَةٌ إلى الأهوالِ الشَّديدة، فالموصوفُ على التَّحقيق بالعظمَةِ الأهوالُ والأحداث والوقائع لا ذاتُ الزَّمن، فالزَّمن عنصرٌ مجرّد من الوصف، والموصوفُ إنَّما هوَ ما فيه من خيرٍ أو شرٍّ.

---

(1) عطيّة سالم، تتمة أضواء البيان: 8/ 471.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 193.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 254، والبقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 316، والعثيمين، تفسير ابن عثيمين - جزء عم، ص: 95.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 347.

دلالَةُ التَّعبير بصيغَةِ (فعيل):

جاء وصف ﴿عَظِيمٍ﴾ بصيغة فعيل، وهي صفةٌ مشبَّهةٌ، تدلُّ على شِدَّة العظَمَةِ وملازَمَتِها والفزعِ الذي يكون في هذا اليوم، فتؤكِّد هذه الصّيغةُ على ضخامَةِ شأنِهِ وهَوْلِ ما فيه مِن أحوالٍ.

براعَةُ استِعمالِ مُفْرَدَةِ ﴿يَقُومُ﴾:

القيامُ يَشْمَلُ قيامَ النّاس مِن قُبورِهِم للحِساب والشَّهادَةِ

جاء التَّعبير بمُفْرَدة ﴿يَقُومُ﴾؛ وذلك للدّلالة على مجموعةٍ من المعاني المقصودة، وهي الإيماء إلى الاسم العَلَم يوم القيامة؛ لِما يشتَمِلُ عليه من قيام النّاس مِن قُبورِهم للّه ﷻ، والإيماء إلى أنَّه يُقام فيه العدل، فهم يقومون من قبورهم؛ ليُحاسبوا، ويَأْخُذَ كلٌّ منهُم جزاءَه، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [الأنبياء: 47]، ويقومُ فيه الأشهادُ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾ [غافر: 51]، أي: قيام الرُّسل بَيْنَ يَدي اللّه تَعالى للقضاء.

فائدةُ التَّعبير بصيغَةِ المُضارع:

استحضارُ المَشْهَد المهيب يومَ العَرْضِ العظيم

جاء التَّعبيرُ بالفعل المُضارع ﴿يَقُومُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لاستحضار صورة المشهد الرَّهيب رأيَ العين، فيرى النّاس، وقَد انتُزعوا من قُبورِهم يَقِفون خاشعين أذلاءَ، شاخصةً أبصارُهم، ينتظرون الحسابَ والجزاء، وكأنَّ ذلك الخائنَ النّاقِصَ في الكَيلِ والوَزنِ يُنادى به، ويُفْتَضح على رُؤوس الأشهادِ يومَ القيامةِ، وفَضيحةُ القيامةِ ليست كفَضيحةِ الدُّنيا[1]، فصيغة المُضارع تُجسِّد الحدَثَ في حال وُقوعِه، وتُضْفي عليه حياةً وحركَةً، فيَبْدو الموقِفُ ماثلًا أمامَ السَّمْعِ والبَصَر، بكلِّ ما فيه من رهبةٍ وخُضوعٍ وانكِسارٍ.

(1) الشِّنقيطي، العذب النَّمير: 2/ 515، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 193.

مَعْنى تعريفِ لَفْظِ ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

استغراقُ جميعِ الخَلْقِ في البعثِ والحِسابِ

اللّام في لفظ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ لاستغراق جميعِ الخَلْقِ، فهو يَشْمَلُ أهلَ السَّعادة وأهل الشَّقاء لا يخرج منهم أحَدٌ، فالجميعُ سَيَقِفُ في ذلك اليومِ العظيم بين يَدَيِ اللّه تعالى، ويُحاسَب فيه كلٌّ على عمله، ويُجْزى بما قدمَت يداهُ.

دلالَةُ إظهار لفظ ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

دفـعُ تَـوَهُّـم إرادة خُـصوصِ الـمُـطـفـفـين بالخطابِ

آثر النَّظم الكريم إظهارَ لفظِ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾ دون الإضمار، فلم يقل: (يوم يقومون)؛ وذلك لتعظيم الموقف، وتعميم الوعيد، والتّأكيد على شُمول البَعْثِ لكلِّ الخلق، ودَفْعِ توَهُّم أنَّ التّهديد مقتصرٌ على المُطَفّفين، فهو إلحاقُ المُطَفّفين بالنّاس دونَ العَكْسِ.

نوعُ اللّام ودلالتُها:

وقـوفُ الخلائق لـربِّ الـعـالمين وقـوفَ إجـلالٍ وحسابٍ

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِرَبِّ﴾ للأجْلِ، أي: يقومون لأجل ربوبيَّته وحُكْمِه وتدبيره[1]، والمقصود أنَّ اللّه تعالى يجمع النّاس في ذلك اليوم العظيم؛ ليُظهِر حكمته البالغَة، فيتبيَّن للخَلْقِ جلالُ ربِّهم وعظمَتُه، وأنَّه لم يَخْلُقْهُم عبثًا، بل خلَقَهُم لأمر عظيم؛ ليَأْتَمِروا بأوامِره، ويَنْزَجِروا عن نواهيه؛ لأنَّهم موقوفون للحساب على ما قدَّموا، وتَلَقّي حُكْمِه الذي لا يستطيعون الفرارَ منهُ[2].

فائدَةُ التَّعبير بعنوانِ الرُّبوبيَّة دون الألوهيَّة:

التَّذكيرُ بفَضْلِ اللّه تَعالى على العباد، والتَّنبيهُ على أنّ فضْلَه ظـاهِـرٌ في ذلك الـيـومِ لإعـادة الحقوقِ

اختار النَّظمُ الكريم عنوان الرُّبوبيَّة دون الألوهيَّة، فلم يقل: (يوم يقوم النّاس للّه)؛ لأنَّ الرَّبَّ هو المالك المُتصرِّف، والمُربّي القائم على شُؤون خلقه، وهو الذي يتفضَّل عليهم بالنِّعم، ويُصلح أحوالَهُم، ويقوم بتَدْبير أمْرِهِم، فكان الأنسَب في مقام الحِساب

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 193.
(2) الطَّنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 320.

والجزاء أن يُذكَر اسم الرُّبوبيّة الدّالّ على الملك والتّربية؛ تذكيرًا لهم بفَضْلِه عليهم؛ إذْ يَقْتَضي إيفاءَ كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، وإقامة العدلِ بينَ الخلائق[1].

وفائدَةُ ذِكْرِ الرُّبوبيَّة الرّدُّ على سؤالِ سائلٍ: كيف يكونُ هذا الوعيد الشَّديد على التَّطفيف، وهو ذَنْبٌ يسير في ظاهره، وربّنا واسع الرَّحمة كريم الإنعام؟ فجاءت الإشارة بقولِه: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لتبيّن أنّه سبحانه ربّهم ومُصْلِحُ شأنِهم، فلا يليق بجلال ربوبيَّته أن يُهْمِلَ شيئًا من حُقوق عباده، ولو كان في أدقّ الموازين وأصْغَر المَكاييل[2]، فلا يَمتَنِعُ عليه الظّالمُ القَويُّ، ولا يَترُكُ حَقَّ المَظلومِ الضَّعيف[3].

دلالَةُ إضافَةِ الرُّبوبيّة إلى لَفْظِ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

الدّلالةُ على مجازاةِ المُعْتَدين ومحاسَبَتِهم نُصرةً للمَظْلومِ

الإضافَةُ في قوله تعالى: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بمعنى اللّام، فهو ربُّهم الذي خَلَقَهُم، وربّاهم، ورزقهم، ويحمِلُ في طيّاته بيانًا بليغًا؛ لِعظَم الذَّنب وشناعة الإثم في التَّطفيف؛ إذ يُذَكّر العباد بأنّهم واقِعون تحتَ سُلْطانِ ربِّ كلّ العوالم، المطّلع على دقائق الأعمال، لا يخفى عليه مثقالُ ذرَّة، فهو ربٌّ لهم، جديرٌ بالانتقام من كلّ ظالم، ولو كان تطفيفًا فيما يظنّه النّاس قليلًا، وهو عندَ اللّه تَعالى عظيم؛ لتَجاوُزِ بعضِ الخَلْقِ على بَعْضِهِم الآخر، واللّه تَعالى ينتصِر لعباده المظلومين؛ لأنّه ربُّهم، فانتقامه مِن الظّالم نُصرةٌ للمظلوم.

مَعْنى تعريفِ لَفْظِ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

إظهارُ عظمَةِ الرَّبّ ﷻ وسعَةِ سُلْطانِه وربوبيَّته

اللّام في ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ للاستغراق[4]، أي: شمول جميع العوالم التي خَلَقَها اللّه سُبْحانَه، فيدخل فيها الإنسُ والجنُّ وسائرُ

(1) المهائمي، تفسير المهائمي: 3/ 516.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 85، وابن عادل، اللّباب: 20/ 210.
(3) الطّيبي، فتوح الغيب: 16/ 341، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 193.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 193.

المخلوقات، وهذا الاستغراق يُبرز عظمةَ الرَّبّ ﷻ، ويُظهر سَعَةَ سُلْطانِهِ وربوبيَّته، التي عمّت كلَّ موجودٍ، فلا يَخْرُجِ عن مُلْكِه شيءٌ، ولا يَنِدُّ عَن عِلْمِه مخلوقٌ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الظَّنّ والشَّكّ:

الشَّكُّ استواءُ طَرَفَيِ المَشْكوكِ فيه، والظَّنُّ رُجحانُ أحَدِهِما وتقويَتُه

الظَّنُّ: هو الاعتقاد الرّاجح مع احتمال النَّقيض، ويُستعمَل في اليقين والشَّكِّ، وقيل: الظَّنُّ: أحدُ طَرَفَيِ الشَّكِّ بصفة الرُّجحان[1]، فيكون الظَّنُّ يَقينًا، ويكون شكًّا، وهو من الأضداد، كالرَّجاء يكون أمنًا وخوفًا[2].

أمّا الشَّكّ؛ فهوَ اجتِماع شَيئَينِ في الضَّمير، فهو استِواءُ طَرَفَي التَّجويز، وأصل الشَّكِّ في العَرَبيَّة من قَوْلك: شَككتُ الشَّيءَ؛ إذا جمعتَه بشَيْء تُدْخِلُه فيه، بخلاف الظَّنِّ فإنَّه رُجْحان أحد طَرفي التَّجويز، والشّاكُّ يُجَوِّزُ كَونَ ما شكّ فيهِ على إحْدى الصّفتين؛ لأنَّهُ لا دَليل هُناكَ ولا أمارَة، فالظَّن فيه قوَّة المَعْنى في النَّفس، ولَيْسَ كَذلِك الشَّك الذي هوَ وقوفٌ بَين النَّقيضَيْنِ من غير تَقْوِيَة أحَدِهما على الآخَرِ[3].

(1) الفيومي، المصباح المنير: 2/ 386، والجرجاني، التَّعريفات، ص: 144.
(2) الكفوي، الكليات، ص: 593.
(3) أبو هلال العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 98 - 99.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ٧ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٩ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣﴾ [المطففين: 7 - 13]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ مِن بيان أهمّيّة الإيمانِ بالبَعْثِ إلى أثَرِ الكُفْرِ به

لَمّا بيّنت الآيات السّابقة خطورةَ عدمِ اليقين بيوم البعث، وما يجرُّ إليه من ذنوبٍ عظيمة تضرُّ الفرد والمجتمع المسلم على السّواء، بعد ذِكْرِ ضَرَرِ التّطفيف في قلب الموازين والمعايير، ونَشْرِ الظُّلم دونَ وجود معارض له، بل يُمارَس على النّاس، وهُم في غاية الاستسلام؛ لِما يَفْرِضُه المطفِّفون من وسائلَ وأدواتٍ متّفق عليها؛ ناسب بعد ذلك رَدْعُ الظّالمين وزجرُهم بإخبارهم بما يكونُ يومَ الدّين، مِن الحساب الشَّديد والعقاب العادِلِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سِجِّينٖ﴾: على وزنِ فِعّيلٍ مِن مادَّةِ السّجْنِ، وأصلُ (سجن): يدُلُّ على حَبسٍ، يُقالُ: سَجَنْتُهُ سجْنًا، والسِّجْنُ: المَكانُ يُسْجَنُ فيهِ الإنْسانُ[1]، والسِّجّين في الآية: اسمٌ للأرضِ السّابعةِ السُّفلى، وقيل: اسمٌ لجهنَّمَ، بإزاءِ عِلّيّينَ، سُمّيَ ذلك المكانُ سِجّينًا؛ لأنّه أشَدُّ الحَبسِ لِمَن فيه، فلا يفارِقُه[2]، وهو مشتَقٌّ من السّجنِ بمعنى الحَبسِ؛ لأنَّه سببُ الحبسِ والتَّضييقِ في جهنَّمَ، أو لأنَّه مطروحٌ في مكانِ الهَوانِ والعذابِ كالسّجنِ[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سجن).

(2) السجستاني، غريب القرآن، ص: 282، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 195.

(3) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 461.

2) ﴿مَّرۡقُومٞ﴾: الرَّقْمُ: تعجيمُ الكِتاب، وكتاب مَرْقومٌ: بُيِّنت حروفُهُ بالتَّنقيط[1]، وأصلُ (رقم): يدُلُّ على خَطٍّ وكِتابةٍ وما أشبهَ ذلك[2]، وكلُّ ثوبٍ وُشّي؛ فهوَ مرقومٌ، يُقال: رَقَمْتُ الثَّوبَ أرقُمه رَقْمًا، وكلُّ نَقْشٍ رَقْم، وبه سُمّي الأَرْقَم من الحيّات للنَّقش في ظَهره[3]، والمعنى هنا: مَكتوبٌ كِتابةً بَيِّنةً تُشبهُ الرَّقْمَ في الثَّوبِ المَنسوجِ[4].

3) ﴿أَثِيمٍ﴾: صيغةُ مُبالغةٍ من اسم الفاعل: آثِم، وأصلُ معناه: البُطءُ والتَّأخُّرُ، ومنه: ناقةٌ آثمةٌ، أيْ: متأخِّرَةٌ لِحملِها الثَّقيل، والإثمُ: الذَّنبُ، وهو مشتقٌّ منْ ذلكَ؛ لأنَّ ذا الإثم بَطيءٌ عنِ الخيرِ، متَأخِّرٌ عنهُ، وكأنَّ الذُّنوبَ الَّتي يقترفُها الأثيمُ ينوءُ بها حَمْلًا، وقد أَثِمَ الرَّجلُ - بالكسْرِ - إثمًا ومَأْثَمًا؛ إذا وقعَ في الإثم، فهو آثِمٌ وأثيمٌ، والأثيمُ: هو المُنْهَمِكُ في الذُّنوبِ، ولا يقلعُ عنها[5]، والمعنى هنا: كثيرُ الإثمِ، مُتجاوِزٌ في الظُّلمِ، مُتمادٍ في الكُفرِ[6].

4) ﴿أَسَٰطِيرُ﴾: جمعُ أسطورةٍ، من سطرَ، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصطِفافِ شَيءٍ[7]، وكلُّ شيءٍ اصطفَّ بانضباط، والسَّطرُ: الخطُّ والكتابةُ، وأمّا الأساطيرُ؛ فهي الكتابةُ المسطورةُ، ولمّا كانت أخبارًا مكتوبةً عن الأقدمينَ غابتْ شواهدُها الواقعةُ، وخفيتْ حقائقُها على الحاضرين؛ تَشكَّكوا فيها، فلَصِق بمعنى اللَّفظِ معنى الارتيابِ، وقالوا: الأساطيرُ: الأباطيلُ، فكأنَّها أشياءُ كُتِبَت من الباطِلِ، فصارَ ذلك اسمًا لها، مخصوصًا بها، يقالُ: سطَّر فلانٌ علينا تسطيرًا؛ إذا جاء بأحاديث تشبهُ الباطلَ، فهو يؤلِّفُ ما لا أصلَ له[8]، فمعنى الأساطيرِ هنا: ما سطَّرهُ الأوَّلونَ، وكتبوهُ من أخبارِ الأممِ التي لا تَصِحّ وقصصهِم وأحاديثِهم وكذبِهم[9].

(1) الخليل، العين: (رقم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رقم).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (رقم).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 196.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أثم)، والآلوسي، روح المعاني: 5/ 141.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 197، والقنوجي، فتح البيان: 15/ 130.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سطر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سطر).
(9) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 87، والجزائري، أيسر التَّفاسير: 5/ 535.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الوعيدُ الإلهيُّ للفُجّار والمكذّبين وتفصيلُ أحكامِه

تُبيِّن الآياتُ الكريمةُ في مقام الوعيد والتَّهديد: أنَّ صحيفةَ أعمالِ الفُجّار - من المطفِّفين وسائر العُصاة - مودَعةٌ في موضعٍ سُفليٍّ ضيِّقٍ من الأرض السّابعة، يُقال له: سِجّين، وقد حُبِست فيه صحائفُ أعمالهم وأُحكم إغلاقُها، دلالةً على شدّة الخِزْي والحرمان، وما أدراك - يا أيُّها الرَّسولُ الكريمُ - ما حقيقةُ هذا السِّجّين الذي أُثبِت فيه كتابُ الفجّار؟ إنَّه كتابٌ مكتوبٌ مسطّرٌ، قد أُحْصيَت فيه أعمالُهُم بلا زيادةٍ ولا نُقْصانٍ[1].

ثُمَّ يتوعّد اللّه سُبحانه هؤلاء، فيقول: عذابٌ شديدٌ وهلاكٌ مبينٌ يوم القيامة للمكذّبين، الذين أنكروا يوم الحسابِ والجزاء، وجَحَدوا البَعْثَ والنُّشور[2]، ثُمَّ يُفصّل أوصافَهُم، فيقول: لا يُكذِّب بيوم الدّين إلّا مَن تَمادى في العُدْوان، وغَرِق في الآثام، وتجاوزَ حدودَ اللّه تَعالى، واسْتَمْرَأ العصيان، فإذا تُلِيَت عليهِ آياتُ القرآنِ البيِّنات؛ أعرضَ عنها استهزاءً وسخريةً، وقال متقوِّلًا: تلك أخبارُ الأوَّلين وخرافاتُهم التي دوِّنَت في كتُبِهِم[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالَةُ فصْلِ الجُمْلَةِ عن سابِقَتِها:

التّعريض بكتابةِ عَمَلِ المطفّفين في كتابِ الفجّار

قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ بمُناسبَةِ ذِكْرِ يوم القيامة، وهو تعريضٌ بالتَّهديد للمُطَفّفين بأن يكونَ عملُهُم موجبًا كَتْبَهُ في كتاب الفجّار، وهو جَوابٌ عمّا تَقدَّمَ لِما تَضمَّنَتْه جُملةُ: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ من التَّعجيبِ مِن

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 258، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 350.

(2) ابن عطيَّة الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 5/ 451، والعثيمين، تفسير ابن عثيمين - جزء عم، ص: 98.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 350، والسِّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 915، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 198.

فِعلِهم التَّطفيفَ، وكذا الغفلةُ عن البعثِ والحِسابِ، والمَعنى: كَلّا بل هم مَبْعوثون لذلك اليَومِ العَظيمِ، ولتَلَقّي قَضاءِ رَبِّ العالَمينَ[1].

بلاغَةُ استِعْمالِ الأداة ﴿كَلَّآ﴾:

جاءت لفظة ﴿كَلَّآ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾ أداةً تَحْمِلُ في طيّها الرَّدعَ والزَّجرَ؛ إذْ جاءت لتَصْرِفَ السّامع عن غفلته، وتردّه عن باطله، وتوقظه من سُباته، وفي معنى لفظ ﴿كَلَّآ﴾ تحقيقٌ وتوكيد، ويَحْتَمِلُ أن تكون بمعنى: حقًّا إنّ كتابَ الفُجّار لَفي سِجّين[2]، وهو معنًى متحقِّقٌ بالمآل، ففي هذا الموضِعِ الشَّريف، كان استعمالُها زجرًا للمطفّفين عمّا اقترفوه من بَخْسٍ وتطفيفٍ وغفلةٍ عن يوم الحسابِ، وتنبيهًا لَهُم إلى أنَّ ما هُم عليهِ ممّا يَجِبُ الإقلاع عنهُ والتَّوبة منه، فجاءت الكلمةُ نذيرَ يَقَظَةٍ بعدَ طول غَفْلَة، وصيحة رَدْعٍ تُعيد القلبَ إلى وعيهِ.

عـنـد تـمكُّـن الـغـفـلـةِ من أصحابها يحسُنُ الـزّجـر والـرَّدع بما يوقِظُهُم من سُباتِهم

بلاغَةُ التَّوكيد وغرَضُهُ:

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾ بالحرفِ ﴿إِنَّ﴾، والجُملة الاسميَّة، ودخولِ اللّام في الخبر، وكلُّ ذلك لتقوية المعنى وتثبيت مضمون الوعيد، فالتَّوكيد هُنا يُبرز شِدّة التَّهديد للمطفِّفين، ويُشعر بأنّ أعمالَهُم قد ثُبِّتت في سِجلّات الفجّار، وهذا يجعل السّامع يَسْتَيْقِنُ حقيقةَ الوَعيد، فلا يَبْقى للغَفْلَة أو الشَّكِّ سبيل، فإذا كان الخطابُ للمُنْكِرين؛ فعلى حقيقَتِه، أو للمتشكِّكين؛ فلِتَنْزيلِهِم منزلة المنكرين؛ إذِ الغفلة عن الحقِّ المبين مع تَجاوُزِ حُقوق العالمين، موقعٌ في الإثم المبين.

الـغـفـلـةُ عـن الـحـقِّ وتـجـاوزُ حـقـوقِ الخلق مـوقِـعٌ في إثـم الفاجِرين

دلالَةُ استعمالِ مُفْرَدَةِ ﴿كِتَٰبَ﴾:

آثر النّظمُ الكريمُ استعمالَ مُفْرَدَةِ ﴿كِتَٰبَ﴾ في قولهِ تَعالى:

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 194.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 86، والثَّعلبي، الكشف والبيان: 10/ 151.

الضَّبط والإحكامُ والتَّوثيق قرائِنُ إقامَةِ العَدْلِ بين الخلائقِ

﴿كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ﴾ دون الصّحف ونحوِها؛ لِما فيها من الدّلالة على الضَّبط والإحكام والتَّوثيق؛ إذْ يُراد بها ما كَتَبَتْهُ الملائكةُ الحفَظَةُ مِن أعمالِ الفُجّار في سِجلٍّ لا يُغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها، فقد حُصِرَت فيهِ أعمالُهُم من كفرٍ وظلمٍ وتطفيفٍ في الميزان، وقد سُجّلت عليهم في ديوانِ الشَّرّ الذي يكون سبب هَلاكِهم ومآلهم إلى دركاتِ الجَحيم[1]، فإيحاءُ المُفْرَدَةِ عظيمٌ، في كونِ المَكْتوبِ أمرٌ ثابتٌ لا يُغادِر موضعَ الكِتابة، وهو توثيقٌ عظيمٌ للجزاءِ العادِلِ.

بلاغَةُ الكِنايَةِ ودلالَتُها:

الإيماءُ إلى إحاطَةِ العِلْمِ الإلهيِّ بأعمال المُطَفّفين تعريضٌ بأعمالهم النّاقصةِ

يُراد بلفظ (الكتاب): المكتوبُ أو الصّحيفة التي تُدوَّن فيها الأعمال، غيرَ أنّه يَحْمِلُ في طيّاته كنايةً بليغةً عن إحصاءِ أعمالِ الفُجّار ومُحاسَبَتِهم وتوقيفهم عليها يومَ القيامَةِ، ففي الكنايةِ إيماءٌ إلى إحاطَةِ العِلْمِ الإلهيِّ التّامّ بما اقْتَرفوهُ ومواجَهَتِهم بما سُجِّل عليهم من الذُّنوب والسَّيّئات[2]، مع الإيماء إلى أنَّ أعمال المطفّفين لم تَتَّسِم بالدّقَّة في إعطاء الحقوق لأصحابِها في الدُّنيا، لكنَّ كتابَهُم في الآخرة سَتُجْمَعُ فيهِ جميعُ الأعمال بدقَّة وكمالٍ، وسيكون كاملًا، لا كأعمالِهم النّاقصة، فهو تعريضٌ وتهديدٌ باستِقصاءِ جميعِ الأعمال مَهْما دقّت، أو قَلَّتْ.

دلالةُ إضافة الكتابِ إلى لفظِ ﴿ٱلۡفُجَّارِ﴾:

كتابُ الفجّارِ لَهُم لا لغيرِهم، فلا ظلمَ ولا بخس

آثر النَّظم الكريم إظهارَ لَفْظِ ﴿ٱلۡفُجَّارِ﴾، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ﴾ للتّعميم والتَّوكيد؛ إذ لم يقل: إنَّ كتابَهم، بل أضافَهُ إلى وصف ﴿ٱلۡفُجَّارِ﴾، والإضافة بمعنى اللّام، فهو كتابٌ لهُم لا لغَيْرِهم، فلا ظُلْمَ ولا بخس، وهو تعريضٌ بهم؛ إذْ نَهَبوا حقوق الآخرين، ووَضعوها في حَوْزَتِهم، وفائدة إظهارِ لَفْظِ ﴿ٱلۡفُجَّارِ﴾

(1) المظهري، التَّفسير المظهري: 10/ 219، والطنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 321.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 195.

تعليقُ الحُكْم بالصِّفة لا بالأشخاص، فيشمل كُلَّ من اتَّصف بالفجور، أيًّا كان زمانُه أو مكانه، وبذلك جاءت الإضافةُ لإبراز العِلَّة في استحقاقِ الوعيد، ولتدلَّ على شمولِ الحُكْمِ واتّساعه لِكُلِّ فاجرٍ مُنكرٍ ليوم الدّين[1].

مَعْنى تعريفِ لَفْظِ ﴿ٱلْفُجَّارِ﴾:

كلُّ فاجرٍ داخلٌ في عمومِ الحُكْمِ الوعيديّ، وعلى رأسِهم المُطَفّفون

تعريف لفظ ﴿ٱلْفُجَّارِ﴾ يُراد به الاستغراقُ والشُّمول، فيعمّ جميعَ الفجّار المطفِّفين وغيرهم، وقد دلّ العمومُ على أنّ الوعيد الإلهيَّ موجَّهٌ إلى جميع الفجّار، مع كون المطفّفين هم المقصودين ابتداءً من هذا التَّهديد؛ لأنَّ ذِكْرَ الوصفِ والوعيد عَقِبَ النَّهي عن التّطفيف يُعدُّ قرينةً بيانيَّةً على أنّ الخطابَ موجَّهٌ إليهم أوّلًا، ثم يتَّسع ليَشْمَل سائرَ الفُجّار[2].

نُكْتَةُ التَّعبير بمُفْرَدَة ﴿ٱلْفُجَّارِ﴾ دون (الكفار):

كُلُّ كافرٍ فاجرٌ، مِنْ غير عكسٍ

آثَر النَّظم الكريم استعمالَ مفردة ﴿ٱلْفُجَّارِ﴾ دون (الكفّار)؛ ذلك أنَّ الفجورَ أعمُّ من الكُفر، فهو يشمل الكافرَ في أصل العقيدة، والمُذنِبَ الجائرَ في سُلوكه، وإن كان من أبناء الإسلام، وفي عرف القرآنِ والسُّنّة يُطْلَقُ وصفُ (الفاجر) على الكافر قطعًا، لكنّه يمتدُّ أيضًا إلى كلّ من فسَدَت سَريرتُه، وتمادى في المَعْصيَة، لا يَرْعى للّه تَعالى حقًّا ولا لعباده حرمةً، والتَّعبير بمادَّة الفجور دالٌّ على قوّة المعصية وانْكِشافِها وافتِضاحِها، ولمّا كان الجامعُ لمُرْتَكِب هذه المعاصي هو الفجورَ لا الكفر؛ كان هو الأنسبَ بالاختيار، فالفاجرُ يَصْدُقُ على الكُفّار ابتداءً، وعلى مُرْتَكِبي الكبائر كذلك، وأعظَمُ الفُجورِ الكُفْرُ.

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 318، والشِّربيني، السراج المنير: 4/ 501، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 915.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 194.

بلاغَةُ التَّعبير بحرْفِ الظَّرفيّة:

أعمالُ الفجّار مآلُها إلى سجّين، وأصْحابُها خالِدون فيها

مَعْنى قولِه تعالى: ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ إنْ كان على ظاهِرِ الظَّرفيَّةِ: أنَّ كتُب أعمالِ الفُجّار مودَعَةٌ في مكانٍ اسمه ﴿سِجِّينٍ﴾، أو وصفه ﴿سِجِّينٍ﴾، وذلكَ يُؤْذِنُ بتَحْقيرِه، أي: تحقير ما احْتَوى عليه مِن أعمالهم المكتوبة فيه، وعلى هذا حَمَلَهُ كثيرٌ مِن المُتَقدّمين، وإن حُمِلَت الظَّرفيَّة في قوله: ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ على غير ظاهِرِها، فجُعِل كتابُ الفُجّار مظروفًا في ﴿سِجِّينٍ﴾، فهو مجازٌ عَن جَعْلِ الأعمال المحصاة فيه في سجّين، وذلك كناية رمزيَّة عن كونِ الفُجّار في سجّين[1]، أمّا إن حُملت الظَّرفيَّة على معنى أنَّ مآل أعمال الفجّار في سجّين، فهو على المجازِ بالحَذْفِ، أو يكون كنايةً عن دخول الفجّارِ النّارَ بعد حِسابهم على أعمالهم، فهو مِن المُبالغة في الوَصْفِ، معَ إظهار غضَبِ الرَّبِّ.

مُناسبَةُ مُفْرَدَة ﴿سِجِّينٍ﴾ للسّياق:

الجَمْعُ بينَ المَعْنى الحِسّيّ في الحَبْسِ، والمعنى المعنويّ في الخِزْي والحرمان

لفظ ﴿سِجِّينٍ﴾ من أبلغ الألفاظ القرآنيَّة في تصوير الضّيق والمهانةِ والحَبْسِ الأبديّ، فهو على وزن (فِعّيل) من مادّة السّجن التي تدلُّ على القَيْدِ والتَّضييق، كما يُقال: فِسّيق من الفسق، وسَكّير من السُّكر، فجاء التّعبير بـ ﴿سِجِّينٍ﴾؛ ليُعَبِّر عن مُنتهى الإذلال والتَّحقير؛ إذ وُضع كتابُ أعمالِهم في مكانٍ سُفليٍّ مظلم موحشٍ، وهو موضعٌ يُناسب دناءةَ أعمالِهم وخُبْثِ مقاصِدِهم، ومطروحٌ فيه إبليسُ وذرّيَّته استهانةً بهم واحتقارًا لهم[2]، وقد استُعملت الكلمَةُ أدقَّ استعمالٍ لتصوير حال الفُجّار ومآلهم؛ إذ توحي بأنَّ أعمالهم مردودةٌ ومحبوسةٌ في أسفل السّافلين، لا يصعَدُ منها خيرٌ، ولا يُقبل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 194.
(2) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 721، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 126، ومأمون حموش، التَّفسير المأمون: 8/ 375.

لهم عمَل[1]، فجَمَعَ اللَّفظُ بين المعنى الحسّيّ في الحبس، والمعنى المعنويّ في الخِزْيِ والحِرْمانِ.

المُبالغة في الحَبْس والتَّضييق جزاءَ التّضييق على الآخرين

دلالَةُ صيغَةِ (فِعّيل):

جاء لفظ ﴿سِجِّينٍ﴾ على وزن (فِعّيل) من مادَّة السَّجن؛ للدّلالة على المُبالغة في الحَبْسِ والتَّضييق، ففيهِ إشارةٌ إلى أنَّ كتابَهُم مودَعٌ في موضعٍ بالغِ الضّيق والمهانة، وإذا كان كتابُهم في سجنٍ عظيمٍ محكم، فحالُهُم هُم أَوْلى بأن يكونَ في أشدّ أنواعِ الحَبْسِ والضّيق عذابًا وإذلالًا، جزاءً وفاقًا لأعمالهم[2].

تهويلُ أمرِ السِّجّين وتفظيعُ حالِ الواقِعين فيه

بلاغَةُ الاعْتِراض:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ تَحْتَمِلُ الاستئنافَ، ويجوزُ أن تكونَ معترضةً بين جملةِ: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ﴾ وجملةِ: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾، وقد أفادَ الإطنابُ الذي جاء في صورة الاعتراضِ تهويلَ أمرِ السّجّين وتفظيعَ حالِ الواقعين فيه، أي: هو بحَيْثُ لا يَبلُغُه دِراية أحَدٍ[3].

تحريكُ انتِباهِ عُمومِ المُخاطَبين للوقوف على اليقين

تعيينُ مَرْجِعِ المقْصودِ بالخِطابِ ودلالَتُه:

الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ موجَّه ابتداءً إلى النَّبيِّ ﷺ، أي: أيّ شيءٍ أعْلَمَك - أيُّها الرَّسولُ الكريمُ - ما سِجّين[4]؟ والمعنى: ليس هذا الأمرُ مِمّا كُنتَ تعلمُه أنتَ ولا قومُك قبل نزول الوحي[5]، ثُمَّ يتَّسع الخطابُ في دلالته؛ ليَشْمَلَ كلَّ من يسمَعُ الآية، ويَعْقِلُ معناها، ويهزّه خطابُ المُباغَتة.

تعظيمُ المَسْؤول عَنْهُ في سياق الوعيدِ تهويلٌ لشأنِه

بلاغَةُ الاستِفهامِ وغَرَضُه:

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾ للتّعظيم

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 257.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 318.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 126، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 195، ودرويش، الجدول في إعراب القرآن: 15/ 270.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 285، والثّعلبي، الكشف والبيان: 10/ 153.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 257.

والتَّهويل، أي: لبيان عِظَم شأن السّجّين وهولِ أمْرِه، لا لطَلَبِ العِلْم به، فالمعنى: أيّ شيءٍ أعلمك - أيُّها النَّبيُّ الكريمُ - ما هذا السِّجّين العظيم؟ أي: إنَّه أمرٌ يفوقُ إدراكَ العُقول؛ تعظيمًا لشأنِه وتفظيعًا لحالِ مَن يودَع فيه[1]، ويَحْتَمِلُ أن يكون الاستفهامُ تقريريًّا، أي: إنَّ هذا من الأمور التي لم تَكُن تَعْلَمُها قبلَ الوحي، فيكون فيه إشعارٌ بأنّ العلم به فضلٌ من اللّه تَعالى ووحيٌ من عنده[2].

نكتةُ استِعْمالِ ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾ دون مرادفاتِها:

إشعارُ السّامع بالعَجْزِ عَنِ المعرفةِ تفخيمٌ لشأنِها وتشويقٌ للوقوفِ عليها

اختير فعل ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾ في هذا الموضِع دونَ غيرِه مِنَ الألفاظ؛ لِما فيه مِن تصويرٍ بليغٍ لعَجْزِ السّامع عن الإحاطَةِ بما وراءَ الحسّ، فيورث في النَّفْسِ هيبةً وخشوعًا أمام عظمَةِ ما يُسأل عنه، وقد تكرّر في القرآنِ المجيدِ استعمالُ عبارَةِ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ حتَّى غَدَتَ صيغَةً قرآنيَّة مميّزة للتَّعظيم والتَّهويل والتَّعجيب، أبدعها البيانُ الكريم في إطار اللِّسان العربيِّ، فجاءت أبلغَ مِن صيغَتَي التَّعجُّب المألوفتَيْن عندَ العرَب، كقولهم: ما أعظمَه! وأَعْظِمْ به! إذْ تجمَعُ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ بين إبهام المجهولِ وتفخيم المعلوم، فترْتَقي بالخطاب إلى ذروة التَّأثير والإجلال[3]، فالمُخاطَبُ مَهْما اجتهد في طلب المعرفةِ لَن يُدْرِك حقيقة الغيب، فجاء هذا الأسلوبُ؛ ليَبْعَثَ الرَّهبة، ويُعَظِّم الشَّأن، ويوَطّئَ للجواب.

فائدةُ إظهار لفظِ ﴿سِجِّينٌ﴾:

تعيينُ أنَّ المسؤولَ عنهُ هو (سِجّين) لا (الكتاب)

آثر النَّظمُ الكريمُ إظهارَ لفظ ﴿سِجِّينٌ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ دون إضْمارِه، فلم يقل: (وما أدراك ما هو)؛ لِما في الإظهارِ من تعيين المسؤول عنه، ولو جيءَ بالإضمار؛ لتوُهِّم احتمالُ الكتابِ المتقدّم ذِكْرُه، ولا سيّما أنَّ الجوابَ ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 195، وشحاته، تفسير القرآن الكريم: 30/ 6407.
(2) الثعالبي، الجواهر الحسان: 5/ 563، وابن عطيَّة الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 5/ 451.
(3) الميداني، معارج التَّفكُّر: 15/ 323.

بلاغةُ حَذْفِ المُسْنَدِ إليهِ:

مَعْرِفَةُ المَحْذوفِ تُغْني عَن ذِكْرِهِ إلّا لنُكْتَةٍ

جاء قولهُ تعالى: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ خبرًا عن ضميرٍ محذوفٍ يُقدَّر بـ: هو، يعودُ على قولِه: ﴿كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ﴾، والتَّقدير: هو كتابٌ مرقومٌ، وحُذف المُسند إليه هُنا اتِّباعًا لأسلوب العرَبِ في الحذْفِ عند وُضوح المرجِعِ واستغناءِ السّياق عنه؛ إذ جرى الحديثُ عن كتاب الفجّار، فصار ذِكْرُ الضَّمير بَعْدَ ذلك غيرَ لازمٍ لتَمامِ الفَهْمِ[1].

ويُعدُّ هذا الحذفُ مِن أرقى أساليب البلاغة؛ لأنّه يدلّ على التَّنويه بالمذكور وتعظيم شأنه، كأنّ أمرَهُ أشهَرُ من أن يُعاد التَّصريح به، وهذا ما يُسمّى في علم المعاني بـ: متابعَةِ الاستعمالِ؛ وذلك أنَّ العرَبَ إذا أجْرَوا حَديثًا على شَيءٍ، ثمَّ أخبَروا عنه؛ التَزَموا حَذفَ ضَميرِه الَّذي هو مُسنَدٌ إليه؛ إشارةً إلى التَّنويهِ به كأنَّه لا يَخْفى[2].

غَرَضُ تَنْكيرِ لَفْظِ ﴿كِتَٰبٞ﴾:

تـهـويـلُ أمـرِ الكِتابِ وتعظيمُ شأنِـهِ؛ لِما فيه مِـن إحـاطـةٍ لأعْمالِ الفُجّارِ

نُكِّر لفظ ﴿كِتَٰبٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ للدّلالة على تهويل شأنِه وتعظيم أمرِه؛ إذ يُراد به كتابٌ مخصوصٌ عظيمُ القَدْرِ عندَ اللّه تعالى، لا يُحيط الخلْقُ بحقيقته، ولا يَبْلُغونَ كُنْهَهُ، والمقصود بهذا الكتابِ: ما كُتِبَ فيه من أحوالِ الفُجّار وأعمالِهم وعقوباتهم، فهو سِجِلٌّ جامع يُحْصي دقائقَ حياتِهم، ظواهرها وبواطِنها، منذ أوّلِ أعمالِهم في هذه الحياةِ إلى انتهاء أعمارِهِم في الدُّنيا، وما يُلاقونه من حسابٍ وجزاءٍ وعذابٍ أليمٍ في دركات الجحيم[3].

بلاغةُ الوَصْفِ بلَفْظِ ﴿مَّرۡقُومٞ﴾:

توكيدُ المَوصوفِ وبيانُ جَمالِهِ، مِـن خصـائـصِ أوصافِ البيانِ

وُصِف الكتابُ بِصِفَةِ ﴿مَّرۡقُومٞ﴾، أي: مكتوب مسطَّر لا مجالَ فيه للخَطَأ ولا للنِّسيان، فهو مُحكَمٌ بالرَّقْمِ والبيان، مكتوبٌ كتابةً بيِّنة

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 195، 196.

(2) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 176.

(3) الميداني، معارج التفكر: 15/ 324.

واضحةً تُشْبِهُ النَّقش في الثَّوْبِ المنسوج، فعندَ سَماعِ هذا الوَصْفِ يخيّل إلى السّامع أنَّ الكتاب قد نُقِشَت فيه الكتابَةُ، وكُتِبَت بصورة بيِّنة واضحة، وأفادَ الوَصفُ بصفة ﴿مَّرۡقُومٞ﴾ تأكيدَ ما أفاده لفظُ ﴿كِتَٰبٌ﴾[1]، فاجتمع توكيدُ مَعْنى الكتابةِ، وبيانُ جمالِ المكتوبِ.

عِلَّة فصْلِ الجملةِ عن سابِقَتِها:

الانـتـقـالُ مِـن وصـفِ الكِـتـاب إلى تـفـصيـلِ أحوالِ أصْحابِهِ

يحتمل أن يكون قولهُ تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ مُبَيِّنًا لمضمونِ جُملة: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، ويَحْتَمِلُ أن يكونَ جملَةً ابتدائيَّةً، وبين المُكَذّبين بيوم الدّين والمُطَفّفين عمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ، فمِن المكذّبين مَنْ هم مطفِّفون، ومن المطفّفين مسلمون وأهلُ كتابٍ لا يُكذِّبون بيوم الدّين[2]، فلمّا بيَّن اللّه تَعالى ما في كِتاب الفجّار من الشَّرِّ؛ استأنف الكلام؛ ليُفصِّل ما يَتَرَتّب على ذلك من جزاءٍ وعقوبة، فقال: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾، فجاء الفَصْلُ هُنا انتقالًا من وصْفِ الكِتاب إلى وصف حال أصْحابِه، على وجهٍ يُبْرِزُ تلازُمَ العمَلِ والجَزاء، ويشدّ انتباهَ السّامع إلى ما يَلْقاهُ المكذّبون من عذابٍ مهينٍ يوم القيامَةِ[3].

بلاغة الوعيد بلفظ ﴿وَيۡلٞ﴾:

الـزَّجـرُ الشَّـديد والوعيدُ الأكيدُ للمكذِّبين

جاء قولُه تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ تعبيرًا موجزًا شديدَ الوَقْعِ، يُفْصِحُ عن الهلاك التّامّ والدَّمار العظيم، الذي يَنْتَظِرُ المكذّبين بيوم الدّين، الذين لا يَظُنّون أنَّهُم مَبْعوثونَ ليوم عظيم، فلفظُ ﴿وَيۡلٞ﴾ من ألفاظِ الوعيدِ القُرآنيّة التي تُستخدَمُ للدّلالة على أعلى مراتبِ الوَعيد، وهو لفظٌ يَحْمِلُ في طيّاته التَّحذيرَ والتَّهديد معًا، فيُحدِثُ في القَلْبِ رهبةً عندَ سماعِه وارتداعًا عند تأمُّله[4].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 196، وامحمد صافي المستغانمي، برنامج في رحاب سورة: (المطففين).

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 196.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 319.

(4) الخطيب، التَّفسير القرآني: 16/ 1491، ومأمون حمّوش، التفسير المأمون: 8/ 375.

بلاغةُ الإيجازِ بتَنْوينِ العِوَضِ:

التَّنوين يُطلِق مجالَ التَّدبُّر بما تُمليه دلالةُ السّياق من معانٍ

التَّنوين في كلمة ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ تنوين عِوَض، عوِّض به عن جملةٍ محذوفةٍ تُقدَّر بما يُناسب السّياق، أي: (يومَ إذْ يقوم النّاس لربّ العالمين)، ويلٌ فيه للمكذّبين[1]، فهذا التَّنوين يُشير إلى اختصارٍ بليغٍ جَمَعَ المعنى في لفظٍ واحدٍ، وأضْفى على الجملةِ إيجازًا مع عُمقٍ في الدّلالة؛ إذ يوحي بعِظَم اليوم وشدّة أهوالهِ دون أن يُصرّح بتَفْصيلِه، فكأنّ التَّنوين يُجسّد في ذاتِهِ رهبةَ ذلك اليوم ومَشْهَده الجليلِ.

بلاغةُ فنِّ الإدماجِ:

وعيدُ المُكذِّبين في سياق تَهْديدِ المُطفِّفين

على القولِ بأنَّ جملة: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ ابتدائيَّة، يكون فيها إدماجٌ بلاغيٌّ بديع[2]؛ إذ جمع النَّظم الكريم التَّهديدَ بَيْنَ المُطفِّفين والمُكذِّبين بيوم الدّين في آنٍ واحد، فجاءت الجُملة الكريمة؛ لتَدْمِجَ الوعيد بالمكذّبين عامّةً ضِمْنَ سياق الحديث عن المطفِّفين خاصّةً، وإنْ لم يَكونوا من المُطفِّفين، فيتحقَّق بذلك اتِّساعٌ في المعنى وشمولٌ في الوعيد، دونَ إخلالٍ باتِّساق السّياق القرآنيِّ.

نَوْعُ اللّامِ ودلالَتُها:

تعريفُ لَفْظِ ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ للعَهْدِ العلميِّ، أي: أولئك المُكذّبون المَعْروفونَ من السّياق، وهم الذين كَذّبوا بيَوْمِ الدّين[3]، فالوعيدُ موجَّهٌ لهَؤلاءِ المُجْرمين على وجهِ الذَّمّ والتَّقريع.

فائدةُ إظهارِ لفظِ المُكذِّبين:

تعميمُ وعيدِ المكذِّبين وتعليقُ الحُكْمِ بوَصْفِ التَّكذيب

أظْهَرَ النَّظم الكريمُ لَفْظَ ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾؛ لِما في ذلكَ من تعميمٍ للوعيدِ وتعليقٍ للحكم بالوصف ذاتِه[4]، فالإظهار هنا يُفيد إبرازً

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 196، وبهجت صالح، الإعراب المُفصَّل: 12/ 376.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 196.
(3) الكوراني، غاية الأماني: 1/ 350.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 320.

العلَّة في استحقاقِ العقوبة، وهي صفةُ التَّكذيب الرّاسخة بيوم الدّين، فيشمل كُلَّ من تلبَّس بها في أيِّ زمانٍ أو مكان.

دلالَةُ التَّعبير باسمِ الفاعِل:

الجَمْعُ بينَ ثباتِ صِفَةِ التَّكذيب وتَجَدُّدها في الفِعْلِ

آثَر النَّظم الكريمُ التَّعبيرَ باسْمِ الفاعلِ ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، أي: الرّاسخين في هذه الصِّفة، وعَدَلَ عن التَّعبير بالفعل إلى الاسم؛ لِما في الاسم من الدّلالة على الثَّبات والدَّوام، وما يومِئُ إليه اسمُ الفاعل من الدّلالة على روحِ الفِعْلِ، فاسْمُ الفاعل اسمٌ في الصّورة اللَّفظيَّة، وفعل في التَّأويل الدّلاليّ، ويُرشِّح ذلك الوصفُ بالاسْم الموصول، فالمقصودُ إذًا مَن استقرّ فيه التَّكذيبُ، واستَحكَمَ في قَلْبِه حتَّى صارَ صفةً لازمةً له[1].

بلاغَةُ فصْلِ جُملة ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ﴾ عمّا قَبْلها:

بيانُ ما أُجمل في السّابق طريقُ القرآن في تثبيت المعاني وتبيين المَباني

على القول بأنَّ الاسمَ الموصول في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، تقديرُه: هُم الذين يُكَذِّبون، فالجملة مفصولةٌ عمّا قبلها؛ لأنّها بيانٌ وتفصيلٌ لِما أُجمل في قولِهِ تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾، فهي بيانٌ لمتعلّق التَّكذيب وتوضيحٌ لموضوع الوعيدِ، فالآية الأولى ذكَرَت المُكذّبين على وجْهِ الإطلاق، ثُمَّ جاءت هذه الجملةُ لتُخصِّص، وتفصِّل بأنّ تكذيبَهُم إنَّما هو بيوم الجزاءِ والحِساب، وهو أعظَمُ مَظاهِرِ جُحودِهِم وإنكارهم للحقِّ، وفي هذا الأسلوب تهديدٌ وتحذيرٌ للمطفِّفين من المُسْلمين؛ لئلّا يَسْتَخِفّوا بذُنوبهم، فيكونوا مشابهين للمكذّبين بيوم الدّين في حالهم، وإن لم يَجْحَدوه بألسِنَتِهم[2]، وعلى القول بأنَّ الاسمَ الموصولَ صفَةٌ للمُكَذّبين، فلا تعليلَ للفَصْلِ بين الصِّفة والموصوف.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 320.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 196.

صلةُ الموصول تعليلٌ للذّمِّ وبيانٌ للوعيد

بلاغَةُ التَّعبير بالاسمِ الموصول:

آثَر النَّظم الكريمُ التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ﴾ دون الاسم الصَّريح (المكذبين)؛ تفنُّنًا في التَّعبير وتحاشيًا لتَكرار الصّيغة، ولِما في تنوُّعها بين الاسميَّة والموصوليّة من الإشارة إلى ذمّهم بما في حيِّز الصَّلة، وإبراز أنّهم جَديرون بهذه الصِّفة المَقيتَة التي استحقّوها؛ جزاءً لما ارتكبوه من جحودٍ وتكذيبٍ بيوم الدّين وسائر الحقائق الإيمانيَّة، فالتَّعبير بالموصول ليس وصفًا كاشفًا للبيان؛ لأنّ المقصودين معروفون من السّياق، ولأنَّ تكذيبَهم بيوم الدّين عُلِم من قوله: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾، بل هو وصفٌ للذَّمِّ والتَّقريع، كقولك: فعَلَ ذلك فلانٌ الفاسِق الخبيثُ، فالغرض ليس التَّوضيحَ بل التَّوبيخ والتَّشنيع، ويجوز أن يكون الموصولُ بدلًا من لفظ المكذّبين؛ ليُناط به ما بعده من قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾، فتتَناسَقُ الجُمَل في بناءٍ بلاغيٍّ مُحكمٍ يُبرز شناعةَ التَّكذيب وثباتَ صِفَةِ الإثم والعدوانِ فيهم(1).

دلالة التَّعبير بصيغة المُضارِع:

جاء التَّعبير بصيغة المُضارع في قوله تعالى: ﴿يُكَذِّبُونَ﴾؛ للدّلالة على استِمْرارِ التَّكذيب وتجدُّدِ وقوعِه، فهو عادةٌ ذميمَةٌ تتكرَّر منهم آنًا بعد آنٍ وحالًا بعد حالٍ.

ترسيخُ المَعنى في الأذهان وزيادةُ أثَرِ الوعيد في النُّفوس

بلاغَةُ الإطنابِ بتَفْصيلِ المُجْمَلِ:

ورد ذكر التَّكذيب أوَّلًا بصيغةٍ مجملةٍ في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، ثُمَّ أُعيد تفصيلُه وبيانُ متعلَّقه في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، وهذا من الإطناب البليغ الذي جاء في صورة التَّفصيل بعد الإجمال، والغرضُ مِن هذا الأسلوبِ ترسيخُ المَعْنى في

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 721، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 295، وأبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 10/ 428، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 126.

الأذهان وزيادَةُ أثَرِ الوَعيدِ في النُّفوس، حتّى يُدْرِك السّامعون عِظَم جَريمَتِهِم وما يَتَرَتَّب عليها من جزاءٍ، وأيضًا فإنّ هذا التَّفصيل يَحْمِلُ في طيّاته تحذيرًا للمطفِّفين من المسلمين؛ لئلّا يستخفّوا بمَعاصيهم، فيَقَعوا في منزلةِ المكذّبين بيومِ الدّين، فيُشابهوا مَن أنكر البعث والجزاء، وإن لم يُصرّحوا بجُحودِهِم لفظًا[1].

فائدَةُ إيثارِ تَرْكيبِ (يوم الدين) دون القيامَةِ:

إظْهارُ مَعْنى الجزاءِ وحسابِ العِبادِ بعدَ قيامِهِم من قبورهم بين يدي الله تَعالى

آثر النَّظم الكريمُ اختيارَ تركيب (يَوْمِ الدّينِ) دون (يوم القيامة) مع تقدُّم ذِكْرِ: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنَّ الدّين في أصلهِ يُطلق على الجزاء والحساب، فسمّي يوم القيامة بذلك؛ لأنَّه يومٌ يُدانُ فيه الخَلْق بأعمالهم[2]، أي: يُجازَوْنَ على ما قدّموا من خيرٍ أو شرٍّ، وفي هذا التَّعبير إيحاءٌ بعدل اللّه تَعالى التّامّ؛ إذ يُؤكّد أنَّ ذلك اليومَ يومُ الحِساب والجزاء الحَقِّ، الذي توَفّى فيه كُلُّ نفسٍ ما كسبت، فجمع السّياقُ بين الاسم العَلَم وبين ما يكون فيه من الجزاء على الأعمال؛ تنبيهًا على كمال العَدْلِ.

نَوْعُ الواوِ ودلالَتُها:

سببُ التَّكذيبِ ما جُبلت عليه النُّفوس من العدوانِ والإثم

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ﴾ يَحْتَمِل أن تكون استئنافيَّةً[3]، ويَحْتَمِل أن تكون حاليَّة، أو أن تكون عاطفةً[4] على ما قبلها؛ لاتِّحاد السّياق في الخبَرِ والمعنى؛ إذ الجُمْلَتان تشتركان في بيان صفات المكذّبين وبيان عِلّة تكذيبهم بيوم الدين، فبَعْدَ أن وصفَهُم اللّه تَعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾؛ جاءت الجُملة المعطوفة؛ لبيان سبب هذا التَّكذيب وحقيقته، وهو ما جُبلَت عليه نفوسُهُم مِن العدوان

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 196.

(2) الخازن، لباب التأويل: 4/ 404.

(3) صافي، الجدول: 15/ 271.

(4) الدَّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 10/ 411.

والإثم، فكان تكذيبُهم ثمرةً لطُغْيانِهم وفساد قُلوبهم[1]، وعلى القولِ بالحاليّة يكونُ فيها إظهار علَّة التّكذيب، أي: لا يُكذّب بيوم الدّين إلّا في حال الاتِّصاف بالاعتداء والإثم، وهي تَلْتَقي بدلالةِ العَطْفِ والاستئناف.

بلاغَةُ القَصْرِ بالنَّفي والاستثناء:

القصْرُ طريقٌ موصلٌ إلى تبيين الحقائق وتعيين المقاصدِ

جاء القَصْرُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾ بطريق النَّفيِ والاستِثناءِ، وهو أسلوبُ قصرٍ حقيقيّ، من قَصْر الصِّفة على الموصوف، فقد قُصِرَ وصفُ التَّكذيب بيوم الدّين على الموصوف بأنّه مُعتدٍ أثيم، وقد أفادَ القَصْرُ التَّحذيرَ مِن التَّكذيب بيوم الدّين، والمعنى: أنَّه لا يكذِّب بيوم الدّين إلّا مَن كان موصوفًا بهذه الصِّفات الثَّلاثة، أوَّلها: كونه معتديًا، والاعتداءُ هو: التَّجاوز عن المنهج الحَقِّ. وثانيها: الأثيم، وهو مبالغَةٌ في ارتكاب الإثم والمعاصي. وثالثُها: التَّكذيب بالقرآن الكريمِ والزَّعم أنَّه أساطير الأوَّلين[2].

نُكْتَة التَّعبير بالمُضارع المُضعَّف:

استمرارُ التَّكذيبِ وتجدُّدُه دَيْدَنُ أهل الكُفْرِ

في اختيار الفِعْلِ ﴿يُكَذِّبُ﴾ - بصيغته المضعَّفة من مادّة كذّب - دلالةٌ على المُبالغة في الجحود والإنكار؛ إذ إنَّ التَّضعيف في بنية الكلمةِ يُفيد التَّكرار والمُبالغَةَ في الفِعْل، والمعنى: بيان أنَّ المكذِّبين يوغلون في التَّكذيب، ويُصرّون عليه عن علم وعناد، وجاء الفعلُ بصيغَةِ المُضارع؛ ليُفيد الاستمرارَ والتَّجدُّد، فتكذيبُهم ليس طارئًا، بل عادةٌ متأصّلة وسلوكٌ مُتكرِّر يدلُّ على دوامِهم في الإنكار والجحودِ واستِمْرارهم في ردِّ الحَقِّ كُلَّما جاءَهم[3].

دلالةُ تخصيص لَفْظِ ﴿مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾ بالذِّكر:

اجتماعُ انحِرافِ الفِكْرِ وفَسادِ العمَلِ علَّةُ التّكذيبِ بيَوْمِ الدّين

خصَّ النّظم الكريم صِفَتَي الاعتداء والإثمِ بالذّكر في قوله

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 196.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 87، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 197، 198.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 320، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 20/ 147.

تعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾؛ إذ دلَّ وصفُ الاعتداء على تجاوُزِه حدودَ الحقِّ والعدل في كُلِّ ما يتعلّق بصلاتِهِ بربِّه وبالخَلْقِ، فالاعتداء هُنا يشمَلُ ظُلْمَه لنَفْسِه بالشِّرك والمعصية، وظُلمه للّه تعالى بجحود توحيدِه، وظُلْمه لرُسل اللّه تعالى بتَكْذيبِهِم ومُحارَبَتِهم، كما اعتدى على أدلَّةِ الحقّ التي نصبها اللّه تَعالى أمام بصَرِهِ وبصيرته، فلم يتدبّرها، أو لم يعمل بها[1]، ويدلُّ على فساد القوّة النَّظريّة في الإنسان، وهي القوَّة التي كمالُها أن يُدرك بعَقْلِه وحدانيَّة الخالق ﷻ، وما يتَّصف به من صفاتِ الكمال من علم وقدرةٍ وإرادةٍ وحكمةٍ، فالمعتدي هو من عَطَّل عقلَهُ عن التَّأمُّل في أدلَّةِ التَّوحيد، وتجاوز حدودِ العَقْلِ والفطرة التي تدعوهُ إلى الإيمانِ بالحقِّ.

وأمّا وصفُ الأثيمِ؛ فيُشير إلى فسادِ القوَّة العمليَّة التي وظيفَتُها معرفةُ الخَيْرِ لأجل العمل به، فإذا أُهْمِلَت هذه القوَّة؛ غلَبَت الشَّهوةُ العقلَ، وفَسَدَ السُّلوك، وانغمس الإنسان في المعاصي والذُّنوب، ولهذا جعلَ اللّه تَعالى الاعتداءَ والإثم مناطَ التَّكذيب بيوم الدّين؛ إذْ لا يُنكر ذلك اليوم إلّا من اجتمع فيه انحرافُ الفِكْرِ وفساد السُّلوك؛ لأنَّ مَن كان عادلًا في فكره، مُستقيمًا في عمله، واقفًا عند حدود اللّه تَعالى؛ كان إيمانُه بالبعث والجزاء أمرًا طبيعيًّا ينسجِمُ مع عدلهِ وفِطْرَتِه السَّليمة[2].

نكتَةُ التَّعبير بصيغة اسمِ الفاعِلِ لـ ﴿مُعۡتَدٍ﴾ وصيغة فعيل لـ ﴿أَثِيمٍ﴾:

الاعتداءُ سُلوكٌ متكرِّر وفعلٌ متجدِّدٌ؛ علّتهُ الإثمُ الرّاسخ

آثر النَّظم القرآنيُّ التَّعبير بصيغة اسم الفاعلِ لصِفَةِ ﴿مُعۡتَدٍ﴾، بينما جاء التَّعبير بصيغة (فعيل)، وهي صيغةُ مبالَغَةٍ لصِفَةِ ﴿أَثِيمٍ﴾؛

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 197.

(2) النَّيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 465، وإسماعيل حقي، روح البيان: 10/ 367، ومحمد عبده، الأعمال الكاملة: 5/ 372.

وذلك لأنَّ الاعتداء وصفٌ متكرِّر الوقوع، وهو ما يدلّ عليه اسم الفاعِل مِن الحدَثِ والفِعْلِ، وعلّة الاعتداءِ الإثمُ الرّاسخ في النّفس والسُّلوك، فإذا ثبتَ الإثمُ؛ نادى على الاعتداءِ، وأغْراهُ، وإذا زالَ الإثمُ؛ زالَ معَهُ الاعتداء، فكان التَّعبير باسْمِ الفاعِلِ ﴿مُعۡتَدٍ﴾ كالنَّتيجة للصِّفة المُشَبَّهة ﴿أَثِيمٍ﴾، وهو الأنسب للمقام، والألْصَقُ بالسّياق.

دلالَةُ استِعمالِ ﴿إِذَا﴾ دون (إن):

المُعْتَدي الأثيمُ مِن صفاتهِ المُلازِمَة له وصفُ الآيات بالخُرافات والأساطير

اختيرت أداةُ الشَّرط ﴿إِذَا﴾ بدلًا من (إن)؛ لأنَّ المقام يَقْتَضي تحقيق وقوع الفِعْلِ وتكرُّره، لا مجرّد احتماله، فـ ﴿إِذَا﴾ تُستَعمَلُ لِما هو متحقِّق الوُقوع أو كثير التَّكرار، بخلاف (إن) التي تفيد الشَّكَّ أو النّدور، فدلَّ التَّعبير بـ ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ﴾ على أنَّ آياتِ اللّه تَعالى تُليت عليه، وهي أمرٌ واقعٌ متجدِّد، ومع ذلك لا يَزْدادُ إلّا عنادًا وإثمًا، ممّا يُثبت حقيقةَ اتّصافه بأنّه ﴿مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾، ولذلك حَسُن أن تكون جملة: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ صفةً لـ ﴿مُعۡتَدٍ﴾ أو حالًا منهُ[1]، والصِّفة مِن مُلازماتِ المَوْصوفِ، وأيضًا فإنَّ الحالَ قد تكونُ لازِمَةً لصاحِبها.

دلالةُ التَّعبير بصيغَةِ المُضارع المَبْنيِّ للمَفْعولِ:

الحقُّ مرفوضٌ عند المكذِّبين على الدَّوامِ بقَطْعِ النّظر عن تاليه

جاء التَّعبير بفِعْلِ ﴿تُتۡلَىٰ﴾ بصيغَةِ المُضارِعِ المبنيِّ للمَفْعولِ؛ ليَدُلَّ على أنَّ استمرارَ فعل التِّلاوة وتجدُّدَهُ من أيِّ تالٍ كان، لا يُؤثِّر فيهم، فهُم يَرْفُضون الحقَّ المبينَ بقَطْعِ النّظر عمّن يُنبِئُهُم به، وبقَطْعِ النّظر عن تجدّد إنبائهم به، فيبقى هذا المُكذِّب على عناده وإنكاره، فالمقصودُ التِّلاوة ذاتُها وما تَقْتَضيهِ مِن أثرٍ في النَّفس، لا مِن الذي يقومُ بها، فالمتكبّر واحدٌ وإن تعدّد القُرّاء.

دلالَةُ استِعمالِ حَرْفِ الاستِعلاءِ:

استُعمل حرف الاستعلاءِ (على) في قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 197.

﴿ءَايَٰتُنَا﴾؛ للدّلالة على رِفْعَة براهين الآيات وعُلوّ مقامِها، فهي تَعْلو على السّامع بسُلْطانِها وحُجَجها البيِّنة؛ لِما تتضمَّنُه من براهينَ قاطِعَةٍ وأدلَّةٍ ساطِعَةٍ تُظْهِرُ سموَّ مصدرِها الإلهيِّ وهَيْمَنَتَها على القلوب والعقول[1]، مع ما في حرف الاستعلاء من الدّلالة على أنَّ الحقَّ يعلو، ولا يُعلى عليه، وأنَّ التّاليَ يَتلو الآياتِ إيصالًا وتبليغًا مُتحقِّقًا، لا نقصَ فيه ولا قُصورَ.

براهينُ الآياتِ رفيعَةٌ واصلةٌ بألسُنٍ فصيحَةٍ

دلالَةُ إضافَةِ الآياتِ إلى ضَميرِ العظمَةِ:

أُضيف لفظ الآياتِ إلى ضميرِ العظمَةِ ﴿ءَايَٰتُنَا﴾؛ لتشريف الآياتِ وتعظيمها وإكسابِها الفخامةَ، أي: الآيات "المَنْسوبَة إلى عظمَتِنا الدّالَّة على دوام رُبوبيَّتِنا وقُدْرَتِنا على البَعْث، والجزاء، واسترداد الحُقوق"[2]، فدلّ ذلك على عظيم إنْكارِ المُكَذّبين الذين يُسَمّون الآياتِ بأنّها أساطيرُ الأوَّلين، وقد اكتَسَبَت مِنَ العظمَةِ والجَلال والبَهاء ما لا يُحيط به الوصفُ، ولا تُدركه حروفُ الرَّصْف، فأفادت الإضافةُ تشريفَ الآيات وبيانَ مكانَتِها الرَّفيعة، فهي ليسَتْ كأيِّ أدلَّةٍ، بل هي علاماتٌ وبراهينُ إلهيَّة صادرَةٌ عَن الذّات العَليّة، تحمِلُ في ذاتِها جلالَ مصدَرِها وعظمةَ مَدْلولِها[3].

تشريفُ الآياتِ وتعظيمُها وتفخيمُ مَكانَتِها

بلاغَةُ التَّعبير بالفِعْلِ الماضي:

جاء فِعْلُ ﴿قَالَ﴾ بصيغة الماضي جوابًا للشَّرط الوارد بصيغة المُضارع ﴿تُتۡلَىٰ﴾، وذلك ليدلّ على مبادرةِ المكذّب إلى الرَّدّ والإنكار دون تروٍّ أو تفكيرٍ، فقولهُ يَصْدُر فورَ سماعِه الآياتِ، بلا تردُّد ولا تأمُّل[4]، فاختيارُ الماضي في التَّركيبِ يُصوّر سرعةَ وقوعِ الحدث وثباته في سُلوكه، فهو أمرٌ متكرِّر قد مَضى، واستقرّ من

دَيْدَنُ المكذِّبِ مبادرَتُه إلى إنكارِ الحقِّ المبينِ دونَ تروٍّ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 320.
(2) المهائمي، تفسير المهائمي: 3/ 516.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 320.
(4) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 20/ 148.

شدّة اعتيادهِ عليه، بينما المضارع في الشَّرط يدلّ على استمرارِ التِّلاوة وتجدّدها.

دلالَةُ استِعْمالِ لفظِ ﴿أَسَٰطِيرُ﴾:

تصويرُ بَلادَةِ المُكذّبين وضَعْفِ تأمُّلهم آياتِ الذِّكر المُبين

آثَر البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بمُفْرَدَةِ ﴿أَسَٰطِيرُ﴾، وهي جمعُ: أُسْطورَةٍ، أي: القصّة أو الخبر الذي يُروى بلا أصلٍ ثابتٍ، وغالبًا ما يُراد بها الأحاديثُ الموضوعَةُ أو الخرافات المختلقَة، التي يتناقلها النّاس من جيلٍ إلى آخر، وقد أَطْلَقَ المُشْرِكون هذا اللّفظ على قصص القرآن الكريم تشبيهًا لها بخُرافات الأمم السّابقة، كالقصص التي كانت معروفة عند الفُرْسِ عن رُسْتُمَ وإسْفِنْديارَ، فأنكروا حقيقتَها، وعَدّوها مُجرَّد حكاياتٍ متوارَثَة[1].

وفي استعمال هذا اللّفظ على ألسنتهم تهكُّمٌ بالوحي وتنقُّصٌ للحقّ؛ إذ يوحي بأنّهم يرون القرآنَ الكريمَ كلامًا مَكرورًا بلا نظامٍ أو حقيقةٍ، يُردَّد كما تُردَّد الأساطيرُ، ولا يَحْمِلُ في نَظَرِهِم أثرًا في النَّفس ولا نفعًا في الواقع[2]، وهو كاشفٌ عن بلادَةِ حِسِّهِم، وإعراضهم عن التَّأمُّل والتَّدبُّر؛ إذْ إنَّهُم ألِفوا سماعَ القصص الباطلَةِ حتَّى عَجَزوا عن التَّمييز بين وحيٍ إلهيٍّ صادقٍ وأساطيرَ بشريةٍ مختلَقَة.

نُكْتَةُ التَّعبير بلفظ ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ دون (السّابقين):

(الأوّلون) وصفٌ مُطْلَقٌ لِمَن تقدّم مِن الأُمَم الغابِرَة

اختيرَ لفظُ ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ بدلًا من (السّابقين)؛ لأنَّ كلمةَ الأوَّلين تُطْلَقُ على من تقدّم غيرَهُ زمنًا على وجه المُشاكلة والمقابلة بـ (الآخرين)، فهي أدلُّ على تتابع الأجيال وتعاقب الأمم، والمقصودُ بـ ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ هُنا الأممُ الماضيَةُ القَديمَةُ، التي لم تَثْبُت قِصَصُها، ولم تصدُق الأخبار عنهم، وعدّوا ما في القرآنِ من أخبارِهِم

(1) ابن عطيَّة الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 5/ 451، والمظهري، التَّفسير المظهري: 10/ 222.
(2) محمد عبده، الأعمال الكاملة: 5/ 373.

مُجرَّد حكاياتٍ ماضيةٍ وأسمار قديمة تُروى للتَّسلية لا للعِظَة، وقد غَلَبَ على المُشركين هذا الوصفُ حينَ سَمِعوا القصص القرآنيّ الذي سيق بأسلوبِ المَوْعِظَة والعِبْرَة، فجَهِلوا مقاصدَهُ السّامية وحِكَمَهُ البالغَة[1].

بلاغَةُ الوَصْفِ بالجُمْلَةِ الشَّرطيَّة لا باللَّفظ المفرد:

تصويرُ حالِ المُكَذِّب بأنَّه لا تَنْفَعُهُ الأدلَّةُ العقليَّة ولا النَّقلية

جاءت الصِّفة الثّانية لكلمَة ﴿مُعۡتَدٍ﴾ جُملةً شرطيَّةً، وهي قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وتَحْتَمِلُ الحاليَّة، ولم تأتِ وصفًا مفردًا أو حالًا مفردة؛ وذلك لتبيّن حالَ المكذّب مع ذِكْرِ الأدلَّة النَّقليّة، فالأدلَّة النَّقليّة والعقليَّة جميعًا لا تُؤَثِّر فيه، ولا تَنْفَعُهُ، مَهْما كانت قوَّتها ووُضوحها[2]، فهي تُصوّر هذا المكذّب، وقد أُغلق قلبُهُ عَن الفَهْم، وأُقْفِلَ سَمْعُهُ عنِ الحقّ، حتّى صار إذا تُليت عليهِ آياتُ اللّه تَعالى لم يتأمَّلْها، ولم يَتَدَبَّرْها، بل جَحَدَها عنادًا وكبرًا، وسارع إلى وصْفها بأقلِّ الأوصافِ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإثْمُ والعُدْوان والذَّنب:

العدوان عموم الاعتداء، والإثْمُ عموم الذُّنوب، والذَّنب فعلُ القبيحِ شَرْعًا أو عرفًا

الإثْمُ: هوَ الذَّنْبُ الذي يَقْتَرِفُهُ الشَّخْصُ في حَقِّ نَفْسِهِ، والعُدْوانُ: هوَ الذَّنْبُ الذي يَقْتَرِفُهُ الشَّخْصُ في حَقِّ الآخرينَ، وهوَ مِنْ بابِ التَّعَدّي، ومِنْهُ قَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: 2]، فالإثْمُ: الجُرْمُ كائِنًا ما كانَ، والعُدْوانُ: الظُّلْمُ[3].

واصْطِلاحُ الإثْمِ قَدْ يَتَّسِعُ، ويَحْمِلُ المعنيَيْن؛ فيَحْمِلُ مَعْنى الذُّنوب، التي يَقْتَرِفُها الشَّخْصُ في حَقِّ نَفْسِهِ، ويَحْمِلُ مَعْنى التَّعَدّي عَلى

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 198.
(2) المظهري، التَّفسير المظهري: 10/ 222.
(3) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 16.

الآخَرينَ، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ [النَّجْمُ: 32]، فكبائِر الإثْمِ تَدْخُلُ فيها الجَرائِمُ التي فيها تَعَدٍّ على الآخَرينَ، مِنْ سَطْوٍ ونَصْبٍ وغِشٍّ ونَحْوِ ذلِكَ، فيَكونُ الإثْمُ أعَمَّ مِنَ العُدْوانِ[1].

وأيضًا فإنَّ الإثْمَ والعُدْوانَ في جانِبِ النَّهْيِ نَظيرُ البِرِّ والتَّقْوى في جانِبِ الأمْرِ، والفَرْقُ بَيْنَ الإثْمِ والعُدْوانِ كالفَرْقِ ما بَيْنَ مُحَرَّمِ الجِنْسِ ومُحَرَّمِ القَدْرِ، فالإثْمُ ما كانَ حَرامًا لِجِنْسِهِ، والعُدْوانُ ما حُرِّمَ لِزيادَةٍ في قَدْرِ ما أباحَ اللّه تَعالى مِنْهُ، فالزِّنى والخَمْرُ والسَّرِقَةُ ونَحْوها إثْمٌ، ونِكاح الخامِسَةِ واسْتيفاءُ المَجْنيِّ عَلَيْهِ أكْثَرَ مِنْ حَقِّهِ ونَحْوُهُ: عُدْوانٌ[2].

أما الذَّنب؛ فهو ما يتبعهُ الذَّمُّ أو ما يُتَبَّعُ عَلَيْهِ العَبْدُ من قَبيح فِعْله، ولهذا يقال للصَّبيِّ؛ إذا فعل ما يُذمُّ عليه: قد أذنب، ولا يُقال: قد أثِم، والأصْل في الذَّنب: الرَّذْلُ من الفِعْل، والفرقُ بين الإثم والذَّنب: أنَّ الإثْم هوَ القَبيح الَّذي عَلَيْهِ تبِعَةٌ، والذَّنب هوَ القَبيح من الفِعْل، ولا يُفيد معنى التَّبعة[3].

التَّكْذيب والاستِكْبار:

بين التكذيب والاستكبار عمومٌ وخُصوصٌ وجْهيٌّ

التَّكذيبُ أعمُّ مِنَ الاستِكْبارِ؛ لأنَّ المكذِّبَ قَد يَكونُ مُسْتَكْبِرًا، وقَد لا يكونُ[4]، والظّاهرُ أنَّ بينَ التَّكذيبِ والاستِكْبارِ عُمومًا وخصوصًا مِن وجهٍ، فالتَّكْذيبُ أعمُّ مِنَ الاستِكْبار بالاعتِبارِ المُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ، والاسْتِكْبار أعَمُّ مِنَ التَّكذيبِ؛ باعْتِبارِ أنْ ليسَ كلُّ مستكبِرٍ يقعُ مِنْهُ تَكْذيبٌ، فتحصَّلَ أنَّ بَيْنَهُما عُمومًا وخصوصًا وجْهيًّا، فقَدْ يَجْتَمِعانِ، وقَدْ يَفْتَرِقُ كلٌّ مِنْهما عن الآخَرِ.

---

(1) الراغب، المفردات: (أثم).
(2) ابن القيم، الرسالة التبوكية، ص: 584.
(3) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 233.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/ 225.

﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ١٧﴾ [المطففين: 14 - 17]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من ذكرِ الصِّفات والأحوالِ إلى ذِكْرِ عللِها وأسبابِها

لَمّا ذَكَرَتِ الآياتُ السّابقةُ صِفاتِ المكذّبين وأحوالَهُم ومَقالتَهُم عنِ القرآن الكريم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ ناسب الانتقال إلى بيانِ السَّببَ الذي حَمَلَهُم على هذه الصِّفات الذّميمة، وهذا القولِ الباطلِ، وهو ما استقرّ في نُفوسِهم من فسادٍ وانغماسٍ في المعاصي، فقد كانت أفعالُهم السَّيّئة وجُرْأتُهُم على الإثم هي التي أعْمَت بَصائِرَهُم، وجَعَلَتْهُم يُكذّبون بالوحي، لا لخفاء الدَّليل، ولكن لانْطِماسِ قُلوبِهِم وتَدَنُّسِها بالذُّنوبِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَانَ﴾: غَطَّى، وغلَب، يُقال: رانَ الذَّنْبُ على قلبِهِ، أي: غلب[2]، وأصلُ (رين): يدُلُّ على غِطاءٍ وسَترٍ[3]، والرَّيْنُ كالصَّدَأ يَغْشى القَلْبَ مِن كَثرةِ المعاصي والذُّنوبِ[4]، وكُلُّ ما غَلَبَك، وعَلاك؛ فقد رانَ بك، وران عليك، يُقال: ران النُّعاسُ في العَيْنِ، ورانت عليه الخَمْرُ: غلبته، رينًا ورُيونًا[5]، غَلَبَ عَلى قُلوبِهِم، وغَمَرَها، وأحاطت بها الذُّنوبُ، فغطَّتها[6].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 30/ 77.
(2) نشوان الحميري، شمس العلوم: (رين).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رين).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (رين).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (رين).
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 286.

2) ﴿لَّمَحۡجُوبُونَ﴾: (حجب) تدورُ اشتقاقاتُه على مَعْنى المَنْعِ والسَّتْرِ، تقولُ: حَجَبْتُه، أي: مَنَعْتُه(1)، وكُلُّ شيءٍ مَنَعَ شَيئًا مِن شيءٍ؛ فقدْ حَجَبَه(2)، ومنه: احْتَجَبتِ الشَّمْسُ في السَّحاب؛ إذا اسْتَتَرتْ فيه(3)، والمَعْنى هُنا: مَمْنوعونَ عَن رُؤيَتِه تعالى يومَ القيامَةِ(4).

3) ﴿لَصَالُواْ﴾: أصلُ الصَّلْي الإيقادُ بالنّار، ويُقال: صَليَ بالنّار وبكذا؛ أي: بَلي بها، وصَليَ الكافرُ النّارَ: قاسى حرّها، والصِّلاءُ: ما يُصْطَلى بهِ وما يُذْكى بهِ النّارُ، ويوقَدُ(5)، والمَعْنى: لَداخِلو الجَحيمِ ومُقاسو حَرِّها(6).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بـيـانُ أسْـبـابِ الضَّلال تَحْذيرٌ مِن مَسالِكِها

تُبيّن الآياتُ الكريمَةُ السَّبب وراءَ جُحودِ المكذّبين للقرآن الكريم، فليس القرآنُ خرافاتِ الأوّلين، كما يَزْعُم المكذّبون، ولكنَّ الَّذي حمَلَهم على التَّكذيبِ بالحَقِّ وتَرْكِ الإيمانِ به أنَّه غَطَّى على قُلوبِهم، وأحاطَ بها ما كانوا يَعمَلونَه من الذُّنوبِ المُتتابِعة، حتَّى اسوَدَّت قُلوبُهم، فرَأوا الحَقَّ باطِلًا، ثُمّ يُصوّر حالَهُم يومَ القيامَةِ، فيُخبر أنَّهم يُحجبون عن رؤية رَبِّهم جزاءً لتَكْذيبِهم وجُحودِهم، فيُحْرَمونَ أعْظَمَ النَّعيم، ثُمَّ يُساقون إلى نارِ جهنَّم فيُعذَّبون فيها، ويُقال لهُم على وجه التَّقريع والتَّوبيخ: هذا هو العذاب الذي كنتُم تُكَذّبون به في الدُّنيا، فذوقوهُ جزاءَ تَكْذيبِكُم واستهزائكم بآياتِ اللّٰه تَعالى(7).

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حجب).
(2) الخليل بن أحمد، العين: (حجب).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (حجب).
(4) الملا علي القارئ، أنوار القرآن وأسرار الفرقان: 5/ 291، ومأمون حموش، التفسير المأمون: 8/ 376.
(5) الرّاغب، المُفردات، وابن فارس، مقاييس اللغة: (صلى).
(6) الثعلبي، الكشف والبيان: 10/ 154، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 280.
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 259، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 350، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 915 - 916.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الرَّدعِ والزَّجرِ بأداة ﴿كَلَّآ﴾:

الـرَّدعُ الشَّـديد دالٌّ على الغضَبِ الإلـهيّ والإنكـار الرّبّانيّ

جاءت أداة ﴿كَلَّآ﴾ بعد قيل المُكَذّبين ما قالوا في وصف آيات القرآن الكريم ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ ردعًا حاسمًا وزجرًا قويًّا، أي: ليكفّ كفًّا تامًّا، وينزجر زجرًا قويًّا، فليس الأمر كما زعم فيما تُلي عليه من الآيات، فجاءت كلمة ﴿كَلَّآ﴾ أداةَ رَدعٍ وزجرٍ قاطعٍ، تُبطِل زعمهم بأنّ القرآنَ أساطير الأوّلين، وتُكذّب مقالتَهم الباطلة أشدَّ التكذيب[1]، فهي لإبطال ما قالوه، مع تضمينها معانيَ الرّدع والزَّجر، فالموقف ليس موقف ردِّ كلامٍ فحسب، بل إشعارٌ بغضَب اللّه تعالى عليهم بسببِ ما قالوهُ، وبئس ما قالوا.

نوعُ ﴿بَلۡۜ﴾ ودلالَتُها:

إبـطـالُ أقــوالِ المكذّبين تأكيدٌ لرَدْعِ المُبْطِلين

جاء حرف ﴿بَلۡۜ﴾؛ ليُفيد الإبطالَ والتَّحويل، مُؤكِّدًا مضمونَ الرَّدع في ﴿كَلَّآ﴾، ومُبيِّنًا السَّبب الحقيقيَّ وراء قولِهم الجائر، وهو أنَّ الذُّنوب والخطايا قد غَشَت قلوبَهُم، وأحاطت بها إحاطةَ الصَّدأ بالحديد، حَتَّى طَمَسَت نور الفطرة، وأعْمَت البَصائِر[2].

بلاغَةُ الاستِعارَةِ في مُفْرَدَةِ ﴿رَانَ﴾:

تشبيهُ الذَّنب المُتراكِم بالصَّدأ القارِّ بجامِعِ مَنْعِ الانتِفاعِ بالنّافع

الرَّيْنُ في أصل معناه: الصَّدأ أو الغِشاء المتراكم الثّابت، فشبَّهتِ الآيةُ ما يستقرُّ على القلب من أثر المعاصي حتَّى يُغطيَه، ويمنعَ نورَه من الإشعاع بالرَّيْن، فهي استعارة تصريحيَّة، شُبِّه فيها الذَّنب المتراكم بالصَّدأ القارِّ الذي يعجز صاحبُه عن إزالته بسُهولة[3]، فكما يُغطّي الصَّدأُ صفحةَ الحديد حتَّى يحجُبَ بَريقَه، كذلك تُراكم

---

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 721، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 295، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 127.

(2) الشِّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 9/ 444، والسّيواسي، عيون التَّفاسير: 4/ 293، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 198، 199.

(3) الشِّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 9/ 444.

الخطايا على القلب حجابًا بعد حجاب حتَّى يُظلم، ويَنْطَفِئَ نورُه، فلا يعرف معروفًا، ولا يُنكر منكرًا، وهذه الاستعارة البليغة تُبرز أثر الذُّنوب في تغليفِ الفِطْرَةِ، وإخماد البصيرة، وتعطيل الإدراك الرّوحي، حتَّى ينقلبَ ميزانُ الإنسان، فيرى الحقَّ باطلًا والباطل حقًّا، وفي هذا تحذيرٌ شديدٌ مِن دوامِ المَعْصيَةِ لِما تُحْدِثُه مِن أثَرٍ عميقٍ في طبيعة القَلْبِ وصَفائه[1].

بلاغةُ المجازِ في حرفِ الاستعلاءِ:

الذُّنوبُ المستوليَةُ على جمال القَلْبِ مانعةٌ من الفَضيلَةِ

الاستعلاء في حرف ﴿عَلَىٰ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ مجازيٌّ، يُصوِّر الرَّين في صورةِ غشاءٍ يعلو القلوبَ، ويَغْمُرها، حتَّى يحجُبَ عنها نورَ الهداية والإيمان، فالذُّنوب قد تراكمت فوقها طبقةً بعد طبقةٍ، فصارت مُغلَّفةً لا ينفذ إليها نورُ الحقِّ، وذلك نتيجة انغماسهم في المعاصي وانهماكِهم في الآثام[2].

دلالَةُ إضافَةِ القُلوبِ إلى الضَّمير:

التَّكذيبُ بالقرآنِ ذنبٌ جماعيٌّ، فاستَوْلى على المكذِّبين داءٌ مشترَكٌ

أُضيفت القلوبُ إلى ضَميرِ الجَمْعِ في قوله تعالى: ﴿بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾؛ للدّلالة على العموم، أي: إنَّ الرَّين لَم يَخْتَصّ بقَلْبٍ واحد من المكذِّبين، بل شَمِلَ قلوبَ جميعِ مَن قالوا هذا القولَ الشَّنيع، وقد عُبِّر عنهُم بالجَمْعِ؛ إشارةً إلى كَثْرَتِهم وتنوُّعهم، وتنبيهًا إلى أنَّ هذا الغِطاء يكسو قلوب كُلِّ فردٍ منهم دون استثناء[3]، وهو يدلُّ على أنَّ الذُّنوب التي يتّفق عليها مجموعُ المكذّبين ينالهم عقابٌ يشتَمِلُ عليهم جميعًا.

نُكْتَةُ ذِكرِ فِعْلِ ﴿كَانُواْ﴾:

من العدل الإلهيِّ أن يُعاقب الله تَعالى المُكذِّبين على عنادِهم وإصرارهم

ذُكِر فِعْلُ الكَوْنِ ﴿كَانُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، ولم يُستَغْنَ عَنْهُ، فلم يَرِد النَّظْمُ القرآنيُّ: (ما

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 916، والقاسمي، محاسن التأويل: 9/ 431.

(2) السَّمرقندي، بحر العلوم: 3/ 557، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 20/ 149.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 321.

يكسبون)؛ وذلك لبيانِ أنَّ ما كسبوه من التّكذيب والكفر بآيات القرآن الكريم ديدَنُهُم وعَمَلُهم الدّائم، فلم تكن أعمالُهم فلتاتٍ يسيرةً، أو غيرَ مقصودة، بل كانَت عن عنادٍ وإصرارٍ.

بلاغَةُ التَّعبير بصيغَةِ المُضارع:

تجدُّدُ اقترافِ الذُّنوبِ منهَجُ المكذّبين وسبيلُ الضّالّين

جاء التَّعبير بفعل ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ بصيغة المُضارع؛ للدّلالة على استمرارهم في اقترافِ الذُّنوب وتجدُّدِها المرَّة بعد الأخرى، حتَّى صار الإثمُ عادةً ملازمةً لهم، لا ينفكّون عنها، وفي ذلك تصويرٌ لحالهم بأنَّهم ماضون في كسْبِ السَّيئات بإصرارٍ وجرأةٍ، وقد غلبت عليهم الذُّنوب حتَّى أعاقَتْهُم عن التَّوبة والإقلاع، فاستَمَرّوا في المعاصي دون ندمٍ أو انقطاعٍ[1].

غرَضُ حَذْفِ المفعولِ:

عمومُ المَعاصي والآثامِ سَبَبُ الرَّيْنِ على القلوبِ

حُذِف مفعولُ فعل ﴿يَكۡسِبُونَ﴾؛ لإفادة العموم والشُّمول، أي: ما كانوا يكسبونه من أنواع المعاصي والآثام، سواءٌ أكان كفرًا أم فسقًا أم غيرَ ذلك من الذُّنوب التي تراكمت على قلوبهم حتى غَشَتْها كما يَغْشى الصَّدأُ سطحَ المِرآة، فحجَبَت عنها نورَ الحقّ، ومنعَت نَفاذَ الهِدايَةِ إليها[2].

فائدة تكرار ﴿كَلَّآ﴾ وغرَضُها:

حَمْلُ الكلامِ على التَّأسيسِ أَوْلى مِن حَمْلِهِ على التَّأكيد

جاء تكرارُ أداةِ الرَّدع والزَّجر في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾؛ لتَصْرِفَهُم عن غيِّهم، وتُنذرَهم بعاقبة أعمالهم التي رانَت على قلوبهم، وفي تكرار ﴿كَلَّآ﴾ تأكيدٌ للأولى؛ لتزدادَ قوَّةُ الإنكار، وليصير الرَّدعُ توبيخًا صريحًا وتقريعًا شديدًا مضاعفًا، وأيضًا فإنَّ فيه تهديدًا بالغًا بسبب ما هُم عليه من

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 88، والبقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 321، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 199، 200.

(2) المنصوري، المقتطف من عيون التفسير: 5/ 454، وابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 261.

الضَّلال والعناد[1]، أو لبيان استقلال الجملة الثّانية عن الأولى في الدّلالة، فالأولى في بيان سبَبِ الرّين في الدّنيا، والثّانية في بيان حالِهم مع ربِّهم في الآخرة، فهم مَحْجوبون عنِ اللّه تعالى، لا ينالون مِن رَحْمَتِه وصولًا، فهو رَدْعٌ أن يَظُنّوا أنَّ لهم رحمةً من اللّه تَعالى بعد وصْفِهم كتابَهُ بما وصفوا، وحمل الكلام على التَّأسيس أولى من حَمْلِه على التّأكيد.

عِلَّة فصلِ جُمْلَةِ ﴿إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ﴾:

الانتقال من مقامِ الزَّجر والإنذار إلى مقام بيان العاقبةِ والجزاءِ

جُملة: ﴿إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ مُستأنفة؛ لأنّها تُفصِّل مضمونَ الرَّدع الذي سبَق في قوله: ﴿كَلَّآۖ﴾، وتُبيّنُه، فبَعْدَ أن زُجِروا عمّا هُم عليه من تكذيبٍ وغفلة؛ بُيِّن ما يترتّب على ذلك من جزاءٍ مهين، وهو حِرمانُهم من النَّظر إلى وجه ربِّهم الكريم[2]، فالفصلُ هُنا للانتقال من مقام الزَّجر والإنذار إلى مقام بيانِ العاقبةِ والجزاء.

بلاغَة التَّوكيد:

جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ مؤكَّدًا بـ: إنَّ واللّامِ المزحلقة؛ لزيادة التَّقرير والتّوكيد على قوَّة الحَجْبِ، وليَعْلَموا أنَّه لا مجالَ لرَحْمَةِ مَن أُشْرِكَ بِهِ سبحانه.

بلاغَةُ الإيجازِ بحذفِ المضاف:

الحذفُ أبلغَ في التَّوبيخ وأشدّ في الإهانة

حُذف المضافُ في قوله تعالى: ﴿عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾، دونَ أنْ يُقالَ: (عن رُؤيةِ ربِّهم)؛ ليبقى اللَّفظ على إطلاقهِ واتّساعه، فيشمل الإخبارَ عن حَجْبِهم عن رؤية اللّه تعالى وحرمانهم من أعظمِ النَّعيم، وإذلالهم ومنعهم من القُرب، كما يُمنع المُجْرِم أو

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 721، 722، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 295، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 429، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 127.

(2) الواحدي، التَّفسير البسيط: 23/ 326، والعلوان، إعراب القرآن الكريم: 4/ 2651.

العبد المُسيء من المُثول بين يدي المَلِكِ العظيم[1]، فجاء الحذفُ أبلغَ في التَّوبيخ وأشدّ في الإهانة؛ إذْ جَمَعَ بينَ الحِرْمانِ مِن النَّظر إلى وجهِ الله الكَريم والطَّرد من جَنابِهِ الأعلى؛ جزاءً لتكذيبهم بيوم الدِّين.

نُكْتَة استعمالِ لفظِ الرُّبوبيّة دون الاسم الأحسَن (الله):

خُسران المعلومِ آثارُهُ والمُدْرَكَةِ صِفاتُه تُحرِّك قلوبًا واعيةً وعقولًا مُدْرِكَةً

آثَر النَّظم الكريم التَّعبير بعنوان الرُّبوبية ﴿رَّبِّهِمْ﴾ دون الاسم الأحسَنِ (الله)؛ لِما في الرُّبوبيَّة من دلالةٍ على الرِّعاية والإحسان والتَّربية والرَّحمة، وهي معانٍ تقتضي القُرب والعطف[2]، فجاء التَّعبيرُ بهذا الاسم الشَّريف؛ ليُبرز شِدَّة الخُسران والحرمان؛ إذ حُجِبوا عن ربٍّ كان يُربّيهم بنِعَمِه، ويَدْعوهُم برَحْمَتِه، فجازاهم على جُحودِهِم بالبُعْدِ عن رَحْمَتِه.

بلاغَةُ تَنْوينِ العِوَضِ:

إيجازُ اللَّفظ وتعظيمُ المَوْقِفِ اختزالٌ للمعنى

التَّنوينُ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ عِوَض عن جملةٍ محذوفَةٍ تقديرُها: (يومَ إذْ يقوم النّاس لرَبِّ العالمين)، فالمعنى: إنَّهم عن ربِّهم يوم يقومُ النّاس للحساب لمحجوبونَ في ذلك الموقف العظيم، وجاء هذا الحذف مع التَّنوين؛ ليوجِزَ اللَّفظ، ويُعظِّم الموقف في الوقت نفسِه؛ إذ يُحيل السّامع إلى مشهد القيامِ والهول[3].

بلاغَةُ التَّمثيل:

تجسيدُ الإهانة المعنويَّة والحرمانِ الرّوحي في صورة محسوسَةٍ

في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ تصويرٌ تمثيليٌّ بليغ يُبرز ما بلغَه المكذّبون من التَّحقير والمهانة؛ إذ صوَّر حالَهُم بحال الأدنياءِ المَذْمومينَ الذين يُمنَعون من الدُّخول على المُلوك وأصحاب المكانَةِ العالية، فلا يُؤذَن لهم بالمُثولِ بين أيديهم، بخلاف

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 200، 201.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 323، والشَّيخ علوان، الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية: 2/ 493.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 280، والدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 415.

المقرّبينَ المكرَّمين الذين يُؤذَن لهُم بالدُّخول واللِّقاء[1]، فجاء هذا التَّمثيل؛ ليجسّد الإهانة المعنويَّة والحرمان الرّوحي في أبلغِ صورةٍ؛ دلالةً على أنَّ حَجْبَهُم عن ربِّهم هو أقصى مراتبِ الخِزْيِ والخِذلان.

بلاغة التَّعبير بمفردة الحجب في مقام العقوبةِ:

الحجابُ أعظمُ العقوبات وأشدُّ العـذاب على قلوب العبادِ

في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ إشارةٌ بليغة إلى أنَّ الحجابَ عن الله تعالى هو أعظمُ العقوبات وأشدُّها، وفي هذا ردٌّ صريح على مَن زعم أن الكافرين يرون ربَّهم يوم القيامة؛ إذ دلَّت الآية على أنَّهم يُمْنَعون من أعظم نعيم الآخرة، وهو النَّظر إلى وجه الله الكريم وسماعِ خِطابِ العَليم، وأيضًا فإنَّ مفهوم المخالفة في الآية يدلُّ على أنَّ المؤمنين يُكرَّمون برؤيةِ ربِّهم ﷻ، فيتلذَّذون بمشاهدته، ويأنَسون بخطابه، ويغتبطون بقُربه، وهو النَّعيم الذي يفوق كلَّ نعيمٍ ماديٍّ أو روحي، وقد استدل أئمَّة أهل السُّنَّة بهذه الآية على ثبوت رؤيةِ المؤمنين لربِّهم؛ لأنَّ الله تعالى جعل الحِجاب عن رؤيته أعظمَ عقوبَةٍ للكُفّار، فدلّ ذلك على أنَّ المؤمنين مُشرَّفون برؤية ربِّهم ورضوانه[2].

بلاغَةُ العَطْفِ بحَرْفِ التَّراخي:

الانتقالُ مِن ذِكْرِ عَذابِ القَلْبِ إلى عذابِ القالبِ

جاء العطف في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ﴾ بحرف التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾؛ ليُفيد الانتقالَ مِن نَوْعٍ مِن العذاب إلى ما هو فرعٌ عنهُ[3]، فبَعْدَ أن بيّن سُبحانه عذابَ الحجابِ عن رؤيته؛ انتقل بحرف

(1) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 418.

(2) ابن جُزي، التَّسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 462، والسُّيوطي، الإكليل في استنباط التَّنزيل، ص: 284، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 916، وابن القيِّم، حادي الأرواح، ص: 292.

(3) اختار بعضُ أهل العلم أنَّ التَّراخي الرُّتبي هُنا بذكر ما هو أشدُّ وأعظم، قال الشَّوكاني: "(ثُم) لتراخي الرُّتبة، لأنَّ صَلْيَ الجحيم أشدُّ من الإهانة وحرمان الكرامة"، وبهذا القولِ قال غيرُ واحد من أهل التَّفسير، ينظر: ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 261، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 127، والقنوجي، فتح البيان: 15/ 132.

والتَّحقيق أنَّ هُناك تفصيلًا، فعذاب النّار عند أهل الكفر أشدُّ بلاء من الحجاب، أمّا عند المؤمنين، فالحجاب عندهم أعظم أنواع العذاب، ينظر: الآلوسي، روح المعاني: 15/ 280.

﴿ثُمَّ﴾ إلى بيان عذابِ القالَبِ بالنّار[1]، وهكذا جَمَعَ اللّه تعالى على الكافرين نَوْعَيِ العذاب: عذاب البُعد والحِجاب، وهو عذابُ القلوب، وعذاب الجحيم، وهو عذابُ الأجساد، كما جمَعَ لأوليائه نوعَيِ النَّعيم: نعيم الجنَّة الحسّيِّ، ونعيم النَّظر إلى وجهه الكريم[2].

بلاغَةُ التَّوكيد وغَرَضُه:

اغـتـرارُ الكافرِ المكذِّب بالنِّعم مع عدمِ نُزول العذابِ به يقودُه إلى الضّلال البعيدِ

جاء قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ﴾ مؤكَّدًا بـ: إنَّ واللّام المزحلقة؛ وذلك ردًّا على إنكارهم وجُحودِهم، وتثبيتًا لِحقيقة الجزاء الذي يَنْتَظِرُهم، فالتَّوكيد هُنا جاء لبيان أنَّ مصيرَهُم إلى النّار أمرٌ محتوم لا مفرَّ منه؛ جزاءً لتكذيبِهم بيومِ الدّين وعُتوِّهم عن الحقِّ[3]، وأنَّ ما يظنّونه من الإفلات مِنَ العذاب بسبَبِ رَحْمَةِ اللّه تعالى؛ إذِ اعتيادُ الكافرِ المكذِّبِ النِّعَمَ - مع عدم نزولِ العذاب به لكُفْرِهِ وتكذيبه - يُغريه بمزيد الضَّلال، فيظنُّ أنَّ ما هو فيه رحمةٌ من اللّه تعالى، وأنَّه لن يَلْحَقَهُ أذًى، بل إنَّ له عنده الحسنى، وهذا هو الضَّلال البعيدُ.

بلاغَةُ التَّعبير بمُفْرَدَةِ ﴿لَصَالُواْ﴾ مادَّة وصيغَةً:

جزاءُ التّكذيب في الدُّنيا عذابُ الرَّيْنِ، وفي الآخرةِ عذابُ الصَّلْي

آثَرَ النَّظْمُ الكريمُ التَّعبير بمفردة ﴿لَصَالُواْ﴾؛ لتصوير حال المكذِّبين يومَ القيامة تصويرًا حسّيًّا مخيفًا، فيُظهر أنَّهم يُغْمَسون في النّار غمسًا، ويُقاسون حرَّها، ويُصْلَون بها، كما تُصْلَى الشّاةُ المشويَّة، فيَحْتَرِقُ لحمُهم، وتتمزَّقُ أجسادُهم[4]، وفي هذا دلالةٌ على شِدَّة العذاب وهَوْله ودوامِه، وحَقارَتِهم عندَ اللّه تعالى؛ إذْ أَصْلاهُم الجحيمَ صَلْيًا لا يكون معه إلّا شديدُ الألَم، وعظيم النّدم على ما فرّطوا في الدُّنيا، وفي اختيارِ اسْمِ الفاعِلِ دلالة على الثُّبوت

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 324.

(2) ابن القيم، إغاثة اللهفان: 1/ 32، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 280.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 324، والصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 30/ 272.

(4) الباليساني، حسن البيان: 6/ 2858، والبقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 324.

والاستمرار، فهُم يكونونَ مُلازمين للنّار ومُقيمينَ فيها، يُقاسونَ لهيبَها دونَ انقِطاع، ويُشْعِرُ اللَّفظُ أيضًا بتحقُّق الوُقوع مستقبلًا لا محالة؛ إذْ هو وعدٌ إلهيٌّ نافِذٌ لا مردّ له[1]، ولمّا اجْتَمَعوا في الدُّنيا على التَّكذيب، فأصابَهُم عذابُ الرَّيْن، فهُم كذلك في الآخرة قد أصابَهُم عذابُ الصَّلي.

نُكتة انتقاء لفظ ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾ دون النّار:

الاشتعالُ الشَّديد والتَّأجُّج المُستمرُّ صفاتُ الجحيمِ المُقيم

اختير لفظ ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ﴾ بدلًا من لفظ النّار؛ لِما في الجحيم من دلالةٍ على الاشتعالِ الشَّديد والتَّأجج المُستمرِّ؛ إذ تُستعمَلُ الكَلِمَةُ في الأصل لِما بلغَتْ نيرانُهُ غاية الاتِّقاد والحرارة، ولهذا أصبَحَ الجَحيمُ في اصْطِلاحِ القُرآن اسمًا خاصًّا لجهنَّم، دارِ العذابِ العظمى في الآخرة[2]، فكان في اختيارها تهويلٌ للعذاب وتعظيمٌ لِمَشْهَدِه؛ لتصويرِ أنَّهم لا يُقاسون نارًا عاديَّةً، بل نارًا متأجِّجة لا تخمد، هي الجحيمُ ذاتُ اللَّظى والعقابِ المقيم.

دلالَةُ العَطْفِ بحَرْفِ التَّراخي:

الانتقالُ بينَ مَراحِلِ العذابِ المادّيِّ والمعنويِّ بيانٌ لأهوالِ النّار

جاء العطفُ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ بحرف ﴿ثُمَّ﴾؛ ليدُلَّ على التَّراخي في الرُّتبة والانتقالِ إلى مرحلَة أُخْرى مِنَ العذاب والتَّهديد، فبَعْدَ أن عوقِبوا بالحِجاب عن ربِّهم، ثُمَّ بصَلْيِ الجحيم؛ ارتقى الوعيد إلى التَّقريع والتَّوبيخ القوليِّ، وهو نوعٌ من العذاب النَّفسيِّ الذي يُضاعِف أَلَمَهُم، ويَزيدُ خِزْيَهُم، فبعد الحجابِ جاء الاحتراقُ، ثُمَّ جاء القول المُهين الذي يقطَعُ الأمَلَ، ويُغلق بابَ الرَّجاء.

فاستعمالُ (ثُمَّ) يوحي بالمُهلة بين مراحل العذاب، فهي أزْمِنَةٌ تُهيِّئُهُم لتلقّي مزيدٍ من العذاب والتَّقريع، وفيه إشارةٌ إلى جواب

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 151.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 324.

مالكٍ خازنِ جهنَّم المذكور في قوله تعالى: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ٧٧ لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ٧٨﴾ [الزُّخرف: 77 - 78]، ثُمَّ يُجابون بعدَها، فيُقالُ لَهُم على وجْهِ الإهانَةِ الإذلال: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، فيتحقَّقُ بذلكَ الوعيدُ الذي طالَمَا أنكروهُ في الدُّنيا[1].

نُكتةُ بناء فِعْلِ ﴿يُقَالُ﴾ للمَفْعولِ:

إظهارُ مَضْمونِ القَوْلِ أشَدُّ مِن ذِكْرِ قائلِهِ

جاء فعل ﴿يُقَالُ﴾ في الآية مبنيًّا للمفعول؛ لأنَّ المقصودَ هو التَّركيز على مضمونِ القول ذاتِه لا على قائله، فالعبرة هُنا بما يُقال، وأيضًا فإنَّ في هذا الأسلوبِ إيحاءً بالتَّحقير والإهانة؛ إذْ حُرِم هؤلاء المكذِّبون من شَرَفِ الخِطاب المُباشر من الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: 77][2]، فالبناء للمفعول هنا يُظهر الإعراضَ الإلهيَّ عنهم.

دلالَةُ الجُمْلَةِ الخَبريَّة:

المُراد بالإخبارِ لازِمُهُ وهوَ التَّشنيعُ والتَّوبيخ

جاءت الجملةُ الخبريَّة في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ لا لمجرَّد الإخبار، بل خرجَ عَن معناهُ الأصليِّ إلى لازمه، وهو التَّشنيع والتَّوبيخ والتَّقريع؛ إذ يواجَه المكذّبون في موقف الخِزْيِ والرَّهبة بهذا القولِ الذي يُذكّرهم بإنكارهم القَديم، فيتحقّق فيهم الوعيدُ الذي طالَمَا سَخِروا منهُ[3].

بلاغَةُ استعمالِ اسمِ الإشارَةِ القَريب:

النّدامةُ أظهَرُ أشكالِ العذابِ المعنويِّ عند الإشارة إلى العذابِ الحِسّيِّ

جاء التَّعبيرُ باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ العذابَ قد صار واقعًا محسوسًا أمامهم، فاسمُ الإشارةِ يُبرزُ المشهدَ الحاضر، وهذا يُفيد أنَّ الوعيد

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 201، 202، والدَّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 10/ 415.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 30/ 201، 202، والسّيواسي، عيون التَّفاسير: 4/ 293.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 151.

قد تَحقَّق عيانًا، وأنَّ ما كانوا يَسْخَرون منه قد أصبح أمرًا مشاهدًا لا سبيل إلى إنكاره[1]، ففي اختيار اسم الإشارةِ تصويرٌ حيٌّ لموقف الخزي والرَّهبة، وإظهارٌ لتمام العدل الإلهيِّ حين يُعْرَضُ المُكذِّبون على العذاب الذي طالما جحدوه، فيرونَ بأعيُنِهم ما كانوا يكذِّبون به، فيزداد توبيخُهم وإذلالهم وحَسْرَتُهم، وتلحقُهم النّدامة حين تُنادي على عنادِهم، وتُذَكِّرهم بإصرارِهم.

نُكتَةُ استِعمالِ المَوْصولِ:

اختير اسمُ المَوْصولِ ﴿ٱلَّذِي﴾ بدلًا من (ما)؛ لِما في ذلك من استحضارٍ لِما كانوا يُكذِّبون به في الدُّنيا، وتنبيهٍ لهم على جَريمَتِهِم الماضية تَنديمًا لهم وتَحزينًا[2].

غرضُ ذِكْرِ ﴿كُنتُم﴾:

جاءَ ذِكْرُ فِعْلِ ﴿كُنتُم﴾ في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾؛ للدّلالة على أنَّ تكذيبَهُم لَم يكُن طارئًا أو عارضًا، بل كان صفةً راسخةً في نفوسِهم نابعةً من طَبيعَتِهِم الفاسِدَةِ[3].

نوعُ الباء ودلالَتُها:

التّذكيرُ بالمكذّب به حَسْرَةٌ وملامَةٌ

الباء في قولِهِ تَعالى: ﴿بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾؛ لتعديةِ الفِعْلِ ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ إلى المكذَّب به، أي: إلى الخبَرِ أو القَضيَّة التي أنكروها؛ إذ يُعدَّى الفعلُ بِنَفْسِه عند التَّكذيب للمُتكلِّم، وبالباء عند التَّكذيب للقولِ أو المضمون، وهي تُفيد الاختصاصَ، أي: تُكذِّبون به خاصَّةً[4].

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

أعظمُ الحَسَراتِ عندَ حُضورِ البَيِّناتِ والتَّذكيرِ بالنَّصائحِ القيِّمات

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على الفعل ﴿تُكَذِّبُونَ﴾؛ اهتمامًا بمرجع الضَّمير، أي: بما يعود إليه الضَّمير من العذاب المذكور؛ إذ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 201.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 202، وعبد الملك قاسم، عقد الجُمان: 1/ 1275.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 325.

(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 325، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 202.

المقصودُ لَفْتُ الانتباهِ إلى هذا الأمر العظيم الذي كانوا يُنكرونه، وفي هذا التَّقديم أيضًا رعايةٌ لجمال الفاصلة القرآنيَّة وتناسقِها في ختام الآيات[1]، ففي التَّقديم تنديمٌ وتحسيرٌ وتوبيخٌ وتقريعٌ وتبكيت، وإلحاقٌ بالبهائم بل أشدُّ.

دلالَةُ الاتِّساق في حَذْفِ مَفْعول ﴿تُكَذِّبُونَ﴾:

إفادةُ العُمومِ والإطلاق في تَكْذيبِهِم بالرَّسول وما جاء بِهِ

جاء فعل ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ في الآية مع حذف مفعوله؛ ليُفيد العمومَ والإطلاق، أي: تكذيبكم كان يشمَلُ كلَّ من بلَّغكم هذا الحقَّ، وعلى رأسِهِم رُسُلُ اللّه الذين دَعَوْكُم إليه في الدُّنيا، فالتَّقدير: هذا الذي كنتُم به تكذبون رُسُلَ اللّه وأخبارَهم، وبذلك تحقَّق في اللَّفظ اتِّساقُ المعنى واتِّساع الدّلالةِ؛ إذْ يجمع بَيْنَ تكذيبهم بالخبَرِ نَفْسِه، وهو يوم الدّين، وتكذيبهم بمَن جاء به[2].

نُكتة التَّعبير بصيغَةِ المُضارِع:

جاء التَّعبير بصيغة الفعل المُضارع ﴿تُكَذِّبُونَ﴾؛ ليدلَّ على تصويرِ ما صدَرَ عنِ المُكَذّبين في الدُّنيا صُدورًا دائمًا متجدِّدًا؛ ليتجدّد لهم العذابُ والحَسَراتُ والآلامُ كما جدّدوا تكذيبَهُم.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الكَسْب والاكتِساب:

الكَسْبُ فِعْلٌ عائِدٌ نفعُه وضرُّه على فاعِلِه، والاكتِسابُ المبالغةُ في الكسب

الكَسْبُ الفِعْلُ العائِدُ على فاعلِه بنَفْعٍ أوْ ضُرٍّ[3]، ويَشْتَمِلُ على ما هوَ خَيْرٌ كَقَوْلِه: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾ [الأنْعامُ: 158]، وفيما هوَ شَرٌّ كقَوْلِه: ﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ﴾ [البَقَرَةُ: 81]، ويكونُ لِنَفْسِه ولِغَيْرِه، والاكتِسابُ المُبالَغَةُ والاعتِمالُ في الكَسْبِ، ويكونُ لِنَفْسِه خاصَّةً[4]، ففي الاكتِسابِ مَزيدُ إعْمالٍ وتَصرُّفٍ، أمّا إذا جاءَ الكَسْبُ مُجْتَمِعًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 202.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 202.
(3) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 137.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 2/ 762.

مَعَ الاكتِسابِ، فإنَّ الكَسْبَ هُنا لا يَعْني إلّا ما هوَ خَيْرٌ، والاكتِسابُ يَعْني ما هوَ شرٌّ، قال تَعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾ [البَقَرَة: 286]، وعِنْدَ الافتراقِ يَحْتَمِلُ الاكتِسابُ المَعْنَيَيْنِ، كما هوَ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ﴾ [النساء: 32]، أي: لِلرِّجالِ نَصيبٌ مِنْ ثَوابِ اللّه تَعالى وعِقابِهِ مِمّا اكْتَسَبوا، فعَمِلوهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، ولِلنِّساءِ نَصيبٌ مِمّا اكْتَسَبْنَ مِنْ ذَلِكَ[1].

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 6/ 669.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١﴾ [المطففين: 18 - 21]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ مِن ذِكْرِ أهلِ النّارِ ترهيبًا إلى ذِكْـرِ أهـلِ الجنّة ترغيبًا

لمّا ذَكَرَتِ الآيات السّابقة حالَ الفُجّار وكتابَهم الذي وُضع في أسفل الدَّرجات وأضْيَقِ المواضع؛ عقّب ذلك بذِكْرِ كتاب الأبرار الذي جُعل في أعلى المنازل وأشرفها وأوسعها؛ ليُظهر التَّباينَ العظيم بين الفريقَيْنَ في المصير والمنزلة[1]، وكذلك لمّا عرضتِ الآياتُ السّابقة صفة المُطفِّفين وما أعدَّ لهم من سوء الجزاء؛ أُتْبِعَ ذلك بذِكْرِ حال الأبرار الذين نزّهوا أنفسَهم عن الظُّلم والتَّطفيف[2]، ففي الآيات بيانٌ للمُفارقة التّامَّة بَيْنَ أهل الفجورِ وأهل البرِّ، وانتقالٌ بين المَثاني مِن ذِكْرِ أهل النّار ترهيبًا، إلى ذِكْرِ أهلِ الجنَّة ترغيبًا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عِلِّيِّينَ﴾: أصلُ (علو) يدُلُّ على ارتفاعٍ[3]، و﴿عِلِّيِّينَ﴾ جمعٌ منقولٌ عن لفظ عِلّيٍّ، موضوعٌ على صيغة الجَمْعِ لا واحد له من لفظه، كقولك: عشرون. وقال بعض أهل العلم: عِلّيّونَ: بمعنى عُلوّ على عُلوّ، ولذلك جُمع بالواو والنّون تعظيمًا لشأنه، وقال يونس النَّحويُّ: عِلّيّونَ: جمع عِلّيّ وعِلّيَّة[4]، وهو صيغَةُ فِعّيل مأخوذةٌ من العُلوّ، على نحو ما يُستعمَل سِجّين من السَّجن، وقد قيلَ في معناهُ: إنَّه السَّماء السّابعة تحت العَرْشِ، وقيل أيضًا: إنَّه علامَةٌ أو سجلٌّ لديوان الخير، يُدوَّن فيه كلُّ ما قامَ به الملائكة والصّالحون من

(1) أبو حيّان الغرناطي، البحر المُحيط: 10/ 430، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 916.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 90.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علو).
(4) نشوان الحميري، شمس العلوم: (علو).

الثَّقلين، وقد أُطلق هذا الاسمُ؛ إمّا لأنّه سبَبٌ للعُلوِّ والارتفاع إلى أعلى درجات الجَنَّة، أو لأنَّه مرفوعٌ في السَّماء السّابعة، دالًّا على الرِّفعة والمقامِ العَظيم(1).

❁ المَعنى الإجماليُّ:

بيانُ حال الأبرارِ في دار العلوِّ والقرارِ

تُبيِّن الآيات الكريمةُ بأُسْلوبِ الرَّدع لكلِّ من يَظُنّ أنَّ وعد الأبرار كوعيدِ الفُجّار، فليس الأمرُ كما يَزْعُمون من مُساواة الفُجّار بالأبرار في دارِ القرار، فإنَّ صحيفةَ أعمالِ المؤمنين الطّائعين محفوظَةٌ في مَوْضِعٍ عالٍ ورفيع، وما أعلَمَك - يا أيُّها الرَّسولُ الكريمُ - بحقيقةِ عِلّيّينَ الموضوعِ فيه كتابُ أعمالِ الأبرارِ، كتابٌ مسطَّر بأعمالهم الصّالحة فيه بوُضوحٍ دونَ زيادةٍ أو نَقْصٍ يَحضُرُه عِبادُ اللّه تَعالى المُقَرَّبونَ(2).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالَةُ استِعْمالِ الأداةِ ﴿كَلَّآ﴾، وبيانُ موقِعها في السّياق:

ردعُ المكذِّبين وإبطالُ كلامِهم توكيدٌ لمَصيرِهم المَذْكورِ

﴿كَلَّآ﴾ هنا حرفٌ دالٌّ على رَدْعٍ بعدَ ردع، فهي تأكيدٌ للرَّدع السّابق؛ ليُعقبَهُ وعدَ الأبرار، كما عُقّب التَّحذيرُ الأوَّل بوعيد الفجّار، وهو إشعارٌ بأنَّ التَّطفيف فُجور وجَوْر، والإيفاء بالحقوق برٌّ وإحسان(3)، فهي ردع وإبطالٌ لِما تَضمَّنَه ما يُقالُ لهم: ﴿هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، فتكون كلمة ﴿كَلَّآ﴾ جزءًا ممّا يُقال لهم في الجملة السّابقة؛ رَدْعًا لهم، فهيَ إذًا مِنَ المَحْكيِّ بالقَول، ويجوز أن تكون معترضة من كلام اللّه ﷻ في القرآن؛ إبطالًا لتكذيبهم

(1) الواحدي، البسيط: 23/ 333، وابن عطيّة الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 5/ 452.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 264، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 352، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 487.

(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 722، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 295، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 127، والدَّرويش، إعراب القرآن: 10/ 415.

المَذْكور[1]، وهو ما يُؤكِّد مصيرَهُم المَذْكور في الآيات، وأنَّهم لن يَنالوا إلّا عقابًا جزاءَ كُفْرِهم بآياتِ اللّه تعالى.

علّةُ فصْلِ الجملة: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ عمّا قبلها:

فُصلت جملةُ: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ عن سابِقَتِها؛ لأنَّها استئنافٌ مسوق لتوضيح موضِعِ كتاب الأبرار بعدَ بيانِ سوءِ حال الفجّار، وفي هذا الفَصْلِ تأكيدٌ للرَّدع ووجوبِ الانكفافِ عن تكذيبِ الحقائقِ؛ إذْ يُشير إلى أنَّ كتاب الأبرار محفوظٌ في موضِعٍ رفيع، شاهدٍ على طاعتهم وأعمالهم الصّالحة[2].

الاستئنافُ يُراد به الرّدُّ على ما يَزْعُمُهُ الجاحِدونَ مِن استِحْقاقٍ باطِلٍ

غرض التَّوكيد:

أُكِّدت جُملة: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ بمؤكِّداتٍ ثلاثةٍ: ﴿إِنَّ﴾، واسميَّة الجُملة، واللّام؛ وذلك لتقرير مضمونِ الكلامِ وتأكيده؛ ردًّا على تكذيب المكذِّبين[3].

فائدةُ بديعِ المُقابلة:

تجلَّت في هذه الآيات الكريمة صورةٌ من صور البديعِ القرآنيِّ، وهي مقابلةُ مصير الفجّار بمصير الأبرار، وأكّدت في الوقتِ ذاتهِ كمالَ عَدْلِ اللّه تعالى في الجزاء، فقد قابل النَّظمُ الكريم بين حالَي الفُجّار والأبرار، فالفُجّار وُصِفوا بأنّ كتابهم في سِجّين، في موضعٍ سُفليٍّ مظلم ضيّق، رمزٍ للحجابِ عن اللّه تَعالى والحرمانِ من رحمته، بينَما كُتِبَت أعمالُ الأبرارِ في عِلّيّين، في موضعٍ عالٍ مضيءٍ فسيحٍ، دالٍّ على السَّعة والنّور والقُرب من الملأ الأعلى[4]، وهذا التَّقابل بين العلوِّ والسُّفول، والنّور والظُّلمة، والسَّعة والضّيق، يُجسّد المُفارقة الكاملة بَيْنَ صفات الكمال والعزّة، وصفات النَّقص

إبرازُ الفارق العظيمِ بينَ المَصيرَيْنِ وتوكيدُ عدلِ الله تَعالى في الجزاءَيْنِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 202.

(2) الشَّوكاني، فتح القدير: 5/ 487، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 127.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 325.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 90.

والمهانة، وهي مقابلةٌ تكرَّرت بألفاظ متنوِّعة، وتراكيبَ متعدِّدة، وجُمَلٍ مُتقارِبَة، ومعانٍ متشابهَةٍ في القرآنِ الكريمِ.

نُكْتَةُ استعمالِ مُفْرَدَةِ ﴿كِتَٰبَ﴾:

أعمالُ الأبرارِ مجموعةٌ في كتابٍ وثيقٍ ومحفوظةٌ في مكانٍ أنيقٍ

آثر البيانُ القرآنيُّ استعمالَ لفظِ ﴿كِتَٰبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ المقصودَ به ما كُتِب من أعمالهم، فالمُراد: أنَّ أعمالَ الأبرارِ مكتوبةٌ فيه، و﴿كِتَٰبَ﴾ مصدر مُضاف، وفي هذا إيماءٌ إلى ثبوت أعمالهم وتدوينِها؛ إذ الكتابُ أدلُّ على التَّوثيق والإحكام[1]، وأيضًا فإنَّ مادَّة كتب تدلُّ على الجمع والضَّمّ، وهو ما يُشير إلى أنَّ أعمالَهُم في الدُّنيا قد جُمعت لَهُم، وضُمَّت في هذا الكتاب، فأصبح كتابًا حاكمًا على مصيرِهم، مبيِّنًا درجاتِهِم، على ضَوْءِ ما عَمِلوه، فحازوا، وقدّموه، ففازوا.

دلالَةُ استِعمالِ مفردة ﴿عِلِّيِّينَ﴾ مادَّة وصيغَةً:

(عِلـيّون) عَلَمٌ على المكانِ الرَّفيع الذي تُحفظ فيه أعمالُ الأبرار

لفظ ﴿عِلِّيِّينَ﴾ مأخوذ من العُلوِّ، وهو منقولٌ مِنْ جَمْع (عِلّيّ) على وزن (فِعّيل) من العُلوّ كسِجّين مِن السَّجْن، فهو في غاية الرِّفعة وسموّ المنزلة، وهو موضعٌ مخصوص في الجنَّة، دالٌّ على ديوانِ الخَيْر الذي يَسْكُنُه الملائكَةُ، وتُدَوَّن فيه أعمالُ الأبرار من صالحي الثَّقلين، وسُمّيَ عِلّيّون بهذا الاسم؛ لأنّه إمّا سببُ الارتقاء إلى أعلى درجات النَّعيم، أو لأنَّه موضوعٌ في السَّماء السّابعة حيثُ مقامُ المكرَّمين، تشريفًا له وتعظيمًا[2]، وقد جُعل على صيغة جمع المُذكَّر السّالم؛ لأنَّ هذه الصّيغة تُستعمل عادةً لأسماءِ العقلاء وصِفاتِهِم، فاستُكمِل له بذلك شرفُ المعنى؛ إذ أُعطيَ صيغةً تدلّ على التَّمجيد والرِّفعة؛ ليُعبَّر بها عن أسْمى منازلِ النَّعيم وأعلاها[3]، وفي اجْتِماعِ

(1) الرَّسعني، رموز الكنوز: 8/ 538، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 31/ 228.

(2) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 722، وابن جزي، التَّسهيل لعلوم التَّنزيل: 2/ 462، والبالسياني، حسن البيان: 6/ 2859، ودروزة، التَّفسير الحديث: 5/ 511.

(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 723، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 203.

هذه المعاني لهذهِ المُفْرَدَةِ إشارةٌ إلى مكانٍ تتشوّق له النُّفوس، وتتحرّك صوبَه الأبدانُ، بحيث اشتمَلَ على العلوِّ، والرِّفعة، والمكانة، مع تعليل ذلكَ بالعلوِّ المقيم، والارتفاع العميمِ.

بلاغةُ فنِّ الاحتباك وسرُّه البيانيّ:

اجتمع للأبرارِ العلوُّ نصًّا والسَّعةُ دلالةً، وللفُجّار الضّيق نصًّا والسُّفل دلالةً

في تقابل قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ مع قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾ فنُّ الاحتباكِ؛ إذ حُذِف من كلٍّ منهما ما أُثبت في الأخرى، فذُكِر ﴿سِجِّينٖ﴾ أوّلًا دالًّا على الاتّساع ثانيًا، وذُكِر ﴿عِلِّيِّينَ﴾ والمُقَرّبونَ ثانيًا؛ للدّلالةِ على أسفل سافلين والمُبْعَدين أوّلًا[1]، فلفظُ ﴿سِجِّينٖ﴾ دالٌّ على الضّيق، ومقابلهُ السَّعَة، ولفظُ ﴿عِلِّيِّينَ﴾ دالٌّ على العلوِّ والرِّفعة، ومقابله السُّفل، فاجتمع للفجّار الضّيق نصًّا، والسُّفْلُ بدلالة المقابلة، واجتمع للأبرار العلوُّ نصًّا، والسّعةُ بدلالة المقابلة، ويكمُنُ سرُّ الاحتباك في التَّصريح بالضّيق في حقِّ الفجّار، وهو عليهم أشَدُّ مِن السُّفل، والتَّصريح بالعلوِّ في حقِّ الأبرار وهو أكرمُ لَهُم مِن السَّعة، ولمّا كانت الجِهَةُ العُليا أوسَعَ وأرحَبَ، والسُّفلى أضيَقَ وأشدّ؛ جاء التَّقابُلُ بين ﴿عِلِّيِّينَ﴾ و﴿سِجِّينٖ﴾، فلَم يَقلْ: (في سِفْلين)، كما لَم يَقلْ: (في وِسْعين)؛ ليقَعَ الاحتباكُ دالًّا على المقصودِ بأوجز الألفاظ، وأدقِّ التَّعبيرات.

نوعُ الواوِ ودلالَتُها:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾؛ للعطْفِ على الجملة السّابقة؛ إذْ إنَّ الحديثَ مُتَّصِلُ السّياق، يدورُ حولَ مشهدٍ واحدٍ هو وصفُ كتابِ الأبرارِ.

بلاغَةُ الاستفهامِ وغَرَضُهُ:

تفخيمُ أمْرِ هذا الدّيوان، والتَّنويهُ بعَظيمِ شرفه، وسُموِّ شأنه

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ يُرادُ به تفخيمُ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 327.

أمر هذا الدّيوان، والتَّنويه بعظيم شرفِه، وسموِّ شأنه؛ إذ هو ديوانُ الخير وكتابُ الأبرار الذي سُطِّرت فيه أسماؤُهم وأعمالُهم، فصار عَلَمًا على المرتبةِ العُليا التي أُعِدّت لهم في دار الكرامة، والمعنى: وما أعلمَكَ - أيُّها الرَّسول الكريمُ - ما حقيقة هذا الموضع الرَّفيع الذي كُتبت فيه صحائفُ الأبرار؟ فهو تنويهٌ بمقامهم، وإشادةٌ بقَدْرِهم، وتفخيمٌ لشأن الكتاب الذي خُلِّد فيه ذكرُهم[1].

دلالَةُ استِعمالِ ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾ مع الاستفهامِ:

حقائقُ الآخرةِ مُتعاليَةٌ عن حدودِ المكانِ والزَّمانِ فوقَ إحاطَةِ العقلِ البشريِّ

في استعمالِ لفظِ ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾ مع أداةِ الاستفهام دون سائرِ مرادفاتِها ما يوحي بالإبهامِ المقصودِ والتَّعظيمِ المرهوب؛ إذ يُراد به إظهارُ عجزِ العقل البشريِّ عن الإحاطة بحقيقةِ ما وراءَ الحِسِّ، فكما في سائرِ السّور المكّيَّة؛ يأتي هذا الأسلوبُ ليُشعرَ بأنَّ حقائقَ الآخرةِ متعاليةٌ عن حدودِ المكان والزمان المعروفَيْن لدَيْهم، فلا سبيلَ للعقل إلى إدراك كُنْهِها إلّا بما أذنَ اللّه تَعالى به من إشاراتٍ تُحدِثُ في النَّفسِ روعةَ الغيبِ وإجلالَ المصير[2].

غَرَضُ تَنْكير لفظِ ﴿كِتَٰبٞ﴾:

جاء تنكيرُ لفظِ ﴿كِتَٰبٞ﴾ للتَّفخيم والتَّعظيم[3]؛ إذ يُراد به كتابٌ عظيمُ الشَّأن، جليلُ القَدْرِ، يَجِلُّ عن الوصف، ويوحي بعظمةِ مضمونِه ورفعةِ منزلتِه عندَ اللّه تعالى.

نُكتَةُ ذِكرِ لَفْظِ ﴿مَّرۡقُومٞ﴾:

توكيدُ المَكْتوبِ وتحقيقُ الحِفْظِ التّامِّ والصّيانَةِ الكامِلَةِ

ذَكَرتِ الآيةُ أنَّ كتابَ الأبرار كتابٌ مرقومٌ، أي: مُثبتٌ ومُحكَمُ التَّسجيل؛ تحقيقًا لكونه مكتوبًا كتابةً حقيقيَّةً، وتأكيدًا لصِدْقِ

(1) القُرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 263، والخطيب، التَّفسير القرآني: 16/ 1494، والطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 325.
(2) الزين، بيان النَّظم: 4/ 296.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 326.

تدوين أعمالِهِم وضَبْطِها دون إغفالٍ أو نسيان[1]، وفيهِ زيادةُ طَمأنَةِ نفوسِ المؤمنين، فاقتضى الإخبارُ بأنَّه كتابٌ ابتداءً الدّلالةَ على أنّه مرقوم، فيكونُ التَّنصيص على وصفِ ﴿مَّرْقُومٌ﴾؛ توكيدًا على عدم الضّياع، وعلى الإثباتِ المُحَقَّق، وهو كنايةٌ عَن حِفْظِ الأعمال بالتَّمام والكمال.

توجيهُ الإخبارِ عَن كتابِ الأبرار بأنّه مَشْهودٌ بخلافِ كتابِ الفُجّار:

رفعَةُ شأنِ الأبرار تَظْهَرُ في شُهود الأخيارِ

أبانَ اللّه جلّ شأنُه في قوله تعالى: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ عن خصوصيّةٍ جليلةٍ خَصَّ بها كتابَ الأبرار؛ إذ جعله يُكتب، ويوقَّع لهم في محضرٍ كريم، يشهَدُهُ صفوَةُ الخَلْقِ من الملائكة والنَّبيّين وأئمّة المؤمنين - على أحدِ الأقوال[2] - ولم يُشر إلى شهادَةِ هؤلاء لكتاب الفجّار؛ إعلاءً لقدْرِ الأبرار وتنويهًا بذكرهم، وإظهارًا لرفعة منزِلَتِهِم عندَ اللّه تَعالى، فهو مشهدُ تكريم سماويٍّ يُعرَض فيه كتابُهم على خاصّة المقرَّبين، كما تُعلِن الملوكُ تواقيعَها في حضرةِ الأمراء ووجوهِ الدّولة؛ إجلالًا للمكرَّم وتشهيرًا بفضله، وذلك في حقيقتهِ صلاةٌ من اللّه تعالى وملائكته على عبدهِ الصّالح؛ إشعارًا بمحبَّته، وإعلانًا لفضله، وتثبيتًا لذِكْرِهِ في الملأ الأعلى[3].

بلاغَةُ الكناية في فِعْلِ ﴿يَشْهَدُهُ﴾:

الإيحاءُ بأنَّ الأبرارَ يتنعَّمون بالقُربِ مِنَ الله تَعالى ومُجالسة الملائكةِ المُقَرَّبين

في قوله تعالى: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ كنايةٌ رفيعةٌ عن تَنَعُّم الأبرار وتكريمِهِم، فهوَ علامَةٌ على سعادةِ صاحبِه وكونهِ مِن أهل الجنَّة، وفيه إشارة إلى عُلوِّ درجات صاحبه فيها[4]؛ إذ إنَّ حضور المقرَّبين من حمَلَةِ العَرْشِ وخواصِّ الملائكة مشهدُ تشريفٍ ورضوانٍ، لا مُجرَّد شهادةٍ ورؤية، فشُهودُهُم لكتاب الأبرار إشارةٌ إلى مشاركَتِهم في

(1) ابن القَيِّم، حادي الأرواح، ص: 70.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 327.
(3) ابن القيِّم، حادي الأرواح، ص: 70.
(4) عبد القادر ابن ملا حويش العاني، بيان المعاني: 2/ 515.

سُرورهم ومؤانستهم في مقاماتِ النَّعيم؛ إذْ لا يَشْهَد الكرامُ إلّا ما كان كريمًا، ولا يحضُر المقرّبون إلّا مقامًا يليق بعلوّ منزلتهم[1]، ففي التَّعبير إيحاءٌ بأنّ الأبرار يتنعَّمون بالقرب من اللّه تَعالى ومُجالسة الملائكة المقرَّبين، وأنَّ كتابهم مشهودٌ بالرِّضا والقبول، محاطٌ بأنوار الكرامة والسُّرورِ.

مَعْنى التَّعريف في لفظِ ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾:

المقصود بلفظ ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ الملائكة الكرامُ، وأرواحُ الأنبياءِ والصِّديقين والشُّهداءِ[2]، فاللّام على هذا التَّفسير تُفيد الاستغراق والشُّمول لِكُلِّ هؤلاء.

(1) المهائمي، تفسير المهائمي: 3/ 517.
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 916.

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣ تَعۡرِفُ فِي
وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ٢٥ خِتَٰمُهُۥ
مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ
٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢٨﴾ [المطففين: 22 - 28]

❁ مُناسَبةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الشُّروع في بَيانِ مَحاسِنِ أحوالِ الأبرارِ إثْرَ بَيانِ حالِ كِتابِهم

لمّا بيّنتِ الآياتُ السّابقة مكانةَ شأنِ كتاب الأبرار، فأعلى قدرَه ورفع منزلَة أهلِه؛ ناسب أن يُتبع ذلك بتعظيم منزِلَتِهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾[1]، فهو شُروعٌ في بَيانِ مَحاسِنِ أحوالِ الأبرارِ إثْرَ بَيانِ حالِ كِتابِهم، على طَريقةِ ما مَرَّ في شَأنِ الفُجّارِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَرَآئِكِ﴾: أصل (أرك) يدلُّ على إقامة أو التئام مع رِقَّة أو لُطْفٍ، كَلُزوم الإبل والرَّجُلِ المكانَ المُناسبَ مع ما فيه من مَرعًى أو راحةٍ[3]، وسُمّيت الأريكةُ بذلك لِلُزوم القاعد أو المُتَّكئ إيّاها لراحته، أو لكَونِها في الأرضِ متَّخذةً من أراكٍ - وهو شجرةٌ - أو لكَونِها مكانًا للإقامةِ من قولِهم: أرَكَ بالمكانِ أُروكًا، والأُروكُ: الإقامةُ على رَعْيِ الأراكِ، ثمَّ تُجوِّزَ به في غيرِه من الإقاماتِ[4]، والأرائِك: جمعُ أريكةٍ، وهي السَّريرُ في الحِجالِ[5].

2) ﴿نَضۡرَةَ﴾: أصلُ (نضر): يدُلُّ على حُسنٍ وجمالٍ وتلألُؤٍ[6]،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 91.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 128، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 415.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أرك).
(4) الرّاغب، المُفردات: (رحق)، والسِّجستاني، غريب القرآن، ص: 68، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 218.
(5) الحِجال جمع حَجَلَةٍ وهي بيت يزين بالثّياب الفاخرة والسُّتور، يُنظر: ابن عباد، المحيط في اللُّغة، وابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (حجل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نضر).

والنَّضارة حالٌ مُعْجِبَة طيِّبة تَظْهَرُ على الشَّيء، أو تَغْشى حالَه[1]، والمعنى: بهجة التَّنعُّم ونوره ورونقه وسروره[2].

3) ﴿رَّحِيقٍ﴾: أصل رَحِقَ يَدلُّ على صفاء الشَّيء وسُهولَتِه بذَهاب غِلَظِه وحِدّته من أثنائه، والرَّحيق: الشَّراب الذي لا غِشَّ فيه[3]، والرَّحيق والرُّحاق: الصّافي، والمعنى هُنا: اسمٌ للخَمْرِ الصّافيةِ الطَّيِّبةِ؛ وهي خَمْرُ الجنَّة[4]، والرَّحيقُ من أسماء الخَمْرِ، وهو من أعْتَقِها وأفْضَلِها، فهو صفوةُ الخَمْرِ[5].

4) ﴿مَّخۡتُومٍ﴾: أصلُ (ختم): إنْهاءُ الشَّيء ومنعُ الزّيادة عليهِ بتَسْويَةِ ظاهرِه وتغطيته على ما في أثنائه، كما في تغطية ظاهرِ قُرْصِ العسَلِ، والخَتْم: أن تجمعَ النَّحْلُ من الشَّمع شيئًا رقيقًا أرقَّ من شَمع القُرص فتطليَه به، والختمُ: بُلوغ آخِرِ الشَّيء، وخِتام الوادي: أقصاه[6]، و﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ﴾، أي: آخرُ طَعْمِهِ وعاقبته؛ إذا شُرِب، أي: يوجد في آخِره طَعْمُ المِسْكِ ورائِحَتُه[7]، أي: مختوم شرابُه بالرّائحةِ المِسكيَّةِ، وقيل: مَسدود إناؤُه، ممنوع مِن أن تمَسَّه يدٌ إلى أن يَفُكَّ خَتْمَه الأبرارُ.

5) ﴿فَلۡيَتَنَافَسِ﴾: فعلُه: نفُس نفاسَةً، والمنافسة والتَّنافس في الشَّيء: الرَّغبة في الانفراد بهِ، أي: أن يأخُذَهُ لنَفْسِه دون غيره[8]، تقولُ: نافَسْتُ في الشَّيءِ مُنافَسةً ونِفاسًا؛ إذا رَغِبْتَ فيه على وجهِ المُباراةِ، ومِن هذا قَولُهم: شَيءٌ نَفيسٌ، أي: هو أهلٌ أن يُتنافَسَ فيه، ويُرغَبَ فيه[9]، والمُنافَسةُ هنا: مُجاهَدةُ النَّفْسِ والتَّسابق للتَّشبُّه بالأفاضلِ، واللُّحوقِ بهم مِن غيرِ إدخالِ ضرَرٍ على غيرِه[10]، وقوله تعالى: ﴿فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾، أي: فليَرغَبِ الرّاغِبونَ، وليَسْتَبِقوا في طَلَبِه، ولتَحْرِصْ عليه نُفوسُهم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نضر).
(2) الزَّمخشري، الكَشّاف: 4/ 723، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 128، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 371.
(3) ابن سيده، المحكم: (رحق).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 205.
(5) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (رحق).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ختم)، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 455.
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 265، والشَّوكاني، فتح القدير: 5/ 488.
(8) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نفس).
(9) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نفس).
(10) الباليساني، حسن البيان: 6/ 2860.

6) ﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾: أصل (مزج): خَلْطُ مائِعَيْنِ مُخْتَلِفَين - أو أكثر - بعضِهما ببَعْضٍ وجَعْلُهما شيئًا واحدًا[1]، والمَزْجُ: خَلْطُ المِزاجِ بالشَّيْءِ، ومَزْجُ الشَّرابِ: خَلْطُه بغَيْرِه، يُقال: مزج الشَّراب بالماء، فامتزج، ومازجه وتمازجا وامْتَزَجا، ومزاجه عسَلٌ، وكأنَّ طَعْمَهُ طَعْمُ المزج، وهو الشَّهد[2]، والمعنى هنا: ما يُمزَجُ، ويُخلَطُ به ذلك الشَّرابُ[3].

7) ﴿تَسْنِيمٍ﴾: اسمُ عَينٍ في الجنَّةِ رَفيعةِ القَدْرِ، وسَنَّم الشَّيءَ تَسْنيمًا: عَلاه، كَتَسَنَّمَه وتَسَنَّم الحائِطَ: علاه من عرضه[4]، وأصلُ (سنم): يدُلُّ على العُلوِّ والارتفاع، ومنه: سَنامُ البَعيرِ، وتسَنَّمتُ الحائِطَ؛ إذا عَلَوته[5]، وسُمّيَت عين الجَنَّة بالتَّسنيم الَّذي هو مَصدَرُ سَنَّمَه؛ إذا رفعَه؛ إمّا لأنَّها أرفَعُ شَرابٍ في الجنَّةِ، وإمّا لأنَّها تأتيهم مِن فوقٍ، فتتسنَّم عليهم مِن الغُرَف[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ أحوالِ المُؤمنين في جنّاتِ النَّعيم

تُبيِّن الآياتُ الكريمَةُ ما أعدَّه اللّه تَعالى لعبادِهِ الأبرارِ مِن نعيمٍ مُقيم، فالأبرارُ الذين صَدَقوا في طاعَتِهم لربِّهم، وأخلصوا له العمل، في نعيم خالدٍ في جنّات النَّعيم، يتقلَّبون في بهجتها، مُتَّكئين على سُررٍ مُزيَّنةٍ ينظرون إلى وجهِ اللّه الكريم، وإلى ما أوْلاهُم من فضلٍ عظيم ونعمةٍ سابغَة، تَلوحُ في وجوههم أثَرُ النِّعمةِ وعلاماتُ السَّعادةِ والسُّرور، يُسْقَون من خمرٍ صافيةٍ لذيذةٍ مختومةٍ بخاتم المسك؛ فليتسابقِ المُتسابقون في طلَبِ ذلك النَّعيم العظيم، ويمزَجُ ذلك الرَّحيقُ المختوم بشَرابٍ شَريفٍ ينبُعُ من عينٍ عاليةٍ في الجنَّة

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مزج).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (مزج)، والزَّمخشري، أساس البلاغة: 2/ 209.
(3) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 31/ 233.
(4) الزَّبيدي، تاج العروس: (سنم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والحلبي، عُمدة الحفّاظ: (سنم).
(6) الواحدي، البسيط: 23/ 342 - 344، والزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 723.

تُسمّى تسنيمًا، وهي شرابُ المقرَّبين ومنهلُ السّابقين إلى رضوان ربِّ العالمين[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّة فصْلِ جُملة: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ عمّا قبلَها:

عِنْدَ سَماعِ وَصْفِ كِتابِ الأبرارِ؛ تتشوَّفُ النُّفوس لمَعْرِفَةِ أحْوالِهِم

قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾: جُملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، كأنَّ السّامع لمّا سَمِعَ بذِكْرِ كتاب الأبرار؛ خَطر في ذهنه سؤالٌ عن حالهِم ومآلهم، فجاء الجوابُ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾؛ بيانًا لنَعيمِهِم العَظيم وسعادَتِهِم الدّائمة، ففُصلت هذه الجُملةُ عن سابِقَتِها من غيرِ عَطْفٍ؛ لِما بينَهما من شِبْهِ كمالِ الاتِّصال، فهي واقعةٌ موقعَ البيانِ لِما قبلها[2].

بلاغةُ تَتابُعِ المؤَكّداتِ:

يقينٌ يملأ القلبَ بأنَّ نعيم الأبرار حقٌّ لا محالة، فتَرْتَفِعُ النُّفوس شوقًا إليه وتَنافسًا فيهِ

احتشدت في الجملةِ الكريمةِ ثلاثَةُ مُؤكِّداتٍ، وهي: ﴿إِنَّ﴾ التي تُفيد التَّحقيق، واللّام المزحلقة الدّاخلَةُ على الخبَر، وصياغةُ الجُمْلَة الاسميَّة الدّالة على الدَّوام والثَّبات، فكان اجتماعُها توكيدًا متراكبًا يرسِّخُ المعنى في الذِّهن رسوخًا لا يزول، فجاء هذا التَّركيب البليغُ مشحونًا بأقوى أساليب التَّوكيد؛ ليَغْرِسَ في القلب يقينًا لا يتطرَّق إليه شكٌّ بأنَّ نعيم الأبرار حقٌّ ثابتٌ لا ريبَ فيه، فتَسْمو النُّفوس إليه شوقًا، وتتنافس في بلوغهِ حرصًا[3]، ولمّا اجتَمَعَت هذه الأدواتُ في بناءٍ قصيرٍ محكم؛ اكْتَسَبَت الجُملة فخامةً ووقعًا قويًّا؛ إذْ أوحَتْ كثرةُ التَّوكيدات مع قلّةِ الألفاظ بتقويةِ مَعْنى الجُمْلَةِ، وكأنّها تكرَّرت ثلاثَ مرّات، وهذا مِن أرقى صوَرِ الإيجاز الذي تُبنى عليه البلاغةُ؛ إذ يُؤتى بالمعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرةِ، فيكون اللَّفظُ قليلًا ومعناهُ وافرًا جليلًا[4].

---

(1) ابن عطيَّة الأندلسي، المحرر الوجيز: 5/ 453، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 264، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 352، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 916.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 281.

(3) الصّافي، الجدول في إعراب: 30/ 275، وامحمد صافي، برنامج في رحاب سورة: (المطففين).

(4) امحمد صافي، برنامج في رحاب سورة: (المطففين).

غرَضُ إظْهارِ ﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ دون الإضمار:

ذِكرُ الأبرارِ تنويهٌ بشأنِهم وتكريمٌ لهم وإشادةٌ بصِفاتِهِم

آثر النَّظمُ الكريم إظهارَ لفظِ ﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾، وكان مقتضى الظّاهر إضمارهُ؛ لتقدُّم ذكرِهم، إلّا أنَّهم ذُكروا بوصفهم الظّاهر بدل الإشارة إليهم بضمير، كما قال في شأن المكذِّبين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾؛ وجاء ذلك تنويهًا بشأنِهِم، وتكريمًا لهم، وإشادةً بصفاتهم الجَليلَة[1].

بلاغة التَّعبير بحرف الظَّرفيّة:

توسيعُ دائرة رجاءِ المؤمنين في نعيم الآخرة؛ لِما يَعْلَمونَهُ من بديع الوَصْفِ

التَّعبير بحرف الظَّرفية في قوله تعالى: ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ دالٌّ على تمكُّن الأبرار في النَّعيم تَمكُّن المظروفِ في ظرفِهِ[2]، فالظَّرفيَّة هنا مجازيَّة[3]، وفي استعمالِ الظَّرفيَّة تنبيهٌ إلى أنّ نعيم الآخرة نعيمٌ شاملٌ كاملٌ، فقد جَعَلَ اللّه تَعالى النَّعيمَ نَفْسَه ظرفًا يُحيط بالأبرار؛ ليُصَوِّرَ حالَهُم، فهم مَغْمورونَ في النَّعيم، ومُحاطونَ بِهِ إحاطةً تامَّةً لا يُفارِقونَهُ طرفةَ عينٍ، وفيه دلالةٌ على كمالِ النِّعمة ودوامِها[4].

بلاغَةُ ذِكْرِ النَّعيم دونَ ذِكْرِ الجنَّة:

تحقيقُ النَّعيم الحسّيِّ والمعنويِّ، وتأكيدُ الغايَةِ في دُخولِ الجنّات

آثر النّظم الكريمُ التَّعبير بقوله: ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ دون أن يُقال: (لفي جنّات)؛ وذلك للإيجاز على حذفِ المضافِ، والتَّقدير: (جنّات النّعيم)، أو على المجاز المُرْسَلِ بإطلاق الحالِّ وإرادة المحلِّ، فالنَّعيم يَحُلُّ في الجنّات، ومَن دخل الجنّات؛ نال النّعيم، ونكتةُ ذِكْرِ النّعيم دون الجنّات: تأكيدُ التَّنَعّم، وإظهارُ الغايةِ التي ينالونها حينَ دُخول الجنّات، مع ما في النَّعيم من العموم والشُّمول، فهو يضمُّ نعيمَ الأبدان ونعيمَ القلوب جميعًا، فأمّا نعيمُ الأبدانِ؛ فلا يُدرَك كُنهُه، فقد وصفَهُ اللّه تَعالى بقوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 204.

(2) عبد الكريم مدرس، مواهب الرَّحمن: 7/ 352.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 153.

(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 327، وامحمد صافي، برنامج في رحاب سورة: (المطففين).

ٱلْأَعْيُنُۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ [الزخرف: 71]، وقال سُبْحانَهُ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ [السجدة: 17]، وأمّا نعيمُ القلوبِ؛ فهو أعظمُ من ذلك وأدومُ؛ إذ يُقالُ لهم - وقد عاينوا فناءَ الموت - : يا أهلَ الجنَّة، خلودٌ فلا موت، وصحةٌ فلا سقم، وشبابٌ فلا هرم، ونعيمٌ فلا بؤس، وتُقال لهم كلماتُ السَّلام والطُّمأنينةِ من ربٍّ كريم ومن ملائكةٍ مقرَّبين: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ [الرعد: 24]، فهذا النَّعيمُ الجامعُ بين لذّة الحسِّ وسرورِ النَّفسِ هو سرُّ التَّعبير القرآنيِّ بلفظِ النَّعيم، دون تقييده بذِكْرِ الجنَّة؛ إذِ المَقْصودُ الإحاطةُ بكلّ ألوان السَّعادة التي أعدّها اللّه تَعالى لعِبادِه الأبرار(1).

غَرَضُ تنكيرِ لَفْظِ ﴿نَعِيمٍ﴾:

تعظيمُ النّعيم وتفخيمُ شأنِهِ من ربٍّ رحيم

نُكِّر لفظ ﴿نَعِيمٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾؛ للتَّفخيم والتَّعظيم، أي: في نعيم عظيم لا يُقدَّر قدرُه، ولا تَبْلُغُه العقول تصوّرًا ولا الخواطرُ وصفًا، فهو نعيمٌ شاملٌ كاملٌ لا يَعْرِفُ الفَناء ولا النُّقصان، جزاءً لأهل اليَمين الأبرار على طاعَتِهم وإخلاصهم(2).

دلالَةُ استِعمالِ حَرْفِ الاستعلاءِ:

الإشارة إلى علوِّ الدَّرجة وكرامةِ المَنزلة عندَ الله تعالى

لمّا كان من أبلغ صوَرِ النَّعيم أن يَعْلوَ الإنسانُ مكانًا رفيعًا يَجْلِسُ عليه في سكونٍ وبهجة، مُطلًّا ببصره على ما يشتهي من ألوانِ اللَّذَّة والسُّرور؛ عبّر عن ذلك بقولِهِ: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾، أي: على الأسرّة الرَّفيعةِ المُزيَّنة؛ إشارةً إلى رِفْعَةِ المَقام وسموِّ المنزلة؛ إذ لا يكونُ الاستعلاءُ هُنا لمجرَّد الجُلوس، بل رمزًا إلى علوِّ الدَّرجة وكرامة المَنزلة عندَ اللّه تَعالى(3).

---

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 916.

(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 8/ 263.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 327.

توجيهُ تَخْصيصِ لَفْظِ ﴿ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ بالذِّكر:

الأرائكُ تَرْمُزُ لِرَفاهِ العَيْشِ وعُلوِّ المنزلَةِ

الأرائك: جمعُ أريكَةٍ، والمرادُ بالأرائكِ: السُّررُ في الحجالِ، وقد خُصَّ بالذِّكر؛ للدّلالة على رَفاهِ العَيْشِ وعلوِّ المنزلة، فالأبرار في نعيم لا يُقدَّر قدرُه، يجلسون على تلك السُّرر المعدَّة إعدادًا بديعًا تليقُ بكرامَتِهم، يتأمَّلون ما يُحيط بهِم مِن مَظاهِرِ الجمالِ والسُّرور، وما يُبهج نفوسَهُم، ويزيدُهم نعيمًا فوق نعيم[1]، والأرائك من النّعيم النّادر عندَ العرَبِ، وهو ممّا تَشْتَهيهِ الأنفُسُ؛ لنَفاسَتِه ونُدْرَةِ المُتَّكئين على الأرائك، فهو يرمُزُ لأدوات التّرفيه الرَّفيعة، ووسائل التّنعيم الشَّريفة، فخصّه النّظمُ بالذّكرِ؛ للتّنبيه على بعض النّعيم، ولتقريب صورَتِه مِنَ الأذهان.

نُكْتَةُ تقديم الجارِّ والمجرور:

ذِكرُ اللَّذّةِ والنّعيم ابتداءً تشويقٌ لِما يكونُ فيها

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ على فِعْلِ ﴿يَنظُرُونَ﴾؛ للاهتمام بالمُقدَّم إيحاءً بعِظم النَّعيم ولذّته، فهو المقصودُ بالنّعيم، وبه بدأ النّظم؛ إذْ إنّ النَّظر من فوقِ الأرائك أبْهى وأمتَعُ للنَّفس من النَّظر حال الجلوسِ على الأرض أو الفُرُش؛ لِما فيه من رفعة المنزلة وتمامِ النَّعيم[2]، وفي التّقديم تشويقٌ لمعرفةِ ما الذي يَصْنَعونَهُ على الأرائك، فيأتي ذِكْرُ النّظر للبيان، مع مراعاة الفاصلَةِ القُرآنيَّة.

نكتَةُ اختيارِ مُفْرَدَةِ ﴿يَنظُرُونَ﴾:

النَّظَرُ يَجْمَعُ لذّةَ العينِ الباصِرَة وإدراك القلبِ المعنويِّ

آثر البيانُ القرآنيُّ التَّعبير بمفردة النّظر في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾، دون الرُّؤية أو المشاهدة؛ إذْ يَحْمِلُ فعلُ النّظر معنى التَّمتُّع البصريِّ والتَّأمّل القلبيِّ معًا، فالنَّظر في العربيَّة لا يَقْتَصِرُ على مجرّد الرُّؤية، بل يدلُّ على التَّوجُّه بالبصر مع إعمال الفِكْرِ والبصيرة، فهو نظَرُ العَيْنِ، ونظَرُ القَلْبِ أيضًا[3]، ولذلك كان

---

(1) الطنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 326.
(2) الباليساني، حسن البيان في تفسير القرآن: 6/ 2860.
(3) العسكريُّ والجزائري، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 543.

التَّعبير به أدقَّ في تصوير حالِ الأبرار في دار النَّعيم، فهُم لا يَكْتَفون بالمُشاهدَةِ، بل يتأمّلون ما حَوْلَهُم في جَنّة الخُلْدِ نظرَ متنعِّم متمتّعٍ، يملأ عينَهُ وقَلْبَهُ بالبَهْجَةِ والرِّضا.

فِعلُ النّظرِ في الجنّات لذّةٌ مقصودة ونعمةٌ محمودة

نكتةُ حذف مفعول ﴿يَنظُرُونَ﴾:

حُذِف مفعولُ الفِعْلِ ﴿يَنظُرُونَ﴾؛ لإفادَةِ العموم، فنَظَرُ الأبرار على الأرائك يُحيط بالمكانِ كلِّه، فيشمل، ويعمُّ كلَّ ما تقع عليه أبصارُ الأبرار من ألوان النَّعيم والبهجة[1] في الجنّات، ولمّا كانت اللذّاتُ كثيرةً وعميمةً؛ ناسب أن يُحْذَفَ المفعولُ؛ ليَعُمَّها، وأيضًا فإنّ مِن فوائد حذفِ المفعول العنايةَ بالفِعْلِ نفسِه، فالنّظر مقصودٌ لذاته باعتبارِه نعمةً من نِعَم الجنّة، فهم ينظرونَ نظرَ المُتْعَةِ واللَّذّة والاسترخاء، بقطع النّظر عمّا ينظرون إليه.

وقال بعضُ أهل التَّفسير: إنَّ اللهَ سُبْحانَهُ أثبتَ فِعْلَ النَّظر دون تقييدِ المَفْعولِ به؛ مراعاةً لاختلاف الأبرار في أحوالِهم ومَلَذّاتِهم، فبَعْضُهُم يَنْظُرُ إلى قصوره، وبعضُهم إلى حوره، وبعضهم إلى ثمراتِ جنّاته وأشجارها، والخواصُّ المُقرَّبون ينظرونَ إلى ربِّهم الكريم، فتكون الرُّؤية متجدّدةً ومتعدِّدة بحسب مقام كُلٍّ واحد منهم ودرجة تقرُّبه[2].

دلالَةُ المُقابلةِ بين هذا المَوْضِعِ من نَظَرِ الأبرار وما قبلَهُ مِن حَجْبِ الفُجّار

جاء ذكرُ نظرِ الأبرار في مُقابلة ما سبَقَ مِن وصْفِ حالِ الفجّار المحجوبين عن النَّظر، في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾، فكما حُجب أولئك عن رؤية مولاهُم عقوبَةً لَهُم؛ أُكرم الأبرارُ بأن أُبيح لهم النَّظر إلى وجهِ اللهِ الكريم جزاءً على طاعتهم، فهُم على الأرائك في مَقاعِدِ نَعيمِهم، يتلذَّذون بالنَّظر

(1) الطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 326.

(2) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 702، وملا علي القاري، أنوار القرآن وأسرار الفرقان: 5/ 292.

إلى ربِّهم، وهذا أسمى نعيم يعلو كُلَّ نعيم[1]، وعليه فتكون دلالةُ المُقابلة معيِّنةً المنظورَ إليه، ويكون حذفُ المفعول به من بابِ زيادة الإكرام، وليُؤْخَذَ المَقْصودُ مِن فحْوى الكلام وإيمائه؛ زيادةً في تفخيم الأمرِ.

توجيهُ فصْلِ جُمْلَةِ ﴿تَعۡرِفُ﴾ عمّا قبلها:

الخبريّة أقوى الاحتمالاتِ، فالحاليّة، والفصلُ بناء على الاستئناف

جملةُ: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ يَحْتَمِلُ أن تكون خبرًا ثالثًا، وهو الأولى بالمقام، ويَحتَمِلُ أن تكون حاليّةً[2]، فلا فصْلَ على هذين الوَجْهَين؛ لأنَّه لا يُفْصَلُ بين المبتدأ والخبر، أو الحالِ وصاحِبِها، ويَحْتَمِلُ أن تكون مُستأنفةً، سيقَت لتَوْجيهِ السّامع إلى تأمُّل حال الأبرار، ودعوته إلى الالتفاتِ إلَيْهم؛ ليَرى بعينه ما يفيض على وجوههم من إشراقِ النَّعيم وآثاره الباديَةِ عَلَيْهم، والتَّأمُّلِ في آثارِ النَّعيمِ على وُجوهِهِم؛ إظهارًا لأثر النَّعيم في مُحيّاهم بعدَ أن بُيِّن نعيمُهم في مجالسهم[3]، والقول بالخبريّة أولى من الاستئنافِ؛ لأنَّ ما جاء فيها هو من أحوالهم المُخْبَرِ عَنْها المتتابِعَة.

تعيينُ مَرْجِعِ الخِطاب:

آثار النَّعيم باديَةٌ على وُجوهِ الأبرار تُعرف بمجرّد النّظَرِ

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ ليس موجَّهًا إلى شخصٍ بعينِه، بل هو عامٌّ لكلِّ أحَدٍ ممَّن له حَظٌّ مِن الخِطابِ؛ إذ المقصود أنَّ آثار النَّعيم بادية على وجوهِهم بحيث يراها كلُّ ناظر، ولا يختصُّ بإدراكها أحدٌ دون أحد، وهذا الأسلوب مِن توجيهِ الخِطابِ العامِّ في مَقامِ وصْفِ المَشاهِدِ الجليلة من طرائقِ العرَبِ في البيان؛ لِما فيه مِن إشراك السّامع في عَظَمَةِ المَوْقِف واستِحْضارِ صورَتِه[4].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 352.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 205.
(3) الدَّرويش، إعراب القرآن: 10/ 416.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 128، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 205.

توجيهُ القِراءات القُرآنيَّة:

القـراءاتُ القُرآنيّة تَلْتَقي في المعاني وتَختَلِفُ في المباني

قرأ الجمهور: ﴿تَعۡرِفُ﴾ بصيغة الخِطاب ونَصْبِ ﴿نَضۡرَةَ﴾، أي: تعرفُ - يا مَن تراهُم - في وجوهِهم أثرَ النَّعيم وبهجتَه، فالمعنى موجَّه إلى من يُشاهِدُهم، وقرأ أبو جعفرٍ ويعقوبُ ﴿تُعۡرَفُ﴾ بصيغة البناء للمفعولِ ورَفْع ﴿نَضۡرَةُ﴾، وهي أدلُّ على العموم؛ إذ يُفهَم منها أنَّ كلَّ مَن نَظَر إليهِم؛ عَرَف ما هُم فيه من النَّعيم، فكأنّ العلامةَ باديةٌ على وُجوهِهم لكلِّ مَن رآهُم، لا يختصُّ إدراكُها بناظرٍ دون آخر، ومآل المَعْنَيَيْن واحِدٌ إلّا أنَّ قراءة الجُمْهور جَرَت على الطَّريقة الخاصّة في استعماله، وجرت قراءةُ أبي جعفر ويعقوبَ على الطَّريقة التي لا تختَصّ به[1].

بلاغَةُ استِعْمالِ مفردة ﴿تَعۡرِفُ﴾:

المعرفةُ مَزْجٌ بين حاسّة النّظَر وقوّة الإدراكِ وإشراقَةِ الفهم

آثر النّظمُ الكريم التَّعبير بالفعل ﴿تَعۡرِفُ﴾ دون (ترى)؛ لأنَّ المعرفة أبلَغُ في الدّلالة من مجرد الرُّؤية؛ إذْ هيَ إدراكٌ قلبيٌّ يمازِجُهُ يقينٌ لا ريبَ فيه، فالنّاظر إلى وجوه الأبرار يجِدُ في ملامِحِهِم من أدلَّةِ النَّعيم وآثاره ما يورثه علمًا قاطعًا بأنَّهم أهلُ السَّعادة والكرامة، فقَد فاضَت أنوارُ النَّعيم على وُجوهِهم؛ حتَّى غدت شاهدًا بيِّنًا يُدركه كُلُّ من رآهم، بما يَظْهَرُ عليهِم مِن إشراقٍ وبِشرٍ واطمئنانٍ، كما تُعرَف النِّعمةُ على وجوه المُترَفين من إشراقِها وبهجتها، ولهذا عُدِل عن (ترى) إلى ﴿تَعۡرِفُ﴾؛ لأنَّ الأولى تتعلَّق بالمحسوسِ الظّاهر، أمّا الثّانية؛ فتدلُّ على إدراكٍ يجمع بَيْنَ الحِسِّ والعقل، فكان اختيارُها أليقَ بجلال المقامِ، وأدقَّ في التَّعبير عَنْ أثَرِ النَّعيم فيهم[2].

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 399، والبقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 328، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 128، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 154، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 205.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 333، وإسماعيل حقي، روح البيان: 10/ 371.

بلاغَةُ استِعْمالِ حَرْفِ الظَّرفيَّة:

إشراقُ الوجوه يـنـبُـعُ من داخلِها، ويُرى في قَسماتِها، ويَـسْـتَـغْـرِقُ ملامِحَها

جاء التَّعبيرُ باستعمال حرفِ الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ دون حرف الاستعلاء، فلَم يقل: (تعرف على وجوههم)؛ وذلك لأنَّ المعرفة يُناسبها حرفُ الظَّرفيّة، فهي استغراقٌ شُهوديٌّ لملامحِ الوُجوه وما تَكْتَنِزُهُ من معانٍ شريفة، فالظَّرفيَّة تُصوِّر إشراقًا ينبعُ من داخلها، ويُرى في قسماتِها، ويَسْتَغْرِقُ ملامِحَها، حتَّى كأنَّها قد سَرَتْ في الوجوه نفاذًا وذوبانًا لا عُلوقًا سَطْحيًّا[1]، وتكون النَّضْرَةُ في الوُجوه؛ لأنَّ آثارَها فيها، كقَوْله تَعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨﴾ [عبس: 38]، أي: مُضيئة[2]، فحرف الظَّرفيَّة أبلغُ من الاستعلاء؛ إذْ يُشْعِرُ بأنَّ أثر النَّعيم قد تخلَّل الوجوهَ إلى القلوب، فصار كالسِّمة الباطنَةِ التي يَشْهَدُها كلُّ ناظر بعينِ البَصيرَةِ قبلَ عين البصَرِ.

توجيهُ تخصيصِ الوُجوهِ بالذِّكر:

الـوجـوهُ رَمْـزُ الـسّـعـادة ومَـكْـمَـنُ الطُّمأنينةِ، فإذا صحّت؛ كانَت عـلامـةَ صِحَّةِ الأبدان

خُصَّت الوجوهُ بالذِّكر؛ لأنَّها مَوضعُ التَّلاقي والنَّظر بَيْنَ النّاس، فالنّاظرُ إنَّما يوجِّه بصرَه إليها دون سائرِ الأعضاء، فهي مَحَلُّ التَّعارف، ومَظهَرُ ما في النَّفس من سرورٍ أو حزنٍ؛ ولذلك كان تخصيصُها بالذِّكر أبلغَ في تصوير آثار النَّعيم على أصحابها[3]؛ إذِ الوُجوه هي أقوى ما يَظْهَرُ فيها محاسِنُ النُّفوس، وطمأنينةُ القلوب، وسلامةُ الصّدور، وراحةُ البالِ الماكث في الأبدان، فإذا صحّت الأبدانُ؛ أشرقَتْ وُجوهُها، فالوجوهُ علامةٌ فارقةٌ على حقائق المغيّبات، وهي رمزُ الرّاحة والسَّعادة، وهذا أوْلى مِنَ القول بأنّها مجازٌ مرسَلٌ علاقَتُه الجُزئيَّة، بإطلاقِ الجُزْءِ وإرادة الكُلِّ.

نكتَةُ استِعْمالِ لَفْظِ ﴿نَضۡرَةَ﴾:

نَـضرةُ الـوجـوهِ دلـيـلُ صَـفـاءِ الـعَـيْشِ ودوامِ الرّاحةِ

آثر النَّظم القرآنيُّ استعمالَ مُفْرَدَةِ النَّضْرَة في قوله تعالى:

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 16/ 1495.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 154.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 464.

﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ لأنَّ النّضرةَ هي المختصّة بالوجه، فالنّضارة هي الإشراقُ والصفاءُ، الذي يدلُّ على تمامِ النِّعمة وبلوغ الغاية في التَّرف والسُّرور، فهي بهجةٌ تَعْلو الملامحَ، وسرور يفيضُ من نورِ القلوب المطمَئِنَّة بفَضْلِ اللّه تَعالى ورِضاهُ، وفي التَّعبير بها إشارةٌ دقيقةٌ إلى صفاءِ عَيْشِهِم ودوامِ راحَتِهِم؛ إذ النَّضرةُ لا تَجْتَمِعُ مَعَ تَعَبٍ وكدَرٍ، وفيها أيضًا رَمْزٌ لعدَمِ النَّوم؛ لأنَّه يَسْلُبُ نورَ الوجه، ويُغَيِّر بَهْجَتَهُ[1].

نَضْرَةُ الوجوهِ بسبَبِ النَّعيم المُقيم، فالإضافة مِن إضافة المُسبَّب إلى سببِهِ

دلالَةُ الإضافَةِ ونوعُها:

أُضيفَ لفظ ﴿نَضۡرَةَ﴾ إلى ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ على معنى (من)، أي: نضرة من النّعيم، فتكون بمعنى السَّببيّة، فهي من إضافةِ المسبَّبِ إلى سببه؛ لأنَّ ما يبدو على وجوهِ الأبرار من إشراقٍ وبهجةٍ إنَّما هو أثرُ ما هُم فيه من النَّعيم المُقيم، فالنَّعيمُ هو الأصلُ، والنَّضرةُ ثمرتُه الظّاهرةُ على الوجوه؛ إذ تَنْعَكِسُ سعادةُ القلْبِ وطمأنينتُه إشراقًا ونورًا على الملامح[2]، وفي هذه الإضافةِ إيماءٌ إلى أنَّ ذلك الجمالَ والبهاءَ ليس مُنقطعًا زائلًا كما في نعيم الدُّنيا، بل هو نضرةٌ خالدةٌ دائمةٌ، تلازمُ أصحابَها ما داموا في نعيمٍ لا يفنى، وشبابٍ لا يَبلى، وسرورٍ لا يزول[3].

معنى تعريفِ لَفْظِ ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾:

(الـ) في لفظ ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ للعَهْدِ الذِّكْريِّ، أي: النَّعيم المذكور في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾، فهو نعيم مُحيط بهم من كُلِّ جانب، غَمَرَهُم بلذّاته حتَّى ظهرَت علاماتُه إشراقًا على وُجوهِهِم[4].

(1) الميداني، معارج التَّفكُّر: 15/ 330، وآل غازي، تفسير القرآن العظيم: 2/ 516.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 154، والطَّنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 326.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 205.
(4) الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 16/ 1495، والميداني، معارج التَّفكُّر: 15/ 330.

دلالةُ التَّعبير بمفردة ﴿يُسۡقَوۡنَ﴾:

الأبرارُ مَخدومونَ في دار النَّعيم لا خَدَمَة

جاء التَّعبير بالفعل المضارع المبنيِّ للمفعول ﴿يُسۡقَوۡنَ﴾ بدلًا من (يَشْربون)، في قوله تعالى: ﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ﴾؛ لأنَّ السّقاية تدلُّ على أنَّهم مَخْدومون، وليُصوِّر حالَ الأبرار في مقام الإكرام والنَّعيم، فهُم مَخدومون لا خَدَمَة، يُسقى لهم، ولا يَسعون هُم للسُّقيا، فلا كلفةَ عليهم في شيءٍ، وفي هذا دلالةٌ على تمام التَّرفُّه والرّاحة، وأنَّهم في دار نعيم لا تعبَ فيها ولا نصب؛ إذ يقومُ غيرُهم بخِدْمَتهم وإكرامهم، بخلافٍ حال الدُّنيا التي لا تُنال فيها اللَّذائذ إلّا ببذل الجُهد والمَشقَّة[1].

دلالَةُ استعمالِ مُفردة ﴿رَّحِيقٖ﴾:

شرابُ أهلِ الجنَّة كامِلُ الصَّفاء والطَّهارة واللَّذة والبهاءِ

استُعملت لفظة ﴿رَّحِيقٖ﴾ دونَ غَيْرِها من ألفاظ الخَمْر؛ لأنَّها أدقُّ في تصوير صفاءِ ذلك الشَّراب ونقائه التّامّ، فهو خمرٌ خالصٌ من كُلِّ كَدَرٍ أو شائبةٍ، صافٍ في لونه، طَيِّب في رائحته، نقيّ في جوهره، لا يُذهب العقلَ ولا يورِث أذًى، بل هو خلاصة الخمر وأصفاها وأجودُها[2]، فاختيرت مفردة ﴿رَّحِيقٖ﴾؛ للدّلالة على كمال الصَّفاء والطَّهارة واللَّذَّة والبهاء في شراب أهل الجنَّة.

دلالَةُ وصْف الرَّحيق بكونِهِ مَخْتومًا:

الخَتْمُ إيماءٌ إلى تمامِ الصّيانة وكمال الحِفْظِ وعلوِّ اللَّذّة

وُصف الرَّحيق بأنَّه مختوم للإشارة إلى عِظَم قيمَته ونَفاسَتِه؛ إذ لا يُختم إلّا على الشَّيء الكريم المصون الذي يُراد حِفْظُه مِن الغشّ والاختلاط، كما يوحي الوصفُ بأنَّه مُعَدٌّ في أوانيه مُهيَّأً للتَّقديم، مُقفلة عليها بعناية حتَّى يَفُكَّ ختمَه الأبرارُ ساعةَ الشَّراب، مِمّا يعكس صورةَ العِناية الإلهيَّة الفائقة والتَّكريم البالغ لأصحابه، ثُمَّ إنَّ في خَتْمِه دلالةً على كمال طُهره وعلوِّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 328، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 205.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 264، والطنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 326.

درجته، فهو أرفع قدرًا من أنهار الجنَّة الجارية، وأدلُّ على التَّنزيه والصَّفاء والاختصاص(1).

دلالة تعدُّد الأخبار في تصويرِ المَشْهَدِ:

رَسْمُ صورةٍ مُتكاملة للنَّعيم تتجدَّد مع كُلِّ خبَرٍ

تعدَّدتِ الأخبار في قولهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾، وجاءت مُتعاقبةً؛ ليُبْنَى بها مشهدٌ مترقٍّ من النَّعيم: نعيمِ المقام، ونعيمِ النَّظر، ونعيمِ السَّمْت، ونعيمِ الشَّراب، فالتَّعدد هُنا ليس تكرارًا، بل تصويرٌ مُتلاحق يَرْسُمُ نعيم الأبرار في أحوالٍ من البهجة والكرامة، على طريقةِ العرَبِ في تفصيلِ المَعْنى الواحد بوجوهٍ تزيدُهُ رونقًا وجمالًا(2).

توجيهُ فصْلِ قولِهِ: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ عمّا قبلَهُ:

الختامُ الطَّيّب يليق بطُهْرِ الرَّحيق وكرامَةِ أهلِه

قولُ اللّه تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ يَحْتَمِلُ أن يكون صفةً للرَّحيق، فلا فصْلَ على هذا؛ لأنَّ من شأن الصِّفةِ اتِّصالَها بموصوفِها، ويَحْتَمِلِ أن يكون بيانًا بعد إجمال، يُفصِّل ما أُجمل في وصفه بأنَّه مختوم، أو هو استئنافٌ بيانيٌّ جيء به جوابًا عن سؤالٍ قد يَخطر في ذهن السّامع حين يسمَعُ قولَه: ﴿مَّخْتُومٍ﴾: ما نوعُ هذا الختام؟ وبمَ خُتِم؟ إذ جرت العادةُ أن يُختَم الشَّراب بطينٍ أو نحوه، فجاء البيانُ الإلهيّ؛ ليُبَيِّن الختام الطَّيّب الذي يليق بطُهْرِ الرَّحيق وكرامة أهله(3).

بلاغَةُ التَّشبيه البليغِ:

المُبالغة في بيانِ طيبِ ذلك الشَّراب وعلوِّ شأنِه

في قوله تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ يتجلَّى تشبيهٌ بليغٌ حُذِفَت أداتُه؛ للمُبالغة في بيانِ طيب ذلك الشَّراب وعلوِّ شأنه، فآخِرُ ما

(1) البغوي، معالم التنزيل: 8/ 367، والصّاوي، حاشية الصّاوي على الجلالين: 4/ 342، وشحاته، تفسير القرآن الكريم: 30/ 6411.
(2) امحمد صافي المستغانمي، برنامج في رحاب سورة: (المطفِّفين).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 206.

يذوقه الشّارب من خَمر الجَنَّة المسكُ الخالصُ في عطره ونفاسَتِه، والتَّشبيه في الآية مِن أبدع ضروب تشبيه المحسوسِ بالمَحْسوس؛ إذ يُقرِّب المشهدَ إلى الحسِّ والنَّفْس معًا، فيجعل ختام الشَّراب كالمسك في رائحته الزَّكيَّة، فيمتزج الجمال الحسّيُّ بالمُتعة الرّوحيَّة، ولأنّ المشبَّه به - وهو المسكُ - مِن عناصر البيئة العربيَّة المألوفة في حياتهم وعطورهم، فقَد جاءَتِ الصّورةُ قريبةَ المأخَذِ، شديدةَ الأثَرِ، باقيةً في الوجدانِ والبَيان[1].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيةِ في ﴿خِتَٰمُهُۥ﴾:

اتّفاق القراءاتِ على أنَّ الختامَ في الشّرْبِ مِسْكٌ

اختَلَف القُرّاء في قوله تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ﴾، فقَرَأ الكِسائيُّ ﴿خَاتَمُهُۥ﴾ - بِفَتْحِ الخاءِ وألِفٍ بَعْدَها - وقَرَأ الباقونَ بكَسْرِ الخاءِ مِنْ غَيْرِ ألِفٍ بَعْدَها، وبالألِفِ بَعْدَ التّاءِ ﴿خِتَٰمُهُۥ﴾، ولا خِلافَ عَنْهُمْ في فتْحِ التّاءِ[2]، وقد ورد في تفسير الآية على قراءة الجمهور قولان: أنَّ ختامَه مِسْكٌ، أي: إنَّ آخر شُرْبِهم منه تكونُ رائِحَتُه كرائحة المسك، فيجد الشّارب عند تمام الكأس عبيرًا زكيًّا، أو أنَّ أوانيَهُ مختومَةٌ بالمسك بدل الطّين الذي كان يُختم به الشَّراب في الدُّنيا؛ إشارةً إلى طيبِ الرّائحة وصفاء الشَّراب، أمّا مَن قرأ: ﴿خَاتَمُهُۥ مِسۡكٞۚ﴾؛ فالمعنى: أنَّ آخر شَرابِهِ مِسكٌ[3].

نوعُ الواوِ ودلالَتُها:

جاءت الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ واوَ عطفٍ، عُطفت بها هذه الجملة على ما قبلها لِما يليقُ بمَقامِ الحَثِّ والتَّرغيب، بعدما تقدّم مِن وصف النَّعيم ولذَّته الذي يليق أن توجَّه نحوَهُ هِمَمُ المُتنافسين[4].

(1) ابن علي محمد، الإبداع البياني في القرآن العظيم: 1/ 399، وبدوي، من بلاغة القرآن، ص: 196.

(2) ابن الجزري، النَّشر في القراءات العشر: 2/ 399.

(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 723، وملا علي القاري، أنوار القرآن: 5/ 293.

(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 329.

بلاغَةُ استِعمالِ اسمِ الإشارة للبَعيد:

علـوُّ مقام النَّعيم وسُموُّ درجتِهِ تُغري العابدين وتحثُّ المُقرّبين

التَّعبير باسم الإشارة للبعيد في قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ يرمز إلى أمرٍ جليلٍ رفيع القدر، بعيدِ المنال، وهو ما أُعِدَّ للأبرار من نعيم وشرابٍ طاهرٍ وصفَهُ اللّه تعالى بأبلغِ وصف[1]، وقد جاءت الإشارةُ إلى الرَّحيق على وجهِ الخُصوص، أو إلى جميع ما سَلَف من مظاهِر نَعيمِهِم، فاستُعمِل اسمُ الإشارَةِ للبَعيد؛ للدّلالة على علوِّ مقام ذلك النَّعيم وسُموّ درجته، أو لأنَّه واقع في الجنَّة، أي: في ذلك النَّعيم السّامي وحده؛ فليوجّه المتنافسون رغبتَهُم دون سِواه[2].

فائدَةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور:

التّعريض بنَعيمِ الحياةِ الدُّنيا، وقَصْرُ وجوبِ التَّنافس في نعيمِ الآخرة

جاء تقديم الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾؛ لإفادة معنى الحَصْرِ والقصر، أي: في هذا النَّعيم العظيم - لا في لذائذ الدُّنيا الزّائلة - ينبغي أن يكون التَّنافسُ والتَّسابق، فالتَّقديم يُبرز العنايةَ بما أُشير إليه، ويوجِّه الأنظارَ إلى عِظَم شأنه وسموّ مرتَبَتِه، فهو موضِعُ الجدِّ والاجتهاد، وميدانُ المسابقَةِ الحقيقيَّة[3]، وأيضًا فإنَّ فيه تعريضًا بنعيم الدُّنيا الزّائل، وترف الحياة الدُّنيا الفاني، وفي هذا الأسلوب القرآنيِّ دعوةٌ بليغَةٌ إلى صَرْفِ الهِمَم نحوَ النَّعيم الأبديِّ، وإعراضٍ عن متاع الحَياةِ.

نوعُ الفاءِ ودلالَتُها:

الأمرُ بالتّنافس بعدَ بيانِ نَتائجِهِ وثَمَرَتِهِ مِن محاسنِ التّرغيب

جاءتِ الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾؛ لتربطَ الكلامَ بما قبلها، وهي تحتَمِلُ أن تكون فصيحةً، أي: أفصحت عن شرطٍ مقدّر، كأنّ المعنى: إذا عَلِمْتُم ما في هذا النَّعيم من وصفٍ وجلالٍ؛ فحينئذٍ ليَتَسابَقْ إليه المتسابقون، فهي تُفْصِحُ عن نتيجةٍ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 329.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 128.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 349، 350، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 128، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 206، 207.

تقتضيها عظمَةُ ما ذُكر من النَّعيم[1]، ويجوز أن تكون فاءَ تفريعٍ على محذوفٍ مُقدَّر، أي: تنافسوا في ذلك النَّعيم، فليتنافس المُتنافسون، وفي هذا تكريرٌ للفعل وتوكيدٌ لمعناه، مع ما يُفيده تقديم الظَّرف من تخصيصٍ وحصرٍ، فالتَّنافسُ الحَقُّ ليس في زخارف الدُّنيا، بل في نعيم الآخرة الذي لا يفنى[2].

نُكتة اختيار مُفردة التَّنافس:

النَّفاسةُ صفةٌ للشيءِ العزيزِ النّادر المرتفِعِ قَدْرُه

آثر النّظم الكريمُ اختيارَ مادّة التَّنافس، وجاءت بصيغة الأمر؛ لِما توحي به من دقّةٍ في المعنى وقوّةٍ في الدّلالة؛ إذ الأصلُ فيها أن يتسابقَ اثنان أو أكثرُ في طلبِ أمرٍ نفيسٍ يحرصُ عليه النّاسُ، وتَعلَقُ به نفوسُهم، فيرغبُ كلُّ واحدٍ أن يستأثرَ به دونَ غيره، وهو دليل على النَّفاسة لعِزَّة الشَّيء وارتفاعِ قدرِه، والتَّنافسُ على هذا تغالُبٌ في اقتناءِ ما يُعدُّ عزيزًا كريمًا[3].

نكتَةُ التَّعبير بصيغَةِ التَّفاعُل:

الإفصاحُ عن شِدَّةِ الجِدِّ والاجتهادِ في المُسابقة إلى تحصيلِ الفضائِل

جاءت صيغةُ التَّفاعل في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَتَنَافَسِ﴾؛ للإفصاح عن شِدَّةِ الجِدِّ والاجتهادِ في المُسابقة، وتوحي بالمُبالغةِ في السَّعي والرَّغبة، وفيها إيماءٌ إلى أنَّ التَّنافسَ الحقيقيَّ إنَّما ينبغي أن يكونَ في ميادين الخُلودِ والكرامةِ الإلهيَّة، لا في متاعٍ فانٍ سريعِ الزَّوال، كما هو حال المُطفِّفين الذين يتنافسون على جمْعِ حُطام الدُّنيا من أوجُهٍ مُحرَّمة، ومِن أكْلِ أموال النّاس بالباطل[4].

غرَضُ فِعْلِ الأمر:

فعلُ الأمرِ: ﴿فَلۡيَتَنَافَسِ﴾ جاء للتَّحريضِ والحثِّ؛ إذ المقصودُ

---

(1) محمَّد إبراهيم، إعراب القرآن الكريم الميسر: 1/ 588، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 206، 207، والصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 30/ 275، والعلوان، إعراب القرآن الكريم: 4/ 2653.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 206، 207.

(3) ابن جزي، التَّسهيل: 2/ 462، والواحدي، التَّفسير البسيط: 23/ 341.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 128، وعبد الملك قاسم، عقد الجمان: 1/ 1276، والميداني، معارج التَّفكر: 15/ 330.

استنهاضُ الهِمَمِ، ودفعُ النُّفوسِ إلى المُسارعةِ والمُغالبةِ في نيلِ ذلك النَّعيمِ العظيم[1].

بلاغةُ الاعْتِراضِ ودلالَتُه:

توجيهُ النُّفوس إلى التَّنافس في تحصيلِ النَّعيم الأخرويِّ لا حُطام الدُّنيا

قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ جاء في موقع بديع من النَّظم، فهو اعتراضٌ أُدرِج بين قوله تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾؛ ليؤدّيَ وظيفةً بلاغيَّةً دقيقة في توجيه الأنظار وإثارةِ الهِمَم بتقرير نفاسَتِه، وهو يفصل بين وصْفَيْنِ من أوصافِ نعيمِ الأبرار؛ ليَلْفِتَ النُّفوس إلى ميدانِ السَّبْقِ الحقيقيِّ، ويوقظ فيها روحَ التَّنافس الشَّريف في طلَبِ النَّعيم الأبديِّ[2].

نوعُ الواوِ ودلالَتُها:

الجَمْعُ بَيْنَ طيبِ خاتِمَةِ الرَّحيق ورِفْعَةِ المَمزوج به

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ هي واوُ العَطْفِ، وقَد جاءت لعطف جُملةٍ تصِفُ الرَّحيق بصفةٍ أخرى تُكْمِلُ جمالَ المشهد، فهي عطفُ صفةٍ على صفةٍ؛ إذ كما وُصِفَ خِتامُهُ بأنَّه مسكٌ، وُصِفَ مزاجه بأنَّه من تسنيم، أي: من شرابٍ عالٍ رفيع المنزلة، فجمَعَتِ الآياتُ بَيْنَ طيبِ خاتِمَةِ الرَّحيق ورفعة المَمزوج به؛ لتَكْتَمِلَ صورةُ النَّعيم في أبهى معانيها[3].

دلالة التَّعبير بلفظ (مِزاجه) مادَّة وصيغة:

شرابُ الجَنَّة مخلوطٌ بما تتشوَّق إليه النُّفوس مِن أطيَبِ ما يُعرف في الدُّنيا

لفظ (مِزاجه) مأخوذٌ من المزْج، وهو الخلط بَيْنَ شيئين حتَّى يتداخل أحدُهما في الآخر، وأصله مصدرٌ مِن الفعل مازج، ثُمَّ استُعمِل بمعنى المفعول، أي: الشَّيء الذي يُمزج به الشَّراب، وقد كان أهل الدُّنيا يمزجون خَمْرَهُم بالماء لتلطيف شِدَّتها وتنعيم أثرها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 207.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 129، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 207.
(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 10/ 372، وابن عجيبة، البحر المديد: 8/ 264.

في النَّفس؛ طلبًا لنشوةٍ مُعتدلةٍ لا تُذهب العقول بسُرْعَةٍ، بل تمتدُّ لذّتها وتدوم، فجاء التَّعبير القرآنيُّ بهذا اللَّفظ؛ ليُقرِّب المعنى إلى الأذهان، ويُبيِّن أنَّ شراب الجَنَّة ممزوج بما تتشوَّق إليه النَّفوس من أطيَبِ ما يُعرف في الدُّنيا، بل بما هو أصفى وألذّ، فزادهم بذلك شوقًا ورغبةً في ذلك النَّعيم المُقيم(1).

بلاغَةُ مُناسبة لفظ ﴿تَسۡنِيمٍ﴾ مع ألفاظ السّورة:

شــرفُ الـعـينِ وسُـمـوُّ قـدرِها مناسبٌ لمكانةِ الأبـــرار وعـلـوّ مَنْزِلَتِهِم

لفظ ﴿تَسۡنِيمٍ﴾ اسمُ عينٍ في الجنَّة، جَعلَها اللّه تعالى تَجْري من عُلوٍّ، فيُصبُّ ماؤُها في أواني أهلِ الجنَّة، وأصل الكلمةِ في اللُّغة يدلُّ على العُلوِّ والارتفاع، ومنه سُمّيَ السَّنام لارتفاعه، وسُمّيَ الماء بهِ لارتفاعه وانصبابهِ من علوٍّ، فجاء هذا الاسمُ عَلَمًا على تلك العين المُباركة التي تَصُبُّ من مكانٍ مرتفع، وهذا يدلُّ على شرفها وسُموِّ قدرها، ولفظ ﴿تَسۡنِيمٍ﴾ من الجذور العربيَّة، غيرَ أنَّه لم يُعرف في كلام العرب قبلَ القرآن، فهو من مُبتكرات القرآن البيانيَّة المُفيدة للمعاني السّامية التي تليق بنعيم الجنَّة(2)، وقد تناسب هذا اللَّفْظُ مع دلالاتِ العلوِّ والرِّفعة لأهل الجنّة المذكورة في السّورة، من مثل: ﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾، و﴿عِلِّيِّينَ﴾، و﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾، فالألفاظ المستعملةُ والتَّراكيب المختارةُ، بل أحرفُ الاستعلاءِ الواردةُ، تواردت على معنى العلوِّ والرِّفعة، وهي ما يُحقِّق الانسجامَ الموضوعيَّ بين الألفاظ المختارة.

غرَضُ تنكيرِ لَفْظِ ﴿عَيۡنٗا﴾:

جاء لفظ ﴿عَيۡنٗا﴾ نكرةً للتَّفخيم والتَّعظيم؛ إذ تدلُّ على عينٍ عظيمةٍ جليلةٍ من عيون الجنَّة، لا يُحيط الخَلْقُ بحقيقتها، ولا يبلُغون وصفَها، ولا يعلم كُنْهَها إلّا اللّه ﷻ.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السُّنة: 10/ 465، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 207.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 208، والقاسمي، محاسن التَّأويل: 9/ 434.

نوعُ الباءِ ودلالاتُها البيانيَّة:

التَّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿يَشۡرَبُ بِهَا﴾ تضمَّنَ بلاغةً دقيقةً في اختيار الحرفِ؛ إذ جاءت الباءُ؛ للدّلالة على معانٍ مُتعدِّدة تزيدُ المعنى ثراءً، فقد تكون صِلَةً على معنى (يشربها)؛ للمُبالغة في اتِّصالهم بها، أو تكون بمعنى (من)، أي: يشرب منها؛ إشارةً إلى تكرار النَّعيم وتجدُّده، أو تكون على أصلها؛ لتُفيد التَّضمين، أي: جُعل (يشرب بمعنى (يروى) أو (يلتذّ)[1]، ويَحْتَمِل أن تكون الباءُ للسَّببية، أي: يشرب بسبَبِها، أي: بما يَمْتَزِجُ مِن شَرابِهم بها[2].

تضمين (يَشۡرَب) معنى الارتواءِ أوْلى الأقوالِ بالرِّواء

توجيهُ تَخْصيصِ المُقرَّبين بالذّكر:

خَصَّ النّظمُ الكريم المقرَّبين بالذِّكر في كونهم يَشۡرَبونَ من التَّسنيم في قولِه تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾، في أنَّ اللّه تعالى جعل شرابَ الأبرار ممتزجًا من هذه العينِ الكريمة، بينَما جَعَلَ شرابَ المقرَّبين منها خالصًا غيرَ ممزوج؛ جزاءً لصفاءِ أعمالهم وتمامِ إخلاصهم، فكما كانت أعمالُ المقرَّبين خالصةً للّه تَعالى لا يشوبها رياءٌ ولا التفاتٌ إلى حظٍّ دنيويٍّ؛ جوزوا بشرابٍ خالصٍ صافٍ من التَّسنيم، وكما كانت أعمالُ الأبرار ممزوجةً بين الطّاعة والمباح؛ جاء شرابُهم ممزوجًا من تلك العين العالية، فهو مشهدٌ بليغٌ يجسّد قاعدةَ الجزاء من جِنْسِ العمَلِ، ويُظهر عدلَ اللّه تَعالى وفضلَهُ ولُطفَه في ترتيب النَّعيم على مراتبِ الإخلاص[3].

لطائفُ القُرآن الإشاريّةُ لا تَتناهى ومَزيج دلالاتِهِ بها يُتباهى

مُناسبة ذِكْرِ المُقرَّبين في مقام التَّنعُّم بالتَّسنيم:

أُكرِم المقرَّبون بمنزلةٍ عاليةٍ تُشرف على عين التَّسنيم، فكانوا

(1) الفراء، معاني القرآن: 3/ 249، والزجاج، معاني القرآن: 5/ 301، والزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 723، والعكبري، التِّبيان: 2/ 1277، والحلبي، الدُّرُّ المصون: 10/ 726، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 283.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 330.
(3) ابن القيِّم، طريق الهجرتين، ص: 194.

أقربَ النّاس مَوْرِدًا منها، وأوفرَهُم حظًّا من صَفائِها ونَقائِها؛ لأنَّهم أدْرَكوا نسيمَ القُرب منها، ونالوا من عَبيرِها نصيبًا يليقُ بمكانَتِهم العاليَة[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّظر والبصَرُ والرُّؤية:

الإبصارُ يتميَّز بالوُضوح، والرُّؤية تتميَّز بالعِلْم، والنَّظر يُميِّزه التَّأمُّلُ

النَّظر هو عبارة عن تقليب العينِ نحوَ المرئيِّ التماسًا لرؤيته، فهو طلَبُ ظُهورِ الشَّيء، ويكون النّاظر الطّالبُ لظهور الشَّيء بإدراكه من جهة حاسَّة بصرِه أو غيرها من حواسِّه، والنَّظر بالقلب من جهة التَّفكُّر، والنَّظر أيضًا هو الفِكْرُ والتَّأمُّل لأحوال الأشياء[2].

والرُّؤية هي إدراكُ المرئيِّ، ولذلك قد ينظُر، ولا يراهُ، ولمّا كانت الرُّؤية من توابع النَّظر ولوازمه غالبًا؛ أُجْرِيَ لفظُ النَّظر على الرُّؤية على سبيل إطلاقِ اسم السَّبب على المسبَّب[3]، كما ورد في حكاية عن طلب موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: 143]؛ فكان الردُّ: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: 143]، وأيضًا فإنَّه قد يَطْلُب جماعةٌ الهلالَ، فيراه جماعةٌ منهم، ولا يستطيع الآخرون رؤيتَهُ معَ أنَّهُم جميعًا ناظرون[4]، فالفرق بينَهما أنَّ الرُّؤية هي: إدراك المرئيِّ، والنَّظر: الإقبال بالبصَرِ نحوَ المرئيِّ.

أمّا البصرُ؛ فهو إدراك العين، ويُطلق على القوَّة الباصرة، التي من شأنِها إدراك أشباحِ الصّور[5]، والعين هي أداة الإبصارِ، قال تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ﴾ [الأعراف: 195]، وقد يُطلق البصَرُ؛ ليدلَّ على العلم القويِّ المُضاهي لإدراك الرُّؤية، فيُقال: بَصُرَ

(1) السُّلمي، حقائق التَّفسير: 2/ 382.
(2) العسكريُّ والجزائري، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 543.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 29/ 457.
(4) العسكريُّ والجزائري، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 543.
(5) الكفويُّ، الكليّات: ص 247، والتَّهانويُّ، كشاف اصطلاحات الفنون: 1/ 938.

بالشَّيء: عَلِمَهُ عن عيان، فهو بصير به[1]، قال تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥﴾ [القلم: 5]، وحينَها يكون الفَرْقُ بين النَّظر والبصر كالفرق بين النَّظر والرُّؤية، قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝١٩٨﴾ [الأعراف: 198]، فالإبصار يتميَّز بالوضوح، والرُّؤية تتميَّز بالعلم، والنَّظر يُميِّزه التَّأمل، وهذا واضحٌ في استعمالات القُرآن لهذه الألفاظ.

(1) نشوان الحميري، شمس العلوم: 1/ 544.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا
مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ
٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ
حَٰفِظِينَ ٣٣﴾ [المطففين: 29 - 33]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانـتـقـال من ذكر الجزاءِ إلى ذكر سببِه ليَقَعَ التَّحذير والتّنبيه

لما بيَّنتِ الآيات السّابقة جزاء الفُجّار المجرمين وجزاءَ الأبرار المُحسنين، مُظهِرةً ما بَيْنَ الفريقين من البون الشّاسع والتَّفاوت البعيد؛ ناسب بعد ذلك بيان حال المُجرمين في الدُّنيا، وكيف كانوا يَسْخَرون من المؤمنين، ويستهزئون بهم، ويَضْحَكون منهم استخفافًا واحتقارًا، ويتغامزون عند مُرورِهم بهم ازدراءً لهم، وهُم في غَفْلَتِهم تلك آمنون مُطْمَئِنّون، لا يَخْطُرُ في بالِهم خوفٌ من عاقبةٍ أو حساب[1]، فهو انتقالٌ من ذكر الجَزاءَيْنِ في الآخرة، إلى ذِكْرِ سببَِ جزاءِ المُجْرِمين في الدُّنيا؛ ليكونَ التّرهيبُ آخذًا مسارَهُ الأخير في التّحذيرِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾: أي: يَغمِزُ بَعضُهم بَعضًا، ويُشيرونَ بأعْيُنِهم على وجهِ السُّخريةِ، والغَمزُ: الإشارةُ بالجَفنِ والحاجِبِ، وأصل الغمز: دفعٌ وضغطٌ بنحو الإصبع دقَّةً في ظاهر الشَّيء إلى الدّاخل[2]، ويكونُ الغمزُ أيضًا بمعنى العَيبِ، يُقالُ: غَمَزَه؛ إذا عابه، والغَميزة: العَيْب، ولَيسَ في فُلانٍ غَميزة ولا غَميزٌ ولا مَغْمَزٌ، أي: ما فيهِ ما

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 916.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غمز).

يُغْمَزُ فيُعاب بِهِ، ولا مَطْعَنٌ[1]، والمعنى: أنَّهم يُشيرون إليهم بالأعيُنِ استهزاءً، ويُعَيِّرونهم بالإسلام، ويعيبونَهُم به[2].

2) ﴿ٱنقَلَبُوٓاْ﴾: أصْلُ مادّة (قلب) رَدُّ شَيْءٍ مِن جِهَةٍ إلى جِهَةٍ، ثُمَّ عبَّروا به عن مُجرَّد التَّغيير الكثير[3]، والانقِلابُ: الانصِرافُ والارتِجاعُ، وهو لِلمُطاوَعَةِ، يُقال: قَلَبْتُهُ، فانْقَلَبَ، والمعنى هُنا: انصَرَفوا، ورَجَعوا[4].

3) ﴿فَكِهِينَ﴾: أصلُ (فكه): يدُلُّ على طيبٍ واستِطابةٍ[5]، والفاكهة: ما يُتَفَكَّه به من الثِّمار، ويَغْلِبُ في الرَّطب منها[6]، والمعنى هُنا، أي: مَسرورينَ مُعْجَبينَ باستِخفافِهم بالمؤمِنينَ[7].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

وصــفُ حــالِ الفجّار في الدُّنيا هـدايـةٌ ربّـانيَّـة وقيمة عدليّةٌ

تُبيِّن الآيات الكريمة حال الكُفّار وسلوكَهم مع المؤمنين في الدُّنيا، فقد كانوا يَسْخَرون منهم، ويستهزئون بهم، ويَضْحَكون استعلاءً واحتقارًا، وإذا مَرّوا بالمؤمنين تَغامَزوا ساخِرين، يُشير بعضُهُم إلى بعضٍ إشارةَ ازدراءٍ وعَيْبٍ، ثُمَّ إذا رجعوا إلى بيوتِهم؛ عادوا مسرورين بما فعَلوا، فرحين بما يظنّون أنَّه نيلٌ مِن المؤمنين، وإذا صادَفوهُم؛ قالوا مُتعجِّبين باستهزاءٍ: إنَّ هؤلاء لضالّون عن الطَّريق، وما جعلهم اللّٰه تعالى رُقباء على المؤمنين ولا وُكلاء عليهم؛ ليُحاسِبوهُمُ، أو يَزِنوا أعمالَهُم[8].

(1) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (غمز).
(2) الواحدي، البسيط: 23/ 346، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 267.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قلب).
(4) أبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 2/ 7.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فكه).
(6) الحلبي، عُمدة الحفّاظ: (فكه).
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 267.
(8) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 267، 268، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 353، 354، والسِّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 916.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

غرَضُ فصْلِ الجُملة عن السّابق:

تسليَةُ المُؤمنين عمّا يُلاقونَه مِن سُخْرية الكافرين في الدُّنيا

فُصلت جملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ عمّا قبلها؛ لأنَّها استئنافٌ يُراد به الانتقالُ من وصف نعيم الأبرار إلى بيان حالِ المجرمين، وتسليةُ المؤمنين، وتثبيتُ أفْئِدَتِهم بذِكْرِ ما أُعدَّ لأعدائهم من الخِزْي والعذاب، كما أُعِدَّ لهم من الكرامةِ والنَّعيم، واستكمال ما بَدَأَتْهُ الآيات من وعيدِ المُكَذّبين.

بلاغَةُ التَّوكيد وغرضُه:

تثبيتُ المعنى في النُّفوس وتأكيدُ وُقوعِه أرسَخُ في الوعيدِ

جاءت الجُملة الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ مُصدَّرةً بـ﴿إِنَّ﴾؛ توكيدًا للخبَرِ، وتثبيتًا لمعناه في النُّفوس؛ لِما فيه من ذمٍّ شديدٍ للمُجرمين، وتنبيهٍ إلى خطورة ما سيُلقى بعدَها من وعيدٍ، وافتُتحت الآيةُ بهذا الأسلوب المُؤكَّد؛ لاستجلابِ الانتباه، وإشعار السّامعين بأنَّه خبَرٌ مُهِمٌّ[1]، ذلك أنَّ مضمون الخبر سيُلاقي في قلوب المجرمين سخريةً وإنكارًا؛ فكان تأكيدُه حريًّا بمقام الوعيد، ودفعًا لتَهاوُنِ المكذِّبين.

بلاغَةُ التَّعبير بالاسْمِ المُوصولِ:

إظهارُ علَّةِ الجزاءِ في مَطْلَعِ الكلامِ بيانٌ لعدالَتِهِ في نِهايَتِهِ

جاء التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ: ﴿ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾؛ للتنبيه على أنَّ ما أُخْبِرَ به عنهم هو إجرامٌ، وليظهر موقِع ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[2] من التَّلازم بين أفعالِهم الإجراميَّةِ وبَيْنَ الجزاءِ الذي خُتِمَت به السّورةُ، ولإبرازِ علَّةِ ما يُخبَرُ به عنهم، وهو الإجرامُ نفسُه، وللتَّنبيهِ على أنَّ ما سيأتي من حديثٍ إنَّما هو نتيجةٌ طبيعيَّةٌ لجُرمِهم، وأيضًا فإنَّ في الاسم الموصول إشعارًا بأنَّ الذين أجرموا هم قومٌ مخصوصون معلومون من أسياد مكّة ومُشْرِكيها، ممّن حاربوا المؤمنين، وهو ما يَجْري على كلِّ مجرمٍ تمثَّل مَنْهَجَهُم.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 210.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 210.

بلاغةُ استعمال مُفردة الإجرام:

الـدَّلالـة على بلوغ الغايةِ في الشَّرِّ والطُّغيان

جاء استعمالُ مفردة الإجرام في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ بعد الإخبار عن المُكَذّبين بوصف ﴿ٱلۡفُجَّارِ﴾؛ ليدلَّ على غايةِ الشرِّ والطُّغيان، فالإجرامُ هو ارتكابُ الذَّنبِ العظيمِ والجنايةِ الكبرى، والمقصودُ به هُنا ما قاموا به مِنَ الإفسادِ في مُحاربَةِ الدّعوة والسُّخرية من المُؤْمنين؛ ليَصُدّوا النّاس عن الإيمان، ففي وصفِهم بالإجرامِ إيحاءٌ بأنَّ هذا الوصفَ هو الذي حَمَلَهُم على السّخريةِ من المؤمنين والاستخفافِ بهم؛ إذْ كان كفرُهم أصلَ كلِّ جرمٍ، وسببَ ما بدرَ منهم من استهزاءٍ واستهانة[1]، وقد غلب في استعمال القرآنِ الكريمِ أن يُرادَ بالمجرمين الكفّارُ، كما يُفهم من قولِه تعالى في المقابلة: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾[2].

دلالة التَّعبير بصيغة الماضي:

التَّعبيرُ بالفعلِ الماضي ﴿أَجۡرَمُواْ﴾ يُفيدُ أنَّ إجرامَهم قد تحقَّق، وثبَت وقوعُه؛ بسبب ما كَسَبوه مِنَ الآثام[3]، فهم قد رَسَخوا في الكفر، وتمادَوا فيه حتّى صار صفةً ثابتةً لهم.

دلالةُ ذِكر فعل ﴿كَانُواْ﴾:

طَـبْـعُ الـلِّـئـام يُـصاحِبُـهُـم في ثَنايا الكلامِ

ذِكرُ فعلِ الكَوْنِ ﴿كَانُواْ﴾ ماضيًا يُفيدُ أنَّ استهزاءَ المُجرمين بالمؤمنين كان صفة راسخةً فيهم، وطبعًا مُلازمًا لهم في حياتِهم الدُّنيويَّة، حتَّى صارت هذه الخصلة دَيدَنًا لهم وطبيعةً متأصِّلةً في نفوسِهم[4].

بلاغة تقديم الجارِّ والمجرور:

الــذَّمُّ يـلحقُ الأفعالَ باعتبارِ متعلّقاتها

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ في قوله تعالى: ﴿كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(1) عطيَّة سالم، تتمَّة أضواء البيان: 8/ 463.
(2) القصّاب، النُّكت الدّالة على البيان: 4/ 490.
(3) ابن عطيَّة الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 5/ 454.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 331، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 210.

يَضۡحَكُونَ﴾؛ للتَّنبيه على خصوص الضَّحِك مِنَ المؤمنين، ولبيانِ سوءِ استِهْزائهم في أنَّهم كانَوا من الذين آمنوا لا مِن غيرهم، وهو ما يدلُّ على أنَّ ضَحِكَهُم لم يكن مذمومًا لذاته، بل في كونه صادرًا عنهم في حقِّ المؤمنين، فالذَّمُّ لا لذات الأفعال بل لِمُتَعَلّقاتها، وهو ما يدلُّ على شدّةِ قباحتِهم وفظاعةِ صنيعِهم؛ إذِ استهزؤوا بمَنْ لا ينبغي الاستهزاءُ بهِ، بل تَجِبُ نُصْرَتُه.

دلالة التَّعبير بالموصولِ وصِلَتِهِ:

عُبِّرَ بالموصولِ وصِلَتِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لبيان علّة الاستهزاء الصّادر عن المجرمين، وهو إيمانُ المؤمنين، ولبيان أنَّ جُرْمَ الكافرِ هو الذي يَجْعَلُهُ يَسْخَرُ مِن إيمانِ المُؤْمِنِ لا غير.

توجيهُ تَخْصيصِ الضَّحك بالذِّكْرِ:

الضَّحِكُ انعكاسٌ لِلُغَةِ الجِسْمِ المُقْتَرِنِ بالاستهزاءِ وتَفاهَةِ المُجْرِمينَ

آثر النَّظمُ الكريم ذِكْرَ صِفَةِ الضَّحك باعْتِبارِها الصِّفَةَ الصّادرة عن المُجْرِمين في حقِّ المؤمنين، مع توارُدِ صِفاتٍ كثيرةٍ صادرةٍ عنهم، وذلكَ لأنَّ الضَّحِكَ يُمَثِّل حالَ الاستهتارِ وعَدَمِ المُبالاة في حقِّ المؤمنين، ويُظهِر مَدى استهزاء المُجْرِم واحتقاره للمؤمنين، فهي حالٌ مرتبطةٌ بلغة الجَسَدِ المقترنة بأصواتٍ بهيميَّة تُنادي على حَتْفِها، فتَرْسُمهم في صورة البُلْه الحَمْقى الذين يَضْحَكون من حيثُ يَجِبُ أن يَبْكوا، ويفرحون من حيث يَجِبُ أن يَحْزَنوا، فكُفْرُهُم ممزوجٌ بالتَّفاهة والفَهاهَةِ التي تدلُّ على ضَعْفِ العُقول، وخَوَرِ القُلوب.

دلالةُ التَّعبير بصيغَةِ المُضارع:

اختيرَ فعلُ ﴿يَضۡحَكُونَ﴾ بصيغة المُضارع؛ لتَصْوير مَشْهَدِ الضَّحك الصّادر عن المجرمين، وأنّه فعلٌ مستمرٌّ ومتجدِّد يدلُّ على الحِقْدِ والحَسَدِ والكَيْدِ المفرّغ بالضَّحِك.

نوعُ الواوِ ودلالَتُها:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ﴾ هي واوُ العَطْفِ، جاءَت لِرَبْطِ هذه الجملة بما قَبْلَها مِن قوله: ﴿يَضۡحَكُونَ﴾؛ للدّلالة على تتابُعِ أفعالِ الاستِهْزاءِ والسُّخرية من الكُفّار بالمؤمنين، فكانوا لا يَكْتَفونَ بالضَّحك، بل يزيدون عليهِ بالغَمْزِ واللَّمز والإشارة بالأعيُن؛ كُلَّما مرّوا بالمؤمنين؛ استهزاءً بهِم واحتقارًا لَهُم.

أفعالُ الاستهزاء والسُّخرية متتابعةٌ متنوّعةٌ في حقِّ المؤمنين

دلالَةُ استِعْمالِ أداةِ (إذا):

استُعمِلت أداة الشَّرط (إذا) في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ﴾؛ للدّلالة على تَحقُّقِ وقوعِ الفِعْلِ وثُبوتِهِ مِنَ المُجْرمين في حقِّ المؤمنين، فهي تُفيد أنَّ هذا السُّلوك كان عادةً متكرّرةً مؤكَّدةً تَصْدُرُ عنهُم كلَّما مرّوا بالمؤمنين - على القولِ بأنَّ ضمير ﴿مَرُّواْ﴾ عائد على المجرمين - لا مجرّد احتمالٍ أو وقوعٍ نادر، وأيضًا فإنَّها تَشي بأمرٍ آخر، وهو أنَّ المرور كان مقصودًا؛ ليقَعَ الغَمْزُ على وجهٍ مباشِرٍ، فلو لم يمرّوا؛ لَمَا تَغامزوا، وهو ما يُظهر الحسَدَ والحِقْدَ في نُفوسِهم، وأنَّهم في موضعِ الاهتِمام بشأن المؤمنين، ولو قال: (وإن مروا بهم)؛ لكان المرورُ وِفاقًا لا اتّفاقًا.

تغامزُ المُجْرِمين أمرٌ اتّفاقيٌّ لا وفاقيّ ممّا يدلُّ على شديدِ الحسَدِ

تعيينُ مرجِعِ الضَّمائر في الآيات:

ما يقتضيهِ ظاهِرُ النّظم أنَّ الضَّمير في ﴿مَرُّواْ﴾ يعود إلى المجرمين، تحقيقًا لتَناسُقِ الضَّمائر في السّياق[1]؛ إذ الضَّميرُ في قولِه تَعالى: ﴿كَانُواْ﴾ وقوله: ﴿يَضۡحَكُونَ﴾ عائدٌ عليهم قطعًا، فكان الأنسب أن يرجِعَ إلى المجرمين كذلك ضمير ﴿مَرُّواْ﴾، وأيضًا فإنَّ الضَّمير في ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ يَرْجِع إلى الكفّار كذلك دون احتمالٍ آخر، فمُقْتَضى الاتّساق والتّناسب أن يرجِعَ الضَّمير في قوله: ﴿مَرُّواْ﴾ إلى المجرمين، ويَحْتَمِلُ أن يَرْجِعَ ضميرُ ﴿مَرُّواْ﴾ إلى المؤمنين، وضمير

ظاهِرُ النّظم ومُقْتَضى التّناسق بين الضَّمائر أصلٌ في تعيينِ أصْحابِها

(1) أبو حيان الغرناطي، البحر المحيط: 10/ 432.

﴿بِهِمْ﴾ إلى المُجرمين؛ لأنَّ المؤمنين كانوا يَمرّون بهم في مَجالِسِهم، فيُقابِلونَهم بالغَمْزِ والسُّخرية، كما رويَ في بَعْضِ الأخبار[1].

بلاغَةُ الكنايَةِ في مفردة ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾:

الاستهزاءُ بالمُؤمنين دَيْدَنُ المُجْرِمين وسلوكُ التّافهين

مفردة ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ مأخوذة من الغَمْزِ، أي: الإشارة بالجَفْن أو الحاجب، وقد يُفهم منها أيضًا معنى العَيْب؛ إذ يُستعمَل الغمز للتَّوبيخ أو الإشارة إلى ما يَعيب الشَّخص، والمعنى في هذه الآية: أنَّ الكافرين يُشيرون إلى المؤمنين بأعيُنِهم استهزاءً وعيبًا، فكان بعضُهُم يُشير إلى بَعْضِهم الآخَر بأعيُنِهم أو أيْديهم أو حواجبهم، أو بحركات وُجوهِهم؛ ليعبّروا بذلك عن معانٍ محدّدة، يَقْصِدون بها السّخرية والاستهزاء ممَّن يوجَّه إليهم التَّغامز، سواءٌ أكان فردًا واحدًا أم جماعَة[2]، ويقولون فيما بينهم: انْظُروا إلى هؤلاء، يُتْعِبون أنفُسَهم، ويحرمونها لذَّتها، ويُخاطرون في سبيلِ ثوابٍ لا يَتَيَقَّنون صِحَّته[3]، فاللَّفظة هُنا كنايةٌ عنِ الاستهزاء والاستخفاف بالمُؤمنين، مُجسَّدةً في سُلوكهم وحركاتهم.

دلالةُ صيغَةِ التَّفاعل:

التَّواطؤ على الغَمْزِ ليسَ من شيَمِ الرِّجال

جاء فعل ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ بصيغة التَّفاعل؛ ليَدُلّ على المُشاركة، أي: إنَّ كُلَّ واحدٍ منهم يَغْمِزُ الآخر فيما بينَهُم، فيتشارك المجرمون في الإشارة بالجُفون والحواجب؛ استهزاءً وسخريةً بالمؤمنين، والمعنى: أنَّهم يتواطؤون فيما بينَهُم على هذا الفعل[4]، وقد سجّل القرآنُ عليهم أنّهم يتّفقون على الغَمْزِ فيما بينهم، وهو ليسَ مِن صنيع الرِّجال، فهي سُبَّة عليهم إلى يوم الدّين؛ ليَقَعَ تَحاشيها مِن أربابِ المُؤمنين، فلا يُشابِهونَهُم فيها.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 284.
(2) الميداني، معارج التفكر: 15/ 334.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 94، وشحاتة، تفسير القرآن الكريم: 30/ 6414.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 157، والطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 328.

دلالَةُ العَطْفِ بينَ الجُمَلِ:

الانتقالُ مِن ذِكْرِ الفَسادِ الخارِجيِّ إلى ذِكْرِ الفَسادِ الدّاخليِّ

جاء العَطْفُ بالواوِ في قولِه تَعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ﴾؛ ليُظهر امتداد حالِهم في أطوار مُختلفةٍ، فبَعْدَ أن صَوَّر حالَهُم في مواضِعِ التَّقلُّب بَيْنَ الاستهزاءِ والمَكْر؛ انْتَقَلَ إلى مشهدٍ آخرَ مِن مَشاهِدِهِم، وهو حالُهُم في منازِلِهم بعدَ أفْعالِهِم[1]، فقوله: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ﴾ تصويرٌ لرُجوعِ المُجْرِمين إلى أهْلِهِم، رجوعَ مَن تَمْلَؤُه الرَّغبة والسُّرور بما اقترف، وأنَّهم يعيشون حالَ الفساد في الخارج والدّاخل.

بلاغَةُ الاستِعارَةِ في لَفْظِ الانقِلابِ:

الانقلابُ إلى الأهلِ تحقيقٌ للثّباتِ في الرُّجوعِ باستمرارٍ

مفردة الانقلابِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ تدلُّ على الرُّجوع إلى الموضِعِ الذي جيءَ مِنْهُ، يُقال: انقَلَبَ المُسافِرُ إلى أهله، وفي دعاء السَّفر: «وَسوءِ المُنْقَلَبِ في المالِ والأهْلِ»[2]، وأصلهُ مستعارٌ مِن: قلَبَ الثَّوب؛ إذا صرفه من وجه إلى آخرَ، يقال: قلب الشَّيء؛ إذا أرجعه[3]، فهو تشبيهُ الرُّجوعِ إلى الأهل بالانقلاب من وجهٍ إلى آخر، بجامع الانتقالِ الكامل، على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيّة، وهو دالٌّ على كثرة القيام بالفعل، فهو ينقلب عَنْهُم، ثُمَّ ينقلب إليهم باستمرارٍ.

علَّةُ ذِكْرِ لفظِ الأهلِ:

توافُقُ المجرمين مع أهلِهم ثباتٌ للضّلال ورسوخٌ في الطُّغيان

آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بلفظ ﴿أَهۡلِهِمُ﴾ دون (بيوتهم)؛ وذلك لأنَّ الأهلَ هُم موضع الأنس والانبساط، ومحلّ بثِّ الحديث والسِّرّ، بخلاف التَّعبير بالبيوتِ، فذِكْرُهم أنسبُ بسياق الحديث عن رُجوع المجرمين إلى مجالسِهم الخاصَّة، والمعنى: أنَّهم إذا عادوا إلى ذويهم الذين يألفونَهُم ويأنَسون بهم؛ أطْلقوا ألسنتَهُم في أحاديث

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 331.
(2) رواه مسلم في صحيحه، برقم: (1342).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 212.

السُّخرية والفكاهة، يتهكَّمون بالمؤمنين، ويَطْعَنون فيهم[1]، فكان اختيارُ (الأهل) أبلغَ في تصوير جوّ البَطَرِ واللّهْو الذي يَعيشونَه، ولبَيانِ أنّهم أهلٌ لهُم فيما يَسْلُكونَهُ مِن مَسالِك الإجرام والكفرانِ.

نكتَةُ تكرار مُفردةِ ﴿ٱنقَلَبُوٓاْ﴾:

توكيدُ مَعْنى الانقلابِ في النَّفس، وإحكامُ صورَتِهِ في الذِّهن

تكريرُ فِعْلِ الانْقِلابِ في قولِه تَعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ مِن النَّسجِ الجَزل في الكَلام؛ إذْ كانَ يُمْكِنُ أن يُقال: (وإذا انقلبوا إلى أهلهم، فكهوا)، أو (كانوا فاكهين)، غيرَ أنَّ إعادة الفِعْلِ جاءت لتوكيدِ معناهُ في النَّفس، وإحكام صورَته في الذِّهن؛ لما فيهِ مِن دلالةٍ على تَجدُّد الحدَثِ وتكرُّره[2]، واستحضارِ المَشْهَدِ بكلِّ حركَتِهِ، فكأنَّ السّامِعَ يَرى المُجرمين في كُلِّ رجوعٍ يَنْقَلِبون بانشراحٍ ولهوٍ، يفرحون بما اجترَحوا، ويَزدادونَ غرورًا وضلالًا.

توجيهُ القِراءات القُرآنيَّة:

مَن سُرَّ بالسُّخرية من المؤمنين؛ فهو أشِرٌ بَطِرٌ

قرأ حفصٌ وأبو جعفر: ﴿فَكِهِينَ﴾، وقرأ الباقون: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ بإثبات الألف[3]، فأمّا قراءة ﴿فَٰكِهِينَ﴾: فهي اسمُ فاعلٍ من الفِعْلِ: فكِهَ، ومعناها: انقلَبوا مُعْجَبين على وجهِ التَّلذُّذ والمرَح، أي: إنَّهم يرجعون إلى أهلهم مُتفكِّهين بأحاديث السُّخرية والاستهزاء بالمؤمنين، وأمّا قراءة ﴿فَكِهِينَ﴾ بغير ألف؛ فهي بمعنى: أشِرينَ بَطِرين فرحين[4]، وعلى هذا فالمعنيانِ مُتقاربان، بل هُما بمَعْنًى واحدٍ عندَ كثير من المُفسِّرين[5]؛ إذْ كلتا القراءتينِ تُصَوِّران حالَ المُجْرمين عندَ رُجوعِهم إلى أهْلِهم في لهوٍ وغرورٍ واستمتاعٍ بذِكْرِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 212.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 212.
(3) ابن الجزري، النَّشر: 2/ 354.
(4) العليمي، فتح الرَّحمن: 7/ 317، وابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 266، والملا علي القاري، أنوار القرآن: 5/ 294.
(5) الحلبي، الدُّرُّ المصون: 6/ 495، وخواجه الأنصاري، كشف الأسرار: 10/ 420، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 213.

المؤمنين بالسّوء، غيرَ أنَّ قراءةَ الألفِ ﴿فَٰكِهِينَ﴾ أدلُّ على التَّفكُّه والسُّرور بالحديث، وقراءة القَصْرِ ﴿فَكِهِينَ﴾ أظهر في وصفِ الأَشَرِ والبَطَر، ومَن سُرَّ بالاستهزاء بالمؤمنين؛ فهو أشِرٌ بَطِر.

دلالةُ حذف مُتعلّق ﴿فَكِهِينَ﴾:

الحذفُ أوْلى مِنَ الذِّكر عند ظُهورِ المَعنى لِحَثّه على التَّأمُّل

حُذف متعلِّق ﴿فَكِهِينَ﴾؛ لقصد الإيجاز، باعتبار وُضوح المقصودِ مِن سياق الكلام؛ إذْ دلّ السّياقُ على أنَّهم فكِهونَ بذِكْرِ المُؤْمنين والتَّندُّر عليهم، فاستُغني عن التَّصريح بالمتعلّق لِظُهورِه في المَعْنى، فجاء الحذفُ أوجزَ وأقوى في الدّلالة؛ إذْ يُثير في النَّفس صورةَ حالِهِم مِن غيرِ تقييدٍ بعبارة[1].

نوعُ الواوِ ودلالَتُها:

الانتقالُ مِن مشهدِ الاستهزاءِ الاجتماعيِّ إلى مشهدِ الاستهزاءِ العَقَديِّ

جاءت الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾؛ للعَطْفِ على ما قَبْلَها، فهيَ تَرْبِطُ هذا المَشْهَدَ بما سبَقَهُ مِن أحوالِ المُجرمين مع المؤمنين، فبَعْدَ أن صوّر اللّه تَعالى مُرورَهُم بِهِم ساخِرين، ثُمَّ سخريتهم إذا انْقَلَبوا إلى بيوتهم؛ انتقل إلى مشهدٍ آخرَ مِن مشاهد استهزائهم، وهو زيادَتُهم في الطُّغيان، فإذا رَأَوْهُم بأعيُنِهم؛ ازدادوا استهزاءً واحتقارًا[2]، فهو انتقالٌ مِن مَشْهَدِ الاستهزاء الأخلاقيِّ، إلى مَشْهَدِ الاستهزاء الاجتماعيِّ، إلى مَشْهَدِ الاستهزاء العقَديِّ.

دلالةُ ذكْرِ فِعْلِ القول:

الجَمْعُ بينَ أذَى لُغَةِ الجَسَدِ ولُغَةِ اللِّسان

جاء التَّعبير بالقولِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ نقلًا دقيقًا لما يَصْدُرُ عن المُجْرمين عند رُؤْيَتِهم المُؤْمنين، فهُم يَجْمَعونَ بين أذى لُغة الجسدِ، وأذى لغةِ اللِّسان، فالقولُ هنا يكشِف عن جراءَتِهِم في إعلان السّخرية جهرًا أمام المُؤْمنين، رجاء

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 213.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 332.

أن يَثْنوهُم عن إيمانهم، ويَحْتَملُ أن يكون قولًا يَتَناجى به بَعْضُهُم مَعَ بَعْضٍ؛ إذا رأوا المؤمنين، على نحوِ ما يَفْعَلونَ في مَجالِسِ لَهْوِهِم حينَ يَتفَكَّهون بذِكْرِهِم[1]، فجاء التَّعبير بالقولِ أبلَغ في تصويرِ وقاحَتِهِم، وإبراز طابع الاستهزاء الجَهْريِّ والباطنيِّ معًا.

نُكتَةُ مَجيءِ فِعْلِ القَوْلِ ماضيًا:

جاء التَّعبيرُ بالفعلِ الماضي ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ للدّلالة على سُرعة مُبادرَتِهِم إلى القول[2]، فما إنْ تقَع أعينُهم على المؤمنين حتَّى يسبِقَ لِسانُهُم إلى الاستهزاء، فالماضي يُصَوِّرُ تعجُّلَهُم في الطَّعن.

بلاغة التَّوكيد وفائدتُه:

توكيدُ الكاذِبِ قيلَهُ دليلُ زَعْزَعَتِه وبُرهانُ هَشاشَتِه

جاء قولُه تَعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ مؤكَّدًا بحرفِ التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾ وبلام الابتِداء، والمقصودُ من هذا التَّوكيدِ بيانُ اجتهادِهِم في تقويةِ دَعْواهُم الباطلة وتثبيتها وإظهار ما بَلَغوا إليهِ من العِناد والجُرأة في نسبةِ المُؤمنين إلى الضَّلال[3]، فقد بالَغوا في توكيد قَوْلِهِم للمُبالغة في صِدْقِ هذا القولِ عندَهُم؛ لأنَّهم يوقِنون في قرارةِ أَنْفُسِهِم أنَّ عقول النّاس تُكذِّبهم، فحاوَلوا سَتر ضعفِ حُجَّتهم بكثرةِ التَّوكيد في اللَّفظ[4].

فائدَةُ استِعْمالِ اسمِ الإشارةِ القريبِ:

جاءَ اختيارُ اسمِ الإشارةِ القريب في قولِه تَعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ ليُصوّر ازدراءَ المُجْرِمين بالمؤمنين، فالمُجرمون يَنْظُرون إلى المُؤْمنين بعَيْنِ الكِبر والازْدِراء[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 214.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 158.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 129، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 214.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 332.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 332.

الضّلال في عُرفِ المُشركين هو الفسادُ في الرَّأي؛ بسبَبِ مُخالفةِ العادات

دلالَةُ استِعمال مفردةِ الضَّلال ومعناه:

المُراد بالضَّلال في قولِه تَعالى: ﴿لَضَآلُّونَ﴾ ليسَ بمَعْناهُ الشَّرعيِّ، بل بمعناهُ اللُّغويِّ في عُرف المشركين، وهو ما يعدّونه فسادًا في الرَّأي ومُجانبةً للصَّواب؛ إذْ رأوا في إيمانَ المؤمنين خروجًا عن عاداتِ قومِهم، وتفريطًا في لذائذِ الحياة؛ طمعًا في نعيم أخرويٍّ غيبيٍّ، ووصفهم بالضَّلال في جُملة اسميَّة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ يَدلُّ على رسوخ هذا الحكم في زَعْمِهم وثَباتِه في نُفوسِهم[1].

شمولُ كلِّ أنواع الضَّلال في زَعْمِ المُشْركين

غرض حَذْفِ مُتعلّق ﴿لَضَآلُّونَ﴾:

حُذِف مُتعلّق ﴿لَضَآلُّونَ﴾؛ ليَعُمَّ المعنى، فيشمَل كُلَّ ما رَمَوْهُم بهِ من أنواع الضَّلال في زَعْمِهم، كضَلالِهم عَن طريقِ الآباء والأجداد، أو عن الصَّواب في نَظَرِهم، أو ما أَلْصَقوهُ بهم من صِفات التَّشدُّد والتزمُّت والانغلاقِ، فكان الحذفُ أبلغَ في توسيعِ دائرة الاتِّهام[2].

التَّهكُّم بالمُجْرمين والتَّعريض بسَفاهَةِ قَوْلِهِم

نوعُ الواوِ ودلالَتُها:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾ واوُ الحالِ، والمعنى: قال المُجْرِمونَ ذلك القولَ، والحالُ أنَّهم ليسوا مُرسلين من قِبَل اللّه تعالى حَفَظَةً أو رُقَباءَ على المؤمنين، فجاءت الحاليَّة؛ لتبيّن أنَّهم قالوا ما قالوهُ في حالٍ لا تُخَوِّلُ لَهُم الكلامَ، ولا تَمْنَحُهُم حقَّ الحُكْم على غيرهم؛ إذْ لم يوكَل إليهِم مِنَ اللّه سُبحانه أن يُراقبوا المؤمنين، أو يحفظوا أعمالَهم، وفي هذا الأسلوب تهكُّمٌ بهم وتعريضٌ بسفاهَةِ قَوْلِهم؛ إذ تجاوزوا حُدودَهُم[3].

بلاغَةُ النَّفي بحَرْفِ (ما):

جاء النَّفيُ بـ (ما) في قولِه تَعالى: ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾؛

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 332، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 214.
(2) الحجازي، التَّفسير الواضح: 3/ 841، وعبد الملك قاسم، عقد الجمان: 1/ 1276.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 130، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 214.

لِيُفيد نفيَ أن يكونَ لَهُم أدْنى تكليفٍ من اللّه تَعالى بمراقبة المؤمنين أو الحكم عليهم[1]، وقد جاء هذا النَّفيُّ في معرِض التَّهكُّم، فكان في النَّفيِ ردعٌ لهم، وتوبيخٌ على تجاوُزِهم حُدودَهُم، ونفيُ الحقّ في الكلامِ والحُكْمِ على المؤمنين: إيماءٌ إلى عدَمِ أهليَّة المتكلّم في الكلام، وضعفِه عَن بلوغ مثل هذه الرُّتبة، فهو انتقاصٌ وتوبيخٌ لعُقولِهِم، وتهَكُّمٌ بشَخْصِهِم.

نفيُ التّكليفِ دليلُ إسْفافِ المُجْرمين وركوبِهم مَتْنَ الحَماقَةِ

فائدَةُ استِعْمالِ مُفردة ﴿أُرۡسِلُواْ﴾:

جاء اختيارُ مُفردة ﴿أُرۡسِلُواْ﴾؛ لتومِئَ إلى أنَّ الحُكم بالهُدى أو الضَّلال وظيفةُ مَن أرْسَلَهُ اللّه تَعالى، لا عملُ الجهلَةِ مِن النّاس ولا حُكمُ الحمقى المُتطاولين على مقام الرِّسالة، ففي لفظ ﴿أُرۡسِلُواْ﴾ تلميحٌ إلى أنَّ تعيينَ الحَقِّ والباطل إنَّما هو من خَصائصِ المُرسلين المُفوَّضين من ربِّهم[2]، فهي دعوةٌ إلى قَلْبِ الأمر على المُجْرمين، كأنّه قيل: إنَّ مَن يحكُمُ على الآخر بالضَّلال والهُدى هو مَن أرسلَهُ اللّه تَعالى للنّاس، لا مَن خالف الرِّسالة والرَّسول، وعليه فالضّالّ على الحقيقةِ هو مَنْ خالفَ الرِّسالة، لا مَن حَكَم بالضَّلال، فمِن قيلِهم وقَعَتِ الإدانَةُ عَلَيْهِم.

قَلْبُ الأمْرِ على المُشْرِكين بجَعْلِهِم الضّالّينَ؛ لمُخالَفَتِهم إمامَ المُرْسَلين

دلالة التَّعبير بحرفِ الاستعلاءِ:

الاستعلاءُ المجازيُّ الذي أفادَهُ حرف (على) في قولِه: ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾ يُبرز ادِّعاءَ المشركين الباطل لمقامٍ عالٍ ليسوا أهلَهُ، ولكنَّ النَّظم نفى عنهُم هذا المقامَ نفيًا قاطعًا[3].

غرَضُ تَقْديمِ الجارِّ والمجرورِ:

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ في قولهِ تَعالى: ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾؛

العنايَةُ بما دلّ عليه حرفُ الاستعلاءِ ومجرورُه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 214.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 214.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 214.

للعِنايةِ بما دلّ عليه حرفُ الاستعلاءِ ومجرورُه؛ إذْ فيه إبرازٌ لمحلّ الإنكار، أي: إنَّهم ليسوا موكَّلين بالمؤمنين ولا مُهَيْمِنين على أعمالهم، فاقتَضى التَّقديمُ توجيهَ الأنظارِ إلى هذا المعنى المقصودِ، وراعى التَّقديمُ أيضًا فاصلةَ الآياتِ(1)، فجاء الكلامُ مُنْسَجِمًا في لفظه وموقِعِه؛ إذ جمَعَ بَيْنَ جمالِ اللَّفظ ودقّة المَعْنى.

دلالَةُ تعديَةِ لَفْظِ الحِفْظِ بحرف (على):

تضمُّن لَفْظِ الحِفْظِ مَعْنى الرَّقابة

تضمَّن لفظُ الحفظِ في قولِهِ تَعالى: ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾ مَعْنى الرَّقابة، ولذلك عُدّيَ بحرف (على)؛ للدّلالةِ على الإشرافِ في المراقبة، وليَمتدَّ النَّفيُ إلى كلٍّ من الإرسالِ والحفظِ معًا، فيُفهم أنَّ الكفّارَ لم يُكلَّفوا بمراقبةِ المُؤْمنين ولا بمُحاسَبَتِهم(2).

بلاغَةُ الاعْتِراضِ بالجُمْلَةِ الحاليَّة:

التَّطفيفُ مَنْهَجٌ واحدٌ وإن اختَلَفَت أشكالُهُ الاقتصاديّة والعقديَّة

الاعتراض بالجملة الحاليَّة في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾ جاء إنكارًا على المُجْرمين وتهكُّمًا بهم؛ إذْ كيفَ يَتَجَرَّأ هؤلاء على نِسْبَةِ المُؤْمنين إلى الضَّلال، مع أنَّهم لم يُكلَّفوا بمُراقَبَتِهم ولا وُكِّل إليهم حفظُ أحوالِهم؟ فهُم فوقَ أنّهم مُشْرِكون مُجرمون مكذِّبون، يَحْكُمون على المؤمنين بالضّلال، وهذا ما أشارت إليه السّورة في مَطْلَعِها في وصْفِ المُطَفّفين، بأنّهم إذا اكتالوا على النّاس يَسْتَوْفون، لكنَّهُم إذا كالوهُم؛ يُخْسِرونَهُم حقوقَهُم، فالمَنْهَجُ واحدٌ في جميعِ صوَرِ التَّطفيف الاقتصاديِّ والعَقَديِّ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الضَّلال والغِوايَةُ:

الضَّلال عامٌّ، وهو فقدان الطَّريق الموصِل، والغوايَةُ العدول عن الطَّريق القويم تَقَصُّدًا

الضَّلالُ: فُقْدانُ ما يوصِلُ إلى المطلوب، وسلوكُ طريقٍ لا يوصل

(1) ابن عاشور، التحرير والتَّنوير: 30/ 214.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 130، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 214.

إليه[1]، وكلُّ عدول عَن النَّهج عمدًا أو سَهوًا قَليلًا كانَ أو كثيرًا[2]، فهوَ ضلالٌ، وفي باب الحقِّ والباطل يكون الضَّلال عدولًا عن الطَّريق المُسْتَقيم[3]، وقد يكون عن قَصْدٍ، كما قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ [الجاثية: 23]، أو عن غير قَصْدٍ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف: 104]، أمّا الغوايَةُ؛ فهيَ جهلٌ من اعتقادٍ فاسد[4]، فلا يكون للغاوي مَقْصِدٌ إلى الطَّريق المُسْتَقيم[5]، والغواية إمعانٌ في الضَّلال، وأيضًا فإنَّ الضَّلال عامٌّ[6] يكون للعاقل وغيره، فيُقال: ضلَّت الدّابّةُ، ولا يُقال: غوت الدّابّة، أمّا الغوايةُ؛ فهي للعاقِلِ المُكلَّف، والضَّلال: نقيضُ الهُدى، قال الله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ [فاطر: 8] وقال: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾ [طه: 79]، والغوايةُ: نقيضُ الرُّشْدِ، قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾ [الأعراف: 146]، وقال: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: 256].

وقد اجتمع ذِكْرُ الضَّلال والغواية في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢﴾ [النَّجم: 2]، وفيه الشَّهادة للرَّسول ﷺ بأنَّه راشِدٌ تابعٌ للحقِّ لَيْسَ بضالٍّ، والضّالُّ: هو الجاهل الذي يسلكُ طريقًا بغير علم، والغاوي: هو العالِمُ بالحقِّ العادِلُ عنه قصدًا إلى غيره، فنَـزَّه الله تَعالى رسولَهُ ﷺ وشَرْعَهُ عن مشابهة أهل الضَّلال كالنَّصارى، وطرائق غواية اليَهود، وهي عِلْمُ الشَّيء وكتمانه والعملُ بخلافه، بل هو صلاةُ الله وسلامُهُ عليه وما بَعَثَهُ الله تَعالى به من الشَّرع العظيم في غاية الاستقامة والاعتدال والسَّدادِ، فأثنى عليه بكَمالِ العِلْم والعمل[7].

فالضَّلال أعمُّ من الغواية، وهو ألّا يَجِدَ السّالك إلى مقصده طريقًا أصلًا، والغواية ألّا يكون لهُ إلى المَقْصِدِ طريقٌ مستقيمٌ[8].

(1) الجرجاني، التَّعريفات، ص: 138.
(2) الكفويُّ، الكليات، ص: 567.
(3) المناويُّ، التوقيف، ص: 223.
(4) الرّاغب الأصفهانيُّ، المفردات: (غوى).
(5) الكفويُّ، الكليات، ص: 576.
(6) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 6/ 199.
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 411.
(8) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 199، والتّهانوي، كشّاف اصطلاحات الفنون: 2/ 1119.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾ [المطففين: 34 - 36]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

انقلابُ حالِ المُجرِمين والمؤمنين في الآخرة جزاءً وفاقًا

لمّا تناولت الآيات السّابقةُ أحوالَ الكُفّار في الدُّنيا بأنّهم يَضْحَكون، ويَسْخَرون من المؤمنين استهزاءً بهِم وبدينِهم؛ ناسب بيان اختلافِ الموقِف في الآخرة؛ إذْ أصبَحَ المؤمنون في نعيم وسرور، والكافرون في شقاءٍ وعذاب، فجاء ضَحِكُ المُؤْمنين من الكافرين جزاءً وفاقًا لِما كان مِنْهُم في الدُّنيا من استهزاءٍ وسخرية[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ثُوِّبَ﴾: أصل (ثوب) يدلُّ على العَوْدِ والرُّجوع، فسُمّي ما يرجِع من الجزاء إلى العامِلِ مِن خَيْرٍ وشَرٍّ ثوابًا[2]، ومعنى ﴿ثُوِّبَ﴾: جوزيَ بسُخْريتهم في الدُّنيا بالمؤمنين؛ إذا فُعِل بهم ذلك[3]، والثَّواب الجزاء، يُقالُ: أثابَه يُثيبُه إثابةً، وثوابًا: جازاه، فالثَّواب هو الجزاء على العمَلِ، ويكون في الخير والشَّرِّ.

المَعنى الإجماليُّ:

بيانُ حالِ المُؤْمِنين يومَ القيامَةِ مِن المُجْرمينَ

تُبيِّن الآياتُ الكريمَةُ في نهاية السّورة بأنَّ العاقبةَ للمُؤمنين بما أعدَّه لَهُم مِن الفَوْزِ والنّعيم يومَ القيامة، ففي ذلكَ اليوم يَضْحَكُ المؤمنون مِنَ الكافِرين؛ إذْ يَرَوْنَهُم يُعذَّبون على كُفْرِهم واستهزائهم، بينَما هُم في الجنَّة مكرَّمون، على الأرائك متنعِّمون، ينظرونَ إلى

(1) الخازن، لباب التأويل: 4/ 406.
(2) ابن دريد، جمهرة اللُّغة، والجوهري، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسّمين، عمدة الحفّاظ، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ثوب)، وابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 60.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 268.

وجْهِ اللّه الكريم وإلى ما أُعِدَّ لهُم مِن خيراتٍ ونعيمٍ مقيم، كما يُشاهِدون الكافرين، وهُم يُجازَون بما كانوا يَعْمَلونَ في الدُّنيا مِن سُخريةٍ بالمؤمنين وظلمٍ لهم(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الفاءِ ودلالَتُها:

استهزاءُ المجرمين بالمؤمنين أوْرَدَهُم مَوارِدَ الهلاكِ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ سببيَّة، تُفيد أنَّ ما كان مِن الكافرين في الدُّنيا مِن استهزاءٍ بالمؤمنين هو السَّبب فيما آلوا إليهِ مِن الجزاء في الآخرة؛ إذْ قابَلَهُم اللّه تَعالى مِن جِنْسِ عَمَلِهِم، فجعل المؤمنين يَضْحَكونَ مِنْهُم يومَ القيامة، فكان ذلك جزاءً عادلًا ومُناسبةً تامّة بَيْنَ العمل والجزاء(2).

دلالَةُ التَّعبير بالظَّرف (اليوم) معرَّفًا:

تعيينُ الزَّمن المَخْصوصِ الذي يتحقَّقُ فيهِ ضَحِكُ المُؤْمِنينَ مِنَ الكُفّارِ

جاء تعريف (اليوم) بـ (الـ) ونصبُه على الظَّرفيَّة؛ للدّلالة على تعيينِ زمَنٍ مخصوصٍ، هو الوقت الذي يتحقَّق فيه ضَحِكُ المؤمنين مِن الكُفّار، أي: يوم الجزاء والبَعْثِ، وقد جيء بِهِ بصيغَةِ الحاضِرِ؛ تَصْويرًا للمَشْهَد كأنَّه واقِعٌ مُشاهَدٌ عندَ نزول الآيات؛ استحضارًا لعظمته وتأكيدًا لتحقُّق وقوعه، وهو أدلُّ على التَّرهيب من القيامة، وأقوى في تقريب زمانها، وأشدُّ في تهويل الموقف، ومقتضى الظّاهر أن يُقال: (فيومئذٍ)، لكنّه عُدِلَ عن ذلك إلى ما جاء عليه النّظمُ، على تقديرِ محذوفٍ، وهو: فيُقال لَهُم: اليومَ الذين آمنوا يضحكونَ منكم(3).

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 268، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 354، والبقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 334، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 916.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 158، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 214.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 214.

نكتةُ تقديمِ الظَّرف على الفِعْلِ:

قُدِّم الظَّرف (اليوم) على ﴿يَضْحَكُونَ﴾ إبرازًا لِعظَمه، وتنويهًا بقدرِه؛ إذ هو يومُ الجزاء الذي تُقْلَبُ فيه الموازين[1]، فالتَّقديمُ للاهتمام بما فيه من مَجْدٍ للمؤمنين وعدلٍ إلهيٍّ مُبين.

دلالَةُ التَّعبير بالاسْمِ الموْصول:

جاء التَّعبير بالاسْمِ المَوْصول ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لبيانِ أنَّ الإيمان هو العلّة الحقيقيَّة، التي أَوْصَلَتْهُم إلى هذا اليوم العظيم، فأنقذَهُم مِن النّار، وأراهم جزاءَ صَبْرِهم على المُجرمين.

دلالةُ تقديم المُسند إليه على المسنَدِ الفعليِّ:

الضَّحِكُ والسُّرور خَصيصَةُ المؤمنين يومَ عقابِ أهلِ الشُّرور

تقديمُ المُسنَد إليه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على المسند الفعليِّ ﴿يَضْحَكُونَ﴾ يُفيدُ تقويةَ الحُكْم وتأكيدَهُ في الأذهان[2]، ووجه ذلك أنَّ فيه إسنادَ فعلِ الضَّحِكِ مرَّتين: مرَّةً إلى المسنَدِ إليه الظّاهر: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وأخرى إلى الضَّمير العائد إليه، وهو واوُ الجماعَةِ في الفعلِ: ﴿يَضْحَكُونَ﴾، وفي تكرار النِّسبةِ تقويةٌ لها وتأكيدٌ.

غرَضُ تقديم الجارِّ والمجرور:

انقلابُ مَظاهِرِ الأفعالِ دليلُ انقلابِ القُدُراتِ والأحكامِ

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿مِنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ على متعلِّقه ﴿يَضْحَكُونَ﴾؛ لإبراز العِنايَةِ والاهتِمام بالمَضْحوكِ منهم؛ تعجيلًا لإساءَتِهم وتصويرًا لخزيهم وإهانَتِهم عندَ سماع هذا المشهد التَّقريعي[3]، وجاء هذا التَّقديمُ مُنْسَجِمًا مع تنوُّع أساليب البيان في السّورة؛ تبعًا لِما يقتضيه المقام مِن تَوْجيهِ المَعْنى وإبراز المُفارقة بَيْنَ حال المُؤْمنين والكافرين، وقد تنوَّعت أساليبُ التَّقديم وطُرقه في الآيات السّابقة حَسَبَ استدعاءِ الحال واقتضاء المقامِ لذلك.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 214.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 333، وأبو السُّعود، ارشاد العقل السَّليم: 9/ 130، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 215.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 214.

نُكتَةُ إظْهارِ لفظِ ﴿ٱلۡكُفَّارِ﴾:

إظهارُ لفظ ﴿ٱلۡكُفَّارِ﴾ دون إضمارِه، فلم يرد البيانُ القرآنيُّ: (فاليوم الذين آمنوا منهم يضحكون)؛ لما في إظهارِ لفظ ﴿ٱلۡكُفَّارِ﴾ من الذَّمِّ والتَّشنيع عليهم، وأيضًا فإنَّ فيه تنفيرًا من الكُفْرِ والكُفّار[1].

دلالَةُ المُقابلة بين ضَحِكِ المؤمنين وضَحِكِ الكافرين:

التَّصوير البليغُ لعَدالَةِ الجزاءِ الإلهيِّ والنَّدم الشَّديد لصنيع المُشْرِكين

جاء ذكرُ ضَحِكِ المُؤمنين في الآخرة في قولِه تَعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾؛ تصويرًا بليغًا لعدالةِ الجزاءِ الإلهيِّ؛ إذ انقلَبَ الموقف الذي كان في الدُّنيا، فكما كان الكُفّار يستهزِئون بالمؤمنين، ويغمِزونَهُم، ويَسْخَرون من فقْرِهم وابتلائهم؛ صار المؤمنون يوم القيامة يَضْحَكون من الكُفّار حين يَرَوْنَهُم في ذلٍّ وهوانٍ بعد عِزَّةٍ وكبرياء، وفي عذابٍ أليمٍ بعد نعيمٍ زائل[2].

دلالَةُ التَّعبير بالفِعْلِ المُضارِع:

أشدُّ الألَمِ المُوَرِّثِ للنّدم، ما تجدَّدت معاناتُه بذِكْرِ أسبابِه

دلَّ الفعلُ ﴿يَنظُرُونَ﴾ على تجدُّدِ إلقاءِ أبصارِ المُؤْمنين إلى المُجْرمين مرَّةً بعد أخرى؛ كُلّما شاؤوا، فيُشاهِدون ما آلَ إليه الكُفّار من ذلٍّ وهوانٍ وعذابٍ بعد أن كانوا في الدُّنيا في عزَّةٍ ونعيمٍ، فجيء بالفعلِ المُضارع للدّلالة على تجدُّدِ النَّظرِ[3].

نُكتة حذفِ مَفْعولِ الفِعْلِ ﴿يَنظُرُونَ﴾:

الحذفُ توسيعٌ للمَعْنى وعُمومٌ في المَنْظورِ إليه

حُذِف مفعولُ الفعلِ ﴿يَنظُرُونَ﴾، وقد دلَّ عليه السّياقُ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾، أي: ينظرون إليهم، ويشاهِدون المشركينَ، وهُم في العذابِ والمَهانة[4]، وينظرون كذلك إلى وجه ربِّهم الكريم، وهُم على سُرُرِهم[5]، فجاء الحذف اتِّساعًا في المعنى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 215.
(2) ابن القيِّم، إغاثة اللهفان: 1/ 32، والبقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 333.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 334.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 215.
(5) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 916، ومأمون حموش، التَّفسير المأمون: 8/ 382.

وتعميمًا للمَنْظورِ إليهِ؛ ليَشْمَلَ ما أعدَّه اللّه تَعالى للمُؤْمِنين مِن نعيم وكرامة، وما أعدَّه للكافرين من ذلٍّ وخِزْيٍ، فيكون النَّظرُ جامعًا بَيْنَ اللَّذتَيْنِ لَذَّة النَّظر إلى وجه اللّه الكريم، ولذَّة الشَّماتة بالعدوِّ، ففي الحذف توسيعٌ للمعنى وعمومٌ في المَنْظورِ إليهِ.

غرضُ الاستفهامِ وبلاغَتُهُ:

الاستفهامُ تقريريٌّ، يقرِّرُ تَحقُّقَ العَدْلِ الإلهيِّ، وتهكميٌّ بالمُجرمينَ

خُتمت السّورة بقولِ اللّه تَعالى: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾، فجاء هذا الاستفهامُ في صيغَةِ الإنْشاءِ الطَّلبيِّ، لكنَّه خرج عن مَعْناهُ الأصليِّ إلى التَّقرير والتَّعجيب؛ تقريرًا لوُقوع الجزاءِ بالكافرين، وتعجيبًا من حَتْميَّة هذا الجزاء بعد طول المَدى وكثرة ما ارْتَكبوهُ مِن استِهْزاءٍ بالمؤمنين في الدُّنيا، والتَّقدير: يقول المؤمنون بعضُهم لبعضٍ يومَ القيامَةِ: هل جوزيَ الكُفّار على ما كانوا يَفْعَلون؟ فهو استفهامٌ تقريريٌّ يُقَرِّر تحقُّقَ العدل الإلهيِّ، كما يَحْمِل في طيّاته تهكُّمًا بالكافرين وزيادةَ سُرورٍ للمؤمنين؛ إذ يرون عَدْلَ اللّه تَعالى قد تجلّى، فجازى المستهزئين بما كانوا عليه مِن كِبرٍ وسُخرية[1].

بلاغَةُ الاستعارة التَّهكُّميَّة:

إبراز السُّخرية من الكافرين وتقريعُهم عدلٌ وفاقيٌّ

استعمالُ مفردة ﴿ثُوِّبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ جاء على سبيل الاستعارة التَّهكّميَّة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة؛ إذ استُعمل لفظ الثَّواب - وهو في الأصل: جزاءُ الخيرِ بالخيرِ - في جزاء الشَّرِّ بالشَّرِّ، على سبيل التَّهكُّم والسُّخرية من الكافرين[2]، فقد شُبِّه العقابُ بالثَّواب لاجتماعهما في معنى المُجازاة، غيرَ أنَّ السُّرور في الثَّواب حقيقيٌّ، وفي العقاب تهكُّميّ، فاستُعير لفظُ الثَّواب للعقاب؛ تنزيلًا للضِّدِّ منزلةَ النَّظير على سبيل

(1) أبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 10/ 432، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 215، 216، والدَّرويش، إعراب القرآن: 10/ 418.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 284، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 467.

التَّهكُّم والاستهزاء، فأُثيب الكُفّار على أفعالِهم؟ أي: جوزوا جزاءً يُناسِبُ أعمالَهُم(1).

دلالَةُ بناءِ ﴿ثُوِّبَ﴾ للمَفْعول:

بُنيَ فِعْلُ ﴿ثُوِّبَ﴾ للمفعول؛ لأنَّ المقصودَ هو إبرازُ وُقوعِ الجزاء عليهِم، دونَ الالتفات إلى مَن أَنْزَلَهُ بهِم، وفيهِ دلالَةٌ على أنَّ غاية الأمْرِ هي تحقُّق المُجازاةِ نَفْسِها(2).

نُكتةُ إظْهارِ لَفْظِ ﴿ٱلْكُفَّارُ﴾:

دفعُ الالتِباسِ وتعليلُ الحُكْمِ مِن أغراضِ الإظهارِ

جاء إظهارُ لفظ ﴿ٱلْكُفَّارُ﴾ في قوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ دون إضماره، فلم يرِد البيانُ القرآنيُّ: (هل ثوِّبوا)؛ ليدفعَ الالتباسَ، وليُسجِّلَ عليهم كُفْرَهُم صراحَةً، مُظهِرًا سببَ استحقاقِهِم العقابَ، فكان في الإظهارِ تعليلٌ للحكم وتوكيدٌ للتَّقريع(3).

بلاغَةُ التَّعبير بالاسْمِ الموصول:

جمالُ التَّمثيل في تصوير التَّناسب بَيْنَ الذَّنب العظيم والعقاب الأليم

في التَّعبيرِ بالصِّلةِ في قولِهِ تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾، تتجلّى غاية الدِّقَّة في تصوير التَّناسب بَيْنَ الذَّنب والعقاب؛ إذ ليس الجزاءُ هو عينَ ما كانوا يعملون، وإنّما عُبِّر عنه بهذه الصِّلة تشبيهًا لعقابِهِم بما اقْتَرَفوهُ تشبيهًا بليغًا يُبرز مُماثلةَ العقوبةِ لِعِظَم جُرمهم، أو على تقديرِ مُضافٍ محذوفٍ، كأنَّ المعنى: (هل ثوِّبوا جزاءَ ما كانوا يفعلون) أو (مثلَ ما كانوا يفعلون)، ويَحْتَمِل أن يكونَ التَّعبير على نَزْعِ الخافضِ، أي: (بما كانوا يفعلون)؛ للدَّلالة على أنَّ أعمالَهم هي السَّبب المُباشِر في جزائهم(4).

(1) الشِّنقيطي، أضواء البيان: 3/ 273، والعثيمين، تفسير ابن عثيمين: (سورة آل عمران): 2/ 319.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 334.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 159.
(4) أبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 10/ 432، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 216.

دلالَةُ التَّعبير بصيغة ﴿ٱلۡكُفَّارُ﴾:

زِنَـةُ (فُـعّـال) -جمْـعًا- دالٌّ على كثرة الفِعْلِ

جاء التَّعبير بصيغة ﴿ٱلۡكُفَّارُ﴾ دون اسم الفاعِلِ (الكافرون)؛ إشارةً إلى عراقَتِهِم في الكُفْر وملازَمَتِهم للجُحودِ واستِمْرارِهم فيهِ، وهو ما سبَّب استحقاقَهُم التّامَّ لِما نالوهُ من جزاءٍ؛ وذلك لأنَّ الجمع الوارِدَ على زِنَةِ (فُعّال) - ككفّارٍ - دالٌّ على كثرة القيام بالفعل، ولذا استعمالُ (الكفّار) في جمع الكافِرِ المضادِّ للمؤمِنِ أكثرُ استعمالًا في القرآن الكريم[1].

نكتَةُ ذِكرِ فِعْلِ ﴿كَانُواْ﴾:

جاء ذِكْرُ فِعْلِ ﴿كَانُواْ﴾ بمعنى: جوزوا على أفعالِهم التي صارَت لهُم بمنزلة الطَّبع والسَّجيَّة الرّاسخة، فكأنَّها جُزْءٌ من جبلّتهم التي لا تنفكّ عنهم[2]، وهو تعبيرٌ موافِقٌ للجزاءِ العادِلِ.

دلالَةُ حذفِ مَفعولِ ﴿يَفۡعَلُونَ﴾:

أفعالُ الكفّار مذمومةٌ لارتباطها بالمُعْتَقَدِ الفاسِدِ والخُلُقِ الذّميم

يُراد بالفِعْلِ ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ ما كانَ يُصْدِرُهُ الكُفّار في الدُّنيا من مظاهر السُّخرية والاستهزاء بالمؤمنين؛ من ضحكٍ وتغامزٍ وتفكّهٍ واستهانةٍ بأعمالهم، فحُذف المفعولُ؛ ليدُلَّ على عموم أفعالِهم المُشينة دون تقييدٍ، فيَشْمَلُ كُلَّ ما كانوا يَقْتَرِفون من صوَرِ الاستهزاء والتَّهكُّم[3]، ويَحْتَمِلُ أن يكون لتنزيل الفِعْلِ المُتَعَدّي منزلة الفعلِ اللّازم، أي: هل ثوِّب الكافرون على أفْعالِهم المَذْمومَة، أو لمَعْرِفَةِ المَقْصودِ من السّياق، ولا مانِعَ من اجتِماعِ هذه النِّكات في حَذْفِ المَفْعول.

براعَةُ حُسْنِ الخِتام في السّورة الكريمة:

قولُه تعالى: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ يُظهر مظهرًا بديعًا من براعة الخِتام؛ إذْ خُتِمَت السّورة بما يلائم مَطْلَعَها

---

(1) محمد ياس الدوري، دقائق الفروق في البيان القرآني، ص: 303.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 334.

(3) المهائمي، تفسير المهائمي: 3/ 519، والشيخ علوان، الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية: 2/ 494.

ومَضْمونَها تمامَ المُلاءَمَة، فكما افتُتحت بوعيد المُطَفّفين وذِكْر سوءِ صنيعِهِم وجزائهم، ثُمَّ ذِكْر الفُجّار وأحوالهم ووعيدهم؛ اختُتمت باستفهام تهكُّميٍّ يُبرز تَحقُّق ذلك الوعيدِ وسَريانَ العَدْلِ الإلهيِّ فيهم، فجاءت الخاتمةُ جامعةً لمعاني السّورة كلِّها، مؤكِّدة مبدأ المُقابلةِ بين الفعل والجزاء، ومُظهرةً تمام العدالةِ الإلهيَّة في العقاب على ما كانوا يَقْتَرِفونَهُ مِن كفرٍ وسُخريةٍ وبَغْيٍ على المُؤمنين[1].

بيـان تَحـقُّـق الوعيد المبتدَأ فيهِ والمُبَيَّن في السّورة ختامٌ بارعٌ في تثبيت المَعاني

براعَةُ التَّناسُبِ بَيْنَ مَطْلَعِ السّورة وخاتِمَتِها:

تجلَّت براعَةُ التَّناسب بَيْن مَطْلَعِ السّورة وخاتِمَتِها في وحدةِ المَعْنى واتِّساق الغايَة؛ إذِ افتُتحت السّورة بالوعيدِ الشَّديد للمُطفِّفين، الذين يَبْخَسونَ النّاس حُقوقَهُم في المِكْيالِ والميزان، وخُتمت بالوعيدِ ذاته لهؤلاء حينَ بَخسوا المؤمنين حَقَّهم بالاستهزاء والسُّخرية بهم، فجَمَعَ مَطْلَعُها ومنتهاها بَيْنَ صوَر الظُّلم المادّيِّ والمعنويِّ؛ دلالةً على أنَّ التَّطفيفَ مبدأٌ شاملٌ لِكُلِّ جَوْرٍ وعدوانٍ، وأنَّ البَخْسَ واحدٌ وإن اختلَفَ مَجالُهُ ومَظْهَرُهُ[2].

شمولُ التَّطفيف كلَّ صنوفِ الظُّلم، وبيانُ أنَّ البَخْسَ واحدٌ وإن اختَلَفَ مَظْهَرُهُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 216.

(2) امحمد صافي المستغانمي، برنامج في رحاب سورة، (سورة المُطففين).

سُورَةُ الانشِقَاقِ

سُورَةُ الانْشِقَاقِ

التّعريفُ العامُّ بالسُّورة:

المكّيُّ والمدنيُّ وعدّ الآي:

ذَكَرَ ابنُ عطيّة أنّها مكّيّةٌ اتّفاقًا[1]، وبهذا قال القرطبيّ[2]، وكذلك رأى السّيوطيّ[3].

وأمّا عدد آياتها فيقول فيها الدّانيّ: "وَهي عشرون وثَلاثُ آياتٍ في البَصريّ والشّاميّ وخمسٌ في عدد الباقينَ، اختلافها آيتان ﴿كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾، ﴿كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ لم يعدّهما البَصْريّ والشّاميّ وعدّهما الباقونَ "[4].

ترتيبُ النّزول وترتيب المصحف:

جاء ترتيب السّورة المصحفيّ بين سورتِي المطفّفين والبروج

هذه السّورة هي الرّابعة والثّمانون في التّرتيب المصحفيّ الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت، والمُعوّل عليه عند أهل النّظر والتّحقيق، وقد جاء ترتيبها بين سورتِي المطفّفين والبروج، وأمّا ترتيبُها النُّزوليُّ، فهي الثّالثة والثّمانون عند أغلب من كتب في التّرتيب النّزوليّ، نزلت بعد سورة الانفطار، وقبل سورة الرّوم[5].

فضائلُ السّورة:

قراءةُ آياتِ سورةِ الانشقاقِ نظرٌ دقيقٌ في مشاهدِ القيامة

هذه السّورةُ الكريمةُ من المفصَّل الَّذي قال فيه الحبيبُ ﷺ فيما رواه عنه واثلةُ بن الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المِئِينَ، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»[6].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 456.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 269.
(3) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 43.
(4) الدّانيّ، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 268.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 217، ودروزة، التّفسير الحديث: 5/ 423.
(6) ابن حنبل، المسند، الحديث رقم: (16982)، والطّبرانيّ، المعجم الكبير: (22/ 76) الحديث رقم: (187)، والبيهقيّ، شعب الإيمان، الحديث رقم: (2415)352.

وهي من السّور الَّتي ذكرت صورًا حيّةً وفاعلةً لمشاهد القيامة، فعن ابن عُمَرَ رضي الله عنه، قالَ رَسولُ اللّه ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أنْ يَنْظُرَ إلَى يَوْمِ القيامَةِ كَأنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ؛ فلْيَقْرَأْ: إذا الشَّمْسُ كوِّرَتْ، وإذا السَّماءُ انْفَطَرَتْ، وإذا السَّماءُ انْشَقَّتْ»[1].

اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

أولياءُ الله تعالى منعّمون، وأعداؤُهُ مُعذَّبون

عُنونتِ السّورة في صحيح البخاريِّ وفي سنن التّرمذيّ بسورة ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾[2]، وقال ابن عاشور: "سمّاها المفسّرون وكتّابُ المصاحف (سورة الانشقاق) باعتبار المعنى اختصارًا"[3]، وقام البقاعيّ بالرّبط بين اسمها ومقصودها خير ربطٍ فقال: "ومقصودها: الدّلالة على آخر المطفّفين، من أنّ الأولياءَ ينعّمون. والأعداءَ يعذّبون؛ لأنّهم كانوا لا يُقرّون بالبعث والعرض على الملِك الَّذي أوجدهم وربّاهم كما يَعرِضُ الملوكُ عبيدَهم، ويحكُمون بينهم، فينقسمون إلى أهلِ ثوابٍ، وأهلِ عقابٍ، واسمها (الانشقاق) دالٌّ على ذلك"[4].

المحور العامّ للسورة:

الإنسانُ في رحلة الحياة كادحٌ، إمّا في الخير وطاعة الله، وإمّا في الشرّ ومعصية الله

هذه السّورة متمِّمةٌ ومقرِّرةٌ لسلسلة السّور الَّتي سبَقَتها في إثبات وقوع يوم القيامة، وبيانِ بعضِ أحداثِه وما يجري فيه، وجزاءِ النّاس في يوم الحساب؛ إلّا أنّ هذه السّورةَ اختصّت ببيان بعض الجوانبِ المتعلّقةِ بالإنسان. يقول الزّحيليّ: "السّور الأربعة: الانشقاق وما قبلها (وهي سور المطفّفين والانفطار والتّكوير) كُلُّها في صفة حال يوم القيامة، ذُكِرت على ترتيب ما يقع فيه، فغالبُ ما وقع في التّكوير،

(1) التّرمذيّ، الجامع، حديث رقم: (3333).
(2) البخاريّ، صحيح البخاريّ: باب: تفسير سورة (إذا السماء انشقت): 4/ 1884، والتّرمذيّ، سنن التّرمذيّ، باب ومِنْ سورَةِ (إذا السماء انشقت): 5/ 435.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 217.
(4) البقاعيّ، مصاعد النّظر: 3/ 172.

وجميعُ ما وقع في الانفطار يقع في صدر يوم القيامة، وأغلبُ ما ذُكِرَ في المطفّفين في أحوال الأشقياء الفجّار والمتّقين الأبرار في الآخرة، وعُنيتْ سورة الانشقاق بالجمع بين ما يحدُث من مقدّماتِ ومشاهدِ الآخرة الرّهيبة وبين ما يعقُب ذلك من الحساب اليسير لأهل اليمين والحساب العسير لأهل الشِّمال. وفي السّورة المتقدّمة ذِكْرُ مَقرِّ كتب الحفظة، وفي هذه ذِكْرُ كيفيَّة عَرْضِها يوم القيامة"[1].

لِذا فقد اقتضى السّورةَ هذا المحورُ بَعدَ بيانها بعضَ أحوال القيامة أنْ توضح النقاط الآتية:

أوّلاً: خاطبت السورة الإنسان مُباشرةً مُبيِّنةً وظيفتَه في الدُّنيا ومصيرَه في الآخرة.

ثانيًا: تَذكُر السورة قَسَمًا للّه تعالى ببعض مظاهر قدرته في هذا الكون على تقلُّب أحوال الإنسان بإبراز مظاهر كُفرِه وعِناده إنْ لم يعمل بكتاب ربّه مُحذِّرةً إيّاه إن استمرّ على ذلك مستثنيةً مِن الوعيد مَن استجابوا لدعوة الحقّ.

موضوعاتُ السّورة وخصائصها:

جزاء كُلِّ إنسان بما قـدَّم مِن عملٍ، ومصيرُه بين جنّات النّعيم أو نيران الجحيم

تناولت السورة مسائل العقيدة، وصورت أهوال القيامة، كما هو الغالب على السور المكية، وقد جاء فيها الموضوعات الآتية:

أوّلاً: بُدِئَت السورة ببيان بعض التّبدّلات الكونيّة الخطيرة عند قيام السّاعة: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الآيات: 1 - 5].

ثانيًا: أردَفَت ذلك حالَ الإنسان في موقف العرض والحساب يوم القيامة، وانقسام النّاس فريقين: أهل اليمين وأهل الشّمال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾. [الآيات: 6 - 15].

ثُمَّ أقسَم اللّه بالشَّفق واللّيل والقمر على مُلاقاة المشركين في

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 30/ 136، وينظر: السّيوطيّ، أسرار ترتيب القرآن، ص: 154.

القيامة أهوالًا شديدةً، وأحوالًا عصيبةً: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾. [الآيات: 16 - 19].

ثالثًا: خُتمتِ السّورةُ بتوبيخ المشركين والكفّار والملاحدة والوجوديّين وأمثالِهم على عدم إيمانهم باللّه تعالى، وبإنذارهم بالعذاب الأليم، والتّنبيهِ على نجاة المؤمنين الَّذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصّالح، ومَنحِهم الثَّوابَ الدّائمَ المُستمرَّ الَّذي لا ينقطع ولا ينقُص: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾. [الآيات: 20 - 25][1].

الخصائصُ الموضوعيّة للسورة:

تـنـاولُ أحـداثِ السّاعة وأهوالِها الـجـسـامِ مِـن خصائص سورة الانشقاق

أوّلًا: تميّزت السّورةُ الكريمةُ ببراعة الاستهلال، حيث استهلّت بأسلوب الشّرط بـ﴿إِذَا﴾ الظّرفيّة الشّرطيّة، والَّذي شاركَتها فيه ستُّ سورٍ أخرى هي: الواقعة، المنافقون، الانفطار، التّكوير، الزّلزلة، النّصر. والملاحظ أنّ هذه السّورَ السّبعَ قد اشتركت في تناول أحداث السّاعة وما يكون بين يديها من أحداثٍ جسام.

ثانيًا: سورة الانشقاق من السّور الَّتي اختصّت بتصوير يوم القيامة كأنّه رأيُ عيْن، كما تقدّم في فضائلها.

الخصائصُ الأسلوبيّةُ للسورة:

تفردت السورة بألفاظ وأنساق تـعـبـيـريـة لـم تتكرر في غيرها

أوّلًا: برزت في السّورة الكريمة ظاهرةٌ أسلوبيّةٌ بلاغيّةٌ مِن علم البديع وهي الطّباق بين السّماء والأرض، ومَن أوتي كتابه بيمينه أو وراء ظهره، وبين الشّفق واللَّيل، وبين الإيمان والكفر.

ثانيًا: برز في السّورة الكريمة أسلوبُ الجناس الاشتقاقيّ في قوله: ﴿كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا﴾ [الانشقاق: 6]، ﴿يُحَاسَبُ حِسَابٗا﴾ [الانشقاق: 8]، ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ [الانشقاق: 19].

ثالثًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حَوَتْ ألفاظًا لم تأتِ في غيرها

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 30/ 110 - 111.

من السّور بصيغها الصرفيّة هذه، مثل: ﴿وَأَذِنَتۡ﴾ مرّتيْن، ﴿وَحُقَّتۡ﴾ مرّتيْن، ﴿مُدَّتۡ﴾، ﴿وَتَخَلَّتۡ﴾، ﴿مَسۡرُورًا﴾ مرّتيْن،﴿يَحُورَ﴾، ﴿طَبَقًا﴾، ﴿طَبَقٖ﴾، ﴿يُوعُونَ﴾، وغيرها.

رابعًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حوت ألفاظًا فريدةً في مادّتها اللُّغويّة مثل: ﴿كَادِحٌ﴾ وتبعها قوله ﴿كَدۡحًا﴾، ﴿بِٱلشَّفَقِ﴾، ﴿وَسَقَ﴾ وتبعها قوله ﴿ٱتَّسَقَ﴾.

خامسًا: تميّزت السّورة الكريمة بوَفرة الأنساق التّعبيريّة الّتي لم تتكرّر في غيرها حتّى تكاد تكون كلُّ أنساقها كذلك، ولكنّنا نَذكُر بعضَها على سبيل التّمثيل، ومنه مطلُعها كاملًا: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾، وقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾، وغيرها.

مناسبة السورة لما قبلها:

سورةُ الانشقاقِ متّصلةٌ تمامًا بسورة المطفّفين مضمونًا وأسلوبًا

هذه السّورة متّصلةٌ موضوعًا وأسلوبًا بسورة المطفّفين، حتّى قال فيها الغرناطيّ: "لمّا تقدّم في الانفطار التّعريفُ بالحفظة وإحصاؤهم على العباد في كتبهم، وعاد الكلام إلى ذِكر ما يُكتب على البرّ والفاجر، واستقرار ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨﴾ [المطففين: 18] وقوله: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ٧﴾ [المطففين: 7] أتبعَ ذلك بذِكر التّعريف بأخذ هذه الكتب في القيامة عند العرض، وأنَّ أخْذَها بالأيمان عُنوانُ السّعادة، وأخذَها وراء الظّهر عُنوانُ الشّقاء؛ إذ قد تقدّم في السّورتين قبل ذِكر الكتب واستقرارها بحسب اختلاف مُضمَّناتها، فمنها في عليّين ومنها في سجّين إلى يوم العرض، فيؤتى كلٌّ كتابَه، فآخذٌ بيمينه وهو عُنوان سعادته، وآخذٌ وراء ظهره وهو عُنوان هلاكه، فتحصَّل الإخبارُ بهذه

الكتب ابتداءً واستقرارًا وتفريقًا يوم العرض، وافتتحت السّورة بذكر انشقاق السّماء، ومدّ الأرض وإلقائها ما فيها وتخلّيها، تعريفًا بهذا اليوم العظيم بما يتذكّر به مَن سبقت سعادته، والمناسبةُ بيِّنةٌ"[1].

فناسب تأخيرُ سورة الانشقاق الَّتي فيها إيتاءُ الكتب والحسابُ عن السّورة الَّتي قبلها - والَّتي فيها ذِكر الموقف - عن الَّتي فيها مبادىء يوم القيامة.

ووجهٌ آخر: وهو أنَّه ﷻ لمّا قال في الانفطار: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١﴾ [الانفطار: 10 - 11] وذلك في الدُّنيا، ذَكَر في هذه السّورة حالَ ما يكتُبه الحافظان، وهو: كتابٌ مرقومٌ جُعِل في علّيّين، أو في سِجّين، وذلك أيضا في الدُّنيا، لكنَّه عقَّب بالكتابة، إما في يومه، أو بعد الموت في البرزخ كما في الآثار، فهذه حالة ثانية للكتاب ذُكِرت في السّورة الثّانية.

وله حالةٌ ثالثةٌ متأخِّرةٌ عنها، وهي أخذ صاحبه باليمين أو غيرها، وذلك يوم القيامة، فناسب تأخير السّورة الَّتي فيها ذلك عن السّورة الَّتي فيها الحالة الثانية، وهي الانشقاق[2].

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 359 - 360.
(2) السّيوطيّ، أسرار ترتيب القرآن، ص: 155.

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ
مُدَّتۡ ٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٥
يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦﴾ [الانشقاق: 1 - 6]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

نعيمُ الأولياءِ مُذهِلٌ، وعذابُ الأعداءِ هائلٌ

لمّا خُتمتْ سورة المطفِّفين بأنَّ الأولياء في نعيم، وأنَّ الأعداء في جحيم، ثوابًا وعقابًا، ابتدأتْ سورة الانشقاق بالإقسام على ذلك[1].

لمّا ذكر اللّه سبحانه في أواخر السّورة السّابقة أحوالَ الفجّار والأبرار في يوم القيامة، ذَكَر في أوائل هذه السّورة أهوال ذلك اليوم، جَمعًا للنّظير بالنّظير[2].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿ٱنشَقَّتۡ﴾: (شقق) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلُّ على انصداعٍ في الشّيء، ثُمَّ يُحمل عليه ويشتقّ منه على معنى الاستعارة. تقول شققتُ الشّيءَ أشُقُّه شَقًّا، إذا صَدَعْتَهُ. وبيده شقوقٌ، وبالدّابَّة شُقاقٌ، والأصل واحد. كما يُقال لنصف الشّيء: الشِقُّ، وهو أيضا الخُرم الواقع في الشّيء[3]. ولفظ ﴿ٱنشَقَّتۡ﴾ مطاوعُ شقَّها، أي: حين يشقُّ السّماءَ فتنشقُّ، ومعنى انشقاقها: انفطارها بالغمام الأبيض كما في قوله: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ٢٥﴾ [الفرقان: 25][4].

2) ﴿وَأَذِنَتۡ﴾: (أذن) أصلان مُتقارِبان في المعنى، مُتباعِدان في اللّفظ، أحدهما أُذُن كلِّ ذي أُذُن، والآخَرُ العِلْمُ؛ وعنهما يتفرّع

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 335.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 253.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (شقّ).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 218، والشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 491.

البابُ كلُّه.[1] فالأذَن الاستماع، لأنّه بالأُذُن يكون. ويُستعمل أيضًا في العلم الّذي يُتوصّل إليه بالسّماع، نحو قوله: ﴿فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ [البقرة: 279][2]. ويستعار لِمَن كثر استماعه قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾ [التوبة: 61] أي: استماعه لما يعود بخير لكم، فمعنى قوله ﷻ: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ أي: استمعت[3].

3) ﴿وَحُقَّتۡ﴾: (حقق) وهو أصلٌ واحدٌ يَدُلُّ على إحكام الشَّيء وصحّته[4]، حقَّ الشّيءُ، يحِقُّ، حَقًّا: إذا ثَبَت ولَزِم[5]. ويأتي الحقّ بمعنى الصّحيح، وضدّه: الباطل[6]. والحقيقةُ: الشَّيءُ الصَّحيح يقينًا[7]. وتحقَّقَ الأمر: إذا صحّ. ومعنى حَقَّت السّماء: أطاعت، وحُقَّ لها أن تُطيع ربَّها، لأنَّه خَلَقها، فكانت حقيقةً بالاستماع والانقياد، وحَرِيَّةً بهما[8].

4) ﴿مُدَّتۡ﴾: (مدد) وهو جرُّ شيءٍ في طول، واتّصالُ شَيءٍ بشيء في استطالة، فما كان بطريق الزّيادة يقال فيه: مدّه مدًّا، أي: زاد فيه وواصله، وكلّ ما كان منه بطريق التّقوية والإعانة يقال فيه: أمدّه[9]. فمعنى ﴿مُدَّتۡ﴾ الزّيادة في وجه الأرض سواء بتمديدها أو بإمدادها؛ فإنَّ خَلْقَ الأوّلين والآخرين واقفون يوم القيامة على ظهرها، فلا بدّ من الزّيادة في طولها وعرضها[10].

5) ﴿وَتَخَلَّتۡ﴾: (خلو) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على تعرّي الشّيء مِن الشّيء، يقال هو خِلْوٌ مِن كذا، إذا عَرِيَ منه. وخلتِ الدّارُ وغيرها تخلو: لم يكن فيها أحَدٌ ولا شيءَ فيها. والمكان الخلاء: الّذي لا شيء به[11]. فالمقصود من لفظ ﴿وَتَخَلَّتۡ﴾ في الآية أنّ الأرض أخرَجَت ما في باطنها فلَم يبق منه شيءٌ كما قال تعالى: ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ۝٢﴾ [الزلزلة: 2][12].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذن).
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (أذن).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (الألف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حق).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (حق).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حق).
(7) مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (حق).
(8) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 256.
(9) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (مدّ).
(10) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 97.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلو).
(12) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 221.

6) ﴿كَادِحٌ﴾: اسم فاعل مِن (كدح) وهو أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على تأثيرٍ في شيءٍ. يقال كدَحه إذا خدَشه. ومن هذا القياس كَدَح يكدَحُ كَدْحًا إذا كسب، فهو كادح، أي: كاسب. والكدْح أيضًا: إتعاب النَّفس في العمل والكدِّ حتَّى يؤثِّر فيها.[1] فمعنى ﴿كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: جاهدٌ إلى لقاء ربِّك، وهو الموت[2]، أو جاهدٌ ومُجِدٌّ جِدًّا في عملك مِن خيرٍ وشَرٍّ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أهـوالٌ عِـظام، يتلوها أحـداثٌ جِسام، يعقُبها مجازاةٌ للأنام

معنى الآيات: إذا السَّماء تصدَّعت، وتفطَّرت بالغمام يوم القيامة، وأطاعت أمْرَ ربِّها فيما أمَرَها به مِن الانشقاق، وحُقَّ لها أن تنقاد لأمره. وإذا الأرض بُسطت ووُسِّعت، ودُكَّت جبالُها في ذلك اليوم، وقذَفَت ما في بطنها مِن الأموات، وتخلَّتْ عنهم، وانقادت لربِّها فيما أمَرَها به، وحُقَّ لها أن تنقاد لأمره. يا أيُّها الإنسان إنَّك ساعٍ إلى اللّه، وعاملٌ أعمالًا مِن خير أو شرٍّ، ثم تلاقي اللّه يوم القيامة، فيجازيك بعملك بفضله أو عدله[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

براعةُ المطلَعِ بأسلوب الشّرط وحذف الجواب:

قـيـامُ السّـاعـة بتحقُّقِ أشراطها

افتتحت السّورة بقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾، فبدأ النّظم في وصف أشراط السّاعة وحلول يوم البعث بذِكر انشقاق السّماء بأسلوب الشّرط المتحقّق ليفيدَ تَرتُّب الجزاء على الشّرط، وقد حُذف في النّظم جواب ﴿إِذَا﴾ لتذهب النّفس في تقديره كُلَّ مذهب مِن التَّهويل، بحيث لا يبلُغه طولُ التَّعبير فينبغي طيُّه. أو

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (كدح).
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/ 357.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 221، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 288.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 230، ونخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 589.

اكتفاءً بما عُلم في مثلها من سورتَي التَّكوير والانفطار، ويجوز أنْ يكون جوابها ما دلّ عليه ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾، أي: (إذا السّماء انشقّت: لاقى الإنسانُ كدحَه)[1].

بلاغة استعمال الأداة ﴿إِذَا﴾:

القطْعُ بحصولِ جوابِ الشّرطِ في المستقبل

أوثر التّعبير بالأداة ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾، وهي ظرفُ زمانٍ للمستقبل في الغالب، وتتضمَّن معنى الشَّرط غالبًا، لأنَّ معانيَ الظّروف قريبةٌ مِن معاني الشَّرط، لما فيها من التَّعليق[2]. والأصلُ في استعمال (إذا) أن تكون للمقطوع بحصوله، وللكثير الوقوع[3]، فكُلُّ ما ذَكَره الله سبحانه مِن أشراط السّاعة وأهوال يوم القيامة واقعٌ لا محالة.

نكتةُ تقديم الظَّرف ﴿إِذَا﴾ على عامله:

التّهويل والتّشويق إلى الخبر

تقدّم الظّرف ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ على عامله وهو ﴿كَادِحٌ﴾ لنكتة التّهويل والتَّشويق إلى الخبر، وتقديرُ أوّل الكلام في الاعتبار: (يا أيّها الإنسان إنّك كادح إذا السّماء انشقّت.. إلخ). ولكن لـمّا تعلّق ﴿إِذَا﴾ بجزءٍ من جملة ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ وكانت ﴿إِذَا﴾ ظرفًا متضمِّنًا معنى الشّرط صار قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ جوابًا لِشَرط ﴿إِذَا﴾ ولذلك يقولون: ﴿إِذَا﴾ ظرفٌ خافض لشَرْطِه منصوبٌ بجوابه، أي: خافضٌ لِجُملة شرطِه بإضافته إليها منصوبٌ بجوابه لِتَعلُّقِه به، فكلاهما عاملٌ ومعمولٌ باختلاف الاعتبار[4].

نكتةُ تقديم المُسنَد إليه على المُسنَد الفِعليّ:

تقويةُ الشَّرطِ والدّلالةُ على تحقُّقِ وقوعه

تقدَّمَ المسنَدُ إليه ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 725.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 105.
(3) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 69.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 218.

على المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿ٱنشَقَّتۡ﴾ دون أن يُقال: (إذا انشقّت السّماء) لإفادة تَقَوّي الحُكم وهو التّعليقُ الشَّرطيُّ، أي إنّ هذا الشّرط محقَّقُ الوقوع، زيادةً على ما يقتضيه ﴿إِذَا﴾ في الشّرطية مِن قَصدِ الجَزمِ بحصول الشَّرط بخلاف (إن)[1].

دلالةُ تعريف لفظ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾:

شمولُ السَّماء لِكُلِّ ما يُحيط بالأرض مِن أجرامٍ وأجسامٍ

وَرَدَت كلمةُ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ مُعَرَّفَةً بأداة التَّعريف (أل) الدّالَّة على تعريف الجنس، سواءً أريد بالسَّماء الجنسُ الصّادقُ بجميع السّماوات على طريقة العموم الحقيقيِّ، أي: ما يحيط بالأرض مِن أجرامٍ وعوالمَ عُلويّة[2]، أو الصّادق بسمواتٍ مشهورةٍ على طريقة العموم العُرفيِّ وهي السَّمواتُ السَّبع[3].

نُكتةُ إفراد ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ دون جَمعِها:

الإفرادُ لِقَصد الجِنس أو الجهة، والجمعُ لِقَصد التَّعظيم والسَّعة

جاء لفظ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ مُفرَدًا، قصدًا الى الجنس المفيد للاستغراق. والسّماء ذُكرتْ في القرآن الكريم تارةً بصيغة الجمع وتارةً بصيغة الإفراد لنُكَتٍ تليق بكُلِّ محلٍّ بخصوصه، والحاصل أنّه حيث أريد العدد أُتي بصيغة الجمع الدّالَّة على سَعَة العَظَمَة والكَثْرة، نحو: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الحديد: 1] أي جميعُ سُكّانِها على كثرَتِهم، ونحو: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الجمعة: 1] أي كلُّ واحدٍ على اختلاف عَدَدِها؛ وحيثُ أُريد الجهةُ أُتي بصيغة الإفراد نحو: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ [الذاريات: 22]، ونحو: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الملك: 16]، أي مِن فوقِكم[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 218.
(2) قباوة، المفصّل في شرح الجلالين: ص 2098.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 97.
(4) السّيوطيّ، الإتقان: 2/ 355.

دلالةُ استعمال مُفردة الانشقاق مادَّةً وصيغةً:

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ بلَفظِ ﴿ٱنشَقَّتۡ﴾، وهو مُطاوع (شقّ)، أي: حين يشُقُّ السّماءَ فتنشق، أي: يريد الله شقَّها فانشقّت كما دَلَّ عليه قوله بعده: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾.

أحوال السّماء يوم القيامة بين انفطارٍ وانشقاقٍ

وجَعَلَ بعضُ العلماء هذا الانشقاقَ هو الانفطارُ الّذي تقدَّمَ في قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾ [الانفطار: 1]، ثمّ اختلفوا في كيفيَّته، فقال بعضهم ﴿ٱنشَقَّتۡ﴾، أي: بالغمام كما روي عن ابن عبّاس، وذهب إليه الفرّاء والزجّاج، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: 25]، فالقرآنُ يُفسِّر بعضُه بعضًا، وقيل: تنشَقُّ لهول يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ١٦﴾ [الحاقة: 16] وهو لا ينافي أن يكون الانشقاقُ بالغمام. وقيل تنشقُّ مِن المجَرَّةِ وهي باب السّماء[1]. أو "هو انشقاقٌ يلوحُ للنّاس في جوّ السّماء من جَرّاء اختلال تركيبِ الكُرةِ الهوائيَّة، أو مِن ظهور أجرام كَوكَبيَّةٍ تخرج عن دوائرها المُعتادة في الجوِّ الأعلى فتنشقُّ القُبَّةُ الهوائيَّة فهو انشقاقٌ يقع عند اختلال نظام هذا العالم"[2].

انشقاقُ السّماء واقِعٌ متحقِّقٌ، لا متوقَّعٌ مترقَّبٌ

وعُبّر بالفِعل الماضي ﴿ٱنشَقَّتۡ﴾ - ومعلومٌ أنَّ الفِعل الماضي يخرج إلى الاستقبال في باب الشَّرط - للتّنبيه على تحقُّقِ وقوعه، ولأنَّ أصلَ ﴿إِذَا﴾ القطعُ بوقوع الشَّرط.

والقصدُ مِن مجيء الشَّرطِ ماضيًا - وإن كان معناه الاستقبال - هو إنزالُ غيرِ المتيقَّن مَنزلةَ المُتيقَّن، وغيرِ الواقع منزلةَ الواقع، مثل قولهم (إن قمتَ قمتُ) فيجيء بلفظ الماضي والمعنى معنى المضارع، وذلك أنّه أراد الاحتياط للمعنى، فجاء بمعنى المضارع المشكوك في

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 286.
(2) التّحرير والتّنوير: 30/ 218.

وقوعه بلفظ الماضي المقطوع بكونه، حتّى كأنّ هذا قد وقَعَ واستقرَّ، لا أنَّه متوقَّعٌ مترقَّب"[1].

بلاغة المجاز في إسناد فِعل الانشقاق للسّماء:

انشقاقُ السّماء إرادةُ الله وقضاؤه

أُسنِد فِعلُ الانشقاق في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ للسّماء مِن باب المُطاوَعة، وهو قَبولُ الأثر، والمعنى أنَّ اللّه يريد شقّها فانشقّت، كما دَلَّ عليه قوله بعده: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾، ومعلومٌ في النَّحو أنَّ الفعل يجوز إسناده لفاعله أو لمن اتّصف به.

انشقاقُ السّماء مسبَّبٌ عن أمرِ الله سبحانه

وخَرَّجَ بعضُ العلماء قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ على المجاز في لفظ ﴿ٱنشَقَّتۡ﴾، فقالوا إنّه يجوز أن يكون مجازًا مرسلًا في التأثُّر لأمر اللّه التَّكوينيِّ بأن تنشقّ.[2] والعلاقة المسببيّة، أي: إنّ انشقاق السّماء كان مسبّبًا عن أمر اللّه لها بذلك.

توجيهُ المتشابه اللَّفظيِّ بين ﴿ٱنشَقَّتۡ﴾، و﴿ٱنفَطَرَتۡ ١﴾:

الانفطار سابقٌ للانشقاق، وأدَقُّ منه وأخفى

قال ربُّنا سبحانه: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾ [الانفطار: 1]، وقال ﷻ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾، فوُصِفت السّماء بالانفطار وبالانشقاق، فذهب بعض المفسّرين إلى عدم التّفريق بين الوصفين، وجعلوهما شيئًا واحدًا[3]، ولكنَّ الرّاجِحَ وجودُ فرقٍ بينهما، لقوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [مريم: 90]، والعطفُ يقتضي المُغايَرة، كما يدُلُّ عليه الاشتقاق اللُّغويُّ لِكُلِّ لفظٍ وكذلك الاستعمال، فالانفطار من الفَطر وهو الابتداء[4]، فيُستفاد منه أنَّ الانفطار يحدُث أوّلاً ثُمَّ يعقُبه الانشقاق.

ومِن الفروق أيضًا أنَّ الانفطار يكون بأجزاءٍ دقيقةٍ كانفطار القَدَم، ومنه حديث عائشة ﵂ عن النّبيّ ﷺ أنّه: «كانَ يَقومُ مِنَ

---

(1) ابن جنّي، الخصائص: 3/ 107، وفاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 78.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 219.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 218.
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 29.

اللَّيْلِ حتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَماهُ»[1]، وقوله تعالى: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣﴾ [الملك: 3]، أمّا الانشقاق فيكون ظاهرًا كبيرًا كانشقاق القمر، فيُشيرُ الانفطار إلى بداية التَّصدُّع، والانشقاق إلى التَّمزُّقِ والانهيار الكامل. والجمعُ بينهما أنَّ أوَّلَ الأمر انفطارُ السَّماء ثمّ انشقاقُها.

نوعُ الواو ودلالتها في جملة ﴿وَأَذِنَتۡ﴾:

الانشقاق امتثالٌ مِن السّماء لأمر ربّها وانقيادٌ لسُلطان خالقها

عُطف قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ على ما قبله بحرف الواو الدّالِّ على الجمع والاقتران، والجملةُ في محلّ جَرٍّ معطوفةٌ على جملة فِعل الشَّرط الّتي قبلها للدّلالة على أنّ انشقاق السّماء كان امتثالًا لأمر ربّها وانقيادًا لسلطان خالقها.

سِرُّ إيثار الفعل ﴿وَأَذِنَتۡ﴾ دون (سمعتْ):

المبالغةُ في إظهار الانقياد والامتثال

أوثرَ في قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ التّعبيرُ بالفعل (أذنتْ)، دون (سمعتْ) لقصد المبالغة في إظهار الانقياد والامتثال لأوامر الخالق سبحانه، أي إنّ السّماء شديدةُ الاستماع والطّاعية والانقياد على أتمّ وجهٍ، كمن له أُذنٌ واعيةٌ ونفسٌ مطمئنّةٌ راضيةٌ[2].

بلاغة استعمال الفعل (أذنت) بين الحقيقة والمجاز:

السّماء طائعةٌ لأمر ربّها منصاعةٌ له

جوّز بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ أن يكون مِن قبيل الاستعارة المفردة باعتبار استعماله في ما ليس له حاسّةُ السَّمع، فـ(أذنت) مُشْتَقٌّ مِن الأَذْن بمعنى توجيه الأُذُن السّامعة، أو من الأُذُن بمعنى العضو المَخْصوص؛ لأنّه يجوز الاشْتقاق من الجوامد[3]. ويجوز أيضًا أن يكون استعارةً تمثيليَّةً مُركَّبةً، فيكون إذن السّماء للانشقاق تمثيلًا بأن لم يوجد في جِرم السّماء ما يمنع مِن تأثير قدرة الله في شقِّها وتفريق أجزائها، فكانت في قَبول ذلك

(1) أخرجه البخاريّ، الجامع الصحيح، برقم: (4837)، ومسلم، صحيح مسلم، برقم: (2820).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 96.
(3) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 161.

التّأثير والانقياد له كالعبد الطّائع؛ إذا ورد عليه الأمر مِن جهة مالكه أذعنَ ولم يمتنع لذلك[1]. وعلى هذا المعنى يصلُح أيضًا أنْ يكون استعارةً مَكنيَّةً حُذف فيها المشبَّه به واستُعير لفظ الإذن والاستماع المستعمل في غايته[2]. ورفَضَ ابن عاشور أن يكون استعارةً، تمثيليَّة كانت أو غيرَها، بل ذَهَب إلى أنّه مجازٌ مُرسلٌ في التأثُّر لأمر اللّه التَّكوينيِّ بأن تَنشَقَّ[3].

وذهَبَ فريقٌ آخر مِن العلماء إلى حمل الكلام على حقيقته، وهو أرجح؛ لأنّه أبلغُ وأدخلُ في تحصيل المَرام، ولأنّه حينئذٍ يكون استماعُ السّماء باختيارها، بخلاف حملها على المجاز فإنّه حينئذٍ يكون بطَبْعها، وما يكون باختياره أقوى ممّا يكون بطَبْعه. والكلامُ أو السّمع غيرُ مُمْتَنِعٍ مِن الجمادات، بل هو كائنٌ لا يُنكره إلا مُنكرُ خوارقِ العادات. قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ [فصلت: 11][4].

نوع اللام ودلالتها في قوله: ﴿لِرَبِّهَا﴾:

أمرُ الله تعالى مُطاعٌ لا رادَّ له

حرفُ اللّام في قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ دالٌّ على التَّعدية، فالفِعلُ (أذن) مثل (استمع) يتعدّى بـ(اللّام) وبـ (إلى)، قال تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ﴾ [يونس: 42]. ويجوز أن تكون دالَّةً على التَّعليل، فالسّماءُ انشقَّت وأذنت بسبب أمرِ رَبِّها لها بذلك[5].

دلالةُ التَّعبير بعُنوان الرُّبوبيَّة:

الدّلالةُ على المُلكِ والتّدبير والسّيادةِ المُطلَقة

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ بعنوان الرُّبوبيَّة دون غير ذلك مِن أسماء اللّه وطرق تعريفه، لما يُؤذِن به وصفُ الرَّبِّ سبحانه

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 356.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 424.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 219.
(4) حاشيتا القونويّ وابن التَّمجيد على تفسير البيضاوي: 3/ 428.
(5) مكّي القيسيّ، الكشف عن وجوه القراءات السّبع وعللها: 2/ 222.

مِن المُلك، والتَّدبير، والتَّفرُّد، والإصلاح للشّيء المربوب، والرِّعاية لمصالح ملكه. فالسّماء مربوبةٌ ومخلوقةٌ له تعالى، كما يدُلُّ وصفُ الرَّبِّ على السّيادة المطلقة وفرض الطّاعة، فحُقَّ للسّماء طاعةُ رَبِّها والإذعانُ لأمره[1].

دلالةُ إضافة الرُّبوبيّة للضَّمير:

تعظيمُ قدر السّماء بإضافتها إلى خالقها سبحانه

أضيف وصفُ الرَّبِّ في قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ إلى الضّمير العائد على السّماء باعتبار أنّ خالِقَها ومالِكَها هو اللّه سبحانه، فهذه الإضافةُ على تقدير اللّام المفيدة للاختصاص، فالسّماءُ وكلُّ المخلوقات مُنقادَةٌ لخالقها مقرة له بالطّاعة والإذعان، كما أنَّ الإضافةَ هنا إضافةُ تشريفٍ للسَّماء، وتعظيمٍ لقدرها وشأنِها؛ فهي خَلۡقٌ عظيمٌ من خلَق ربِّها سُبحانه.

نوع الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَحُقَّتۡ﴾:

السّماء محقوقةٌ بالانقياد لخالقها

الواو في قوله تعالى: ﴿وَحُقَّتۡ﴾ للاعتراض، فهذه الجملة مُعترِضةٌ بين المعطوف والمعطوف عليه، والمعنى: (وهي محقوقةٌ بأنْ تَأذن لِرَبِّها، لأنّها لا تخرج عن سلطان قدرته وإن عظم سَمكُها واشتدّ خَلۡقُها وطال زمانُ رَتقِها، فما ذلك كُلُّه إلّا مِن تقدير اللّه لها، فهو الّذي يُمسكها وهو الّذي إذا شاء أزالها)[2].

بلاغة استعمال مفردة ﴿وَحُقَّتۡ﴾:

الانقياد إلى القُدرة الربّانيَّة القاهرة

أوثر في الآية التَّعبيرُ بمفردة ﴿وَحُقَّتۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾، من قولهم: (هو حقوقٌ بكذا، وحقيقٌ به)، أي: (السَّماءُ حقيقةٌ بأن تنقاد ولا تمتنع)، وقال الضّحّاك: وحُقّت أي: أطاعت، وحُقَّ لها أن تطيع ربّها؛ لأنّه خَلَقها. والمعنى أنّها جُعلت

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 219، وأبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويَّة، ص: 186، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: 15/ 128.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 219.

حقيقةً حَريَّةً بالاستماع والانقياد؛ إذ هي مربوبةٌ ومصنوعةٌ له تعالى، مجبولةٌ على أنَّ ذلك حقٌّ عليها ثابتٌ لها، وذلك شأنُها بالنِّسبة إلى القدرة القاهرة الربّانيَّة الّتي يتأتّى بها كُلُّ مقدورٍ، ولا يتخلَّفُ عنها أمرٌ مِن الأمور[1].

دلالة التّعبير بصيغة ﴿وَحُقَّتۡ﴾:

حــقّ الـسّـمـع والـطّـاعـة على المخلوقات

بُنيَ الفعلُ في قوله تعالى: ﴿وَحُقَّتۡ﴾ للمفعول، والفاعل في هذا التّركيب هو اللّه تعالى، أي حَقَّ اللّه عليها ذلك أي سمعَه وطاعتَه، فالفاعل إذن محذوفٌ وهو اللّه تعالى، والمفعولُ به هو سَمعُها وطاعتُها، وهو غيرُ مذكورٍ، بل الإسنادُ في الآية إنّما هو للسّماء نفْسِها، فيحتاج إلى تقديرٍ، والتّقدير: (وحُقَّتْ هي) أي: (حَقَّ سمعُها وطاعتُها)، أي (حَقَّهُ اللّه تعالى عليها وأوجبه وألزمها به)، هذا هو الظّاهر. وأجاز بعض المفسّرين أن يكون نائب الفاعل هو ضمير السّماء المستكنّ في الفعل مِن غير تقدير، فمعنى وحُقَّت: أي جعلت حقيقةً بالاستماع والانقياد، والفاعل هو اللّه تعالى، أي وحَقَّ اللّه تعالى عليها الاستماع[2].

نُكتةُ تكرار (إذا):

استقلالُ كُلٍّ مِن السَّماء والأرض بنوعٍ مِن مظاهر المعجزة

تكرَّرَ الظَّرفُ (إذا) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ﴾ مع كونه مفهومًا مِن العطف، للدّلالة على استقلال كلِّ واحدة مِن الجملتين بنوعٍ مِن القدرة الإلهيّة، فانشقاق السّماء العُلويَّة نوعٌ، وتسوية الأجسام السُّفليَّة نوعٌ آخر. وهي ذاتها نُكتةُ تكرير (إذا) في سورة التَّكوير، وفي الانفطار[3]، وبدأ بالعالم العلويِّ، لكونه أشرفَ، لأنَّه أعلى مكانةً ومكانًا"[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 21/ 336، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 31/ 256.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 422.
(3) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على تفسير البيضاوي: 20/ 164.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 21/ 336.

نُكتةُ تقديم ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾:

تقوية الشّرط والدّلالة على تحقّق وقوعه

تقدَّمَ المُسنَد إليه ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ﴾ على المُسنَد الفِعليِّ ﴿مُدَّتۡ﴾ دون أن يقال: (وإذا مدّت الأرض)، لإفادة تقوّي الحكم والإنباء عن أنّ هذا الشّرط مُحقَّقُ الوقوع، وِفاق ما يقتضيه لفظ (إذا) في الشّرطية مِن قصد الجزم بحصول الشَّرط بخلاف (إنْ).

دلالةُ التَّعبير بصيغة ﴿مُدَّتۡ﴾:

الزّيادةُ في الأرض بتمديدها أو بإمدادها

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ﴾ بفِعل المَدِّ، الجائز في معناه وجهان:

الأوّلُ: أنّه مأخوذٌ مِن مَدَّ الشَّيء فامتَدَّ، وهو أن تُزالَ جِبالُها بالنَّسف، كما قال في آيات أخرى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥﴾ [طه: 105]، أي: يُسوّي ظَهرَها، وكما قال: ﴿قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ١٠٧﴾ [طه: 106 - 107] وعن ابن عباس: "مُدّت مدَّ الأديم الكاظميّ"؛ لأنّ الأديم إذا مُدّ زال كُلُّ انثناءٍ فيه واستوى.

الثّاني: أنّه مأخوذٌ مِن مَدّه بمعنى أمدّه، أي يُزاد في سَعتها يوم القيامة لوقوف الخلائق عليها للحساب.

ولا تعارضَ بين الوجهين، فإنَّ الزّيادة في وجه الأرض يكون سواءً بتمديدها أو بإمدادها، لأنَّ خَلق الأوّلين والآخرين لـمّا كانوا واقفين يوم القيامة على ظَهرِها، فلا بدّ مِن الزّيادة في طولها وعرضها(1).

دلالةُ التَّعبير بالفِعل ﴿مُدَّتۡ﴾ ماضيًا مبنيًّا للمفعول:

الاحتياطُ للمعنى والتّنبيهُ على تحقُّق الوقوع

عُبّر بالفعل الماضي ﴿مُدَّتۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ﴾ لخروجه في باب الشّرط إلى الاستقبال، فضلًا عن دلالته

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 97.

على تحقُّقِ وقوعه، لأنّ أصل (إذا) القطعُ بوقوع الشَّرط. والقصدُ مِن مجيء الشَّرط ماضيًا - وإن كان معناه الاستقبال - هو إنزالُ غيرِ المُتيقَّن منزلةَ المُتيقَّن، وغيرِ الواقع منزلةَ الواقع.

الإيجازُ بطَيِّ ما هو معلوم

وبُني الفعل لما لم يُسمّ فاعله، ولم يُصرَّح بالفاعل، للإيجاز، لكونه معلومًا؛ فالمتصرّف في الكون مِن أرضٍ وسماءٍ وسائرِ الأجرام هو خالِقُها سبحانه، مع ما في هذا البناء من التّركيز على الفعل في حَدِّ ذاته، وهو ﴿مُدَّتْ﴾ دون التّعرّض للفاعل، ومعلومٌ إذا كان الكلام مُنصبًّا إلى غرضٍ مِن الأغراض جُعِلَ سياقُه له وتوجُّهُه إليه، كأنَّ ما سواه مرفوضٌ مُطَّرَحٌ[1].

نوع الواو في قوله: ﴿وَأَلۡقَتۡ﴾:

الأرضُ إذا مُدَّت رَمَت ما في جوفها

عُطف قَوْله تَعالى: ﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا﴾ على ما قبله بحرف الواو الدّالّة على الجمع والاقتران، فبَعدَ أن ذَكرَ النَّظمُ الكريمُ مَدَّ الأرض عَطَفَ عليه إلقاءَها ما في جوفها، ووجهُ ذلك أنّها لَمّا مُدّت رَمَت بما في جوفها مِن الموتى والكنوز[2].

دلالةُ استعمال مُفردة الإلقاء:

إخراجُ الأرضِ أثقالَها مِن الموتى والكنوز

أوثرَ استعمال لفظ الإلقاء في قَوْله تَعالى: ﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا﴾ بمعنى الرَّمي، والمعنى أنَّ الأرضَ ترمي بما في جوفها مِمّا دُفن فيها من المَوْتى والكُنوز، فهو كقوله: ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ٢﴾ [الزلزلة: 2]، وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ٤﴾ [الانفطار: 4]، وكقوله: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ٢٥ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ٢٦﴾ [المرسلات: 25 - 26][3].

بلاغة إسناد فعل الإلقاء للأرض:

تأثُّرُ الأرض لأمر الله التَّكوينيّ

خرّج بعض العلماء قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا﴾ على المجاز

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 254.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 97.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 726، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 97.

في لفظ ﴿وَأَلۡقَتۡ﴾، فقالوا إنّ إسناد الإلقاء إلى الأرض مِن الإسناد المجازي، لأنّ الإلقاء والإخراج للّه تعالى ولكنَّ الأرض وُصفت بذلك على التوسُّع فيكون مجازًا مرسلًا في التأثُّر لأمر اللّه التّكويني(1). والعلاقة المسببيّة، أي: إنّ الإلقاء كان مسبّبا عن أمر اللّه لها بذلك.

وذَكَرَ بعضُهم أنَّ في استعمال فعلِ الإلقاءِ استعارةٌ مَكنيَّةٌ، فقد شُبِّهَت حالُ الأرض حينما يُلقي اللّه ما في باطنها بحال المرأة الحامل الَّتي تلقي ما في بطنها عند الشِّدَّة والهول. ثُمَّ حُذِفَ المُشَبَّه به واستعير لَفظُ الإلقاء(2).

سِرُّ استعمال الموصول ﴿مَا﴾:

لا تُبقي الأرضُ عند قيام السّاعة شيئًا إلا ألقته

عُبّر في قَوْله تَعالى: ﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا﴾ بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ دون غيره مِن الموصولات لدلالته على العُموم، فهو اسمٌ موصولٌ مُشتركٌ صالِحٌ لِكُلِّ الضَّمائر، ويَعُمُّ جميعَ الأشياءِ والمخلوقاتِ، العاقلِ منها وغيره، وإن كان في الأصل موضوعًا لغير العاقل إلّا أنَّه يُستعمل في العاقل أحيانًا.

دلالةُ استعمال حرف الظَّرفيَّة (في):

احتواءُ الأرضِ على الكُنوزِ والمَوْتى احتواءَ الظَّرفِ على المظروف

استُعمِلَ في قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا﴾ حرفُ الجَرِّ (في) الدّالُّ على الظَّرفيَّة المكانيَّة، وهي هنا ظَرفيَّةٌ حقيقيَّةٌ لاحتواء الأرض على الكُنوز والمَوْتى احتواءَ الظَّرفِ على المظروف، قال تعالى: ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ۝٢﴾ [الزّلزلة: 2] وقال: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ۝٢٦﴾ [المرسلات: 25 - 26].

نُكتةُ عطفِ (تخلت) على ﴿وَأَلۡقَتۡ﴾:

عُطف قَوْله تَعالى: (تخلّت) على ما قبله بحرف الواو الدّالِّ على

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 219.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 424.

الجمع والاقتران، فالأرضُ إذا رمت ما في جوفها من الموتى والكنوز إلى ظاهرها، خَلَت عمّا فيها غايةَ الخُلوِّ حتّى لا يبقى فيها شيءٌ منه(1).

خُلوُّ الأرض غايةَ الخُلوِّ بَعدَ رَميها ما في جوفها

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ ﴿وَتَخَلَّتۡ﴾:

قوَّةُ خُلوِّ الأرض عن مُحْتوياتِها

جاء الفعلُ في قَوْله تَعالى: ﴿وَتَخَلَّتۡ﴾ على صيغة التَّفعُّل، الدّالِّ على قوَّة الخُلوِّ عَن الشَّيءِ لِما في مادَّة التَّفعُّل مِن الدَّلالة على تَكَلُّفِ الفِعل، أي: تكلَّفَت الأرض في الخُلوِّ أقصى جُهدِها حَتَّى لم يبقَ شيءٌ في باطنها. والمُرادُ مِن التَّكَلُّفِ هنا لازِمُه مَجازًا؛ لأنَّ التَّكَلُّف فِعلُ العقلاء، وهنا قصد به المُبالَغَةُ مَجازًا، فيكون في ﴿وَتَخَلَّتۡ﴾ اسْتعارَةٌ تَبَعيَّة(2).

بلاغةُ التَّكرارِ اللَّفظيِّ في جُملة ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾

انقيادُ الأرضِ لأمرِ ربِّها مِن سُننه تعالى في الكون

تَكرارُ جُملة ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾ لِدَفعِ تَوهُّم أنَّ إلقاء الأرض ما فيها وتَخلّيَها قد تمَّ بغير أمرِه ﷻ، فكُرِّرت لإثبات معنى أنَّها فعَلَتْ ذلك امتثالًا لأمر ربِّها وانقيادًا لِسُلطان خالِقها، وكانت حقيقةً بذلك كما أنَّ كُلَّ مَربوب كذلك(3). وتفاصيلُ الدِّلالات البلاغيَّة المتعلِّقة بهذه الآية مماثِلةٌ لما ذُكر في الآية السّابقة في شَأنِ السَّماء.

براعةُ النِّداءِ في جملة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

تنبيهُ مشغول البال إلى ما سيُلقى إليه من الكلام

استفتح قولُه تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ بأسلوب النّداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾، والغرضُ منه تنبيهُ السّامِع لإيقاظ ذِهنه واستحضار قَلبه، فإنَّ الحَكيم إذا خاطب مَن يكون مَحَلَّ الغفلةِ أو مشغولَ البال يُقَدِّمُ على الكلامِ المقصودِ شيئًا ليلتفتَ المخاطَب بسببه إليه ويُقبِلَ بقلبه عليه بسبب ذلك المقَدَّم، كالنّداء وحروف الاستفتاح وغيرها، تنبيهًا له على أنَّ ما سيُلقى إليه أمرٌ مُهِمٌّ(4).

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 31/ 256.
(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 163.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 337.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 23.

دلالةُ النَّكِرَة المقصودة (أيّ):

الإنسانُ بعيدٌ عن الحساب غافلٌ عنه

تَضَمَّنَ قولُه تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ نداء ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ بحرف نداء البعيد (يا)، فجيء بـ(أيّ) توصّلًا لنداء ما فيه (أل)، وقد ذهب جمهور النُّحاة إلى أنَّ معنى المنادى المُعَرَّفِ بـ(أل) والنَّكرة المقصودة واحدٌ لأنّهما معرفة، فقولك (يا رجل) كقولك (يا أيّها الرّجل)[1]. وأبدى بعضُ العلماء فرْقًا بينهما، فإنَّ المنادى في قولك (يا رجل) نكرةٌ في الأصل فقُصِدَ بالنّداء، وأمّا المعرّف بـ(أل) فهو معرفةٌ قبل قصده بالنّداء[2]. وكذلك فإنّ قولك (يا رجل) يدُلُّ على مجرَّد النِّداء، أمّا قولك (يا أيّها الرَّجل) يدلّ على ذلك أيضًا، ويُنبئُ عن خَطَرِ المنادى له، أو غفلة المنادى[3]. فاستعمل (أيّ) في هذه الآية للدّلالة على غفلة الإنسان عن الحساب.

نُكتةُ اختيار لفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾

فرادةُ الإنسان خلقًا في هذا الكون مدعاةٌ لِدِقَّتِه في معرفة خالقه

عُبِّر بلفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، والمقصود به ابن آدم، لما يدلّ عليه اشتقاقه من معنى الظُّهور بخِلافِ الجِنِّ؛ أو لأَنَّهُ خُلِقَ خِلقَةً لا قَوامَ لَهُ إلّا بأُنْسِ بعضِهِمْ ببَعْضٍ، أو لأَنَّهُ يأنَسُ بكُلِّ ما يَألَفُهُ، أو لأَنَّهُ عَهِدَ اللّه إلَيْهِ فنَسيَ[4]. وهذا الأخير لم يرضه ابن القيّم، وذهب الى أنّ لَفْظَ (إنسانٍ) هوَ فعْلان مِنْ (أ ن س)، والألِفُ والنّونُ في آخرِهِ زائدتان، وقال لا يجوزُ فيه غيرُ هذا ألبَتَّةَ، ولَوْ كانَ مُشْتَقّا من نَسيَ لكانَ نِسْيانًا لا إنْسانًا[5]. وأيًّا كان الأصلُ فإنَّ اصطفاءَه ههنا فيه تذكيرٌ لهذا المخلوقِ الظّاهرِ على غيره بما فضَّل اللّه عليه، الآنسِ بنفسه، وببَني جنسه وذلك أدعى لأنْ يكون عارفًا برَبِّه، طائعًا لأمره أكثرَ من الأرض والسَّماء.

(1) سيبويه، الكتاب: 1/ 310.
(2) فاضل السّامرائيّ، معاني النَّحو: 4/ 330.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 189.
(4) الرّاغب، المفردات: (أنس).
(5) ابن القيّم، التَّفسير القيّم، ص: 681.

دلالةُ تعريف لفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾:

عمومُ الخطاب، مع إرادة تخصيص كُلِّ فردٍ منه

وَرَدَ لَفْظُ ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ مُعَرَّفًا بأداةِ التَّعريفِ (أل)، ويجوز أن يكون تعريفُها تعريفَ الجِنْسِ المقتَضي للعُموم، فيكون المرادُ جنسَ النّاس وكأنَّه خطابٌ خُصَّ به كُلُّ واحد مِن النَّاس، وهو أبلغُ مِن العموم لأنَّه قائمٌ مَقامَ التَّخصيص على مخاطبة كُلِّ واحدٍ مِنهم على التَّعيين بخلاف اللَّفظ العامِّ فإنّه لا يكون كذلك. ويجوز أن تكون (أل) للعهد، فيكون المُرادُ مِن اللّفظ رجلٌ بعَينه. والأقربُ أن يُحمل التَّعريفُ على الجنس، لأنَّه أكثرُ فائدة، ولأنَّ قوله: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾، ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ كالنّوعين له، وذلك لا يتمُّ إلّا إذا كان جنسًا[1].

دلالةُ التَّوكيدِ بـ (إنَّ):

تأكيدُ الأمور الغيبيَّة زيادة في الإيمان بها

أوثر في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ استعمال (إنَّ) والجملة الاسمية وهما مِن مؤكّدات مضمون جملة الإسناد اهتمامًا بتوكيد الحساب على الأعمال، ولِكون الكلام جاريًا على خلاف مقتضى الظّاهر بتنزيل خالي الذِّهن منزلةَ السّائلِ المُتَردِّد فيُؤكِّد له الخبر لإزالة ما قد يَعلَقُ بنفسه مِن شَكٍّ.[2] وكذلك لزيادة الإيمان بالأمور الغيبيّة القائمة على النَّقلِ الصّادق والخارجةِ عن حدود الحواسّ، ولاسيّما البعث الَّذي يُنكِره أكثرُ النّاس[3].

دلالةُ استعمال لفظ ﴿كَادِحٌ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

الإنسانُ مُجِدٌّ في عَمَلِه مِن خيرٍ أو شَرٍّ، باذِلٌ جُهدَه فيه، مُجهِدٌ نَفسَه

عُبّر في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ باسم الفاعل ﴿كَادِحٌ﴾، بمعنى إتعاب النّفس في العمل والكَدّ، حتّى يؤثّر فيها، والمعنى أنَّ الإنسان جاهدٌ ومجدٌّ جدًّا في عمله مِن خير وشرّ[4]. ويجوز أن يضمّن

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 97.
(2) عبد المتعال الصَّعيديّ، بغية الإيضاح: 1/ 47.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 338.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 221، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 288.

﴿كَادِحٌ﴾ معنى (ساعٍ)؛ لتعديته بـ(إلى)، وذلك أنّ النّاس بكدحهم في الحياة يتطلّبون بعمل اليوم عملًا لغد، وذلك يتقضي بهم زَمنَ العمر الَّذي هو أجَلُ حياةِ كُلِّ إنسانٍ ويَعقُبُه الموتُ الَّذي هو رجوعُ نفس الإنسان إلى محض تَصَرُّفِ اللّه، فلمّا آلَ سعيُه وكدحُه إلى الموت جُعِل كَدحُه إلى رَبِّه الَّذي إليه المُنتهى بعد الموت. فكأنَّه قيل: (إنّك كادحٌ تسعى إلى الموت وهو لقاء ربِّك)[1].

تأكيدُ البعث والجزاء على الأعمال

وعُبّر بالمصدر ﴿كَدۡحٗا﴾ منصوبًا على المفعوليَّة المطلقة لتأكيد عامله وهو اسم الفاعل ﴿كَادِحٌ﴾ المضمَّن معنى (ساعٍ إلى ربِّك)، أي ساعٍ إليه لا محالةَ ولا مفرَّ، فنكتةُ هذا التَّأكيد إثباتُ البعثِ والجزاءِ على الأعمال خيرِها وشَرِّها[2]. وأنَّ الإنسانَ مُجتهدٌ في عَملِه وِفاق هذين المَسارَين[3]، دائبٌ على ذلك مُبالغٌ فيه بدلالة صيغَتَي اسم الفاعل، والمفعول المطلق المؤكِّدِ لنوعه.

دلالةُ استعمال ﴿إِلَىٰ﴾:

الكدحُ والمشقّةُ لا ينتهيان إلا بانتهاء الحياة

يدُلُّ حرفُ الجَرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ على انتهاء الغاية الزَّمانيّة، أي إنَّ كدح الإنسان يستمرّ ويبقى إلى زمن موته، فالإنسان لا ينفكّ في هذه الحياة الدّنيوية مِن أوَّلها إلى آخرها عن الكدح والمشقّة والتّعب. فدلالة انتهاء الغاية في ﴿إِلَىٰ﴾ توجِبُ انتهاءَ الكدح والمشقّة بانتهاء هذه الحياة، وأن يكون الحاصلُ بعد هذه الدّنيا محضَ السَّعادة والرَّحمة أو الشَّقاوة والعذاب[4].

بلاغةُ التَّعبير بعُنوان الرُّبوبيَّة:

في تَقرُّب العبد إلى رَبِّه وفاءٌ لإحسانه إليه بإغداق النِّعم الدُّنيويّة والدّينيّة

عبّر بوصف الرّبوبية دون سواه من أسماء اللّه وصفاته في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ لما في هذا الوصف مِن دلالةٍ على الشَّفَقة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 220/ 221.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 221.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 221، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 288.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 98.

بالمربوب، ومَحَبَّة الخير له، وللتَّنبيهِ على أنَّ واجبَ الإنسان التقرُّبُ إلى مُرَبّيه المُحسنِ إليه بكُلِّ نِعمةٍ دُنيَويَّةٍ ودينيَّة[1]، ففيه تذكيرٌ للعبد بنعمةِ الإيجادِ والإمدادِ، وهو معنى الرّبوبيّة، ولتتأتّى الإضافةُ المفيدةُ للتّشريف والقُرب، فهو ربُّ الإنسان وخالِقُه[2].

غرضُ تقديم القيد ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ على المفعول:

اللهُ سبحانه هو المختصُّ بحساب الإنسان على سَعيِه

تقدَّمَ الجارُّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ على المصدر ﴿كَدۡحٗا﴾ لِنُكتةٍ بلاغيَّةٍ وهي الاختصاص، بمعنى اختصاص اللّه بالرُّجوع إليه وبالحساب، ونظيره مَثَلًا قولُه تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾ [الغاشية: 25 - 26][3]. ويرى بعضُ العلماء أنّ مَحْمل هذا التّقديم بالنّسبة إلى المسلمين الاهتمامُ، ومحملَه بالنّسبة إلى المشركين القصرُ، أي: لا يصيرون إلى غيرنا، مع الرّعاية على الفاصلة[4].

نوعُ الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾:

تَرَتُّبُ الجزاء على العمل

عُطف قوله تعالى: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ على ما قبله بحرف الفاء، وتحتمل أن تكون للتّعقيب، أي: (فملاقٍ له عقيب ذلك لا محالة، مِن غير صارفٍ يَلويك عنه)، كما تحتمل أن تكون جزائيَّة؛ لأنَّ الجَزاء لا بدّ وأن يكون جملةً ويُقدَّر المُضاف أي (فأنت مُلاقٍ جزاءه)، فالفاء حينَئِذٍ جزائيَّة.

وقد تكون هذه الفاءُ عاطفةً للتَّرتيب والتَّعقيب والسَّبَبيَّة، عطَفَت جُملةَ الكلام على الَّتي قَبلَها، والتَّقدير: (فأنتَ ملاقيه)، ويصحُّ أن يكون الكلامُ معطوفًا على ﴿كَادِحٌ﴾ عَطْفَ المفردات[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 100.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/ 202.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 745.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 110.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 288، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 437.

سِرُّ صوغ ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ اسم فاعل:

الإعداد للّقاء الكريم نجاةٌ من العذاب الأليم

جاء التَّعبيرُ بلفظ ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ بمعنى: (يعقُب كَدَحَك لقاؤُك لربِّك، وأنّه ينكشف لك أنَّك كنتَ في سيرك إليه كالمجتهد في لقائه اجتهادَ من يسابق في ذلك آخَرَ)، وفي ذلك تمثيلٌ لنفوذ إرادته ومُضيِّ أقضيته بسبب الانتهاء إليه، وحثٌّ على الاجتهاد في الإحسان في العمل؛ لأنَّ مَن أيقن بأنَّه لا بُدَّ له من العرض على الملك أفرغ جُهدَه في العمل بما يَحمَدُه عليه عند لقائه[1].

وفي التَّعبير باسم الفاعل (ملاقي) دلالةٌ على الاستقبال والثُّبوت والتَّلبُّس بالفعل في المستقبل القريب، ممّا يُؤَكِّد حتميَّة وقوع هذا اللِّقاء.

بلاغةُ المجاز في لفظ ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾:

ملاقاةُ الرَّبّ سبحانه ملاقاةٌ لجزائه ثوابًا أو عقابًا

يحتمل قولُه تعالى: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ أن يكون من مجاز الحذف، والتّقدير: (فَمُلاقٍ جزاء ربّك) أو (فملاقٍ جزاء الكدح)، وفيه مُبالَغَة؛ إذ الكدح والسّعي إلَى العمل في الدُّنيا لا إلى لقاء جزائه في العُقبى، لكن لمّا كان السّعيُ إلَى العمل للجزاء كان السّعي في الحَقيقة إلَى الجَزاء؛ هذا لأهل الإيمان والطاعات؛ وأمّا الكَفَرةُ فإنَّ سعيَهم إلى الشّرور والمعاصي وعبادَةِ غيره تَعالى بأنواع التَّعب والنَّصب، وإن لم يكن للجزاء بالعقاب، لكن لمّا ترتّب عليه فكأنَّ سعيَهم سَعيٌ إلى ذلك الجَزاء السّوء في الحَقيقة، ففيه ترغيبٌ وتشويقٌ إلى ما يُنجي، وتثبيطٌ عَمّا يُردي[2].

مرجع الضمير في قوله: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾:

أثر مرجع الضّمير في اختلاف التّفسير

الضّمير في لفظ ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ من قوله تعالى: ﴿كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 339.

(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 165.

﴿كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾، عائدٌ على لفظ (الرَّبّ)، والمعنى: (فملاقٍ رَبَّك)، أي: (ملاقٍ حُكمه لا مفرّ لك منه)، أو هو عائدٌ على الكدح، إلّا أنّ الكدح عملٌ وهو عَرَضٌ لا يبقى فملاقاتُه مُمْتَنِعةٌ، فوجب أن يكون المُرادُ ملاقاةَ الكتاب الّذي فيه بيانُ تلك الأعمال، ويتأكّد هذا التّأويلُ بقوله بعد هذه الآية: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(أذِن) و(سمع):

السَّماءُ شديدةُ الانقيادِ والطَّواعيةِ، كمَن له أُذُنٌ واعية

يتجلّى الفرق بين لفظَيّ (أذِنَ) و(سَمِع) في مَلمَح اشتقاقِ كلِّ لفظٍ منهما، فلفظ (سَمِع) عامٌّ في الحاسّة الّتي يتمُّ من خلالها إدراكُ الأصوات سواء كان ذلك بالعضو المخصوص وهي الأذن أم غيرها، وأمّا لفظ (أذِنَ) فمُشْتَقّ من الأذْن بمعنى توجيه الأذُن السّامعة أو من الأُذُن بمعنى العضو المَخْصوص؛ لأنّه يجوز الاشْتِقاقُ من الجوامد[2]. وقد أوثِرَ في الآية لفظُ (أذِن) لقصد المبالغة في إظهار الانقياد والامتثال لأوامر الخالق سبحانه، أي إنَّ السَّماء شديدةُ الاستماع والطّواعية والانقياد على أتمِّ وجهٍ كَمَن له أذنٌ واعيةٌ، ونفسٌ مطمئنَّةٌ راضيةٌ[3].

المدّ والبسط:

اختصاصُ المدّ بالاستطالة الأُفُقيَّة

يتجلّى الفرق بين لفظَي (المدّ)، و(البَسط) في المعنى الدّلاليِّ لِكُلٍّ منهما، فيختصّ المدّ بكونه جَرَّ شيءٍ في طول، واتّصالَ شيءٍ بشيءٍ في استطالة[4]، ويُلمح فيه معنى الاستطالة الأفقيّة من غير

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 98.

(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي:: 20/ 161.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 96.

(4) السّمين، عمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (مدد).

اتّساع أو انتشار، أمّا البسط فهو: الاتّساع في الشّيء، وأصله: النّشر والتّوسيع، ومنه بَسْطُ الرّزق، والبِساطُ المُفْتَرَشُ من ذلك لاتّساعه[1]، وقد أوثر في الآية لفظ ﴿مُدَّتْ﴾ للدّلالة على الزّيادة في وجه الأرض سواء بتمديدها أو بإمدادها[2].

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (بسط).
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 97.

﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ٩﴾ [الانشقاق: 7 - 9]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

حالُ أهلِ السُّرور يوم العرض في نعيمٍ وحبورٍ

لمّا ذكرَ البيان القرآني في الآية السّابقة أنّ لكلّ إنسان عملًا سيُلاقي جزاءَه يوم القيامة، وكان فيهم المقبولُ والمردودُ، بسبب أنَّ كَدْحَه تارةً يكون حسنًا وتارة يكون سيِّئًا، فصّل في هذه الآيات حالَ أهل السّعادة يوم العرض. والمقبولُ مَنْ أُعطيَ كتابَ حسناتِه بيمينه لأنَّه كان في الدُّنيا من أهل اليمين أي الدّينِ المَرْضيِّ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾: (كتب) أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدلُّ على جمعِ شيءٍ إلى شيءٍ. ومن ذلك الكتاب والكتابة؛ فكلُّ ما جمعتَهُ فقد كتبْتَهُ. وسُمّيت الكتابةُ كتابةً لِضَمِّ الحروف فيها بعضِها إلى بعضٍ، إشارةً إلى ما أُثبتَ فيه أعمالُ بني آدم. وهي صحيفةُ كُلِّ إنسان، وما كُتِب له مِن خيرٍ أو شرٍّ، جليلٍ أو حقيرٍ، وصغائرُ الذُّنوب وكبائرُها[2]. وهو معنى اللَّفظ في الآية، فـ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾: صحيفةُ أعماله[3].

2) ﴿وَيَنقَلِبُ﴾: مطاوع (قلب)، وأصله ردُّ شيءٍ من جهةٍ إلى جهةٍ. وقلبُ الشَّيء: تصريفُه وصرفُه عن وجهٍ إلى وجهٍ[4]. والانقلاب: الرُّجوعُ إلى الموضع الَّذي جيء منه خصوصًا. يقال: (انقلب المُسافرُ إلى أهله) وفي دعاء السَّفر: ورَد التَّعوُّذُ من «كَآبَة المُنْقَلَبِ»[5]، وفي

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 339.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (كتب).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 222.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (قلب).
(5) صحيح مسلم: 2/ 979، رقم الحديث: (1343).

رواية: «سوءِ المُنْقَلَبِ في المالِ والأَهْلِ»[1]، وأصْلُه مستعارٌ مِن قَلب الثَّوب، إذا صَرَفه مِن وجهٍ إلى وجهٍ آخر، والمراد به في الآية رجوعُ المؤمن بعد حسابه إلى أهله في المَحْشَرِ قبل دخول الجنَّة[2].

3) ﴿مَسۡرُورًا﴾: اسم مفعول مِن (سرّ)، و(سرر) أصلٌ يَجمَعُ فروعُه إخفاءَ الشّيء، لا يخرج شيءٌ منه عن هذا. فالسِرُّ: خلاف الإعلان. يقال أسررت الشَّيءَ إسرارًا، خلاف أعلنته. ومنه السّرور، لأنّه أمرٌ خالٍ مِن الحُزن[3]. وقال بعضهم إنّ أصل هذه المادّة غُؤورٌ إلى العمق بامتدادٍ ودِقَّة، فالسّرورُ والفرحُ انشراحٌ في الصّدر وفُرجَةٌ تمتدّ في باطن النَّفس[4]. والمعنى في الآية أنّ المؤمن يرجع بعد العرض إلى أهله مُبتهجًا بحاله وكونه مِن أهل النّجاة.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

يُخبِر رَبُّنا سبحانه عن أحوال الحساب يوم القيامة بأنّ مَن أُعطي كتابَ أعماله بيمينه وهو مؤمنٌ برَبِّه، فسوف يحاسَبُ حسابًا سَهلًا هَيِّنًا، بأن يُنظَر في أعماله، فيُغفر له سيِّئُها، ويجازى على حَسَنِها، ويرجع إلى أهله فرِحًا مُستبشِرًا[5].

إيتاءُ الكتاب باليمين دلالةٌ على الفوز المبين

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الفاء في قوله ﴿فَأَمَّا﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾؛ لتفريع التّفصيل على الإجمال؛ أو سببيّة، لأنّ الإجمالَ سببُ التّفصيل[6]. وقد جُعل تفصيلُ النّاس بالنِّسبة لِكَدح كُلِّ إنسانٍ قِسْمين: أصحابُ

النّاسُ في الكدح صنفان أصحابُ يمينٍ وأصحابُ شمالٍ

(1) صحيح مسلم: 2/ 978، رقم الحديث: (1342).
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 261.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سر - سرر).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سرر).
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 236، ونخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 589.
(6) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 166.

يمينٍ وأصحابُ شمالٍ، لأنَّ النّاس بالنّسبة إلى الإيمان قسمان: مؤمنٌ وكافرٌ، وشتّان بين جزاءِ كُلِّ فريقٍ، فالفاء رابطةٌ بين كلامين، ومُؤذِنةٌ بالبَون بين الأمرين المتنافيَين[1].

دلالة حرف (أمّا):

شَأْنُ أصحاب اليمين رفيع، وحالُهم مَهيب

(أمّا) في قوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ حرفٌ دالٌّ على التّفصيل، وفيه معنى الشّرط؛ لذا يقترن جوابُه بالفاء، وهو هنا لتفصيل الإجمال الّذي في قوله: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾، أي: رجوع جميع النّاس أولئك إلى الله سبحانه، فمِنهم مَن يُؤتى كتابَه باليمين، ومِنهم مَن يُؤتى كتابَه بالشّمال، وبين مُنتهاهما مراتب؛ وإنَّما جاءت هذه الآيةُ على اعتبار تقسيم النّاس يومئذٍ بين أتقياء ومشركين[2]. كما يفيدُ حرفُ (أمّا) توكيدَ الكلام وتقويتَه[3]، ونكتةُ التّوكيدِ هنا تعظيمُ شأن المؤمنين أصحابِ اليمين.

وجه استعمال الموصول ﴿مَنۡ﴾:

وصفُ المؤمنين بإيتاء الكتاب باليمين

استُعمل الاسم الموصول ﴿مَنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ الدّالُّ على العاقل المُكلَّف، لكونه المحاسَبَ على أعماله والمجازى عليها، والنُّكتةُ في إيثار الاسم الموصول دون الاسم الظّاهر أنّه يَسْمَحُ بوصفه بجملة الصّلة، وقد أفاد النّظمُ بهذه الصّلة وصفَ المؤمنين بإيتاء الكتاب باليمين.

سِرُّ إيثارِ لفظ الإيتاء دون الإعطاء:

إيتاءُ الكتاب باليمين مِن مَنِّ الله تعالى على المؤمنين

أوثر التّعبيرُ بفِعل الإيتاء في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ دون فِعلِ الإعطاء، لِكَونه أقوى مِن الإعطاء، فالإيتاء لا مُطاوِعَ لفعله، فتقول: آتاني شيئًا فأخذتُه، بخلاف الإعطاء فإنَّ له

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 426، والشّهاب، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 7/ 393.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 222.
(3) بهاء الدّين السُّبكيّ، عروس الأفراح: 1/ 130.

مُطاوِعًا، فتقول: أعطاني شيئًا فعَطَوْتُه، والمتقرِّر أنَّ ما له مطاوعٌ مِن الأفعال أضعفُ في إثبات مفعولِه ممّا لا مطاوع له. كما أنّ الإيتاء يُستعمل للشّيء العظيم الشّأن، ولهذا ورد في إيتاء القرآن الكريم، والتّوراة، والمُلك، والرّحمة، بخلاف الإعطاء فلم يستعمل في ذلك[1].

ويجوز أن يدلّ لفظُ الإيتاء ههنا على التَّيسير للمؤمن في هذا المشهد بما يومئ به لفظ الإيتاء من معنى اليسر وِفاق اعتراض الزَّبيديِّ التَّوجيه السّابق؛ لأنّ القاعدة الَّتي ذُكرتْ في المطاوعة لا يكاد ينسحب حُكمُها على كُلِّ الأفعال، بل الَّذي يظهر خلافُه، فإنَّ الإعطاء أقوى مِن الإيتاء، ولذا خُصَّ في دفع الصدقاتِ الإيتاءُ؛ ليكون ذلك بسهولةٍ مِن غير تَطَلُّعٍ إلى ما يَدفَعُه، وتأمَّلْ سائِرَ ما ورد في القرآن يُؤكِّد هذا المعنى، ومِن ذلك لفظ (الكوثر)؛ لمّا كان عظيمًا شأنُه غير داخلٍ في حيطة قدرةٍ بَشَريَّةٍ استُعمل الإعطاء فيه[2].

وفرَّق جماعةٌ بينهما بأنَّ الإيتاء قد يكون واجبًا وقد يكون تفضُّلًا بخلاف الإعطاء[3]. وهو هنا تفضُّلٌ على المؤمن، ومنَّةٌ مِن مِنَن الله تعالى عليه.

دلالة صوغ ﴿أُوتِيَ﴾ ماضيًا مبنيًّا للمفعول:

يومُ القيامة آتٍ لا محالة

عُبِّر بالفعل ﴿أُوتِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ ماضيًا وليس مستقبلًا مع أنَّ السّياق هو في ذِكر الحساب المستقبليِّ يوم القيامة، للدّلالة على التَّحقُّق، فهو آتٍ لا محالة، وهذا نظيرُ قولِه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١﴾ [النحل: 1][4].

(1) محمد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 27 - 29.
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (أتى).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (عطو).
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 260.

الله تعالى هو المتفرّدُ بمحاسبة عباده

وبُني الفعل ﴿أُوتِيَ﴾ للمفعول، ولم يُصرَّح بالفاعل للإيجاز، لوضوحه مِن السّياق، وهو اللّه سبحانه، فهو وحدَه مَن يحاسِب عبادَه ويُجازيهم عَن أعمالهم، مَعَ ما فيه مِن التَّركيز على الفعل في حَدِّ ذاته وهو الإيتاءُ، دون التَّعرُّض للفاعل، ومعلومٌ إذا كان الكلامُ منصبًّا إلى غَرَضٍ مِن الأغراض جُعِلَ سياقُه له وتوجُّهُه إليه، كَأنَّ ما سواه مرفوضٌ مُطَّرَحٌ(1).

سِرُّ إيثارِ لفظ (الكتاب) دون غيره:

أعمالُ بني آدم مكتوبةٌ محفوظةٌ مجموعةٌ لا يَنقُصُ منها شيء

أوثر التَّعبير بلفظ ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ دون غيره كالصّحيفة مثلًا؛ لِنُكتة لَمْحِ أصل الاشتقاق، وهو الكتابة؛ فقد سَخَّر اللّه لِكُلِّ عَبدٍ مَلَكين عن يمينه وشماله يكتُبان كُلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ مِن أعماله، والحِكمةُ في الكتابة - مع أنَّ اللّه سبحانه لا يخفى عليه شيءٌ - أنَّ المكلَّف إذا عَلِمَ أنَّ أعماله تُكتَب وتُعرَض على رؤوس الأشهاد كان أزجرَ عن المعاصي، وأنَّ العبدَ إذا وثِق بلُطفِ سَيِّده، واعتمد على عَفوِه وسَترِه لم يَحتشِم احتشامَه مِن خَدَمه المطّلعين عليه(2). ثم إنّ الكتاب هنا يمثّل صحيفةَ أعمالِ الفرد الّتي يُجمع فيها أعمالُه صغيرُها وكبيرُها، وهذا المعنى يتوافقُ مع أصل معنى الكتابة والكتاب وهو الجمع.

دلالةُ إضافة (الكتاب) إلى الضَّمير:

تحمُّلُ العبد تبعاتِ عَمَلِه صورةٌ لِعظيم عدلِ الله سبحانه

الإضافة في لَفظِ ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ على معنى اللّام، وهي مفيدةٌ للاختصاص، بمعنى أنَّ كُلَّ إنسانٍ يُؤتى صحيفةَ أعماله الخاصَّةَ به في يده اليمنى أو اليسرى بحسب أعماله، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ كُلَّ عبدٍ يتحمَّلُ تَبعةَ أعماله بنفسه، ولا ينوبُ عنه أحدٌ في ذلك، فلا تزرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 254.

(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 377، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 260.

نوعُ الباء ودلالتها في قوله ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾:

اليـمـينُ مكـانُ كتابِ المؤمنين

الباء في قوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ للمُلابَسة أو المُصاحَبة أو هي بمعنى (في) الدّالّ على الظَّرفيَّة المكانيَّة، بمعنى أنَّ الكتابَ مكانُه اليمينُ للمؤمنين، ومكانُه الشّمالُ وراءَ الظَّهر للكافرين، وهذا الجارُّ متعلّقٌ بالفعل ﴿أُوتِيَ﴾[1].

وجهُ تخصيص اليمين بالذّكر:

اليـمـينُ شـعـارُ اليُمن

أوثِر في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ جَعلُ الإيتاء في اليمين شعارًا للسَّعادة لِما هو مُتعارَفٌ مِن أنَّ اليد اليمنى تتناول الأشياءَ الزَّكيَّة، وهذا في غريزة البشر، ناشئٌ عن كون الجانب الأيمَنِ مِن الجسد أقدرَ وأبدرَ للفعل الّذي يتعلَّقُ العزم بعَمَلِه، فارتكز في النُّفوس أنَّ البركة في الجانب الأيمن، حتَّى سمَّوا البركة والسَّعادة يُمنًا، ووسَموا ضِدَّها بالشُّؤم، فكانت بركةُ اليمين ممّا وضَعه اللّه تعالى في أصل فطرة الإنسان[2].

غرض تعريف اليمين بالإضافة لا بأل:

شـرفُ اليـمـين مِن سُموِّ مكانة المؤمنين

تعريفُ اليمين بالإضافة إلى الضَّمير (الهاء) العائد على المؤمنين في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ تنويهٌ بشَرَفهم وشَرَف أيمانهم الَّتي كانت أداةَ التَّشمير إلى الخيرات، والعزم على الطّاعات، والبِدار إلى القُرُبات، حتَّى اقترنَتْ بالبركات، وتعلّقتْ بالمسرّات. صَنْعَةُ اللّه تعالى، ومَن أحسنُ مِنه صَنْعَةً؟!.

معنى الفاء في قوله ﴿فَسَوْفَ﴾:

الحسابُ اليسيرُ جـزاءُ استقامة المَسير

الفاءُ في قوله تعالى ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ رابطةٌ لِجملة جواب الشَّرط بجملة الشَّرط، وذلك لأنّ حرف (أمّا) مِن قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ متضمِّنٌ معنى الشّرط؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 222.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 222.

ولذا يقترن جوابُه بالفاء للرَّبط بين الفعل والجزاء، وتنبيهًا على حصول الثّاني بحصول الأوّل.

دلالة استعمال (سوف):

تحقّقُ يُسرِ الحساب مِصداقٌ لوعد النَّجاة مِن العذاب

الأصلُ في استعمال الحرف (سوف) الوارد في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ دلالتُه على حصول الفعل في المستقبل، والأكثر أن يُرادَ به المستقبلُ البعيدُ، وهذا هو الشّائع، ويُقصَدُ به في الاستعمال البليغ تَحَقُّقُ حصولِ الفعلِ واستمرارُه، فهو هنا مفيدٌ للتَّحَقُّق والاستمرار بالنِّسبة إلى الفعل القابل للاستمرار وهو: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾؛ إذ هو المقصود مِن هذا الوعد[1].

دلالةُ المضارعة والمفاعلة في الفعل ﴿يُحَاسَبُ﴾:

القيامةُ هي اليومُ الموعودُ لحساب الخلائق

جاء الفعل ﴿يُحَاسَبُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ بصيغة المضارع للدّلالة على الاستقبال إذ محلُّه يومُ القيامة، فهو اليوم الموعود لحساب الخلائق، وقد جاء هذا الفعل مسندًا لما لم يُسَمَّ فاعلُه لنُكتة الإيجاز، فمعلومٌ أنَّه لا يحاسِب الخلقَ إلّا خالِقُهم سبحانه. وفي البناء للمفعول وإخفاء الفاعل دلالةٌ على سهولة هذا الحساب، ويُسرِه على المؤمنين.

المكالمة بين الرَّبّ والعبد محاسبةٌ

واستَشْكلَ بعضُ العلماءِ مجيءَ الفعل ﴿يُحَاسَبُ﴾ بصيغة المفاعلة، وهي تقتضي المشاركة غالبًا، فالمحاسبة تكون بين اثنين، وليس في القيامة لأحد قِبل ربّه مطالبةٌ فيحاسبه؟ والجواب عن هذا الإشكال: أنّ العبد يقول: (إلهي، فعلتُ المعصية الفلانيَّة)، فكأنَّ ذلك بين الرَّبِّ والعبد محاسبة، وثَبَت الدَّليلُ على تخصيص الكفّار بأنَّه لا يكلّمهم، فدَلَّ ذلك على أنَّه يُكلِّم المطيعين، والعبدُ يُكلّمه، فكانت المكالمةُ محاسبةً[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 222.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 99.

نُكتةُ التَّعبير بالمصدر ﴿حِسَابٗا﴾ نكرةً:

تأكيد المصدر لعامله

عُبِّرَ بلفظ ﴿حِسَابٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا﴾، وهو في أصله اسمُ مصدرٍ للفعل (حَسَبَ يَحْسُبُ) إذا عَدَّ أشياء، والمرادُ عَدُّ أعمال العباد وإحصاؤها لمجازاتهم عليها يوم القيامة بالثّواب إن كانت صالحةً، والعقاب إن كانت سيّئةً.

والنُّكتةُ في ذِكرِ المصدر بَعدَ فِعلِه هو المبالغةُ في تأكيد مدلول الجملة وبيان نوع الحساب للمؤمن، وتنكيرُه للتَّهوين من هذا الحساب، والتَّخفيفِ من شِدَّته.

سِرُّ وصفِ (الحساب) بلفظ ﴿يَسِيرٗا﴾:

يُسرُ الحساب تعريفٌ بالأعمال وتعجيلٌ إلى الجَنَّة

وَصفُ الحسابِ في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾ بكونه ﴿يَسِيرٗا﴾، كنايةٌ عن عدم المُؤاخَذة، وذلك بأن تُعرَضَ عليه أعمالُهُ، ويُعَرَّفَ الطّاعةَ من المعصية منها، ثمَّ يُثاب على الطّاعة ويُتجاوز عن المعصية دون مُناقشةٍ ولا افْتِضاحٍ، فلا يطولُ زمنُ حسابه، فيعجّل به إلى الجنّة. وهذا هو العَرْض الوارد في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «سألتُ رسول اللّه ﷺ عن الحساب اليسير؛ فقلت: يا رسول اللّه ما الحساب اليسير؟ فقال: الرَّجُلُ تُعرَضُ عليه ذنوبُهُ ثمَّ يُتجاوَزُ لهُ عنها. إنَّه مَن نوقِشَ الحسابَ هَلَكَ»[1][2].

توجيهُ العطف بالواو في قوله: ﴿وَيَنقَلِبُ﴾:

مِن مِننِ الباري على المؤمنين رُجوعُهُم إلى أهليهم فرِحين

عُطف قولُه تعالى: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾ على قوله سبحانه ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾ بحرف الواو الدّالِّ على الجمع والاقتران، فإنّه مَن حوسِبَ الحسابَ اليسير يَرجعُ إلى أهله المؤمنين مسرورًا مبتهجًا بفوزه ونجاته قائلًا لغيره: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ

(1) مسند أحمد: 6/ 185، رقم الحديث: (25555).

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 98، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 223.

كِتَٰبِيَهۡ ۝١٩﴾ [الحاقة: 19][1]. فجُمع بالعطف بين العَفْوِ عن الحساب، والإكْرامِ بالإسعاد[2].

براعة استعمال الفعل (ينقلب):

رجوعُ المُؤمنِ فرِحًا إلى الأهلِ، مِن آثار حسن العملِ

أوثر في قوله تعالى: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾ التَّعبيرُ بالفعل (ينقلب) دون غيره؛ لأنَّ الانقلاب معناه الرُّجوعُ إلى الموضع الّذي جيء منه خصوصًا. يقال: انقلب المسافر إلى أهله، وأصلُه مستعارٌ مِن قَلب الثَّوب، إذا صَرَفه مِن وجهٍ إلى وجهٍ آخر، والمراد به في الآية: رجوعُ المُؤمِنِ بعد حسابه إلى أهله في المحشر قبل دخول الجَنَّة، لا كما قال بعضُهم من أنّه يدلّ على أنّ أهله يدخلون الجنّة قبله. وليس المرادُ أيضًا رجوعَه إلى منزله في الجنّة؛ لأنّه لم يكن فيه مِن قبلُ حتّى يُقالَ لمصيره إليه انقلاب، ولأنّه قد لا يكون له أهلٌ أصلًا[3]. ومجيئُهُ مضارعًا يوحي بديمومة هذا الفعل واستمراره وعدم انقطاعه[4]. والمؤمن يرجع مِن نفسِه برغبةٍ وقَبول[5].

بلاغة استعمال لفظ الانقلاب بين الاستعارة والكناية:

خيرُ الجزاء المسرّةُ والفوزُ والنّجاةُ وطولُ الرّاحة

تضمَّنَ قوله تعالى: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾ صورةً بديعةً، فهذا التَّركيب تمثيلٌ لحال المحاسَب حسابًا يسيرًا في المسرّة والفوز والنّجاة بعد العمل الصّالح في الدّنيا، بحال المسافر لتجارةٍ حين يرجعُ إلى أهله سالمًا رابحًا، لِما في الهيئة المشبَّه بها مِن وفرة المسرّة بالفوز والرِّبح والسّلامة ولقاء الأهل وكلُّهم في مسرَّة، فذلك وجه الشَّبه بين الهيأتين وهو السّرور المألوف للمخاطبين، فالكلام

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 260.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 21/ 340.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 261.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 222.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 340.

استعارةٌ تمثيليَّةٌ. وهو أيضًا كنايةٌ عن طول الرّاحة؛ لأنَّ المسافر إذا رجع إلى أهله بعد السّفر فارق مَتاعبَه[1].

بلاغةُ ﴿إِلَىٰٓ﴾ وأثرُها النَّفسيُّ:

انتهاءُ المؤمن إلى أهله بالبشارة

يدلّ حرف ﴿إِلَىٰٓ﴾ في قوله تعالى ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾ على انتهاء الغاية. فالمؤمن الّذي يحاسَب حسابًا يسيرًا ينتهي إلى أهله في المحشر مبشِّرًا لهم بفوزه العظيم، وداعيًا لهم إلى قراءة كتابه فرحًا به كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩﴾ [الحاقة: 19].

توجيهُ المقصودِ بالأهل:

خُصوصُ الأقاربِ أو عُمومُ المؤمنين

يجوز أن يُقصد بلفظ ﴿أَهۡلِهِۦ﴾ الوارد في قوله تعالى: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾، المعنى الخاصُّ، أي: عشيرتُه المُؤمنون وهُم الأقارب المُسلمون. وهذا المُتَبادرُ عند إطلاق الأهل، ويجوز أن يُقصدَ به فريقُ المُؤمنينَ، فالأهل بمعنى الأتباع مُطْلَقًا - الأقارب أو غيرهم - لاشتراكهم في الإيمان. وقيل المقصود: (أهله في الجنّة مِن الحور)، وهذا بعيدٌ؛ لأنّ إيتاءَ الكتابِ وسُهولةَ الحسابِ قبل دخول الجنَّة[2].

دلالة الحاليّة في لفظ ﴿مَسۡرُورٗا﴾:

السّرورُ خلوٌّ من الحزن وامتلاءٌ بالفَرَح

وُصف المؤمنُ في الآية بالوصف ﴿مَسۡرُورٗا﴾، وأصلُه الخلوُّ مِن الحزن[3]، وموقعُه حالًا في الجملة يدُلُّ على أنَّ المؤمنَ يرجعُ بعد العرض إلى أهله في حالةِ ابْتِهاجٍ واسْتِبْشارٍ، لكونه مِن أهل النّجاة، وغبطةٍ بما أوتيَ من الخير والكرامة، داعيًا النّاسَ إلى قراءةِ صحيفةِ أعمالِه كما وصفَ اللّه حالَه بقوله: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 222.
(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 167.
(3) الرّاغب، المفردات: (سرر).

بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ٢٠
فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ٢٢﴾ [الحاقة: 19 - 22].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السُّرور والحُبور والفَرح:

السّرورُ فرحٌ في خَفاءٍ، والحُبورُ فرحٌ في ظُهور

يتقارب كُلٌّ مِن لَفظَي (السّرور) و(الحبور) تقاربًا دلاليًّا، فكُلُّ لفظٍ منهما دالٌّ على لَذَّةٍ تحصُلُ في القلب عند حصولِ نفْعٍ، أو توقُّعِه، أو اندفاعِ ضرَرٍ. ويُفرَّق بينهما بأنّ السّرورَ هو الخالصُ المُنكَتِمُ، والحبور: هو ما يُرى حِبْرُهُ - أي أثرُه - في ظاهرِ البشَرة، وهما مُستعملان في المحمود، ويكونان عن القوّة الفكريّة. أمّا الفرَح فهو: انشراحُ الصَّدر بلَذَّةٍ عاجلة، وأكثرُ ما يكون ذلك في اللّذّات البدنيّة الدّنيويَّة.

ومن هنا فاستعمال السُّرور في هذه الآية لكونه يختصّ بالقلوب، فهو فرحٌ خالصٌ خفيٌّ، يظهر أثرُه بِشرًا وحُبورًا، وهو يُناسبُ حالَ المؤمن المُبشَّر في الجنَّة.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ [الانشقاق: 10 - 15]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

لمّا فصَّلت الآياتُ حال النّاس يوم القيامة بذكر حال أهل السّعادة واليُمن، ناسب ذلك ذِكرُ حال الفريق الثّاني مِن أهل الشَّقاوة والشُّؤم تكميلًا للتَّقسيم.

تكميلُ التَّقسيم بـذِكـر أهـلِ الـشّمـال بَعدَ ذِكر أهل اليمين

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ثُبُورًا﴾: (ثبر) أصلٌ يرجعُ إلى الهلاك والفساد؛ ورجلٌ مثبورٌ: هالك. وفي كتاب اللّه تعالى: ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان: 13]، وأمّا قولُه تعالى: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: 102]، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: (يعني ناقص العقل)، ونُقصانُ العَقلِ أعظمُ هلاكٍ.[1] والمعنى في الآية أنَّ مَن أوتي كتابَه مِن غير يمينِه عَلِم أنَّه مِن أهل النّار فيقول: "وا ثبوراه!". وقد يكون الثّبور مُشتقًّا من المُثابَرة على شيءٍ، وهي المواظَبة عليه، فسُمّي هلاكُ الآخرة ثبورًا؛ لأنّه لازمٌ لا يزول، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ [الفرقان: 65][2].

2) ﴿وَيَصْلَىٰ﴾: مضارع (صلي)، وأصله النّارُ وما أشبهَها مِن يُقال: صَليت العودُ بالنّار. واصطليت بالنّار. والصِّلاء: ما يُصطَلى به وما يُذكى به النّارُ ويوقَدُ. وصَلَيْتُ اللّحم، أي: شويته، وأصلاه النّارَ وصلاه صَلْيًا أدخله إيّاها وأثواه فيها، والمعنى: نُدخِلُه فيها فيلاقي حَرَّها وشِدَّتَها[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، مفردات في غريب القرآن: (ثبر).
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 99.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (صلي - صلا- صلى).

3) ﴿ظَنَّ﴾: تدلّ مادَّةُ (ظنن) على معنيين متناقضين: يقينٌ وشَكٌّ[1]. وهو لِما يحصل عن أمارة، ومتى قويَت أدَّت إلى العِلم، ومتى ضعُفت جِدًّا لم يتجاوز حَدَّ التَّوَهُّم. والظَّنُّ في كثيرٍ مِن الأمور مذمومٌ[2]، وجمعه: ظُنون، وأظانين. والظِّنّة: التّهمة. ويقال: رجلٌ ظَنونٌ: مُتَّهمٌ في عقله، أو خَبَره؛ والظَّنُّ أيضًا إدراكُ الشَّيءِ مع ترجيحه[3]. وهو بهذا المعنى يُنافي اليقينَ، مِن حيثُ كَونُه ترجيحًا لأحَد طَرَفي الحُكم على آخر مِن غير قطع، فيكون بمعنى الحُسبان، وهو معنى اللَّفظ في الآية[4].

4) ﴿يَحُورَ﴾: مِن معاني هذه المادَّة الرُّجوعُ[5]، وأن يدورَ الشَّيءُ دَورًا، والعَربُ تقول: "الباطل في حَوْر"، أي: رجوعٍ ونقصٍ، وكُلُّ نقصٍ ورجوعٍ حَوْرٌ. والحَوْر: مصدرُ حار حَوْرًا إذا رجع[6]. والحَور أيضًا التَّرَدُّدُ إمّا بالذّات، وإمّا بالفكر، وجاء في الحديث: «اللّهُم إنّي أعوذُ بك مِنَ الحَوْرِ بَعدَ الكَوْرِ»[7]. أي: مِن التَّردُّد في الأمر بعد المُضيِّ فيه، أو مِن نُقصانٍ وتردُّدٍ في الحال بعد الزّيادة فيها، أو مِنَ الرُّجوع إلى الكفر بعد الإيمان. ويُقال: حارَ بعد ما كارَ[8]. ومعنى الحور في الآية الرُّجوع[9].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

حـــالُ أهــلِ الـشَّـقـاوة يـوم الـقـيـامـة خـيـبـةٌ وندامةٌ

أخبَرَ ربُّنا سبحانه أنّ مَن أُعطي صحيفةَ أعماله مِن وراء ظَهره،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظنّ).
(2) الرّاغب، المفردات: (ظنّ).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ظنّ).
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 242، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 100.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حور).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (حور).
(7) أخرجه مسلم: (1343).
(8) الرّاغب، المفردات: (حور).
(9) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 242، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 100.

وهو الكافر باللّه تعالى، فسوف يدعو بالهلاك والثّبور، ويدخل النّار مُقاسيًا حَرَّها، فقد كان في أهله في الدُّنيا مسرورًا مغرورًا، لا يُفكِّر في العواقب، وظنَّ أن لن يَرجِعَ إلى خالِقه حيًّا للحساب، أو حَسِبَ أن لن يرجِعَ إلى خلاف ما هو عليه في الدّنيا من السّرور والتّنعّم. لكنّ اللّه تعالى سيُعيدُه كما بدأه ويجازيه على أعماله، إنّ ربّه كان به بصيرًا عليمًا بحاله مِن يوم خَلَقه إلى أنْ بَعَثه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ وصلِ الآية بما قبلها بالواو:

عطفُ حالِ الكافرين على حالِ المؤمنين يوم الدّين

عُطفَ قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ على ما قبلَه بحرف الواو الدّالِّ على الجمع والاقتران، فلمّا ذكَرَ النَّظمُ الكريم أهلَ السَّعادة مِن المؤمنين الّذين يُؤتَون كتابَهم باليمين، عَطَفَ عليهم ذِكرَ أهل الشّقاوة مِن الكافرين الّذين يُؤتَون كتابَهم وراء الظَّهر. وهذا مِن كمال الاتِّصال الَّذي يظهر به حالُ الفريقَين وبَونُ جزاء كلٍّ منهما بين النَّعيم المقيم، والعذاب الأليم.

دلالة تَكرار حرف التَّفصيل (أمّا):

حَظُّ قَدْرِ أصحاب الشّمال

تكرارُ حرف التَّفصيل (أمّا) في قوله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ هو لتفصيل الإجمال الّذي في قوله: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾، فجميعُ النّاس راجعون إلى اللّه سبحانه، وكما أوتي المؤمنُ كتابَه باليمين، أوتي الكافِرُ كتابَه بالشِّمال، وبين مُنتهاهُما مراتبُ، وإنّما جاءت هذه الآيةُ على اعتبار تقسيم النّاس يومئذ بين أتقياء ومشركين[2]. وأفاد هذا الحرفُ أيضًا الحطَّ مِن قدر أصحاب الشّمال مِن الكافرين، بلحاظ دلالته على توكيد الكلام وتقويته[3].

(1) نخبة مِنَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 589.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 222.
(3) بهاء الدّين السُّبكيّ، عروس الأفراح: 1/ 130.

وجهُ التَّعبيرِ بالموصول الاسميِّ ﴿مَنۡ﴾:

من صوَرِ قُبح المَنظرِ إيتاءُ الكتاب وراءَ الظَّهر

أوثِرَ استعمال الموصول ﴿مَنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ والدّالِّ على العاقل المكلَّف؛ لكونه المحاسَبَ على أعماله والمُجازَى عليها. والنُّكتةُ في إيثار الاسم الموصول دون الاسم الظّاهر أنَّه يسمح بوصفه بجملة الصّلة، وقد أفاد النَّظمُ بهذه الصّلة وصفَ أهلِ الكُفرِ بإيتاء الكتاب وراءَ الظَّهر، إشارةً إلى كونِهم مِن أهلِ الشَّقاوة والخُسران.

سِرُّ إيثارِ لفظ الإيتاء دون الإعطاء:

إيتاء الكتاب للكافر وإن أبى هو ذلك

أوثر التّعبيرُ بفِعل الإيتاء في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ دون فِعلِ الإعطاء، لِكَونِه أقوى مِن الإعطاء، فالإيتاء لا مُطاوِعَ لفعله، فتقول: آتاني شيئًا فأخذتُه، بخلاف الإعطاء فإنَّ له مُطاوِعًا، فتقول: أعطاني شيئًا فعَطَوْتُه، والمتقرِّر أنَّ ما له مطاوعٌ مِن الأفعال أضعفُ في إثبات مفعولِه ممّا لا مطاوع له. كما أنّ الإيتاء يُستعمل للشّيء العظيم الشّأن، ولهذا ورد في إيتاء القرآن الكريم، والتّوراة، والمُلك، والرّحمة، بخلاف الإعطاء فلم يُستَعمل في ذلك[1].

ويجوز أن يدلّ لفظُ الإيتاء ههنا على التَّيسير والتَّسهيل، فهو بغاية السُّهولة وإن أبى الكافرُ ذلك[2]؛ وِفاقَ اعتراض الزّبيديِّ التَّوجيه السّابق؛ لأنّ القاعدة الَّتي ذُكرتْ في المطاوعة لا يكاد ينسحب حُكمُها على كُلِّ الأفعال، بل الَّذي يظهر خلافُه، فإنَّ الإعطاء أقوى مِن الإيتاء، ولذا خُصَّ في دفع الصدقاتِ الإيتاءُ؛ ليكون ذلك بسهولةٍ مِن غير تَطَلُّعٍ إلى ما يَدفَعُه، وتأمَّلْ سائِرَ ما ورد في القرآن يُؤَكِّد هذا المعنى، ومِن ذلك لفظ (الكوثر)؛

(1) محمد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 27 - 29.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 343.

لمّا كان عظيمًا شأنُه غيرَ داخلٍ في حيطة قدرةٍ بَشَريَّةٍ استُعمل الإعطاءُ فيه[1].

والبناء للمفعول دليلُ يُسرِ الإتيان مِن اللّه تعالى، فضلًا عن الإهمال له والحطِّ مِن قدره. ثم إنّ الإيتاء باليمين كما كان تفضُّلًا مِن اللّه تعالى فإيتاؤه للكافر وراء ظهره واجبٌ جزاءً وِفاقًا لإنكاره وجحوده.

دلالة صوغ ﴿أُوتِيَ﴾ ماضيًا مبنيًّا للمفعول:

يومُ القيامة آتٍ لا محالة

عُبِّر بالفعل ﴿أُوتِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ ماضيًا وليس مستقبلًا مع أنَّ السّياق هو في ذِكر الحساب المستقبليِّ يوم القيامة، للدِّلالة على التَّحقُّق، فهو آتٍ لا محالة، وهذا نظيرُ قولِه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١﴾ [النحل: 1][2].

اللّه تعالى هو المتفرِّدُ بمحاسبة عباده

وبُني الفعل ﴿أُوتِيَ﴾ للمفعول، ولم يُصرَّح بالفاعل للإيجاز، لوضوحه مِن السّياق، وهو اللّه سبحانه، فهو وحدَه مَن يحاسِب عبادَه ويُجازيهم عَن أعمالهم، مَعَ ما فيه مِن التَّركيز على الفعل في حَدِّ ذاتِه وهو الإيتاءُ، دون التَّعرُّض للفاعل، ومعلومٌ إذا كان الكلامُ منصبًّا إلى غَرَضٍ مِن الأغراض جُعِلَ سياقُه له وتوجُّهُه إليه، كَأنَّ ما سواه مرفوضٌ مُطَّرَحٌ[3].

سِرُّ إيثارِ لفظ (الكتاب) دون غيره:

أعمالُ بني آدم مكتوبةٌ محفوظةٌ مجموعةٌ لا يَنقُصُ منها شيء

أوثر التَّعبير بلفظ ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ دون غيره كالصّحيفة مثلًا؛ لِنُكتة لَمْحِ أصل الاشتقاق، وهو الكتابة؛ فقد سَخَّر اللّه لِكُلِّ عَبدٍ مَلَكين عن يمينه

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (أتى).
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 260.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 254.

وشماله يكتُبان كُلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ مِن أعماله، والحِكمةُ في الكتابة - مع أنَّ اللّه سبحانه لا يخفى عليه شيءٌ - أنَّ المكلَّف إذا عَلِم أنَّ أعماله تُكتَب وتُعرَض على رؤوس الأشهاد كان أزجرَ عن المعاصي، وأنَّ العبدَ إذا وثِق بلُطفِ سَيِّده، واعتمد على عَفوِه وسَترِه لم يَحتشِم احتشامَه مِن خَدَمه المطّلعين عليه[1]. ثم إنّ الكتاب هنا يمثّل صحيفة أعمالِ الفرد الَّتي يُجمع فيها أعمالُه صغيرُها وكبيرُها، وهذا المعنى يتوافق مع أصل معنى الكتابة والكتاب وهو الجمع.

دلالةُ إضافة (الكتاب) إلى الضَّمير:

تحمُّلُ العبد تبعاتِ عَمَلِه صورةٌ لِعظيم عدلِ الله سبحانه

الإضافة في لَفظِ ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ على معنى اللّام، وهي مفيدةٌ للاختصاص، بمعنى أنَّ كُلَّ إنسانٍ يُؤتى صحيفةَ أعماله الخاصَّةَ به في يده اليُمنى أو اليُسرى بحسب أعماله، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ كُلَّ عبدٍ يتحمَّلُ تَبِعةَ أعماله بنفْسه، ولا ينوبُ عنه أحدٌ في ذلك، فلا تزِرُ وازرةٌ وزر أخرى.

نُكتةُ ذِكرِ عبارة ﴿وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ دون (بشماله):

ظهورُ جمالِ معاني الكتاب بالجمعِ بين آياته

قالَ رَبُّنا سبحانه في هذه الآية: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ وقال ﷻ في موضع آخر من القرآن: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ٢٥﴾ [الحاقَّة: 25]، فجمع العلماء بين الآيتين بوجهين مِن الجَمع:

أحدهما جمعُ الصِّفتين في كلِّ شخصٍ منهم، فيُحتَمل أن يُؤتى بشمالِه ووراءَ ظهره؛ لأنّه إذا حاول أخذَه بيمينه كالمؤمنين يُمنع مِن ذلك ويُؤتى مِن وراء ظهره بشماله.

وثانيها: أن يكون بعضُهم يُعطى بشماله، وبعضُهم مِن وراء ظهره[2].

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 377، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 260.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 99.

نكتة حذف (مِن):

لم يأت النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (مِن) الدّالِّ على ابتداء الغاية المَكانيَّة في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾؛ فلم يقل: (من وراء ظهره). وذلك أنّ الوراء هنا ظرفٌ متعلِّقٌ بـ﴿أُوتِيَ﴾ مستعمَلٌ في المكان[1]. والمراد أنّ مكانَ إيتاءِ الكتاب ومحلَّ تَحصُّله هو وراءُ الظَّهر المقابلُ للأمام. فهو المكان الَّذي يُتحصّل فيه الإيتاءُ ويستقرُّ. وليس المراد أنَّ مكان ابتداء الإيتاء - الَّذي تُفيده (مِن) - يكون مِن وراء الظَّهر. ثُمَّ إنَّه لو قيل (من وراء ظهره)؛ لكان تعبيرًا موهمًا؛ لأنَّه يحتمل أن يكون مكانُ الإيتاء مِن خلف الظَّهر ولكنَّ الإيتاء يحصُلُ مِن الأمام، بأن يكون المؤتي في الخلف ويناوله الكتاب أمامه فهذا يصدق عليه أنه آتاه مِن وراء ظهره، وليس هذا مرادًا.

الـوراءُ هو المكانُ الَّـذي يُتحصّلُ فيه إيتاءُ الكتاب

دلالةُ ذِكرِ (الظَّهر) دون (الوراء):

عُبِّر بلفظ (الظَّهر) في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ ولم يقل: (ورائه)، لأنَّ المُراد بذِكر الظَّهر تأكيدُ معنى (وراء) كقولهم (مِن وراء وراء)[2]. ففي الآخرة تُحوّلُ وجوهُهم الَّتي فيها العيونُ إلى ظهورهم وقَفاهم. كقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ [النساء: 47][3].

قُبح الهيئات في الآخرة مِن وجوه العقوبات

والكافرُ يُؤتى كتابَه مِن ورائه؛ لأنّ يديه مغلولتان، أو تُغلُّ يدُه اليمنى إلى عُنُقه وتُجعل يدُه الشِّمالُ وراء ظهره، أو تُخلع يدُه اليسرى فتجعل مِن وراء ظهره، فيُؤتى كتابَه بشماله مِن وراء ظهره، أي: إنَّ يده تدخلُ مِن صدره حتَّى تخرجَ مِن وراء ظهره، فيأخذَ كتابَه بها؛

(1) الخلوتي، روح البيان: 10/ 378.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 626.
(3) الأصفهانيّ، تفسير الرّاغب: 3/ 1263.

لأنَّه إذا حاول أخذَه بيمينه كالمؤمنين يُمنَعُ مِن ذلك ويُؤتى مِن وراء ظهره بشماله. فالوراء هاهنا بمعنى مجرَّد الجانب[1].

بلاغةُ الكناية في تعبير ﴿وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾:

مَنْ سنَّ سُنَّةَ سوءٍ سيُلاقي وِزْرَها، وقد يعاقَب بمثلها

في التَّعبير ﴿وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ كنايةٌ عَن السُّنَّة السَّيِّئَة الَّتي سَنّها في حياته، فعمِلَ بها بعد موته. تقول العرب: أظهرتُ بفلان أي فعلتُ بعده ما يفعله هو[2]. ففي يوم القيامة يقال له: خُذه مِن وراء ظهرك أي مِن الموضع الَّذي نبذتَه فيه في حياتك الدُّنيا[3]، فعملتَ ما لم يأذن به اللّه، وظننت أنَّ عملك مِن ورائه ممّا يخفى عليه سبحانه، فكان حقيقًا بأن تُغلَّ يمينُك إلى عنقك، وتكونَ شمالُك إلى وراء ظهرك، ويوضعَ كتابُك فيها[4]، فتظهرَ بهيئة الكارِه المُكرَه الخَزيان مِن المواجهة[5].

قُبحُ الوجوه مِن آثار الذُّنوب الَّتي تسبّب البغض

وفيه أيضًا كنايةٌ عن هوانِ الكافر على ربّه بعدم الالتفات إليه[6]، وتحقيرِه وإذلالِه، وإظهارِ الغضب عليه بحيثُ لا ينظُرُ مُناوِلُه كتابَه إلى وجهه[7]. لأنَّ مؤتي الكُتُبِ لا يتحمَّلون مشاهدة وجوههم لكمال بشاعتها، أو لغايةِ بُغضِهم إيّاهم، لنبذهم كتابَ اللّه تعالى وراء ظهورهم[8].

بلاغةُ الاحتباك في آيتَي إيتاء الكتاب:

السَّعيدُ مَحلُّ رِفقٍ ومَودَّةٍ، والشَّقيُّ محلُّ نبذٍ وإهانة

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ مِن الاحتباك، فذِكرُ اليمين أوَّلاً يدُلُّ

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 8/ 374، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 726، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 457، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 99، والنَّيسابوريّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 470.

(2) الكرمانيّ، غرائب التّفسير وعجائب التّأويل: 2/ 1322.

(3) الخلوتيّ، روح البيان: 10/ 378.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 343.

(5) رضا، تفسير المنار: 4/ 230.

(6) النّيسابوريّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 251.

(7) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 289.

(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 223.

على الشِّمال ثانيًا، وذِكرُ الوراء ثانيًا يدُلُّ على الأمام أوَّلًا، وسِرُّ ذلك أنَّه ذَكَر دليلَ المَوَدَّة والرِّفق بالمصافحة ونحوها في السَّعيد، ودليلَ الغدر والاغتيال في الشَّقيِّ"[1].

نُكتةُ تكرار لفظ (الكتاب):

تغايرُ الكتابين وتخالُفهما، بالاشتمال والحُكمِ في المآل

يُلاحظ تكريرُ لفظ ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ دونَ الاكتفاءِ بالإضمار بَعدَ ذِكرِه في الآية السّابقة ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾، والنُّكتةُ في ذلك تغايرُ الكتابين، وتخالُفُهما بالاشتمال والحُكمِ في المآل؛ فشَتّان بين كتابٍ يوصِلُ صاحبَه إلى الجِنان والرِّضوان، وكتابٍ يُردي صاحبَه في النّيران وسخط الرَّحمن[2].

نوع الفاء ودلالتها في قوله ﴿فَسَوْفَ﴾:

أخذُ الكتاب وراء الظَّهر، مدعاةٌ للنَّدم والحَسَر

الفاء في قوله تعالى ﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا﴾ رابطةٌ لجملة جواب الشَّرط بجملة الشَّرط، وذلك لأنّ حرف (أمّا) مِن قوله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ متضمِّنٌ معنى الشَّرط؛ ولذا يقترن جوابه بالفاء للرّبط بين الفعل والجزاء، وتنبيهًا على حصول الثّاني بحصول الأوّل.

دلالة استعمال (سوف):

تحقّقُ النَّدامة، واستمرارُ الحسرة

الأصلُ في استعمال الحرف (سوف) الوارد في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا﴾ دلالتُه على حصول الفعل في المستقبل، والأكثرُ أن يُرادَ به المستقبلُ البعيدُ، وهذا هو الشّائع، ويُقصَدُ به في الاستعمالِ البليغِ تَحَقُّقُ حصولِ الفعلِ واستمرارُه، فهو هنا مفيدٌ للتَّحَقُّق والاستمرار بالنِّسبة إلى الفعل القابل للاستمرار وهو: ﴿يَدْعُواْ ثُبُورًا﴾؛ إذ هو المقصودُ مِن هذا الوعيد[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 343.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 378.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 222.

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿يَدۡعُواْ﴾ مضارعًا:

في نداء الخائب تحسُّرٌ وتوجّعٌ

أوثر في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا﴾ استعمالُ لَفظ ﴿يَدۡعُواْ﴾، والمقصود بالدُّعاء هنا النِّداء، أي: ينادي الثّبورَ بأن يقول: يا ثبوري، أو يا ثبورا، كما يقال: يا ويلي ويا ويلتنا. والنِّداءُ في مثل هذه الكلمات مستعملٌ في التَّحسُّر والتَّوجُّع مِن معنى الاسم الواقع بَعدَ حرف النِّداء[1].

دوامُ معاناة الكُفّار في النّار

وعُبِّرَ بالفعل ﴿يَدۡعُواْ﴾ بصيغة المضارع دون غيرِه مِن الأزمنة لما يُفيده المضارعُ مِنَ الثُّبوت والدَّوام والاستمرار، وفي ذلك دلالةٌ على استمرار الكُفّار في تَحَسُّرِهم بتَكرار مناداة الويل والثُّبور في جهنَّم كما أخبر عنهم اللّه سبحانه بقوله: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ١٤﴾ [الفرقان: 13 - 14].

سِرُّ إيثارِ لَفظ ﴿ثُبُورٗا﴾ دون (هلاكًا):

هلاكُ الآخرة ثبورٌ؛ لأنَّه لازمٌ لا يزول

عُبِّر في قوله تعالى ﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا﴾ بلفظ ﴿ثُبُورٗا﴾، وهو الهلاك، والمعنى أنّه لَمّا أوتي كتابَه مِن غير يمينه عَلِم أنَّه مِن أهلِ النّار فيقول: (وا ثبوراه)، وقيل: الثُّبور مُشتَقٌّ مِن المُثابَرة على شيء، وهي المواظَبةُ عليه فسُمّي هلاك الآخرة ثبورًا؛ لأنّه لازمٌ لا يزول، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ٦٥﴾ [الفرقان: 65] وأصل الغرام اللّزومُ والوُلوعُ[2]. أمّا الهلاك فمصدرٌ دالٌّ على الحدث المجرّد من معنى الملازمة. وسُمّي المواطَأةُ على الشَّيء مثابرةً؛ لأنَّه كأنَّه يريد أن يُهلك نفسَه في طلبه[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 224.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 99.
(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 470.

بلاغةُ الكناية في قوله: ﴿يَدۡعُواْ ثُبُورٗا﴾:

الدُّعاءُ بالثُّبور صفةُ المَعَذَّبين في النّار

تضمَّنَ قولُه تعالى ﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا﴾ فنًّا مِن فنون البيان مِن نَوع الكناية، فقوله ﴿يَدۡعُواْ ثُبُورٗا﴾ كنايةٌ عَن صفة دخول جهنَّم، ووجهُ ذلك أنَّ قولَ مَن أوتي كتابَه وراء ظهره: (يا ثبوراه) لازِمُه أنَّه مِن أهل النّار وأنَّه مُخَلَّدٌ فيها، ولا شَكَّ أنَّ هذا قولُ المخذولِ الكاره لِما عُرض عليه[1].

بلاغةُ المجاز في الآية:

تمنّي الكفّارِ الهلاكَ في جهنّم ولا يجدونه

حمَلَ بعضُ العلماء قَولَه تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا﴾ على المجاز، ففَسّروا الدُّعاء بالتَّمنّي؛ إذ الخلود متيقَّنٌ لهم فالدُّعاء مستحيلٌ في الواقع، فيُحمل الدّعاءُ عَلَى التَّمنّي مَجازًا بجامع الطَّلَب، أو أنَّه استعارةٌ، ويجوزُ أن يكون مَجازًا مرسلًا؛ إذ الطَّلب يلزم الدّعاء، فيُرادُ به مطلقُ الطَّلب ثمَّ يُرادُ به طلبُ التَّمنّي؛ لكونه فردًا مِن مطلق الطَّلب أو مَجازًا بعلاقة الإطلاق والتَّقْييد[2].

وَجهُ العطفِ بالواو في قوله: ﴿وَيَصۡلَىٰ﴾:

دَعا بالثُّبور؛ لأنّ عاقبتَهُ صَليّ في الجحيم

عُطف قولُه تعالى: ﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا﴾ على ما قبله بحرف الواو الدّالِّ على الجمع والاقتران، فالكافرُ الّذي يُؤتى كتابَه وراء ظهره يدخلُ جهنَّمَ ويقاسي حَرَّها وعذابَها مِن غير حائلٍ، وهذا يدُلُّ على أنَّ دعاءهم بالثّبور قبل الصَّلي، وأمّا قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ١٤﴾ [الفرقان: 13 - 14]. فيدلُّ على أنّه بعده، ولا منافاة في الجمع، فإنّهم يدعونه أوَّلًا وآخرًا بل دائمًا على أنَّ الواو لمطلق الجمع لا للتّرتيب[3]. وتوجيهُ هذا العطف أنَّه لمّا كان الدُّعاءُ بالثُّبور

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 262.

(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 167.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 262.

لا يكون إلّا لبلاء كبير، أتبعه ما يمكن أن يكون عِلَّةً له وهو الصَّليُ في النّار[1].

دلالةُ التَّعبير بصيغة المضارع (يصلى):

يـوم القيامة هـو اليـوم الموعودُ لحساب الخلائق

صيغَ الفِعلُ (يَصلى) في قوله تعالى: ﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا﴾ مضارعًا؛ للدِّلالة على الاستقبال إذ مَحِلُّ مجازاة الكافر بصَلْيِ النّار يومُ القيامة، فهو اليومُ الموعودُ لحسابِ الخلائق، وهو نظيرُ قَولِه تعالى: ﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥﴾ [الانفطار: 15]. وفي المضارع أيضًا دلالةُ دَيمومةِ هذا الصَّلْي، واستمرارُه في جَهنَّم. ودوامُ العذاب عقابٌ أشدُّ، وجزاءٌ أنكى.

سِرُّ إيثار لفظة (يصلى) دون (يدخل):

الصّليُ مخصوصٌ بدخول النّار دون غيرها

أوثر الفعل (يصلى) في قوله تعالى: ﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا﴾ دون ما يُقاربه كـ (يدخل) مثلًا؛ لكونه يختصّ بدخول النّار دون غيرها، وهذا لملاحظة مَلْمَحِ اشتقاقه من مادَّة (صلي)، وأصلها النّار وما أشبهَها من الحُمَّى، يُقال: صَلَيْتُ العودَ بالنّار، واصْطَلَيْتُ بالنّار، وصَلَيْتُ اللّحمَ، أي: شويته، وأصلاه النّارَ، وصلاه صَلْيًا أدخلَه إيّاها وأثواه فيها، فيَدلُّ على الدُّخول ومقاساة حَرِّ جهنّم وشِدَّته[2].

توجيهُ القراءات في ﴿وَيَصۡلَىٰ﴾:

من أهوال جهنّم شدّةُ العذاب ودوامُ العقاب

تَنَوَّعت القراءةُ في قوله تعالى ﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا﴾، فقرأ نافعٌ، وابنُ كثير، وابن عامر، والكسائيُّ بضَمِّ الياء وفتحِ الصّاد وتشديدِ اللّام ﴿وَيُصَلَّىٰ﴾، وقرأ الباقون بفتح الياء وإسكان الصّاد وتخفيف اللّام ﴿وَيَصۡلَىٰ﴾[3].

والحُجّةُ لِمَن شَدَّد اللّام أنَّه أراد دوام العذاب عليهم، من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 344.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلي)، وابن منظور، لسان العرب: (صلا).
(3) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 399.

المضاعَف (صلّاه) إذا أحرَقَه. ودليله قوله: ﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ٩٤﴾ [الواقعة: 94] لأنَّ وزنَها: (تفعِلة)، و(تفعِلة) لا تأتي إلّا مصدرًا لـ(فعّل) بتشديد العين كقولك: عزّيته تعزيةً. والحُجّة لمن خفّف اللام أنّه أخذه مِن (صلي) اللّازم، بمعنى مَسَّته النّار. ودليله قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ ١٦٣﴾ [الصافات: 163]، و﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥﴾ [الانفطار: 15][1]. ولا يخفى ما في التّشديد من المبالغة في الصّلي فعلًا وديمومةً.

بلاغةُ استعمالِ مُفردة ﴿سَعِيرًا﴾:

تـعـدُّدُ أوصـاف النّار بما يناسبُ الـسّـيـاقَ مِـن الوعيد

في قولِه تعالى ﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا﴾ أوثر إطلاقُ لفظ السَّعير على النّار، ومعناه الالتهاب، وهو (فعيل) بمعنى (مفعول)، أي: مسعور، للدّلالة على زيادة الوقود في النّار، وهو معامَلٌ مُعاملة المُذكَّر، لأنَّه مِن أحوال اللهب، كما في قولِه تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ٩٧﴾ [الإسراء: 97]. وقد يُطلَقُ عَلَمًا بالغلبة على جَهنَّم وذلك على حذف مضاف، أي: (ذاتُ سعير).

علّةُ فصلِ جملة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ عن سابقه:

تـعـلـيـلُ صَـلـيِ الـسَّـعـيـر في الآخـرة بـركـوب المعاصي في الدّنيا

وَرَدَت الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ مفصولةً عَن الجملة قبلها ﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا﴾ لأنَّ بينهما ما يُسَمَّى في البلاغة بـ(شبه كمال الاتّصال) وهو كونُ الجملة الثّانية قَويَّة الارتباط بالأولى؛ لوقوعها جوابًا عن سؤال يُفهم مِن الجملة الأولى، فتُفصل عنها كما يُفصل الجواب عن السّؤال[2]. وكأنَّ سائلًا يسأل: ما سببُ صلِّيه بالسَّعير، ونيلِه تلكَ العُقوبةَ؟ فجملة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ تعليلٌ لجملة ﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا﴾؛ إذ علّل سبحانه ما يُلاقيه الكافر في الآخرة بأنّه كان في الدُّنيا مسرورًا

(1) ابن خالويه، الحجّة في القراءات السّبع، ص: 366، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 224.
(2) الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 180.

بركوب المعاصي والغفلة عن الآخرة[1]. أي لمّا ذكَرَ هذا العذاب الَّذي لا يُطاق، أتبَعَه سَبَبَه ترهيبًا منه واستعطافًا إلى التَّوبة وتحذيرًا مِن السُّرور في دار الحزن[2].

غَرَضُ جُملة التَّوكيد في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾:

التّعجيبُ مِن انـقـلاب حـال الكفّار

جاء الخبر في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ مُؤَكَّدًا بحرف التَّوكيد (إنّ)، والنُّكتةُ في تأكيده: التَّعجيبُ مِن حالِهم كيفَ انقلبت مِن ذلك السُّرور الّذي كان لهم في الحياة الدّنيا المعروف مِن أحوالهم بما حُكي في آيات كثيرة مثل قوله: ﴿أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾ [المزمل: 11]، وقوله: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١﴾ [المطفّفين: 31]؛ فآلوا إلى ألَم النّار في الآخرة حتّى دَعَوا بالثّبور[3]. والتَّنبيه على أنَّه لا ينبغي للعاقل التَّصديقُ بثبوت السُّرور ودوام الحبور في الدُّنيا[4].

دلالة ذِكرِ ﴿كَانَ﴾:

اتّـصـافُ الكافر بـالـرّكـون إلى الحياة الدّنيا

ورَدَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ الفعلُ النّاقص ﴿كَانَ﴾، ويجوز أن يكون على بابه مِن الدِّلالة على اتِّصاف المُسند إليه بالمسند في الماضي، بمعنى أنَّ الكافر كان مسرورًا في حياته الدُّنيا[5]. ويجوزُ أن يكون دالًّا على الدَّوام حتَّى صار الوصف كالجبلّة له والطَّبع، فحالُ الكافر في الدّنيا أنّه بطِرٌ بماله وجاهِهِ فارِغٌ عن الآخرة[6].

بلاغة استعمال حرف الظَّرفيَّة:

يدُلُّ حَرفُ ﴿فِيٓ﴾ مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ على الظَّرفيَّة المكانيَّة، أي (فيما بين أهله وعشيرته أو معهم)،

(1) درويش، إعراب القرآن: 6/ 104.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 344.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 224.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 344.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 263.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 344، والقونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 168.

كما يقال: (جاءني فلانٌ في جماعة)، أي: معهم. وفيه إيماءٌ إلى الاستغراق في الملذّات معهم، منغمسًا فيها بينهم.

دلالةُ التَّعبير بلفظ الأهل مضافًا إلى الضَّمير:

اشتغال الكفّار بالدّنيا عن الآخرة أوردَهم المَهالك

الإضافة في قوله تعالى: ﴿أَهْلِهِۦ﴾ على معنى اللّام، وهي مفيدةٌ للاختصاص، بمعنى أنَّهم جميعًا كانوا مسرورين لا يفكِّرون في أمور الآخرة، ويُقدِمون على المعاصي ظَنًّا منهم أنَّ لذّاتِها لا توجب الحسرة، ولا تورث التَّردّي في النّار(1). وقد يُراد بتعبير ﴿فِيٓ أَهْلِهِۦ﴾ الكنايةُ عن دار العمل(2).

غَرَضُ تقديم ﴿فِيٓ أَهْلِهِۦ﴾ على ﴿مَسْرُورًا﴾:

شتّانَ بين مَن يلقى الصَّحيفةَ مسرورًا، ومَن يلقاها مثبورًا

في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ قُدِّمَ شِبهُ الجُملة ﴿فِيٓ أَهْلِهِۦ﴾ على الخبر ﴿مَسْرُورًا﴾ لِنُكتَة الموازنة بين مصير المؤمن ومصير الكافر، إذ لمّا ذَكر النَّظمُ أنَّ المؤمن ينقلب إلى أهله في المحشر مسرورًا بصحيفة أعماله ذَكَر هنا أنَّ الكافر يُلاقي السَّعيرَ بعد أن كان في الدُّنيا في أهله مسرورًا، فضلًا عمّا في تأخير ﴿مَسْرُورًا﴾ مِن مراعاة الفواصل(3).

بلاغةُ التَّعريض في الآية:

لا يُجمع على العبد في الآخرة خوفان ولا أمنان

تُظهرُ هذه الآيةُ البونَ البعيدَ بين حال المؤمن وحال الكافر، فالكافرُ كان في أهله مسرورًا أي مُنَعَّمًا مستريحًا مِن التَّعب بأداء العبادات واحتمالِ مَشقَّة الفرائض مِن الصّلاة والصّوم والجهاد، مُقْدِمًا على المعاصي، محفوفًا بشهواته، آمنًا مِن الحساب والثَّواب والعقاب، لا يخافُ اللّه ولا يرجوه، فأبدَله اللّه بذلك السُّرور الفاني غمًّا باقيًا لا ينقطع، وكان المؤمنُ الّذي أوتي كتابَه بيمينه متَّقيًا مِن

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 263.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 344.
(3) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 168.

المعاصي غير آمن مِن العذاب ولم يكن في دنياه مسرورًا في أهله فجعله اللّه في الآخرة مسرورًا فأبدله اللّه تعالى بالغمِّ الفاني سرورًا دائمًا لا ينفد[1].

بلاغة الاحتباك في الآية:

حُفّت الجَنّة بالمكاره، وحُفّت النّار بالشّهوات

الكلام في هذه الآية وسابقاتها مِن الاحتباك؛ فذِكرُ الحساب اليسير الّذي هو الثّمرة والمُسبَّب أوَّلًا يدُلُّ على حذفِ ضِدِّه ثانيًا، وذِكرُ السُّرور في الأهل الَّذي هو السَّبب في الثّاني يدُلُّ على حذف ضِدِّه في الأوّل، وهو المشقَّة الدُّنيويّة ومحاسبةُ النَّفس، المؤدّيان إلى السّعادة الأبديَّة[2].

عِلّةُ فصلِ قولِه: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ﴾:

صَليُ الكافرِ السّعيرَ بظَنِّه عَدَمَ الرُّجوع إلى رَبِّه

فُصلت جملة ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ عَن الجملة قبلها لأنّها وقعت موقع التّعليل لمضمون جملة: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾، فالمعنى: يصلى سعيرًا لأنَّه ظَنَّ أنّه لَن يَرجع إلى الحياة بعد الموت، فهو يُكَذِّبُ بالبعث. وحرف (إنّ) في مِثل هذا النّوع مِن الجُمل مغنٍ عن فاء التّعليل، قال عبد القاهر: "حتَّى إذا جئتَ إلى (إنَّ) فأسقطتَها، رأيتَ الثّاني منهما قد نَبا عن الأولِ، وتجافى معناه عن معناه، ورأيْتَه لا يتَّصلُ به ولا يكونُ منه بسبيلٍ، حتَّى تجيءَ (بالفاءِ)... ثم لا ترى (الفاء) تعيد الجملتين إلى ما كانتا عليه مِنَ الأُلفة، ولا تردُّ عليك الّذي كنت تجد بـ (إنَّ) مِن المعنى"[3].

بلاغةُ التَّوكيد في قوله: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ﴾:

التّعجيبُ مِن ظَنّ الكافر عدمَ الرّجوع إلى ربّه

جاء الخبر في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ مُؤَكَّدًا بحرف التَّوكيد (إنّ)، والنُّكتةُ في تأكيده التَّعجيبُ مِن حال الكافر الّذي

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 100.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 344 - 345.
(3) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 316، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 224.

ظَنَّ أن لن يرجع إلى ربّه، وأنّه لن يبعثَ الخلقَ لحسابهم على ما قدّموا، ولو عَلِم أنَّ الله يُبدِلُ سرورَه حزنًا وغمًّا لأقلع عمّا هو فيه، ولَتَرك هذا السّرورَ العاجل السَّريعَ الفناء، وطَلَب مِن السّرور ما يبقى ما بقيت الجنّة الّتي لا يَفنى نعيمُها، ولا يزولُ سرورُ أهلِها[1]. وفي التَّوكيد أيضًا تعليلٌ لثبات السُّرور، وتنبيهٌ على أنَّه لا يُصدَّقُ أنَّ أحَدًا يُنكر البعث مع ما له مِن الدَّلائل الَّتي تفوتُ الحصر[2].

نُكتةُ استعمال فعل الظَّنِّ ماضيًا:

بُطلانُ حُسبان الكفّار بعدم البعث والنُّشور

عُبِّر بفعل الظَّنِّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ الدّالِّ في أصل اللُّغة على معنَيَيْنِ مُختلِفَين: يقينٍ وشَكٍّ[3]. وحَمَله بعضُهم في هذه الآية على اليقين، أي إنَّ الكفّار أيقنوا بعدم البعث كقوله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ [النحل: 38]، والرّاجحُ حَملُه على بابه من الحُسبان، فالكفّار المتّبعون لشهواتهم، السّاعون وراء لذّاتهم، ليسوا بظانّين فضلًا عن أن يكونوا مستيقنين بأنّهم يرجعون إلى ربِّهم ليحاسبهم، بل الرّاجحُ عندهم: أنّهم لا يحاسبون، وأنّ الله سبحانه مُخلِفٌ وعدَه، وهذا هو الّذي يُنسيهم ذِكرَ الحساب والجزاء عِند كُلِّ جُرمٍ يُجرِمونه[4].

وعُبِّر بصيغة الماضي ﴿ظَنَّ﴾ دونَ غيرِه مِن الأزمنة للدِّلالة على الحال السّابقة للكافر الّذي يُؤتى كتابَه بشماله، وهي ظَنُّه في الدّنيا بأنَّه لن يرجع إلى رَبِّه بالبعث، فالإخبار عن الشّيء بصيغة الماضي يقتضي كونَ المخبَرِ عنه متقدِّمًا على ذلك الإخبار[5].

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 264.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 344 - 345.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ظن).
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 264.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/ 283.

نوع ﴿أَن﴾ ودلالتها:

إنكارُ البعث شأنُ الكافر مهما عَظُمتِ الدّلائل

حرف ﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ هي المؤكّدةُ المخفّفةُ مِن الثّقيلة، السّادَّة مع ما في حيِّزها مَسدَّ مفعولي ﴿ظَنَّ﴾ أو أحدهما على الخلاف المشهور؛ أي: ظنّ الكافر أنّ الشّأن والحال عدمُ رجوعه إلى ربّه للحساب والجزاء.

دلالةُ النَّفيِ بأداة ﴿لَّن﴾:

تأكيدُ النَّفي في المستقبل

عُبِّرَ بحرف ﴿لَّن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ في سياق حكاية جزم الكافر بعدم البعث والحساب، وقَطْعِه بنَفيه؛ لأنّ حرف ﴿لَّن﴾ موضوعٌ لِنفي المستقبل، والنّفيُ به آكدُ من النّفي بـ(لا)[1].

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿يَحُورَ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

الظَّنُّ بعدم الرّجوع قصورٌ في العقل والتَّفكير

لفظ ﴿يَحُورَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ من الحَوْر، وهو الرّجوع، والمَحار: المرجع والمصير؛ وهو رجوعٌ مخصوصٌ لِكونِه عودٌ إلى خلاف ما كان عليه المرءُ. وعليه فالمعنى: إنّه ظنَّ أن لن يرجعَ إلى الآخرة أي لن يُبعث، وحَسِب أن لا يرجع إلى اللّه تعالى، أو ظنَّ أن لن يرجع إلى خلاف ما هو عليه في الدُّنيا مِن السُّرور والتَّنَعُّم[2].

نُكرانُ المآل إلى الله تعالى ضلالٌ

وصيغَ الفعل ﴿يَحُورَ﴾ مضارعًا للدّلالة على الاستقبال بدلالة زمن الفعل، وقرينة دخول حرف ﴿لَّن﴾ الموضوع لنفي المستقبل، مع عدم إغفال معنى التَّجَدُّد والاستمرار في الفعل الدّالّ على دوام الظَّنِّ بعدم الرُّجوع مُستقبلًا إلى اللّه تعالى أو إلى خلاف ما هو عليه في الدُّنيا مِن السُّرور والتَّنعُّم. وهو مِن تمام الضَّلال، وخُسران الحال.

فائدة استعمال حرف الجواب ﴿بَلَىٰٓ﴾:

﴿بَلَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ حرفُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 01/ 342.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 242، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 100.

جواب، وموقعُه الاستئنافُ، ويُجاب به الكلامُ المنفيُّ لإبطال نفيه. ومعناه في هذه الآية: (بلى ليُبعثَنَّ، وإنّ اللّه تعالى يُبدلُ سرورَه بغمٍّ لا ينقطع، وتنعُّمَه ببلاءٍ لا ينتهي ولا يزول)(1).

ظنُّ الكافر بعدم البـعـث بـاطـلٌ وتنعُّمُه بالملذّات زائلٌ

علّة فصل قوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ﴾:

تـعـلـيـلُ إبـطـال ظنّ الكافر بعدم البعث

فُصلت جملة: ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا﴾ عن الآية قبلها لوقوعها جوابَ قَسَمٍ مُقدَّرٍ، والتَّقديرُ: (بلى لَيَحورَنَّ ولَيَرجِعَنَّ إلى رَبِّه حَيًّا كما كان قبل مماته)، أو لوقوعها موقع التَّعليل لِما أفادته ﴿بَلَىٰٓۚ﴾ مِن إيجابٍ لِما بعدَ ﴿لَّن﴾، والجُملةُ مبيِّنةٌ للإبطال الَّذي أفاده حرف ﴿بَلَىٰٓۚ﴾ على وجه الإجمال يعني أنّ ظنّه باطلٌ لأنّ ربّه أنبأه بأنّه يُبعث(2). وحرف ﴿إِنَّ﴾ في مثل هذا النّوع من الجُمل مغنٍ عن فاء التّعليل وفاق ما بَيَّنّا مِن قبل في تفسير قوله ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ﴾.

بلاغة التَّوكيد بـ ﴿إِنَّ﴾:

مَن لا يُبصِر ما حـالُـه؛ يَـتـردَّى مآلُه

جاء الخبر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا﴾ مُؤكَّدًا بحرف التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾، لردّ إنكار الكافر البعثَ الّذي أخبَرَ اللّه به على لسان رسوله ﷺ، والمعنى: (إنَّ رَبَّه عليمٌ بمآله). فآل المعنى الحاصل مِن حرف الإبطال ومِن حرف التّأكيد إلى بيان أنّ رَبَّه بصيرٌ به عليمٌ بحاله، وأمّا هو فغيرُ بصيرٍ بحاله كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة: 216](3).

براعةُ ذِكر عُنوان الرُّبوبيَّة:

إنـعـامُ الـرَّبِّ سـبـحـانـه على عباده يشمَلُهم جميعًا مؤمنَهم وكافرَهم

عُبِّرَ بلَفظِ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا﴾ دون سواه مِن أسماء اللّه وصفاته لِنُكتَةِ التَّذكيرِ بإنعام الرَّبِّ سبحانه على عباده أجمعين مؤمنِهم وكافِرِهم، وتقريعِ الكافر على كفره

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 100، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 225.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 243، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 423.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 100، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 225.

بخالِقه ورازقه، وإنكارِه قضاءَه بالبعث والحساب، فالرَّبُّ سبحانه هو مَن أوجد الكافر وربّاه وأمَدَّه بمختلف النِّعم وسخَّرَ له الآياتِ الكونيَّةَ لمنفعته، وفي وصف الرُّبوبيَّة أيضًا الدِّلالة على الشَّفقة بالمربوب، ومحبَّة الخير له، فهو رَبُّ العباد الّذي له الخَلقُ والأمر[1].

دلالة ذكر ﴿كَانَ﴾:

صِفاتُ اللهِ سبحانه دائمةٌ مطلَقةٌ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ استُعمل الفعل الماضي ﴿كَانَ﴾ الّذي يأتي في الأصل للاتّصاف بالخبر في الماضي مع الانقطاع، غير أنّه يُستعمل لدلالة الدّوام والاستمرار بمعنى (لم يزل)، فتختصُّ كان بمرادفة (لم يزل) كثيرًا، أي إنّها تأتي دالَّةً على الدّوام[2]، وفائدتها هنا الإشعار بأنَّ اتّصافه تعالى بهذا الوصف دائمٌ ثابتٌ في الأزل، وهذا المناسب لصفات اللّه سبحانه فهي دائمةٌ مُطلَقةٌ.

نوع الباء ودلالتها في القيد ﴿بِهِۦ﴾:

عِلمُ الرَّبِّ سبحانه ملابسٌ لأحوال عباده

حرف الباء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ معناه المُلابَسة أو الإلصاق، وقد تعدّى الوصف ﴿بَصِيرًا﴾ بالباء؛ لأنّه من (بَصُر) القاصر بضمّ الصّاد، بمعنى: رآه رؤيةً مُحَقَّقةً. وقد عُلِّقَ وصف (بصير) بضمير الإنسان الّذي ظَنَّ أنْ لن يحور، والمراد: العلم بأحواله لا بذاته[3].

غرض تقديم القيد ﴿بِهِۦ﴾ على الخبر ﴿بَصِيرًا﴾:

لا تَخفى على اللهِ تعالى من أعمال العباد خافيةٌ

قُدِّمَ شِبهُ الجملة ﴿بِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ على الخبر ﴿بَصِيرًا﴾ لِنُكتة الاهتمام بأعمال الكافر الموجبة للجزاء، بحيثُ لا يخفى عليه منها خافيةٌ، فلا بدّ مِن رَجعِه وحسابِه وجزائِه عليها حَتمًا؛ إذ لا يجوز في حكمته أن يُهمِله فلا يُعاقبُه على

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 425، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 04/ 202.
(2) السّيوطيّ، همع الهوامع: 1/ 120.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 100، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 226.

سوءِ أعماله، وهذا زجرٌ لجميع المكلَّفين عن المعاصي كُلِّها[1]؛ مع ما في هذا التّقديم من مراعاة الفواصل.

نُكتةُ المبالغة في الوصف ﴿بَصِيرًا﴾:

اللهُ تعالى وحدَه العالِمُ بأحوال مَن جَحدَه

جاء الوصف ﴿بَصِيرًا﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ على صيغة (فعيل)، وهي مِن أوزان المبالغة، للدّلالة على كمال الصّفة في الموصوف بها سبحانه، وعظيم أثرها على عباده، وقد خَتمَ اللّٰه سبحانه هذه الآية بهذه الصّفة الدّالَّة على المُبصَرات؛ لأنَّ أعمال الكافر مشاهدَةٌ مَرئيَّةٌ، فناسب ذلك المجيءُ بالصّفة المتعلّقة بالمُبصَرات، فاللّٰه سبحانه بصيرٌ بأعمال الكافر؛ مِن معاصيه في الدُّنيا، وما إليه يصير أمرُه في الآخرة، فهو العالِمُ وحدَه بذلك كُلِّه[2].

بلاغةُ المقابلة بين مصير المؤمن والكافر:

بالضِّدِّ تتمايزُ الأشياء

تضمّنت هذه الآياتُ فنًّا مِن فنون البديع، وهو المقابلة؛ إذ قابل النَّظمُ الكريم بين أحوالِ أهل السَّعادة الّذين يُؤتَون كتابَهم باليمين وبينَ أحوالِ أهلِ الشَّقاوة الّذين يُؤتون كتابَهم بالشِّمال وراء ظهورهم، فبينَ مصيرِ الفريقَين تضادٌّ يُثيرُ الذِّهنَ ويَجذِبُ الانتباه، ويزيد الكلامَ حُسنًا وطرافةً، كما يقوّي المعنى؛ إذ بضِدِّها تتمايزُ الأشياء[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الدُّعاء والنِّداء:

مشهدُ القضاء بالعذاب يُفقِدُ المرءَ تماسكَه

يتجلّى الفرق بين لفظَي: (الدُّعاء)، و(النّداء) في خصوص (النّداء) برفع الصَّوت بما له معنًى، والعربيُّ يقول لصاحبه: (نادِ معي ليكون ذلك أندى لصوتنا)، أي: أبعد له، فالنِّداء يكون برفع الصَّوت. ولذلك ذكرَ القرآنُ مع النّداء وصف ﴿خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم: 3]

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 264.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 243، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/ 541.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 365.

تقييدًا له، قال اللّه ﷻ: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم: 3]. أمّا (الدُّعاء) فلا يُشترط فيه رفعُ الصَّوت، بل يكون برفع الصَّوت وخَفضِه، يقال: دعوتُه مِن بعيدٍ ودعوتُ اللّه في نفسي، ولا يقال: ناديته في نفسي، وأصل الدُّعاء الطَّلبُ؛ والدّعوى مطالبةُ الرَّجل بمالٍ يدعو إلى أن يُعطاه[1]. ومِن هنا أوثرَ الفعلُ (يدعو) وكأنَّ الكافر هو من يطلب ثبورًا، وقد حُمل الدّعاء عَلَى التَّمنّي مَجازًا بجامع الطَّلَب بحسب ما مرّ بيانه، ثمّ إن مشهد إيتاء الكتاب وراء الظَّهر وبالشِّمال مشهدُ انهيارٍ ترتَعِدُ فيه الفرائصُ، فلا تكاد تقوى على النِّداء بصوتٍ مرتفعٍ.

الحَوْرُ والرُّجوع:

الحَوْرُ الرّجوعُ إلى خلاف ما كان عليه المرءُ

يتجلّى الفرق بين لفظي (الحَوْر) و(الرّجوع) في علاقة العُموم والخُصوصِ بينهما، فالرّجوع عامٌّ في مطلق العَوْد، ويختصّ (الحَوْر) بالرّجوع إلى خلاف ما كان عليه المَرءُ[2]، كما في الحديث: «اللّهم إنّي أعوذ بك من الحَوْرِ بَعدَ الكَوْرِ»[3]، يعني بذلك: من الرّجوع إلى الكفر بعد الإيمان، أو مِن التَّردّد في الأمر بعد المضيّ فيه، أو مِن نُقصانٍ وتردّدٍ في الحال بعد الزيادة فيها[4].

واختير تعبير ﴿لَّن يَحُورَ﴾؛ لأنّ الكافر حَسِبَ أنّه لن يرجع إلى الآخرة أو أنّه ظنّ أنّه لن يرجع إلى خلاف ما هو عليه في الدّنيا من السّرور والتّنعّم.

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 38.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 242، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 100.

(3) أخرجه مسلم: (1343).

(4) الرّاغب، المفردات: (حور).

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨
لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩﴾ [الانشقاق: 16 - 19]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

التّأكيدُ على صحّة البعث الّذي أنكره الكافر

لمّا أخبر اللّه سبحانه بإنكار الكافر لِما أتاه به الرُّسل مِن الحشر والبعث، سبَّبَ عنه الإقسامَ على صحّة ذلك ووقوعه، لأنَّهُ ليس عند النَّذيرِ النّاصِحِ الشَّفوقِ بَعْدَ إقامَةِ الأدلَّة إلّا الأيمان على صِحَّةِ ما قالَ، نَظَرًا منهُ لِلمَنصوحِ وشَفَقَةً عليهِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلشَّفَقِ﴾: (شفق) أصلٌ واحدٌ، يدلّ على رِقّةٍ في الشّيء، ثم يشتقّ منه. فمِن ذلك قولُهم: أشفقت مِن الأمر، إذا رققت وحاذرت. ومنه الشّفق: النَّدأةُ الّتي تُرى في السَّماء عند غياب الشَّمس، وهي الحُمرة، وسُمّيت بذلك للونها ورقَّتها. وقد سُمع بعض العرب يقولون: عليه ثوبٌ مصبوغٌ كَأنَّه الشَّفق، وكان أحمرَ. فهذا شاهدٌ لِمَن قال إنَّه الحُمرة. وعلى ذلك فالشَّفق: الحمرةُ الَّتي بين غروب الشَّمس إلى وقت صلاة العشاء الآخرة[2]. وهو توجيه الجمهور، وقد نُقل عن عكرمةَ ومجاهدٍ أنّ الشّفق هو النّهار، والأوّل أرجح[3].

2) ﴿وَسَقَ﴾: (وسق) أصلٌ يَدُلُّ على حِمل الشيء. وسُمّي القَدْر المعلوم من الحمل كحِمل البعير وسقًا، ووسَقَتِ العينُ الماء: حَمَلَته. والوسق أيضًا: جمع المتفرّق. يقال: وسقْتُ الشَّيء: إذا جمعته، ومنه الوسيقة: الإبل المجموعة كالرُّفقة مِن النّاس[4]. والرَّبط بين معنى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 345.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (شفق).
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 265.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وسق).

الجمع وملمح اشتقاقه، أنّه يزيد على الجمع بالحمل. ومن هنا فمعنى ﴿وَسَقَ﴾ في الآية جَمعُ ما كان منتشرًا في النّهار[1].

3) ﴿ٱتَّسَقَ﴾: أصله مِن (وسق) المتقدّم، فالاتّساق: الاجتماع والاطّراد. وكُلُّ ما انضَمَّ، فقد اتَّسق[2]. وهو معنى اللَّفظ في الآية، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنَّ اتّساق القمر: استواؤه واجتماعه، وتكامله، وتمامه، واستدارته، وذلك ليلة ثلاثة عشر إلى ستّة عشر[3].

4) ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾: (ركب) أصلٌ واحدٌ مطّردٌ منقاس، وهو عُلوُّ شيءٍ شيئًا[4]، والرّكوب في الأصل: اعتلاء الإنسان ظهر حيوان، قال تعالى: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾ [النحل: 8]، وقد يستعمل في السّفينة؛ قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ [العنكبوت: 65][5]. والرّكوب في الآية مجاز عن التّلاقي والمصادفة، لكونه لازمًا للرّكوب[6].

5) ﴿طَبَقًا﴾: (طبق) أصلٌ صحيحٌ واحدٌ، وهو يدلّ على وضعِ شيءٍ مبسوطٍ على مِثلِه حتّى يُغطّيَه. من ذلك الطَّبق؛ تقول: أطبقت الشّيء على الشَّيء، فالأوّل طَبَقٌ للثّاني، وقد تطابقا. ومن هذا قولهم: (أطبق النّاس على كذا)، كأنَّ أقوالَهم تساوت حتَّى لو صُيِّر أحدُهما طبقًا للآخر لَصلح[7]. ويُستعمل الطِّباقُ في الشّيء الّذي يكون فوق الآخر؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ﴾ [الملك: 3]، أي: بعضها فوق بعض[8]. ويُقال الطَّبَقُ للحال المطابقة لغيرها والشَّيء المساوي شيئًا آخر في حجمه وقَدْره وشِدَّتِه وهوله. ويجوز أن يكون جمع طبقة وهي المرتبة، والمعنى: لتركبنّ أحوالًا بعد أحوالٍ هي طبقاتٌ في الشِّدّة بعضها أرفعُ مِن بَعضٍ[9].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 101، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 227.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وسق).
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 102.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ركب).
(5) الرّاغب، المفردات: (ركب).
(6) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 171.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طبق).
(8) الرّاغب، المفردات: (طبق).
(9) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 728، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 228.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أقسمَ اللّه تعالى باحمرار الأفق عند الغروب، وباللّيل وما جمع من الدّوابّ والحشرات والهوامّ وغير ذلك ممّا كان منتشرًا في النّهار، وبالقمر إذا تمّ واستدار وتكامل نورُه، لتركبُنَّ - أيها النّاس - أطوارًا متعدّدةً وأحوالًا متباينة: من النُّطفة إلى العلقة إلى المُضْغة إلى نفخ الرّوح إلى الموت إلى البعث والنّشور(1).

إقسام الربّ سبحانه على تغيّر أحوال الإنسان

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾:

وُصل قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ بحرف الفاء الاستئنافيّة أي: (فأقسم لكم أيّها العباد بالشَّفَقِ)(2). ويجوز أن تكون الفاءُ الفصيحةُ للاستئناف والسببيّة؛ لأنّها في جواب شرطٍ متقدّم، أي: (إذا عرفت هذا أو إذا تحقّقت الرّجوع بالبعث فلا أقسم)(3). وتصلحُ الفاءُ أيضًا لتفريع القَسَم وجوابه على التّفصيل الّذي في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ إلى هنا: فإنّه اقتضى أنّ ثمّة حسابًا وجزاءً بخيرٍ وشرٍّ؛ فكان هذا التّفريعُ فذلكةً وحوصلةً لِما فُصِّل مِن الأحوال، وكان أيضًا جمعًا إجماليًّا لِما يعترض في ذلك مِن الأهوال(4).

الحساب لابدّ واقعٌ، والجزاء لا شكّ متحقّقٌ بالخير أو بالشّرّ

دلالة دخول (لا) على القَسَم:

في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ ورَد حرف (لا) قَبل فِعل القَسَم، فذهب جمهور المفسّرين إلى كونها نافيةً، ثمّ اختلفوا في توجيه النّفي على أوجهٍ؛ منها أنّها لنفي الكلام السّابق، وهو هنا اعتقادُ الكافر عَدَمَ الحَوْرِ.

توكيد القسم بحرف النّفي

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 230، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 101 - 102، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 227 - 228، ونخبة مِنَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 589.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 265.

(3) درويش، إعراب القرآن: 10/ 426.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 226.

ويجوز أيضًا في توجيه النّفي أنه لا يُقْسِمُ بالشّيء إلَّا إعظاماً له؛ يَدُلُّكَ عليه قولُه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ [الواقعة: 75 - 76] فكأنّه بإدخالِ حرفِ النَّفي يقول: إنَّ إعظامي له بإقسامي به كَلا إعظامٍ، يعني أنه يَسْتَأْهِلُ فوق ذلك.

وذهب بعضُ العلماء إلى كون (لا) هنا صلةً، أي: مزيدةً لتوكيد القسم. مِثْلُها في قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الحديد: 29]، مع أنّ أصلها نافيةٌ تدلّ على أنّ القائل غيرُ محتاج إلى القسم؛ لأنّ الأمرَ واضحُ الثُّبوت، ثم كثُر هذا الاستعمال فصار مرادًا تأكيدُ الخبر فساوى القسم بدليل قوله عقبه في موضع الواقعة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ [الواقعة: 76]، وهذا الوجهُ الثّاني هو الأنسب بما وقع مِن مثله في القرآن. وعلى كلا الوجهين فهو إدماجٌ للتّنويه بشأن ما لو كان مُقسما لأقسم به(1).

سرُّ إيثار لفظ القَسَم دون غيره:

قَسَمُ الله تعالى صادقٌ ووَعْدُه مُنجزٌ

أوثر التّعبير بفعل ﴿أُقۡسِمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ دون نظائره كـ(أحلف) مثلًا؛ لأنّ هذا موضعُ قَسَم لله تعالى، ولَفظُ القَسَم يُستعمل لليمين الصّادقة - حقيقةً أو وهمًا - والحَلِفُ لليمين الكاذبة على إطلاقها، فبين دلالتهما كما بين العامِّ والخاصِّ؛ فالقَسَمُ لمطلق اليمين بعامَّة، ويختصّ الحَلِفُ بالحنث في اليمين، على ما اطّرد استعمالُه في البيان القرآنيّ(2).

دلالةُ التَّعبير بالفِعل ﴿أُقۡسِمُ﴾ مضارعًا:

ما زال العبادُ مُتقلِّبين مِن حالٍ إلى حالٍ

عُبِّر في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ بصيغة المضارع في الفعل ﴿أُقۡسِمُ﴾ دون غيره من الأزمنة للدِّلالة على الحال، فغَرَض المُقسِم مِن القَسَم هو تأكيدُ المُقسَم عليه - وهو جواب القسم -

(1) السّمين الحلبيّ، الدرّ المصون: 10/ 561، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 330.
(2) عائشة بنت الشّاطئ، الإعجاز البيانيّ للقرآن، ص: 224.

وتأكيدُ الخبر وتحقيقُه؛ والمعنى هنا: لتُلاقُنَّ أيّها العِباد حالًا بعد حال. وأُدمِجَ فيه أوصافُ الأشياء المُقسَم بها للدِّلالة على تمام قدرة اللّه تعالى[1].

نوعُ الباء ودلالتها في قوله ﴿بِٱلشَّفَقِ﴾:

قــوّةُ الـقَـسَـم وأصالتُه

الباءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ دالَّةٌ على القَسَم، وهي الأصلُ في حروف القَسَم لدلالتها على الملابسة في أصل معانيها، ولهذا فهي تَدخُل على الظّاهر والمضمر، بخلاف غيرها الدّاخلة على الظّاهر فقط، كما أنّ الواو والتاء لاحقتان بها في القَسَم الإنشائيِّ دون الاستعطافيِّ[2].

دلالة تعريف لفظ (الشّفق) و(اللَّيل) و(القمر):

وقــوعُ الـقَـسَـم بــالآيــتَــين المتكاملتَين اللّيل والنّهار

جاء لفظ (الشَّفق) في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ مُعرَّفًا بـ(ال) الدّالَّة على تعريف الجنس المقتضي للعموم، ويسمّيها البلاغيّون (لامَ الحقيقة)، وتُسمَّى أيضًا لامَ العهد الذّهنيِّ[3]، وهي الّتي تُبيِّن الحقيقة بقطع النَّظر عن الأفراد، وهي تُعرِّف حقيقةً ذِهنيَّةً يراد بها فردٌ مُبهم من أفراد الحقيقة باعتبار عهديّته في الذّهن لاشتمال الحقيقة عليه[4].

والجمهورُ على أنَّ (الشَّفق) الحمرةُ الّتي تشاهَد في أُفُق المغرب بعد الغروب، وبغيبوبتها يخرُجُ وقتُ المغرب ويدخُل وقتُ العشاء عند عامّة العلماء، أو هو البياض الّذي يعقُبها، وسُمّي به على كلٍّ مِن المعنيين لِرقَّته، لكنَّ مناسبته لمعنى البياض أكثر، وهو من الشَّفقة الّتي هي عبارةٌ عَن رِقَّة القلب، ولا شَكَّ أنَّ ضوء الشّمس يأخذ في الرِّقة والضّعف مِن غَيبة الشَّمس إلى أن يستوليَ سوادُ اللّيل على الآفاق كُلِّها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 152.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 02/ 378.
(3) الخطيب القزوينيّ، الإيضاح: 2/ 21.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 263.

وقد نُقل عن عكرمة ومجاهدٍ أنَّ الشَّفق هو النّهار، ليُناسب عَطفَ اللَّيل عليه في الآية، وبناءً على أنّ الشّفق هو أثر الشّمس، وهو كوكبٌ نهاريٌّ، وأثرُه هو النّهار، فعلى هذا يقع القسم باللّيل والنّهار اللّذين أحدهما مَعاشٌ والآخر سَكَنٌ، وبهما قِوامُ أمور العالَم[1].

نوع الواوِ ودلالتُها في قوله ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾:

الإقسامُ باللَّيل وما يجمَعُه مِن المخلوقات

عُطف قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ في قوله تعالي: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ بحرف الواو الدّالِّ على الجمع والاقتران؛ فقد وقَعَ القَسَمُ بهذه المخلوقات تشريفًا لها ودعوةً إلى الاعتبار بالآيات الكونيَّة مع ما فيها من الامتنان بتسخيرها لمنفعة الإنسان. وكونُ الواوِ هنا للعطف لا للقَسَم لأنّ اجتماع قَسَمين عَلى جوابٍ واحدٍ مُحالٌ كما ذَكرَه بعضُ أهل العلم[2].

نوع الواو ودلالتها في قوله ﴿وَمَا وَسَقَ﴾:

عُطَفَ قولُه تعالى: ﴿وَمَا وَسَقَ﴾ بحرف الواو الدّالّ على الجمع والاقتران، والمعنى (أُقسم لكم باللّيل وبما جمَعَه وما ضَمَّه وسَتَره بظُلْمته).

نوع (ما) ودلالة استعمالها:

القسم عَلَى المجموع لا على نَفْسِ الجمع

يجوز أن تكون (ما) الواردةُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ مصدريَّةً، أو نكرةً موصوفةً، أو موصولةً على طريقة حذف العائد المنصوب. وقد رجَّحَ بعضُهم كونَها موصولةً أو مَوْصوفةً لا مصدريةً؛ لأنّ الموصول مع أنّه يحتاج إلَى تقدير العائد إلّا أنّه يفيد القسم عَلَى جميع المخلوقات، وأمّا المصدر فيفيد القسم عَلَى نفس الجمع والسّتر، ولا يستلزمُ القسمَ عَلَى المجموع[3].

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 265.
(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 170.
(3) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 170.

دلالة التّعبير بالفعل ﴿وَسَقَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

مِـن بـديـع التَّكوين وعظيم المِنَنِ جمعُ اللّيل ما كان منتشرًا في النّهار

عُبِّر بلفظ ﴿وَسَقَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾، ومعناه في اللّغة: الجمع، والمعنى: (وما جَمَعَ مِمّا كان منتشرًا في النّهار مِن ناسٍ وحيوانٍ)، فإنّها تأوي في اللّيل إلى مأويها، وذلك ممّا جعل الله في الجِبِلَّة مِن طلب الأحياء السُّكونَ في اللّيل. قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [القصص: 73]، وذلك مِن بديع التَّكوين، فلذلك أقسَمَ به قَسَمًا أدمجتْ فيه منَّة. وقيل: ما وسَقَه اللَّيل: النُّجوم؛ لأنَّها تَظْهرُ في اللَّيل، فشبَّه ظهورَها فيه بوسق الواسق أشياءَ مُتفرِّقَةً. وهذا أنسبُ بعطف القمر عليه[1]. والتّعبير عنه بالماضي دليلُ وقوعه وتأكُّد تَحقُّقه.

نوعُ الواو ودلالتها في قوله ﴿وَٱلۡقَمَرِ﴾:

الإقسام بالبدر التّمام إيماءٌ إلى الرَّحمة والإكرام

عُطف قولُه تعالى: (القمر) بحرف الواو الدّالِّ على الجمع والاقتران، فقد وقع القَسَمُ بهذه المخلوقات تشريفًا لها ودعوةً إلى الاعتبار بالآيات الكونيَّة، مع ما فيها مِن الامتنان بتسخيرها لمنفعة الإنسان. وقال بعضُ العلماء إنّ الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ للعطف لا للقسم؛ لأنّ اجتماع قَسَمين عَلى جوابٍ واحدٍ مُحالٌ[2]. وفي جمع هذه المتعاطفات الثّلاثة بعضِها على بعضٍ وجهُ مناسبة، ففي ذِكر الشّفق إيماءٌ إلى شَبَه حالة انتهاء الدُّنيا؛ لأنَّ غروب الشَّمس مثلُ حالة الموت، وفي ذكر اللّيل إيماءٌ إلى شدّة الهول يوم الحساب، وفي ذكر القمر إيماءٌ إلى حصول الرّحمة للمؤمنين[3].

وجهُ استعمال الأداة ﴿إِذَا﴾:

انتفاع النّاس بضوء القمر محطُّ الامتنان

الحرف ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ ظرفٌ للحالِ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 101، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 227.
(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 170.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 226، (بتصرّف يسير).

خالٍ مِن معنى الشّرط متعلِّقٌ بفِعل القَسَم، أي: (وقتَ اتّساقه واستوائه). وتقييدُ القَسَم به بتلك الحالة لأنّها مظهرٌ من مظاهر نعمة اللّه على النّاس بضيائه، ويهتدي بنوره المسافرون في السُّرى[1].

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿ٱتَّسَقَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

اتّساق القمر استدارتُه أيّام اللّيالي البيض

أصلُ الفعل ﴿ٱتَّسَقَ﴾ الوارد في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ (اوتسق) قُلِبت الواو تاءً فوقيَّةً طلبًا لإدغامها في تاء الافتعال وهو قلبٌ مُطَّرد. ومعناه الاجتماعُ، واتّساق القمر: اجتماعُ ضيائه، وتمامُه، واكتمالُه، وهو (افتعال) مِن الوسق بمعنى الجمع وذلك في ليلة البدر، وتقييد القسم به بتلك الحالة لأنَّها مظهرُ نعمة اللّه على النّاس بضيائه[2]. والإتيان به ماضيًا دليلُ تحقُّقِه وتأكُّدِ وقوعه.

سرّ إيثار لفظ (القمر) دون (البدر):

التَّمثيل بالقمر تامًّا أدلّ على القدرة من التَّمثيل بطَورٍ مِن أطواره

القمر هو الجِرمُ السّماويُّ الطبيعيُّ للأرض، الشّامل لجميع أطواره. أمّا البدر فهو طورٌ واحدٌ مِن أطواره، ومرحلةٌ مِن مراحله يظهر فيها مِن الأرض مضاءً بالكامل. والقَسَم في الآية هو على الجِرم بتمامه حين اجتماع ضوئه، واكْتمال شكله في رؤية العين فهو أدلّ على القدرة مِن القَسَم بحالةٍ مِن حالاته، فضلًا عن أنَّ التَّعبير بلفظ الاتّساق جَمَع لفظ القمر بوصفه جِرمًا، ووَصْفِه في حالة كونه بدرًا.

بلاغةُ التَّناسب الدّلاليّ والصّوتيّ بين ﴿وَسَقَ﴾ و﴿ٱتَّسَقَ﴾:

جناسُ الإلحاق بما اتّفق في أصل الاشتقاق

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ محسّن بديعي يسمّى بجناس الاشتقاق؛ إذ توافَق الفعلان الماضيان: ﴿وَسَقَ﴾، و﴿ٱتَّسَقَ﴾ في الأصول وجُلِّ الحروف، وهو ملحق بالجناس الاصطلاحيّ؛ لأنّ كثيرًا ما يُلحق بالتّجنيس الكلمتان الرّاجعتان إلى

---

(1) درويش، إعراب القرآن: 10/ 426، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 227.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 227.

أصلٍ واحد بالاشتقاق، لِما فيه من المُسامحة، ولِما فيه من التَّجانس اللفظيّ والصّوتيّ[1]. وفي التّعبير بهما - مع تشابه معانيهما لرجوعهما الى أصل واحد - إشعارٌ بالمبالغة في دلالة الجمع المرادة في الآية وتأكيدها، سواءٌ ما يجمعه اللَّيلُ ممّا انتشر في النَّهار، أو اجتماع ضياء القمر، واكتماله؛ إشارةً إلى جمع الخلائق يوم القيامة للحساب والجزاء، كما يدلّ عليه موضوعُ السّورة.

نوع اللام ودلالتها في قوله: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾ واقعةٌ في جواب القسم، فهي جوابيّة للتوكيد، أفادت تأكيدَ معنى الرُّكوب أحوالًا بعد أحوال فهي طبقاتٌ في الشِّدّة، بعضُها أرفع من بعض[2].

نكتة استعمال الفعل (تركبنّ):

أحوالُ الإنسان المتعدّدة المتنوّعة، في حياته وبعد مماته

أوثر لفظ ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ الدّالُّ في معناه اللُّغويّ على اعتلاء شيء؛ لكنَّ حقيقتَه متعذّرةٌ هنا، وله عدّةُ معانٍ مجازيّة مستعملة في الكلام؛ والّتي يصحّ أن تراد في الآية منها: الغلب، والمتابعة، والسّلوك، والاقتحام، والملازمة، والرِّفعة. وأصل تلك المعاني إمّا استعارة وإمّا تمثيل يقال: ركب أمرًا صعبًا وارتكب خطأً[3].

ويجوز أنْ يراد به الموت وما بعده مِن أهوال القيامة إلى أن يستقرّ الأمر على ما يُقضى به على الإنسان مِن جنّةٍ أو نار، فهما الدّوام والخلود. ويدخل في هذه الجملة أحوالُ الإنسان منذ يكون نطفةً إلى أن يصير رجلًا ثم يموت فيكون في البرزخ، ثمّ يُحشر ثمّ ينقل، إمّا إلى جنَّة وإمّا إلى نار[4].

---

(1) العصام الإسفراييني، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: 2/ 464.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 102.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 227، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ركب).
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 102.

بلاغة المجاز في لفظ ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾:

في الرُّكوب مُبالَغَةٌ في إصابة الشِّدّة

تضمّن قوله تعالى: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ مجازًا في لفظ ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾؛ إذ الرّكوب مجازٌ عن التّلاقي والمصادفة، لكونه لازمًا للرّكوب؛ ووجهُ التَّعْبير به إفادةُ الاعتلاء المعنويِّ تشبيهًا بالاعتلاء الحِسّيِّ، فيفيد المُبالَغَة في إصابة الشِّدَّة[1]. ويحتمل أن يكون الرُّكوب مجازًا في السَّير بعلاقة الإطلاق، أي لتحضرنّ للحساب جماعاتٍ بعد جماعاتٍ على معنى قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ٣٠﴾ [القيامة: 30] وهذا تهديدٌ لمُنْكريه[2].

توجيهُ القراءات المتواترة في لفظ ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾:

التَّنوّعُ في توجيه الخطاب سَعةٌ في الدّلالة وثراءٌ

تنوّعت القراءة في قوله تعالى: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾، فقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائيُّ، وخلفٌ بفتح الباء ﴿لَتَرۡكَبَنَّ﴾، وقرأ الباقون بضمّها ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾[3].

فالحجّة لمن قرأه بالضمّ ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾ أنّه يخاطب النّاس في ذلك؛ لأنّه ذَكَر مَن يُؤتى كتابه بيمينه وبشماله، ثمَّ ذكر ركوبَهم طبقًا عن طبق، ثمّ قال: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، والمعنى: (لتركبُنَّ حالًا بعد حال من إحياءٍ وإماتةٍ وبعثٍ حتّى تصيروا إلى اللّه تعالى).

والحجّة لمن قرأه بالفتح أنّ المعنى: (لتركبَنّ يا محمّد ﷺ حالًا بعد حالٍ)، يذكُر حالاتِ النّبيّ ﷺ من يوم أوحي إليه إلى يوم قبَضه اللّه سبحانه، وقد روي أيضًا: (لتركبَنَّ يا محمّد سماءً بعد سماءٍ) يعني في المعارج.

ومعنى آخر، فقال آخرون - منهم ابن عبّاس رضي الله عنهما - : لتركبَنّ، أي: (لَتَصيرَنّ الأمورُ حالًا بعد حال بتغيّرها واختلاف الأزمان)، يعني الشّدّة، فالأمور فاعلة، وتكون التّاء لتأنيث الجمع.

---

(1) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 171.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 229.

(3) ابن الجزريّ، النّشر: 02/ 399.

ومعنى آخر، فقال آخرون - منهم ابن مسعود - : (لتركبنّ السّماءُ حالًا بعد حالٍ، تكون وردةً كالدِّهان، وتكون كالمهل في اختلاف هَيئتِها)، فتكون التّاء لتأنيث السّماء[1].

دلالةُ لفظ ﴿طَبَقٍ﴾ في الآية:

حال الإنسان ملابسٌ لصاحبه كملابسة الطَّبق لما طبق عليه

ورد لفظُ ﴿طَبَقٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ اسمًا مُفردًا على وزن (فَعَلٍ)، وهو إمّا مشتقٌّ من المطابقة كاشتقاق الصِّفة المشبَّهة، ثم عومِل معاملة الأسماء وتُنوسي منه الاشتقاق. وإمّا أن يكون أصلُه اسمَ الطَّبق وهو الغطاء، لوحظ فيه التَّشبيه ثم تنوسي ذلك فجاءت منه مادَّة المطابقة بمعنى المساواة، فيكون مِن المشتقّات مِن الأسماء الجامدة. وهذا مِن الحقيقة، لأنّ الغطاء مُساوٍ لما يُغطّيه. ويُطلق الطَّبق على الحالة، لأنَّها ملابِسةٌ لصاحبها كملابسة الطَّبق لِما طبق عليه[2].

وقد يكونُ لفظ ﴿طَبَقٍ﴾ اسمَ جمعٍ لـ(طبقة): وهي المرتبة، فيكون المعنى: (لتركبنّ أحوالًا بعد أحوال هي طبقاتٌ في الشّدّة بعضُها أرفعُ من بعض). أو هي مكانٌ فوق مكانٍ آخر معتبر مثله في المقدار إلا أنّه مرتفع عليه. وهذا مِن المجاز، يقال: (أتانا طبقٌ مِن النّاس)، أي جماعة[3].

نُكتةُ تنكير لفظ (طبق):

أحوالُ يوم القيامة مَناطُ التَّعظيم والتَّهويل

صيغَ لفظ (طَبَق) في قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ نكرةً في الموضعين، والنُّكتةُ في تنكيره التّعظيمُ والتّهويلُ؛ لأنّه تهديدٌ بأهوال القيامة، وقد يكون التّنوينُ فيهما للتّنويع إن كان المعنى: (لتركبنّ منزلةً بعد منزلةٍ)، كلُّ واحدةٍ مباينةٌ للأخرى[4].

(1) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 356.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 228.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 728، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 228.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 229.

دلالة استعمال حرف ﴿عَن﴾:

ركوبُ الإنسان للشَّدائد حالًا بعد حالٍ

المعنى الحقيقيُّ لِحرف ﴿عَن﴾ الوارد في قوله تعالى: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ هو المجاوزة، غير أنّه هنا بمعنى (بعد) وهو معنًى مجازيٌّ كما يقال: (ورِث المجدَ كابرًا عن كابرٍ)، والبَعديّةُ هنا اعتباريَّةٌ، وهي بَعديَّةُ ارتقاء، كقوله تعالى: ﴿زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [النحل: 88]. والمعنى: (لتلاقُنَّ هولًا أعظَمَ مِن هول)، أو (لتركبنّ الشّدائد، الموت والبعث والحساب، حالًا بعد حالٍ)[1].

بلاغةُ صياغة الجملة ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾:

روعةُ نسج الكلمات والمباني، لإيصال أبلغِ الوعظ في المعاني

قد نُسِجت هذه الجملة القرآنيَّةُ نسجًا مجملًا لتوفير المعاني الّتي تذهب إليها أفهامُ السّامعين، فجاءت على أبدع ما يُنسج عليه الكلام الّذي يُرسَل إرسال الأمثال مِن الكلام الجامع البديع النّسج الوافر المعنى، ولذلك كثُرت تأويلاتُ المفسّرين لها. فلمعاني الرّكوب المجازية ولمعاني الطَّبق من حقيقيٍّ ومجازيٍّ مُتَّسع لِما تفيده الآيةُ من المعاني، وذلك ما جَعل لإيثار هذين اللّفظين في هذه الآية خصوصيّةً من أفنان الإعجاز القرآنيّ[2].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

القسم والحَلِف واليمين:

لا يمينَ أصدقُ مِن قَسَمِ الله تعالى إذا أقسم

أوثر التَّعبيرُ بفعل ﴿أُقۡسِمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ دون نظائره كـ(الحَلِف) مثلًا و(اليمين)؛ لكون القَسَم أبلغَ مِن الحَلِف، فمعنى قول المُقسِم: أُقسِم باللّه أنّه صار ذا قسم باللّه، والقسم النَّصيب، والمراد أنّ الّذي أقسم عليه من المال وغيره قد أحرزه ودفع عنه الخصم باللّه، أمّا الحَلِف فمِن قولك (سيف حليف) أي قاطعٌ ماضٍ فإذا قلت: حَلَف باللّه فكأنّك قلت: قَطَع

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 458، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 229.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 227.

المخاصمة باللّه، فالأوّل أبلغ لأنّه يتضمّن معنًى آخرَ مع دفع الخصم ففيه معنيان، بخلاف (حَلَف) فإنّه يفيد معنًى واحدًا وهو قطعُ المخاصَمة فقط[1].

وكذلك يلفِتُ صنيعُ القرآن إلى فرقٍ دقيقٍ بين (القسم) و(الحَلِف)، فإن لم نقل إنّ القَسَم لليمين الصّادقة - حقيقةً أو وهمًا - والحَلِف لليمين الكاذبة على إطلاقها، فلا أقَلَّ مِن أن يكون بين دلالتهما الفرقُ بين العامِّ والخاصِّ: فيكون القَسَمُ لمطلق اليمين بعامَّة، ويختصّ الحَلِف بالحنث في اليمين، على ما اطّرد استعمالُه في البيان القرآنيِّ[2].

أمّا اليمينُ: فهو القوَّة. وسُمّي الحلِفُ يمينًا لأنَّ المتحالِفين كأنَّ أحدهما يصفِّق بيمينه على يمين صاحبه. فاليَمينُ مستعارٌ في الحلف من اليد اعتبارًا بما يفعله المعاهد والمحالف وغيره. قال تعالى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القلم: 39][3]. واختيرَ لفظ القسم في الآية لكونه أبلغَ، ولإطلاقه على اليمين عامّةً، صِدقه وكَذِبه، وليس أصدق مِن يمين اللّه تعالى إذا أقسم.

(وَسَقَ) و(اتّسقَ) و(ضمَّ):

الـوسـق جـمعٌ وحـمـلٌ لمـقـدارٍ مــعـــلــوم، والاتّساقُ انتظامُ الشَّيء واكتمالُه

يتجلّى الفرق بين لفظي (وسق) و(ضمّ) في علاقة العُموم والخُصوص، فلفظ (الضمّ) عامٌّ في كُلِّ جمعٍ، أمّا لفظ (الوسق) فيدلّ ملمح اشتقاقه على أنّه يزيد على الجمع بالحمل، فهو خاصّ بالحِمل لقدر معلوم، مأخوذ من أوسقت البعير إذا حمّلته حِمله. وناقة واسق، ونوق مواسيق، إذا حملت[4]. أمّا الاتّساق فيأتي بمعنى الانتظام والاستواء والاجتماع. ومِن هنا استُعمل لفظ

(1) أبو هلال العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 56.
(2) عائشة بنت الشّاطئ، الإعجاز البيانيّ للقرآن، ص: 224.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (يمن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وسق).

(وسق) مع (اللّيل) الّذي يجمع الأشياء المنشورة في النّهار وكأنّه يحملها إلى مآويها.
واستُعمل لفظ (اتّسق) مع القمر بمعنى: اجتمع ضياؤه، وتمّ، واستوى، وانتظم شديد النّور مكتمله.

﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَۤ ۩ ٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ٢٢ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ٢٥﴾ [الانشقاق: 20 - 25]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الإنكارُ على الكُفّار عدمَ الإيمان

لمّا ظهر للكفّار المرادُ، ولم يبق إلّا العناد، سَبَّبَ عن ذلك الإنكارَ عليهم والتّوبيخ والتّقريع والتّهديد، فجاء بهذه الآيات مُعرضًا عن خطابهم إلى الغَيبة إيذانًا باستحقاقهم للأخذ إن لم يرجعوا، والعقاب إن لم يرعَووا(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُوعُونَ﴾: (وعي) أصلٌ يَدُلُّ على ضَمِّ شيءٍ، وعيتُ العِلْمَ أعيه وعيًا. وأوعيت المَتاع في الوعاء أوعيه(2). والوعي: حفظُ الحديث ونحوه في الذِّهن. ويقال: وعيت الحديث وأوعيت المَتاع. قال تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ [المعارج: 18]، أي: جمع الأمتعة والأموال في أوعيتها، أي: إنَّه لم يكن مفرّطًا في دنياه بل شديد الحرص عليها(3). فمعنى ﴿يُوعُونَ﴾ في الآية: ما يجمعون في صدورهم من الشّرك والتّكذيب(4).

2) ﴿مَمۡنُونِۭ﴾: اسم مفعول من (منّ)، و(منن) أصلان؛ أحدهما يدلّ على قطعٍ وانقطاعٍ، والآخر على اصطناعِ خير. فالأوّل: المَنّ بمعنى القطع، والنَّقص. والمَنون: المنيّة؛ لأنّها تَنقُصُ العدد، وتقطعُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 348.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وعي).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (وعي).
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 104.

المدد. والأصل الآخر: المنّ بمعنى الصَّنيعِ الحَسَن[1]. وبناءً على هذا يكون الأجرُ غير الممنون في الآية الأجرُ الخالص مِن الشَّوائب، الدّائم الّذي لا انقطاعَ فيه ولا نقصَ ولا بخسَ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

وعيدُ الكفّار بالعذاب الأليم ووعدُ المؤمنين بالأجر العظيم

يُنكر اللّه سبحانه على الكفّار قائلًا: فأيُّ شيءٍ يمنعُهم مِن الإيمان باللّه واليوم الآخر بعد ما وُضِّحت لهم الآيات؟ وما لهم إذا قرئَ عليهم القرآن لا يسجدون للّه، ولا يسلِّمون بما جاء فيه؟ إنّما سجيَّةُ الّذين كفروا التَّكذيبُ ومخالفةُ الحقِّ. واللّه أعلم بما يكتمون في صدورهم مِن العناد مع علمهم بأنَّ ما جاء به القرآن حقٌّ، فبَشِّرهم - أيّها الرّسول - بأنّ اللّه ﷻ قد أعدَّ لهم عذابًا موجعًا. لكنَّ الّذين آمنوا باللّه ورسوله وأدَّوْا ما فرَضَه اللّه عليهم، لهم أجرٌ في الآخرة غيرُ مقطوعٍ ولا منقوصٍ[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَمَا لَهُمۡ﴾:

تفريع إنكار عدم الإيمان على قيام البرهان

وُصِل قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بما قبله بحرف الفاء، وتحتمل أن تكون هذه الفاء الفصيحةَ أو للتّفريع، فعلى كونِها فاءَ الفصيحة؛ أي أفصحت عن جواب شرطٍ مُقَدَّرٍ، فيكون المعنى: (إذا علم النّاس أنّهم يركبون طبقًا بعد طبق فمالهم لا يؤمنون)؟[4] وعلى كون الفاء للتّفريع والتّرتيب يكون التّفريع على ما ذُكر من أحوال من أوتي كتابه وراء ظهره، ويجوز أن يكون مُفرَّعًا على قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾، أي: إذا تحقّقت ذلك فكيف لا يؤمن بالبعث الّذين أنكروه[5].

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (منّ).
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 105، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 293.
(3) نخبة مِنَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 589.
(4) درويش، إعراب القرآن: 10/ 427.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 230.

بلاغة الاستفهام بـ(ما):

عدم الإيمان محطُّ التعجّب والإنكار

(ما) في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ اسم استفهام، وهي تكون للسّؤال عن ذوات ما لا يعقل، وأجناسه، وصفاته، وللسّؤال عن صفةِ مَن يعقل[1]. والمعنى في الآية: (فأيُّ شيءٍ حاصلٌ لهم حالَ كونهم لا يُؤْمنونَ). والغرضُ مِن أسلوب الاستفهام الإنكارُ والتَّعجيب، فالتّعجيبُ مِن عَدمِ إيمانهم مع قيام موجباته، والإنكار مِن انتفاء إيمانهم، ومِن شأن الشّيء العجيب المنكر أن يُسأل عنه؛ واستعمال الاستفهام في معنى التَّعجيب والإنكار مجازٌ بعلاقة اللُّزوم[2].

نوع اللام ودلالتها في قوله ﴿لَهُمۡ﴾:

تقريع الكفّار بعدم اختصاصهم بمانعٍ مِن الإيمان

أفاد حرفُ اللّام في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ الاختصاص، والمعنى: (إذا كان حالهم يوم القيامة كما ذُكر)، وأردتَ التَّعجُّب مِن حالهم، فأقول لك: (أيُّ شيءٍ اختصّ به كفّارُ مكّة وأيُّ مانعٍ لهم حتّى يكونوا غير مؤمنين؟ ففيه تقريعٌ لهم وتبكيتٌ على عدم الإيمان[3].

بلاغةُ التَّعبير بالنَّفي ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

إنكارُ الكفّارِ الأمورَ الغَيبيَّة مِن وجوه ضلالهم الحتميّة

أوثر في قولِه تعالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ نفيُ الإيمان عن الكفّار دون التَّصريح بكُفرهم لِتعَلُّق السّياق بذِكر الأمور الغيبيَّة مِن أهوال يوم القيامة وحال النّاس فيها بين مَن يُؤتى كتابَه باليمين أو وراء الظّهر، فنفيُ الإيمان - أي التَّصديق بهذه الغيبيّات - أنسب مِن ذِكر الكُفر الّذي هو السّتر والتّغطية، ومعلومٌ إذا كان الكلام منصبًّا إلى غرض من الأغراض جُعِلَ سياقُه له وتوجّهه إليه، كأنّ ما سواه مرفوض مُطَّرَحٌ[4].

---

(1) فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 4/ 261.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 231.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 268.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 254.

استمرار الكفّار في الشِّرك وعدم الإيمان

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾

التَّعبير بالفعل ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ في قوله تعالى ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مضارعًا دون غيره من الأزمنة لما يفيده المضارع من الثّبوت والدّوام والاستمرار، وفي ذلك دلالة على استمرار الكفّار في عدم الإيمان بالبعث والجزاء وثبوتهم على الشّرك باللّه ﷻ.

المتّصفُ بالكفر جحودًا وعنادًا مداومٌ على الإشراك بالله سبحانه

فائدة حذف متعلّق الفعل ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾

حُذف متعلّق الفعل ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ إيجازًا لدلالة السّياق عليه، أي: (بالبعث والجزاء). فإنّه تعالى حكى عن الكافر: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾، ثم أفتى سبحانه بأنّه يحور، فلمّا قال بعد ذلك: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ دلّ على أنّ المراد: فما لهم لا يؤمنون بالبعث والقيامة[1].

ويجوز تنزيل فعل ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ منزلة اللّازم، أي لا يتّصفون بالإيمان، أي: (ما سببُ أن لا يكونوا مؤمنين؟)، لظهور الدّلائل على انفراد اللّه تعالى بالإلهيّة، فكيف يستمرّون على الإشراك به[2].

مَنْ يُنكر آلاءَ المُنعم حقيقٌ بأنْ يُحرم

بلاغة الالتفات من التّكلّم إلى الغيبة:

مِن المعلوم أنّ مِن مرامي الالتفات تجديدُ نشاط السّامع وإثارةُ انتباهه، ممّا يجعل الخطاب أكثر تأثيرًا وقوّةً. ومِن هنا انتقل الخطاب مِن التَّكلُّم في الآية السّابقة ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ إلى الغَيبة في هذه الآية: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والغرض إثارة التَّعجُّب وتأكيد الاستغراب مِن حال الَّذين لا يؤمنون. وقصدًا إلى توبيخهم، والاستنكار مِن حالهم، والتَّقريع عليهم، واستحقاقهم الأخذ إن لم يرجعوا[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 103.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 231.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 348.

توجيهُ عطف جملة ﴿وَإِذَا قُرِئَ﴾ بالواو:

جمع صفات الكفّار والتّشنيعُ عليهم بها

عُطف قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ على قوله سبحانه: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بحرف الواو الدّالِّ على الجمع والاقتران، ونكتة العطف أنّ كفّار قريش أربابُ الفصاحة والبلاغة فعند سماعهم القرآنَ لا بدّ وأن يعلموا كَونَه مُعجزًا، وإذا علِموا صِحَّةَ نُبوَّة محمّد ﷺ ووجوب طاعته في الأوامر والنّواهي، فلا جرم استبعد الله تعالى منهم تَركَ السُّجود والطّاعة عند سماع القرآن. وفي قرن السّجود بالإيمان دلالةٌ على عِظَم قَدرِه كما لا يخفى[1].

عِلَّةُ استعمال مفردة ﴿قُرِئَ﴾ دون (تُلي):

مَن يُحرم لذّة الاتّباع، يُحكم عليه بالضَّياع

جاء التَّعبير القرآنيُّ بلفظ (القراءة) دون (التِّلاوة) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ لأنَّ الآيةَ في امتناع الكافرين عن السُّجود إلى الله سبحانه عند سماعهم آياتِ الله تعالى، ومِن هنا ناسبها القراءةُ دون التِّلاوة؛ فإنّ التّلاوة تختصُّ باتِّباع كُتُبه المُنَزَّلة؛ تارةً بالقراءة وتارة بالامتثال لما فيه مِن أمرٍ ونهيٍ وترغيبٍ وترهيبٍ، أو ما يتوهّم فيه ذلك، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: 121]. فالتِّلاوة قرينةٌ لوجوب الاتّباع، فضلًا عن حملها معنى الإكثار والمواظبة؛ فقولك تلوت القُرآن إذا قرأته كَأنَّك اتَّبعت آيَة في إِثْرِ آيَة[2]. والكفّارُ لم يكونوا يرضَون بالقليل منه، بلَه سماعه؛ فكيف باتّباعه، والامتثال له.

سِرُّ التَّعبير عن فعل القراءة بالبناء للمفعول:

قصد العموم أو الإيجاز بطَيّ ما هو معلوم

بُنيَ الفعل ﴿قُرِئَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ لما لم يُسمّ فاعله، والنّكتة في عدم التّصريح بالفاعل إمّا قصد العموم لكلّ مَن يحصُل منه فِعلُ القراءة، أي: التّركيز على فعل القراءة

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 104، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 292.

(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (تلو).

في حدّ ذاته دون التّعرّض للفاعل، ومعلومٌ إذا كان الكلام منصبًّا إلى غرض من الأغراض جُعِلَ سياقه له وتوجّهه إليه، كأنّ ما سواه مرفوض مُطَّرَحٌ[1].

وإمّا للإيجاز، فمعلومٌ أنّ النبيّ ﷺ هو مَن كان يتلو على قريش القرآن ويحاجّهم به. وقد روي أنّه عليه السلام: «قرأ ذات يوم: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب۩ ١٩﴾ [العلق: 19] فسجد هو ومن معه من المؤمنين، وقريشٌ تُصفِّق فوق رؤوسهم وتُصفِّر» فنزلت هذه الآيةُ مِن سورة العلق[2].

دلالة استعمال حرف الاستعلاء (على):

ورد حرف الاستعلاء (على) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ للدّلالة على شدّة التّمكّن مِن فعل القراءة، فالكفّار لا يسجدون عند قراءة القرآن عليهم مع قيام الحجّة عليهم بسماع ألفاظه وفهم معانيه وأحكامه.

غرض تقديم القيد ﴿عَلَيۡهِمُ﴾:

فــي تخصيص الـقـراءة إقـامةٌ للحجّة

تقدّم الجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ على ﴿ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ على نائب الفاعل ﴿ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ لنكتة اختصاص كفّار قريش بقراءة القرآن عليهم، واهتمامًا بقراءته عليهم؛ تبليغًا للرّسالة وإقامةً للحجّة عليهم وتسجيلًا عليهم بعدم الخضوع عند سماعه.

سرُّ التَّعبير بـ﴿ٱلۡقُرۡءَانُ﴾:

إعراض الكافرين عن القرآن إنكارٌ

القرآنُ الكريم كتاب اللّه تعالى الّذي يضمُّ آياته، وكلامُه تعالى المنزَّلُ على رسوله محمّد ﷺ، والتّصريحُ به في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ إيماءٌ لإنكاره مِن الكافرين بكلّيته، فضلًا عن كونه منسوبًا إلى اللّه تعالى أو منزّلا على نبيّه. فليس الإنكار خاصًّا بآياته فحَسْبُ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 254.
(2) ابن حجر العسقلانيّ، الكافي الشّافي، رقم 313.

دلالةُ تخصيص السُّجود بالذِّكر في قوله ﴿لَا يَسۡجُدُونَ۩﴾:

وضعُ الجبهة على الأرض سجودٌ فيه الخضوع والاستكانة

السّجود المنفيّ عن الكفّار عند سماع القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ۩﴾، ممّا اختلف العلماء في مقصوده؛ فمنهم مَن حَمَله على المعنى اللّغويّ وهو الخضوع والاستكانة، فإنّهم مِن أهل اللّسان، فيجب عليهم أن يجزموا بإعجاز القرآن عند سماعه، وبكونه كلامًا إلهيًّا، ويعلموا بذلك صدق مُحمَّد ﷺ في دعوى النُّبوَّة، فيطيعوه في جوامع الأوامر والنواهي. ومِنهم مَن حَملَ السُّجود على المعنى العُرفيّ وهو وضع الجبهة على الأرض، فيراد به نفس السّجود عند تلاوة آية السّجدة على أن يكون المراد بالقرآن آيةَ السّجدة بخصوصها لا مطلق القرآن[1]. وقد تمّت الإشارة فيما سبَقَ إلى أنّ قرن السّجود بالإيمان فيه دلالةٌ على عِظَم قدره[2].

وتفسير السّجود بوضع الجبهة والأنف عند آيات مخصوصة حَمْلٌ له على الحقيقة بأن يكون المرادُ نفسَ السّجود.

وكونه مِن السّجود في الصّلاة حَمْلٌ له على المجاز المرسل بعلاقته الجزئيَّة، أو يكون مجازًا عن الخضوع والخشوع؛ لكونه لازمًا للسُّجود كقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦﴾ [الرحمن: 6] وقوله: ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: 48]، أي: إذا قرئَ عليهم القرآن لا يخضعون للّه، ولا يخشعون لمعاني القرآن، ولا يأبَهون لحجّته[3].

بلاغة الكناية في الآية:

في نفي السّجود نفيٌ للإيمان يستدعي الذمّ

في نفي السّجود في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡجُدُونَ۩﴾ كناية عن نفي

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 268.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 104، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 292.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 232.

الإيمان عن الكفّار، ودليل هذا المعنى مقابلته بقوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ فيكون كالتَّأكيد لِما قبله. مع ظهور الدَّلائل القائمة عَلَى إمكانه. فالمُراد هنا عدمُ الإيمان عند قراءة القُرْآن الدّالّ عَلى البعث والمذكِّر للآيات الدّالَّة على صحّة الحشر والمعاد[1].

ويُستفاد من نفي السّجود الذمّ، فسياق الآية يدلّ على أنّ اللّه سبحانه ذمّ مَن يسمع القرآن العظيم ثمّ لا يسجد، ولهذا استدلّ أبو حنيفة رحمه اللّه بهذه الآية على وجوب سجدة القرآن؛ لأنّ حصول الذمّ عند التّرك يدلّ على الوجوب، وذهب الجمهور إلى عدم وجوبها مستدلّين ببعض الآثار الصّحيحة في ذلك[2].

وجهُ التَّعبير بـ﴿بَلِ﴾ ودلالتها:

دواعي الاعتراف بصدق القرآن ظاهرة لا ينكرها إلا مستكبرٌ جاحدٌ

يجوز أن يكون حرف ﴿بَلِ﴾ الوارد في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ إضرابًا انتقاليًا مِن التَّعجيب مِن عدم إيمانهم وإنكاره عليهم إلى الإخبار عنهم بأنّهم مستمرّون على الكفر والطَّعن في القرآن، فالكلام ارتقاءٌ في التّعجيب والإنكار.

ويجوز أن يكون إضرابًا إبطاليًّا، أي: لا يوجد ما لأجله لا يؤمنون ولا يصدّقون بالقرآن بل الواقع بضدّ ذلك، فإنّ بواعث الإيمان من الدّلائل متوفّرة ودواعي الاعتراف بصدق القرآن والخضوع لدعوته متظاهرة، ولكنّهم يكذّبون[3].

غرضُ تقديم المُسند إليه على المُسند الفعليّ:

الاهتمامُ بمراعاة السّياق واتّساق النّظم

تقدّم الموصول الاسميّ وصلته ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ على المسند الفعلي ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ اهتمامًا بالصّلة ومناسبةً للسّياق في ذِكر أوصاف الّذين يؤتون

(1) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 174.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 292.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 232.

كتابهم وراء ظهورهم والنّعي عليهم عدمَ إيمانهم وعدم سجودهم عند سماع القرآن وتكذيبهم به.

نُكتةُ التَّعبير بالموصول دون الاسم الصَّريح أو المضمر:

ذمُّ الكافرين بكُفرهم

استُعمل الاسمُ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصلته ﴿كَفَرُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾، ولم يقل (الكافرون)، أو (هم يكذّبون)؛ لنكتة الذّمّ والتّقريع بما في حيّز الصّلة، فأوّل ما يُذمّ به الكفّار كُفرهم، ولهذا كثُر استعمال هذا التّعبير في القرآن الكريم، فهو لفظٌ مطلقٌ يتناول كلّ مَن صمَّم على الكفر وغيره، وكذلك للإشعار بأنَّ كفرهم هو العلّةُ في عدم خضوعهم للقرآن والإيمان بوعده ووعيده[1]. فالعدول إلى الموصول والصّلة للتَّعميم، والتَّنبيه على الوصف الّذي حملهم على التَّكذيب وهو الكفر. والصّلة هي مَن تؤذن بذمّهم بالكفر، أي: إنّهم استمرّوا على التَّكذيب لتَأصُّل الكفر فيهم وكونهم يُنعتون به[2].

غرضُ حذف مُتعلَّق الفِعل ﴿كَفَرُواْ﴾:

إطلاق الكفر لإفادة العموم

حُذفَ متعلّقُ الفِعل ﴿كَفَرُواْ﴾ مِن قولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾، وفي تعليل ذلك ثلاثةُ مَسالِكَ:

الأوّلُ: أن يُقدَّر له منصوبٌ خاصٌّ، والمعنى: كفروا بالقرآن النّاطق بما ذكر مِن أحوال القيامة وأهوالها. **والثّاني**: أن لا يُقدَّر مفعولٌ خاصٌّ، لإفادة العموم، والمعنى: يكفرون باللّه وبنبيّه. والغالب المستفيض مِن استعمال لفظ الكُفر في القرآن أنّ معناه الكُفر باللّه، ومِن المقرَّرِ أنَّه متى كان الفعل نَصًّا في مطلوبه لا يُذْكَرُ المتَعَلّقُ به إلا لِغَرضٍ بلاغيٍّ آخرَ مقصود[3]. **والثّالث**: أنْ يُنَزَّلَ الفعلُ المتعدّي

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 426، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 31/ 269.

(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 21/ 349، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 233.

(3) الشّعراويّ، التّفسير: 13/ 7904.

منزلة اللّازم، فلا يُقَدَّرُ له مفعولٌ أصلًا، ومعنى (كفروا) على هذا: يحصُلُ منهم الكفر.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿يُكَذِّبُونَ﴾:

الإصرارُ على الكفر والتّكذيب

التّعبيرُ بالفعل ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ مضارعًا دون غيره من الأزمنة لِما يفيده المضارع مِن الثّبوت والدّوام والاستمرار، وفي ذلك دلالةٌ على حدوث التَّكذيب منهم وتجدّده. فهم مستمرّون على التّكذيب عنادًا وكبرياءً، فكما نفى عنهم تجدُّدَ الإيمان وتجدُّدَ الخضوع عند قراءة القرآن أثبَت لهم تَجَدُّد التَّكذيب. وكذلك يفيد التَّعبيرُ استحضارَ الحالة وتصويرَها مثل قوله: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤﴾ [هود: 74]، فالإخبار عنهم بأنّهم يكذّبون مستعمل في التّعجيب والإنكار[1].

غرضُ حذفِ مُتعلَّق ﴿يُكَذِّبُونَ﴾:

إطلاق الكفر لإفادة العموم

في حَذف متعلّق الفعل ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ مِن قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾، مَسالِكُ ثلاثةٌ ذُكِرَت في الفائدة الخاصّة بحذف متعلّق الفعل ﴿كَفَرُواْ﴾، وخلاصته مع الفعل ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ تقديرُ منصوبٍ خاصٍّ، والمعنى: يُكذّبون بما ذُكِر مِن أحوال القيامة والبعث والنّشور. أو أن لا يُقدَّر مفعولٌ خاصٌّ؛ لإفادة العموم، والمعنى: يُكذّبون بكلّ ما جاء في القرآن. أو أنْ يُنَزَّلَ الفعل المتعدّي منزلة اللّازم، فلا يُقَدَّرُ له مفعولٌ أصلًا، ومعنى ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ على هذا: يحصُلُ منهم التّكذيب.

نوع الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾:

خالق البشر أعلمُ بما توعيه صدورُهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾ للاعتراض، فهذه الجملة معترضة بين المعطوفة والمعطوف عليه، أي بين قوله سبحانه: ﴿بَلِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 233.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾، وجملة: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، والغرض من الاعتراض التّأكيد بأنّ اللّه ﷻ أعلمُ بما توعيه صدورُ هؤلاء المشركين، مِن التّكذيب بكتاب اللّه ورسوله(1).

بلاغةُ التَّعبير باسم الجلالة:

استحضارُ عظمة الله ذي الجلال الجامِع لِصِفاتِ الكمال

أوثر في قَوْله تَعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾ التَّعبيرُ باسم اللّه الأعظم (اللّه) لتربية المهابة في قلوب العباد باستحضار عظمة اللّه ذي الجلال الجامِعِ لِصِفاتِ الكمالِ، فيَذكرُ النَّظمُ الاسمَ الكريمَ الجامعَ لأسمائه الحسنى تعظيمًا لحقّ الألوهيّة، وتقريرًا للقوّة الكاملة والعزّة القاهرة للّه سبحانه، ومِن ذلك عِلمُه المطلق بأفعال عباده وما تُكنُّ صدورهم فهو الملك المحيط بكُلِّ شيءٍ قدرةً وعلمًا(2).

دلالة استعمال ﴿أَعۡلَمُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عِلمُ الله تعالى بأعمال العباد كنايةٌ عن مجازاتهم عليها

جاء لفظ ﴿أَعۡلَمُ﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾ على صيغة أفعل التّفضيل؛ لكونِه سبحانه أعلمَ منهم أنفُسِهم بما يضعون في أوعية صدورهم مِن الكفر، ويجوز أن يكون المعنى: (واللّه تعالى أعلم بما يجمعونه في صحفهم من أعمال السّوء)، وأيًّا ما كان، فعِلمُ اللّه تعالى بذلك كنايةٌ عن مُجازاته سبحانه عليها. ويجوز أن يكون المراد الإشارةَ إلى أنَّ لهم وراء التّكذيب قبائحَ عظيمةً كثيرة يضيق عن شرحها نطاق العبارة. أو أنّ اللّه تعالى أعلمُ بما يضمرونه في أنفسهم مِن أدلَّة كونه - أي القرآن - حقًّا، فيكون المراد المبالغةَ في عنادهم وتكذيبهم على خلاف علمهم(3).

نوع الباء ودلالتها في قوله ﴿بِمَا﴾:

ملابسة علم الله المطلق لشؤون عباده

معنى (الباء) في قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ الملابسة،

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 257.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 350.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 350، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 292.

فعِلمُ اللّه المطلق ملابِسٌ لكلّ شؤون عباده، وما تُكنّه صدورهم، فلا يمكن أن يكون خالقًا للأرض وما فيها وللسّماوات وما فيها مِن المخلوقات إلّا إذا كان عالمًا بها محيطًا بجزئيّاتها وكُليّاتها[1].

نوع (ما) ودلالتها:

الله تعالى يعلم كـلَّ ما يُخفى وإنْ كَثُرَ

يجوز في لفظ (ما) في قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أن تكون موصولةً، والعائد محذوفٌ، أي: (بالّذي يُضمرونه في صدورهم مِن الكفر والحسد والبغضاء والبغي وغيرِ ذلك)، بما تدلُّ عليه (ما) مِن عموم. فـ(ما) أوسعُ استعمالاً استعمالًا مِنْ (مَنْ) وأكثر إبهامًا منها. ويجوز أن تكون (ما) مصدريّةً، فتؤول مع فِعلِها بمصدرٍ تقديره: (واللّه أعلمُ بإيعائهم)[2].

بلاغةُ استعمال مُفردة ﴿يُوعُونَ﴾:

تحذيرٌ لِمن يُضمر الـشرَّ في صدره ويوعيه

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أوثر التَّعبيرُ بالفعل ﴿يُوعُونَ﴾، وأصلُه من الوعاء، يقال: أوعيت الشيء، أي: جعلته في وعاء كما قال: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ١٨﴾ [المعارج: 18]، والإيعاءُ حِفظُ الأمتعة في وعاء، والمعنى: (واللّه أعلم بما يجمعون في صدورهم مِن الشّرك والتّكذيب، فهو مجازيهم عليه في الدّنيا والآخرة)[3]. وصوغه مضارعًا دليلٌ على عِلمه تعالى بما يجمعون في صدورهم من آفاتٍ مهما تجدَّدَ ذلك منهم.

بلاغة المجاز في لفظ ﴿يُوعُونَ﴾:

إضـمـار عـداوة الرَّسول معلومٌ عند الله تعالى

جاء التَّعبير بلفظِ (الإيعاء) في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾، وحقيقته جعلُ الشّيء في وعاء؛ وأريد به هنا الإضمار مجازًا، أي إنّ الوعاءَ مُسْتَعارٌ للإضمار. وما يوعون مُسْتَعارٌ لِما يضمرون، ولهذا قال ابن عباس في تفسير الآية: واللّه أعلم بما

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 02/ 383.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 292، ومحمود صافي، الجدول: 15/ 287.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 104.

تضمرون مِن عداوة الرّسول ﷺ والمؤمنين. وقال مجاهد: بما يكتمون من أفعالهم[1].

فائدة حذف مفعول فعل ﴿يُوعُونَ﴾:

لا شيء ممّا يوعون يخفى، والله بما يضمرون أدرى

مفعول الفعل ﴿يُوعُونَ﴾ في قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ محذوفٌ، وحذف العائد المنصوب في جملة الصّلة مشهورٌ، والنّكتة في حذفه الإيجازُ لظهور المعنى من السّياق، ولتذهب النّفسُ في تقديره كلّ مذهب، فتتكاثر المعاني وتتنوّع الأقوال. كما أنّ في حذف هذا المفعول مراعاةً للفواصل السّابقة.

فائدة الجملة الخبريّة ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾:

الجزاء والإنذار والتّهديد مآلُ عِلم الله تعالى بما يضمرون

المقصود مِن الخبر في قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ لازمُ الفائدة، فالإخبار بعلمه تعالى بما يوعون مرادٌ به مجازاتُهم به، فهو كنايةٌ عن الجزاء، أو كنايةٌ عن الإنذار والتّهديد بأنَّ الله يجازيهم بسوء نيّتهم وخبث طويّتهم[2].

نوعُ الفاء ودلالتُها في قوله: ﴿فَبَشِّرۡهُم﴾:

تفريع مجازاة الكفّار على الإخبار بعلمه

وُصِل قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ بما قبله بحرف الفاء، وتحتمل أن تكون هذه الفاء الفصيحة، أو للتّفريع، فعلى كونها فاءَ الفصيحة؛ أي: أفصحت عن جواب شرطٍ مُقدَّرٍ، فيكون المعنى: (إذا كان حالهم ما ذُكر فبشِّرهم ... إلخ). وعلى كونها للتّفريع، فقد فرّع على الإخبار بعلمه تعالى بما يوعون مرادًا به مجازاتهم به، وقيل على تكذيبهم، أي: مفرّعًا على جملة ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾[3].

دلالة التَّعبير بالفعل: ﴿فَبَشِّرۡهُم﴾:

الانهماك في المعاصي هلاك

في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أوثر التَّعبيرُ بفعل الأمر

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 440.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 233.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 292.

(بشِّرهم)، من البِشارة، وهي: كلّ خبر صدق تتغيّر بَشَرَةُ الوجه به، وبناء على هذا؛ فإنّ البشارة مستعملة في الخير والشرّ، إلّا أنها في الخير أغلب. وذهب بعض أهل العلم إلى أنّ البشارة هي الخبر السّارُّ وحده، واستعماله هنا في الخبر المؤلم من باب التَّهكُّم كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ [البقرة: 15]، وجوّز بعضهم أن يكون ذلك على تنزيلهم - لانهماكهم في المعاصي الموجبة للعذاب وعدم استرجاعهم عنها - منزلة الرّاغبين في العذاب حتّى كان الإخبار به تبشيرًا وإخبارًا بسارٍّ[1].

نوع الباء ودلالتها في قوله: ﴿بِعَذَابٍ﴾:

حرف الباء في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ لتعدية الفعل (بشِّرهم) إلى مفعوله، فلمّا كانت البشارة بمعنى الإخبار، فإنّها تتعدّى إلى مفعولين، وتصل إلى المفعول الثّاني بحرف الجرّ، كما يجوز أن تكون للملابسة.

سِرُّ إيثار لفظ (العذاب) دون (العقاب):

تهديد الكفّار بالعذاب الأليم وتكدير العيش

أصل لفظ (العذاب) الوارد في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ﴾ الضَّربُ، ثم استعير ذلك في كلّ شدّة[2]. أو هو إكثارُ الضّرب بعَذَبَةِ السّوطِ، أي: طرفها، ولعلّه أيضا مِن قولهم: ماءٌ عَذَبٌ إذا كان فيه قذًى وكدَرٌ، فيكون عَذَّبْتُهُ كقولك: كدّرت عيشَه.[3] فتوعّد اللّه الكفّار بالعيش الشّديد الكدر في جهنّم والعياذ باللّه. ففي لفظ العذاب تخصيصٌ لا يوحي به لفظ العقاب العامّ الّذي قد يعني العذاب وقد يعني غيره.

نُكتةُ تنكير لفظ (عذابٍ):

عذاب الكافرين عظيمٌ نوعًا ومقدارًا

يجوز أن يكون تنكير لفظ (عذابٍ) لبيان النوع، أي: (لهم نوعٌ

(1) الشّريف الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 45، والمُناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 78، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 293.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عذب).
(3) الرّاغب، المفردات: (عذب).

خاصٌّ مِن العذاب). ويحتمل أن يكون تنكيره للتّعظيم، ويُشكل عليه وصفه في بعض الآيات بالعظمة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البقرة: 7]، فدلالة التّنكير على التّعظيم بالفحوى، وما دلّ عليه بالفحوى يُستغنى عنه إذا جاء ما يدلّ عليه بالوضع، فدلالة الوصف على العظمة دلالةٌ وضعية تغني عن استفادة التعظيم من التّنكير[1].

والأظهر أنَّ دلالة التَّنكير على النّوعية مستلزم القول بالتّعظيم؛ إذ المقصود بالنّوعية: أنّ لهم نوعًا من العذاب لا يعلم حقيقته إلا اللّه[2]، وهذا ظاهر في إفادته التّعظيمَ، ويكون وصف العذاب بالعظمة في بعض الآيات بمنزلة التّوكيد المعنويِّ له.

بلاغة الاستثناء في قوله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

في التهكّم بالكافرين مزيدُ إشعارٍ بمآلهم الحزين

وُجِّه الاستثناء الوارد في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بين الاتّصال والانقطاع؛ فجَعَله بعضُهم استثناءً منقطعًا مِن ضمير ﴿فَبَشِّرۡهُم﴾ فهو داخل في التّبشير المستعمل في التّهكّم زيادة في إدخال الحزن عليهم. وحرف ﴿إِلَّا﴾ بمنزلة (لكن) والاستدراك فيه لمجرّد المضادّة لا لدفع توهّم إرادة ضدّ ذلك[3].

بابُ التّوبة مفتوحٌ للعباد لا يُغلق

وذهب أكثر المفسّرين إلى أنّ الاستثناء متّصلٌ، إمّا على أنّه استثناء من الضّمير في قوله: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ جريًا على تأويله بركوب طباق الشّدائد والأهوال يوم القيامة وما هو في معنى ذلك من التّهديد. وإمّا على أنّه استثناء من ضمير الجمع في ﴿فَبَشِّرۡهُم﴾ والمعنى إلّا الذين يتوبون ويؤمنون مِن الّذين هم مشركون الآن، أي: إلّا من تاب منهم فإنّهم وإن كانوا في الحال كفّارًا إلّا أنّهم متى تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 258.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 53.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 728، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 234.

فلهم أجر عظيم كقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾ [البقرة: 160][1].

دلالةُ التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

مدح المؤمنين بإيمانهم بربّ العالمين

في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عُبِّرَ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصِلَته ﴿ءَامَنُواْ﴾ بدل الاسم الظّاهر لِما يفيده الاسم الموصول مِن الوصف بجملة الصّلة، والمدح بما في حيّزها، فقد مدح اللّه عباده الّذين استقرّ الإيمانُ في قلوبهم وأثنى عليهم بما في حيّز الصّلة مِن أوّل الأمر، وهو أنّهم صدّقوا بما جاء به محمّد ﷺ، فاستحقّوا الجزاء المرتّب على إيمانهم.

سرّ التّعبير بالفعل ﴿ءَامَنُواْ﴾ ماضيًا:

نور الإيمان راسخٌ في قلوب المؤمنين

أوثر استعمال فعل الإيمان في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بصيغة الماضي دون غيرها للدّلالة على تحقّق الإيمان في قلوب المؤمنين سواء كان مقصودًا بهذا الوصف الصّحابة، أو كان مقصودًا به مَن تاب مِن المشركين ووقر الإيمانُ في قلوبهم بعد كفرهم.

نُكتةُ إطلاق فعل ﴿ءَامَنُواْ﴾:

إفراد فِعل الإيمان بالذِّكر دون مُتعلَّقه اهتمامٌ بتحصيله

أوثر حذف متعلَّق الفعل ﴿ءَامَنُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لنكتة الإيجاز للعلم به، فقد صرّحت آياتٌ كثيرةٌ بمتعلّق الإيمان وأركانه، وقد صار هذا الوصف ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عَلَمًا على المسلمين، مع ما في ذلك من التّركيز على فعل الإيمان في حدّ ذاته اهتمامًا بتحصيله، ومعلومٌ إذا كان الكلام منصبًّا إلى غرض من الأغراض جُعِلَ سياقه له وتوجّهه إليه، كأنّ ما سواه مرفوضٌ مُطَّرَحٌ[2].

وجهُ العَطفِ بالواو في قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

عُطف عَملُ الصّالحات في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 105.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 254.

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على الإيمان بحرف الواو الدّالّ على الجمع والاقتران لإفادة ضرورة الجمع بينهما لنيل الأجر الموعود، فالعبد مطالبٌ بأن يوجِدَ الأساس الّذي لا يَثبتُ عملٌ بدونه وهو الإيمان، ثمّ يصدّق ذلك بالعمل الصّالح المؤسَّسِ على الإيمان[1].

العمل الصّالح تصديقٌ للإيمان وتمكينٌ لفضيلة الإحسان

فحقيقة الإيمان شرعًا ليس مجرَّدَ اعتقاداتٍ لا تُثمر عملًا، وإنّما الإيمانُ في الشّرع قولٌ وعملٌ واعتقادٌ، فالعمل ركن من أركان الإيمان لا يُتصوّر وجود إيمان دونه.

وفي ذلك أيضا إيماءٌ إلى أنّ عمل الصّالحات لا يُعتدّ به إلّا مع الإيمان كما قال تعالى في سورة البلد: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البلد: 17]، وقال في عكسه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [النور: 39][2].

نُكتةُ إيثارِ لفظ العمل دون غيره:

أوثر التَّعبيرُ بالفعل (عمل) في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دون غيره كـ(فعلوا) مثلًا؛ لأنّ العمل لا يكون إلّا بقصدٍ، فهو أخصُّ مِن الفِعل[3]، فيجب على المؤمن القصدُ إلى الأعمال الصّالحة والاجتهاد فيها لينال بذلك الأجرَ غير الممنون، ثمّ إنَّ الفعل (عمل) يُطلق على معالجة الشَّيء، والدَّأبِ عليه، ولهذا سُمّيت النّاقة الدؤوب باليَعْمُلة، فينبغي للمؤمن المداومة على العمل الصّالح وعدم الانقطاع عنه.

قـصـد الـمؤمـن لـلأعــمــال الصالحة

نوع التَّعريف في قوله: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

ورد لفظ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مُعرفّةً بأل الجنسية الدّالَّة على العموم، وعدم إرادة التّعيين.

الـتَّرغـيـب في عموم الأعمال الصّالحة دون تعيين

(1) الخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/ 675.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 484، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 76.
(3) الرّاغب، المفردات: (عمل).

فالمؤمنُ مطالَبٌ بالحرص على اغتنام كلّ الأعمال الصالحة دون تعيين، لقوله ﷺ: «لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعروفِ شيئًا، ولو أنْ تَلْقَى أخاكَ بوَجْهٍ طَلْقٍ»[1]. وقوله ﷺ: «اتَّقوا النّارَ ولو بشِقِّ تَمْرَةٍ، فمَن لَمْ يَجِدْ فبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»[2].

دلالة التّعبير بالجمع في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

تنوُّعُ صنوف الأعمال الصّالحة وكثرةُ أفرادها

جُمعتِ الصّالحاتُ في قول اللّه ﷻ: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ للإيماء إلى تنوّعها وكثرة أفرادها، فهذه الأعمال وإن جمعها وصفُ الصّلاح إلّا أنّها مفترقةٌ متنوّعةٌ، فهي شاملةٌ للصّلاح في معاملة اللّه تعالى من أنواع العبادات والطّاعات، ومعاملة خَلقِهِ مِن صنوف الإحسان وضُروبِ مكارم الأخلاق[3].

دلالة حذف الموصوف في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

طيُّ الكلام الّذي دلّت عليه القرائن اقتصادًا في اللّفظ

في قول اللّه تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إيجازٌ بالحذف، فقد حُذف الموصوفُ وأُبقيت الصّفة، والتّقدير: (الذين يعملون الأعمال الصّالحات)، فحُذف الموصوف (الأعمال) اقتصادًا في اللّفظ لظهور المحذوف وتعيُّنه بقرينة الفعل (عملوا) قبله.

عِلَّةُ فصل ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ﴾:

بيانُ جزاء المؤمنين بعد بيان جزاء الكافرين

جاء قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾ مفصولًا عمّا قبله؛ لكونه استئنافًا بيانيًّا مقرّرًا لما أفاده الاستثناء من انتفاء العذاب عن المذكورين ومبيِّنًا لكيفيَّته ومقارنته للثَّواب العظيم الكثير. كأنّ سائلًا سأل: كيف حالهم يوم يكون أولئك في عذاب أليم؟[4].

بيان المتشابه اللّفظي بين سورتَي الانشقاق والتّين:

قال ربّنا سبحانه في هذه السّورة: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه: (رقم: 2626).

(2) أخرجه البخاريّ في صحيحه: (رقم: 6023).

(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4342.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 293، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 235.

ضعف الإنسان العامل للصّالحات لا يَقطعُ أجرَه

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾، وقال في سورة التّين: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٦﴾ [التّين: 6]، فزيدت الفاء في موضع التّين دون موضع الانشقاق، ونكتة زيادتها أنّ الاستثناء في سورة التّين مُتَّصلٌ فتمّ الكلام به، والاستثناء في سورة الانشقاق منقطعٌ بمعنى (لكن) فلم يتمّ الكلام به؛ لأنّ المراد بـ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ٥﴾ [التين: 5] هَرَمُه وضَعفُه وضَعفُ حواسّه وعدمُ قدرته على الأعمال، فصار تقديره: (لكن مَن كان يعمل صالحا فإنّا لا نقطع ثوابهم وأجورهم بسبب ضعفهم) كما ورد في الحديث[1].

ويجوز أيضًا في الفرق بين الموضعين أنّه تقدّم في موضع الانشقاق بأنَّ مَن حوسب عُذِّب، وأنّ النّاجيَ إنّما يكون حسابه عرضًا، فعُلم أنّه ليس للأعمال دخلٌ في الحقيقة في الأجر، وإنما المدار كما قال النّبيّ ﷺ على التّغمّد بالرّحمة، حتّى في تسمية النّعيم أجرًا أسقط الفاء المؤذنة بالسّبب تنبيهًا على ذلك، بخلاف ما في سورة التّين الّتي اقتضى سياقها فاء السّببية، لمّا كان السّياق لمدح المؤمنين حَسُن أن يعدّ أعمالهم الّتي تفضّل عليهم بها سببًا، كما منّ عليهم به مِن الثّواب فقال: ﴿فَلَهُمۡ﴾ [التين: 6] أي فتسبّب عن ذلك أن كان لهم في الدّارين على ما وُفِّقوا له مِمّا يرضيه ﷻ أجرٌ عظيمٌ غيرُ ممنون[2].

نوع اللّام ودلالتها في قوله ﴿لَهُمۡ﴾:

تكريمُ المؤمنين بالأجر العظيم

معنى حرف اللّام الوارد في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾ الاختصاص، أي إنَّ الله سبحانه اختصّ عباده الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات دون الكفّار المكذّبين بالأجر العظيم غير المقطوع، وفي هذا الاختصاص كمالُ العناية والتّكريم للمؤمنين الصّالحين في الدّنيا والآخرة.

(1) ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: 376.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 350.

دلالةُ تقديم شِبه الجملة ﴿لَهُمۡ﴾:

أهلُ الإيمان والعمل الصّالح مختصّون بالأجر غير الممنون

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ على ﴿أَجۡرٌ﴾ مِن قول الله سبحانه: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾؛ لإفادة القصر، أي: إنّ الموصوفين بالإيمان والعمل الصالح مختصّون بالأجر الدّائم غير المقطوع، وهو هنا الجزاء في الجنّة، وهو قصرٌ حقيقيٌّ؛ إذ دخولُ الجنّة مختصٌّ بأهل الإيمان لا يَشرَكُهم فيه غيرُهم. وفي هذا حثٌّ على التزام هذين الوصفين الجليلين لتحصيل هذا الجزاء الجليل.

سِرُّ إيثار لفظ ﴿أَجۡرٌ﴾ دون (ثواب) أو (جزاء):

الأجر مخصوصٌ بالنّفع والمعاوضة

أوثر التَّعبير بلفظ ﴿أَجۡرٌ﴾ في قوله سبحانه: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾ دون غيره كـ(الثّواب) و(الجزاء) مناسبةً لسياق الامتنان، فلفظ الأجر يختصُّ بكونه مستعملًا في النَّفع دون الضَّرِّ، ويتضمّن معنى المعاوضة، ولهذا فهو أخصُّ مِن الثَّواب والجزاء، مِن جهة اختصاصه بالخير، بخلاف الثّواب والجزاء فهُما أعمُّ؛ لجريانهما في الخير والشِّرِّ، وإن كان الثّوابُ أخصَّ مِن الأجر والجزاء مِن جهة أنّه لا يستعمل في المنافع المادّيَّة أو الدُّنيويَّة، بخلاف الأجر والجزاء؛ فإنّهما يقعان على المنافع الدُّنيويَّة والمنافع الأُخرويّة[1].

نُكتةُ تنكير لفظ ﴿أَجۡرٌ﴾:

عطايا الله عظيمةٌ، وجزاؤه للصّالحين مديدٌ

نُكِّر لفظُ الأجرِ في قول الله سبحانه: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾ تعظيمًا لِقَدرِه وتكثيرًا لأفراده، ولِتذهَبَ النَّفسُ في تقديره مذاهبَ مختلفةً شتّى، وذلك أبلغُ أثرًا وأعمق. فوعد الله سبحانه عباده الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات بأجرٍ عظيمٍ دائمٍ وثوابٍ جزيلٍ يَعلَمُه الله تعالى[2].

(1) محمد داود، معجم الفروق الدّلالية في القرآن الكريم، ص: 46 - 48، ومحمّد ياس الدّوريّ، دقائق الفروق اللُّغويَّة في البيان القرآنيِّ، ص: 164 - 166.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 21/ 351، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 293.

دلالةُ النَّفي بـ﴿غَيۡرُ﴾:

الأجر المنقوص لا يناسب مقام المنعم، ولا تشريف المؤمنين

يُعَدُّ لفظ ﴿غَيۡرُ﴾ اسمًا صريحًا موغلًا في الإبهام يفيد المغايرة، بمعنى أنّ ما بعده يغاير ما قبله في المعنى، ويستعمل للمفاهيم المتضادّة، وقد اقترن في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۢ﴾ - وصفًا للأجر - بلفظِ ﴿مَمۡنُونِۢ﴾. وإيغاله في الإبهام إشعارٌ ببُعد ذلك الأجر في عدم الانقطاع، بل نفيٌ لانقطاعه على الإطلاق. فالأجر المنقوص لا يناسب مقام المُنعِم سبحانه، بَلْهَ مقامَ إكرام المؤمنين وتشريفهم في المشهد العظيم.

دلالةُ التّعبير بصيغة ﴿مَمۡنُونِۢ﴾:

أجـرُ المؤمنين دائمٌ غير منغّص ولا ناقص

معنى المتضايفين ﴿غَيۡرُ مَمۡنُونِۢ﴾ في قوله سبحانه: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۢ﴾: (غيرُ مقطوع)، وأصله من الفعل (مَنَّ) إذا قطع، أو مِن (منَّ عليه)؛ إذا اعتدّ بالصّنيعة وحسبها، وجعل بعضهم المنّ بهذا المعنى من (منّ) بمعنى قطع أيضا لِما أنّه يقطع النّعمة ويقتضي قطع شكرها. وقد ذكر العلماء في معنى ﴿غَيۡرُ مَمۡنُونِۢ﴾ في الآية وجوهًا متنوّعةً هي: أنّ ذلك الثّواب يصل إليهم بلا منٍّ ولا أذًى، ومن غير انقطاع، ومن غير تنغيص، ومن غير نقصان.

والأولى أن يُحمل اللّفظ على الكلّ؛ لأنّ مِن شرط الثّواب حصولَ الكلّ، فكأنّه تعالى وعدهم بأجر خالص من الشّوائب دائم لا انقطاع فيه ولا نقص ولا بخس، وهذا نهاية الوعد، فصار ذلك ترغيبًا في العبادات، كما أنّ الّذي تقدَّم هو زجرٌ عن المعاصي[1].

سِرُّ التَّعبير بقوله ﴿غَيۡرُ مَمۡنُونِۢ﴾ دون (كريم) أو (دائم):

إشعارُ المؤمن بالأمان والاطمئنان مِن صور تنعيمه في الجنان

في قوله سبحانه: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۢ﴾ عُبِّر بلفظ ﴿غَيۡرُ مَمۡنُونِۢ﴾ دون الوصف الصّريح كـ(كريم) أو (دائم)؛ لأنّ نفي الانقطاع أبلغ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 105، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 293.

من الوصف بالدّوام، وأشعر بالاطمئنان، ففرقٌ بين أن نقول مثلًا: (هذا الماء جارٍ)، وبين أن نقول: (هذا الماء غير منقطع). فالثّاني يبعث على الاطمئنان، والشُّعورِ بالارتياح، والإحساس بالأمان، وهذه المبشّراتُ من وجوه التشريف، ومن صور الإكرام الَّتي يكتمل بها تنعيمُ المؤمن في الجنّة، والاحتفاءُ به، وإكرامُه.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(يوعون) و(يخفون):

الإيعاء يقتضي الجمعَ والإخفاءَ

يتجلّى الفرق بين لفظي: (يوعون)، و(يخفون) في ملمح اشتقاق كلّ لفظ منهما، فلفظ (يخفون) عامّ في مطلق السّتر عن الأنظار، أمّا لفظ (يوعون) فمشتقّ من الوعاء فيقتضي الجمع والحفظ، ويدلّ على الإخفاء والإضمار دلالةً مجازيَّةً كأنّهم يُخفون عداوة الرّسول ﷺ والمؤمنين في وعاء صدورهم[1]. فلفظ (يوعون) أعمقُ دلالةً من لفظ (يخفون).

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 440.

سُورَةُ البُرُوجِ

سُورَةُ البُرُوجِ

التّعريفُ العامُّ بالسّورةِ:

المكّيُّ والمَدَنيُّ وعدّ الآيِ:

ذَكرَ ابنُ عطيّة إجماعَ المُفسِّرين على مَكّيَّتها[1]، وبذلك قال القرطبيُّ[2]، والسُّيوطيُّ[3].

وأمّا عدد آياتها فيقول فيها الدّانيّ: "هي اثْنتان وعشرون آيةً في جميع العدد ليس فيها اختلافٌ"[4].

ترتيبُ النّزول وترتيب المُصحف:

ترتيبُها النُّزوليُّ بعد سورةِ الشّمسِ وقبلَ سورةِ التّينِ

هذه السّورة هي الخامسة والثّمانون في التّرتيب المُصحفيِّ الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت، والمُعوَّل عليه عند أهل النَّظَر والتّحقيق، وقد جاء ترتيبها بين سورتيّ الانشقاق والطّارق، وأمّا ترتيبُها النّزوليُّ؛ فعُدّت السّورة السّابعة والعشرين في ترتيب نزول السّور، نزلت بعد سورة الشّمس وقبل سورة التّين[5].

فضائلُ السّورةِ:

مقدارُ سورة البروجِ ميزانٌ في توقيتِ القراءةِ في السّورِ الجهريَّةِ

هذه السّورة الكريمة من سور المُفصَّل الذي قال فيه رسول الله ﷺ فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»[6].

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 460.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 283.
(3) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 42.
(4) الدّانيّ، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 263.
(5) دروزة، التّفسير الحديث: 2/ 143، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 236.
(6) ابن حنبل، المُسنَد، حديث رقم: (16982)، والطبرانيّ، المعجم الكبير: (22/ 76)، حديث رقم: (187)، والبيهقيّ، شُعَب الإيمان، حديث رقم: (2415)352.

وهي من أوساط سوَرِ القرآن الكريم، قال السُّيوطيّ: "للمُفَصَّل طوالٌ وأوساطٌ وقصارٌ قال ابنُ مَعْنٍ: فطِوالُه إلى (عَمَّ)، وأوساطُه منها إلى (الضُّحَى)، ومنها إلى آخِرِ القرآنِ قِصارُهُ"[1].

وعن جابر بن سَمُرَةَ ﷺ قال: «أَنَّ رَسولَ اللّه ﷺ كانَ يَقْرَأُ في الظُّهْرِ والعَصْرِ: والسَّماءِ ذاتِ البُروجِ، والسَّماءِ والطّارِقِ، وشَبَهَها»[2].

اسم السّورةِ ومناسبة تسميتها:

سورةُ البروجِ اشتُهرت بهذا الاسمِ

وردت تسمية سورة البروج بهذا الاسم في صحيح البخاري، وسنن التّرمذيّ[3]، وكذلك سُمّيت في المصاحف المشرقيّة والمغربيّة وفي جميع التفاسير[4]، وسُمّيت بسورة (والسماء ذات البروج) باعتبار مطلعها كذلك في كلام الصحابة[5]، والاسم الأشهر الوحيد خلاف ما جاء في بعض الروايات بالآية الأولى، هو اسم (البروج).

وقد ربط البقاعيُّ بين اسمها ومقصودها فقال: "مقصودها الدَّلالة على القُدرة على مقصود الانشقاق الذي هو صريح آخرها من تنعيم الوليِّ، وتعذيب الشَّقيِّ بمَن عذَّبه في الدُّنيا، ممّن لا يمكن في العادة أن يكون عذابه ذلك إلّا من اللّه وحده، تسلية لقلوب المؤمنين، وتثبيتًا لهم على أذى الكافرين"[6] وعلى ذلك دلّ اسمُها "البروج" بتأمُّل القَسَم، والمُقسَم عليه.

المحور العامّ للسورة:

تثبيتُ المؤمنين على التّوحيدِ، والتّعريض بعذابِ الكافرين

المحورُ الذي قامت عليه السّورةُ هو بُشرى المؤمنين المُستضعَفين بنُصرة اللّه وتمكينه لهم، ووعيد الكافرين الذين يفتنون النّاس عن دينهم بأشدِّ العذاب عند اللّه تعالى.

---

(1) السُّيوطيّ، الاتقان: 1/ 222.
(2) ابن حنبل، المُسنَد، حديث رقم: (20982).
(3) البخاريّ، صحيح البخاريّ: باب: تفسير سورة البروج: 4/ 1885، والتّرمذيّ، سنن التّرمذيّ، باب: ومِنْ سورَةِ البُروجِ: 5/ 436.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 236.
(5) أبو داود، سُنن أبي داود، كتاب الصّلاة: 1/ 213، والتّرمذيّ، سنن التّرمذي، كتاب الصّلاة: 2/ 111.
(6) البقاعيّ، مصاعد النّظر: 3/ 176.

لذا اقتضاها هذا المحور الحديث عن الأمور الآتية:

أوّلاً: استهلت السورة بالقَسَم بالسّماء ذات البروج وباليوم الموعود وبشاهدٍ ومشهودٍ على لَعْنِ اللّه تعالى لِمَن عذَّب المؤمنين وألقاهم في الأخدود، ثمّ اقتضاها هذا المحور أن تستعمل أسلوب الوعد والوعيد.

ثانيًا: واقتضاها هذا المحور بأن تُذكِّر الفريقيْن: المؤمنين والكافرين بما جرى مع فرعون وثمود. وأن تتوعّد الكافرين، وأن تُقرِّر في نهاية الأمر حفظ اللّه لكتابه، وأنّ كلّ ما يجري مسطورٌ في لوحٍ محفوظٍ.

موضوعاتُ السّورة وخصائصها:

ربطُ المؤمنين بالنَّصرِ الأُخرويّ لا بالنَّصر الدُّنيويِّ المؤقَّت

تناولت السورة مجموعة من الموضوعات العَقَديَّة والإيمانية المتناسبة مع وقت نزولها، فأثبتت البعث، وذكرتْ الثبات على العقيدة مُرشدةً إلى ذلك من خلال قصة أصحاب الأخدود.

أوّلاً: افتتحت السّورة الكريمة بالقَسَم بالسّماء ذات منازل الكواكب، وبيوم القيامة، وبالأنبياء الذين يشهدون على أُممهم على إهلاك وتدمير وإبادة المجرمين الذين أحرقوا جماعةً من المؤمنين والمؤمنات في النّار ليفتنوهم عن دينهم: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾. [الآيات: 1 - 9].

ثانيًا: أعقبت ذلك بوعيد هؤلاء العُتاة الطُّغاة، وإنذارهم بعذاب جهنّم، وبوعد المؤمنين بالجنان. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾. [الآيتان: 10 - 11].

ثالثًا: عقبت السورة على ذلك بإظهار عظمة اللّه وجليل صفاته وقدرته على الانتقام من أعدائه، والاتّعاظ بقصّة الطّاغية فرعون الجبّار: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾. [الآيات: 12 - 22][1].

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 30/ 152.

رابعًا: عرّضت في خاتمتها بالمشركين وبكل الطغاة الكافرين بذِكْر أمثلة من الأمم السابقة الذين أهلكهم اللّه تعالى انتصارًا لأوليائه ورسله: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ١٨ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٍ﴾.

الخصائصُ الموضوعيّةُ للسورة:

تـميّـزتْ سـورةُ الـبروجِ بـخـصـائـصِ أفـردتـهـا عـن غيرِها من السّورِ

أوّلاً: تميّزت السّورة الكريمة ببراعة الاستهلال، حيث استهلّت بأسلوب القَسَم الذي شاركتها فيه بعض السّور المَكّيّة، وقد اختصّت السّورة بهذه الأقسام الخاصّة بها لتأكيد أنّ وعد اللّه ووعيده مُحقَّقٌ لا محالة، "ومن تَدبُّرِ السّور المُفتتحة بواو القَسَم، يبدو لنا أنَّ القرآن يعدل في هذا الأسلوب عن الأصل اللُّغوي للتَّعظيم بالقَسَم إلى استعمال بلاغيٍّ، هو قوَّة اللَّفت إلى ماديٍّ محسوسٍ وواقعٍ مشهودٍ، ليس مظنّة مماراةٍ، توطئة بيانيّة لمعنويٍّ أو غيبيٍّ غير مُدرَك بالحِسِّ"[1].

ثانيًا: اختصَّت السّورة الكريمة بذِكْر قصَّة أصحاب الأخدود دون غيرها من السّور، وهي كاشفةٌ عن اختصاصٍ بخبرٍ غيبيٍّ معلومٍ عن نصارى أهل الكتاب وبعض العرب.

الخصائصُ الأسلوبيّةُ للسورة:

أوّلاً: ت كرَّر في السورة لفظة الإيمان ومُشتقّات مادَّتها خمس مرّاتٍ[2]، وكلمة (شاهد) ومشتقّات مادَّتها أربع مرّات[3].

ثانيًا: برز في السّورة الكريمة مُركَّباتٌ وصفيَّةٌ كثيرةٌ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾، و﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ﴾، و﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ﴾، و﴿بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾، و﴿جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾، و﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾، و﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾، و﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾.

(1) بنت الشّاطئ، التّفسير البيانيّ للقرآن الكريم: 1/ 124.
(2) الآيات: 7، 8، 10 (مرّتان)، 11.
(3) الآيات: 3 (مرّتان)، 7، 9.

ثالثًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها قد حوت أبنيةً صرفيّةً بمُفردات لم تأت في غيرها من السّور، مثل: ﴿ٱلۡمَوۡعُودِ﴾، ﴿ٱلۡأُخۡدُودِ﴾.

رابعًا: تميّزت السّورة الكريمة بوفرة الأنساق التّعبيريّة التي لم تتكرّر في غيرها حتّى لتكاد تكون كلُّ أنساقها كذلك، فمن ذلك مطلعها كاملًا: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ۝٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾.

مناسبة السورة لما قبلها:

سـورةُ الـبروجِ متّصلةٌ تمامًا بسورةِ الانشقاقِ مـضـمـونًـا وأسلوبًا

ترتبط سورة البُروج بما قبلها ارتباطًا بيانيًّا وثيقًا من ثلاثة مسالك:

أوّلًا: توافقُ افتتاح السّورتيْن بذِكْر السَّماء.

ثانيًا: اشتراكهُما في عرض مَشاهد الوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين، مَقرونًا بالتّنويه بشأن القرآن ورِفعةِ قدره.

ثالثًا: بيان السّورة السّابقة لما يعلمه الله تعالى ممّا يُضمره المُشركون للنَّبي ﷺ ولأتباعه من صُنوف الأذى؛ جسديًّا كالضَّرْبِ والقتل والتَّعذيب، ونفسيًّا من حِقْدٍ وحَسَدٍ ومَكْرٍ، ثُمَّ جاءت سورة البُروج لتُقرِّر أنَّ هذه المُمارسات ليست حادثةً من قريش وحدها، بل هي سُنَّة الكافرين الفاجرين من الأُمم الخالية، وفي ذلك عِبرةٌ للمُشركين، وتثبيتٌ لقلوب المؤمنين[1].

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 30/ 151.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ
۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا
قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟
مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾ [البروج: 1 - 9]

مناسَبَةُ مَطلعِ السّورةِ لِما قَبلَها:

الانتقالُ من بيانِ نهايةِ العالَمِ إلى التّنبيهِ على مصارعِ العالمِ

لَمّا خُتِمت السّورة السّابقة ببيان ثواب المؤمنين وعقاب الكافرين، وما يلحق المُكذِّبين من العذاب الأليم، وبعد أن قرَّر سبحانه أنَّه أعلم بما تُخفي صدور الاعداء من مكرٍ وما يُدبِّرونه من كيدٍ؛ أعقب ذلك بقَسَمٍ يُؤكِّد فيه أن الله سيتولّى الانتقام لعباده انتقامًا يكشف عن كمال قدرته وتقرير الحساب والجزاء يوم القيامة ردًا على إنكارهم وتماديهم في عداوة أولياء الله[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْبُرُوجِ﴾: يدلّ أصل الكلمة (برج) على معنيَيْن: أحدهما: البروز والظُّهور، والآخر: الوَزَر والمَلْجَأ[2]، وهو في الأصل الرَّكن والحِصن والقَصْر، وكُلّ بناء مُرتفع على شَكْلٍ مستديرٍ أو مربعٍ يكون مُنفردًا أو قِسْمًا من بنايةٍ عظيمةٍ. والبُرْج أيضًا أحَد بُروج السَّماء. والمقصود هنا النُّجومُ؛ لأنَّها تتبَرَّجُ؛ أيْ: تظهَرُ، أو مَنازِلِ الشَّمسِ والقَمَرِ، وسُمّيت بالبُروجِ؛ لأنَّها بالنِّسبةِ لهذه الكواكِبِ كالمنازِلِ لساكِنيها[3].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 352.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (برج).
(3) ابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 522.

2) ﴿ٱلۡمَوۡعُودِ﴾: يدُلُّ أصْل الكلمة (وعد) على تَرْجيَةٍ بقَولٍ. يُقالُ: وَعَدْتُه أعِدُه وعْدًا. ويَكون ذلك بخَيرٍ وشَرٍّ. فأمّا الوَعيدُ فلا يَكونُ إلّا بشَرٍّ. يَقولونَ: أوعَدْتُه بكَذا.[1] قال الفرّاءُ: يُقال وعَدْتُه خَيْرًا ووَعَدْتُه شَرًّا، والعِدَةُ: الوَعْدُ. والمَوْعِدَةُ، والميعاد: المواعَدَة والوَقْت[2]، والمقصود يوم القيامة.

3) ﴿وَشَاهِدٍ﴾: يدلُّ أصل الكلمة (شهد) على حضورٍ وعِلْمٍ وإعلام.[3] والشَّهادة: خبَرٌ قاطعٌ. تقول منه: شَهِد الرَّجُل على كذا، وقولهم: اشْهَد بكذا؛ أي: احْلِف. والمُشاهدة: المُعاينة. وشهده شُهودًا؛ أيْ: حَضَرَه، فهو شاهدٌ. وقومٌ شُهودٌ؛ أيْ: حُضورٌ، وشَهِد له بكذا شَهادةً؛ أيْ: أدَّى ما عنده من الشهادة، فهو شاهدٌ[4]. والشّاهِدُ: العالم الذي يُبَيِّنُ ما عَلِمَه.[5] والرّائي، أو المَخبِرُ بحَقٍّ لإلْزام مُنكِرِه، وقد اختُلف في المُراد به في الآية الكريمة على أقوال كثيرة منها: يوم الجمعة، ويوم النحر، والملائكة، وجوارح الإنسان.. وقيل غير ذلك[6].

4) ﴿ٱلۡأُخۡدُودِ﴾: أصلُ (خدد) يدُلُّ على امتدادٍ إلى السُّفلِ غائصٍ[7]، وهو الشَّقّ العَظيم في الأرضِ يُحفَرُ مُستطيلًا[8]، وهو المُراد في الآية، ويُجمع على أخاديد. وأصل ذلك من خَدَّي الإنسان؛ وهما العضوان النائتان المُكتنفان أنفه يمينًا وشمالًا. فالخَدُّ يُستعار للأرض وغيرها كاستعارة الوجه[9].

5) ﴿ٱلۡوَقُودِ﴾: أصلُ (وقد) يدُلُّ على اشتِعالِ النّارِ. وهو الحَطَب المَجعولِ للاتِّقادِ.[10] والوَقودُ بالفَتْح: الحَطَبُ، وبالضَمّ الاتِّقادُ.[11] يُقال: وقَدَتِ النارُ تَقِدُ وُقودًا ووَقْدًا. واستَوْقَدْتُ النارَ: إذا ترشّحتُ لإيقادِها، وأوْقَدْتُها. واتَّقَدَ فلانٌ غضبًا. ويُستعار (وَقَدَ)

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعد).
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: (وعد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).
(4) الجوهريّ، الصِّحاح: (شهد).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (شهد).
(6) الماورديّ، النُّكت والعيون: 6/ 241.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خدد).
(8) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 522.
(9) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (خدد).
(10) ابن قتيبة: غريب القرآن، ص: 43، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وقد).
(11) الجوهريّ، الصِّحاح: (وقد).

و(اتَّقَدَ) للحرب كاستعارة النّار والاشتعال[1]، والمُراد في الآية شدّة اتّقاد النّار.

6) ﴿قُعُودٌ﴾: القُعودُ يُقابَل به القيام، والقَعْدَةُ للمرّة، والقِعْدَةُ للحال التي يكون عليها القاعِدُ، والقُعودُ جَمْع قاعد. والمَقْعَدُ: مكان القعود، والجمع: مَقاعِدُ[2]، ويُعَبَّر بالقعود عن التّكاسل، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ۝٤٦﴾ [التوبة: 46][3]، والمُراد في الآية هو طول اللَّبث في مكان التّعذيب لمراقبة عذاب المؤمنين، والتّلذُّذ به.

7) ﴿نَقَمُواْ﴾: يدلُّ الأصل على إنكار شيءٍ وعيبِه، ونَقَمْتُ عليه أَنْقِمُ: أَنْكَرْتُ عليه فِعْلَهُ. والنِّقْمَةُ من العذابِ والانتقام، كأنَّه أَنْكَرَ عليه فعاقبه[4]، ونَقِمْتُ الشَّيْءَ ونَقَمْتُه: إذا أَنْكَرْتُه إمّا باللِّسان، وإمّا بالعُقوبة[5]، والمعنى هنا: الإنكار مع العقوبة.

المَعنى الإجْماليُّ:

القَسَمُ الإلهيُّ العظيمُ الذي يكشفُ عَظَمَةَ القُدرةِ، ويفضحُ جريمةَ أصحابِ الأخدودِ

أقسم اللّه بالسَّماء التي حوت منازل الشَّمس والقمر والنُّجوم، وجمعت تلك الأجرام في مسالك مُنتظمة، وسيرٍ محكم بديعٍ يشهد بتمام قدرة اللّه تعالى، وواسع رحمته، وشمول علمه، وجليل حكمته[6].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

واوُ القَسَمِ ونكتةُ الافتتاحِ بها:

الافتتاح بالقَسَمِ إشعارٌ بعظيمِ الأمرِ وفخامةِ المَقصدِ المُرادِ بيانُهُ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾ للقَسَم، وافتتاح السّورة بهذا القَسَم إثارةٌ لتشوُّف السّامعين لما سيأتي بعده، وتنبيهٌ إلى عِظَم المُقْسَم عليه، وهو في الوقت ذاته دعوةٌ للتَّأمُّل في ما أُقسِم

(1) الرّاغب، المُفردات: (وقد).
(2) الرّاغب، المُفردات: (قعد).
(3) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (قعد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نقم).
(5) الرّاغب، المُفردات: (نقم).
(6) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 918.

به؛ إذ إنَّ بعضه شواهدُ ساطعة على القدرة الإلهيَّة التي تستوجب انفراد اللّه بالألوهيَّة ونفي الشَّريك عنه، وبعضه تذكيرٌ بيوم البعث الموعود، وإشارةٌ إلى حتمية وقوعه؛ إذ لا يُقسَم إلّا بأمرٍ ثابتٍ لا ريب في تحقُّقه، وفي بعضه إبهامٌ مقصود يحمل النُّفوس على التَّطلُّع إلى كشف معانيه، فيشتدُّ انتباه السّامعين، ويتهيّأ القلب لتلقّي ما بعدها من الحقائق الجليلة[1].

معنى تعريفِ لفظِ (السَّماءِ):

حملُ الكلامِ على الإجمالِ أو التّفصيلِ إنّما يتعيَّن بحسبِ المقصودِ بالسّياقِ

المقصود بقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾ السَّماء الدُّنيا؛ لأنَّ البروج تُعرف منها فهو كقوله: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: 5][2]، فهي السَّماء الدُّنيا دون سائر السَّماوات السَّبع للقطع بذلك بالقرينة كما في قوله: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ١٧﴾ [الحجر: 16 - 17] فذات البروج هي المُزيَّنة بالكواكب للنّاظرين والمحفوظة من كلّ شيطانٍ رجيم، إلّا من استرق السَّمع فأتبعه شهابٌ مبينٌ.

دلالةُ القَسَمِ بالسَّماءِ ووصفِها:

القَسَمُ بالمخلوقِ يشملُهُ وصفاتِهِ المذكورةَ والمطويّةَ

القَسَم بالسَّماء بوصفِ ﴿ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾ يشمل السَّماء ووصفها، وجاء هذا الأسلوب مُتضمِّنًا القَسَم بالأمرَيْن معًا، ليلفت عقول المُتدبِّرين إلى ما في هذه المخلوقات وأحوالها من دلائل القُدرة الإلهيَّة وسَعة العلم الرَّبّاني؛ إذ أبدعها على مقادير دقيقةٍ مُحكمةٍ، وجعل انتظامها سببًا لانتفاع النّاس بها في معرفة مواقيت الشُّهور وتعاقب الفصولِ[3].

توجيهُ تخصيصِ ﴿ٱلۡبُرُوجِ﴾ بالذِّكْر:

السَّماءُ ذاتُ البروجِ وسيلةُ الاهتداءِ الحسيِّ والمعنويِّ

سُمّيّت السَّماء بُروجًا؛ لظهورها وتبرُّجها في السَّماء، أو لأنَّها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 237.
(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 341.
(3) ابن عاشور، التَّحريروالتَّنوير: 30/ 237.

بالنِّسبة لهذه الكواكب كالمنازل لساكنيها[1]، فآثر النَّظم الكريم ذِكْر بروج السَّماء دون بقيَّة مزاياها وصفاتها لما أنَّ هذه البروج ظاهرةٌ مُشاهَدَةٌ للنّاس، فكان ذِكرُها إشارةً إلى أنَّ على النّاس أن يهتدوا بها في معرفة الحقِّ الموصِل إلى الاعتقاد الصَّحيح؛ فإنَّ السَّماء ذات البروج وحدها كافيةٌ في الدَّلالة على الحقِّ المُبين.

نوعُ الاستعارةِ وبيانُها:

تشبيهُ البروجِ بالقصورِ العاليةِ بجامعِ الظُّهورِ

في لفظ: ﴿ٱلۡبُرُوجِ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ؛ حيث شُبِّهت الأماكن المرتفعة في السَّماء بالقُصور، فصُرِّحَ باسم المُشبَّه به، والجامع بين الطّرفيْن هو العُلوّ والظُّهور[2]، أو لكونها مبدأ للظُّهور وصفت به مجازًا في الطَّرف، فهي المنازل التي تبدو منها الكواكب وتخرج إلى مرأى البشر، فكأنَّها أبوابٌ تُفتح لظهور تلك الأنوار العلويَّة، وذلك على القول بأنها أبواب السَّماء[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بجمعِ ﴿ٱلۡبُرُوجِ﴾:

الـدَّلالـةُ على كثرتِها وتنوُّعِها

أوثِر جَمْعُ الكثرة (فُعول) على جمع القلَّة (أفعال) في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾؛ فجاء في الآية ﴿ٱلۡبُرُوجِ﴾ لا (الأبراج) ليُنبئَ عن الواقع، وإنْ لمْ يكن مُشاهدًا، وليلائم سَعَةَ السَّماء وعِظَمَ خلقها، وما أبدع فيها من النُّجوم ومواقعها، وفيه دلالة على كثرتها وتنوُّعها.

فائدةٌ في كونِ ﴿ٱلۡبُرُوجِ﴾ من الأفرادِ:

البُروجُ في القرآنِ غالبًا هي في السَّماءِ؛ كذلك هي القُصورُ المُشيَّدةُ

لفظُ ﴿ٱلۡبُرُوجِ﴾ من أفراد القرآن الكريم، حيث دَلَّت على بروج السَّماء في القرآن كلِّه إلّا في موضعٍ واحدٍ فدلَّت على القُصور في الدُّنيا، قال ابن فارس: "وَكُلُّ ما فيه من ذِكْر "البروج"، فهي الكواكب

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 341.
(2) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 178، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 295.
(3) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 178، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 295.

إلّا ﴿وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ﴾، فهي القصور الطِّوال الحصينة"[1]، والأفراد نوعٌ من المُشترك اللَّفظي تكون جميع الاستعمالات للَّفظ ذات معنًى واحدٍ، ولا يَشذُّ عنه إلّا استعمالٌ واحدٌ.

مناسبةُ العطفِ بين الجُمَلِ:

التّناسبُ بين المعاني طريقُ الاستدلالِ على الحقائقِ

لمّا كان قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾ مُتضمِّنًا الإشارة إلى إمكان البعث ودلالته؛ أعقبه سُبحانه بالتَّصريح بيوم البعث فقال: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ﴾ توكيدًا للمعنى وتجليةً له، ثُمَّ لمّا كان الحَشْرُ إنَّما يكون للعرض والحساب، والعرض لا يتمُّ إلّا بحضور الشّاهد والمشهود عليه وما يجري بينهما من احتجاجٍ ومُخاصمةٍ على ما قدَّموا من أعمالٍ؛ أُتْبِعَ ذلك بقوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾؛ ليكتمل مشهد يوم القيامة بما فيه من مظاهر وأحداث.

دلالةُ تعريفِ لفظِ (اليوم) ووصفُهُ بالموعودِ:

الزّمنُ المُستحقُّ بأن يوصف بالموعودِ هو يومُ القيامةِ

جاء لفظُ (اليوم) مَعرفةً للدَّلالةِ على أنَّ اليوم المُستحقَّ أن يُعرَّف تعريفًا حقيقيًّا بأنَّه الموعود هو هذا اليوم، وليكون توطئةً لتعريف صفته ﴿ٱلۡمَوۡعُودِ﴾، وهو يوم القيامة بإجماع المُفسِّرين[2]، ووصف بالموعود؛ لأنَّ الخلائق وُعِدوا فيه بالبعث للجزاء، ونُكتة الوصف تظهر في إثبات الوعدِ على سبيل التَّحقيق والتَّأكيد، وأنَّ لهذا اليوم ميعادٌ محتومٌ.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المفعولِ:

القيامةُ هو الزّمنُ الذي يحوي الحَدَثَ الأعظمَ للبشريَّة جمعاء

آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بصيغة المفعول في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ﴾ للإيماء إلى أنَّ هُناك وعدًا وفاعلًا له ومفعولًا، فالوعد هو يومُ القيامة[3]، والفاعل هو الله تعالى، والمفعول هو الحَدَثُ الواقع

(1) السّيوطيّ، الإتقان: 2/ 156.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 283.
(3) الجبليّ، البستان في إعراب مشكلات القرآن: 4/ 365.

في زمانٍ مُستقبليٍّ مُبهم عن الخَلْق، ودلَّت صيغة المفعول على تسليط النَّظر على الحَدَث في الزَّمن القادم، ولتكتمل الفاصلة في تناسقها اللَّفظيّ.

مُناسبةُ تقديمِ ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ﴾ على ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾:

تقديمُ الـزَّمـانِ على ما يقعُ فيه من أحداثٍ

تقدَّم ذِكْرُ ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾ باعتبار التَّقدُّم الزَّمانيِّ، وذلك بناءً على القول بأنَّ الشّاهد والمشهود هو ما يكون يومَ القيامة من شهادة الرُّسل على أقوامهم، أو الشّاهد الخلائق الحاضرون للحساب، والمشهود: اليوم[1]، فيكون ترتيب الكلام بتقدُّم ذِكْر السَّماء ذات البروج وهي الدّالة على النِّظام الدُّنيوي المُتكامل، ثُمَّ اليوم الموعود الدّالّ على النِّظام الأخرويّ، ثُمَّ الشّاهد والمشهود الدّالّ على النِّظام الجزائيّ في ذلك اليوم، فهو ترتيبٌ زمانيٌّ مُتوالٍ.

نُكتةُ إطلاقِ الوصفِ عن المُقيِّداتِ:

حُذِفَ مُتعلَّق الصِّفة في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ﴾، فلم يَقُلْ: الموعود به النّاس ونحو ذلك؛ لدَلالةِ الكَلامِ عليه، وليكون عَلَمًا بالإطلاق على ذلك اليوم.

غرضُ تنكيرِ ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾:

تشويقُ المُتلقّي لمعرفةِ المقصودِ تـعـظـيـمٌ للاهتمامِ بالمُرادِ

جاء قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾ نكرةً بعد معرفةٍ وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ﴾، وفائدة ذلك وقوع الاحتمال الدّلاليّ لهذيْن اللَّفظيْن، ولذلك فقد اختلف المُفسِّرون بالمُراد بهما مع إجماعهم على أنَّ (اليوم المَوعودِ) هو يوم القيامة، فقيل: الشّاهد يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة، وقيل: يوم النَّحْر، ويوم عَرَفة، وقيل: الملائكة، والإنسان، ودليله: قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ

---

(1) أبو حيّان البحر المحيط: 10/ 443.

﴿مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١﴾ [ق: 21] وقيل: الجوارح، والنَّفْس، ودليله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢٤ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ۝٢٥﴾ [النّور: 24 - 25]، وقيل: المشهود هو يوم القيامة، ومُستندُه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأٓخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝١٠٣ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ۝١٠٤﴾ [هود: 103 - 104]، وفي الشّاهد على هذا التّأويل خمسة أقوال: أحدها: هو اللّه تعالى مُستنده الآيات الكثيرة الدّالة ومنها ما سيأتي بالسّورة: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، ومنها: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: 19]. الثّاني: هو آدم عليه السلام، الثّالث: هو عيسى ابن مريم عليه السلام ومأخذه قوله تعالى على لسان عيسى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: 117]، وقوله سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النّساء: 41]، الرّابع: هو مُحمَّد ﷺ ؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١﴾ [النّساء: 41]، الخامس: هو الإنسان، قاله ابن عبّاس - رضي الله عنهما[1]، ومُستنده كثيرٌ؛ منه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ۝١٧٢ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝١٧٣﴾ [الأعراف: 172 - 173]، وقوله عز وجل: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ [القصص: 75].

وهذا الاختلاف نابعٌ من توجيه الشّهادة والمشهوديّة بحسب ورودها في نصوص الكتاب والسُّنّة، وغرض التّنكير التّشويق لمعرفة المقصود منهما؛ لتوريث الاهتمام لدى المُتلقّي بذلك، وهو ما جعل الطّبريَّ يذهب إلى القول بالعموم، حيث قال: "والصوابُ من القولِ في ذلك عندَنا أنْ يُقالَ: إنَّ اللّه أقسَم بشاهدٍ شَهِد، وبمشهودٍ شُهِد، ولم يُخبِرْنا مع إقسامه بذلك أيَّ شاهدٍ وأيَّ مشهودٍ أراد، وكلُّ الذي ذكَرْنا أنَّ العلماءَ قالوا هو المعنيُّ مما يستحقُّ أنْ يُقالَ له: شاهدٌ ومشهودٌ"[2]، وتابعه القرطبيُّ وابنُ كثيرٍ رحمهما اللّه تعالى[3]، فيكون على هذا التّنكير مُرادٌ به العموم، وتوجيه النّظر على أنَّ أحقَّ شاهدٍ ومشهودٍ بهذا اللّفظ هو ما يكون يوم القيامةِ.

(1) الماورديّ، النُّكَت والعيون: 6/ 242، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 108.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 270.
(3) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 8/ 477.

كما أفاد التَّنكير التَّهويل والتَّعظيم بالإيهام في الوَصْف، وهذا هو المُناسب للمَقام؛ لأنَّ المَقام يقتضي الزَّجْر، والتَّقدير: أيُّ شاهد ومشهود لا يُكْتَنه وصْفهما، ولا يُعْرَف قَدْرهما! ويحتمل أن يكون التَّنكير للمُبالغة في كَثْرة العَدَد[1].

سِرُّ استعمالِ مُفرَدَةِ (شهد):

الإيـمـاءُ إلى الـعـدلِ بين الـخـلائـقِ في الجزاءِ

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ مادة (شهد) في قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾، وذلك للإيماء إلى معنى الحساب والجزاء العادل، فإنَّ وجود شاهدٍ ومشهودٍ يدلُّ على وجود شهادةٍ في أمرٍ جللٍ يستحقُّ استجماع أركانها، وعلى جميع الأقوال المذكورة في تفسير ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ فإنَّ معنى الشَّهادة حاضرٌ فيها جميعِها، وهي مجمع الأدلَّة التي ستكون يوم القيامة على أفعال العباد، وإن كان أولاها بالقبول هو ما يكون من الشَّهادة على الخلائق يوم القيامة، فهي الشَّهادة التي تُعيِّن مصيرَ الخلائق في أحد الجزاءيْن.

كما أنَّ الشّاهد والمشهود يدلُّ على "كُلّ مَنِ اتَّصف بهذا الوصف؛ أيْ: مُبْصِر ومُبْصَر، وحاضر ومحضور، وراءٍ ومرئيٍّ"[2].

بلاغةُ الكنايةِ عن صفةِ الجزاءِ:

ذِكْرُ أدلّةِ الجزاءِ والمشهودِ عليه مع الإيماءِ إلى ثمرةِ الشّهادةِ بعبارةٍ وجيزةٍ

قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ كنايةٌ عن صفة الجزاء على القول بأنَّها في الشَّهادة يوم القيامة، ونُكتة الكناية ذِكْرُ أدلّة الجزاء والمشهود عليه مع الإيماء إلى ثمرة الشّهادة بعبارة وجيزة مختصرة جامعةٍ بين معانٍ كثيرة بألفاظ مختزلة، وهي تُناسب سياق إثبات الوعد الحقّ، وما ينشأ عنه من الجزاء العادل بين الظالمين والمظلومين، كما أفاده مقصود السورة الكريمة.

---

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 729، والقونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 179، والبِقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 21/ 355.

(2) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 918.

بلاغةُ الكنايةِ عن صفةِ الإحاطةِ الإلهيّةِ:

رقابةُ الله على عبادِهِ وإحاطتُهُ بأحوالِهِم أعظمُ شهادةٍ وأعدلُ جزاءٍ

يدلُّ مضمون قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾ على إحاطة عِلْم اللّه تعالى، ومراقبته لجميع أعمال العباد، وأنَّه سبحانه الرَّقيب الحَسيب الذي لا تخفى عليه خافية في هذا الكون الفسيح، كَما يدلُّ على كمال العدالة الإلهيَّة؛ فإذا كان ربُّ العِزَّة ﷻ، وهو الشَّهيدُ على كُلِّ شيءٍ، العليمُ بكلِّ خَفيٍّ وجَليٍّ، وقد وكَّل ملائكةً يكتبون أعمال العباد، ثُمَّ مع هذا كلّه لمْ يَقض بين خلقه بما يعلمُه منهم ولا بما دوَّنته ملائكته؛ بل يُقيم الحُجَّة عليهم باستنطاق جوارحهم، واستشهاد الرُّسل على أُممهم، واستشهاد النَّبي ﷺ على سائر الرُّسل بأنَّهم أدّوا رِسالات ربِّهم؛ فكان هذا هو منهج العدل الإلهيِّ؛ فمن باب أولى ألّا يقضي القاضي بعلمه مُجرّدًا؛ بل لا بُدَّ من بيِّنة تُقام وحُجَّة تُظهر[1].

نكتةُ إفرادِ لفظِ (شاهِد):

أُفْرِد لفظ ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾؛ لأنَّ المقصود الجِنْس[2]، فيدخل في ذلك كلُّ شاهدٍ ومشهودٍ بناءً على الأقوال المذكورة في تفسير الآية، فكلُّ قولٍ بحسب ما يدلُّ عليه.

دلالةُ حَذْفِ مُتعلَّقِ ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾:

دلالــةُ الـكـلامِ والـسّـيـاقِ على المحذوفِ

حُذِف مُتعلَّق الوصفيْن في قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾؛ لدلالة الكلام عليه، وللعِلْم به[3]، وذلك بحسب توجيه الأقوال التَّفسيرية الواردة في ذلك، فلكلٍّ منها مُتعلّق بحسب مُقتضاه.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ﴿ٱلۡمَوۡعُودِ﴾:

من الطَّريفِ مُقابلةِ يوم أصحاب الأخدود بيوم الوعيدِ المذكور

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 8/ 480.
(2) القونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاوي: 20/ 179، والمظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 10/ 234.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 240.

إجراءٌ لحكم سَبْقِ الرَّحمة الغضبَ وتغليبًا لِمَن أوذوا في الله

بالآية الكريمة ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠﴾ [ق: 20]، وإنَّما قال هُنا: ﴿ٱلۡمَوۡعُودِ﴾؛ أيْ: به، دون أن يقول (المُتَوَعَّد) أو (الموعَد) إجراء لحكم سَبْقِ الرَّحمة الغضبَ وتغليبًا لِمَن أوذوا في الله فهم آثر بنظر الله إليهم، وبيانًا لطيب نفوسهم وما وقر فيها من سماحتهم أنهم لا يعنيهم تعذيب أولئكم الذين نقموا منهم إيمانهم، فلو آمنوا بعد شنيعِ ما فعلوا بهم لفرحوا لهم وسُرّوا بهم ولم يكن تعذيبهم مطلوبًا لهم، وقد جاء التَّعبير القرآنيّ السَّمح: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ﴾ مُناديًا على الكفار: واصباحاه؛ مُلمِّحا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾، قال الحسن البصريُّ رحمه الله: "انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وأهل طاعته، وهو يدعوهم إلى التَّوبة"[1].

تعيينُ جوابِ القَسَمِ:

كثرةُ الأقوالِ في جوابِ القَسَمِ دالّةٌ على سَعَةِ دلالةِ النَّظمِ الكريمِ

اختُلف في تعيين جواب القَسَم لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾، فقيل: الجوابُ قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾، على تقدير اللّام، والأصل: لقُتل، وإنَّما حسُن حذفها للطّول، وقيل: تقديرُه: لقد قُتِلَ، فحَذَفَ (اللامَ) و(قد)، وعلى هذا فقولُه: ﴿قُتِلَ﴾ خبرٌ لا دُعاءٌ، وقيل: بل هي دعاءٌ فلا يكونُ جوابًا، وفي الجواب حينئذٍ أوجهٌ، أحدُها: أنَّه قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ﴾، الثّاني: قولُه: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ﴾، الثّالث: محذوفٌ يَدُلُّ عليه: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾، كأنَّه قيل: أُقسِمُ بهذه الأشياءِ إنَّ كفّار قريشٍ مَلعونون كما لُعِنَ أصحاب الأخدود[2].

بلاغةُ جوابِ القَسَمِ المُقدَّر بين الإنشاءِ والخبرِ:

تقديرُ المُحتملاتِ المحذوفةِ مُرتبطٌ بمعاني الألفاظِ ودلالاتِ السّياقِ

قد تكون جُملة: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ إنشائيَّة دعائيَّة دالَّة على الجَوابِ؛ أيْ: لُعِنَ أصحاب الأخدود، كأنَّه قيلَ: أُقسِمُ بأنَّ كُفّار

---

(1) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمان، ص: 918.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 729، والسّمين، الدُّرُّ المَصون: 10/ 743.

مكّة ملعونون، كما لُعِنَ أصحابُ الأُخْدودِ، ويُرشِّح هذا أنَّ السّورةَ ورَدَتْ لتَثبيتِ المُؤمنينَ على ما هُم عليه من الإيمانِ، وتصبيرهم على أذيَّةِ الكَفَرة، وتَذْكيرِهم بما جرى على مَن تقدَّمَهم من التَّعذيبِ على الإيمانِ وصَبرِهم على ذلك؛ حتَّى يأْتَسوا بهم، ويَصبِروا على ما كانوا يَلْقَون من قومهم، فجملة ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ دَليلٌ على لعنة اللّه على مَن فعَلَ ذلك، وطَرْدِه من رحمةِ اللّه، وتَنبيهٌ لكُفّارِ قُرَيشٍ الَّذين يُؤذونَ المُؤمنينَ ليَفتِنوهم.

وإمّا أن تكون جُملة: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ خبرًا لا دعاءً، وذلك على تفسير ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ بالمقتولين، والمعنى أنَّ أولئك المؤمنين قُتِلوا بالإحراق بالنّار، فيكون ذلك خبرًا لا دعاءً[1]، ويَتعيَّنُ على هذا أنْ يكونَ الخبَرُ مُستعمَلًا في لازمِ مَعناهُ من الإنذارِ للَّذين يَفتِنونَ المؤمنينَ بأنْ يَحُلَّ بهم ما حلَّ بفاتِني أصحابِ الأُخدودِ، وإلّا فإنَّ الخبَرَ عن أصحابِ الأُخدودِ لا يَحتاجُ إلى التَّوكيدِ بالقَسَم؛ إذ لا يُنكِرُه أحدٌ، فهو قِصَّةٌ مَعلومةٌ للعرَبِ، وتَقديرُ الكلام: لَقَدْ قُتِلَ أصحابُ الأُخدودِ، فيَكونُ المُرادُ من أصحابِ الأُخدودِ الَّذين أُلقوا فيه، وعُذِّبوا به، ويَكونُ لَفظُ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ مُستعمَلًا في مَعنى مُجرَّدِ المُقارَنة والمُلازَمة[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بمُفرَدَة ﴿قُتِلَ﴾:

الإشارةُ إلى قَتْلِ المؤمنين على يدِ الكافرين وطرد الـكـافـريـن من رحمةِ الله أشنعَ طردٍ

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبير بمُفردة القتل في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾، وذلك لتدلَّ على معانٍ عديدة؛ منها احتمال المعنى الحقيقي في الإخبار عن كون المؤمنين قُتِلوا من قِبَل المجرمين، واحتمال أن تكون مجازًا عن اللَّعن؛ إذ الطَّرْد عن الرَّحمة يلزم

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 108.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 443 - 444، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 240 - 241.

القتل، والقتل أعظم العقوبات، واللَّعن إذا كَبُر عُبِّر عنه بالقتل[1]، وهذا المجاز يَدلُّ على أنَّ اللَّعن بَلَغ مبلغًا عظيمًا من الشِّدَّة، فذَكَر القتلَ وأراد اللَّعن زيادةً في التَّشنيع عليهم، ويحتمل أن يكون حقيقةً في الإخبار عن قتلهم عذابًا بعد تعذيبهم المؤمنين، ولا يمنع من اجتماع هذه المعاني، فالمؤمنون قُتلوا على يد الكافرين، والكافرون طُردوا من رحمة الله أشنع طردٍ.

نكتةُ بناءِ فعلِ ﴿قُتِلَ﴾ للمفعولِ:

بُنيَ فعلُ ﴿قُتِلَ﴾ للمفعول؛ للعلم بمَن لعنهم، وطردهم من رحمته تعالى، ولتوجيه النّظر إلى معنى اللَّعنِ في حقِّ أولئك الظّالمين المجرمين، دون ذِكْرِ الفاعل لتحقيرهم.

دلالةُ لفظِ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾:

مُلازمةُ الأخدودِ في الفكرِ والعملِ، والتَّعذيبُ عنوانُ إجرامٍ راسخٍ

دلَّ لَفْظُ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ على معنى المُلازمة التي اكتسبها القائمون على الأخدود، فإنَّ هذا اللَّفظ "يَعُمُّ الآمِرين بجَعْلِ الأُخدودِ، والمُباشرين لِحَفْره وتسعيره، والقائمين على إلقاء المؤمنين فيه"[2]، كما دلَّت كلمة ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ على تواطُؤ أصحاب الأخدود وتوافقهم على هَدَفٍ واحدٍ هو تعذيب المؤمنين بأشدِّ أنواع التَّعذيب وإحراقهم، كما تُشير إلى الأشخاص المُرتبطين بالأخدود، وتُؤكِّد على فاعليتهم في الحَدث؛ حيث قاموا بحفر الأخدود أو أمروا بحفرِه.

دلالةُ الإضافةِ وغرضُها:

التَّعريفُ بالإضافةِ بسببِ الشُّهرة التّاريخيّة فلا يُزاحمهم عليها أحدٌ

إضافة لفظ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ إلى ﴿ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ إضافةُ تعريفِ شُهرةٍ، فقد دلَّت الإضافة على أنَّ كُلَّ مَنْ باشر بالأمر أو بالتَّنفيذ مِمَّن حفر الأخدود وإضرامه نارًا، وإلقاء المؤمنين مُكبَّلين مُقيَّدين فيه، وتعاهده

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 182.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 240.

بالإضرام والتَّسعير، ومَن أخرج المؤمنين من بيوتهم ومقارّهم إليه فكلهم مُتَّحدون في الجُرم ويتقاسمون جميعًا تبعته ووزره.

بلاغةُ استعمالِ مُفردَةِ ﴿ٱلۡأُخۡدُودِ﴾:

الأخـدودُ شقٌّ في الأرضِ عميقٌ وعظيمٌ يحوي أعدادًا هائلةً من البشرِ

اشتُقَّ لفظ الأخدود من الخدِّ الذي هو وجه الإنسان، ثُمَّ استُعير وأُطلق على الشِّقِّ العظيم الطَّويل في الأرض[1]، فالخَدُّ يُستعار للأرض وغيرها كاستعارة الوجه[2]، وهو على وزن (أُفعول)، فهو من الكلمات الحِسِّيّة الواصفة الكاشفة المُعَبِّرة المُكْتنزة؛ حيث دَلَّت على فعل الشَّقّ في الأرض تصويرًا حِسّيًّا مُشاهدًا كأنّنا نراه، وقد جاء وصف هذا الشقّ العظيم في الأرض؛ لأنّه يدُلُّ على امتدادٍ إلى السُّفلِ غائض[3]، والأخدود هو شقٌّ طبيعيٌّ في الأرض، فهو يختلف عن الخندق الذي يُحفر، فدلَّ على أنَّ المُعذِّبين اختاروا أخدودًا ووضعوا فيه المؤمنين، وعذَّبوهم، فعُرفوا به لا لحفرهم إيّاه؛ بل لاختيارهم إيّاه، وهو ما يتناسب مع استعارة الخدِّ لهذا الشَّقِّ، كما يُستعار الوجه للأرض، ولا يكون الأخدود صغيرًا أو قصيرًا، بل كبيرًا عظيمًا عميقًا غائرًا، وهو ما يدلُّ على كثرة المؤمنين المُعذَّبين فيه، وكثرة الجُند القائمين على تعذيبهم، فلم تكن حالاتٍ فرديّةً، بل هو عذابٌ لأُمَّةٍ كاملة.

أثرُ الإعرابِ في المعنى في لفظِ ﴿ٱلنَّارِ﴾:

تهويلُ الأخدودِ ببيانِ أنّـه نـارٌ عظيمةُ الشَّأنِ استولت عليه

لفظ ﴿ٱلنَّارِ﴾ إمّا أن يكون بَدَلًا من الأُخدودِ بَدَلَ اشْتِمالٍ؛ لأنَّ الأخدود مشتَمل عليها، أوْ بَدَل بعضٍ من كُلٍّ؛ لأنَّ المُراد بالأُخدود الحَفيرُ بما فيه[4]، وتُرِكَ الرّابط بينها وبين الجُملة قبلها؛ لكونه

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 522.
(2) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (خدد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خدد).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 242.

معلوم الاتِّصال بينهما[1]، أو الرّابِطُ مُقَدَّرٌ، تقديرُه: (النّارِ فيه)، أو أُقيمَت (أل) في ﴿ٱلنَّارِ﴾ مُقامَ الضَّمير، تقديرُه: ناره، ثُمَّ حُذِفَ الضَّميرُ، وعوِّضَ عنه (أل)، وقيل: بَدَلُ كُلٍّ من كُلٍّ، على نيَّةِ حَذْفِ مُضافٍ، تقديرُه: أُخدودِ النّارِ[2]، وهذا القول هو أولى الأقوال في ذلك بالصَّواب وأقواها؛ لأنَّ الله تعالى بعد أن قال: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ والأخدود مُذكَّر، قال عُقيب ذِكْرِ النّار: ﴿إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٌ﴾ والمقام لِـ (عليه)، فلما أنّث بقوله ﴿عَلَيۡهَا﴾ دلّ على أنها أُقيمت مقامه في المعنى، وذلكم الأبلغ إذ يجعل الأخدود استحال نارًا كلّه وهو الواقع الذي ينبغي حمل كلمات القرآن عليه، وجميع هذه الأعاريب تدلُّ على عظمةِ النّار، سواء أكانت بدلَ اشتمالٍ أو كُلٍّ من كُلٍّ أو بعضٍ من كُلٍّ؛ لأنَّها جاءت مُبيِّنةً للأخدود بأنَّه نارٌ عظيمةٌ ذات وقودٍ شديدٍ، ففيها تهويل من شأنِ الأخدود، وأنّه قد امتلأ نارًا لتعذيب المؤمنين.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلنَّارِ﴾:

تعريف لفظ ﴿ٱلنَّارِ﴾ للإشارة إلى نارٍ معهودةٍ عَلِمَها النّاسُ، ووعتها أذهانُهم فتناقلوها، وهي التي حُرِّق بها المؤمنون، أو هي عِوَضٌ عن مُضافٍ إليه محذوف تقديره: نار الأخدود.

بلاغةُ الوصفِ بـ ﴿ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ﴾:

مرحلةُ أصحابِ الأخدودِ اتّسمتْ بالقهرِ المُفرِطِ والجبروتِ البالغِ

معنى ﴿ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ﴾ أنَّها لا يُخمَدُ لَهَبُها؛ لأنَّ لها وقودًا يُلْقى فيها كُلَّما خَبَتْ[3]، ووَصْف النّار بأنَّها ﴿ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ﴾ فيه إشارةٌ إلى استمرار اشتعال النّار دون تَوَقُّف، فدلَّ ذلك على أنَّ القائمين على النّار يزيدونها وقودًا كلَّما خبت لا يكسلون عن ذلك بدافع القسوة الشَّديدة، والحقد البالغ، والكُفر المُفرط، وهو ما يدلُّ على

(1) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 184.
(2) الفَرّاء، معاني القرآن: 3/ 253، والعُكبريّ، التِّبيان في إعراب القرآن: 2/ 1280، والسّمين، الدُّرّ المَصون: 10/ 743 - 745، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 297 - 299.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 242.

طبيعة تلك المرحلة التي عاشها البشر من القهر والجبروت والظُّلم والطُّغيان، فلا يكفيهم القتل، بل التَّعذيب بأشدِّ أنواعه.

بلاغةُ الكنايةِ في لفظِ ﴿ٱلْوَقُودِ﴾ دون (موقدة):

تصويرُ زيادةِ لهيبِ النّارِ زيادةً مُفرطةً

في قوله تعالى: ﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ تكثيرٌ ومُبالغةٌ، ذلك أنَّه لم يَقُلْ: (موقدة)؛ بل جعلها ذات وقودٍ؛ أيِّ: مالكة الوقود، وهو كنايةٌ عن زيادته زيادةً عظيمةً لكثرة ما يرتفع به لهبُها وهو الحطب الموقد به؛ لأنَّ تعريفه استغراقيٌّ، وهي إذا ملكت كُلَّ موقود به عظم حريقها ولهبها[1]، وفيه إشارةٌ أيضًا إلى شِدَّة العذابِ احتراق مَن فيها.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلْوَقُودِ﴾:

كثرةُ ما يرتفع لهبُ النّار وعظيم ما يشتدُّ حريقُها

﴿ٱلْوَقُودِ﴾ ما توقد به النّار، والقصد وصْف النّار بالشِّدَّة والعِظَم[2]، وتعريفُ لفظِ ﴿ٱلْوَقُودِ﴾ للجِنْس؛ أيِّ: للاستغراق الادِّعائيّ بقصد المُبالغة، لإفادةِ الانتقاءِ للوقود السَّريع الإيقاد والاشتعال الشَّديد الضّرام والضَّراوة العالي اللهب، وكأنَّ كُلَّ الوَقود قد جُمِع لتلك النّار التي عَظُم لَهيبها، واشتدَّ حريقها، وأفاد قوله: ﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ المُبالغة بطريقة التَّجريد، وكأنَّ النّار انتُزِع منها نار أُخرى ذات الوقود مثلها.

بيانُ مُتعلَّقِ ظرفِ الزَّمانِ:

ظرفُ الزّمانِ في قوله تعالى: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا﴾ مُتعلّق بفعلِ ﴿قُتِلَ﴾؛ أيِّ: لُعِنوا حين أحْدَقوا بالنّارِ قاعدينَ حولها في مكانٍ قَريبٍ منها مُشْرفين عليها من حافّاتِ الأُخْدود[3].

تعيينُ مرجعِ الضَّميرِ ودلالتِه:

إبرازُ تلبُّسهم بالفعلِ، وتصوير قُربهم من النّارِ قُربَ المُتعمِّدِ المُراقِبِ

يرجع الضَّمير في قوله تعالى: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا﴾ للكُفّار الذين كانوا يُحَرِّقون المؤمنين في الأخدود، وهم أصحاب الأخدود على الأظهر[4].

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 342.
(2) ابن جُزَيّ، التَّسهيل لعلوم التَّنزيل: 2/ 469.
(3) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 23/ 384، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 299.
(4) ابن جُزَيّ، التَّسهيل: 2/ 469.

فإسناد الضَّمير إليهم يُبرز تلبّسهم بالفعل، ويُصوّر قُربهم من النار قُربَ المُتعمّد المراقِب وهذا الفعل يبلغ بهم غاية ما يكون من الطغيان وغِلَظ القلب؛ إذ إنّهم جمعوا بين جحود آيات اللّه ومكابرتها، وبين محاربة أهل الإيمان وتعذيبهم بذلك العذاب الشنيع، فاجتمع فيهم الكفر والعدوان وقسوة القلوب(1).

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على الخبرِ:

المجرمُ شديدُ النِّقمةِ على المؤمنِ فيُرى عذابُه من أقرب المواقع

قُدِّم الجارَّ والمجرور على الخبر في قوله تعالى: ﴿هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ﴾؛ فلم يَقُلْ: (إذ هم قعود عليها)؛ وذلك لأهميَّة المُقدَّم في السَّياق؛ إذ المقصودُ: بيانُ أنَّهم على حوافِّ أخدود النّار قعود، وهو ما يُثير الدَّهشة ويُحرِّك الاستغراب، ويقود إلى استنباط أنَّهم على أشدِّ أنواع الحقد والكراهيَّة والنِّقمة للمؤمنين، مع ما في التَّقديم من مُراعاة الفاصلة.

فائدةُ التَّعبيرِ بحرفِ الاستعلاء دون الظَّرفِ:

تصويرُ مشهدِ الجريمةِ بمُراقبةٍ حثيثةٍ ومُتابعةٍ رتيبةٍ

آثر نَّظم الكريم استعمال حرف الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ﴾ دون التَّعبير بالظَّرف (عند)، فلم يَقُلْ: إذ هُم عندها قعود؛ وذلك للدِّلالة على شِدَّة قُرْب أصحاب الأخدود من النّار التي أضرموها ليُشرفوا بأنْفُسهم على تعذيب المؤمنين؛ فأفاد حرف الاستعلاء مُكنة المُعذِّبين من الإشراف على النّار مع طول مُكثِهم لذلك، فهم عليها قعودٌ يُراقبون ويأمرون ويُشرفون ويُتابعون مشهد الجريمة بكلِّ سرورٍ وراحةِ بالٍ(2).

نوعُ الاستعلاءِ ودلالتُه بين المجازِ والحقيقةِ:

الدَّلالةُ على المُبالغةِ في كِبْرِ الكافرين وعُتوِّهم وشدَّةِ التَّعذيبِ للمؤمنين

الاستعلاءُ مجازيٌّ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ﴾؛ لأنَّهم لا يقعدون فوق النّار، ولكن حولها، وهو مجازٌ مُرسَلٌ أي على ما

(1) قاسم، عقد الجُمان في تفسير القرآن: 1/ 1280.
(2) ابن علي محمد، التّفسير المُيسَّر: 1/ 1549.

يقرب منها فهم على جوانبها قعود والعلاقة الُمجاورة، وإنّما عُبِّر عن القُرْب والمراقبة بالاستعلاء، ويحتمل أن يكون الاستعلاء حقيقيًّا على احتمال أن يكون الُمراد بأصحاب الأخدود المؤمنين الُمعَذَّبين فيه، فالقعود حقيقة؛ أي: قاعدون على النّار بأن كانوا يحرقونهم مربوطين بهيئة القعود؛ لأنَّ ذلك أشد تعذيبًا وتمثيلًا؛ أيْ: بعد أنْ يُقْعِدوهم في الأخاديد يوقدون النّار فيها، وذلك أروع وأطول تعذيبًا[1]، ويمكن أن يكون الاستعلاء على النّار مجازًا عَقْليًّا؛ إذِ الاستعلاء على النّار غير مُمْكِنٍ؛ لكن أُريد به الُمبالغة[2].

بلاغةُ مُفردةِ ﴿قُعُودٌ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الكشفُ عن أحداثِ التّاريخ دليلُهُ دِقَّةُ التَّعبيرِ القرآنيّ

آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بالاسم ﴿قُعُودٌ﴾ على الفعل (يقعدون) أو اسم الفاعل (قاعدون)؛ للدَّلالة على مُداومة أصحاب الأخدود وثباتهم في الإشراف على تعذيب المؤمنين سواءً كانوا قاعدين عليها أو قائمين؛ لأنَّ استمرار القعود دون انقطاعٍ غير مُتَصَوَّرٍ[3]، وصيغة ﴿قُعُودٌ﴾ متناسبةٌ مع مُفردَة القعود الدّال على طول الُمكث، فاجتمعت دلالة الُمفرَدة، والصيغة في بيان طول الُمكْثِ على حوافِّ الأخدود في مراقبة عذاب المؤمنين، ويُؤخذ من ذلك أنَّ عدد المؤمنين كثيرٌ، ممّا يستلزم طول المراقبة ودوام الُمكث، وأنَّ هؤلاء الُمعذِّبين كانوا قُساةً جبابرةً طغاةً، يَروْن النّارَ تلتهم البَشَر وهم قعودٌ فكِهون لا يتأثرون فيتحرّكون، وإنّما هو القعود ذو الُمكثِ الطويل، والثّبات اللئيم، فاستُعمل لفظ القعود دون الجلوس وهذا على سبيل الكناية عن مُلازمتهم لمواضع الأخاديد، حتى لا يتراخى مَن يوقد النّار في متابعة تسعيرها وإذكاء لهيبها[4]، وهو من الوصف التاريخيّ لِما كان

(1) ابن عاشور، التّحريروالتَّنوير: 30/ 243.
(2) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 185.
(3) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 185.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 242.

في الأخدود، كشفت عنه ألفاظُ العربية المُستعمَلة في نَظْمِ الآية، وهو ما عبّرت عنه مُفردةُ القعود بصيغتها المذكورة.

وعلى القول بأنَّ الضَّمير في ﴿قُعُودٌ﴾ عائدٌ على أهل الإيمان المُعذَّبين؛ فاستعمال القعود دون الجلوس يَشي بأن النّار قد تمكَّنت منهم حتَّى نفذت إلى أحشائهم؛ فصار موضع استقرارهم نفسه من جحيمها.

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

تصويرُ أخلاقِ المجرمين أثناء تعذيبِ المؤمنين وبيانُ حالِهِم المُشمئِزَّة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ تحتمل أن تكون حاليَّةً، والجُملة في موضع الحال من ضمير ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾، كأنَّه قيل: قعودٌ شاهدين على فعلهم بالمؤمنين، وفائدة هذه الحال تفظيع ذلك القعود وتعظيم جُرمه إذ كانوا يشاهدون تعذيب المؤمنين لا يرأفون بهم، وبذلك فارق مضمون هذه الجملة مضمون جملة: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ باعتبار تعلُّق قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾[(1)]، والقول بالحاليّة بديعٌ لأنّه يُصوِّر حال المجرمين أثناء قعودهم ومراقبتهم عذاب المؤمنين.

وتحتمل أن تكون الواو عاطفةً على جملة ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾[(2)]؛ أيِ إنَّ أولئك الجبابرة القساة لم يقتصروا على إضرام النّار والاحتشاد حولها وقت تعذيب المؤمنين؛ بل زادوا على ذلك أن وقفوا يرقبون ما يجري بأعينهم، يشهدون آلامهم لحظة بلحظة، ويتلذذون بمشهد العذاب تشفّيًا وانتقامًا[(3)].

وتحتمل الواو أن تكون استئنافيّةً، لابتداء خبرٍ جديدٍ[(4)]، لبيان حال أصحاب الأخدود بعد تعذيب المؤمنين بالإحراق.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 243.
(2) صافي، الجدول: 15/ 290.
(3) طّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 345.
(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 185.

فائدةُ تكرارِ الضَّميرِ في ﴿وَهُمۡ﴾:

أُعيدَ الضميرُ في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾ ليَتَعَيَّنَ أنْ يكونَ عائدًا إلى أصحابِ الأُخْدودِ[1]، وليُتعجّب من حالهم؛ أيْ: وحالهم العجيبة أنّهم كيت وكيت.

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المُسنَدِ:

حقدُ الكافرِ أشدُّ من الكُفرِ نفسِه وأقسى من الحِقدِ وحده

أفاد تقديم ذِكْرِ الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ﴾؛ فلم يَقُلْ: (وهم شهود على ما يفعلون بالمؤمنين) المُسارعة إلى بيان جُرْمهم وجبروتهم وبيان شناعة فعلهم وتفظيعه، والتَّشويق إلى بيان ما يفعلونه من شهود العذاب؛ أيْ: فوق أنَّهم قعودٌ مُلازمون لعذاب المؤمنين، فهم على فعلتهم الشَّنيعة شهودٌ، وهو ما يوحي بشدَّة القسوة والحقد، إذ الشُّهود هو حضور القلب والعقل معًا لمُشاهدةِ العذاب المؤلم، مع ما في التَّقديم من مُراعاة الفاصلة.

فائدةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

هولُ العذابِ يُناسبه ألفاظُ العمومِ والإبهامِ

أفاد استعمال الاسم الموصول ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إبهام الفعل وتهويله، فإنَّ إبهام حقيقة العذاب يشي بهوله، وأنَّه عذابٌ كثير الأصناف لا يُعيَّن وصفه، ولو أتى بالاسم الموصول (الذي) لما أفاد ذلك؛ بل لأشعر بأنَّه عذابٌ معلومٌ حاله، مستحضرةٌ صفاته، والسّياق سياق تهويل وبيان بشاعة العذاب، لا بيان تفاصيله.

بلاغةُ اختيارِ مُفرَدَةِ ﴿يَفۡعَلُونَ﴾:

الإيماءُ إلى ثباتِ المؤمنين ممَّن شُهِر بصناعةِ الجريمةِ والتَّفنّن بها

آثر النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مُفردة ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ دون مُقارباتها مثل العمل، والصُّنع، أو الألفاظ الدّالة على الفعل مثل التَّعذيب، وذلك

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 242.

لأنَّ التَّعبير بالفعل يدلُّ على أنَّهم أصبحوا فاعلين مُمارسين للتَّعذيب، فهو جزء من أفعالهم المُستمرة والدّائمة، فيُقال فلانٌ فعله القتل؛ كما أنَّ التَّعبير بهذه المُفردة يدلُّ على أنَّهم اشتُهروا بها، كما قيل لموسى عليه السلام: ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ﴾ [الشُّعراء: 19]، فهم هذه فعلتهم التي اشتُهروا بها؛ فكان من المُناسب جدًّا استعمال هذه المُفردة؛ لبيان رُسوخ الإجرام والتَّعذيب في سلوكهم، وهو ما يومئ إلى مديح المُؤمنين الثّابتين على الإيمان، فلم يصدّهم إجرام هؤلاء عن إيمانهم.

نُكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الفعلِ المُضارِع:

جاء التَّعبير بصيغة الفعل المُضارع ﴿يَفۡعَلُونَ﴾؛ لبيان تجدُّد التَّعذيب من المُجرمين، واستمرارهم عليه، وهو ما يتناسب مع مُفردة الفعل كما سبق في النُّكتة السّابقة.

بلاغةُ المَجازِ ونوعُه:

لا فـــرقَ بين الفعل القلبيِّ والفِكريِّ والبدنيِّ والتَّحضيضيِّ في مُجتمع الكراهيَّة

أُسنِد فعل ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ إلى جميع أصحاب الأخدود من آمرين ومباشرين لجمع وقودها وسعارين ووَزَعة، وشهود لها من أجناد المَلِكِ الظّالم[1]، فمع أنَّ المباشرين لتلك الفعلة الشَّنيعة بعضهم؛ جمع غيرهم معهم لرضاهم بما يقوم به زبانية هذه النّار، فأُسْنِد الفعل إليهم جميعًا بهذا الاعتبار؛ فإنَّ الرّاضي بعذاب المؤمنين وتعذيبهم مُشاركٌ للفاعل على الحقيقة، ومَن رَضيَ بالكفر واطمأنَّ به فقد كفَر، فأطلق الكلَّ في فعل ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ وأراد الجزء على سبيل المجاز المُرسَلِ والعلاقة كُلّيَةٌ، ويحتمل أن يكون حقيقيًّا وهو الأَوْلى بالتَّفسير لأنَّ حُكم الرّاضي عن الصّنيع كحُكم القائم به لا فرق في الجريمة، فيكون الفاعلون جميعًا بالفعل البدنيِّ، والفعل القلبيِّ، والفعل الفكريِّ، والفعل التَّحضيضيِّ، وكلها أفعالٌ حقيقيّةٌ في مجتمع الجريمة والكراهية والكفر.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 243.

الإيـــمـــاءُ إلى علَّةِ التَّعذيبِ والتَّعريضِ بالمُشركين في سببِ مُعاداةِ المؤمنين

بلاغةُ اختيارِ كلمةِ (المؤمنين):

آثر النَّظم الكريم التَّصريح بكلمة (المؤمنين) واختيارها دون أوصافٍ أخرى؛ لبيان عِلَّة التَّعذيب؛ فلأنَّهم مؤمنون عُذِّبوا، وهي توطئة لما سيأتي الكلام عليه في اللِّحاق تصريحًا لبيان هذه العلَّة في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾، فالإيمان هو سبب تعذيب الكُفّار لهم، وهي رسالة واضحة كاشفة لجميع المؤمنين من الصَّحابة في المرحلة الأولى في الدَّعوة، وفحواها أنَّ نقمة المُشركين عليكم بسبب إيمانكم هي التي ستقودهم لتعذيبكم وعداوتكم، وهي كذلك تعريضٌ سافر بالمشركين، بأنَّ حقيقة العداء ليس مخالفة الآباء بل ما آتى اللّه المؤمنين من فضلٍ عظيم.

شهادةُ الكافرين على أفعالِهم تقودُهم إلى تسجيلِ جرائمِهم

دلالةُ التَّعبيرِ بمُفردةِ ﴿شُهُودٞ﴾:

اختار النَّظمُ الكريم التَّعبير بمُفردة ﴿شُهُودٞ﴾، ويحتمل أن يُراد بها الحضور؛ أيّ: حضور الجبابرة القاتلين عند فعل التَّعذيب يُشاهدون ذلك؛ لوَصْفهم بقسوة القلب؛ أو وصْف المؤمنين المقتولين بالثبات على التَّمسُّك بدينهم، وثباتهم أمام الأهوال، وعدم جَزَعهم، ويحتمل أن يكون المُراد منه الشُّهود؛ ففيه وجوهٌ، منها أنَّهم جُعلوا شهودًا يشهد بعضُهم لبعض عند المَلِك أنَّ أحدًا منهم لَمْ يُفَرِّط فيما أُمِر به، وفوِّض إليه من التَّعذيب، ومنها أنَّ هؤلاء الكفار مُشاهِدون لما يفعلون بالمؤمنين مِن الإحراق بالنّار حتّى لو كان ذلك مِن غيرهم لكانوا شهودًا عليه، ثُمَّ مع هذا لم تأخذهم بهم رأفةٌ، ولا حصل في قلوبهم ميلٌ ولا شفقةٌ[1]، فدلَّت مُفردة ﴿شُهُودٞ﴾ على الحضور والمُشاهدة والشَّهادة، سواء كانت شهادةً مكانيَّةً أو زمانيَّةً أو قوليَّةً، ومن فوائد هذه المُفردة أنَّه يدخل في ذلك كُلُّ شاهد بأيِّ وسيلةٍ من وسائل الشَّهادة في دلالة المُفردة، ثُمَّ لا يُحرِّك ساكنًا في إنكار الجريمة، ولا يُنكر المُنكَر.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 111 - 112، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 16/ 372.

نوع الواو ودلالتها:

مقصود الجملة على احتمال العاطفة والحاليَّة التَّعجيب من ظُلْمِ الكافرين

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ﴾ إمّا أن تكون حاليَّة أو عاطِفَة على الحال الَّتي قَبْلَها، وعلى كُلٍّ فهي مُفيدة للحاليَّة والمقصود التَّعجيب من ظُلْمِ أهل الأخدود أنَّهم يأتون بمثل هذه الفظاعة لا لجرم من شأنه أن ينقم من فاعله[1]، بل لأنَّهم آمنوا باللّه العزيز الحميد، وإيمانهم لا يُؤذي الكافرين بل يغيظهم لكشفه عن نقصهم وحقارة مسلكهم، فالمؤمن يُنادي بإيمانه وصلاحه على فساد الكافر ونقصه، ممّا يورِّثُ الحقد، فإذا تمكَّن الكافر الحاقد من المؤمن أخرج عليه سيل حسده وحقده، كما هو الأمر بالنِّسبة لأصحاب الأخدود تصريحًا، والمُشركين تلويحًا.

توجيه عطف الفعليَّة على الاسميَّة:

العبرة في توجيه العطف هو مقتضيات اللُّغة وذائقة البيان لا منطق العقل

على القول بأنَّ الواو للعطف في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ﴾، فهي من عطف الفعليَّة على الجُملة الاسميَّة، وحَسُنَ ذلك - على ما قيل - كون تلك الاسميَّة؛ لوقوعها في حيِّز ﴿إِذْ﴾ ماضويَّة؛ فكان العطف عَطْف فعليَّة على فعليَّة في المعنى، وقيل: إن هذه الفعليَّة بتقدير: (وَهُمْ ما نَقَموا مِنْهُم)[2]، وأيًّا يكن فإنَّ الجمع بين المعاني المُتعاطفة باختلاف تراكيب الجُمَلِ عائدٌ إلى المعنى، لا الصّور اللَّفظيَّة التي تحتكم إلى صنعة المنطق، لا إلى ذوق اللُّغة والبيان، والعبرة في الثّاني لا في الأوَّل.

تعيين مرجع الضَّمير في ﴿نَقَمُواْ مِنْهُمْ﴾:

المُفارقة بَيْنَ قُبح فعل الكُفّار وشَرَفِ المؤمنين الأبرار

مَرْجِع ضمير الرَّفع المُتَّصل في قوله تعالى: ﴿نَقَمُواْ﴾ يعود إلى الكُفّار أصحاب الأخدود، وضمير الجَرّ المُتَّصِل في ﴿مِنْهُمْ﴾ يعود إلى المؤمنين، وهذا يُضفي مُفارقةً بليغةً تُعظِّمُ قبحَ الفعل من أولئك الكفّار، وشَرَفَ المؤمنين الأبرار.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 244.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 300.

بلاغة إيثار التَّعبير بمُفردة ﴿نَقَمُواْ﴾:

النِّقْمَة تدلُّ على الكراهيَّة البغيضة والإنكار الشَّديد المورِّث للانتقام

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بمُفردة ﴿نَقَمُواْ﴾ دون مُقارباتها كالكراهيَّة؛ لأَنَّ النِّقْمَة تدلُّ على الإنكار الشَّديد والجزاء على الفعل أكثر مِن الكُرْه الذي يُسْتخدَم لِوَصْف مشاعر سلبيَّة، فالنِّقمة إيجاب مَضرَّة على حال مذمومة، فهؤلاء الجُهّال نقموا حال الايمان، لأنَّهم جعلوها بجهلهم حالا مذمومة؛ فالكراهيَّة مُرتبطةٌ بأعمال القلوب، لكنَّ النِّقمة تدلُّ على أشدِّ من ذلك، فهي تدلُّ على الكراهيَّة، المولِّدة للرَّغبة في الانتقام، وهو ما كان فيما فعلوه بالمؤمنين من شديد العذاب.

نوع (مِنْ) ودلالتها:

مُعاداة الكافر للمؤمن باعتبار جنسه لا باعتبار بعضه المُؤثِّر

حرف (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ﴾ لبيان الجنس؛ أيْ: وما نقم الكافرون المعذِّبون من المؤمنين جميعًا إلّا ما في قلوبهم من الإيمان الصّادق، فالنِّقمة شَمَلَتْ جميع المؤمنين، ولم تخصَّ منهم العلماء أو الدُّعاة؛ لأَنَّ خشية الكافر من المؤمن تتعدَّى العقل وسداد الفكر، إلى الغطرسة والرَّغبة في الخلاص من جميع المؤمنين، لا المُؤثِّر منهم، لذلك كانت النِّقمة من جميع المؤمنين هي المُبرهنة على الواقع الأليم الذي عاشه المؤمنون من شديد العذاب، وهو ما عاشه المؤمنون على مدى التّاريخ في مواجهة أعداء الفطرة السَّليمة، والأخلاق القويمة، ودين اللّه تعالى.

دلالة التَّعبير بصيغة المُضارع:

الثَّبات على الإيمان علَّة تعذيب الكافرين للأهل الايمان والتَّنكيل بهم

عُبِّر بالفعلِ المُضارع في قوله تعالى: ﴿أَن يُؤۡمِنُواْ﴾ تنبيهًا على أنَّ التَّعذيبَ إنَّما كان لأجْلِ إيمانِهم في الحاضر والمُستقبلِ، ولو كفروا حين التّعذيب لم يُعَذَّبوا على ما مضى مِن الإيمان[1]، فتعذيبهم بسبب استمرارهم على إيمانهم، ولو أقلعوا عن الإيمان وكفروا لكان ذلك كافيًا في ترك تعذيبهم، وهو ما يدلُّ على ثبات الإيمان

(1) ابن جُزّي، التَّسهيل لعلوم التَّنزيل: 2/ 490، والسّمين، الدُّرّ المَصون: 10/ 747.

في قلوبهم، ورسوخ المُعتقد في صدورهم، وهو ما يكيد الكافرين، ففيه إيماءٌ للصَّحابة المؤمنين وقت نزول الآيات، ولكلِّ مؤمنٍ إلى يوم الدّين، بأنَّ الثَّبات على الإيمانِ في مواجهة المجرمين سيكون نكالًا في الدُّنيا، وخلاصًا سرمديًّا في الآخرة.

بديع فنِّ المدح بما يُشبه الذَّمّ:

بيان التَّعجب بسبب شناعة نقمة الكافرين من المؤمنين

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ استثناءٌ مفرَّغ، أي: ما أنْكَر هؤلاء الجبابرة على أهل الإيمان أو عابوا عليهم شيئًا مِن الأشياء، أو وصْفًا مِن الأوصاف إلّا أنّهم آمنوا بالله العزيز الحميد[1]، فنقمة أصحاب الأخدود على المؤمنين هي أمر محمودٌ عند ربِّ العالمين، وقد سلك النّظم مدح إيمان المؤمنين بما يُشبّه الذّم، وهو محسنٌ بديعي، فنفى نقمة الكافرين للمؤمنين ثم أثبتها في أمر واحد وهو الإيمان بالقصر، لتنحصر نقمة الكافرين في إيمان المؤمنين، وفائدة هذا المحسن إظهار التّعجب من صنيع الكافرين، فكأنَّه قيل: وهل يُنقم المؤمنون لهذا السبب، وهل تقع الكراهية لهذه العِلَّة[2]؟!.

نُكتة التَّعبير باسم الجلالة:

إجراء الأوصاف العظيمة لربٍّ عظيم لبيان بشاعة نقمة الكافرين ومدح المؤمنين

آثر النَّظم الكريم التَّعبير باسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ﴾، وذلك لزيادة شناعة نقمتهم من المؤمنين، ولإجراء الأوصاف العظيمة عليه، وهي العزيز الحميد مالك السَّماوات والأرض؛ ليُبَيِّن أنَّ الخصلة التي أنكروها على المؤمنين ـ وهي الإيمان الخالص ـ خصلةٌ رفيعةُ القدر، ساميةُ المنزلة، لا يَعيبُها إلّا من عَمي قلبُه واشتدَّ ضلالُه، إذ لا يواجه نورَ

(1) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 4/ 413، والرسعنيّ، رموز الكنوز: 8/ 573، وطنطاويّ، التفسير الوسيط: 15/ 345.

(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 9/ 444.

الحقّ إلا مَن غرق في الغيّ واستحقَّ أن يُؤخَذ أخذًا شديدًا[1]، فجاء هذا البيانُ ليُرسِّخ في الأذهان أنَّ ما عابه الكافرون على المؤمنين ليس مما يُعاب أصلًا، بل هو أسمى ما يُمدَح به العبد؛ إذ إنهم آمنوا بربٍّ هو وحده أهلٌ للإيمان، لما اتَّصف به من صفات الجلال والكمال التي تُلزم عبادتَه، وتوجب الإعراض عمّا سواه، فهو سبحانه ناصرُ أوليائه، مثيبُهم، مالكُ أمورهم، أمّا ما يُعبَد من دونه فضعيفٌ لا يملك ضرًّا ولا نفعًا ولا حيازةً لشيء، ومن ثَمَّ يشتدّ وجهُ التَّعجيب من أولئك القوم: كيف نقموا من صفةٍ هي عينُ المدح، وكرِهوا أمرًا لا يليق به إلا الثناء؟؛ وهذا أبلغ في توبيخهم وتقريعهم[2].

توجيه تخصيص أوصاف العزيز الحميد المالك بالذِّكر:

طلاقة القُدْرَة، وكمال العِلْم، والمُلْك التّامّ مُسَوِّغات الإيمان بالله تعالى

ذَكَرَ الله تعالى الأوصاف التي يَسْتَحِقُّ بها أن يُؤْمَن به ويُعْبَد، فأوَّلُها العزيز، وهو القادرُ الَّذي لا يُغْلَبُ، والقاهِرُ الَّذي لا يُدْفَعُ، وهو إشارَةٌ إلى طلاقة القُدْرَة، وتَمام الإرادة، وثانيها الحميد، وهو الذي يَستحقُّ الحَمْد والثَّناء على ألسنة عباده المؤمنين، وفي ذلك إشارة إلى كمال العِلْم؛ لأنَّ مَن لا يكون عالمًا بعواقب الأشياء لا يمكنه أن يفعل الأفعال الحميدة، فالحميد يدلُّ على العِلم التّام مِن هذا الوجه، وثالِثُها الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ والأرْضِ، وهو مالِكُها والقَيِّمُ بِهِما وهو إشارَةٌ إلى المُلْكِ التّامِّ[3].

نُكتة تأخير صفة (الملك) عن ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾:

المُستحِقُّ للعبادة هو المتَّصف بصفاتٍ لا تكون لغيره

أخَّرَ النَّظم الكريم صفة مُلْكِ السَّماوات والأرض عَنِ صفة العزيز الحميد؛ لِأنَّ المُلْكَ التّامَّ لا يَحْصُلُ إلّا عِنْدَ حُصول الكمال في القُدْرة والعِلم، فثَبَتَ أنَّ مَن كانَ مَوْصوفًا بهذه الصِّفاتِ كان هو

(1) الطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 16/ 374.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 244.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 113، والزَّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 731.

المُسْتَحِقّ للإيمانِ به وغَيْرُه لا يَسْتَحِقُّ ذلك البَتَّةَ، فكيف حَكَمَ أولئك الكُفّار الجُهّال بكَون مثل هذا الإيمان ذَنْبًا؟!"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

جاء التَّعبير بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ ليقع موقع التَّعليل في المعنى مِمّا سَبَقَ؛ كأنَّه قيل: هو عزيزٌ حميدٌ؛ لأنَّ ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[2].

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المُسنَدِ إليه:

التَّـلـويـحُ بـالـتّـهـديـدِ والـوعـيـدِ لِمَـنْ حـاربَ المؤمنين وصدَّ عن الدّينِ

قُدِّم ذِكْرُ الجارِّ والمجرور على المُسنَد إليه في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ للتَّخصيص، حيث قُصِرَت مِلْكيَّة السَّماوات والأرض عليه سُبحانه قصْرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا من باب قَصْر الصِّفة على الموصوف، وغرض القصر الوعيد والتَّهديد؛ ففي هذا القصر تقريرٌ لحصر الخوف والرَّجاء عليه ﷻ[3]، فإنَّ خَلْقَهُ لا يملكون شيئًا بل هم مملوكون له تعالى، ومَن مَلَكَهُ اللّه تعالى فهو في قبضته وحكمه يصنع به ما يشاء، فليحذر الذين يُعذِّبون مَن آمن به وحده دون سواه أن تُصيبهم مصيبةٌ.

نُكتةُ جَمْعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفرادِ (الأرْض):

السَّماوات دليلُ العظمةِ والأرض الشّاهد الدّالّ على الغائب

دَرَجَ البيانُ في مقام تنزيه اللّه تعالى وفي كثير من المواضع على جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأنَّ الجمعَ يتناسب مع التَّنزيه والتَّمجيد، لما يدلُّ عليه من سعة الكون المُسَبِّح وعظمته، ولأسرار أخرى منها: أنَّ السَّماوات أشرف من الأرض، والجمع أبلغ في التَّفخيم من الواحد، ومنها: أنَّ أوامرَ اللّه تعالى إلى الأرض تخترق جميعَ السَّماوات السَّبع، وهو ما يزيد شرفها وأفضليَّتها، ومنها أنَّ السَّماواتِ طباقٌ،

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 112.

(2) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 188.

(3) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 10/ 237.

بعضُها فوق بعضٍ، وفي كُلِّ طبقةٍ منها ملائكةٌ ومخلوقاتٌ وكواكب تُسبِّح اللّه تعالى وتمجِّده، والملحوظ بصفةٍ عامَّة أنَّ البيان الكريم يجمع السَّماوات في كُلِّ مقامٍ يُراد فيه إبراز جلال اللّه، وعظمة قدرته، وسعة ملكه، ليكون في ذلك الإبراز ما يدعو إلى التَّأمُّل وتوجيه البصائر والأبصار إلى ما وراء هذا الأفق المحدود الذي يعيش فيه مَن لا يمدّون أبصارهم إلى أكثر من مواقع أقدامهم، ولمّا كانت السَّماوات كثيرةً ومعظمها مجهولٌ للإنسان على التَّحقيق، عبَّر عنها بالجمع لتكون شاهدًا على العَظَمَة، ولمّا كانت الأرض مُشاهدةً، أفرَدَها وجَعلَها شاهدًا على الغائب في العظمة والمُكْنة والاقتدار.

سِرُّ تقديم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على (الأرضِ):

مكانةُ السَّماواتِ وأهميتُها وعظمتُها

قُدِّمَ ذِكْرُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على (الأرضِ) جريًا على عادةِ القرآنِ الكريم؛ فإنّ القرآنَ قدَّمَ ذِكْرَ السَّماواتِ على الأرضِ بما يزيدُ عن مئةِ آيةٍ، ولم يتأخَّرْ ذكرُها إلّا في آيتَيْنِ لموجبٍ دلاليٍّ، وقُدِّمت أيضًا من باب تقديم الأعظمِ والأعلَى، فالشأنُ أنْ يتقدَّمَ ذِكْرُ الأعظم والأعلَى مكانًا على غيرِه، إلّا إنْ كانَ هناكَ ما يوجِبُ خلافَه، والتَّقديمُ للأهميةِ والقداسةِ، فالسَّماء فيها العرشُ والكرسيُّ، والأرواحُ تصعدُ إليها، وفيها الجنّةُ والملأ الأعلى، وسوى ذلكَ من الغيبيّاتِ.

كما قَدَّمت الآيةُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على (الأرْضِ)؛ لأنَّ أهل السَّماوات أسْبَقُ وجودًا من أهل الأرض، كما أنّهم أسبقُ تسبيحًا قبل خلق آدم عليه السلام، ولأنَّهم كذلك أكثرُ تسبيحًا، وأكثرُ مُداومةً على التّنزيه، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ [الأنبياء: 19 - 20]، ولذلك كلِّه فإنَّ السَّماوات أشرفُ بهذه الاعتبارات.

نوعُ الواوِ ودلالتُهُ:

الدَّلالةُ على وعيدِ الكافرين والوعدِ للمؤمنين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ حرف استئنافٍ،

وهو استئنافٌ نحويٌّ والجُملة لا محلَّ لها من الإعراب[1]، ودلَّ الاستئناف على الوعيد للكافرين والوعد للمؤمنين، بإيراد حقيقةٍ جديدةٍ مستقلّةٍ تُلقي في النَّفس جلالَ الرَّقابة الإلهيَّة التي تزيد في وعيد الظّالمين وتطمين المؤمنين، وتنتقل بالسّامع من حكاية أفعال الخَلْقِ إلى تقريرِ المُهيمن ﷻ بأنَّه مُطَّلعٌ على كُلِّ شيءٍ.

بلاغةُ إظهارِ لفظِ الجلالةِ دون إضمارِه:

تربيةُ المَهابةِ في قلوبِ المؤمنين والفزعِ في قلوبِ المُشركين

آثر النَّظمُ الكريم إظهار لفظ الجلالة مع تَقدُّم ذِكْره دون إضماره في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾؛ فلم يَقُلْ: (وهو على كُلِّ شيءٍ شهيدٌ) لِتَربية المَهابة، ولتكون الجُملة مُستقلَّة عمّا سبقها، فتكون كالأمثال السّائرة، وليس للجُملة المعطوفة قوَّة الاستئنافيَّة في بيان مضمونها، والمعنى: "واللّه بكُلِّ شيءٍ عليمٌ عِلْمًا يَتَرَتَّب عليه الجزاءُ فيما هو من جنس الجزاء"[2].

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المُسنَدِ:

تشويقُ المُتلقّي لسماعِ الخبرِ أرسخُ في الاعتناءِ به والاهتمامِ بشأنِهِ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ على المُسنَدِ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾، وذلك لزيادة الاهتمام بالمُقدَّم، فإنَّ شمول شهادة اللّه تعالى على كلِّ شيءٍ هي الحقيقة بالعناية، فإنَّ سياق الكلام جاء لتقرير المقصود بالكلام وهو حساب الخلق أجمعين، وإنَّما يتحقَّق ذلك بذِكْرِ شهادته على كُلِّ شيء، فالعموم الشُّمولي هو الذي يُكسِبُ المعنى فخامةً وتعظيمًا وجلالًا، كما أفاد التَّقديمُ التَّشويقَ للمؤخَّر، فعند سماع قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ ينتظر المُتلقّي سماعَ الخبر؛ فيقع موقعَ الثُّبوتِ في الأذهان.

نُكتةُ التَّعبيرِ بحرفِ الاستعلاءِ:

بيانُ عُلوِّ عِلْمِ اللهِ تعالى وإحاطتِه سُبحانه بكلِّ شيءٍ

جاء التَّعبيرُ بحرفِ الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ

(1) الصّافي، الجدول: 15/ 293.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 188.

﴿شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾؛ لبيانِ عُلوِّ عِلْمِ اللّه تعالى وإحاطته سبحانه بكلِّ شيءٍ، وبيان أنَّ لشهادته عُلوًّا على الخَلْق جميعًا.

فإنَّ شهادته سُبحانه مرتفعةٌ فوق كل شيءٍ؛ فهو المُطَّلع على خفايا الأمور وظواهرها، المحيط بسرِّها وعلانيتها، لا يَنِدُّ عن علمِه دقيقٌ ولا جليلٌ.

فائدةُ التَّعبيرِ بلفظِ العمومِ:

جاء التَّعبير بلفظ العموم في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ لإفادة الإحاطة الشّاملة، فلا تغيب عن اللّه غائبةٌ، ولا تخفى عليه خافيةٌ، ولا يستتَّر عنه خافٍ في الأرض ولا في السّماء.

فائدةُ استعمالِ لفظِ ﴿شَيۡءٖ﴾:

الإعـــلامُ بالإحاطةِ يزيد من قوَّة التَّهديدِ وجزالةِ الوعيد

أفاد استعمالُ لفظِ ﴿شَيۡءٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ استغراقَ جميع الأشياء، مهما كانت صغيرةً أو كبيرةً، وهو ما يُؤكِّد الغرض الذي لأجله سيق النَّظْم، الكريم وهو إفادة الشُّمول والإحاطة، وهو ما يدلُّ على أنَّ اللّه سيُجازي كلًّا بما كَسَبَ، كما قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف: 49]، فحساب اللّه شاملٌ لكلِّ شيءٍ، وهو ما يزيد من قوّةِ التَّهديد، وجزالة الوعيد.

غرضُ تنكيرِ لفظِ ﴿شَهِيدٌ﴾:

تعظيمُ الشَّهادةِ الإلهيَّةِ وتفخيمُ شأنِها وعيدٌ شديدٌ وتهديدٌ أكيدٌ

نُكِّر لفظُ ﴿شَهِيدٌ﴾ للتَّعظيم والتَّفخيم؛ فإنَّ شهادة اللّه تعالى ليست كشهادة خَلْقِه، إذ يترتّب عليها الحساب والجزاء، وليس كذلك شهادة غيره، ومن هُنا اكتست معنى التّعظيم، واكتسبت دلالة التَّفخيم، والمعنى: أنَّه سبحانه مُطَّلِعٌ على كُلِّ شيءٍ، ومن جُملته ما

يفعله هؤلاء الكُفّار بالمؤمنين من الإحراق بالنّار، وسوف يُجازيهم[1]، وأنَّه سبحانه يَعلمُ علمًا يترَتَّب عليه الجزاء فيما هو من جنسِه[2].

بلاغةُ جملةِ التَّذييل:

وعيدُ الكافرين ووَعْدُ المؤمنين بإبلاغِ شهادةِ الله على الخلقِ أجمعين

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ تذييلٌ اشتمل على وعدٍ ووعيدٍ، وعيدٍ لأصحاب الأخدود، ولِكُلِّ مَن كان على شاكلتهم، ولأمثال أولئك من كفّار قريش وغيرهم من كُلّ مَنْ تَصدّوا لأذى المؤمنين، ووَعْدٌ للَّذين عُذِّبوا في جَنْب اللّه، وللمسلمين الذين عذَّبهم المشركون؛ مثل: بلال، وعمّار، وصهيب، وسُمَّية رضي الله عنهم[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصُّحبة والصَّداقة:

الصداقةُ علاقةٌ بين البَشَرِ، والصُّحبة علاقةٌ أعمُّ يدخلُ فيها الجمادُ والحيوانُ

تدلُّ كلمة (الصّاحب) على مُقارنة شَيءٍ ومُقاربَته[4]، وتُطلق على الصُّحبة بين البشر، وعلى مُلازمة شيءٍ لآخر عاقلًا كان أو غير عاقل، أمّا الصَّديق فكلمةٌ تدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيء قولًا وغيره، ومن ذلك الصِّدْق خلاف الكَذِب، سُمّي لقوَّته في نَفْسِه، ولأنَّ الكَذِب لا قوَّة له، هو باطلٌ[5]، والصَّديق لا يكون إلّا عاقلًا من البشر، فلا يُصادق الحيوان بل يُصاحب، فيُقال: أصحاب الفيل لا أصدقاء الفيل، ولا يُصادق الجمادُ؛ بل يُصاحب، فلا يُقال: أصدقاء الكهف؛ بل أصحاب الكهف، وذلك لعموم معنى المُلازَمَة في الصُّحبة، وخصوص معنى الصِّدق بين البشَرِ.

(1) ابن عثيمين، تفسير جزء عم، ص: 129.
(2) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 188.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 137، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 244.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صحب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدق).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ١١﴾ [البروج: 10 - 11]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من وصفِ مشهدٍ تاريخيٍّ في الدّنيا إلى الوعدِ والوعيدِ في الآخرة

لمّا ذَكَرَتِ الآياتُ السّابقة مشهدًا من مشاهد تعذيب المؤمنين على يد المجرمين في مرحلةٍ من مراحل التاريخ، وكانت من أشدِّ أشكال التّعذيب الجماعي للمؤمنين على يد مجتمعٍ كافرٍ ظالمٍ بأكمله؛ ناسب الانتقالُ إلى بيان حُكم اللّه تعالى فيمَنْ مارس التّعذيب، ومَن عُذِّب من المؤمنين، فهو انتقالٌ من وصف ما جرى من أفعال في الدنيا إلى بيان حُكمِ اللّه تعالى في حقِّ مَن مارسها في الآخرة، وعيدًا للظّالمين، ووعدًا للمؤمنين.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتَنُواْ﴾: يدلُّ أصل الكلمة (فتن) على ابتلاءٍ واختبارٍ، ومن ذلك: الفِتْنَة، يُقال: فتَنتُ أفْتِن فتْنًا، وفَتنتُ الذَّهَب بالنّار، إذا امتحنتُه، وهو مَفتونٌ وفَتينٌ، والفَتّان: الشَّيطان، ويُقال: فتَنَه وأفْتَنَه[1]، والفَتْن: الإحراق، والفِتْنَةُ: الامتحان والاختبار[2]، والفِتْنَة من الأفعال التي تكون من اللّه تعالى، ومن العبد كالبَلِيّة والمُصيبة والقتل، والعذاب ونحوه من الأفعال المكروهة، ومتى كان من اللّه إنَّما يكون على وجه الحكمة، ومتى كان من الإنسان بغير أمر اللّه يكون

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فتن).
(2) الجوهريّ، الصِّحاح: (فتن).

ضدّ ذلك[1]، والمُراد بها في الآية تعذيب المؤمنين بقصد صدِّهم عن دين الله تعالى.

2) ﴿ٱلۡحَرِيقِ﴾: أصلُ (حرق) يدُلُّ على حرارةٍ والتهابٍ[2]، والحَريق: النّار، والإحراق: إيقاع نارٍ ذات لهيبٍ في الشَّيء، ومنه استُعير: أحْرَقني بلَوْمه: إذا بالغ في أذيَّته بلَوْم[3]، والمقصود في الآية المعنى الحسيِّ وهو ما يكون من التَّعذيب بالحرق في النّار في الآخرة.

3) ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾: النَّجاة والظَّفر بالخير، واستعملته العرب بمعنى الهَلاك، يقولون: فازَ يَفوزُ وفَوَّزَ، أيْ: مات[4]، والمَفازَة: الصَّحراء المُهْلِكة، سُمّيتْ بذلك تفاؤلًا لراكبِها بالسَّلامَة والنَّجاة، والمَفازةُ: المَنْجاةُ[5]، والمُراد بالفوز في الآيةِ الفوز الأُخرويُّ والنَّجاة من النار.

المَعْنى الإجْماليُّ:

مصيرُ الآخرة إمّا عذابٌ مُخلَّدٌ للمجرمين؛ وإمّا نعيمٌ خالدٌ للمؤمنين

تُبيِّن الآيتان الكريمتان مصيرَ الكافرين والمؤمنين في الآخرة، فتذكُر الأولى أنَّ الذين فتنوا المؤمنين بالعذاب في الدُّنيا ثُمَّ ماتوا على الكفر دون إحداثِ توبةٍ صادقةٍ فلهم عذاب النّار يُحرقون بها في الآخرة، وتذكر الآية الثّانيةُ ما سيكون للمؤمنين بالله الذين عملوا الصّالحات، بأنَّ لهم جنّاتٍ تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، فذلك الفوز العظيم الَّذي لا يُضاهيه فوزٌ، ولا يُدانيه نعيمٌ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ﴾ مِمّا سَبَق:

عذابُ المُجرمين نهايةٌ حتميَّةٌ وسُنَّةٌ كونيَّةٌ

يُحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ جوابًا للقَسَم الذي افتُتِحت به السّورة الكريمة، ويكون ما وقع بين القَسَم

(1) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: (فتن).
(2) الكَفويّ، الكُلّيّات، ص: 408، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرق).
(3) الرّاغب، المُفردات: (حرق).
(4) الجوهريّ، الصِّحاح: (فوز).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فوز).

وهذه الجُملة اعتراضًا مقصودًا به تهيئةُ السّامع لتهديدٍ أشدَّ، وذلك بذِكْرِ وعيدٍ نزل بأقوام مُماثلين لهم، أمّا إذا اعتُبر جوابُ القَسَم هو قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾، فإنَّ جُملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تكون بمنزلة الفَذْلَكة والخلاصة المُبيِّنة لمقصود القَسَم، لأنَّ المُراد كُلَّه هو توجيه الوعيد الصَّريح إلى الذين اضطهدوا المؤمنين والمؤمنات من مُشركي قريشٍ.

غَرَضُ التَّوكيدِ ودلالتُهُ:

الرَّدُّ على أوهامِ المشركينَ ببيانِ حتميّةِ عاقبتِهِم

تأكيدُ الخبرِ بـ﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ﴾؛ لِلرَّدِّ على المشركين الَّذين يُنكِرون أنْ تكون عليهم تَبِعَةٌ من فتْنِ المؤمنين(1)، ولبيان عظيم مآل الفاتنين، وأنّهم سينالون جزاءهم العادل في الآخرة حتمًا؛ فلا نجاةَ ولا مَهْرَبَ.

نكتةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

جاء التّعبيرُ بالموصولِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ الفاتنين هم قومٌ معهودون بلقبِهم التاريخيّ، وبصفاتهم التي تركت أثرًا يُروى.

بلاغةُ التّعبيرِ بمُفردةِ الفتنة:

مقصودُ الفتنةِ رِدَّةُ المؤمنين عن دينِهم لا مُجرَّد قتلِهم

استعمل النّظمُ الكريمُ مادة (الفتن) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾، والمقصود ابتلاء المؤمنين وتعذيبهم واختبارهم بالعذاب والنار بغرض ترك دينهم، وآثر النَّظْم استعمال هذه المُفردة دون غيرها؛ لبيان أنَّ المجرمين ما كانوا يُعذِّبون بغرض القتل وزهق الأرواح، بل بغرضٍ وهو أن يرتدَّ المؤمنون عن دينهم، فالفتنةُ ليست قتلًا فحسب، فإنَّ القتل من أدوات الفتنة للوصول إلى المقصود، وهو أن يترك المؤمنون إيمانهم الذي نقِمه عليهم المجرمون، فدلَّ اختيارُ المُفرَدَةِ على مقصودِ الفاتنين بما فعلوا.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 245.

تعيينُ المقصودِ بالفاتِنين:

للسّياقِ أثـرٌ في التّخصيصِ لكنَّه تخصيصُ تفسيرٍ لا تـخـصـيـصُ حُكمٍ

المقصودُ بالفاتنين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ يحتمل أن يكون أصحاب الأخدود خاصَّة، وهو ما يُظهره السّياق السّابق، ويحتمل أن يكون مُشركي قريش؛ وهو ما يُرشِّحه السياق اللّاحق، لأنَّه لا يُلاقي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾ إذْ هو تعريضٌ بالتَّرغيبِ في التَّوبة، وأصحاب الأخدود غير مُتحقِّقٌ منهم ذلك لموتهم، ولا يُلاقي دخولَ الفاءِ في خبرِ ﴿إِنَّ﴾ من قوله تعالى: ﴿فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾[1]، جزاءً على فتنتهم التي استمروا عليها، والأوجه أن يكون ذلك في أصحاب الأخدود ابتداءً، وما ذُكر من أمر التّوبة فلا ينهض للاعتراض، لأنَّه إخبارٌ عن عدل الله تعالى في حساب عباده السابقين واللاحقين، بل فيها إشارةٌ إلى أنَّ من أصحاب الأخدود مَن آمن بعد توبةٍ، كحال مشركي قريشٍ، فهو إخبارٌ عن حَدَثٍ تاريخيٍّ، ويدخل بطريق الإيماء كلُّ مَن شابَهَ أصحابَ الأخدود في فتنتهم للمؤمنين، وخاصّة أهل مكة، والقول بأنَّ اللفظ عامٌّ فغير دقيقٍ، إذِ للسّياق أثرٌ في التّخصيص، لكنّه تخصيصُ تفسيرٍ لا تخصيصُ حُكْمٍ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسمِ المُعرَّف لا الموصولِ:

بـيـانُ رسـوخِ المـؤمـنـين في مـواجـهـةِ المشركين

جاء التَّعبيرُ بالاسم المعرّف بـ(أل) دون الاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾؛ فلم يَقُلْ: (إنَّ الذين فتنوا الذين آمنوا)؛ وذلك للنَّصِّ على ذكر جنس المؤمنين والمؤمنات، دون الاكتفاء بفعل (آمنوا) وحده، الدّالّ على الجنسيّن، وللدّلالة على رسوخ إيمانهم، وثباتهم عليه، ولاستغراق كلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ في الثّبات على الإيمان.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 245.

الإشــــادةُ بثباتِ المؤمنين والمؤمناتِ وإبرازُ قيمةِ النِّساءِ في الثَّباتِ على الدّين

فائدةُ عَطْفِ ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ على ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

آثر السّياقُ ذِكْر المؤمنات نصًّا كما ذُكر المؤمنون في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ دون اتّباعِ أسلوبِ التَّغليبِ كما هو في غالب القرآن، وذلك لبيان أنَّ المجرمين تسلَّطوا على المؤمنات كما تسلَّطوا على المؤمنين، وأنَّ حربهم كانت على الجنسيْن سواءً بسواءٍ، وأنَّ النِّساء المؤمنات وجدْنَ من الفتنة كتلك التي وجدها الرجال، وهو ما يُعطي أهميّةً للمرأة، ودورها في الدّفاع عن دين اللّه تعالى من غائلة الفتنة، وأنَّ للمرأةِ شأنًا عظيمًا في الدّعوة إلى دين اللّه تعالى، و"التَّنْويه بشَأْنِهنَّ؛ لِئَلّا يُظَنَّ أنَّ هذه المَزِيَّةَ خاصَّةٌ بالرِّجالِ، ولزيادة تفظيع فِعْل الفاتِنين بأنَّهم اعتدوا على النِّساء، والشّأنُ أنْ لا يُتعرَّض لهنَّ بالغِلْظة"[1].

التَّراخي الرُّتبيُّ يُصوِّر التَّعجيبَ مــن حــالِ الفاتنين المُصرّين على الكُفر

دلالةُ استعمالِ حَرْفِ التَّراخي:

أوثِر التّعبيرُ بحَرْف التَّراخي في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ عدمَ توبتِهم أعجب من المَذكورين[2]، لأنَّ الاستمرار على الكُفْر أعظم من فِتْنة المؤمنين، وعليه فالتَّراخي هنا رُتَبيٌّ؛ لأنَّ المعطوف أعظم رُتْبةً من المعطوف عليه، "وجملة ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾ مُعترضةٌ، وفيه تعريضٌ للمشركين بأنَّهم إنْ تابوا وآمنوا سَلِموا من عذاب جهنَّم"[3]، والقولُ بالتَّعريض بالمُشركين بناءً على القول بأنَّ المقصود بالفاتنين أصحاب الأخدود، وأمّا على القول بأنَّ المقصود بهم المشركون فلا تعريض حينئذٍ؛ لأنَّ تأويل الكلام: (إنَّ المُشركين الفاتنين المؤمنين والمؤمنات ثُمَّ لم يتوبوا ...).

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 245.

(2) القونويُّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 188.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 246.

بلاغةُ استعمالِ مُفردةِ التَّوبةِ:

جاء التَّعبير بمُفردة التوبة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾ دون الإيمان؛ وذلك لبيان أنَّ إيمانَ الفاتنين المُجرمين ليس كإيمان غيرهم، فلا بدَّ من أن يسبق هذا الإيمان توبةٌ حقيقيَّةٌ تستجمع أركان القبول من النَّدم العميق، والصِّدق الخالص، والتَّواضع الكامل، فإنَّ الإيمان بالله تعالى بعد الإجرام لا يُقبل إلّا إذا كان موافقًا لشروط الشّرع، ولكيلا يقع تهاونٌ من قِبل المشركين في الإيمان، فيقع الظنُّ أنَّ قبول إيمان المجرم بأدنى كلمةٍ يقولها فيُقبل في دين الله تعالى بعد ارتكابه للجرائم.

إيمانُ الكافرِ المجرمِ لا يكونُ إلّا بعد استجماعِ شروطِ التَّوبةِ الصّادقةِ

دلالةُ التَّعبيرِ بالمُضارعِ المَنفيِّ:

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بصيغةِ المُضارع المنفيِّ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾ دون التَّعبير بالموت على الكُفر؛ فلم يَقُلْ: (ثُمَّ ماتوا كفّارًا)؛ وذلك لتحضيض الفاتنين في كلِّ وقتٍ إلى التَّوبة، وأنَّ الكافر المُجرم مهما بلغ إجرامُه فإنَّ توبته مقبولةٌ عند الله تعالى إن أقبل بقلبٍ صادقٍ.

قبولُ توبةِ المُجرمين من خصائص ربِّ العالمين وأفعالِه

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَهُمۡ﴾ للسَّببيَّة؛ للإشعار بأنَّ كُفْر الذين فتنوا أهل الإيمان، وأذاهم لَهُم سَبَبٌ لعذابهم الشَّديد في الآخرة، وقد دَلَّت الفاء على العدل الإلهي؛ حيثُ إنَّه سبحانه لا يُعذِّبُ أحَدًا إلّا بسَبَبٍ، واقتُرِن خبر ﴿إِنَّ﴾ بالفاء لِما في المبتدأ من معنى الشَّرْط[1]؛ أي: إن تحقَّقت فتنةُ المُجرمين للمؤمنين والمؤمنات، ثُمَّ لم يُحدثوا توبةً فإنَّه يترتَّب على ذلك الفعل عذابٌ في الآخرة.

فتنةُ المُجرمين سببُ عذابِهم في نارِ الجحيمِ

بلاغةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المُسنَدِ إليه:

قُدِّم الجارُّ والمجرور على المُسند إليه في قوله تعالى: ﴿فَلَهُمۡ

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 343.

المُـبــالــغــةُ في الوعيدِ والتَّهديدِ لـبـيـان دركــاتِ الـمُـعــذَّبــين في الجحيمِ

﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ للتَّخصيص؛ أيْ: فلَهُم خاصَّة، وبسبب كُفْرهم وفتنتهم للمؤمنين عن دينهم عذابٌ فوق العذاب، والقَصْر في الجُمْلتَيْنِ ادِّعائيٌّ من باب قَصْر الصِّفة على الموصوف؛ للمُبالغة في تهديدهم ووعيدهم، وكأنَّ هذا العذاب المُتراكب الشَّديد أُعِدَّ لَهُم خاصَّة دون غيرهم من أهل الإجرام.

نوعُ الإضافةِ ودلالتُها:

الإضافة في قوله تعالى: ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ وقوله: ﴿عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ لبيان نَوْعِ العذاب، والإضافة بمعنى (في)؛ أيْ: عذابٌ في جهنَّم، وعذابٌ في الحريق، فهو عذابٌ في عذابٍ.

بلاغةُ العطفِ ونوعُهُ:

عَـطْـفُ الـخـاصِّ على العامِّ لبيانِ الـعـدلِ الإلـهـيِّ والحُكمِ الرَّبّانيِّ

عَطْف ﴿وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ على ﴿فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ من باب عَطْف الخاصِّ على العامِّ؛ للمُبالغة فيه؛ لأنَّ عذاب جهنَّم بالزَّمهرير والإحراق وغيرهما، ويوضِّحه إضافة العذاب للحريق، والعَطْف يَقتضي المُغايَرة، فيُحمَل الأوَّل: ﴿فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ على أنَّهم استحقوه لكفرهم، والثّاني: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ على أنَّهم استحقّوه جزاءً وفاقًا، فكما أحْرَقوا المؤمنين فسيُحرقون بنار الحريق، فالعطف هو من عطفِ عذابٍ خاصٍّ يُعلم بشدَّته وعظيم هوله على عذابٍ عامٍّ لكل الكافرين، فاجتمع عليهم عذابان، وهو ما يوحي إلى ما استقرَّ بأنَّ عذاب الآخرة على دركات لكلِّ صنف نصيبه الخاصِّ، وهذا من تمام عَدْلِ اللّٰه تعالى في مُحاسبة عباده وجزائهم، والاجتهاد في التَّفريق بَيْنَ العذابيْن على التَّفصيل، ليس للعقل بل بما ثبت عن سيِّد الخلق، وإبهام العذابيْن أشدُّ من تفصيلِ المُراد منهما على المُجرمين.

ورأى ابن عاشور أنَّ عطف جُمْلَة ﴿وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ على

العطفُ للتَّوكيدِ بقصدِ المُبالغةِ

جُمْلَة ﴿فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ لِمَعْنى التَّوْكيد اللَّفْظيِّ، واقتران الثّانية بواو العطف للمُبالغة في التَّأكيد بإيهام أنَّ مَنْ يُريد زيادة تهديدهم بوعيدٍ آخر فلا يوجد أعظم من الوعيد الأوَّل مع ما بين عذاب جهنَّم وعذاب الحريق من اختلافٍ في المدلول، وإن كان مآلُ المَدْلولَيْنِ واحدًا. وهذا ضَرْبٌ من المُغايرة يُحَسِّن عَطْف التَّأكيد[1]، وجَعْلُه من عطف الخاصِّ على العامِّ أولى بالقبول، وأقرب لدلالة العطف.

نُكتةُ تَكرارِ (لهم) في المعطوفِ:

عطفُ استحقاقِ العذابِ على استحقاقِ العذابِ لا عطفُ العذابِ على العذابِ

كُرِّر ذِكْرُ (لهم) في قوله تعالى: ﴿فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾؛ زيادةً في تهويل الموقف، وتفظيع ما أُعِدَّ للكافرين من شديد العذاب، ولتأكيد استحقاقهم عذابيْن: عذاب جهنم، وعذاب الحريق، فكلٌّ من العذابيْن لهم على وجه الخصوص، ولتكون كلُّ جملةٍ مُستقلّة بالإخبار عن استحقاقِهم لنوعٍ من العذاب، فهذا ليس من عطف العذاب على العذاب؛ بل من عطف استحقاق العذاب على استحقاق العذاب.

موقعُ جملةِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في السّياقِ:

احتمالُ الاستئنافِ البيانيِّ والاعتراضِ

يحتمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٌ﴾ أن يكون استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾ المُقتَضي أنَّهم إن تابوا لم يكن لهم عذاب جهنم فيتشوف السامع إلى معرفة حالهم أمقصورة على السلامة من عذاب جهنم أو هي فوق ذلك، فأخبر بأنّ ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٌ﴾ فإنَّ التوبة الإيمان، فلذلك جيء بصلة ﴿ءَامَنُواْ﴾ دون: (تابوا)؛ ليدلَّ على أن الإيمان والعمل الصالح هو التوبة من الشرك الباعث على فتْنِ المؤمنين، وهذا الاستئناف وقع معترضًا.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 246.

ويحتمل أن يكون اعتراضًا بين جُمْلة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وجُمْلة ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ اعتراضًا بالبِشارة في خلال الإنذار لترغيب المُنذِرين في الإيمان، ولتثبيت المؤمنين على ما يُلاقونه من أذى المشركين على عادة القرآن في إرداف الإرهاب بالتّرغيب[1].

غرضُ التّأكيدِ بحرفِ ﴿إِنَّ﴾:

أُكِّد الخبر بحرف ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لأنَّ الكُفّار يُنكرون هذا الثَّواب، وذلك الفَضْل[2]، وفي هذا مَزيدُ تَحْسيرٍ وإغاظةٍ مع الاهتمام بالخبر[3].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

مدحُ المُستحقّين للجنّات بأعمالهم لا بادّعائهم

جاء التَّعبير بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ للعلم بصفات المقصود بالذِّكر، فهُم الذين جمعوا إلى الإيمانِ عَمَلًا صالحًا، ولبيان مدحهم بما جاء في صلة الموصول، فالذين لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار هم المُتَّصفون بكَيْت وكيْت، فيقع الاسم الموصول موقعَ العِلَّة لاستحقاقِ الجنّات؛ "أيْ: لَهم بسَبَبِ الإيمانِ والعَمَلِ الصّالِحِ جَنّاتٌ مُتَّصِفَةٌ بهذه الصِّفة"[4].

نوعُ العطفِ ودلالتُهُ:

اقترانُ الإيمانِ بالأعمالِ الصّالحةِ اقترانٌ تلازميٌّ

عَطْفُ عملِ الصّالحاتِ على الإيمان في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من عطفِ الخاصِّ على العامِّ، فالإيمان أعمُّ من العمل، وذِكْره لبيان أنّه لا يُتصوَّر إيمانٌ بدون عملٍ للصّالحات، ولو ادّعى أحدٌ الإيمانَ دون أن يقوم بالصالحات مُطلقًا فهو دعيٌّ لا يُقبل إيمانه، لأنَّ ترتُّب قوله تعالى: هو على الإيمان وعمل

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 246 - 247.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 21/ 360.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 247.

(4) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 6/ 238.

الصّالحات، لا على الإيمان وحده، ولا على الصالحات وحدها، فبان أنَّهما مقترنان اقترانًا تلازميًّا.

دلالةُ تقديمِ ذِكْرِ الإيمانِ على العملِ:

تقديمُ الشَّرطِ على المشروطِ والأصلِ على الثّمرة

قُدِّم ذِكرُ الإيمانِ على العمل الصالح لأهميَّته؛ إذ هو أساس قبول العمل الصّالح عند اللّه تعالى، حيثُ لا يُقْبل عَمَلٌ مهما كان صالحًا من غير إيمانٍ باللّه تعالى وحْدَه لا شريك له، وهذا من باب تقديم الشرط على المشروط، وعطف المشروط على الشرط، فشرط قبول الأعمال الإيمان، ولذلك ترتّب على ذلك نتيجةٌ واضحةٌ وهي ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ﴾، وهذه النتيجة لا تكون بدون تحقيق الأصل والشرط، وما ينشأ عنه فهو أمرٌ بدهيٌّ؛ إذْ مُقتَضى الإيمان تحقيق الأعمال.

معنى تعريفِ لفظة ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وجَمْعها:

(ألْ) في لفظ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هي الجِنْسيَّة، أفادت شمول الصّالحات لكلِّ أبواب الخير، ففيه إفادة العموم والشُّمول، ويُعضِّد ذلك التعبير بصيغة الجَمْع.

توجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ بذِكْرِ الفاءِ وحذفِها:

هدايةُ الله لجميع عبادِه مُتحقِّقةٌ؛ فمَنْ قَبِلَها فبتوفيقِ الله، ومَنْ تركها فلسوءِ نفسِه

لما ذَكَر النّظم جزاء الكافرين؛ ذكرَ الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾، ولمّا جاء على ذِكْر جزاء المؤمنين جرّدها من الفاء فقال تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾، وذلك لبيان عدل اللّه تعالى في ترتيب الجزاء على الفعل في حق الكافرين، وهذا المعنى وإن كان حاضرًا في شأن المؤمنين، إلّا أنّه لم يأتِ بذِكْر الفاء؛ لأنَّ المؤمنين يعلمونه تلميحًا، ويقف عليه الكافرون تصريحًا، وما كان في دائرة الوعيد فيحسن معه التصريح، وما جاء في دائرة الوعد فيملح معه التلميح، وقد ذهب البقاعيُّ إلى توجيهٍ آخر فقال: "لمّا كان اللّه سبحانه من رَحْمته قد تغمَّد أولياءه بعِنايته، ولم يَكِلْهم إلى أعمالهم؛ لم يَجْعلها

سَبَبَ سعادتهم فلَمْ يُقْرِن بالفاء قوله: ﴿لَهُمۡ﴾"[1]، والحقُّ أنَّ اللّٰه تعالى يوفّق عبادَه وأولياءه إلى الحقِّ، ولأجل توفيقه وإعانته لم يكن دخول الجنان بمحض عملهم؛ بل بتوفيقهم إليه، ورضاهم عنه، واستمرارهم فيه، أمّا الكافرون فوُكِّلوا إلى أنفسهم فأهلكتهم المهالك، وكلٌّ باختياره، فمَنِ اختار الإيمانَ بتوفيق اللّٰه تعالى له، ليس كَمَن رفض هدايةَ اللّٰه وآثرَ عليها الدنيا.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المُسنَدِ إليه:

قُدِّم الجارّ والمجرور على المُسند إليه في قوله: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٌ﴾؛ لإفادة التَّخصيص وشِبه الملكيّة، فالمؤمنون وحْدَهم هُم الذين سيتمتَّعون بتلك الجَنّات والنَّعيم المُقيم.

دلالةُ جَمْعِ ﴿جَنَّٰتٌ﴾:

جُمِعَ لفظ ﴿جَنَّٰتٌ﴾؛ للدَّلالة على كثرتها وتنوُّعها، وهذا يدلُّ على عِظَم النَّعيم المقيم، كما أنَّ الجمع يدلّ على تفاوتها فيما بينها كما أفادت بقية النصوص.

غرضُ تنكيرِ لفظِ ﴿جَنَّٰتٌ﴾:

نُكِّر لفظ ﴿جَنَّٰتٌ﴾ للتَّعظيم والتَّفخيم؛ فشأن جنّات النّعيم التي أعدّها اللّٰه للمؤمنين أن تكون عظيمة، واكتست بالفخامة من حيث إنّها جزاء ربِّ العالمين للمؤمنين.

نكتةُ إثباتِ حرفِ ﴿مِن﴾:

جريُ الأنهارِ تحتَ الجنّاتِ جزاءُ الصّبرِ على جريانِ النّيرانِ تحتَ الأقدامِ

دلَّ حرفُ ﴿مِن﴾ على الابتداء في قوله تعالى: ﴿مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾، فهي أنهارٌ تجري ابتداءً من تحت الجنّات، والمعنى أنّها تنبع من تحتها الأنهار، وهذا من أعظم النّعيم أن يكون أصل النهر ومنبعه قريبًا من صاحب الجنّة، بل من تحته، ففيه إيماءٌ إلى عظيم

(1) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 21/ 360.

النعيم، مع ما فيه من التناسب على الجزاء، فلمَّا كانت الأخاديد تُحفر وتُلقى فيها النيران من تحت أقدام المؤمنين؛ كان المناسب أن تنبع الأنهار من تحت جنّاتهم.

تعيينُ مَرْجِع اسمِ الإشارةِ ودلالتُهُ:

اسمُ الإشارةِ يَختَزِل الكلامَ للإيذانِ بعلوِّ مكانةِ الفوزِ الكبيرِ

مرجع اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ﴾ هو "ما تَقَدَّمَ ذِكْرُه مِمّا أعَدَّهُ اللّه لعباده المؤمنين؛ أيْ: ذلك المذكورُ الفوزُ الكبير الَّذي لا يَعْدِلُه فوزٌ ولا يُقاربه ولا يُدانيه، والفوز الظَّفَرُ بالمطلوب"[1]. وقد اختزل اسم الإشارة الكلام وأوجزه وصفّاه، وجاء التعبير باسم الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ للإيذان بعُلوِّ درجة هذا الفوز الذي لا يَعدِلُه فوزٌ، ولا يُقارِبه ولا يُدانيه في الفضل والشَّرف.

نكتةُ وصفِ ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾ بالكبير:

الفوزُ الكبيرُ جزاءُ الصَّبرِ الكبيرِ

وُصِف الفوز بالكبير للتَّأكيد على عِظَم الفوز الذي سيناله المؤمنون وعظيم شأنه، وليتناسب مع الأخدود الكبير الذي وُضع فيه المؤمنون؛ ليكون جزاءً على صبرهم؛ فإنَّ الصبر الكبير سيُجازي عليه اللّه تعالى عبادَه بالفوز الكبير.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفتنة والابتلاء:

الابتلاءُ يكونُ بالخيرِ والشَّرِّ، والفتنةُ أشدُّ الاختبارِ

الفتنة أشدّ الاختبار وأبلغه، وأصْله عرض الذّهب على النّار لتبيّن صلاحه من فساده، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ [الذّاريات: 13]، والابتلاء لا يكون إلّا بتحمُّل المَكاره والمشاقّ، ويكون في الخير والشَّرّ، لقوله تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٣٥﴾ [الأنبياء: 35].

والاختبار: يكون بذلك وبفعل المحبوب. ألا ترى أنّه يُقال: اختبره

(1) الشَّوْكانيّ، فتح القدير: 6/ 339.

بالإنعام عليه ولا تقول: ابتلاه بذلك، ولا هو مُبْتَلى بالنّعمة، كما قد يُقال إنّه مُخْتَبَر بها، ويجوز أنْ يُقال: إنّ الابتلاء يقتضي استخراج ما عند المُبْتَلى من الطّاعة والمعصية، والاختبار يقتضي وقوع الخَبَر بحاله في ذلك، والخَبَر العِلْم الّذي يقع بكُنْه الشَّيء وحقيقته؛ فالفرق بينهما بيّن[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 286.

﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ١٣ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٦﴾

[البروج: 12 - 16]

۞ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من ذِكْرِ الوعدِ والوعيدِ إلى ذِكْرِ ما يُؤكِّدُهما

لَمَّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة الوعدَ والوعيد، المُتضمِّن جزاء الذين فتَنوا المؤمنين والمؤمنات أوَّلًا، وجزاءَ الَّذين آمنوا وعملوا الصَّالحاتِ ثانيًا، أَرْدَفَ ذلك الوعد والوعيد بالتَّأكيد فقال: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾[1]، فهو انتقالٌ من ذِكْر الوعد والوعيد في الآخرة، إلى ذِكْر ما يؤكّد ذلك من صفات اللّٰه تعالى الدّالّة على عَظَمَته وشديد بطشه، ومغفرته وكبير رأفتِه.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَشَدِيدٌ﴾: يَدُلُّ أصل الكلمة على قوَّةٍ في الشَّيْءِ[2]، والشَّدُّ: العَقْد القويّ، يُقال: شَدَدْتُ الشّيء: قوّيتُ عَقْده. والشَّديدُ والمُتَشَدِّدُ: البخيل. قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾ [العاديات: 8][3]، ومن الجَفاف والصَّلابة يتأتّى معنى بلوغ الشيء منتهاه في الجدّ في بابه ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾. والذي في القرآن من التَّركيب منه: شدة تقوية المُلك، والأسر، والعضُد، والأَزْر، والوَثاق، وشدة (بناء) السماوات، والملائكة، والبأس، والقوَى، والحَرَس، ثم شدة واقعة: كشدة الحساب، والعقاب، والعذاب، والبطش[4]، وجَمْع شَديد: أشِدّاءُ وشِدادٌ، والمُؤَنَّث: شديدة، والجمع للمؤنَّث: شديدات، والشَّديدُ: القويُّ الشَّديدُ الصَّعْبُ[5]؛ وهو المُراد هنا.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 114.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شدد).
(3) الرّاغب، المُفردات: (شدد).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شدد).
(5) مجمع اللّغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط: (شدد).

2) ﴿يُبۡدِئُ﴾: أصْل المادَّة: افتتاح الشَّيء. يُقال: بدأتُ بالأمر وابتدأتُ، من الابتداء. ويُقالُ: للأمر العَجَب: بَديٌّ، كأنَّهُ من عَجَبه يُبْدَأ به[1]، ويُقال: رَجَعَ عَوْدُه على بَدْئه، إذا رجع في الطريق الذي جاء منه[2]، والبَدْءُ والابتداء: تقديم الشَّيء على غيره ضربًا من التَّقديم. والمُعيدُ من الرجالِ: العالِمُ بالأُمور الَّذي ليس بغُمْرٍ[3]، واللّه هو المُبْدِئُ المُعيد؛ أيِّ: هو السَّبَب في المبدأ والنهاية[4].

3) ﴿وَيُعِيدُ﴾: العَوْد: الرُّجوع إلى الشَّيء بعد الانصراف عنه؛ إمّا انصرافًا بالذّات، أو بالقول والعزيمة، والعيد: ما يُعاود مرَّةً بَعْد أُخرى، وخُصَّ في الشَّريعة بيوم الفِطْر ويوم النَّحر[5]، والمَعاد: المَصير والمَرْجِع. والآخرة مَعاد الخَلْق[6]، وهو المُراد في الآية.

4) ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾: الغَفْر: السِّتْر والتَّغْطية[7]، والغُفْرانُ والمغفرةُ من اللّه هو أنْ يَصون العبد من أنْ يَمَسّه العذاب. والاستغفار: طَلَبُ ذلك بالمَقال والفِعال[8]، والغفورُ: الغَفّارُ جَلَّ ثَناؤُه. وهُما من أبنية المُبالغة ومعناهما: السّاتر لذنوب عباده المُتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم. وغفر اللّه ذنوبَه؛ أيِّ: سَتَرَها[9].

5) ﴿ٱلۡوَدُودُ﴾: أصلُ (ودد): يدُلُّ على محَبَّةٍ[10]، و(ودود) فعولٌ بمعنى فاعِل مُشْتَقٌّ من الوُدِّ وهو المَحَبَّةُ؛ فمَعْنى الوَدود: المُحِبُّ؛ وهو من أسْمائه تَعالى؛ أيِّ: أنَّه يُحِبُّ مَخْلوقاته ما لم يَحيدوا عن وِصايته[11].

6) ﴿ٱلۡمَجِيدُ﴾: أصْلُ (مجد) يدُلُّ على بُلوغِ النِّهايةِ، ولا يكونُ إلّا في محمودٍ[12]، والمَجيد:

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بدأ).
(2) الجوهريّ، الصِّحاح: (بدأ).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (بدأ).
(4) الرّاغب، المُفردات: (بدأ).
(5) الرّاغب، المُفردات: (عود).
(6) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: (عود).
(7) السَّمين، عمدة الحفّاظ: (غفر).
(8) الرّاغب، المُفردات: (غفر).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (غفر).
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ودد).
(11) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 248.
(12) الرّاغب، المُفردات، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مجد).

الكامِلُ الشَّرَفِ والرِّفعةِ والكَرَمِ والصِّفاتِ المحمودةِ، والمَجْدُ: العُلُوُّ والعِظَمُ[1]، والمَجيد: الواسِع الكَرَم والجَلالة. والمَجْد: السّعَة في الكَرَم والتَّزايد في الجَلالة[2].

7) ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾ يدلُّ في الأصل على ارتفاعٍ في شَيْءٍ مَبْنيٍّ، ثُمَّ يُسْتَعارُ في غير ذلك[3]، والعَرْش: سرير المَلِك[4]، وعَرْشُ اللّه: ما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلّا بالاسم[5]، والعَرْش: اسْمٌ لِعالَم يُحيطُ بجميعِ السَّماواتِ، سُمِّيَ عَرْشًا؛ لِأَنَّهُ دالٌّ على عَظَمَة اللّه تَعالَى كما يَدُلُّ العَرْشُ على أنَّ صاحِبه من المُلوك[6].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

صِـفـاتُ الـلـه جـامـعـةٌ بين الانـتـقـامِ من المجرمين وإثابةِ المؤمنين

تُبيِّن الآيات الكريمة صفات اللّه تعالى، فتُخاطب النبيَّ ﷺ، والخطاب لكلِّ مَن يصلح له ذلك: إنَّ أخْذَ رَبِّك وانتقامه من الكَفَرةِ والظَّلَمَة الذين آذَوْك وآذوا المؤمنين لَقَويٌّ عَظيمٌ شَديد؛ فهو الذي يُبدِئ ويوجِدُ ما يَشاءُ من خَلْقِه، ثمَّ يُعيدُه بعد فنائِه، وهو الغَفورُ لذُنوبِ عِبادِه، المُحِبُّ لعبادِه التّائِبينَ والصّالِحينَ، صاحِبُ العَرْشِ، الكامِلُ الشَّرَفِ والرِّفعةِ والكَرَمِ والصِّفاتِ المحمودةِ، وهو فعّالٌ في مُلْكِه وخَلْقِه ما يُريدُه سُبحانَه، لا يُراجعه أحَدٌ فيما يُريده ويفعله.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصلِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ عمّا قبله:

أخذُ الله شديدٌ بمَنْ أجرمَ في حقِّ العبيدِ

يحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ محمولًا على الاستئناف، مسوقًا لِخطاب النَّبيّ صلى اللّه عليه وآله وسلم،

(1) الكَفَوي، الكُلّيّات، ص: 876.
(2) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (مجد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عرش).
(4) الجوهري، الصِّحاح: (عرش).
(5) الرّاغب، المُفردات: (عرش).
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 249.

وتسليته عمّا يكابده من كفّار قومه وإن أمرهم مغلول، ومكرهم سيزول[1]، ويحتمل أن يكون تعليلًا لِمَضمون قَوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلَى قَوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾؛ أي: لِأَنَّ بَطْشَ اللّه شَديدٌ على الَّذين فتَنوا الَّذينَ آمَنوا به. فمَوْقِعُ إنَّ في التَّعْليلِ يُغْني عن فاء التَّسَبُّبِ[2].

غرضُ توالي المُؤكّداتِ:

دفـــعُ إنـكـارِ المُجرمين وتسليةُ المؤمنين

توالت المُؤكدات بـ﴿إِنَّ﴾ واسميَّة الجملة واللّام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾؛ لتأكيد هذه السُّنّة العقابيّة في حقِّ المجرمين، فإنَّ الخطاب وإن كان لرسول اللّه ﷺ، فإنَّه مقصودٌ به الكافرين، وهؤلاء يُنكرونه ولا يُبالون به، فكان توكيدُه دفعًا لإنكاره، وتحقيقًا لوقوعه، تطمينًا للمؤمنين وتسليةً لهم، فإنَّ مَن يبطش بالُمجرمين ينصر المؤمنين، فالتَّوكيد جامعٌ بين دفع إنكار الكافرين، وتسلية المؤمنين.

دلالةُ مفردةِ ﴿بَطْشَ﴾:

الـدَّلالــةُ على الأخـذِ الـقـويِّ الشَّديدِ

آثر النَّظم الكريم استعمال مُفردة ﴿بَطْشَ﴾، وهو أخذٌ قويٌّ شديدٌ بعُنْف وغِلْظة[3]، وليس مجرّد أخذٍ عابرٍ، ففيه مزيدُ مبالغةٍ في الوعيد والتَّهديد لِكُفّار قريش، ومَن على شاكلتهم، والبطش هنا قد استُعير للعقاب المُؤلم الشَّديد[4].

دلالةُ وصفِ البطشِ ببعضِ معانيهِ:

الـدَّلالــةُ على المُبالغةِ في شأنِه وقوَّةِ الوعيدِ به

وُصِفَ العَذابُ بالشِّدَّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ لتوكيد معناه ومضاعفته، فإنَّ لفظ البطش يدلُّ على الشِّدَّة، ووصفه بالشّديد مبالغة في شأنِه وقوّة في الوعيد به.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 435.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 247.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بطش).
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 141، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 190.

عِلَّة التَّعبيرِ بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ:

رعـايـةُ المؤمنين وحفظُهُم عذابٌ للكافرين

أوثِر التَّعبيرُ بعنوانِ الرُّبوبيَّة ﴿رَبِّكَ﴾؛ وذلك لأنَّ عقابَ المجرمين من مقتضيات الربوبيّة، كما أنَّ الربوبيّة تحمل معنى الرعاية والحفظ والعناية بالمؤمنين، وتعذيب المُعاندين المُنكِرين فيه نصرةٌ ورعايةٌ وحفظ للمؤمنين، ولذلك آثر النّظم التعبير به لبيان أنَّ مقتضيات الرعاية الربانيّة نصرةُ المؤمنين بما تقتضيه الحكمة، وتحكم به العزّة.

دلالةُ إضافةِ لفظِ الربوبيّةِ إلى ضميرِ النَّبيِّ ﷺ:

أُضيف لفظ الرُّبوبيّة إلى ضميره ﷺ؛ لتشريفه وإشعاره بالعناية وإن جاءت على خلاف ما يظنُّه بعضُ المؤمنين؛ فالعبرة بالخواتيم.

علّةُ توجيهِ الخِطابِ لِلنَّبيّ ﷺ:

نصرةُ المؤمنين في كـلِّ وقـتٍ وحيـنٍ نـصـرةٌ لـسيِّـد المرْسَلين

وُجِّه الخِطاب لِلنَّبيّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿بَطۡشَ رَبِّكَ﴾؛ دون أن يأتي مُطلقًا فيُقال: (إن بطش الله لشديد)؛ لِأنَّ بَطْشَ اللهِ بالَّذينَ فتَنوا المُؤمِنينَ فيه نَصرٌ للنَّبيّ ﷺ وتَثْبيتٌ له، وتَسْريةٌ وتسليَةٌ[1]، وهو خطابٌ لأتباع النَّبيّ ﷺ إلى قيام السّاعة؛ فإنَّ سُنَّة الانتقام من الظالمين قائمةٌ بالحكمة الإلهية والرعاية الربّانيّة، لا بالتّشهي وإطالة الدعاء؛ بل فيما يعلمه الله تعالى من خيرٍ يعود على المؤمنين.

علّةُ فصلِ جملةِ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾:

الوعيدُ بما يُنكره المُشركون أشدُّ عليهم، وأثبتُ في قلوبِ المؤمنين

فُصِل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾ إمّا لأنَّه استئنافٌ ابتِدائيٌّ، انتُقِل به من وعيد الكُفّار بعَذابِ الآخِرةِ إلى توعُّدِهم بعَذابٍ في الدُّنيا يكونُ من بطشِ اللّه، أُردِفَ به وعيدُ عَذابِ الآخِرةِ؛ لأنَّه أوقَعُ في قُلوبِ المُشرِكين؛ إذ هُم يَحسَبونَ أنَّهم في أمنٍ من العقابِ؛ إذ هُم لا يُصدِّقون بالبَعثِ، فحَسِبوا أنَّهم فازوا بطيبِ الحياةِ الدُّنيا،

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 248.

والمعنى: أنَّ اللّه يَبطِشُ بهم في الدُّنْيا وفي الآخرة، أو دلَّ باقتداره على الإبداء والإعادة على شِدَّة بَطْشه.

وإمّا لأنَّه تعليل لجُملةِ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾؛ لأنَّ الَّذي يُبْدِئُ ويُعيدُ قادرٌ على إيقاعِ البَطْشِ الشَّديدِ في الدُّنيا، وهو: الإبْداءُ، وفي الآخِرةِ، وهو: إعادةُ البَطْشِ[1].

احتمالُ القصْرِ ودلالتُهُ:

التَّركيبُ يحتملُ القصرَ والتَّقوّي بحسبِ الدّلالةِ الظّاهرةِ

يحتمل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أن يكون قصرًا بتقديم المُسند إليه على خبره الفِعْليّ، وضمير الفَصْل يفيد أنَّه لا مَدْخَل لِأَحَدٍ ما في ذلك، فأفاد مَزيد تقرير[2]، ويرى ابن عاشور أنَّ ضَمير الفَصْلِ محمولٌ على التقوي لا القصر؛ إذْ لَيْسَ في المَقام رَدٌّ على مَن يَدَّعي أنَّ غَيْرَ اللّه يُبْدِئُ ويُعيدُ؛ أيْ: لِتَحْقيق الخَبَر، فلا مَوْقِعَ لِلقَصْرِ هُنا[3].

بلاغةُ فنِّ الإدماجِ:

استدلالٌ على إمْكانِ البَعثِ بذِكْرِ الخَلْقِ والإنشاءِ

يحتمل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أن يكون إدْماجًا؛ للاستِدلالِ على إمْكانِ البَعثِ؛ أي: إنَّ اللّه يُبْدِئُ الخَلْقَ ثمَّ يُعيدُه[4]؛ إذ إنَّ مَن قدر على إنشاء الخلق ابتداءً قادرٌ - بلا ريبٍ - على إعادته مرّةً أخرى.

دلالةُ حذفِ مفعولي فعلي الإبداءِ والإعادةِ:

تعدُّدُ الاحتمالِ المُتّسقِ مع السّياقِ أوْلى من حملِه على احتمالٍ واحدٍ

أُطلق فعلا ﴿يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ عن التقييد بالمفعول، فلم يُعيِّن المفعول ما هو، فيحتمل أن يكون مفعول ﴿يُبْدِئُ﴾ البطش لدلالة ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾، ومفعول (يعيد) ضمير الكفرة المارّ ذِكْرهم؛ لِيُؤْذِن بضربٍ من الوعيد[5]، ويحتمل غير ذلك بحسب تفسير الإبداء

(1) ابن عاشور، التَّحريروالتَّنوير: 30/ 247، والطّيبيّ، فُتوح الغَيْب، حاشيةٌ على الكَشّاف: 16/ 376.
(2) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 190.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 248.
(4) ابن عاشور، التَّحريروالتَّنوير: 30/ 247، والطّيبيّ، حاشيةٌ على الكَشّاف: 16/ 376.
(5) الطّيبيّ، حاشية على الكَشّاف: 16/ 376.

والإعادة، فيحتمل تقدير المفعول بإبداء خلق النّاس، وإعادتهم في الآخرة، وهو ما يتناسب مع دلالة التّعليل، ولا يمنع من تعدُّد الاحتمال وإرادته، فهو الذي يُبدئ الخلق ويُعيدهم في الآخرة، ومَنْ كان كذلك فهو القادر على عقابهم في الدنيا والآخرة، وهو الذي يُبدئ البطش ويعيده في الآخرة، وهو ما يقتضيه التّهديد المباشر، فأفاد الحذف العموم بحسب ما يقتضيه السياق من "تعلُّق الفعليْنِ بكلِّ ما يقعُ ابتداءً، ويُعادُ بعد ذلكَ؛ فشملَ بَدْءَ الخلْق وإعادته وهو البعْث، وشَمَل البَطْش الأوَّل في الدُّنيا والبَطْش في الآخرة، وشَمَل إيجاد الأجيال وإخلافها بعد هلاك أوائلها، وفي هذه الاعتبارات من التَّهديد للمشركين مَحاملُ كثيرةٌ"[1].

عِلَّةُ تقديمِ البَدْءِ على الإعادةِ:

جاء تقديمُ البدء على الإعادة؛ لأنَّ الابتداء هو البرهانُ الأوضحُ على إمكان الإعادة، فمَن تفرَّد بالخلق أولًا قادرٌ على إعادته، وفي هذا التَّقديم إظهارٌ لكمال القدرة، وشُمول العلم، ونفيٌ لكلِّ شبهةٍ في وقوع البعث[2].

بلاغةُ فنِّ الطِّباقِ:

الـدَّلالـةُ على شمولِ سُلطانِ الـلـه لجميعِ أطوارِ الوجودِ في الدُّنيا والآخرة

دلَّ الطِّباقُ بيْن اللَّفظيْنِ ﴿يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾ على كمال القدرة الإلهيَّة وطَلاقتها، فهي شاملة لبدأ الخلائق وإعادتها، وبدء العقوبة وإعادتها، فقدرته تعالى شاملة لجميع الزمان دنيا وأخرى، فدلّ هذا التَّقابل اللَّفظيُّ على شمول سُلطان اللّه لجميع أطوار الوجود في الدنيا والآخرة.

بلاغةُ العطفِ وتعيينُ المعطوفِ عليه:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾ عاطفةٌ على جملة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 248.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 190.

﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾، ومضمونُها قَسيمٌ لمضمون ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾؛ لأنَّهُ لمّا أُفيد تعليلُ مضمونِ جملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ ناسَبَ أنْ يُقابَلَ بتَعْليل مَضْمون جُمْلَة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٌ﴾، فعُلِّلَ بقَوْله: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾ فهو يَغْفِرُ لِلَّذينَ تابوا وآمَنوا وعَمِلوا الصّالِحاتِ ما فرَطَ مِنهم وهو يُحِبُّ التَّوّابينَ ويَوَدُّهم[1]، ويحتمل عطفها على قوله: ﴿هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾[2]، والعطف على ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أقوى، وهو الأليق بأسلوب القرآن في عطف المتقابلات بعضها على بعض، لا سيّما على القول بأنَّ قوله: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ تعليلٌ للسّابقة.

العَطفُ بين الجُمَلِ المُتقابلةِ أوْلى من العطفِ على غيرِها

نكتةُ اختيارِ صفةِ ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ وتناسبها مع السّياق:

دلَّت صفة ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ على مغفرة ذنوب مَن تاب من الكُفْر بقرينة ما سَبَق من بيان أحوال الكُفّار وأهوالهم، فدلَّت المغفرة على الحضِّ على التّوبة، كما أفاد قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾، فدلّت هذه الصفة على استثناء مَن آمن وتاب توبةً حقيقيَّةً من الكفّار من بطش اللّه بالمجرمين الكافرين، وهذا وجه رَبْطه هذه الصفة وتناسبها مع ما سبق.

صفة الغفور دعوةٌ للكفّارِ للدُّخول في الإسلامِ

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغةِ ﴿ٱلۡوَدُودُ﴾:

وُصف ﷻ في هذه الآية بصفة ﴿ٱلۡوَدُودُ﴾، وهي مبالغةٌ في الوُدِّ. قال ابن عباس: "هو المتودِّدُ لعبادِه بالمغفرة"[3]، فالودود: المُحِبُّ، وقيل: الوَدود فعول بمعنى مفعول، كرَكوب وحَلوب؛ يعني أنَّ عباده الصّالحين يُحبّونه لما عرفوا من كماله في ذاته وصفاته وأفعاله، وكِلْتا الصِّفتيْن مَدْح؛ لأنَّه تعالى إذا أحبَّ عباده المخلصين فلإفضاله، وإن أحبّوه فلجزيل إحسانه[4]، وتظهر بلاغة التعبير بهذه

صفةُ الودودِ تجمعُ دلالةَ حبِّ الله لأوليائه وحبِّ أوليائِه له

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 248.
(2) صافي، الجدول: 15/ 295.
(3) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 10/ 748.
(4) الطّيبيّ، حاشيةٌ على الكَشّاف: 16/ 376.

الصيغة ﴿ٱلۡوَدُودُ﴾ احتمال الأمرَين، وثبوت المحبّتَين، وقد وردتا في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: 54]، وإن كان الأوّلى بالظُّهور المعنى الأول لاتّساقه مع صفة ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾.

نكتةُ قرنِ صفةِ ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ بصفةِ ﴿ٱلۡوَدُودُ﴾:

صفةُ (الودود) تعليلٌ لصفةِ (الغفور)

قرن النّظمُ الكريمُ بين صفتي ﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾ وهما صِفَتا فِعْلٍ، فالأولى سَتْرٌ على عِبادِه، والثانيَةُ لُطْفٌ بهم وإحْسانٌ إليهم[1]، لما بين الصفتيْن من تناسبٍ وتعانقٍ، فالأولى حضٌّ للتوبة وطلب المغفرة والإيمان، والثانية تعليلٌ للأولى، فكأنَّه قال: إنّما يغفر اللّه لعبادِه لأنَّه يحبُّهم ويودّهم.

بلاغةُ التَّتميمِ والتَّكميل:

استحقاقُ الله للعبادةِ سابقٌ لطلبِ اتّقاءِ العقابِ والفوزِ بالجِنانِ

لَمّا ذَكَرَ اللّه من صِفاته ما تَعلَّق بمخلوقاته بحَسَبِ ما يَسْتَأْهِلونَه من جَزاءٍ؛ أَعْقَبَ ذلك بصفاته الذّاتيَّة على وجْهِ الاسْتِطراد والتَّكْمِلة بقَولِه: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾ تَنْبيهًا للعباد إلى وُجوب عِبادتِه لاسْتِحقاقِه العِبادَة لجلاله كما يعبدونه لاتِّقاء عِقابه ورَجاء نَواله[2].

توجيهُ تخصيصِ ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾ بالذِّكرِ:

ذِكْرُ العَرْشِ يتَّسقُ مع الحضِّ على طلبِ التّوبةِ

خَصَّ اللّه تعالى العَرْش بإضافة نَفْسه سبحانه إليه؛ لأنَّه أخَصُّ المَخلوقات بالقُرْب منه تعالى[3]، وخَصَّه أيضًا تشريفًا وتنبيهًا على أنَّه أعْظَم مَخلوقات اللّه تعالى[4]، وذكره في هذا السياق؛ لبيان عَظَمَة اللّه تعالى بذِكْر أعظم مخلوقاته، ومَن كان هذا شأنه وهذه

(1) ابن عَطيَّة، المُحَرِّر الوَجيز: 5/ 468.
(2) الزَّمخشريُّ، الكَشّاف: 4/ 734، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 447، وابن عاشور، التَّحريروالتَّنوير: 30/ 249.
(3) السَّعْديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 920.
(4) ابن عطيَّة، المُحرِّر الوَجيز: 5/ 465، وأبو حَيّان، البحر المحيط: 10/ 449، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 344.

صفاته؛ فإنَّ مغفرة عباده قريبةٌ منهم، إن أقبلوا عليه إقبالَ المُنيبين المُتضرِّعين، وخافوا من عقابه خوف المؤمنين المُتَّقين.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيّةِ في هذا الموضعِ من السّورةِ الكريمةِ:

قراءةُ الرَّفعِ وصفٌ للهِ، وقراءةُ الجرِّ وصفٌ للعرشِ

قَرَأ الجُمْهورُ قولَه تعالى: ﴿ٱلۡمَجِيدُ﴾ بالرَّفْعِ فيكون ذلك صِفَةً لله سبحانه، وهو اختيار أكثر القُرّاء والمُفَسِّرين؛ لأنَّ المَجْد من صفات التَّعالي والجَلال، وذلك لا يَليق إلا بالله سبحانه. والفَصْل والاعتراض بين الصِّفَة والموصوف بالخَبَر في هذا النَّحو غير مُمْتنِع، وقَرَأ حَمْزَةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ بالجَرِّ: ﴿ٱلۡمَجِيدِ﴾ نَعتًا لِلْعَرْشِ؛ لأنَّ الأصل عَدَم الفَصْل بين التّابع والمَتبوع[1].

بلاغةُ الكنايةِ في وصفِ ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾ بصفةِ ﴿ٱلۡمَجِيدُ﴾:

على قراءة الجرِّ فإنَّ ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾ وُصف بصفة ﴿ٱلۡمَجِيدِ﴾، ومعناه: الكريم، وقيل: العالي، ومنه المَجْد لِعُلوّه وشَرَفه[2]، وهو مُشْتَقٌّ من (المَجْد)؛ وهو: العَطيّة[3]، فوصفُ العرش بالمجد كنايةٌ عن مجدِ صاحبِ العرشِ[4].

عِلّةُ فصلِ ﴿فَعَّالٞ﴾ عَمّا قَبْله:

فُصِل قوله تعالى: ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ للاستئناف، أو "لأنَّه كالفَذْلَكة للأوصاف السّابقة والخاتمة لها"[5].

بلاغةُ التَّذييلِ بصيغة المُبالغة:

صيغةُ المُبالَغة تدلُّ على الكَثْرَة في الكمّيّة والكَيْفيَّة

ذُيِّلت الآية الكريمة بصِفَة جامِعَة "لِعَظَمَته الذّاتيَّة وعَظَمَة نِعَمه بقَوْلِه: ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾؛ أيْ: إذا تَعَلَّقَتْ إرادَتُه بفِعْلٍ، فعَلَه على أكْمَل ما تَعَلَّقَتْ بِهِ إرادَتُه لا يَنْقُصُهُ شَيْءٌ ولا يُبْطِئُ بِهِ ما أرادَ تَعْجيلَه.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 115، وابن عاشور، التَّحريروالتَّنوير: 30/ 250.
(2) الماورديّ، النُّكَت والعُيون: 6/ 242.
(3) محيسن، شَرْح طيبَة النَّشْر: 3/ 345.
(4) ابن عاشور، التَّحريروالتَّنوير: 30/ 250.
(5) الطّيبيّ، حاشيةٌ على الكشّاف: 16/ 367.

فصيغَةُ المُبالَغَة في قوْلِه: ﴿فَعَّالٌ﴾؛ لِلدَّلالَة على الكَثْرَةِ في الكَمّيَّةِ والكَيْفيَّةِ"[1]، "وللدّلالة على أنَّ ما يريده ويفعله - مع كثرته - هو في غاية النَّفاذ والسُّرْعَة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، فهذه الصِّفَة من الصِّفات الجامعة لِعَظمته الذّاتية، وعَظَمة نِعَمه ومِنَنِه وعطاياه"[2]، والمعنى: أنَّ كُلَّ ما تَعَلَّقَتْ به إرادَتُه فِعْلُه لا مُعْتَرِضَ عليْه[3].

غرضُ تنكيرِ لفظِ ﴿فَعَّالٌ﴾:

الإشعارُ بأنَّ فِعْلَ الله وإرادته فوق ما يتصوَّره العقلُ ويتخيَّلُهُ الوهمُ

جاء تنكير لفظ ﴿فَعَّالٌ﴾ للتفخيم وإظهار عَظَمَة هذه الصفة، إذ يُشعر التَّنكير بأنَّ فعل اللّه وإرادته فوق ما يتصورَّه العقل ويتخيَّله الوهم، وأنَّ مَن يتَّصف بكونه "فعّالًا لما يريد" لا بد أن يكون ذا سلطانٍ مُطلَقٍ وإرادةٍ تامّةٍ لا يعجزها شيءٌ[4]، إذِ الفعّال لما يُريد من شأنه أن يكون صاحب عظمةٍ وإرادةٍ كاملة.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارع ﴿يُرِيدُ﴾:

جاء التّعبير بصيغة المضارع ﴿يُرِيدُ﴾ بطَلاقة الإرادة الإلهيَّة وكَمالها، لبيان استمرار إرادة اللّه تعالى بحسب الحكمة والعلم الإلهي، فهو الذي يفعل ما يريد في أيِّ وقتٍ شاء.

غرضُ حذفِ مفعولِ فعلِ ﴿يُرِيدُ﴾:

حُذِف فعل ﴿يُرِيدُ﴾ للدَّلالة على العُموم، فهو يفعل ما يُريده ﷻ، فلا تتوقَّف إرادته على شيءٍ دون آخر، فكما أنَّ قُدرته مُطلقةٌ، فإرادته كذلك مُطلقةٌ كاملةٌ.

---

(1) ابن عاشور، التَّحريروالتَّنوير: 30/ 250.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 348.
(3) أبو حيّان، البحر المُحيط: 10/ 449.
(4) الطّيبيّ، حاشيةٌ على الكشّاف: 16/ 376.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البطش والعذاب والعِقاب:

البَطْش هو الأَخْذ بشِدَّةٍ وقوة، وغالبًا ما يكون مصحوبًا بالقَسْوَة، ويُستخدم البَطْش؛ للإشارة إلى الأَخْذ القَويّ الشَّديد من اللّه تعالى، والعذاب هو الألم الشَّديد الذي يلحق بالإنسان في جسمه أو نَفْسِه، وهو أعَمُّ وأشْمَل من العِقاب، وقد يكون العذاب دنيويًّا مثل المرض أو المصائب، أو أُخرويًّا مثل عذاب النّار، والعِقاب: هو الجزاء الذي يوقَّع على مَن ارتكب فعلًا سيِّئًا، وهو مُرتبَط بالعدالة والإنصاف، فالعِقاب والعذاب يشتركان في معنى المُؤاخذة والنَّكال والمجازاة، ويفترقان في أنَّ العِقاب يقع على مَن يَستحقه فقط، والعذاب يَقع على مَن يستحقُّه ومَن لا يستحقُّه[1]، من مثل وقوع الفتنة العامة.

البطشُ أخذٌ بشدّةٍ، والعذابُ ألمٌ شديدٌ بدنيٌّ ونفسيٌّ، والعقابُ يكونُ على ذنبٍ خاصٍّ

(1) العسكريّ، الفروق اللُغويَّة، ص: 197، والكَفويّ، الكُلّيّات، ص: 189.

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ١٨﴾ [البروج: 17 - 18]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

الانتقالُ من ذِكْرِ البطشِ الشّديدِ إلى ذِكْـرِ نماذج تاريخيّةٍ عليه

لّما ذكرتِ الآياتُ السّابقة بطش الله بعباده المعاندين، وأنَّه شديدٌ عظيمٌ، ثم أردف ذلك ببيان صفات الله تعالى المُنبِئة عن هدايته لخلقه؛ ناسب أن يذكر بعض الأمثلة من تاريخ الأمم السّابقة التي نزل عليها البطش الرباني في الدنيا، ممّا علمه أو شاهد آثاره المشركون في مكّة، ليكون لهم عبرةً وآيةً، فهو انتقالٌ من التهديد بالبطش إلى ذِكْر آثار البطش السابق.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَتَىٰكَ﴾: الإتيان: مَجيءٌ بسهولةٍ، ومنه قيل للسَّيْل المارّ على وجهه: أتيٌّ وأتاويٌّ. والإتيان يُقال للمجيء بالذات وبالأمر وبالتدبير، ويُقال في الخير وفي الشَّر وفي الأعيان والأعراض[1]، والمقصود في الآية هو مجيء خبر الجنود بيُسرٍ وسهولةٍ ممّا تواردت عليه الأخبار والأنباء.

2) ﴿ٱلۡجُنُودِ﴾: يَدُلُّ الأصل (جند) على التَّجَمُّع والنُّصْرَة، والجَنْد: الأرض الغَليظة فيها حجارة بيض[2]، والجُنْد: الأعوان والأنصار[3]. ويُقال للعَسْكَر: الجُنْد اعتبارًا بالغِلْظَة من الجَنَد؛ أي: الأرض الغليظة التي فيها حِجارة، ويُقال لِكُلّ مُجْتَمِعٍ: جُنْد[4]؛ فالمقصود بالجنود في الآية هم جنود الباطل.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تنبيهُ المُخاطَب عـلـى خـبرِ السّابقين بقصدِ الاعتبارِ

تُخاطب الآيات النبيَّ ﷺ قائلةً له: هل أتاكَ يا مُحَمَّدُ خبرُ

(1) الرّاغب، المُفردات: (أتى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جند).
(3) الجوهريّ، الصِّحاح: (جند).
(4) الرّاغب، المُفردات: (جند).

الجُموعِ الكافرة المُكَذِّبَة لِأنْبيائهم الذين تجنَّدوا لمحاربة الحق، والصدّ عنه كفرعون وقومه، وثمود أصحاب صالح ﷺ، وما حَلَّ بهم من العذاب والنَّكال؟[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ قولِهِ: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ﴾:

استئنافٌ مُؤكِّدٌ لِـشِـدَّةِ بطشِهِ تعالى بالظَّلَمةِ والكَفَرةِ

قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ﴾ "استئنافٌ مُقَرِّرٌ لشدَّة بطشِه تعالى بالظَّلَمةِ العُصاة والكَفَرة والعُتاة، وكونُه فعّالًا لِما يريدُ مُتضمِّنٌ لتسليته ﷺ بالإشعارِ بأنَّه سيصيبُ قومَه ما أصابَ الجنود"[2]؛ والمعنى: "قد عَرَفْتَ تكذيبهم للرُّسل وما حاق بهم فتَسَلَّ واصبر على تكذيب قومك وحَذِّرهم مثل ما أصابهم"[3].

غرضُ الاستفهامِ وبلاغتُهُ:

تـقـريـرُ خـبرِ المُكذِّبين تعريضٌ بالمُنكِرين

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ﴾ مُسْتَعمَل في إرادةٍ لتهويل حديث الجنود بأنَّه يُسْألُ عن عِلْمه، وفيه تعريضٌ للمشركين بأنَّه قد يَحِلُّ بهم ما حَلَّ بأولئك[4]، وغرض الاستفهام التَّقرير؛ أيْ: قد أتاك؛ "لأنَّ حديث الجنود قد عُرِف قبل هذا الكلام؛ فيكون الاستفهام إنكارًا للنَّفي، وإثباتًا للمَنْفيّ كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ١﴾ [الشَّرح: 1]؛ أيْ: قد شَرَحنا لك"[5].

نكتةُ إيثارِ لفظِ الإتيانِ على المجيءِ:

الـدلالـةُ على السُّهولةِ واليُسرِ في وصولِ الخبرِ

لفظ الإتيان في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ﴾ مُسْتَعارٌ لبُلوغ الخَبَر[6]، وأوثِر التَّعبير بالإتيان على المجيء في قوله تعالى:

---

(1) الشَّوْكانيّ، فَتْح القدير: 6/ 248.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/ 139.

(3) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 301.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 250.

(5) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 193.

(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 250.

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾؛ لسهولة وصول خبر الحديث المذكور إلى النَّبيّ ﷺ عن طريق الوحي الإلهي، وما تناقلته أخبار العرب عن السابقين، وهذا يناسبه التَّعبير بمادَّة الإتيان الَّتي تدلُّ على اليُسْر والسُّهولة بخلاف مادَّة المجيء التي تدلّ على الصعوبة[1]، كَما أوثِر التّعبيرُ بلفظ ﴿أَتَىٰكَ﴾ دون (جاءك)؛ لتأكيد تَلَقّي الحديث وتأثيره على النَّبيّ ﷺ، ولِلتَّركيز على أهميَّة الاستماع والانتباه؛ لأنَّ المقصود تسليته ﷺ.

نكتةُ المزاوجةِ بين لقبٍ واسمِ قبيلةٍ:

الجمعُ بين اسمِ مُستبِدٍّ ظالمٍ وبين اسمِ قبيلةٍ مُكذِّبةٍ

جمع النّظم الكريم بين ﴿فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ﴾، وفرعون اسمٌ لَملِك مصر من القِبْطِ، والكلام على حذفِ مُضافٍ؛ لأنَّ فرعون ليس بجُندٍ ولكنَّه مُضافٌ إليه الجُنْد الَّذين كذَّبوا موسى عليه السلام وآذوْه، فحُذِفَ المُضاف لنُكتة المُزاوجَة بين اسميْن عَلَميْن مُفْردَيْن في الإبدال من الجنودِ[2]، فكان ذِكْر فرعون باعتبارِه الاسم الأشهر على الطُّغيان الذي كانوا موجودًا في مصر، مع ملاحظة أنَّ الحُكْم الجبريَّ القهريَّ الذي مارسه فرعون كان بإعانة جنده، وكان ذِكْرُ ثمود باعتبار أنّ الطغيانَ صدر عن قبيلةٍ بأكملها، فجمع النظم بين نوعيْن من أنواع رفض الحقِّ: صورة الظالم المستبد، وصورة المجتمع القبليّ المُنكِر للحقِّ.

توجيهُ تخصيصِ ﴿فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ﴾ بالذِّكْرِ:

كون قصتيْهما أشهرُ ما تعرفه الأممُ من أخبارِ الهالكين، عبرةٌ للعربِ والعَجَمِ جميعًا

خصَّ النَّظْمُ الكريمُ ذِكْر ﴿فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ﴾ واقتصرَ عليهما؛ لاشتهارِ أمرِهِما عند أهل الكتاب وعندَ مُشْركي العرب، ودَلَّ بهما على أمثالهما؛ ولأنَّهما من أعتى الأُمم الكافرة[3]، فكان ذِكْر

(1) الرّاغب، المُفردات، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أتى)، و(جاء).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 251.
(3) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 6/ 248.

﴿فِرْعَوْنَ﴾ تنبيهًا لأهل الكتاب، وذِكْر (ثَمود) تنبيهًا لمُشركي العرب، فقد اختصَّ كلٌّ منهما بمعرفةٍ خاصّةٍ بأحد هذيْن الاسميْن، مع معرفة الاثنيْن لدى الطائفتيْن، مع مراعاة الفاصلة بذِكْر (ثَمود).

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠﴾

[البروج: 19 - 20]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

الانـتـقـالُ من أخبارِ السّابقين لـلاعـتـبـارِ إلى واقعِ المعاصرين للارتداعِ

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة حديث الجنود وذكرت نموذجيْنِ منهما لِأهْل الكُفر والضَّلال من الأُمَم السّابقة، وأضْرَب في هذه الآية عن مماثلة هؤلاء الكفار الموجودين في عصره صلى الله عليه وآله وسلم إضرابًا انتقاليًّا لِمَنْ تَقدَّم ذِكْرهم، وبَيَّن أنَّهم أشَدّ منهم في الكفر والتَّكذيب، وأنَّ اللّه محيطٌ بهم كما أحاط بالسّابقين، بغرض التهديد وشديد الوعيد، فهو انتقالٌ من ذِكْر أخبار السّابقين للاعتبار إلى ذِكْر واقع المعاصرين للارتداع.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّحِيطُۢ﴾: أصلُ (حوط) يدُلُّ على الشَّيءِ يُطيفُ بالشَّيءِ[1]، ومحيطٌ: عالِمٌ بهم، وقادِرٌ عليهم، وهُم لا يُعجِزونَه ولا يَفوتونَه، والمقصود في الآية الإحاطة بالمُكذِّبين، فلا يُفلِتُ منهم أحدٌ.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

الإضـــرابُ عن الـخـبـرِ الـسّـابـق للتَّحذيرِ ممّا هو قادمٌ

تُضرب الآيتان عن السابق ذِكْره من خبر فرعون وثمود إلى بيان أنَّ كُفّار العرب أشدُّ عَراقةً في الكُفر والتَّمرُّد والظُّلْم والتَّكذيب لآيات اللّه تعالى، مِمَّنْ تَقدَّم ذِكْرهم، فهم مُنغمسون في ذلك، ومُستقِرّون فيه، واللّه تعالى محيطٌ بهم إحاطةً تامَّة، ولا يخفى عليه منهم ومن أعمالهم شيء، ولن يُفلِتوا من عقابه بأيَّة حيلةٍ من الحيَل، فهم تحت قبضته وسُلطانه، وسيُنْزِل بهم بأسه في الوقت الذي يريده[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حوط).
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 348.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الإضرابِ ودلالتُهُ:

كُـفَّـارُ الـعـربِ فـاقـوا أقرانـهـم مـن الـسّـابـقـين عنادًا وكُفْرًا

الإضراب في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ﴾ انتقاليٌّ[1] من بيان واقع الأمم السابقة إلى بيان أنَّ حال كُفّار العرب أعْجَب من حال فرعون وثمود، فهُم أشَدُّ منهم كُفْرًا وضَلالًا وعِنادًا؛ "لأنَّهم سَمِعوا قِصَّتهم، ورأوا آثار هلاكهم، وكذَّبوا أشَدَّ من تكذيبهم"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

فـي الـمـوصـولِ تنويعٌ في المعنى بـين الـجِـنْـسِ والعَهْدِ

المقصود بالموصول في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ﴾ إمّا الجِنْس؛ أيّ: جِنْس الكُفّار المُنْغمسين في التَّكذيب الذين لا يَنْتهون عن التَّكذيب إلّا بتوفيق اللّه تعالى، ومَن آمن منهم فهو في حُكْم المُسْتثنَى، وإمّا أن يكون المقصود العَهْد، وهُم الذين يموتون على الكُفر، فلا استثناء[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بحَرفِ الظَّرْفيّةِ:

مَن غَرِقَ في بحر الـمُـكـذِّبـين فقد اسـتـحـقّ الـذَّمَّ المُبين

دلَّ التَّعبير بحرف الظَّرْفيّة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ﴾ على أنَّ كُفّار قريش مُستَمِرّون على التَّكذيب، مُنْغمسون فيه انغماسَ المظروفِ في الظَّرفِ، فجُعل تَمكُّنُ التَّكذيب من نُفوسهم كتَمَكُّنِ الظَّرفِ بالمَظروفِ، أو البحر بالغريق[4]، وفي حرف ﴿فِي﴾ استعارة تبعيَّة[5]، أو في الجُمْلة مَجازٌ مُرسَلٌ عَلاقته الحاليَّة؛ "لأنَّ التَّكذيب معنى من المعاني، ولا يَحلُّ الإنسان فيه، وإنَّما يحلُّ في مكانه فاستعمال التَّكذيب في مكانه مجازٌ أُطْلِق فيه الحال، وأُريد المحلّ فعلاقته الحاليَّة"[6].

---

(1) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 194، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 141.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 301.
(3) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 20/ 194.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 252.
(5) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 344.
(6) درويش، إعراب القرآن وبَيانه: 19/ 436.

غرضُ تنكيرِ لفظِ ﴿تَكۡذِيبٍ﴾:

نُكِّر لفظ ﴿تَكۡذِيبٍ﴾ للدّلالة على التعظيم والتّهويل[1]، فتكذيبهم بالحقِّ النازل من اللّه تعالى، ليس كتكذيبهم بالحقِّ في غير الوحي، وليس كالتكذيب في شؤون الدنيا الزائفة.

عِلّة حَذْفِ مُتعلّقِ التَّكذيبِ:

حُذِفَ مُتعلَّقُ فعل التَّكذيبِ؛ لظُهورِه من المقامِ؛ إذِ التَّقديرُ: أنَّهم في تَكذيبٍ بالنَّبيِّ ﷺ، وبالوحْيِ المُنَزَّلِ إليه، وبالبَعْثِ[2].

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

بيانُ علمِ الله بتكذيبِهم وإنكارِهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ عاطفةٌ، والجملة عطفٌ على قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٍ﴾؛ أيْ: هم مُتمكِّنون من التَّكذيب، واللّه يُسلِّط عليهم عقابًا لا يُفلتون منه.

دلالةُ التَّعبيرِ بلَفْظِ الجَلالةِ:

آثَرَ النَّظْمُ الكريم التعبيرَ بلفظِ الجلالة وإظهاره في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾؛ لتربية المَهابة، والتَّأكيد على قدرته تعالى وتعظيمه، وعلى عِلْمه بكُلّ شيءٍ.

دلالةُ التّعبيرِ بالظّرفيّةِ:

إحاطةُ علمِ الله تعالى شاملةٌ لا يُفلتُ منها أحدٌ

عُبِّر بالظَّرْف في قوله تعالى: ﴿مِن وَرَآئِهِم﴾؛ للتَّمهيدِ لقوله: ﴿مُّحِيطُۢ﴾، وللدلالة على إحاطة العذاب بهم؛ إذ (الوَراء) من الأضداد، والمُراد مُحيطٌ بهم من خَلْفهم، ومن أمامهم، وأُكِّدَت تلك الإحاطة الشّاملة بقوله: ﴿مُّحِيطُۢ﴾، والمُراد التّنبيه على أنَّ إحاطته سبحانه بهم شاملةٌ لهم من جميع نواحيهم، ومن كلِّ اتّجاهاتهم.

بلاغةُ مقابلةِ التكذيبِ بالتّهديد:

تهديدُ الكافرين المُحيط مناسبٌ لتكذيبِهم الشّاملِ

لمّا ذكر سبحانه أنّ الكافرين في تكذيبٍ، ووصفهم بالغرق في

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 344.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 252.

بحرِ التكذيب؛ ناسب أن يُقابل ذلك بإحاطة العذاب بهم جزاءً وِفاقًا، فقوله: ﴿مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ﴾ خَبَرٌ مُستعملٌ في الإنذار والوعيد والتَّهديد(1)، فلمّا كان كذبهم شاملًا؛ كان إنذارهم كذلك جزاءً وفاقًا.

بلاغةُ الاستعارةِ في مُفردَةِ ﴿مُّحِيطٌ﴾:

إحاطةُ الله بالمكذِّبين تمثيلٌ لانتظارِ العذابِ مع الغفلةِ عنه

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ﴾ تمثيلٌ لحالِ انتظار العذاب إيّاهم وهم في غفلة عنه بحال مَن أحاط به العدو من ورائه وهو لا يعلم، حتى إذا رام الفرار والإفلات؛ وجد العدو محيطًا به، وليس المُراد هنا إحاطة علمه تعالى بتكذيبهم؛ إذ ليس له كبير جدوى(2)، فهو استعارةٌ تمثيليّة لاقتداره سبحانه على الكَفَرة، وأنَّهم في قَبْضته وحَوْزته، كالمُحاط إذا أُحيط به من ورائه فسُدَّ عليه مَسْلكه، فلا يَجِد مَهْرَبًا، ولا يَستطيع تَفَلُّتًا، والمعنى: لا تَجْزَع من تكذيبهم إيّاك، فهُم في قبضتي وأنا قادر على إهلاكهم ومعاجلتهم بالعذاب، فليسوا يفوتونني إذا أردتُ الانتقام منهم(3).

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 253.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 253.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 116.

﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾ [البروج: 21 - 22]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

الانتقالُ من ذِكْرِ المُكذّبين إلى ذِكْرِ صفاتِ القرآنِ

لمّا ذَكَرَتِ الآيات السابقة أنَّ كُفّار العرب في تكذيبٍ، وأنَّ التَّكذيب عَمَّهم حتَّى صار كالوِعاء لَهُم؛ حيث كَذَّبوا الرَّسول ﷺ وكَذَّبوا ما جاء به وهو القرآن، ونبّه بالإحاطة على معنى الوعيد؛ ناسب الإضراب عن ذِكْر تكذيبهم إلى بيان شأن القرآن بأنه قرآن مجيدٌ في لوحٍ محفوظٍ، فهو انتقالٌ من ذِكْر المُكذّبين إلى ذِكْر صفة ما كذَّبوه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّحۡفُوظِۭ﴾: أصل الحِفْظ: المَنْع للشيءِ بتَفقُّده ورعايته، ومنه حِفْظ الدَّرْس، وهو مَنْع ما تَدْرُسه أنْ يَشِذَّ عنك. والحِفْظ تارةً لهيئة النَّفس التي بها يُثبت ما يُؤدّي إليه التَّفهُّم، وأُخرى لضبط الشَّيء في النَّفْس، ويضادّه النِّسيان[1]، وحفظتُ الشَّيءَ حفظًا؛ أيْ: حَرَسْتُه. وحَفِظْتُه أيضًا بمعنى: استظهرته. والحَفَظَةُ: الملائكةُ الذين يكتُبونَ أعمالَ بني آدم. والمُحافَظَةُ: المراقبةُ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

صفةُ القرآنِ المجدُ الخالدُ والحفظُ الكاملُ

تُبيِّن الآيتان الكريمتان صفةَ القرآن الذي كذّب به العرب، بأنّه قرآنٌ مجيدٌ، عظيمُ الشأنِ، بالغُ الكرامة، لا كما زعموا باطلًا بأنّه شِعْرٌ وشَعْوَذَةٌ وسِحْرٌ، فكذَّبوا به وأعرَضوا عنه، وهو مُسْتَقِرٌّ في لَوْحٍ محفوظٍ، لا يناله تبديلٌ ولا تحريفٌ، ولا نَسْخٌ، ولا نَقْصٌ ولا زيادةٌ.

(1) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (حفظ).
(2) الجوهريّ، الصِّحاح: (حفظ).

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الإضرابِ ودلالتُه:

التَّنويهُ بالقرآنِ جامِعٌ لإبْطالِ جَميعِ تُرَّهاتِ المُشركين

الإضراب في قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾ إضْرابُ إبْطالٍ؛ لِرَدِّ كُفّارِ العرب، وإبْطال تكذيبِهم، ولِتَحقيق الحَقِّ؛ لأنَّ القُرآنَ جاءَهم بدَلائلَ بَيِّنة، فاستِمْرارُهم على التَّكذيب ناشِئٌ عن سوءِ اعتِقادِهم في القُرآنِ؛ إذْ وصَفوه بِصِفاتِ النَّقْصِ من قَولِهم: أساطيرُ الأوَّلين، إفْكٌ مُفْترًى، قَولُ كاهِنٍ، قَولُ شاعِرٍ؛ فكان التَّنويهُ به جامِعًا لإبْطالِ جَميعِ تُرَّهاتِهم على طَريقةِ الإيجازِ(1).

غرضُ تنكيرِ لفظِ ﴿قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾:

نُكِّر لفظا ﴿قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾ مع العلم بأنّه القرآن المُنزَل للتَّفخيم والتَّعظيم؛ وللتَّأكيد على مكانته، ورِفْعته وصَوْنه، فهو قرآنٌ في مصدره، مَجيدٌ في مكانته وعلوِّ شأنه.

نكتةُ وصْفِ القرآنِ بصفةِ المجيدِ:

تَضَمُّنُ القرآنِ الكريمِ المَكارمَ الدُّنيويَّةَ والأُخرويَّةَ

وُصِف القرآنُ بصفةِ ﴿مَّجِيدٞ﴾ لِكَثْرة ما يتضمَّن من المكارم الدُّنيويَّة والأُخرويَّة، فهو شريفٌ كريمٌ ليس فيه شيءٌ من شَوائب الذَّمِّ، الخِلال، وحيد في نَظْمه ومعانيه، وللتَّأكيد على رِفْعَة القرآن الكريم وقيمته، وتَعظيمه وتَبجيله. ومُجِّدَ القُرآن كذلك؛ "لِأنَّهُ أعْظَم الكُتُبِ السَّماويَّة وأكْثَرُها معاني وهَدْيًا ووعْظًا، ويزيدُ عليها ببلاغتهِ وفصاحته وإعجازِه البَشَر عن مُعارضتِه"(2).

بلاغةُ التعبيرِ بحرفِ الظَّرفيَّةِ:

شِـدَّةُ رعايةِ القرآنِ، والعِنايةُ بحفظه من التَّغيير والتَّبديل والتَّحريف

دلَّ حَرْف الظَّرْفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ على شِدَّة رعاية القرآن، والعِناية بحِفظه من التَّغيير والتَّبديل والتَّحريف، "وكُلّ شُبْهَة ورَيْب في نَظْمه أو معناه، كما أنَّ البُروج محفوظة في لوح

(1) ابن عاشور، التّحريروالتَّنوير: 30/ 254.

(2) ابن عاشور، التّحريروالتَّنوير: 30/ 254.

السَّماء المحفوظ؛ بل القرآن بذلك أوْلى؛ لأنَّه صِفَة الخالق في بيان وصْفه لِما خَلَق على الوجه الأتَمّ الأعدل؛ لأنَّه تَرْجمة ما أوجده اللّٰه سبحانه في الوُجود"[1].

نكتةُ وصْفِ مَحلِّ القرآنِ بالحِفْظِ:

وُصِف محلُّ القرآن بالحفظِ في قوله تعالى: ﴿لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾؛ للتَّأكيدِ على حِفْظ القرآن الكريم من التَّحريف والنَّسْخ، والتَّأكيد على قُدْسيته وأهمّيته، وحِمايته ودوامه.

غرضُ التنكيرِ في قوله: ﴿لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾:

نُكِّر لفظا ﴿لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ للتَّشريف والتَّفخيم والتَّعظيم، فالمحل الذي يُحفظ فيه القرآن هو محلٌّ شريفٌ كريمٌ عظيمُ المكانة فخم الشّأن.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيّةِ:

الحفظُ صفةٌ للقرآنِ واللَّوحِ معًا على ضوءِ القراءتيْن

قرأ الجمهور: ﴿مَّحۡفُوظِۭ﴾ بالجرِّ على أنَّه صفةُ ﴿لَوۡحٖ﴾، "وحِفظُ اللَّوحِ الَّذي فيه القُرآنُ كنايةٌ عن حفظ القرآنِ، وقرَأ نافِعٌ وحدَه برفع ﴿مَّحۡفُوظٌ﴾، على أنَّه صِفةٌ ثانيةٌ لـ ﴿قُرۡءَانٞ﴾، ويَتَعلَّقُ قولُه: ﴿فِي لَوۡحٖ﴾ بـ ﴿مَّحۡفُوظِۭ﴾، وحِفظُ القُرآنِ يَستَلزِمُ أنَّ اللَّوحَ المودَعَ هو فيه مَحفوظٌ أيضًا؛ فلا جَرَمَ حصَلَ من القراءتَيْن ثُبوتُ الحفظ للقُرآنِ وللَّوحِ؛ فأمّا حِفظُ القُرآن فهو حِفظُه من التَّغييرِ ومن تَلَقُّفِ الشَّياطين، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحِجْر: 9]. وأمّا حِفظُ اللَّوحِ فهو حِفظُه عن تَناوُلِ غير المَلائكةِ إيّاه، أو حِفظُه كنايةً عن تَقديسه، كقوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ [الواقعة: 78 - 79]"[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدُرر: 21/ 367.

(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 399، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 254 - 255.

سُورَةُ الطَّارِقِ

سُورَةُ الطَّارِقِ

التَّعريف العامُّ بالسّورة:

المكّيُّ والمدنيُّ وعدّ الآي:

ذَكَرَ ابنُ عطيَّة إجماعَ المُفسِّرين على مكّيَّتها[1]، وبذلك قال القُرطبيُّ[2]، والسُّيوطيُّ[3]، وأمّا عدد آياتها فيقول فيها الدّانيُّ: "وَهي سِتَّ عشْرَة آيَة في المدنّي الأوَّل، وسبْعَ عشرَة في عدد الباقينَ، اختلافُها آيَةُ ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾؛ لم يعدَّها المدنيُّ الأوَّل، وعدَّها الباقونَ"[4].

ترتيب النُّزول وترتيب المصحف:

جـاء ترتيبها المصحفيّ بَيْنَ سورتَي البُروجِ والأعلى

هذه السّورة هي السّادسة والثَّمانون في التَّرتيب المُصحفيِّ الشَّريف، وهو التَّرتيب الثّابِت والمُعوّل عليه عند أهل النَّظَر والتَّحقيق، وقد جاء ترتيبُها بَيْنَ سورتَي البروج والأعلى، وأمّا ترتيبها النُّزوليُّ؛ فعُدَّت السّورةَ السّادسةَ والثّلاثين في ترتيب نُزول السّوَر؛ نزلت بعد سورةِ البلَدِ وقَبْلَ سورةِ القمَر[5].

فضائل السّورة:

هذه السّورة من سوَرِ المُفَصَّلِ

هذه السّورة الكريمة من سور المُفَصَّل الذي قال فيه النَّبيُّ ﷺ فيما رواه عنه واثلة بن الأسقَع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المِئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»[6].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 464.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 1.
(3) السُّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 42.
(4) الدّاني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 270.
(5) دروزة، التّفسير الحديث: 2/ 267، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 257.
(6) ابن حنبل، المُسنَد، حديث رقم: (16982)، والطَّبراني، المعجم الكبير: (22/ 76)، حديث رقم: (187)، والبيهقيُّ، شُعَب الإيمان، حديث رقم: (2192).

وعَنْ جابِرِ بْنِ سَمُرَةَ: «أنَّ رَسولَ اللّه ﷺ كانَ يَقْرَأُ في الظُّهْرِ والعَصْرِ: والسَّماءِ ذاتِ البُروجِ، والسَّماءِ والطّارِقِ، وشَبَهَها»[1].

وأخرج النَّسائيُّ عَنْ جابِرٍ أنَّهُ قالَ: صَلَّى مُعاذٌ المَغْرِبَ، فقَرَأَ البَقَرَةَ والنِّساءَ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «أفَتّانٌ يا مُعاذُ، ما كانَ يَكْفيكَ أنْ تَقْرَأَ بالسَّماءِ والطّارِقِ، والشَّمْسِ وضُحاها؟»[2].

اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

صِدقُ القرآنِ الكريمِ في الإخبارِ عَن الوَعْدِ والوعيدِ

ورد تسميَتُها باسم سورة (الطّارق) في صحيح البخاري، وسنن النّسائيّ[3]، وكذلك سُمّيت في المصاحف المشرقيَّة والمغربيَّة وفي جُلِّ التَّفاسير، وجاء في تفسير الطَّبَريِّ وأحكام ابن العربيّ تسميتها (سورة وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ)[4].

وقد قام البقاعيُّ بالرَّبْطِ بَيْنَ اسمها ومقصودها خَيْرَ ربطٍ، فقال: "ومقصودُها: بيانُ مجدِ القُرآن في صِدْقِه في الإخبار بتَنْعيم أهْلِ الإيمان، وتعذيب أهل الكفران في يوم القيامة، حين تُبْلَى السَّرائِر، وتُكْشَف الضَّمائر عن مثقالِ الذَّرِّ، وما دون المثقالِ، وما دوَّنَتْهُ الحفَظَةُ في صحائف الأعمال، بعدَ اسْتيفاءِ الآجال، كما قُدِّر في أزل الآزال، من غير استعجال، ولا تأخير عن الوقتِ المضروب ولا إهمال"[5].

المحور العام للسورة:

البعثُ قائمٌ ومُنْكِروهُ إلى جهنَّمَ

المِحْوَرُ الذي قامت عليه السّورة هو إثباتُ البَعْثِ وتهديدُ مُنْكِريه بما سَيَحْصُل لَهُم بعده، وذلك من خلال إقامة البُرْهانِ على ذلك مِن خلال تَذْكيرِهِم بحِفْظِ اللّه تعالى لهم، ومِن خلالِ تَذْكيرِهِم

(1) ابن حنبل، المُسنَد، حديث رقم: (20982)، والتِّرمذيُّ، الجامع، حديث رقم: (307).
(2) أخرجه النّسائي في السُّنن الكبرى، حديث رقم: (11600).
(3) البخاري، صحيح البخاري: باب: تفسير سورة الطّارق: 4/ 1885، والنَّسائي، السُّنن الكُبرى، سورَةُ الطّارق: 10/ 332.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 257.
(5) البقاعي، مصاعد النّظر: 3/ 178.

أيضًا بأنَّ أصلَ خِلْقَتِهِم مِنَ العدم، وأنَّ إعادتَهُم أهونُ عند اللّه مِن خلقِهِم مِنَ العدَمِ.

ولذا اقتضى هذا المحورُ أن تعرض للأحوال الآتية:

أوّلاً: استهلّت السّورة بالقسَمِ بالسَّماء والطّارقِ على أنَّ كُلَّ نفسٍ عليها حافظٌ، ثُمَّ برهَنَ على البعث من خلالِ لَفْتِ نظرِهِم إلى أصل خِلْقَتِهِم.

ثانيًا: اقتضى هذا المحورُ أنْ يُقْسَمَ لَهُم بالسَّماء ذاتِ الرَّجع، مع ما في دلالةِ لفظة (الرَّجع) من إشارةٍ إلى إرجاعهم بعدَ الموت، وبالأرض ذات الصَّدعِ؛ على أنَّ بَعْثَهُم مُتحقِّقٌ، فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ [الطارق: 11 - 14].

ثالثًا: توعَّدت السّورةُ مُنْكِري البَعْثِ بأشدِّ العذاب، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾ [الطارق: 15 - 17].

موضوعاتُ السّورة وخصائصها:

تدورُ السّورةُ حولَ تطمينِ المؤمنين وتهديدِ الكافرين

تدور مواضيع السّورة الكريمة - كسائر السّور المكّية - حول تقرير الإيمان بالبعث والرُّجوع إلى اللّه، وما يَتْبَعُه من حساب وجزاء، مُستدلّةً على ذلك بخلق الإنسان ابتداءً من العدم؛ فمَن قَدَرَ على الإيجاد أوَّلًا لا يَعْجَزُ عن الإعادة بعد الموت.

أوّلاً: استُهلّت السّورة بقَسَمٍ بالسَّماء وما يظهر فيها من النَّجوم اللّامعة ليلاً، على أنَّ كُلَّ نفسٍ موكولة إلى حفظةٍ من الملائكة الأبرار.

ثانيًا: ثُمَّ ساق القرآن دليلًا بيّنًا على إمكان البعث، وهو النَّظر في أصلِ خَلْق الإنسان، إذ أوجده اللّه من تراب ثُمَّ من نُطفة، مِمّا يقطع بقُدرته على إعادته بعد فنائه.

ثالثًا: أعقب ذلك ببيان مشهد الآخرة حيث تُكشَف السَّرائر، ويوقَف الإنسان بَيْنَ يدي العدالة الإلهيَّة، لا يملك لنفسه حولًا ولاقوَّة ولا يجد نصيرًا يستند إليه.

رابعًا: اختُتِمَت السورة بقسم آخر بالسماء والأرض، لتقرير صدق القرآن المحكم الفاصل بين الحق والباطل، مقرونًا بوعيد المُكذِّبين وتهديدهم(1).

الخصائِصُ الموضوعيَّةُ للسورة:

تميَّزت سورة الطّارق بخصائِصَ أفْرَدَتْها عن غيرها مِنَ السّوَرِ

أوّلاً: تميَّزت السّورةُ الكريمة ببراعةِ الاستهلال؛ حيثُ استُهلّت بأسلوبِ القسَم بمحسوسٍ، الذي شارَكَتْها فيه بعضُ السّور المكّيَّة، ولكنَّ السّورة هُنا اختصَّت بالقَسَمِ بالنَّجم الثّاقبِ على أنَّ لِكُلِّ نفسٍ حافِظًا، وذلك توطئةً لإثباتِ أمرٍ غيبيٍّ غيرِ محسوسٍ.

ثانيًا: اختصَّت السّورَةُ الكريمةُ بذِكْرِ الطّارقِ والماءِ الدّافقِ الذي يخرج من بَيْنِ الصُّلْبِ والتّرائب، وتفرَّدت بذِكرِ اليوم الذي تُبلى فيه السَّرائر، وعن نفي الهَزْلِ عن قولِ اللّه تعالى.

الخصائِصُ الأسلوبيَّةُ للسورة:

انفردت سورة الطّارق بخصائص أسلوبية لم تأت في غيرها

أوّلاً: بَرَزَ في السّورة الكريمة مُركّباتٌ وصْفيَّة كثيرةٌ، منها: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾، و﴿مَّآءٖ دَافِقٖ﴾، و﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾، و﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾، و﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾.

ثانيًا: امتازت السّورة الكريمة - على قِصَرِ آياتها - بكثرة الألفاظ المُتقابلة في معانيها، مثل: السَّماء والأرض، والصَّلب والتَّرائب، والفصل والهَزْل، والرَّجع والصَّدع.

ثالثًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأسلوبِ الجناس الاشتقاقيِّ في بعض ألفاظها، مثل: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾، و﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾.

(1) الزحيلي، التفسير المنير: 30/ 171 - 172.

رابعًا: تميَّزت السّورة الكريمةُ بوَفْرَةِ صيغةِ اسْمِ الفاعلِ فيها، مثل: ﴿ٱلطَّارِقُ﴾ - مرَّتين -، و﴿ٱلثَّاقِبُ﴾، و﴿حَافِظٌ﴾، و﴿دَافِقٍ﴾، و﴿لَقَادِرٌ﴾، و﴿نَاصِرٍ﴾، و﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

خامسًا: امتازَت السّورة الكريمة بأنَّها حوت قاموسًا معجميًّا يتعلَّق بالإنسان وخلقهِ، مثل: الخَلْقِ، والصُّلب والتَّرائب، والرَّجع، والماء الدّافق، إضافةً إلى لفظتَي: نفس، والإنسان.

سادسًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنَّها حَوَتْ ألفاظًا لم تأتِ في غيرها مِن السّوَرِ بصيَغِها الصَّرفيّة هذهِ، مثل: ﴿ٱلطَّارِقُ﴾ - مرّتَيْن -، ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾، ﴿ٱلصُّلْبِ﴾، ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾، ﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾، ﴿ٱلرَّجْعِ﴾، ﴿ٱلصَّدْعِ﴾، ﴿يَكِيدُونَ﴾، ﴿وَأَكِيدُ﴾، ﴿فَمَهِّلِ﴾، ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾، ﴿رُوَيْدًۢا﴾، وغيرها.

سادسًا: كما تميّزت السّورة الكريمة بأنّها انفردتْ بلَفْظَتَيْن فريدتَيْنِ في مادّتَيْهما، وهما: ﴿دَافِقٍ﴾، و﴿بِٱلْهَزْلِ﴾.

مُناسبة السورة لما قبلها:

سورة الطّارق مُتَّصلةٌ تمامًا بسورة البروج مَضمونًا وأُسلوبًا

لمّا أخبر اللّه تعالى في سورة البروج: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾ [البروج: 9]، ثم قال بعدها ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ ۝٢٠﴾ [البروج: 20]، وكان بيانٌ جامعٌ يُعرِّف العباد أنَّ ربهم لا يخفى عليه شيء، وأنه لا يفوته هارب، ولا يغيب عنه حاضر ولا غائب، أردَف ذلك بتفصيل يَزيد إيضاحَ ذلك التَّعريف الجمليّ من شَهادَته سُبحانه على كُلِّ شيءٍ وإحاطته بهِ؛ ليُعْلِم العبدَ أنَّه ليس بمُهْمَلٍ ولا مُضَيَّع، وهو سُبحانه الغنيُّ عن كتب الحفظَةِ وإحصائِهم، ولكنْ هي سنّةٌ حتّى لا يبقى لأحدٍ حجّة ولا تعلّق، وأقسَم تعالى على ذلك تحقيقًا وتاكيدًا يُناسب القَصْدَ المذكورَ(1).

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 360 - 361.

فترتبط هذه السّورة بما قبلها بالأمور الآتية:

أوّلاً: أنَّ كلتا السّورتين افتُتحتا بالقَسَم بالسَّماء، على طريقة سورتي الانشقاق والانفطار.

ثانيًا: التَّشابه في مُعالجة قضيّتَيِ البعث والمعاد وصفة القرآن، للرَّدِّ على المُشركين الذين كذّبوا بالرِّسالة وبالرُّجوع إلى الله[1].

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 30/ 171.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ٣ إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٌ ٤﴾ [الطارق: 1 - 4]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

مِن إحاطةِ الله تعالى بخلقِه حفظُه أعمالَهم ليُحاسبَهم عليها

لَمّا تقدَّم في آخر سورة البُروج أنَّ القرآنَ في لوحٍ محفوظٍ؛ لأنَّ مُنْزِله سبحانه محيطٌ بالجنود المُعاندينَ وغيرِ المُعاندين؛ أقْسَمَ تَعالى في صَدْرِ سورةِ الطّارق على أنَّ مِن إحاطَتِه حِفْظَ كلِّ فرد من جميع الخلائق المُخالفين والموافقينَ والمُؤالفين؛ ليُجازَى كلٌّ على أعمالِه يومَ إحقاقِ الحَقائقِ وقَطْعِ العَلائِق[1].

شَرْحُ المُفرداتِ:

1) ﴿وَٱلطَّارِقِ﴾: (طرق) أَرْبَعَةُ أُصولٍ؛ مِنْها: الإتْيانُ مَساءً، ومنه: الطُّروقُ، وهو إِتْيانُ المَنْزِلِ لَيْلًا، ورَجُلٌ طُرَقَةٌ إذا كانَ يَسْري حَتّى يَطْرُقَ أَهْلَهُ لَيْلًا؛ وذُكِرَ أنَّ ذلِكَ يُقالُ بالنَّهارِ أيْضًا، لَكِنَّ الأَصْلَ هوَ اللَّيْلُ، والدَّليلُ عَلى أنَّ الأَصْلَ اللَّيْلُ تَسْميَتُهُمُ النَّجْمَ طارِقًا؛ لِأَنَّهُ يَطْلُعُ لَيْلًا، ما يعني أنَّ التَّعبيرَ عَنِ النَّجْمِ بالطّارِقِ؛ كان لاختِصاصِ ظُهورِه باللَّيْلِ[2].

2) ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾: (ثقب) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ،؛وَهوَ أَنْ يَنْفُذَ الشَّيْءُ، يُقالُ: ثَقَبْتُ الشَّيْءَ أَثْقُبُهُ ثَقْبًا؛ ومنه: الثّاقِبُ بمعنى: المُضيءُ الذي يثقُبُ بنورِه وإضاءتِه ما يقع عليه، قال تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ١٠﴾ [الصافات: 10]، و﴿ٱلثَّاقِبُ﴾ في قَوْلِه تَعالى: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾: نَجْمٌ يَنْفُذُ السَّماواتِ كُلَّها نورُهُ[3].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 370، 371.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (طرق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (ثقب).

3) ﴿حَافِظٌ﴾: (حفظ) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلى مُراعاةِ الشَّيْءِ، يُقالُ: حَفِظْتُ الشَّيْءَ حِفْظًا؛ أي: حَرَسْتُهُ، وحَفِظْتُهُ بمعنى: استَظْهَرْتُهُ، والحَفَظَةُ: الملائكةُ الذين يكتُبونَ أعمالَ بني آدم[1]، والمعنى المحوريُّ: حياطَةٌ قويَّة ضابطَةٌ للشَّيء، فلا يَضيعُ ولا يَتَفَلَّت، كحِفْظ المال لا يضيعُ ولا يُنتَقَص بخيانَةٍ أو سرِقة أو سوء تدبير، وكحفظ الكلام والقرآن والأعمال، بمعنى: التَّقييد والضَّبط، قال اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ۝٨٢﴾ [الأنبياء: 82]، وقال أيضًا: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

على كلِّ نفسٍ حافظٌ يحفَظُ عليها عَمَلَها ورزقَها وأجلَها

في هذه الآياتِ الكريمة يُقْسِم اللّه تعالى بالسَّماء المعروفة، والنَّجْم الذي يَنْفُذُ نورُهُ في السَّماوات كلِّها على أنَّه تعالى جَعَلَ على كلِّ نَفْسٍ عاقلةٍ مِن نُفوسِ خَلْقِه ملائكةً يكتُبونَ عليها أعْمالَها، صغيرَها وكبيرَها، دقيقَها وجليلَها، حتَّى تُخْرَجَ لها يوم القيامة كتابًا تَلْقاهُ مَنْشورًا، كما جُعِلَ هؤلاء الكَتَبَةُ يَحْفَظونَ على تلك النُّفوس رِزقَها وأجلَها، فإذا اسْتَوْفى الإنسانُ أجلَه ورزقَه قُبِضَ إلى ربِّه تَعالى؛ ليُحاسِبَه على ذلك كُلِّه[3].

۞ الإيضاحُ اللّغويّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ في صَدْرِ السّورة:

في القَسَم تشويقٌ إلى المُقْسَم عليه وإشعارٌ بأهَمّيَّة المُقْسَم به

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ هي واوُ القسَم، الدّالَّةُ على أهمّيَّة ما يُقْسِمُ به اللّه تعالى وعلوِّ شأنِه، والمُشَوِّقةُ إلى المُقْسَم عليه، والمُشيرةُ إلى ضرورةِ التَّنبُّه عليه، ففي "افتتاح السّورة بالقَسَم تشويقٌ إلى ما يَرِدُ بعده وإشعارٌ بأهمّيَّة المُقسَم عليه، وهو مع ذلك

(1) الجوهري، تاج اللُّغة وصحاح العربيَّة، وابن فارس: مقاييس اللُّغة: (حفظ).
(2) محمد جبل: المعجم الاشتقاقي: (حفظ).
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 119.

يَلْفِتُ البابَ السّامعين إلى الأمور المُقْسَم بها؛ لأنَّ بعضَها مِن دلائل عظيم القُدْرَةِ الإلهيَّة المُقْتَضيَةِ تفرُّدَ اللّٰه تعالى بالإلهيَّة وإبطالِ الشَّريك، وبعضُها مُذكِّرٌ بقُدْرَةِ اللّٰه تعالى على البَعْث، ورمزٌ إلى تحقيقِ وُقوعِه؛ إذِ القَسَمُ لا يكون إلّا بشيءٍ ثابتِ الوُقوع، وبعضُها بما فيهِ مِنَ الإبهام يوجِّه السّامعين إلى تَطَلُّب بيانه"[1].

دلالَةُ القَسَمِ بـ (السَّماءِ):

افتتَحَ النَّظمُ الكريمُ السّورةَ - التي تُثبت أنَّ الذي أخرج الإنسانَ مِن بَيْنَ الصُّلب والتَّرائب، وخلَقَه من ماء دافقٍ؛ قادرٌ على إرجاعِه وبَعْثِه بعدَ أنْ يموتَ ويصيرَ تُرابًا - بالقَسَم بـ (السَّماءِ) التي لا يُجادِل أحدٌ في شَرَفِها وعظَمَتِها، ولا مجالَ للشَّكِّ في قُدْرَةِ اللّٰه تَعالى خالقها ورافعِها، والتي يَهْدي مجرَّدُ النَّظر إليها والتَّفكرُ فيما تحويهِ من بدائع الصُّنع إلى عظيمِ قدرةِ اللّٰه تعالى على حِفْظِ أعمالِ كُلِّ نَفْسٍ، وقُدْرَته أيضًا على أمر الإرجاعِ والحِساب، الذي يُعَدُّ هيِّنا إذا قورِنَ بشَيْءٍ مِمّا فيها؛ كالشَّمسِ أو القمَرِ أو النُّجوم أو اللَّيل أو النَّهار أو الطّارقِ، أو غير ذلك مِمّا يعدُّ أدلَّةً وبراهينَ تُثْبِت أنّ قُدْرَةَ اللّٰه تَعالى لا يُعْجِزُها أيُّ شيءٍ، أيًّا كان ومَهْما كانَ[2].

لا جِدالَ في شَرَفِ السَّماءِ وعَظَمَتِها، ولا شكَّ في قُدرةِ خالِقِها ورافِعِها

وَجْهُ العَطْفِ بالواوِ:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّارِقِ﴾ لعَطْفِ ما بَعْدَها على (السَّماءِ) عَطْفَ الخاصِّ على العامِّ، أو عطفَ الجُزْءِ على الكُلِّ، وأوثِرَ عَطْفُه بالواوِ التي تُفيدُ المُشاركة في الحُكْم للدَّلالة على مُماثلَةِ (الطّارِق) لـ (السَّماءِ) في العظمَةِ وبديع الصُّنع، والدَّلالة على قُدرة اللّٰه تَعالى على كُلِّ الأمور بوجهٍ عامٍّ، وعلى أمْرِ الإرجاعِ والحسابِ بوجهٍ خاصٍّ، فبَعْدَ "أن أقسَمَ اللّٰه بالسَّماء؛ لِما لها مِنَ الشَّرف والمجد؛ تنبيهًا على

الطّارق يُماثِلُ السَّماءَ في غرائِبِ القُدْرةِ وعجائِبِ الصَّنعةِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 237.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 371، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 258.

ما فيها مِن بدائِعِ الصُّنعِ الدّالَّة على القُدْرَة الباهِرة، أقسَم بأعجَب ما فيها وهو جِنْسُ النُّجوم ثُمَّ بأغْرَبِه؛ وهو المُعَدُّ للحِراسَة؛ تنبيهًا على ما في ذلك مِن غرائِبِ القُدْرَة"(1).

بلاغَةُ القسَمِ بـ ﴿وَٱلطَّارِقِ﴾:

(الطّارِقِ) في الأصل وصفٌ مُشتقٌّ من الطُّروق، وهو: المجيءُ ليلًا؛ لأنَّ عادة العرب أنَّ النّازل بالحيِّ ليلًا يطرُقُ شيئًا مِن حَجَرٍ أو وتدٍ؛ إشعارًا لربِّ البيتِ أنَّ نزيلًا نزَلَ به؛ لأنَّ نُزولَهُ يَقْضي بأنْ يُضَيِّفوه(2)، والمُراد به في الآيةِ: الكوكبُ الذي يَظْهَرُ في السَّماء ليلًا، ويَخْتَفي نهارًا، ولهُ فوائدُ عظيمَةٌ: معنويَّة وأُخْرى حسّيَّة، لا يقوم بها في حياة النّاس مخلوقاتٌ غيرها، فهو يطرقُ مُسْتَرِقي السَّمع فيُبدِّد شَمْلَهم، ويُهلك مَنْ أراد الله تعالى منهم؛ لأجل هدايةِ النّاس بالقرآنِ في الطُّرق المعنويَّة، وظهورُه وإشراقُه في السَّماء لهدايةِ النّاس في الطُّرق الحسّيَّة(3)، وهذا يعني: أنَّ الله تعالى أقسم بالسَّماء وما خلق فيها مِن الكواكبِ التي تُضيءُ عندَ طُلوعِها ليلًا وتَخْتَفي نهارًا(4)، تنبيهًا على ما فيهما من عجيبِ الصَّنعة، ودلائل القُدرة، وعظيم الفائدةِ والأثَر في حياة النّاس.

للنُّجوم فوائِدُ معنويَّةٌ وأخرى حسّيَّة، لا يقومُ بها مخلوقاتٌ غيرُها

بلاغة المجاز في (الطّارِقِ):

تسميةُ النَّجم الذي يَظْهَر في السَّماء ليلًا، ويطرق الجِنّيَّ فيصكُّه بـ (الطّارِقِ) استعارةٌ تصريحيَّة؛ شُبِّه فيها النَّجمُ بالضَّيف الذي يأتي ليلًا، فيطرق الأبوابَ أو الأحجار(5)، ثُمَّ حُذف المُشَبَّه واستُعير له المُشَبَّه به؛ وهو (الطّارِقِ) الموضوعُ للضَّيف، بعد طيِّ التَّشبيه

لظهور النُّجوم في السَّماء ليلًا فوائدُ لا تُنْكَر

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 371.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 258.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 371.

(4) مجمع البحوث الإسلاميَّة: التَّفسير الوسيط: 10/ 1864.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 499، وابن قيّم الجوزيَّة، التِّبيان في أقسام القرآن، ص: 100.

وادِّعاء أنَّ المُشَبَّه فردٌ من أفراد المُشبَّه به، على سبيل التَّصريحيَّة التي تُذكِّر المُتلقّي بعظيم القُدرة، وجليل الفائدةِ التي تَتَرَتَّب على ظُهور النُّجوم ليلًا والتي يَعْرِفُها المُخاطَبون حقَّ المعرفةِ، ولا يُمْكِنُهم جحودُها ولا إنكارُها.

نوعُ الواوِ ودلالَتُها في قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾:

تفخيمُ المُقْسَمِ بِهِ وتَعْظيمُ شأنِهِ.

الواوُ في قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ استئنافيَّة، والجُملة بعدَها مُعتَرِضَة بَيْنَ القسَم وجوابِه، جيءَ بها لتفخيم المُقْسَم به وتعظيم شأنه، بإحداث نوعٍ مِنَ الإثارة والتَّهييج إلى إدراكِ ما فيه مِن أوجُهِ الإبداع والقُدْرَة والفائدة، فلمّا كان ﴿ٱلطَّارِقُ﴾ يُطْلَقُ على غير النَّجم أَبْهَمَهُ أوَّلا، ثُمَّ عظَّم المُقْسَم به بقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾؛ أي: ما عرَّفك يا أشرَفَ خَلْقِنا، وإنْ حاولتَ معرفةَ ذلك، وبالغتَ في الفَحصِ عنه[1]؟.

بلاغَةُ الاسْتِفْهامِ في قولِهِ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾:

حقيقةُ المُقْسَمِ بِهِ لا يحيطُ بها إلّا الخلّاق العليمُ

قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ أسلوبُ اسْتِفْهام، غرضُه إثارةُ المُتَلَقّي وتشويقُه إلى ترقُّب ما سَيُفْصِحُ عنه النَّظمُ الكريم مِنَ التَّعريف بـ ﴿ٱلطَّارِقُ﴾، وبيان حقيقتِه التي لا سبيلَ أمام أحدٍ إلى إدْراكها؛ لرفعة شأنِه وعظمةِ خَلْقِه، بدرجةٍ لا يصِلُ إليها إدراكُ النّاس، ما يعني: أنَّ المتَلَقّي لا يعلم حقيقةَ المُقْسَم به، ولا سبيلَ له إلى ذلك، ولا بدَّ من تلَقّيها من الخلّاق العليم[2].

نكتَةُ إيثارِ الاسْتِفْهامِ بـ (ما):

لا يُمْكِنُ للمُتَلَقّي أن يَصِلَ إلى حقيقَةِ الطّارق بنَفْسِه

يجوزُ أن يكونَ غَرَضُ الاستفهام في جُمْلَة: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ إنكارَ درايةِ المُتَلَقّي حقيقةَ الطّارق، ونَفْيَ علمِه بعظيم شأنه، وجليل فائدته، وبديعِ خلقه، وأوثر الاستفهامُ فيه بـ (ما)؛ لدلالته بمَعْناهُ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 372، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 258.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 140.

ومبناه - المختوم بألفِ المدِّ - على المُبالَغةِ في نَفْيِ قُدْرَةِ المُتَلَقّي على إدراكِ حقيقةِ الطّارق بنفسه، وعَدَمِ قُدْرَةِ أيِّ أحدٍ أو شيء على تعريفه بِهِ أيضًا، والمعنى: وأيُّ شيءٍ أَعْلَمَكَ ما الطّارقُ؟.

سِرُّ إيثار فِعْلِ الدِّراية دون غيرِه:

لن يُدْرِكَ المَرْءُ ماهيَّةَ الطّارقِ لِعَظَمَتِهِ وفخامَتِه

أوثر التَّعبيرُ في جُملة: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ بفعل الدِّراية الموضوعِ للمَعْرِفَةِ المُدْرَكَة بضَرْبٍ من الحيلَةِ؛ للدَّلالة على أنَّه لا طاقَةَ للإنسانِ بمعرفة ماهيَّة المفعول مَهْما بذَلَ مِن جُهْدٍ، ومهما أعمل مِن فِكْرٍ؛ لتعلُّق أمرِه بشيء يَعْظُمُ عَن أن يُحيط الإنسانُ به[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بِـ (ما أدْراكَ) دون (ما يُدْريكَ):

آياتُ الله تَعالى مُحقَّقة الوقوعِ

الاستفهام في (ما أَدْراكَ) مقصودٌ به الإنكارُ والتَّهويل، ما مِن شأنِه أن يَجْعَل مفعولَ فعلِ الدِّراية مُحَقَّقَ الوقوع، في حين أنَّ الاستفهامَ في قوله: (وَما يُدْريكَ) غرضُهُ النَّفي، ما يعني أنَّ المفعول فيه غيرُ مُؤَكَّد الوقوع، ولهذا قيل: "كلُّ موضع ذُكر في القرآن ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾؛ فقد عَقَّب ببيانه، نحو: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١﴾ [القارعة: 10 - 11]، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: 2 - 3]، وكلُّ مَوْضِعٍ ذُكِر فيه: (وَما يُدْريكَ) لم يُعَقِّبْهُ بذلك، نحو: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ [عبس: 3]، وقوله: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ۝١٧﴾ [الشّورى: 17]"[2].

بيانُ مَرْجِعِ الضَّمير المنصوب في ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾:

شأنُ الطّارق خفيٌّ بِشَرِ الأنامِ، ويُشَوِّق الأفهامَ

يجوزُ أن يكون المُخاطَبُ بالضَّمير المنصوب في الفعل: ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾ رسولَ الله ﷺ، وهذا يعني: أنَّه إذا كانت حقيقةُ الطّارق خافيةً عليه؛ فإنَّها خافيةٌ على غيره من بابٍ أَوْلى. وجائزٌ أن يكونَ الضَّميرُ لغَيْرِ معيَّنٍ، فيكون ضمير الخطابِ خارجًا عن أصلِهِ في الدّلالةِ على

(1) الرّاغب، المُفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (درى)، والعسكري، الفروق اللُّغويَّة: 92.
(2) الرّاغب، المُفردات: (درى)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 114.

معيَّنٍ مشاهَدٍ؛ قصدًا لإرادَةِ العموم، فيشمَلُ العبادَ أجمعينَ. وفي كلا الأمرَيْنِ تفخيمٌ للطّارق وتشويقٌ إلى ما يُزيل اللِّثامَ عنهُ.

فائِدَةُ تَكْرارِ (ما):

إثـارةُ النُّفوسِ إلى معرفةِ سِرِّ تخصيصِ الطّارقِ بالقسَمِ دونَ ما في السَّماء

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا ٱلطَّارِقُ﴾ اسمُ استفهامٍ عن حقيقةِ الطّارق وماهيَّته، وقد أوثِرَ تَكرارُه مَعَ قُرب العَهْدِ به؛ لدلالتِه بمَعْناهُ ومبناهُ - المختوم بألف المدِّ - على بلوغ المستَفْهَم عنه في الفخامةِ وعُلوِّ الشَّأن مبلَغًا عظيمًا لا تقديرَ لعَظَمَته، ولا يُمكِنُ لأحد مِن الخَلْقِ أن يُحيط بها إلّا إذا بُيِّن لَهُ؛ ما مِن شأنه أن يزيدَ مِن إثارة النُّفوس إلى ترقُّب ما يُفْصِحَ عن ماهيَّته، ويُبَيِّنَ سببَ الإقسامِ به، وسِرَّ تخصيصِه بالذِّكر دون غيره ممّا في السَّماء.

سِرُّ الإظهارِ في موضعِ الإضْمارِ:

بيانُ رفعةِ شأنِ الطّارِقِ وتعظيمِ أمْرِه

في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ إظهارٌ في موضع الإضمار؛ لأنَّ مُقْتَضى الظّاهر أن يُقال: (وما أدراك ما هو)، لكنَّ البيانَ الكريمَ عَدَلَ عن التَّعبير بالضَّمير إلى الظّاهِر، فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ زيادةً في رفعة شأنِ الطّارق، وتعظيمِ أمْرِه، وتنبيهًا على التَّشوُّفِ إلى ما يُذْكَرُ بعدُ مِنْ بيانِ حقيقتِه.

نوع (ألْ) ودلالَتُها في ﴿ٱلنَّجۡمُ﴾:

العظمة والإبداع والثّقب أمورٌ مُتحقِّقة في جِنْسِ النُّجوم

(ألْ) في ﴿ٱلنَّجۡمُ﴾ يجوزُ أن تكون لتعريفِ الجِنْسِ، فيستغرِقِ التَّعبيرُ جميعَ النُّجوم استغراقًا حقيقيًّا؛ لأنَّ لِكُلِّ كَوْكَبٍ ضوءًا ثاقبًا لا محالة، فكأنَّه قيل: والنُّجوم، إلّا أنَّ الإفراد في ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾ ظاهرٌ في إرادة نجْم مُعيَّن، ويَحْتَمِلُ أن تكون لتَعْريفِ العَهْدِ إشارةً إلى نجم معروفٍ يُطلق عليه اسمُ النَّجم غالبًا؛ أي: والنَّجم الذي هو طارِقٌ، ويُناسِب أن يكون نَجْمًا يطلُع في أوائل ظُلمة اللَّيل، وهي الوقت المعهودُ لطُروقِ الطّارقين من السّائرين، وجائزٌ أن يكون هوَ النَّجمَ المُسَمَّى: الشّاهدَ؛ وهو نَجْمٌ يظهَر عقِب غروب الشَّمس، وبه

سُمّيَتْ صلاةُ المغربِ: صلاةَ الشّاهد، أو هو نجمٌ معهود بالثَّقب يُسَمَّى: زُحل[1]، " وقيل: الثُّرَيّا، وقيل: الجدي، وقيل: نجم في السَّماء السّابعة لا يسكُنُها غيرُه، فإذا أخَذَتِ النُّجومُ أمْكِنَتَها من السَّماء؛ هبَطَ فكانَ معها، ثُمَّ يرجِعُ إلى مكانِهِ مِن السَّماء السّابعة، ... فهو طارقٌ حين ينزِلُ وحينَ يصعَدُ، وفي إيراده عندَ الإقسام به بوصف مُشتركٍ بينَه وبَيْنَ غيره، ثُم الإشارة إلى أنَّ ذلك الوصفَ غيرُ كُنْهِ أمرِه، وأنَّ ذلك مِمّا لا تبلغه أفكار الخلائق، ثُمَّ تفسيره بـ ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ مِن تفخيم شأنِهِ، وإجلال مَحَلِّه ما لا يَخْفَى"[2].

سِرُّ الوَصْفِ بـ ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾:

الـكَـشْـفُ عن جـلـيل فـائـدة النَّجـم المُقسم به

في وصْف ﴿ٱلنَّجۡمُ﴾ بـ ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾ زيادةُ تفخيم وتعظيم للمُقْسَم به، وكَشْفٌ عن جليل فائدته للنّاس أجمعين، وإجلال مَحَلِّه، فبِهِ يُعرف أنَّه النَّجْمُ المُتوهِّجُ العالي المُضيءُ، الذي يَثْقُبُ الظَّلامَ بنوره فينفُذ فيه، أو يَثْقُبُ بضوئِهِ الأفلاك فتَشِفُّ عنه، أو يثقب الشَّيطانَ بنارِه إذا استرق السَّمع[3].

نوعُ الاستعارةِ وبلاغَتُها في ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾:

الضَّوء الخارجُ مِـنَ الـنَّـجـم المُقْسَم به شديدٌ ظاهرٌ

الثَّقْبُ: خَرْقُ شيءٍ مُلْتَئِم، وهو هُنا مُستعارٌ لظهور النّور في خلال ظُلمة اللّيل؛ حيث شُبِّه النَّجم بمِسْمارٍ أو نحوه، وظهورُ ضوئِهِ بظُهور ما يَبْدو من المِسْمار من خلال الجِسْم الذي يثقبُه مثل لَوْحٍ أو ثوب، ثُمَّ استعير الثَّقْبُ لظُهور الضَّوء وبُروزِه بعد طيِّ التَّشبيه وادِّعاء أنَّ المشبهَ فردٌ من أفراد المشبَّه به على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة التي تُبْرِزُ جانبًا مِن عظيم الصَّنعة وكمالِ القُدْرَة وشِدَّة الضَّوء الخارج مِن النُّجوم بصفَةٍ عامَّةٍ ومِنَ النَّجم الثّاقبِ بصفَةٍ خاصَّة.

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 372، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 140، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 259.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 140.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 372.

واستعارةُ الثَّقْبِ لبُروزِ شُعاعِ النَّجم في ظُلْمَة اللَّيل مِن مُبْتَكَراتِ القرآنِ، التي لَم تَرِد في كلام العرب قبلَ التَّعبير بها في القرآن الكريم[1].

وجهُ المناسبة بين القسَمِ وجوابِه:

المُقْسَم عليه هُنا: حالُ النَّفس الإنسانيَّة والاعتناء بها بإقامةِ الحفَظَةِ عليها، وأنَّها لم تُترك سُدًى، بل قد أُرْصِد عليها مَن يحفَظُ عليها أعمالَها ويُحْصيها[2]، وهذا هو المَفهومُ مِنَ التَّعبير بجُمْلَة: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ جَوابًا للقسَم، ووجه المُناسبة بَيْنَ القسَم بالسَّماء وما فيها مِن نُجوم ثاقِبَةٍ، وبَيْنَ حِفْظِ أعمالِ النَّفس الإنسانيَّة: أنَّه إذا كانت هذه المخلوقاتُ على عَظَمَتِها وكِبَرِ حَجْمِها محفوظةً عن أدْنى زيغ، وهي مخلوقةٌ لتَدْبير مصالحِ الإنسان؛ فما الظَّنُّ به[3] وبعَمَلِه وأجَلِه، وغير ذلك من الأشياء التي لا تُمَثِّل في ضَخامَتِها وعظَمَتِها شيئًا بالنِّسبة للسَّماء ونجومها ما يعني: أنَّها سهلةٌ على الحِفْظِ مِن بابٍ أَوْلى.

حفظُ كُلِّ ما يتَّصلُ بالنَّفس الإنسانيَّة أمرٌ سهلٌ إذا قورن بحِفْظِ السَّماءِ ونجومِها

التَّوجيه البَلاغيُّ للقِراءاتِ المُتواتِرَة في ﴿لَّمَّا﴾:

اختلف القُرّاءُ في ﴿لَّمَّا﴾، فقرأ الجُمْهورُ: ﴿لَّمَا﴾ بتخفيف الميم، وقرأ ابنُ عامر وحمزةُ وأبو جعفرٍ وعاصمٌ بتشديد الميم ﴿لَّمَّا﴾[4]، وعلى قراءة تخفيف الميم تكون ﴿إِن﴾ مخفَّفةً مِنَ الثَّقيلة، و﴿لَّمَا﴾ مُركَّبة من اللّام الفارقة بَيْنَ (إنْ) النّافية و(إنْ) المخفَّفة من الثَّقيلة، ومعها (ما) الزّائدة بعد اللّام للتَّأكيد، ومعنى الكلام: إنَّ الأمرَ والشَّأن أنَّ كلَّ نفسٍ لَعَلَيْها حافظٌ، وعلى قراءة تشديد الميم تكونُ ﴿إِن﴾ نافيةً و﴿لَّمَّا﴾ حرفٌ بمعنى: (إلّا)، والمعنى: ما كلُّ نفسٍ

اللهُ تعالى يعلَمُ أفعالَ النّاس بعامَّة وأفعالَ المُشركين خاصَّة، وسَيُجازيهم عليها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 259.
(2) ابن قيِّم الجوزية، التِّبيان في أقسام القرآن، ص: 101.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 372.
(4) ابن الجزري، النَّشر في القراءات العشر: 2/ 291.

إلّا عليها حافظٌ مُهَيْمِنٌ رقيبٌ، وقد تضمَّن هذا الجوابُ - زيادَةً على إفادتِه تحقيقَ الجزاءِ - إنذارًا للمُشركين بأنَّ الله تعالى يَعْلَمُ اعتقادَهُم وأفعالَهم وأنَّه سيُجازيهم عليها[1].

بلاغَةُ التَّوكيد في جُمْلَةِ الجَوابِ:

حفظُ الأعمالِ سنَّةٌ مُتَّبَعةٌ، وشأنٌ دائمٌ لا يتوقَّفُ ولا ينقطعُ

جاء قولُه تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ الواقعُ جوابا للقسَمِ مُؤكَّدا بالجُملة الاسميَّة، وبـ ﴿إِن﴾ المُخفَّفة من الثَّقيلة، وضمير الشَّأن الدّالِّ على أنَّ ذلك سنَّةٌ مُتَّبعةٌ وشأنٌ دائمٌ لا يَنْقَطِع ولايتخلَّف، والتَّعبير بلفظ ﴿كُلُّ﴾ المُفيدِ للاستغراق، مُضافًا إلى لفظ ﴿نَفْسٍ﴾ نكرةً، و﴿لَّمَّا﴾ التي بمعنى (إلّا): جارٍ على ما يقتضيهِ ظاهِرُ المُخاطَبين الموغِلينَ في إنكار البَعْثِ، وما يترَتَّب عليه من الجزاء، فجاء الرَّدُّ عليهم بالمُبالغَةِ في إثبات حِفْظِ الأعمال والأقوالِ الدّالَّة على ثبوتِ البَعْثِ وحَتْميَّته، فهو بمنزلةِ الدَّليل على إثْباتِه، فإنَّ إقامةَ الحافظِ تَسْتَلْزِمُ شيئًا يَحْفَظُه، وهو الأعمالُ خيرُها وشرُّها، وذلك يستلزمُ المُحاسبة عليها والجزاء بما تَقْتَضيه، جَزاءً مُؤَخَّرًا بعد الدُّنيا لئلّا تذهبَ هذه الأعمالُ سُدًى[2].

دلالَةُ التَّعبير بلَفْظِ ﴿نَفْسٍ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

حِفظُ أعمالِ النُّفوس حاصلٌ في كُلِّ الأحوالِ

عبَّر النَّظم الكريمُ عَن الإنسانِ بلَفظِ ﴿نَفْسٍ﴾ لشُمولِها الجَسَدَ والدَّمَ والرّوحَ والعَيْنَ وسائرَ أعضاءِ البدَنِ[3]، وهو ما يعني شموليَّةَ الحفظِ والإحصاء كُلَّ ما يَصْدُر عن الإنسان من أقوالٍ وأفعال، وعدم اقتصاره على شيءٍ بعَيْنِه، أو عضوٍ دون غيره، وجيء به نكرةً لِما يُفيدُهُ التَّنكير الواقع في سياق النَّفي من عموم الحِفْظِ كُلَّ النّفوس ولا سيَّما نفوس العاقِلين، والمَعْنى: ما كلُّ نفسٍ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 373، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 141، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 260، 261.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 260.

(3) الجوهري، تاج اللُّغة وصحاح العربيَّة: (نفس).

كائنةٍ في حالٍ مِنَ الأحوال إلّا في حالِ أن يكونَ عليها حافظٌ؛ أي: مُهَيْمِنٌ ورقيبٌ[1].

دلالة دخول حرف الاستعلاء على ضمير النَّفس:

لـكـلِّ نـفـس حـافـظٌ خـاصٌّ بها، لا يُفارقها ولا يتركها

قولُه: ﴿عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ جُملة اسميَّة في محلِّ رفع خبر ﴿كُلُّ﴾، والجارُّ والمجرور ﴿عَلَيۡهَا﴾ خَبَرٌ مقدَّم، أوثر التَّعبير فيه بحرف الاستعلاء للدَّلالة على تمكُّن الحافظ من أعمال الإنسان وقُدرته التّامة على معرفتها، حتَّى وإن حاول إخفاءها عن أقرب النّاس إليه، وجُرَّ به ضمير النَّفس للإشارة إلى أنَّ لكلِّ نفس حافظًا خاصًّا بها، لا يُفارقها ولا يتركها، ويقوم بتسجيل ما لها وما عليها، كما قال تعالى فيما سبق بيانه من سورة (ق): ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾ [ق: 18].

وجهُ تقديم الخبَرِ على المُبْتَدَأ:

الحافظ معنيٌّ بالتَّسجيل؛ ليَشْهَدَ بما سجَّله يومَ القيامةِ

﴿عَلَيۡهَا﴾ خبرٌ مقدَّمٌ، و﴿حَافِظٞ﴾ مُبتدأٌ مُؤَخَّر، ووجهُ تقديم الخبَر على المُبتدأ: هو بيان الاهتمام بتَخْصيصِ اللّٰه تعالى حافِظًا مُسْتَقِلًّا لكلِّ نفسٍ يقوم بتسجيلِ ما لَها وما عليها، ويَعْتَني بحفظهِ أشدَّ الاعتناء، ليَشْهَد به عليها يوم القيامة، كما قال سُبحانه: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١﴾ [ق: 21].

دلالة التَّعبير بـ ﴿حَافِظٞ﴾ مادَّة وصيغَةً:

الحَفَظَةُ الذين يقومونَ على حِفْظِ النَّفس كثيرونَ

جيء بالمُبْتَدَأ ﴿حَافِظٞ﴾ اسمًا مُشتَقًّا مُفيدا الثُّبوتَ والدَّوام للدَّلالة على أنَّ قيام المَلَكِ بالحِفْظ والتَّسجيل هو عملُه الدّائمُ الذي لا يتوقَّف ولا ينقَطِعُ ليلًا ولا نهارًا وجيء به نكرةً للدَّلالة على كثرةِ القائِمين به وتَنَوُّعهم، ويجوزُ أن يُراد به: جنسُ الملائكة، فبَعْضُهُم لحِفْظِها من الآفات، وبعضُهم لحفظها من الوَساوِس، وبعضُهم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 307.

لحفظ أعمالها وإحصائها بالكتابةِ، وبعضهم لحِفْظِ ما كُتب لها مِن رزق وأجلٍ وشقاوة أو سعادة، ومَشْيٍ ونكاحٍ وسفَرٍ وإقامة، فلا يفوت شيءٌ مِن ذلك(1).

بلاغة الكناية في جواب القسَم:

تسجيلُ الأعمال مِن لوازم ثبوتِ البَعْثِ والحِساب

جواب القسَم هُنا جُعِلَ كناية تلويحيَّةً رمزيَّة عن المقصود؛ وهو إثباتُ البَعْث، فهو كالدَّليل على إثباته، فإنَّ إقامةَ الحافظ تستلزِم شيئًا يَحْفَظُه، وهو الأعمالُ خيرُها وشرّها، وذلك يستلزِمُ المُحاسبَةَ عليها والجزاء بما تَقْتَضيه، جزاءً مؤخَّرا بعد الحياة الدُّنيا؛ لئلّا تذهَبَ أعمالُ العامِلين سُدًى، وذلك يستلزم أنَّ الجزاء مُؤخّرٌ إلى ما بعد هذه الحياة؛ إذِ المُشاهَدُ تخلفُ الجزاء في هذه الحياة بكثرةٍ، فلَو أهملَ الجزاء لكان إهمالُه مُنافيا لحكمة الإلهِ الحكيم مُبْدِع هذا الكونِ، كما قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ١١٥﴾ [المؤمنون: 115]، وهذا الجزاءُ المُؤَخَّر يستلزم إعادَةَ حياةٍ للذَّوات الصّادرة منها الأعمال، فهذه لوازمُ أربَعَةٌ بها كانت الكنايةُ تلويحيَّةً رَمْزِيَّةً(2).

توجيهُ مُتشابِهِ النَّظم في سورَتَي الطّارق والبُروج:

اللهُ تعالى شهيدٌ مُحيطٌ حافِظٌ، ولكنَّه جعل الحفظَ حتَّى لا يبقى لأحدٍ حُجَّةٌ

لَمّا قال تعالى في سورة البروج: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٩﴾ [البروج: 9]، وقال أيضا: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ ٢٠﴾ [البروج: 20]، وكان في ذلك تعريفُ العبادِ بأنَّه سُبْحانَه لا يغيب عنه شيءٌ، ولا يفوته شيءٌ، ولا ينجو منه هاربٌ؛ أَرْدَفَ ذلك بتفصيلٍ يَزيدُ إيضاحَ ذلك التَّعريف الجُمَليِّ من شهادته ﷻ على كلِّ شيءٍ وإحاطَتِه به، فقال ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾، فأَعْلَمَ تَعالى بخصوصِ كلِّ نفسٍ مِمَّن يَحْفَظُ أنفاسَها أنَّه ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ١٨﴾

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 373.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 260.

[ق: 18]؛ ليَعْلَمَ العبدُ أنَّه ليس بمُهْمَلٍ ولا مُضيَّع، وهو سُبحانه الغنيُّ عن كتابةِ الحفظَة وإحصائهم، وشهادة الشُّهود من الأعضاء وغيرهم، وإنَّما كان ذلك لإظهار عدله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾ [النساء: 40]، ولا أقلَّ من المثقال، ولكنْ هي سُنَّتُه حتَّى لا يبقى لأحدٍ حُجَّة ولا تعلُّق، وأقسم ﷻ على ذلك تحقيقًا وتأكيدا يناسِبُ القَصْدَ المَذْكورَ[1].

الفُروقُ المعجميّة:

الدِّراية والمعرفة والعِلم:

حقيقةُ الطّارق أكبَرُ وأعظم مِن أن تُدْرِكَها عقولُ البشَرِ من غيرِ تعليمٍ إلهيٍّ

الدِّرايةُ هي: المعرفَةُ العَميقَةُ المُدْرَكَةُ بضَرْبٍ مِنَ الحيلة[2]، والمعرفَةُ: إدراكُ الشَّيء بتفكُّر وتدبُّر لأثره، وهي أخصُّ من العِلْم، وضدُّها: الإنكار[3]، أمّا العِلْمُ فهو: اعتقاد الشَّيء على ما هو به على سبيلِ الثِّقة، سواءٌ أكان ذلك بَعْدَ لَبْسٍ أم لا، ويضادُّه: الجَهْلُ[4]؛ ولَمّا كان التَّعبير واردًا في سياقِ القسَمِ الإلهيّ بـ (الطّارِقِ) - ومِنَ المعلوم أنَّ اللّه تعالى لا يُقْسِمُ إلّا بعظيم - ؛ كان التّعبيرُ بفِعْلِ الدِّراية هو الأَنسبَ؛ للإشعار بأنَّ العقول البشَريَّة لن تستطيع الوصول إلى حقيقة النَّجم الذي أقسم به اللّه تعالى مهما تفكّرت، ومهما كَدَّتْ واجتهدت في مُحاولةِ إدراك ذلك ومعرفتِهِ إلّا بتعليم اللّه تَعالى لَهُمْ، ما يعني أنَّ حقيقة الطّارق وماهيَّتَه أكبرُ وأعظمُ مِن أن تُحيطَ بها عقولُ البشَرِ على سبيلِ الانفرادِ مِنْهُم، وهذا المعنى لا يتحقَّق إذا عُبِّر بفِعْلِ العِلْمِ أو بفعلِ المَعْرِفَة.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 376.
(2) الرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (درى).
(3) الرّاغب، المفردات: (عرف).
(4) العسكري، الفروق اللغويَّة: 95.

﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ [الطارق: 5 - 7]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بيانُ السّببِ في حِفْظِ الملائكةِ أعمالَ النُّفوسِ وتَسْجيلِها

بعد أن أقسَمَ اللّه سُبْحانَه بالسَّماء والطّارق على أنَّ كلَّ نفسٍ عليها حافظٌ؛ "أتبعَهُ توصيةَ الإنسانِ بالنَّظر في أوَّل أمره ونشأته الأولى، حتَّى يعلَمَ أنَّ مَنْ أنشأه قادرٌ على إعادتِه وجزائِه، فيعمل ليوم الإعادة والجزاء، ولا يُمْلي على حافظِه إلّا ما يسرُّه في عاقبته"[1]، ويجوزُ أن يقال في وجهِ المُناسَبة: بعد أن بيَّنت الآيةُ السّابقة أنَّ اللّه تعالى وكَّلَ بكلِّ نفس ملائكةً يحفظون ما لها وما عليها؛ ناسب أن يُبَيِّن في هذه الآيات السَّبب الدّافع إلى تأكيد الحفظ، وعدم التَّقصير فيه، وهو أنَّ هذه النُّفوس ستُحاسب على عَمَلِها بعدَ البَعْث والإرجاع، الذي يُعَدُّ أمرًا سَهْلًا كالخَلْقِ الأوَّل[2].

❁ شَرْحُ المُفرداتِ:

1) ﴿دَافِقٖ﴾: (دفق) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ: دَفْعُ الشَّيْءِ قُدُمًا، مِنْ ذَلِكَ: دَفَقَ الماءُ، وهوَ ماءٌ دافِقٌ، وهَذِهِ دُفْقَةٌ مِنْ ماءٍ، ومعنى: دَفَقْتُ الماء أَدْفِقُهُ دَفْقًا؛ أي: صَبَبْتُه، ومعنى: ماءٌ دافِقٌ؛ أي: مَدْفوقٌ، ومعناه المحوريُّ: انْدِفاعُ المُحْتَوى في جوفٍ إلى خارجهِ بقوَّة، كما قال تعالى: ﴿مَّآءٖ دَافِقٖ﴾ أي: مدفوع بشِدَّة[3].

2) ﴿ٱلصُّلۡبِ﴾: (صلب) أَصْلانِ؛ أَحَدُهُما: يَدُلُّ عَلى الشِّدَّةِ والقوَّةِ، ومنه الصُّلْبُ، وهوَ الشَّيْءُ الشَّديدُ، وكَذلِكَ سُمّيَ الظَّهْرُ

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 4/ 735.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 376، 377.

(3) الجوهري، تاج اللُّغة وصحاح العربيَّة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دفق).

صُلْبًا لِقوَّتِهِ وشِدَّتِهِ، قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾، وقوله: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء: 23] تنبيهٌ على أنَّ الولَدَ جُزْءٌ مِنَ الأبِ(1).

3) ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾: (ترب) أصْلانِ؛ أحَدُهُما: تَساوي الشَّيْئَيْنِ، فالتِّرْبُ: الخِدْنُ، والجَمْعُ: أتْرابٌ، ومِنْهُ التَّريبُ، وهوَ الصَّدْرُ عِنْدَ تَساوي رُؤوسِ العِظامِ، قال تعالى: ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧﴾ [الواقعة: 37]، وقال: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣﴾ [النبأ: 33]، وقال أيضا: ﴿۞وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ۝٥٢﴾ [ص: 52]؛ أي: لِدات، تَنْشَأْن معًا، تشبيهًا في التَّساوي والتَّماثل بالتَّرائب التي هي ضُلوع الصَّدر، والتَّرائب: ضُلوع الصَّدر، الواحدة: تَريبَة، قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾(2).

المَعْنى الإجْماليُّ:

الذي قَدِر على الخَلْقِ الأوَّل قادرٌ على البَعْثِ والإرجاعِ

تَدْعو هذه الآياتُ النّاسَ - رجالًا ونساءً - إلى أن ينظروا في الكيفيَّة التي خَلَقَهُم اللّه تعالى بها ويتدبَّروها؛ ليوقِنوا أنَّ الذي قَدِرَ على إيجادِهِم أوَّلَ مرَّة قادرٌ على بَعْثِهِم وحسابِهِم ومُجازاتِهِم على ما قَدَّمَتْ أيديهم، وأثْبَتَه الحفظةُ عليهِم، وذلك ببيانِ أنَّهُم خُلِقوا من ماءٍ يَنْدَفِق من أصلابِ الأزواجِ ليَسْتَقِرّ في أرحامِ الأمَّهات، فتتكوَّن منه أجسادُهم، وتتشكَّل منه أنواعُهم، بطريقة سهلةٍ على اللّه تعالى، تتكرَّر مع كُلِّ إنسانٍ وُجِد، ومع كُلِّ مخلوقٍ قَدَّر اللّه تَعالى له الوجود، وأطنَبَ البيان القرآني في وصف هذا الماء الدّافق؛ لإدماج التَّعليم والعِبْرَة بدَقائِقِ التَّكوين، ليَسْتَيْقِظ الجاهلُ الكافر، ويزداد المُؤمنُ علمًا ويقينًا(3).

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (صلب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (ترب).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 262.

❁ الإيضاحُ اللّغويّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الفاءِ ودلالَتُها في صَدْرِ الآيَةِ:

ما يفعلهُ الإنسان يستوجِب عليه أن يتفكَّر في مبدأ فِطْرَته حقَّ التَّفكّر

الفاءُ في جُمْلَة: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ لتفريع الأمْرِ بالنَّظر والتَّأمُّل في كيفيَّة الخَلْقِ الأوَّل على ما أُريد مِن قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٌ﴾ مِن لوازم مَعْنَاهُ؛ وهو: إثباتُ البَعْثِ الذي أنكروهُ عَلى طريقةِ الكِنايةِ التَّلويحيَّةِ الرَّمزيَّةِ، والتَّقدير: فإن رأيتُم البَعْثَ مُحالا فلينظرِ الإنسانُ ممَّ خُلق؛ ليَعْلَمَ أنَّ الخلْقَ الثّانيَ ليس بأبعدَ مِن الخلْقِ الأوَّل، ما يعني: أنَّ هذه الفاءَ مُفيدَةٌ مفادَ الفاءِ الفَصيحَةِ[1]؛ ويجوزُ أن تكونَ الفاءُ للتَّسبُّب والتَّرتُّب والتَّنبيه على أنَّ ما بُيّن مِن أنَّ كُلَّ نفس عليها حافظٌ يُحصي عليها كُلَّ ما يصدُر عنها من قولٍ وفعل مُستوجِبٌ على الإنسانِ أنْ يتفكَّر في مبدأ فِطْرَته حقَّ التَّفكّر، حتّى يتَّضح له أنَّ مَن قَدِرَ على إنشائهِ مِن موادَّ لم تَشُمَّ رائحةَ الحياةِ قطُّ؛ قادرٌ على إعادته بل أقدرُ على قياس العقل، فيعمل ليوم الإعادة والجزاء ما ينفعُه يومئذٍ ويُجْديهِ، ولا يُمْلي على حافظه ما يجعلُه مِنَ النّادمين في ذلك اليومِ[2].

الغرَضُ مِنَ الأمْرِ بالنَّظر:

الخلقُ الأوَّلُ دالٌّ على قُدرةِ الله تعالى على البعثِ والإرجاعِ بسهولةٍ

قولُه: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أسلوبُ أمرٍ غرضُه توجيهُ الإنسان وإرشادُه إلى أن يتأمَّل ما في خلقه الأوَّل من دلائل الإعجازِ والقُدرة التي تُؤذِن بأنَّ أمرَ إرجاعه إلى الحياة بعد الموت ومُحاسبته على أعماله التي تولَّت الملائكةُ حفظها بأمر اللّه تعالى عملٌ سهلٌ، لا عناء فيه ولا مشقَّة على مَنْ أوجده الإيجاد الأوَّل، وخَلَقَهُ من ماء دافق.

نوعُ اللّامِ في قوله: ﴿فَلۡيَنظُرِ﴾ وفائدَتُها:

اللّام في قوله: ﴿فَلۡيَنظُرِ﴾ هي لام الأمر التي تَدْخُلُ على الفِعْلِ المُضارع

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 261.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 141.

بغَرَضِ الإبلاغ في الحثِّ على المأمورِ به، نَظَرًا إلى أهمّيَّته البالغة في الإيمان بقَضيَّة البعث والحساب التي يوغلُ الكُفّار في إنكارها، وذلك جَرْيًا على عادة البيان العربيِّ في الخروج بالتَّعبير عن معهود لفظهِ إذا خرج عن معهودِ حاله[1]؛ أي: أنَّ العدول عن صيغة الأمر المُعتادة إلى صيغة المُضارعِ المُقْتَرن باللّام فيه دلالةٌ على المُبالغة في الأمْرِ بالنَّظر والتَّفكُّر في الخَلْقِ الأوَّل، وتوجيهٌ إلى التَّشديد في الالتزام بهِ.

عـادةُ البيـان العربيِّ الخروجُ بالتَّعبير عن معهودِ لفظهِ إذا خـرَجَ عَـن معهودِ حالِه

دلالَةُ التَّعبير بفِعْلِ النَّظر دونَ غيرِه:

أوثِر التَّعبير عن التَّفكُّر بالعقل في كيفيَّة الخَلْقِ والاستدلال به على حَتْميَّة البَعْثِ وثبوتِ الحِساب بفِعْلِ النَّظر، الموضوع للتَّأمُّل بالعَيْنِ والمُشاهدَة بالحاسَّة، فقيل: ﴿فَلۡيَنظُرِ﴾ دون (فلْيتأمَّل) أو (فلْيتدبَّر)؛ لِما للنَّظر بالعينِ مِن أثَرٍ كبيرٍ في تحريكِ الفِكْرِ، وإعمال العقل؛ إذِ الرُّؤية بالعينِ هي المرحلةُ السّابقة لإعمال العقل، كما أنَّها المُثيرة له كيْ يتدبَّر ويفهمَ فيهتدي، والمعنى: فلْينظُر مُنْكِرو البعْث ولْيَتَأمَّلوا في خَلْقِهم؛ ليَهْتَدوا إلى سهولة بعثِهم بعدَ الموتِ على الله تَعالى الذي خلقَهُم أوَّل مرَّة[2].

النَّظر بالعَيْنِ هو المَرْحَلَةُ المُثيرة للعَقْلِ كي يتدبَّر ويَفْهَم

نوع (ألْ) ودلالَتُها في المُسْنَدِ إليه:

أُسند الأمرُ بالنَّظر والتَّفكُّر إلى ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ دون غيره مِنَ المخلوقات؛ لاختصاصه دون غيره من المخلوقاتِ المرئيَّةِ بمزيةِ العَقْلِ، والقُدرةِ على الفَهْم، ولأنَّ منكري البعث من بَيْنِ أفراده، و(ألْ) فيه لتعريفِ العَهْدِ، والمُرادُ به: الكفّارُ الموغلون في إنكار البَعْثِ؛ ويجوزُ أن تكون لتعريفِ الجِنْسِ، فيشمَل النّاسَ أجمعين، ويدخل فيهم المُنْكِرون دخولًا أوَّليًّا بَدَهيًّا، ووجه التَّعبير بلامِ الجنس: أنْ يرتَدِعَ الكافرون، ويزدادَ إيمانُ المؤمنينَ.

جميعُ النّاس مأمورونَ بالنَّظر في كيفيَّة الخَلق الأوَّل

(1) ابن جني، الخصائص: 3/ 48.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 261.

معنى (مِنْ) في ﴿مِمَّ﴾:

(مِنْ) في قوله: ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ ابتدائيَّةٌ متعلِّقةٌ بـ ﴿خُلِقَ﴾، والمعنى: فليتفكَّرِ الإنسانُ في جواب: ما شيءٌ خُلِقَ منه؟ فقُدِّم المُتعلَّق على عاملِه تبعًا لتقديم ما اتَّصلت به (مِنْ)[1].

بلاغَةُ الاستفهامِ بـ (ما):

التَّنبيهُ والإيقاظُ غــرضٌ مُــلازمٌ للاستفهام غالبًا

(ما) في قوله: ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ استفهاميَّة عَلَّقت فعلَ النَّظر العقليِّ عن العمل. والاستفهام مُستعملٌ في الإيقاظ والتَّنبيه إلى ما يجب عِلْمُه، كقوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨﴾ [عبس: 18]، وحُذفت الألفُ مِن (ما) الاستفهاميَّةِ جريًا على القاعدة التَّعبيريَّة التي تَقْضي بحذْفِها في حالِ الجرِّ[2].

نوعُ المجازِ وبلاغَتُه في الاستفهام:

التَّنبيه سببٌ في تحريك العقل للاقتناعِ بثبوتِ البَعْث

إذا خرج الاستفهامُ عن المعنى الحقيقيِّ الذي وُضع له؛ وهو طَلَبُ الفهم والمعرفة، كان مجازا مُرسلًا - على الغالب - ؛ إذ استعمل اللَّفْظُ في غير ما وُضِعَ له لعلاقةٍ غيرِ المُشابهَة، والعلاقة المُسَوِّغة للمجاز هُنا هي السَّببيَّة؛ إذِ التَّنبيه والإيقاظ سببٌ في تحريك العقل للاقتناع بثبوتِ البعث والحساب، مِن خلال النَّظر والتَّفكُّر في طريقة الخَلْقِ الأوَّل، ولأنَّ الاستفهامَ غيرُ حقيقيٍّ، ولأنَّ الله تَعالى لا يريد مِنَ المُتَلَقّي الإجابةَ عنه، فقد أجاب الحقُّ سُبحانه عن ذلك بقوله: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾[3].

وَجْهُ التَّعبير بفعل الخَلْقِ مادَّة وصيغة:

التَّفكُّر في الخلق الأوَّل يهــدي الإنــســانَ إلى سهولةِ البَعْثِ والحساب على الله تعالى

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن المُستفهَم عنه بفِعْلِ الخَلْق، الدّالِّ على إبداع الشَّيء من غير أصلٍ ولا احْتِذاء[4] في قوله: ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾؛ ليَلْفِتَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 261.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 261.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 261.
(4) الرّاغب، المُفردات: (خلق).

الانتباهَ إلى ما في خَلْقِ الإنسان من إعجازٍ ودلائلَ على قُدرةِ مَنْ فعَلَهُ على البعث والإرجاع بَداهةً، فمن المُسلَّمات أنَّ مَن قَدِرَ على الإنشاء من غير أصلٍ يُحتذى قادرٌ على البعث الذي يُعدُّ سهلًا ميسورًا بالنِّسبة إلى الخَلْقِ الأوَّل، وجيء بفعل الخلقِ مبنيًّا للمفعول؛ للإعلامِ بأنَّ القَصْدَ من التَّعبير هو: النَّظر في أمرِ الخَلْقِ الأوَّل وكيفيَّة حصوله؛ إذ هو المُرْشِد والهادي إلى إدراك سُهولَةِ البَعْث وثبوتِه، وتنبيهًا على تعظيمِ الفاعِل؛ بأنَّ العِلْمَ به غيرُ مُحتاجٍ إلى ذِكْرِه باللَّفظ؛ لأنَّه لا يَقْدِر على صَنْعَةٍ من صنائِعِه غيرُه سُبحانه[1].

علَّة فصْلِ جُمْلَةِ: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾:

جاءت جُملة: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ مفصولةً عمّا قبلها؛ لشِبْهِ كمال الاتِّصال، الذي تجيب فيه الجملة المفصولةُ عَن سؤال أثارَتْهُ الجُملةُ السّابقةُ في نفس المُتَلَقّي، فكأنَّه قيل: مِمَّ خُلِقَ؟ فقيل: خُلق من ماءٍ ذي دَفْقٍ[2].

سِرُّ إجابة الحقِّ سُبحانَهُ عن السُّؤال بنفسِه:

عقلُ الإنسانِ قاصرٌ عن الوصول إلى إجابةِ السُّؤال عن أصل الخَلْقِ

إجابة الحقِّ سُبحانه عن السُّؤال بنفسِه في قوله: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ دالٌّ على أنَّ الإنسانَ لن يستطيعَ بمُفْرَدِه التَّوصُّلَ إلى الإجابة عنه؛ لقُصور عقلِه، ولأنَّه - مع كونه ضَعيفًا عاجِزًا - لا يَنْفَكُّ عن شاغلٍ ومُفترٍ، فلا يكاد يصِحُّ له نظَرٌ.

وجهُ إعادَةِ التَّعبير بفِعْلِ الخَلْقِ:

في الخَلْقِ الأوَّلِ كثيرٌ من دلائل القُدرةِ والإعجازِ

أُعيد التَّعبيرُ بفعل الخَلْقِ مبنيًّا للمفعول مع قُرْبِ العَهْدِ به وإمكان الاستغناءِ عنه، جريًا على عادةِ البيانِ العربيِّ في حَذْفِ المُستَفهَم عنه عند إجابة السُّؤال، بأن يُقال: (من ماء دافق)، إلّا أنَّ ذلك لم يحصُل للتَّأكيد على ما في ذلك الفعلِ الذي ألِفَهُ النّاس واعتادوهُ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 377.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 141، والآلوسي: روح المعاني: 15/ 308.

مِن إعجازٍ ودلائلَ عَلى قُدرة اللّه تَعالى، وللإشارة إلى سُهولَتِه عليه سُبْحانَه، وتأكيدًا لقُدرتِه على البعْثِ بسُهولة، مِثْلَما قَدِر على تكرار الخلْقِ بسُهولَةٍ، والمعنى: خَلَقَ اللّه تَعالى الإنسانَ على أيْسَرِ وجهٍ وأسْهَلِه، بعدَ خَلْقِ أبيه آدمَ ﷺ من تراب، وأمِّه حوّاءَ ﷺ من ضِلَعِه[1].

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتُها:

بيانُ سَبَبِ ذلك الخَلْقِ المُعْجِز

﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ هي البيانيَّةُ المُؤكِّدةُ خَلْقَ الإنسان بنَوْعَيْهِ ومُختَلَف طبائعه وأشكاله مِن ذلك الماء الذي يَنْدَفِق مِن ذكور الرِّجال إلى أرحام النِّساء بطريقة سهلةٍ مُعْتادَةٍ، يَقْضي بها الطَّرفان وطرَهما، ويَحْدُث منها هذا الخلقُ المُعجز.

دلالة التَّعبير بـ ﴿مَّآءٍ﴾ مادَّة وصيغَةً:

الماءُ الذي يحدُثُ بسببه الخَلْقُ ذو طبيعةٍ خاصَّة وسماتٍ مُختلفَةٍ

أوثر التَّعبيرُ عن نُطْفَة الرَّجل بـ ﴿مَّآءٍ﴾؛ لِما فيها من خواصِّه وهي: السُّيولَةُ والتَّدفُّق، وجيء به نَكِرةً؛ لِما يُفيدُهُ التَّنكيرُ من الدَّلالة على أنَّها ليست كالماء المُعْتاد، ولكنَّها ماءٌ ذو طبيعَةٍ خاصَّة وسمات مُختلفة، لم يَتَمَكَّن النّاسُ من معرِفَتِها والإحاطة بها، "ذلك أنَّ النُّطفة التي خُلِقَ منها الإنسانُ لو رُئِيَت موضوعَةً على طبَقٍ، ثُمَّ رام أحَدٌ أن يَعْرِف ويَنْتَزِع منها المعنى الذي به صَلُحَ أن يُنشأ منها العلقَة والمُضغة وخُلِقَ منها الإنسانُ؛ لَم يُدْرَك، ولو اجتمع الإنسُ والجنُّ على أن يُرَكِّبوا عليها جارحةً مِن جوارح الإنسانِ؛ لَم يتَهَيَّأ لهم تركيبُها، أو تعرُّف المعنى الذي صلح أن ينشأ منه السَّمع والبصر؛ لم يوقَفوا عليه؛ فتَبَيَّن أنَّ الذي بلغَت قُدْرَتُه هذا لا يخفى عليه أمرٌ، ولا يعجزُه شيءٌ، وتبيّن لهم حِكْمَتُه"[2]، وهذا يعني: أنَّ الغَرَضَ من التَّنكير هو التَّعظيم والإشارة إلى اختلاف الماء الذي يُخلق منه الإنسانُ عن الماء المُعتاد، والذي تَنْصَرِف العقولُ إليه عندَ التَّعبيرِ به. ويجوزُ أن

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 377.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السُّنة: 10/ 493.

يكون الغرَضُ مِنَ التَّنكير هو التَّحقيرَ؛ استئناسًا بقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٢٠﴾ [المرسلات: 20].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿دَافِقٖ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

النُّطفة تخرُج بسُرْعَةٍ على الرُّغم مِن قلَّةِ كَمّيَّتها إذا قورنت بغَيْرِها

أوثِر وصفُ ﴿مَّآءٖ﴾ بـ ﴿دَافِقٖ﴾ زيادةً في إيضاحه وبيانه، وللدَّلالة على تمَيُّزه، ببيانِ أنَّه يخرُج بقوَّة وسُرْعَةٍ على الرُّغم من قلَّة كمّيَّته إذا قورنت بكَمّيّات الماء المُنْدَفِق التي يعهدُها النّاس ويَعْرِفونَها، والمعنى: مِن ماءٍ سائلٍ جارٍ، لا تماسُكَ بينَ أجزائه[1]، وجيء به اسْمًا مُشتَقًّا للدَّلالة على ثُبوتِ صِفَةِ الدَّفْق له ودوامها، ما يعني: أنَّه يَخْرُج من صُلْبِ الرَّجل على هذه الصِّفة دائمًا، وجيءَ بهِ مُفْرَدًا فقال: ﴿مِن مَّآءٖ﴾، ولم يقل: (ماءين)؛ للإشارة إلى أنَّهما يجتمعان في الرَّحِم ويمتزجان أشدَّ امتزاجٍ بحيثُ يَصيرانِ ماءً واحدًا[2].

نوعُ المَجاز وبلاغتُه في الوَصْفِ:

قوَّة اندفاع النُّطفة تَجْعَلُها كأنَّها تَدفَقُ بنَفْسِها

في إسناد صفة الدَّفق إلى ضمير الماء مجازٌ عقليٌّ، علاقتُه المفعوليَّة؛ إذِ الحقيقة العقليَّة تقضي بأن يكون الدَّفق من الإنسان أو صفةً للإنسان، وليس صفَةً للماء؛ لأنَّ الماءَ في الحقيقةِ مَدْفوقٌ، وليسَ دافِقًا، ولو قيل: (خُلِقَ من ماء مدفوق) لكان ذلك مجرَّد تعبيرِ وضْعِ الرَّجُل نُطفتَه في رَحِمِ امْرَأته، أمّا ما جاء عليه التَّعبير القرآنيُّ؛ ففيه تصوير لقوَّة دفق الماء وسُرعةِ خُروجه من الرَّجل، وكأنَّه يَدْفَقُ بنَفْسِه[3].

موقِعُ جُمْلَةِ: ﴿يَخۡرُجُ﴾، ووجهُ التَّعبير بها:

لا يَتَفطَّنُ النّاسُ لِمَخْرَجِ النُّطفة ولا يعرفون مكانَها

قولُه تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ جُملةٌ في محلِّ جَرٍّ صفةٌ لـ ﴿مَّآءٖ﴾، أو في مَحَلِّ نصبٍ حالٌ منه؛ أطنَبَ بها النَّظْمُ الكريم

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 16/ 1523، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 262.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 378.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 377، 378.

في بيانِ هذا الماءِ الدّافق؛ لأنَّ النّاس لا يتفطَّنون لَمَخْرَجِ هذا الماءِ ومَكانه، ولإدماجِ التَّعليم والعِبْرةِ بدَقائقِ التَّكوين؛ ليَسْتَيْقِظَ الجاهِلُ الكافِرُ، ويَزْدادَ المُؤمن عِلْمًا ويقينا(1).

وجهُ التَّعبير بفِعْلِ الخُروج:

> لا تخرجُ النُّطفة مِن صُلْبِ الرَّجل إلّا بعدَ الاسْتِواءِ والنُّضْجِ

عبَّر النَّظم الكريم عن انتقالِ النُّطفة من صُلب الرَّجُل إلى رَحِم المرأةِ بفِعْلِ الخُروج المُسْنَد إلى ضميرِ الماء فقال: ﴿يَخۡرُجُ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ هذا الماء قَد خرَجَ خُروجًا طبيعيًّا، بعد أن استوى ونضَجَ في صُلْبِ الرَّجل، وأنَّه لم يُنْتَزَعْ انتزاعا مِن مَوْضِعِه قبل أن ينضُجَ ويَسْتَوِيَ(2)، وللإشارةِ إلى أنَّ أصل تكوُّن ذلك الماء وتَنَقُّله مِن بَيْنِ الصُّلب والتَّرائب، وليس المعنى: أنَّه يمرُّ بَيْنَ الصُّلب والتَّرائب؛ إذْ لا يُتَصَوَّر مَمَرٌّ بينهما؛ لأنَّ الذي بينهما هو ما يحويه باطنُ الصَّدر والضُّلوع مِن قَلْبٍ ورِئَتَيْنِ(3).

> مَـنْ قَـدِرَ على إخـراجِ النُّطفة ورعايتها حتَّى صـارت إنسـانًا قـادر على بعثه وإرجاعه

والسِّرُّ في ذِكْرِ المَخْرَجِ وتحديدِه: إقامةُ الدَّليل على أنَّ الذي أخرجَهُ مِن ظُروفِ عِظام الصُّلب والتَّرائب، إلى أن صيَّره في محَلِّه من الأُنْثَيَيْنِ إلى أنْ دَفَق، واعْتَنى بعدَ ذلك بنَقْلِه من خَلْقٍ إلى خَلْقٍ، بعد كُلِّ أربعين يومًا، إلى أنْ صيَّره إنسانًا، يَعْقِلُ ويتكلَّم، ويبني القصور، ويهدِم الصُّخور، قادرٌ على بَعْثِه وإرجاعِه(4).

بلاغَةُ التَّعبير عن الخُروج بصيغَةِ المُضارِع:

> استحضار صورة الخَلْقِ مِن الماء الـدّافـق تؤكِّـد اليقين في قُـدرة الله تَعالى على البَعْث

عبَّر النَّظم بفعل الخروج مُضارعًا للإشارة إلى تَجدُّد خروج الماء من ذات المكان وتكرُّره، ولاستحضار الصّورة المُتَحَدَّث عنها كأنَّها ماثلَةٌ حاضرَةٌ، تَبْدو من خلالِها قُدْرَةُ اللّه تعالى على تحويلِ هذا الماءِ الخارِجِ على الحالِ المَوْصوفَةِ إلى إنسانٍ يَرى ويَسْمَع ويتكلَّم،

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 262.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 11/ 1523.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 262.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 379.

ويَبْني ويَهْدِم، ويُنْشِئُ ويَخْتَرِع، ويتناكح ويتكاثر، ما يجعل المُتَلَقّي موقِنًا بقُدرة اللّه تعالى على إعادته وإرجاعه بَعْدَ الموت، فيعمَل لأجل ذلك الأعمال التي تَجْعَلُه سعيدا مسرورًا، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾ [الانشقاق: 7 - 9].

معنى ﴿مِنۢ﴾ ودلالتُها:

بيانُ ابتداءِ خَلْقِ الإنسانِ على حالٍ عَجيبَةٍ

﴿مِنۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ هي الابْتِدائيَّة الدّالَّة على أنَّ المكانَ الذي يَبْتَدِئُ منه خروجُ الماء الذي يَخْلُق اللّه تعالى منه الإنسانَ على الحالِ العجيبة التي هو عليها واقعٌ بَيْنَ الصُّلب والتَّرائب؛ "ولو نُزِعَ الخافِضُ؛ لأَفْهَمَ أنَّ الماء يَمْلَأُ البَيْنَ المَذْكور ولَم يُفهم أنَّه يخرج عن صاحبَي البَيْنِ"[1].

فائدَةُ التَّعبير بالظَّرف ﴿بَيْنِ﴾:

مَنْ تحقَّق عندَه العِلْمُ؛ تحقَّقت لديه القُدرةُ

قوله: ﴿بَيْنِ﴾ ظرفٌ مجرورٌ بحرفِ الابتداءِ، وأوثِرَ التَّعبير به لبيان عِلْم اللّه تَعالى الدَّقيق بمَخْرَج الماء، وإحاطته البالغة بمَصْدَرِه ومَوْرِده، وأنَّه بَيْنَ الصُّلب والتَّرائب وليس مِن مكانٍ آخرَ في جِسْمِ الإنسان، وفائدةُ ذلك أنْ يتحقَّق لدى المُتَلَقّي اليقينُ الكاملُ في قدرةِ اللّه تَعالى على الإرجاع؛ لأنَّ مَن عَلِمَ مكانَ خُروج الماء وأحاط به بدِقَّة، وأَخْبَرَ الإنسانَ بما لا يعلمُهُ عَن نفسِهِ؛ كان قادِرًا على البَعْثِ والإرجاع مِن غير شكٍّ أو رَيْبٍ.

سِرُّ عطْفِ ﴿ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ بالواو:

أعضاءُ الرَّجُلِ والمرأة وقواهُما تتعاونُ كلُّها في تكوينِ ما هو مَبدأٌ لتَوالُدِ الإنسان

﴿ٱلصُّلْبِ﴾ هو العمود العَظْميُّ الكائِنُ في وسَطِ الظُّهر؛ وهو ذو الفِقْرات، و(التَّرائِب) جمعُ تَريبَة، ويُقال: تَريبٌ؛ وهي: عظامُ الصَّدر التي بين التَّرْقوَتَيْن والثَّدْيَين، وهو: موضعُ القلادةِ مِنَ المَرأة، وفي عَطْفِهما بالواو التي تُفيد المُشاركةَ دلالةٌ على أنَّ النَّسل يتكوَّن

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 378.

مِنْهُما معًا، وأنَّهما يشتركان في تكوينه، حيثُ يمرُّ الماءُ المُنْدَفِق من صلب الرَّجل إلى رحِم المرأة، فيختَلِطُ بمائِها المُتَفَجِّر من تَرائِبِها، فيُسْهِمانِ مَعًا في تَخْليقه وتكوينه[1]، أو أنَّ هذا الماءَ الدّافق يخرُج من بَيْنِ صُلْبِ كلِّ واحِدٍ منهُما وتَرائِبِهِ؛ أي: أنَّ أعضاء كلٍّ منهما وقواه تتعاوَنُ في تكوين ما هو مبدَأٌ لتَوالُد الإنسان: ماء الرَّجل وهو المنيُّ، وماء المرأة وهي البوَيْضَةُ المَصْحوبَةُ بالسّائل، المُنصبّان بدفْعٍ وسَيَلانٍ سريعٍ إلى الرَّحم عند الجماعِ[2].

❁ الفُروقُ المعجميّة:

الدّافِق والمَصْبوب:

الدَّفْقُ هو: دَفْعُ الشَّيْءِ قُدُمًا، ومعنى: دَفَقْتُ الماءَ أدْفِقُهُ دَفْقًا؛ أي: صَبَبْتُه، وماءٌ دافِقٌ؛ أي: مدفوع بشدَّة، أمّا صَبُّ الماء فهو: إراقتُه من أعلى، قال تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥﴾ [عبس: 25]، وقال كذلك: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩﴾ [الحج: 19][3]. ولمّا كان الحديثُ عَن الماء الذي يَحْدُثُ منهُ خَلْقُ الإنسان، وكان هذا الماء قويَّ الاندفاع شديدَ السُّرعة على الرُّغم من قِلَّته، وحتَّى لو لم يكُن الرَّجُل في أثناء دَفْقِه مُسْتَعْلِيًا؛ ناسَب التَّعبير بالاسم المُشتَقِّ من مادَّة الدَّفق، للإشارة إلى أنَّ مِن خواصِّ هذا الماء وسِماتِه أنَّه يَنْدَفِقُ من نَفْسِه نظَرًا إلى سُرْعَتِه الفائِقَة، ولو قيل: (من ماء مصبوب)؛ لَما أفادَ ذلك المعنى، ولكان مُجرّدَ إخبارٍ بأنَّه ماءٌ صُبَّ من مكان مرتفع، ولو فُقِدَ الارتفاعُ لفَقَدَ الماءُ سرعتَه، ولرُبَّما لم يَتَحَرّك من مكانه أصلًا، وهذا مُخالفٌ لِما عليه الماءُ الخارجُ مِن بَيْنِ الصُّلب والتَّرائب.

السُّرعةُ والاندفاعُ من خواصِّ المَنيِّ حتّى ولو لم يكُن الرَّجلُ مُستعليًا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 262 وما بعدها.
(2) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 355.
(3) الرّاغب، المُفردات: (دفق).

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ١٠﴾ [الطارق: 8 - 10]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

تأكيدُ قُدرَةِ مَنْ خَلَقَ مِن ماءٍ دافقٍ على الإرجاعِ والمُحاسَبَة

بَعْدَ أن بَيَّنتِ الآياتُ السّابقة أنَّ النَّظر والتَّفكُّر في الخَلْقِ الأوَّل يهدي الإنسانَ إلى الإيمان بقُدْرَةِ اللّه تعالى على الإرجاعِ والبَعْثِ؛ ناسَب أن تُؤَكِّد هذه الآياتُ قدرةَ اللّه تَعالى على بَعْثِ الإنسانِ وإرجاعِهِ في يوم تُكْشَفُ فيه السَّرائر، ولا يكون للإنسانِ قوَّةٌ يدفَعُ بها عن نَفْسِه، أو ناصرٌ يحولُ بينَهُ وبينَ عذابِ رَبِّه.

تأكيدُ البَعْثِ والحِساب لِمَنْ يُنْكِرونَهُ

ويُمْكِن القولُ: إنّه لمّا عُلِمَ بالحفظ والخَلْقِ في الأطوار المُشار إليها أنَّ الإنسان خُلِقَ لأمرٍ عظيم وهو العبادَةُ ثُمَّ الحساب عليها، وثبَتَ بالقُدرة على ابتدائه من هذا الماء وبتطويره - في الحالاتِ المُشار إليها بذِكْرِ الماء المعلومةِ لِكُلِّ أحَدٍ - القدرةُ على الإعادة بلا فرْقٍ، إلّا كون الإعادةِ أسهلَ، وكان العربُ يُنْكِرونها؛ ناسبَ أن يُؤَكِّد لهُم ذلك، فقال: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾[1].

شَرْحُ المُفرداتِ:

1) ﴿رَجۡعِهِۦ﴾: (رجع) أَصْلٌ كَبِيرٌ مُطَّرِدٌ مُنْقاسٌ، يَدُلُّ عَلَى رَدٍّ وتَكْرارٍ، تقولُ: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجوعًا؛ إذا عادَ. فالرُّجوعُ: العَوْدُ إلى ما كانَ منهُ البَدْءُ، والرَّجْعُ: الإعادَةُ، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾[2]؛ أي: رجَعَ الإنسانُ بالبَعْثِ، وردَّهُ إلى حالِهِ الأولى وخَلْقِهِ الأوَّل، كما كان قبلَ المَوْتِ[3].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 379.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (رجع).
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 380.

2) ﴿تُبۡلَى﴾: الباءُ واللّامُ والواوُ والياءُ أصْلانِ؛ أحَدُهُما: إخْلاقُ الشَّيْءِ، يُقال: بَلِيَ الثّوب بلًى وبَلاءً؛ أي: خَلِقَ، والمعنى المحوريُّ هو: شدَّة تحوز الشَّيء، أو حَوْز الشَّيء بشِدَّة لِمَدى طويلٍ يَتَّضِح من خلالها حالُه وينكشِفُ أمرهُ، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾، ومعناهُ: تُعْرَفُ وتُكْشَف[1].

3) ﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾: لفظ (سرّ) أَصْلٌ يَجْمَعُ فُروعَهُ إخْفاءُ الشَّيْءِ وخالِصُهُ ومُسْتَقَرُّهُ، لا يَخْرُجُ شَيْءٌ مِنْهُ عَنْ هَذا، والسِّرُّ هوَ الحديثُ المكتومُ في النَّفس، وهو خِلافُ الإعْلانِ، يُقالُ: أَسْرَرْتُ الشَّيْءَ إسْرارًا؛ خِلافَ أَعْلَنْتُهُ، قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧﴾ [طه: 7] وجمعُهُ: أسرارٌ، والسَّريرة مثلُهُ، وجَمْعُها: السَّرائر[2]، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾؛ أي: تَنْكَشِفُ سرائِرُ العَبْدِ التي كانت في قَلْبِه من عقائِدَ ونيّات[3].

المَعنى الإجْماليّ:

اللّه تعالى قادرٌ على بَعْثِ الإنسانِ وكشْفِ سَرائرِه، ولن يُدافعَ عنه أحدٌ

تُؤَكِّد هذ الآياتُ أنَّ اللّه تَعالى الذي قَدِرَ على خَلْقِ الإنسان من ماءٍ دافِق، يَخْرُجُ من بَيْنِ الصُّلب والتَّرائب؛ قادرٌ أيضًا على إعادةِ خَلْقِ هذا الإنسانِ بَعْدَ مَوْتِه، وعلى بَعْثِه من قَبْرِه للحِساب والجزاء يومَ القيامة، يومَ تُكشَفُ المَكْنوناتُ، وتَبْدو ظاهِرَةً للعيان، وتُرفع الحُجُبُ عمّا كان يُخْفيه الإنسان في دُنْياه من عقائدَ ونيّات وغيرهما، وفي هذا اليوم لا يكون للإنسانِ قوَّة تحميه من الحساب والجزاء، ولا يكون لَهُ مِن ناصِرٍ يَنْصُره من بأس اللّه تَعالى أو مُدافِعٍ يُدافِعُ عنهُ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بلوي)، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بلو).
(2) الجوهري، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (سرر - سر).
(3) السُّيوطي، مُعترك الأقران: 3/ 442.
(4) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 356.

۞ الإيضاحُ اللّغويّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فصْلِ الآية عمّا قَبْلَها:

تَقريرُ إمْكانِ إعادَةِ الخَلْقِ

جاءت جُملة: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ مفصولةً عمّا قبلها لشِبْهِ كمالِ الاتِّصال، الذي تُجيب فيه الجُملَةُ المفصولةُ عن سُؤال أثارَتْهُ الجُملةُ السّابقةُ في نفسِ المُتَلَقّي؛ إذْ يَتَساءَلُ السّامعُ بعدَما يَسْمَع ما مَضى مِن الآيات عن المَقْصِد مِنَ الأمر بالنَّظر في أصل الخِلقة، وإذْ قَد كان ذلك النَّظرُ نظرَ استدلال؛ فهذا الاستئنافُ البيانيُّ له يَتَنَزَّلُ منزلَةَ نتيجةِ الدَّليل، فصار المعنى: إنَّ الذي خَلَقَ الإنسانَ مِن ماءٍ دافِقٍ قادرٌ على إعادة خلقه بأسباب أخرى، وبذلك يتقرَّر إمكان إعادة الخلق، ويزول ما زعمَهُ المُشركون من استحالةِ تلك الإعادةِ[1].

مَرْجِعُ الضَّمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾:

خالقُ الإنسانِ والقادرُ على بَعْثِه مَعْروفٌ، لا يُحتاج إلى ذِكْرِ اسْمِه

الضَّمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ عائدٌ إلى اللهِ سُبْحانَهُ، مع أنَّه لم يَسْبِق ذكرُه، ولكنَّ بناءَ الفعل لِما لم يُسَمَّ فاعلُه في قوله: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ﴾ يُؤْذِنُ بأنَّ الخالقَ مَعْروفٌ لا يحتاج إلى ذِكْرِ اسْمِه، وأُسند الرَّجعُ إلى ضميرِهِ دونَ سُلوك طريقة البناءِ للمَفْعول كَما في قوله: ﴿خُلِقَ﴾؛ لأنَّ المقامَ مقامُ إيضاحٍ وتَصْريحٍ بأنَّ اللّه تَعالى هو فاعلُ ذلكَ[2].

معنى ﴿عَلَىٰ﴾ ودلالتُها:

الله تعالى قادرٌ على إرجاعِ الإنسانِ للحَياة بَعْدَ المَوْتِ مُتَمَكِّنٌ منه غايةَ التَّمكُّن

قولهُ تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾ جارٌّ ومجرور مُتعلِّق بـ (قادرٌ)، وقد أوثِرَ التَّعبير فيه بحَرْفِ الجرِّ المُفيدِ للاستعلاءِ للدَّلالة على بيان كمال قدرة اللّه تعالى مِن إرجاعِ الإنسان إلى الحياةِ، وقدرتِه التّامّة على إعادةِ الرّوح إليه بَعْدَ أن تُفارقَه بكلِّ يُسر وسهولة.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 264، 265.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 141، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 265.

غَرَضُ التَّعبيرِ عَن البَعْثِ بالرَّجْعِ:

الرَّجْعُ يشمَلُ البَعْثَ والرَّدَّ إلى الحالِ التي كان عليها قبلَ الموْتِ

عبَّر النَّظم الكريم عن بَعْثِ الإنسان وإحيائِه بقولِه: ﴿رَجۡعِهِۦ﴾ دون غيره؛ لشُمولِهِ القُدْرَةَ على البَعْثِ، والقُدرةَ على الإرجاع إلى الأصلِ الذي منه خُلق، والحال التي كان عليها قبل الموت مِن غير زيادةٍ ولا نُقصان، على الرُّغم من فناء الجسم، وتَفَتُّتِ العَظْم، واختلاطه بالتُّراب وبرُفاتِ غيره مِنَ المَوْتى، والمعنى: "قادِرٌ على رجع الإنسانِ بالبعث، وردِّه إلى حالِه الأولى، وخَلْقِه الأوَّل كَما كان قَبْلَ المَوْت، وعلى ردِّ الماءِ الدّافق إلى مجاريه التي خرَج منها، وحِلِّه إلى المائيَّة بعد انعقادِه عَظْمًا ولَحْمًا ودمًا"[1].

وجْهُ الإضافةِ إلى ضميرِ الإنْسانِ:

الإنـسـانُ هو الذي أنكر كثيرٌ مِـن أفـراده البعثَ على مرِّ العصورِ

الضَّمير المجرور في: ﴿رَجۡعِهِۦ﴾ عائد إلى ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ الذي سبق ذكرُه في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾، ووجه الإضافةِ إلى ضَميرِهِ أنَّه الذي يُنْكِر كثيرٌ من أفرادِه على مرّ العصور حقيقةَ البَعْثِ والإرجاع والحساب، فأُعيدَ الضَّمير إليه ليشمل الإرجاعُ جنسَ أفرادِه بما فيهم المُنْكِرون.

سِرُّ تتابُعِ المُؤَكِّدات في الآيةِ:

إلجامُ مُنْكِري البَعْثِ ومَنْ يَحْذو حذوَهم على مَرِّ العُصور

جاء قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾ مُؤكَّدا بـ (إنَّ) والجُملةِ الاسميَّة واللّام المُزَحْلقة الدّاخلة على الخبر: ﴿لَقَادِرٞ﴾ رعايةً لحال المُشْرِكين الذين يَكْفُرون باللّه تعالى ويَرْفُضون الإيمانَ بالبَعْثِ، ويُشَكِّكون في قُدْرَةِ اللّه تعالى عليه، بصورةٍ مُباشِرَةٍ أو غير مُباشِرَة، فجيء بالكلام مُؤَكَّدًا بأكثَر مِن مُؤكِّد إلجامًا لَهُم ولِكُلِّ مَن يَحْذو حَذْوَهُم في مُخْتَلَف العُصور والأزمان.

دلالةُ التَّعبيرِ بالخَبَرِ اسْمًا مُشتقًّا:

عبَّر النَّظم الكريم عن الخبر الدّالِّ على قُدرة اللّه تعالى على

[1] البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 380.

القُدرةُ على كُلِّ شيءٍ مِن صفات اللهِ تَعالى التي لا تتبدَّل ولا تتغيَّر

بَعْثِ الإنسانِ وإرجاعِه إلى أصلهِ بالاسْمِ المُشْتَقِّ الدّالِّ على الثُّبوت والدَّوام، فقال: ﴿لَقَادِرٌ﴾ للدَّلالة على أنَّ القُدْرة على ذلك الأمرِ وغيرِه مِن صفات اللّه تَعالى الثّابتة، التي لا تتبَدَّل ولا تتغيَّر ولا تتأثَّر، والمعنى: "لَثابِتَةٌ قُدْرَتُه على ذلك أتَمَّ ثباتٍ، فمِن أيْسَرِ ما يكونُ عندَهُ ﷻ ردُّه بَعْدَ شَيْخوخَتِه على عَقبِه، بأن يَجْعَلَه كَهْلًا ثُمَّ شابًّا ثُمَّ طِفْلًا ثُمَّ مُضْغَةً ثُمَّ علقةً ثُمَّ نطفة ثُمَّ يدفَعُهُ إلى ذَكَرِ الرَّجل ورحِمِ المرأة، ثُمَّ إلى صُلْبِه وتَرائِبِها، وهو أهوَنُ عليهِ، وذلك كقُدْرَتِه على ردِّه بالبَعْثِ" تمامًا بتَمامٍ(1).

سِرُّ فصلِ قولِه: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ عمّا قَبْلَهُ:

جاءت جُملة: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ مفصولَةً عمّا قَبْلَها لِشِبْهِ كمالِ الاتِّصال، الذي تُنَزَّل فيه الجُملةُ الثّانية من الأولى منزلَةَ الجَواب مِنَ السُّؤال؛ ذلك أنَّ ما سبَقَ مِن الحديثِ يُحَرِّك السّامع إلى أن يَتساءَلَ عَن وقتِ ذلك البَعْثِ والإرجاع، فيأتي قولُه: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾؛ ليُحَدِّد وقتَ بَعْثِه وإرجاعه وحِسابِهِ بدِقَّة وتأكيدٍ(2).

دلالةُ الظَّرف ﴿يَوۡمَ﴾:

قُدرةُ الله تعالى لا تَخْتَصُّ بوقتٍ دون وقتٍ

قولُه تعالى ﴿يَوۡمَ﴾ ظرفٌ متعلّقٌ بـ ﴿رَجۡعِهِۦ﴾ ولا يصحّ تعليقُه بـ (قادرٌ)؛ لأنَّه تعالى قادر على رَجْعِه في كلِّ وقت من الأوقات، ولا تختصُّ قُدْرَتُه بوقتٍ دونَ وقت، وقيل: إنَّه معمولٌ لمحذوفٍ تقديرُه: يُرجِعُهُ يومَ تُبلى السَّرائرُ(3).

وجهُ التَّعبير بالفِعْلِ: ﴿تُبۡلَى﴾:

كَشفُ السَّرائر قد يترتَّب عليه بلاءٌ عظيمٌ، وعقابٌ شديدٌ

عبَّر البيانُ الكريم عن انكشافِ السَّرائر ومَعْرِفَتِها بالفعل: ﴿تُبۡلَى﴾ دون (تُعرف أو تُكشف)؛ لِما فيه مِن معنى البلاءِ والشِّدَّة المُتَرَتّب على

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 380.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 380.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 443.

معرفةِ ما كان يُضمِرُه الإنسان في الدُّنيا ولم يُطْلِعْ عليه أحدًا من النّاس، سواءٌ أكان ذلك في العقائدِ أمْ في النّيّات والمقاصد التي كانت تَدْفَعُه إلى الأعمال بمُخْتَلف أنواعِها؛ إذْ ما من شكٍّ في أنَّ الكَشْفَ عن ذلك قَد يترتَّب عليه لصاحِبِه بلاءٌ عظيمٌ، وعقابٌ شديدٌ[1].

دلالةُ بناء الفِعْلِ ﴿تُبۡلَى﴾ لِما لم يُسَمَّ فاعلُه:

جيء بالفعل: ﴿تُبۡلَى﴾ مبنيًّا للمفعول؛ للإشارة إلى سُهولَتِه على اللّه جلَّ في عُلاه، وللتَّنبيه على أنَّ الأمرَ بَيِّنٌ غايةَ البيان؛ لأنَّ الذي يَبْلوها هو الذي يُرْجِعُها، وهو اللّه ﷻ مِن غيرِ احْتياجٍ إلى ذِكْرِ اسْمِه ﷻ[2].

كشفُ السَّرائر ومعرفةُ الخبايا أمرٌ في غاية السُّهولة على الله تعالى

نوع (أَلْ) في ﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾ ودلالةُ جَمْعِه:

﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾ جمع: سريرة؛ وهي ما يُسِرُّه الإنسانُ ويُخْفيهِ مِن نواياهُ وعقائدِه، و(ألْ) فيه لتعريفِ الجِنْسِ، وجيء به مُعرَّفًا بها، ومجموعًا جمعَ تكسير؛ ليشمَلَ كُلَّ ما انطوت عليه الصُّدورُ من العقائد والمقاصد، وكلَّ ما أَخْفَتْهُ الجوارحُ من الإخلالِ بالوُضوء والغُسل ونحو ذلك من الجِنايات، بأنْ تُخالط السَّرائر في ذلك اليوم، وهو يومُ القيامة، مِن الأمور الهائلة ما يُميلها فيُحيلُها عمّا هي عليه، فتعود جَهْرًا بعدَ أن كانت سِرًّا، فيُمَيَّزَ طيِّبُها مِن خبيثها، ويُجازى عليهِ صاحِبُه[3].

سيُجازى الإنسانُ على جميع سرائره الجَزاءَ الأوْفى يومَ القيامةِ

بلاغةُ الكِناية في قولِه: ﴿تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾:

بَلْوُ السَّرائِرِ يعني: اختبارَها وتمييزَ الصّالح منها مِنَ الفاسِد، والكَشْفُ عنها يَسْتَلْزِم مُحاسبةَ صاحبِها، ومُجازاته عنها بالثَّواب أو العقاب، وهذا يَجْعَلُ قولَهُ تعالى: ﴿تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ كنايةً مصحوبةً بالدَّليل والبُرْهان على حسابِ الإنسان على ما أخفاهُ مِن الأعمال،

كشْفُ السَّرائر يَسْتَلْزِم مُحاسبَةَ صاحِبِها ومُجازاته

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 121.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 380، 381.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 381.

ومُجازاته عليها الجزاءَ الأوفى، وكشفُ الأعمال الظّاهرة والأقوال والمُحاسبة عليها مُستفادٌ بدلالةِ الفَحْوى من بَلْوِ السَّرائر وكَشْفِها[1].

معنى الفاءِ ودلالتُها:

كَشْفُ السَّرائر قد يترَتَّب عليه عـذابٌ لا طاقَةَ للإنسانِ بهِ، ولا يستطيعُ أحدٌ دفْعَه عنه

الفاءُ في قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ حرفُ عَطْفٍ يُفيدُ بجانِبِ التَّعقيب معنى التَّسبُّب؛ إذْ لَمّا كان المانِعُ مِن جَزائه عندَ إظْهارِ سرائرِهِ إمّا هو نَفْسُه أو أحَدٍ ينصرُه؛ قال مسبَّبًا عن إظهار ما يجتَهِدُ في إخفائه: ﴿فَمَا لَهُۥ﴾[2]، والمعنى: إنَّ كَشْفَ الخَفايا القبيحَة والسَّرائر السَّيِّئة سيترَتَّب عليه ولوجُ الإنسانِ العذابَ، الذي لا يَستَطيعُ أن يمنَعَهُ عَن نَفْسِه، ولا يستطيع أحدٌ نُصرتَه أو إخراجَه منه.

دلالةُ التَّعبير بـ (ما):

نـفـيُ قُـــدْرَةِ الإنسانِ على أن يـدفـعَ الـعـذاب عن نفسِه نَفْيًا قاطِعًا

(ما) في جُملة: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ هي النّافية العامِلَةُ عمَلَ (ليس)، وقد أوثِرَ النَّفيُ بها؛ لأنَّ مِن خصائِصِها نفيَ الجُمل الاسميَّة والفعليَّة، وهي آكدُ في النَّفي من (ليس)، وأوسَعُ استعمالًا منها أيضًا؛ لأنَّ (ليس) مُختصَّةٌ بنفي الجُمَل الاسميَّة فحسبُ[3]، والنَّفي بـ (ما) أنسبُ هُنا؛ لأنَّها تُفيد - بمعناها ومبناها المختوم بألف المدِّ - نفيَ قدرة الإنسان الذي كُشِفَتْ سرائره على دفع العذابِ عَن نَفْسِه، ونفي وُجود أحدٍ يَنْصُره، ويُنْجيهِ مِن ذلك العذاب، نفيًا قاطعًا لا حدودَ لهُ.

معنى اللّامِ في ﴿لَهُۥ﴾، وبيانُ مَرْجِع ضَميرِه:

لا يَـسْـتَـطـيـعُ الإنـسـانُ الـذي كُشِفَتْ سرائرُه أن يدفَعَ العذابَ عن نفسِه

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ﴾ في جملة: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ جارٌّ ومجرور في محلِّ رفعٍ خبرٌ مقدَّم، والضَّمير فيه يرجعُ إلى ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، واللّام فيه حرفُ جرٍّ يُفيد اختصاصَ الإنسان الذي

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 265.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 381.
(3) السّامرائي، معاني النَّحو: 4/ 191.

كُشِفتْ سرائرُه وفُضِحَت خباياه بالعَجْز عَن منع العذاب عن نفسِه، وعجز الآخرين عن إنْجائِه مِن ذلك العذاب، مهما كانوا وأيًّا كانوا.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالَتُها:

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾ حرفُ جرٍّ يُفيد تأكيدَ انْتِفاء قُدرةِ الإنسان الذي أُخرجت سرائرُه على دَفْعِ العَذاب عن نفسِه، وتأكيد انتفاءِ قيامِ أحَدٍ بنُصرته وإنجائه منه، تأكيدًا يحولُ دون الشَّكِّ والارتيابِ في ذلك الأمْرِ.

تأكيدُ عجْزِ المَفْضوح عن دَفْعِ العذاب عن نفسِه تأكيدًا يَحولُ دونَ الشَّكِّ أو الرَّيب

نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿قُوَّةٖ﴾:

عبَّر النَّظمُ الكريم بالاسْمِ المجرورِ نكرةً، فقال: ﴿مِن قُوَّةٖ﴾ لِما يُفيده التَّنكير الواقعُ في سياق النَّفي مِن شُمول المَعْنى كلَّ أنواع القوَّة التي يَمْنَع الإنسانُ بها نفسَه من العذاب[1]، والمعنى: لا يستطيعُ الإنسانُ مَهْما أوتيَ مِن قوَّة وبأسٍ أنْ يدفَعَ العذابَ عن نفسِه.

لا قوَّة تدفَعُ العذابَ عن النَّفس

وَجْهُ العَطْفِ بالواو:

الواوُ في قولِه تَعالى: ﴿مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾ لِعَطْف ما بعدَها على ما قَبْلَها، وأوثِر عَطْفهُما بالواو التي تُفيد المُشاركة في الحُكْم للدَّلالة على اشتراك كُلِّ المخلوقات مع الإنسان الذي كُشِفتْ سرائرُه وظهرتْ قبائحُه في العَجْز عن منع العذاب عنه أو نُصْرته منه بأيِّ وجهٍ من الوجوهِ؛ إذْ لا يكون الدَّفع إلّا بهذَيْنِ الأمرين: قوَّةٍ قائمَةٍ به، أو قوَّة خارجةٍ عنه[2].

لا يُدفعُ العذابُ إلّا بقوَّةٍ قائمةٍ به، أو قوَّةٍ خارجةٍ عنه

دلالة النَّفْيِ بـ (لا):

أعاد النَّظْمُ الكريمُ التَّعبير بحرف النَّفي (لا) بعد نفي قُدرة الإنسان على منْعِ العذاب عن نفسِه بـ (ما)، فقال: ﴿وَلَا نَاصِرٖ﴾ لتأكيدِ نَفْيِ قُدْرَة الآخرين على مَنْعِ العذاب عن ذلك الإنسانِ تأكيدًا

تأكيدُ نفي قُدرة أحَدٍ على دفْعِ العَذاب عَن الإنسان تأكيدًا لا شَكَّ معه

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 381.
(2) ابن قيِّم الجوزيَّة، التِّبيان في أقسام القرآن، ص: 106، والبقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 381.

قاطِعًا لا شَكَّ فيه، ولا حدودَ له، والمعنى: ولا ناصر يَنْصُره فيمنَعه مِن نُفوذِ الحُكْم فيه، ولو اكتُفيَ بـ (ما) وعُبِّرَ معَها بـ (أو) فقيل: (فما له من قوَّة أو ناصر)؛ لَما أفاد تأكيدَ انْتِفائِهما بالقوَّة التي أفادها التَّعبيرُ القُرآنيُّ، بَل مِنَ المُمْكِن أن يُفهم وجودُ أحدِهِما وعدمُ انتفائِهما معًا.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿نَاصِرٍ﴾ اسمَ فاعلٍ نكرةً:

أوثر التَّعبير عن المعطوف باسْم الفاعل، فقيل: ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ للدَّلالة على تَخاذُلِ الجميع عن نُصْرَة غيرِهم، وانْشِغالِهم بما كُشِفَ مِن أسْرارِهم، وعُرِفَ مِن أعْمالِهم، والمعنى: لا يُبادِرُ أحدٌ إلى نُصْرة غيره، ولا يُفكِّر أحدٌ في دَفْعِ العذاب عن الآخرين. وجيءَ به نَكِرَةً؛ لِما يُفيده التَّنكير الواقع في سياق النَّفي من عموم المعنى وشُمولِه جنسَ الإنسان أيًّا كانَ.

لا يُبادرُ أحدٌ إلى نُصْرة غيره، ولا يُفَكّرُ في دَفْعِ العذابِ عنه

۞ الفُروقُ المعجميّة:

البلاء والاختبار والامتحان والتَّمحيص:

البلاءُ هو: الاختبارُ والمِحْنَةُ والغَمُّ[1]، والاختبارُ هو: معرفة الشَّيء على حقيقتِه[2]، والامتحانُ: شِدَّةٌ تكشفُ حقيقةَ الشَّيء بإزالة ما يشوبُها ويُغطّيها[3]، أمّا التَّمحيصُ: فهو خُلوصُ الشَّيء من الغَليظ المُخْتَلِط به، فلا يَبْقى إلّا صُلْبُه وحقيقتُه[4]، ولَمّا كان الحديثُ عن قُدرة اللّه تعالى على بَعْثِ الإنسان وإرجاعِه إلى الحالِ التي كان عليها قبل الموت، يوم تُعرَف السَّرائرُ وتُكشفُ القبائحُ؛ ناسَبَ التَّعبير بمُفْرَدَة ﴿تُبْلَى﴾ دونَ غيرها؛ لجَمْعِها بَيْنَ الاختبار والمحنَةِ والبَلاء، وهذه كلُّها أمورٌ تَحْصُلُ لِمَن كُشِفَتْ سرائرُهُ وعُرِفت خَباياهُ، أمّا

البلاءُ يجمَعُ بَيْنَ الاختبار والمِحْنَة والغَمِّ، وكُلُّها أمورٌ تحصل في الآخرة

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بلو).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خبر).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (محن).
(4) الرّاغب، المُفردات: (محص)، جبل: المعجم الاشتقاقيُّ: (محص).

غَيْرُها مِن المُفردات الوارد ذِكْرُها فلا حاجة للتَّعبير بها؛ لأنَّها في الأكثر تُناسِب ما يحصُلُ في الدُّنيا، لا ما يحصل في الدّار الآخرة.

النّاصِر والمؤيِّد والظَّهير والمدُافِع:

النّاصر هو: المُعينُ[1]، والتَّأييد: التَّقوية بشدَّة[2]، والظَّهير: المُساند المظهور به[3]، أمّا المُدافِعُ فهو الحامي[4]، ولمّا كان التَّعبير واردًا في سياق عَجْزِ الإنسان الذي كُشفتْ سرائرُه عن دَفْعِ العَذاب عن نَفْسِه، وعَجْزِ الآخرين عن إعانَتِه ومَنْعِه منه؛ ناسَبَ التَّعبير بمفردة: ﴿نَاصِرٍ﴾ للدَّلالة على عدَم مُبادرة أحدٍ إلى مُساعَدَته وعَوْنِه، بأيِّ وجهٍ من الوجوهِ التي تَحولُ بينَه وبَيْنَ العذاب، ولو عُبِّر عن ذلك المَعْنى بأيِّ مفردةٍ أخرى لَما أفادَت تلك الفائدة؛ لأنَّ المؤيِّد قَد لا يَمْنَع، والمُظاهِرَ قَد يَكْتَفي بالمُساندَةِ دون الإقدام، والمُحامي قَد يُدافِع بالقولِ لا بالفِعْلِ، أمّا النّاصر فهو الوحيد الذي يُساعِدُ بالأقوال والأفعال، كما فعَلَ الأنصارُ.

النّاصر هو الوحيدُ الذي يُسانِدُ بالأقوال والأفعال، كما فعلَ الأنصارُ

(1) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 5/ 69.
(2) الرّاغب، المُفردات: (أيد).
(3) الرّاغب، المُفردات: (ظهر)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 3/ 549.
(4) الرّاغب، المُفردات: (دفع).

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤﴾ [الطارق: 11 - 14]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

كُلُّ ما يخبِرُ بهِ القرآنُ من بعثٍ وحساب جدٌّ لا هَزْلَ فيه

بعد أن اشتملت الآياتُ السّابقةُ مع وجازَتِها على الذُّروة العُليا مِنَ البلاغةِ في إثْبات البَعْثِ والجَزاء والوحدانيَّة للّه سُبْحانَه، إلى غيرِ ذلكَ مِن بُحورِ العُلوم، فثبَت أنَّ القرآنَ كلامُ اللّه تَعالى، وثبت أنَّ كلَّ ما فيه حقٌّ مع مُنازَعَتِهم في ذلك كُلِّه؛ اقْتَضى الحالُ في هذه الآياتِ الإقسامَ على حَقّية القرآنِ الكريمِ وجدّيَّته فيما يُخْبِرُ بِه[1].

الرَّدُّ على تَكْذيبِ الكُفّار بما أخبَرَ به القرآنُ مِنْ بعث الإنسان وحِسابِه

ولَمّا ذُكِرَ في الآياتِ السّابقةِ الدَّليلَ على إمكان البعث، وتَبْيين قُدْرَة اللّه تعالى على إرجاع الإنسانِ ومُحاسبته ومعاقبته؛ ناسَب التَّعقيب بتأكيد أنَّ ما فيهِ قولٌ فصْلٌ لا هَزْلَ فيه، وفي ذلك إبطالٌ لِما رماهُ به الكُفّار مِن أنَّ أخباره غيرُ صادِقَةٍ، لا سيّما عندما أخبرَهُم بإحْياءِ الرِّمَم الباليَة[2].

شَرْحُ المُفرداتِ:

1) ﴿ٱلرَّجۡعِ﴾: (رجع) أَصْلٌ كَبيرٌ مُطَّرِدٌ مُنْقاسٌ، يَدُلُّ عَلى رَدٍّ وتَكْرارٍ، تَقولُ: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجوعًا؛ إذا عادَ، فالرُّجوعُ: العَوْدُ إلى ما كانَ منهُ البَدْء، والرَّجْعُ: الغَيْثُ، وهوَ المَطَرُ في قَوْلِه جَلَّ وعَزَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾، وذلكَ أنَّها تَغيثُ وتَصُبُّ ثُمَّ تَرْجِعُ فتَغيثُ[3]، وقيل: هو العَوْدُ؛ أيْ: تعودُ كُلّ عام إلى ما كانَت عليه[4].

2) ﴿ٱلصَّدۡعِ﴾: (صدع) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى انْفِراجٍ في الشَّيْءِ،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 382.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 266.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رجع).
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السُّنة: 10/ 497.

يُقالُ: صَدَعْتُه فانْصَدَعَ وتَصَدَّعَ، والصَّدْعُ: النَّباتُ؛ لِأَنَّه يَصْدَعُ الأرْضَ؛ أيْ: يَشُقُّها، في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾[1].

3) ﴿فَصْلٌ﴾: (فصل) كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلى تَمْييزِ الشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ وإبانَتِه عَنْهُ، يُقالُ: فصَلْتُ الشَّيْءَ فصْلًا؛ وهو: إبانَةُ أحَدِ الشَّيْئَيْنِ مِنَ الآخر، حتَّى يكونَ بَيْنَهُما فُرْجَةٌ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ معناه: فاصلٌ بَيْنَ الحقِّ والباطِلِ[2].

4) ﴿بِٱلْهَزْلِ﴾: (هزل) كَلِمَتانِ في قياسٍ واحِدٍ، يَدُلّانِ عَلى ضَعْفٍ، فالهَزْلُ: نَقيضُ الجِدِّ، وهو كُلُّ كلامٍ لا تحصيلَ له ولا ريع تشبيهًا بالهُزالِ، وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ معناه: ما هو باللَّعِبِ[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

القرآنُ الكريمُ هو الفصلُ الذي لا عَيْبَ فيه، والجِدُّ الذي لا هَزْلَ به

في هذه الآياتِ أقْسَمَ اللّه سُبحانه بالسَّماء ورَجْعِها وهو المَطَر، والأرضِ وصَدْعِها وهو النَّبات - وكُلُّ ذلكَ مِن آياتِ اللّه تَعالى الدّالَّة على رُبوبيَّتِه وقُدْرَتِه - على كونِ القُرآن الكريم حقًّا وصِدْقًا، وجِدًّا لا هَزْلًا، فهو الذي يَفْصِلُ بَيْنَ الحقِّ والباطل، فيُمَيِّز هذا من ذاك، ويَفْصل بَيْنَ النّاس فيما اخْتَلَفوا فيه، ويصيبُ الفصلَ الذي يَنْفَصِل عندَهُ المُراد، كما أنَّه يتميَّز من غيرِهِ من جِنْسِ الكلام بإصابَةِ المَعاني، فلا يحْتاج إلى تعديل، ولا يلحَظ أحدٌ في بيانه عيبًا ولا خَلَلًا، وهو كذلك الجِدُّ الذي لا هَزْلَ فيه، والحقُّ الذي لا يأتيه الباطلُ من بَيْنِ يديه ولا من خَلْفِه[4].

۞ الإيضاحُ اللّغويّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الجُمْلَةِ الافْتِتاحيَّة ودلالتُها:

القرآنُ الكريمُ صادقٌ في إخباره بالبَعْثِ والجزاء وغيرهما

جُملة: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ وما بعدها مستأنفةٌ استئنافًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رجع)، والجوهري، الصِّحاح: (صدع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، ومحمد جبل، والمعجم الاشتقاقيُّ: (فصل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هزل).
(4) ابن قيِّم الجوزيَّة، التِّبيان في أقسام القرآن، ص: 107.

ابتدائيًّا؛ افتُتِح فيها الكلامُ بالقسَم بالسَّماء ورَجْعِها، والأرض وصَدْعِها؛ تأكيدًا لصِدْقِ القُرآن في الإخبار بالبَعْثِ والجزاء، وغير ذلك مِمّا اشْتَمَل عليهِ مِنَ المَوْعِظَة والهُدى، والتَّنويهُ بهذا غرضٌ مِن أغراضِ السّورة[1].

بلاغَةُ القَسَم بالواوِ:

في المُقْسَم به دلائلُ خيرٍ ونفعٍ تَسْتَدْعي التَّنقيبِ عنها

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ﴾ هي واوُ القسَم، الدّالَّةُ على أهمّيَّة ما يُقْسِمُ به اللّه تعالى وعُلوِّ شأنِه، والمُشَوِّقةُ إلى المُقْسَم عليه، والمُشيرةُ إلى ضرورة التَّنبُّه على ما فيه من دلائلِ القُدْرَة والخَيْر، ففي القَسَم تشويقٌ إلى ما يَرِدُ بعدَهُ، وإشعارٌ بأهمّيَّة المُقسَم عليه، وهو مَعَ ذلك يَلْفِتُ ألْبابَ السّامعين إلى الأمور المُقْسَم بها؛ لأنَّ بعضها من دلائل عظيمِ القُدرة الإلهيَّة المُقتَضيَة وحدانيَّة اللّه تَعالى، وإبطالِ الشَّريك، وبعضُها مُذكِّرٌ بقُدرةِ اللّه على كُلِّ شيء؛ إذِ القسمُ لا يكون إلّا بشيء ثابتِ الوقوع، وبعضُها بما فيه من الإبهام يوجِّه السّامعين إلى تَطَلُّبِ بيانه[2]، والتَّنقيب عمَّا فيه من دلائل النَّفع والخير للخَلائق أجمعينَ.

وَجْهُ إعادة القَسَمِ بـ (السَّماءِ):

في السَّماء كثيرٌ من دلائلِ عظمة اللّه تَعالى وقُدْرَتِه على البَعْثِ وإنزال القرآنِ الكريمِ

أعاد النَّظْمُ الكريمُ القَسَمَ بـ (السَّماءِ) مع قُرْبِ العَهْدِ به؛ لِما فيها من دلائلِ عظمَةِ اللّه تَعالى وقُدْرَتِه على البَعْثِ والحِساب والجزاء، وقُدرَتِه أيضًا على إنزالِ القُرآنِ على رسولِ اللّه ﷺ صِدْقًا مُحكمًا خاليًا مِنَ الهَزْل، فضلًا لا يُمْكِنُ أن يكون لأحدٍ بعدَهُ كلامٌ أو حُكْمٌ، ذلك أنَّ مَنْ بنى السَّماء ورَفَعَها قادِرٌ على إنزالِ القرآن على رسوله ﷺ، ولَن يكونَ كلامُه إليهِ إلّا حقًّا لا باطلَ فيه، وجِدًّا لا هَزْلَ معَهُ.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 366.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 237.

سِرُّ الوَصْفِ بـ ﴿ذَاتِ﴾:

السَّماء مصدَرُ عطاءاتٍ وخيراتٍ لا تَنْقَطِعُ

أوثِر وصفُ (السَّماءِ) بـ ﴿ذَاتِ﴾ التي بمعنى: صاحبة؛ للدَّلالة على أنَّ ﴿ٱلرَّجۡعِ﴾ صفةٌ مُلازِمةٌ لها، وأنَّه مِن ماهيَّتها الأساسيَّة، فهي ليسَت مُجرَّد سماءٍ تَرْجِع، بل هي صاحبةُ الرَّجع ومصدرُه، ما يعني قُدرة السَّماء على إعادة الأشياء، مِثْلَ دورةِ المياه التي تَتصاعَدُ من الأرض ثُمَّ تعود إليها على شَكْلِ مطَرٍ، أو الموجات والإشارات التي تُرسَل إلى الفضاء ثُمَّ ترتَدّ إلى الأرض، وهذا التَّعبير يُبْرِز خاصّيَّة العطاء والدَّوام في السَّماء كأنَّها عمليَّة مستمرَّة من الإرسال إليها والإعادةِ منها.

دلالة التَّعبير بـ ﴿ٱلرَّجۡعِ﴾، ووجهُ مُناسَبَتِه للمُقسَم عليه:

إصلاحُ القرآنِ الكريمِ للنّاس كإصلاحِ المَطَر لأحْوالِهِم

المُراد بـ ﴿ٱلرَّجۡعِ﴾ هو الغَيْثُ، وأُضيفَ إلى ﴿ذَاتِ﴾ لأنَّ السَّماء تغيث ثُمَّ ترجع فتغيث وهكذا، أو لأنَّها تعود كُلَّ عام إلى ما كانت عليه من مَطَرٍ في العام السّابق[1]، وقد ذَكَرَ البيانُ القرآنيُّ مِن أحوال السَّماءِ هُنا ما لهُ مناسبةٌ لِلمُقْسَم عليه، وهو الغيث الذي به صلاحُ النّاس، فإنَّ إصلاح القرآنِ للنّاس كإصلاح المطر، وفي الحديث: «مَثَلُ ما بَعَثَني اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَى والعِلْم، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثيرِ أصابَ أرْضًا، فكانَ مِنْها نَقيَّةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأَنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكَثيرَ، وكانَتْ مِنْها أجادِبُ، أَمْسَكَتِ الماءَ، فنَفَعَ اللهُ بها النّاسَ، فشَرِبوا وسَقَوْا وزَرَعوا...»[2].

البَعْثُ حياةٌ تَعْقُبُ حياةً سابقة، شأنُه شأنُ المَطَرِ الذي يأتي عقِبَ مطَرٍ قبلَه

وفي اسم ﴿ٱلرَّجۡعِ﴾ مُناسبةٌ لِمَعْنى البَعْثِ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾، وفيه مُحَسِّنُ الجناسِ التّامِّ، وفي مُسمَّى ﴿ٱلرَّجۡعِ﴾ - وهو المَطَرُ المُعاقِب لمطَر آخر - مُناسبة لـ ﴿ٱلرَّجۡعِ﴾ بمعنى البَعْث؛ فإنَّ البعث حياة عقِبَ حياةٍ سابقةٍ[3].

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السُّنَّة: 10/ 497.

(2) أخرجه البُخاري في صحيحه، برقم: (79)، ومُسلم في صحيحه، برقم: (2282).

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 266.

في الأرضِ كثيرٌ من دلائلِ عظمة اللـه تعالى وقُدرَتِه على البَعْثِ وإنزال القرآنِ الكريمِ

وجه العَطْفِ بالواو:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ لعطفِ ما بعدها على ما قبلها، ووجهُ العطف بينَهما أنَّه لمّا ذَكَرَ الأمرَ العُلْويَّ بادئًا بِهِ لشَرَفِه؛ أَتْبَعَهُ السُّفليّ[1]، ولأنَّ في الأرض كذلك كثيرًا مِن دلائل العَظَمَةِ والقُدرة على البَعْثِ وإنزال القرآن، ولإتمام المُناسبة بَيْنَ المُقسَم به والمُقْسَم عليه[2].

الأرضُ مَسْكَنُ النّاس الذي يَعْرِفونَه ويُلامِسونَهُ في كُلِّ وقتٍ وحينٍ

نوع (ألْ) في (الأرْضِ)، ووجهُ إفْرادِها:

(ألْ) في (الأرْض) لتعريفِ الجِنْسِ، وقد أوثِر التَّعريف بها ليشمل القَسَمُ الأرضَ كلَّها بجميع طَبقاتِها، ويجوزُ أن يكونَ التَّعريف للعَهْدِ، ويكون المُراد: الأرضَ التي هي مَسْكَنكم، الذي أنتُم مُلابِسوه، ومُعاينوه كلَّ وقتٍ ومُلامِسوه[3]، وأفْرَدَها جريًا على ما دَرَجَ عليه البيان القرآنيُّ مِن إفراد (الأرْضَ)؛ لأنَّها وإن كانت سَبْعًا؛ فلَيْسَ بعضُها فوق بعض، بل بعضُها موالٍ لبَعْضٍ[4]، والنُّكتةُ في إفراد القُرآن لها: أنَّ جمعها ثقيلٌ، وهو مخالف للقياسِ؛ بأن يُقال في جَمْعها: (أرضون)، ولذا لَمّا أراد الله تعالى الجَمْعَ؛ قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ﴾ [الطَّلاق: 12] ولم يَجْمَعْها، ورُبَّ مُفردٍ لم يقع في القرآنِ الكريمِ جمعُه لِثقَلِه وخِفَّةِ المُفْرَد، وجمعٍ لم يَقَعْ في الذِّكْر مفردُه كالألباب[5].

شقوقُ الأرض علاماتٌ على الخَيْرِ المخزون في باطِنِها

سِرُّ الوَصْفِ بـ ﴿ذَاتِ﴾:

أوثر وصْفُ (الأرْضِ) بـ ﴿ذَاتِ﴾ التي تَعْني: صاحبة؛ للدَّلالة على أنَّ الصَّدْعَ صفةٌ مُلازمةٌ لها، وأنَّه مِن ماهيَّتها وسِماتِها،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 382.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 266.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 382.
(4) النَّسفي، مدارك التَّنزيل وحقائق التَّأويل: 1/ 489.
(5) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 2/ 261.

فهي تتصدَّع وتتَشَقَّق كثيرًا لتُخرج الماء مِن باطِنِها، والنَّبات مِن داخِلها، فالشُّقوق فيها علامة على الخَير والعطاء المَخْزون في باطِنها، وأنَّه يَخْرُج مِن باطِنها إلى ظَهْرِها، ثُمَّ يعود مِن ظَهْرِها إلى بَطْنِها، وهكذا.

معنى ﴿ٱلصَّدۡعِ﴾، وبلاغَةُ التَّعبير به:

من دلائل القُدرة على البعثِ صَدْعُ النَّباتِ للأرضِ في الوقتِ المُحَدَّد

﴿ٱلصَّدۡعِ﴾ يعني: الشَّقَّ، وهو مصدرٌ بمَعْنى المَفْعولِ؛ أي: المَصدوع عنه، وهو: النَّبات الذي يَخْرُج مِن شقوق الأرض، قال تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩﴾ [عبس: 25 - 29][1]، وأوثر التَّعبير به من بَيْنَ أحوال الأرض للقَرْن بَيْنَ ما في القرآن مِن منافعَ للنّاس، وبَيْنَ ما في النَّبات مِن فوائدَ لَهُم، ولِما يَبْرُز فيه مِن دلائلِ القُدْرَة والإعجاز، التي تَبْدو جليَّةً مِن خلال تمكينِ النَّبات على ضَعْفِه مِن شقِّ الصُّخور وإزاحَتِها في الوقت المحدَّد لينبُت ويترعْرَع، والتي يُعَدُّ إنزالُ القرآن مُحْكَمًا خاليًا مِنَ الهَزْلِ، وإعادة الإنسان للحياة بعد مَوْتِه بجانِب ذلك أمْرًا سَهْلًا لا صعوبة فيه ولا عَجْزَ عنه.

وَجْهُ المُناسبَةِ بَيْنَ الأرض وصَدْعِها وبَعْثِ الإنسانِ:

السَّماء تُماثل الرَّجُل، والأرضُ تماثِلُ المرأةَ

وجْهُ المُناسبة بَيْنَ القسَم بالسَّماء ورَجْعِها والأرض وصَدْعِها للمُقْسَم عليه: أنَّ خروج النَّبات مِن باطِنِ الأرض بعدَ عَوْدَتِه إليها دليلٌ على قدرةِ اللّه تَعالى على بَعْثِ الإنسان وإرجاعِه، والمعنى: "الأرض التي تتصدَّع وتنشَقّ، فيخرج منها النَّبات والعيون بدءًا وإعادة، دلالة ظاهرة على البعثِ، فجَمع البيانُ بالقَسَم العالمَ العلويَّ الذي هو كالرَّجُل والسُّفليَّ الذي هو كالمرأة، فكما أنَّ الرَّجُل يَسْقيها مِن مائه فتَتَصَدَّع عن الولد، فكذلك السَّماء تَسْقي الأرضَ فتَتَصَدَّع عن النَّبات، وكما أنَّها تَتَصدَّع عن النَّبات بعد فنائِهِ وصَيْرورَتِه رُفاتًا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 266.

فيعود كما كان، فكذلك تتصدَّع عن النّاس بعد فنائهم فيَعودون كما كانوا، بإذْنِ ربِّها من غير فرْقٍ أصلًا"[1].

بلاغَةُ التَّوكيد في جوابِ القَسَم:

تأكيد خُلوِّ القُرآنِ الكريم من المطاعن التي رماهُ بها الكافرونَ

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ جوابُ القسَم، جيء به مُؤكَّدا بـ: إنَّ واللّام المُزَحْلَقة والجُملة الاسميَّة؛ لتأكيد خُلوِّ القرآنِ من المطاعن التي رماه بها الكُفّار، والأباطيل التي افْتَرَوْها عليه، فبَعْدَ البراهين القاطعة والدَّلائل الباهرة السّاطعة على حقّية القُرآن وإتيانه بأعلى البيانِ، قال ذلكَ مُؤَكِّدًا استبعادَ طَعْنِهم فيه بَعْدَ هذا البيانِ[2].

بيانُ مَرْجِعِ الضَّمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ وسِرُّ التَّعبير به:

القرآنُ ثابتٌ في أذهانِ النّاس، ولا يغيب عَن عُقولِهم

الضَّمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعود إلى القرآن الكريم، ويدخل فيه الآياتُ النّاطقةُ بمبدأ الإنسانِ ومعادِه[3]، ووجهُ التَّعبير عنه بالضَّمير مع أنَّه لم يَسْبِق ذكرُه صراحةً لكونِه معلوما من المقام؛ لأنَّ ما مضى في السّورة دالٌّ على أنَّه المُحَدَّثُ عنهُ الآن، وثَمَّ دلالةٌ على أنَّه الثّابت في جميع الأذهان، لا غيبة له عن شيءٍ مِنْها أصْلًا[4].

سِرُّ التَّعبير بلَفْظِ القَوْلِ نكرةً:

القرآنُ الكريم مُركَّبٌ مِن ذاتِ الحُروف التي يتكلَّم بها النّاس، لكنَّه مُختلف عَن كلامِهم

الإخبار عن الضَّمير العائد إلى القرآن الكريم بلَفْظِ القَوْلِ المَسْبوقِ باللّام المُزَحْلَقَة في قوله تعالى: ﴿لَقَوۡلٞ﴾ فيه تأكيدُ كَوْنِ القُرآن مِن جنسِ ما يقوله النّاس، ومُرَكَّب من ذات الحروف التي يتكلَّمون بها، وليس فيه كلمَةٌ لا يَسْتَعْمِلونَها، غير أنَّه يَمْتازُ مِن كلامِهِم بمَزايا كثيرةٍ أهَمّها الفَصْلُ والإعجازُ، والتَّنكير في ﴿لَقَوۡلٞ﴾ يُرادُ به التَّعظيم والتَّفخيم.

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 382، 383.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 383.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 142.

(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 383، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 266.

سرّ وصفِ القَوْلِ بـ ﴿فَصۡلٞ﴾:

كَلامُ الله تَعالى عريقٌ في الفَصْلِ بَيْنَ الحقِّ والباطل

قوله: ﴿فَصۡلٞ﴾ صفة لـ (قَوْلٌ)، وقد أوثر الوصفُ به لبيان أنَّ القرآن ليس كأقوالِ النّاس التي يَعْتَريها اللَّبس والغموض في أحيانٍ كثيرة، والتي لا يُمَكِنُها الوفاءُ بالمعنى، فإمّا أن تزيدَ عليه وإمّا أن تَنْقُصَ عنه، ومن ثَمَّ لا تأتي مُبيَّنة فاصلة، إنَّما هو كلامٌ لَهُ من العَراقَةِ في الفَرْقِ بينَ الحقِّ والباطل ما صار به يُطْلَقُ عليه نفسُ الفَصْلِ؛ أي: يُبَيِّن الحَقَّ ويبطلُ الباطل، والإخبار بالمَصْدَرِ للمُبالغَة، والمعنى: إنَّه لقولٌ فاصِلٌ[1].

وجهُ العَطْفِ بالواوِ:

كان الكُفّار ولا يزالون يرمونَ القرآنَ بما ليس فيه؛ ليصرفوا النّاس عنه

الواوُ في قوله: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ لعَطْفِ ما بعدها على جُملة: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾، وأوثِرَ التَّعْبيرُ به بَعْدَ مدْحِ القُرآن بكونِه فصْلًا لا لَبْسَ فيه، تأكيدًا للأمر بسبَبِ شِدَّة إنكار الكافرين وجَحْدِهم وتغطيَتِهم الحقَّ بالباطل[2]، ويجوزُ أن يُقال: للرَّدِّ على الكافرين؛ إذْ كانوا يزعمونَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ - وحاشاه - جاء بهَزْلٍ؛ إذْ يُخْبِر بأنَّ المَوْتى سَيَحْيَوْن، يُريدون تضليلَ عامَّتهم حين يَسْمَعون قوارعَ القرآنِ وإرشادَه وجزالةَ معانيهِ، يختلِقون لهم تلك المعاذيرَ ليَصْرِفوهُم عَن تَدَبُّره والتَّأثُّر به، وهو ما حُكيَ عنهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فُصِّلت: 26][3].

دلالَةُ التَّعبير بـ (ما):

نفيُ كون القرآنِ هَزْلًا لا جدَّ فيه نفيٌ قاطعٌ حازمٌ

(ما) في جملة: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ هي النّافية العامِلَةُ عمَلَ ليس، وأوثِرَ النَّفي بها؛ لكونِها آكدَ في النَّفي من (ليس)، وأوسعَ استعمالا منها أيضًا؛ لأنَّ (ليس) مُختصَّةٌ بنفي الجُمَل الاسميَّة

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 383، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 267.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 383.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 267.

فحسب[1]، والنَّفي بـ (ما) أنسبُ هُنا؛ لأنَّها تُفيد - بمَعْناها ومَبْناها المختوم بألف المَدِّ - نفيَ كون القرآنِ هَزْلًا لا جدَّ فيه نفيًا قاطعًا حازِمًا لا حدودَ له، ولا مجال للشَّكِّ فيه، مهما افترى المُفترون، وادَّعى ذلك المُدَّعون.

دلالة ضميرِ الفَصْلِ ﴿هُوَ﴾:

القرآن الكريم خالٍ مِنَ الهَزْلِ في ظاهرِه وفي باطنه

أُعيد التَّعبيرُ عَن القرآن الكريمِ بالضَّمير المُنْفَصِل ﴿هُوَ﴾، مع قُرب العَهْدِ بالتَّعبير عنه بالضَّمير المُتَّصل في ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ لِما يَمْتازُ بِه الضَّمير من تعيينِ المُتَحَدَّث عنه تعيينًا يَحولُ دونَ صَرْفِ الحديث عنه إلى شيء آخر، ولِما يُفيدُهُ التَّعبير به مِن تَقْويَةِ وتأكيدِ خُلوِّ القرآنِ الكريمِ مِن الهَزْلِ في ظاهره وباطنه على السَّواء، والمعنى: ليسَ في شيءٍ مِن القرآنِ شائبةُ هَزْلٍ، بل كلُّه جدٌّ محضٌ لا هوادة فيه[2].

نوعُ الباءِ، ووجهُ التَّعبير بها في قوله: ﴿بِٱلْهَزْلِ﴾:

لا هَزْلَ في القرآن الكريم بأيِّ وجهٍ من الوجوه

قوله: ﴿بِٱلْهَزْلِ﴾ جارٌّ ومجرور في محلِّ نَصْبِ خبرُ (ما)، وقد أوثِرَ البيانُ فيهِ بحَرْفِ الباء مع إمكان التَّعبير بدونه؛ لتأكيد انتفاء كون القرآن الكريم هزلًا بأيِّ صورة من الصّور، ولو خلا منهُ التَّعبيرُ فقيل: (وما هو هَزْلًا)؛ لَمَا كان بالقوَّة التي أفادها التَّعبيرُ بحرف الجَرِّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ٢٩﴾ [ق: 29].

دلالةُ تعريف (الهَزْلِ)، وفائدةُ نفيهِ:

مِن حقِّ القرآن أن تهابَهُ القلوبُ وتُعَظِّمَهُ النُّفوسُ، ويهتديَ به الغواةُ وتخضعَ له الرِّقابُ

(ألْ) في (الهَزْلِ) لتعريف الجنسِ، والمعنى: أنَّ القُرآن خالٍ من الهَزْلِ بجَميع صوَرِهِ وأنواعه، أي: ليس القرآنُ بالضَّعيف المرذول الذي لا طائلَ تحتَهُ، وفائدةُ نفي الهزل عنه: التَّأكيد على كونه مَهيبًا في القلوب، مُعظَّمًا في الصُّدور، يرتَفِعُ به قارئُه وسامعُه عن أن يُلِمّ

(1) السّامرائي، معاني النَّحو: 4/ 191.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 142، والبقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 384.

بهَزْلٍ، ويعظُم به في أعين العامَّة والخاصَّة، وأنَّ مِن حقِّه أن يهتديَ بِهِ الغواةُ، وتخضع له رقابُ العُتاة[1]، وفي نفي الهزلِ عَن كلام اللّه تَعالى أيضًا تعريضٌ بالكافرين، وتوبيخٌ لهم على ما رَمَوْا به كلامَ ربِّ العالمينَ.

الفُروقُ المعجميّة:

الصَّدْع والشَّقُّ والفَلْق:

التَّعبير بالصَّدع هو الأنسَبُ لحديثِ السّورة عن البَعْث، وعَنِ القرآنِ ومَنافِعِه

الصَّدعُ هو: الشَّقُّ في شيءٍ له صلابةٌ[2]، والشَّقُ: الصَّدعُ البائنُ، ومعناه: صدعُ الشَّيء الشَّديد صَدْعًا نافذًا إلى عُمقِه[3]، أمّا الفَلْق فهو شقّ الشَّيء وإبانةُ بعضِه عن بعضٍ[4]، ولَمّا كان الحديثُ عَن القرآنِ ومنافعه، وحقّيَّته وجدِّه؛ ناسب التَّعبيرُ بـ ﴿ٱلصَّدۡعِ﴾ الذي مِن مَعانيهِ: النَّبات؛ لمُناسَبَتِه لحديثِ السّورة عن البَعْث وعَنِ القرآن، بما فيه مِن أوجُهِ التَّشابه بين منافعِ القرآنِ ومنافعِ النَّبات، ولِما في إخراجِهِ مِن شُقوقِ الأرض من الدَّلالة على قُدْرَة اللّه تعالى على الإحياءِ والبَعْث، بخلاف الشَّقِّ والفلق الدّالَّين على مجرَّد الانفراجِ بلا خروجٍ ولا إرْجاعٍ.

الهَزْل واللَّهْو:

القرآنُ الكريمُ لا يَشغُلُ النّاس عمّا يَغنيهم، ولكنَّه يأخذ بأيديهم إلى ما يَنفَعُهُم

الهَزْلُ: نَقيضُ الجدِّ؛ وهو كُلُّ كلامٍ لا تحصيلَ لَه ولا ريع تشبيها بالهُزالِ، ومعناه: اللَّعِب[5]، أمّا اللّهْوُ فهو: ما يَشْغَلُ الإنسان عمّا يعنيهِ ويَهُمّه[6]، ولمّا كان الحديث عن حقّيَّة القرآنِ وفَصْلِه بينَ الحقِّ والباطلِ ومَنافعِه التي لا تُحْصى؛ ناسَب التَّصريح بـ (الهَزْلِ) الذي

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 142، والبقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 384.
(2) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 3/ 394.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شقق).
(4) الرّاغب، المُفردات: (فلق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هزل).
(6) العسكري، الفروق اللغويّة، ص: 254.

رماهُ بهِ المُشْركون، تعريضًا بهِم وتوبيخًا لهم، وللدَّلالة على انتفائه عن القرآن انتفاءً قاطِعًا، وهذا ما لا يقومُ به التَّعبير بلفظ (اللّهْو)؛ إذِ القُرآن لا يَشْغَلُ النّاس عَمّا يَعْنيهِم، ولكنَّه في الحقيقةِ والواقع يأخُذُ بأيْديهِم إلى ما يَنْفَعُهُم ويُسْعِدُهُم في الدُّنيا والآخرةِ.

﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧﴾ [الطارق: 15 - 17]

تسلية الرَّسول ﷺ والمؤمنين وتَثْبيتُهم في مواجهَة كَيْدِ الكافِرين

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بعد أن أقْسَمَ اللَّه تَعالى في الآياتِ السّابقة بالسَّماءِ ورَجْعِها والأرضِ وصَدْعِها على أنَّ القرآنَ قولٌ فصْلٌ، وجِدٌّ خالٍ من أيِّ هزل؛ ناسَبَ في هذه الآياتِ أن يُسَلّيَ رسولَهُ ﷺ والمؤمنينَ معَهُ، ويُثَبِّتَهم في مواجهة كَيْدِ الكافرين ومَكْرِهم، ويَدْعوهُم إلى إمْهالِهِم والصَّبر عليهم حتَّى يقضيَ اللَّه تَعالى فيهِم أمرًا كان مَفْعولًا(1).

❁ شَرْحُ المُفرداتِ:

1) ﴿يَكِيدُونَ﴾: (كيد) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى مُعالَجَةٍ لِشَيْءٍ بشِدَّةٍ، ثُمَّ يَتَّسِعُ البابُ ليشمَلَ: المَكْرَ والخِداعَ والاحْتيالَ(2)، وكلُّ ما في القرآنِ مِنَ التَّركيب هو بمعنى: التَّدبير المُحْكَم الشَّديد وتنفيذه، والكيدُ قد يكونُ مَذْمومًا، وقد يكون مَمْدوحًا، وإن كان يُسْتَعْمَل في المَذْمومِ أكثَر، فمِن المَمْدوح قولهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: 76]، وقوله تعالى: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾ [الأعراف: 183]، وقوله: ﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾، وكيدُ اللَّه تعالى معناه: الإيقاعُ بأعدائه على وجهٍ خفيٍّ لا يتفطَّنونَ إليه، ومن الكيد المذموم قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢﴾ [يوسف: 52]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا﴾، وكيدهم معناه: التَّدبير بالباطِل(3).

2) ﴿فَمَهِّلِ﴾: (مهل) أَصْلانِ صَحيحانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُما عَلى

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 357.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كيد).
(3) الرَّاغب، المُفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كيد).

تُؤَدَةٍ، يُقال: أمهلَه: أَنْظَرَهُ ومهَّله تَمْهيلًا، والاسْمُ المُهْلَة -بالضَّمِّ-، والاسْتِمْهالُ: الاستنظارُ، وتَمَهَّلَ في أمره؛ أيْ: اتَّأدَ، قال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾[1]، ومعناه: فلا تدع عليهم، ولا تستعجِل لَهُم بالإهلاك[2].

3) ﴿رُوَيْدًۢا﴾: اسْمٌ لا يُتكلَّم بِهِ إلّا مُصَغَّرًا مأمورًا به، وهو تصغيرُ رودٍ، وهو: المَهَل[3]، قال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ أي: إمهالًا يسيرًا، فستكون عن قريبٍ لَهُم أمور[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

العاقِبَةُ للرَّسول ﷺ وأتباعِه المُؤْمنين

خَتَمَ اللّه تعالى السّورة الكريمَةَ بهذهِ الآياتِ؛ تسليةً للرَّسول ﷺ وتبشيرًا له وللمؤمنينَ بحُسْنِ العاقِبَة، وفيها يُخْبِرُه بأنَّ هؤلاء المُشْركين يَحيكونَ المكايِدَ لإبطال أمْرِك أيُّها الرَّسول الكريم، وإنّي أُقابِلُ كيدَهُم ومَكْرَهُم بما يُناسِبُه من استدراجهم مِن حَيْثُ لا يَعْلَمون، ثُمَّ آخذهم أخذَ عزيزٍ مُقتَدِرٍ، فتَمهَّل أيُّها الرَّسول الكريم مع هؤلاء المُشْركين، ولا تَسْتَعْجِل عِقابَهُم، وانتظِر تدبيري فيهم، وأمْهِلْهُم وأنْظِرْهُم رُوَيْدًا؛ أي: إمهالا قريبًا أو قليلًا، فإنَّ كُلَّ آتٍ قريبٌ، وقد حقَّق سُبْحانَهُ لنَبيِّه وعْدَهُ؛ بأن جعَلَ العاقِبَةَ لَهُ ولأتباعِه[5].

الإيضاحُ اللّغويّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فصْلِ الآياتِ عمّا قَبْلَها:

الـكـافـرون يُضِلّون النّاسَ عن اتِّباع القُرآن بتعِلّاتٍ مُلفَّقةٍ

جاءت جُملة: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ﴾ مفصولةً عَمّا قَبْلَها؛ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصال، الذي تُجيبُ فيه الجُملةُ المفصولةُ عن سؤالِ سائلٍ يَعْجَب من إعراضهم عن القرآنِ الكريم مع أنَّه قَوْلٌ فصلٌ، ويَعْجَب

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والجوهري، الصِّحاح: (مهل).
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 385.
(3) السُّيوطي، مُعترك الأقران: 2/ 205.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 386.
(5) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 357، 358.

مِن معاذيرِهِم الباطِلَة، مِثْلَ قولهم: هو هَزْلٌ أو هَذيانٌ أو سِحْرٌ، فبَيَّنَ للسّامع أنَّ عملَهم ذلك كيدٌ مقصودٌ، فهم يَتَظاهَرونَ بأنَّهم ما يَصْرِفُهُم عن التَّصديق بالقرآن إلّا ما تحقَّقوه من عدم صِدْقِه، وإنَّما يَصْرِفُهم عنِ الإيمانِ به الحِفاظُ على سِيادَتِهِم، فيُضلِّلون عامَّتَهُم بتلك التَّعِلّات المُلَفَّقة[1]، ويجوزُ أن تكون الجُمَلُ السّابقة التي تُؤكِّد أنَّ القُرآن الكريمَ ﴿فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ مُثيرةً في نَفْسِ السّامع سُؤالًا يَتَعَرَّف به ما كان مِن أمْرِ الكافرين الذين اتَّهموا الرَّسول ﷺ بأنَّه يهزَلُ عندما أخبرهم بإرجاع الرِّمَم الفانيَة، فتأتي هذه الآياتُ لتُبَيِّن أنَّهم مُسْتَمِرّون في كَيْدِهِم، وتَأْمُرُ الرَّسولُ ﷺ بالصَّبْر عليهم حتَّى يَحينَ وقتُهم[2].

دلالَةُ تتابُعِ المُؤَكِّدات في الجُمْلَةِ:

جاءت جُملَة التَّعليل مُؤَكَّدَةً بإنَّ والجُملةِ الاسميَّة، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ﴾ للإبلاغ في تحقيقِ الكلام وتأكيدِه؛ لأنَّ إصرار الكُفّار على الكَيْدِ والمَكْر بعدَ البَيان الصَّريح من ربِّ العالمين بأنَّ القرآن ﴿فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ مَحَلُّ استغراب واستبعادٍ، وقد يَتَعَجَّب منه السّامع ويَنْدَهِشُ انْدِهاشًا يُحْوِج إلى التَّأكيد[3].

إصرار الكافرين على الكَيْدِ بَعْدَ كلام ربِّ العالمين محلُّ اسْتِبْعاد واسْتِغْرابٍ

بيانُ مَرْجِعِ الضَّمير في ﴿إِنَّهُمۡ﴾، ووجهُ التَّعبير به عنهُم:

الضَّمير المنصوب في ﴿إِنَّهُمۡ﴾ يرجع إلى الكافرين بوجهٍ عامٍّ، ويدخلُ فيهم كُفّار مكَّة[4] دخولًا أوَّليًّا؛ لأنَّهم الذين تولَّوْا كِبْرَ اتِّهام الرَّسولِ ﷺ بالهَزْلِ إبّان نُزول القرآنِ عليه، ووجهُ التَّعبير عنهُم بالضَّمير هو تحقيرُهم وازْدِراؤُهُم والتَّقليلُ مِن شأنهم، ودعوةُ الرَّسول ﷺ إلى المُضيِّ في طَريقِه وعدَمِ الاكْتِراث بهِم.

التَّعبيرُ عن الكافرين بالضَّمير فيه ازدراءٌ لَهُم وتحقيرٌ لشأنِهِم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 267.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 384.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 267.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 142.

سِرُّ التَّعبير بالفعل: ﴿يَكِيدُونَ﴾ مادَّة وصيغَةً:

الـكـافـرون لا يَـنـفَـكّـون عن اتِّـهـام الرَّسـول ﷺ والـقـرآن بأبشَعِ التُّهَمِ، وأخسِّ الصِّفات

عبَّر النَّظم الكريم عن حال الكافرين مع الرَّسول ﷺ والقرآن الكريم بالفعل ﴿يَكِيدُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم لا يَكتَفون بالكُفر وعدَم الإيمان، ولكنَّهم يُدَبِّرون الحيَلَ الكاذِبَة، فيَتَّهمون الرَّسول ﷺ والوحيَ النّازل إليه بأبْشَعِ التُّهَم، وأخَسِّ الصِّفات، ويَجْتَهِدون في إبطال أمْرِه وإطفاء نورِه ما وسِعَهُم الجهد[1]، وأوثِر التَّعبير به مُضارِعًا لِما يُفيدُه - بجانِبِ الاسْتِمْرار التَّجدُّديِّ - من استحضارِ صورَتِهم وهم يكيدونَ للرَّسول ﷺ والقرآن كأنَّها حاضِرَةٌ ماثِلَةٌ، تَدْعو للاستغرابِ والانْدِهاشِ مِن كُفرِهم وكَيْدِهم واخْتِلاقِهِم.

موقِعُ ﴿كَيْدًا﴾ الإعرابيُّ، ودلالَةُ تَنْكيرِه:

كَـيـدُ الـكُـفّـار عظيمٌ، مُتَنَوِّعُ الوسائل، كثيرُ الأساليبِ

قولُه: ﴿كَيْدًا﴾ مفعولٌ مُطْلَقٌ لمُضارع الكيدِ المُسنَد إلى ضميرِ الكُفّار ﴿يَكِيدُونَ﴾، وأوثِرَ التَّعبير به لتأكيد استمرار الكُفّار في الكيد، وعدم توقُّفهم أو تراجعهم عنه، وفي تنكيرِه دلالَةٌ على أنَّه كيدٌ عظيمٌ، متنوِّعُ الوسائلِ، كثيرُ الأساليبِ؛ إذْ يَكيدونَ في إبْطالِ أثَرِ القُرآن وإطفاء نورِه بإثباتِ الرَّسول ﷺ أو إخراجِه أو قَتْلِه أو التَّنفير منه، وغيْرِ ذلك ممّا يَصْرِف العامَّة عنه وعن دعوته، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال: 30][2].

وَجهُ العَطْفِ بالواوِ:

سيواجه الحق مكرَ الكافرين بمَكْرٍ، وكيدَهم بكَيْدٍ، وتدبيرَهم بتدبيرٍ

الواو في جُملةِ ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ لعطف ما بَعْدَها على ما قبلها عَطْفَ الجُملةِ على الجُملة، وأوثِرَ العَطْفُ بالواو التي تُفيدُ المُصاحبَةَ؛ تَطْمينًا للرَّسول ﷺ وتثبيتًا لَهُ وللمُؤْمِنين معَهُ؛ لدلالة العَطْفِ على أنَّ اللَّه تعالى لن يَتْرُكَ الرَّسول فردًا في مواجهة كيدِ الكافرين، ولن

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 384، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 142.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 384.

يَدَعَهُم يَمْكرون به وبالمؤمنين معه، ولكنَّه سُبْحانَه سيواجه مكرَهم بمكرٍ، وكيدَهم بكيدٍ، وتدبيرَهم بتدبيرٍ، وأنَّى لَهُم بذلك؟ فالواقع "أنَّه لا قوَّة لهم أصلًا على ذلك، ولا ناصِرَ لَهُم بوَجْهٍ مِنَ الوُجوهِ"[1].

معنى ﴿وَأَكِيدُ﴾، ودلالَةُ التَّعْبير بِهِ مُضارِعًا:

رعايَةُ الله تَعالى لِرَسولِهِ ﷺ والمؤمنين دائمَةٌ لا تَنْقَطِعُ

التَّعبيرُ عَن مُساندَةِ اللّه تَعالى لرَسولِهِ ﷺ بفِعْلِ الكَيْدِ يعني: استدراجَ الكافرين والإملاءَ لهم؛ ليتمَّ أخذُهم بمَكْرِهم وكيدهم أخْذًا لا هوادةَ فيهِ ولا شَفَقَةَ، والمعنى: "أُقابِلُهُم بكيدٍ متينٍ، لا يُمكنهُم ردُّه، حَيْثُ أسْتَدرِجُهم من حيثُ لا يعلمون"[2]، وعبَّر عنه بصيغةِ المُضارع للدَّلالة على أنَّ رعايَةَ اللّه تعالى للرَّسول ﷺ والمؤمنين لَن تَتَوَقَّف ولن تَنْقَطِع، وأنَّها مُتجدِّدة بتَجَدُّد مَكْرِ الكُفّار، مُستمرَّة باستمرارِ كَيْدِهم وتآمُرِهم، وفيه مِن رَدْعِهم وإرْهابِهم ما يَدْعوهُم إلى الكفِّ عمّا هُم فيهِ مِن مَكْرٍ وكيدٍ، والإيمان برسولِ اللّه ﷺ واتِّباع الوَحْيِ المُنَزَّل إليه.

دلالةُ إسنادِ فِعْلِ الكَيْدِ إلى ضمير الحقِّ، ولطيفة إفرادِ الضَّمير:

الله تعالى هو الذي يتولَّى كفايةَ الرَّسول ﷺ ومَن معه كيدَ الكافرين بنَفْسِه

أسنَد النَّظمُ فعلَ الكيدِ المُضارعَ إلى ضمير الحقِّ بصيغةِ التَّكلُّم فقال: ﴿وَأَكِيدُ﴾ زيادةً في تَطْمينِ الرَّسول ﷺ ومَن مَعَهُ؛ لدلالَتِه على أنَّ اللّه تعالى هو الذي يتولَّى تدبيرَ كِفايَتِهم كيد الكافرين بنَفْسِه، ولَم يَتْرُك ذلك لأحدٍ مِن خَلْقِه، وكفى باللّه تعالى وكيلًا، وكفى به وليًّا ونصيرًا، وأوثِر التَّعبير عن الضَّمير بصيغة الإفراد، فقال تعالى: ﴿وَأَكِيدُ﴾ دون (نكيد)؛ للإشارة إلى هوانِ أمْرِهم على اللّه تعالى، وتفاهة كَيْدِهم مَهْما حشَدوا له، ومَهْما جَمَعوا مِن أجْلِه.

موقِع ﴿كَيۡدٗا﴾، وسِرُّ تكراره نكِرَةً:

قوله: ﴿كَيۡدٗا﴾ مفعولٌ مُطْلَقٌ لمُضارع الكَيْدِ المُسْنَد إلى ضميرِ

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 384.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 142.

لا طاقةَ للكافرين بمواجهَةِ كَيْدِ ربِّ العالمِين

الحقِّ ﷻ، وأوثِرَ تكرارُهُ وتَنْكيرُهُ مَعَ قُرْبِ العَهْدِ به؛ لتأكيد أنَّ رعاية اللّه تعالى لرسولِه ﷺ لَن تَنْتَهيَ ولَن تتَوَقَّف، وأنَّها رعايةٌ عظيمةٌ تفوقُ مكرَ الكافرينَ وكيدَهم في العظمَةِ والأثر، فليس ثمَّة مُقارنةٌ بَيْنَ كيدِهم وكيدِ اللّه تَعالى الذي بيدِهِ كلُّ شيء، ولا يَسْتَعْصي عليه أيُّ شيء، ما يدلُّ على أنَّه لا طاقة لهم به، والمعنى: وأكيدُ بإتمام اقْتِداري، باسْتِدْراجي لَهُم إلى تَوَغُّلهم فيما يُغْضِبُني؛ ليَكْمل ما يوجِبُ أخْذي لَهُم من حيثُ لا يَشْعُرون[1].

بلاغَةُ التَّناسُبِ في لفظ الكيدِ:

سُمِّيَ جزاءُ الكُفَّارِ كيدا؛ لأنَّه خفيٌّ عنهم، ومكروهٌ إليهم

الكيدُ: التَّوصُّل بالأسباب الخفيَّة إلى الإيقاع بالخَصْم[2]، فكيدُ الكافرينَ يُريدون به الإيقاعَ برسول اللّه ﷺ والمؤمنينَ مَعَهُ بأنواعٍ مِنَ المكايدِ والحيَل، والكَيْدُ الإلهيُّ جاءَ على سبيلِ المُناسبَةِ لكَيْدِهِم، فهو كيدٌ مُقابلَ كيدٍ، مع بُعْدِ ما بَيْنَ الحقيقتَيْن، فكيدُ الكُفّار يُناسِبُ عَجْزَهم وضعْفَهم، وكيد اللّه تعالى يليق بجلالِهِ وعظمَتِهِ وكبرئيائِه، والكَيْدُ في مَحَلِّه صفةُ كمالٍ يُحْمَدُ عليها كما في الكَيْدِ المُضافِ إلى اللّه تعالى، بخلاف الكَيْدِ الواقِعِ في غير محلِّه، كَكَيْدِ الكُفّار، فإنَّه صفةُ نقصٍ يُذمُّ صاحبُها[3].

بلاغَةُ التَّعبير بجُمْلَةِ الكَيْدِ الثّانية:

تطمينُ الرَّسول ﷺ وتهديدُ الكافرين وإنذارُهم؛ لعلَّهم يفيقون ويرتدعونَ

في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ إبرازٌ لعناية اللّه تعالى برسولِهِ ﷺ، وتسليتُه وتطمينُه إلى الدِّفاع عنه، وتهديد الكُفّار بعِقابِهِم عقابًا شديدًا مُباغتًا على ما يَفْعَلونَهُ مَعَ الرَّسول ﷺ، وما يقولونه في حقِّ الوحي النّازل إليه، لعَلَّهم يفيقون ويَرْتَدِعون.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 384.

(2) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطية: 1/ 335.

(3) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطية: 1/ 335 - 336.

معنى الفاء في ﴿فَمَهِّلِ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ هي فاء السَّببيَّةِ وترتيبُ ما بعدها على ما قبلها؛ فإنَّ الإخبار بتَوَلّي اللّه سُبحانه لكَيْدِهِم بالذّات ممّا يوجِبُ إمهالَهم وتَرْكَ التَّصدّي لمُكايَدَتِهِم قَطْعًا، ما يعني أنَّه لا اعْتِبارَ بكَيْدِهِم، ولا قَلَقَ مِن مَكْرِهِم[1]، ويجوزُ أن تكون الفاءُ لتَفْريعِ الأمْرِ بالإمْهالِ على مجموعِ الكلام السّابق من قولهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ بما فيه من تصريحٍ وتعريضٍ وتَبْيِينٍ ووَعْدٍ بالنَّصر؛ أي: فلا تَسْتَعْجِل لَهُم بطلَبِ إنزالِ العقاب، فإنَّه واقِعٌ بهِم لا محالة[2]؛ وجائزٌ أن تكون الفاءُ هي الفصيحةَ الدّالَّةَ على وجود شَرْطٍ مَحذوف تقديره: إن شئْتَ أن تَرى مغبَّةَ أمرِهم؛ فلا تستعجلْ بالانتقام مِنْهُم[3].

الإخبار بتَوَلّي اللّه سُبحانه لكَيْدِهِم ممّا يوجِبُ إمهالَهم وتَرْكَ التَّصدّي لمُكايَدَتِهِم.

غَرَضُ الأمْرِ بالإمْهالِ، ولطيفَةُ تَضْعيفِ عَيْنِهِ:

قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أسلوبُ أمْرٍ، غَرَضُهُ توجيهُ النَّبيِّ ﷺ وإرشادُه إلى التَّريُّث والتَّمهُّل والصَّبر على كيد المُشركين ومَكْرِهِم، إلى أن يَرى بنَفْسِه انتقام اللّه تعالى منهم، والمعنى: انْتَظِر ما سَيَحِلُّ بهم ولا تستعجِل لَهُم[4]. وأوثِر تضعيفُ عَيْنِه للتَّعظيم والتَّفخيم، والمعنى: أَمْهِلْهُم إمْهالًا عظيمًا بالتَّدريج[5].

المُطْمَئِنُّ لحصول الشَّيْءِ لا يَسْتَعجِلُهُ

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ اسمَ فاعِلٍ:

أوثِر التَّعبير عن المفعولِ بوَصْفِ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ للتَّشنيع بهم وتقبيحِ صَنيعِهم والإشارة إلى أنَّ الكُفْرَ هو السَّبب الرَّئيس في وعيدِ اللّه تعالى بتَعْذيبِهِم والانتقام مِنْهُم، وأوثِر التَّعبير به اسمًا مُشتقًّا

التَّشنيعُ بفِعْلِ المُكَذِّبين، وتقبيحُ صَنيعِهِم، وبيانُ سَبَبِ الوَعيدِ بتَعْذيبِهِم

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 385، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 142.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 268.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 443.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 269.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 385.

للدَّلالة على رُسوخهم في الكُفْرِ، وضُلوعهم في عداوة الرَّسول ﷺ وإنكار جدّيَّة القرآنِ الكريم، والافتراء بكونِه هَزْلًا، واختيرَ التَّعبيرُ به دون (المُكذِّبين) لعِلْمِ اللّه تعالى أنَّ مِن المُكَذِّبين مَن يدخل الإيمانُ قلبَه، فليس مُستحِقًّا لإيقاع مثل هذا التَّهديد، والمعنى: فلا تَدْعُ عليهم ولا تستعجلْ لهم بالإهلاك، فإنّا لا نعجل؛ لأنَّه لا يعجل بالعقوبة إلّا مَن يخافُ الفوتَ(1).

بلاغَةُ التَّكرار في الآية:

قولُه: ﴿أَمۡهِلۡهُمۡ﴾ أمرٌ ثانٍ بإمهالِ المُشْرِكين، وهو توكيدٌ لفظيٌّ لفِعْلِ الأمرِ بالتَّمهيل، يُقْصَدُ منهُ زيادَةُ تَطْمين النَّبيِّ ﷺ وتبشيرُه بأنَّ عذاب اللّه تعالى نازلٌ بهم لا محالة، وتوجيهٌ لَهُ إلى المُضيِّ في طريق دعوته، والاستمرار في القيام بمُهِمَّته غير عابئٍ بكَيْدِهِم وغير مُكْتَرِث بمكرهم، فوجهُ الجَمْع بينَ ﴿فَمَهِّلِ﴾ و﴿أَمۡهِلۡهُمۡ﴾ وتكرار الأمر مع عدم الاكتفاءِ بالأوَّل؛ هو التَّأكيد لقَصْدِ زيادة التَّسكين، وخولِف بَيْنَ الفِعْلَيْن في التَّعدية مرَّة بالتَّضعيف وأخرى بالهَمْزِ لتَحْسين التَّكرير وتنويعِه(2)، وكذلك لَمّا كانت صيغةُ التَّفعيل رُبَّما أفهمت التَّطويل؛ أُكِّد ذلك مُجرَّدًا للفعل دلالة على أنَّ المُراد بالأوَّل إيقاع الإمهال بالتَّدريج؛ ليطمئنَّ المُمَهِّلُ بذلك وتصير له به قوَّة عظيمة وعزيمة صادقة؛ لأنَّ ما يقولونه ممّا تَشْتَدُّ كراهة النُّفوس له، فلا يَقْدِر أحَدٌ على الإعراض عنهُ إلّا بمعونَةٍ عَظيمَةٍ(3).

لا يـقـدِر أحـدٌ عـلى الإعـراض عـن الإيـذاء إلّا بمعونة عظيمةٍ

موقعُ ﴿رُوَيۡدَۢا﴾ الإعرابيُّ ودلالتُه:

قولُه: ﴿رُوَيۡدَۢا﴾ مصدرٌ مُؤكِّد للأمر الثّاني بالإمهال، وهو تصغيرُ (ارْوادًا) تصغيرُ ترخيمٍ؛ وهو كلمة تُفيدُ الرِّفق وقلَّةَ المُهْلَة الممنوحة

إمهالُ الكافرين لا يطول، ونزولُ الـعـذابِ بهم قريبٌ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 385.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 268.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 386.

لَهُم، وأوثر التَّعبير به للدَّلالة على اقتراب نُزول العذاب بالكُفّار، وأنَّه لن يتأخَّر، والمَعْنى: أمْهِلْهُم إمْهالًا يسيرًا، فستكون عن قريبٍ لَهُم أمورٌ تَشْفي الصُّدور[1]، أو انْتَظِر ما سَيَحِلُّ بهم، ولا تستعجِل لهم، انتظارَ تربُّصٍ واتّياد، فسيَتَحَقَّق ما يَحِلُّ بهم مِنَ العقاب؛ لأنَّ المُطْمَئِنَّ لحصول شيء لا يَسْتَعْجِلُه، ويجوز أن يكون ﴿رُوَيۡدَۢا﴾ اسْمَ فعلٍ للأمر، كما في قولهم: رُوَيْدَك؛ لأنَّ اقترانَه بكاف الخِطاب إذا أُريدَ به اسمُ الفِعْل ليسَ شَرْطًا، ويكون الوقْفُ على قوله: ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، و﴿رُوَيۡدَۢا﴾ كلاما مُستَقِلًّا، فليس وجود فعلٍ مِن معناه قَبْلَهُ دليلًا على أنَّ المُراد بِهِ المَصْدَر؛ أي: تَصْبر ولا تستعجل نزول العذاب بهم، فيكون كنايَةً عَنِ الوَعْدِ بأنَّه واقِعٌ لا محالة[2].

مُناسبةُ خاتِمَةِ السّورة لمَطْلَعِها:

النّاس جميعًا في قبضة الله تعالى، وهو سُبحانه مُحصٍ عليهم أعمالَهم

بُدِئت سورةُ الطّارق بالقَسَم على أنَّ أعمال كُلِّ نفسٍ مُسجَّلةٌ محفوظةٌ، وخُتمت بالأمر بإمهال الكافرين والصَّبر على أذاهُم إلى أجلٍ قريب، "وهذا الآخر هو المُراد بما في أوَّلها مِن أنَّ كلًّا مِن الكافرين ومِن غَيْرِهِم محفوظٌ بِحِفْظِه، مضبوطة أقوالُه وأفعاله وحَركاتُه وسَكناتُه وأحواله، وذلك يَسْتَلْزِمُ أنَّهم في قَبْضَةِ اللّه تعالى"[3]، وأنَّه سُبْحانه قادرٌ على إنزال ما يستحِقّون مِنَ العذاب في وقتٍ لَن يطولَ انْتِظارُه.

۞ الفُروقُ المعجميّة:

الكَيْد والمكْر والحيلة والتَّدبير:

الكيدُ هو الأنسبُ لتوصيفِ حال المُشركين، والأدقُّ في توصيف ما يَنْتَظِرُهم مِن العذاب

الكيدُ هو التَّدبير الضّارُّ المَمْزوجُ بالمَكْرِ والفِكْر، والمكرُ مثلُ الكيد إلّا أنَّه يخلو من الفِكْر[4]، والحيلة: نوعٌ مِنَ التَّدبير قد يتَرَتَّب عليه

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 386.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 268.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 386.
(4) العسكري، الفروق اللُّغويّة، ص: 259.

ضررٌ أو نفعٌ، ما يعني أنَّ الضَّرر ليس شَرْطًا فيه[1]، أمّا التَّدْبير فهوَ تَقْويم الأمر على ما يكون فيهِ صَلاحُ عاقِبَتِه[2]. ولمّا كان واقِعُ المُشْرِكين أنَّهم يَكْفُرون بالوحي، ويعمَلون لأجْلِ صَرْفِ النّاس عن الرَّسول ﷺ، ويَبْذُلون لذلك جُهْدَهُم، ويُبالِغون لهُ في إعمال فِكْرِهِم؛ كان التَّعبير بـ ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ هو الأنسبَ في توصيف ذلك، ولمّا كان جَزاؤُهُم عَلى ذلك عِقابًا أليمًا وعذابًا شديدًا، وكان غيرَ معلوم الماهيَّة والموعد؛ كان التَّعبير بقولِه تَعالى: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ هو الأدقَّ، والأكْثَرَ تَهْديدًا ورَدْعًا.

المَهْلُ والبُطء ورويد والتَّريّث والأناة والتَّروّي:

عقابُ الكافرين لا يتأخَّر كثيرا بأيِّ حالٍ من الأحوال

المَهْل يعني التَّأنّيَ وعدمَ الاسْتِعْجال، والبُطْء: نقيضُ السُّرعة[3]، و(رُوَيْد) تصغيرُ (ارْوادًا) تصغيرَ ترخيم، كلمةٌ تُعطي الرِّفق وقِلَّة مدَّة الإمهال، والتَّريُّث: أخْذُ الوقت الكافي للتَّفكير والتَّأمُّل، وهو خلاف العَجَل[4]، والأناة: التَّمهُّل في تَدْبير الأُمور ومُفارقة التَّعْجيل[5]، والتَّرَوّي هو النَّظر في الأمر والتَّفكير فيه قَبْلَ اتِّخاذ القَرار[6]، ولمّا كان عذاب الكافرين حاصِلًا لا محالَة، ولكن في الوقت الذي حدَّده اللّٰه تعالى، وبعدَ اسْتِحْقاقِهِم لَهُ اسْتِحْقاقًا يوجِبُ وُقوعَهُ وعدم التَّراجع عنه؛ كان التَّعبير بفِعْلِ الإمهال، و﴿رُوَيْدًا﴾ هُما الأنسب من بَيْنِ المُفردات المذكورة؛ لدلالَتِهِما على ضرورةِ تَرْكِ الانْشِغالِ بأمْرِ العِقاب، وترك التَّفكير في ماهيَّتِه ووقْتِه، وتفويض ذلك كُلِّهِ للّٰه تَعالى، مع الإعلام بأنَّه لن يتأخَّر كثيرًا.

(1) العسكري، الفروق اللُّغويّة، ص: 260.
(2) العسكري، الفروق اللُّغويّة، ص: 191.
(3) الجوهري، الصِّحاح: (بطء).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ريث).
(5) العسكري، الفروق اللُّغويّة، ص: 204.
(6) الجوهري، الصِّحاح: (روى).

سُورَةُ الأَعۡلَى

سُورَةُ الأَعْلَى

التَّعريف العامُّ بالسّورة:

المكّيُّ والمدنيُّ وعدّ الآي:

ذَكَرَ ابنُ عطيَّة مَكّيَّتها في قول الجُمهورِ[1]، وبذلك قال القُرطبيُّ[2]، ونقل السُّيوطيُّ أيضًا إجماعَهُم على ذلك، ولكنَّه نَقَلَ عن بعضِهم القول بأنَّها مدنيَّة وذلك لذِكْرِ صلاة العيدِ وزكاة الفِطْرِ فيها[3]، وبيَّن السُّيوطيُّ أنَّ هذا يردُّه ما رواه البخاريُّ في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنَّه قال: "أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، وابْنُ أُمِّ مَكْتوم وكانا يُقْرِئانِ النّاسَ، فقَدِمَ بلاَلٌ وسَعْدٌ وعَمّارُ بْنُ ياسِرٍ، ثُمَّ قَدِمَ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ في عِشْرينَ مِنْ أَصْحابِ النَّبيِّ ﷺ، ثُمَّ قَدِمَ النَّبيُّ ﷺ، فما رَأَيْتُ أَهْلَ المَدينَةِ فرِحوا بشَيْءٍ فرَحَهُمْ برَسولِ اللّه ﷺ، حَتَّى جَعَلَ الإماءُ يَقُلْنَ: قَدِمَ رَسولُ اللّه ﷺ، فما قَدِمَ حَتَّى قَرَأْتُ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ في سوَرٍ مِنَ المُفَصَّلِ"[4]؛ فدَلَّ ذلك على أنَّها كانت قد نزلت قبل الهِجرة، ولا شَكَّ أنَّ السّورة موضوعًا وأسلوبًا هي في عداد السّور المَكّيَّة.

وأمّا عدد آياتها؛ فيقول فيها الدّانيُّ: "وهي تسع عشرَةَ آيَةً في جَميع العدَد لَيْسَ فيها اخْتِلاف"[5].

ترتيب النُّزول وترتيب المُصحف:

جـاء ترتيـب الـسّـورة المُصْحَفيّ بَيْنَ سورَتَي الطّارِقِ والغاشية

هذه السّورة هي السّابعة والثّمانون في التَّرتيب المُصحفيّ

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 468.

(2) القُرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 13.

(3) السُّيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 52.

(4) أخرجه البُخاري في صحيحه، حديث رقم: (3925).

(5) الدّاني، البيان في عدِّ آي القرآن، ص: 271.

الشَّريف، وهو التَّرتيب الثّابت، والمُعوَّل عليه عند أهل النَّظر والتَّحقيق، وقد جاء ترتيبُها بَيْنَ سورتَي الطّارق والغاشية، وأمّا ترتيبها النُّزوليّ؛ فعدَّها بعضُ أهل العلم الثّامنةَ نزولًا؛ نزلَت بعد سورَةِ التَّكوير وقبلَ سورة اللَّيل[1]، وبعضَ أهل العلمِ عدَّها السّابعة نُزولًا؛ بناءً على اختلافهم في ترتيب فاتحةِ الكِتاب نزولًا، وبذلك فهيَ من أوائل السّورِ المكّيَّة.

فضائلُ السّورة:

السّورةُ المُباركة اقترنت بفرَحِ المُسلمين بالهجرة

هذه السّورة الكريمة ابتداءً هي من سور المُفصَّل الذي قال فيه النَّبيُّ ﷺ فيما رواه عنه واثلةُ بنُ الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المَثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»[2].

اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

الأعلى هو الاسْمُ الذي اشتهرت به السّورة المُبارَكَةُ

ورد تَسْميَتُها بـ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ في صحيح البُخاريِّ وفي كتب السُّنَّة[3]، وذَكَر بعضُ أهل العلم تسميتَها بسورة (سبِّح)، وورد تسميَتُها في المَصاحِف المَشْرِقيّة والمَغربيَّة وفي جُلِّ التَّفاسير بـ (سورة الأعلى)؛ لوقوع صِفَةِ الأعلى فيها دونَ غَيْرِها[4].

وقد قام البقاعيُّ بالرَّبْطِ بَيْنَ اسْمِها ومقصودها خَيْرَ ربطٍ فقال: "ومقصودُها: إيجابُ التَّنزيه للأعلى سُبْحانه عن أن يَلْحَقَ ساحةَ عظمته شيءٌ من شوائب النّقص، كاستعجالٍ في أمرٍ؛ منْ إهلاكِ الكافرين أوغيره، أو العجز عن البَعْثِ أو إهمال الخَلْقِ سدىً، يبغي بعضُهم على بعضٍ بغير حساب، أو أن يَتَكَلَّم بما لا

(1) الميداني، معارج التَّفكر: 1/ 433.

(2) ابن حنبل، المُسنَد، حديث رقم: (16982)، والطَّبراني، المعجم الكبير: (22/ 76)، حديث رقم: (187)، والبيهقيُّ، شُعَب الإيمان، حديث رقم: (2192).

(3) البخاري، صحيح البخاري، باب سورة سبّح اسم ربِّك الأعلَى: 6/ 168، والنسائي، السنن الكبرى، باب القراءة في العشاء الآخرة بسبّح اسم ربِّك الأعلى: 2/ 19.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 271.

يُطابق الواقع، أو بما يقدِر أحَدٌ أن يتكلَّم بمثله، وعلى ذلك دَلَّ كُلٌّ من اسْمَيْها: سبِّح، والأعلى"(1).

المِحور العامّ للسورة:

المِحْوَرُ الذي قامَت عليه السّورة هو دعوة النَّبيِّ ﷺ إلى الثَّبات على دَعوتِه في مواجَهَة النّاس، وبيان سُنَّته تعالى الماضية في دَعَوات الأنبياء السّابقين في جزاء كُلِّ فريقٍ من النّاسِ.

الـثَّـبـاتُ في الـدَّعـوة قـوامُ الـدّيـن، ودليـلُ صِدْقِ المُسْلِمين

لذا اقتضى هذا المحورُ الأحوالَ الآتية:

أوّلًا: استهلت السورة بأمْرِ النَّبيِّ ﷺ ومَن معه بالتَّسبيح لله تعالى الذي خَلَقَ النّاس وصَوَّرَهُم وقدَّر أمْرَ الهداية والضَّلال، فكان النّاسُ أصنافًا كما هو حال النَّباتِ.

ثانيًا: اقتضى هذا المِحْوَر بيان أنَّ الله تعالى تعهَّد بِحِفْظِ كتابِه وأنَّه هيَّأَهُ لتذكير النّاس ودعوتهم وترك الإجابة على الله تعالى، فمنهم مُهتدٍ ومنهم ضالٌّ.

ثالثًا: تَوَعَّدت السّورة الضّالّين المُعْرِضين، ووعدت المُؤْمنين المُتَّقين، مُبيِّنة جزاءَ كُلِّ فريقٍ، مُستعرضَةً سُنّتَهُ تعالى في ذلك مع الأنبياءِ السّابقين؛ حَيْثُ أشارت إلى السَّبب الرَّئيس في إعراضِ النّاس عَبَّرَ التّاريخ.

موضوعات السّورة وخصائصها:

اشتملت السّورة الكريمةُ على موضوعاتٍ رئيسَةٍ ثلاثةٍ؛ هي: دعوةُ النَّبيِّ ﷺ ومن معه إلى التَّوجُّه إلى الله تعالى بالتَّسبيح لِما عُرف عنهُ من اتِّصافه بكونه الخالقِ المُدبِّر لِشؤون خَلْقِه من أحياء ونبات، ثُمَّ اشتملت على تَعهُّد الله تعالى لنبيِّه ﷺ بِحِفْظِ كتابه من الضَّياع والنِّسيان، وأنَّه ما كلَّف نبيَّه ﷺ سِوى بتذكير النّاس ودَعْوَتِهم

مـدارُ إعـراضِ الـنّـاس هـوَ في إيثار الدُّنيا على الآخرة

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 387، ومصاعد النَّظر: 3/ 180.

وتفويض أمْرِ استجابتهم للّه تَعالى وحده، ثُمَّ اختُتِمت ببيان جزاء المُسْتَجيبينَ وجزاء المُعْرِضين مُبيِّنةً في أثناء ذلك أنّ السّببَ الرّئيس في إعراض النّاس إنّما هو في إيثار الدّنيا على الآخرة، وأنَّ هذه سُنَّته تعالى ماضيةٌ من لَدُنْ إبراهيم وموسى عليهما السلام.

الخصائص الموضوعيّة للسورة:

تــمــيّــزت سورة الأعلى بخصائص أفردتها عن غيرها مِن السّور

أوّلاً: تميَّزت السّورة الكريمةُ ببراعَةِ الاستهلال؛ إذِ استهلّت بالأمْرِ بالتَّسبيح للّه تعالى بوصفه ﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾، وهي وإن شاركت بقيَّة السّوَرِ المُسبِّحات في الاستهلال بالتَّسبيح إلّا أنَّها انفردَت دونهنَّ بصيغة الأمر لفِعْلِ التَّسبيح، وبوصفِ اللّه تعالى بالعُلوِّ المعرَّف بـ (أل).

الخصائص الأسلوبيّة للسورة:

تــمــيّــزت سورة الأعلى بخصائص أفردتها عن غيرها مِن السّور

أوّلاً: بَرَزَ في السّورة الكريمة مُركّباتٌ وصفيَّة كثيرةٌ، منها: ﴿ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، و﴿غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾، و﴿ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾، و﴿ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾، و﴿ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾.

ثانيًا: امتازَت السّورة الكريمة بوفرةِ الألفاظ المُتَطابقة موازنةً بحَجْمِها، مثل: الجَهْرِ والإخفاء، والموت والحياة، والدُّنيا والآخرة، والنِّسيان والذِّكر، والأشقى ومَن يخشى.

ثالثًا: تميَّزت السّورة الكريمة بوفرة الأسماء المُعَرَّفة بـ (أل) مثل: ﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾، ﴿ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾، ﴿ٱلۡجَهۡرَ﴾، ﴿لِلۡيُسۡرَىٰ﴾، ﴿ٱلذِّكۡرَىٰ﴾، ﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾، ﴿ٱلنَّارَ﴾، ﴿ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾، ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ﴾، ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾، ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ﴾، ﴿ٱلصُّحُفِ﴾، ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾.

رابعًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنَّها حَوَتْ ألفاظًا لم تأتِ في غيرها مِنَ السّوَرِ بصيَغِها الصَّرفيَّة هذه، مثل: ﴿ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾، ﴿أَحۡوَىٰ﴾، ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾، ﴿وَنُيَسِّرُكَ﴾، ﴿لِلۡيُسۡرَىٰ﴾، ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾، ﴿تُؤۡثِرُونَ﴾، وغيرها.

مناسبة السورة لما قبلها:

خَـلْـقُ الإنـسـانِ ورعايتُه، ووعيدُ الـكـافـريـن مـدارُ تناولِ السّورَتَيْنِ

لمّا أخبر سُبحانه عن ضلال الكافرين، وأنَّهم يكيدون كيدًا مع كونهم عبيدًا مُحاطين بأعمالهم، مَحْصيًا عليهم دقائق نفوسهم وأحوالهم؛ وكان صدور هذا الكيد منهم من أقبح ما يُرتَكَب، وأبْعَدُ ما يكون عن إدراك جلال الخالق ﷻ؛ أعقب ذلك بأمر نبيِّه ﷺ أن يُنزِّه ربَّه الأعلى عمّا افترَوه، فقال: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، أي: نَزِّهْهُ عمّا نسبه إليه أهل البُهتان.

وقد جرت عادة القُرآن أن يُعَقِّب مثل هذه الأقوال الباطلة بالتَّنبيه على وجوب التَّنزيه، في فواتح السّور وأوساطها وخواتيمها، ثم أتبع ذلك بذكر دلائل قُدرته المُحكمة، وحكمته البالغة، مِمّا يُظهر ضلالهم ويكشف بطلان دعواهم، فقال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾.

والحقُّ أنَّ السّورتَيْنِ الكريمتيْن قد تَناوَلَتا خَلْقَ اللّه تعالى للإنسان ورعايتَهُ له، واشْتَرَكتا كذلك بالوعيدِ للكافرين وبَيَّنَ مآل أفعالِهم وعاقبةِ أمْرِهم[1].

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 361.

﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ٣ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ٥﴾

[الأعلى: 1 - 5]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

تنزيهُ اللهِ تعالى عنِ الاستعجالِ، وتنزيهُ القرآنِ عمّا رُمي به

لمّا تضمَّن أمرُه تعالى في آخر الطّارق بالإمهال النَّهيَ عن الاستعجال الذي هو منزّه عنه؛ لكونِه نَقْصًا، وأشار نفيُ الهزلِ عَن القرآنِ الكريم إلى أنَّهم وَصَموهُ بذلك وهو في غاية البُعْدِ عنه إلى غير ذلك ممّا أُشير إليهِ فيها، ونزّه نفسَه سُبْحانَه عنه؛ أمَرَ أكملَ خلقِهِ رسولَه ﷺ المُنْزَلَ عليه هذا القرآنُ بتنزيهِ اسْمِه؛ لأنَّه وحْدَهُ العالِم بذلك حقَّ عِلْمِه، وإذا نزّه اسمَه عن أن يدعو به وثنًا أو غيره أو يضعه في غير ما يليق به؛ كان لذاته سبحانه أشدَّ تنزيها[1].

تعظيمُ اللهِ تعالى، والتَّسبيحُ بحمده؛ لأخذِهِ الظّالمين، وإبطالِهِ كَيْدَهُم

ولمّا خُتمتِ سورة الطّارق بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدًا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدًا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧﴾ [الطّارق: 15 - 17] وفيه تهديدٌ للمُشْرِكين، وتطمينٌ لقَلْبِ النَّبيِّ ﷺ، وحماية له مِنَ الكَيْدِ الذي يُكاد له؛ ناسَب أن تَجيء بعدَها سورة الأعلى مُبتدِئةً بقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾؛ لتَمْجيدِ اللّٰه تعالى وتعظيمِه، والتَّسبيح بحَمْدِه، على أنَّه أخَذَ الظّالمين بظُلْمِهِم، وأبطَل كَيْدَهُم[2].

الانْشِغالُ بما يُعين على أمورِ الدَّعوة، والانصراف عن التَّفكير في عذابِ الظّالمين

ومِن وُجوه المُناسبَةِ أيضًا: أنَّهُ بَعْدَ أن خُتِمَت سورةُ الطّارق بأمْرِ الرَّسول ﷺ بإمهال الكافرين والصَّبر عليهم إلى أن يحينَ الوَقْتُ الذي حدَّده اللّٰه تَعالى لنزولِ العَذابِ بهِم؛ ناسب أن يأمُرَهُ بالمُضيِّ في طريق دَعْوَتِه، والانشغال بما يُعينُه عليها، ويُساعِدُه على القيام

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 388.

(2) الخطيب، التَّفسير القُرآني للقرآن: 16/ 1526.

بمَهامِّها، ويزيده قُرْبًا إلى خالقِه ومولاه، وهو تسبيحُ اسْمِ اللّه تَعالى، الذي لا تعلو إرادتَه إرادةٌ، ولا يعلو كيدَه كيدٌ؛ لأنَّه الأعلى أزَلًا وأبدًا.

❁ شَرْحُ المُفرداتِ:

1) ﴿فَسَوَّىٰ﴾: (سوي) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلى اسْتِقامَةٍ واعْتِدالٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، يُقالُ: هَذا لا يُساوي كَذا؛ أَيْ: لا يُعادِلُهُ، وفُلانٌ وفُلانٌ عَلى سَوِيَّةٍ مِنْ هَذا الأَمْرِ؛ أَيْ: سَواءٍ، ومَكانٌ سوًى؛ أَيْ: مَعْلَمٌ قَدْ عَلِمَ القَوْمُ الدُّخولَ فيهِ والخُروجَ مِنْهُ، ويُقالُ: أَسْوى الرَّجُلُ؛ إذا كانَ خَلْقُهُ ووَلَدُهُ سَوِيًّا[(1)]، ومنه: التَّسوية، ومعناها: صُنْعُ الشَّيء سويًّا؛ أي: إكمال حالهِ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾، وقال: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝٣٧﴾ [الكهف: 37]، وقال أيضًا: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: 29][(2)].

2) ﴿قَدَّرَ﴾: (قدر) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى مَبْلَغِ الشَّيْءِ وكُنْهِهِ ونِهايَتِهِ، فالقَدْرُ: مَبْلَغُ كُلِّ شَيْءٍ، يُقالُ: قَدْرُهُ كَذا؛ أَيْ: مَبْلَغُهُ، وكَذلِكَ القَدَرُ، وقَدَرْتُ الشَّيْءَ أَقْدِرُهُ وأَقْدُرُهُ مِنَ التَّقْديرِ، وقَدَّرْتُه أُقَدِّرُهُ[(3)] والقَدْرُ والتَّقْديرُ: تَبيينُ كَمِّيَّةِ الشَّيء، يُقال: قَدَرْتُهُ وقَدَّرْتُهُ، ومنه قولُه: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾؛ أي: أعطى كُلَّ شيءٍ ما فيه مَصْلَحَتُه، وهُداهُ لِما فيه خَلاصُهُ، إمّا بالتَّسخير، وإمّا بالتَّعليم[(4)].

3) ﴿فَهَدَىٰ﴾: (هدي) أَصْلانِ؛ أَحَدُهُما: التَّقَدُّمُ لِلإِرْشادِ، ومنه قَوْلُهُمْ: هَدَيْتُهُ الطَّريقَ هِدايَةً؛ أَيْ: تَقَدَّمْتُهُ لِأُرْشِدَهُ، وكُلُّ مُتَقَدِّمٍ لِذَلِكَ هادٍ[(5)]، والهِدايَةُ هي: الدَّلالة بلُطْفٍ، والتَّوفيق الذي يختصُّ به كُلِّ مَن اهْتَدى، وهو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: 17]، وقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: 11]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[(6)].

4) ﴿ٱلْمَرْعَىٰ﴾: (رعي) أَصْلانِ؛ أَحَدُهُما: المُراقَبَةُ والحِفْظُ، يُقال: رَعَيْتُ الشَّيْءَ،

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سوي).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قدر).
(4) الرّاغب، المُفردات: (قدر)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 4/ 245.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قدر).
(6) الرّاغب، المُفردات: (هدى)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 5/ 315.

رَقَبْتُه، ورَعَيْتُه؛ إذا لاحَظْتَه، والرَّعْيُ في الأصل: حفظ الحيوان، إمّا بغذائه الحافظ لحياته، وإمّا بذبِّ العَدوّ عنه، يُقال: رَعَيْتُه؛ أي: حفظته، وأرْعَيْتُه: جعلتُ له ما يرْعَى، والمَرْعى: مَوْضِعُ الرَّعْي، قال تَعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ [طه: 54]، وقال: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١﴾ [النازعات: 31]، وقال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾[1].

5) ﴿غُثَآءً﴾: الغَيْنُ والثّاءُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلى ارْتِفاعِ شَيْءٍ دَنيٍّ فوْقَ شَيْءٍ، مِنْ ذلِكَ الغُثاءُ: غُثاءُ السَّيْلِ، يُقالُ: غَثا الوادي يَغْثو، وأغْثى يُغْثي أيْضًا، وهو: ما يَحْمِلُه السَّيل من القَشِّ ووَرَق الشَّجر والزَّبَدِ والحَشيش والوَسَخ، والمعنى المحوريُّ: تَجَمُّعُ ما هو هَشٌّ فاسدٌ أو عديمُ النَّفع طبقةً، وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً﴾ معناه: يابِسًا جافًّا بعدمًا كان أخضَرَ يانِعًا[2].

6) ﴿أَحْوَىٰ﴾: الحاءُ والواوُ وما بَعْدَهُ مُعْتَلٌّ أصْلٌ واحِدٌ؛ وهوَ الجَمْعُ، يُقالُ: حَوَيْتُ الشَّيْءَ أحْويه حَيًّا؛ إذا جَمَعْتَه، والحَوِيَّةُ: الواحِدَةُ مِنَ الحَوايا، وهيَ الأمْعاءُ، ويُقال للكِساء الذي يُلَفُّ به السَّنام: حويَّة، وأصله مِن: حَوَيْتُ كذا حَيّا وحَوايَةً، قال تَعالى: ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ [الأنعام: 146]، وقوله ﷻ: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾، معناه: شديدُ السَّواد، وذلك إشارةً إلى الدَّرين، وهو النَّبات الذي أتى عليه سَنَةٌ ثُمَّ جفَّ[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الـخَـلْـقُ والـتَّـسـويـة، والـتَّـقـديـر والـهـدايـة، وإخـراج المرعى مِـن إبـداعـاتِ القُدْرَةِ الإلهيَّة

في الآية الأولى أُمِر الرَّسولُ ﷺ والمؤمنون بتنزيهِ أسماءِ اللّه تَعالى عن كُلِّ نَقْصٍ، فلا يُطْلِقوها على غيره إذا كانت خاصَّة به، ولا يذكروها في مواضعَ لا تليق به، وفي الآيات التّالية وُصِفَ ربُّنا

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (رعى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غثى)، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غثو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حوى)، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حوايا).

سُبحانه ذاتَه بصفات توجب له التَّسبيح والتَّمجيد، منها: أنَّه المُتفرِّد بالخلْق، لا يُشارِكه فيه أحَدٌ، وأنَّه الذي أقام كُلَّ مخلوقٍ على أتمِّ صورةٍ وأكْمَلِها، ومنها: أنَّه قَدَّرَ لِكُلِّ مخلوق ما هو مُناسِبٌ له، مُلائم لوجوده، مُحتفظ له بمكانه بَيْنَ المخلوقاتِ، ومنها: أنَّه أخرج مِن الأرض ما يَأْكُلُ منه النّاس والأنعام، وجَعَلَ هذا المأكلَ يتنقَّل من حالٍ إلى حال، فيتحوَّل من الحياةِ والخُضرة إلى الجفاف والمواتِ، فيكون هشيمًا أَسْمَرَ اللَّون، ويذهب منه ماءُ الحياة، وذلك من إبداعات قُدرة الخالقِ سُبحانَهُ[1].

۞ الإيضاحُ اللّغويّ والبَلاغيُّ:

دلالَةُ الأمْرِ في قولِهِ: ﴿سَبِّحِ﴾:

توجيهُ النَّبيِّ ﷺ وإرشادُه إلى المُداومة على ما يُعينُهُ على تحمُّل كيد المُشْركين

قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ أسلوبُ أمْرٍ، خوطِبَ به النَّبيُّ ﷺ، ويدخُلُ فيه كُلُّ مَن آمَنَ به، وأسْلَمَ معَهُ، وغرضُه: توجيهُ النَّبيِّ ﷺ وإرشادُه إلى المُداومة على ما يعينه على تحمُّل أذى المُشركين، والصَّبر على كَيْدِهِم، ويكون في الوقْتِ نَفْسِه شُكْرًا للّٰه تَعالى وامْتِنانًا لردِّ كَيْدِهم عنه وعَن أصحابه، وهو تسبيحُ اللّٰه تعالى وتنزيههُ عمّا لا يليق به من افتراءات الكافرين وأباطيلهم، والمعنى: نَزِّه وبرِّئ، تنزيهًا وتبرئةً عظيمتَيْنِ جدًّا، قويَّتين شديدَتَيْن[2].

وجه تعديةِ فعلِ التَّسبيح إلى الاسْمِ:

الأمر بإجراء الأخبارِ الشَّريفة والصِّفات الرَّفيعة على الأسماءِ الدّالَّة على الله تعالى

عُدّيَ فعلُ الأمر بالتَّسبيح هُنا إلى ﴿ٱسۡمَ﴾ المُضاف إلى ﴿رَبِّكَ﴾ دون تعديتِه إلى الذّات جَرْيًا على عادة البيانِ القرآنيِّ في التَّعبير على هذه الطَّريقة التَّركيبيَّة إذا تعيَّن أنَّ المأمور به قولٌ دالٌّ على تنزيه اللّٰه تَعالى، بطريقةِ إجراء الأخبار الطيِّبة أو التَّوصيف بالأوصاف المُقدَّسة لإثباتها إلى ما يدلُّ على ذاتهِ تَعالى من الأسماءِ والمَعاني،

(1) الخطيب، التَّفسير القُرآني للقرآن: 16/ 1528، 1529.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 388.

ولمّا كان أقوالًا؛ كانت مُتعلِّقة باسْمِ اللّه تَعالى باعتبار دلالتِه على الذّات، فالمأمورُ بِه: إجراءُ الأخبار الشَّريفة والصِّفات الرَّفيعة على الأسماء الدّالَّة على اللّه تعالى؛ مِن أعلامٍ وصفات ونحوها، وذلك آيلٌ إلى تنزيهِ المُسمَّى بتلك الأسماء، ولهذا يَكْثُرُ في القُرآن الكريم إناطَةُ التَّسبيح باسم اللّه تعالى، نحو قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [الواقعة: 74][1].

دلالة تعريفِ كلمَةِ ﴿ٱسْمَ﴾ بالإضافة:

مَنْ داوَمَ على تنزيه اسمِ اللهِ تَعالى؛ كان كمَن داوم على تنزيهِ ذاتِهِ سُبحانه

أضاف النَّظمُ الكريم مفعولَ فِعْلِ التَّسبيح؛ وهو ﴿ٱسْمَ﴾ إلى ﴿رَبِّكَ﴾؛ لبيان أنَّ المأمورَ بتسبيحِ اسْمِه هو الرَّبُّ ﷻ، وأنَّ أسماءَهُ المأمورَ بتنزيهِها أعلامٌ على ذاتِه، وأوصافٌ تدلُّ عليه سُبْحانَهُ، وأنَّ مَن داوَمَ على تنزيهِ أسماءِ اللّه تَعالى؛ كان كمَنْ داوم على تنزيهِ ذاتِه، جلَّ شأنُه، وعَظُمَ سلطانُه.

معنى تنزيهِ أسماءِ الله تَعالى:

على المُسْلِمِ تنزيهُ الله تَعالى عمّا لا يليقُ به، في ذاتِهِ وصِفاتِهِ وأسمائِهِ وأفعالِهِ وأحكامِهِ

للّه تعالى أسماءٌ كثيرةٌ، ذكَرها القرآنُ الكريم، كما ذكَرها النَّبيُّ ﷺ إجمالًا في قوله: «إنَّ للّه تِسْعَةً وتِسْعينَ اسْمًا، مِائَةً إلّا واحِدًا، مَنْ أحْصاها دَخلَ الجَنَّةَ»[2]، ومذكورٌ كثيرٌ منها في تفاصيلِ السُّنَّةِ الشَّريفَةِ، وتنزيهُ المُسلِم لها يَحْصُل بألّا يُطْلِقَها على غير اللّه تعالى إذا كانَت خاصَّة به، كالاسم الأحسَنِ (اللّه)، واسم الرَّحمان، وألّا يَذْكُرَها في موضعٍ لا يَتَناسَبُ معَ جَلالِها وعَظَمَتِها، وألّا يُحَرِّفَها عن المعاني التي وُضِعَت لها، فقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٨٠﴾ [الأعراف: 180]، كما يكون تنزيهُهُ لها بتنزيهِ ربِّه الأعلى؛ عن الشَّريك، وعن الوالد، وعن الولدِ، وعن المثيلِ... وعن كُلِّ ما لا يَليقُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 273.

(2) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (2736)، ومُسلم في صحيحه، برقم: (2677).

به[1]، والمعنى: نزِّهْ ربَّك ﷻ عن كُلِّ ما لا يليق به؛ في ذاتِه، وصفاته، وأسمائه، وأفعاله، وأحكامه[2].

سِرُّ التَّعبير بوصْفِ الرُّبوبيَّة:

لله تَعالى على خَلْقِه نِعَمٌ تَستَوْجِب التَّسبيح والتَّمجيد

أوثِر التَّعْبيرُ عن ذاتِ اللّه تعالى بوصفِ الرُّبوبيَّة الدّالِّ على حُسْنِ التَّربية والتَّعهُّد بقضاء المَصالح والحاجات[3]، فقيل: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾؛ لِما يُشْعِر به من أنَّه الخالِقُ المُدَبِّر، وللتَّذكير بما للّه تَعالى على خَلْقِه من نِعَمٍ لا تُحصى، وهي نِعَمٌ تستوجب الشُّكر بدَوام التَّسبيح والتَّمجيد، والمعنى: "سبِّح اسْمَ ربِّك المُحْسِن إليك بَعْدَ إيجادِك على صفةِ الكَمال، بتَرْبيَتِك على أحسَنِ الخِلال، حتَّى كنتَ في غاية الجلال والجمالِ"[4].

دلالَةُ الإضافَةِ إلى ضميرِ الخِطاب:

لِلرَّسول ﷺ حَظٌّ زائِدٌ عَلى أتباعِهِ في التَّشريف والتَّكليف والتَّسبيح

يُلْحَظُ في التَّركيب إضافَةُ وصْفِ الرُّبوبيَّة إلى ضميرِ الخِطاب، المُرادِ بِه رسولُ اللّه ﷺ في المقام الأوَّل، ويَدْخُلُ فيهِ جميعُ المُسْلِمين بالتَّبعِ، وذلك في قوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾، وفي ذلك مزيد تشريفٍ للرَّسول ﷺ؛ لدلالَتِهِ على أنَّ له حظًّا زائدًا على أتباعِهِ في الإنعام والتَّشريف، وحظًّا زائدًا كذلك في التَّكليف والتَّسْبيح[5].

بلاغَةُ الوَصْفِ بِـ﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ وغيره مِنَ الصِّفات المَذْكورَة:

اللهُ تعالى مُستحقٌّ للتَّنزيه لِصِفاتِ ذاتِهِ، ولصفاتِ إنعامِهِ عَلَى النّاس

أجْرى النَّظم الكريم على لَفْظِ ﴿رَبِّكَ﴾ صفةَ ﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ وما بعدها من الصِّفات؛ لدلالَتِها على تَصَرُّفات قُدْرَته، وأنَّه تعالى مُسْتَحِقٌّ للتَّنزيه لصفات ذاته، ولصفات إنعامه على النّاس بخَلْقِهم في أحسَنِ تَقْويمٍ، وهِدايَتِهم، ورِزْقِهم، ورِزْقِ أنعامِهِم؛ للإيماء إلى

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 362.
(2) الجَمَل، حاشية الجمل على الجلالين: 4/ 520.
(3) الرّاغب، المُفردات: (رب).
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 389.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 274.

موجِب الأمر بتسبيح اسْمِه بأنَّه حقيق بالتَّنزيه؛ استحقاقًا لذاتِه، ولوَصْفِه بأنَّه خالِقُ المخلوقات خَلْقًا يدلُّ على العِلْم والحكمة وإتقان الصُّنع، وبأنَّه أنعمَ بالهُدى والرِّزق اللَّذين بهِما استقامَة حالِ البشَر في النَّفس والجَسَدِ[1].

وجهُ اخْتِصاصِ هذهِ السّورة بوَصْفِ ﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾:

علُوُّ شأنِ القُرآن راجعٌ لكونهِ مِن مُتَعَلّقات وصفِ العلوِّ الإلهيِّ؛ إذ هو كلامُ الله تعالى

إيثار هذه السّورة دون غيرها من سوَرِ القرآن بوَصْفِ ﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ راجعٌ لكَوْنِها تَضَمَّنتِ التَّنويه بشأنِ القُرآن، والتَّثبيت على تلقّيه، وما تضمَّنه من التَّذكير، وذلك لعلوِّ شأنِه، فهو مِن مُتعلِّقات وصْفِ العُلوِّ الإلهيِّ؛ إذْ هو كلامُ الله ﷻ[2].

نوع (ألْ) ودلالَتُها في ﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾:

العُلوُّ والارتفاعُ من صفات الله تعالى اللّازمَةِ

(ألْ) في قولِه: ﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ لتعريفِ العَهْد؛ أي: أنَّ صفةَ العُلوِّ والارتفاع مِن صِفات الله الأزليَّة الأبديَّة، التي لا تنفكُّ عنه جلَّ شأنُه، وهي معدودة في عُرف النّاس مِن الكمال، فلا يُنْسَب العُلوُّ دون تقييدٍ إلّا إلى شيءٍ غيرِ مذموم في العرف، ولذلك إذا لم يُذكر مع وصف الأعلى مفضَّلٌ عليه؛ أفادَ التَّفضيلَ المُطْلَقَ، كما في وصفه تعالى هُنا، ولهذا حُكي عن فرعون أنَّه قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٤﴾ [النازعات: 24][3].

دلالَةُ صَوْغِ ﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ اسمَ تَفْضيلٍ:

الله تعالى له وصفُ العُلوِّ المُطلَق ذاتًا وصفاتٍ

وُصِفَ الرَّبُّ الكريم الذي أُمِر الرَّسول ﷺ بالمُداومةِ على تسبيحِ اسْمِه وتمجيده وحُسْنِ عبادته بوصفِ ﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ بصيغة اسم التَّفضيل المُطْلَق بقَرينَةِ عدَم ذِكْرِ مفضَّلٍ عليه؛ للدَّلالة على أنَّه تعالى له وصفُ العُلوِّ المُطْلَقِ ذاتًا وصفاتٍ، فهو العليُّ على خَلْقِه فوقَ سماواتِه، وهو المنزَّهُ عَن كلِّ شائبَةِ نقصٍ وكُلِّ سوءٍ من الإلحاد في

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 274.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 275.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 274.

شيءٍ مِن أسمائه بالتَّأويلات الزّائغة، وإطلاقه على غيرِه معَ زَعْمِ أنَّهما فيه سواءٌ، وذكره خاليًا عن التَّعظيم وغير ذلك؛ ليكونَ راسخًا في التَّنزيه، فيكون من أهلِ العِرّفان الذين يُضيئونَ للنّاس مع كونهم في الرُّسوخ كالأوتاد الشّامخة التي هي مع عُلوِّها لا تَتزَحْزَح[1].

وجهُ التَّعبير بالاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾:

إثــارةُ الـفِـكْـر، بعد التَّرغيب في الذِّكر المُهيّيء للفِكْرِ

قولُه: ﴿ٱلَّذِى﴾ اسمٌ موصولٌ في مَحَلِّ جرٍّ صفَةٌ ثانيَةٌ لـ ﴿رَبِّكَ﴾، وقد أوثِرَ التَّعبير به لِما فيه مِن الإثارة إلى التَّفكير في جُملة الصِّلة، والتَّشويق إليها، بسبَبِ ما فيها مِن دلائلَ على إبداعِ اللّه تعالى في الخَلْقِ والتَّسوية، ولِما فيها مِن دلالة عَلى قُدْرَتِه على البَعْثِ والإرجاع المذكور في قولِه تَعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [الطارق: 8 - 9]، ولما في التَّعبير بالاسْمِ الموصول مِن الإبهام المُثير إلى الفِكْرِ، بعد التَّرغيب في الذِّكر المُهَيِّئ للفِكْرِ[2].

دلالةُ التَّعبير بِفِعْلِ الخَلْقِ مادَّة وصيغةً:

إبداعُ الله تعالى حقيقةٌ ماثلةٌ في الكونِ كُلِّه

آثر البيانُ الكريمُ التَّعبيرَ عن الإيجادِ الأوَّل بالفعل ﴿خَلَقَ﴾ ليَلْفِتَ الأنظار إلى ما فيهِ من إبداعٍ وإعجازٍ ودلائلَ على قُدرةِ اللّه تَعالى عليه، على الرُّغم من كونه إيجادًا من عدم، وإنشاءً من غير أصلٍ ولا احتذاءٍ، وقد أوثِرَ التَّعبير به ماضيًا للدَّلالة على حُصولِهِ في الواقع، ورؤية المُخاطبين لإبداعِ اللّه تَعالى حقيقةً ماثلةً في الكونِ كلِّه، بسَمائِه وأرضِه، وعَرْشِه وفَرْشِه، وإنسِه وجنِّه، وهو ما يُقرُّ به الكافرون ولا يُنكرونه، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: 61]، وقال أيضًا: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: 87]، وفيه كذلك برهانٌ على قُدرةِ اللّه تَعالى على البَعْثِ الذي هو أيسرُ منهُ وأسْهَلُ؛ لأنَّه إعادةٌ، والإعادةُ أسهلُ من الإنشاءِ بداهةً.

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 390.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 390.

فائدةُ حذفِ مَفْعولِ فِعْلِ الخَلْقِ:

اقْتَصر البيانُ الكريم على ذِكْرِ فِعْلِ الخَلْقِ دونَ تحديدِ لمَفْعولِه، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾؛ ليَلْفِتَ النَّظر إلى ما في فِعْلِ الخَلْقِ نفسِه مِن إعجازٍ ودلائلَ على عظيم اقْتِدارِ اللّه تَعالى، وليعُمَّ الفعلُ جميعَ المخلوقات، كما قدَّره جمهورُ المُفَسِّرين، وكما هو شأنُ حذْفِ المفعول إذا لَم يَدُلَّ عليهِ دليلٌ، والمعنى: خَلَقَ كُلَّ مخلوق، فيكون كقولِه تعالى حكايةً عن قول موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: 50]، ويُمْكِنُ أن يكون الغَرَضُ من حذفِ المَفْعولِ هو العلمَ بِه لانْصِرافِ المَعْنى إليه، ودلالة السّياق عليه، والمعنى: خَلَقَ الإنسانَ، أو خَلَقَ آدمَ عليه السلام بقرينةِ قَرْنِ الفِعْلِ ﴿خَلَقَ﴾ بـ (سَوَّى)، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: 29][1].

الله تعالى خالقُ الكونِ كُلِّه، ويدخل فيه الإنسانُ دُخولًا أوليًّا

نوعُ الفاءِ ودلالَتُها في قولِه: ﴿فَسَوَّىٰ﴾:

الفاءُ في قوله: ﴿فَسَوَّىٰ﴾ حرفُ عَطْفٍ يدلُّ على أنَّ التَّسوية كانت عَقِبَ الخلق مُباشرة، ولم يكُن بينَهُما فاصلٌ يُذْكَر، لدرجَةِ أنَّه يُمْكِنُ أن تكون مُصاحبة لَهُ، والمعنى: أَوْقَعَ معَ الإيجادِ وعَقَّبه التَّسوية في كُلِّ خلق[2]، ويجوزُ أن تكون الفاءُ للتَّفريع في الذِّكر، باعتبار أنَّ الخَلْقَ مقدَّمٌ في اعتبارِ المُعْتَبَر على التَّسوية، وإن كان حصول التَّسوية مُقارِنًا لحصولِ الخَلْقِ، أو للتَّسبُّب الدّالِّ على أنَّ التَّسوية مُترتّبةٌ على الخَلْقِ ومُسَبَّبة عنهُ[3].

التَّسوية مُتَرَتِّبة على الخَلْقِ وليسَ بينَهُما فاصِلٌ يُذْكَرُ

سِرُّ التَّعبيرِ بِفِعْلِ التَّسوية:

التَّعبيرُ عنِ المَرْحَلَة التّالية للخَلْقِ بالفعلِ (سَوَّى) دالٌّ على أنَّ مِن عظيم نِعَمِ اللّه تعالى التي توجبُ تنزيهَهُ وتمجيدَهُ أنَّه لم يخلق الخَلْقَ فقط، وإنَّما أخرج ما خلَقَ - ممّا أراد مِن إنْسٍ وغيرِه - على

التَّسوية من عظيمِ نِعَمِ اللّه تَعالى التي توجب تنزيهَهُ وتَمْجيدَهُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 275.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 391.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 276.

أتمّ وجهٍ وأكملِه، ووفق نظامٍ مَوْصوفٍ بالإحكام والإتقانِ مُبَرًّأ من الشَّوائب والاختلال[1]؛ بأنْ جَعَلَ لَهُ ما يتأتّى معَهُ كمالُه، ويتمَّ مَعاشُه، "وعَدَلَ بَيْنَ الأمزجة المُختلفة: الماءِ والهواءِ والنّار بعد أن قَهَرَها على الجَمْعِ مع التَّضادِّ لئلّا تَتفاسَدَ، وذلك بالعِلْمِ التّامّ والقُدرة الكاملة؛ دلالة على تمامِ حِكْمَتِه وفِعْلِه بالاختيار"[2].

وَجْهُ تَضْعيفِ عينِ (سَوَّى) والتَّعبير به ماضيًا:

مَنْ قدر على الخلق مِن عدَمٍ قادرٌ على التَّسوية لا محالة

تضعيفُ عينِ (سَوَّى) دالٌّ على المُبالغة في التَّحسين والتَّسوية للمخلوقات بصفَةٍ عامَّة، وللإنسانِ بصفَةٍ خاصَّة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: 7 - 8]؛ والتَّعبير به ماضيًا دالٌّ على حُصول ذلك بطريقة سهلةٍ ليسَ فيها شيء مِن الصُّعوبة، فإنَّ مَن قَدِرَ على الخلقِ مِن عدَمٍ؛ قادرٌ على التَّسوية والبَعْثِ لا محالة.

وَجْهُ حَذْفِ معمولِ فِعْلِ التَّسوية:

التَّسوية شامِلَةٌ جميعَ المخلوقات وليسَت للإنسانِ فحَسْبُ

اقتصر النَّظم القرآنيُّ على ذِكْرِ فِعْلِ التَّسوية دون تحديدٍ لِمَفْعوله، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾؛ ليَلْفِتَ النَّظر إلى ما في التَّسوية نفسِها من إعجازٍ ودلائل على عظيم قُدرةِ اللّٰه سُبْحانَه، ويجوزُ أن يكون الحذفُ ليَعُمَّ الفعلُ جميعَ المخلوقاتِ، ويَدْخُل فيها الإنسانُ دُخولا بُرْهانيًّا، فإنْ حُمِلَ على العموم فالتَّسوية: أنْ جَعَلَ كلَّ جنسٍ ونوعٍ من الموجوداتِ مُعادِلا؛ أي: مُناسِبًا للأعمال التي في جِبِلَّته، فاعوجاجُ زُبانَى العقربِ - وهما قَرْناها - من تسويةِ خَلْقِها؛ لتدفَعَ عن نفسِها بها بسهولَةٍ[3].

توجيهُ العَطْفِ بالواوِ:

إيرادُ الصِّفات المُقْتَضِيَة لتَسْبيح الله تَعالى وتَمْجيدِه

الواوُ في قوله: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ لعَطْفِ ما بعدها على ما قبلها،

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 449.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 391.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 276.

وأوثرَ العَطْفُ بها للدَّلالة على أنَّ ما يليها صفةٌ مِن الصِّفات التي توجب تسبيحَ اللّه تَعالى وتمجيدَهُ؛ لأنَّها تَدلُّ على الإعجاز وعظيم قُدرةِ اللّه تَعالى، شأنُها شأنُ ما سَبَقَها مِن الصِّفات والأفعالِ.

سِرُّ تكرارِ التَّعبير بالاسْمِ المَوْصول:

كـلُّ صـفَـةٍ مِـنَ الصِّفاتِ المذكورة ثابتةٌ لله تَعالى ثبوتًا مُستَقِلًّا

قوله: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ هو الصِّفة الثّالثة من الصِّفات الموجِبَةِ تسبيحَ اللّه تعالى وتمجيدَه؛ أعاد النَّظمُ الكريمُ التَّعبير فيها، وفيما بعدها بالاسْمِ المَوْصول فقال: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾ مع إمكانِ الاكْتِفاءِ بحَرْفِ العَطْفِ عَن تكراره؛ للاهتمام بكلِّ صلةٍ مِنَ الصِّلات المذكورة، وإثباتها لمدلولِ المَوْصول إثْباتًا مُستقلًّا[1].

دلالَةُ التَّعبير بفِعْلِ التَّقدير مادَّة وصيغَةً:

الـتَّـقـديـر مـن عـظـيـم نِـعَـم اللهِ تَعالى التي تـوجِـبُ تنزيهَهُ وتَمْجيدَهُ

عبَّر النَّظم في الصِّفة الثّالثة مِن صفات اللّه تَعالى بفِعْلِ التَّقدير، فقال: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه تَعالى مع قدرته على الخَلْق والتَّسوية قدَّر - معهما - لِكُلِّ مخلوقٍ ما فيه مَصْلَحَتُه، وهَداهُ لِما فيه خَلاصُهُ، إمّا بالتَّسخير، وإمّا بالتَّعليم[2]، وأنَّ ذلك التَّقدير مِن نِعَم اللّه تعالى التي تَسْتَوْجِب عِبادَتَهُ وتَنْزيهَهُ، والمعنى: أوقَعَ تقديرَهُ في أجناسِ الأشياء وأنواعِها وأشخاصها ومقاديرها وصفاتها وأفعالها وآجالها، وغير ذلك مِن أحوالِها، فجَعَلَ البَطْشَ لليَد، والمَشْيَ للرِّجل، والسَّمْعَ للأذُنِ، والبَصَرَ للعَيْن، وهكذا[3]؛ وجيء به مضعَّف العَيْن للدَّلالة على إبلاغِه سُبْحانَه في التَّقدير والتَّرتيب، وماضيًا؛ للدَّلالة على فِعْلِه ذلك على وجْهٍ بالِغٍ في السُّهولة واليُسْرِ.

التَّوجيه البلاغيُّ للقراءات الوارِدَةِ في ﴿قَدَّرَ﴾:

التَّكامُل الدَّلاليُّ بـيـنَ الـقِـراءاتِ القُرآنيَّة

اختلف القُرّاءُ في ﴿قَدَّرَ﴾؛ فقرأ الجُمْهورُ بتشديد الدّالِّ، وقرأ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 276.
(2) الرّاغب، المُفردات: (قدر)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 4/ 245.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 392.

الكسائيُّ بتخفيفها: ﴿قَدَرَ﴾[1]، وقِراءَةُ التّشديد تدلُّ على تمام التَّقدير والتَّرتيب، بخلاف قراءةِ التَّخفيف فإنَّها تؤكِّد سُهولَةَ التَّقدير ويُسْرَه على اللّٰه جَلَّ في عُلاه.

الهداية مُتَرَتِّبةٌ على التَّقدير ومعطوفةٌ عليه عَطْفَ المُسَبَّب على السَّبب

نوعُ الفاءِ ودلالَتُها في قولِه: ﴿فَهَدَىٰ﴾:

الفاءُ في قولِه: ﴿فَهَدَىٰ﴾ حرفُ عَطْفٍ يُفيد التَّعقيب، والمَعْنى: أَوْقَعَ عَقِبَ التَّقدير الهدايةَ لذلك الذي وقَعَ التَّقدير من أَجْلِه[2]، ويجوزُ أن يُفيدَ التَّسبُّب والتَّرتُّب، ما يعني: أنَّ الهدايةَ مُترتِّبة على التَّقدير ومُسبَّبة عنه، ومعطوفة عليه عطفَ المُسبَّب على السَّبب، والمعنى: فهَدَى كُلَّ مُقَدَّرٍ إلى ما قُدِّر لهُ[3].

دلالة التَّعبير بِفِعْلِ الهِداية مادَّةً وصيغَةً:

الهـدايةُ نعمةٌ مِن نِعَمِ الله تعالى التي توجب تمجيدَهُ وتسبيحَهُ

التَّعبير عن المعطوفِ على التَّقدير بالفِعْلِ (هَدَى) المُسْنَدِ إلى ضمير الاسْمِ الموصول دالٌّ على أنَّ الهِداية - التي تَعْني توفيقَ كُلِّ مخلوقٍ وإرشادَه إلى القيام بما قُدِّر له - نعمَةٌ من نِعَمِ اللّٰه سُبحانَهُ التي توجِبُ تَسْبيحَه وتمجيدَه، والمعنى: قدَّر الأشياءَ كُلَّها فهداها إلى أداءِ وظائفِها كما قدَّرها لها، والتَّعبيرُ به ماضيًا دالٌّ على فِعْلِه ذلك بكُلِّ يُسْرٍ وسهولة، فإنَّ مَنْ قَدَرَ على الخَلْقِ والتَّسوية والتَّقدير قادرٌ على الهدايةِ أيضًا.

وَجْهُ حَذْفِ مفعولِ فِعْلِ الهِدايَةِ:

هدايةُ الله تَعالى تعمُّ المخلوقاتِ كلَّها، ويدخلُ فيها الإنسانُ دخولًا أوليًّا

حُذِفَ مفعولُ فعل الهداية؛ لِيُفيد عمومَ المعنى وشمولَه كُلَّ المَخْلوقاتِ، وهو عامٌّ مخصوصٌ بما فيه قابليَّة الاهتداءِ من ذوات الإدراك والإرادة، وهي أنواعُ الحَيوان، أمّا الأنواع التي خَلَقَها اللّٰه تَعالى وقَدَّر نظامها ولم يُقدِّر لها الإدراك، فذلك غيرُ مُرادٍ من قوله:

(1) ابن الجزري، النَّشر في القراءات العشر: 2/ 400.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 392.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 276، 277.

﴿فَهَدَىٰ﴾؛ لأنَّها مخلوقة ومُقَدَّرة ولكنَّها غير مهديَّة لعدم صلاحِها للاهتداء، وإنْ جُعِلَ مفعولُ ﴿خَلَقَ﴾ خاصًّا بالإنسان؛ كان مفعول ﴿قَدَّرَ﴾ على وزانِهِ؛ أي: تقدير كمال قوى الإنسان، وكانت الهدايةُ هدايةً خاصَّةً، وهي: دلالةُ الإدراكِ والعَقْلِ(1).

سِرُّ إيثارِ وصْفَي التَّسوية والهِداية:

أوثِر وصْفا التَّسويةِ والهداية مِن بَيْنِ صفاتِ الأفعال التي هي نِعَمُ اللّه تَعالى على النّاس، ودالَّة على استحقاقه تعالى للتَّنزيه؛ لأنَّ في هذين الوَصْفَيْنِ مُناسبة بما اشْتَمَلَت عليه مِن السّورة، فإنَّ الذي يُسَوّي خَلْقَ النَّبيِّ ﷺ تسويةً تُلائِمُ ما خَلَقَهُ لأجله مِن تحمُّل أعباء الرِّسالة، لا يفوتُه أن يُهَيِّئَه لحِفْظِ ما يوحيهِ إليه، وتَيْسيرُه عليه، وإعطاؤُه شريعةً مُناسبةً لذلك التَّيسير، قال تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، وقالَ: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾(2).

مَـنْ يُـسَـوّي خَلْقَ النَّبيِّ ﷺ لِتَحَمُّل أعباء الرِّسالةِ؛ لا يفوتُهُ أن يُهَيِّئَه لحِفْظِ ما يوحيهِ إليهِ

دلالة التَّعبير بفِعْلِ الإخراج مادَّة وصيغة:

عبَّر النَّظم الكريمُ عن بُروزِ النَّبات مِن مَقَرِّه تحت الأرض وظُهوره على سَطْحِها بالفعل ﴿أَخۡرَجَ﴾؛ للدَّلالة على ما في هذه الحالِ التي تتكرَّر أمامَ النّاس كثيرًا حتَّى اعْتادوها مِن إعجازٍ ودلالةٍ على قُدرَة اللّه تعالى على كُلِّ شيء، ويدخل في ذلك: قُدْرَتُه على البَعْثِ دُخولا أوليًّا، وجيء به ماضيًا للدَّلالة على كونهِ حَقيقة واقعَة يُشاهِدها المُخاطَبون ويَرَوْنَها أمامَهُم حاصلةً ماثلَة، مِن غير حاجة إلى تقويةٍ أو توكيد، ما يَعْني سُهولة أَمْرِ الإخراج على اللّه تعالى بما له مِن القوَّة والقُدْرَة، واستحالتهِ على غيرهِ أيًّا كانَ.

أمْـرُ الـبَـعْـثِ والإخراجِ سَهْلٌ على الله تَعالى مَعَ ما فيهِ مِن اسْتِحالَةٍ عَلى غَيْرِه

دلالَةُ إيثارِ لَفْظِ ﴿ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾ مُعَرَّفًا:

(أَلْ) في ﴿ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾ لتعريف الجِنْسِ؛ إذِ المَقْصودُ به: جِنْسُ

في التَّعبير بالمرعى نفعٌ للإنسان والحيوان، ورعايةٌ للفاصِلَةِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/ 277.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 30/ 277.

النَّبات من شجَرٍ وزَرْعٍ وثمَرٍ وغيرِه، واقتصر على بعضِ أنواعِهِ، وهو الكَلَأُ؛ لأنَّه مَعاش السّائمةِ التي يَنْتَفِع النّاس بها، ما يعني أنَّ إيثار التَّعبير به دون غيره مِن أنواع الزُّروع والثِّمار راجعٌ إلى عموم نَفْعِه للحيوان والإنسان، يُزاد على ذلك ما في الكلمة المُعبَّرِ بها من رعايةٍ للفاصلة التي بُنِيَتْ عليها السّورةُ الكريمة[1].

ومِن وجوه تخصيصِ البيانِ الكريم ﴿ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾ بالذِّكر دون غيره مِن أنواع النَّبات؛ لأنَّه أدلُّ على قُدرة اللّه تَعالى على البَعْث؛ لكونِه مِمّا يُنْبِتُه النّاس، وإذا انتهى تَهَشَّم وتفتَّت وصار تُرابا، ثُمَّ يُعيده اللّه تعالى بالماء على ما كان عليهِ، سواء كما يُفعل بالأمواتِ من غير فرْقٍ أصْلًا[2]، وفي إيثاره بالذِّكر كذلك إشارةٌ إلى أنَّ مُدَّة نضارة الحياة للأشياء تُشْبِهُ المُدَّةَ القصيرةَ للنَّبات، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ [يونس: 24][3].

نَـضـارة الحياة قـصيرةٌ، كقِصَر نضارة المَرْعى

دلالةُ صَوْغِ ﴿ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾ مَصْدرًا ميميًّا:

﴿ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾ النَّبتُ الذي ترعاهُ السَّوائمُ، وأصلُه: إمّا مصدرٌ ميميٌّ، أُطْلِق على الشَّيء المَرْعيِّ؛ مِنْ إطلاق المَصْدَرِ على المفعول، مثل الخَلْقِ بمعنى: المخلوق، وإمّا اسمُ مكانِ الرَّعي؛ أُطْلِقَ على ما يَنْبُت فيه ويُرعى، إطلاقًا مجازيًّا بعلاقة الحلولِ، كما أُطْلِقَ اسم الوادي على الماءِ الجاري فيه، والقرينَةُ: جَعْلُهُ مفعولًا لـ ﴿أَخۡرَجَ﴾[4]، والتَّعبير بالمصدر الميميِّ يُصَوِّر المعنى المصدريَّ واقعًا قائمًا مُتحقِّقًا في الوجود؛ ومِن هُنا عُبّرَ به لتأكيدِ تحقُّقِ إخْراج المَرْعى.

تَـصْـويرُ المَعْنى قائِمًا مُتَحَقّقا في الوُجودِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 30/ 278.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 394.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 279.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 278.

معنى (الفاء) في قولِه: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾:

سُرعانَ ما تمرُّ الأعمار، وسُرعانَ ما يتحوَّل الإنسانُ وغيرُه من حالٍ إلى حال

الفاء في قوله: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾ حرفُ عطفٍ يُفيد التَّعقيبَ، الدّالَّ على سُرعة تحوُّل النَّبات مِن حال الخضرة والنَّضارة والازدهار إلى حالِ اليَبَس والهشاشَة والسَّواد، ما يُشير إلى سُرعة انقضاء الأعمار، وفوات الأزمان، وسُرعة تحوُّل الإنسان من حالِ القوَّة إلى حال الضَّعف، ومِن حال الحياةِ إلى حالِ المَوْتِ... وهكذا.

دلالة التَّعبير بفِعْلِ الجَعْلِ مادَّةً وصيغَةً:

في التَّحويل من حالٍ إلى حالٍ عِبرةٌ تدفَعُ الكافِرَ إلى الإيمان، ومُنْكِرِ البَعْثِ إلى الإقرارِ

عبَّر النَّظمُ عن تحويل النَّبات مِن حالِ الازْدِهارِ إلى حالِ اليُبوسَة، وتَغيُّر شَكْلِه من الخُضرة إلى الصُّفرة بفِعْلِ الجَعْلِ الموضوع للتَّحويل والتَّصيير قائلًا: ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾؛ ليَلْفِتَ النَّظر إلى ما في هذا التَّحويل مِن عِظَةٍ وعِبْرَةٍ، تدفَعُ المُعرِض إلى التَّخلي عن الإعراض، والكافرَ إلى التَّحوُّل للإيمان، وليَلْفِتَ النَّظر أيضًا إلى ما فيه مِن دلائِلَ على عظيم قُدرة اللّٰه تَعالى، التي تدفَعُ مُنْكِرَ البعث إلى الإيمان به، وجيء به ماضيًا للدَّلالة على قُدرة اللّٰه تعالى على التَّحويل والتَّصيير على وجهٍ بالغٍ في السُّهولة والسُّرعة.

مرجِعُ الضَّمير في (جَعَلَهُ):

الضَّمير المنصوبُ في (جَعَلَهُ) يرجع إلى ﴿ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾ الذي كان بَعْدَ الإخراج أخضَرَ يانِعًا جميلًا، والمَعْنى: جعَلَهُ كثيرًا، ثُمَّ أنْهاهُ فأيْبَسَهُ وهَشَّمَه ومزّقه، فجمعَ السَّيل بعضَه إلى بعض، فجعله زَبَدًا وهالِكًا وباليا وفُتاتًا على وجهِ الأرض[1].

نُكتةُ تنكيرِ ﴿غُثَآءً﴾:

النَّباتُ الغثاءُ لا يُعنى النَّاسُ به، ولا يَأْبَهون

قولُه تعالى: ﴿غُثَآءً﴾ مفعول ثانٍ لفِعْلِ الجَعْلِ المُسْنَدِ إلى ضمير الاسْمِ الموصول الواقع صفةً لـ ﴿رَبِّكَ﴾، وجيء به نكرةً لِما يُفيدُه

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 393.

التَّنكير مِنَ العُموم والشُّمول الدّالِّ على شمول الغُثائيَّة كُلَّ الزُّروع والنَّباتات إلّا ما نَدَر، ويجوزُ أن يكون الغَرَضُ مِن التَّنكير هو الهوان والتَّحقير، الدّالُّ على انعدام الفائدةِ والأهَمّيَّة.

موقع ﴿أَحۡوَىٰ﴾ ودلالتُه:

الماءُ والهواءُ مِن أسبابِ تَحوُّل الألوانِ إلى السَّواد

الـ ﴿أَحۡوَىٰ﴾ هو الذي يَضْرِبُ إلى السَّواد إذا أصابَتْهُ رُطوبَةٌ، ويجوزُ أن يكون في موقعِ الصِّفة لـ ﴿غُثَآءً﴾، والمعنى: صار بعدَ الخُضْرَة يابسًا فتَغَيَّر إلى السَّواد، وسببُ ذلك السَّواد: أنَّ العشب إنَّما يجفُّ عند استيلاء البَرْدِ على الهواء، ومِن شأن البُرودَة أنَّها تُبَيِّض الرّطب وتُسَوِّده[1]؛ أي: أنَّه أسودَّ من شدَّة يُبْسِه، فحوتْهُ الرّياح وجَمَعَتْهُ من كلِّ أوْب، حَيْثُ تَفَتَّتَ، فكلٌّ مِن الكَلِمَتَيْن فيها حياةٌ وموتٌ[2]، ويجوزُ أن يكونَ ﴿أَحۡوَىٰ﴾ حالا من ﴿ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾ أي: أخرجه أسودَ من شدّة الخُضْرَة، فجعله غثاءً بعد حوته، فيكون في الكلام تقديمٌ وتأخير، وحَسَّنَ تأخيرَ ﴿أَحۡوَىٰ﴾ مُراعاةُ الفَواصل؛ لكنَّ الأوَّل هو الأظهر، وبه قال ابنُ عبّاس رضي الله عنهما[3].

بلاغَةُ الاستعارةِ:

حالُ القُرآن مع النّاسِ كحال الغَيْثِ معَ الأرض

في وصْفِ إخراج اللّه تَعالى المَرْعى وجَعْلِه غُثاء أحْوى مع ما سبَقَهُ مِنَ الأوصافِ في سياقِ المُناسبَة بينَها وبَيْنَ الغَرَضِ المَسوق له الكلامُ؛ إيماءٌ إلى تمثيلِ حالِ القرآن وهدايته وما اشتمل عليه مِن الشَّريعة التي تَنْفَعُ النّاس بحال الغَيث الذي ينبت به المرعى فتَنْتَفِع به الدَّوابُّ والأنعام، وإلى أنَّ هذه الشَّريعة تكمل ويبلغ ما أراد اللّه تَعالى فيها كما يكمل المرعى ويبلغ نُضْجُه حينَ يَصيرَ غُثاءً أحْوى، على طريقة تمثيليَّة مكنيَّة، رمز إليها بذِكْرِ لازم الغَيْثِ وهو المرعى، وقد جاء بيان هذا الإيماء وتفصيله في قول النَّبيِّ ﷺ: «مَثَلُ ما بَعَثَني اللّه به مِنَ الهُدَى

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 129.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 393.

(3) أبو حيّان، البحر المُحيط: 10/ 456.

والعِلْم، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثيرِ أصابَ أرْضًا، فكانَ مِنْها نَقيَّةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأنْبَتَتِ الكَلَأ والعُشْبَ الكَثيرَ، وكانَتْ مِنْها أجادِبُ، أمْسَكَتِ الماءَ، فنَفَعَ اللّه بها النّاسَ، فشَرِبوا وسَقَوْا وزَرَعوا...»[1] الحديث[2].

❁ الفُروقُ المعجميّة:

التَّسوية والتَّعديل:

التَّسوية هيَ: صُنْعُ الشَّيء سويًّا؛ أي: إكمال حالِه، أمّا التَّعديل؛ فهو جَعْلُ الشَّيء مُعتدلًا سَوِيَّ الخَلْقِ، كما يُقال هذا مُعَدَّل[3]، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ [الانفطار: 7]، ولمّا كان التَّعبير وارِدًا في سياقِ بيان أسباب الأمْرِ بتَنْزيهِ اللّه تَعالى وتمجيده ناسَبَ التَّعبير بفعل التَّسوية في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾؛ لِما في التَّسوية مِن إعجاز دالٍّ على كمال القُدرة على البعث؛ ولكونها المرحلةَ السّابقة للتَّعديل، والأساس لحصوله، والتي لولاها لَم يَحْصُل.

التَّسوية هي المرحلَةُ السّابقة للتَّعديل، والأساس لحُصولِه

الغُثاء واليابس والقاحِل:

الغُثاءُ هوَ الشَّيءُ الهشُّ الفاسد عديم النَّفع، واليابِس: هو الحطَب الذي كان رَطْبًا ثُمَّ يَبِس[4]، والقاحل: هو الشَّيء اليابس الجافُّ[5]، ولمّا كان التَّعبير واردًا في سياق الحديث عن قُدْرَةِ اللّه تعالى على البَعْث؛ ناسَبَ الاستشهاد بالمرعى الذي يُمَثِّل صورة مُتكرِّرة لهذه القُدْرَة، كما ناسب التَّعبير بمُفردة الغثاء، التي تُمَثِّل قمَّة مراحلِ انْعِدام النَّفع وذُروتِها، أمّا غيرُها فليسَ كذلك، والقصدُ مِن التَّعبير بيانُ قُدْرَةِ اللّه تعالى على إحياءِ الإنسان بَعْدَ أن يَصيرَ جيفةً لا قيمَةَ لَها.

اللّه تعالى قادرٌ على إحياء الإنسان بعْدَ أن يَصير جيفَةً لا قيمةَ لها

(1) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (79)، ومُسلم في صحيحه، برقم: (2282).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 30/ 278.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوى).
(4) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 5/ 377.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قحل).

المحتويات

